نعوم شقير

تاريخ السودان

تحقيق وتقديم

الدكتور محمد ابراهيم أبو سليم

دار الجيل

بيروت

١

من البداية إلى ص ٢١١

(٢٠٥ ط ١)
مكتبة تيمور باشا مطبوعات

دلائل المستهدي الى بيان المهدي والمتمهدي

سيرة الزبير باشا: ١١٨ص - ٨٩ص

طبعة جديدة
١٩٨١

مقدمـــة

ولد نعوم شقير، مؤلف هذا السفر الجليل، بشويفات لبنان في أواسط ١٨٦٣ ثم انتقل الى مصر وعمره دون العشرين ليلتحق بخدمة الحكومة كاتباً . وبعد قليل من الزمان التحق بالمخابرات الحربية المصرية وعمل بقسم التاريخ والذي تولى رئاسته فيما بعد. وقد ظل نعوم في خدمة المخابرات حتى توفى بالقاهرة في ١٩٢٢ .

ومن خلال عمله بالمخابرات تسنى له أن يقف على أخبار السودان التي كانت ترصده المخابرات وعلى التقارير التي وضعها رجالها . وقد تسنى له أيضاً أن يجمع الأخبار من الوافدين إلى مصر من السودانيين ومن الضباط والعساكر والموظفين والتجار والأعيان ممن اشتركوا في حوادث السودان أو كانوا على علم بها . وكان من أبرز هؤلاء الزبير باشا رحمه، وعبد القادر حلمي وابراهيم باشا فوزي . وبعد سقوط أم درمان قابل كثيراً من أمراء المهدية وأعيانها وجمـع منهم بيانات مستفيضة . ثم انه جمع بيانات كثيرة عن ممالك السودان من رواة الأخبار وحفظة التاريخ من أمثال الشيخ الطيب الذي كان مرجعه الأساسي فيما كتب عن سلطنة الفور . وقد كان على صلة بالكتب التي صدرت بتشجيع المخابرات، مثل كتاب ونجت وكتابي سلاطين اهرولدر . وقد قرأ ما تيسر له من المؤلفات التي تناولت تاريخ السودان مثل تاريخ بدج وتاريخ ملوك سنار وكتب الرحالة مثل كايو، وبعد فتح أم درمان شارك نعوم في جمع وثائق المهدية وأعد عنها تقريراً . وكان من قبل قد وقف على الوثائق التي غنمت بعد الوقائع الحربية السابقة . ومن واقع هذه الوثائق جمع نعوم حصيلة عظيمة من المعلومات عن المهدية وحوادثها .

أضف إلى ذلك انه شارك بنفسه في بعض الوقائع مثل حملة إنقاذ غردون والحملة على طوكر ثم حملة الفتح . وقد نظر نعوم بعين فاحصة وسمع بأذن واعية واستوعب هذه المعلومات الواسعة ورتب، مثل ما يستوعب ويرتب العقل الآلي،

وكانت حصيلة ذلك كله هذا السفر الجليل في جغرافية السودان وتاريخه ، والذي ظل رغم توالي الزمان وتبدل الحال وتقدم الدراسات التاريخية مرجعاً لا يستغني عنه قارىء التاريخ العام وطلبة المدارس وطلاب التاريخ في الجامعات .

لقد جمع نعوم معلوماته بأمانة وصدق ثم أعطاها في هـــذا الكتاب بأمانة وصدق أيضاً . ولكثرة مـا أورد أضحى الكتاب خزينة للحقائق التاريخية . ومن الواضح ان نعوماً كان يتجه بعاطفته اتجاه المخابرات التي عمل بها ، وقد ظهر أثر ذلك في تعليقات هامشية هنا وهنا وفي اطرائه لبعض رجـــال الحكومة واتخاذه مواقعهم وإشاراته المعادية للمهدية ورجالها في مواضع كثيرة . غير ان ذلك لم يؤثر فيما يقدم من معلومات أو تقنين للحوادث . ولم يبخل نعوم في أن يعطي الخصم حقه وان كان مقتضباً في ذلك .

وانـا قد نظرنا في هذا السفر بغية نشره ورأينا أن نستبعد الجزء الاول منه، وهو ما كان خاصاً بجغرافية السودان . والطرف الأخير من الجزء الثالث ، وهو ما يختص بأوائل العهد الثنائي . ان أغلب معلومات الجزء الاول أضحت عتيقة أو أضحت من قبيل المعلومات العامة ، بعضها يتصل بأمور صرنا نملك عنها ما هو أحسن وأوفى ممـا كتب نعوم ، وبعضها كتب لفائدة السائحين ولا فائدة منها اليوم لهم أو لغيرهم ، وما جاء في هذا الجزء والطرف الذي أسقطناه من الجزء الثالث عن العهد الثنائي لا يفيد كثيراً لأنه كتب في السنة الثالثة أو الرابعة لهذا العهد ، وأغلب ما فيه تعيينات وزيارات وخطب لبعض القادة .

وهكذا يبقى من الكتاب الجزء الخاص بالتاريخ من أقدم العصور حتى نهاية المهدية .

ثم انا نظرنا في نصوص السفر ملياً وصححنا ما وقع فيه من أخطاء مطبعية ، سواء كان في الطبعة الأولى أو الطبعتين البيروتية .

ومع أننا التزمنا بأن نكون متباعدين متحايدين فلا نلون آراء نعوم بآرائنا أو نكون بينه وبين القارىء فاننا أوردنا في نهاية السفر جملة من التعليقات لتصويب أخطاء وقع فيها من واقع الحقائق ، لا من دافع الرأي والاتجاه ، أو لتنوير القارىء بما استجد بعد نعوم من آراء حول بعض المسائل . وهي تعليقات ، على أي حال ، قليلة . وقد أبقينا على بعض تعليقات لنعوم أوردها في نهاية سفره مـع المحافظة الدقيقة على نصوصها . وهي ترد مع تعليقات في آخر الكتاب ، وقـد ذكرنا في آخرها عبارة المؤلف دلالة على ان هذا تعليق من المؤلف .

ومن الواضح اننا ألغينا تجزئة الكتاب وجعلناه سفراً واحداً يشمل تاريخ السودان من قديمه الى حديثه . كذلك أبقينا على الفهارس . وهي ضرورة في كتاب كبير كهذا .

وبعد ، فأنا نرجو أن نكون قد أسهمنا في خدمة تاريخ السودان بالمساهمة في إصدار طبعة جديدة لتاريخ نعوم شقير .

والله الموفق ...

د. محمد ابراهيم ابو سليم

الباب الأول

في

تاريخ ايثيوبيا

« وهو تاريخ البلاد منذ عهد الدولة المصرية السادسة سنة ٣٧٠٣ ق م الى دخول النصرانية لبلاد النوبة سنة ٥٤٥ ب م »

الفصل الاول

في

تاريخ ايثيوبيا قبل انتظام ملكها

« وذلك منذ عهد الدولة المصرية السادسة سنة ٣٧٠٣ ق . م . الى بدء الدولة الثامنة عشرة سنة ١٦٠٠ ق . م . »

حدودها : امتدت مملكة ايثيوبيا قديماً من الشلال الاول عند اسوان الى أقاصي الحبشة شمالاً وجنوباً ومن سواكن ومصوع على البحر الاحمر الى صحراء ليبيا شرقاً وغرباً وهي تشمل بلاد الحبشة ومعظم بلاد السودان .

اسمها : وقد عرفت ايثيوبيا في الآثار المصرية كما عرفت في التوراة باسم « كوش » . اما ايثيوبيا فهو الاسم الذي أطلقه اليونان على جميع بلاد السود والشديدي السمرة ومعناه الوجه الاسود او المحرّق فهو على اطلاقه يشمل بلاد السودان والحبشة والعرب إلا انه نُخصّ بالبلاد التي فيها كلامنا .

سكانها : واول من سكن هذه البلاد فيما نعلم « السود » وقد اختلفت العلماء في أصلهم فمن قائل انهم نشأوا في القارة وتشعبوا فيها قبائل شتى على ما نراهم اليوم ومن قائل انهم هاجروا اليها من آسيا عن طريق البحر الاحمر

قالوا وما كانوا سوداً بل كانوا بيضاً فسوّدتهم حرارة الشمس وطبيعة القارة على توالي الأجيال كما قال ابن سينا في ارجوزته الطبية :

في الزنج حرّ غيّر الاجسادا   حتى كسا جلودها سوادا
والصقلب اكتسبت البياضا   حتى غدت جلودها بضاضا

وأصحاب هذا الرأي لا يعيّنون تاريخ مهاجرة السود الى افريقية او ربما اضطروا الى القول بمهاجرتهم اليها من عهد بعيد قبل التاريخ لأنهم يختلفون في أصلهم اختلافاً كلياً عن جميع السكان الذين هاجروا الى افريقية بعد التاريخ .

ثم ان اولاد « كوش » بن حام هاجروا الى افريقية بعد الطوفان فاستولوا عليها فسميت باسمهم كما مر . ومهما يكن من اصل الايثيوبيين الاولين فالثابت المقطوع به في التاريخ ان سكان البلاد التي جنوبي الشلال الاول كانوا منذ اول عهد التاريخ كما هو اليوم مختلفي الاجناس عن سكان البلاد التي الى شماليه .

وكان الايثيوبيون في اول امرهم قبائل شتى لا تجمعهم كلمة ولا تربطهم جامعة دأبهم الانشقاق وشن الغارات بعضهم على بعض كبادية هذه الايام . ومن هذه القبائل المدوّنة أسماؤها على الآثار المصرية .

«الأوايو» « Uauaiu » وقد سكنوا الصحراء الشرقية حيث العبابدة الآن.

« والمازايو » « Mazaiu » وقد سكنوا جنوبيهم الى طريق بربر فسواكن.

« والبوانيت » « Puanit » وقد أقاموا بين طريق بربر فسواكن وجبال الحبشة .

« والدنقس » « Dangas » وهم أقزام الى جنوبي البوانيت وقد سميت بلادهم ببر الاظلال « Land of the Shades » التي عُدّت حينئذ آخر المعمور حيث الأحياء تلامس الأنفس المفارقة الإجسام وهي البلاد المعروفة باسم « نجباي » بين الحبشة وزنجبار وقد كانوا في حرب دائمة مع الأحباش ولا يزالون كذلك الى اليوم .

هذا ويستدل من الآثار ان قبائل الصحراء المجاورة لمصر كانوا كما هم في هذا المهد يخالطون الحضر على النيل فيأتون من صحرائهم بالمواشي وخشب

السنط والفحم والصمغ والصيد وجلود الحيوانات والحجارة الكريمة ويقايضون منها الأقوات والأنسجة . وكان المصريون يسالمونهم لمنع تعدياتهم والانتفاع بتجارتهم ويجعلون لمشايخهم جعلاً معلوماً يجرونه عليهم في كل سنة فيتعهدون بحماية الطرق وحفظ الأمن ولكنهم ما كانوا يقيمون طويلاً على العهد اذ كان خصب وادي النيل يغريهم فيغزونه من وقت الى آخر فينهبون ويسلبون ويعودون بالنهب والاسلاب الى صحرائهم . وكان المصريون ايضاً كلما فرغوا من حروبهم في الشمال يبعثون بالسرايا الى تلك الصحراء وغيرها من بلاد ايثيوبيا فيسبون ويغنمون من خيراتها ومعادنها ويعودون الى مصر فيدوّنون أخبار غزواتهم على جدران هياكلهم ومدافنهم كما يشاهد في الآثار المصرية الباقية الى الآن .

بدء تاريخها : واول من غزا ايثيوبيا فيما نعلم الملك ببي الاول ثاني ملوك الدولة المصرية السادسة (سنة ٣٧٠٣ : ٣٥٠٠ ق . م) فانه أرسل قائده أونا « Una » الى جهات كورسكو ليجمع بعض انواع الخشب فساعدته قبائل تلك الجهات على جمعه وأقروا للملك ببي بالطاعة .

وأرسل الملك متوسوفيس وهو الملك الثاني عشر من ملوك هذه الدولة القائد هرخف لغزو بلاد البوانيت فعاد بغنائم البخور والابنوس والعاج والجلود حمّلها على ٣٠٠ حمار وأحضر معه قزماً من الدنقس أتى به من بر الاظلال وكان الملوك المصريون يُسرّون بقنية الأقزام في قصورهم لأنهم كانوا على زعمهم يحسنون رقص الآلهة فلما وصل هرخف بالقزم الى ارض مصر كان الملك متوسوفيس قد مات وخلفه اخوه ببي الثاني فسُرّ بخبر القزم وكتب الى هرخف يأمره بإحضاره الى ممفيس وهذا نصّ الكتاب : « واصحب معك في المركب بعض الخفراء لحراسته لئلا يقع في الماء او يفلت في الليل لأني أسرّ برؤية القزم اكثر من سائر الغنائم التي أتيت بها من بلاد البوانيت » . فحفر هرخف هذا الكتاب مع خبر غزوته على واجهة قبره في جزيرة الفنتين تجاه اسوان .

ثم لا نعلم شيئاً يُذكر بين مصر وايثيوبيا الى ايام الدولة المصرية الثانية

عشرة (٣٠٦٤ : ٢٨٥١ ق . م) إذ نرى اوسرتسن الاول ثاني ملوك هـذه الدولة قد عقد لقائده هونو « Huno » وأرسله الى بلاد البوانيت بطريق قفط والقُصير لجمع الجزية من أمراء تلك البلاد. فعند وصوله الى القصير بنى مراكب كبيرة وسار بهـا في البحر الاحمر حتى وصل بلاد البوانيت فجمع الجزية من البخور وغيره من محاصيل تلك البلاد وعاد الى مصر .

وجرّد هذا الملك حملة على ايثيوبيا بطريق النيل فمدّ حدود مصر جنوباً الى الشلال الثاني . وقد وُجد حجر في هيكل تجاه حلفـا نُقل الى فلورنسا بإيطاليا وعليه صورة هذا الملك وبجانبها صور مشايخ القبـائل الثمانية الذين تغلب عليهم في هذه الحملة ومشايخ السود الذين تغلب عليهم في بداءة ملكه .

ثم جاء اوسرتسن الثالث خامس ملوك هذه الدولة فمدّ حدود مصر جنوباً الى شلال سمنه وبنى عنده هيكلاً لا تزال آثاره باقيـة الى اليوم . وقد وُجد هناك حجران جُعلا الحد الجنوبي لمصر مكتوباً على الواحد منها مـا نصّه : « هذا حد مصر الجنوبي الذي عُيّن في السنة الثامنة من حكم الملك اوسرتسن الثالث المخلد الذكر فلا يجوز لأحد من السود ان يتعداه إلا في سفن تقلُّ البقر والمعزى والحمير من بلاده » وعلى الحجر الثاني ما يُفهم منه ان الملك المذكور وضع هـذا الحجر في السنة السادسة عشرة من ملكه فجعله حداً فاصلاً بين مصر وايثيوبيا وانه أمر ان ينصب تمثاله في تلك الجهة فكان كما أمر . وترى في معتوقه في جنوب الشلال الثاني طابية من آثاره .

وفي الجزيرة ارقو تماثيل وخرائب من ايام الدولة المصرية الثـالثة عشرة (سنة ٢٨٥١ : ٢٣٩٨ ق . م) .

واما الدولة الرابعة عشرة (سنة ٢٣٩٨ : ٢٢١٤ ق . م) فلا نعلم شيئاً من أمر ايثيوبيا في أيامها .

وفي بدء الدولة الخامسة عشرة هاجم مصر الرعاة العمالقة من آسيا الجنوبية فتغلبوا عليها وملكوها ستماية سنة ونيفاً فكان منهم الدول المصرية ١٥ و ١٦ و ١٧ (٢٢١٤ : ١٦٠٠ ق . م) وكان المصريون يكرهونهم لأنهم غرباء فلم ينفك أبناء الملوك القدماء عن إثارة الفتن فشغلوهم عن ايثيوبيـا . وهاجر في عهدهم كثير من المصريين الى ايثيوبيا فراراً من ظلمهم فأسّسوا عدة مهـاجر أهمها مهجر ارقو الذي لا تزال آثاره ظاهرة الى اليوم .

الفصل الثاني

في

مملكة نبتة

« وهو تاريخ ايثيوبيا منذ بدء الدولة الثامنة عشرة سنة ١٦٠٠ ق. م. الى نهاية الدولة الخامسة والعشرين من الدول المصرية سنة ٦٦٤ ق. م. »

ثم ان هؤلاء المصريين الذين هاجروا الى ايثيوبيا أخذوا معهم من جميع أنواع الفنون والصنائع المصرية فحسن بذلك حال الايثيوبيين وتدرجوا في سلم المدنية والعمران حتى انــه لم تكن الدولة المصرية الثامنة عشرة (١٦٠٠ : ١٣٨٠ ق. م.) إلا رأيناهم مملكة منظمة وعليهم ملك منهم بل لم يتم المُلك لأحمس اول ملوك الدولة الثـامنة عشرة المذكورة إلا بمعونة ملك ايثيوبيا الذي زوّجه ابنته وظافره على طرد الرعاة من مصر وإعادة الاستقلال اليها . ويظهر ان هذا المُلك الذي انتظم للايثيوبيين كانت عاصمته منذ نشأته مدينة نبته عند جبل البرقل بقرب مروى المعروف في الهيروغليف بالجبل المقدس .

ودامت العلاقـات الودية بين مصر وايثيوبيا الى حكم تحوتمس الاول ثالث ملوك هذه الدولة فانه غزا الايثيوبيين وانتصر عليهم وولى على البلاد التي فتحها امراء مصريين لادارة شؤونها وضبط أحكامها ولقّب كلا منهم بأمير ايثيوبيا

الملوكي وقد دوّن خبر انتصاره هذا على صخرة في جزيرة طنبس عند الشلال الثـــاني .

وخرج السود في شاطىء النيـل الأعلى على تحوتمس الثالث (سادس ملوك هذه الدولة) فحمل عليهم بجيشه ففرّ أكثرهم الى الجبال فأمر بنهب مواشيهم وأموالهم من ذهب وآنية معدنية وريش نعـام وغير ذلك وهدم مسـاكنهم وأحرقها وعاد بالغنائم الى مصر. ولهذا الملك هيكل قائم الى الآن تجاه حلفا نقش على جدرانه تاريخ انتصاراته على الليبيين والفينيقيين وغيرهم . وكان قد شرع في بناء هيكل بعمّدة فأتمه خلفه امنحتب الثاني ولا تزال آثاره الى اليوم وعليه كتابة تدل على ان هذا الملك أسر سبعة من ملوك الاموريين في تاخيس « Takis » من بـلاد الشام فأرسلهم في الذهبية الملوكية الى ثيبة (الاقصر) فعلق ستة منهم على سور المدينة وأرسل السابع الى نبته عاصمة ايثيوبيا فعلقه هناك ليوقع الرعب في قلوب قبائل السود كافة. وهذا اول عهدنا بمدينة نبته.

وغزا امنحتب الثالث (المعروف ايضاً بأمنوفيس الثالث تاسع ملوك هذه الدولة) ايثيوبيا في السنة الخامسة من ملكه فانتصر عليهـا انتصاراً عظيماً ودوّن ذلك على صخرة بقرب جزيرة فيلي في جنوب الشلال الاول المعروفـة الآن بجزيرة أنس الوجود . وعلى بعض الصخور بسمنه كتابة تدل على انـــه توغل بجيوشه في ايثيوبيا وأسر من أهلها ٧٤٠ نفساً من ذكور واناث وأطفال وقطع ٣١٢ يداً أحضرها معه بعد الغزوة . وبنى هيكلا في عاصمة نبته وضع امام بابه صفين من الكباش الرابضة على هيئـة أبي الهول . وفي صُلب آثار هيكل من بناء هذا الملك وخلفه الملك امنحتب الرابع .

وغزا حورمحب آخر ملوك هذه الدولة الايثيوبيين فانتصر عليهم ورجـع بالغنائم والأسرى ودوّن خبر انتصاره على الغار الكبير في جبل السلسلة شمالي اسوان حيث ترى صورته على شكل مقاتل حامل على كتفه فأساً كأنه يلتمس من الاله « آمن رع » دوام حياتــه وتأييد نصرته على اهل الجنوب وكأن « آمن رع » قد اجاب دعوته فانتصر وعاد من غزوته راكباً هودجاً نفيساً

ومعه بعض رجاله وامامه الخدم يمهدون له الطريق وخلفه الفرسان يقودون الأسارى ويليهم العساكر حاملين التروس والموسيقى العسكرية تصدح أمامهم ثم يأتي بعدهم جم غفير من الكهنة وأرباب المناصب الملكية لاستقبال الملك قائلين في مدحه « لقد قدم المقدّس الفاضل بعد ان قهر كبار الامم أجمع وقوسه تلمع في يده فحبذا هذا الملك القادر الفخيم الذي جاء برؤساء ايثيوبيا الأذلاء الأدنياء الأصل وجلب الغنائم بقوته العالية كا أمره آمن رع فنعمت هذه النصرة الباهرة » وترى الأسارى يصيحون قائلين « يا ملك مصر وجّه نظرك الينا وأعتنا فأنت شمس الشعوب التسعة وقد اشتهر اسمك وبلغ أقصى ايثيوبيا فزع حربك وملأ قلوب الامم رعبك وانت في مكانك مقيم فانك شمسنا » .

وكان هذا الملك يأخذ الجزية من السود من فضة وذهب وأبنوس كا تشهد بذلك نقوش مقبرة الكرنك . هذا ما كان من العائلة الثامنة عشرة المصرية مع ايثيوبيا .

وقد رأيت في بعض التواريخ القديمة ان الايثيوبيين غزوا مصر في ايام موسى النبي واكتسحوا البلاد الى ممفيس فاستشار المصريون آلهتهم في شأن الايثيوبيين فأوحت اليهم ان يجندوا جيشاً ويعقدوا لواءه لرجل من العبرانيين فاختاروا موسى قائداً على جيشهم وأطلقوا له الحرية ليفعل ما يشاء لردع الايثيوبيين فزحف موسى بالجيش على عاصمة ايثيوبيا ولم يتخذ طريق النيل كا انتظر الايثيوبيون بل سار بطريق الصحراء قيل وكان في طريقه ارض تموج بالحيات فأخذ معه في أقفاص من البيبروس عدداً من طيور « ابي منجل » المصرية التي تصيد الحيات فلما وصل الى تلك الارض أفلتها من الاقفاص فأهلكت جميع الحيات وفتحت الطريق للجيش فأطبق موسى على الايثيوبيين مفاجئاً لهم فانهزموا شر إنهزام الى عاصمتهم الحصينة فحصرهم فيها وكانوا يخرجون اليه ويناجزونه فيردهم على أعقابهم خاسرين وكانت ابنة ملك ايثيوبيا في قصرها تشاهد القتال فأعجبتها بسالة موسى فوقع حبه في قلبها وعشقته

فأسرّت بذلك الى بعض رجالها الذين كانت تثق بهم وقالت لهم : اذهبوا الى موسى واخبروه بأني أسلمه المدينة بشرط انه يتخذني زوجة له فأجاب موسى الى طلبها ودخل المدينة وتزوج بها . قلت وهذه من القصص التقليدية الخرافية التي لا دليل على صحتها .

ثم كانت الدولة المصرية التاسعة عشرة (سنة ١٣٨٠ : ١٢٣٠ ق . م) فكان لها من الشأن مع ايثيوبيا ما كان للعائلة التي قبلها وأعظم فغزا ملوكها ايثيوبيا وتغلبوا عليها وأقاموا الحكام لإدارتها وبنوا فيها الهياكل التي لا تزال شاهدة بسطوتهم الى اليوم .

وأشهر ملوك هذه الدولة الذي كان له أعظم الشأن مع ايثيوبيا رعمسيس الثاني ثاني ملوكها (١٣٤٨ : ١٢٨١ ق . م) فانه غزا الايثيوبيين وانتصر عليهم وأقام في تلس (كلابشة) هيكلا صغيراً نادر المثال حفره في الصخر تذكاراً لنصرته ولا يزال باقياً الى اليوم ويُعرف عند اهل كلابشة ببيت الولي وهو من أثمن الآثار القديمة في مصر وايثيوبيا وعلى جدرانه نقوش صور وكتابات من أبدع صنع فترى فيها رعمسيس الثاني راكباً عربة تجرها جياد الخيل وهي تنهب الارض نهباً وهو يطلق سهامه على جيوش العدو غير المنظمة فينهزمون امامه الى الغابات . ثم ترى رئيساً من الايثيوبيين مجروحاً يحمله رجاله الى بيته وواحداً من اولاده يحثو التراب على رأسه حزناً عليه وآخر يركض ليخبر والدته وهي تطبخ على نار موقدة في الارض . ثم ترى رعمسيس جالساً تحت مظلته الملوكية والايثيوبيين الذين تغلب عليهم وفي مقدمتهم أمير كوش (المسمى امينابت) يقدمون له الهدايا من خواتم وأكياس الذهب وجلود الفهد وعروش فخيمة ومراوح وسن الفيل وبيض النعام وغيرها . ثم يتقدم وفد من الايثيوبيين ومعهم أسد وثيران وغزلان ثم ترى جماعة من الرؤساء المصريين يتبعهم امير كوش وبعض الايثيوبيين آتين بهدايا من النبات والجلود والقرود وظريف المعاني Camel Opard وغيرها من الحيوانات .

ولرعمسيس الثاني هيكل آخر منحوت في صخر في الدر أقامه لعبادة

الاله آمن رع ذكر فيه ايضاً انتصاره على الايثيوبيين . وله هيكل من الحجر الرملي الصلب في السبوع وعليه صورته يقدم البخور للاله آمن وهو يقول له « لك اعطي كل القوة واعطيك العالم بسلام » وفي اسفل جدران بعض الغرف أسماء اولاد رعميس وعددهم ١٧٨ نفساً. ومن أعماله انه جدد استخراج الذهب والزمرد من معدنيها في وادي العلاقي المعروف قديماً باسم اكيتا Akita الذي ينتهي عند النيل بكوبان تجاه دَكّا . وهناك آثار قلعة يظن انها من عهد رعمسيس الثاني وان القدماء كانوا يذهبون منها الى ذلك الوادي .

ومن بناء رعمسيس الثاني هيكل « ابو سمبل » على ١٧٠ ميلاً من الشلال الاول وهو هيكل عظيم منحوت في الصخر في منحدر أكمة مرتفعة فوق النيل اقامه تذكاراً لانتصاره على الحثيين في الشمال الشرقي من سورية وهو اعظم الهياكل في ايثيوبية الشمالية واجملها بل في صنعه ونحته من العظمة مع البساطة ما لا يوجد في غيره من هياكل وادي النيل كلها. وفي واجهته ثلاثة تماثيل هائلة لرعمسيس الثاني تمثله جالساً ويداه على ركبتيه والتاج على رأسه وعلوّ الواحد منها ٦٦ قدماً وطول قدمه ١٥ قدماً وطول اذنه ٣ اقدام و٥ قراريط وكلها منحوتة في الصخر . وفي داخل الهيكل أعمدة من الصخر نفسه علو الواحد منها ١٧ قدماً . وفي صدره مذبح فيه تمثال هرمخيس « Son God » ورعميس الثاني امامه يقدم له الطاعة وهناك صورة آمن رع وثوث وغيرهما من الآلهة وأسماء اولاد رعمسيس . وعلى جدران الغرف كتابات بالهيروغليفية تبين تاريخ انتصاره على الحثيين والكوشيين اي الايثيوبيين وهناك صور الأمم الافريقية والأسيوية التي تغلب عليها وأمير كوش واقف أمامه . ولرعمسيس الثاني هيكل في نبتة باقية آثاره الى الآن وهو أقدم هياكل تلك المدينة .

هذا وفي جزيرة ساي خرائب من عهد هذه الدولة والدولة التي تقدمتها .

ودامت سلطة مصر على ايثيوبيا الى عهد الدولة العشرين (١٢٣٠ : ١١١٠ ق.م) فقد وجد ماريوت سنة ١٨٧٦ حجراً في شونة الزبيب بالعرابة المدفونة بمصر مكتوباً عليه ما نصه : « ان الملك رعمسيس الثاني عشر (وهو

آخر ملوك هذه الدولة) أصدر أمره الى « بيانخاس » حاكم الايثيوبيا ورئيس الأمم الاجنبية التابعة للدولة المصرية يقول له فيه : « أنفذت اليك مستشاري الرئيس ياني بكتاب ضمّنته أوامري فعند وصوله اليك ساعده على إنجازها بالحسنى لأنه هو المكلف بإتمامها وعليك ان تلاحظ توابيت «المعبودة» وتضعها في سفينة وتأتي بها معه الى المكان الذي أعدّ لها واحضر معك الحجارة النفيسة للصناع واحذر من التأخير في إنجاز هذه الأوامر وإلا خلعتك وعاملتك بحسب ما يصل إليّ من أخبارك » .

وبعد هذا العهد اشتغلت مصر عن ايثيوبيا بالفتن الداخلية والحروب مع آسيا . وحدث ان احد ملوك الدولة الحادية والعشرين (١١١٠ : ٩٨٠ ق.م) المسمى سمنتوميامون نفى بعض الكهنة المصريين الى ايثيوبيا فأدخلوا عبادة الإله « آمن » الى نبتة وقوّوا الايثيوبيين فخرجوا عن طاعة مصر واستقلوا تحت حكم كاهن منهم. ومن ذلك الوقت أخذ نجم ايثيوبيا في الظهور والارتفاع حتى علا على نجم مصر. ففي آخر ايام الدولة الثانية والعشرين (٩٨٠:٨١٠ق.م) هاجم الايثيوبيون مصر وفي آخر ايام الدولة الثالثة والعشرين (٨١٠ : ٧٢١ ق . م) استولوا على صعيدها .

وكانت مصر في هذه الأثناء قد انقسمت الى عشرين ولاية بعضها مستقل عن بعض وعلى كل ولاية أمير فتغلب الملك تفنخت اول ملوك العائلة الرابعة والعشرين (٧٢١ : ٧١٥ ق . م) عليها كلها وجعلها مملكة واحدة وزحف على الوجه القبلي يحاول استرجاعه من الايثيوبيين حتى وصل الى اهناس الجنوبية .

الملك بعنخي : وكان على الايثيوبيين في ذلك العهد ملك قادر يسمى بعنخي مقيم في نبتة عاصمة ايثيوبيا فجرد عليه جيشاً جراراً وقاتله في عدة وقائع حتى انتصر عليه ونقش خبر نصرته هذه على حجر وُجد في نبتة ونُقل منها الى متحف الجيزة بمصر وهذا ملخص ترجمته عن العقد الفريد عن ده روجه ببعض التصرف :

« في غرة توت من السنة الحـــادية والعشرين من حكم ملك الوجه القبلي والبحري « بعنخى ميامون» خلد ذكره صدر أمره بما نصه : اسمعوا ما فعلته زيادة عن أجدادي انا الملك الخارج من سلالة مقدسة النائب عن المعبود «توم» المميز بشارة الملك منذ الصغر انا المقدس الطيب حبيب المعبودات ابن الشمس « بعنخى ميامون » بلغني ان الامير تفنخت استولى على مدينة منف وغيرها من المدن المصرية الشمالية وسار نحو الجنوب بجيش جرار فأطاعته الأمراء وأعيان البلاد وصاروا تحت رجليه أذلة كالكلاب حتى وصل الى اهنـــاس الجنوبية فحصرها حصاراً شديداً ومنع أهلها من الدخول والخروج ودام على قتالها حتى فتحها . وكان الأمراء يبعثون إليّ بالرسل يسألون عن سبب قعودي عن تفنخت وعدم المدافعة عن الوجه القبلي وقالوا ان النمروذ رئيس الاشمونيين هدم حصون نفروس ودمرها مخافة ان يأخذها تفنخت والتجأ الى مدينـة اخرى فاقتفى تفنخت أثره فاضطر الى الخروج عن حزبي والانضمام اليه فغمره بأنعامه وأعطاه اهناس الجنوبية . فعند ذلك أرسلت الى قوادي الذين في ثينة وغيرها من بلاد مصر ان يستعدوا لقتـاله ويسلبوا مواشيه وسفنه التي في النيل ويمنعوا العمال من الخروج الى الحقول ويحاصروا مدينـــة ارمنت ففعلوا وأمددتهم بالجيوش وقلت لهم : لا تهاجموه ليـلا هجوم الخادعين بل هاجموه متى رأيتم انه أعدّ جيوشه وخيوله وسار لقتالكم واذا قيل لكم انه يجمع مشاته وفرسانه في مدينة اخرى ويستعد للهجوم عليكم فاثبتوا في مكانكم الى ان يأتيكم فحاربوه مستبسلين واعلموا ان المعبود «آمن» هو الذي أرسلنا اليهم ولا بدّ ان ينصرنا عليهم . واذا وصلتم الى ثينه فانزلوا في النيل وطهروا أنفسكم بمائه والبسوا ملابس الأعياد وضعوا عنكم القسي والسهام ولا يتعرّض احد منكم « لآمن » صاحب الحول والطول اذ بدونه لا يكون لفارسكم قوة وهو يجبر العظم الكسير ويفني العدد الكثير وينصر الواحد على الالف فاغتسلوا بمياه معابده واسجدوا له وقولوا ثبت أقدتنا على الحق لنحارب في ظل سيفك لأن المقاتلين الذين ترسلهم يبددون الألوف . فعند ذلك خروا قائلين اسمك سيفنا

وعلمك مرشد لجيوشنا وخبزك في أجسامنا ومشروباتك تطفىء ظمأنا وشجاعتك سلاحنا والنصر مقرون باسمك وما يثبت جيش رئيسه معتد باغ فمن يشابهك أيها الملك المنصور الفعال الآمر بالحرب . ثم انحدروا في النيل الى ان وصلوا ثينة ففعلوا ما أمرهم به ملكهم . واستأنفوا السير في النيـــل فقابلتهم سفن حربية مشحونة بالملاحين والجنود والضباط الماهرين المدرّبين وقد جاءت من الوجه البحري لمحاربتهم فانتشب القتال بين الفريقين وكان النصر لجنود الملك بعنخى فقتلوا من الأعداء وأسروا وأرسلوا أسراهم أحيـاء الى بعنخى . ثم زحفوا على مدينة اهناس الجنوبيـة فاجتمع أعيان الأقسام الغربية والشرقيـة والبلاد الوسطى وحكامها واتفقوا على محاربتهم فأطبق عليهم رجـال بعنخى وأوقعوا بهم وأخذوا سفنهم وأكرهوا من سلم منهم على الفرار فعبروا النيـل الى الغرب فأقاموا في محل يدعى « بابيك » . وفي صباح اليوم الثـاني اجتاز رجال بعنخى النهر مقتفين أثرهم فأدركوهم واختلطوا بهم وقتلوا كثيراً من رجالهم وخيولهم ووقع الرعب فيمن بقي ففروا الى الوجـه البحري منهزمين شر هزيمة . ثم زحف جيش بعنخى على ارمنت فلما بلغ النمروذ خبرهم جمع رجاله وخيوله وسبقهم اليها فحصروه فيها من الجهات الاربع ومنعوا أهلها من الدخول والخروج وأرسلوا كتاباً الى الملك بعنخى يعلموه بما كان فلما قرأ كتابهم اغتاظ وتلوّن كالنمر وقال لئن ابقي جنودي على بقية جيوش الوجه البحري او مكّنوا احداً منهم من الفرار ولم يفنوهم على بكرة أبيهم فبحياتي وبحق المعبود « رع » وبحق ابي « آمن » لأقاتلنّ بنفسي وأهدمنّ جميع حصونهم وأجرمنّهم القتـال ولكن يلزمني قبل ذلك ان احتفل بموسم رأس السنة في جبل البرقل وأقدم القربان لأبي « آمن » يوم تجلّيه في ذلك العيد ثم أتوجه الى ثينة لأشاهده هناك في موسمه العظيم وبعد ذلك أتفرغ للوجه البحري فأذيقه طعم سطوتي . ولما بلغ جنوده الذين في مصر انه لم يكتف بمـا فعلوا تقدموا الى مدينة «واب» وافتتحوها وأرسلوا يخبرونه فلم يسكن غضبه . ثم هاجموا « تهنى » وكانت مدينة حصينة غاصة برجال الوجه البحري فأقاموا المتاريس

حولها وهدموا أسوارها وأوقعوا بأهلها وكان في جملة القتلى ابن تفنخت امير المشواشين فأرسلوا يخبرون ملكهم بذلك فلم يسكن غضبه . فهجموا على « حيبنو » وفتحوها عنوة وأرسلوا يبشرونه بذلك فلم يسكن غضبه .

ولما كان اليوم التاسع من شهر توت وصل بعنخي بجيوشه الى ثيبة واحتفل فيها بموسم « آمن » السنوي ثم توجه تواً الى ارمنت التي كانت لا تزال تحت الحصار وخرج من سفينته فوضع النير على خيوله وركب عرباته فانتشر الفزع في قلوب الناس الى أقصى بلاد آسيا ! ثم برز كالأسد وهجم على الأعداء وقال لهم اذا أقمتم على القتال أخرت أوامري بالعفو عنكم فيما بعد وأذقتكم مرارة سطوتي فلم يسمعوا له فوضع معسكره في الجهة الجنوبية الغربية من المدينة وشدّد عليها الحصار وأقام متاريس من تراب لتقيه مقذوفات أسوارها ونصب سلالم للارتقاء اليها وصوّب رجاله عليها السهام ورموها بحجارة المجانق ووالى الهجوم عليها ثلاثة ايام حتى أفسد هواؤها وحرم اهلها استنشاق الهواء النقي فسلمت فأرسل النمروذ رسله حاملين الذهب والحجارة النفيسة والأنسجة الفاخرة وقائلين لقد ظهر الملك وتاج الثعبان على رأسه وغيظه مكتوم ولم نلبث حتى أطعنا تاجه ثم أرسل النمروذ امرأته لترجم حرم الملك بعنخي وجواريه وبناته واخواته في العفو عنهم فسجدت امام حرم الملك في القصر قائلة أيتها النساء الكريمات حرم الملك وبناته واخواته اغثنى وسكّنّ غضب الملك صاحب القصر فما أشد سطوته واعظم عدالته ... ولما مثل النمروذ بين يدي الملك بعنخي قال له الملك: لقد سددت طريق الحيوة عن نفسك فقال النمروذ: لو صعدتُ الى السماء كالسهم لأدركتني كيف لا وقد أخضعت بلاد الجنوب وأطاعتك بلاد الشمال فهل لنا ان نستظل بظلك فقد أفنى بأسك جميع رجالنا فلا أب يُرى مع ابنه وامتلأت بلادنا بالاطفال ثم خرّ ساجداً امام جلالة الملك وقال: انا احد عبيدك الذين يدفعون الجزية لخزينتك فاحسب ما تجمع من عبيدك كلهم وخذ مني جزية تزيد على مجموع جزيتهم ثم شرع في تقديم جزيته فكانت شيئاً وافراً من الفضة والذهب واللازورد والزبرجد والحديد

والاحجار النفيسة حتى ملأ خزينة الملك وجاء بحصان في يده اليمنى وآلة موسيقية تشبه «الربابة» مصوغة من الذهب واللازورد في يده اليسرى وقدمها للملك. فخرج الملك اذ ذاك من قصره وتوجه الى معبد « هرمس » إله ارمنت فقابله عساكرها بالفرح وقال له الكهنة ما أعظم الملك بعنخي سلالة الشمس لقد جئت الى مدينتك يا حامي حمى ارمنت فاعمل لنا عيداً لقدومك . ثم جاء المدينة ودخل قصر النمروذ وطاف في غرفه وشاهد جميع خزائنه وأمر بإحضار زوجاته وبناته فأتين خاضعات لجلالته فلم يلتفت اليهن . وبعد ذلك تفقد اصطبلات القصر فوجد الخيول بلا علف فأقسم بحياته وبالإله « رع » وقال ان اجاعة خيولي هي أقبح ذنب جنيته ايها النمروذ فقال النمروذ : لا تغير قلبك بالغضب ايها الملك فاني سأخبر سيد الخدم بغضبك وأعدُّ العلف لخيولك .. هذا وقد أهدى الملك بعنخي أموال ارمنت كلها الى خزينة آمن رع ساكن ثيبة .

وجاءه ملك اهناس بهدايا من ذهب وفضة وحجارة كريمة وجياد من خيوله وسجد أمامه وقال السلام عليك أيها الملك الحاكم المنصور الثور الذي لا يبطش بالثيران لقد كنت في اعمق هاوية محاطاً بالظلمة فأخرجتني من الهاوية وقشعت عني الظلام انا عبدك ولك جميع ما أملك وها هي جزية اهل اهناس التي يقدمونها لملكهم فقبلها منه .

ثم سار بجنوده شمالاً وكان كلما مرّ بمدينة وقد اقفلت دونه ابوابها يدعوها للتسليم فتسلم له فيدخلها ويأخذ منها الجزية ولا يقتل من اهلها احداً حتى اشرف على مدينة منف (تجاه القاهرة) فأرسل الى اهلها يقول لا تقفلوا أبوابكم دوني ولا تحاربوني فاني سأدخل مدينتكم وأخرج ولا أسيء الى احد منكم بل أقدم القرابين الى « بتاح » ومعبودات منف كلها وأقيم في معبد « شيق » الصلوة الى « سوكاري » فاعتبروا بأهل الوجه القبلي فاني لم أعاقب منهم الا من طغى ولم أقتل الا من أغضب المعبود فلم يسمعوا لقوله وأغلقوا دونه أبوابهم . وجاء تفنخت من « صا الحجر » ليلاً الى منف وقال لقواده

وجنوده البرية والبحرية وكانوا ٨٠٠٠٠٠ رجل ان منف غاصّة بأعظم جنود الوجه البحري وأشوانها ملأى بالقمح والشعير وأنواع الحبوب وفيها جميع العُدَد وسورها متين وطابيتها متسعة حصينة مبنية حسب قواعد الدفاع والنهر محيط بشرقي المدينة فلا يجد العدو مكاناً يهاجمكم منه وانتم تعلمون ان مراعينا غاصة بالمواشي وخزانتي ملآنة من الفضة والذهب والنحاس والملبوسات والعطور والعسل فسأذهب وأعطي جميع ذلك لأمراء الوجه البحري فاثبتوا في حاميتكم ودافعوا عن انفسكم الى ان أعود اليكم ولما أتمّ كلامه ركب حصانه لأنه أسرع من عربته وقفل راجعاً الى الوجه البحري خوفاً من الملك بعنخى. وفي صباح اليوم الثاني اقترب الملك بعنخى من منف بقصد كشفها فوجد الماء مرتفعاً الى اسوارها وسفنها راسية على شاطئها وتأملها فرآها حصينة منيعة لها استحكام قوي وسور مرتفع حديث البناء ولم يجد فيها موضعاً يهاجمها منه فاستشار رجاله في شأنها فقالوا نجمع كثباناً من التراب مساوية لسورها وننصب عليها سلالم ونقيم المتاريس من حولها فلما سمع الملك بعنخى هذا الرأي تلوّن كالنمر وقال حياتي وحياة المعبود « رع » وابي « آمن » لأهاجمنّ هذه المدينة في الحال وآخذنها كريح عاصف ثم أمر قوّاده فأدنوا السفن والارماث ومراكب النقل من الشاطىء فلم يشعر بهم احد وأمر رجاله فأحدقوا بسورها ودخلوها من جهة النهر وكان قد أوصاهم قائلا اذا تسوّر احدكم السور فلا يقف في مكانه واذا سلم لكم احد الرؤساء فلا تقتلوه لأن هذا مذموم فعملوا بوصيته وبذلك دخل المدينة وقتل من اهلها خلقاً كثيراً وأحصى أسراها بين يديه. وفي ثاني يوم الواقعة ارسل جماعة من رجاله للمحافظة على المعابد ثم توجه بنفسه الى هيكل معبودات منف وقدم لها قرباناً من المشروبات وطهر المدينة بالنطرون والبخور وأرجع الكهنة الى أماكنهم ثم توجه الى معبد « بتاح » وتطهر في بابه ولما دخله قدّم لأبيه « بتاح رسبتيف » قرباناً عظيماً من ثيران وعجول واوزّ وغير ذلك من الاشياء النفيسة. ثم دخل قصرها الملوكي فأتاه بعض رؤساء الوجه البحري بجزيتهم راجين ان يأذن لهم في مشاهدة

أنوار وجهه فقبل منهم الجزية. وأهدى جميع خزائن منف واشوانها الى هياكل « آمن » و « بتاح » وباقي معبودات « حكا بتاح ». وفي اليوم التالي عبر النيل الى الشرق وتقرّب الى « توم » ومعبودات مدينة « أماح » بقربان من ثيران وعجول واوزّ راجياً ان يمنحوه السعادة. ثم توجه نحو المطرية فمرّ بمدينة مرتى » وقدم قرباناً لمعبوداتها وتطهر في المنبع الرطب. وغسل وجهه بماء « نو » حينما تغسل الشمس وجهها. ثم قصد « شيوكامان » وتقرّب للشمس وقت شروقها بقربان من ثيران بيض ولبن وعطور وغير ذلك من الاخشاب ذات الرائحة الذكية. ثم دخل معبد الشمس (في المطرية) وصلى مرتين وطلب له كبير الكهنة من المعبود ان يهزم أعداءه وبعد ذلك صلى الملك صلاة الباب وهي صلاة خصوصية عندهم وكسا الضريح وتبخر بالبخور وتقرب للمعبود بالمشروب وازهار « الحبَنْبن » وهي من ازهار المعبد العطرية. ثم صعد في السلم الى الطاق الكبير فرأى الشمس في ضريحها وعظّم السفينة المقدسة المعلقة في مقام « رع » و « توم » ثم أقفل الابواب وطيّنها بالابليز وختمها بالختم الملوكي وقال للكهنة لا يُسمح لأحد ان يفك ختمي ويدخل هذا المحل فخرّ الكهنة امامه ساجدين وقالوا سيبقى هذا الختم محفوظاً مباركاً ولا يصيبه أقلّ ضرر ايها الملك القادر المعظم محب المطرية. ثم دخل معبد « توم » وصلى فيه.

وفي اليوم التالي عاد الى الشاطىء الذي فيه سفنه وسار الى مدن كهاني واتريب وكامور وغيرها من مدن الوجه البحري فقدم القرابين لآلهتها وأتاه ملوكها ورؤسائها وأعيانها الممتازون بوضع الريش والمظلات فوق رؤوسهم فسلموا له وقدموا الجزية من الذهب والفضة والحجارة الكريمة والخيول والعطور والنفايس.

فلما بلغت هذه الأخبار مسامع الملك تفنخت امير المشواشين ارسل الى بعنخى رسولاً يقول له : اكظم غيظك أيها الملك الظافر فاني وجل من رؤيتك ولا طاقة لي على حربك وقد امتلأ قلبي رعباً منك لأنك كمعبود

الجنوب « نبتا » وكمعبود الشمال « مونت » وانت الموصوف بالثور المنصور ان أردت شيئاً لا يعارضك فيه احد وقد بلغت الآن جزائر البحر وأقمت في حمى المعبودة « نيت » فراراً من سطوتك وخشية مـن تعنيفك الموجع وتوبيخك المؤلم فأنا الخادم وانت السيد أفلا يعفو السيد عن خادمه . خـذ لخزانتك كل ما أملكه من ذهب وحجارة نفيسة وخذ أجود ما عندي من الخيول والسروج وابعث برسول من قبلك ليزيل الرعب من قلبي فأذهب معه الى المعبود واحلف يمين الطاعة امامه. فأرسل الملك اليه الكاهن الاعظم ورئيس الجيوش فأعطاهما تفنخت فضة وذهباً وملابس وحجارة نفيسة متنوعة ثم ذهب معهما الى المعبود وتاب اليه وحلف يميناً مقدسة بأنـه لا يخالف للملك أمراً ولا يتعدى له قولاً ولا يسيء الى احد من الرؤساء بغير رضاه فقبل الملك توبته واخذ الجزية منه وعفى عنه .

ولما كان صباح اليوم الثـاني أتى ملكا الوجه القبلي وملكا الوجه البحري ليقدموا تحيتهم للملك بعنخى ويتشرفوا بالمثول لديه وكانت فرائصهم ترتعـد كفرائص النساء فلم يأذن لهم في الدخول عليه لأنهم كانوا مدنسين بالسمك المحرم أكله في قصور الملوك ولكنه أذن للنمروذ في الدخول عليـه لأنه كان طاهراً ولم يأكل السمك المنهي عنه ولبث الباقين واقفين خارجاً على أرجلهم .

وبعد ذلك أراد الملك بعنخى الرجوع الى بلاده فشحن سفنه بمـا أهدى اليه من الذهب والنحاس والملابس والخيرات الواردة من الوجه البحري وبلاد الشام والعرب وسار في النيل وقلبـه مفعم سروراً واهل مملكته في الشرق والغرب يستقبلونه بمزيد التجلة والتعظيم وكلما حـلّ ببلاد رفع أهلها هتاف الفرح قائلين أيهـا الملك المنصور بعنخى لقد أتيت وحكمت الوجه البحري وصيّرت رجاله أذلة كالنساء وحـل الفرح في قلب امك التي ولدتك فصرت شهماً وأعطاك « آمن » جوهره فبشرى لك أيتها البقرة التي ولدت ثوراً كان له على مر الأدهار ذكر مخلد وملك مؤبـد ألا وهو الملك بعنخى الملك المحب لقسم ثيبة اه » .

ولما تمت للملك بعنخى الغلبة على مصر ألحقها ببلاده وأبقى لأمرائها الامتياز الذي كان لهم من قبل وجعل تفنخت ملكاً بالنيابة عنه فأقام في تأنيس (صا الحجر) مركز حكومته القديم وعاد بعنخى الى نبتة فجعلهـا تحت الملك لمصر وايثيوبيا .

الملك كاتشا : ولكن لم يلبث ان مـات وخلفه الملك كاتشا او كاشتا ولم يكن من عائلة ملوكية بل كان متزوجاً بابنة كاهن مصري فنقض عليه تفنخت المذكور واضطره الى اخراج جنوده من مصر ثم توفي تفنخت فخلفه ابنـه باكوريس وكان قوي الادراك فقيهاً عادلاً فاتخـذ خطة والده وشرع في نزع مصر الوسطى والوجه البحري من الأمراء فنجح في ذلك وجعل مصر كلهـا تحت سلطانه .

الملك سباقون : وفي اثنـاء ذلك مات كاتشا ملك الايثيوبيين عن ولدين فخلفه احدهما المسمى سباقون وتوجه الى مصر لقتال باكوريس واستعان عليه بأمرائها الذين كانوا يكرهونه لنزعه الملك منهم فوقع باكوريس في قبضته بمدينة تانيس فألقاه حياً في النار واستقل بإيثيوبيا ومصر وكان رأس دولة عرفت في تاريخ مصر بالدولة الخامسة والعشرين الايثيوبية (سنة ٧١٥ : ٦٦٤ ق٠م) . وكان سباقون رجلاً عادلاً فخوراً محباً للتقدم والاصلاح فلمـا تولى سرير الملك تلقب بألقاب الفراعنة وشرع في تنظيم مصر وضبط إدارتها فأبقى كل رئيس على اقليمه مع حفظ نفوذه على الرؤساء بمراقبة أمراء ايثيوبيين وجعل شقيقته آمن رتيس ملكة على الوجه القبلي في ثيبة . ولهذه الملكة في متحف الجيزة تمثال من حجر الغرانيت الاصفر بقد اهيَف وقوام رشيق ووجه صبوح جميل يزينه التـاج على رأسها والاساور العريضة في معصميها والحجول الكبيرة في رسغيها على مثال اساور السودانيات وحجولهن في هذه الايام والتمثـال قائم على قاعدة من الغرانيت الاسود منقوش عليها اسمهـا واسم اخيها سباقون وابيها كاتشا .

وشاد سباقون في مصر الجسور واحتفر الترع حرصاً على البلاد من ان يمسها غرق او شرق ورمم كثيراً من المعابد واستبدل عقوبة القتل بالاشغال الشاقة واشتهر بحسن التـــدبير وجودة السياسة فتمتعت مصر في اول ايامه بالراحة ولكن لم تدم لها لأن مملكة اشور كانت في ذلك العهد في معظم سطوتها وقد كدرت صفاء الفينيقيين والاسرائيليين والفلسطينيين فأجمعوا على ان يستنصروا ملك مصر لينقذهم من جورها فأرسل « هوشع » ملك اسرائيل هدايا فاخرة الى سباقون (وفي التوراة سوا) وسأله التحالف معهم على شلمنصر ملك اشور فأجابهم سباقون الى ذلك آملاً انه بتعـــاهده معهم يتذرَّع الى اخذ ممالكهم وإضافتها الى ملكه كما اضافها اسلافه الفراعنة فقبل الهدايا واعتبرها جزية كما اعتبر مساعدته لهم من قبيل مساعدة الرئيس للمرؤوس وقد بالغ في هـــذا الاعتبار حتى انه نقش على حائط هيكل الكرنك (بالاقصر) انه اخذ الجزية من بلاد الشام كما اخذها مشاهير ملوك مصر الذين تقدموه . فلمـا شاع خبر هذه المعاهدة وبلغ مسامع شلمنصر سار الى « هوشع » ملك اسرائيل فأسره وأخضع قومه ثم سار الى مدينة السامرة وحصرها فمات قبل افتتاحها وكان آخر ابناء العائلة الملوكية الاشورية فخلفه رئيس قواده اسرحدون فسار على خطته وفتح السامرة ثم تقدم الى فلسطين وقتل الملك «يهوبيد» احد المتحالفين مع سباقون فخـــاف سباقون على بلاده وذهب بجنوده الى الشام فانضم الى حانون ملك غزه احد المتحالفين وسار الملكان معاً لقتال الاشوريين فالتقيـا بهم في مدينة رافيا وانتشبت الحرب بين الفريقين وانجلت عن انهزام الجيوش المصرية والشامية ووقع حانون اسيراً في يد سرجون ونجـا سباقون فضلَّ في الصحراء الى ان دلَّه راعٍ من فلسطين على طريق مصر . وبعد رجوعه ثار عليه سكان الوجه البحري تحت رئاسة اسطيفانيس احد أقرباء الملك باكوريس المتقدم الذكر فانهزم سباقون الى الصعيد .

الملك سبيخون : وبعد قليل مات سباقون وترك حكم الايثيوبيين وصعيد مصر لابنه سبيخون وبقي الوجه البحري تتنازعه فئتان من المصريين فاغتنم

سبيخون فرصة الانشقاق وحارب الوجه البحري واسترجعه الى ايثيوبيا .

الملك طهراق : ولكن ما ثبتت قدمه حتى نقض عليه طهراق احد الامراء الايثيوبيين فقتله وتولى مكانه وكان اسطيفانيس لا يزال محاصراً في مدينة منف فزحف عليه ونزع المدينة منه وطهر مصر من العصاة ثم دعا امه من ايثيوبيا ولقبها بحاكمة الوجه البحري والقبلي وسيدة الامم وكتب على جدران هيكل جبل البرقل اسم مصر بين أسماء البـلاد التي خضعت لصولته وبقي متنعماً في مصر الى ان جـاءه « اشور اخي الدين » ملك اشور فاتحاً فعجز عن ردّه فتقهقر مع جيشه الى مدينة نبتة واستولى ملك اشور على منف وثيبة ونهب أمتعة هياكلها واوسلها الى بلاده فوضعها في المعابد تذكاراً لنصرته. ثم اشتغل في تنظيم ادارة مصر فأرجع الحكم لأمرائها العشرين وأقام كل امير على اقليمه وضرب عليهم الجزية وعاد الى نينوى تاركاً بعض جنوده حامية في قلاع مصر خوفاً من غائلة الايثيوبيين وقد مرّ في طريقه بنهر الكلب عند مدينة بيروت فنقش على حجر هناك بقرب الحجر الذي نصبه رعمسيس الثاني نقوشاً كبيرة بيّن فيها فتكه بالمصريين والايثيوبيين وادّعى السيادة عليهم .

وفي سنة ٦٦٩ ق.م مرض اشور اخي الدين فاغتنم طهراق الفرصة وزحف على الاشوريين في منف فهزمهم منها واستولى عليها بعـــد محاصرتها حصاراً شديداً فلما علم اشور اخي الدين بذلك ورأى عجزه عن الدفاع تنـازل عن الملك لابنه الاكبر اشور بانبـــال فتقدم بجنوده الى مصر فنكل بالايثيوبيين وأخرجهم منها وأرجع الحكم الى أمراء مصر العشرين مرة ثانية وعاد الى بلاده ظاناً ان الايثيوبيين لا يعودون الى مصر فما وصل الى نينوى حتى عاد طهراق فاسترجع مدينة ثيبة وأبطل عبـادة العجل « ابيس » منها ثم عاد الى بلاده لرؤيا رآها في المنـــام وكانت مدة حكمه على مصر عشرين سنة وعلى ايثيوبيا خمسين سنة . وفي المتحف المصري في الجيزة رأس تمثـال من الحجر الغرانيت الاسود قالوا انه رأس طهراق لمشابهته لصوره المرسومة على الآثار وهو مستدير

الوجه واسع العينين ممتلىء الخدين بارز الشفتين مع انقلاب خفيف فيهما وفطس قليل في الانف وبالجملة فان ملامحه تحاكي ملامح النوبة الحاليين .

الملك أورد أمن : وخلفه على عرش ايثيوبيا صهره أورد أمن وكانت مصر بعـــد ذهاب طهراق منها قد عادت للاشوريين وأعادوا الحكم الى أمرائها العشرين مرة ثالثة وبقيت تابعة لمملكة اشور الى ان رأى اشور بانبال ان في حكمها عناء ومشقة بالنظر الى بُعدها عن بلاده فأغضى عنها وبقيت تحت حكم أمرائها العشرين .

الملك نوات ميامون : وفي اثناء ذلك توفي اورد امن ملك ايثيوبيا وخلفه « نوات ميامون » فرأى في الحلم انه سيملك الوجه القبلي والبحري فاستبشر بهذه الرؤيا وغزا الوجه القبلي وكان فيه طائفة من الايثيوبيين قد أسسوا حزباً قوياً في ثيبة وضواحيها وأقاموا فيها زماناً حائزين لرتبة الكهانة في معبـــد آمن رع فلمـــا رأوا « نوات ميامون » وهو من جنسهم طامعاً بمصر ساعدوه على عزمه فاستولى على الوجه القبلي بلا قتـــال ثم اخذ في فتح الوجه البحري فمارضه أمراؤه فردهم القهقرى فتحصنوا في قلاعهم ولم يبرزوا لقتاله فملّ من الانتظار وعاد الى منف متحيراً في امره ولكن اجتمع الأمراء برئاسة واحد منهم يسمى بكرو للنظر فيما يفعلونه فأشار عليهم بالطاعة لنوات ميامون فوافقوه وأتوا الى منف مقدمين له الطاعة فانشرح صدره لإتمام حلمه في السيادة على مصر ونقش هـــذه القصة في حجر وجده ماريوت باشا في اطلال مدينة نبتة بجبل البرقل سنة ١٨٦٣ م وهو محفوظ الآن بمتحف الجيزة وهذا ما جاء فيه ملخصاً عن العقد الفريد ببعض التصرف :

« على الملك العظيم المنصور والحكيم القـــاهر نوات ميامون ملك الوجه القبلي والبحري بيكارع سلالة الشمس محبوب « آمن » ساكن نبتة ... سلام .

في احدى الليالي رأى الملك في الحلم ثعبانين الواحد عن يمينه والآخر عن يساره فلما استيقظ ولم يرهما دعا المفسرين وسألهم تفسير هذا الحلم فقـــالوا له

انك ستملك الوجهين القبلي والبحري من ارض مصر ويضيء تاجاهمـــا على رأسك ويكون « آمن » مساعداً لك على الامر . ففي تلك السنة ارتقى الى عرش الملك وخرج من مكانه كالباشق اذا انطلق من أجمته فصحبه خلق كثير وتوجه الى نبتة عاصمة ايثيوبيا فتمتع بمشاهدة معبودها « آمن » في الجبـــل المقدس واهدى اليه الازهار ثم اخرجه من معبده وقدّم له القرابين وهي ٣٦ ثوراً و ٤٠ كأساً من المشروبات ومعها ١٠٠ حمار . ثم سار نحو مصر فلمـــا اقترب من جزيرة اسوان عبَر النيل اليها ودخل هيكل « خنوم رع » معبود الشلالات واخرج تمثاله من مكانه وقدم له القرابين ثم توجّه الى ثيبة (الاقصر) ودخل هيكل معبودها « آمن رع » فرحّب به الكهنة والخـــدم وكلّلوه بالازهار فأخرج تمثال « آمن رع » من مقدسه وعمل له موسماً كبيراً في أرجاء المدينة . ثم ركب النيل وسار نحو الوجه البحري فكان السكان عن الشاطئين الشرقي والغربي يرحبون بـــه ويهتفون سر مصحوباً بالسلامة والامن ورمّم الهياكل التي دُمّرت وانصب تماثيل المعبودات وثبّت الكهنة في وظائفهم وأقم شمائر الدين . وبقي سائراً بلا معارض حتى وصل الى منف فخرج اليه اهلها محاربين فحاربهم حرباً شديداً وقتل منهم خلقاً كثيراً ودخل منف عنوة فزار معبد « بتاح رستيف » وتقرب الى « بتـــاح سوكر » والمعبودة « سوخت » إلهة المحبة وانشرح فؤاده من مساعدة المعبودات له إكراماً لمعبوده « آمن » ساكن نبتة . وأمر بتوسيع معبد « بتاح » وأنشأ فيه إيواناً جديداً بنـــاه بالحجر وكساه بخشب السنط وطلاه بالذهب وملأه بالبخور العربي وجعـــل له ابواباً من النحاس بإطار من الحديد وبنى وراءه حظيرة لحيوانات المعبد وكانت ١١٦ رأساً من المعزى وكثير من البقر . ثم تقدم لمحاربة أمراء الوجه البحري فالتجأوا الى اسوارهم وتركوا له البلاد فحصرهم وانتظر لعلهم يخرجون لقتاله فلم يفعلوا فعاد الى منف واقام بقصره وعزم على ان يرسل اليهم فرسانه ليرقبوا حركاتهم وقبل قيامهم جاء الحجاب واخبروه ان الأمراء وقوف بالباب فقال اسألوهم هل أتوا محاربين او طائعين فقالوا أتينا طائعين لمولانا الملك فقال الملك

وجب عليّ شكر « آمن » معبود ثيبة العظيم الذي حقق لي الآن مـا أرانيه في الحـلم ثم خرج من قصره لمشاهدة الامراء وكانوا من عبَدة الشمس فلمـا رأوه خرّوا على جباههم احتراماً لهيبته فقال لقد تأكدت ان الشمس المعبودة تحبني وان « آمن » جعلني مباركاً فسأفعل كل ما يأمرني به فقـال الامراء نسأل هذا المعبود ان يرشدك الى الخير ويؤيدك بالنصر فأنت ملكنا ومولانا. ثم قام بكرو امير مدينة بسانبو وقال مخـاطباً الملك : انت تميت من تشاء وتحيي من تشاء ولا يلومك احد وقال بقية الامراء : أتينا ايها الملك لنستنشق منك روح المحبة فنحن نريد ان نخدم « آمن » ونكون في جملة اتباعك فهل لك ان تقبـل رجاءنا ؟ فانشرح صدر الملك من كلامهم وأمر لهم بالخبز والشراب وابقاهم عنده اياماً كثيرة وهو يغمرهم بالعطايا والاحسان على كثرتهم ثم استأذنوه في الرجوع الى بلادهم للقيـام بواجب رعاياهم فأذن لهم . ثم أتاه وجوه البلاد القبلية والبحرية مقدمين له الجزية والهـدايا فاطمأن بذلك قلب الملك بيكارع سلالة الشمس ذوات ميامون دام بصحة وعافيـة وعيشة راضية ودام له الملك أبد الدهر .

وفي آخر ايام هـذا الملك اعتصب وجهاء بلاد مصر واعيانها وثاروا على الايثيوبيين فطردوهم من الوجه البحري وتقـاسموا الملك فيما بينهم وكانوا اثني عشر حاكماً فسميت حكومتهم بالمقاسمة الاثني عشرية وداموا على ذلك ١٥ سنة الى ان قام احدهم بسامتيك من سلالة العـائلة الصاوية فطمع بالاستقلال واستعان بعساكر يونانية متطوعة فتغلب عليهم واستبدّ بالملك . ثم سار الى الوجه القبلي ففتحه من الايثيوبيين وأعاد الحدود المصرية الى اسوان . وهكذا انتهى حكم الايثيوبيين على مصر بعد ان حكموها ٤٩ سنة وكان حكمهم عادلاً ومع ذلك لم يكن مقبولاً لأنهم غرباء .

الفصل الثالث

في

مملكة مروى

« وهو تاريخ ايثيوبيا منذ بدء الدولة المصرية السادسة والعشرين سنة ٦٤٤ ق٠م
الى دخول الديانة المسيحية لبلاد النوبة سنة ٥٤٥ ب٠م »

١ ـ تاريخ مروى في عهد الفرس وآخر عهد الفراعنة على مصر (٦٤٤ : ٣٣٢ ق٠م)

ما انقضت الدولة المصرية الخامسة والعشرون حتىانقضت معها مملكة نبتة في ايثيوبيا وقام في مكانها مملكة مروى فنالت في التـاريخ شهرة لم تنلها نبتة وامتدت من الشلال الاول الى أعالي النيل الازرق وكانت عاصمتها مدينـة مروى على النيل الكبير في مكان يعرف الآن بالبجراوية على ٢٣ ميلاً شمـالي شندي .

واول مَن ذكر مروى في التاريخ هيرودوتس المؤرخ اليوناني الشهير الذي عاش في القرن الخـامس للمسيح قال : « وفوق جزيرة الفنتين تبتدىء بلاد الايثيوبيا فيتعذر السفر في المراكب مسيرة اربعين يوماً بسبب كثرة الصخور

في طريق النيل وبعد ذلك تركب قارباً وتسافر مسيرة اثني عشر يوماً فتصل الى مدينة كبيرة اسمها مروى قيل انها عاصمة ايثيوبيا ». ثم ذكرها كثيرون غيره من مؤرخي اليونان والرومان .

فرار العساكر المصرية الى ايثيوبيا : وأهم مـا ذكره هيرودوتس من أخبارها فرار العساكر المصرية اليها في عهد الملك بسامتيك المارّ ذكره الذي أسس الدولة المصرية السادسة والعشرين (٦٤٤ : ٥٢٥ ق . م) قال : « ان بسامتيك لما تولى الملك كانت مصر تئنّ عجزاً وضعفاً مما قاسته من الحروب مع اشور في عهد الايثيوبيين فأخذ في تقويتها وإحياء ربوع العلم والصناعة فيها . ثم التفت الى مناعتها فجعل حاميـة في دفنة البليوسية المعروفة الآن بالفرَمه بقرب بورت سعيد ليدفعوا غارات العرب والسوريين . وحامية في ماريه اي بحيرة مريوط لوقايتها من الليبيين . وحامية عنـد جزيرة الفنتين لحمايتها من الايثيوبيين وكانت عساكر هذه الحاميات من المصريين .

وكان لبسامتيك جيش قوي من اليونان حـارب به حرباً طويلة في سورية وفتح مدينة اشدود وكان يعزه ويكرمه فأغـاظ ذلك المصريين المقيمين في الحاميات المذكورة وكانوا قد قضوا فيها مدة الثلاث سنوات المفروضة عليهم فسألوه ان يبـدلهم بغيرهم فرفض ففروا الى ايثيوبيا وكانوا نحواً من ٢٤ الفاً (والاقرب الى التصديق ان الذين فرّوا الى ايثيوبيا هم رجال حـامية الفنتين فقط وهو رأي المؤرخ شارب الانكليزي) فلما بلغ الخبر بسامتيك تبعهم حتى أدركهم فتوسل اليهم كثيراً ان يعـدلوا عن هجر آلهة بلادهم وترك نسائهم واولادهم فما صغوا له وأجابوه بما معناه :

تلقى بكل بلاد إن حللت بها اهـلاً بأهلٍ وإخواناً بإخوان

ولما وصلوا الى ايثيوبيا قدموا انفسهم الى ملكها فرحّب بهم ووهبهم بلاد أعداء له من الايثيوبيين وقال لهم اطردوهم من بلادهم واسكنوها ففعـلوا فازداد الايثيوبيون تمدناً باستيطان هؤلاء العساكر بينهم وتعلموا آداب المصريين. وقد نشأ من ذرّيتهم في ايثيوبيا طائفة كبيرة عرفت بطائفة الاسمـاخ اي

الجالسون عن يسار الملك اه » . هـذا وقد سماهم هيرودوتس « الاتومولي فعرفوا بهذا الاسم الى القرن الاول للميلاد. واختلف المؤرخون في تعيين البلاد التي سكنوها فذهب البعض انهم سكنوا بلاد الجزيرة بين النيل الازرق والنيل الابيض وذهب البعض الآخر انهم سكنوا جنوبي جزيرة مروى بين النيـل الكبير والاتبرة ولعلّ الاقرب الى الصواب ان ملك مروى انتقى أشدهم وضمهم الى جيشه وارسل الباقي لقهر أعدائه كما مرّ .

وتوالت مـلوك الدولة السادسة والعشرين على مصر ولم يكن بينهم وبين ايثيوبيا ما يذكر سوى ان بسامتيك الثـاني ثالث ملوك هذه الدولة ثار عليه اهل ايثيوبيا فتوجه لقتالهم سنة ٥٩١ ق . م ومات بعد رجوعه بقليل .

خبر كمبيز مع ايثيوبيا : وفي آخر مدة هـذه الدولة كان الفرس قد صاروا في عزّ ومنعة وعليهم الملك كمبيز فطمع في مصر فجرّد لهـا وفتحها عنوة وأسس الدولة السابعة والعشرين (سنة ٥٢٥ : ٤١٥ ق . م) ثم طمع في ايثيوبيا وحاول فتحهـا فلم يفلح . وقد روى هيرودوتس الذي زار مصر في عهد خلف كمبيز اخباراً لطيفة عما كان لكمبيز مع ايثيوبيا قال :

« قرّ رأي كمبيز على غزو الايثيوبيين فرأى ان يرسل لهم الجواسيس اولاً ليستطلعوا طلعهم ويتحققوا خبر مائدة الشمس التي كان يسمع بهـا في بلادهم فأحضر جمـاعة من جزيرة الفنتين يحسنون لغة الايثيوبيين وارسلهم الى ملك ايثيوبيـا بهدايا فاخرة وهي ثوب من الارجوان وطوق من الذهب واساور وصندوق من الرخام مملوء اطياباً وبرميل من نبيذ البلح وعلمهم مـا يقولونه للملك . قيل وكان الايثيوبيون الذين ارسل اليهم كمبيز هـذه الرسالة أطول النـاس قامة وأكملهم خلقاً وكان لهم عادات تختلف عن عادات سائر الأمم اشهرها انهم يولون الملك لمن كان له اكبر جثة وكانت له قوة عظيمة بنسبة جثته . فلما وصل رسل كمبيز الى ملك هذا الشعب قدموا له الهدايا وقالوا : « ان كمبيز ملك الفرس أراد ان يكون بينك وبينه مودة وإخـاء فأرسلنا اليك بهذه الهدايا التي هو نفسه يسر بهـا كثيراً » . ولكن لم يخفَ على الملك

قصد كمبيز فقال لهم ليس حب المحالفة هو الذي حمل ملك الفرس على إرسالكم إليّ بهـذه الهدايا ولا انتم تقولون الحق ولكن الصحيح انه طمع في بلادي فأرسلكم لتتجسسوا اخبارها فهو ليس بعادل ولو عدل لما طمع في غير بلاده ولا حاول استعباد امة لم تسيء اليه بشيء ثم تناول قوساً كبيرة ووترها وقال خذوا هذه القوس الى ملككم وقولوا له ان ملك الايثيوبيين ينصح لملك الفرس بأنه متى صار الفرس قادرين على وتر قوس هـذا حجمها بهذه السهولة فليأتِ لحرب الايثيوبيين المكروبيين ولكن بجيوش اعظم عـدداً من جيوشهم وفي اثناء ذلك فليقدم الشكر للآلهة لأنها لم تلهم الايثيوبيين الرغبة في توسيع نطاق بلادهم بفتوحات جديدة . ولما قال هـذا حلّ القوس ودفعها الى الرسل ثم أخذ الثوب الارجواني بيـده وسألهم ما هو وكيف يصنع فلما أجابوه قال هؤلاء النـاس خداعون واثوابهم خدّاعة . ثم سألهم عن الطوق والاساور فأجابوا انها حُلي وأوضحوا له كيفية لبسها فضحك وظنّ انها سلاسل وقال عندنا سلاسل أقوى منها . ثم سألهم عن الطيوب ولما اعلموه بتركيبها وكيفية استعمالها أبدى الملاحظة التي أبداها عنـد كلامه عن الثوب الارجواني . ثم سألهم عن الخمر وكيفية استخراجها وسُرّ بشربها سروراً عظيماً . وسأل عن الاطعمة التي يأكلها الملك وعن اطول حيوة عند الفرس فأجابه الرسل ان طعام الملك الخبز وأوضحوا له ماهية الحنطة وقالوا ان اطول حيوة عند الفرس ثمانون سنة فقـال الملك اذاً لا عجب من أناس طعامهم الزبل ان تكون سني حياتهم قليلة ثم قال مشيراً الى الخمر وبهذا الشراب يمتاز الفرس على الايثيوبيين ولولاه لما عاشوا كل هذه المدة .

ثم ان الرسل سألوا الملك في نوبتهم عن حيوة الايثيوبيين وطعامهم فأجابهم ان اكثرهم يدرك سن المئة والعشرين وبعضهم يفوق هـذا السن وان طعامهم اللحم المسلوق وشرابهم اللبن . ولمـا أظهر الرسل دهشتهم من طول حيوة الايثيوبيين أتى بهم الى نبع ماء عجيب اذا اغتسل به احد اصبح جلده ناعماً لامعاً كأنه مُرِخ بالزيت وفاحت منه رائحة كرائحة البنفسج وقـال الرسل

ان ماء تلك العين كان خفيفاً جداً حتى لا يطفو عليه شيء لا الخشب ولا مـا هو أخف منه بل كل ما يلقى فيه يغرق الى قعره (قال هيرودوتس) : فان كان هذا الماء كما قالوا لم يبعد ان يكون طول حياتهم من كثرة استعمالهم إياه. ثم سار الملك بالرسل الى السجن فرأوا المسجونين مقيدين بقيود ذهبية لأن النحاس عند هؤلاء الايثيوبيين كان أندر المعـادن وأثمنها . ثم أتى بهم الى ما يسمونه « مائدة الشمس » وهي مرج في ظاهر المدينة يملأ ليلاً بأنواع الأطعمة من لحوم الحيوانات ذوات الاربع التي يرسلها كبراء المدينة لأغراض في انفسهم فيأتي من شاء نهاراً ويتناول غذاءه منها وهم يعتقدون ان الارض نفسها تنبت لهم هذه اللحوم من وقت الى آخر .

واخيراً زاروا قبور الايثيوبيين وهي مصنوعة من البلور على الطريقة الآتية: يجففون الجسد اولاً على طريقة المصريين او طريقـة اخرى ثم يطلونه بالجص (Gypsum) ويدهنونه حتى يشبه منظره الحي ما امكن ثم يضعونه في اسطوانة مجوّفة من البـلور الذي يصنعون منه كثيراً بسهولة وبذلك يُرى الميت ولا تنبعث منه رائحة كريهة فيحفظ أدنى أقارب الميت هذه الاسطوانة في بيوتهم مدة سنة فيقدمون لهـا الذبائح وباكورة كل شيء وفي نهاية السنة يخرجونها خارجاً ويضعونها في مكان قرب المدينة .

ولما رأى الجواسيس كل شيء عادوا الى بلادهم وقصّوا على الملك كمبيز جميع مـا رأوه وسمعوه فغضب من كلام ملك ايثيوبيا غضباً شديداً وأمر جيشه بالزحف على الايثيوبيين في الحال ولكنه لم يدبّر له الاقوات ولا قدّر انه غازٍ بلاداً بعيدة في أقصى المعمور بل سلك مسلك النزق والحمق كمن أضاع رشده وزحف بجميع جيوشه البرية فلم يبقَ في مصر الا اليونانيين ولما وصل ثيبة ارسل نحو خمسين الفاً الى الامونيين (واحة سيوه) وأمرهم باستعبادهم وحرق هيكل جوبيتر بالنار فذهبوا ولم يعودوا ولا عاد منهم مخبر ويظن انه ثارت عليهم عاصفة من الرمال في الطريق فأهلكتهم . وسار هو بباقي جيوشه الى الايثيوبيين ولكنه لم يقطع خمس الطريق حتى نفدت منه الاقوات فشرع

العساكر في أكل حيوانات الحمل حتى نفدت. فلو عدل كمبيز عن عزمه اذ ذاك وعاد بجيشه لعُدّ حكيماً وُغفرت زلته الاولى ولكنه بقي مستمراً في السير حتى صارت العساكر تأكل العشب فلما وصلوا الى الرمال اضطرّهم الجوع الى اعمال فظيعة فصاروا يجتمعون عشرة عشرة ويلقون القرعة فمن أصابته أكلوه فلما رأى كمبيز ما حلّ بجيشه عدل مرغوماً عن غزو الايثيوبيين وقفل راجعاً الى ثيبة بعد ان فقد جانباً عظيماً من جيشه ثم أتى الى منف وسمح لليونانيين بالرجوع بحراً الى بلادهم وهكذا انتهت غزوة كمبيز للايثيوبيين » اه . ومن ملوك ايثيوبيا الذين عاصروا كمبيز فاشتهروا بالسطوة والاقتدار ودانت لهم كل قبائل ايثيوبيا شرقاً وغرباً حورسياتف ونستوسنن .

ثم نرى المصريين قد استقلوا عن الفرس وقام منهم الدول الثامنة والعشرون والتاسعة والعشرون والثلاثون (سنة ٤١٥ : ٣٤٠ ق.م) . ولكن لم يكفّ الفرس عن مناوأتهم كل هذه المدة فشغلوهم عن ايثيوبيا ودامت الحرب سجالاً بين الفريقين حتى فاز الفرس وكانت مصر اذ ذاك بيد الملك نكتانيبس فانهزم الى ايثيوبيا السفلى وملك الفرس مصر المرة الثانية فأسسوا الدولة الحادية والثلاثين (سنة ٤٣٠ : ٣٣٢ ق . م). وكان آخر ملوكها الملك دارا الثالث الذي كان معاصراً لاسكندر المكدوني الشهير .

٢ ـ تاريخ مروى في عهد اليونان على مصر

(٣٣٢ : ٣٠ ق . م)

وفي ايام الملك دارا اخذت دولة الفرس تتقهقر وبدأ نجم اليونان في الارتفاع فشرع الاسكندر في مدّ فتوحاته وتوسيع نطاق مملكة ابيه ففتح الهند وفارس ثم التفت الى مصر فأخذها من الفرس وبنى الاسكندرية فجعلها عاصمة البلاد . وتولاها بعد وفاته (سنة ٣٢٣ ق . م) البطالسة اليونان فمدّوا حدودهم في ايثيوبيا الى المحرّقة على نحو ثمانين ميلا من الشلال الاول حيث بنوا

هيكلا لا تزال آثاره باقية الى الآن . ومن آثارهم هياكل كلابشة والدكة وغيرهما من بلاد ايثيوبيا السفلى وهيكل جزيرة فيلي المعروف الآن « بقصر أنس الوجود » شرع في بنائه بطليموس فيلادلفوس وهو بطليموس الثاني (سنة ٢٨٥ : ٢٤٧ ق.م) ثم اشتغل فيه كل من جاء بعده من البطالسة حتى أتموه فاذا هو من أجمل الهياكل التي بناها القدماء والباقي منه الى الآن يدل على انه كان من الجمال وحسن الهندام على جانب عظيم .

الملك ارجمينس : وقام على ايثيوبيا في ايام بطليموس الثاني المتقدم الذكر « الملك ارجمينس » وكان للكهنة الايثيوبيين الى ايامه سلطة عجيبة على الشعب والملك معاً حتى كان من عادة كهنة مروى انهم اذا غضبوا على ملك ارسلوا اليه رسلا يأمرونه بقتل نفسه بحجة ان ذلك يسرّ الآلهة . قيل وكان الامر يسحره فيخضع له صاغراً حتى قام ارجمينس هذا وكان ملكاً حربياً متثقفاً بآداب اليونان وعلومهم وكان يكره الكهنة ولا يطيق غطرستهم فأرسلوا اليه امراً ليقتل نفسه فهاجه الامر وحمل عليهم في الهيكل الذهبي الذي كانوا يقيمون فيه وقتلهم عن آخرهم . وسنّ قوانين جديدة لمملكته وحوّر كثيراً في ديانة الايثيوبيين . ومن آثاره الباقية الى الآن هيكل في دكّا المعروفة قديماً باسم سلقيس بناه على أطلال هيكل من بناء الدولة المصرية الثانية عشرة.

الملك ازخر آمن : وقام بعده على ايثيوبيا الملك ازخر آمن فبنى هيكلا في دبود المعروفة قديماً باسم تاهت ولا تزال آثاره ظاهرة الى اليوم . ولم يشتهر من ملوك مروى في عهد البطالسة على مصر غير هذين الملكين .

مملكة اكسوم ومملكة سوبه : ومن ممالك ايثيوبيا التي اشتهرت في هذا العهد مملكة اكسوم في شمالي الحبشة على بضعة اميال من عدوه . ومملكة سوبه على النيل الازرق على ١٥ ميلا من الخرطوم . وقد ذكر المؤرخون ان بطليموس يورجيتس الثاني ثامن البطالسة (سنة ١٤٦ : ١١٧ ق . م) زحف على مملكة مروى ففتحها ثم سار جنوباً ففتح مدينة اكسوم ودوّن خبر فتوحاته باللغة

اليونانية على حجر من الرخام في ميناء ادولس المعروفة الآن بميناء زولا على عشرين ميلا الى الجنوب من مصوع وهي ميناء اكسوم. وقد وصف المؤرخون ايثيوبي تلك الايام بالشجاعة الوحشية وعدم النظام كأهل السودان في هذه الايام . اما جيش بطليموس فكان على أتمّ النظام وكان معه في هذه الغزوة خمسماية فارس من اليونانيين فألبس مئة فارس منهم نسيجاً ثخيناً من الكتان وألبس خيلهم ايضاً من هذا النسيج لكي لا تؤثر فيهم سهام الايثيوبيين . ولم يسبق ان ملكاً من ملوك مصر مدّ فتوحاته جنوباً الى الحد الذي وصل اليه بطليموس ولكنه لم يستطع حفظ سلطته على البلاد التي فتحها فعادت لأهلها كما كانت وعادت حدود اليونان الى المحرّقة .

٣ ـ تاريخ مروى في عهد الرومان على مصر
(٣٠ ق ٠ م ـ ٦٤٠ ب ٠ م)

وكان آخر مَن ملك مصر من البطالسة كليوبترا ابنة بطليموس اوليتس وبعد وفاتها آل ملك مصر الى الرومان في عهد الامبراطور اوغسطوس قيصر فجعلها ولاية من ولاياته يتولاها والٍ او نائب روماني ويحكمها بموجب الشرائع الرومانية . وكان اول من تولاها من الرومان « كرنيليوس جالوس » وقد ظهر من كتابة على بعض الآثار ان « الملك تويا كوتاس خوانوس » (ويُظن انه ملك سوبه) ارسل رسلاً في ايام هذا الوالي الى فيلي ودخل في حماية الرومان .

الملكة كنداكة : وفي سنة ٢٣ ق ٠ م اخرج الامبراطور اوغسطوس قيصر معظم عساكره من مصر لغزو بلاد العرب . وكان على مروى حينئذ ملكة تلقب بكنداكة تحب الحرب والفتوح فاغتنمت الفرصة وسارت بجيش مؤلف من ٣٠ الف مقاتل الى مصر تريد افتتاحها ففتحت حامية فيلي وحامية اصوان اللتين على حدود مصر ودخلت مصر العليا وكان النائب الروماني اذ ذاك

رجلا شديد البأس يسمى بترونيوس فحمل على كنداكة بجيش منظم مؤلف من عشرة آلاف راجل وثمانماية فارس فلما سمعت كنداكة باستعداده رجعت الى ايثيوبيا السفلى فتأثرها حتى أدركها بقرب سلقيس (دكا) وطلب منها ردّ الاسرى والغنائم التي أخذتها من مصر ولما لم تجبه جواباً مرضياً حمل عليها وكان معظم جيشها غير منظم ولا سلاح له الا الفؤوس والنبابيت فانتصر عليها انتصاراً عظيماً وشتت جيشها كل مشتت ثم تقدم الى ابريم وكان فيها حامية قوية للايثيوبيين فاستولى عليها ثم سار الى نبتة فخرّبها. وفرّت الملكة كنداكة من وجهه فامتنعت في قلعة في الشلال الرابع ولما رأت ان لا طاقة لها على حربه بعثت اليه في طلب الصلح وكان بترونيوس قد نفد منه الزاد وأضنى جيشه الحرّ فاضطر ان يرجع الى الاسكندرية قبل نهاية الصلح وفي طريقه أقام حامية في ابريم مؤلفة من ٤٠٠ رجل وحامية في دكا.. فلما رأت كنداكة ان بترونيوس رجع عنها مضطراً جمعت شتات جيشها وسارت حتى وصلت ابريم فحصرتها ولكنها لم تلبث ان رأت عجزها عن استمرار الحصار فرفعته وأرسلت سفراءها المرة الثانية الى بترونيوس في طلب الصلح فأرسل بترونيوس السفراء الى الامبراطور اوغسطوس قيصر وكان اذ ذاك في جزيرة ساموس في الارخبيل الرومي فصالحهم على الشروط التي قدمتها كنداكة . ولهذا الامبراطور هيكل قائم الى الآن في دندور على ٥٢ ميلاً من الشلال .

ثم لم يكن بين الرومان وايثيوبيا ما يُذكر الى ايام الامبراطور نيرون وهو الامبراطور الخامس من أباطرة الرومان على مصر فانه في سنة ٦٠ ب٠م ارسل حملة الى ايثيوبيا بقصد اكتشاف منابع النيل فكان من اخبارها انها سارت فيه حتى وصلت الى مستنقع لا يمكن سلوكه فعادت بالخيبة الى مصر ولعلّ هذا المستنقع هو « السدّ » . قالوا وكان الحاكم على مروى في عهد هذه الرسالة ملكة تلقب بكنداكة . وهذا آخر عهدنا بمملكة مروى .

اما « مملكة اكسوم » فيؤخذ مما كتبه المؤرخون عن هذا العهد انه كان بينها وبين الرومان علائق تجارية دامت طويلاً وان الرومان لم يسمحوا لأهلها

بيناء المراكب او الملاحة في البحر الاحمر. ثم كانت النصرانية فاعتنقتها مملكة اكسوم في القرن الرابع وعُرفت البلاد بعد ذلك باسم الحبشة ولا تزال تعرف بهذا الاسم الى اليوم وقد أفردنا للحبشة تاريخاً خاصاً قائماً بذاته .

اما « مملكة سوبه » فلم يحفظ لنا التاريخ شيئاً من اخبارها في الجاهلية الا ان آثارها الباقية الى الآن تدلُّ على انها كانت على درجة سامية من الحضارة والعمران . ويظن البعض انها كرسي مملكة سبأ التي جاءت لتختبر حكمة سليمان . وبقيت سوبه على الوثنية الى ان امتدت النصرانية اليها من مصر فقامت فيها مملكة نصرانية عُرفت عند مؤرخي الاسلام بمملكة علوة وسنأتي على ذكر تاريخها .

النوبة والبجة : هذا وقد ذكر استرابو (٥٤ ق . م : ٢٤ ب . م) ان الايثيوبيين فوق اصوان كانوا في ايامه اربع قبائل مختلفة : التروقلوديته ، والبلامس (والمشهور انهم البجة) ، والنوبة ، والمقّباري . فسكن البلامس والمقباري في الصحراء الشرقية شمالي مروى الى جهة حدود مصر في مكان الأوابو والمازابو المتقدم ذكرهم وكانوا تحت حكم الايثيوبيين. وسكن التروقلوديته في الصحراء الشرقية فكان حدُّهم الشمالي بيرينيس (راس بنـــاس) والغربي النيل وظنّ بعضهم انهم هاجروا الى هذه الجهة من جزيرة العرب بعد افتتاح بطليموس يورجيتس لايثيوبيا . وسكن النوبة على النيل . وذكر غير استرابو من المؤرخين وجود قبيلة الاشتيفاجي على شطوط البحر الاحمر .

ولكن لم يشتهر في تاريخ ايثيوبيا بعد ان دالت دولة مروى الا النوبة والبجة الذين ما زالوا الى الآن مقيمين في الاماكن المارّ ذكرها .

وقد انتظم للنوبة ملك في تلمس (كلابشة) وكان بينهم وبين البجة وقائع معدودة فترى على جدران هيكل كلابشة المتقدم الذكر كتابة باليونانية مفادها: ان الملك سلكو ملك النوبة وكل الايثيوبيين انتصر على البجة في عدة وقائع . وذكر فوبسكوس ان بروبس النائب الروماني الذي تولى مصر من سنة ٢٧٦: سنة ٢٨٤ ب . م غزا البجة في صحراء ثيبة فقهرهم وأرسل منهم اسرى الى

رومية . وذكر بعض المؤرخين ان البجة ما زالوا يغزون الحدود المصرية كلما سنحت لهم الفرصة .

هـذا وكانت المحرّقة آخر حدود مصر الجنوبية في ايام الرومان كما كانت في ايام اليونان . فرأى الامبراطور ديوقليشيان (٢٨٤ : ٣٢٣ ب . م) ان خراج البلاد التي بين المحرّقة واصوان لا يفي بنفقـات العساكر اللازمة لجمعه فلا فائدة من حفظها فأقطعها للنوبة وأعـاد الحدود المصرية الى اصوان فقوّى حامية الفنتين وعقد مع النوبة معاهدة جديدة وجعــل للنوبة والبجة جعلاً معلوماً من المـال يدفع لهم كل سنة على شرط ان البجـة يكفّون عن غزو الحدود المصرية وانهم اذا لم يمتنعوا عنه من انفسهم منعتهم النوبة بالقوة . وقد أسكن بعضهم في جزيرة الفنتين وسمح لهم بالصلاة في الهيـاكل مع الرومانيين وسمح لكهنتهم بالاقامة في الهياكل مع كهنة الرومانيين فوفوا بالعهود الى ايام الامبراطور مارشيان ثم نكثوا بها وغزوا بلاد مصر العليـــا فغنموا وأسروا وعادوا الى بلادهم فهـاجمهم الجنرال مكسيمينوس الروماني قائد ثيبة فقهرهم جميعاً اي النوبة والبجة معاً وذلك سنة ٤٥١ ب . م فطلبوا الصلح على ان لا يدخلوا مصر ما دام هذا القائد على ثيبة اما مكسيمينوس فلم يرضَ ان يكون بينه وبينهم صلح حتى يرجعوا الاسرى ويدفعوا قيمة مـــا غنموه من مصر ويحملوا بعض كبارهم رهناً ففعلوا فعقد معهم صلحاً لمئة سنة .

وكان من عادة النوبيين منـذ القديم ان يذهبوا كل سنة الى هيكل أيسس في جزيرة الفنتين ويأخذوا احد التماثيل الى بلادهم فيستخيرونه في شؤونهم ثم يرجعونه الى الهيكل فلما فرض عليهم في هذا الصلح ان لا يدخلوا مصر سألوا مكسيمينوس ان يأذن لهم في زيارة الهيكل كل سنة لئــلا يعترضهم خفراء الرومان فأذن لهم وكتبت المعاهدة على ورق البيبروس وعُلقت في هذا الهيكل ولكن لم يكن الا القليل حتى مات مكسيمينوس فنقض النوبيون المعاهدة ودخلوا بلاد ثيبة فاكتسحوها واسترجعوا رهائنهم بالقوة وأعادوا عبادة ايسس وسرابيس الى بلاد ثيبة وذلك بعد ان بطلت عبادة الاوثان تماماً من تلك البلاد

بأمر ثيودوسيوس الاول بسبعين سنة ومـا زالت مصر تعاملهم بالرفق الى ان قام الامبراطور جوستينيان (سنة ٥٢٧ : ٥٦٦ ب . م) فأغلظ معـاملتهم وأمر نرفس قائد حامية فيلي فخرب هيـاكلهم وسجن كهنتهم وارسل تماثيل آلهتهم الى البيزانتيوم (الآستانة) وكان هذا آخر عهد الوثنية في بلاد مصر.

النصرانية في مصر وايثيوبيا : امـا تاريخ دخول النصرانيـة الى مصر فقد كان في عهـد الامبراطور نيرون (سنة ٤٥ : ٦٨ ب . م) وفي المشهور انهـا دخلتها عن يد القديس مرقس فلاقت اضطهادات شديدة من أباطرة الرومان وكان أشدهم اضطهاداً لهـا ديوقليشان (سنة ٢٨٤ : ٣٢٣ ب . م) فانه نكل بالمسيحيين وقتل في يوم ١٣ يونيو سنة ٢٨٤ ب . م ما يعد بالآلاف فصار المسيحيون يؤرخون سنيهم من هذا اليوم وهو تاريخ الاقباط المعروف بتاريخ الشهداء الى هذا العهد . ولكن اضطهاد ديوقليشان لم يضعف النصرانية بل زادها قوة وانتشاراً حتى اعتنقها الامبراطور قسطنطين الكبير (سنة ٣٢٣: ٣٣٧ ب. م) الذي جعل سرير ملكه في القسطنطينية وجعل الديانة المسيحية ديانة مملكته في اوروبا وآسيا ومصر . ومع ذلك لم تبطل الوثنيـة بل بقيت متبعة في وادي النيل وبقي لها أنصار الى ايام الامبراطور ثيودوسيوس الاول (سنة ٣٧٩ : ٣٩٤ ب . م) الذي نهى المصريين عن عبادة الاصنام في اول سنة من حكمه وأمرهم باتباع الديانة المسيحية وانفاذاً لأمره أسرع فهدم الهياكل وأزال الانصاب وأبطل جميع التقاليد التي كان المصريون يعتبرونها من ضروريات التديُّن وساعده على ذلك ثيوفيلس بطريرك الاسكندرية إلا ان الديانة الوثنية لم تنتفِ من جزيرة فيلي حتى أواسط القرن السادس كما مرّ .

ومن هذا العهد (سنة ٥٤٥ م) أخذت النصرانية تمتـد جنوباً في وادي النيل حتى عمّت كل بلاد النوبة . وقد تقدم لنا ان الحبشة اعتنقوا النصرانية في القرن الرابع فأصبحت بلاد ايثيوبيا كلهـا تدين بالنصرانية إلا البجة في الصحراء الشرقية فانهم بقوا على الوثنية .

ثم لم تكد النصرانية تنتشر في بلاد ايثيوبيـا حتى كان الاسلام في جزيرة العرب وافتتح المسلمون مصر سنة ١٨ هـ ٦٤٠ م واحتاطوا ايثيوبيا من الشمال والشرق فكان لهم مع نصارى الحبشة والنوبة ووثنيي البجة من الشأن مـا سنبيّنه في محله إن شاء الله .

الفصل الرابع

في

آثار ايثيوبيا ولغاتها وديانتها وتمدنها وحكومتها وشرائعها وأخلاق أهلها وعاداتهم

آثار نبتة : واما آثار ايثيوبيا الباقية الى الآن فتدل انها كانت على جانب عظيم من المدنية والعمران . وأشهر هذه الآثار وأقدمها آثار نبتة عند جبل البرقل وهي خرائب هياكل وأهرام . امـا الهياكل فمن عهد الملك رعمسيس الكبير المصري ومن بنائه او من بناء طهراق الايثيوبي وخلفائه واما الاهرام فكلها من بناء طهراق وخلفـائه . وقد رأيت هذه الاهرام من النيل سنة ١٨٩٦ ولم أوّفق الى زيارتها ولكن الذين زاروها قالوا ان في جبل البرقل ١٣ هرماً وفي بلدة نوري تجاهه ٢٥ هرماً وكلهـا مبنية بالحجر الرملي على شكل اهرام مصر إلا انها تختلف عن هذه في كونها اصغر وفي واجهة كل هرم منها إيوان كإيوانات الهياكل المصرية . وامـا مدينة نبتة نفسها فقد تخرّبت تخرُّباً تاماً ولم يبقَ ما يدل عليها سوى أطلال بالية قرب جبل البرقل .

آثار مروى : ويلي آثار نبتة في القدم والأهمية آثار مروى ومعظمها قائم

حيث كانت عاصمتها بقرب جبل أم علي على ٢٦ ميـلا الى الشمال الشرقي من شندي وبضعة أميال من النيل وهي خرائب هيـاكل (بينها هيكل امون) وأهرام تبلغ الثمانين هرماً في ثلاثـة مجاميع . وقد رأيت هذه الاهرام سنة ١٨٩٨ فاذا هي قائمة في مرتفعات على مسافة ساعة او اكثر من النيل وقد وصفها الذين زاروها فقـالوا ان اضلاع قاعدتها تختلف من ١٢ : ٦٠ قدماً وارتفاع أعلاها ١٦٠ قدماً وهي على شبه اهرام مصر إلا ان نسبة قاعدة الهرم الى علوه فيها أعظم منها في اهرام مصر . هذا وفي جزيرة مروى على نحو ٣٢ ميلا الى الجنوب الشرقي من شندي بركة تجتمع اليها مياه الامطار تعرف بالنقع حولها آثار هياكل فخيمة . وبين النقع وشندي جدران وأعمدة هيكل يبلغ محيطه الف يرد. وقد ذكر الباحثون ان في نبتة نفسها آثار لملوك مروى وان الهيكل القائم الآن في بلدة عمارة على ١٠٠ ميل من الشلال الثاني هو من بناء ملوك مروى . وقـال بعض المؤرخين ان مروى كانت تجهز للحرب جيشاً مؤلفاً من ٢٥٠ الف مقاتل وكان فيها ٤٠٠ الف من أرباب الصنائع وان قد حكمها ٤٥ ملكاً وملكة اكثرهم من الملكات وترى على الآثار رسوم بعض هذه الملكات يقدّمنَ القرابين للآلهة او يمثلنَ أبطالاً منتصرين وقد لُقّب الملكات بكنداكة كما لُقب ملوك مصر بالفراعنة والفرس بالقياصرة .

ومما هو جدير بالذكر ان اسم مروى غير معروف في الجزيرة الآن بل البلدة المعروفة بهذا الاسم واقعة قرب البرقل عند موقع مدينة نبتة وبين مروى هذه ومروى القديمة قرب شندي طريق في الصحراء تمر بآبار الجكدول طولها نحو ١٨٠ ميلا .

وقد اختلف العلمـاء في مؤسسي مروى والذي عليه البعض انهم الكهنة الذين طُردوا من ثيبة سنة ٩٠٠ ق . م .

آثار اكسوم : ثم يلي آثار مروى في الشهرة والقدم آثار اكسوم وسيأتي ذكرها .

آثار سوبه : اما سوبه فلم يبقَ من آثارهـا الى الآن إلا خرائب قديمة . وكان قد بقي فيها الى زمن الفتوح المصري بعض التماثيل والأنصبة فنُقلت منها

آثار ايثيوبيا السفلى : هذا في آثار ايثيوبيا العليا وهي مصرية ايثيوبية اي انها من بناء المصريين . اما آثار ايثيوبيا السفلى المتقدم ذكرها في فيلي ودبود ودندور وكلابشة ودكا والمحرَّقة وكوبان والسبوع وعمدة والدرّ وابريم وابو سمبل وحلفا وسمنه وطنبس وارقو فكلها او اكثرها مصرية اي من بناء الملوك المصريين .

لغات ايثيوبيا : اما لغة الآثار في ايثيوبيا فهي اللغة الهيروغليفية المصرية بعينها لكن الهيروغليف الذي على آثار ايثيوبيا غير متقن الصنع كالهيروغليف الذي على آثار مصر. هذا ونرى على الآثار ايضاً بعض كتابات باللغة اليونانية من زمن البطالسة وباللغة اللاتينية من زمن الرومان وباللغة القبطية من عهـد النصرانية . وعلى بعض الهياكل كتابة أحرفها قبطية ولكن رموزها لم تُحلّ بعد وقد سميت باللغة الايثيوبية المسيحية .

واما لغات الايثيوبيين انفسهم فمعلوم انها كانت تختلف عن لغـة المصريين والباقي منها الى الآن : لغة النوبة وهي لغة سكان النوبة السفلى وقد قال فيها بعض علماء اللغات انها من أصل افريقي لأنها لا توافق اللغـات السامية وقد تقدم الكلام عليها . ولغة البجة وهي من اللغات الحامية ويظن لبسيوس انها لغة مروى القديمة واما الدكتور هيس الالماني المقيم في مصر لدرس لغة النوبة فيقول ان هذه اللغة هي لغة مروى القديمة بدليل ان بعض كلمـاتها الاساسية كالماء والنور والارض تشابه ما ورد من الأسماء في تاريخ مروى . ولغة الجيز وهي لغة اكسوم القديمة وما زالت لغة بلاد التيغري الى هـذا اليوم وسيأتي ذكرها في تاريخ الحبشة .

ديانة الايثيوبيين : اما ديانة الايثيوبيين فعلى مثال ديانة المصريين القدماء وكان أعظم معبود لهم جوبيـتر آمون . ومن معبوداتهم الرئيسية ايس

والصقر (Hauk) والتمساح الذي كانوا يعبدونه باسم سبق (Sebek) .

تمدُّن ايثيوبيا : هذا وقد اختلف علمـاء الآثار أيّ تمدن أقدم تمدن ايثيوبيا أم تمدن مصر وأيُّ البلادين أخذت تمدنها عن الاخرى والرأي الأظهر أن تمدن مصر هو الأقدم وان ايثيوبيـا أخذت الصنايع والفنون بل الديانة وشرائعها عن مصر بدليل ان النصب والهياكل بما عليها من الرسوم والهيروغليف تراها كأنها نسخ عاطلة عن الأصل القديم المصري . وقد كان بين مصر وايثيوبيا اتصال دايم وطرق الاتصال عدا النيل: طريق المرات بين كوروسكو وأبي حمـد ، وطريق قفط الى القصير ثم في البحر الاحمر الى بلاد البوانيت ، وطريق قفط الى بيرينيس (راس بناس) مسيرة ١٢ يوماً . وأول من فتح بيرينيس بطليموس فيلادلفوس وسماها باسم اخته وفي آخر طريقهـا جبل الزمرُّد المعروف الآن باسم جبل زبارة. قيل وجنوب هذا الميناء قرب سواكن معادن ذهب . هـذا وفي الطرق الداخلية التي بين شندي وكلٍّ من سواكن ومروى وسوبه والتي بين الدبة وام درمان آبار قديمة العهـد تدل صريحاً على انها كانت مطروقة منذ عهد بعيد .

حكومتها وشرائعها : اما حكومة ايثيوبيا فكانت من النوع الملكي المطلق وكانت البلاد على ما رواه بليني مقسومة الى ٤٥ مملكة أقواها وأزهاها مملكة مروى إلا ان بليني لم يذكر أمستقلة كانت هـذه الممالك بعضها عن بعض أم تحت سلطان واحد ولا يبعد انها كانت في ذلك العصر على نحو ما كانت عليه مملكة سنار قبيل الفتح المصري . ويفهم مما كتبه وديودورس الصقلي ان بعض ممالك ايثيوبيا كانت انتخابية وملوكها يُنتخبون من الكهنة ويؤلهون بعـد تمليكهم لذلك كان حكمهم من النوع المطلق ولكن كان لا بدّ لهم من مراعاة شرائع البلاد وعرفها وعاداتها في اكثر أحكامهم . وقد كان من قوانين الخلافة عند بعض القبائل انه بعد موت ملكهم يخلفه ابن اخته فاذا لم يكن لأخواته ذرية ملكوا عليهم رجلاً من أجل رجال العائلة المالكة وأقواهم. واذا أصيب الملك بجرح او تعطلت وظيفة عضو من أعضاء جسده اضطر رجـال حاشيته

ان يجرحوا انفسهم مثل جرحه او يعطلوا في جسمهم نظير العضو المعطّل في جسمه . واذا مات الملك اضطر جميع خدمه اتباعاً لقانون او عادة مستحكمة فيهم ان يقتلوا انفسهم وكانوا يعدّون ذلك أقوى شاهد على تمام اخلاصهم له.

وكانت هذه الشرائع مرعية في جزيرة مروى والبلاد التي الى شماليها وأما البلاد التي الى جنوبيها على شاطئي النيل فقد كان بعضهم يملكون عليهم راعياً من أشد الرعاة إقداماً واجتهاداً وبعضهم يملكون أغنى رجل فيهم لاعتقادهم ان الأغنياء هم أقدر الناس على إدارة البلاد وسدّ حاجات العباد .

أخلاق الايثيوبيين وعاداتهم : امـا سكان ايثيوبيا فظاهر من رسومهم التي على الآثار انهم من أصلين كبيرين وهمـا السود وبنو كوش ثم نشأ عن اختلاط بعضها ببعض جنس ثالث سميناه شبه السود كما مرّ وقد رأيت انه هاجر الى ايثيوبيا الكثير من المصريين في مدّات مختلفة فسكنوا مع الايثيوبيين وتجنسوا بهم فنتج من هذا الاختلاط قبائل شتى تختلف في الهيئات والعادات كما تختلف في اللغات والاحكام .

وذكر المؤرخون القدماء نتفـاً من عادات الايثيوبيين وأخلاقهم فاذا هي متأصلة في عادات اهل السودان وأخلاقهم اليوم على بُعد العهد وتغيُّر الاحوال.

فقد وُصف الايثيوبيون بحب الحرب والشجاعة الوحشية واشتهر بعضهم بالكرم والوداعة وحب العدل والصفح عن الزلات . وكان اكبر العيوب على من ارتكب ذنباً يستحق القتل ان يفرّ من وجه القصاص الى بلاد أجنبية .

قال ديودورس : وكان اذا صدر أمر الملك بقتل رجل فخيّل له الفرار من ايثيوبيا قيّدته أمه نفسها بوثاق متين ومنعته من الفرار ولم يبدِ أقل مقاومة لها وإلا جلب على نفسه وعلى أهله وذريته من بعده عاراً لا يُمحى . وكان التروقلوديته يحترمون المسنّات من النساء كل الاحترام حتى انهم اذا كانوا في أشدّ قتالهم ودخلت بينهم امرأة مسنة تركوا سلاحهم وكفّوا عن القتـال وكان من عادتهم ان يدفنوا موتاهم على رؤوس التلال ويغطوا قبورهم بالحجارة ويجعلوا فوق كل قبر قرن ماعز علامة عليه . وكان بعض قبـائل ايثيوبيا

يدفنون موتاهم قرب هياكلهم في توابيت من خزف وبعضهم يرمونهم في النيل ويحسبون ذلك أفضل أنواع الدفن .

وقد وصف هيرودوتس الرجال الايثيوبيين بأنهم كبـار الأبدان حسان الصوَر ويعمرون طويلاً وأما نساء الايثيوبيين فيظهر من تمثال الملكة آمن ريتس السالف ذكرها ان المخدرات منهنّ كنّ صفر الألوان كمخدرات العرب في هذه الايام .

وكان الايثيوبيون يلبسون ثيـاباً من جلد النمر والاسد . ومن أسلحتهم القوس والنشاب والحراب والنبابيت والدرق. قال هيرودتس ولهم قسيٌّ طويلة من جريد النخل طول الواحدة أربع أذرع على الأقل وسهامهم قصيرة وهي من القنـا وفي رؤوسها حجارة محـددة يجعلون فيها السمّ ويستخدمونها لحفر أختـامهم وكان لهم حراب برؤوس من قرون الغزلان ودبابيس كثيرة العجر ومتى ساروا الى الحرب فركوا نصف أبدانهم بالجصّ والنصف الآخر بالزنجفر.

وكان العساكر يعقدون نبالهم حول رؤوسهم فيشكون أطرافها في الشعر حتى تبرز رؤوسها فوق جباههم كالأشعة ويكون منها اكليل. وكان للايثيوبيين ولا سيا سكان الصحراء الشرقية مهارة في رمي النبال فقلما كانوا يخطأون الغرض وكانوا يمرنون اولادهم منذ الصغر على ذلـك حتى كانوا لا يسمحون لهم بتناول الطعام إلا اذا أصابوا الغرض . وكانوا اذا اصطفوا للقتال أظلم الجو من كثرة السهام . وذكر استرابو ان نساء الايثيوبيين كن يحملن السلاح . وكانوا يكرهون الفيران كرهاً شديداً ويربون الكلاب للصيد ويصطادون الأفيـال والنعـام بطرق مختلفـة ويأكلون لحومها . وكان غالب طعامهم اللحم المقدّد وشرابهم اللبن والذين سكنوا سواحل البحر الاحمر كان أكثر قوتهم السمك .

ومنهم قبيلة تعرف باسم انتريبوفاجي تأكل لحوم البشر كالنيام نيام في هـذه الأيام. وكان للاكريدوفاجي وادٍ عميق طوله عدة غلوات فكانوا يملئونه حطباً وينتظرون الريح الجنوبية حتى تقذف رِجل الجراد الى ذلك الوادي فيشعلون النار بالحطب فيختنق الجراد ويقع الى الارض فيغطيها على بعد غلوات فيجمعونه

ويقدّدونه ويخزنونه للتقوت به . وكان هؤلاء القوم في أسوأ حال من العيش ولذلك لم يكن فيهم من يزيد عمره على الاربعين سنة . وكان أثمن المعادن عند الايثيوبيين النحاس فكانوا يفضلونه على الذهب الذي كان عندهم بمقـام الحديد عندنا حتى كانوا يجعلون منه سلاسل للمجرمين.وكانوا يمارسون الختان كالمصريين إلا ان هيرودتس لم يستطع الحكم في أي الفريقين اخذه عن الآخر .

هذا ما كان من اخبار ايثيوبيا او السودان في الجاهليـة فلنتقدم الآن الى ما صارت اليه في النصرانية ثم في الاسلام .

الباب الثاني

في

تاريخ النوبة في عهد النصرانية

١ ـ تمهيد جغرافي

تقدم انه بعد ان دالت دولة مروى لم يشتهر في ايثيوبيا إلا أمتان: النوبة على النيل والبجة في الصحراء الشرقية وان النوبة اعتنقوا النصرانية في القرن السادس للمسيح وبقي البجة على الوثنية . ثم كان الاسلام ففتحوا مصر وكان لهم مع النوبة والبجة ما نبينه هنا نقلاً عن مؤرخي الاسلام الذين كتبوا عن هذا العهد دون غيرهم من المؤرخين . ويؤخذ مما كتبوه انه كان للنوبة في عهد النصرانية مملكتان قويتان : مملكة النوبة السفلى امتدت من الشلال الاول الى الشلال الرابع وكانت عاصمتها دنقلة العجوز . ومملكة النوبة العليـا وعرفت ايضاً بمملكة علوة امتـدت من الشلال الرابع الى أعالي جزيرة سنار وكانت عاصمتها سوبه عن يمين النيل الازرق على ١٥ ميلاً من الخرطوم .

قال المسعودي: « وأما النوبة فافترقت فرقتين فرقة في شرق النيل وغربه وأناخت على شاطئه فاتصلت ديارها بديار القبط من ارض مصر والصعيـد من بلاد اسوان وغيرها. واتسعت مساكن النوبة على شاطىء النيل مصعدة ولحقوا بقريب من أعاليه وبنوا دار مملكة عظيمة تدعى دنقـلة والفريق الآخر من النوبة يقال لهم علوة وبنوا مدينة عظيمة وسموها سوبه » . وقـال عن ابن دأب : « ثم سألني الهادي (الذي عاش في أواسط القرن الثاني للهجرة) عن مدينة دنقلة وهي دار مملكة النوبة كم المسافة بينها وبين اسوان قلت قد قيل اربعون يوماً على شاطىء النيل عمائر متصلة » . وقال ابو الفدا عن ابن سعيد: « ومن أمم السودان النوبة وهم يجاورون الحبشة من جهـة الشمال والغرب . والنوبة في جنوب حدود مصر وكثيراً ما يغزوهم عسكر مصر . ويقـال ان

لقمان الحكيم الذي كان مع داود النبي عليه السلام من النوبة وانه ولد بإيله . ومنهم ذو النون المصري وبلال بن حمامة . وهم نصارى . وقال المقريزي نقلاً عن كتاب « أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل » لعبد الله بن احمد بن سليم الاسواني : كان يسكن في بلاد النوبة (السفلى) قوم يقـــال لهم المقرة وأول ارض المقرة قرية تعرف بنافة على مرحلة من اسوان ومدينة ملكهم يقال لها نجراش على أقل من عشر مراحل من اسوان ويقـال ان موسى صلوات الله عليه غزاهم قبل مبعثه في ايام فرعون فأخرب نافة . فالنوبة والمقرة جنسان بلسانين كلاهما على النيل فالنوبة هم المجـاورون لأرض الاسلام وبين اول بلدهم وبين اسوان خمسة أميال ويقال ان سلها جدّ النوبة ومقرى جد المقرة من اليمن وقيل النوبة والمقرة من حمير واكثر اهل الانساب على انهم جميعاً من ولد حام ابن نوح . وكان بين النوبة والمقرة حروب قبل النصرانية وكانوا صابئة يعبدون الكواكب وينصبون التماثيل لهـــا ثم تنصروا جميعاً النوبة والمقرة . ومدينة دنقلة هي دار مملكتهم .

وقال المقريزي في علوة نقلاً عن كتاب عبد الله الاسواني السالف الذكر « قال بلغني ان بعض متملكي بلد علوة سار فيها يريد أقصاها فلم يأتِ عليــه بعد سنين وان في طرفها القبلي جنساً يسكنون ودوابهم في بيوت تحت الارض مثل السراديب بالنهـــار من شدة حر الشمس ويسرحون في الليل وفيهم قوم عراة . قال وسوبه مدينة العـــلوي شرقي الجزيرة الكبرى التي بين البحرين الابيض والاخضر المعروف الآن بالازرق الطرف الشمالي منها عنـــد مجتمعها وشرقيها النهر الذي يجف ويسكن بطنه (ويشير الى نهر أتبرة) وفيها أبنية حسان ودور واسعة وكنائس كثيرة الذهب وبساتين ولها رباط فيه جمـــاعة من المسلمين ومتملك علوة اكثر مالاً من متملك المقرة وأعظم جيشاً وعنـــده من الخيل ما ليس عند المقري وبلده أخصب وأوسع والنخل والكرم عندهم يسير واكثر حبوبهم الذرة البيضاء التي مثل الارز منها خبزهم ومزرهم . واللحم عندهم كثير لكثرة المواشي والمروج الواسعة حتى انه لا يوصل الى الجبل إلا في

أيام . وعندهم خيل عتاق وجمال صهب عراب . ودينهم النصرانية يعاقبـــة . وأساقفتهم من قبل صاحب الاسكندرية كالنوبة . وكتبهم بالرومية (اليونانية) يفسرونها بلسانهم وهم اقل فهماً من النوبة وملكهم يسترق من شاء من رعيته بجرم وبغير جرم ولا ينكرون ذلـك عليه يسجدون له ولا يعصون أمره على المكروه الواقـع بهم وينادون الملك يعيش فليكن أمره وهو يتتوج بالذهب والذهب كثير في بلده .

« ومما في بلده من العجائب ان في الجزيرة الكبرى التي بين البحرين جنساً يعرف بالكرما او القرّنا لهم ارض واسعة مزروعة من النيل والمطر فاذا كان وقت الزرع خرج كل واحد منهم بما عنده من البذر واختط على مقدار ما معه وزرع في اربعة أركان الخطة يسيراً وجعـل البذر في وسط الخطة وشيئاً من المزر وانصرف عنه فاذا أصبح وجد ما اختط قد زرع وشرب المزر فاذا كان وقت الحصاد حصد يسيراً منه ووضعه في موضع أراده ومعه مزر وينصرف فيجد الزرع قـد حصد بأسره وجرّن . فاذا أراد دراسه وتذريته فعل بـه كذلك . وربما أراد أحدهم ان ينقي زرعه من الحشيش فيلفظ بقلع شيء من الزرع فيصبح وقد قُلع جميع الزرع . وهذه الناحية التي فيها ما ذكرته بلدان واسعة مسيرة شهرين في شهرين يزرع جميعها في وقت واحد . وميرة بلد علوة ومتملكهم من هذه الناحية فيوجهون المراكب فتوسق وربما وقع بينهم حرب . قال وهذه الحكاية صحيحة معروفة مشهورة عند جميع النوبة والعلوة وكل من يطرق ذلك البلد من تجار المسلمين لا يشكون فيه ولا يرتابون به ولولا ان اشتهاره وانتشاره مما لا يجوز التواطؤ على مثله لما ذكرت شيئاً من شناعته فأما اهل الناحية فيزعمون ان الجن تفعل ذلك وانها تظهر لبعضهم وتخدمهم بحجارة ينطاعون لهم بها وتعمل لهم عجائب وان السحاب يطيعهم قال ومن عجائب ما حدثني به متملك المقرة للنوبة انهم يمطرون في الجبال ويلتقطون منه للوقت سمكاً على وجه الارض وسألتهم عن جنسه فذكروا انـــه صغير القدر بأذناب حمر .

« قال وقد رأيت جماعة وأجناساً ممن تقدم ذكر أكثرهم يعترفون بالباري سبحانه وتعالى ويتقربون اليه بالشمس والقمر والكواكب ومنهم من لا يعرف الباري ويعبد الشمس والنار ومنهم من يعبد كل ما استحسنه من شجرة او بهيمة وذكر انه رأى رجلاً في مجلس عظيم المقرة سأله عن بلده فقال مسافته الى النيل ثلاثة أهلة وسأله عن دينه فقال ربي وربك الله ورب الملك ورب الناس كلهم واحد وانه قال له فأين يكون قال في السماء وحده . وقال انه اذا أبطأ عنهم المطر او اصابهم الوباء أو وقع بدوابهم آفة صعدوا الجبل ودعوا الله فيجابون للوقت وتقضى حاجتهم قبل ان ينزلوا . وسأله هل أرسل فيكم رسول قال لا فذكر له بعثة موسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم وسلامه وما أبدوا من المعجزات فقال اذا كانوا فعلوا هذا فقد صدقوا ثم قال قد صدقتهم ان كانوا فعلوا اه » .

الفصل الاول

في

تاريخ النوبة السفلى

منذ دخول النصرانية اليها سنة ٥٤٥ م الى انقراضها منها سنة ١٣١٨ م

ان جلّ ما نعلمه عن دخول النصرانية الى بلاد النوبة ان قد جاءها رسل من الاسكندرية سنة ٥٤٥م فبشروا اهلها بالنصرانية فاعتنقوها وتركوا عبادة الأوثان . ثم لا نعلم شيئاً من اخبارهم حتى كان الاسلام وافتتح المسلمون مصر سنة ١٨ هـ ٦٤٠ م قال ابن الاثير « فغزا المسلمون النوبة فرجعوا بالجراحات وذهاب الحدق لجودة رميهم فسموهم رماة الحدق » .

وقال المقريزي « وفي سنة ٢١ هـ بعث عمرو بن العاص عبد الله بن سعد ابن أبي سرح في عشرين ألف الى النوبة فمكث بها عبد الله بن سعد زماناً وصالحهم وقرّر عليهم شيئاً معلوماً من المال . ثم ان عمرو بن العاص كتب الى عبد الله بن سعد يأمره بالرجوع اليه فرجع . وسنة ٢٣ هـ ٦٤٤ م قُتل الامام عمر بن الخطاب وتولى بعده عثمان وكان عبد الله بن سعد من أقاربه فعزل عمرو ابن العاص عن ولاية مصر وولى عليها عبد الله بن سعد. وفي اول ولايته نقض النوبة الصلح الذي جرى بينهم وبينه وأرسلوا سراياهم الى صعيد مصر فأخربوا

وأفسدوا فغزاهم مرة ثانية عبد الله بن سعد بن ابي السرح المذكور وهو على إمارة مصر في خلافة عثمان (رضه) سنة ٣١ هـ . ٦٥٢ م وحاصرهم بمدينة دنقـلة حصاراً شديداً ورماهم بالمنجنيق ولم تكن النوبة تعرفه وخسف بهم كنيستهم بحجر فبهرهم ذلك وطلب ملكهم قليدوروون الصلح وخرج الى عبدالله وأبدى ضعفاً ومسكنة وتواضعاً فتلقاه عبد الله ورفعه وقرّبه ثم قرّر الصلح معه على ثلاثمائة وستين رأساً من الرقيق في كل سنة ووعده عبد الله بحبوب يهديها اليه لما شكا له قلة الطعام ببلده وكتب لهم كتاباً نسخته بعد البسملة :

« عهد من الامير عبد الله بن سعد بن ابي السرح لعظيم النوبة ولجميع اهل مملكته . عهد عقده على الكبير والصغير من النوبة من حد ارض اسوان الى حد ارض علوة. ان عبدالله بن سعد جعل لهم أماناً وصدقة جارية بينهم وبين المسلمين ممن جاوروهم من اهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين واهل الذمة انكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد النبي ﷺ ان لا نحاربكم ولا ننصب لكم حرباً ولا نغزوكم ما أقمتم على الشرائط التي بيننا وبينكم على ان تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه. وعليكم حفظ من نزل بلدكم او بطرفه من مسلم او معاهد حتى يخرج عنكم وان عليكم ردّ كل آبق خرج اليكم من عبيد المسلمين حتى تردّوه الى ارض الاسلام ولا تستولوا عليه ولا تمنعوا منه. ولا تتعرضوا لمسلم قصده وجاوره الى ان ينصرف عنه . وعليكم حفظ المسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم ولا تمنعوا منه مصلياً . وعليكم كنسه وإسراجه وتكرمه . وعليكم في كل سنة ثلاثمائة وستون رأساً تدفعونها الى إمام المسلمين من أوسط رقيق بلدكم غير المعيب يكون فيها ذكران وإناث ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم تدفعون ذلك الى والي إسوان . وليس على مسلم دفع عدو عرض لكم ولا منعه عنكم من حد ارض علوة الى ارض اسوان . فإن انتم أويتم عبد المسلم او قتلتم مسلماً او معاهداً او تعرضتم للمسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم او منعتم شيئاً من الثلاثمائة رأس والستين رأساً فقد برئت منكم

هذه الهدنة والأمان وعدنا نحن وانتم على سواء حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين . بذلك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله محمد ﷺ ولنا عليكم بذلك اعظم ما تدينون به من ذمة المسيح وذمة الحواريين وذمة من تعظمونه من اهل دينكم وملتكم الله الشاهد بيننا وبينكم على ذلك . كتبه عمرو بن شرحبيل في رمضان سنة ٣١ هـ اهـ » . وهذه الجزية التي تدفعها النوبة تسمى بقطاً .

« وكانت النوبة رفعت الى عمرو بن العاص ما صولحوا عليه من البقط قبل نكث عهدهم وأهدوا الى عمرو اربعين رأساً من الرقيق فلم يقبلها وردّ الهدية الى كبير البقط ويقال له سمقوس فاشترى له بذلك جهازاً وخمراً ووجّهه اليه وبعث اليهم عبد الله بن سعد ما وعدهم به من الحبوب قمحاً وشعيراً وعدساً وثياباً وخيلا ثم تطاول الرسم على ذلك فصار رسماً يأخذونه عند دفع البقط في كل سنة وصارت الاربعون رأساً التي أهديت الى عمرو يأخذها والي مصر. وعن ابي خليفة حميد بن هشام البحتري ان الذي صولح عليه النوبة ثلاثمائة وستون رأساً لفيء المسلمين ولصاحب مصر اربعون رأساً ويدفع اليهم الف اردب قمحاً ولرسله ثلاثمائة اردب ومن الشعير كذلك ومن الخمر الف اقتيز للمتملك ورسله ثلاثمائة اقتيز وفرسين من نتاج خيل الامارة ومن أصناف الثياب مائة ثوب ومن القباطي اربعة أثواب للمتملك ولرسله ثلاثة ومن البقطرية ثمانية أثواب ومن المعلمة خمسة أثواب وجبة مجملة للملك ومن قمص ابي بقطر عشرة اثواب ومن احاص عشرة اثواب وهذه ثياب غلاظ » ...

قال ابن وصيف شاه : لما انتقلت الخلافة الى بني العباس وولي عبد الله السفاح سنة ١٣٢ هـ ٧٥٠ م توجه عبدالله بن علي العباسي الى الشام في طلب من بقي من بني أمية ثم ارسل بالقبض على الامير عبيد الله بن مروان الحمار امير مصر فلما ان بلغ الامير عبيدالله ذلك دخل الى خزائن أمواله وأخذ منها عشرة آلاف دينار ذهباً ثم احضر اثني عشر بغلا وحملها ذلك المال وشيئاً من القماش والفرش وغير ذلك وأخذ معه جماعة من العبيد والغلمان ثم شدّ على وسطه خريطة

فيها جواهر فاخرة مثمنة وخرج من مصر هارباً فتوجه الى نحو بلاد النوبة . فلما وصل هناك وجد مدائن خراباً وبها قصور محكمة البناء فنزل في بعض تلك القصور وأمر غلمانه بكنسها فكنست وفرش فيها ما كان معه من تلك الفرش الفاخرة ثم قال لبعض غلمانه وكان ممن يثق بعقله أمض الى ملك النوبة وخـذ لي منه أماناً على نفسي من القتل فخرج الغلام وتوجه الى ملك النوبة فغاب ساعة ثم عاد ومعه قاصد من عند ملك النوبة فلما دخل عليه قال له ان الملك يقرئك السلام ويقول لك أمحارباً جئت اليه ام مستجيراً فقال له الامير عبيد الله ردّ عليه مني السلام وقل له قد جاء اليك ليستجير بك من عدو يريـد قتله فمضى ذلك القاصد بالجواب فغاب ساعة ورجع وقال له ان الملك قادم عليك في هذه السـاعة فقال عبيد الله لغلمانه افرشوا ما معنا من الفرش الفاخرة وجعل مرتبة في صدر المكان برسم ملك النوبة وجلس يرتقب مجيئه فبينما هو على ذلـك اذ دخل عليه غلامه وقال له ان ملك النوبة قد أقبل فقام الامير عبيد الله وصعد على أعلى القصر ونظر الى ملك النوبة فاذا هو رجل اسود طويل القامة نحيف الجسم وعليه بردان قد ائتزر بأحدهما وارتدى بالآخر ومعه عشرة من السودان حوله ومعهم حراب بأسنة تلمع فلما رآه عبيد الله استصغر امره واحتقره فلما قرب من المكان الذي فيه عبيد الله أتاه من عسكره نحو عشرة آلاف رجل من السودان في أيديهم الحراب فلما وصل ملك النوبـة على عبيد الله وأحاط ذلك العسكر بالمكان الذي فيه عبيد الله ووقعت عين ملك النوبـة على الامير عبيد الله بادر الى يد الامير عبيد الله وقبلها فأشار اليـه عبيد الله بأن يجلس على تلك المرتبة التي وضعها اليه فأبى وصار يدفع تلك الفرش الفاخرة برجله فقال عبيد الله للترجمان لِمَ لا يقعد الملك على تلك المرتبة التي وضعناها له فقال له الترجمان في ذلك فقـال ملك النوبة قل للامير كل ملك لا يكون متواضعاً لله فهو جبار عنيد متكبر ثم انه جلس بين يدي الامير عبيدالله وجعل ينكت في الارض باصبعه طويلاً ثم انه رفع رأسه الى الامير عبيد الله وقال له كيف سلبتم ملككم وأخذ منكم وأنتم أقرب الناس الى نبيكم فقال له عبيد الله

ان الذي سلبنا ملكنا أقرب الى نبينا منا فقـال له ملك النوبة فكيف أنتم تلوذون الى نبيكم بقرابة وأنتم تشربون ما حُرّم عليكم من الخمور وتلبسون الديبـاج وهو محرّم عليكم وتركبون في سروج الذهب والفضة وهي محرّمة عليكم ولم يفعل نبيكم شيئاً من هذا وبلغنـا انك لما وليت على مصر كنت تخرج الى الصعيد وتكلف اهل القرى ما لا يطيقون وتفسد الزرع على الناس وتروم الهدايا والتقـادم من أهل القرى وكل هـذا لأجل كركي تصيده قيمته سبعة انصاف او ثمانية فصار ملك النوبة يعدد على الامير عبيد الله جملة ذنوب والامير عبيد الله ساكت لا يتكلم بحرف واحـد ثم قال له ملك النوبة فلما استحللتم ما حرمه الله عليكم سلبتم ملككم وأخذ منكم وأوقع الله بكم نقمة لم تبلغ غايتها منكم وانا أخاف على نفسي ان أنزلتك عندي ان تحل بي تلك النقمة التي أحلت بكم والبلاء عام والرحمـة مخصوصة ثم قال له ارحـل من ارضي بعد ثلاثة أيام وإلا اخذت جميع ما معك وقتلتك شر قتلة فلمـا سمع الامير عبيد الله ذلك خرج من ارض النوبة من يومه ورجع الى مصر فقبض عليه عمال الخليفة المنصور العباسي وبعثوا بـه الى بغداد فسجنه المنصور حتى مات في السجن اه عن ابن أياس .

وذكر القزويني هذه القصة فعزاها الى محمد بن مروان قال « وجرى ذكر ملك النوبة في مجلس المهدي (محمد بن ابي جعفر المنصور العباسي سنة ١٥٨هـ: ١٦٩ هـ أي سنة ٧٧٥ م : ٧٨٥ م) فقـال بعض الحاضرين ان له مع محمد بن مروان قصة عجيبة فأمر المهدي باحضار محمد بن مروان وسأله عما جرى بينه وبين ملك النوبة فقال لما التقينا ابا مسلم بمصر وانهزمنا وتشتت جمعنا وقعت بأرض النوبة فأحببت ان يمكنني ملكهم من المقام عندهم زماناً فجاءني زائراً وهو رجل طويل اسود اللون فخرجت اليه من قبتي وسألته ان يدخلها فأبى ان يجلس إلا خارج القبة على التراب فسألته عن ذلـك فقال ان الله تعالى أعطاني الملك فحقٌ علي ان أقابله بالتواضع ثم قال لي ما بالكم تشربون النبيذ وانها محرّمة في ملتكم قلت نحن ما نفعل ذلك وانما يفعله بعض فسّاق

أهل ملتنا فقال كيف لبست الديباج ولبسه حرام في ملتكم قلت ان الملوك الذين كانوا قبلنا وهم الأكاسرة كانوا يلبسون الديباج فتشبهنا بهم لئـلا تنقص هيبتنا في عين الرعايا فقال كيف تستحلون اخذ أموال الرعايا من غير استحقاق قلت هـذا شيء لا نفعله ولا نرضى به وانما يفعله بعض عمالنا السوء فأطرق وجعل يردد مع نفسه « يفعله بعض عمالنا السوء » ثم رفع رأسه وقال ان الله تعالى جعل فيكم نقمة ما بلغت غايتها اخرج من ارضي حتى لا يدركني شؤمك ثم قام ووكل بي حتى ارتحلت من أرضه والله تعالى الموفق اه .

وقال القزويني : « بلاد النوبة ارض واسعة في جنوبي مصر وشرقي النيل وغربيه وأهلها أمة عظيمة نصارى يعاقبة ولهم ملك اسمه كابيل يزعمون انه من نسل ملوك حمير قال ﷺ : خير سبيكم النوبة وقال ايضاً : من لم يكن له أخ فليتخذ أخاً نوبيـاً . ومن عاداتهم تعظيم الملك الذي اسمه كابيل وهو يوهم انه لا يأكل ويدخل الطعام عليه سراً فإن عرف ذلك احد من الرعيـة قتلوه لوقته ويشرب شراباً من الذرة مقوى بالعسل ولبسه الثياب الرفيعة من الصوف والخز والديباج وحكمه نافذ في رعيتـه ويده مطلقة يسترق من شاء ويتصرف في أموالهم وهم يعتقدون انه يُحيي ويُميت ويُصح ويُمرض .

وقال البلاذري في كتـاب الفتوحات في كلامه عن البقط : « ان المقرّر على النوبة اربعمائة رأس يأخذون بهـا طعاماً اي غلة وألزمهم امير المؤمنين المهدي محمد بن ابي جعفر المنصور (العباسي المارّ ذكره) ثلاثمائة وستين رأساً وزرافة اه » .

وقال الليث بن سعد وهو من الثقاة في اخبـار النوبة : ولم يزل النوبة يؤدون البقط في كل سنة ويدفع اليهم مـا تقدم ذكره الى ايام امير المؤمنين المعتصم بالله أبي اسحق بن الرشيد العباسي (سنة ٢١٨ هـ : ٢٢٧ هـ — ٨٣٣م : ٨٤٢ م) وكبير النوبة يومئذ زكرياء بن يحنس وكانت النوبة ربما عجزت عن دفع البقط فشنّ الغارة عليهم ولاة المسلمين القريبون من بلادهم ومنعوا إخراج الجهـاز اليهم فأنكر فيرقي ولد كبيرهم زكريا على أبيه ذلّ الطاعة لغيره

واستعجزه فيما يدفع فقال له ابوه : فما تشاء ؟ قال : عصيانهم ومحاربتهم قال ابوه : هذا شيء رآه السلف من آبائنا صواباً وأخشى ان يفضي هـذا الامر اليك فتقدم على محاربة المسلمين غير اني أوجّهك الى ملكهم رسولاً فأنت ترى حالنا وحالهم فإن رأيت لنا بهم طاقة حاربناهم على خبرة وإلا سألته الاحسان الينا فشخص فيرقى الى بغداد وكانت البلدان تزين له وهو يسير على المدن وانحدر بانحداره رئيس البجة ولقيـا المعتصم فنظرا الى ما بهرهما من حال العراق في كثرة الجيوش وعظم العمارة مع ما شاهداه في طريقهما فقرّب المعتصم فيرقى وأدناه وأحسن اليه إحساناً تاماً وقبل هديته وكافأه بأضعافها وقال له تمنّ ما شئت فسأله في اطلاق المحبوسين فأجابه الى ذلك وكبر في عين المعتصم ووهب له الدار التي نزلها بالعراق وأمر ان يشترى له في كل منزل من طريقه دار تكون لرسلهم فانه امتنع من دخول دار لأحد في طريقـه فأخذ له بمصر دار بالجيزة واخرى ببني وائل وأجرى لهم في ديوان مصر سبعمائة دينـار وفرساً وسرجاً ولجاماً وسيفاً محلى وثوباً مثقلاً وعمامة من الخز وقميص شرب ورداء شرب وثياباً لرسله غير محدودة عند وصول البقط الى مصر ولهم حملان. وخلع على المتولي قبض البقط وعليهم رسوم معلومة لقابض البقط والمتصرفين معه وما يهدى اليهم بعد ذلك فغير محدود وهو عنـدهم هدية يجازون عليها . ونظر المعتصم الى ما كان يدفعه المسلمون فوجده اكثر من البقط وأنكر عطية الخمر وأجرى الحبوب والثياب التي تقدم ذكرها وقرّر دفع البقط بعد انقضاء كل ثلاث سنين وكتب لهم كتاباً بذلك بقي بيد النوبة . وطلب ملك النوبة من المعتصم إزالة المسلحة المعروفـة بالقصر عن موضعها الى الحد الذي بينهم وبين المسلمين لأن المسلحة على أرضهم فلم يجبه الى ذلك . ولم يزل الرسم جارياً بدفع البقط على هـذا التقرير ويدفع اليهم ما أجراه المعتصم الى ان قدمت الدولة الفاطمية الى مصر اه. عن المقريزي .

وقال المسعودي في كلامه عن البقط : « وعدد ذلك ثلاثمائة رأس وخمسة وستون رأساً وأراه رسم على عدد ايام السنة هـذا لبيت مال المسلمين بشرط

الهدنة بينهم وبين النوبة وللامير في مصر غير ما ذكرنا من عدد السبي اربعون رأساً ولخليفته المقيم في بلاد اسوان المجاورة لأرض النوبة وهو المتولي لقبض هذا البقط وهو السبي عشرون رأساً غير الاربعين وللحاكم المقيم في اسوان الذي يحضر مع امير اسوان لقبض البقط خمسة رؤوس غير العشرين التي يقبضها الامير وللاثني عشر شاهداً عدولاً مع اهل اسوان يحضرون مع الحاكم حين قبض البقط اثنا عشر رأساً من السبي على حسب ما جرى به الرسم في صدر الاسلام في بدء إيقاع الهدنة بين المسلمين والنوبة . والموضع الذي يتسلم فيه هذا البقط ويحضره من سمبناه وغيرهم من النوبة من ثقاة الملك يعرف بالقصر وهو على ستة اميال من مدينة اسوان بالقرب من جزيرة بلاق اه » .

وقال (المسعودي) عند كلامه عن اسوان : « ومدينة اسوان يسكنها خلق كثير من العرب من قحطان ونزار بن معدّ من ربيعة ومضر وخلق من قريش واكثرهم ناقلة من الحجاز وغيره . والبلد كثير النخل خصيب كثير الخير . تودع النواة الارض فتنبت نخلة ويؤكل من ثمرها بعد سنتين . ولمن بأسوان من المسلمين ضياع كثيرة داخلة بأرض النوبة يؤدون خراجها الى ملك النوبة وابتيعت هذه الضياع من النوبة في صدر الزمان في دولة بني أمية وبني العباس . وقد كان ملك النوبة استعدى المأمون حين دخل مصر على هؤلاء القوم بوفد أوفدهم الى الفسطاط ذكروا عنه ان ناساً من اهل مملكته وعبيده باعوا ضياعاً من ضياعهم ممن جاورهم من اهل اسوان وانها ضياعه والقوم عبيد لا أملاك لهم وانما تملكهم على هذه الضياع تملك العبيد العاملين فيها فردّ المأمون امرهم الى الحاكم بمدينة اسوان ومن بها من اهل العلم والشيوخ وعلم من ابتاع هذه الضياع من اهل اسوان انها ستنزع من أيديهم فاحتالوا على ملك النوبة بأن تقدموا الى من ابتيع منهم من اهل النوبة انهم اذا حضروا حضرة الحاكم ان لا يقرّوا لملوكهم بالعبودية وان يقولوا سبيلنا معاشر المسلمين سبيلكم مع ملككم تجب علينا طاعته وترك مخالفته فإن كنتم انتم عبيداً لملككم وأموالكم له فنحن كذلك ولما جمع الحاكم بينهم وبين صاحب الملك أتوا بهذا الكلام

للحاكم ونحوه مما أوقفوا عليه من هذا المعنى فمضى البيع لعدم إقرارهم بالرق لملكهم الى هذا الوقت وتوارث الناس تلك الضياع بأرض النوبة من بلاد مريس المجاورة لأسوان . وصار النوبة اهل مملكة هذا الملك نوعين : نوعاً من وصفنا احراراً غير عبيد والنوع الآخر من اهل مملكته عبيد وهم من سكن من النوبة في غير بلاد مريس اه » كلام المسعودي ملخصاً .

وفي سنة ٢٥٥ هـ . ٨٧٠ م ذهب ابو عبد الرحمن بن عبدالله بن عبد الحميد العمري الى محاربه النوبة (ورجع غانماً) اه عن المقريزي .

وقال المسعودي : « وانتهيت في تصنيفي الى هذا الموضع من كتابنا هذا في شهر ربيع الآخر سنة ٣٣٢ هـ . ٩٤٤ م فأخبرت ان الملك في مدينة دنقلة الى النوبة ليرني بن سدر وهو ملك ابن ملك ابن ملك فصاعداً وملكه يحتوي على ام قرية وعلوة » .

وفي ذي الحجة سنة ٣٤٤ هـ . ٩٥٦ م أغار ملك النوبة على اسوان وقتل جمعاً من المسلمين فخرج اليه محمد بن عبد الله الخازن على عسكر مصر من قبل انوجور بن الاخشيد في محرم سنة ٣٤٥ هـ . ٩٥٧ م فساروا في البر والبحر وبعثوا بعدة من النوبة أسروهم فضربت أعناقهم بعد ما أوقع بملك النوبة . وسار الخازن حتى فتح مدينة ابريم وسبى اهلها وقدم الى مصر في نصف جمادى الاولى سنة ٣٤٥ هـ بمائة وخمسين أسيراً وعدة رؤوس اه عن المقريزي.

وقال المتنبي من قصيدة مشهورة يمدح بها كافور الاخشيدي الذي تولى مصر من سنة ٣٥٥ : ٣٥٧ هـ — ٩٦٦ : ٩٦٨ م :

« يصرّف الامرَ من مصر الى عدنٍ الى الحجاز فأرض الزنج فالنوبِ »

وهو يدل على اتساع ملك مصر في ذلك الزمان وخضوع النوبة لها .

وقال ابن الاثير : « وفي سنة ٣٩٧ هـ . ١٠٠٧ م سار ابو ركوة الى بلد النوبة فلما بلغ الى حصن يعرف بحصن الجبل للنوبة أظهر انه رسول من « الحاكم » الى ملكهم فقال له صاحب الحصن الملك عليل ولا بد من استخراج

امره في مسيرك اليه وبلغ الفضل الخبر فأرسل الى صاحب القلعـة بالخبر على حقيقته فوكل به من يحفظه وارسل الى الملك بالحال وكان ملك النوبة قد توفي وملك ولده فأمر ان يسلم الى نائب الحاكم فتسلمه رسول الفضل وسار به فلقيه الفضل وأكرمه وأنزله في مضاربه وحمله الى مصر فأشهر بهـا وطيف به .

وكتب ابو ركوة الى «الحاكم» رقعة يقول فيها : يا مولانا ذنوبي عظيمة وأعظم منها عفوك والدماء حرام ما لم يحللها سخطك وقد أحسنتَ وأسأتُ ومـا ظلمتُ إلا نفسي وسوء عملي أوبقني وأقول :

فررت فلم يغنِ الفرار ومن يكن — مع الله لم يعجزه في الارض هاربُ
ووالله ما كان الفرار لحـاجة — سوى فزع الموت الذي انا شارب
وقد قـادني جرمي اليك برمّتي — كما خرَّ ميتٌ في رحا الموت سارب
وأجمع كل النـاس انك قاتلي — فيـا رُبَّ ظنٍّ ربه فيك كاذب
وما هو إلا الانتقـام وينتهي — وأخذك منه واجباً لك واجب

ولمـا طيف به أُلبس طرطوراً وجُعل خلفه قرد يصفعه كان معلماً بذلك ثم حُمل الى ظاهر القـاهرة ليُقتل ويُصلب فتوفي قبل وصوله فقُطع رأسه وصُلب . وبالغ الحـاكم في إكرام الفضل الى حد انه عاده في مرضةٍ مرضها دفعتين فاستعظم الناس ذلك ثم انه عمل في قتل الفضل لما عوفي فقتله .

« وفي جمادى الاولى سنة ٥٦٨ هـ . ١١٧٣ م سار شمس الدولة توران شاه ابن ايوب اخو صلاح الدين الاكبر من مصر الى بلد النوبة فوصل الى اول بلادهم ليتغلب عليه ويملكه وكان سبب ذلك ان صلاح الدين وأهله كانوا يعلمون ان نورالدين كان على عزم الدخول الى مصر فاستقرَّ الرأي بينهم انهم يتملكون إما بلاد النوبة او بلاد اليمن حتى اذا وصل اليهم نورَ الدين لقوه وصدّوه عن البـلاد فإن قووا على منعه أقاموا بمصر وإن عجزوا عن منعه ركبوا البحر ولحقوا بالبلاد التي قد افتتحوها فجهّز شمس الدولة وسار الى اسوان ومنها الى بلد النوبة فنـازل قلعة اسمها ابريم فحصرها وقاتله اهلها فلم يكن لهم طاقة بقتال العسكر الاسلامي لأنهم ليس لهم جنـة تقيهم السهام وغيرها من آلة

الحرب فسلموها فملكها وأقام بها ولم يرَ للبلاد دخلا يُرغب فيه وتحتمل المشقة لأجله وقوتهم الذرة فلما رأى عدم الحاصل وقشف العيش مع مباشرة الحروب ومعاناة التعب والمشقة تركها وعاد الى مصر بما غنم وكان عامة غنيمتهم العبيد والجواري » .

وقال المقريزي في كلامه عن توران شاه هـذا : « وأعطاه صلاح الدين قوص واسوان وعيذاب وجعلها له اقطاعاً فكانت عبرتها في تلك السنة مائتي الف وستة وستين الف دينار . ثم خرج الى غزو بلاد النوبة في سنة ٥٦٩ هـ . ١١٧٤ م وفتح قلعـة ابريم وسبى وغنم ثم عاد بعـد ما اقطع ابريم بعض اصحابه » .

« وقد غلب اولاد كنز الدولة على النوبة وملكوها من سنة . . . . . وبنى بدنقلة جامعاً يأوي اليه الغرباء » .

« وفي سنة ٦٧٤ هـ . ١٢٧٦ م كثر خبث داود متملك النوبة وأقبل الى ان قرب من مدينة اسوان وحرق عدة سواق بعـد ما افسد بعيذاب فمضى اليه والي قوص فلم يدركه وقبض على صاحب الخيل في عدة من النوبة وحملهم الى السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقاري بقلعة الجبل فوسّطهم (اي قطعهم بالسيف من الوسط) » .

وقدم سكندة ابن اخت متملك النوبة متظلماً من خـاله داود فجرّد السلطان الملك الظاهر معـه الامير شمس الدين آق سنقر الفارقاني استاذ داره والأمير عز الدين أيبك الافرم امير جاندار في جماعة كثيرة من العسكر ومن أجناد الولايات عربان الوجه القبلي والزرّاقين والرماة ورجـال الحراريق فساروا في اول شعبان سنة ٦٧٤ هـ من القـاهرة حتى وصلوا الى ارض النوبة فخرجوا الى لقائهم على النجب (الابل) بأيديهم الحراب وعليهم دكادك سود فاقتتل الفريقان قتلاً كبيراً انهزم فيه النوبة وأغار الافرم على قلعة الدر وقتل وسبى وأوغل الفارقاني ومعه الافرم في ارض النوبة براً وبحراً يقتـل ويأسر

فحاز من المواشي ما لا يعد ونزل بجزيرة ميكائيل برأس الجنادل ونفر المراكب من الجنادل ففر النوبة الى الجزاير . وكتب الفارقاني لقمر الدولة نائب داود متملك النوبة أماناً فحلف قمر الدولة لسكندة على الطاعة وأحضر رجال المريس ومن فر . وخاض الافرم الى برج في الماء وكان فيه داود وأمرته وحصره حتى أخذه وقتل به مائتين وأسر أخاً لداود فهرب داود والعسكر في أثره مدة ثلاثة أيام وهم يقتلون ويأسرون حتى أذعن القوم وأسرت ام داود وأخته ولم يقدر على داود لأنه تخلص الى النوبة العليا فلقيه هناك ملكها فقاتله وهزمه وأسره وبعث به مقيداً الى السلطان بمصر فاعتقل بالقلعة الى ان مات وتقرّر سكندة عوضه وقرر على نفسه القطيعة في كل سنة ثلاث فيلة وثلاث زرافات وخمس فهود من أناثها ومائة نجيب أصهب وأربعماية رأس من البقر المنتجة على ان تكون بلاد النوبة نصفين نصفها للسلطان ونصفها لعمارة البلاد وحفظها ما خلا بلاد الجنادل فانها كلها للسلطان لقربها من اسوان وهي نحو الربع من بلاد النوبة وأن يحمل ما بها من التمر والقطن والحقوق الجارية بها العادة من قديم الزمان وان يقوموا بالجزية ما بقوا على النصرانية فيدفع كل بالغ منهم في السنة ديناراً عيناً . وكتب نسخة يمين بذلك حلف عليها الملك سكندة ونسخة يمين اخرى حلفت عليها الرعية . وخرّب الاميران كنائس النوبة وأخذا ما فيها وقبضا على نحو عشرين أميراً من أمراء النوبة وأفرجا عمن كان بأيدي النوبة من اهل اسوان وعيذاب من المسلمين في أسرهم وألبسا سكندة تاج الملك وأقعداه على سرير المملكة بعد ما حلف والتزم ان يحمل جميع ما لداود ولكل من قتل وأسر من مال ودواب الى السلطان مع البقط القديم وهو أربعماية رأس من الرقيق وزرافة في كل سنة من ذلك ما كان للخليفة ثلثماية وستون رأساً ولنائبه بمصر اربعون رأساً على ان يطلق لهم اذا وصلوا بالبقط تاماً من القمح ألف اردب لملكتهم وثلثماية أردب لرسله اه عن المقريزي . وقال ابن خلدون :

« ثم مات الظاهر بيبرس وانقرضت دولته ودولة بنيه وانتقل الملك الى

المنصور قلاون فبعث سنة ٦٨٦ هـ ١٢٨٨ م العساكر الى النوبة مع علم الدين سنجر الخياط وعز الدين الكوراني وسار معهم نائب قوص عز الدين ايدمر السيفي بعد ان استنفر العربان اولاد ابي بكر واولاد عمر واولاد شريف واولاد شيبان واولاد كنز الدولة وجماعة من الغرب ... وبني هلال وساروا على العدوة الغربية والشرقية الى دنقلة وملكهم في ذلك الحين بيت مأمون هكذا سماه النووي وأظنه أخا مرتشكين (سكندة) وبرزوا للعساكر فهزمتهم وأتبعتهم خمسة عشر يوماً وراء دنقلة ورُتب ابن اخت بيت مأمون في الملك ورجعت العساكر فرجع بيت مأمون الى دنقلة فاستولى على البلاد ولحق ابن اخته بمصر صريخاً بالسلطان فبعث معه عز الدين ايبك الافرم في العساكر ومعه ثلاثة من الامراء وعز الدين نائب قوص وذلك سنة ٦٨٨ هـ وبعثوا المراكب في البحر بالازودة والسلاح ومات ملك النوبة (ابن اخت بيت مأمون) المستنجد بهم بأسوان ودفن بها وجاء نائبه جريس (أي نائب ابن اخت بيت مأمون) صريخاً الى السلطان فبعث معه داود ابن اخي مرتشكين الذي كان أسيراً بالقلعة وتقدم جريس بين يدي العساكر حتى وصلوا الى دنقلة فهرب بيت مأمون وامتنع بجزيرة وسط النيل على خمسة عشر مرحلة وراء دنقلة ووقفت العساكر على ساحل البحر وتعذر وصول المراكب الى الجزيرة من كثرة الحجر وخرج بيت مأمون منها فلحق بالابواب (أي النوبة العليا) ورجع عن أصحابه (أي اصحاب بيت مأمون) ورجعت العساكر الى دنقلة فملكوا داود ابن اخي مرتشكين المتقدم الذكر ورجعوا الى مصر سنة ٦٨٩ هـ ١٢٩١ م لتسعة اشهر من مسيرهم بعد ان تركوا اميراً منهم مع الملك داود ورجعوا الى مصر ورجع بيت مأمون الى دنقلة وقتل داود وبعث الامير الذي كان معه الى السلطان وحمله رغبة في الصلح على ان يؤدي الضريبة المعلومة فاسعف لذلك واستقر في ملكه » .

وقال ابن أياس « ثم دخلت سنة ٧٠٤ هـ ١٣٠٥م وفيها حضر الى الابواب الشريفة صاحب دنقلة من اعمال الصعيد وكان صحبته هدايا جميلة من رقيق

وجمال وأبقار حبشية وغير ذلـــك فخلع عليه السلطان خلعة وأنزله بدار الضيافة » .

وقال ابن خلدون في اخبار النوبة واسلامهم : « قد تقدم لنا غزو الترك الى النوبة أيام الظاهر بيبرس والمنصور قلاون لما كان عليهم من الجزية التي فرضها عمرو بن العاص عليهم وقررها الملوك بعد ذلك وربما كانوا يماطلون بها او يتمنعون من إدائها فتغزوهم عساكر المسلمين من مصر حتى يستقيموا وكان ملكهم بدنقلة ايام سارت العساكر من عند قلاون اليها سنة ٦٨٠ ﻫ ١٢٨٢ م واسمه بيت مأمون ثم كان ملكهم لهذا العهد اسمه آي لا أدري أكان معاقباً لبيت مأمون او توسط بينهما متوسط وتوفي آي سنة ٧١٦ ﻫ ١٣١٧ م وملك بعده في دنقلة أخوه كربيس . ثم نزع من بيت ملوكهم رجل الى مصر اسمه نشلي وأسلم فحسن اسلامه وأجرى له السلطان الناصر بن قلاون رزقاً وأقام عنده فلما بلغ كانت سنة ٧١٦ ﻫ امتنع كربيس من اداء الجزية فجهز السلطان اليه العساكر وبعث معهما عبد الله نشلي المهاجر الى الاسلام من بيت ملكهم فخام كربيس عن لقائهم وفرّ الى بـلاد الابواب ورجعت العساكر الى مصر واستقر نشلي في ملك النوبـة على حاله من الاسلام وبعث السلطان الى ملك الابواب في كربيس فبعث به وأقام بباب السلطان. ثم ان اهل النوبة اجتمعوا على نشلي وقتلوه بممالأة جماعة من العرب سنة ٧١٩ ﻫ وبعثوا الى كربيس ببـلد الابواب فألفوه بمصر وبلغ الخبر الى السلطان فبعثه الى النوبة فملكها وكان قد اعتنق الاسلام فأسلمت جميـع رعيتـــه وانقطعت الجزية باسلامهم اه كلام ابن خلدون .

وقال لبسيوس : « وفي دنقلة العجوز جامع قائم على خرائب كنيسة كبيرة وفي واجهة الجامع حجر من الرخام مكتوب عليه بالعربية ما معناه : كان افتتاح دنقلة العجوز التي هي كرمي النوبة في ٢٠ ربيع اول سنة ٧١٧ ﻫ — ٩ يونيو سنة ١٣١٨ م وذلك عن يد سيف الدين عبد الله الناصر اه » . قلت

وقد رأيت من رأى الحجر في الفتح الاول وأخبرني به قبل اطلاعي على رحلة لبسيوس .

وقال ابن خلدون : « ثم انتشر أحيـــاء العرب من جهينة في بلاد النوبة واستوطنوها وملكوها وملأوها عيثاً وفساداً وذهب ملوك النوبة الى مدافعتهم (العرب) فعجزوا ثم صاروا الى مصـــانعتهم بالصهر فافترق ملكهم وصار لبعض أبناء جهينة من أمهاتهم (لأن أمهاتهم من بنات ملوك النوبة) على عادة الأعاجم في تمليك الاخت وابن الاخت فتمزّق ملكهم واستولى اعراب جهينة على بلادهم وليس في طريقة استيلائهم شيء من السياسة الملوكية للآفة التي تمنع من انقياد بعضهم الى بعض فصاروا شيعاً لهذا العهـد » اي الى أواخر القرن الثامن للهجرة .

وبقوا كذلك شيعاً على كل شيعة منهم رئيس او ملك الى ان قـام الفونج في سنار سنة ٩١٠ ﻫ . ١٥٠٥ م فملكوها الى الشلال الثـالث . ثم كان الفتح العثماني لمصر بيد السلطان سليم الفاتح سنة ١٥٢٠ م فأرسل سرية من عساكره الى النوبة السفلى فملكوها من اسوان الى الشلال الثالث وعرفوا بالغزّ وعُرف حكامهم بالكشاف . وهكذا انقسمت بـــلاد النوبة السفلى بين ملوك الفونج والكشاف الى ان كان الفتح المصري للسودان سنة ١٢٣٦ﻫ . ١٨٢٠م فخضعت لمصر كما سيجيء مفصلاً في تاريخ سنار .

الفصل الثاني

في

تاريخ النوبة العليا

منذ دخول النصرانية اليها في القرن السادس للمسيح الى انقراضها منها
وخراب سوبة سنة ٩١٠ هـ ١٥٠٠ م

اما النوبة العليا المعروفة عند مؤرخي الاسلام بمملكة علوة وفي السودان بمملكة العنّج فظاهر ان النصرانية امتدت اليها من النوبة السفلى ولكن لم يحفظ لنا التاريخ شيئاً من اخبارها في النصرانية غير ما تقدم ذكره عن المقريزي عن كتاب ابن سليم الاسواني .

وقد أخذ العرب المسلمون بعد فتح مصر يهاجرون الى السودان من مصر وبلاد العرب إما فراراً من الحكام او طلباً للرزق فلما فتحت النوبة السفلى زاد عدد المهاجرين منهم الى بلاد النوبة العليا حتى ملأوها وكان اكثرهم من جهينة وبني العباس وتغلب العنصر العربي على النوبة ومع ذلك بقوا خاضعين لحكم العنج حتى قام الفونج في جزيرة سنار فاتحدوا مع العرب وهاجموا العنج فقتلوهم شر قتلة وخربوا سوبه خراباً تاماً حتى صاروا يضربون المثل في خرابها فيقولون : « فلان خرب خراب سوبه » . ثم ساروا الى قرّي عند جبل

الرويان شمالي الخرطوم فقتلوا ملكها واستولوا عليها وأسسوا مملكة في سنار أقام فيها الفونج ومشيخة في قرّي أقام فيها كبير العرب على ما سيجيء بالتفصيل .

وقد انقرض النوبة من تلك البلاد وانقرضت لغتهم ولم يبقَ منهم إلا نفر قليل في نواحي شندي وجريف ود قمر بقرب سوبه فاعتنقوا الاسلام واتخذوا لغة العرب لغة لهم ولم يزالوا مميزين عن العرب في الملامح والاخلاق تميزاً لا يراه إلا الوطني . وهم على اسلامهم محتقرون واسم نوباوي من ألفاظ الشتم عندهم والعرب تأنف من مصاهرتهم إلا انهم قد يتزوجون الجميلة من نسائهم ويزوّجون كبارهم غير الجميلة من نساء العرب .

آثار النصرانية في بلاد النوبة : وهكذا انقضت النصرانية من بلاد النوبة العليا كما انقضت من بلاد النوبة السفلى ولم يبقَ هناك ما يدل عليها سوى آثار بعض الأديرة والكنائس . ففي جزيرة فيلي آثار كنيسة جميلة . وفي الدفّار آثار كنيسة اخرى. وفي بئر الغزالي قرب اهرام نوري وخرائب دير وبجانبه حجارة مدافن عليها كتابات باليونانية والقبطية . وأما كنائس دنقلة العجوز وسوبه فقد خربت خراباً تاماً كما مرّ . وقد تقدم ان النوبة حوّلوا أكثر الهياكل الوثنية الى كنائس فطلوا النقوش الهيروغليفة والصور القديمة بالطين وصوروا على الطلاء صور المسيح وبعض القديسين وقد رأيت سنة ١٨٨٤ م صور بولس الرسول في هيكل السبوع وصورة المسيح في هيكل فرّيج . وفي هذا الهيكل كتابة ١٤ سطراً من عهد النصرانية مكتوبة بأحرف قبطية ولغة غير مفهومة سميت باللغة الايثيوبية المسيحية . وعلى حجر في التلة القائمة عليها قلعة ابريم كتابة بهذه اللغة ايضاً. وترى على جدران قدس الاقداس في هيكل دندور قرب كلابشة كتابة باللغة القبطية مفادها ان الراهب « ابراهيم » غرس الصليب هناك في عهد الملك ارينومي ملك النوبة وكان « يوسف » نائباً في تلس (كلابشة) « وثيودروس » مطراناً في فيلي (سنة ٥٧٧ م) . وفي سقف عمَدة كتابة باللغة القبطية بشأن حجاج نصارى في اول عهد النصرانية.

وكانت مطارنة النوبة تُرسل اليها من قِبل بطريرك الاقباط الى ان زالت النصرانية منها . وقال المقريزي في كلامه عن اليعاقبة في مصر في خلافة هشام ابن عبد الملك (سنة ١٠٥ : ١٢٥ ﻫ – ٧٢٤ : ٧٤٣ م) : « وبعث اليهم اهل النوبة في طلب أساقفة فبعثوا اليهم من أساقفة اليعاقبة فصارت النوبة من ذلك العهد يعاقبة » .

ويظهر ان لغة كنائس النوبة كانت القبطية واليونانية كما كانت لغة كنائس الاقباط في مصر . اما لغة النوبة انفسهم فقد انقرضت من بلاد النوبة العليا بانقراض اهلها وحلت العربية محلها ولكنها ثبتت في بلاد النوبة السفلى حتى الآن . والظاهر ان العرب الذين بقوا في النوبة السفلى بعد فتحها كانوا قليلين فاضطروا ان يتعلموا لغة النوبة وكلما هاجر اليهم جماعة من العرب تعلموا لغة النوبة ونسوا لغتهم . وهكذا فعل الاتراك .

الباب الثالث

في

تاريخ البجة في صدر الاسلام

تمهيد جغرافي

تقدم لنا ان البجة سكان الصحراء الشرقية هم في المشهور بادية بني كوش بن حام وانهم عرفوا عند كتاب الرومان باسم البلامس . وقد ظنّ البعض انهم البُقه (BUKA) المدوّنون على الآثار المصرية او البقيته (BUGAITÆ) المدوّنون على آثار اكسوم . وأما البجة (او البجا او البيجة او البجاة) فهو الاسم الذي عُرفوا به عند مؤرخي العرب في صدر الاسلام. ولهؤلاء المؤرخين كلام طويل في شأنهم : قال ابو الفدا في جغرافيته : « وبلاد البجة بين بحر القلزم وبين بحر النيل وبينهم وبين النوبة جبال منيعة » . وقال في تاريخه عن ابن سعيد : « من أمم السودان البجة وهم شديدو السواد عراة الأبدان ويعبدون الأوثان وهم اهل أمانة وحسن مرافقة للتجار وفي بلادهم الذهب وهم فوق الحبشة الى جهة الجنوب على النيل » . وقال القزويني في كتاب أخبار البلاد : « البجة بلاد متصلة بأعلى عيذاب في غرب منه . اهلها صنف من الحبش وبها معدن الزمرد الاخضر السلقي الكثير المائية يُسقى المسموم منه يبرأ فاذا نظرت الأفعى اليه سالت حدقتها » . وقال ابن الوردي : « البجة شديدو السواد عراة الابدان يعبدون الاوثان ولهم عدة ممالك وهم اهل أنس وحسن وتلطف مع التجار وفي بلادهم معدن الذهب وليس بأرضهم قرى ولا خصب وانما هي بادية جدبة تصعد التجار منها الى وادي العلاقي وهو وادٍ فيه خلق كثير كالبلد الجامع وفيه آبار عذبة » .

وقال المقريزي : « البجة بادية يتبعون الكلأ حيثما كان الرعي بأخبية من جلود وشعر وليس لهم مدن ولا قرى ولا مزارع إلا ما سيأتي ذكره ومعيشتهم ممـــا يُنقل اليهم من أرض الحبشة وأرض مصر والنوبة . وقيل في أصلهم انهم قبيلة من الحبشة إلا انهم أشد سواداً من هؤلاء ويتزيون بزيّ العرب. وهم كالعرب قبائل وأفخاذ لكل فخذ رئيس. وكان لهم قديماً رئيس يرجع جميع رؤسائهم الى حكمه يسكن قرية تعرف بهَجر هي أقصى جزيرة البجـة . وفي أوديتهم شجر المقل والاهليلج والاذخر والشيح والسنا والحنظل وشجر البان وغير ذلك . وبأقصى بلدهم النخل وشجر الكرم والرياحين وغير ذلك مما لم يزرعه احد . وبهـا سائر الوحش من السباع والفيلة والنمور والفهود والقردة وعناق الارض وقط الزباد وذابة تشبه الغزال حسنة المنظر لها قرنان على لون الذهب قليلة البقاء اذا صيدت . ومن الطيور الببغاء والنقيط والنوبي والقمري او دجاج الحبش وحمام بازين وغير ذلـــك . وتعظم الحيّات ببلدهم وتكثر أصنافها ورئيت حية في غدير ماء قد أخرجت ذنبها والتفت على امرأة وردت فقتلتها من شدة الضغطة . وبها حيـــة ليس لها رأس وطرفاها سواء منقشة ليست بالكبيرة اذا مشى الانسان على أثرها مات . واذا قتلت وأمسك القاتل ما قتلها به من عود او حربة في يده ولم يلقه من ساعته مات . وقتلت حية منها بخشبة فانشقت الخشبة . واذا تأمل هذه الحية احد وهي ميتة او حية أصابه ضررها ! واول بلد البجة في قرية تعرف بالخربـــة معدن الزمرُد في صحراء قوص. وبين هذا الموضع وبين قوص نحو من ثلاث مراحل . والزمرد في هذا الموضع في مغائر بعيدة مظلمة يدخل اليها بالمصابيح وبحبال يستدل بها على الرجوع خوف الضلال ويحفر عليه بالمعاول فيوجد في وسط الحجارة وحوله غشيم دونه في الصبغ والجوهر . وفيها عدا عن الزمرُد السالف الذكر الذهب في وادي العلاقي وكلما تصاعدت كان أجود ذهباً وأكثر . وفيها معادن الفضة والنحاس والحديد والرصاص وحجر المغنطيس والمرقشيتا والجمست وحجارة شطبا . فاذا بُلت الشطبة منها بزيت واشتعلت وُقدت مثل الفتيلة وغير ذلك

مما شغلهم طلب معادن الذهب عمـا سواه . والبجة لا تتعرض لعمل شيء من هذه المعادن .

«وكانت فراعنة مصر تغزوهم وتوادعهم احياناً لحاجتهم الى المعادن وكذلك الروم لما ان ملكوا مصر . ولهم في المعادن آثار مشهورة وكان أصحابهم بهـا وقد فتحت مصر . ثم لما جاء المسلمون الى مصر سمعوا بخبر هـــذه المعادن فكثرت سراياهم الى الصحراء وانتفعوا بها انتفاعاً عظيماً على ما سيجيء .

« وأنساب البجة من جهة النساء وهم يورثون ابن البنت وابن الأخت دون ولد الصلب ويقولون ان ولادة ابن الاخت وابن البنت أصح فانه ان كان من زوجها او من غيره فهو ولدها على كل حال .

« وهم اصحاب ذمة فاذا غدر احدهم رفع المغدور به ثوباً على حربة وقال هذا عرش فلان يعني أبا الغادر فتصير سيئة عليه الى ان يترضاه. وهم يبالغون في الضيافة فاذا طرق احدهم الضيف ذبح له . فاذا تجاوز ثلاثـة نفر نحَرَ لهم من أقرب الانعـام اليه سواء كانت له او لغيره وان لم يكن شيء نحر راحلة الضيف وعوّضه ما هو خير منها . وهم يركبون النجب الصهب وتنتج عندهم. وكذلك الجمال العربية كثيرة عندهم ايضاً . والمواشي من البقر والغنم والضأن غاية في الكثرة عندهم وبقرهم حسان ملمعة بقرون عظام ومنها جمٌّ. وكباشهم كذلك منمرة ولها ألبان وغذاؤهم اللحم وشرب اللبن وأكلهم للجبن قليـــل وفيهم من يأكله . ويشربون دم الضأن سخناً ويأكلون مخ الجمال نياً وأبدانهم صحاح وبطونهم خماص وألوانهم مشرقة الصفرة وتقاطيعهم غليظة ووجوههم طويلة عريضة وأنوفهم بارزة قليلاً وشعورهم قلفلية غير متلبدة وذلك دليـل اختلاط وسحنتهم غاية الشناعة ولهم سرعة في الجري يباينون بهـا الناس وكذلك جمالهم شديدة العدو صبورة عليه وعلى العطش يسابقون عليها الخيل ويقاتلون عليها وتدور بهم كما يشتهون ويقطعون عليهـا من البلاد ما يتفاوت ذكره ويتطاردون عليها في الحرب فيرمي الواحد منهم الحربة فان وقعت في الرمية طار اليها الجمل فأخذها صاحبها وان وقعت في الارض ضرب الجمـل

بجرانـــه الارض فأخذها صاحبها . وسلاحهم الحراب السباعية مقدار طول الحديدة ثلاثة أذرع والعود اربعـة أذرع ومن ذلك اسمها والحديدة في عرض السيف لا يخرجونها من أيديهم إلا في بعض الاوقات لأن في آخر العود شيئاً شبيهاً بالفلكة يمنع خروجها من أيديهم. وصنّاع هذه الحراب نساء في موضع لا يختلط بهنّ رجل إلا المشتري منهنّ فاذا ولدت احداهنّ من الطارقين لهنّ جارية استحيتها وان ولدت غلاماً قتلته ويقلنَ ان الرجـــال بلاء وحرب . ودرقهم مـــن جلود البقر مشعرة ودرق مقلوبـة تعرف بالاكسومة من جلود الجواميس . وكذلك الدهلكية من دابة في البحر . وقسيهم عربيـة كبار غلاظ من السدر والشوحط يرمون عليها بنبل مسموم وهـذا السم يعمل من عروق شجر الغلف يطبخ على النار حتى يصير مثل الغراء فاذا أرادوا تجربته شرط احدهم جسده وسيل الدم ثم شممه هذا السم فاذا تراجع الدم علم أنـه جيد ومسح الدم لئلا يرجع الى جسمه فيقتله فاذا أصاب الانسان قتل لوقتـه ولو مثل شرط الحجام وليس له عمـل في غير الجرح والدم وان شرب منه لم يضر . وفي البجة جنس يقطعون ثنـــاياهم ويقولون لا نتشبه بالحمير . وفيهم جنس آخر في آخر بـلاد البجة على نهر اتبرة يقال لهم البازة تسمى نساؤهم باسم واحد وكذلك الرجال فطرقهم في وقت رجل مسلم له جمال فدعا بعضهم بعضاً وقالوا هذا الله قد نزل من السماء فجعلوا ينظرون اليه عن بعد. واشتهر عن البجة ختان النساء (ختان فرعون) .

« وكان البجة قبل دخول الاسلام الى أرض مصر صائبة يعبدون الاصنام وكان لكل بطن كاهن يضرب له قبة من أدم معبدهم فيها فاذا رأوا استخباره عما يحتاجون اليه تعرّى ودخل القبة مستدبراً ويخرج اليهم وبه أثر جنون وصرع يقول الشيطان يقرئكم السلام ويقول لكم ارحلوا عن هـــذه الحلة فان الرهط الفلاني يقع بكم وسألتم عن الغزو الى بلد كذا فسيروا فانكم تظفرون وتغنمون كذا وكذا والجمال التي تأخذونها من موضع كذا هي لي والجارية الفلانية التي تجدونها في الخباء الفلاني والغنم التي من صنفها كذا ونحو هـــذا

القول فيزعمون انه يصدقهم في أكثر من ذلك فاذا غنموا أخرجوا من الغنيمة ما ذكر ودفعوه الى الكاهن يتموّله . ويحرمون ألبان نوقها على من لم يقبل فاذا أرادوا الرحيل حمل الكاهن هذه القبة على جمل مفرد فيزعمون ان ذلك الجمل لا يثور إلا بجهد وكذلك سيره ويتصبب عرقاً والخيمة فارغة لا شيء فيها اه » وقال ابن الوردي في تاريخه « وبين البجة والنوبة قوم يقـــال لهم البليون أهـــل عزم وشجاعة يهابهم كل من حولهم من الامم ويهادونهم وهم نصارى خوارج على مذهب اليعقوبية » .

الفصل الاول

في

تاريخ البجـــة

قال المقريزي : « قال عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم : وتجمع لعبد الله بن سعد بن ابي سرح في انصرافه من النوبة على شاطيء النيل البجة فسألهم عن شأنهم فأخبر ان ليس لهم ملك يرجعون اليه فهان عليه أمرهم وتركهم فلم يكن لهم عقد ولا صلح وكان اول من هادنهم عبيدالله بن الحبحاب السلوليّ في أواخر القرن الاول للهجرة ويذكر انه وجد في كتاب ابن الحبحاب لهم ثلاثمائة بكر في كل عام حين ينزلون الريف مجتازين تجاراً غير مقيمين على ان لا يقتلوا مسلماً ولا ذمياً فإن قتلوه فلا عهد لهم وان لا يأووا عبيد المسلمين وان يردوا آبقيهم اذا وقعوا اليهم ويقال انهم كانوا يؤاخذون بهذا وبكل شاة أخذها البيجاوي فعليه اربعة دنانير وللبقرة عشرة وكان وكيلهم مقيماً بالريف رهينة بيد المسلمين .

« ثم كثرت أذيتهم على المسلمين وكان ولاة اسوان من العراق فرفع الى امير المؤمنين المأمون خبرهم فأخرج اليهم عبد الله بن الجهم سنة ٢١٦ هـ ٨٣١ م فكانت له معهم وقائع ثم وادعهم وكتب بينهم وبين كنون رئيسهم

الكبير الذي يكون بقريتهم هجر (المارّ ذكرها) كتاباً نسخته : « هذا الكتاب كتبه عبد الله بن الجهم مولى امير المؤمنين صاحب جيش الغزاة عامل الامير ابن اسحق ابن امير المؤمنين الرشيد أبقاه الله في شهر ربيع الاول سنة ست عشرة ومايتين لكنون بن عبد العظيم عظيم البجة بأسوان انك سألتني وطلبتَ إليّ ان أؤمّنك وأهل بلدك من البجة وأعقد لك ولهم أماناً عليّ وعلى جميع المسلمين فأجبتك الى ان عقدت لك وعلى جميع المسلمين أماناً ما استقمت واستقاموا على ما أعطيتني وشرطت لي في كتابي هذا وذلك ان يكون سهل بلدك وجبلها من منتهى حد اسوان من ارض مصر الى حد ما بين دهلك وباضع ملكاً للمأمون عبد الله بن هرون امير المؤمنين أعزه الله تعالى وانت وجميع اهل بلدك عبيد لأمير المؤمنين الا انك تكون في بلدك ملكاً على ما انت عليه في البجة . وعلى ان تؤدي اليه الخراج في كل عام على ما كان عليه سلف البجة وذلك ماية من الإبل او ثلاثماية دينار وازنة داخلة في بيت المال والخيار في ذلك لأمير المؤمنين ولولاته وليس لك ان تخرم شيئاً عليك من الخراج . وعلى ان كل أحد منكم إن ذكر محمداً رسول الله ﷺ وكتاب الله او دينه بما لا ينبغي ان يذكره به او قتل احداً من المسلمين حراً او عبداً فقد برئت منه الذمة ذمة الله وذمة رسوله ﷺ وذمة امير المؤمنين أعزّه الله وذمة جماعة من المسلمين وحلّ دمه كما يحلّ دم اهل الحرب وذراريهم . وعلى ان أحداً منكم إن أعان المحاربين على اهل الاسلام بمال او دله على عورة من عورات المسلمين او أثر لعزتهم فقد نقض ذمة عهده وحلّ دمه . وعلى ان احداً منكم إن قتل احداً من المسلمين عمداً او سهواً او خطأً حراً او عبداً او احداً من ذمة المسلمين او أصاب لأحد من المسلمين او اهل ذمتهم مالاً ببلد البجة او ببلاد الاسلام او ببلاد النوبة او من شيء من البلدان براً او بحراً فعليه في قتل المسلم عشر ديّات وفي قتل العبد المسلم عشر قيم وفي قتل الذمي عشر ديات من دياتهم وفي كل مال أصبتموه للمسلمين واهل الذمة عشرة اضعاف . وإن دخل احد من المسلمين بلاد البجة تاجراً او مقيماً او مجتازاً

او حاجاً فهو آمن فيكم كأحدكم حتى يخرج من بلادكم ولا تؤووا احداً من آبقي المسلمين فإن أتاكم آتٍ فعليكم ان تردّوه الى المسلمين . وعلى ان تردّوا أموال المسلمين اذا صارت في بلادكم بلا مؤونة تلزمهم في ذلك . وعلى انكم اذا نزلتم ريف صعيد مصر لتجارة او مجتازين لا تظهرون سلاحاً ولا تدخلون المدائن والقرى بحال ولا تمنعوا احداً من المسلمين الدخول في بلادكم والتجارة فيها براً ولا بحراً ولا تخيفوا السبيل ولا تقطعوا الطريق على احد من المسلمين ولا اهل الذمة ولا تسرقوا لمسلم ولا ذمي مالاً . وعلى ان لا تهدموا شيئاً من المساجد التي ابتناها المسلمون بصيحة وهجر وسائر بلادكم طولاً وعرضاً فإن فعلتم ذلك فلا عهد لكم ولا ذمة . وعلى ان كنون بن عبد العزيز يقيم بريف صعيد مصر وكيلا يفي للمسلمين بما شرط للمسلمين من دفع الخراج ورد ما أصابه البجة للمسلمين من دم ومال . وعلى ان احداً من البجة لا يعترض حد القصر الى قرية يقال لها قبان من النوبة حداً لاعمدة . عقد عبد الله بن الجهم مولى امير المؤمنين لكنون بن عبد العزيز كبير البجة الامان على ما سمينا وشرطنا في كتابنا هذا وعلى ان يوافي امير المؤمنين فإن زاغ كنون او عاث فلا عهد له ولا ذمة . وعلى كنون ان يدخل عمال امير المؤمنين بلاد البجة لقبض صدقات من اسلم من البجة . وعلى كنون الوفاء بما شرط لعبد الله بن الجهم وأخذ بذلك عهد الله عليه بأعظم ما أخذ على خلقه من الوفاء والميثاق . ولكنون بن عبد العزيز ولجميع البجة عهد الله وميثاقه وذمة امير المؤمنين وذمة الامير ابي اسحق بن امير المؤمنين الرشيد وذمة عبدالله بن الجهم وذمة المسلمين بريئة منهم . وترجم جميع ما في هذا الكتاب حرفاً حرفاً زكريا بن صالح المخزومي من سكان جده وعبد الله بن اسماعيل القرشي ثم نسق جماعة من شهود اسوان .

وأقام البجة على ذلك برهة ثم عادوا الى غزو الريف من صعيد مصر وقتلوا من وجدوه بالمعدن من المسلمين وكان ذلك في ايام جعفر المتوكل على الله ابن المعتصم (سنة ٢٣٢ : ٢٤٧ هـ — ٨٤٧ : ٨٦١ م) فكتب له صاحب

البريد بمصر يخبرهم فأنكر المتوكل ذلك وشاور الناس في غزوهم فأخبروه انهم اهل بادية اصحاب إبل وماشية وان الوصول الى بلادهم صعب لأنها مفاوز وان بين بلادهم وبلاد المسلمين مسيرة شهر في ارض قفر وجبال وعرة وان كل من يدخلها من الجيوش يحتاج ان يتزود لمدة يتوهم ان يقيمها الى ان يخرج الى بلاد الاسلام فإن جاوز تلك المدة هلك وأخذتهم البجة باليد فأمسك المتوكل عنهم فطمعوا وزاد شرهم حتى خاف اهل الصعيد على انفسهم منهم فولى المتوكل محمد بن عبدالله القمي على اسوان وقفط والاقصر واسنا وارمنت وأمره بحرب البجة وكتب الى عنبسة بن اسحق الضبي عامل مصر بتجهيز العساكر معه وإعطائه من الجند ما يحتاج اليه ففعل ذلك وسار محمد الى ارض البجة في عشرين الفاً بين فارس وراجل وبينهم من المتطوعة وممن كان يعمل بالمعادن عالم كثير ووجه الى القلزم (البحر الاحمر) سبعة مراكب موقورة بالدقيق والزيت والتمر والشعير والسويق وأمر أصحابها ان يوافوه بها الى ساحل البحر مما يلي بلاد البجة وسار حتى جاوز المعادن التي يعمل فيها الذهب فانتهى الى حصونهم وقلاعهم فخرج اليه ملكهم واسمه علي بابا في اضعاف جيشه وكانت البجة على إبل فُرهٍ تشبه المهارى فتحاربوا اياماً ولم يصدقهم علي البابا القتال لتطول الايام وتفنى أزواد المسلمين وعلوفاتهم فيأخذهم بغير حرب فجاءت المراكب التي فيها الاقوات في البحر ففرّق القمي ما كان فيها على اصحابه فناجزهم البجة الحرب إذ ذاك وصدقوا في القتال وكانت إبلهم نفورة فأمر القمي جنده باتخاذ الاجراس بخيلهم ثم حملوا عليهم فنفرت إبلهم لأصوات الاجراس فحملتهم على الجبال والأودية وتبعهم المسلمون قتلاً وأسراً حتى أدركهم الليل وقد قتل من جيش البجة في تلك الوقعة عدد لا يحصى وكان ذلك سنة ٢٤١ هـ — ٨٥٦ م . ثم ان ملكهم علي بابا طلب الأمان من القمي فأمّنه على أداء الخراج لما سلف وهي اربع سنين كان قد منعها ولما يأتي وعلى ان يطأ بساط المتوكل في بغداد ولا يمنع المسلمين من العمل في المعدن وسار معه الى المتوكل بعد ان استخلف على مملكة ابنه فيعس سنة ٢٤١ هـ فرحب المتوكل به

وخلع عليه وعلى اصحابه وكسا جمله رحلا مليحاً وجلال ديباج وولى المتوكل البجة طريق ما بين مصر ومكة وولى عليهم سعد الاتياخي الخادم فولى سعد محمداً القمي فرجع اليها ومعه علي بابا وهو على دينه وكان معه صنم من حجارة كهيئة الصبي يسجد له . وأقام القمي بأصوان مدة وترك في خزانتها مـا كان معه من السلاح وآلة الغزو فلم تزل الولاة تأخذ منه حتى لم يبقوا منه شيئاً .

« ولمـا كثر المسلمون في المعدن واختلطوا بالبجة قلّ شرهم وظهر التبر لكثرة طلابه وتسامع الناس به فوفدوا من البلدان .

« وفي سنة ٢٥٥ هـ ٨٦٩ م قدم عليهم ابو عبد الرحمن ابن عبـد الله بن عبد الحميد العمري بعد محاربته النوبة ومعه ربيعة وجهينة وغيرهم من العرب فكثرت بهم العمارة في البجة حتى صارت الرواحل التي تحمل الميرة اليهم من اسوان ستين الف راحلة غير الجلاّب التي تحمل من القلزم الى عيـذاب (رأس رواية) . ومالت البجة الى ربيعة وتزوجوا منهم . وقيل ان كهان البجة قبل اسلام من أسلم منهم ذكرت عن معبودهم الطاعة لربيعة ولكنون معاً فهم على ذلك . فلمـا قتل العمري واستولت ربيعة على الجزائر والام البجة على ذلك وأخرجوا من خـالفهم من العرب وتصاهروا الى رؤساء البجة وبذلك كفّ ضررهم عن المسلمين .

« وفي سنة ٢٥٩ هـ ٨٧٣ م يوم العيـد أقبل البجاة فنهبوا وعادوا غانمين وفعلوا ذلك مرّات وكان على مصر اذ ذاك عبد الحميـد بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب فخرج غضباً لله وللمسلمين وكمن لهم في طريقهم فلما عادوا خرج عليهم وقتـل مقدمهم ومن معه ودخل بلادهم فنهبها وقتل فيهم فأكثر ونهب وسبى مـا لا يحصى وتابع عليهم الغارات حتى أدّوا اليه الجزية ولم يفعلوها قبل ذلك اه » ملخصاً .

وقال ابو حسن المسعودي : « وقد كانت النوبة أشد من البجة الى ان قوي الاسلام وظهر وسكن جماعة من المسلمين معـدن الذهب وبلاد العلاقي

وعيذاب وسكن في تلك الديار خلق من العرب من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان فاشتدت شوكتهم وتزوجوا من البجة فقويت البجـة بمن صاهرها من ربيعة وقويت ربيعـة بالبجة على من ناوأها وجاورها من قحطان وغيرهم من مُضر بن نزار ممن سكن تلك الديار . وصاحب المعدن في وقتنا هـذا وهو سنة ٣٣٢ هـ ٩٤٤ م بشر بن مروان بن اسحاق وهو من ربيعـة يركب في ثلاثة آلاف من ربيعـة وأحلافها من مُضر واليمن وثلاثين الف حراب على النجب من البجة بالحجف البجاوية وهم الحدارب وهم مسلمون من بين سائر البجة والداخلة من البجة كفـار يعبدون صنماً لهم اه » .

قال المقريزي : « ثم كثر المسلمون في المعـدن فخالطوهم وتزوجوا فيهم وأسلم كثير من الجنس المعروف بالحدارب اسلاماً ضعيفاً وهم شوكة القوم ووجوههم وهم ممـا يلي مصر من اول حدهم الى العلاقي وعيذاب المعبر منه الى جـدة وما وراء ذلك ومنهم جنس آخر يعرفون بالزنافج هم أكثر عدداً من الحدارب غير انهم تبع لهم وخفراؤهم يحمونهم ويجبونهم المواشي ولكل رئيس من الحدارب قوم من الزنافج في حملته منهم كالعبيد يتوارثونهم بعـد ان كانت الزنافج قديماً أظهر عليهم » اه . وقيل أسلموا قبل ذلك في امارة عبد الله بن أبي سرح ولما كثرت اذيتهم على المسلمين أرسل اليهم المأمون عبد الله بن الجهم .

وما زال الاسلام يمتـد حتى عم صحراء البجة كلها وأزال منها عبادة الأوثان .

ويظهر ان اول من خالط البجة من العرب عرب بلي فانك اذا سألت البيجاوي الآن أتعرف العربية يجيبك « بلوّية كاكا » أي لا اعرف العربية . وقال ابن خلدون في كلامه عن مواطن جهينة : « هي ما بين الينبع ويثرب الى الآن في متسع من برية الحجاز وفي شماليهم الى عقبة ايله مواطن بلي وكلاهما على العدوة الشرقية من بحر القلزم . واجتاز منهم أمم الى العدوة الغربيـة وانتشروا ما بين صعيد مصر وبـلاد الحبشة فأرهقوهم الى هذا العهد اه » أي أواخر القرن الثامن للهجرة .

وقد انقسم البجة الآن الى عدة قبائل جسيمة وهم العبابدة والبشارين والامارار والهدندوة والحلانقة والحباب وبني عامر وكلهم يدينون بالاسلام ويدعون النسبة الى العرب وما هم بعرب بل ربما كان في بعض خاصتهم دم عربي وأما عامتهم فلا مشاحة في انهم بجة وكلهم يتكلمون اللغة البيجاوية ولا يعرفون لغة غيرها إلا مشايخهم والذين يخالطون العرب منهم على النيل فانهم يتكلمون العربية ايضاً .

هذا ولم يبقَ الآن في الصحراء الشرقية من يتسمى باسم البجة إلا طائفة صغيرة في قبيلة بني عامر وهم محتقرون . ومن أمثال اهل السودان « البجة والخاس أرخص الناس » .

أما الخاس المشار اليهم في هذا المثل فهم ايضاً طائفة صغيرة منتمية الى بني عامر على حدود الحبشة .

قال ابو الفداء في جغرافيته المسماة تقويم البلدان: « وفي شمالي بلاد سحرته (سهاتي) من النيل الى البحر الخاس وهم مذمومون بين أجناس الحبشة وقد اشتهر عنهم انهم يخصون من يقع في ايديهم ويفتخرون بذلك » اه . قلت وما زالت هذه العادة جارية في الحبشة الى اليوم .

الفصل الثاني

في

مدن البجـــة

عيذاب ؛ اشتهر للبجة في الاسلام مدينتان على ساحل البحر الاحمر وهما عيذاب وسواكن . أما عيذاب فيؤخذ من اجمال ما ذكره المؤرخون العرب انها في المكان المعروف الآن برأس رواية . قال ابن خلكان : « عيذاب بليدة على شاطىء بحر جدة يعدّي منها الركب المصري المتوجه الى الحجاز على طريق قوص في ليلة واحدة في اغلب الاوقات فيصل الى جدة ».وقال ياقوت في معجم البلدان : « عيذاب بليدة على ضفة بحر القلزم هي مرسى المراكب التي تقدم من عدن الى الصعيد » . وقال ابن خلدون : « وفي وسط الحجاز مكة شرفها الله وفي ساحلها مدينة جدة تقابل بلد عيذاب في العدوة الغربية من هذا البحر » . وقال ابن الوردي في تاريخه: « عيذاب مدينة حسنة وهي مجمع التجار براً وبحراً واهلها يتعاملون بالدراهم عدداً ولا يعرفون الوزن وبها والٍ من قبل البجة ووالٍ من قبل سلطان مصر يقسمان جباياتها نصفين وعلى عامل مصر القيام بطلب الارزاق وعلى عامل البجة حمايتها من الحبشة واللبن والعسل والسمن بها كثير وبينها وبين الحجاز عرض البحر » .

وقال ابو الفداء في جغرافيته : « وقد اختلف في عيذاب فبعضهم يجعله ديار مصر على وجه تدخل فيه وهو الأشبه لأن الولاية فيها من مصر وهي من أعمال مصر حقيقة وبعضهم يجعلها من بـلاد البجة وبعضهم يجعلها من بلاد الحبشة وهي فرضة لتجار اليمن وللحجاج الذين يتوجهون من مصر في البحر فيركبون عيذاب الى جدة . قال ابن سعيد وعرض البحر بين عيذاب وجدة درجتان وهي أشبه بالضيعة منها بالمدن » .

وقال المقريزي : « عيذاب مدينة على ساحل بحر جدة وهي غير مسوّرة وأكثر بيوتها أخصاص وكانت من أعظم مراسي الدنيا بسبب ان مراكب الهند واليمن تحط فيها البضائع وتقلع منها مع مراكب الحجاج الصادرة والواردة . وأهل عيذاب الساكنون بها طائفة من البجاة ولهم سلطان من أنفسهم يسكن معهم في الجبال المتصلة بها وربما جاء في بعض الاحيان وقابل الوالي من جانب الغز اظهاراً للطاعة . وطائفة البجاة اضل من الانعام سبيلا واقل عقولاً لا دين لهم سوى كلمة التوحيد ووراء ذلك من مذاهبهم الفاسدة ما لا ينحصر وهم عراة يستترون عوراتهم بخرق . وعيش اهل عيذاب عيش البهائم وهم أقرب الى الوحش في اخلاقهم منهم الى الانس » .

« وكان الحجاج من مصر والمغرب لا يتوجهون الى مكة المشرفة إلا من صحراء عيذاب يركبون النيل من ساحل مدينة مصر الفسطاط الى قوص ثم يركبون الابل من قوص ويعبرون هذه الصحراء الى عيذاب ثم يركبون البحر في الجلاب (قوارب) الى جدة ساحل مكة . وكذلك تجار الهند واليمن والحبشة يردون في البحر الى عيذاب ثم يسلكون هـذه الصحراء الى قوص ومنها يردون مدينة مصر ومسافة هذه الصحراء من قوص الى عيذاب ١٧ يوماً ويفقد فيها الماء ثلاثة ايام متوالية وتارة يفقد اربعة ايام فكانت هذه الصحراء لا تزال عامرة آهلة بما يصدر او يرد من قوافل التجار والحجاج حتى انه كانت احمال البهار كالقرفة والفلفل ونحو ذلـك لتوجد ملقاة بها والقفول صاعدة وهابطة لا يتعرض لها احد الى ان يأخذها صاحبها .

« وعيذاب في صحراء لا نبات فيها وكل ما يؤكل بها مجلوب اليها حتى الماء وكان لهم من الحجاج والتجار فوائد لا تحصى وكان لهم على كل حمل يحملونه للحجاج ضريبة مقررة وكانوا يكارون الحجاج الجلاب التي تحملهم في البحر الى جدة ومنها الى عيذاب فتجمع لهم من ذلك مال عظيم ولم يكن في اهل عيذاب إلا من له جلبة فأكثر على قدر يساره وجلاب هذا البحر لا يستعمل بها مسمار البتة انما هي مخيطة بأمراس من قشر جوز الهند المسمى بالنرجيل ويخللونها بدُسُر من عود النخل فاذا فرغوا من انشاء الجلبة على هـذه الصفة سقوها بالسمن او بدهن الخروع وبدهن القرش وهو احسنها . والقرش حوت عظيم في البحر يبتلع الغرقى . وانما يدهنون الجلاب لتلين عددها وترطيبها لكثرة الشعاب المعترضة في هـذا البحر . وأخشاب هذه الجلاب مجلوبة من الهند واليمن وشراعها حصر منسوجة من خوص شجر المقبل .

« ولأهل عيذاب في الحجاج أحكام الطواغيت فانهم يبالغون في شحن الجلبة بالناس حتى يبقى بعضهم فوق بعض حرصاً على الاجرة ولا يبالون بما يصيب الناس في البحر بل يقولون دائماً علينا بالألواح وعلى الحجاج بالأرواح وكان الحجاج يجدون في ركوبهم الجلاب على البحر أهوالاً عظيمة لأن الرياح تلقيهم في الغالب بمراسٍ في صحارى بعيدة مما يلي الجنوب فينزل اليهم التجار من جبالهم فيكارونهم الجمال ويسلكون بهم على غير ماء فربما هلك أكثرهم عطشاً وأخذ التجار ما كان معهم ومنهم من يضل ويهلك عطشاً والذي يسلم منهم يدخل الى عيذاب كأنه نُشر من كفن قد استحالت هيئاتهم وتغيرت صفاتهم ومنهم من يساعده الريح فتحطه بمرسى عيذاب وهو الاقل .

« ولم تزل عيذاب مسلكاً للحجاج من اهل مصر والجنوب في ذهابهم وإيابهم زيادة على مئتين سنة من اعوام بضع سنة ٤٥٠ هـ ١٠٥٩ م الى أعوام بضع سنة ٦٦٠ هـ ١٢٦٢ م وذلك في ايام الخليفة المستنصر بالله أبي تميم معد بن الظاهر وانقطع الحج في البر الى ان كسا السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقاري الكعبة وعمل لها مفتاحاً ثم اخرج قفلة الحجاج من البر في سنة

٦٦٦ هـ ١٢٦٨ م فقلّ سلوك الحجاج لهذه الصحراء . واستمرت بضائع التجار تحمل من عيذاب الى قوص حتى بطل ذلك بعد سنة ٧٦٦هـ ١٣٦٥م وتلاشى أمر قوص من حينئذ . ولما انقطع ورود مراكب الهند واليمن اليها صارت المرسى العظيمة عدن من بلاد اليمن الى ان كانت أعوام بضع وعشرين وثمانماية فصارت جدّة أعظم مراسي الدنيا » اه .

سواكن : أما سواكن فقد قال فيها ابو الحسن المسعودي : « وجزيرة سواكن أقل من ميل في ميل وبينها وبين البحر الحبشي بحر قصير يُخاض وأهلها طائفة من البجا تسمى الخاسة وهم مسلمون ولهم بها ملك . وقال أبو الفداء في جغرافيته : « قال ابن سعيد وصاحب سواكن من البجا المسلمين وله ضرائب على التجار وسواكن صغيرة جداً . وبين سواكن وبين عيذاب نحو سبع مراحل وحكى لي بعض المسافرين اليها قال وسواكن بقدر ضيعة صغيرة في جزيرة صغيرة قريبة من الساحل ويخاض اليها من البر وهي وما حولها للبجا . وأما ما وراء سواكن والى المندب فهو لجنس من السودان يقال لهم دَنكل ومن وراءات المندب لزيلع .

الباب الرابع

في

تاريخ مملكة سنار

منذ خراب سوبه سنة ٩١٠ هـ ١٥٠٥ م الى الفتح المصري لسنار سنة ١٢٣٦ هـ ١٨٢٠ م

تمهيـــد

يؤخذ من التواريخ التقليدية ان جزيرة سنار الواقعـة بين النيل الابيض والنيـل الازرق هي بلاد المكروبيين الذين ذكرهم هيرودوتس انهم في أقصى جنوب ايثيوبيا . وقد تقدم لنا حملا على الظن ان الجنود المصريين الذين فرّوا الى السودان في ايام الملك بسامتيك سنة ٦٤٤ ق. م. أقاموا في جزيرة سنار. وارتأى البعض ان الملك الذي طمع كمبيز ببلاده فعجز عن الوصول اليه سنة ٥٢٥ ق. م. كما مرّ هو ملك هذه الجزيرة . وفي بعض التقاليد القديمة انه قام في هذه الجزيرة بعد كمبيز ١٢ ملكة و ١٠ ملوك . وقـــد رأينا انه قام في شرقيها مملكة عرفت بمملكة علوة او مملكة العَنج وذلك من قبل النصرانية وبقيت على النصرانية نحو ألف سنة حتى قام الفرنج فاتحدوا مع العرب فخربوها وأسسوا مملكة سنار سنة ١٥٠٥ م في مكانها .

اما الفونج فقد اختلف المؤرخون في اصلهم فمن قائل انهم فرع من الشلك ومن قائل انهم من سكان دارفور الاصليين . والذي عليه التقاليد السودانيـة وتدعيه سلالتهم انهم من بني امية قالوا : ان العباسيين لما تغلبوا على الأمويين في الشام ونزعوا الملك من ايديهم سنة ١٣٢هـ ٧٥٠م اخذ من بقي من الامويين ومن والاهم بالفرار فتفرقوا في أنحـــاء العالم فذهبت جماعة منهم الى اسبانيا فأسسوا مملكة الاندلس على ما هو مشهور وذهب آخرون الى السودان فأسسوا مملكة سنار قبل لجأوا اولاً الى الحبشة فعلم بنو العباس بهم فأرسلوا الى النجاشي يريدون منه تسليمهم وإلا اقاموا عليـــه حرباً عواناً واخذوهم عنوة فحار

النجاشي في امره لأنه لم يشأ ان يسلّم قوماً دخلوا في حماه الى اعدائهم ولا ان يتحمل عناء حرب طويلة لأجلهم فأرسل هدية فاخرة الى العباسيين وأمر الامويين فخرجوا من بلاده وسكنوا الجبال التي في أعالي جزيرة سنار وكان سكانها من السود (وبينهم الفونج) فملكوهم بالسهل نظراً لما تعودوه من السلطة والنفوذ في سورية والعراق وكثر تسريهم منهم فغيّر ذلك من لونهم ولكنه لم يضع اصلهم فهم لم يزالوا عرباً ممتازين .

هذه هي رواية القائلين ان الفونج من بني امية وفي جملتهم الشيخ عبدالدافع صاحب تاريخ الفونج ولكن ما من قبيلة اشتهرت في السودان إلا ادّعت لنفسها نسباً يتصل بآل البيت ولعلّ الفونج لم يخرجوا عن هذا الحكم والأقرب الى الصواب انهم قوم خلاسيون أي خليط من كبراء العرب وملوك الفونج السود.

قال الشيخ عبد الدافع : « وانتقل الفونج من جبال الجنوب الى جبل مويه المجاور لجبل سجدي على مقربة من سنار وكان كبيرهم عمارة ود دنقس وفي جوارهم قبيلة من عرب جهينة تعرف بالقواسمة وعليها شيخ شديد البأس يقال له عبد الله جماع فاتحد عماره وعبد الله المذكوران على ضم كلمة المسلمين ومحاربة النوبة ونزع الملك من ايدي العنج فحشدا الجيوش وهاجما العنج في سوبة فقتلوهم شر قتلة وأخربا سوبة ثم سارا الى قرّي فقتلا ملكها واستوليا على البلاد كلها وذلك سنة ٩١٠ هـ ١٥٠٥ م كما مرّ . قيل وقد ساعدهما على النصر نشوب فتن داخلية أدّت الى سفك الدماء .

ولما تمّ النصر لعمارة وعبد الله على النوبة اتفق رأيهما بأن يكون عمارة هو الملك الاعظم في مكان ملك سوبة لأنه الكبير والمقدّم ويكون عبد الله بعده في مكان ملك قرّي ويلقب شيخاً فجلس عبد الله في قرّي وذهب عمارة فاختط مدينة سنار وجعلها كرسي مملكته . قيل وكان هناك جارية تسمى سنار فسميت المدينة باسمها . وكان عمارة وعبدالله كالاخوين إلا ان رتبة عمارة أعلى من رتبة عبد الله فكانا اذا حضرا معاً يتقدم عمارة على عبد الله واذا

غاب عمارة قام عبدالله مقامه ولم تزل هذه العادة متبعة في أسلافهما الى انقضاء المملكة اه .

وقد امتدت مملكة سنار من الشلال الثالث الى أقصى جبال فازوغلي شمالاً وجنوباً ومن سواكن على البحر الاحمر الى النيل الابيض شرقاً وغرباً . وكان الحدّ بين مملكة سنار ومشيخة قرّي مدينة اربجي بقرب المسلمية التي قيل انها اختطت قبل سنار بثلاثين سنة اختطها رجل يسمى حجازي . فمن اربجي فصاعداً جنوباً كان تابعاً لملوك الفونج رأساً لا دخل لمشايخ قرّي فيه ومنها شمالاً الى الشلال الثالث كان تابعاً لإدارة مشيخة قرّي تحت سيادة ملوك الفونج . وقد كانت المملكة منقسمة الى عدة ممالك ومشيخات من سود ونوبة وعرب حضر وبادية وكان كل ملك او شيخ يدفع الجزية لملك سنار إلا ان له نوعاً من الاستقلال واما البلاد الواقعة بين الشلال الثالث والشلال الاول فقد كانت بيد الكشاف والاتراك كما أشرنا آنفاً . وسنأتي على تاريخ هذه الممالك كلها مبتدئين بتاريخ الفونج ملخصاً عن تاريخ الشيخ عبد الدافع وتاريخ الزبير ودضوّه من علماء الخرطوم السابقين وعن بعض كبارها الحاليين :

الفصل الاول

في

تاريخ ملوك الفونج في سنار

من سنة ٩١٠ : ١٢٣٦هـ — ١٥٠٥ : ١٨٢١م

١ – الملك عماره دُنقس ملك من سنة ٩١٠:٩٤٠هـ — ١٥٠٥:١٥٣٤م

هو رأس سلسلة ملوك الفونج وقد تقدم لنا ذكر قيامه وتأسيسه المملكة في سنار . قيل وفي ايامه قدم السلطان سليم الى سواكن ومصوع فامتلكها ودخل الحبشة بقصد الزحف على سنار فخاطب ملكها يدعوه الى الطاعة فأجابه بما مفاده : « اني لا أعلم ما الذي يحملك على حربي وامتلاك بلادي فإن كان لأجل تأييد دين الاسلام فاني انا وأهل مملكتي عرب مسلمون ندين بدين رسول الله وإن كان لغرض مادّي فاعلم ان اكثر اهل مملكتي عرب بادية وقد هاجروا الى هذه البلاد في طلب الرزق ولا شيء عندهم تجمع منه جزية سنوية » . وأرسل له مع الكتاب كتاب أنساب قبائل العرب الذين في مملكته جمعه له الامام السمرقندي احد علماء سنار فلما وصل الكتابان الى السلطان سليم أعجبه ما فيهما وعدل عن حرب سنار . قيل وأخذ كتاب الأنساب معه الى الآستانة

وهو لا يزال في خزانة كتبها الى اليوم . قلتُ وقد طالما سمعت عن هذا الكتاب وعن وجوده في السودان قبل الفتح الاخير فلما فُتح السودان بذلتُ الجهد في التفتيش عنه فلم أقف له على أثر .

٢ – الملك عبد القادر ابنه سنة ٩٤٠ : ٩٥٠هـ — ١٥٣٤ : ١٥٤٤م

٣ – الملك نائل أخوه سنة ٩٥٠ : ٩٦٢هـ — ١٥٤٤ : ١٥٥٥م

٤ – الملك عمارة ابو سكاكين اخوه سنة ٩٦٢:٩٧٠هـ — ١٥٥٥:١٥٦٣م

وفي أيامه توفي عبد الله جماع شيخ قرّي المتقدم الذكر فعهد بالمشيخة الى ابنه الشيخ عجيب كافوت .

٥ – الملك دكين بن نائل الملقب بالعادل سنة ٩٧٠:٩٨٥هـ — ١٥٦٣:١٥٧٨م

قيل لُقّب بالعادل لأنه كان محباً للعدل وقد رتّب دواوين حكومته أحسن ترتيب ونظم البلاد فأقام على كل جهة رئيساً وضرب عليه جعلاً معلوماً وجعل دخول الرؤساء عليه حسب رتَبهم الأعلى فالأعلى .

٦ – الملك طبل سنة ٩٨٥ : ٩٩٧هـ — ١٥٧٨ : ١٥٨٩م

٧ – الملك أنسه سنة ٩٩٧ : ١٠٠٧هـ — ١٥٨٩ : ١٥٩٩م

٨ – الملك عبد القادر الثاني سنة ١٠٠٧ : ١٠١٣هـ — ١٥٩٩ : ١٦٠٥م

٩ – الملك عدلان ابنه أبَه سنة ١٠١٣ : ١٠٢٠هـ — ١٦٠٥ : ١٦١٢م

وفي أيامه خرج الشيخ عجيب شيخ قرّي المتقدم الذكر عن طاعته فأرسل اليه عساكر بكثرة والتقى العسكران بالقرب من كلكول بين العيلفون والخرطوم فقتل الشيخ عجيب وفرّ أولاده الى دنقلة فأرسل لهم الملك عدلان أماناً مع الشيخ ادريس بن محمد الارباب فرجعوا معه الى الملك فبالغ في اكرامهم وولى أحدهم العجيل مشيخة قرّي .

أما الشيخ ادريس المشار اليه فهو من رجال الدين الذين اشتهروا في السودان بالصلاح والتقوى وقد لقب بسلطان الاولياء وكان له ولذرّيته من بعده مكانة رفيعة عند ملوك سنار فكانوا يصلحون بينهم وبين كبار رعيتهم اذا اختصموا ويتشفعون عندهم في الامور الخطيرة بل كانوا اذا طارد ملك أحد الرعية فلجأ الى حماهم رجع الملك عنه . وقيل في نسب الشيخ ادريس ان أباه قرشي تميمي وأمه من نسل الحسين بن علي بن أبي طالب هاجر جدّه من الشام فأقام مدة في بلاد المحس ثم بلغه ان في الحلفاية شريفاً من نسل الحسين يسمى الشريف حمداً فرحل اليه وكان له ابن فزوّجه بابنة الشريف فوُلد له الشيخ ادريس المذكور وذلك سنة ٩١٣ ه فعمّر الى سنة ١٠٦٠ ه ودفن في العيلفون جنوبي الخرطوم وبني فوق قبره قبة تزار وما زالت ذريته في العيلفون الى اليوم . وقد أخذ الصوفية على الطريقة الجيلانية عن الشيخ تاج الدين البهاري الذي قدم الى سنار من بغداد وعنها اشتهرت هذه الطريقة فعمت جميع بلاد سنار وهي اول الطرق الصوفية في السودان .

ويروى عن الشيخ ادريس كرامات كثيرة منها انه ظهر في جنوب النيل الازرق يد بشرية مرفوعة فوق الماء وهي تسير مع التيار وأصابعها الخمس مفتوحة ولم يُر معها شخص فحار الناس في أمرها وتشوّقوا الى معرفة سرها فلما وصلت تجاه العيلفون خرج الشيخ ادريس من مسجده فرفع لها أصبعين فغاصت للحال في الماء ولم تعد ترى فسأله الناس في ذلك فقال هذه اليد تدلّ على ان الاتفاق قوّة وانه اذا كان خمسة من الناس بقلب واحد لم يقدر عليهم أحد فرفعتُ لها اصبعين مشيراً الى انه اذا كان اثنان فقط بقلب واحد فلا يقدر عليهما احد فانصرفت خجلاً .

هذا ومن عادة بائعات المريسة في العيلفون ان ترفع كل منهنّ راية فوق منزلها وتجلس عندها تنادي بأعلى صوتها : « يا شيخ ادريس يا راجل الفدّة والمدّة تلحقنا وتفزعنا وتبيع لي مريستي » فيجتمع الناس عندها فتخرج من

المريسة ملء قدر فتسقيهم اياه مجاناً تصدقاً عن روح الشيخ ادريس ثم تشرع في بيع الباقي بالثمن .

واشتهر بعد الشيخ ادريس بالصلاح والتقوى في سنار « الشيخ حسن ود حسونة » جاء أبوه من الأندلس وسكن كركوج فولد الشيخ حسن المذكور فيها فسلك طريق القوم وحجّ الى بيت الله الحرام وساح الى مصر والشام وغيرهما وكانت مدة سياحته نحو ١٢ عاماً ثم رجع الى البلاد واشتهر صلاحه فسكن البادية وأكثر فيها من المواشي والخيل والعبيد . وكان مع كثرة غناه يتقشف في أكله ولبسه ويطعم الناس لذيذ الاطعمة وكان بينه وبين الشيخ ادريس محبة عظيمة الا انه لم يشتهر الا بعد وفاة الشيخ ادريس ولم يخلّف ذرية وتوفي سنة ١٠٥٩ ه ١٦٤٩ م فعاش احدى وتسعين سنة ودفن في قبته التي بناها قبل وفاته في وسط البطانة بين النيل والاتبرة واصبحت مزاراً يجتمع فيها في كل خريف خلق كثير .

وفي ايام الملك عدلان قدم الى سنار الشيخ ابراهيم بن جابر البولادي من مصر وهو اول من درّس مختصر الشيخ خليل المالكي في بلاد الفونج فنفع الله به خلقاً كثيراً . وقدم ايضاً رجل مغربي تلمساني على الشيخ محمد عيسى سوار الذهب فأخذ عنه طريق القوم ودرس عليه علوماً كثيرة .

وفي نحو هذا العهد قدم الشيخ محمود العركي من مصر وعلّم الناس بعض أركان الشريعة وبنى له رباطاً على البحر الابيض بين أُليس والحسانية وبه مدفنه الآن . وكان قبله في بلاد سنار اولاد ضيف الله المعروفة مقابرهم في ابي حليمة شرق النيل الازرق . قيل وكان اول دخول الاسلام الى بلاد سنار في خلافة هارون الرشيد سنة ٧٨٦ م .

١٠ــ الملك بادي المعروف بسيد القوم سنة ١٠٢٠ : ١٠٢٣ ه ــ ١٦١٢ : ١٦١٥ م

١١ــ الملك رباط ابنه سنة ١٠٢٣ : ١٠٥٢ ه ــ ١٦١٥ : ١٦٤٣ م

١٢– الملك بادي ابو ذقن سنة ١٠٥٢ : ١٠٨٨ هـ – ١٦٤٣ : ١٦٧٨ م

ومن أعماله انه غزا الشلك وفتك بهم . ثم غزا جبال تقلي فدوّخها. قيل والسبب في غزوه تلك الجبال ان احد أصدقائه ذهب اليها بتجارة فسلبه ملكها جميع ما كان معه وطرده فقيل للملك ان هذا الرجل صديق لملك سنار فقال وماذا يهمني ملك سنار فإن قصدني وجاوز باجة (غابة) أم لمّاع فليفعل ما يشاء وباجة أم لماع مفازة صعبة لا ماء فيها بين النيل الابيض وجبال تقلي. فأتى التاجر الى ملك سنار وأخبره بما جرى له مع ملك تقلي فجهّز عساكره وسار قاصداً جبال تقلي وقال لصاحبه اذا وصلنا الى غابة ام لماع فأخبرني فلما وصلوا اليها أخبره فنزل الملك عن جواده وأمر عساكره فنزلوا عن ركائبهم واجتازوا الغابة ماشين على الأقدام أراد بذلك احتقار العقبة التي ظن ملك تقلي انها تعجزه ولما اجتازها ركب وركبت عساكره وساروا في جبال النوبة يقتلون ويأسرون ويسبون حتى وصلوا الى جبال تقلي فحاصروها فتمنع ملكها بالحصون قيل وكان يقاتل عساكر ملك سنار نهاراً ويرسل اليهم « الضيافة » ليلا . فلما رأى ملك سنار مكارم أخلاقه صالحه على جُعل معلوم يدفعه له في كل عام ورجع الى سنار ومعه سبايا النوبة وتقلي فجعل لكل جنس منهم حلة معلومة حول سنار وأسكنهم بها وصاروا من جملة جنوده وقد تناسلوا بتلك الحلل فسميت كل حلة باسم الجنس الذي سكنها مثل تقلي والكدرو والكنك والكاركو وغيرها وبقيت ذراريهم بها الى انقضاء دولة الفونج .

وقد اشتهر هذا الملك بالشجاعة والكرم والعفة والتعبد وكان معظماً لأهل العلم والدين مكرماً لهم. وكان بينه وبين علماء مصر اتصال حسن فكان يرسل اليهم الهدايا مع خبيره احمد علوان وقد اشتهرت مناقبه عندهم حتى انهم مدحوه بقصائد عديدة منها قصيدة للشيخ عمر المغربي قال فيها :

أيا راكباً يسري على متن ضامر … الى صاحب العلياء والجود والبرّ
ويطوي اليه شقة البعد والنوى … ويقتحم الأوعار في المهمه القفر

وينهض من مصر وشاطىء نيلها … وأزهرها المعمور بالعلم والذكر
لك الخير إن وافيت سنار قف بها … وقوف محبّ وانتهز فرصة الدهر
وألق عصا التسيار في صرح أنسها … تجد كل ما تهوى النفوس من البشر
وأهدِ سلاماً عطّر الكون نشره … ألذّ من الماء المسلسل والقطر
وأحلى وأهنا من وصال بلا جفا … وأعلى وأغلى من عقود من الدرّ
الى حضرة السلطان والملك الذي … حمى بيضة الاسلام بالبيض والسمر
هو الملك المنصور «بادي» الذي له … مدائح قد جلت عن العدّ والحصر
حمى حرمة الدين الحنيفي بالقنا … وعزّز فيه راية الفتح والنصر
وجرّد للاسلام والملك صارماً … أباد به اهل الغواية والكفر
له في صميم الملك مجد مؤثّل … تلقّاه عن أسلافه السادة الغرّ
ملوك تساموا للعلى وخلائف … أولو العزم في أزمانهم وأولو الأمر
هم العقد من أبهى اللآلىء نظمه … مناقبهم كالمسك طيبة النشر
وفيهم مولانا المليك فريدة … لذا العقد ربُّ العز والجد والفخر
هو البرّ والبحر المحيط حقيقة … فناهيك من برّ وناهيك من بحر
عماد يلوذ الملهوف بظله … وسدّ منيع للأنام من الضرّ
سليل ملوك الفونج والسادة الاولى … علا مجدهم فوق السماكين والنسر
محا أثر الفجار بالسيف فاغتدت … بهم حوزة الاسلام سامية القدر
أياد له بالنصر كاسرة العدى … ولكنها بالجود جابرة الكسر
به أصبحت سنار في الأنس والصفا … وتاهت على البلدان حتى على مصر
تبارك من أنشاه للخلق رحمة … وزان به الازمان كالعقد في النحر
وصيّر أمري في يديه فإن يشا … أزال برغم الدهر ما بي من الضرّ
فاني فقير والفضائل حرفتي … وفي مصر أرباب الفضائل في فقر
وقد جاءني منكم كتاب معظّم … وفي سلكه نظم الجواهر والدرّ
فقبّلته ألفاً وحقّاً جعلته … على الرأس تعظيماً وأودعته صدري
تسلمت عبداً واحداً من صلاتكم … ونلت به فخراً وناهيك من فخر

فخذها من العبـد الفقير قصيدة   منظمة كالدرّ في خـالص التبر
هو المغربي المـــالكي وانـه   يسمّى ابن خطاب ومثلك من يدري
فمنوا عليهـا بالقبول وأنعموا   عليه بما ينجيه من غصص الدهر
فلا زلتَ في أوج السعادة رافلا   وراجيك « باد » عن عطاء وعن شكر

وهو الملك الذي بنى الجامع بسنار وجعـل في نوافذه شباكاً من نحاس وبنى قصراً لحكومته فجعـله خمس طبقات بعضها فوق بعض وبنى مخازن للأسلحة والذخائر وديواناً لجلوسه وديوانين آخرين أحدهما خارج القصر والآخر داخله وأحاط جميع ذلك بسور له تسعة أبواب جعل ثمانية منها لأمراء دولته لكل أمير باباً يدخل منه الى ديوانه الخاص للنظر في الشؤون المتعلقة به وجعل الباب التاسع له ولولد عجيب شيخ مشيخة قرّي . وهذه الابواب التسعة تفتح في حائط واحد وأمام كلٍّ منها رواق له دكة عالية تعرف «بدكة من ناداك» قيل سميت بذلك لأنها ملجأ للمتظلمين فيأتيها النـــاس من انفسهم بدون ان يناديهم احد . واذا أراد احد كبراء الدولة الدخول الى ديوان الملك لزمه ان يدخل وحده . ولـما تضعضع حال الفونج وتغلب الهمج على ما سيجيء تهدّم كثير من تلـك البيوت وتداعى القصر الكبير ولكن بقيت آثاره الى الفتوح المصري .

١٣ — الملك أنسه الثاني ابن اخيه سنة ١٠٨٨ : ١١٠٠ هـ — ١٦٧٨ : ١٦٨٩ م

وفي أيامه سنة ١٠٩٥ هـ وقيـل ١٠٨٩ هـ حصل غلاء شديد واشتد الجوع حتى أكلت الناس الكلاب فسميت هـذه السنة بسنة أم لحم . وفيها تفشّى مرض الجدري ومات منه ومن الجوع خلق كثير .

١٤ — الملك بادي الاحمر ابنه سنة ١١٠٠ : ١١٢٧ هـ — ١٦٨٩ : ١٧١٥ م

وقد خرج أهله الفونج عن طاعته ونصرهم الشيخ ارداب ولد عجيب شيخ قرّي فأقاموا عليهم ملكاً اسمه « أوكل » وجمعوا لمحاربته نحو ألف فارس ولم يكن مع الملك بادي إلا خمسة واربعون فارساً فقاتلهم ونصره الله عليهم فقتل

الشيخ ارداب وطرد الباقين الى محل يقال له العطشان ورجع سالماً منصوراً .

وفي أيامه ظهر الولي الشيخ حمد ولد الترابي من عرب رفاعة الهوي فاشتهر في السودان بالصلاح والتقوى ودُفن في جزيرة سنار بين الكاملين ومسجد ود عيسى وبني فوق قبره قبة تزار الى اليوم .

١٥ — الملك أنسه الثالث سنة ١١٢٧ : ١١٣٠ هـ — ١٧١٥ : ١٧١٨ م

وقـد انهمك باللهو واللعب وارتكاب الفحشاء حتى بلغت أخبـاره الفونج بالصعيد وهم جنود « لولو » فصمموا على عزله لأنهم هم الذين يعزلون ويولّون من يريدون من الملوك فجاؤوا الى حـلال الكبوش قرب سنار وعينوا ملكاً وأرسلوا للملك أنسه قائلين ان قتلت وزيرك نقرُّك على الملك ولا نتعرض لك فاغتر بكلامهم وقتل وزيره بعـــد تردُّد ثم أرسل لهم الخطيب وبعض عمد سنار ليوفوا له بشرطهم فلم يسمعوا له بل لم يزالوا مصممين على عزله فلما يئس منهم استأمنهم على نفسه وعائلته فأمنوه وخرج من محل الملك وذلك في سنة ١١٣٠ هـ ١٧١٨ م وكان هو آخر ملوك من تولى من نسل عمارة دنقس وولى الفونج بعده :

١٦ — الملك نول سنة ١١٣٠ : ١١٣٦ هـ — ١٧١٨ : ١٧٢٤ م

وكانت له نسب من جهة الرحم يتصل بسلسلة الملوك المتقدمين وقد اتفقوا على توليته لأنه كان رجلا عاقلا حسناً في الاسلام فحكم في الرعية بالعدل وحسن التدبير فارتاحوا الى حكمه وسموه بالنوم لشدة عدله .

١٧ — الملك بادي ابو شلوخ ابنه سنة ١١٣٦ : ١١٧٥ هـ — ١٧٢٤ : ١٧٦٢ م

وهو أشهر ملوك سنار وقد امتاز بالشهرة لحربه مع الحبشة وانتصاره على ملكها ياسو . وقـــد ذكر بعضهم سبباً لهذه الحرب قال : أن لويس الرابع عشر ملك فرنسا أرسل سنة ١٧٠٣ م هدايا فاخرة الى ياسو ملك الحبشة مع الموسيو لانوار دي رول (M. le noir du Roule) فقـام رول من مصر في

١٩ يوليو سنة ١٧٠٤ م وسار قاصداً الحبشة بطريق النيـــل فوصل سنار في آخر مايو سنة ١٧٠٥ ومعــه سبعة أتباع وخادم ومترجم وستون جملا محملة هدايا فاخرة لملك الحبشة فقابله ملك سنار بالترحاب وكان المسيو رول قـــد أحضر له هدية فسرّ الملك بها وأهدى له هدية نفيسة عوضها ولكن لم يمض إلا القليـــل حتى ورد على ملك سنار رسائل من مصر أوغرت صدره على الموسيو رول وقيل ان الرسائل التي جاءتــه حذّرته من الموسيو رول وأنذرته بأنــه ذاهب الى الحبشة لتحويل مجرى النيـــل الازرق عن سنار وتعليم الاحباش صناعة الحرب وتقويتهم بالمدافع عليه فلما كان آخر شهر اوغسطس سنة ١٧٠٥م استأذن الموسيو رول الملك في استئناف السفر الى الحبشة فأذن له ولكن ما سار عن سنار بضعة أميال حتى أدركه ٣٠٠ رجل من قِبل الملك فقتلوه هو وأتباعه وأخذوا جميع ما كان معه من الهدايا والأمتعة وانقلبوا راجعين الى سنار . فلما بلغ ياسو ملك الحبشة ما كان من الملك بادي جرّد جيشاً جراراً عدته ٣٠ ألفاً وقيل ١٠٠ ألف وسار في طليعته قاصداً سنار . فجمع الملك بادي جيوشه من المشاة والفرسان وجعل عليهـــا الامين ود مسمار ود عجيب شيخ مشيخة قرّي قائـــداً عاماً وجعـل على الفرسان خاصة الشيخ محمداً أبا الكيليك كبير الهمج (والهمج قوم خلاسيون من النوبة والعرب وقيل هم فرع من العوضية الجعليين) وقـد تسلح المشاة بالسيوف والحراب ولبس الفرسان دروع الزرد وألبسوا خيلهم « اللبوس » واجتازوا النيل فاجتمعوا على خميس امير فور » وانضموا جيشاً واحداً وساروا لملاقاة جيش الحبشة فالتقوا به في محل يقال له الزكيّات شرق الدندر واقتتلوا قتالاً شديداً قتل فيه من الجيشين خلق كثير وكان النصر لجيش سنار فغنم غنائم عظيمة من أسلحة ومدافع وخيام وخيول وغير ذلك ونالت سنار بهذا النصر شهرة طبقت الآفاق حتى بلغت مصر والشام والحجاز والاستانة وتونس والهند فتقاطر الناس اليها أفواجاً من كل الجهات وأقاموا فيها . قيل وكان تاريخ هـــذه الواقعة صفر الخير سنة ١١٤٧ هـ يوليو ١٧٣٥ م قلت وهو لا ينطبق على تاريخ الرواية المتقدم ذكرها

في بيان سبب الحرب .

وقويت شوكة الملك بادي بعد حرب الحبشة وطمعت نفسه بامتداد ملكه غرباً فأرسل جيشاً لفتح كردوفان وولى عليه ود تومه ومعه الشيخ عبد الله ود عجيب شيخ قرّي واخوه تمام والشيخ محمد ابو اللكيلك كبير الهمج وكان على كردوفان طائفة المسبّعات أقرباء سلاطين الفور الآتي ذكرهم فالتقوهم في مكان يقـــال له قحيف وهزموهم وقتلوا قائدهم ود تومه والشيخ عبد الله ود عجيب فجمع الشيخ محمد ابو اللكيلك العساكر ثانية وأعاد الكرة على المسبعات فاقتتلوا في مكان يقال له شمقتّه من أعمال الطيارة بكردوفان فقتل الشيخ تمام ود عجيب والعجيل ابنه .

وبلغ ملك سنار خبر القتـــال الاول والثاني وما أظهره الشيخ محمد ابو اللكيلك من البسالة وحسن التدبير فأرسل اليه يعينه قائداً عاماً في الجيش في مكان ود تومه فسرّ بهذا الالتفات وأعاد الكرة بعزم جديـــد على المسبعات فانتصر عليهم وأخرجهم من كردوفان وكان ذلك في سنة ١١٦٠ هـ ١٧٤٧ م فأقام فيها الى سنة ١١٧٤ هـ ١٧٦١ م . ثم أخلاهـــا للمسبعات وعاد الى سنار لعزل الملك بادي وسبب ذلك ان الملك بادي كان له وزير صاحب عزم وتدبير وهو الذي قام بتدبير المملكة وأكسبها تلك الشهرة فمات الوزير واستبد الملك بادي برأيه فغير كثيراً من النظامات والقوانين واستعان بالنوبة الذين أتي بهم من جبال كردوفان فجعلهم رؤساء بدلاً عن رؤساء البـــلاد أصحاب الرتب القديمة . وفي سنة ١١٧٠ هـ قتل الخطيب عبد اللطيف البغدادي من مشاهير علماء السودان . وكان له أولاد كبار فتطاولوا على الرعية وبغوا وأفسدوا ولم ينههم فنفرت منه قلوب رعيته. وكان مع الشيخ محمد ابي اللكيلك في كردوفان جماعة من أكابر الفونج فأساء الملك الى أتباعهم في سنار فاغتاظوا منه واتفقوا مع الشيخ محمد أبي اللكيلك على عزله وتولية ابنه ناصر في مكانه فخرجوا من كردوفان وعبروا النيـــل الابيض ونزلوا بأليس فأرسلوا الى ناصر وأخبروه بنفور قلوب النـــاس من أبيه وعزمهم على توليته ملكاً عوضاً عنه فخرج من

سنار متنكراً واجتمع بالشيخ محمد وأكابر الفونج في أليس فأخذوا عليه العهود والمواثيق وساروا به قاصدين سنار ثم ارسلوا الى الملك بادي يقولون له ان خرجت فلك الأمان فخرج في قلة وذلة واجتاز البحر وذهب الى سواكن ومات فيها وكانت مدة حكمه ٣٩ سنة . وهو آخر من تمتع بعز الملك من ملوك الفونج فانهم بعد ذلك صاروا يتولونه رسماً لا حقيقة وأصبحت السلطة الحقيقية وتولية ملوك الفونج وعزلهم بيد وزرائهم الهمج الذين أوّلهم « الشيخ محمد ابو اللكيلك » المتقدم الذكر .

١٨ — الملك ناصر سنة ١١٧٥ : ١١٨٢ هـ — ١٧٦٢ : ١٧٦٩ م

حكم ٧ سنين ثم انقلب عليه الشيخ محمد فنفاه الى حلة البقرة قرب سنار فأخذ يسعى بالعود الى كرسي الملك والفتك بالشيخ محمد فبعث الشيخ محمد ابن أخيه بادي بن رجب بجانب من عساكره فدخلوا عليه في منزله وقتلوه وكان المصحف الشريف عن يمينه والموطّأ (وهو كتاب للامام مالك) عن شماله لأنه كان من اهل العلم وله خط جميل . وولى الشيخ محمد أخاه .

١٩ — الملك اسماعيل سنة ١١٨٢ : ١١٩١ هـ — ١٧٦٩ : ١٧٧٨ م

وكان رجلا ديّناً عدلاً أزال المظالم وأحسن الى الفقراء والفقهاء . وفي اول سنة من ملكه أي سنة ١١٨٢ هـ حصل غلاء شديد . وفي سنة ١١٨٥ هـ زاد النيل زيادة عظيمة . وزاد ايضاً زيادة فاحشة في السنة التي تلتها . وفي سنة ١١٩٠ هـ ١٧٧٧ م توفي الشيخ عدلان ود صباحي شيخ خشم البحر وكان بينه وبين الشيخ محمد مودة عظيمة وكان رجلا نزيهاً عفيفاً صاحب كرم وديانة ..

وفيها توفي الوزير « ١ — الشيخ محمد ابو اللكيلك » وكان له سبعة أولاد وهم رجب وناصر وادريس وعدلان وابراهيم وعلي وحسين ولكن لم يكن بينهم مرشد يخلفه فخلفه ابن أخيه « ٢ — الشيخ بادي بن رجب » . فاجتمع الفونج عند الملك اسماعيل يريدون خلعه والتخلص من سطوة الهمج فعلم الشيخ بادي بذلك فعزل الملك اسماعيل ونفاه الى سواكن وولّى بدله :

٢٠ — الملك عدلان الثاني سنة ١١٩١ : ١٢٠٣ هـ — ١٧٧٨ : ١٧٨٩ م

واستقامت للشيخ بادي الوزارة وعدل في الرعية وقهر جميع خصومه وفاق على عمه الشيخ محمد في الشجاعة والقهر وقوة البطش . وفي ايامه خرج الشكرية عن طاعته فخرج بعساكره من سنار ونزل بحلة رفاعة الشرق وأرسل جيوشه على الشكرية في البطانة فواقعوهم عدة وقائع وقتلوا شيخهم الشيخ أبا علي وأجبروهم على الطاعة ولكنهم بقوا على نوع من الاستقلال الى ان دخلت الحكومة المصرية بلاد السودان فخضعوا لها . وأرسل بادي الشيخ عجيب ود عبد الله وعيساوي والشيخ قنديلاوي الى التاكه لمحاربة الحلانقة فحاربوهم فقتل الشيخ عجيب وعيساوي ورجع قنديلاوي فاعترضه في الطريق فارس من فرسان الشكرية يسمى عبد الله القطيني وقتله قيل انه ألقاه عن جواده الى الارض ثم جثا على صدره واستل الخنجر ليذبحه فقال له عبد الله لا تحسب ان تحتك بقرة فأحسن الذبح ولا تملء تلك الخوذة دماً فذبحه كما طلب وكان ذلك سنة ١١٩٣ هـ ١٧٨٠ م .

وفي أثناء إقامة الشيخ بادي في رفاعة عزل الشيخ محمد الأمين من مشيخة قرّي وأرسله الى القربين . وعزل الشيخ محمد ود علي شيخ ديار خشم البحر وولى « صباحي ود عدلان » مكانه . وضرب ناصر ابن اخيه الشيخ محمد ابي اللكيلك ضرباً مبرحاً لذنب أتاه فاستاء اخوته من ذلك جداً وحملوه الى سنار وأخذوا في تهييج الاحزاب المضادة لعمهم وضم كلمتهم لمحاربته فوافقهم على ذلك الملك عدلان وبعض كبراء الفونج والشيخ محمد الامين شيخ قرّي والشيخ محمد ود علي شيخ ديار خشم البحر المعزولين فجمعوا جيوشهم وساروا لقتاله في رفاعة وكان الشيخ بادي عند سماعه بعزم اولاد اخيه على محاربته لم يهتم للخبر ولكنه لما سمع ان الشيخ محمد الامين شيخ قرّي وافقهم على ذلك قال: « الآن تحققت وقوع محاربة صحيحة » قال ذلك لأن الشيخ محمد الامين كان من الفرسان المعدودين فقام لساعته واجتاز النيل الى الجزيرة وسار نحو سنار فالتقاه جموع أعدائه في الطريق فقاتلهم قتالاً شديداً وصار كلما مرّ بفارس

يسأله من انت فيقول له فلان فيتركه ويأبى محاربته حتى قابله الشيخ محمد الامين فسأله من انت فقال « محمد الامين » فضربه بالسيف ثلاث ضربات فلم تؤثر فيه لأن درعه كان حصيناً ولأن ضرب الشيخ بادي كان طائشاً ممزوجاً بالغضب . ثم ان الشيخ الامين ضربه ضربة أثخنته فوقع على الارض مجندلاً فطلب اولاد اخيه ليوصيهم فقال له الشيخ احمد ود علي شيخ خشم البحر المعزول أأنت في قيد الحياة بعد وضربه بالسيف على فمه فقضى عليه وكان ذلك سنة ١١٩٤ هـ ١٧٨٠ م فلما حضر اولاد اخيه وعلموا بضرب الشيخ احمد له وهو على الارض غضبوا ومن ذلك الحين تأسست العداوة بينهم وبين الشيخ احمد وأولاده .

وخلف الشيخ بادي في الوزارة « ٣ – الشيخ رجب » اكبر اولاد اخيه الشيخ محمد ابي اللكيلك فلما استقامت الاحوال بسنار جعل أخاه ابراهيم وكيلاً عنه مع الملك عدلان وتوجه بعساكره الى كردوفان فأقام فيها محاصراً للجبال وفيما هو هناك أشهرَ محمد الامين شيخ قرّي المعزول العداء للهمج فأرسل من كردوفان أخاه ناصر الى الجزيرة ومعه نحو ٧٠٠ فارس لمحاربة الشيخ الامين الذي كان مقيماً بالهلالية شرق النيل الازرق بين رفاعة والكاملين ولم يكن مع الشيخ الامين حين مقابلتهم له إلا ١٦ فارساً من اولاده وعبيده فهزمه ناصر وولى أخاه « بادي بن مسمار » مشيخة قرّي بدله وذلك سنة ١١٩٨ هـ ١٧٨٤ م . وكان أهالي اريجي هم الذين سعوا في تشييخ بادي فأضمر لهم الشيخ الامين السوء فاتفق مع الشكرية وهجم على مدينة اريجي فخربها وشتت شمل أهلها وتركها قاعاً صفصفاً ولم تزل كذلك الى الآن . وكانت مدينة حسنة البنيان كثيرة العمارة ولأهلها تأنق عظيم في تحسين الاطعمة وكان بها مدارس للعلم والقرآن . قيل وقبل خرابها كان فيها رجل يتلو الآية « وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » .

ثم ان الملك عدلان تفكر في ما فعله الهمج في ابيه الملك اسماعيل وجدّه

الملك بادي فلما جاهر الشيخ الامين بعداوة الهمج كتب يدعوه اليه ودعى اليه ايضاً بعض مشايخ البلاد الذين كانوا من حزبه فاتفقت كلمتهم على الفتك بالهمج فقبضوا على ابراهيم وكيل الشيخ رجب الوزير وقتلوه في السوق وأخرج الملك عدلان بنات الشيخ محمد أبي اللكيلك واسترقهن وفرقهن على رؤساء عساكره وذلك سنة ١١٩٩ هـ ١٧٨٥ م . وكان في سنار في ذلك الوقت شاعر مشهور يعرف بالنعسان فأراد الملك قتله بسبب ميله لأولاد أبي اللكيلك ففرّ هارباً الى الشيخ رجب ولما دخل عليه بكى وانتحب وارتجل مراثي محزنة أشار فيها الى قتل ابراهيم واسترقاق بنات محمد فقام الشيخ رجب لساعته الى سنار وكان معه الملك سعد بن الملك ادريس ود الفحل من ملوك الجعليين بشندي الآتي ذكرهم والحاج محمود المجذوب من الأولياء الصالحين اصحاب الكرامات وجد المجاذيب الذين في الدامر قيل وكان في أثناء المسير يقول «يا سنار جاءك النار » وأحياناً يقول « النار أطفأها السيل » . ثم لما قربوا من سنار كان يقول « انا وانت » يعرض بقتله وقتل الشيخ رجب فقابلهم الملك عدلان بجيوشه في مكان يقال له الترس شمالي سنار واقتتلوا قتالاً شديداً قتل فيه الشيخ رجب والحاج محمود وذلك سنة ١٢٠٢ هـ ١٧٨٨ م . وكان للحاج محمود ابن يسمى الفقيه علي فنقله الى حلة الدبة شمالي الحلفاية ودفنه وقبره ظاهر يزار الى اليوم . قيل انه بعد دفنه كان يُسمع الآذان عند قبره كل ليلة لأنه كان مؤذناً في حياته !

وانهزمت عساكر الهمج ولحقوا بمُبُود في وسط الجزيرة وهمّوا بالتفرق في الجهات فأرسل اليه الفقيه حجازي ابن ابي زيد من ذرية الشيخ ادريس ود الارباب المتقدم ذكره وأمرهم بالثبات وبشرهم بالنصر فاطمأنوا وثبتوا وجعلوا الشيخ ناصر أخا رجب المقتول شيخاً عليهم . فجهز عليه الملك عدلان جيشاً وعقد لواءه للامين رحمه ود كتفاوي ومعه محمد ود خميس ابو ريده ونفر من كبار الفونج وسيرهم لقتاله فالتقام بمحل يسمى « انطرحنا » فاقتتلوا قتالاً شديداً فقتل علي اخو الشيخ ناصر وكان فارساً وكثر القتل في عسكر الملك

وانهزموا فغرق بعضهم في البحر وتبعتهم عساكر الشيخ ناصر قتلاً حتى أدخلوهم سنار وتأسف الملك لعدم خروجه للحرب بنفسه فمات قهراً . وزحف الشيخ ناصر على سنار وحاصر عساكر الملك حصاراً شديـــداً حتى ضاقت نفوسهم فخرجوا اليه واصطفوا لقتاله ولكنهم انهزموا بلا قتـال ودخل ناصر سنار بعساكره فأفسدوا فيها وذلك سنة ١٢٠٣ هـ ١٧٨٩ م ومن ذلـــك الوقت انكسرت شوكة الفونج ولم تقم لهم قائمة بعد . وولى الشيخ ناصر :

٢٠ – الملك أوكل سنة ١٢٠٣ هـ – ١٧٨٩ م فملـك بضعة أشهر ثم هرب ليلاً فولّى ناصر مكانه :

٢١ – الملك طبل سنة ١٢٠٣ هـ – ١٧٨٩ م وكان الشيخ محمد الأمين شيخ قرّي المعزول ومحمد ود خميس ابو ريده المار ذكرهما قد وليا على سنار « الملك رُباط » فذهب ناصر ومعه الملك طبل لقتالهما فالتقوا في الحلفاية وقيل في محل قرب شندي وهنـاك اشتعلت الحرب فقتل الملك طبل وانهزم الشيخ ناصر شر هزيمة فسمّى ملكاً على سنار :

٢٢ – الملك بادي الخامس سنة ١٢٠٣ هـ – ١٧٨٩ م وسار به لاستئناف الحرب ضد الشيخ محمد الامين فقتل الملك بادي والملك رباط معاً فولى ناصر على سنار :

٢٣ – الملك حسب ربه سنة ١٢٠٤ هـ – ١٧٩٠ فمات ايضاً ورجع الشيخ ناصر الى سنار . وفي سنة ١٢٠٥ هـ ١٧٩١ حدث ان الشيخ محمد الامين ود مسمار ضرب الشيخ عبد الله بن عجيب (ابن عمـه) لذنب أتاه فالتجأ الشيخ عبد الله الى محمد خميس ابي ريده وذهبا بمن معهما من الرجال الى الشيخ محمد الامين بحلة بان النقا بين قرّي وشندي فوجدوه في منزله وحده فاحتالوا الى ان صعدوا على سطح البيت وأزالوا سقفه وصاروا يرجمونه بالحجارة من بعيد حتى قتلوه . وتولى المشيخة بعده « عبد الله ود عجيب » وولى الشيخ ناصر على سنار :

٢٤ – الملك نوّار سنة ١٢٠٤ : ١٢٠٥ هـ – ١٨٩٠ : ١٨٩١ م وكان صاحب شهامة وسطوة فلما ظهرت صفاته للشيخ ناصر قتله وولى مكانه :

٢٥ – الملك بادي السادس بن طبل سنة ١٢٠٥:١٢٣٦هـ - ١٧٩١:١٨٢١م

وكان لا يزال فتىّ فاستمر ملكه الى الفتح المصري وتقلب عليه عدة وزراء من الهمج اولهم « ٤ – الشيخ ناصر » الذي فيه كلامنا وهو الوزير الرابع .

وفي ايامه توفي الفقيه حجازي في سجنه عطشاً . وتوفي ايضاً الفقيه عبـد الرحمن ود ابو زيد العالم العامل الولي الصالح . والعالم الفقيه محمد نور صبر . وقتل جماعة من الحضارمة على يد اخيه حسين .

وفي سنة ١٢١١هـ ١٧٩٧م اجتاز ناصر البحر بعساكره ومعه اخوه عدلان وحارب أبا ريده وقتـله ونهب أمواله . واتحد عليه هاشم بن الملك عيساوي وأولاد الشيخ الامين ومعهم فزاره وبنو جرّار ودخلوا الجزيرة فخرج في طلبهم فلحقهم بنواحي سيرو وهناك اصطلحوا ورجعوا الى سنار ما عدا بني جرّار فانهم رجعوا من حيث أتوا بعد ان أكرمهم الشيخ ناصر وخلع على كبرائهم .

وكان في الشرق في هذا العصر اربعة ملوك اشتهروا بالكرم وهم : الشيخ ناصر في سنار والسلطان عبد الرحمن في دارفور ومراد بك في مصر واحمـد باشا الجزّار في الشام .

ومما يحكى من نوادر كرم الشيخ ناصر ان رجلاً كان قاصداً الحجاز فدخل عليه يلتمس منه صدقة وكان على مقربة منه إناء مملوء ذهباً فملأ كفيـه مريداً ان يبسط الرجل طرف ثوبه ليملأه له فمدّ الرجل يديه فأعطاه مـا في كفيه من الذهب ولم يزده .

وكان الشيخ ناصر يحب الألعاب والمطربات فلمـا راقت له الاحوال فوّض تدبير المملكة الى وزيره الارباب دفع الله بن احمـــد المشهور بود الزّقلوته من الجعليين واشتغل باللهو والطرب وأعجب بعبيده فاشتدت أيديهم على الظلم ولم يمنعهم لأنهم كانوا عضده . وأمر اخوته وكبراء دولته أن لا يدخل عليه احد

منهم الا بعد الاستئذان من وزيره دفع الله فنفرت نفوسهم منه وخرجوا عن طاعته واجتمعوا في عبود في باطن الجزيرة لمحاربته ووافقهم على ذلك كل من له غرض في إزالة دولة ناصر فلما بلغه خبرهم خرج الى حلة السبيل وأرسل اليهم كبار الفقهاء يترضونهم ثم أرسل اليهم اخوانهم وبنات الشيخ محمد ابي اللكيلك فأبوا الا الحرب او يتنازل لهم عن الوزارة فلما يئس من رجوعهم الى الطاعة عاد الى سنار. فخرج اخوته من عبود ونزلوا في حلة البقرة قرب سنار وباتوا على حربه فأخذ ما يحتاج اليه وفرّ الى الجنوب ليلاً مع وزيره دفع الله فنزل في دبركي على الدندر فدخل اخوته سنار وتولى احدهم « ٥ — ادريس » كرسي الوزارة في مكانه .

وبقي ناصر في دبركي زماناً ثم ارتحل شمالاً فاحتمى بالشيخ عبد الله بن عجيب شيخ مشيخة قرّي مدة ثم رحل عنه وأتى الى عبود ولما علم به ادريس خرج من سنار ببعض عساكره ونزل في ابي حراز وارسل لمحاربته أخاه عدلان وعبيده وبعضاً من العساكر ولم يرسل احداً من الهمج ولا من الفونج خشية من الخيانة ولما أدركه عدلان وتراءى العسكران خرج الوزير دفع الله ود ارباب من جيش ناصر ورمى الخودة عن رأسه ودخل في عساكر عدلان طالباً الأمان لنفسه فانهزم ناصر وعساكره فتبعهم عدلان وقبض على ناصر أسيراً وأتى به الى ادريس في ابي حراز فسلمه الى حساص ابن الملك بادي فقتله بثأر ابيه ودفن قريباً من الشيخ دفع الله العركي وكان ذلك في آخر سنة ١٢١٢ هـ وقيل أوائل سنة ١٢١٣ هـ .

أما الشيخ دفع الله العركي المشار اليه فقد كان من رجال الدين الصالحين وهو تلميذ الشيخ ادريس ود الارباب المار ذكره وكان مقيماً في ابي حراز ولم تزل ذريته مقيمة فيها الى اليوم . وكان مقامهم مكرماً عند ملوك الفونج كمقام ذرية الشيخ ادريس .

وتفرد « ٥ — الشيخ ادريس » بالوزارة وكان رجلاً مهاباً عادلاً أكره شيء لديه السرقة فتعقب اللصوص في كل مكان وعاقبهم بكل صرامة حتى انه لم

يبق سارق ولا لص في كل بلاد سنار. وشدّد الوطأة على العرب الرحّالة فكفى أهل القرى شرهم وكان له من الأعوان عدا اخيه عدلان الارباب القرشي والارباب زين العابدين ود السيد والفقيه عبد الجليل ود عامر والفقيه الأمين ود العشا ولم يفوّض اليهم تدبير مملكته كما فوّض اخوه الشيخ ناصر الى وزيره الارباب دفع الله بل كان يتولى أمور مملكته بنفسه وبذلك استقامت له الاحوال . ثم بدا من الملك بادي ما ساءه فاتفق مع الشيخ كمتور شيخ خشم البحر وعزله وولى مكانه :

٢٧ — الملك رانفي فحكم بضع سنين ثم عاد المُلك الى الملك بادي . وفي أيام رانفي أتى الشيخ عبد الله بن عجيب بما اغضب الشيخ ادريس فجرّد عليه جيوشه وكان العابدلاب قد نقلوا مركز المشيخة من قرّي الى الحلفاية فانتشب القتال في الحلفاية في اول محرم سنة ١٢١٥ هـ ٢٤ مايو ١٨٠١ م فقتل الشيخ عبد الله وانهزمت جيوشه فأمنهم الشيخ ادريس وولى عليهم « الشيخ ناصر الامين » الذي بقي في المشيخة الى الفتح المصري .

وكان الشيخ عبد الله المذكور عادلاً متديناً مولعاً بسماع القرآن محباً للرعية وقد أمر بتقليل مهر النساء فكثر بذلك زواجهن وازداد النسل وأمر أهل السوق بحضور الصلاة في المساجد وقطع دابر اللصوص وأمّن السابلة وكانت مدته ثلاث سنوات .

وأقام الشيخ ادريس في الحلفاية وأرسل أخاه عدلان بجانب من العساكر الى شندي كرسي مملكة الجعليين وكان ملكها الملك سعد قد توفي فلما وصل عدلان الى حلة بان النقا كتب الى الملك محمد ود نمر يعده قصد مخادعته بأن يقره ملكاً على الجعليين فاغتر بوعده وحضره اليه مع نفر من اهله وابنه ادريس وكان اذ ذاك فتى وأما أخواه الملك نمر والملك سعد فقد أبيا الحضور لأنهما لم يصدقاه فلما وصل الملك محمد ومن معه أمر عدلان بسجنهم وغلّهم فمات الملك محمد من ثقل الاغلال وأما ابنه ادريس فقد افتدته أمه بثلثماية أوقية من

الذهب . ثم ان عدلان حاصر الملك نمر وضيّق عليه فلما جنّ الليل فرّ بمن معه فولى المساعد ملكاً على شندي ورجع بالاسارى الى اخيه الشيخ ادريس في الحلفاية فعادا معاً الى سنار وهناك ضربت رقاب اولاد الملك نمر. قيل كان الواحد منهم يأخذ رأسه بين يديه حتى اذا قطع جذبه الى عبّه لئلا يسقط الى الارض فيندلع لسانه .

وفي سنة ١٢١٦ هـ ١٨٠٢ م انتشب قتال عرف بقتال العواليب بين الملك نمر والملك مساعد الذي ولاّه عدلان فانتصر الملك نمر وأخرج المساعد من شندي ولما كان المساعد لا يزال قوياً سعى رؤساء الجعليين بالصلح بينهما فتصالحا على ان يكون نمر ملكاً في شندي والمساعد ملكاً في المتمة تجاهها وبقيا كذلك الى الفتح المصري .

وفي تلك السنة أي سنة ١٢١٦ هـ توجه عدلان أخ الوزير ادريس الى جهة الغرب وقاتل الملك عيساوي فانتصر عليه وأتى به اسيراً الى سنار فمات فيها.

وفي سنة ١٢١٧ هـ ١٨٠٣ م حصلت حرب بين البطاحين والشكرية فقتل الشيخ عوض الكريم ابو سن شيخ الشكرية . وفي النصف الأخير من جمادى الثانية سنة ١٢١٨ هـ اوائل اكتوبر ١٨٠٤ م توفي الشيخ ادريس وتولى الوزارة اخوه « ٦ – عدلان » فاشتغل بالملاهي والملذات وأهمل امور المملكة وكان محمد بن اخيه رجب صاحب دهاء وتدبير فاتفق مع الفونج والشيخ كمتور شيخ خشم البحر والملك رانفي على الفتك بعدلان . وكان في حلة الكبر جنوبي سنار رجل شديد البأس يسمى محمد ود ناصر المشهور بأبي ريش وهو من خاصة رجال عدلان فاتفق مع المتآمرين على الفتك به وتنبئ ذلك ان عدلان سم أخاه علياً فمات فاجتمع المتآمرون بسنار وكان الشيخ عدلان ليلة اتفاقهم عريساً على بنت خارج سنار فقصده ابو ريش مع جماعة من رجاله ليلاً . قيل وكان عنده رجل عاقل علم بالمكيدة فأنشد للشيخ عدلان هذين البيتين :

يا راقد الليل مسروراً بأوّله ... ان المكاره قد يطرقن اسحارا
لا تفرحنّ بليلٍ طاب أوّله ... فربّ آخر ليلٍ أجّج النارا

فما شعر عدلان إلا والأعداء قد أطبقوا عليه من كل جانب فأسرع الى جواده فامتطاه وفرّ هارباً نحو سنار فرماه أحدهم بحربة أدمته ولكنه لم يزل مجداً على جواده حتى دخل سنار فوقع على الارض ميتاً وكان ذلك في ١٦ رمضان ١٢١٨ هـ ٢٩ ديسمبر ١٨٠٤ م . وفي هذه السنة توفي العالم الرّباني الفقيه علي بقادي المشهور .

وتولى الوزارة بعد عدلان « ٧ – محمد ابن اخيه رجب » المتقدم الذكر لكن بقيت الكلمة لمحمد ابي ريش . ولم يمض شهر رمضان حتى وقع الخلاف بين الشيخ كمتور نصير الملك وبين محمد ابي ريش نصير الوزير فأدّى الخلاف الى القتال وكان مقدم رجال ابي ريش فارساً مشهوراً يسمى فاما فبرز الى الكماتير فابتدره الشيخ كمتور بضربة سيف أطاحت رأسه وانهزم ابو ريش مصاباً بجرح بليغ في يده فنزل في حلة الكبر ووقع محمد ود رجب الوزير أسيراً في يد الشيخ كمتور فأودعه السجن وأراد الشيخ كمتور ان يخرج من سنار ويتحصن من ابي ريش فلم يوافقه رجاله على ذلك بل أقاموا في سنار وأطلقوا أيديهم في سلب أموال الناس. فلما شفيت جراح ابي ريش جمع عساكره ونزل بطيبة حلة ولد قندلاوي وأقام بها يتأهب لقتال الشيخ كمتور الى ان انقضت سنة ١٢١٨هـ فتوسط العلماء والأعيان في الصلح بينهما على ان الشيخ كمتور يرد جميع ما سلبه ويطلق سبيل الوزير فأظهر ابو الريش الرضى بذلك وأضمر الغدر فلما رد الشيخ كمتور ما سلبه وأطلق سبيل الوزير ود رجب زحف ابو ريش برجاله عليه فالتقاه في أم صويبينه قرب سنار وانتشب بينهما قتال شديد قتل فيه ١٢ أخاً للشيخ كمتور وجماعة من كبار الفونج وانهزم الملك رانفي فدخل قصره واجتاز الشيخ كمتور النيل الى بلاده . وكان تاريخ هذه الواقعة محرم

سنة ١٢١٩ هـ ابريل ١٨٠٥ م وقد ذهبت في السودان مثلاً للتحذير من الخداع فمن أمثالهم : « يبين لك اللي بان للكماتير في أم صويبينه » .

عود الى ٢٦ – الملك بادي ثم ان محمداً أبا ريش دخل سنار فقتل رانفي وأعاد الملك بادي بن طبل المعزول الى منصبه وفي سنة ١٢٢٠ هـ ١٨٠٦ م لحق بالشيخ كمتور الذي كان قد جاء الى ام درمان فتوسط اهلها والناس الصالحون في الصلح حقناً للدماء فقبلا وساطتهم وعاد الشيخ كمتور الى مركزه في رنقه . ونزل محمد ود رجب في ود مدني وابو ريش في كساب بين رنقه وسنار .

وفي سنة ١٢٢١ هـ ١٨٠٧ م وقع الخلاف بين محمد ابي ريش ومحمد رجب فتقاتلا في مكان يدعى المهراية فانهزم محمد رجب الى الميلفون والتجأ الى اولاد الشيخ ادريس وأخذ يراسل الشيخ كمتور والشنابلة مشائخ ود مدني واولاد سليمان السعداب ملوك شندي فاجتمعوا على محاربة ابي ريش وجعلوا عليهم ملكاً يسمى « عجبان » من بقية ملوك الفونج وجاءوا الى عبود متهيئين للقتال كل ذلك وابو ريش لاهٍ عنهم الى ان أتاه هادم اللذات في نصف تلك السنة فتوفي مع أخ له في ليلة واحدة وترك ابناً صغيراً دون البلوغ فوقع عساكره في حيرة ودهشة . وطمع عبيد الوزير عدلان المقتول في تولية ابنه محمد فحاربهم عبيد ابي ريش وأخذوا محمد بن عدلان اسيراً وهزموهم فانضموا الى محمد رجب وخلفائه في عبود وساروا كلهم لقتال عبيد ابي ريش في طيبة فاقتتلوا قتالاً شديداً كان النصر فيه لعبيد ابي ريش والهزيمة لمحمد رجب والشيخ كمتور فالتجأ الاول الى اولاد الشيخ ادريس في الميلفون والثاني الى المراكيين في ابي حراز فرجع عبيد ابي ريش عنهم لاحترام مقام اولاد الشيخ ادريس والمراكيين كما مرّ وأقاموا في كساب فجعلوا تيغره ود أبي ريش رئيساً عليهم في مكان ابيه وكان معهم محمد ود ابرهيم بن محمد ابو الكيلك فلم يرق له تعيين تيغره رئيساً فانفصل عنهم واتحد مع فزاره وتقدم بهم الى الخرطوم فنهبوا ما أرادوا وقتلوا ابرهيم بن الفقيه محمد علي خليفة الفقيه أرباب ونزلوا في عبود . أما

الفقيه أرباب المشار اليه فهو غير أرباب والد الشيخ ادريس ويعرف بأرباب العقائد لأنه ألف كتاباً في عقائد التوحيد وله ضريح يزار في البشاقرة في جنوبي التي في باطن الجزيرة .

وبقي عبيد ابي ريش وعليهم تيغره بكساب يعيثون في البلاد والحل والعقد في أيديهم مدة ثمانية اشهر أسروا في خلالها اولاد رجب وكان محمد ولد ابراهيم لا ينفك عن حشد الرجال في عبود حتى قويت كلمته فزحف على كساب فقتل عبيد أبي ريش وأسر تيغره فأبقي عليه لأنه كان أديباً عاقلاً ولما انتظم له الامر قام في طيبة حلة قندلاوي مدة ثم انتقل منها الى حلة ام ضريبه .

وفي أثناء ذلك خرج « محمد رجب » من الميلفون على عربان الفادنية في البطانة فنهب أموالهم فأتاه المراكيون وأخبروه بأن هذه الاموال أموالهم فردها لهم فلم يكتفوا بذلك بل أغلظوا له في الكلام حتى أحرجوه الى القتال فقاتلوه وهزموه فاستنجد بالشيخ كمتور فلم ينجده بل قبض عليه وأرسله الى محمد ود ابراهيم فأرسله الى محمد ود عدلان في حلة برقو فقتله اخذاً بثار أبيه وهكذا كانت نهاية « محمد رجب » سابع وزراء الهمج .

ثم أخذ محمد ود عدلان يسعى سراً في محاربة محمد ود ابراهيم وتولي الوزارة مكانه فلما نمي الخبر الى محمد ود ابراهيم بعث في طلب محمد ود عدلان الى حلة ولد بهاء الدين فحضر فأدخله في خلوة بهاء الدين وأخذ في توبيخه وشتمه بأفظع الألفاظ ومحمد عدلان يعتذر ويتلطف له في الرد وهو لا يقبل عذراً ثم أمر بذبحه فسمع بذلك بعض انصار ود عدلان الواقفين خارج الخلوة فنادوا محمداً ابراهيم يطلبون اليه اطلاق سبيل محمد عدلان وإلا أشعلوا النار في الخلوة فأخلى سبيله فخرج وهو مهلوع الفؤاد فالتفت اليه احد عبيده المسمى ابا سليمة ودله على جواد محمد ود ابراهيم الذي كان مسرجاً بجانبه وقال له: « ما هذه الدهشة التي اعترتك فذهبت بك اركب هذا الجواد وحكّم السيف في رقاب هؤلاء

الكلاب الذين أرادوا قتلك » فتحمس ود عدلان من كلام عبده وركب الجواد واستل السيف فاجتمع عليه « عبيد ناصر » فاشتد ظهره وأخرج ابراهيم من الخلوة عنوة فقبض عليه وأخذه الى سنار فحبسه مدة في حوش عمته مهيرة ثم قتله . وكان ذلك في آخر جمادي الاخرى سنة ١٢٢٣ هـ ١٨٠٩ م . ومن ذلك الوقت انتظم الامر « لمحمد عدلان » فكان الوزير الثـامن والاخير من وزراء الهمج وقد قبض على جميع أعدائه في البلاد فقتلهم وفي جملتهم اولاد رجب ولم يترك منهم سوى حسن ولما استتب له الامر وخلا باله من المتاعب انتقل الى ود مدني فأقام فيها مدة .

وفي ايامه سنة ١٢٢٤ هـ ١٨١٠ م انتشرت الحمى الصفراء المعروفة عنـدهم بالكلك فمات فيها خلق كثير . وممن مات بها العـالم الفاضل محمد نورين الفقيه ضيف الله بالحلفاية وهو صاحب كتاب طبقات الأوليـاء بالسودان وقد رثاه الشيخ ابراهيم عبد الدافع المفتي صاحب تاريخ سنار بأبيات منها :

دع العين تبكي دهرهـا بتوجُّد　　على غيض بحر كان بالعـلم مزبدا
هو الحبر نجل الحبر ضيف الهنـا　　لقد حاز فخراً في الأنام وسؤددا

وفي أواخر سنة ١٢٢٥ هـ ١٨١١ م فعل « الشيخ ناصر ود الامين » شيخ الحلفـاية ما أغضب محمد ود عدلان فسافر ومعه الملك بادي لمحاربته ففرّ من وجهه الى شندي فأقام محمد عدلان بالحلفاية مدة ثم عاد الى سنار بدون حرب وعاد ود الامين الى الحلفاية .

وفي سنة ١٢٢٦ هـ ١٨١٢ م نشب قتال بين السعداب والجيعاب قتل فيه الارباب بابا النقا وكان رجلا شجاعاً عفيفاً نقياً وقتل معه جماعة من بني عمه وانتصر الجيعاب وقويت شوكتهم فارتفعت رؤوسهم على ملوك الجموعية وأولاد عجيب مشايخ الحلفاية وأنشد بعض شعرائهم يقول :

« يا جعلي وقعت عليكم قضية . وفي ادريس ود سعد وبان النقا أب عرضية .
وفي حدبة السيال رقدت عيال مشرتية » وكلهم من السعداب .

وفي سنة ١٢٢٧ هـ ١٨١٣ م توجه ود عدلان لجمع الجزية من عربان رفاعة بنواحي جبل مويه فجمع الجزية وهرب منهم اللبيح فأرسل خلفه العبـاس فأدركوه وقتلوا بعضاً من جماعته ونهبوا منهم أموالاً كثيرة. وفي سنة ١٢٢٨هـ انتقل الى الطرفاية فجاءه الشيخ خليفه ومعه رجل يلقب بالافندي . وفي هذه السنة ظهر نجم ذو ذنب وحصل غلاء شديد فسميت سنة حيص .

وفي سنة ١٢٢٩ هـ ١٨١٤ م خرج الملك بادي من سنار واتفق مع الكاتير على محاربة ود عدلان وكان ود عدلان اذ ذاك مقيماً في عبود يتأهب للزحف على الشيخ ناصر ولد الامين فلما بلغه خروج الملك بادي عليه رجع عن عزمه وأقام بجزيرة ام راكوبه وأقـام الملك والكاتير بحلة الكبر فحاصرهم فيها ثم اصطلحوا وعاد الملك بادي الى سنار . وفي هذه السنة توفي الورع الحاج دفع الله ود ضيف الله بالحلفاية .

وفي سنة ١٢٣٠ هـ ١٨١٥ م توفي الفاضل الشيخ حسن بن الشيخ عبد الرحمن ود بان النقا وكان عنده خزانة كتب ضاعت كلها في فتنة الملك نمر بعد الفتوح المصري .

وفي سنة ١٢٣١ هـ ١٨١٦ م زحف ود عدلان بعساكره على الحلفاية لقتال « الشيخ ناصر ود عجيب » ففرّ الشيخ ناصر الى شندي وأقام بها الى ان رجع ودعدلان الى سنار فعاد الى الحلفاية وبقي فيها الى الفتوح المصري كما سيجيء.

وفي سنة ١٢٣٢ هـ ١٨١٧ م حضر الى سنار الشريف السيد محمد عثمان المرغني مؤسس الطريقـة المرغنية في السودان وقابل حكامها ودعا النـاس الى اخذ الطريق فلم يأخذها عنه إلا القليل. وأرسل حكام سنار الى الفقيه ابراهيم ابن بقادي ليناظر السيد المذكور ويختبره فمرض حال وصوله الى سنار وتوفي

فيها قبل ان يجتمع به ثم خرج السيد المرغني من سنار وكان عمره اذ ذاك ٢٥ سنة .

وفي آخر سنة ١٢٣٣ هـ ١٨١٨ م زاد النيل زيادة عظيمة حتى هدم حلة البشاقرة شرق سنار وُعرف ذلك النيل بنيل ود ابي سن لأن احمد ود الشيخ عوض الكريم ابي سن قتل في تلك السنة قتله البطاحين وانحازوا الى الملك نمر فجمع الشكرية رجالهم بقيادة محمد ابي سن وقصدوا محاربة البطاحين والملك نمر معاً فتوسط العلماء ومشايخ السجاجيد بينهم ومنعوهم من المحاربة فرجعوا الى بلادهم .

وسنة ١٢٣٤ هـ ١٨١٩ م قتل الارباب محمد دفع الله ود سليمان غيلة قيل كان قتله بدسيسة من محمد ود عدلان ليتزوج بزوجته لأنها كانت بارعة في الجمال.

وفي سنة ١٢٣٥هـ ١٨٢٠ م ارسل الشيخ محمد كمتور عساكره لقتال التكارنة الذين في القلابات على حدود الحبشة وبقي في قلة من العساكر فاغتنم محمد ود عدلان الفرصة فسار اليه وقتله اخذاً بثأر ابيه وكان الشيخ كمتور حليماً بعيد الغضب لا يتكلم بالسفه ولا يشتم احداً واذا اشتد غضبه يلعن الشيطان وقتل معه العالم المحقق الشهير الفقيه احمد بن الطيب عبد السلام ونهبت كتبه النفيسة ورجع ود عدلان الى سنار فرحاً مسروراً بأخذ ثأره لأنه قتل كل من سعى بقتل ابيه . ثم ان الكماتير جعلوا عليهم « ضراراً » اخا محمد كمتور شيخاً وزحفوا لمحاربة محمد ود عدلان اخذاً للثأر فوجدوه متغيباً عند عرب البادية بالرارابة جنوبي سنار فلحقوا به ولم يكن له علم بهم فدهموه ليلاً على حين غفلة في منزله فتصدى لهم نفر من العساكر الملازمة لركابه وقاتلوهم قتالاً شديداً الى ان قتل رئيسهم تيفره ففروا هاربين وأما ود عدلان فانه لما شاهد ما حل بقومه ثغر حائط منزله وفرّ هارباً هو ونساؤه ومعه الهادي ود عجيب . ثم ان الشيخ ضراراً لما رأى شدة بأس عساكر ود عدلان فر هارباً بجريدة من الفرسان ولم يبق من الفئتين إلا القليل فلما اصبح الصباح وتراءى الجمعان قام

بقية عساكر ود عدلان على بقية عساكر الكماتير فهزموهم وقتلوا رؤوسهم وأرسلوا البشرى بالنصر الى محمد ود عدلان فلم يحفل بها لأنه خجل من انهزامه فقال له الارباب دفع الله وهو احد المتخلفين الذين أتوا بالنصر : « لم يكن قتال يا مولاي غير الذي كان بحضورك ولم ينهزم الأعداء إلا بهيبتك » فزال عنه الغم وعاد بالعساكر الى سنار . وبقي فيها مع الملك بادي ملك الفونج الى ان قدم اسماعيل باشا فاتحاً لسنار على ما سيجيء في الفتوح المصري .

هذا ما كان من تاريخ ملوك الفونج نقلاً عن عبد الدافع والزبير ودضوّه ولكن يظهر ان ودضوه اختصر تاريخ عبدالدافع وأضاف اليه بعض الحواشي. ثم ان الموسيو كايو السائح الفرنساوي الشهير الذي رافق حملة اسماعيل باشا لفتح سنار جاء في تاريخه على سلسلة ملوك الفونج قال انه اخذها عن اهلها وعلق عليها بعض الحواشي فخالف فيها عبد الدافع في بعض المواضع وأشهر ما خالفه فيه :

اولاً : ان الفونج هم طائفة من الزنج جاءوا بلاد سنار من غرب النيل الابيض ولا نسب لهم ببني أمية كما ذكر عبد الدافع .

ثانياً : ان الفونج أتوا اولاً الى أريجي وكانت مدينة عامرة وعليها ملك من أهلها فتصدى لهم ملكها وناجزها الحرب فحدثت واقعة عظيمة كان النصر فيها لهم فقتلوا الملك وخربوا اريجي وملكوا البلاد واستقلوا بها لا كما قال عبد الدافع من ان اريجي خربت في ايام « ٢٠ – الملك عدلان الثاني » .

ثالثاً : ان بداية ملوك الفونج هي سنة ٨٩٠ هـ لا سنة ٩١٠ كما ذكر عبد الدافع .

رابعاً : ان ملوك الفونج هم ٢٨ ملكاً لا ٢٧ كما جعلهم عبد الدافع والزبير ود ضوّه وقد خالفها كايو ايضاً في ترتيب سلسلة الملوك ومدد ملكهم .

وهذه هي سلسلة ملوك الفونج ومدد ملكهم حسب رواية كلٍّ من عبد الدافع وكايو مع ذكر الحواشي التي علقها عليها الموسيو كايو :

سلسلة ملوك الفونج

حسب رواية الشيخ عبدالدافع

أسماء الملوك بداية ملكهم سنة ٩١٠ هـ ١٥٠٥ م	مدة ملكهم
١ عماره دنقس	٣٠
٢ عبد القادر ابنه	١٠
٣ نايل اخوه	١٢
٤ عماره ابو سكاكين اخوه	٨
٥ دكين بن نايل	١٥
٦ طبل الاول	١٢
٧ انسه الاول	١٠
٨ عبد القادر الثاني	٦
٩ عدلان بن ابه	٧
١٠ بادي سيد القوم	٣
١١ رباط ابنه	٢٩
١٢ بادي ابو ذقن	٣٦
١٣ انسه الثاني ابن أخيه	١٢
١٤ بادي الاحمر ابنه	٢٧
١٥ انسه الثالث	٣
١٦ نول	٦
١٧ بادي ابو شلوخ	٣٩
١٨ ناصر	٧
١٩ اسماعيل اخوه	٩
٢٠ عدلان الثاني	١٢
٢١ اوكل	
٢٢ طبل الثاني	
٢٣ بادي الخامس	
٢٤ حسب ربه	١
٢٥ نوار	١٢
٢٦ بادي بن طبل (مدته الاولى)	
٢٧ رانقي	
٢٦ بادي بن طبل (مدته الثانية)	٣١
مجموع ملكهم	٣٢٦

حسب رواية الموسيو كايو

أسماء الملوك بداية ملكهم سنة ٨٩٠ هـ ١٤٨٦ م	مدة ملكهم	حواشي كايو
١ عماره دنقس	٤٢	
٢ نايل	١٢	
٣ عبد القادر	١٠	
٤ عماره الثاني اخوه	٨	الملقب بأبي سكاكين
٥ دكين صاحب العادة	١٧	
٦ ضرار ابنه	٨	
٧ طبل بن عبد القادر	٤	قتله اولاد ملك شندي
٨ انسه ابنه	١٢	امه بنت عجيب
٩ عبد القادر الثاني	٣	طرد من الملك
١٠ عدلان اخوه	٤	قتله الشيخ عجيب
١١ بادي ابو رباط	٧	
١٢ رباط ابنه	٢٧	
١٣ بادي الثاني ابو ذقن	٣٧	مد ملكه الى فازوغلي
١٤ انسه الثاني بن ناصر	١٢	لم يعد راحة للفونج بعده
١٥ بادي الثالث الاحمر ابنه	٢٧	
١٦ انسه الثالث ابنه	٣	مات في سنار بالجدري
١٧ نول	٤	
١٨ بادي الرابع ابنه	٤٠	مات في سواكن
١٩ ناصر ابنه	٨	قتله بادي في البقرة
٢٠ اسماعيل اخوه	٧	مات في سواكن
٢١ عدلان الثاني	١٢	
٢٢ رباط ابنه	٣٠	قتله ناصر في سنار
٢٣ اوكل بن انسه	١	قتله ناصر في الدامر
٢٤ طبل	٢	قتله اولاد عجيب
٢٥ بادي الخامس بن دكين	١	
٢٦ نوار	١	قتله عدلان في سنار
٢٧ بادي السادس بن طبل	٦	مدته الاولى
٢٨ رانقي	٥	قتله محمد رجب في سنار
٢٧ بادي السادس بن طبل	١٦	مدته الثانية نهايتها
	؟	١٢٣٦ هـ ١٨٢١ م

قيل وكان ملوك سنار يجهزون في أيام عزهم جيشاً لا يقل عن ٢٥ ألف مقاتل مسلحين بالحراب والسيوف والدرق وفيهم من اربعة آلاف الى خمسة آلاف فارس من العبيد والفونج وكانوا يقيمون في بلاد البرون الى الجنوب ولهم ثلث الغنائم التي يغنمونها من فازوغلي وجنوبيها . ولكن لما جاءهم اسماعيل باشا فاتحاً لم يجد في سنار من الفرسان إلا نفراً قليلاً لان الفونج كانوا قد فقدوا عزهم من زمان .

وقد اشتهرت سنار بالثروة والغنى وكان التجار يأتونها بالبضائع من مصر والحجاز والهند عن طريق النيل والبحر الاحمر وكان يرد اليها من دنقلة التمر، ومن كردوفان التبر والحديد والعبيد، ومن فازوغلي والصعيد الذهب والعسل والجلود والنعال والسياط والريش والسمسم ، ومن سوق رأس الفيل من بلاد الحبشة على اربعة ايام من سنار الذهب والخيل والعبيد والبن والزباد والعسل وأساور العاج وغيرها من حلي النساء .

وكان أهم صادراتها التجارية الذهب والعبيد وسن الفيل والخرتيت والزباد والعسل والسياط والابنوس والجلود والقصاع والنعال والابل. وكانوا يتعاملون بقطع من الدمور على نحو ما هو جار اليوم في دار ودّاي .

وكان اهم صناعها الصاغة لصياغة الشفتشي المعروف في مصر بالسناري والحاكة لحياكة الدمور وغيره من المنسوجات القطنية . وأهم ما اشتهر به ملوك سنار الكرم وكان الشعراء والمداح يقصدونهم من كل فج لمدحهم واستدرار جودهم قيل انهم لم يردوا سائلاً لا سيما اذا جاءهم من بلاد بعيدة وكانوا يعطون الذهب بالمكيال والرقيق بالجنزير أي بالجماعات لأن الارقاء في اثناء السير تُربط كل جماعة منهم بجنزير .

وكان ملوكها يجمعون الزكاة والفطرة والعشور على نحو ما يفرضه الشرع الاسلامي وكثير من أهالي الجزيرة الآن يملكون الارض بحجج من ايام الفونج.

قيل وكانت اختامهم اكبر اختـام ملوك السودان قاطبة وهي مستديرة الشكل ومنقوشة سطوراً بـين كل سطر وسطر خط تقرأ هكذا : « ومن تكن برسول الله نصرته ، ان تلقه الاسد في آجامها تجم ، ملك ملوك السودان » والعبارة الاخيرة تشير الى كثرة الممالك والمشيخات التي خضعت لسلطانهم اولها :

الفصل الثاني

في

مشيخة العابدلاّب

العابدلاب هم ذرّية الشيخ عبد الله جماع الذي تقدم انه اقتسم المملكة مع الفونج وقد اتخـذ مركزه قرّي فعرفت كرسيه بمشيخة قري ثم انتقلت الى الحلفاية فعرفت بمشيخة الحلفاية . اما المشيخة نفسها فقـد امتدت من حجر العسل الى سوبه ولكن كان لها السيادة على جميع البلاد من اربجي الى الشلال الثالث كما مرّ . وقد تقدم لنا في تاريخ الفونج ذكر اشهر مشايخ العابدلاب نقلاً عن عبد الدافع وذكر كايّو سلسلة للعابدلاب أتى فيها على البعض الذين لم يذكرهم عبد الدافع وفاته ذكر البعض الآخر فكان من مجموع سلسلتيهما ما يأتي :

١ – عبدالله جماع : مؤسس المشيخة الذي دام حكمه الى ايام الملك عمارة رابع ملوك الفونج وخلفه ابنه :

٢ – الشيخ عجيب : الملقب بالمانجلوك أي مـا نجلُ إلاك ومنه لقب « مانجل » الذي يخاطب به شيوخ العابدلاب الى اليوم . وقد عرف العابدلاب بأولاد عجيب ايضاً نسبة اليه . وكان رجلاً صالحاً ديّناً وقد حجّ الى بيت الله

الحرام . قيل وهو الذي بنى بالمدينة المنازل المعروفة برواق السناريين بناها بإذن السلطنة العثمانية فجعلها وقفاً للحجاج من اهل سنار وهي لا تزال مأوى حجاج السودان الى هذا العهد .

٣ — العجيل .

٤ — حمد السميح .

٥ — عثمان ابنه .

٦ — عبد الله الثاني ابن العجيل .

٧ — مسمار بن عبد الله .

٨ — دياب — ارادب ود عجيب : الذي قتله «١٤ — الملك بادي الاحمر».

٩ — الامين ود مسمار: الذي عاش في ايام «١٧— الملك بادي ابي شلوخ».

١٠ — عجيب بن عبدالله .

١١ — عبد الله الثالث ود عجيب : الذي قتل في حرب المسبعات في ايام «١٧ — الملك بادي ابي شلوخ» .

١٢ — عمر أخو عجيب .

١٣ — محمد الامين بن مسمار : الذي عزله الشيخ ناصر في ايام «٢٠ — الملك عدلان الثاني وولّى مكانه أخاه :

١٤ — بادي بن مسمار .

١٥ — عبد الله الرابع ود عجيب : الذي قتله الشيخ ادريس في ايام «٢٦ — الملك بادي» سنة ١٢١٥ هـ .

١٦ — ناصر ود الامين: الذي ذهب الوزير محمد عدلان لقتاله سنة ١٢٢٥هـ .

١٧ — أمين الثاني ابن ناصر .

١٨ — ناصر ود عجيب : الذي عزله اسماعيل باشا في مايو سنة ١٨٢١م.

وقد كان للعابدلاب المقام الاول عند ملوك الفونج كما تقدم وكانوا اذا أراد احدهم الدخول على ملك الفونج يستأذنه اولاً في ذلك فاذا أذن له تمنطق بثوبه ورمى سلاحه عند الباب ودخل عليه وقال انا فلان فيعيد الملك اسمه ثم يقول الشيخ مخاطباً الملك «طويل العمر» وهو لقب ملوك الفونج فيقف الملك ويأخذ يده ويقول : «مرحباً بالبان بإيده تنين سيده» أي مرحباً بالذي بان بفعل يده او بسيفه فهو ثانٍ لسيده ثم يأمره الملك بالجلوس فيجلس في الارض . وهكذا كان يتأدب لهم المشائخ والملوك الذين هم دونهم لكن اللقب الذي كانوا يخاطبونهم به هو «مانجل» وكان اذا زار احدهم فقيه او عالم يدخل عليه باسطاً يديه للدعاء فيقول الفاتحة ثم يتقدم ويقبل يد الشيخ ويرجع القهقرى فيأمره الشيخ بالجلوس فيجلس على فراش فوق الارض احتراماً للدين. وكان النساء اذا التقين بأحد مشايخ العابدلاب في الطريق كشفن عن رؤوسهن وخلعن نعالهن الى ان ينصرف .

وكانوا اذا توفي شيخهم اختاروا شيخاً آخر وأخذوه الى ملك سنار فيؤيده لهم كما كان مشايخ العابدلاب يؤيدون المشايخ والملوك الذين هم دونهم وتحت سيادتهم وذلك انه كان اذا مات لهؤلاء ملك اجتمع اهل قبيلته واختاروا لهم ملكاً يولونه عليهم وأتوا به الى الشيخ فيحلق الشيخ له رأسه ويلبسه «طاقية» ذات قرنين محشوة قطناً ويجلسه على كرسي «بالككر» ثم يخاطبه بلقب مك أي ملك ويقول له «مبارك عليك» فيقبل الملك يده ويدعو له بخير فيأمر الشيخ بضرب النحاس اشهاراً لتأييده ملكاً على اهله وعند ذلك يتقدم اهله فيسلمون عليه بالاحترام الذي سلم به على الشيخ ويخاطبونه بلقب «ارباب» ثم يقولون «جعلك الله مباركاً علينا ولتعمر البلاد بك وتكثر الخيرات على يدك». فيقول لهم «الله يعمركم ويخليكم انا بكم مش بلاكم» ثم يعود الى

قومه بالطاقيــة والككر اللذين أنعم بهما الشيخ عليه حتى اذا ما خرج للحكم لبس الطاقية وجلس على الككر وبذلك يقال للقوم الذين يرأسهم ملك بأنهم « اهل ككر وطاقية » .

هذا ولم يكن ناموس الوراثة للأكبر متبعاً على اضطراد في مملكة سنار بل كان الفونج يولون على القبائل من كان اكثر موافقة لسلطانهم وأقــدر على جمع الزكاة وتقديم الهبات .

الفصل الثالث

في

الممالك والمشيخات التي خضعت رأساً لملوك الفونج

مشيخة خشم البحر: قامت على شرق النيل الازرق بين رنقه والرصيرص ومركزها رنقه وقد عرفت ببلاد خشم البحر او فم البحر لأن بحر النيــل لا يصلح للسفر منها جنوباً بسبب شلال الرصيرص . قيل ولمشايخها نسبة من جهة الرحم مع الفونج وهم في الأصل قواسمة . وقد مرّ بنا ذكر اربعــة منهم في تاريخ الفونج وهم :

١ ــ احمد ود علي وهو جــد مشايخ خشم البحر ولذلك يعرفون ايضاً بأولاد احمد كما عرف الهمج بأولاد محمد .

٢ ــ صباحي ود غدلان وكلاهما عاشا في ايام ٢٠ ــ الملك عدلان الثاني .

٣ ــ الشيخ محمد كمتور وقد سميت هذه المشيخة ايضاً بالكماتير نسبة اليه .

٤ ــ الشيخ ضرار إخوه وهو الذي قتله محمد عدلان آخر وزراء الهمج .

مملكة فازوغلي: قامت في جنوبي مشيخة خشم البحر وامتدت من الرصيرص الى فداسي وعاصمتها فازوغلي . قال كايو : « كان طولها ٣٠ غلوة ومن بلادها

المشهورة بلدة فداسي على نهر يابوس من فروع النيل الازرق يأتيها من الحبشة الخيل والحديد والسكاكين والفؤوس والفهود والعسل والبهارات ويأتيها من دار البرتات التبر . ودين أهلها الاسلام ولغتهم العربيــة إلا انه كان يسكن بينهم الكثير من سكان دار البرتات وعبدة الاوثان وقــد تولى هذه المملكة عائلة من سلالة الفونج وكان لباسهم كلباس ملوك الفونج وما كان يركب الخيل إلا هم . وهذه هي سلسلة ملوكها كا أخذتها عن ملكها الاخير الملك حسن عند تسليمه لاسماعيل باشا يناير سنة ١٨٢٢ » :

سلسلة ملوك فازوغلي

أسماء الملوك	مدة ملكهم	أسماء الملوك	مدة ملكهم	حواشي كايو
١ كلاّح	٥٠	١٠ ادرلا	١٥	
٢ يمني	٤٠	١١ مطر ابنه	١٦	
٣ ادريس ابنه	٣٠	١٢ فنقرو ابنه	١٦	
٤ جابر	١٥	١٣ قلبوس ابنه	١	قتله أخوه
٥ جابر الثاني ابنه	٢	١٤ قمبو أخوه	٢	
٦ زنقر ؟	١	١٥ قمبار	٥	
٧ رويا	٢	١٦ اموشت أخوه	١	قتله عدلان
٨ امبدي ابنه	٤	١٧ حسن بن مطر	١٢	عزله اسماعيل
٩ اتورو بن جابر الثاني	٣	مجموع ملكهم	٢١٥	

مشيخة الحمدة : قامت على الدندر شرق مشيخة الكماتير ومركزها دبركي على الدندر وكان مشايخها يخاطبون بلفظ « مانجل » كمشايخ العابدلاب .

مملكة بني عامر : قامت في الصحراء الشرقية بين البحر الاحمر وخور بركة شرقاً وغرباً وبين عقيق على البحر الاحمر وبلاد الحبشة شمالاً وجنوباً . وهي مؤلفة من اربع قبائل مختلفــة وهي : البجة والخاس وبنو عامر والنابتاب .

قيل ان بني عامر جاؤوا من الحجاز فملكوا البجة والخاس ثم جــاء النابتاب اولاد نابت من الجعليين وملكوهم جميعاً فاتخذوا شياخة القبيلة ثم أعطاهم ملك سنار ككر وطاقية فسموا ملوكاً ولغتهم العربية ولكنهم يعرفون رطانة البجة والخاس ورجال قبيلتهم يلقبونهم بلقب « دقلل » وهو بمثابة أرباب عند ملوك العرب . وقــد كانوا يمهرون نساءهم من قبائل البجة والخاس فتسمت أكثر بدناتهم بأسماء مشايخ النابتاب وأما الذين لا شيخ لهم من النابتاب فقد حفظ فيهم اسم البجة . وكان يمتاز ملوك النابتاب عن رعاياهم بلبس أقراط من الذهب في الاذن اليمنى وزن كلّ منها نصف اوقية لا ينزعونها إلا يوم الوفاة .

مملكة الحلانقة : الحلانقــة قبيلة من البجة كا مرّ وأما هم فيدعون انهم من ذرية احمد الحلاق من قبيلة بني سعد مزين النبي ﷺ ولغتهم البيجاوية ومركزهم جبل كسلا على القاش وكان بينهم وبين الهدندوة وبني عامر منذ القديم حروب وغزوات . وقد كان كبير الحلانقة يلقب شيخاً ككبير الهدندوة الى ايام الشيخ « عوض مسمار » الذي تزوج بينت من العابدلاب (او الفونج) فألبســه ملك سنار طاقيــــة الملك لتعزيز مقامه فبقي ملكاً الى الفتح المصري للتاكا سنة ١٨٤٠ م .

الفصل الرابع

في

الممالك والمشيخات التي خضعت للفونج بواسطة العبدلاب

مشيخة الشنابلة : قامت على النيل الازرق شمالي سنار ومركزها المسلمية وأشهر مشايخها الشيخ شنبول الذي قتل في ايام « ٢٠ – الملك عدلان الثاني » كما مرّ .

مملكة الجموعية : امتدت في غرب النيل الكبير والنيل الابيض من عقبة قري الى الترعة الخضراء ومركزها القيزان المنسوبة الى اولاد الملك المحينة . وكان أهم فروعها الجيماب والسروراب والفتيحاب وأقوام الجيعاب .

مملكة الجعليين : قامت في شمالي مشيخة العبدلاب على انقاض مملكة مروى القديمة بين حجر العسل والدامر ومركزها شندي وكانت مملكة قوية تولاها فرع من الجعليين يعرف بالسعداب فكان منهم على رواية كايو ١٦ ملكاً حكموا ٢٣٥ سنة :

ملوك الجعليين في شندي حسب رواية كايو

أسماء الملوك	مدة ملكهم	أسماء الملوك	مدة ملكهم	حواشي كايو
١ سعداب دبوس	٢٠	٩ بشاره	٧	
٢ سليمان العداد	٧	١٠ سليمان بن سالم	١٥	
٣ ادريس بن سليمان	٣٥	١١ سعد اخوه	٢	
٤ عبد السلام	١	١٢ ادريس الثالث	٢٠	٤ قتله فونج سنار
٥ الفحل بن عبدالسلام	١٥	١٣ سعد الثاني ابنه	٤٠	٥ قتله الجعليون
٦ ادريس الثاني اخوه	٦	١٤ مساعد ابنه	١٣	٦و١٢ قتله الكواهلة
٧ دياب اخوه	١٢	١٥ محمد الملك	١٣	
٨ قنبلاوي	٣	١٦ نمر ابنه	١٧	١٦ عزله اسماعيل
		مجموع ملكهم	٢٣٥	

قيل وكان الملك ادريس الثالث أقوى فرسان زمانه وما بارز فارساً إلا غلبه . وقد ولد له ولدان محمد وسعد فبعد وفاته اقتسما الدار بينهما فملك محمد البر الشرقي في شندي وملك سعد البر الغربي في المتمة وولد لمحمد ولد سماه نمراً ولسعد ولد سماه مساعداً فملك بعدهما نمر في شندي ومساعد في المتمة ودام ملكهما الى الفتح المصري .

وكانت شندي قبيل الفتح المصري من أهم مراكز التجارة في السودان وفيها سوق للرقيق يأتيه التجار من الحبشة وسنار وكردوفان ودارفور والدنكا وفرتيت . وقد وصفها كايو بأنها بلدة عامرة فيها نحو ٩٠٠ بيت و ٧٠٠٠ نسمة وبيوتها مربعة الشكل وكلها طبقة واحدة إلا بيت الملك فانه كان طبقتين ومطلياً بالجير . وكان عند الملك نمر نحو ٣٠٠ فارس واربعين عبداً مسلحين بالبنادق وهم رجاله الأخصاء ولكن كان اذا هاجمه عدو قام الجعليون كلهم لنصرته .

وقد اشتهر الجعليون في السودان بالفروسية واقتحام الاخطار ولهم وقائع معدودة مع الفونج والشايقية وقبائل البادية المجاورين لهم كالشكرية والكواهلة والبطاحين .

حكي ان الشكرية لما حشدوا جيوشهم لمحاربة الجعليين في زمن الملك نمر كما مرّ اجتمع شيوخ الجعليين من سن ستين فصاعداً وقالوا للشبان نحن نقاتلهم عنكم لأنه لم يبقَ لنا في الحيـاة مطمع فإن غلبناهم أرحناكم من شرهم وإن غلبونا فخذوا انتم بثأرنا . قيل فلما جاء الشكرية ورأوا الجعليين كلهم شيوخاً مسنين أدركوا الحيلة وتوسط العلمـاء في الصلح فصالحوهم وزوّجوا الملك نمر بأخت ابي سن حباً بمصاهرتهم .

وكان من عادة الجعليين في ذلك الحين انه اذا وقع قتل في بلدة اجتمع سبع قبائل منهم بمشايخهم وفقهائهم ومعهم القاتل وأهله وأهل المقتول ووقف اهل القاتل في صف وأهل المقتول في صف تجاههم على بعد مئة متر منهم ووقف القاتل وحده بين الصفين ثم ينظر المشايخ والفقهاء في أسباب القتل ويحكمون على القاتل بالعفو او القصاص فإن كان العفو حكموا عليه بالرحيل من البلدة حتى لا يراه اهل المقتول وحكموا على اهله بدفع الديّة وهي الف ثوب من الدمور او ٣٠٠ الى ٤٠٠ ريال « ابو نقطة » يدفعونها لأهل المقتول أقساطاً ربما دامت سنين .

مملكة الميرفاب : في شمـالي الجعليين بين المقرن ووادي السنقير ومركزهم بربر ولهم ككر وطاقية وقد اشتهر الميرفاب بالكرم والنبـاهة كما اشتهروا بالشجاعة . وكان آخر ملوكهم الملك نصر الدين الذي حجّ الى بيت الله الحرام. قيل ان الهمج أساؤوا اليه فذهب الى مصر وحرّض محمد علي باشا على فتح سنار انتقاماً لنفسه منهم .

مملكة الرباطاب : امتدت من وادي السنقير الى الشاخنية فيما وراء ابي حمد وكان لهم ككر وطاقية وكانوا في حرب دائمة مع الميرفاب الى ان كان الفتوح المصري .

مشيخة المناصير : امتـدت من الشاخنية الى الشلال الرابع ومركزها السلامات .

مملكة الشايقية : قامت على أطلال مملكة نبته القديمة وامتدت من الشلال الرابع الى ابي دوم قشابي ومركزها مروى وهي مملكة عربية محضة . وقام في شماليها مملكة الدفار ودنقلة والخندق وارقو وهي ممالك نوبية او عربيـة متنوبة . وقد اشتهر الشايقيـة في السودان بالشجاعة وحب الغزو كما اشتهروا بالضيافة والكرم وكانوا في حرب دائمة مع ملوك النوبة .

وفي أواسط القرن الثـامن عشر للمسيح تجمعوا بخيلهم ورجلهم وهاجموا ممالك النوبة فتغلبوا عليهم جميعاً وخربوا دنقلة العجوز وقتلوا الكثير من أهلها وتشتت من سلم منهم في الجهات فسكنوا بربر وشندي وفرّ بعضهم الى كردوفان فاستوطنوها وصالحهم ملوك الدناقلة على جزية سنوية تساوي نصف دخل بلادهم. وكانوا هم يدفعون الجزية لملوك سنار حتى قويت شوكتهم وأخضعوا دنقـلة فامتنعوا عن أدائها .

المماليك : وفي أوائل القرن التاسع عشر قدم المماليك من مصر فارّين من وجه محمـد علي باشا فنشبت بين الفريقين حرب دامت الى الفتح المصري . وتفصيل ذلك ان محمد علي باشا بعد ان نكل بالمماليك في قلعة القاهرة على ما هو مشهور في تاريخ مصر فرّ من بقي منهم في البـلاد الى الصعيد وتحصنوا بجبال اسنا فتبعهم ابراهيم باشا اليها فانهزموا امامه الى السودان فمنهم من ذهب بطريق الصحراء الى شندي وسنار وهم القليل وذهب اكثرهم بطريق النيـل وابراهيم باشا يطاردهم حتى وصلوا الى كشتمنه فصمدوا له وحـاربوه فهزمهم الى ابريم فتحصنوا في قلعتها فشدّد عليهم الحصار فخرجوا منهـا واستطردوا انهزامهم جنوباً حتى أتوا جزيرة ارقو وكان عددهم نحو ٣٠٠ نفر ومعهم ٣٠٠ عبد بسلاحهم فرأوا محمود العادلاناب من رؤساء الشايقيـة مقيماً في ارقو لجمع الجزية فقالوا له انهم سائرون الى ملك سنار فأضافهم وأكرم مثواهم مدة شهر ثم اتفقوا مع رجل من عائلة الزبير المالكة في ارقو وغدروا بمحمود وقتـلوه

وقتلوا الكثير من حاشيته وانتشروا في البلاد يجمعون ما كان مجمولاً للشايقية من الاموال وكان ذلك سنة ١٨١٢ م .

وفي يناير سنة ١٨١٣ تجهزوا وساروا لغزو الشايقية في مروى فلما علم الشايقية بذلك أرسلوا فرقة من رجالهم بطريق الصحراء فأتوا المماليك من وراء فقتلوا من بقي من اتباعهم في الخندق وارقو واضطروهم الى الرجوع عن الغزو فنزلوا في مراغة وبقوا فيها الى ان جاء اسماعيل باشا فاتحاً فمنهم من سلم له في الحال ومنهم من فرّ من وجهه الى شندي فسلم هناك وسيأتي ذكرهم بعد .

مملكة الدفار : قامت في حلة الدّفار المار ذكرها ودامت الى ما قبل الفتح المصري بقليل اذ خربها الشايقية وطردوا اهلها منها الى جزيرة قانتي حيث لا يزال ذريتهم الى اليوم . وفي الدّفار آثار قلعة قديمة وكنيسة من بقايا نصارى النوبة .

مملكة دنقلة العجوز : قامت على انقاض مملكة نصارى النوبة منذ أوائل القرن الرابع عشر للمسيح فاستمرت الى ان خرّبها الشايقية قبيل الفتح المصري ومن آثار الاسلام جامع قائم فوق كنيسة قديمة لنصارى النوبة وفي واجهته حجر مكتوب عليه اسم فاتح دنقلة وتاريخ افتتاحها وقد مر ذكره . قيل ان مؤسسها هو جدّ مرغني ود سوار الذهب الذي اشتهر في تاريخ الثورة المهدية .

مملكة الخندق : قامت في حلة الخندق ومن آثارها جامع قائم على انقاض جامع آخر بني على انقاض كنيسة من عهد نصارى النوبة .

مملكة الخناق : مركزها حلة الخناق وبقربها الآن آثار قصر فخم لأحد ملوكها المدعو ود نمير قيل وكان ملوكها من ذرية الفونج .

مملكة ارقو : قامت في جزيرة ارقو على انقاض مملكة قديمة من زمن الجاهلية فحكم فيها عائلة عرفت بعائلة الزبير لا تزال ذريتها باقية الى الآن وأكبرهم في هذا العهد الملك طنبل والملك محمد ود الملك اللذان اشتهرا في الثورة المهدية .

ومملكة ارقو هي أقصى الممالك التي خضعت للفونج من جهة الشمال أما البلاد بينها وبين الشلال الاول فقد تولاها الكشاف الاتراك على ما سيجيء .

وأشهر ما في البلاد الآن من آثار مملكة سنار «القبب» فقد عدّ لي بعضهم ستين قبة قامت على مدافن الأولياء الصالحين وأكثرها تزار الى اليوم وقد ذكرنا الكثير منها فيما مر . اما قصر الملك بادي في سنار فلم يبق له من أثر .

وقد عرفت مملكة سنار في السودان بالسلطنة الزرقاء تمييزاً لها عن السلطنة الحمراء وهي حكومة مصر .

ملحق

في

تاريخ الكشاف الأتراك

في سكوت المحس :

تقدم ان السلطان سليماً الفاتح بعد ان فتح مصر أرسل سرية من العساكر الى بلاد النوبة سنة ١٥٢٠ م فملكوها الى الشلال الثالث . وقد مرّ بنا عن ابن خلدون ان احياء العرب من جهينة بعد الفتوح الاسلامي للنوبة السفلى سنة ١٣١٨ م انتشروا فيها فكانوا شيعاً . ويظهر انه سكن بين الشلال الاول والثاني عرب الجوابرة من ذرية جابر الانصاري والغربية وهم فرع من الزناتية والكنوز جاؤوا من نجد والعراق فسكنوا بين الشلال الاول والسبوع ولذلك عرفت هذه البلاد ببلاد الكنوز الى اليوم. وسكن في بلاد سكوت بين الشلال الثاني وجبل دوشة بعض الاشراف . وفي المحس بين جبل دوشة والشلال الثالث قوم ينتسبون الى عرب قريش وقد أسسوا مملكة في جبل ساسي دامت الى الفتوح المصري كما مرّ . وكان ملك المحس في ايام الفتح المصري الملك صبير جد الملك صبير كبير المحس في هذه الايام .

وقالوا في سبب دخول العساكر التركية الى النوبة ان الجوابرة استقووا على الغربية فأرسل هؤلاء رسلاً الى السلطان سليم فبعث معهم سنة ١٥٢٠ سرية من عساكر بوسنيه تحت قيادة حسن قوسى فطردوا الجوابرة الى دنقلة حتى لم يبق منهم إلا القليل في حلفا والدر فرمموا القلاع القديمة في اسوان وابريم وساي وأقاموا فيها .

ولما كانت البلاد لجدب ارضها لا تخرج من الاقوات ما يكفي العساكر فقد منحهم السلطان سليم هم وذريتهم من بعدهم عدة امتيازات منها انه أعفاهم من دفع الضرائب على اطيانهم ومنح كل حامية صرّة تجري عليها في كل سنة من خزينة السلطان بمصر فكانت صرة ابريم وحدها اربعة اكياس أي نحو ١٠٠ جنيه .

وكان قوسى حسن قومنداناً للعساكر وحاكماً مستقلاً على النوبة إلا انه كان يرسل الجزية الى حاكم مصر وقد ضرب على كل ساقية ٢٤ مداً نوبياً من الحبوب و ١٢ ثوباً من نسج النوبة المسمى قونجي. ومات حسن قوسى فتولت ذريته حكم النوبة من بعده وجعلوا عاصمتهم الدر فعرفوا بالكشاف الغزّ .

ثم ان الفونج بعد ان اخضعوا النوبة العليا سنة ١٥٠٥ طمعوا بالنوبة السفلى ففتحوها الى الشلال الثالث وأرادوا التقدم شمالاً قيل وكان الحاكم من الغزّ في ذلك الزمان ابن جنبلان فلما سمع بقدوم جيش الفونج الى بلاده جهز جيشاً عرمرماً ووقف لهم على الحدود قرب حنك فالتقى الجيشان وحدثت مقتلة عظيمة انتصر فيها جيش الغزّ انتصاراً عظيماً فردّوا جيش الفونج على أعقابهم خاسرين بعد ان ملأوا الارض من قتلاهم . قيل واجتمع الدم في بركة هناك فسمي المكان بحوض الدم وبنوا فوقه قبة فجعلوها حداً بينهم وبين الفونج . وهذه القصة مشهورة عند عموم أهالي دنقلة والمحس .

هذا وما زالت ذرية حسن قوسى حكاماً للنوبة مستقلين عن مصر في ما عدا الجزية التي كانوا يدفعونها الى حاكم مصر وقلما دفعوها الى المماليك ولكنهم دفعوها الى محمد علي باشا الذي كان يحاسب بها الباب العالي .

وكان على النوبة عند قدوم اسماعيل باشا لفتح سنار حسين ابن سليمان كاشف فاراد ان يجمع رجاله ويصده عن التقدم فلم يوافقه اخوه حسن في هذا الرأي ففرّ حسين بعبيده (وكانوا نحو ٣٠٠ عبد) الى كردوفان ولجأ الى المقدوم مسلم وحارب معه عند قدوم الدفتردار فاتحاً ولما قتل المقدوم مسلّم فرّ حسين ومعه حرم المقدوم وخزينته الى سلطان دارفور فتزوج بابنة السلطان ولا تزال ذريته هناك الى اليوم .

وولى اسماعيل باشا حسناً على البلاد من اسوان الى حلفا وأنعم عليه بـ ٢٩٣ فداناً و ٦ اكياس دراهم . وكان الكاشف قبل الفتح المصري يتزوج من بنات النوبة قدر ما شاء فمنع اسماعيل باشا ذلك ووضع على كل ساقية ٥٠ غرشاً ما عدا الـ ٢٤ مداً نوبياً التي أبقاها للكاشف وكان كبير كل قبيلة من الكشاف مسؤولاً عما يطلب للحكومة من أبناء جنسه والنوبة . وبقوا على ذلك الى ان قامت الثورة المهدية في السودان وصارت البلاد تحت الحكم العسكري فتوقف النوبة عن تقديم الـ ٢٤ مداً نوبياً للكشاف فبطل نفوذهم .

وبعد وفاة حسن كاشف تعين ابنه سليمان ناظر القسم وخلفه اخوه محمد ولم تزل الاراضي التي وهبهم اياها اسماعيل باشا بيد كبير ذريتهم محمد ابن سليمان كاشف الى هذا العهد .

هذا في حسن قوسى وذريته. اما عساكره فلم تزل ذريتهم مقيمة في اسوان وابريم وساي وقد اختلطوا بعرب الجوابرة والغربية فتزوجوا منهم وتعلموا لغة النوبة ونسوا لغتهم ولكنهم ما زالوا متميزين عن النوبة الاصليين في الهيئات والاخلاق الى اليوم .

وأهم ما في بلاد سكوت والمحس من آثار هذا العهد قلاع متهدمة من الطوب النيء والحجر الخام قائمة على تلال مرتفعة في جزر النيل او على شاطئيه وبعض هذه القلاع عبارة عن حوش كبير محاط بسور منيع ارتفاعه نحو خمس عشرة ذراعاً وعرض أساسه نحو ثلاث اذرع . وللسور اربعة أبراج في كل ركن برج علوه نحو خمسين ذراعاً يصعد الى أعلاه بسلم . وقد شاهدت بعض هذه

القلاع في الحملات النيلية فسألت شيوخ اهل البلاد عنهم فقالوا كان الأهلون قبل الفتح المصري في انشقاق دائم ودأبهم شن الغارة بعضهم على بعض فكانت كل قبيلة تبني قلعة تعرف باسم دفّي حتى اذا ما أغارت عليها قبيلة اخرى جمعت نساءها وأولادها وبهائمها وأموالها وحبوبها الى حوش القلعة وصعد الرجال الى الابراج ورموا العدو بالمقلاع والنشاب او خرجوا له وقاتلوه بالنبابيت والحراب والسكاكين وخرج معهم النساء يحملن لهم الزاد ويحمسنهم على القتال فلما كان الفتح المصري عمّ الامن البلاد فلم يعد لهذه القلاع من داع فأهملت وأدركها الخراب .

وقبل التقدم الى الفتح المصري نأتي على تاريخ دارفور القديم .

الباب الخامس

في

تاريخ مملكة الفــــور

منذ اول نشأتها الى الفتوح المصرى أي منذ سنة ٨٤٨ : ١٢٩١ هـ — ١٤٤٥ : ١٨٧٥ م

تمهيد في اصل سلطنة الفور

لقد أجمعت التقاليد السودانية على ان سلطنة الفور هي من اصل عربي والذي عليه البعض وتدعيه سلالتهم الى اليوم انهم من بني العباس . ولهم في ذلك رواية لطيفة تختلف في التفصيل بحسب الرواة وتتفق في المغزى. وأشهر ما رووه ان الامراء العباسيين بعد انقراض دولتهم ببغداد سنة ٨٢٣هـ ١٤٢١م تفرّقوا في بلاد المشرق فذهب منهم شقيقان الى تونس الغرب ومعهما نفر من الاعراب وكان اسم اكبرهما علياً وأصغرهما احمد سفيان وكان علي متزوجاً بامرأة ذات جمال واحمد سفيان عازباً ولكنه كان آية في الجمال فأحبته امرأة اخيه حباً لم يسعها معه الكتمان فكاشفته بحبها فأنكر عليها ذلك وعذلها ولكنه وعدها ان يكتم سرها أما هي فاشتعلت غيظاً من إبائه وعزمت على الانتقام منه فأتت زوجها ذات يوم وقالت اني جئتك بأمرٍ جلل لا يحسن كشفه فأقسم لي انك لا تبوح به لأحد فأقسم لها فقالت ان شقيقك احمد يراودني عن نفسي وانا أنتهره وأزجره وهو لا ينزجر فعظم هذا الخبر جداً على عليّ واغتم لأجله غماً شديداً ولكنه لم يصدق ما قالته امرأته على علاّته لأنه كان يحب أخاه محبة فائقة ويثق بعفافه وشهامته فبقي مرتاباً في الأمر . وكان احمد لما رأى ان امرأة اخيه استاءت منه جعل يتلطف لها ويترضّاها فرأى اخوه منه ذلك فقوي الريب فيه وصدّق ما قالته له زوجته فاسودّت الدنيا في عينيه وكره أخاه وزوجته والارض التي كان نازلاً فيها فأمر ان

تقوّض خيامهم ورحلوا من تلك الارض وتأخر في الطريق مع أخيه وهو يفكر بالذي يفعله فأبت نفسه ان يكاشفه بسرّ زوجته ولم يطاوعه قلبه على قتله فقرّ رأيه ان يعقره برجله فيسمه بوسم يؤنبه ما دام حيّاً فاستلّ سيفه وفاجأه بضربة في رجله اليمنى فعقربه وتركه يسيل منه الدم ولحق بقومه . وأدرك احمد سفيان سبب غدر اخيه به ولكنه كان من الأنفة على جانب عظيم فلم يفه ببنت شفة بل صبر على الضيم وجلس ينتظر الموت والدم ينزف من عقر رجله ولهذا سمي احمد سفيان المعقور . ثم علم به عبيده وخاصته فاجتمعوا حوله وعالجوه حتى برىء جرحه فسار بهم بطريق الصحراء مهاجراً بلاد تونس حتى أتى جبل مرّة من اعمال دارفور .

وكان في ذلك الجبل أمة من شبه السود يقال لهم « الفور » عليهم ملك منهم يسمى شاو دورشيت فكان هذا الملك عريقاً في الهمجية ولكنه كان كريم الطبع حسن النقد فلما علم بقدوم احمد أحضره لديه فأعجبه عقله وأدبه فعهد اليه في تدبير منزله وسياسة مملكته فأحسن احمد السياسة وعلّم رجال حاشية الملك آداب السلوك ثم التفت الى المملكة فنظم أحوالها وأصلح امورها فأحبه الملك حباً شديداً ولم يكن له إلا بنت واحدة فزوّجه بها فولدت له ولداً سماه سليمان فشبّ ثاقب الفكر سديد الرأي حسن السياسة محبّاً للخير والاحسان فأحبه اهل الجبل وألفوه . وتوفي ابوه احمد سفيان في حياة جده السلطان شاو دورشيت ثم توفي جده فنادى به اهل الحلّ والعقد باجتماع الكلمة سلطاناً عليهم وبايعوه على السمع والطاعة وكان ذلك سنة ٨٤٨ هـ ١٤٤٥ م فأقام في عاصمة جده في جبل مرّة وكان اول سلالة السلاطين العربية الذين تولوا دارفور نحو ٤٤٣ سنة الى ان دخلت في حوزة الحكومة المصرية الخديوية عن يد الزبير رحمت باشا كما سيجيء .

هذه هي رواية اهل السودان في أصل سلطنة الفور وهي لا تخرج عن حد الروايات الموضوعة التي يكثر امثالها في السودان فانه ما من قبيلة او مملكة عربية اشتهرت في السودان إلا رجعت في نسبتها الى النبي او الصحابة او من

اتصل بهم . وفي المشهور ان دارفور كانت في ذلك الزمن سلطنات متفرقة من السود وشبه السود وفي جملتها سلطنة الفور في جبل مرّة وكان العرب المسلمون قد هاجروا اليها من مصر او تونس او الحجاز او منها جميعاً وملأوا مدنها وبواديها ولم يكن لهم سلطان واحد يرجعون اليه بل كانوا قبائل شتى تحت حكم سلاطين البلاد الاصليين فلا يبعد ان يكون سلطان الفور في ذلك الحين قد أعجب بنجابة شاب من شبان العرب العريقين في النسب فزوّجه بابنته فولدت منه سليمان فأسس السلطنة التي فيها كلامنا. على ان عامة اهل دارفور يرجعون في أنسابهم الى ابي زيد الهلالي الذي اشتهر في تونس .

الفصل الاول

في

تاريخ سلاطين الفور

١ ــ السلطان سليمان الاول سنة ٨٤٨ : ٨٨٠ هـ ــ ١٤٤٥ : ١٤٧٦ م

هو رأس سلاطين الفور المار ذكره . قيل انه لما تولى السلطنة لم يكن في جبل مرة مساجد للعبادة فبنى المساجد وأقام صلاة الجمعة والجماعة ثم شرع في ضم كلمة المسلمين واستعان بعرب البادية المنتشرين في البلاد فأخضع ملوك شبه السود المحيطة بجبل مرة الى سلطانه وعلمهم دين الاسلام . وأخضع بعض ملوك السود البعيدين عن جبل مرة فبقوا على الوثنية . فأصبحت دارفور كلها سلطنة واحدة لمن يتولاها من ذرية السلطان سليمان الى يوم انقضائها .

وكان جملة الذين خضعوا للسلطان سليمان وبقوا الى عهد خراب السلطنة ٢٧ ملكاً سبعة مجوس من السود والباقون مسلمون من شبه السود .

أما سلاطين المجوس فهم سلاطين كاره ودنقو وفنقرو وبنه وبايه وفرُوقى وشالا وكلهم في بلاد فرتيت الى الجنوب الغربي من دارفور .

وأما ملوك المسلمين فهم : البرقد والتنجر وكبقه والميمه والمسبعات في

الشرق من جبل مرة . والمراريت والعورة وسميار والمساليت والقِمر وتامه والجبلاويين واب درق وجوجه وأسمور في الغرب والشمال الغربي . وزغاوه كبا والميدوب في الشمال والشمال الشرقي . والبيقو والداجو ورنقا في الجنوب والجنوب الغربي .

ذلك ما عدا القبائل العربية الذين جمع كلمتهم واستنصر بهم وأهمهم: الهبانية والرزيقات والمسيرية والتعايشة وبنو هلبة والمعاليــة في الجنوب . والحمُر في الشرق ، والزّيادية في الشمال ، والماهرية والمحاميد وبنو حسين في الغرب .

وكانت مدة السلطان سليمان ٣٢ سنة هـ وجاء بعده من سلالته :

٢	ــ السلطان عمر	٨٨٠ : ٨٩٧ هـ ــ ١٤٧٦ : ١٤٩٢ م	
٣	ــ السلطان عبد الرحمن	٨٩٧ : ٩١٦ هـ ــ ١٤٩٢ : ١٥١١ م	
٤	ــ السلطان محمود	٩١٦ : ٩٣٢ هـ ــ ١٥١١ : ١٥٢٦ م	
٥	ــ السلطان محمد صول	٩٣٢ : ٩٥٧ هـ ــ ١٥٢٦ : ١٥٥١ م	
٦	ــ السلطان دليل	٩٥٧ : ٩٦٧ هـ ــ ١٥٥١ : ١٥٦٠ م	
٧	ــ السلطان شرف	٩٦٧ : ٩٩١ هـ ــ ١٥٦٠ : ١٥٨٤ م	
٨	ــ السلطان احمد	٩٩١ : ١٠٠١ هـ ــ ١٥٨٤ : ١٥٩٣ م	
٩	ــ السلطان ادريس	١٠٠١ : ١٠١٣ هـ ــ ١٥٩٣ : ١٦٠٥ م	
١٠	ــ السلطان صالح	١٠١٣ : ١٠٣٥ هـ ــ ١٦٠٥ : ١٦٢٢ م	
١١	ــ السلطان منصور	١٠٣٥ : ١٠٤٨ هـ ــ ١٦٢٢ : ١٦٣٩ م	
١٢	ــ السلطان شوش	١٠٤٨ : ١٠٦٨ هـ ــ ١٦٣٩ : ١٦٥٨ م	
١٣	ــ السلطان ناصر	١٠٦٨ : ١٠٨٠ هـ ــ ١٦٥٨ : ١٦٧٠ م	
١٤	ــ السلطان توم	١٠٨٠ : ١٠٩٤ هـ ــ ١٦٧٠ : ١٦٨٣ م	
١٥	ــ السلطان كورو	١٠٩٤ : ١١٠٦ هـ ــ ١٦٨٣ : ١٦٩٥ م	
١٦	ــ السلطان سليمان الثاني	١١٠٦ : ١١٢٦ هـ ــ ١٦٩٥ : ١٧١٥ م	

ومن الرواة من لا يعترف بالسلاطين السابقين لهذا السلطان ويؤكدون انه هو اول سلاطين الفور بعد ان سرى الدم العربي فيهم ويلقبونه بسليمان صولون أي العربي وينسبون اليـه كل ما نسب الى السلطان سليمان الاول ويجعلون « ١٥ – السلطان كورو » في مكان شاو دورشيت ويؤيدون قولهم بأختـام سلاطين الفور المتأخرين كختم السلطان ابراهيم الاخير والسلطان حسين من قبله فان نسبتهم في اختامهم تنتهي الى السلطان سليمان الثاني هذا كما سترى. ولكن الامام الذي أخذنا عنه سلسلة سلاطين الفور ومعظم تاريخهم يؤكد ان اختام السلاطين الاول ترجع نسبتهم في اختامهم الى ما وراء السلطان سليمان الثـاني وان لقب صولون هو لسليمان الاول وقد نسبوه الى سليمان الثاني جهلا .

١٧ – السلطان موسى ابنه ١١٢٦ : ١١٣٨ هـ – ١٧١٥ : ١٧٢٦ م

وكان على مثال أبيه في العدل والاحسان .

١٨ – السلطان احمد بكر ابنه ١١٣٨ : ١١٥٨ هـ – ١٧٢٦ : ١٧٤٦ م

وقد اشتهر بكثرة الاولاد قيل كان له نحو مئة ولد .

١٩ – السلطان محمد دَوْرَه ابنه ١١٥٨ : ١١٧٠ هـ – ١٧٤٦ : ١٧٥٧ م

ولم يكن أكبر أخواته بل كان ثانيهم فقتـل أخاه الاكبر ليخلو له الملك فلما ملك شرع في قتل باقي اخوته ليخلو الملك لأولاده من بعده قيل فلما رأى نساء ابيه انه شرع في قتـــل اخوته جعلن لأولادهن الذكور « كنافيس » وألبسنهم لبس البنات ليحجبنهم عن عينه ومع ذلك فقد قتل منهم نحو الخمسين.

٢٠ – السلطان عمر الثاني ابنه ١١٧٠ : ١١٧٧ هـ – ١٧٥٧ : ١٧٦٤ م

وكان من اعدل سلاطين الفور وأشدهم محافظة على الكتاب والسنة . ومما يروى عن عدله انه بعد توليه الملك بثلاثة ايام خرج الى مجلس خاصته وسألهم أن يولوا احد أعمامه في مكانه قال لأن طاقية الملك يعني بهـا مسؤولية الملك ثقيلة فرفضوا ذلك بتاتاً وأبوا إلا ان يكون هو السلطان فقال لهم اذاً انتظروني

اسبوعاً فأخبركم بما أريد فخلا اسبوعاً في منزله ثم خرج ومعه قرون من الخشب تمثل قرون الغنم والبقر وقال لهم أريد ان يعم الأمن ويبطل التعدي حتى تسلم ماشية أضعف النساء وتنمو قرونها فتصير مثل هـذه القرون . ثم التفت الى الى الحكام وقـال أريد ان تعدلوا في الرعية لكي لا يجيء احـــد منهم اليّ بشكوى . فلم يمض إلا القليل حتى جاءته الشكاوي على ٣٠ عاملاً من المقاديم والشراتي والجنود فأحضرهم اليه ولما تحقق ظلمهم أمر فذُبحوا عند بابيْ داره ١٥ منهم عند باب الحريم و ١٥ عنـد باب الرجـال فوقعت الرهبة في قلوب الجميع وانقطع الظلم . قيل وقـد بارك الله في البلاد بسببه حتى أتأمت الابل والبقر والحمير وغزرت الينابيع في جبل مرة وجرت الأنهـار فلقب بسرَف أي الماء الجاري .

٢١ – السلطان ابو القاسم عمه ١١٧٧ : ١١٨١ هـ – ١٧٦٤ : ١٧٦٨ م

قيل وفي ايامه خرج رجل عربيّ صالح من كردوفان يسمى عبد الكريم الى دار ودّاي وكانت اذ ذاك بيد التُنجر فاغتصبها منهم وكانوا قبلا يدفعون الجزية الى سلاطين الفور فلما تولى عبد الكريم أبى دفع الجزية فجرّد السلطان ابوالقاسم جيوشه عليه وواقعة واقعة شديدة ولكن اختلفت كلمة جيشه فنزل بنفسه الى ساحة القتـال فجرح وانقلب راجعاً الى دارفور فمات في دار تامه فحمله رجاله ودفنوه في مدفن أجداده في جبل مرة وخلفه :

٢٢ – السلطان تيراب اخوه ١١٨١ : ١٢٠١ هـ – ١٧٦٨ : ١٧٨٧ م

وكان له ثلاثون ولداً ونيف من الذكور البالغين ما عدا الصبيان والبنات وقد أطلق لهم العنـان فتفرقوا في البلاد يعيثون ويفسدون وما تركوا شيئاً نفيساً عند احد إلا اغتصبوه منه وكان احدهم مساعد لا يتحرك إلا راكباً على ظهور الرجـال فكان اذا أراد الانتقال من بلدة الى اخرى انتقى عدداً من رجالها الأشداء فحملوه بالتناوب الى المحـل الذي يقصده حتى ضاقت نفوس أهل دارفور منهم ورفعوا الشكوى الى أبيهم فما أصغى اليهم وقال اني لأعجب

كيف ان رعيتي لا تصبر على اولادي فاذا أتوا أقل شيء لا يرضيهم شكوهم اليّ ! فامتنع الناس عن الشكوى وسلموا أمرهم الى الله .

وكان اسحق أكبر أولاده أنجبهم وأحبهم اليه فأطلق عليه اسم الخليفة لأنه أراد ان يرشحه للملك بعده وجعل له حاشية من الوزراء والأتباع مثل حاشيته فجعل أبناء وزرائه وزراء لابنه وأبناء أتباعه أتباعاً لابنه وكان له زوجة يحبها ويراعيها ولها ابن منه يسمى احمد فطلبت اليه ان يرشح ابنها للسلطنة بدلاً من اسحق فقال لها تيراب نمتحن الاثنين امامك فالذي نجده أفرس من أخيه نرشحه للسلطنة فرضيت ام احمد بذلك فبعث السلطان في طلب الاثنين الى غرفته الخصوصية وكان للغرفة بابان باب للرجال وعليه أسدان مقيدان بالحديد في كل جانب اسد وباب للحريم ليس عليه شيء فلما اقترب الولدان من باب الرجال نظر احمد الى الاسدين فتحوّل عنهما ودخل من باب الحريم وأما اسحق فانه دخل من باب الرجال بين الاسدين وكان دخوله حبواً على عادة الدخول الى السلطان فمزق الاسدان ثيابه وشرطا جسمه بأظافرهما وهما يلاعبانه كعادة الاسود الأليفة فلم يعبأ اسحق بهما ودخل على ابيه فسلم عليه وكذلك سلم عليه احمد فسألهما بعض الأسئلة ثم أمرهما بالانصراف فخرج كل منهما من الباب الذي دخل منه وكانت ام احمد جالسة مع السلطان تشاهد ذلك فالتفت اليها السلطان وقال من منهما يستحق الخلافة ويؤمن على الملك قالت « لا والله ابنك اسحق فانه رجل وأما ابني فقد أخجلني » .

وكان كرسي سلطنة الفور الى هذا العهد في جبل مرة فنقله السلطان تيراب الى بلدة شوبة قرب كبكبية حيث بنى منزلاً فاخراً ومسجداً فخيماً من الطوب الاحمر وأقام فيها آمناً مطمئناً حتى خرج عليه المسبعات في كردوفان فيجهز لقتالهم [illegible]

- أما المسبعات ففي المشهور انهم هم وسلاطين الفور من جدّ واحد قيل ان السلطان سليمان صولون المتقدم الذكر لما تولى دارفور كان له أخ يدعى مسبع فتولى كردوفان وتعاهد الاثنان على ان يقنع كل منهما بملكه فلا يطمع بملك

الآخر فعاشا بسلام وأمان الى ان توفيا ودام هذا الحال في أبنائهما الى أيام السلطان تيراب . وكان من ذرية مسبع على كردوفان في ذلك الوقت السلطان هاشم وكان شجاعاً محباً للحروب والغزوات فغزا السروج والعرب البادية الذين على حدود دارفور فقهرهم فسوّلت له نفسه اخضاع دارفور فجمع جيشاً من السود مؤلفاً من عشرة آلاف مقاتل وجيشاً آخر من العرب الدناقلة والكبابيش والزيقات وبدأ بشن الغارة على حدود دارفور فقتل وغنم وسبى فلما علم تيراب بذلك كتب اليه ما معناه :

« الى ابن العم المكرّم السلطان هاشم سلطان كردوفان أعزّه الله :

أما بعدُ فاني لا أعلم السبب الذي يحملك على غزو بلادي مع ما هنالك من صلاة القربى وعلاقات المودة التي تربطنا ولم يكن مني ما يكدّر صفاءها وأنت تعلم ان هؤلاء الذين تغزوهم هم مسلمون مثلك يعبدون الله ورسوله وما من عاقل يفعل ما انت فاعل فعند وصول كتابي هذا ارجو ان تكف عن العداء رفقاً بالرعية وتذكر ان الظالم ينال جزاء فعله والسلام » . فلم يلتفت السلطان هاشم الى هذا الكتاب بل عاد الى ارسال السرايا لغزو الحدود فتيقن السلطان تيراب اذ ذاك انه لا يرجع الا بالسيف فجهز لقتاله بكل قوته وآلة حربه ولم يشأ ان يخلي العاصمة من السكان فأعتق مئة عبد بنسائهم وأمر رجاله فأعتق كلٌّ منهم عبداً او اكثر بنسائهم وجعل اكبر عتقائه حاكماً على المدينة وعتيق إمامه الحاج عبد الغني إماماً للمسجد ونهض بجميع جيوشه قاصداً كردوفان فنزل بمحل يقال له ريل في بلاد البرقد وبنى له زريبة من شوك وبنى في داخلها منازل من الطين وشرع في الاستعداد للحرب .

وجرى للسلطان تيراب وهو يتأهب للحرب في ريل حكاية مع احد البرقد تستحق الذكر قالوا خرجت جارية من جواري السلطان الى بئر قريبة من الزريبة لتستقي فرآها رجل من البرقد فهام بها وطلب حضانتها في منزلها على جاري عادة اهل تلك البلاد فقالت له ومن أين لك ذلك وأنا في زريبة السلطان قال دليني على محلك في الزريبة وأنا أعلم كيف أدخل اليه فدلّته ولما جنّ

الليل جاء الى الزريبة واقتلع الشوك من بعض جهاتها البعيدة عن الخفراء وذهب الى حيث دلته الجارية وجلس ينتظر قدومها فاتفق ان السلطان خرج في ذلك الوقت من مخدعه يتمشى في الزريبة فرأى الرجل امام باب الجواري فقال له مَن انت ايها الرجل وما جاء بك الى هـــذا المكان فأخبره بقصته على التمام فطلب تيراب الجارية فحضرت وهي ترتعد خوفاً فأمّنها وسألهـا عن الحقيقة فأجابته بما قاله الرجل فلما تحقق خبرهما سمح لهما بالمحاضنة . وفي الغد عقـد مجلساً من كبـــار دولته وقصّ عليهم خبر الرجل وطلب الحكم عليه فحكم البعض بقتله والبعض بسجنه والبعض بجلده فقـال السلطان : رأيي على الضدّ من رأيكم فان مثل هـذا الرجل لا يُقتل كأنه نعامة او دجاجة ولا يُهان بسجن او بجلد بل يربى للحروب والقتـــال فانه لو لم يكن شجاعاً مقداماً لا يعرف الخوف ما أقدم على الدخول الى منزلي بهذه الجرأة وفي الحال أمر له بجواد وآلة حرب وعبدين وزوّجه بالجارية وجعله في مصاف فرسانه .

وقد طالت إقامة السلطان تيراب في رَيل مصابرة للسلطان هاشم لعـــله يرتدع عن شن الغارة فما زاده ذلك الا تمادياً في غيّه فتحمس ثلاثة من فرسان السلطان تيراب فركبوا خيولهم وأتوا الى النحاس فضربوه وجمعوا الناس للحرب بلا استئذان السلطان وكان الوقت العصر فلبس السلطان عـدة حربه وركب جواده وجاء الى مكان النحاس فسأل الفرسان عن الخبر فقالوا ان نحاس السلطان هاشم أوقر آذاننا ونحاسنا ساكت فلم يعد لنا صبر على هذه الحال فإما ان نسكت نحاس السلطان هاشم ونردعه عن البغي او نموت في هذا السبيل فقال السلطان تيراب اتبعوني إذاً فتبعوه ولحق بهم الجيش فاستمر السلطان سائراً والجيش يتبعه الليل كله الى طلوع الشمس فتقـدم احد الوزراء الى السلطان وقـال له يا مولاي ان الجيش أنهكه التعب ولم يذق زاداً فلم يصغ السلطان اليه وواصل السير الى العصر فتقدم اليه وزير آخر وقال يا مولاي ان الجيش قصّر عن السير حتى الفرسان فوضع يده تحت فخذه وأخرجهـا ملوّثة بالدم وقال انظر ما جرى لي ولم أتضجر وعاد الى متابعة السير فتقـدم اليه إمامه

الحاج عبـد الغني وقال له يا امير المؤمنين فاتنـــا خمسة أوقات من الصلوات المفروضة علينـا ديناً فان كنت لا تقف شفقة على نفسك والجيش فلا بدّ من وقوفك لأداء فرض ربك في الصلوة فوقف السلطان اذ ذاك وقال لقد أوقفتني بالرغم عني يا حضرة الامام. وكان على مقربة من بئر تولو فنزل عندها واستأنف الاستعداد للحملة على كردوفان فجمع عربان البـادية القاطنين بلاد دارفور من إبّالة وبقارة وأمرهم بمرافقة الجيش بما معهم من الابل والبقر لحمـل الذخائر والمؤن فعهد الى الابالة حمل المـــاء والحبوب والى البقارة حمل باقي المؤمن من العسل والسمن .

ولما أتمّ استعداده ترك ابنه اسحق وكيلاً عنه في ريل وسار هو لقتـال السلطان هاشم بجيش كثيف بهيئـة مربع هائل في طليعته دادات السلطان حاملين الفؤوس لقطع الاشواك والاشجار وتمهيد طريق الجيش . وفي ساقتـه مقدوم الغرب، وفي ميمنته مقدوم الصعيد ، وفي ميسرته مقدوم الشمال ، وفي القلب القوات الآتية على الترتيب . محافظ العاصمة ومعه الموظفون الملكيون من وراء دادات السلطان الذين في طليعـــة المربع ، ثم قبيلة السروج حاملين الحراب والدرق ، ثم قلعة السلطان من امامه حملة النبابيت ومن ورائه الياروان حاملين الحراب المكسوّة بأكياس من الجوخ الملوّن وعن يمينه الوزراء والملوك وعن يساره اولاده وأولاد السلاطين السابقين ، ثم حريم السلطان يحيط بهنّ النفر من الاغوات وعليهم « ابو شيخ » مقدوم الشرق رسماً ، ثم حريم كبار الجيش وأغواتهن . ثم حملة العربان حاملين المؤن والذخائر امام مقدوم الغرب الذي في ساقة المربع .

وكان السلطان هاشم قد علم بقدوم السلطان تيراب بجيش كثيف لا قبـل له بمحاربته وتفرّق عنه اكثر رجاله ففرّ بحاشيته وعائلتـــه والتجأ الى ملك سنار . فسار السلطان تيراب في أثره حتى وصل قرب ام درمان فقابله جيش العابدلاب من قبـل ملك سنار قاصدين منعه عن النزول الى النيل فأوقع بهم واقعة عنيفة وكسرهم شر كسرة فحملوا نحاسهم المسمى بالمنصورة وفرّوا به

طالبين النجاة فتبعهم جيش السلطان تيراب بقصد الاستيلاء على النحاس فدافع العابدلاب عنه بأنفسهم دفاع الابطال حتى قتل منهم سبعون رجلاً وفاز تيراب بنحاسهم فسرّ به سروراً فائقاً حتى انه طلاه بالذهب من الداخل والخارج وعمل له نهوداً من الذهب وحفظه الخلف عن السلف الى انقضاء ملكهم . وكانوا في كل سنة يجدّدون تجليده بموكب حافل يجتمع فيه اهل دارفور خاصتهم وعامتهم من جميع الأنحاء وداموا على ذلك الى ان سقطت دارفور بيد مصر فحُمِل الى القاهرة .

ثم ان السلطان تيراب بعد انتصاره على العابدلاب نزل في ام درمان وأخذ يستعد للزحف على سنار فوجد النيل في طريقه وعرضه ٦٠٠ يرداً ونيف ولم يكن عنده المراكب والمعدّات اللازمة لاجتياز النيل فبقي هناك أشهراً يدبر الوسائط لاجتيازه فلم يفلح فسئمت نفوس رجاله من الانتظار واشتاقوا الى عيالهم في دارفور فألحوا عليه بالرجوع فأقسم لهم ان لا يرجع الا برأس هاشم فاغتاظوا منه .واتفقوا مع علي ود برقو والد احدى زوجاته على قتله فاطلع تيراب على الدسيسة وقتل علي ود برقو وبقي في أم درمان الى ان مرض فحملوه وعادوا به قاصدين دارفور فاشتد عليه المرض في الطريق ومات في باره فحنطوه وحملوه الى جبل مرة ودفنوه في طرّه التي هي مدفن سلاطين الفور . وقد اتسعت مملكة دارفور في ايامه اتساعاً لم نرَ مثله قبل ولا بعد فكان حدها من الشمال بئر النترون في الصحراء الكبرى ومن الجنوب بحر الغزال ومن الشرق بحر النيل ومن الغرب مضيق ترجه وهو مضيق بين جبلين فاصل بينها وبين ودّاي وكان طولها مسيرة ٣ اشهر على القوافل وعرضها مسيرة شهرين . وقد بنى السلطان تيراب سوراً من الطوب في ام درمان لا تزال آثاره ظاهرة هناك الى اليوم . ولم يخلفه على الملك ابنه اسحق كما دبّر من قبل بل خلفه :

٢٣ — السلطان عبد الرحمن إخوه ١٢٠١ : ١٢١٥ هـ — ١٧٨٧ : ١٨٠١م

فلقب باليتيم والعادل والرشيد قيل لقب باليتيم لأنه عند وفاة أبيه كان لا

يزال رضيعاً وبالعادل لأنه كان عادلاً وبالرشيد لأنه ارسل الى « جلالة امير المؤمنين وسلطان السلاطين في الآستانة » هدية من العاج والريش فأرسل جلالته كتاباً يشكر له هديته ويلقبه بالرشيد وهو اللقب الذي عرف به في اختتام سلاطين الفور. وقالوا في تفصيل ولايته انه لما مرض أخوه تيراب كان يطلب العلم في بلدة كريو من اعمال دارفور وكان له هناك صديق يسمى الشيخ مالكاً من الفلاّته فأشار عليه بالذهاب الى أخيه بحجة عيادته فاذا توفي تسنّت له الفرصة للملك فسار عبد الرحمن برأي صديقه وأدرك أخاه في باره قيل فلما سمع تيراب بقدومه فرح به وقال : « احضروا اليّ ابن والدي لأراه قبل موتي فانه سلطان فور بعدي » فأحضروه اليه فترحب به وأمر له بهدية نفيسة ولما توفي قام أبناء السلاطين المرافقين لجيش تيراب فادّعى كل منهم الحق بالملك بعده الا عبد الرحمن فانه لم يقل شيئاً فعقد الأعيان ورؤساء الجيش مجلساً بحضرة العلماء وحلّفوا أبناء السلاطين على الكتاب انهم يرضون بالذي يختارونه لهم فاختاروا عبد الرحمن باتفاق الآراء لأنه كان رجلاً عادلاً صالحاً محبوباً من الرعية فنادوه الى المجلس وولّوه سلطاناً على دارفور ثم نادوا الباقين واحداً واحداً وأخبروهم بولايته سلطاناً عليهم فبايعوه مضطرين .

وكان عبد الرحمن متزوجاً بجارية سوداء طيبة الاخلاق من قبيلة البيقو تسمى ام بوسه وكان يحبها محبة شديدة وقد أحضرها معه الى باره قيل فلم يتم الأمراء مبايعتهم له حتى حضر عبد من منزله فقال ان سيدتي وضعت غلاماً هذه الساعة ففرح به عبد الرحمن وقال فليكن اسمه محمد الفضل وهو الملك بعدي إن شاء الله. وكانت ولاية عبد الرحمن في رأس القرن الثالث عشر الهجري فقال اللهمّ اجعل هذا القرن لي ولذريتي من بعدي وكان كذلك .

ثم ان السلطان عبد الرحمن قام بالجيش الى الأبيّض فوضع فيها مقدوماً يرجع بأحكامه اليه .واستطرد السير الى دارفور وكان عليها اسحق بن تيراب كما علمت فرفض الطاعة له وحاربه في عدة وقائع كان النصر فيها للسلطان عبد الرحمن وفي الواقعة الاخيرة أصابته رصاصة طائشة من رجال عبد الرحمن

فأصابت منه مقتلا ولكنه بقي يومين حياً فدخل عليه عبد الرحمن قصد عيادته قيل فأغمض عينيه وقال له لا أريد ان أرى وجهك الى يوم القيامة وبقي مغمض العينين حتى خرج عبد الرحمن من الخيمة ففتحها ولم يمض الا القليل حتى مات فاستتب الملك لعبد الرحمن ونقل كرسي السلطنة الى الفاشر الواقعة على خور تندلتي على ٣٥ ميلا من جبل مرّة فصارت الفاشر عاصمة دارفور من ذلك العهد وبقيت الى انقضاء السلطنة .

وقد نال عبد الرحمن شهرة لم ينلها غيره من سلاطين الفور الذين تقدموه وكان له علاقة بمصر وفي ايامه انتشر العلم في دارفور واتسع نطاق التجارة وقويت شوكة الديانة الاسلامية لأنه كان عالماً ورعاً : وفي سنة ١٧٩٣ م زار السائح الانكليزي برون بلاد دارفور من طريق الاربعين .

ويظهر ان المماليك ضيقوا على القوافل التي كانت تأتي من دارفور وعطلوا التجارة بينها وبين مصر فلما دخل بونابرت مصر في أواخر القرن الثامن عشر ونكل بالمماليك كتب اليه السلطان عبد الرحمن يهنئه بفوزه عليهم وهذا هو فحوى الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين » من سلطان دارفور السلطان عبد الرحمن الرشيد» الى المعظم سلطان الجيوش الفرنساوية ألف سلام.

أما بعد فنعلمكم ان خبر انتصاراتكم على المماليك وصل الينا فتلقيناه بغاية السرور وقد أخبرنا احد الافرنج الذين اعتنقوا الاسلام بحسن معاملتكم للأجانب فأرسلنا كتابنا هذا مع خبير القافلة يوسف الجلابي وكلفناه ان يؤكد لكم صدق مودتنا التي نسأل الله دوامها ونحن نوصيكم بالخبير خيراً لتحموه هو وأتباعه وعبيده ولكم منا ألف تحية وسلام » اه . فكتب اليه بونابرت في الجواب ما معناه :

« ١٢ مسيدور من السنة السابعة للجمهورية الفرنساوية سنة ١٧٩٩ م .

بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله » الى السلطان عبد الرحمن سلطان دارفور .

تناولت كتابكم وفهمت فحواه واعلموا ان قافلتكم قد وصلت في حين كنت متغيباً في بلاد الشام أعاقب اعداءنا وأدمّرهم والآن طلبي اليكم ان ترسلوا اليّ مع اول قافلة ألفي عبد من العبيد الأشداء المتجاوزين السنة السادسة عشرة من العمر اذ مرادي ان أبتاعهم لنفسي والامل ان توعزوا الى القافلة بسرعة القيام ومواصلة السير الحثيث وها أنا أمرت من يلزم بحمايتها ووقايتها حيث تكون».

(الامضاء) : « بونابرت القائد العام للجيش الفرنساوي »

٢٤ — السلطان محمد الفضل ابنه ١٢١٥ : ١٢٥٤هـ — ١٧٨٧ : ١٨٣٩ م الملقب بقمر السلاطين وكان اول اعماله انه حرّر قبيلة أمه أم بوسه البيقاوية ومنع اخذ الرقيق وبيعه منها . قيل انه عند توليه الملك كان خاله المسمى فزاري يرعى البقر في بلاده على ٥٠ ميلا الى الجنوب الغربي من الفاشر فأرسلت أخته رسولاً تبشره بتولية ابنها على الملك فسار الرسول بالخبر على جواد مطهم وأطلق له العنان فما وصل الى فزاري حتى نهك الجواد التعب فسقط في الارض ميتاً وتقدم الرسول الى فزاري وقال له ابشر بالخير فان ابن اختك أم بوسه قد تولى عرش سلطنة دارفور منذ خمسة ايام وكان فزاري اذ ذاك يسقي البقر عند حوض الماء فطار فرحاً لهذا الخبر وضرب الحوض برجله ووزّع البقر على الحضور ثم أتى بعنكريب ونام عليه وقال للذين حوله « احملوني » فحملوه حتى أوصلوه الى الفاشر فولاه محمد الفضل الوظيفة المعروفة بمملكة الخوال .

وكان عمر محمد الفضل عند توليته الملك ١٤ سنة فوكله أبوه الى رئيس خصيانه كرّة المعروف بلقب « ابو شيخ » وجعله قيماً عليه لأنه كان وزيراً صادقاً له وكان من الشجاعة وحسن الدراية على جانب عظيم فأقام كرّة في خدمة سيده محمد الفضل بالأمانة والاخلاص كما خدم أباه حتى حدث ما غيّره فانقلب عليه وذلك ان السلطان محمد الفضل أولم وليمة لكبراء دولته فجلسوا على الموائد فئات حسب مقاماتهم كل فئة على مائدة وكان ابو شيخ كرّة في

فئة الملوك فمر السلطان بالموائد لمؤانسة المدعوين على جاري العـــادة فلما مرّ بمائدة الملوك حيّاهم بالسلام فرد الملوك عليه السلام احسن ردّ أما ابو شيخ كرة فانه كان قد أكثر من الخمر وفقـد الواعز فالتفت الى السلطان مازحاً وقال له « تفضل معنا » ولم يكن من عادة سلاطين الفور الأكل مع احـــد فاغتاظ السلطان من دالة كرة وتطاوله وكان بيده عصى من الخيزران فضربه بهـا على أم رأسه ضرباً أليماً حتى كسّر العصى وطرده عن المائدة فانصرف كرة الى منزله من غير ان يفوه ببنت شفة ولكنه حقد على السلطان من ذلك العهد ولم يعد اليه حتى اجتمع الوزراء وترضوا السلطان فرضي عنه وأعطاه هدية فاخرة فرجع ولكنه بقي حاقداً عليه وأخذ يسعى في ثل عرشه وتولية أخيه باسي عوض الله مكانه فاغتـــال أكثر الملوك المخالفين له ولم يبقَ منهم سوى الملك ابراهيم ود رماد ملك النحاس فدعاه يوماً الى منزله ليقتله فعلم بالمكيدة فاعتذر بعدم مقدرته على الذهاب وسعى حتى دخل على السلطان وقال له اعلم ان كرة لا يزال حاقـــداً عليك من يوم ضربته على المائدة وهو يسعى في ثل عرشك وتولية أخيه باسي عوض الله مكانك وقد استمال أكثر رجال الجيش اليه وقتل الملوك غيلة وهو يريد ان يقتلني لهذه الغاية فقال السلطان وما دليلك على ذلك قال ترسل احد الضباط بنفر من العساكر الى الآبار التي يستقي منها ليمنعوا عبيده الورود فاذا جاءك شاكياً كان لا يزال على الولاء وإلا فلا. فاستحسن السلطان هذا الرأي وأرسل ضابطاً الى آبار كرة فكان كلما وردها احد من جماعة كرة منعه الضابط وردّه خائباً فلما علم بذلك جمع عبيده ورجال الجيش الذين من حزبه وجاء الى الآبار فقتل الضابط ومن معه وتقدم الى منزل السلطان فدخله محارباً وكان الملك ابراهيم قد أعدّ الجيوش لمصادمته فاقتتل الفريقـان الى ما بعد الغروب فنادى الملك ابراهيم أبا شيخ كرة من وراء الجدار وقال له « حقاً انك امرأة لأنك لو كنت رجلا لم تطلب الحرب ليلا بلا ميعاد » فقـال كرة « كنت قد نويت ان لا اخرج من هذا المكان حتى أقتلك وأخلع سلطانك أما الآن وقد قلت اني فاجأتك ليلا بلا ميعاد فلاقني صباح الغد الى ساحة القتال

شرقي المدينة » قال ذلـك وانصرف بعساكره الى منزله فأخذ كل فريق يجهز جيشه للغد .

وكان في جيش السلطان محمد الفضل رجل كهل مشهور بالفروسية والاقدام يسمى احمد ود جراب الفيل وقد حضر عدة وقائع حربية من جملتها واقعـة السلطان أبي القاسم مع ملك ودّاي فأبلى فيها بلاء الأبطال وحضر الواقعة التي تقدم ذكرها فلم يُبدِ ما كان ينتظر منه بل كان كلما قابلته كتيبة من الفرسان أعرض عنها فلما جمع الملك ابراهيم رؤساء العساكر للنظر في قتال الغد كان ود جراب الفيل حاضراً فقال له الملك ما أصابك أمس يا ود جراب الفيل حتى أحجمت عن القتال أصحيح ما شاع ان كرة اشتراك بمئة رأس من الرقيق فتركت القتال فقال ود جراب الفيـل أمثلي يقال هذا الكلام يا ملك ابراهيم أأنا ابيع ود السلطان عبد الرحمن بمئة رأس رقيق ولكن قل لي بماذا أحارب أبسيفي وقد اخذوه مني ووضعوه في خزينة سلاح السلطان أم بحصاني هـذا الضعيف النحيف الشبيه بالنعجة فان كنتم تحبون ان ترون مني حرب الرجال وتشاهدون بأعينكم ما اشتهر عني من البسالة والاقـــدام فأرجعوا لي سيفي وهاتوا لي فرساً يحمل الكر والفرّ فأريكم غداً ما يسركم فأمر السلطان باحضار سيفه فأحضر اليه ثم أمر باحضار الخيول ليختار منها جواداً يعجبه قيل وكان ود جراب الفيل يقبض على ناصية الجواد ويجذبه بيده وهو جالس في الارض فيخرّ الجواد على ركبتيه من شدة الجذبة الى ان قبض على ناصية جواد فجذبه كما فعل بما تقدمه فنفض الجواد رأسه ورفع ود جراب الفيل حتى أوقفـــه على قدميه فقـال ود جراب الفيل « هـذا جوادي الذي أركبه » ثم ركبه واستل السيف وقبّله والتفت الى أم السلطان وقال « اعلمي ان دارفور تكون بيد ولدك لا ينازعه فيها منازع قبل ظهر نهار غد ان شاء الله » ففرح الملك ابراهيم بذلـــك وكان له ثلاثون ولداً من صلبه راكبين الخيول كاملي العدّة فأحضرهم الى ود جراب الفيل وقال له انت رئيس أولادي هؤلاء وأريد منكم

اذا التقى الجمعان في الغد لا تقاتلوا احداً غير كرة فاقصدوه حيث يكون وقاتلوه حتى تقتلوه .

فلما كان صباح الغد واصطف الفريقان للقتال برز ود جراب الفيل ومن معه من اولاد الملك ابراهيم قاصدين كرّة فاعترضهم اخوه باسي عوض الله فقتلوه وتقدموا الى كرّة فتلقاهم بقلب لا يهاب الموت وكان لابساً درعين من الحديد وعلى رأسه خوذة تغطيه وتغطي وجهه حتى كان لا يُرى منه الا عيناه فكانوا يضربونه بالسيوف فلم يتمكنوا منه وكان هو ايضاً يكرُّ عليهم ويهاجمهم مهاجمة الاسود فلم يصب منهم مقتلاً لأنهم كانوا متدرعين مثله فاحتال بعضهم عليه بأن ركب على فرسه من ورائه وجندله فأطبق الفرسان عليه ونزعوا خوذته ثم حزُّوا رأسه وحملوه الى السلطان فلما رأى جيش كرّة ما جرى لشيخهم ولّوا الادبار منهزمين فتبعهم جيش السلطان ونكل بهم .

وكان من عادة كبار الخصيان في دارفور ان يقتنوا زوجات من الأرامل اللواتي لهنّ اولاد فيتبنون الاولاد لتنتفي عنهم مذلة الخصي ولو كان ظاهراً وكان لأبي شيخ امرأة ولها ابن يسمى شيل فوت (أي خذ واذهب) وهو من الفرسان المعدودين وكان السلطان محمد الفضل يودّ ان يجعله من أتباعه وأعوانه فأوصى جيشه قائلا : اذا انهزم جيش كرة وظفرتم بشيل فوت فلا تقتلوه بل ائتوني به حياً فلما كان انهزام جيش كرة ظفر بعض الفرسان بشيل فوت فتصدى لهم فأخبروه بوصية السلطان لهم ولما أمن جانبهم جاء معهم الى السلطان فأمّنه وعفا عنه. ثم التفت اليه الملك ابراهيم وقال له : « يا شيلفوت ألأجل فضلة الطعام تحارب مثل هذه الحرب ؟ » قال ذلك لأن شيلفوت كان يأكل فضلة طعام كرّة على عادة الابن مع ابيه في السودان وكان من عادة الملك ابراهيم كملك النحاس ان يوزع طعام السلطان على الجيش فأجابه شيلفوت على الفور : « أنت حاربت لأجل توزيع الطعام أفلا احارب أنا لأجل أكله ؟ ».

واستتب الملك للسلطان محمد الفضل بعد قتل كرّة ولم يعد له معارض فتفرغ لتأديب العرب الذين خرجوا عن طاعته وهم بنو هلبه والعريقات والرزيقات

اما بنو هلبه والعريقات فقد أخضعهم بالسهل اما الرزيقات فكانوا قبيلة قوية وقد طالما عصوا سلاطين الفور واستقلوا عنهم فصمم السلطان محمد الفضل على الإيقاع بهم فجمع جيشاً عظيماً وأحاط ببلادهم إحاطة السوار بالمعصم وحصرهم وأثخن فيهم وقتل كل رجل فيهم ولم يستحي الا النساء والاولاد فقسمهم نصفين فأرسل النصف الواحد الى ارض العريقات وأسكنهم إياها وأبقى النصف الآخر في أرضهم وأعاد لهم قسماً من ماشيتهم فأعطى كل ارملة قتل زوجها بقرة حلاّبة وثوراً .

وحكي عن السلطان محمد الفضل نادرتان احداهما مع احمد ود عدلان آخر وزراء الهمج بسنار تدل على كرمه والثانية مع السلطان آدم سلطان ودّاي تدل على شهامته . اما نادرته الاولى فهي ان جعلياً التقى بود عدلان في البرية خارجاً للقنص فقبض على لجام فرسه وقال له ايها الملك اني رجل فقير وقد جاوزت سن الاربعين ولم أذق رائحة البخور يريد بذلك انه لم يتزوج بعد لعدم مقدرته على الزواج فقال له الملك تعال معي الى سنار فأعطيك ما قسمه الله لك فقال له الجعلي لا أتركك حتى تعطيني ما قسمه الله لي الآن لأني اذا ذهبت معك الى سنار دخلت منزلك وشغلت عني ولم يدخلني اليك احد . ولم يكن مع ود عدلان في ذلك الحين الا فروة من الجلاد مفروشة فوق سرج فرسه فأعطاه إياها وقال له أدلك على واسطة تنال بها الغنى : تذهب بهذه الفروة الى السلطان محمد الفضل سلطان دارفور وتقص عليه قصتك وتعطيه الفروة فإن كان الله قد أغناك فهو يغنيك فحمل الجعلي الفروة وسار حتى وصل دارفور واستأذن فدخل على السلطان محمد الفضل وقصَّ عليه قصته مع محمد عدلان وأعطاه الفروة فنادى السلطان محمد الفضل احد وزرائه وقال له خذ هذا الرجل الى منزلك وأكرمه غاية الاكرام وائتني به في الغد ففعل الوزير كما أمره السلطان وفي الغد حضر الرجل بين يدي السلطان فسأله عما قاله له ود عدلان فقال : « قال لي خذ هذه الفروة الى السلطان محمد الفضل فإن كان الله قد أغناك فهو يغنيك » فأمر السلطان وزيره بأن يعطيه اربع مئة رأس من

الرقيق والابل والبقر والغنم من كل صنف مئة رأس ويأخذه الى منزله فيكرمه ويعود به اليه في اليوم الثاني ففعل الوزير كما أمره السلطان ولما مثل الجعلي امام السلطان في اليوم الثاني سأله ايضاً عما قاله له ود عدلان فأعاده له فأمر له بأربع مئة رأس اخرى من الاصناف الاربعة المذكورة . وهكذا بقي الجعلي يتردد على السلطان والسلطان يأمر وزيره ان يعطيه ما أمر له في اليوم الاول على عشرة ايام حتى اجتمع عند الجعلي ٤٠٠٠ رأس من كل صنف ألف فلما أتى به في اليوم الحادي عشر وسأله السلطان عما قاله له ود عدلان قال : « أطال الله بقاء مولاي وأيده بالنصر على الأعداء اني قد اغتنيت غناء الأبد وقد نسيت الذي قاله لي ود عدلان » فضحك السلطان لقوله وقال لوزيره : خذه الآن وسلمه ما وهبناه إياه وارسله مع الحرس اللازم الى بلاده وأما الاصناف التي أعطيناه إياها ولا يمكن نقلها الى بلده كالبقر والغنم فبعها واعطه ثمنها ففعل الوزير ما أمره السلطان وخرج الجعلي بهداياه من ارض دارفور شاكراً حامداً وعاد الى وطنه فتزوج من اشتهاها من نساء بلده وشم رائحة البخور !

اما نادرته الثانية مع السلطان آدم سلطان ودّاي وهو السلطان الثامن بعد السلطان عبد الكريم فهي ان السلطان محمداً الفضل بلغه ان عند السلطان آدم فرساً سريع الجري مشهوراً بالسبق فأرسل اليه في طلبه فجمع السلطان آدم وزراءه وشاورهم في الامر فقالوا له هذا « عشم فسيل » أي هذا رجاء باطل يشفّ عن احتقار واستخفاف فقال اذاً ما الرأي ؟ فقالوا الرأي عندنا ان تكتب له وتقول اذا ازوجتني بأختك أرسلت اليك الفرس فكتب السلطان آدم هذا الجواب ودفعه الى الرسول فلما قُرئ الجواب للسلطان محمد الفضل طار صوابه من شدة الغضب قيل وكان بيده اليمنى سيف فلما وصل القارئ الى قوله اذا ازوجتني بأختك جعل ينقر السيف بسبابة يده اليمنى حتى انكسر الظفر وسال منه الدم وهو لا يدري وعزم على التنكيل بالسلطان آدم وارغام أنفه فسأل الحاضرين أتعرفون احداً هنا من أهل ودّاي ولو انه من عامتهم

لنوليه على وداي بدل هذا السلطان فقال له بعضهم عندنا يا مولاي في بلدة جديد الرأس الفيل جزار من دار وداي يسمى محمد شريف وربما كان من العائلة المالكة مع انه جزار لأن آدابه وأخلاقه تدل على كرم اصله وفي وجهه أثر النعمة والعز فقال ائتوني به في الحال فأتوه به فقال له السلطان من انت يا رجل وما أتى بك الى هذه البلاد قال يا مولاي وانا محمد شريف ابن السلطان صالح بن خريفين شقيق السلطان آدم سلطان برقو الحالي وقد فررت من وجه اخي السلطان آدم خوفاً على بصري لأن من عادة سلاطيننا كما يخفى على مولاي انه اذا تولى احدهم الملك قلع عيون اخوته وجميع أقاربه الذين يخاف شرهم حتى لا يبقى له مزاحم على الملك ففررت الى هنا وفضلت ان أعيش جزاراً في بلاد الغربة وانا أبصر على ان اعيش في بلادي اميراً بلا بصر » . فقال السلطان محمد الفضل فهل لك ان تكون سلطاناً على بلادك بدلاً من اخيك فقال له ومن أين لي ذلك يا مولاي قال لك ذلك مني ان شاء الله . ثم أمر فألبسوه حلة السلطنة وسيره الى وداي بجيش عرمرم وعليه اثنان من وزرائه واربعة من اولاده ومنهم حسين الذي تولى السلطنة بعده فسار محمد شريف بالجيش حتى وصل حدود وداي فالتقاه السلطان آدم بجيوشه وحصل بين الجيشين عدة مواقع دموية قتل فيها خلق كثير من الفريقين ولكن غلب فيها جيش السلطان محمد الفضل واخذ السلطان آدم أسيراً وغنم نحاسه وولى محمد شريف سلطاناً على وداي وعاد الى دارفور ومعه السلطان آدم اسيراً فبقي السلطان آدم في دارفور مدة ثم تمكن من الفرار الى وداي فأرسل السلطان محمد شريف عسكراً وراءه فتعقبه وقتله وبقي لا ينازعه احد الى ان مات . وتولى بعده على وداي السلطان علي ابنه ثم السلطان يوسف اخو علي فالسلطان ابراهيم بن يوسف فالسلطان احمد الغزالي بن علي فالسلطان محمد دود مرة اخو ابراهيم وهو السلطان الحالي .

هذه رواية البعض في سبب الحرب بين السلطان محمد الفضل والسلطان آدم ، وقال بعضهم ان رواية الفرس لم تكن بين السلطان آدم والسلطان محمد

الفضل بل كانت بين السلطان علي المذكور وبين معاصره من سلاطين برنو وان السلطان علياً هو الذى طلب الفرس من سلطان برنو فأجابه سلطان برنو بما هو منسوب الى سلطان وداي قالوا وأما سبب الحرب بين دارفور وودّاي فهو ان محمد شريف المذكور جاء الى السلطان محمدالفضل يستنصره على اخيه فنصره لأنه كان أميل الى دارفور من اخيه السلطان آدم .

وفي ايام السلطان محمد الفضل ارسل محمد علي باشا ابنه اسماعيل بجيش جرّار لفتح سنار وصهره الدفتردار لفتح كردوفان وكان في كردوفان مقدوم من قِبل السلطان محمد الفضل يقال له المقدوم مسلّم فتغلب عليه الدفتردار وامتلك البلاد منه بعد واقعة شديدة على ما سيجيء بالتفصيل في الفتح المصري قيل وكان السلطان محمد الفضل واجداً على المقدوم مسلم فلم يشأ ان ينصره فلما علم انه قُتل أرسل جيشاً تحت قيادة ابي اللكيلك فخرج له جيش الحكومة فالتقاه في سودره بين فوجه والأبيّض وحدثت واقعة شديدة حارب بها جيش الفور حرب الرجال حتى قتل قائدهم فانهزموا راجعين الى الفاشر فخاف السلطان محمد الفضل على دارفور وأخذ من ذلك الوقت يحشد الرجال ويستكمل العدة محافظة على سلطنته . وقيل انه كتب « أسماء » على نية منع الحكومة المصرية من الدخول الى بلاده وجعلها في قماقم من نحاس ودفنها في الصحراء الشرقية والشمالية ولم يخف على سلطنته من الجنوب حيث دخل الزبير باشا كما سيجيء .

وكان لمحمد الفضل أخ يكرهه ويزاحمه على الملك يسمى أبا مدين ففرّ الى مصر وأخذ يهوّن على محمد علي فتح دارفور فأرسله محمد علي الى كردوفان للسعي مع مديرها في ذلك فبقي في الأبيّض الى ان توفي .

ولما كانت سنة ١٢٤٥ هـ ١٨٣٠ م ارسل محمد علي باشا كتاباً الى محمد الفضل يدعوه فيه الى التسليم فأجابه محمد الفضل بكتاب أخذنا صورته عن نسخة بيد الزبير باشا بمصر وهذا نصّ الكتاب :

« الحمد لله الذي حكم بين عباده بالحق قطعاً سبحانه يجزي كل نفس بما تسعى واليه المعاد والرُّجعى وهو حسبي وكفى .

« من حضرة من أمّن الله به البلاد وجعل ملكه مسموعاً من كل احد وصيّره في قلوب الأعداء ناراً تستعر وجمراً يتوقد وجعل الله على يده ضرب من طغى وتمرّد ومن ضلّ وتعنّد وهو شاب صغير السن ولو صار كهلا لخضعت له الانس والجن وقد اشتهر بالكرم والجود وحال بعوارضه أنجم السعود وإن قامت الهيجاء بنفسه يجود ويصل الى الأعداء بقواطع الهنود وينتصر بعون الله على كل موجود !!! هو مولانا السلطان محمد الفضل بن عبد الرحمن الرشيد أعزّه الله .

« الى حضرة الكوكب العالي والنير المتلالي بهجة الأنام وقدوة الليالي صاحب العزّ والافتخار أخينا العزيز محمد علي باشا سلمكم الله تعالى من المحذورات واستعملكم بالباقيات الصالحات بمنّه وكرمه .

« اما بعد فسلام الله عليكم ورحمته وبركاته لديكم قد وصلنا جوابكم أوصلكم الله الى رضوانه وفهمنا خطابكم ومقتضى جوابكم وكل كلمة من المرقوم يستحق جوابها المفهوم ولكن يكفي من ذلك كله كلام الحيّ القيوم حيث قال : « له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » ... « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه احداً » ... انكم طالبون دولتنا وطاعتنا وانقيادنا لكم هل بلغكم اننا كفار وجب لكم قتالنا وأبيح ضرب الجزية علينا أوغرّكم قتالكم مع ملوك سنار والشايقية فنحن السلاطين وهم الرعية . أورد لك دليل من الله تجد فيه ملكك أم ورد لك حديث من رسول الله تجد فيه تمليكك أم خطر لك خاطر من عقلك بأن لك رباً قوياً ولنا رب ضعيف الحمدلله نحن مسلمون وما نحن كافرون ولا مبتدعون ندين بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ونؤدي الفرائض ونترك المحرّمات ونأمر بالمعروف وننهي عن المنكر والذي لم يُصلّ نأمره بالصلاة والذي لم

بزك" نأخذ منه الزكاة ونضعها في بيت المال ولا ندخرها ونردّ الأمانات الى أهلها ونعطي كل ذي حقٍّ حقه حتى دانت لنا القبائل العظام ومن أتى دولتنا يرجع مكرماً باذن الله تعالى ولو اشتدت بـه الريح في يوم عاصف ألم ترَ الى قوله ﷺ « لو بغى جبل على جبل لدكّ بالباغي » أما علمت ان دارفور محروسة محمية بسيوف قطع هندية وخيول جرد أدهمية وعليها كهولة وشبان يسرعون الى الهيجاء بكرة وعشية ! أما علمت ان عندنا العبـاد والزهاد والأقطاب والاولياء الصالحين من ظهرت لهم الكرامات في وقتنا هـذا وهم بيننا يدفعون شر ناركم فتصير رماداً ويرجع الملك الى أهله ويكفي من بعد ذلك والله يكفي شر الظالمين . كتبه الفقيه محمد ود عماري من متخرجي الأزهر وكان مدرساً للسلطان محمد الفضل وأولاده بالفاشر اه» وتوفي السلطان محمد الفضل سنة ١٨٣٨ وخلفه :

٢٥ – السلطان محمد حسين ابنه ١٢٥٤ : ١٢٩٠ هـ – ١٨٣٩ : ١٨٧٤ م

وكان معاصراً للمغفور لهما سعيد باشا واسماعيل باشا فبادلهما الهدايا والمكاتبات فكان يهدي اليهما الخصيان والريش والسن وغير ذلك من تحف دارفور وهما يهديان اليه النفيس من تحف مصر . وقد أرسل له سعيد باشا مركبة برأسين من جياد الخيل وخيماً وتحفاً كثيرة أما المركبة فانه لم يركبها قط بل امر سائقها عند وصولها بركوبها امامه فذهب بها السائق من بيت السلطان إلى الجامع مسافة فرسخ وعاد بها الى بيت السلطان فأمر السلطان بوضعها في الاسطبل فبقيت الى الفتح المصري وأما الخيل فقد قيل له انها مسحورة فتركها للعلف نحو ٥ سنين ثم وهبها لبعض خاصته . وأهدى اليه اسماعيل باشا شالات كشمير وسروج ذهب وسبح كهرمان وخرز سوميت وغيرها من تحف مصر المستحسنة في دارفور . وكان السلطان حسين جواداً كريماً محباً للرعية . حدثني الشيخ علي بك الخبير من مشاهير التجار بدارفور وقد عاصره قـال : دخلت يوماً على السلطان حسين للسلام عليه وأخذت له

معي هدية نفيسة من تحف مصر تساوي ألفي غرش فأمر لي بثني بعير من أكرم الابل .

ولما كانت سنة ١٨٥٦ م كف بصره فطلب التحفظ على ملكه فألف جيشاً ينيف على ١٠٠٠٠ مقاتل وسلحهم بالأسلحة النارية فكان هو اول من استعمل الاسلحة النارية في جيش دارفور وقد كان اعتماد السلاطين قبله على السيوف والحراب والدرق والسكاكين والنشاب . وكان للسلطان حسين أخت تسمى ابا باسي زمزم اشتهرت باتساع الثروة وكان لها نفوذ تام في السلطنة .

وفي ايام السلطان حسين كانت « واقعة القرطاس » المشهورة بين عربان المعالية وعربان حَمَر وذلك ان عربان المعالية قطعوا الطريق على قافلة آتية من مصر الى دارفور وقتلوا تجاراً مشهورين بأهل زريبة عبد العزيز وأخذوا اموالهم من سكر وأنسجة ونحوها فغضب السلطان حسين من تعديهم وكان بينهم وبين عربان حمر عداوة قديمة فأرسل السلطان في طلب الشيخ مكي ود منعم شيخ عربان حمر وقال له اني أبحت لك دماء المعالية وأموالهم فجمع الشيخ مكي رجاله وحلفاءه وغزا عربان المعالية وكانوا مشهورين بالصبر والثبات في الحروب فحدث بين القبيلتين واقعة دموية شديدة كان النصر فيها لعربان حمر فقتلوا المعالية شرّ قتلة . قيل وقد سميت هذه الواقعة بواقعة القرطاس لأن الصحارى امتلأت من قرطاس السكر والانسجة التي نهبها المعالية من التجار .

٢٦ – السلطان ابراهيم ١٢٩٠ : ١٢٩١ هـ – ١٨٧٤ : ١٨٧٥ م

وهو آخر سلاطين الفور وكانت مدة ملكه سنة وسبعة اشهر وأربعة عشر يوماً . قيل لما مرض السلطان حسين وعلم بدنوّ أجله أراد ان يضمن الملك من بعده لابنه ابراهيم لأنه كان يحبه اكثر من جميع اخوته ولم يكن اكبرهم بل كان ابو البشر اكبرهم فانتدب اثنين من أمنائه وهما الامين نجيت من قبيلة الميدوب ابن الوزير آدم بوش كبير الامناء والامين « خير قريب » من عبيد الفرتيت امين الخزينة والاسلحة وأتى بالمصحف المسمى بسوار الذهب وحلفهما

عليه بأن يوليا ابنه ابراهيم بعد وفاته . وكان احمد شطة امير الصعيد المقيم في دارا يحب ان يولي الامير أبا البشر لأنه كان متزوجاً بشقيقته وكان له صديق في الفاشر يسمى الشيخ احمد الدردير. فلما اشتدّ المرض على السلطان حسين أرسل الدردير يخبر الوزير احمد شطة فأتى الفاشر ونزل في منزل احمد الدردير واستأذن فدخل على السلطان وسلم عليه فقال له السلطان كيف تركت مركزك وجئت الى هنا بلا اذني قال بلغني يا مولاي خبر مرضك فأسرعت بالحضور لعيادتك فقال له ارجع على الأثر ولا تبيتنّ هنا فقال سمعاً وطاعة ولكنه علم ان السلطان مائت قريباً فتربّص في الفاشر ليرى ما سيكون من الامر بعد وفاته .

وعلم الوزيران المار ذكرهما قصد احمد شطه فلما توفي السلطان أخفيا خبره وأرسلا الى احمد الدردير يقولان ان السلطان حسيناً يطلب حضورك لتكتب له حجاباً فلما حضر قبضا عليه وقيداه بشعبة وخبآه في غرفة منفردة ثم أرسلا يطلبان الامير ابراهيم بن السلطان حسين فأجلساه على كرسي السلطنة وطلبا الوزير احمد شطه فحضر وسلم على السلطان ابراهيم وهو يظن انه السلطان حسين فأخبراه اذ ذاك بموت السلطان حسين ووصيته لهما فما وسعه الا التسليم وقال : « ما استخدمنا السلطان حسين الا لننصره وننصر من يحب وحيث ان السلطان ابراهيم هو ابن السلطان حسين وقد تولى بإرادة ابيه فسمعاً وطاعة لأمره » فقال السلطان ابراهيم : « أما وقد أظهرت الطاعة فقد ثبّتك على مركزك في داره تقيم فيه كما كنت في حياة أبي كل العمر » فدعا له وحلف له يمين الطاعة ثم أرسلوا الى الوزراء واحداً واحداً فحلفوا له يمين الطاعة ودفنوا السلطان حسيناً في اليوم الثالث من وفاته . وأما الدرديري فان السلطان ابراهيم ارسله الى كوبى وحبسه حبس عين بمنزل الحاج محمد صالح ثروة الجملي المار ذكره فبقي الى ان أطلقه الزبير باشا بعد فتح الفاشر .

وقد اشتهر السلطان ابراهيم بالكرم كأبيه . حدثني علي بك الخبير السالف الذكر قال : كنت أعرف السلطان ابراهيم شخصياً قبل توليه الملك فلما تولى

كنت في مصر فأخذت له هدية ودخلت للسلام عليه فوجدت عند بابه قطيعاً من الابل فيه خمسون بعيراً فقلت في نفسي إن كان هذا السلطان كأبيه في الكرم تكون هذه الابل لي اليوم وكان كذلك فاني لم أنصرف من مجلسه حتى أمر لي بها فخرجت شاكراً حامداً .

وبقي السلطان ابراهيم نافذ الامر والنهي في دارفور الى ان قتله الزبير باشا في بلدة منواشي في ١٤ رمضان سنة ١٢٩١ هـ — ٢٤ اكتوبر ١٨٧٥ م في واقعة دموية شهيرة وكان في قتله زوال سلطنة الفور ودخولها في حوزة مصر على ما سيجيء .

وبعد استيلاء الحكومة المصرية على دارفور ألقت القبض على عدة أمراء من ذرية سلاطين الفور وارسلهم مع بعض الأعيان الى مصر فأسكنتهم في الحي المعروف بسوق السلاح تحت القلعة وأجرت لهم « المرتبات » فعاشوا براحة وسلام الى هذا اليوم . وبينهم الامير عبد الحميد ابن السلطان ابراهيم و ١٩ آخرون من أبناء السلاطين . —

وكان في جملة الأعيان المرحوم الشيخ الطيب إمام جامع السلطان ابراهيم فتوفاه الله في مصر القاهرة في ٢١ اوغسطوس سنة ١٩٠٢ على نحو ستين سنة من العمر وكان رحمه الله رحمة واسعة عالماً صالحاً ذكياً طيب الخلق نقي القلب وقد حفظ في ذاكرته تاريخ دارفور برمته فأخذت عنه معظم ما رويته هنا عن تاريخ السلاطين وهو اقرب الى الرواية منه الى التاريخ ولكنه افضل ما روي عن سلطنة الفور الى اليوم ما عدا الذي رواه سلاطين باشا في كتابه « النار والسيف في السودان » ونقله « المقتطف » الأغرّ الى العربية فانه يجعل السلطان كور اول سلاطين الفور . ثم يذكر بعده السلطان احمد المعقور الذي لم يملك في روايتنا . ثم السلطان دالي الذي هو في روايتنا احد كبار الخصيان . ثم السلطان صولون . ومن هذا السلطان فنازلاً الى السلطان ابراهيم تتفق سلسلتنا مع سلسلته ولكنها تختلف اختلافاً طفيفاً في تفصيل اخبار بعض السلاطين .

هذا وقد ظلت بلاد دارفور في يد الحكومة المصرية الى ان كانت الثورة المهدية فدخلت في حوزة المهديين. ولكن قام في أثناء ذلك من ذرية السلاطين الذين بقوا في البلاد من ناصب الحكومة العداء ثم المهدية وحاولوا استرجاع السلطنة فخذلوا .

والذي قام منهم في عهد الفتح الاول :

الامير حسب الله ابن السلطان محمد الفضل .

الامير بوش اخوه .

الامير هارون ابن الامير سيف الدين ابن السلطان محمد الفضل .

الامير دود بنقا ابن الامير بكر ابن السلطان محمد الفضل .

وأما الذين قاموا في عهد المهدية فهم :

الامير يوسف ابن السلطان ابراهيم .

الامير ابو الخيرات اخوه .

الامير علي دينار ابن الامير زكريا ابن السلطان محمد الفضل : وهو القائم الآن بأمر دارفور على جزية يدفعها للحكومة السودانية وقد جاءها بعد واقعة ام درمان وسيأتي ذكر هؤلاء الأمراء وما كان من أخبارهم بالتفصيل في تاريخ السودان الحديث .

الفصل الثاني

في

حكومة سلطنة الفور وبعض أخبارها

رجال السلطنة : اما حكومة سلطنة الفور فكانت من النوع الملكي المطلق. وكان السلطان سليمان الاول لما أخضع ملوك البلاد على ما مرّ قد خلعهم من مناصبهم وولى على البلاد نوّاباً من أهلها وجعل مع كل نائب عدة شراتي او مدراء ومع كل شرتاي عدة دمالج او مأمورين ومع كل دملج عدة مشايخ بلد.

وبقي هذا النظام معمولاً به الى ايام السلطان موسى فرأى عدم الاخلاص من النواب الوطنيين فعيّن عليهم اربعة مقاديم من رجال حاشيته الأخصاء في كل جهة من الجهات الاربع مقدوماً وجرّد النواب من السلطة الا انه أبقاهم في مراكزهم يحكمون بالاسم فقط واستمر هذا النظام الى انتهاء السلطنة .

وكان تعيين المقدوم بفرمان خاص يُقرأ على النواب والشراتي والدمالج ومشايخ البلاد والعربان واصحاب الحواكير وغيرهم . ولباس المقدوم كلباس السلطان وإكرامه في ناحيته كإكرام السلطان وحكمه نافذ في كل القضايا حتى في القتل الا في بعض الاحوال الخاصة فانه يرجع في حكمه الى السلطان .

اما رجال حاشية السلطان الذين بيدهم سياسة البلاد المركزية فأهمهم :

« الوزير » : وعليه ادارة شؤون البلاد سياسياً وادارياً وحربياً .

« وابو شيخ » : وهو كبير الخصيان ومقامه اكبر مقام في السلطنة اذ هو المرجع الاعلى لقانون دالى الذي هو القانون العرفي في البلاد وسيأتي ذكره. وله الفصل في الخلاف الذي يقع في حرم السلطان وهو مقدوم الشرق رسماً والمحافظ على نحاس السلطنة ومن رجال الادارة المركزية : ملك النحاس وملك دادات السلطان وملك خوال السلطان وملك الفاشر او محافظها وملك الجباة وملك الحدادين. وكان لكل سلطان من سلاطين الفور وكيل رسمي من ذرية السلطان شاو دورشيت يسمى « الكامنة » . وفي دار السلطنة ممن بيـدهم الحل والعقد الميارم اخوات السلطان والحبوبات جدّات السلطان . وفيهـا رهائن النواب المسلمين ورهائن ملوك المجوس السبعة المـار ذكرهم وكان كلٌّ من هؤلاء الملوك يرسل وليّ عهده ليكون رهينة عنـد السلطان فيجعله السلطان في خدمته ويعوّده على طاعته ويعلمه القراءة والكتـابة حتى اذا ما مات الملك أعطى السلطان وليّ عهده كسوة فاخرة وعكازاً مفضضاً وطاقية مقصبة بقرنين ونعلين ونقـارة نحاس وولّاه بفرمان خاص على بلاده في مكان سلفه . وكان على كل ملك من هؤلاء الملوك جزية سنوية معلومة من الرقيق والسمن والعسل .

الحواكير والعربان : وقد عمل « ١٧ـ السلطان موسى » بالنظام المشهور في الشرق في ما يتعلق بملكية الاراضي فجعل البلاد كلها ملكاً للسلطان وقسم بلاد الحضر الى « حواكير » او اقطاعات ووزعها على أهله وأخصّائه وكبار قومه بحجج مختومة بختمه فعاشوا بريعها هم وأهلها المزارعون . وكذلك قسّم قبائل البادية فخص كل قبيلة بأمير من أبناء السلاطين او بعين من الاعيان تجبي له زكاتهـا . وجمع السلطان نصيبه من الزكاة والفطرة والعشور حسبما يفرضه الشرع الاسلامي وكان المقاديم يجمعون الزكاة من البادية وملوك الجباة يجمعون الفطرة والعشور من الحضر وربمـا تنازل السلطان عن نصيبه في الحاكورة او

القبيلة فأعطى صاحبها « حجة بالجاه » فلا يقربه احد من الجباة او المقاديم . وقد جرى على هـذا النظام جميع السلاطين الذين أتوا بعد السلطان موسى الى انقضاء السلطنة .

قانون دالي : وكان القضاء في دارفور شرعياً وهو المشروع بالكتـاب والسنة او عرفيـاً وهو المشروع بالعرف وقد جمعت الاحكام العرفية كلها في كتاب واحد عرف « بقانون دالي » وهو بمثابة قانون الجزاء عندنا . وكان القائم بتنفيذه المقاديم ومن هم دونهم من الحكام بالاتحاد مع اصحاب الحواكير والقبائل. والقاضي الأعظم الذي يُرجع اليه في هذا القانون هو كبير الخصيان الملقب بأبي شيخ كما مرّ . اما لفظ دالي فهو في لغـة الفور بمعنى لسان ويُراد بقانون دالي لسان السلطان او أوامره. على ان بعض الرواة يجعل دالي سلطاناً من سلاطين الفور المتقدمين كما سيجيء .

ومن أحكام هـذا القانون : ان الملك يكون وراثياً للابن الاكبر الا اذا كان الاكبر غير لائق للاحكام فيولون غيره ممن فيه اللياقة من العائلة المالكة. وقصاص السارق غرامة ست بقرات او ما هو بثمنها فاذا لم يقدمها حُبس الى ان يفتديه أهله . وقصاص القـاتل القتل اذا كان القتل عمداً والا فدفع الدية مئة بقرة اذا كان من البقارة او مئة بعير اذا كان من الأبالة. وأما الزاني فإن زنى بمحصنة فغرامته ٦ بقرات او بأيّم فبقرة واحـدة او ببكر فكل منهما يغرم بقرة . وقصـاص الضارب فإن كان في الضرب جرح فغرامة ثوب من الدمور وإن لم يكن جرح فنصف ثوب وهكذا جزاء الشاتم. وقصاص شارب الخمرة الجلد ثمانين جلدة وكسر أواني الخمرة في بيته ومع ذلك فهم لا ينقطعون عن تعاطي الخمرة لأنهم مولعون بشربها. حكي ان رجلا من اهل دارفور طاب له شرب « المريسة » حتى لم يمكنه الانقطاع عنها مع تكرار وقوع الحدّ عليه فحفر له غاراً تحت الارض وسقفه سقفاً متيناً وجعل له باباً ضيقاً وصار كلما أحبّ شرب المريسة ينزل الى الغـار فيشرب حتى يسكر ثم يصعد على سطح الارض وبقي على ذلك حتى سمع حاكم البلدة به فباغته في الغار وهو يشرب

فقال الرجل لا حكم عليّ هنا فان الحكم لكم على ظاهر الارض اما الحكم في باطن الارض فلله . واذا حصل حريق في الصحراء في العشب الذي ترعاه المواشي غرّمت أقرب بلدة الى الحريقة على حساب بقرة لكل طول درقة وذلك سواء كانت الحريقة من اهل تلك البلدة أم من طارىء مفاجىء والمراد بتعميم هذه الغرامة منع الناس عن إحراق الزرع وتحريضهم حتى اذا ما شبّت حريقة في جوارهم أسرعوا الى إطفائها في الحال لئلا تتسع فيتسع الجزاء عليهم.

وفي دارفور خرافة قديمة عند بعض العجائز مؤدّاها انه لا يخصب لهنّ زرع الا اذا قتلنَ شخصاً مسموماً بسمّ حية ولكن قانون دالي يعاقب على هذه الجريمة بأعظم عقاب وذلك بتصدير مال القاتلة الى خزينة السلطنة وإحراق بيتها ثم لفها بحصير من شوك وضربها بالعصي الى ان تموت .

اما محصول « الدالي » فنصفه للسلطان والنصف الباقي لأصحاب الحواكير والمقاديم والشراتي على نسبة معلومة .

دخل السلطان وخرجه : اما دخل السلطان الذي كان ينفق منه على بيته وأخصائه وجنوده فالعشور والفطرة من الحضر ، والزكاة من البادية ، وعشور البضائع من التجار، ونصيبه من قانون دالي ، والضرائب على التجار والحدادين « والنفوس » ، ومن الهدايا التي كانت تأتيه من الحكام وأصحاب الحواكير والتجار اذ لم يكن يدخل للسلام عليه احد من رعيته من موظفين وأعيان وتجار الا بهدية نفيسة تعرف « بالسلام » من الرقيق والابل والخيل والبقر والغنم والتكاكي والطرق والطاقات والذهب والفضة والعسل والسمن والسن والريش ؛

اما دخل المقاديم والشراتي والدمالج فمن نصيبهم من محصول دالي والهدايا ومرتبات اصحاب الحواكير ومن حواكيرهم الخاصة .

وكان سلاطين الفور يكرمون رجالهم الذين يصدقونهم الخدمة حتى كانوا يزوّجونهم بناتهم ويمهرونهم الحواكير والعربان. وهذه هي صورة حجة حاكورة

مهرها السلطان حسين لصهره احمد بن عيسى من أعيان دارفور عند تزويجه بابنته الميرم فاطمة ام ادريس . ويليها حجة « عربان » مهرهم ايضاً لصهره ثم حوّلها صهره لزوجه وابنته :

« من حضرة امير المؤمنين وخلاصة الاكرمين خادم الشريعة والدين الواثق برب العالمين سيدنا ومولانا السلطان محمد الحسين المهدي ابن السلطان محمد الفضل على ضريحه سحائب الخير والرضوان آمين .

« الى حضرة كل من يقف على هذه الوثيقة وينظر ما فيها من الحقيقة من الأمراء والوزراء والملوك وأبناء السلاطين والميارم والحبوبات والقضاة والجبايين والشراتي والمكاسين والدمالج وغيرهم من سائر اهل هذه الدولة من ذوي الشوكة.

اما بعد فالذي نصيره بشرف علمكم من قبل حاكورة « نعمة » التي كانت سابقاً بيد الملك كرتكيله متاعاً ثم بيد الملك عبد الله كرقاش متاعاً ثم بيد المقدوم عبد العزيز متاعاً ثم بيد جدّتنا الحبوبة والدة سيدنا المرحوم متاعاً اني الآن تفضلت وأعطيت وأوهبت وصدقتها لصهرنا الحاج احمد بن عيسى برقيقها هبة مختارة وملكتها إياها ملكاً تاماً ثم وجهت لحيازتها ابراهيم المقام من طرف الامين صالح وأمرت المقدوم عبدالعزيز ان يبعث له من طرفه احداً يذهب معه فبعث له الملك هرون ابن الفقيه عبد الله فذهبا لتلك الحاكورة وطافا بها من كل الجهات وحدداها ... فهذه الارض التي شملتها هذه الحدود أقطعتها لصهرنا الحاج احمد ابن الحاج عيسى اقطاعاً ناجزاً وحوزتها حوزاً كاملا وملكتها ملكاً تاماً هي والرقيق التي فيها وعدّته خمسون يتصرف فيها وفي رقيقها تصرف المالك في ملكه بالزرع والتزريع والبيع والهدم والبناء والصدقة والشراء فهي له ولذريته من بعده فلا يغيره ولا يبدله سلطان بعدي. ثم اني تركت لها الفطرة والزكاة أعني بها الاحكام الشرعية وكذلك عفونا عن سبلها العادية من دم كبير او صغير وفسق وهامل ونار وقوار ودرقه ولا يتعدى عليهم ملك ولا جباي ولا مقدوم ولا خدام من اخد الخدامين وقد

تركنا ذلك اعانة لها في دينها ودنيـاها والله على ما نقول وكيل وحسبنا الله ونعم ، حرر ذلك سنة ١٢٦٣ هـ ١٨٤٧ م .

« من امير المؤمنين سيدنا ومولانا وأعلانا السلطان محمـد الحسين المهدي المنصور بالله تعالى آمين . الى كل من يقف على هذه الوثيقة وينظر ما فيها من الحقيقة . اما بعد فان ابنتنا الميرم فاطمة ام ادريس عرضت لنـا مكتوب زوجها الامين الحاج احمد عيسى نظرته بأنه أوهب لها حاكورته « نعمة » التي سبقت فأعطيته إياها فالآن هو أوهبها لزوجته . وأنا أتممت لهـا هبة زوجها فصارت ملكاً وحوزاً لها تتصرف فيها في ذاتها وغلالها الشرعية والعادية لهـا ولذريتها من بعدها . هذا جوابي ومهري لمن يعرفه تحريراً في ٧ شعبان سنة ١٢٦٩ هـ ١٥ مايو ١٨٥٣ م » اه . وهذه حجة العربان :

« من حضرة سلطان المسلمين وخليفة سيد المرسلين سيدنا ومولانا السلطان محمد الحسين المهدي المنصور بالله تعالى آمين الى كل من يقف على هذا الرسم من ولاة الامور والأمراء والوزراء والملوك والشراتي والدمالج وأبنـاء السلاطين والميارم والجبايين وملوك العربان والمشايخ والكراسي والخدامين ومقاديمهم وكافة اهل الدولة من الخدام . اما بعد فاني سابقاً تفضلت وأعطيت صهرنا الحاج احمد عيسى عرباً من الماهرية من جماعة الشيخ دلم وأسماؤهم عبـد النعيم ونعمان والداني واحمد وحسين وحامد وزرزار وطاهر وعجز واحمـد هؤلاء الرجال المذكورون كسرت عظمهم واتبعتهم لصهرنا الحاج احمد عيشى وعفوت له بجميع منافعهم وصاروا تبعاً له ولذريته والآن صهرنا المذكور أعطام لابنته الميرم زهرة في زيانة رأسها وأعلني به فأنا أتممته لها وقابلتها بجميع منافعهم الشرعية والعادية من الزكاة والفطرة والدم والفسق والهـامل وغير ذلك ليس عليهم شوبة ولا نوبة ولا خدمة لجميع امرهم مقابل اتنايتنا (أي ابنة بنتنا) الميرم زهرة لا يتعرض لهـا فيهم معترض ولا ينازعها منازع بل صاروا عرباً لها ورعاتها لها ولذريتها من بعدها هـذا جوابي ومشراطي ومهري لمن يعرفه تحريراً في عام ١٢٦٨ هـ ١٨٥٢ م » .

اختام السلاطين : وكان سلاطين الفور يختمون كتبهم من أعلاها بختم كبير على شكل دائرة قطرها نحو اربعة قراريط وهي منقوشة سطوراً مستوية بين كل سطر وسطر خط دقيق او خطين يضع فيها اسمه وأسمـاء البعض من أجداده على قدر ما يسع الختم الا انه لا بد من إنهاء النسب بالسلطان سليمان جدّهم الاعلى ومؤسس سلطنتهم وقد يكون حول السطور سطراً في دائرة مكتوب فيه آية من القرآن .

صرّة الحرمين : وكانت سلطنة الفور مستقلة عن دول الارض كلهـا لا تدفع جزية لأحد ما عدا الحرمين الشريفين فانهـا كانت تخدمها بمحمل وصرّة كل سنة فكان موكب المحمل يأتي الى مصر ومعه الريش والسن والصمغ وغيرها من خيرات البلاد فيبيعها ويتم بثمنها نقود الصرة ثم يستطرد الحج الى الحرمين مع الركب المصري .

منزل السلطان ابراهيم : وكان مـنزل السلطان ابراهيم آخر سلاطين الفور قائماً على شاطىء خور تنـدلتي الشمالي وهو منزل متسع له سور من الطوب الاحمر محيطه نحو ثلاثة اميال وعلوه نحو عشرين قدماً وحول السور على عشرة امتار منه زريبة من شوك. وللسور بابان كبيران باب للشمال وهو باب الرجال وباب للجنوب وهو بابّ الحريم ومنزل السلطان في الوسط. ومن كل باب منهما الى منزل السلطان سبعة ابواب تفتح شرقاً وغرباً أي انها على زاوية قائمة من البابين الكبيرين وهي عبـارة عن شباك من العيدان تصل ما بين أطراف، جدران متوازية مبنيـة داخل السور . وعنـد كل باب منازل للضباط بهيئة القطاطي او الرواكيب . امـا منازل السلطان فكلها مبنية بالطوب الاحمر غرفاً مستوية السطوح وغرف منامه وجلوسه مكسوة جدرانها وسقوفها بالجوخ الملوّن منها غرفة معدّة لجلوسه مع الخاصة تسمى « التيرمه » وله غرفة معدّه لاستقبال العامة عند الباب الرابع من أبواب الرجال تسمى « كالا » وكان سلاطين الفور يقتنون من النساء عشرات اربع منهنّ شرعيـات والباقيات مخطيات .

لباس السلطان : وكان لباس السلطان قيصاً مقصباً فوقه برنس مقصب يجلله شال من الكشمير وعلى رأسه تاج مزركش بالذهب تحفّ به سبع ريشات رهيفة من الذهب والفضة على شكل الامواس وفي رجليه حذاء من السختيان الاسلامبولي الاصفر او الاحمر وعلى جنبه الأيسر سيف محدّب محلى بالذهب .

جلوس السلطان : وكان جلوسه في « التيرمه » على عنكريب او سجادة في الارض وعن يمينه مخدّة من قطن . وفي الراكوبة « كالا » على دكة عالية من الطين مفروشة بالسجاد . واذا جلس على « الككر » او كرسي السلطنة لمبايعة الناس له حمل في يده اليمنى صولجاناً وهو عصا طويلة ملبسة بالفضة المحلاّة بالذهب وفي يده اليسرى سيف مستقيم وعلى جنبه الأيسر سيف محدّب فيبايعه اهل الحل والعقد ليلاً وفي الصباح يبايعه العامة وهذه هي صورة المبايعة : « بايعتك على السمع والطاعة الامر أمرك والنهي نهيك على السنة والكتاب .

مقابلة السلطان : وكان القاصدون باب السلطان يأتون باب الراكوبة « كالا » ويستأذنون في الدخول عليه فإما ان يدعوهم الى التيرمه او يخرج فيقابلهم في الراكوبة « كالا » وكان الداخل عليه يخلع نعليه وطاقيته وسلاحه خارج الباب ويتقدم حتى يكون على عشرين متراً منه فيلقي بنفسه الى الارض ويحبو على الركب والأيدي كالسلحفاة الى ان يكون على بُعد اربعة امتار منه فيقف جاثياً على ركبتيه منكس الرأس ويدعو للسلطان وهو يمهد الارض بكفيه يميناً وشمالاً ويقول : « أطال الله بقاءك وسترك الله ونصرك على أعدائك ولا أراك سوءاً ولا مكروهاً أبد الدهر » ثم يشرع في الكلام الذي جاء لأجله . وكل من دخل على السلطان ولو انه أخوه لزمه مثل ذلك الا العلماء وملوك الفراتيت فان لكل فريق منهم آداب خاصة .

اما العلماء فان الداخل منهم على السلطان يحني رأسه الى ان يكون على اربعة امتار منه فيجلس على الارض جلسة المصلي ثم يرفع كفيه فيرفع السلطان

كفيه ايضاً ويقرآن الفاتحة معاً ثم يأخذ العالم في الدعاء للسلطان وهو يصفق بكفيه والسلطان يؤمّن على دعائه الى ان يتم الدعاء . وأما ملوك الفراتيت فالداخل منهم على السلطان يلقي بنفسه الى الارض وهو على ٢٠ متراً ثم يدنو منه متدحرجاً كأنه جذع شجرة حتى يصير على اربعة امتار منه فيستوي جالساً ويدعو للسلطان وهو يصفق بكفيه ثم يشرع في الكلام الذي جاء لأجله .

ركوب السلطان الى الجامع : وكان في الفاشر جامع فخيم على نحو فرسخ من منزل السلطان والسلطان يخرج اليه بموكب حافل كل يوم جمعة لأداء صلاة الظهر فكان الفرسان يجتمعون عند باب الزريبة صفوفاً عن جانبي الطريق وأمامهم المشاة حاملين النبابيت ينتظرون خروج السلطان من منزله . وقبل الظهر بساعتين يركب السلطان جواداً مزركش العدة عند باب التيرمه فترفع الامباية صوتها اشعاراً للعساكر بأن السلطان قد ركب فيتهيؤون لاستقباله . ثم يخرج اليهم وأمامه العساكر الحاملة الاسلحة النارية مشاةً ومن ورائه الخصيان راكبين الخيول وبينه وبين الخصيان بعض الجياد بسروج الرهط كاملة العدة يقودها السياس خلفهم صفاً واحداً وعن جانبي السلطان نفر من المشاة يتناوبون حمل مظلة واسعة تظلله وتظلل جواده وهي مصنوعة من نسيج متين مطرز بالقصب ومبطنة بأطلس مختلف الالوان كل شقة بلون تتدلى من أطرافها شراريب قصب ولها يد طويلة من خشب متين مغشاة بنسيج ملون كل شبر بلون . وعند خروج السلطان من الزريبة يحييه الفرسان بهزّ سيوفهم فوق رؤوسهم فيرد تحيتهم بهزّ سبحة او سوط او منديل في يده . ويسير في موكبه هذا حتى يصل الجامع فيقف الموكب خارج السور ويدخل السلطان الى غرفة معدّة له عند باب السور فيخلع ثياب الملك ويلبس لباس الصلاة وهو جبة بيضاء وعلى رأسه عمامة بيضاء فوق مكاوية من الحرير يغطيها ثوب من الشاش الابيض الرقيق على هيئة الخطيب ثم يقف للصلاة في غرفة خاصة به لها نافذة تشرف على الإمام وبعد انتهاء الصلاة يرجع الى الغرفة التي عند باب السور فيخلع لباس الصلاة ويلبس لباس الملك ويعود بالموكب الى منزله .

جيش السلطنة : هذا ولم يكن عند سلاطين الفور جيش منظم حتى كفّ بصر السلطان حسين فنظم جيشاً من عبيده وسلّحهم بالبنـادق المعروفة بأبي روحين وجعل عليهم عبداً يُقال له « خير قريب » قومنداناً وبقي هذا الجيش الى زمن السلطان ابراهيم فحارب به الزبير باشا على ما تقـدم . وكان سلاطين الفور الذين تقـدموا السلطان حسيناً اذا أرادوا جمع الرجال للحرب أصدروا أمرهم الى المقاديم فبعث هؤلاء بالامر الى الشراتي ومشايخ البادية فجمعوا عدداً معلوماً من الرجال على نسبة عدد بلادهم حتى اذا مـــا اجتمع العدد المطلوب ساقهم المقاديم بأنفسهم الى ساحة الحرب .

تجليد النحاس : وكان سلاطين الفور يجلدون النحاس « المنصورة » الذي غنموه من العابدلاب مرة في كل سنة ويحتفلون بتجليده احتفالاً عظيماً يجتمع اليه موظفو البلاد وأعيانهـا فيأتون بثور وخروف أبلـقين ينتقونها من قطيع يربونه في جبل مرّة لهذه الغاية ويذبحونها ويجلدون بجلديها النحاس المذكور .

اختبار أولاد السلاطين : ثم يأخذون فخذاً من الثور وفخذاً من الخروف ويتركونها حتى ينتنـا ثم يطبخونها بشطة وملح كثير ويضعونها في قدح في غرفة منفردة ثم يؤتى بأولاد السلاطين فيدخلون واحداً واحداً الى قدح الطعام الذي يحيط به الحرس من عبيد السلطان وبيد كلٍّ منهم نبّوت كبير وكلمـا دخل واحد أكل لقمة من الطعام فاذا لم يسعل من شدة نتـانة اللحم وكثرة بهاراته لم يتعرض له احد بسوء بل سألوه ان يغسل يديه وينصرف واذا سعل اتهم بأنه خائن متعمّد الغدر وأرسل في الحـال الى جبل مرة حيث يبقى في السجن الى ان يُعفى عنه او يتولى سلطان آخر فيخرجه من سجنه .

كسر الضلع : ويأخذون ضلعاً من أضلاع الثور ويحكونها حتى تصير رخصة جداً قابلة للكسر فيأتي السلطان الى بيت النحاس بموكب خـاص ماشياً على على قدميه ووراءه كبيرة اخواته ومن ورائهـــا جمهور من الجواري اللابسات أبهى الحلي والحلل ومن خلفهنّ وعن جانبيهنّ الخصيان حاملين السياط والسلطان

نفسه مكموم بقطعة شاش يمسك طرفيها من خلفه كبير أمنائه ويمشي الهوينا حتى يصل مكان النحاس فيأخذ الضلع التي أُعدت له ويضرب بها النحاس فاذا انكسرت عدّوا انكسارها نصراً وسلاماً وزغرد النساء وضُرب النحاس وإلا أوجس الكل شراً وخافوا سوء المصير :

العرضة وموكب السلطان : وبعد كسر الضلع يخرج منادٍ من قِبل السلطان للاستعداد للعرضة فيجتمع الكل مشاة وفرساناً حلقة كبيرة في ساحة السوق امام منزل السلطان ثم يخرج ملك النحاس بجنده محيطاً بنحاسات الفور السبع محمولة على سبعة جمال وفي مقدمتها « المنصورة » التي غنموها من العابدلاب ثم « البيضاء » التي غنموها من آدم سلطان ودّاي ثم نحاسات فور الخمس القديمة فيخترق الحلقة بموكبه حتى ينصّفها فيقف متجهاً نحو الشرق. ثم يأتي السلطان بموكبه الخاص وهو راكب جواده ويقف مقابل ملك النحاس متجهاً نحو الغرب وبينهما فسحة كافيـــة لعرض الجيش . وموكب السلطان الخاص مؤلف من أولاده ووزرائه وأخته الكبرى والعلماء والقضاة فتقف اخته وراءه راكبـة جواداً ومن ورائهـــا الجواري حاملات أباريق النحاس بلا ماء وبينها وبين السلطان حمَلة الحراب المكسوة بالجوخ الملون ويقف أولاد السلطان عن يمينـه ووزراؤه عن شماله ويقف امام صفّي الوزراء والأمراء صفان من العلمـــاء والقضـــاة وتُرفع فوق رأس السلطان مظلة واسعة جداً تظلله وجواده ومن ورائه رجلان حاملان مروحتين كبيرتين يزين حواشيهما ريش النعـام لحجب الشمس عن ظهره . وعن كلٍّ من جانبيه مروحة يحملها رجل يروّح بها عليه. ثم يبدأ الاستعراض فيخرج النـاس من الحلقة فرقاً كل فرقة يتقدمها رئيسها راكباً على جواده فيحيي السلطان بهز سيفه فوق رأسه فيرد السلطان التحيـة بهز سوطه ثم يرجع هذا الرئيس برجاله الى مكانه من الحلقـة فيعرض الرئيس الذي يليه وهكذا الى تمام الحلقة . ثم يتقـــدم السلطان وحده الى النحاس ويدور حول الجمال التي تحمله فيهز السيف فوق كل نحاس ثم يدور من داخل الحلقة لرؤية الجنـد ويعود الى موكبه فتستقبله اخته وجواريها بالزراغيت ثم

يأمر فينصرف النحاس ثم يتبعهم بموكبه الى ان يدخل منزله فيتفرق الجنود الى منازلهم. وبعد ايام يُنادى الى مثل هذه العرضة وهكذا الى سبع عرضات ثم ينصرف كلٌّ الى بلاده . وأما في زمن الحرب فيسير الجيش على الترتيب الذي مرّ ذكره في الكلام عن السلطان تيراب . وكانت عادة سلاطين الفور ان يضربوا النحاس في يومي الاثنين والخميس في الصباح والمساء .

العلم : وكان في دارفور مساجد جمة في كل بلدة مسجد او اكثر يُعلَّم بها الكتابة والقرآن وكان لكل عالم مسجد قرب منزله يصلي به الصلوات الخمس وفي لصقه خلوات للمجاورين يعلم بها العلوم الشرعية وله « حاكورة » هبة من السلطان يعيش هو وتلامذته من ريعها . وكان بعضهم يجيء الى مصر لتلقّي العلوم في الازهر ولهم فيه رواق معروف برواق دارفور الى اليوم .

الجوامع : اما الجوامع فكان لهم في كل بلدة شهيرة جامع إلا الفاشر ففيها جامعان جامع بناه السلطان عبد الرحمن عند بنائه الفاشر فحسّنه السلاطين الذين خلفوه وهو في القسم الشمالي من البلدة مسيرة ساعة من بيت السلطان . وجامع بنته اخت السلطان حسين في القسم الجنوبي من الفاشر . وكوبي ففيها ايضاً جامعان جامع القاضي احمد ود طاها من اهل كوبي وجامع الفقيه سعد العالم من اهل الخبير علي .

الزراعة والصناعة : وأهم زراعة دارفور الدخن يزرع على المطر . وفيها من أرباب الصنائع الحدادون والنجارون والحاكة والدباغون لقضاء حاجاتها كما في بلاد سنار .

التجارة : وكان لها تجارة مهمة مع كردوفان وبحر الغزال وودّاي ومصر وكان يرد منها الى مصر من ١٠ : ١٥ الف جمل تحمل الرقيق والسن والريش والصمغ والتمر الهندي والنحاس والنطرون وحبة العين والجلود والأقداح الخشبية والأطباق والعسل فتعود الى دارفور ومعها من الانسجة القطنية

والحريرية الدبلان والشيت والخام والجوخ والاطلس والملايات الحجازية والبنادق والسيوف والسروج وأنواع الحلى الذهبية والفضة والمرجان والسوميت وغيره من أنواع الخرز المطلوب عندهم .

وكانت العملة الرائجة قطع مختلفة من الدمور ثم راج بعد الفتح المصري للسودان المقاطع المصرية من الخام المصبوغ المار ذكرها وراج في كردوفان ايضاً قطع دقيقة من الحديد على أشباه المسامير الكبيرة تسمى الحشاشات .

الامير علي دينار : هذا ما تيسر لي استقصاؤه عن حال سلطنة الفور القديمة قبل دخولها في حوزة مصر تلقيت أكثره عن الشيخ الطيب محمدين المارّ ذكره. ويقال انها الآن تسير على مثال هذا النمط في عهد أميرها الحالي الامير علي دينار ابن الامير زكريا ابن السلطان محمد الفضل الذي يحكمها على جزية سنوية يدفعها لحكومة السودان كما أشرنا آنفاً .

منشور السلطان ابراهيم عند تولّيه الملك : وقد عثرتُ على كتاب أرسله السلطان ابراهيم آخر سلاطين الفور الى الجهات يذيع فيه نعيَ ابيه السلطان حسين وتوليه الملك بعده وهو :

نقش خاتمه في أعلى الكتاب :

ملك أمير المؤمنين السلطان ابراهيم ، ابن السلطان حسين ، ابن السلطان محمد الفضل ، ابن السلطان عبد الرحمن الرشيد ، ابن السلطان احمد بكر ، ابن السلطان موسى ، ابن السلطان سليمان صاحب البر والاحسان . يوم الاحد اثنين وعشرين صفر الخير سنة ١٢٩٠ هـ .

صورة الكتاب :

من حضرة من أنار به البلاد وأزال به الفساد سيدنا ومولانا السلطان ابراهيم المعتصم بالله تعالى آمين . الى حضرة محمود والامام احمد طه وكافة

الجلابة تجار كوبي وحواليها . اما بعـد فالذي نعرفكم به آجرنا الله وإياكم في مصيبة سيدكم والدنا المرحوم السلطان محمد الحسين توفي الى رحمة الله وأنا توليت الملك بضحى الاحد اثنين وعشرين من شهر صفر سنة ١٢٩٠هـ تعلموا به وربنا يلزمنا وإياكم الصبر الجميل .

البابُ السّادس

في

تاريخ الفتح المصري للسودان

«منذ فتح سنار الى قيام الثورة المهدية في السودان
سنة ١٢٣٦ : ١٢٩٨هـ — ١٨٢١ : ١٨٨١م»

الفصل الاول

في

حملة اسماعيل باشا على سنار

سنة ١٨٢٠ : ١٨٢٣ م

وفيها فتح دنقلة وبربر والخرطوم وسنار وفازوغلي

أسباب الفتح : تقدم لنا ذكر الفوضى التي صارت اليها مملكة سنار بشقاق ملوكها بعضهم لبعض واستفحال وزراء الهمج الذين استأثروا بالسلطة وخلعوا سلطة الفونج . وكانت مصر في هذه الأثناء قد آلت الى البطل العظيم المغفور له محمد علي باشا مؤسس العائلة الخديوية الفخيمة فبلغه خبر سنار من التجار المصريين المترددين اليها . وجاءه الملك نصر الدين ملك الميرفاب ببربر فشرح له حال سنار وما صارت اليه من الضعف والانحلال وهوّن عليه أمر افتتاحها. وجاءه ايضاً رجل من عائلة الزبير المالكة في ارقو وأخبره بحال دنقلة وعيث المماليك فيها . وكان محمد علي باشا يودّ افتتاح سنار والاستيلاء عليها لأسباب جمة منها :

اولاً : الاستيلاء على مناجم الذهب في سنار التي طبقت شهرتها الآفاق وكثرت فيها الأقاويل والقصص الموضوعة ولا سيما في مدينة القاهرة .

ثانياً : امداد جيشه برجال من السود الذين اشتهروا منـــذ ايام الفراعنة بصلاحيتهم للجندية وشدة بأسهم في الحروب .

ثالثاً : استئصال شأفة المماليك الذين بقيت منهم بقية في دنقلة كما مرّ .

رابعاً : توسيع ابواب الرزق لأنصاره الاتراك والارناؤط والمغـاربة الذين قهر بهم المماليك في مصر والوهابية في بلاد العرب خصوصاً وقد اصبحوا بعد حرب الوهابية مصدر تعب له لأنه أراد ان ينظم جنده على مثال جند بونابارت فلم يوافقوه على ذلك واعتبروا عمله بدعة ولم يرد قهرهم لأنهم هم الذين شدّوا ازره وساعدوه على تثبيت قدمه في مصر فأراد ان يرسل بهم الى سنار ليستريح من أتعابهم من جهة وينال بهم مطمعه بالفتح من جهة اخرى .

خامساً : اكتشاف منابع النيل لنفع العلم والزراعة المصرية .

سادساً : توسيع نطاق التجارة المصرية والانتفاع بموارد التجارة السودانية. وكانت علائق السودان بمصر في ذلك الحين ضعيفة جداً اذ لم يكن يقصده من التجار إلا المخاطرون من اهل الصعيـد من طرق دراو واسوان وكورسكو وكانوا في خطر دائم هم وأموالهم لأنه فضلاً عن مشقّة هذه الطرق وأخطارها الطبيعية كان الخبراء يحكمون بهم بحسب أهوائهم فربمـا أوصلوهم الى نصف الطريق وطلبوا حلواناً فوق الاجرة المتفق عليهـا فاذا لم يدفعوا لهم الحلوان تركوهم ليضلوا او يموتوا جوعاً او عطشاً . وكان التجار اذا وصلوا بلاد النيل سالمين نزلوا في حمى ملك من ملوك البلاد او شيخ من مشايخها وعرضوا عليه بضاعتهم فاذا أعجبته وكان طالعهم سعيـداً رضي المضيف عنهم وعوضهم من تجارتهم شيئاً من الذهب وسن الفيل وريش النعـام وإلا استصدر تجارتهم وطردهم من بلاده او أمر بسجنهم وتعذيبهم .

فلهذه الاسباب كلها وبالنظر لما طبع عليه محمد علي باشا من حب الحرب والفتوح وشدة الرغبة في توسيع نطاق بلاده أقرّ على اغتنام الفرصة والاقدام على فتح سنار .

وفد محمد علي باشا الى سنار : وتمهيـداً لذلك أرسل سنة ١٨١٢ م وفداً الى ملك سنار وقصده في الظاهر تحريض الملك على طرد المماليك الذين لجأوا اليه من مصر وفي الباطن الاستطلاع على أحوال بلاده ومـا يلزم من الجيوش لفتحها . وقد ارسل اليه هدايا فاخرة قُدّرت قيمتها بنحو ٤ آلاف ريال من شالات كشمير وأنسجة حريرية وأسلحة ونحوها. فأرسل اليه ملك سنار اربع جوارٍ وبضعة جلود نمر وقط زباد وقردين وأسداً صغيراً (مات في الطريق) وكلها لا تساوي في سنار ثمانين ريالاً . فلم يُسرّ محمد علي بالهدية ولكنه سُرّ بتقرير الوفد الذي قوّى عزمه على فتح سنار .

اكتشاف الصحراء الشرقية : وفي أثناء ذلك ارسل الموسيو فردريك كايو العالم الفرنساوي الشهير الى الصحراء الشرقية لاكتشاف معادن الزمرّد والذهب التي دلّت التواريخ العربية على وجودها فيها فقـام الموسيو كايو من الرديسية من اعمال اسنا في ٢ نوفمبر سنة ١٨١٦ م وبعد مسيرة ستة ايام وصل الى جبل زبارة فوجد فيه كهوفاً قديمة وحفـائر ودهاليز وآلات شتى وآثاراً تدل على استخراج المعادن من هذا الجبل وعلى انقطاع العمل فيه فجأة فالتقط من هناك بعض قطع الزمرد فقويت بها آمال محمـد علي فبعث به ثانياً الى ذلك الجبل وأصحبه نفراً من الاروام والارناؤط فقام من القاهرة في ٢ نوفمبر سنة ١٨١٧م وعاد بعد قليل بلا فائدة ولكنه فصّل جغرافية تلك البلاد وأخبـار سكانها العبابدة وقد عثر على أطلال مدينـــة خاوية على عروشها وعين موقع مدينة بيرنيس القديمة المعروفة الآن برأس بناس .

الحملة على سنار : ولما أتمّ محمد علي باشا استعداداته جهز جيشاً مؤلفاً من ٤ آلاف مقاتل وعقد لواءه لابنه اسماعيل باشا وأمره بفتح سنار وهذا تفصيل الجيش : ١٢٠٠ فارس من الاتراك والارناؤط والمغاربة بقيـادة عابدين بك والحـاج عمر وعمر كاشف مع كل منهم ٤٠٠ فارس . و ٤٠٠ فارس و ٨٠٠ راجل من البدو والمغـاربة . و ٦٠٠ راجل من الاتراك و ٣٠٠ راجل من

الطوبجية ومعهم ٢٤ مدفعاً نمرة ٤ بقيادة محمد أغا . و٧٠٠ راجل من العبابدة بقيادة خليل وداود كاشف انضموا اليه في اسوان . وصحب الجيش نحو ألفي نفر من التبّع منهم ٢٠ مملوكاً حرس اسماعيل باشا الخصوصي مع ٣٠٠٠ جمل و ٣٠٠٠ مركب لحمل الزاد والمؤونة والذخائر . وصحب الجيش ايضاً ثلاثة من نخبة العلماء وهم : القاضي محمد الاسيوطي الحنفي والسيد احمد البقلي الشافعي والشيخ السلاوي المغربي المالكي ووهب كلا منهم خلعة سنية و ١٥ كيساً وأوصاهم ان يحثوا اهل البلاد على الطاعة بلا حرب بحجة انهم مسلمون وان الخضوع لجلالة السلطان امير المؤمنين وخليفة رسول المسلمين واجب ديني.

فتح دنقلة سنة ١٢٣٥ ﻫ ١٨٢٠ م :

وسار الجيش من القاهرة بالبر الغربي والنيل في أوائل يوليو سنة ١٨٢٠ م ولحق به اسماعيل باشا مع اركان حربه في ٢٠ يوليو سنة ١٨٢٠ فأدركه في اسوان فأقاموا هناك برهة ريثما اجتازت المراكب الشلال الاول .

ثم دخلوا بلاد النوبة وكان الحاكم عليها في الدرّ حسين كاشف فجمع رجاله بقصد مقاومة اسماعيل باشا فلم يوافقه اخوه حسن على ذلك ففرّ بعبيده الى كردوفان فولـّى اسماعيل باشا حسناً على البلاد التي بين اسوان وحلفا وتقدم الى حلفا فأقام فيها نحو ٢٠ يوماً حتى اجتازت المراكب الشلال الثاني .

ثم استطرد السير جنوباً في بلاد سكوت وكان فيها الكاشف حسن وردي متحصناً في قلعة جزيرة ساي ومعه بضع مئة رجل من العبيد والاعوان مسلحين بالبنادق وبعض المدافع فجاء الى اسماعيل باشا مسلماً فأقرّه في مركزه ولكنه ما لبث ان عصي الناظر الذي أقيم في سكوت من قِبل اسماعيل باشا وقتل بعض رجاله فأرسلت الحكومة المصرية عسكراً فحصروه في القلعة ثم لغموا القلعة بالبارود وقتلوه وشتتوا شمل رجاله ومن ذلك الوقت هدأت البلاد ولم يعد يُسمع فيها صوت حرب حتى كانت المهدية سنة ١٨٨٥ م كما سيجيء .

وتقدم اسماعيل باشا الى المحس فتلقاه حاكمها الملك صبير في دلقو طائعاً فأمّنه وأقرّه في مكانه . ثم تقدم الى ارقو فوجد فيها الملك طنبلا من عائلة الزبير حاكماً فأمّنه وثبّته على كرسيه .

وكان في مرّاغة الى جنوبي ارقو ثمانون رجلا من المماليك فأتاه عشرون منهم مسلمين وفرّ الباقون الى شندي فسلموا هناك .

واقعة الشايقية في ٤ نوفمبر سنة ١٨٢٠ : وسار اسماعيل باشا في دنقلة لا يعارضه معارض بل كان ملوك البلاد ومشايخها يتلقونه بالطاعة والامتثال وهو يؤمنهم ويقرّهم على أماكنهم الى ان دخل بلاد الشايقية فرآهم قد تجمعوا لقتاله في كورتي مشاة وركباناً . وكان على الشايقية اذ ذاك ثلاثة ملوك : الملك صبّير كبير الحنّيكاب وحدّه بين العفاض وحنّك ومركزه حنك حيث ابتنى له قلعة متينة من الحجارة وجعل فيها المزاغل ، والملك جاويش كبير العادلاناب وحدّه من حنك الى مروى ومركزه مروى وله قلعة حصينة في كجبي ، والملك عمر كبير العمراب وحدّه من مروى الى بلاد المناصير وأكبرهم الملك جاويش . ولم يكن مع اسماعيل باشا اذ ذاك الا فرقتان من الفرسان فيها ٨٠٠ فارس مسلحين بالبنادق وهما فرقتا عابدين بك وعمر بك لأن المراكب تأخرت في الشلالات فتأخر الجيش معها ولم تكن هذه القوّة كافية لأن تكفل له النصر ولكنه لم يعد يمكنه الرجوع فأرسل للشايقية رسلا يدعوهم الى الطاعة ويقول ما مفاده : « ان أبي يرغب اليكم ان تسلموا سلاحكم وخيولكم وتتركوا الحرب وتؤدوا الجزية » فأجابه الشايقية : « اما الجزية فنؤديها بلا حرب وأما خيولنا وسلاحنا فما نسلمها الا بالحرب لعلنا نفوز وتبقى لنا » فأقرّ اسماعيل باشا اذ ذاك على حربهم وأرسل مئة فارس لكشف خبرهم فأحاط فرسان الشايقية بهم إحاطة السوار بالمعصم وانقضّوا عليهم انقضاض النسور فقتلوا منهم ٧٥ رجلا وأفلت الباقون وفيهم عشرون جريحاً الى اسماعيل باشا فلما رآهم طار صوابه ولم يعد له صبر حتى يأتيه المدد من الوراء . ففي عصر ٤ نوفمبر سنة ١٨٢٠ قاد فرسانه وقصد الشايقية فوجدهم قد تجمعوا في

حلة قرب كورتي تعرف بأم بقر وفيهم نحو الف فارس و ٢٥٠٠ راجل بينهم بعض النوبة الذين أرغموا على الانضمام اليهم وكلهم مسلحون بالسيوف والحراب إلا رؤوسهم فانهم كانوا متدرعين ومتسلحين بالبنادق والسيوف والدرق .

وكان في جيش الشايقية مهيرة بنت الشيخ عبود شيخ بادية السواراب فلما رأت جيش اسماعيل باشا مقبلاً امتطت هجينها وصاحت بقومها : « هيا بنا للدفاع عن استقلالنا وبلادنا » ثم زجرت هجينها ودفعته في وجه عساكر الامير فكرّ الشايقية وراءها بقلب واحد مستقتلين فتلقاهم العساكر بنار حامية وجرى قتال شديد حارب فيه الفريقان حرب الابطال مدة ٣ ساعات متوالية ولكن دارت الدائرة على الشايقية فكان مشاتهم يقتحمون النيران وهم يظنون انها لا تضرّ بهم لأنهم لبسوا الأحجبة فقتل منهم ٨٠٠ رجل وأما فرسانهم فقد أنجتهم ظلمة الليل فلم يقتل منهم سوى ١٥ فارساً . وأما عساكر الامير فقد قتل منهم ٣٠ رجلاً وجرح اثنان . وبعد الواقعة وزع اسماعيل باشا منشوراً في البلاد مآله ان كل من يأتي مسلماً يسلم ومن لم يأتِ يعد عدواً ويحرق بيته ثم تقدم الى كورتي فأحرقها ونزل فيها ينتظر المدد فأتاه مئتا رجل من مشاته وفرسانه ومعها مدفعان وكان الشايقية قد اجتازوا النيل الى البر الشرقي وتحصنوا في طابيتي حنتك وكجبي فاجتاز اسماعيل باشا النيل وطردهم منها فالتجأوا الى قلعة حصينة في جبل الدقر فتتبعهم اليها ورماهم بقنابل المدافع فخرجوا منها منهزمين فتبعهم فرسانه قتلاً وأسراً قيل وكانوا كلما أسروا رجلاً قطعوا اذنيه تشويهاً له وأسروا بنتاً للملك صبير تسمى صفيّة فأكرمها اسماعيل باشا وردّها الى أبيها فلما رأى منه هذه المكرمة أتاه مسلماً طائعاً وسلم بعده الملك عمر اما الملك جاويش ففرّ بمئتي رجل الى المتمة فسلم هناك .

فتح بربر سنة ١٢٣٦ هـ ١٨٢١ م :

وبقي اسماعيل باشا في كورتي الى ان تكامل جيشه ودبّر ما يلزمه من

الجمال للنقل فقام في ٢١ فبراير سنة ١٨٢١ الى كربكان وهناك قسم جيشه الى ثلاث فرق فذهبت فرقة بالمراكب وفرقة بالبر مقابلها حماية لها وكان بين المراكب ١٢٠ مركباً لا يمكن عبورها لكبر حجمها فأبقاها في كورتي بحماية بعض العساكر المغاربة وسار هو بالفرقة الثالثة وهم السواري والطوبجية بطريق الصحراء فوصل النيل عند الباقير في ٢٨ فبراير سنة ١٨٢١ م ولم ينتظر الفرقتين الأخريين بل استطرد السير جنوباً فوصل القبش تجاه بربر في ٥ مارس سنة ١٨٢١ فقابله ملكها نصر الدين ملك الميرفاب المار ذكره بالترحاب وهنأه بالنصر على الشايقية فأقره على بربر وأرجع عابدين بك ببعض العساكر الى دنقلة ليحكمها ويعجل في ترحيل المؤن والذخائر . وفي ٢٢ مارس سنة ١٨٢١ جاءه الملك نمر ملك شندي طائعاً فأمّنه وكساه وأقرّه على بلاده . وجاءه الكبابيش والحسانية والبشاريين من اهل البادية مقدمين الطاعة فسألهم تقديم الجمال للحملة ولما لم يجيبوه ارسل عساكره فأخذوا الجمال منهم بالقوة. ثم سار الى المتمة فوصلها في ٩ مايو سنة ١٨٢١ فأتاه الملك مساعد مسلماً . وفي ١٥ من الشهر المذكور أتاه الملك جاويش مسلماً مع المئتي رجل الذين فرّ بهم من دار الشايقية وطلب اليه ان يرافقه برجاله الى سنار فقبله اسماعيل باشا وكساه وعينه على ١٤٠ من رجاله وعين كلاً من الشيخ الازيرق والشيخ عبود شيخ بادية السوارب على خمسين رجلاً وربط لهم مرتبات معينة . وكان هذا اول دخول الشايقية الباشبوزق في جيش الحكومة المصرية بالسودان وقد بقوا فيه الى قيام الثورة المهدية كما سيجيء . وفي اليوم الذي سلم به الملك جاويش سار اسماعيل باشا بالجيش والشايقية وملكي السعداب الملك نمر والملك مساعد حتى وصل تجاه الحلفاية في ٢٥ مايو سنة ١٨٢١ فقابله الشيخ ناصر ود الامين كبير العابدلاب مقدماً له الطاعة فأمّنه وكساه كسوة فاخرة وتركه في بلده لأنه كان منحرف الصحة وأخذ ابنه الامين رهينة وتقدم بالجيش الى ام درمان .

فتح الخرطوم سنة ١٢٣٦ ه ١٨٢١ م :

وفي ٢٨ مايو سنة ١٨٢١ شرع العساكر في اجتياز النيل الى الخرطوم ولم يكن لديهم إلا مراكب قليلة فبقوا في ذلك ثلاثة أيام وقد اجتاز الكثير منهم النيل سباحة ماسكين بأذناب الخيل وكان جملة الجيش الذي اجتاز من ام درمان ٥٥٠٠ رجل و ٣٠٠٠ جمل وجواد فغرق منهم ٣٠ رجلا و ١٥٠ جملا وجواداً . وفي الخرطوم قابله الفقيه محمد علي خليفة الفقيه الارباب فأمّنه وأكرمه .

فتح سنار سنة ١٢٣٦ ه ١٨٢١ م :

وقام من الخرطوم في ١ يونيو سنة ١٨٢١ قاصداً سنار وعليها اذ ذاك الملك بادي من الفونج أما القوة والسلطة فكانتا بيد وزيره محمد عدلان من الهمج كما مرّ .

وكان اسماعيل باشا عند وصوله الى المتممة أرسل الى الملك بادي كتاباً يدعوه الى الطاعة فكتب اليه محمدعدلان في الجواب كتاباً مشهوراً يحفظ أهل سنار منه الى اليوم هذه الجملة التي مرّ شبهها في كتاب السلطان محمد الفضل الى محمد علي باشا وهي : « لا يغرّنك انتصارك على الجعليين والشايقية فنحن الملوك وهم الرعية . أما بلغك ان سنار محروسه محمية بصوارم قواطع هندية وخيول جرد أدهمية ورجال صابرين على القتال بكرة وعشية » . وقال الرسل ان عند ملك سنار من ٨ آلاف الى ١٠ آلاف مقاتل ما عدا سبعة مدافع من الطراز القديم نمرة ٤ ونمرة ٦ أتى بها المماليك من مصر .

وكان محمد عدلان فارساً مقداماً ذا عزم وتدبير ولو بقي حياً لأتعب اسماعيل باشا ولم يمكّنه من سنار بالسهل ولكن من سعد اسماعيل باشا حدث ما ذهب بحياة محمد عدلان قبل وصوله الى سنار بأيام قليلة وذلك ان محمد عدلان لما سمع بحملة اسماعيل باشا على سنار أخذ في جمع الاهبة لصدّه ومحاربته .

وكان من عادة ملوك سنار في حفظ الجيوش ان يخصصوا لكل رئيس من رؤساء الجيش أراضي او اقطاعات يكون منها معاشه ومعاش عساكره ولم يكن لهم مرتبات معينة من الملك ففرّق محمد عدلان رؤساء جنوده على الاقطاعات وأمرهم بجمع الغلال والتهيؤ للقتال ولم يبقَ معه إلا الارباب دفع الله ود احمد وقليل من العساكر . وكان لحسن ود رجب ثأر على محمد عدلان لقتله أخاه محمد رجب سابع وزراء الهمج كما رأيت في تاريخ سنار فاغتنم هذه الفرصة وأوعز الى اثنين من رجاله وهما عبد الله بخيت وادريس عقيد وجماعة من حزبه فدخلوا على محمد عدلان في منزله ليلا فخرج عليهم وحاربهم بنفسه راجلا حرباً شديدة حتى كسرهم ثلاث مرات ولكنهم تغلبوا عليه أخيراً بكثرة العدد فقتلوه وقطعوه ارباً ودفنوه في منزله وكان ذلك في أواخر مايو سنة ١٨٢١م فهاج حزب محمدعدلان فاجتمعوا في ١ يونيو سنة ١٨٢١ وحاربوا حسن رجب في حلة قندال على ٣ ساعات جنوبي سنار فكان النصر لحسن ود رجب ولكن هذا النصر لم يضمن له الملك فلما سمع ان جيش اسماعيل اجتاز البحر الابيض فرّ من سنار بثلاثمائة رجل وبينهم قاتلا عدلان ولجأ الى جبال فرنيس في حدود الحبشه .

أما اسماعيل باشا فانه زحف بجيشه حتى وصل ود مدني فقابله رجب ود عدلان والارباب دفع الله احمد بالطاعة فأمّنهما وأخذهما معه. ولما قرب من سنار خرج اليه ملكها الملك بادي طائعاً وقدم له اربعة رؤوس من جياد الحبشة فكساه كسوة فاخرة وهي جبة شرف وشالا كشمير وسيف وطبنجات وجوادان مكسوّان احسن كسوه وقرّره ملكاً على أهله وأجرى له ولعائلته مرتباً من الدراهم والحبوب بقوا يتناولونه الى قيام الثورة المهدية في السودان . ودخل اسماعيل باشا سنار بالأبهة العسكرية في ١٢ يونيو سنة ١٨٢١ م فأطلق ٢١ مدفعاً احتفالاً بذلك . وهناك قابله العلماء والاعيان وفي جملتهم الشيخ ضرار شيخ خشم البحر فتلقاهم بالبشر والإيناس وأجزل لهم العطاء ثم أمر المنادي فنادى في الناس بأن جميع القضايا التي سبقت دخوله سنار تعد ملغاة

لا يسمع فيها شكوى وانما ينظر في القضايا التي تحدث بعد الفتح .

وكان اول ما اهتم به بعد فتح سنار القبض على حسن ود رجب في جبل فرنيس فجهز عليه الملك جاويش ورجاله الشايقية و ٤٠٠ فارس من المغاربة بقيادة ديوان افندي فتسلقوا الجبل المذكور وأسروه وأسروا معه قاتلي ود عدلان بعد ان نكّلوا برجاله وعادوا الى اسماعيل باشا في سنار فأمر بسجن حسن ود رجب وسلّم قاتلي عدلان الى ابنيه ادريس ورجب ليقتلاهما بثأر أبيهما ففوّضا أمر قتلهما اليه فأمر برفعهما على خازوق فراعهما القتل على هذه الصورة وطلبا سيفاً يقتلان به نفسيهما فلم يُسمع لهما . ولما قدما للقتل أظهر احدهما ادريس ود عقيد جزعاً وخوفاً فانتهره رفيقه بخيت وقال له : « تشدد ومت موت الرجال » ثم أنفذ أمر اسماعيل باشا فيهما وأشهرا في السوق يومين فكانا اول من رُفع على خازوق في بلاد سنار . اما حسن ود رجب فانه بقي مسجوناً مدة ثم أطلق سراحه برضى ابني محمد عدلان اللذين سكنا جبال الفونج فملكها اكبرهما وذريته الى هذا العهد .

وكان اسماعيل باشا لما نزل في ام درمان على ما مرّ قد كتب الى الملك ادريس المحينه ملك الجموعية يدعوه الى الطاعة فلم يجبه ثم بعد فتح سنار بلغه ان الملك المذكور أطلق يده في نهب أموال الناس فأرسل محمد سعيد افندي بجريدة من الفرسان ومعهم الشيخ رحمه ود دحالة فنزلوا عليه في منزله وقتلوه ورجعوا الى سنار وبذلك تمهدت البلاد لاسماعيل باشا من اسوان الى سنار .

وكان اول ما أجراه انه أمر بكتابة المنازل « عال ووسط ودون » ثم أحصى عدد الرقيق والماشية ولكنه لم يقرّر عليها مالاً ولم يطلب من اهل البلاد سوى العلف لخيوله . وتأخرت المراكب التي كانت تحمل الزاد للعساكر فأرسل السرايا شرقاً وغرباً لجمع الزاد فلم يجمعوا كفايتهم فاشتد الجوع وبقوا مدة لا يأكلون الا الذرة وهم ينامون على الارض ومات عدد كثير من الخيل والجمال ولم تدفن فأثر ذلك كله في صحة العساكر ففشت فيهم الحمى والديزنتاريا وأمراض شتى ولم يكن معهم الا عدد قليل من الأطباء فمات منهم خلق كثير

وقد بلغ عدد الوفيات فيهم يوم ١٦ اكتوبر سنة ١٨٢١ نحو ١٥٠٠ نفس وكان عدد المرضى مثل ذلك ولم يبقَ في الجيش كله من له قدرة على الخدمة سوى ٥٠٠ رجل فعلت شكوى العساكر وكثر تذمُّرهم فسكّن اسماعيل باشا روعهم وفي ٢٤ و٢٧ اكتوبر وصل ٢٦ مركباً من مراكب الزاد بعد ان غرق الكثير منها في الطريق فتعلّلوا بها .

وفي أثناء ذلك وصل الخبر الى محمد علي باشا بفتح سنار فأرسل ابنه ابراهيم باشا لمساعدة اسماعيل باشا على تنظيم البلاد واكتشاف منابع النيل فوصل سنار في ٢٢ اكتوبر سنة ١٨٢١م فأطلق له ٢١ مدفعاً ترحيباً به . ثم نظر الاميران في ما يفعلانه فاتفق رأيهما على ان يقسما الجيش قسمين قسماً يتولى اسماعيل باشا قيادته ويتألف من ١٥٠٠ مقاتل والملك جاويش والشيخ ضرار شيخ الكواتير فيمد فتوحاته في طريق النيل الازرق ويستطلع مناجم الذهب في بلاد شنقول وآخر يتولى ابراهيم باشا قيادته ويتألف من ١٢٠٠ مقاتل والملك بادي فيخترق جزيرة سنار الى بلاد الدنكا ثم يمدّ فتوحاته في البحر الابيض الى أعاليه . فسار ابراهيم باشا في ٥ ديسمبر سنة ١٨٢١م قاصداً بلاد الدنكا وسار اسماعيل باشا بعده بيومين قاصداً بلاد فازوغلي وبقي ديوان افندي محافظاً ببعض الجند في سنار .

اما ابراهيم باشا فانه لم يصل جبل القربين في وسط الجزيرة حتى أصيب بالديزنتاريا فعاد الى سنار ومنها الى مصر وتولى سلاحداره طوسن بك قيادة جيشه فذهب الى الدنكا ثم الى جبل تابي فأخذ منه ٢٠٠ عبد وعاد الى سنار.

فتح فازوغلي ١ يناير سنة ١٨٢٢ م :

أما اسماعيل باشا فانه سار بالبر الغربي قاصداً فازوغلي وبعث بخمسمائة من رجاله فساروا تجاهه بالبر الشرقي فقابله في الطريق رسل من الملك حسن ملك فازوغلي وقالوا ان ملكهم مسلم له فليس عليه إلا ان يحارب المجوس

وكان ذلك في ١٩ ديسمبر سنة ١٨٢١. ولما كان يوم ١ يناير سنة ١٨٢٢ وكان اسماعيل باشا على بضعة أميال من فازوغلي قابله ملكها الملك حسن ومعه مئة فارس من حرّاسه حاملين الحراب فلمـــا رأوا اسماعيل باشا ترجّلوا جميعاً وتقدم الملك حسن فسلم عليه وقدّم له جوادين من جياد الحبشة وأما حرّاسه فانتظموا في صف واحد ثم جثوا على ركبهم ونكسوا حرابهم علامة الخضوع. وضرب اسماعيل باشا على فازوغلي وجبالها جزية قدرها ألف أقة ذهب وألفا عبد ذكر .

مناجم الذهب : ولما تمّ له هذا الفتح سار بجيشه الى بني شنقول لمشاهدة مناجم الذهب وتحقيق ما سمع عنه فوصل خور «أبو» في ارض الكاميل التي فيها الذهب في ٢٠ يناير سنة ١٨٢٢ ومعه العالم الفرنساوي الموسيو كايو المار ذكره فحفر في عـدة أماكن من الخور فلم يعثر إلا على قطع صغيرة من التبر فخاب أمله وقفل راجعاً الى سنار فدخلها في ٤ فبراير سنة ١٨٢٣ م .

وكان ديوان افندي سعيد في مدة غياب اسماعيل باشا في فازوغلي قـــد فرض الضرائب على الأهلين بمساعدة المعلم حنا المباشر والارباب دفع الله احمد فجعـــل على رأس الرقيق خمسة ريالات وعلى البقرة نصف ريال وعلى الشاة والحمار ربع ريال . فثقلت هـــذه الضرائب على الناس لأنهم لم يتعودوها وفي أثناء ذلـك شاع ان اسماعيل باشا قتل في الجبال وان جنوده قـــد تشتتت فتحرك اهل البـلاد للثورة لا سيا وان أكثرهم سلموا لاسماعيل باشا خوفاً من بطشه فبلغ اسماعيل باشا خبرهم وهو في الطريق فأسرع الى سنار وهدّأ البلاد وعامل الأهلين بالحلم والعفو ولم يقتل احداً سوى ود عجيلاوي . ثم لم يرض بما فرضه ديوان افندي والمباشر من الضرائب وطلب الدفاتر ليعدّلها فوجـد ان المباشر قد أرسلها الى مصر فأرسل الشيخ سعد عبد الفتـــاح ليرجعها فلم يدركها فأمر بالرفق في تحصيل الضرائب .

ولمـا نزلت الامطار في سنار فشت الحمى في العساكر فذكر ما فعلته في معسكره سنة الفتح وذكر نصيحة الموسيوكايو له بالانتقال الى ود مدني لجودة

هوائها فانتقل بعساكره اليها وبنى فيها قشلاقاً كبيراً من الطوب لم تزل آثاره باقية الى اليوم . ومات في ود مدني بعد انتقـال العساكر اليها القاضي محمـد الاسيوطي الحنفي المتقدم الذكر والشيخ كرار العبادي ومحمود اغا القسطنطيني احد سواري المغاربة وهرب حسن ود رجب المار ذكره الى ابي شوكه .

الفصل الثاني

في

حملة الدفتردار على كردوفان

وفيها فتح الابيض سنة ١٨٢١ م

وكان محمد علي باشا بعد ان أرسل ابنه اسماعيل لفتح سنار قد جهز جيشاً آخر وعقد لواءه لصهره محمد بيك الدفتردار وأمره بفتح كردوفان وكان جيش الدفتردار مؤلفاً من اربعة آلاف مقاتل من المشاة والفرسان منهم ألف مقاتل من البدو والمغاربـــة ومعهم عشرة مدافع نمرة ٤ فسار الدفتردار الى كردوفان بطريق دنقلة وأبي قسّ . وكان على كردوفان المقدوم مسلم من قبل سلطان درافور فلما بلغه قدوم الدفتردار خرج لقتـاله من الابيّض فالتقاه في باره صباح ١٦ ابريل سنة ١٨٢١ م وحدثت واقعـة دموية قاتل فيها الفريقان قتال الابطال وكان الدفتردار والمقدوم مسلم في مقدمـة رجالها يحمسانهم على الاستهلاك في الدفاع وكان رجـــال المقدوم مسلم مسلحين بالحراب وكثيرون منهم مسلحين بالبنادق فثبتوا امام الجيش المصري طويلا واقتحموا نيرانه غير مبالين بالموت حتى انهم اخترقوا صفوفه وجرحوا كثيرين من عساكر الطوبجية فوق مدافعهم وما زالوا يكرّون ويفرون حتى قتل قائدهم مسلم قتله أحـــد

بادية الجهاب فوقع فيهم الفشل وانهزموا امام جيش الدفتردار فأوسعهم قتلا وأسراً الى ان دخل الأبيّض ومهّد البلاد . قيل وكان في جيش الفور فارس يقال له ابراهيم ود دير فدفع جواده على مدفع في قلب الجيش المصري فأدركه وقتل بعض الطوبجيـة وضرب حديد المدفع بالسيف وكان السيف من الفولاذ الجيد فظهر أثر الضربة في المدفع وبقي يحارب في وسط الجيش الى ان ُقتل . قيل انه قبل هجومه قال للذين حوله : « اني هاجم على هـذا المدفع لأضربه بسيفي فإن عشت كان قسمي وإن متُّ كان وسمي » وقد كان الثاني فان هذا المدفع ُسمّي بمدفع ود دير وبقي في الأبيّض الى ان وقع بيد الدراويش فحملوه الى ام درمان .

ولما استولى الدفتردار على كردوفان أخذ في الأهبـة للزحف على دارفور وكان على دارفور في ذلك الحين السلطان محمد الفضل فأرسل جيشاً بقيـــادة ابي الكيلك لمحاربة الدفتردار واسترجاع الابيّض منه فالتقـاه الدفتردار في « سودرة » وقهره وردّه خائبـاً كما مرّ في تاريخ الفور . وأبى الدفتردار ان يصحبه احد من الاوروبيين في جملتـه على كردوفان ليحرز الفخر كله لنفسه وكتب عدة رسائل الى القـاهرة في أحوال البلاد وحاصلاتها وتجارتها ورسم خريطة لها فجاءت ساذجة بسيطة خالية من اتقان الصناعة اللازم في أيامنا . ولنرجع الآن الى سير الحوادث في سنار .

الفصل الثالث

في

غدر الملك نمر وقتل اسماعيل باشا

سنة ١٢٣٨ هـ : ١٨٢٣ م

تقدم ان اهل سنار تحركوا للثورة مدة غيـاب اسماعيل باشا في فازوغلي وان اسماعيل باشا أسرع الى سنار فأخمد الثورة ولكن بقيت تحت رماد وما زال بعض الرؤوس يترقبون الفرص ليضرموها وكان اول من حـاول ذلك رجب ود عدلان وأخوه عليّ فأرسل اسماعيل باشا ببعض العساكر فقتلوا رجباً على فراشه وأتوا اليه بعليّ أسيراً فقتله شنقاً .

ثم بلغه ان الملك نمراً ملك السعداب في شندي متحفز للقيام فجهز بعض العساكر وأرسلها في المراكب وذهب بنفسه في شهر صفر سنة ١٢٣٨هـ اكتوبر سنة ١٨٢٣ م قاصداً شندي فوصلهـا في شهر ديسمبر من السنة المذكورة . وحال وصوله أمر بإحضار الملك نمر فتهدده قيل وضرب عليه جزية قدرها ألف اوقية ذهباً وألف جمل أصهب وألف ناقة منتجة وألف بقرة وألف شاة وألف عبد وألف جارية فأظهر تمام الامتثال وأضمر الغدر . ثم أولم وليمة فاخرة في منزله ودعا اليها اسماعيل باشا وعساكره فأكلوا وأكثروا من شرب

المريسة فسكروا وناموا فجمع الملك نمر عبيده وذوي قرباه وأخبرهم بمطاليب اسماعيل باشا وتهديده فأجمعوا على قتله هو وعساكره. ولما جنّ الليل أحاطوا المنزل بالهشيم وأشعلوا فيه النار فاحترقوا جميعاً واسماعيل باشا من الجملة قيل ان حاشية اسماعيل باشا لما التهبت النيران وقعوا عليه قصد وقايته منها فماتوا فوقه حرقاً اما هو فلم تمسه النار فمات خنقاً . وانتشر خبر هـذه الفعلة في أقطار السودان فنشط الكثير من الرؤوس للثورة وفرّ الارباب دفع الله المارّ ذكره من ود مدني ونزل في حلة عبُود فتجمعت عليه الجموع فشُغل به محمد سعيد افنـدي عن الملك نمر وأرسل سرية من الفرسان لمطاردته فخرجوا من ود مدني ليلاً وأصبحوا في عبود فوجـدوا الارباب دفع الله قد فرّ بجموعه فقتلوا الفقيه محمداً ولد عبد العليم خليفة ولد عبود وخربوا الحلة ونهبوا أموالها وعادوا الى ود مدني . امـا الارباب دفع الله فانه فرّ الى ابي شوكة واجتمع على حسن ود رجب المـار ذكره فأرسل اليهما محمد سعيد افندي سرية من عساكر الدلتلية والشايقية برئاسة مصطفى كاشف فقاتلاهما قتالاً شديداً وقُتل حسن ود رجب وعمه الشيخ حسيناً وابنه محمداً وجماعة من رجاله وغنم منهما غنائم ثمينة ورجع الى ود مدني .

وفي أثنـاء ذلك بلغ الدفتردار في كردوفان خبر اسماعيل باشا فخرج من فوره بمعظم العساكر وأتى الى المتمة فوجد أهلها قد اجتمعوا جمهوراً واحداً طالبين الأمان فأمّنهم ثم وثب عليه رجل منهم فطعنه بحربة فاشتعل غيظاً وأمر بقتلهم جميعاً ولجا بعضهم الى خلوة الفقيه احمد الريح فأمر باحراقهم فيها . ثم عبر النيل الى شندي فوجد الملك نمراً قد فرّ فأحرق المدينة وسار الى الحلفاية فوجدها خالية فأحرقها ايضاً واجتاز النيل الى جزيرة توتي فقتل فيهـا خلقاً كثيراً. ثم ذهب الى العيلفون وكان أهلها قد تجمعوا لمصادمته فأحدث فيها مجزرة عظيمة وأحرق الحلة بالنار وسبى الكثير من العبيد والاحرار . ثم توجـه الى ود مدني فبلغه هناك ان أهالي البحر الابيض قد شقوا العصا فأرسل حسين اغا الجوخدار فقتل وسبى ونزل على بيت الفقيه فضل الله من فريق النقاقير فوجد

٧٢ رجلا من الجعليين قد التجأوا اليه فقطع أيديهم وساقهم الى الاسر فمات أكثرهم. ولما تمهدت بلاد النيل عاد الدفتردار الى كردوفان ولكن لم يكن إلا القليل حتى بلغه ان الملك نمراً عاد الى شندي فجاءها في عامه فلجأ الملك نمر ثانية الى الفرار ومعه الملك المساعد وأقام بمحل في البطانة يقال له النصوب فلحق به ومعه بعض العساكر التركية والشايقية فصمد له الملك نمر فواقعه في واقعة شديدة وقتل من جيشه خلقاً كثيراً وفيهم الملك المساعد واضطره الى الفرار وعاد الدفتردار بالأسرى الى ام عروق جنوب ود مدني. قيل وقد جمع الاسرى في زريبة من شوك وتركهم في الشمس لا يظللهم شيء وأجرى عليهم الماء بالجداول فمات أكثرهم من شدة الكرب ومنهم من افتداه أهله بمال جزيل ومن بقي جعل لهم داغاً في أكفهم بين الابهام والسبابة وأرسلهم الى محمد علي باشا في مصر فنظم العبيد منهم في جيشه وأذن للأحرار في العودة الى بلادهم وقال «ان هذا فتح فلا غروَ اذا حصل فيه ما حصل من الجعليين» فعاد أكثرهم وأقام الباقون في القاهرة في مكان تحت القلعة يعرف بحوش الجاموس وما زالت ذريتهم هناك الى هذا العهد .

وكان الشيخ بشير ود عقيد الجعلي المسلمابي هو الذي دلّ الدفتردار على زعماء الثورة من الجعليين فقربه الدفتردار وجعله رئيساً على الجعليين مكان الملك نمر .

الملك نمر وأولاده على حدود الحبشة: أما الملك نمر فانه بعد انكساره في النصوب فرّ بمن بقي معه من الاتباع قاصداً الحبشة قيل فاشتد بهم العطش في الطريق ولم يكن معهم إلا بضعة جمال للركوب فوقف الملك نمر وأرسل بعض رجاله بالجمال الى أقرب الآبار فأتوه بماء قليل فجمع أتباعه وقال الماء لا يكفي الجميع فنسقي الآن الهرو أي الضعيف الهزيل ونترك النشيط الى ان نرد الماء فنشرب كلنا ثم ناداهم رجلا رجلا وسأل كلا منهم عن حاله وجمع الهرو في صف والنشيط في صف آخر فاجتمع في صف النشيط نفر قليل فوزع الماء بين هؤلاء على التساوي وقال « ان الذي يصبر على العطش يصبر على الحرب

وحاجتنا الآن الى مثل هؤلاء » وترك الهرو في الصحراء يموتون عطشاً وسار بالأشداء والماء قاصداً الحبشة . وكان على الحبشة في ذلك الحين الراس علي مقيماً في ولفاييت فقصّ عليه قصته مع الحكومة المصرية واستأذنه في الاقامة في حدود بلاده فأذن له فنزل برجاله في دار غبطه وأجرى لهم الراس علي مرتباً يقتضونه من اهل الدار من غلال وخرفان وبقر وسمن وعسل على قدر حاجتهم وأوعز الى مشايخ غبطه باكرامهم الى ان يتوطنوا فيعولوا أنفسهم . وكان عدد الذين وصلوا مع الملك نمر ١٢٠ رجلا ما عدا النساء والاولاد وفيهم تسعة من أولاده وهم محمد واحمد وعمر وعماره والحسن وخالد وسعد وأبو بكر وعثمان. فأقام الملك نمر في غبطة سنتين ومات وخلفه ابنه عمر وسمع الجعليون وسكان النيل بتوطن السعداب في غبطة فاجتمع عليهم المتشردون وقطاع الطرق وكل من فرّ من وجه الحكومة من ظلم وقع عليه او ذنب جناه او دين لا طاقة له على ايفائه حتى كثر عددهم وضاقت بهم الدار فسألوا الراس علياً ان يأذن لهم في النزول في دار ميقبة على ست ساعات من غبطة لأنها كانت داراً رحيبة وفيها أودية خصبة وأراضٍ زراعية متسعة فأجابهم الراس علي الى ذلك فانتقلوا الى ميقبة وأقاموا فيها على سعة وصاروا على ازدياد حتى عظمت نفوسهم فأخذوا يغزون بلاد الحكومة مثل بني عامر والشكرية والضباينة والتكارنة كما سيجيء .

هذا ما كان من الملك نمر وأولاده وأما الدفتردار فانه بقي في ام عروق يتعقب العصاة في كل الجهات وينكل بهم حتى جاءه الأمر فنزل الى مصر ومعه السيد احمد السلاوي الحنفي المار ذكره وتتابع بعده الولاة الآتي ذكرهم على السودان الى ان كانت الثورة المهدية .

الفصل الرابع

في

ولاة السودان

١ – عثمان بك سنة ١٢٤٠ : ١٢٤١ هـ – ١٨٢٥ : ١٨٢٦ م

ولما كانت سنة ١٢٤٠هـ ١٨٢٥م سُمي الميرالاي عثمان بك والياً على السودان فذهب اليه ومعه آلاي من الجنود المنظمة الذين عُرفوا بالجهـادية ونزلوا في الخرطوم فأتاه الشيخ شنبول من ود مدني فأكرمه وكساه وقلده المشيخة على جميع البلاد من حجر العسل الى جبال الفونج . وأتاه الشيخ عبد الله عمر فقتله بقنبلة مدفع . ثم أقام عثمان أغا الخربوطلي وكيلاً عنه في الخرطوم وأمره بقتل الفقيه الارباب ود الكامل بقنبلة مدفع وتوجه هو الى ود مدني فقتل عدة رجال بقنابل المدافع فعظم ذلك على الأهلين وتنفرت قلوبهم من الحكومة وأخذوا يهاجرون الأوطان . وكان السيد احمد البقلي المفتي الشافعي لا يزال في ود مدني فأرجعه الى مصر لعدم وجود شافعية في السودان .

ثم انتقل الى الخرطوم ونقل اليها اقلام الحكومة ومستودع الفرسان والمخازن والاشوان وجعلها مركزاً له فبقيت مركزاً للولاة وعاصمة للسودان

وهي تنمو وتتقدم الى قيام الثورة المهدية . وضرب عثمان بك الضرائب على الاهلين وأرسل الجنود في تحصيلها فعاثوا وأفسدوا وضيقوا على الرعية فكثر عدد المهاجرين من اهل البلاد وهاجر بعضهم الى القضارف فأرسل خلفهم ابراهيم افندي فقتل منهم خلقاً كثيراً . وفشا فوق ذلك مرض الجدري واشتد الغلاء حتى بلغ ثمن الرطل المصري من الذرة غرشاً واحداً وأكل النـاس الكلاب والحمير فكانت مدة عثمان بك بلاء ذهب فيه نحو نصف السكان من المرض والقحط والقتل والظلم ولكن لم تطل مدته فقد أصيب بداء السل وتوفي في منتصف شهر رمضان سنة ١٢٤١ هـ ٢٢ ابريل ١٨٢٦ م قبل تمام السنتين ودفن في الخرطوم .

٢ – محو بك سنة ١٢٤١ هـ : ١٨٢٦ م

وأرسل وكيله الى محو بك في بربر يخبره بما حدث فحضر الى الخرطوم وتولى زمام الاحكام فيها ثم رجع الى بربر وأحضر الجنود منها فجعلهم في قبة خوجلي تجاه الخرطوم وأقام هو في الخرطوم وكان رجلاً شفوقاً عاقلاً حسن التدبير فمنع تعدي الجنود عن الاهلين ودعا عمد البلاد وأعيانها واستشارهم في ما يكون به راحة الاهلين فأعجبه رأي الشيخ عبد القادر ود الزين وكان اذ ذاك شيخ خط فقلده شياخة قسم الكوع وكساه كسوة فاخرة . ثم أخذه وذهب الى القضارف فأرسل الذرة منها الى بلاد الجزيرة التي كانت لم تزل تقاسي من الجوع وارتاح النـاس الى حكمه كل الارتياح . الا ان جنوده المعروفين بالبيرقية لم يقتدوا به فخربوا حلة القبة التي نزلوا بها وخربوا ما حولها. وكانت مدته بضعة اشهر . وفيها مات جماعة من الفقهاء بمرض الجدري وبينهم محمد نور خليفة خوجلي والفقيه السيد حماد والفقيه محمد زروق والشيخ ادريس الذي ولاه عثمان بك منصب القضاء وغيرهم . وقد بنى محو بك في الخرطوم بنـاية خاصة لأقلام الحكومة وحفر بئراً قرب بربر عرفت باسمه وكان في جنوبي الخرطوم شجرة كبيرة عرفت باسمه ايضاً .

٣ – خورشيد باشا سنة ١٢٤١ : ١٢٥٤ هـ – ١٨٢٦ : ١٨٣٩ م

وفي غرة ذي القعدة سنة ١٢٤١ هـ ٦ يونيو ١٨٢٦ م حضر خورشيد باشا والياً على السودان فاستقبله محو بك في ام درمان وخلا بـــه مدة ثم أحضر الشيخ عبد القادر وقدمه اليه وقال : « ان عمران البلاد برؤوسها اهل الرأي فخذ برأي هذا » ثم توجه الى المحروسة واجتـــاز خورشيد باشا النيل الى الخرطوم فعمل بوصية محو بك وقرّب اليه الشيخ عبد القادر فهرع مشايخ البلاد وأعيانها للسلام عليه فقابلهم بالبشر والايناس ووعدهم بالراحة وأطلق سراح المسجونين من ايام عثمان بك .

وبعد حضوره بشهر أي في شهر الحجة هطلت أمطار غزيرة فزرع الناس وأمنوا شر القحط . وفي هذا الشهر غزا البحر الابيض فأصاب مغنماً كثيراً ثم توجه الى « دار الابواب » في النيل الكبير فقبض على الشيخ بشير ود عقيد المار ذكره لكثرة ظلمه في الرعية واهانه وغرمه مالاً جزيلاً . وعاد منه الى البحر الازرق فغزا عربان العجبة بجهات سيرو وغنم منهم .

ثم رجع الى الخرطوم وجمع مشايخ البلاد وسألهم ان يختاروا شيخاً لينوب عنهم لديه في تعديل الضرائب فاختاروا الشيخ عبد القادر فاستعان بـــه على تعديلها وقلده المشيخة على جميع البلاد من حجر العسل الى جبال الفونج وخلع عليه كسوة فاخرة وسيفاً .

وقد صحب خورشيد باشا من مصر السيد احمدافندي السلاوي المار ذكره قاضياً عاماً للسودان وصحبة جماعة من المعاونين بينهم موسى كاشف وكلهم من اصحاب الرأي وراتب كل منهم سبعة أكياس وكان لا يقطع امراً بلا مشورتهم ومشورة المباشر ميخائيل ابي عبيد .

— **الشيخ ادريس وجبال الفونج:** وفي محرم سنة ١٢٤٣هـ يوليو سنة ١٨٢٨م غزا بلاد الدنكة وتوجــه منها الى جبال الفونج وكان عليها الشيخ ادريس ود عدلان المار ذكره فأقرّه في مكانه وعاد الى الخرطوم . وقـــد اشتهر الشيخ

ادريس في حب جارية تسمى تام زينة فكان لها سلطة عجيبة عليه . قيل انها كانت تكره ابا روف شيخ عربان رفاعة الهوي الذي تزوج باحدى بنـــات الهمج وبنى حول منزله زريبة مثل زرائب الهمج فاستاءت تام زينة من ذلـــك وقالت للشيخ ادريس « أما كفى انك زوجت هـــذا البدوي من بنات عمك حتى سمحت له ببناء زريبة مثل زريبتك» فأمر الشيخ ادريس ابا روف ففتح في زريبته عدة ابواب لتتميز عن زرائب الهمج . على ان حب تام زينة للشيخ ادريس لم يكن اقل من حبه لها ومن نوادرها معه انها كانت اذا سألها العصر في رمضان هـــل غابت الشمس يا تام زينة فتجيب على الفور « شمسك غابت يا سيدي ولكن شمس الناس لم تغب » . وكان اذا خرج للتنزه خرجت معـــه تام زينة واحتاطه جماعة من جواريه فحملن أذيال ثوبه واذا جلس جلسن عن جانبيه يتلقين أوامره .

وكان للشيخ ادريس بنت تسمى نصره فزوجها رجلا من حوش بان النقا فاقتنى السراري حسب عادة الاعيان في السودان فأنكرت عليه ذلك وسألته ان يترك جميع سراريه ويكتفي بها ولما لم يفعل اقتنت نفراً من العبيد المرد وقالت لزوجها « ان طلقت سراريك طلقت عبيدي وإلا فنحن في الحق سواء » فطلق سراريه . وخلف ادريس ود عدلان على الهمج ابنه رجب ثم محمد بن رجب الذي بقي الى ايام الثورة المهدية .

وفي سنة ١٢٤٣ هـ ١٨٢٨ م عصي الشيخ خليفـــة ابن الحاج العبادي ابو حسين باشا بخليفـــة وهاجم الجنود في بربر فجهزّ له خورشيد باشا ولكنه لم يصل الى بربر حتى كان الجنود قد سكّنوا الفتنة وقتلوا الشيخ خليفة المذكور فعاد الى الخرطوم .

وفي سنة ١٢٤٤ هـ ١٨٢٩ م غزا جبال « ابو رملي » وعاد منها غانماً .

وكان أعظم ما وجه اليه اهتمامه تعمير البلاد وردّ الأهالي الذين كانوا قـــد هجروا الاوطان في ايام الدفتردار وعثمان بك فأصدر منشوراً عاماً بالأمان للمهاجرين الذين لجأوا الى دارفور وجبال النوبة والملك نمر ودار المطيش على

حدود الحبشة . وكان في جملة اللاجئين الى دارفور محمد صالح ثروة الجعلي المار ذكره فصادف هنـاك نجاحاً عظيماً وجمع ثروة طائلة حتى هان على النـاس الرحيـل عن الاوطان بسببه ومن ذاك قول بعض شعرائهم يتذمّر من ظلم الحكام ويغبط ود ثروة :

ان كان الترك حوض رمله   حوض الرملة قط ما بيروى
شن بيناتنا من غير سروه   لمكان ما سكن ود ثروه

فكان لمنشور خورشيد باشا تأثير حسن . وأشار عليه الشيخ عبد القادر باعفاء الفقهاء والاعيـان من الضرائب حثاً لهم على المساعدة في تأمين الأهالي فعمل بمشورته فعاد الكثير من المهاجرين الى أوطانهم .

وفي سنة ١٢٤٥ هـ ١٨٣٠ م قدم الشيخ احمد الريح العركي من دار المطيش فأكرمه خورشيد باشا وكساه وأرجعه الى دارالمطيش لتأمين الفارين ثم ذهب بنفسه اليه فجمع ١٢ ألفاً وأرسلهم بالحرس الى أوطانهم. وأمّن عرب الحمدة.

احتلال القلابات : وتقـدم خورشيد باشا الى القلابات فسلمت له وكان أهلها التكارنة وهم متخلفو حجاج الغرب قد انتظم لهم مشيخة قائمة بذاتهـا واقتنوا نحاساً وصاروا يحتفلون بتجليده كل سنة في عيد الرجبية ويكسرون الضلع على نحو ما وصفناه في تاريخ الفور . وأول شيخ اشتهر لهم بعـد الفتح المصري لسنار الشيخ عطرون فقتل في غزوة غزا بها الحمدة في دار المطيش . وخلفـه الشيخ امام ثم الشيخ ميري وهو الذي سلم لخورشيد باشا . وكان التكارنة يدفعون مالاً للحبشة لأجل تعمير سوقهم فوضع عليهم خورشيد باشا جزية سنوية فقبلوها . ورأى خورشيد باشا أهمية مركز القلابات الحربي فجعل فيها حامية عسكرية مؤلفـة من مئة جندي من الباشبوزق الاتراك وعاد الى الخرطوم بعد ان أخضع جبـال تَقلي . ومن ذلك الوقت اشتهر امر القلابات واتسعت سوقها التجارية وكان لهـا في تاريخ السودان والحبشة أعظم شأن كما سيجيء .

وبعد رجوع خورشيد باشا الى الخرطوم شرع في بناء جامع وثكنة للجنود ومخزن لمهماتهم وأمر النـاس بالبناء بالطوب لأنهم كانوا يبنون بالبوص وجلود البقر وقد أمدّهم بالاخشاب والالواح ترغيباً لهم في العمارة .

وفي سنة ١٢٤٥ هـ ١٨٣٠ م غزا الشلك بالمراكب غزوة كبيرة فقتل منهم مقتلة عظيمة لم يروا مثلهـا الا في مدة الملك بادي رباط وعاد الى الخرطوم بغنائم وسبايا كثيرة . وفي تلك السنة توفي الفقيه عبد القادر ود ضيف الله . وزاد النيل زيادة عظيمة حتى خافوا على البلاد من الغرق .

وفي سنة ١٢٤٧ هـ ١٨٣٢ م غزا قبائل سبدرات وحصرهم حصراً شديداً الى ان أذعنوا له وطلبوا الأمان فأمّنهم ورجع عنهم . وفيهـا حصلت زلزلة عظيمة اهتزت لها الارض . وفيها توفي الفاضل الشيخ قمر الدين ابن الشيخ حمد ود المجذوب ودفن بالدامر وقد اشتهر بالصلاح والتقوى وهو صاحب طريقـة المجاذيب المشهورة . وفيها توفي خربوطلي حسن كاشف حاكم اقليم الحلفـاية والبحر الابيض ودفن في قبة خوجلي .

وفي سنة ١٢٤٨هـ ١٨٣٣م توجه خورشيد باشا الى كردوفان فتفقد أحوالها ورجع .

وفي سنة ١٢٤٩ هـ ١٨٣٤ م أنعم عليه برتبة اللواء وسمي حاكماً عاماً على السودان وفيها احتفل بختان أولاده احتفالاً عظيماً لم يسبق له مثيل في السودان فحضره جميع المديرين ورؤساء العساكر ومشايخ البلاد وأعيانها .

وفي سنة ١٢٥٠هـ ١٨٣٥م بنى جامعاً في سنار بأمر محمد علي باشا. وذهب مرة ثانية الى كردوفان ورجع . وفيهـا عقد لجنة في شندي حضرها القاضي العام ونائب الشرع وجميع المديرين لفصل الدعاوي التي أقامهـا الجعليون على بشير احمد عقيد في الأطيان التي استولى عليها من ايام الدفتردار وبقيت اللجنة الى ختام ذي الحجة سنة ١٢٥٠ هـ .

وفي غرة محرم سنة ١٢٥١ هـ ٢٨ ابريـل ١٨٣٦ ذهب الى مصر بطريق دنقلة فأقام فيها بضعة أشهر ثم عاد الى السودان وقد رقي الى رتبة ميرميران.

وعند وصوله الى الخرطوم جمع الكشاف والمأمورين والمشايخ وخلا بالشيخ عبد القادر يومين فعرض عليه رأي تجنيد الأهالي فراجعه الشيخ عبد القادر في ذلك خشية تشتيت الاهالي وخراب البـلاد فقر الرأي أخيراً على تكليفهم تقديم العبيد للعسكرية فجعلوا على كل مديرية عـدداً معلوماً من الرقيق فجمعوا عدداً كبيراً .

ثم غزا خورشيد باشا جبال الصعيد فأحضر منها رقيقاً كثيراً أدخل بعضه في الجيش وفرّق البعض الآخر على المأمورين والجهـات . وهاج الحبشة على الحدود فنزلوا ومعهم رجب ولد بشير الغول من شيوخ الحمدة الى دار العطيش وقتلوا الرجل الصالح ود عاروض وخلقاً كثيراً فأرسل خورشيد باشا عليهم فرقة من العساكر الجهادية بقيادة محمـد افندي فأسروا رجب ولد بشير وأتوا به الى خورشيد باشا في الرصيرص فقتله وشيّخ على الحمدة احمـد ابا جنّ وأسكنهم على نهر الدندر ورجع الى الخرطوم .

وفي تلك السنة رقي محمـد افندي الى رتبة ميرالاي وأرسل بالعساكر السودانية الى الحجاز . وفيها كسفت الشمس بعد صلاة العصر نصف كسوف دام الى قرب الغروب .

وفي صفر سنة ١٢٥٢ هـ مايو ١٨٣٧ م هاجت ريح شديـدة مدة يومين متواليين ففي اليوم الاول ثارت قرب العصر فحملت غبـاراً احمر اللون أظلم منه الجو ثم انجلت بسرعة وفي اليوم الثاني هاجت وأثارت غباراً اسود اللون فاشتدت ظلمة الجو الى غروب الشمس فتشاءم الناس من ذلـك وتوقعوا شراً عظيماً فحصل على الأثر قحط شديد فأخرج خورشيد باشا مئـة أردب ذرة وتصدق بهـا على الفقراء وأخرج مئة أردب من شون الميري وأمر ببيعها في السوق رفقاً بالرعية وأقام صلاة الاستسقاء .

وقبل نهاية تلك السنة أصاب الناس الهواء الاصفر فمات فيه خلق كثير وكان في جملة من مات من الأعيان : الفقيه السنوسي ابن الفقيه بقادي . والفقيه النخلي مقرىء القرآن الشريف بحلة بقادي . والفقيـه محمد الحاج الظيب امام

جامع الخرطوم ، والفقيه محمـد علي ود عباس ، والشيخ الطريفي ابن الشيخ يوسف ، والشيخ محمد ابن الشيخ حسن خليفه ولد بان النقا ، والشيخ سعد عبد الفتاح العبادي ، والشيخ مصطفى خليفة الشيخ دفع الله العركي . ولمـا اشتد المرض في الخرطوم ذهب خورشيد باشا الى شندي فأقام فيها . ومن هنـاك أرسل رجب بن بشير ود عقيد المتقدم الذكر الى الخرطوم فرُفع على خازوق. وبعد زوال الوباء رجع الى الخرطوم فهدم الجامع الذي كان قـد أنشأه سنة ١٢٤٥ هـ لأنه اصبح صغيراً لزيادة العمارة في الخرطوم وأنشأ جامعاً أوسع منه بقي الى ايام الثورة المهدية .

وفي تلك السنة ظهر نجم كبير نصف النهـار وخرج منه شرار ! وفيهـا أصابت الناس حمى سميت أم سبعة هلك فيها خلق كثير ومات بها من الاعيان العوج الدرب ابن الفقيه محمـد بركات من ذرية الشيخ ادريس المشهور بالكرم والجود وقد سميت ام سبعة لأن من أصابتـه لم تمهله سبعة أيام ومن تجاوزها سلم منها .

وفي شهر رمضان من تلك السنة غزا احمد كاشف حاكم القضارف أطراف الحبشة فغنم وسبى وأرسل السبايا الى الخرطوم .

وفي ٩ محرم سنة ١٢٥٣هـ ١٤ ابريل سنة ١٨٣٨م نزل الحبشة على القلابات وكانت حاميتها قد زيدت فقتلوا شيخها الشيخ ميري والشيخ احمد عبود أحد سواري الشايقية وخلقاً كثيراً من الجند والأهالي وأسروا بكباشي الاورطة وعلي اغا الصهيب سنجق المغاربة والملك سعداً من سواري الشايقيـة وعادوا الى بلادهم وكانت الواقعة في كلّنبو قرب راشد فعرفت بواقعة كلنبو . قيـل ان الشيخ احمد عبود لما رأى انكسار العساكر ولم يرَ فائدة من الدفاع افترش فروته فقتلوه عليها . فلما بلغ خورشيد باشا خبر الواقعة جهز جيشاً وسار الى الحبشة لأخذ الثأر تاركاً سليمان كاشف وكيلاً عنه في الخرطوم فدخل الحبشة فلم يقابله جيش فرجع الى القلابات بلا قتال فحصنها وزاد في حاميتها وقفـل راجعاً الى الخرطوم .

وكان خورشيد باشا قد أرسل الى مصر في طلب المدد فلما كان ذو القعدة من تلك السنة حضر الى الخرطوم ميرميران « احمد باشا ابو ودان » ومعه الميرالاي فرهاد بك بجنود من مصر أمداداً له وأدركه فرهاد بك في الطريق فعادا معاً الى الخرطوم .

وفي تلك السنة حضر الميرالاي مصطفى بك من كردوفان مديراً على عموم جزيرة سنار . وفيها خسف القمر نحو ساعتين واشتد ظلامه .

٤ — احمد باشا ابو ودان سنة ١٢٥٤ : ١٢٥٩ هـ — ١٨٣٩ : ١٨٤٤ م

وفي ربيع الاول سنة ١٢٥٤ هـ مايو ١٨٣٩م صدر الامر الى خورشيد باشا فنزل الى مصر واستلم احمد باشا ابو ودان زمام الحكمدارية مكانه فأسف الأهالي لفراقه لأنه ضم شملهم بعد الشتات وعاملهم بالعدل والرفق وكان الشيخ عبد القادر أكثر الناس غماً على فراقه وقد أوصى به احمد باشا فقرّبه ولم يقطع أمراً يتعلق براحة الرعية إلا بمشورته وشرع في الاحكام بحسن سياسة وبعد نظر فنظم الدواوين والمديريات وحسن حال الكتبة والموظفين ثم التفت الى أمر الضبط والربط فأبطل السخرة ومنع تعدي العساكر على الفلاحين ووطد الامن في البلاد حتى أمن المسافر والمقيم من حلفا الى أقصى حدود السودان وبذلك اطمأن الأهالي وزادت عمارتهم وخصبت ارضهم حتى صار أردب الذرة بخمسة قروش وأوقع الله هيبته في قلوب العباد مع انه لم يكن بذيء اللسان ولا سفاكاً للدماء بل كان وقوراً كثير الصمت وكانت أوامره ونواهيه مقصورة على ما قل ودلّ كقوله افعلوا او لا تفعلوا ولم يجسر أحد على مخالفتها . وسرت هيبته الى جميع فروع الحكمدارية حتى قيل ان الموظفين والمأمورين في الجهات كانوا يتوهمون انه مقيم بينهم يسمع ويرى فيحذرون في ما يفعلون كل الحذر .

زيارة محمد علي باشا للسودان : وفي أيامه توجه محمد علي باشا الى السودان لمشاهدة البلاد التي افتتحها وتفقد احوالها وكشف مناجم الذهب بنفسه فسار

من القاهرة في ١٥ اكتوبر سنة ١٨٣٩ م فوصل الخرطوم في ٢٣ نوفمبر وكان احمد باشا اذ ذاك متغيباً في ود مدني فقابله وكيله مقلي عبد القادر اغا ثم حضر واستأذن للقاضي والمفتي والعلماء في مقابلته فأذن لهم فسرّوا من طلاقة وجهه وحسن خطابه . وأقام ٢٢ يوماً في الخرطوم ثم سار الى جبال فازوغلي فوصلها في ١٨ يناير سنة ١٨٤٠ وفي معيته احمد باشا الحكدار . فاستقبله الشيخ الزين والشيخ ادريس ود عدلان شيخ الهمج والشيخ احمد ابوسن شيخ الشكرية وسائر مشايخ العربان والحلّالات فقابلهم بالبشر والايناس وأمر لهم بالكُسى على حسب رتبهم . وقد بُني له قصر جميل قرب فامكة فأقام فيه مدة يبحث في أمر المعدن فلم تُرضه نتيجة البحث وقفل راجعاً الى الخرطوم فأقام فيها اياماً قليلة واستطرد السير عن طريق كورسكو فوصل مصر في ١٤ مارس سنة ١٨٤٠ م .

وفي سنة ١٢٥٥ هـ ١٨٤٠ م توجه احمد باشا الى دنقلة للنظر في أحوالها فأقام فيها اياماً وفي رجوعه بلغه في شندي فرار حمد ولد الملك نمر فذهب خلفه بجريدة من الفرسان ومعه الملك كنبال فنجا حمد ولد الملك وقتل الملك كنبال وعاد احمد باشا الى الخرطوم . وفي رابع شوال من تلك السنة توفي العلامة البليدي المفتي .

وفي سنة ١٢٥٦ هـ ١٨٤١ م زاد البحر زيادة عظيمة . وفيها فتحت بلاد كسلا ودخلت رسمياً في حوزة الحكومة الخديوية وهاك تفصيل الفتح :

فتح التاكا سنة ١٢٥٦ هـ ١٨٤١ م :

لما استتبّ الامر لأحمد باشا في الخرطوم وضواحيها اهتم باختلال السودان الشرقي وتمهيده فقاد الجنود الى بربر وأرسل يطلب مشايخ البجة فأتاه الشيخ محمد دين شيخ الهدندوة العام مظهراً التسليم اما عوض مسمار كبير الحلانقة المار ذكره في تاريخ سنار فانه أبى الحضور . وكان بين الحلانقة والهدندوة عداوة قديمة وحروب متصلة فطلب محمد دين من احمد باشا ان يمدّه بنفر من

الجنود فيخضع الحلانقة له ويكفيه مؤونة تعبهم وهو انما أراد التنكيل بهم من جهة ومنع دخول الجيش الى بلاده من جهة اخرى فلم يجبه احمد باشا الى ذلك بل سار بنفسه مع الجيش قاصداً الحلانقة فلما ذاع الخبر اجتمع الحلانقة وعينوا محمد إيله شيخاً عليهم فخرج مع بعض وجهاء قبيلته لمقابلة احمد باشا والتسليم له فلقيه في قوز رجب على الاتبرة وقدّم له الطاعة وسأله ان يجعل مركز الجيش في بلاده . وكان الحلانقة مقيمين على القاش قرب جبل كسلا فلما رأى احمد باشا بلادهم أعجبه موقعها فبنى فيها استحكامات منيعة وجعلها مركزاً للجيش وحكومة السودان الشرقي وأقرّ محمد إيله على شياخة الحلانقة. اما عوض مسمار فانه فرّ الى الحجاز عن طريق سواكن ثم عاد الى كسلا بأمان الحكومة فعين ابنه محمد شيخاً على القبيلة ومن ذلك الحين صار عائلتا عوض مسمار ومحمد إيله يتناوبان مشيخة الحلانقة الى اليوم .

اما الهدندوة فانهم لما رأوا ان احمد باشا مال الى أضدادهم وجعل بلادهم مركزاً لحكومته ارتدوا عنه وجمعوا جموعهم في غابتيّ وهياي والكلتياب شمالي كسلا فحوّل احمد باشا مجرى القاش ومنع عنهم الماء فعطشوا وأخذوا في التفرق ثم لما يبس الشجر أطلق النار في الغابتين فذعروا منها فلحق بهم وقتل منهم خلقاً كثيراً وأسر شيخهم محمد دين وزجّه في السجن الى ان مات بداء الجدري .

وعاد احمد باشا الى الخرطوم بعد ان ولّى عمر بك كاشف مديراً على كسلا ثم عُزل عمر بك وسُمي فرحات بك مديراً فعصاه الهدندوة فاستعان بالحلانقة عليهم وقاتلهم حتى اضطرهم الى الطاعة وشيّخ عليهم موسى ابراهيم ابن أخ محمد دين وأخذ منهم الجزية ثم ارسل البكباشي الياس افندي قومندان الجهادية الى بني عامر فقاتلهم في الدقا وأرغمهم على الطاعة وضرب عليهم الجزية . وتوفي فرحات بك في كسلا ودفن فيها .

وبعد فتح التاكا رُسمت خارطة السودان وقُسمت الى سبع مديريات وهي : فازوغلي وسنار والخرطوم وكسلا وبربر ودنقلة وكردوفان فجعل

قومندان الجنود في كل مديرية مديراً عليها وجُعلت الخرطوم مركز السودان ومقر الحاكم العام .

وتوفي احمد باشا في رمضان سنة ١٢٥٩ هـ اكتوبر ١٨٤٤ م في الخرطوم ودفن فيها وكانت وفاته بغتة حتى قيل انهم دسّوا له السم ليتخلصوا منه لأنه كان يحاول الاستقلال عن مصر. وبعد وفاته تضعضع حال الحكدارية واختلّ نظامها واستقل كل مدير بمديريته وصار يفعل فيها ما شاء .

٥ — احمد باشا المنكلي سنة ١٢٥٩ : ١٢٦١ هـ — ١٨٤٤ : ١٨٤٥ م

وفي سنة ١٢٥٩ هـ ١٨٤٤ م سنة وفاة احمد باشا ابو ودان حضر احمد باشا المنكلي حاكماً عاماً للسودان ولم يمكث في الخرطوم إلا قليلاً حتى عاد أهل التاكا الى الثورة نظراً لسوء ادارة الموظفين وعدم كفاءتهم فجرّد جيشاً كبيراً وسار لقتالهم ومعه الارباب محمد دفع الله والشيخ عبد القادر والشيخ احمد ابو سن كبير الشكرية فأسر رؤوس العصاة وعاد بهم الى الخرطوم فضرب رقابهم وبقي في الخرطوم الى أواخر سنة ١٢٦١ هـ ١٨٤٥ م ثم عاد الى مصر ومعه الارباب محمد دفع الله والشيخ عبد القادر الزين المار ذكرهما فأنزلها محمد علي باشا في المسافرخانة وأمر باكرامهما وبعد ثلاثة ايام طلبهما وكلمهما بلا واسطة قيل فأعجب بذكاء الشيخ عبد القادر وفصاحته وقال « ما كنت أظن ان بلاداً ليس فيها شيء من اسباب التمدن والتهذيب كبلاد السودان يخرج منها مثل هذا الرجل » وأمر له بنيشان وعين لضيفيه ياوراً فطاف بهما في جميع دواوين الحكومة والاماكن الشهيرة في مصر والاسكندرية وسائر الجهات .

٦ — خالد باشا سنة ١٢٦٢ : ١٢٦٦ هـ — ١٨٤٦ : ١٨٥٠ م

وفي محرم سنة ١٢٦١ هـ يناير ١٨٤٦ م حضر الى الخرطوم خالد باشا حكداراً للسودان ومعه الارباب دفع الله والشيخ عبد القادر المار ذكرهما والشيخ ابراهيم الهيتمى قاضياً عاماً للسودان فقضى أكثر مدته في الاسفار

فذهب الى التاكه وعاد منها الى جبال فازوغلي وكردوفان في تطلب مناجم الذهب .

وفي أيامه انحرفت صحة محمد علي باشا لما اصاب مصر من الأوبئة والمحن ولم يعد قادراً على القيام بمهام مصر فتولاها ابنه الاكبر « ابراهيم باشا » في منتصف سنة ١٢٦٤ هـ ١٨٤٨ م . وكان ابراهيم باشا منحرف الصحة فاشتد عليه المرض بغتة وفارق هذا العالم في ١٠ نوفمبر سنة ١٨٤٨م . وكان « عباس باشا » ابن طوسون باشا ابن محمد علي باشا ولي العهد غائباً اذ ذاك في مكة فدُعي منها ووصل القاهرة في ٢٤ ديسمبر وتولى زمام مصر. وفي ٢ اوغسطوس سنة ١٨٤٩ م فاضت روح محمد علي باشا الى خالقها بعد ان أبقى في مصر والسودان من المآثر الحسان ما خلد له الذكر الحسن والثناء الجميل مدى الزمان . ..

٧ – عبد اللطيف باشا سنة ١٢٦٦ : ١٢٦٧ هـ – ١٨٥٠ : ١٨٥١ م

وفي ربيع الآخر سنة ١٢٦٦ هـ فبراير ١٨٥٠ م وصل عبد اللطيف باشا الخرطوم حاكماً عاماً للسودان وكانت الاحكام قد اختلت كثيراً في مدة سلفه فما دخل الخرطوم حتى انهالت عليه الشكاوي ضده فصادره وأنزله الى مصر ثم شرع في الاحكام فأزال المظالم وبث روح العدل في البلاد .

ومن مآثره انه جدد ديوان الحكدارية في الخرطوم فبقي الى الثورة المهدية. وأنشأ مدرسة أميرية في الخرطوم برئاسة رفاعة بك الذي حضر من مصر ومعه بيومي بك وكثير من الكتبة والمعلمين . وعزل الشيخ ادريس عدلان السالف الذكر من شياخة جبال الفونج وولى ابن اخيه عدلان محمد مكانه . وضرب حسن مسمار ملتزم الجبارك وحبسه وصادره . وعزل حسن خليفة العبادي ملتزم سكة عتمور ابي حمد من المشيخة وحبسه وصادره ايضاً وقلد المشيخة أخاه حسين خليفة . وقلد الشيخ عبد القادر وظيفة معاون الحكدارية مع مشيخة مشايخ عموم الجزيرة وأحسن معاملة الشيخ احمد ابي سن وعاد الى مصر في أواخر سنة ١٢٦٧ هـ ١٨٥١ م .

غزوة تكارنة القلابات للملك عمر في ميقبة : وفي ايام عبد اللطيف باشا هاج تكارنة القلابات من تعديات للملك عمر على بلادهم فجيشوا جيشاً كبيراً وساروا لقتاله في ميقبة واتفق في هذه الأثناء ان مدير كسلا أخرج نفراً من رجاله لغزو الجادين وكان احد أنسباء الملك عمر في كسلا فظن ان الغزوة على أهله فأنفذ اليهم خبراً ليكونوا على حذر فأخذوا عائلاتهم الى مضيق بين جبلين قرب ميقبة وبقوا هم في ميقبة متربصين فاقترب التكارنة منهم ولما رأوهم مقبلين من الجنوب ظنوا انهم أصدقاء لهم سمعوا بغزوة الجند من الشمال فحضروا لنجدتهم فخرج ابو بكر اخو الملك عمر لاستقبالهم مع جريدة من الفرسان فما كان من التكارنة الا انهم بادروهم بالطعن بالحراب فعادوا الى ميقبة مذعورين فوجدوا الملك عمر جالساً في ديوانه فقالوا له ان الذين تراهم هم تكارنة القلابات وقد جاؤوا لحربنا فقم بنا الى مكان العائلة وكان التكارنة قد دخلوا ميقبة على أثر الفرسان فرأى الملك عمر ان فراره من مكانه عار عليه فافترش فروته وانتظر الموت فاجتمع عليه السعداب وقالوا له أتعطي التكارنة فأل الجعليين فتمكنهم من نفسك ليكون لهم الفخر بقتلك ولك من ذلك مهرب فقم بنا نجمع شتاتنا ونعود الى طرد الأعداء من ديارنا «فان الرجال شرّاده ورّاده» ثم حملوه بالرغم عنه ووضعوه على بغلة وساروا يحاربون من خلفه حتى وصلوا الى المضيق الذي كانت فيه العائلة فلموا شعثهم ولبسوا دروعهم وتسلحوا بكامل السلاح ومكثوا ينتظرون باقي اخوانهم فلما طال انتظارهم التفت محمد ابن الملك عمر الى ابيه وقال على مَ هذا الانتظار والتكارنة يسلبون أموالنا امام عيوننا وهم على بعد مئة خطوة منا قال ننتظر اولاد دياب قال محمد : أليس فينا الكفاءة لطرد هؤلاء الخراف من ديارنا حتى ننتظر اولاد دياب ؟ قال له ابوه دعنا من هذا الحس الآن فاني أخاف اذا حمي الوطيس انك تأبى القتال وتلجأ الى الفرار فهاجت في محمد حمية الرجال وقال لأبيه : « أأبى القتال وأفرّ منه وجدّي الملك نمر وأبي الملك عمر وأمي بنت دياب ؟ انت الذي تفرّ منه يا ابن البدوية ! » فدفع الملك عمر حصانه وقال لقومه : « هيا بنا على ميقبة

وانظروا اليوم قتال ابن البدوية » فكرّ رجاله وراءه فخرج التكارنة لقتالهم والتحم الفريقان فصار الفارس من السعداب يهاجم جمعاً من التكارنة فيفتك بهم فلما رأى التكارنة كثرة القتل فيهم فزعوا الى تل صغير قرب ميقبة وتحصنوا فيه فاحتاط بهم السعداب وكان معهم عشر بنادق فأخذوا يرمونهم بالرصاص حتى كثر القتل فيهم وعطشوا فصاروا ينزلون من التلة ثلة ثلة بعد ثلة والسعداب يقبضون عليهم قبض اليد ويسلمونهم الى النساء والنساء يأخذنهم الى مكان بعيد عن نظر الباقين من اخوتهم على التلة ويقتلنهم بالعصي والنبابيت الى غروب الشمس حتى لم يبقَ على الرابية احد فقتلوهم عن آخرهم وكان عددهم نحو ٦٠٠ نفس فغنموا خيولهم وأسلحتهم وعادوا الى ميقبة فسكنوها آمنين .

وذهب الملك عمر الى الرأس علي فأخبره بما كان وأعطاه عشر الغنائم على عادته فأكرمه الرأس علي وأهدى اليه بعض الجياد. وانتشر خبر هذه الواقعة في جميع أقطار السودان واشتهر بأس اولاد الملك نمر فزاد عدد المهاجرين اليهم.

٨ – رستم باشا سنة ١٢٦٧ : ~~١٢٦٨~~ هـ – ١٨٥١ : ١٨٥٢ م

وفي سنة ١٢٦٧ هـ ١٨٥١ م سُمّي رستم باشا حاكماً عاماً للسودان فذهب الى ود مدني وعاد منها مريضاً فتوفي في الخرطوم سنة ١٢٦٨ هـ ١٨٥٢ م ودفن هناك . وفي مدته حضرت لجنة من مصر للنظر في احوال السودان كان رئيسها ميري بيك .

٩ – اسماعيل باشا ابو جبل سنة ١٢٦٨ : ١٢٦٩ هـ – ١٧٥٢ – ١٨٥٣م

وفي رمضان سنة ١٢٦٨ هـ ١٨٥٢ م حضر الى الخرطوم اسماعيل باشا ابو جبل حكمداراً على السودان فجال في الجهات الشرقية قليلاً ثم رجع الى الخرطوم وبقي فيها الى ان صدر الامر برجوعه الى مصر وكانت مدته قصيرة .

١٠ – سليم باشا سنة ١٢٦٩ : ١٢٧٠ هـ – ١٨٥٣ : ١٨٥٤ م

وفي شعبان سنة ١٢٦٩ هـ مايو ١٨٥٣ م عُيِّن للسودان سليم باشا فذهب

الى الخرطوم على غير ارادته وأقام فيهـا متمارضاً مدة قصيرة ثم نُدب الى القاهرة .

١١ – علي باشا سري سنة ١٢٧٠ : ١٢٧١ هـ – ١٨٥٤ : ١٨٨٥ م

وفي جمادى الاولى سنة ١٢٧٠هـ فبراير ١٨٥٤م وجهت حكمدارية السودان الى علي باشا سري الارناؤطي فذهب الى الخرطوم ولم يخرج منها الا الى سنار ثم عاد الى مصر بعد مدة قصيرة قيل وقد ملأ جيوبه من مال البلاد ولا سيما من جزيرة سنار .

وفي شوال سنة ١٢٧٠ هـ يوليو سنة ١٨٥٤ م توفي « عباس باشا » الى رحمة ربه . وتولى بعده على مصر « سعيد باشا » ابن محمد علي باشا .

١٢ – علي باشا شركس سنة ١٢٧١ : ١٢٧٣ هـ – ١٨٥٥ : ١٨٥٧ م

وفي جمادى الثاني سنة ١٢٧١ هـ فبراير ١٨٥٥ م وصل الى الخرطوم علي باشا شركس حكمداراً على السودان .

زيارة عبد الحليم باشا للسودان : وفي اول مدته ذهب الى السودان عبد الحليم باشا ابن محمد علي باشا زائراً فأقام في الخرطوم اياماً وانتشر الهواء الاصفر فامتد الى جميع اقطار السودان ومات به خلق كثير .

وممن مات فيه من الاعيان الشيخ عبد القادر ابن الشيخ الزين شيخ مشايخ الخرطوم وسنار المتقدم الذكر وكان رجلاً فاضلاً جليلاً سديد الرأي فحضر دفنه الحاكم العام ووكيله وجميع وجوه البلاد . وعُين ابنه الزبير مكانه فخدم في الخرطوم مدة ثم نزل الى مصر فعُين معاوناً في نظارة الداخلية . وتوفي فيه الشيخ ياسين شيخ مشايخ مديرية كردوفان وهو من الأكابر العظام والشيخ الطريفي ابن الشيخ احمد الريح العركي والفقيه عمر بقادي العالم المشهور وغيرهم.

ولما اشتد المرض أشار الحكماء على عبد الحليم بترك الخرطوم فعاد الى مصر.

زيارة سعيد باشا للسودان: وبعد زوال الوباء ذهب سعيد باشا والي مصر

الى السودان لتفقد أحواله فوصل الخرطوم في ١٦ يناير سنة ١٨٥٧ فساءه حاله وأقرّ في بادي الرأي على أخلائه ولكن اعيان البلاد ومشايخها توسلوا اليه بالحاح ان يعدل عن رأيه وقالوا له اذا أخليت البلاد عمت الفوضى لا محالة وربما لحق أذاها مصر فعدل عن رأيه وأمر بعدة اصلاحات فجعل الخرطوم وجزيرة سنار مديرية واحدة وفصلها عن باقي المديريات وجعل كل مديرية مستقلة عن الاخرى ترجع في أحكامها الى مصر . ونظم البوستة بين الخرطوم ومصر فسيّرها على الهجن بطريق كورسكو . وخفض ضرائب الأطيان والسواقي ومنع الجند من جمعها فأناط ذلك بمشايخ البلاد وقرّر جمعها بعد الحصاد لا قبله. وأمر بعقد ناد من الأعيان في الخرطوم كل سنة للنظر في راحة البلاد . وكان عند اول وصوله الى بربر اعلن ابطال تجارة الرقيق التي كانت قد انتشرت في السودان على ما سيجيء ثم أنشأ محطة عسكرية على نهر سُبت لمراقبة تجارة الرقيق وقطع دابر النخاسين. وعاد الى مصر في ١٣ ربيع الثاني سنة ١٢٧٣ ه ١٠ ديسمبر ١٨٧٥ م . وقد رأى في سفرته هذه شدة لزوم تقريب السودان من مصر وتخفيض مشقة السفر اليه فعند عودته الى مصر كلف الموسيو مونجل المهندس الفرنساوي فرسم له خريطة سكة حديد بين حلفا والخرطوم ولكن مالية مصر اذ ذاك لم تسمح باخراج هذا المشروع الى حيّز الفعل . وصحب سعيد باشا في هذه السفرة الدكتور اباته باشا فكتب فيها كتاباً نفيساً .

١٣ – اراكيل بك سنة ١٢٧٣ : ١٢٧٥ ه – ١٨٥٧ : ١٨٥٩ م

وكان سعيد باشا قد استصحب معه الى السودان اراكيل بك الارمني الملقب بالفرنساوي فلما نظم المديريات على ما مرّ عزل علي باشا شركس وعين اراكيل بك مديراً على الخرطوم فمكث فيها الى ان توفاه الله في صفر سنة ١٢٧٥ ه سبتمبر ١٨٥٩ م وقد امتاز بحسن السياسة ولين العريكة قبل ان مشايخ الشكرية وغيرهم أنكروا على سعيد باشا تعيينه حاكماً عليهم وهو

نصراني من غير دينهم فأبوا مقابلته وجمعوا جموعهم للثورة فركب اراكيل بك هجينه وسار وحده حتى أناخ بين أيديهم وقال « ان كنت انا السبب في عصيانكم فها انا الآن بين ايديكم فافعلوا بي ما تشاؤون على ان تعودوا الى الولاء اذ يعز عليّ ان تخرجوا عن طاعة وليّ امركم بسببي » فعجب زعماء الثورة من جرأته وحسن اسلوبه وطابت نفوسهم ورجعوا عما عزموا عليه وصحبوه الى الخرطوم . وكتب اراكيل بك خبر الحادثة الى سعيد باشا في مصر فبعث في طلب زعماء الثورة فأرسل له الشيخ احمد اباسن شيخ الشكرية والفقيه ابراهيم عبد الدافع صاحب تاريخ سنار المتقدم الذكر فسجنهما بالاسكندرية مدة ثم افرج عنهما وأرجعهما الى السودان بعد ان حلفا له يمين الطاعة .

١٤ – حسن بك سلامة سنة ١٢٧٥ : ١٢٧٨ ه – ١٨٥٩ : ١٨٦٢ م

وفي رجب سنة ١٢٧٥ ه ١٨٥٩ م سمي حسن بك سلامه الشركسي مديراً على الخرطوم ولكن لم تطل مدته قيل وكان فظ الاخلاق سيىء الادارة قليل الخبرة في سياسة البلاد إلا انه كان ديّناً كثير الصلوات حسن الاعتقاد عفيف النفس .

١٥ – محمد بك راسخ سنة ١٢٧٨ : ١٢٧٩ ه – ١٨٦٢ : ١٨٦٣ م

وفي محرم سنة ١٢٧٨ ه يوليو ١٨٦٢ م عُزل حسن بك وسُمي محمد بك راسخ مدير التاكا مديراً للخرطوم فحضر اليها في شهر صفر وكان يحب الطرب والغناء . ومن مآثره القصر المشهور باسمه تجاه سراي الخرطوم .

وفي أيامه ألغى سعيد باشا النظام الذي سنّه عند زيارته للسودان في استقلال المديريات عن الخرطوم ورجوعها في أحكامها الى مصر وأعاد النظام القديم في جعل الخرطوم مركزاً عاماً للسودان .

١٦ – موسى باشا حمدي سنة ١٢٧٩ : ١٢٨١هـ – ١٨٦٣ : ١٨٦٥م

وفي ٤ صفر سنة ١٢٧٩ هـ ١ اوغسطوس ١٨٦٣ م قدم موسى باشا حمدي حاكماً عاماً للسودان فجعل مركزه الخرطوم وبقي محمد بك راسخ مديراً فيها وكان لموسى باشا خدمات جمة في اكثر جهات السودان وقد أقمع عدة ثورات محلية في كردوفان وتقلي واسمه معروف في البلاد فقـابله أهلها باحتفال عظيم فتلا عليهم الفرمان النـاطق بتعيينه حاكماً عاماً على السودان ثم أرسل الى المديرين ومشايخ البلاد وأعيـانها فعقد معهم مجلساً وسنّ قوانين جديدة لجمع الضرائب فأعطى كل فلاح « سركياً » بيده ليدفع ما جُعل عليه من الضرائب على ثلاثة أقساط معينة في السنة وكلما دفع قسطاً قيّد له في « السركي » الذي بيده كما قيد في يومية الصراف وجعل من الأهالي نظار اقسام ومعاونين وأمرهم فلبسوا الملابس العثمانية وبذلك حسنت الحال وسهل تحصيل الاموال .

القلابات والحبشة : وفي أيامه كثر تعدّي الاحبـاش على الحدود ودخل ألوف من العربان وفيهم الشيخ احمـد ابوجن شيخ عربان رفاعه الشرق في حمايتهم فجهز جيشاً كبيراً من الجنود المصرية المنظمة والباشبوزق وسار في ٢ جمادى الآخرة سنة ١٢٧٩ هـ ٢٥ نوفمبر ١٨٦٢ م الى بلاد القلابات فأخذ بعض الجيش ودخل الحبشة فامتنع الحبش في الجبال فعاد الى القلابات ومعه العربان الذين كانوا قد هجروا البـلاد فأمّنهم وردّهم الى بلادهم . وشرع في تحصين القلابات فأقام فيها « استحكاماً » منيعاً وحصّنه بالمدافع واورطتين من الجهادية وجعل عليه آدم بك قومنداناً وضرب على القلابات جزية سنوية قدرها ٢٤٠٠ ريال . ثم ارسل جيشاً الى اولاد الملك نمر فاكتسح بلادهم كما سيجيء . وذهب الى التاكا فمكث فيها مدة ثم رجع الى الخرطوم في ٢٢ القعدة سنة ١٢٧٩ هـ ١١ مايو ١٦٨٣ م .

وكان على التكارنة اذ ذاك الشيخ جمعة ابو ذقن جاء بعـد الشيخ احمد ابن الشيخ ميري المار ذكره فقبل الجزية وامتنع عن اداها الى ملك الحبشة ولكنه

لم يزل يهدي اليه الأنسجة والأردية والسروج والساعات والخيل الدنقلاوية بمـا قيمته اربعـة آلاف ريال وكان ملك الحبشة يهدي اليه الخيل والبغـال والبن وغيرها حباً بتعمير سوق القلابات وترويج التجـارة بين السودان والحبشة . وضرب الشيخ جمعه الجزية على جميع واردات الحبشة من رقيق وخيـل وبقر وحمير وغنم وسن وذهب وشمع وزباد وبن وقمح وعدس وفول وحمص وشعير وسمن وزبـدة كما ضرب ملك الحبشة الجزية على واردات السودان في سوق وهناي على ٤ ايام من القلابات .

وخلف الشيخ ابو ذقن على التكارنة الشيخ صالح ادريس من مجاوري الازهر الذي كان اماماً لجامع القلابات وكان رجلاً شجاعاً صالحاً محبوباً وقد بقي على التكارنة الى ان كانت الثورة المهدية فكان له مع زعمائها من الشأن ما سنبينه إن شاء الله .

عود الى اولاد الملك نمر في ميقبة : تقـدم ان اولاد الملك نمر ازدادت شهرتهم بعد انتصارهم على تكارنة القلابات وازداد عـدد المهاجرين اليهم وكان في جملة هؤلاء رجل من قبيلة الهنادي القاطنة بمديرية الشرقية بمصر كان سنجقاً في عسكر بربر فعينه « ٩٠ – اسماعيل باشا ابو جبل » على خمسين نفراً وأرسله لجمع الضرائب من عربان رفاعه الشرق فأقام على ذلك سنة ونصف سنة الى ان قدم « ١١ – علي باشا سري » والياً على السودان فعزله وأرجعـه الى بربر ثم لم يلبث ان طلبه الى الخرطوم فلبى الطلب ونزل في طريقه عنـد صديق له في شندي يسمى بشير اغا السنجق فقال له صديقه جئت اليوم من الخرطوم فسمعت فيها ان الحكدار عازم على استرداد المبلغ الذي استوليت عليه من الحكومة مدة خدمتك في رفاعه الشرق بحجة ان اسماعيل باشا ابا جبل قد استخدمك بلا وجه مالي اذ لم يكن لك محل في ميزانية السودان . وهذا الحكدار على ما ظهر لي رجل عاتٍ مستبد لا همّ له إلا جمع المـال وانت رجل جليل القدر رفيع المقام فلا يجمل بك ان تعرض نفسك للاهانة والرأي عندي ان تعود الى بربر وتجمع له من المـال ما يرضيه وإلا زجلك في

السجن حتى تدفع الفلس الاخير . فلما سمع ابو رواش مقالة بشير اغا هاله الأمر وعزم من ساعته على الخروج من ارض الحكومة فرجع الى بربر وجهز رجاله وخيوله وأمتعته وفر الى أولاد الملك نمر في ميقبة ففرحوا به وكان لهم أكبر نصير .

وممن لجأ اليهم فراراً من وجه الحكومة فتقووا به «محمود الحلاوي» وهو تاجر من جمافرة اسنا كان في كسلا يتجر في البضائع الاوروبية فوقعت القرعة العسكرية عليه في مصر فجنّده مدير كسلا وألحقه بالجهادية ولما كانت سنة ١٢٧٦هـ ١٨٥٩م فرّ هارباً الى اولاد الملك نمر وتزوج ببنت الشيخ ابي رواش واتحد معهم على الغزو . وقد وجهوا أكثر غزواتهم على الشكرية والضبانية حتى اضطر الشكرية ان يعاهدوهم على جزية سنوية يدفعونها لهم ليأمنوا شرهم ومع ذلك لم يزالوا على التعدي حتى قتل ابو رواش في غزوة غزوا بها سبدرات وبقي الحلاوي الى ان ارسل موسى باشا الغزوة التي مرّ ذكرها فطلب الامان وعاد الى كسلا فحضر ثورة الجهادية فيها كما سيجيء .

هذا ويظهر ان الملك عمر واخوته كانوا قد ملّوا عيشة الغزو قبل فرار الشيخ ابي رواش اليهم وحنوا الى وطنهم فبعثوا في طلب الامان من الحكومة للعودة الى السودان وكانت الحكومة تودّ تأليفهم وحملهم على الطاعة فبعث اليهم المغفور له سعيد باشا بالامان وهاك صورة ما أرسله الى الملك عمر بتاريخ ١٧ محرم سنة ١٢٧١ هـ ١٠ اوكتوبر سنة ١٨٥٤ م نمره ٩ سايره :

«قد صدر هذا الفرمان المبعوث بالتشريف والامان الى عمدة أمثاله المكرمين الشيخ عمر ولد نمر أعلم انه قد طرق مسامعنا انهاء علي باشا حكمدار السودان انك في حنين الى وطنك وأنك على مزيد الرغبة والاشتياق الى الرجوع الى ديارك انت ومن يليك من الاقارب والإتباع عاقداً نيتك على حصول العمار في محلك وبذل عزيمة صداقتك في اداء الطلبات الميرية لتفوز بجميل التقرب بالمنن البهية وانك علقت انتقالك من الغربة الى الوطن على تحصيل هذا الفرمان لتتقلد به شرفاً وتحظى به بالطمان والامان فاقتضت ارادتنا اجابة مسؤولك

باصدار هذا اليك ليتم به مرادك وليطرق مسامعنا بعد هذا ثمرات صداقتك واجتهادك وتقابل من لدنا بما يليق بذلك فعليك بجميل السعي في أحسن المسالك » اهـ .

وهذه صورة أمر عال صادر الى « علي باشا شركس » الذي خلف « علي باشا سرّي » على السودان مؤرخ في ٢٩ ربيع اول سنة ١٢٧٢ هـ ٩ ديسمبر سنة ١٨٥٥ نمرة ١٣ ومنه يعلم سير المفاوضة التي جرت بين اولاد الملك نمر وحكومة السودان بشأن العودة الى اوطانهم :

« قد عرض الينا افادة وردت من سلف حضرتكم رقم ٢٩ صفر سنة ١٢٧٢ نمرة ٥ ومعها مذاكرة أجراها مع الملك حسن وأخيه الملك عماره اولاد الملك نمر بناء على الامان السابق اعطاؤه من لدنا اليهم والى أخيهم الملك عمر وأمرنا السابق صدوره الى الحكمدارية في ٢٥ ل سنة ١٢٧١ هـ وقد علم لدينا انه صار اعطاؤهم الراحة التامة ونيل ما قصدوه والطمان والامان وذلك انه سلم اليهم في اغطائهم كافة أطيانهم وأملاكهم ... وأما الشيخ الحسن فها هو ناظر على عموم مديرية بربر الآن وكذا المتسبحين الذين كانوا معها ومع أخيها وسيحضرون شيئاً فشيئاً . وقد اختاروا الاقامة بالمحل المسمى الجيره بين الصوفي والحمران بمديرية الخرطوم لما رأوا ان أرضه طيبة للغاية وفي غاية الاتساع وليس لأحد فيه ملك وانه بنزول الامطار يزرعون به وقد أقام به نحو مائتي نفر ممن حضروا من الحبشة وسيحضر الباقون شيئاً فشيئاً مع اخيهم بجميع تعلقاتهم ويكون استكمال حضورهم واستيطانهم في ذلك المحل في ظرف سنة كاملة او اقل لسهولة تخليص علائقهم من هناك كما تعهدوا ...

واما الاربعماية خيال الراغب الملك عمر ترتيبها ليقيم بها تحت طلب الحكومة فمن كون لحد الآن لم يتوطن بمحل اقامته ويجري راحة أهاليه وجماعته وينظر في أمر أطيانه وأملاكه وتظهر منه علامات الصداقة والعمارية فكيف الآن يجري ترتيبها . وحيث تبين ان الانفار الذين معه نحو الستين حلة تقريباً من خمسة عشر الف نفر وما حضر منهم الا المايتا نفر الذين توطنوا بالجيره وقد

تعلقت ارادتنـــا حصول الامن والامان الى اولاد الملك نمر جميعاً وقرارهم في أوطانهم في غاية الراحة حسبما جبلت عليه مراحمنا من الرأفة والشفقة على العباد وإعطاء الرعية ما ينبغي لها وقد سرت عدالتنا باصدار تنبيهات من الحكمدارية برجوع أملاكهم وأطيانهم اليهم وبكف الحكام ومشايخ الجهات عن التعرض الى اتباعهم فقد أصدرنا هذا لحضرتكم لتباشروا ادخال البشر عليهم ليجمعوا اطرافهم ويستوطنوا بالمحل الذي تخيروه وطناً لأنفسهم وجماعتهم ويبـادروا بإجراء ما فيه رضانا لينالوا ازدياد الراحة والسلام » اهـ .

ولكن يظهر ان أبا روّاش ثنى عزمهم عن التسليم وتقووا به فعـادوا الى سابق بغيهم كما مرّ وبقوا الى ان نقض الرأس طرزه احد كبـار الحبشة على الملك ثيودورس فسأل الملك عمر المساعدة بالاسلحة والجبخـــانة فتوقف عن إعانته خشية الملك ثيودورس فغضب منه وأغار عليه في ميقبة فقتله واكتسح بلاده وكان ذلك في أواسط جمادى الاولى سنة ١٢٨٢هـ أوائل اكتوبر ١٨٦٦م ففرّ من سلم من الدار وعدتهم نحو الف نفر الى القضارف طالبين العفو والامان من الحكومة فأمنتهم فحضر بعضهم بقيادة اكبرهم عمارة الى شندي ومعه محمد ابن عمر وعينت الملك عمارة ناظراً على الجعليين فمات في شندي وبقي البعض الآخر في الصوفي مع خالد ابن الملك عمر الى ان كانت الثورة المهدية فكان من أعزّ أنصارها كما سيجيء .

السر صموئيل باكر واكتشاف منابع النيل الابيض
سنة ١٨٦٣ : ١٨٦٥ م

وفي ايام موسى باشا قدم الى السودان السر صموئيل باكر من كبـار السياح الانكليز قاصداً اكتشاف منـابع النيل الابيض على نفقته الخاصة . وكانت الجمعية الجغرافية الانكليزية قد أرسلت الرحالتين سبيك وغرانت سنة ١٨٥٨م لاكتشافها عن طريق زنجبار فاكتشفا بحيرة فكتوريا نيانزه في ٢٨ يوليو سنة ١٨٦٢ م وسمياها على اسم ملكتهما كما مرّ في الكلام على النيل . وكان محمد

علي باشا قد ارسل بعد فتح سنار عدّة حملات من الخرطوم لاكتشاف منـابع النيل الابيض فوصلت آخر حمـلة سنة ١٨٤١ م الى كوندوكرو ولم تتعدّها بسبب الشلالات التي الى جنوبيها . فأراد السر صموئيل باكر بعـد سفر سبيك وغرانت عن طريق زنجبار ان يذهب عن طريق الخرطوم ويستطرد الاكتشاف من كوندوكرو بالبر على رجـاء ان يلتقي بالرحالتين المذكورين فيكون نجدة لهما ويشاركهما في فخر الاكتشاف . فخرج من الخرطوم في ١٨ ديسمبر سنة ١٨٦٢ م بمركبين كبيرين وذهبية ومعه ٤٥ رجلاً مسلحين بالبنادق و ٥٠ من الخدم والبحارة و ٢٩ من الجمـال والخيل والحمير ومقدار كبير من الحبوب وبضعة صناديق من أساور النحاس والخرز الملوّن الرائجة هناك بدل العملة كما مر. فوصل كوندوكرو في ٢ فبراير سنة ١٨٦٣م وحطّ رحاله وأخذ يتأهب للسفر براً واذا بالرحالتين سبيك وغرانت قد أقبلا في ١٥ منه فأخبراه باكتشاف بحيرة فكتوريا وانه لم يزل امامه بحيرة اخرى ليكتشفها قد أخبرهما الأهلون بها وأعطياه خارطة سيرهما وجميع ما علماه عنها ثم استطردا السفر شمالاً الى اوروبا وسار باكر جنوباً في البر الشرقي بقصد اكتشاف تلك البحيرة حتى أتى عليها في ١٤ مارس سنة ١٨٦٤ م بعـد معاناة مشقات كثيرة وأخطار جمّة ولا سيما بسبب تجار الرقيق الذين كانوا قد انتشروا في تلك البلاد يعيثون فيها كما سيجيء وقد أتاها اولاً من الجنوب ثم جال فيها بمراكب السود فأتى شماليها ورأى مصب النيل الآتي من بحيرة فكتوريا ومخرج النيـــل الابيض الذاهب شمالاً وسماها ادوارد نيانزه على اسم ولي عهد انكلترا في ذلك الحين . ثم عاد الى كوندوكرو وسار منها بذهبيته ومركبيه حتى وصل الخرطوم في ٣ مايو سنة ١٨٦٥ م فأقام فيهـــا الى ٣٠ يونيو وخرج منها في ذلك اليوم الى بربر فسواكن فبلاد الانكليز فوصلها في اكتوبر سنة ١٨٦٥ م .

وقد صحبه في هذه السفرة امرأته الهمامة الفاضلة فقاسمته مشاقها وأخطارها ولطفت محنها وأتعـــابها وأعانته على حلّ المشاكل التي عرضت له مع تجـار

الرقيق حتى انها أنجته من خطر القتل مرتين ولولاها ما سلم ولا فاز بالمراد فحبذا المرأة امرأة باكر .

وفي ٢٦ رجب سنة ١٢٧٩ هـ ١٧ يناير سنة ١٨٦٣ م توفي سعيد باشا الى رحمة ربه وتولى بعده على مصر « اسماعيل باشا » ثاني أنجال ابراهيم باشا فاهتم للسودان اهتماماً عظيماً وقد سرّ من اعمال موسى باشا فيه فأنعم عليه برتبة فريق فعمل مهرجاناً عظيماً زينت له البلاد . وفي ٢٣ محرم سنة ١٢٨٠ هـ ١٠ يوليو سنة ١٨٦٣ م ذهب الى مصر فأدّى الشكر لاسماعيل باشا على انعامه وأطلعه على حال البلاد وعاد الى الخرطوم فبقي فيها الى ان توفاه الله في ٨ شوال سنة ١٢٨١ هـ ٦ مارس سنة ١٨٦٥ م فدفن هناك . وقد سارت البلاد في ايامه على أحسن نظام وكان فيها من الجند نحو ٣٠٠٠٠ من نظامية وباشبوزق .

جبال تقلي : وكان على جبال تقلي في ايام موسى باشا ملك يسمى الملك ناصراً اشتهر بالقسوة والصرامة في العقاب فكان اذا غضب من شخص وضعه عارياً مكتوفاً على حجر محمى حتى يموت . وقد حكى لي بعض معارفه ما دلّ على تناهيه في القسوة الوحشية قال : ان صائغاً من صاغة الابيّض سمع بقسوته وكان يذيب فضة على النار فلما سالت قال « حتى هذا السائل ان يصبّ في انف الملك ناصر جزاء قسوته وظلمه فبلغ الخبر الملك ناصراً فعزم على الايقاع به وأركن الى الحيلة فأرسل اليه اربع جوار هدية وسأله ان يحضر مع الرسول الى الجبل ليصوغ بعض الحلي لنسائه ووعده بمكافأة جليلة فذهب الصائغ فأعطاه بعض الفضة والذهب فصاغها له ثم أعطاه فضة وسأله ان يسيلها على النار ولما سالت قال له : أتذكر انك اشتهيت مرة في الابيّض ان يُصبّ مثل هذا السائل في أنفي؟ فسكت الصائغ وأُلجم لسانه فأمر بعض العبيد فقيّدوه ثم أخذ الفضة وصبّها في أنفه وهي حماة فتورم دماغه ومات لساعته . وقد ارسل ولاة السودان الحملات عليه قصد إذلاله فقصروا عنه . وبقي على تمرده حتى وقع خلاف بينه وبين ابن عمه آدم دبالو وكان أهله قد

سئموه لكثرة ظلمه وقسوته فنصروا ابن عمه عليه ففرّ بعائلته الى موسى باشا في الخرطوم فأرسله الى اسماعيل باشا بمصر ثم عاد الى السودان فقطن جزيرة معتوق في بلاد سنار ومات هناك . واما الملك آدم دباله فانه بقي على جبال تقلي حتى كانت الثورة المهدية فكان له فيها من الشأن ما نذكره في محله .

حرب العقال : وفي هذه الأثناء وقع في بادية كردوفان حرب شديدة بين عربان حمر وقائدهم الشيخ مكي ود المنعم وبين عربان الكبابيش وقائدهم الشيخ فضل الله ود سالم اشتهرت بحرب العقال لأن كلا الفريقين جمع رجاله وأولاده الى ساحة الحرب وعقل الابل وعوّل على النصر او الموت وتقاتلا طويلاً مستقتلين فانتصر الحمر وغنموا نحاس الكبابيش وأموالهم . وهذه الحرب بين حمر والكبابيش مع « قتلة القرطاس » بين حمر والمعالية المار ذكرها في تاريخ دارفور هما اشهر الحروب التي جرت في بادية السودان الغربي الى الآن ولأهلها فيها أغانيُّ مشهورة في مدح الغالب وذم المغلوب .

١٧ — جعفر باشا صادق ١٢٧١ هـ ١٨٦٥ م . وكالة عمر فخري بك

وبعد وفاة موسى باشا قام عمر فخري بك بشؤون الاحكام الى ان حضر جعفر باشا صادق من مصر حكداراً للسودان .

ثورة الجهادية السود في كسلا سنة ١٨٦٥ م :

وفي أثناء ذلك ثار الجهادية السود في كسلا ثورة أدّت الى سفك دماء كثيرة واستغرقت عدة اشهر وكان السبب فيها سوء إدارة القواد وتأخر الحكومة عن دفع مرتبات الجند . وتفصيل ذلك على ما رواه لي الثقاة الذين شهدوا الثورة : انه كان في « استحكام » كسلا في ذلك الحين الاي فيه نحو ٤٠٠٠ من الجهادية السود ومعهم نحو الف نفر من الباشبوزق الاتراك والشايقية وكان المدير على كسلا ابراهيم بك ادهم . فلما كان شهر شوال سنة ١٢٨١هـ مارس ١٨٦٥م خطر للمدير ان يرسل غزوة على جبال البارية والبازه . فأصدر أمره

لأورطة من الجهادية وبعض الباشبوزق بالتأهب للغزوة وكان قد مضى على الجهادية ستة اشهر لم يقبضوا فيها رواتبهم فرفضوا الامر وقالوا : « لا نسافر حتى نقبض المتأخر من رواتبنا » فلما بلغ خطاب افندي قومندان الاورطة قولهم غضب وقال : « أأصبح للعبيـــد شأن يعصون به الامر فوالله لأسوقنهم الى الغزاة بالسياط » فازداد السود تصلباً وعناداً ولما جاء الميعاد المضروب خرجوا من الاستحكام ووقفوا عند باب سبدرات طابوراً فجمعوا اسلحتهم امامهم كوماً وارسلوا يخبرون خطاب افندي انهم لا ينتقلون من مكانهم حتى يقبضوا رواتبهم بتمامها وان كان لم يزل ينوي تنفيذ امره بالسياط كما قال فليفعل. فجاءهم خطاب افندي على جواده ونادى بهم «سلاح آل» فهجموا عليه وأوسعوه شتماً وضرباً بالعصي وكان نساؤهم من ورائهم يشجعنهم ويزرغطن لهم فلجأ خطاب افندي الى الفرار واخبر المدير بما كان فاهتم للامر وخشي امتداد الثورة الى الألاي كله وكانت الجبخانة (الذخيرة) بيد ملازم منهم فأخرجها من يده وسلمها الى ضابط من ضباط الباشبوزق الاتراك وجمع التجار المغاربة واهل البلد فسلحهم وضمهم الى الباشبوزق وفرّقهم على أبراج السور .

امـا العصاة فانهم حملوا سلاحهم وساروا في وجوههم نحو سبدرات وكان خطاب افندي قد وجّه اليها بعض العساكر الباشبوزق بمدفعين و ٦٠ صندوق جبخانة محملة على ٣٠ جملا ليتقدموا الغزوة فأدركهم العصاة على الطريق واستولوا على الجبخانة والمدفعين بعد ان فتكوا بالعساكر وضربوا قائدهم السر سواري سعيد اغا ابا فلقة فأثخنوه وتركوه بين حي وميت ونزلوا في سبدرات. فعقد المدير نادياً من الضباط والتجار والاعيان للنظر في امر الاورطة فأقرّوا على ان يرسلوا اليهم رواتبهم المتأخرة ومداركة الامر بالتي هي احسن حتى تطمئن نفوسهم اولاً ثم ينفذون فيهم رأيهم . وكان في خزينة كسلا بعض نقود مودعة أمانة فقرّ رأيهم على إعطائهم إياها حتى يتيسّر المال فتُردُّ الى محلها . وكان في كسلا اذ ذاك الاستاذ السيد الحسن ابن الاستاذ السيد محمد المرغني مؤسس الطريقة المرغنية في السودان فتكفّل بالامر له فحمل النقود وجاء الى سبدرات

فوزّعها على العصاة على التساوي فأصاب كلاً منهم اربعة ريالات ثم عنفهم على مسلكهم وطلب اليهم ان يرجعوا الى كسلا فرضوا على ان يكون غير خطاب افندي قومنداناً عليهم فعاد الاستاذ الى كسلا وأخبر المدير بما كان فأرسل اليهم عثمان بك قائمقام العساكر ليقودهم ويغزو بهم الجبال فقابلوه بالطاعة وساروا معه في الغزوة فأقاموا فيها ثلاثة اشهر وعادوا الى كسلا .

وكان المدير في أثناء ذلك قد كتب الى اللواء حسن باشا في الخرطوم يخبره بما حدث فأرسل حسن باشا الميرالاي علي بك ابو ودان لاستلام قيادة الألاي ثم حضر بنفسه على الاثر ومعه اسماعيل بك ايوب للنظر في الامر فوصل كسلا قبل رجوع الاورطة بشهر . فلما حضرت عقـد مجلساً سرياً للنظر في أمرها فاتفق رأيهم على ان يوزعوا العساكر على عربان الهدندوة بحجة جمع الضرائب ثم يأمروا العربان بالقبض عليهم فصدر الأمر للاورطة فخرجت الى الميتكناب بقيادة الميرالاي علي بك ابو ودان . ولما كان يوم الاثنين ٧ صفر سنة ١٢٨٢ هـ ٢٧ يونيو سنة ١٨٦٥ م أمر علي بك ضباط الاورطة وكان أكثرهم من المصريين بالتفرق بين القبائل لجمع الضرائب فأدرك العساكر ان في الامر دسيسة فرفضوا السفر ولما أغلظ لهم الضباط في الخطاب هجموا عليهم فقتلوا أكثرهم وانتشروا في البلدة فنهبوها وانقلبوا راجعين الى كسلا .

اما علي بك ابو ودان فانه نجا منهم بكل مشقة وخفّ الى كسلا فوصلها قبلهم وأخبر اللواء والمدير بما كان فخرجا من منازلهما التي كانت داخل قشلاق (ثكنة) الجهادية ودخلا ديوان المديرية بعائلاتهما وأخذا يستعدان لملاقاة العصاة وكان السر سواري سعيد اغا قد شفيت جراحه فأمراه بالمحافظة على الذخيرة مع عساكره وجمعا الاسلحة من الاورط الثلاثة البـاقية في كسلا وبدل ان يضماها في خزينـــة السلاح وضعاها في القشلاق . وكان الشايقية الباشبوزق مقيمين خـارج السور فأدخلاهم داخل السور وضماهم الى المغـاربة وغيرهم من سكان المدينة وفرّقاهم على الابراج وأمراهم بضرب عساكر الاورطة عنــد وصولها وأقاما في برج الحلانقة بين البابين الغربيين . وفي صباح الاربعـاء ١٠

صفر سنة ١٢٨٢ هـ ٥ يوليو سنة ١٨٦٥ م حضرت الاورطة سائرة بالانتظام العسكري فلما شاهداها بهذا الانتظام أمرا بعدم التعرض لها ودخلا ديوان المديرية فتحصنا به فلما اقترب العصاة من باب الجنائن أطلق عليهم البلوكباشي محمد اغا المردلي عياراً نارياً على خلاف الامر فقتل منهم شاويشاً وقال هـذا ثأر ابن عمي الذي قتل يوم الثورة عند سلب الجبخانة ثم أطلق عيـاراً نارياً آخر فقتل اومباشياً فهـاج عساكر الاورطة اذ ذاك ودخلوا القشلاق وكان فيـه الضباط المصريين وعدتهم ستة وعشرون فقتلوهم عن آخرهم أما خطاب افندي فبعد ان قتلوه وضعوا عليه يبيساً وأحرقوه بالنـــار ثم اجتمع عليهم الاورط الثلاثة الباقية وتعصبوا للجنسية ضد الاتراك والعرب وكسروا أبواب الغرف التي وضع فيـه سلاحهم فأخـذوه وتحصنوا في القشلاق وفتحوا فيه المزاغيل وقطعوا السابلة وانتشر أكثرهم في البيوت ينهبون ويسلبون . وكان السيد حسن المرغني قد ذهب الى سبدرات فأرسل اليه المدير يدعوه فحضر في ١١ صفر سنة ١٢٨٢ ١ يوليو سنة ١٨٦٥ الى حلة الحلانقـة غربي الاستحكام وكتب الى العصاة يسألهم الكف عن الحرب وسلـّم الكتاب الى احد خلفائه فرفعه على قصبة ودخل به الاستحكام وهو ينادي جاءكم كتاب السيد الحسن فتلقاه العصاة بالقبول وكفوا عن الحرب. ثم دخل الاستاذ فهرعوا اليه يقبلون يديه وشكوا اليهم أمرهم فوعدهم بالراحة ثم ذهب الى اللواء والمدير وعقـد مجلساً للنظر في تسكين الفتنة فقرّ الرأي المرة الثانيـة على استخدام العربان للقبض عليهم فجمعوا جموعاً كثيرة من خيالة وقرّابة من الهدندوة والحلانقة وعرب سبدرات والجادين وبني عامر ووضعوهم في الخاتميـة . ثم ذهب السيد الحسن الى الجهادية وقال لهم لقد اتفق الرأي على ان تخرجوا من الاستحكام بجميع أمتعتكم وتذهبوا الى حيث تشاؤون فشعر الجهادية ان في الامر مكيدة كالتي كيدت لهم في المتكناب فأبوا ان يخرجوا الا اذا أعطي كل منهم ١٢ طلقة من الجبخانـة ليحموا بها أنفسهم اذا غُدر بهم فاتفق رأي الجميع على اجابة طلبهم إلا سعيد اغا ابو فلقـه المولج في حفظ الجبخانة وصاحب الثأر

على العصاة كما مر فانه رفض هذا الرأي بتاتاً وقـال « اني لا اعترف بسلطة احد منكم عليّ وأحسب نفسي مسؤولاً عن الجبخانـة من افندينا رأساً » . فأجابه المدير واللواء «اذا نحن لم نعطهم القدر القليل الذي طلبوه من الجبخانة فـلا حيلة لنا في القبض عليهم بل نخشى ان يهاجموك فيقتلوك انت ورجالك ويستولون على الجبخانة كلها فبقي ان نختار أهون الشرين ونعطيهم ما سألوه ثم ننظر الى رأينا فيهم » . قال سعيد اغا « أأهون الشرّين تختارون في تسليمكم جبخانة الحكومة الى عصاة خونة تمردوا عليها وقتلوا الجم الغفير من رجالها أفي الدنيا شر اعظم من ان يظهر رجـال العسكرية الجبن امام العبيد اولاد الجواري فيسلموا لهم بمطاليب. ما أنزل الله بها من سلطان ويعطونهم الجبخانة ليستخدموها في حربهم أليس الأجدر بنا ان ندعوهم الى الطاعة فان أبوا حاربناهم حتى فزنا او متنا مشرفين . ومع ذلـــك فاختاروا أنتم لأنفسكم ما تشاؤون اما انا فقـد اخترت الموت على التسليم بمطالب هؤلاء الاجلاف واذا هاجموني في محلي وعجزت عن صدهم فاني اركب برميلاً من البـارود وأشعل النار في الجبخانة كلها فأقتل نفسي ولا أمكـّنهم من طلقة واحدة منها » .

وبلغ العصاة هذا القول فتركوا السفر وانقسموا اربع فرق حسب اجناسهم الدنكة والفور والنوبـة والمولـّدين فتولى كل فرقة رئيس منهم وانتشروا في البندر ينهبون ويسلبون ونزلت فرقة الدنكة على منزل الحاج احمد ود عجيب وكان فيه مطمورة غلة فقتلوا الحاج احمـد المذكور وأخاه وتقدموا الى باب المطمورة لاخراج الغلة وكان للحاج احمـــد بنت تسمى آمنة فلما رأت أباها وعمها مقتولين هان عليها الموت فأخذت سيفاً ووقفت في الباب فصدتهم عن الدخول وقتلت خمسة منهم فتسلقوا السقف ونقبوه ونزلوا اليهـــا فقتلوها وأخذوا الغلة .

وكان المدير قد ارسل يطلب المدد من عمر فخري بك في الخرطوم ورفع فخري بك الخبر الى اسماعيل باشا بمصر فاهتم اسماعيل باشا بالأمر حق الاهتمام وبعث بجعفر باشا صادق والياً على السودان فذهب اليه عن طريق كورسكو.

وجعل جعفر باشا مظهر وكيلا له وأرسله بجيش ومدفعين الى كسلا لاخماد الثورة فذهب اليها عن طريق سواكن . وبعث بالاوامر المشددة الى عمر فخري بك ليبادر الى ارسال النجدات من حاميات البلاد الى ان يصل مدد مصر .

وكان اول من وصل الى كسلا مدداً السر سواري علي كاشف الكردي ومعه ٤٠٠ رجل من الباشبوزق جاءها من القضارف في أواخر يوليو سنة ١٨٦٥ م ونزل في ديوان المديرية . وبعد وصوله ببضعة ايام خرج احد رجاله بجمله لبرعاه فلقيه جماعة من الجهادية السود فسلبوه جمله وسلاحه وجبخانته فعاد الى علي كاشف شاكياً فغضب علي كاشف وضرب طبل الحرب وتهيأ للقتال . وكان السيد الحسن المرغني لا يزال مقيماً داخل الاستحكام فأتى اليه وسكّن غضبه وتكفل له بردّ الجمل والسلاح ثم ذهب الى الجهادية وتلطف لهم فردّوا الجمل والسلاح ولكنهم أنكروا انهم أخذوا شيئاً من الجبخانة فصمم علي كاشف رأيه على استرجاع الجبخانة ولما لم يردوها خرج اليهم ليلاً في ضوء القمر وأشعل فيهم النار فقابلوه بالمثل ولما ثقل عليه الرصاص عاد الى ديوان المديرية وتحصن به . وفي اليوم التالي فتح الجهادية المزاغل في القشلاق والمنازل التي في جواره وصاروا يرمون المارة بالرصاص فقطعوا السابلة وحبسوا الناس في منازلهم مدة ٢٦ يوماً حتى حضر آدم بك من ود مدني فالخرطوم فبربر بعدد من الجنود المنظمة والباشبوزق فكفوا عن الحرب .

اما آدم بك فكان من أعظم ضباط الجيش المنظم وقد تربّى في مصر ورافق ابراهيم باشا الى بر الشام فاشتهر بالبسالة والدربة وحسن السياسة وكان اسماعيل باشا يعرفه فلما بلغه انه نُدب الى كسلا كتب اليه بالتركية بتاريخ غرة جمادى الاولى سنة ١٢٨٢ هـ ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٦٥ م ما مفاده :

« عزتلو آدم بك

« ورد لنا في هذا البريد كتاب من عمر فخري بك وكيل الحكدارية سابقاً بتاريخ ٤ ربيع اول سنة ١٢٨٢ هـ ٢٨ يوليو سنة ١٨٦٥م انك وُجّهت بنفر من العساكر النظامية والباشبوزق الى كسلا لاخماد الثورة وقد ارسلتُ

منذ عشرين يوماً جنداً منظماً ومدفعين بقيادة جعفر باشا مظهر وكيل الحكدارية لهذه الغاية عينها . على اني أؤمل انك تتمكن من اخماد الثورة قبل وصوله فان عجزت عنها وحدك فاني جازم انكما تقويان عليها معاً . وقد اتصل بي ان افراداً من العصاة يخرجون من الاستحكام الى البلاد يعيثون ويفسدون فتعقب مثل هؤلاء وجازهم أشد جزاء واذا خرج منهم جماعة كبيرة من مئة نفر الى مئة وخمسين فجرّد عليهم نخبة من فرسان الباشبوزق الذين استصحبتهم من الخرطوم ومن الجند المصرية المنظمة الذين اعتادوا هواء البلاد ليطاردوهم حتى يظفروا بهم قتلى او اسرى اما الاسرى فسلمهم الى جعفر باشا ليفعل فيهم رأيه . واني أعلم بسالتك وحسن سياستك منذ كنت مع المرحوم والدنا في سوريا فحقق آمالنا بك وعند انتهاء الثورة احضر الى مصر والسلام » .

فلما وصل آدم بك الى كسلا أنزل جنده خارج السور تجاه الباب الشرقي وأخذ بروجيه وبلطجيه وذهب رأساً الى القشلاق حيث أقام العصاة فأمر البروجي فضرب « نوبة جمعية ضباط » ولما اجتمع الضباط عليه خاطبهم قائلاً : « يا أولادي ما هذا التمرد والعصيان اللذان جاهرتم بهما ألستم اولاد أفندينا الذي شرفكم بخدمته وأجرى لكم الرزق والخيرات السنين الطوال أيحسن بكم ان تعصوه وتنقضوا على حكومته وهو قد عهد اليكم تأييد سلطته في البلاد ؟ نعم انكم مظلومون لعدم أخذكم رواتبكم في أوقاتها ولكم ان ترفعوا أصواتكم بالشكوى ولكنكم خرجتم عن حد الشكوى ووسعتم الخرق . ومع هذا فاني ارجو اصلاح الامر وأخذ العفو لكم من ولي النعم فاذا سألوكم بعد الآن فقولوا انا لم نجد ضابطاً عظيماً من أبناء جنسنا نرفع له شكوانا ليبلغها الى وليّ نعمتنا فكان منا ما كان . وأريد منكم الآن ان تخرجوا خارج السور فتقيموا بين جبل مكرام وجبل كسلا حتى يصل اليكم العفو ولا تغتروا بقوتكم وكثرة جموعكم فان « يد الميري طويلة » فها انا قد جئت بجيش من العساكر السود والباشبوزق وجاء قبلي جيش آخر والمدد آتٍ في الطريق من كردوفان

وسنار وبربر ومصر فاذا تماديتم في العصيان فانهم يجتمعون عليكم ويقتلونكم شر قتلة فاقبلوا النصح وسلموا أمركم إليّ وانا أدبركم بحكمي ومروءتي » . وآدم بك عربي الجنس وأبوه محمد ضو البيت شيخ عربان دار حامد بكردوفان ولكنه كان شديد السمرة جداً وعارفاً بأخلاق السود حتى كان يُظن انه منهم فاستأنسوا به واطمأنوا لكلامه خصوصاً لأنه خاطبهم كأب فامتثلوا أمره وخرجوا من القشلاق الى المكان الذي عيّنه لهم خارج السور .

وبعد وصول آدم بك بأربعة ايام حضر الصاري ششمه عبد الله باشا من الخرطوم وبربر ومعه ثلاثة ارادي من الباشبوزق فعسكر خارج السور. وعقد اللواء حسن باشا مجلساً في ديوان المديرية مع عبد الله باشا والمدير وآدم بك وسائر الضباط والسناجق للنظر في شأن العصاة فقرّ رأيهم على تجريدهم من السلاح وولجوا الأمر لآدم بك فسلموه سلاحهم عن رضى . ثم عقد الضباط مجلساً آخر للنظر فيما يفعلونه بعد فكان رأي الاكثرية على قتلهم فأنكر آدم بك هذا الرأي وقال اني حلفت لهم بشرفي انه لا يقع عليهم حكم إلا اذا صدقه أفندينا وعلى هذا سلموني سلاحهم فالآن نرفع الامر الى افندينا والذي يأمر به نفعله . فأخذ المجلس برأيه ولكنه أقرّ على شد وثاقهم الى ان يأتي الردّ بشأنهم من مصر فأمروا عساكر الباشبوزق فركبوا خيولهم واحتاطوا بهم من كل جانب وأخذوا حبالاً من المخازن وشرعوا في تقييدهم وادخالهم في القشلاق جماعة بعد جماعة . وانهم لكذلك اذا ببلوكباشي من الباشبوزق اختطف بنتاً من يد شاويش من الألاي ليتمكن من تقييده فبكت البنت فسأله ابوها ان يتركها وشأنها فشتمه البلوكباشي ورفسه برجله فأخرج سكيناً من كمه وطعن البلوكباشي فقتله وهاج السود فأمر عبد الله باشا الباشبوزق فأطلقوا الرصاص عليهم فقتلوا اكثرهم وقبضوا على الباقين قبض اليد وزجوهم في السجن .

ثم لم يكن إلا القليل حتى حضر جعفر باشا مظهر بجنده وحقق أسباب الثورة . وكان الصاغ محمد افندي ابا حظلك قد كشف حظه في الرمل فقيل

له انه اذا بقي مع المدير يموت شنقاً فانضم الى العصاة وذلك قبل مجيء آدم بك من الخرطوم بيومين فأمر جعفر باشا بشنقه فشنق.ثم شنق بعده اليوزباشي بشير اغا السوداني الذي اتحد مع الجهادية بعد رجوعهم من المتكتاب . أما الجهادية العصاة الذين سلموا من القتل فقد جعلهم ثلاث فئات فجعل الذين بدأوا بالثورة مع خطاب افندي ثم عصوا في الميكتاب فئة اولى . والذين عصوا بعد رجوع الفئة الاولى من الميتكتاب فئة ثانية . والذين كانوا متغيبين في الجهات خارج البندر او الذين كانوا فيه ولم يظهروا العصيان فئة ثالثة . فحكم على رجال الفئة الاولى بالاعدام فأوثقوهم وصفوهم على خندق حفروه لهم في سفح جبل مكرام وضربوهم بالرصاص فسقطوا في الخندق ثم ردموا الخندق فكان من الردم تل ظاهر . وحكم على رجال الفئة الثانية بالحبس المؤبد مع الاشغال الشاقة فاستخدموهم اولاً في بناء المنازل التي خرّبوها . وأما رجال الفئة الثالثة فقد نظم منهم ٣ بلوكات وأبقاهم في المديرية . أما ابراهيم بك أدهم المدير فقد توفي قبل وصول جعفر باشا الى كسلا بأيام قليلة وكانت وفاته بغتة حتى قيل انه شرب سماً ليتخلص من الاهانة والعقاب . وتوفي بعده عبد الله باشا ، ثم عثمان بك . وكان اللواء حسن باشا قد أصيب بالاسهال قبل وصول جعفر باشا الى كسلا فتوفي بعد وصوله بأيام قليله .

وهكذا انتهت ثورة الجهادية السود في كسلا بعد ان جرّت الخراب على أهلها وضاع فيها الكثير من النفوس والاموال . ولم تكتف بهذه بل جرّت وراءها ذيلاً أي حمى وبائية نجمت عن فساد الهواء لكثرة القتلى فمات بها خلق كثير .

١٨ – جعفر باشا مظهر سنة ١٢٨٢ : ١٢٨٧ هـ – ١٨٦٦ : ١٨٧١ م

أما جعفر باشا مظهر فانه بعد ان هدّأ الثورة في كسلا أقام حسن بك مديراً عليها وتوجه الى الخرطوم وذهب آدم بك الى مصر طوعاً للأمر فأنعم عليه اسماعيل باشا برتبة اللواء وبالنيشان المجيدي الثاني وسمي جعفر باشا

مظهر حاكماً عاماً للسودان فعاد جعفر باشا صادق مريضاً الى مصر ودخل مظهر باشا الخرطوم في ١٧ شوال سنة ١٢٨٢ هـ ٥ مارس ١٧٦٦ وثاني يوم دخوله قرئ الفرمان العالي بحضور جمع حافل من العلماء وأرباب المناصب والاعيان وبعد قراءته دخل الناس للسلام عليه وكان هناك شاهين باشا الذي حضر بالنيابة عن اسماعيل باشا لتنظيم مالية السودان فعرّفه بجميع الداخلين عليه فخلع على العلماء والوجهاء أحسن الخلع. وجعل علي بك فضلي وكيلا له. ثم جمع العساكر السودانية من التاكا وود مدني وكردوفان وغيرها وأرسلهم الى مصر وأتى بعساكر مصرية عوضاً عنهم .

وكان عند قدومه الى الخرطوم قد حدث غلاء واشتد حتى هاج الناس فأرسل بعض التجار بنقود من الخزينة الى الجهات فأتوا بالغلال فرخصت حتى صار ربع الذرة بغرش بعد ان كان بخمسة غروش .

وفي أواخر سنة ١٨٦٦ م ذهب الى سنار وفازوغلي وكردوفان فاستطلع أحوالها ثم عاد الى الخرطوم فطلب من مصر ردّ العساكر السودانية الى السودان .

وفي هذه السنة أي سنة ١٨٦٦ م تخلت الدولة العليا عن سواكن ومصوع الى الحكومة المصرية بزيادة « ١٦٠٠٠ جنيه مصري » على جزيتها السنوية .

وفي ١٦ الحجة سنة ١٢٨٣ هـ ٢١ ابريل سنة ١٨٦٧ م ذهب جعفر باشا الى مصر بطلب من اسماعيل باشا فأرسل بمهمة الى جهة البحر الاحمر وبعد قضائها رجع الى مصر فوصلها في غرة رجب سنة ١٢٨٥ هـ ١٨ اكتوبر سنة ١٨٦٨ م وحال وصوله أرجع معظم العساكر المصرية الى مصر .

وفي سنة ١٨٦٩ م قام من الخرطوم رجل يسمى البلالي بحملة صغيرة لاحتلال بحر الغزال وحضر السر صمويل باكر مكتشف بحيرة البرت نيانزة بحملة من مصر لاحتلال خط الاستواء وذلك لضم هذين البلادين الى حكومة السودان ومنع تجارة الرقيق التي كانت قد عمت تلك البلاد وسائر بلاد السودان

وقبل الشروع في ذكر هذين الحملتين أذكر طرفاً من تاريخ تجارة الرقيق على سبيل التوطئة فأقول :

تجارة الرقيق في السودان :

الاسترقاق قديم في الناس ظهر فيهم في كل زمان ومكان وأصله الفطرة التي جُبل عليها الاحياء من استعباد القوي للضعيف . وأول ما ظهر استرقاق الناس في أسرى الحرب فكان الظافر يحمل أسراه في خدمته حتى يُفتدوا بالمال وإلا أبقاهم عبيداً عنده الى الممات . وهذا في السود والبيض على حد سواء وكلامنا الآن في السود فقد مرّ بنا كيف كان الفراعنة من اول عهد التاريخ يغزونهم ويعودون منهم بالأسرى فينظمونهم في جيشهم او يدخلونهم في خدمة بيوتهم واقتفى أثرهم اليونان ثم الرومان ثم العرب المسلمون الذين ملكوا مصر على التوالي . ثم كان كلما هاجر قوم من مصر او آسيا الى السودان يزحزح السود عن أماكنهم جنوباً ليفسح لنفسه مكاناً طيباً يقيم فيه حتى اضطر السود الى الاعتصام بالجبال الصعبة ومستنقعات النيل الاعلى. ولما افتتح العرب المسلمون السودان وأسسوا فيه الممالك اشتد الخطب على السود ولم يعد لهم في بلادهم راحة لأن العرب لم ينفكوا عن غزوهم وسبيهم كلما سنحت لهم فرصة وربما أركن بعضهم الى الحيلة والغدر فخالف ملكاً من ملوك السود وتعلم لغته وتزوج من بناته ثم تسنّت له الفرصة فاختطف النساء والاولاد وعاد الى بلاده . وبذلك كثر السود عند عرب السودان حتى صار أحقر العرب يملك رقيقاً وزاد الرقيق عن حاجتهم فصاروا يتجرون به في مصر والحجاز وتفرع من هذين البلادين الى سورية وتركية والفرس وسائر بلاد المشرق وأصبح الاتجار بالرقيق في السودان مهنة من اعظم المهن .

البحارة : وكان اهل السودان الى هذا العهد يحاربون بالحراب والسيوف والنشاب ولم يستعملوا البارود إلا نادراً فلما كان الفتح المصري ودخلت جنود مصر بأسلحتها النارية الى السودان كثر استعمال البارود فيه وصار العربي

الواحد يرهب ببندقيته رهطاً من السود فسهل على العرب غزوهم بل أصبح غزو السود وصيدهم صناعة لكثيرين منهم يتعيشون بها ويجمعون منها الاموال الطائلة . وقد توغل صياد الرقيق في النيل الابيض حتى وصلوا الى أعاليه وملأوا بلاد بحر الغزال وخط الاستواء قبل وكان اول من دخل بحر الغزال بعد الفتح المصري تاجر من الخرطوم يسمى الحبشي دخلها سنة ١٨٥٤ م في قارب صغير ثم اقتفى أثره الكثير من التجار وأشهرهم السيد احمد العقاد من مصر وعلي ابو عموري من صعيد مصر ومحجوب البصيلي من اسنا وغطاس القبطي وكوشوك علي التركي وادريس ابتر الدنقلاوي وغيرهم. وكانوا في بادي يتجرون بالعاج والريش واللاستك ثم وجدوا ان الرقيق أربح لهم وصيده سهل فانعكفوا عليه وجنّدوا له العصائب . وكان التاجر منهم يأتي بعصابته بلداً من بلاد السود فيحفر خندقاً يضع داخله بضائعه وأسلحته ورجاله ويحيطه بزريبة من شوك ثم يشرع في جمع السن والريش مقايضه بالخرز والحراب والاساور وغيرها من الاشياء المرغوبة في تلك الجهات ويخزن ما يجمعه منها في زريبته ويبقى على ذلك الى ان يلقى فرصة في ذلك البلد فيهاجم أهله ببنادقه . وكان السود اذا سمعوا صوت البنادق فرّوا كالانعام مملوئين رعباً وخوفاً فيغنم التاجر ويسبي ويعود الى زريبته . ومما جرّأ التجار على مثل هذه الفعال انشقاق ملوك السود بعضهم على بعض فكانوا اذا هاجموا ملكاً منهم لم يخشوا إنتصار جيرانه له بل ربما استنصروا جيرانه عليه . وكانوا يقيدون أسراهم بقيود من حديد ويسوقونهم الى زرائبهم سوق الانعام حتى لقد يموت كثير منهم في الطريق وعند وصولهم الى الزرائب يلتقون أقواهم بدناً وأخفّهم حركة وأثبتهم جناناً فيضمونهم الى عصابتهم ويدفعون الباقي مع السن والريش الى النخاسين . وقد عرف هؤلاء التجار « بالبحارة » لأنهم كانوا يغزون في البحر الابيض .

النهّاضة : وأما الذين كانوا يغزون الجبال كجبال النوبة وجبال فازوغلي فقد عُرفوا بالنهاضة . حدثني بعض زعماء النهاضة في جبال النوبة عن كيفية

غزوهم تلك الجبال قال : كنا لا ننهض للغزو إلا في أوان الزرع اذ يترك السود جبالهم وينزلون الى السهول لزرع الحبوب فيستصحب كلٌ منا نفراً من المشاة المسلحين بالبنادق وكتيبة من الفرسان البقارة المجاورين لتلك الجبال فيردف كل فارس معه رجلاً ويسير الفرسان في مقدمة المشاة حتى اذا ظفروا بجماعة من السود أغاروا عليهم بخيلهم ونزل الردّاف عن الخيل فشدّوا وثاقهم وساقوهم امامهم وانقلب الكل راجعين فاذا فزع السود من الجبال تصدّى لهم المشاة وفتحوا عليهم أفواه البنادق وردُّوهم على أعقابهم خاسرين واقتسموا الرقيق فيما بينهم النصف للفرسان والنصف الباقي نصفه للزعيم ونصفه للمشاة ومصير الكل أسواق الرقيق .

وأشهر اسواق الرقيق في ذلك العهد اسواق الأبيّض وفاشودة والقلابات التي كان يرد اليها الرقيق من دارفور وجبال النوبة وبحر الغزال وخط الاستواء والحبشة وكان النخاسون يشترونهم من هذه الاسواق ويبيعونهم في اسواق الخرطوم والمسلمية وود مدني وسنار والقضارف وكسلا وبربر وشندي ويرسلون ما زاد عن حاجة البلاد الى الحجاز ومصر عن طريق النيل والبحر الاحمر .

اما أثمان الرقيق فتختلف من الريال الواحد الى الخمساية ريال وذلك باختلاف أجناسهم وأعمارهم وبنيتهم وبعدهم عن منبعهم الاصلي . وثمن الانثى اعظم من ثمن الذكر . وأعزّ الرقيق رقيق الحبشة ثم رقيق الدنكا ثم النوبة ثم الفور وأدناها رقيق الشلك .

وشرُّ ما أنتجته هذه التجارة المعيبة خصي العبيد الذكور بطريقة تقشعر لها الأبدان وهم يلتقون للخصي أقوى الصبيان وأصحهم بنية من سن ٦ : ١٢ فما يبلغ هؤلاء المساكين سن الرشد حتى يظهر تأثير تلك القسوة البربرية على وجوههم فتغور عيونهم وترتفع عظام وجوههم ويجرّد منها اللحم ويضؤلون حتى يصيروا أشبه بالهياكل منهم بالناس .

وقد تنبهت الدول الى هـــذه التجارة المعيبة منذ عهد بعيـد وسعَت في إبطالها وكانت الدولة الانكليزية اول من تنبه لهـا فألّفت جمعية في مدينـة لندن سنة ١٧٨٧ م ثم شاركتها باقي الدول دولة بعـد دولة حتى تمّ اتفاقها كلها على ذلك بصورة قطعية في مؤتمر بروكسل في ٢ يوليو سنة ١٨٩٠ م .

اما مصر فانها لم تشارك الدول في إبطالها حتى توفقت الى حكم العـائلة المحمدية العلوية فنادى محمد علي باشا بإبطالها على رؤوس الاشهاد عنـد زيارته السودان سنة ١٨٣٩ م وكذلك فعل سعيد باشا عنـد زيارته السودان سنة ١٨٥٨ م كما مرّ. ولما تبوّأ اسماعيل باشا الأريكة الخديوية سنة ١٨٦٣م أصدر أوامره المشددة الى موسى باشا والي السودان فتعقب تجـار الرقيق وفي تلك السنة عينها ألقى القبض على سبعين مركباً مشحونة بالأرقاء بين كاكا وفاشودة وأتى بهم الى الخرطوم ثم أحضر ملك الشلك من فاشودة فسلمه الرقيق الذي أخذ من بلاده وأرجعه بالهدايا ووزع الباقين على التجار والموظفين لتربيتهم . وأما التجار فانه زجّهم في السجن ولم يخرجهم منه حتى تعهدوا بعدم العودة الى مثل هذه التجارة .

احتلال فاشودة سنة ١٨٦٥ م :

وفي سنة ١٨٦٥ م أي في ايام جعفر باشا صادق احتلت العساكر المصرية فاشودة احتلالاً رسمياً فسدّت طريق النيل الابيض في وجه اصحاب الزرائب في بحر الغزال وخط الاستواء . وكان التجار الاوروبيون قد باعوا زرائبهم الى وكلائهم العرب سنة ١٨٦٠ م فوضع جعفر باشا الضرائب على الزرائب ثم احتكرها السيد احمد العقاد شريك السيد موسى العقـاد من الحكومة بخمسة آلاف جنيه في السنة على ان لا يتجر بالرقيق ولا يغزو بلاد العبيد ومع ذلك لم يزل رجـاله يتجرون بالرقيق ويغزون العبيد وأصبحت بلاد خط الاستواء وبحر الغزال فوضى وأهلها بغاية الضيق والشدة . فرأت الحكومة انه لا يمكن

اصلاح الحال وإبطال تجارة الرقيق إلا اذا ضمت بلاد بحرالغزال وخط الاستواء الى السـودان فعوّلت على ذلك وبادرت الى تنفيذه .

فتح خط الاستواء ، والسر صمونيل باكر
سنة ١٨٦٩ : ١٨٧٣ م

ولما كانت سنة ١٨٦٩م انتدب اسماعيل باشا السر صمونيل باكر مكتشف بحيرة البرت نيانزة لفتح خط الاستواء فأنعم عليه برتبة فريق مع لقب باشا وعقد له على جيش مؤلف من ١٧٠٠ رجل هـذا تفصيله : ٧١٠ من المشاة المصريين و ٥٠٠ من المشاة السودانيين و ٢٠٠ من الباشبوزق و ٢٩٠ من الطوبجية المصريين ومعهم ٣ بطاريات مدافع جبليـة وبطارية ساروخ وسماه حاكماً على البلاد الاستوائية لمدة اربع سنين تبتدىء من ١ ابريل سنة ١٨٦٩م براتب قدره ١٠٠٠٠ جنيه في السنة وأعطاه فرماناً يوجه فيه افتتاح تلـك البلاد وابطال تجارة الرقيق فيها وتأسيس نقط عسكرية قوية من كوندوكرو الى البحيرات وادخال السفن في نيلها وتنشيط زراعتها .

فقام باكر ومعه امرأته من السويس في ٥ ديسمبر سنة ١٩٦٩ وجـاء الخرطوم عن طريق سواكن وبربر فوصلها بعد سفر ٣٢ يوماً وفي السابع من شهر فبراير سنة ١٨٧٠ قـام بثلاثين مركباً من الخرطوم قاصداً بلاد خط الاستواء فمنعه السد عن استمرار السير فنزل قرب ملتقى نهر سبت بالنيـل الابيض وبنى محطة دعاها بالتوفيقية على اسم ولي العهد وأقام فيها سبعة أشهر ثم فتح طريقاً في بحر الزراف وسار الى كوندوكرو فوصلها في ٢١ ابريل سنة ١٨٧١ فوجد فيها كنيسة للمرسلين النمساويين. وفي ٢٦مايو سنة ١٨٧١ رفع عليها العلم المصري وسمّاها بالاسماعيلية على اسم الخديوي وجعلها مركزاً لحكومته .

وكانت بلاد خط الاستواء لا تزال مأجورة للسيد احمد العقاد في الخرطوم فالحق بباكر باشا صهره وابن اخته أبا السعود العقاد للنظر في صالح تجارته فلم يتفق مع باكر .

وفي ٢٣ يناير سنة ١٨٧٢ سار باكر ببعض الجند من كوندوكرو جنوباً فأسس نقطة في الابراهيمية قرب الدّفلاي وظن انهـا تكون عاصمة البلاد فيما بعد . ونقطة في فاتيكو ونقطة في فوّيرة . ثم تقـدم منها الى بلاد يونيورو فخلع ملكها كبريقه لأنه لم يخضع له وولى بدله مزاحماً له يُدعى ريونجه . وفي ١٤ مايو سنة ١٨٧٢ أعلن ضم بلاد يونيورو الى الحكومة الخديوية رسمياً وأسس نقطة عسكرية في عاصمتهـا مسندي وهي على ٥٠ ميلاً من البرت نيانزة . وعقـد شروطاً ودّية مع متاسي ملك اوغنده وبذلك تدرّج الى بسط نفوذ الحكومة المصرية من سبت الى بحيرة فكتوريا نيانزة . لكن هـذا النفوذ لم يدم طويلا في يونيورو فان كبريقه الذي خلعه باكر جمع جموعه وهاجمـه في مسندي ولم يكن مع باكر إلا مئة رجل فأخلاها مضطراً في ١٤ يونيو سنة ١٨٧٢ وعاد الى فاتيكو فوجد فيها أبا السعود ومعه ٢٧٠ رجلاً فطرده منها فعاد شاكياً الى الخرطوم ثم الى مصر .

وعاد باكر باشا الى كوندوكرو فوصلها في ١ ابريل سنة ١٨٧٣ أي يوم نهاية مدتـــه على خط الاستواء فترك رؤوف بك قومنداناً على العساكر في كوندوكرو وقام في ٢٦ مايو سنة ١٨٧٣ الى الخرطوم ومنها الى مصر فوصلها في ٢٤ اوغسطوس سنة ١٨٧٣ واستعفى من وظيفته فقبل استعفاؤه .

الكولونيل غوردون في خط الاستواء
سنة ١٨٧٤ : ١٨٧٦ م

وبعد استعفاء باكر باشا من خط الاستواء أوصى ولي عهد انكلترا اسماعيل باشا بأن يكون الكولونيل غوردون في مكانه وكان اسماعيل باشا يودّ بقـاء تلك البلاد لمصر فأمر بتعيينه ولقد كان لغوردون أعظم الشأن في السودان بل كانت منيته فيه ولذلك نأتي على خلاصة تاريخه لهذا العهد فنقول ولد غوردون في مدينة ولوِتش ببلاد الانكليز سنة ١٨٢٣م وانتظم في سلك العسكرية سنة ١٨٥٢ م وكان ميالاً بالطبع الى لقاء الاهوال والصبر على المكاره مما اتصل اليه

بالارث من آبائه واجـــداده فان أبا جده اشتهر بالبسالة والبأس في الحروب الاسكوتلاندية . وشهد جدّه مواقع عظيمة وأخطار هائلة . وكان ابوه ضابطاً في الطوبجية الانكليزية فارتقى فيها الى رتبة فريق . وحضر غوردون حصار سيبستبول سنة ١٨٥٥ م فشهد له بالدربة والاقدام . وفي سنة ١٨٦٠ م سافر الى الصين ودخل الجيش فواقع عدة وقائع دلت على شجاعته وتمام براعتــه في الفنون العسكرية فنال من سلطان الصين لقب صاري عسكر . وفي سنة ١٨٦٥م عاد الى الجيش الانكليزي فرُقي فيه الى رتبة كولونيل وبقي في بلاد الانكليز الى ان سمّي حاكماً للبلاد الاستوائية سنة ١٨٧٤ م كما مرّ .

وهذه هي صورة الفرمان الذي أصدره له اسماعيـل باشا بتاريخ ٢ محرم سنة ١٢٩١ هـ ١٩ فبراير سنة ١٨٧٤ م نمرة ٩١ سايرة :

« انه بحسب المشهور فيكم من اللياقة والأهلية قد عيناكم مأموراً على جهات خط الاستواء التابعـة الحكومة وصار فرز هـذه الجهة من تبعية حكمدارية السودان وصارت قائمة بنفسها غير تابعة الحكمدارية انما كافـــة لوازماتها التي يقتضي الحال لتداركها من طرف الحكمدارية هـذه يجري تداركها بمعرفة الحكمدار وصرف ثمنها من طرفه مقابله محاسبة المالية بذلك كما أمرنا الحكمدار المومى اليه بأمرنا الصادر له في تاريخه ومرسل لكم طي هذا لتوصيله اليه عن يدكم . وبما ان أمور التجارة في ذاك الطرف هي يد واحدة يقتضي ان الذي يتحصلوا عليه من تلك الجهات من انواع التجارة بعد صرف كفاية مرتبـات العساكر والتعينات ترسلوه الى حكمدار السودان لقبوله من اصل ما يصرفـه في أثمان اللوازمات التي تطلبوها منه وعند وصولكم الآن لتلك الجهات واختباركم أحوالها تجروا ترتيبها بحسبما يتراءى لكم وتستحسنوه سواء كان باجعال مديرتين او اجعال اقسام او نحو ذلك مما يتوصل به انتظام الجهات المذكورة واستعدادها مع معاملة أهاليها بالرفق ولين الجانب والتأليف والمراعاة لمـــا فيه عماريتهم وترغيبهم وتشويقهم على العماريـــة ودخولهم في سلك الانسانية شيئاً فشيئاً وهكذا مما يلزم أجروه على حسب التعليمات التي أعطيت لكم بالفرنساوي وها

هو موجود هناك رؤوف بك قومندان العساكر الموجودة بذاك الطرف وتحرر له أمر من طرفنا ومرسول طيه لتوصيله له بمعرفتكم وأمرناه به ان يكون هو والعساكر تحت أمركم فيما يجب اجراه في صالح المصلحة ولو ان المومى اليه ومن معه من العساكر صار لهم مدة زايدة في تلك الجهات ولذلك منظور في ارسال خلافهم من هذا الطرق لتغييرهم لكنه في مسافة ارسال البدل يكون المومى اليه والعساكر منقادين لأوامركم حسب اصول وقوانين الجهادية. وعلى هذا وما منظور لنا فيكم من حسن الغيرة والاهلية مؤملين الاستحصال على ما فيه عمارية جهات خط الاستواء المحكى عنها وراحة أهاليها وحسن توطينهم وتأليفهم على الدخول في سلك الانسانية شيئاً فشيئاً كما هو مطلوبنا .

حاشية : انه بعد توجهكم ووصولكم ذلك الطرف تعملوا الترتيب اللازم عن مصاريف تلك الجهة بحسبما يلزم لها من الخدمة والعساكر وكلما يلزم تداركه وارساله من جهات الحكمدارية. على حسب الترتيب المذكور تطلبوه من الحكمدارية وتعينوا له الاوقات والمواغيد اللازم تدارك وارسال اللوازمات المذكورة فيها بحيث اذا كانت الايرادات على فرض لا تكفي المصروفات فالحكمدار يرسل لكم كلما تطلبوه ويحاسب ديوان المالية بذلك يكون معلوم » اهـ.

وسار غوردون من مصر القاهرة ومعه نفر من الموظفين والاتباع في ٢١ فبراير سنة ١٨٧٤ فأخذ من الخرطوم بعض الجند وفي جملتهم ابراهيم أفندي فوزي (ابراهيم باشا فوزي الآن) وتوجه الى خط الاستواء فوصل كوندوكرو في ١٥ ابريل سنة ١٨٧٤ م فقابله رؤوف بك بالاحتفاء فأبقاه عنده بضعة أشهر ثم أرسله الى مصر فسمي حاكماً على هرر كما سيجيء .

وكان غوردون قد صادف أبا السعود في مصر فأخذه معه الى خط الاستواء وجعله في خدمته مع نفر من تجار الرقيق ليمنعهم عن الاتجار بالرقيق من جهة ويستعين بهم على تعقب تجار الرقيق من جهة اخرى . فبعد وصوله الى كوندوكرو بشهرين اكتشف ثلاث زرائب لتجار الرقيق على بحر الزراف

فهدم الزرائب وأعتق الارقاء الذين وجدهم فيها . ولكن أبا السعود وارفاقه لم يصدقوه الى النهاية فعزلهم جميعاً وكان أكثرهم جعليين ودناقلة . وفي ١١ سبتمبر سنة ١٨٧٤ م جاءه ٢٥ رئيساً من رؤساء السود وقدموا له الطاعة وشكروه على مطاردته تجار الرقيق في بلادهم . وفي الشهر التالي ضبط يوسف بك مدير فاشودة زمرة من النخاسين ومعهم ١٦٠٠ رقيق و ١٩٠ رأس بقر أتوا بهم من بحر الزراف .

ورأى غوردون ان هواء كوندوكرو غير صحي فنقل مركز حكومته الى اللادو وذلك في ٢١ نوفمبر سنة ١٨٧٤م . وقد امتدت حكومته من ملتقى نهر سُبَت بالنيل الابيض الى بحيرة فكتوريا نيانزه . وكان أهمّ ما اشتغل به تأسيس نقط عسكرية قوية على النيل لأجل حماية البلاد من تجار الرقيق وحفظ النظام والأمن فلم تنته سنة ١٨٧٤ حتى كان قد أسس عشر نقط وهي سُبت والناصر على نهر سبت وشامبه ومكركه وبور واللاتوكه واللادو والرجاف والدفلاي وفاتيكو وفويره على النيل الابيض وجعل فيها ٦٤٠ من العساكر السودانية و١٥٠ من العساكر المصرية و٦٥٠ من الباشبوزق الدناقلة والجعليين . وبعد ذلك أسس نقطة في مرولي على نيل فكتوريا ونظم في جيشه عدداً كبيراً من الأرقاء الذين حررهم من الزرائب .

وكان باكر باشا قد أحضر وابورين قطعاً من مصر بقصد بنائها وتنشيط الملاحة في البحيرات ولكن انقضت مدته ولم يتمكن من بنائها فلما تمّ لغوردون تأسيس النقط العسكرية حمل قطع الوابورين في البر الى جنوبي شلال الفوله قرب الدّفلاي وبناهما هناك وسمى الكبير منهما الخديوي والصغير نيانزه فبقيا بين الدفلاي وبحيرة ألبرت نيانزه الى قيام الثورة المهدية كما سيجيء .

وكان ممن صحبوا غوردون الى خط الاستواء او انضموا اليه بعد ذهابه : الكولونيل لونج من ضباط الاميركان العظام في الجيش المصري والدكتور أمين وجسي والكولونيل بروت وعبد العزيز بك ابن لبنان باشا .

وكان للدكتور امين وجسي اكبر شأن في تاريخ خط الاستواء وبحرالغزال

لذلك نقتطف هنـــا نتفاً من بدء سيرتها قبل الشروع في ما كان من تاريخها هناك : اما الدكتور امين فاسمه الاصلي ادوارد شنيتزر وقد وُلد في ٢٨ مارس سنة ١٨٤٠ م في مدينة اوبلن من اعـــال سيليسيا ببروسيا وتلقى العلوم في فيينا وباريس ونال شهادة دكتور في الطب ثم دخل في خدمة الدولة العليـة في اسكودار وبقي الى ان سُمّي غوردون حاكماً على خط الاستواء وكان الدكتور امين يعرفه فذهب الى الخرطوم واستأذنه في السفر اليـه فأذن له وحال وصوله أعطاه لقب بك وسماه حاكماً على اللادو .

اما جسي فهو ضابط إيطالي شديد العارضة قوي الارادة وقد رافق الجيش الانكليزي الى حرب القرم بصفـة مترجم ثم انضم الى غوردون باشا في خط الاستواء .

وقد استعان غوردون بهؤلاء الضباط على درس البلاد وتمهيدها فانه عنـد وصوله الى كوندوكرو أرسل الكولونيل لونج الى ملك يونيورو لكشف خبره فوجد جميع المتشردين من تجار الرقيق قد اجتمعوا اليه وهو لم يزل على العصيان فتركه وشأنه وذهب الى متـاسي ملك اوغنده فوجده لم يزل على الولاء وعاد بالخبر الى غوردون فأرسل غوردون امين بك الى الملك متـاسي للمحافظة على مودّته . وأرسل جسي الى بلاد بحر الغزال لكشف خبرها ولما عاد أرسله بمركبين الى بحيرة البرت لاستطلاع حالها وحال القبائل المقيمين فيها وذلك في مارس سنة ١٨٧٦ م فطاف البحيرة وقضى في طوافه تسعة ايام فوجد طولها ١٤٠ ميلاً وعرضها ٥٠ ميلاً ووجد القبائل القاطنة حولها معادية للحكومة .

اما عبد العزيز بك لبنان فانه قُتل في ثورة أثارها السود على العساكر وهم ينقلون قطع الوابور المار ذكرهما الى الدفلاي فأخذ غوردون بثأره .

وبقي غوردون مجداً في تنظيم البلاد واصلاح شؤونها بلا مساعدة مصر الى سنة ١٨٧٦ م فاستعفى وعاد الى مصر ومنهـا الى بلاد الانكليز تاركاً الكولونيل بروت من اركان حزبه وكيلاً على خط الاستواء ثم ذهب الكولونيل بروت فناب عنه امين بك فبقي الى ايام الثورة المهدية على ما سيجيء .

وكان في جملة من شهد اعمال غوردون في خط الاستواء ابراهيم باشا فوزي الذي صحبه من الخرطوم كما مرّ وعاد معه الى مصر وقد بيّن ذلك تفصيلاً في كتـابه « السودان بين غوردون وكتشنر » الذي نشره بعد نجاته من أسر التعايشي .

هذا ما كان من احتلال خط الاستواء وحكم السر صموئيل باكر وغوردون باشا فيه ولنرجع الآن الى ولاة الخرطوم وما كان في أيامهم من الحوادث .

عود الى ولاية ١٨ - جعفر باشا مظهر :

تركنا الخرطوم في ولاية جعفر باشا مظهر سنة ١٨٦٩ م ودام حكمه عليها محموداً الى ٢ جمـادى الاولى سنة ١٢٨٨ هـ ٢٠ يوليو سنة ١٨٧١ م فعزل . وكان رجلاً عفيفاً صادقاً شهماً وكان كاتم أسراره التهامي بك من أمهر الكتاب فقدم له التهامي استعفاءه في بعض الايام فكتب اليه في الجواب هذه الكلمات: « حتى يلج الجمل في سم الخياط » .

١٩ - ممتاز باشا سنة ١٢٨٧ : ١٢٨٩ هـ — ١٨٧١ : ١٨٧٣ م

وتولى السودان بعده ممتاز باشا فأدخل اليه زراعة القطن المصري وكان هذا هو الأثر الحميـد الوحيد الذي تركه فيه لأنه مدّ يده الى الرشوة وأخذ من سنار وحدها على رواية بعض معاصريه مئـة وخمسين الف ريال ونيفاً . وقد أكثر اهل السودان من التشكي عليـه فأوقف عن الخدمة سنة ١٨٧٣ م وسجن في الخرطوم لتحقيق تلك التشكيات فمات هناك سنة ١٨٧٥ م .

٢٠ — اسماعيل باشا ايوب سنة ١٢٨٩ : ١٢٩٣هـ — ١٨٧٣ : ١٨٧٧م

وجاء على السودان بعد عزله اسماعيل باشا ايوب فجرت في عهده حوادث جمـة ذات بال . وكانت فاتحة اعمـاله انه اشتغل في إزالة السدّ من النيل الابيض .

وفي اول سنة من ولايته أي سنة ١٨٧٣ م قسمت البـــلاد الى مديريات وجعل كل مدير مسؤولاً عن مديريته ومستقلا عن والي الخرطوم وكان اذ ذاك يوسف بك مديراً على فاشودة وحسين بك خليفة على بربر .

وفي تلك السنة عـــاد باكر باشا من خط الاستواء ثم ُسمي غوردون باشا حاكماً على خط الاستواء وعاد منهـا وهو أي اسماعيل باشا ايوب الوالي على الخرطوم كما مرّ .

وأعظم ما تمّ في السودان على ايامه فتح سلطنة دارفور وضمها الى أملاك الحكومة المصرية عن يد الزبير رحمت باشا . وقـد ُوفّقتُ الى تفصيل ذلك الفتح مع تفصيـل سيرة الزبير وحركاته في بحر الغزال من الزبير باشا نفسه وهاك خلاصتها :

سيرة الزبير باشا

وفيها فتح بحر الغزال ودارفور

نسبه ووطنه : حدثني الزبير عن نفسه قـــال : أنا الزبير بن رحمت بن منصور بن علي بن محمد بن سليمان بن ناعم بن سليمان بن بكر بن شاهين بن ُجميع ابن جموع بن غانم العباسي . هاجر أجدادي العباسيون بغداد بعد هجوم التتر عليها سنة ٦٧٦هـ ١٢٧٨م فأتوا مصر فوجدوا فيها الفاطميين حكاماً فلم يطيقوا الاقامة معهم فنزحوا الى بلاد السودان فسكن بعضهم النيـــل وبعضهم بلاد دارفور وودّاي وتشعبوا على النيل قبائل فكان في جملتها قبيلتنا المعروفة بالجميعاب نسبة الى جدّنا ُجميع وقد أقامت على النيل الكبير بين جبل قرّي وجبل الشيخ الطيب واشتهرت بين قبائل السودان بالشجاعة وحماية الذمار . ولما حضر اسماعيل باشا الى السودان فاتحاً استقبله أعياننا بالترحاب وعاهدوه على الولاء وفي جملتهم المرحوم ابي رحمت وأخوه الفيل فحفظوا العهـد الى ان

توفاهم الله وقمنا نحن فسرنا على مثالهم في الطاعة والولاء وما زلنـا كذلك الى اليوم . اما أنا فقـــد ُولدت في جزيرة واوِسّي في ١٧ محرم سنة ١٢٤٦ هـ ٨ يوليو ١٨٣١ م ونشأتُ في حجر والدي الى ان بلغتُ السابعـة من العمر فأدخلني مكتب الخرطوم فتعلمت القراءة والكتابة وحفظت القرآن الشريف على رواية ابي عمر والبصري وتفقهت على مذهب الامام مالك ولمـــا بلغت الخـامسة والعشرين من العمر تزوّجتُ بابنـــة عمّ لي واشتغلت بالتجارة للتعيش بها .

سفره الى بحر الغزال سنة ١٢٧٣ هـ ١٨٥٦ م : وبعد ذلك بسنتين دخل ابن عمي المسمى محمد عبد القادر في خدمة علي ابي عموري من أهالي نجع حماده بصعيد مصر ومن التجار الكبار الذين كانوا يتجرون في بحر الغزال وسافر معه خلسةً فلمـــا بلغني خبر سفره أخذتني الشفقة عليه لأن بلاد بحر الغزال كثيرة الأخطار بعيدة الشقة فلحقته قصد إرجاعه فأدركته في حـــلة ود شلعي على النيـــل الابيض مسيرة يوم من الخرطوم وأخذت أثبّط عزمه عن السفر فأقسم ألا يعود الى الخرطوم قبل ان يتم سفرته فشقّ عليّ ذلك وأقسمت له بالطلاق انه اذا لم يرجع عن عزمه سافرت معه وقد عظّمت القسم ظناً انه لا يرضى بسفري معه فيرجع مضطراً ولكنه لم يزل مصرّاً على السفر فسافرت معه برّاً بالقسم ودخلت معه في خدمة ابي عموري فسرنا من ود شلعي في ١٤ محرم سنة ١٢٧٣ هـ ١٤ سبتمبر سنة ١٨٥٦ م قاصدين بحر الغزال وأنا أستعيذ بالله من ذلك السفر الذي لم أكن اتوقع منه إلا الشر والاخطار لكنه جـــاء بأحسن ما كنت أتمنى بل كان سبب نجاحي وشهرتي ورفع منزلتي الى مقام لم ينله احد في السودان قبلي وهيهـات ان يناله احد فيه بعدي « وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » .

هذا وما زلنا سائرين في النيـــل الابيض حتى وصلنا موردة بحر الغزال المعروفة بمشرع الرّيك التي لايمكن للمراكب ان تتعداها جنوباً فنزلنا بأمتعتنا وبضائعنا الى البر في ٢ صفر من السنة المذكورة واخترقنا بـــلاد الجانقية الى

بلاد الجور حيث كانت زريبة علي ابي عموري المعروفة باسم عاشور على اسم شيخ البلد فدخلناها في ١٧ من الشهر المذكور . وكان في بحر الغزال في ذلك الحين تجار كثيرون غير ابي عموري متفرقون في جميع أنحاء البلاد . ولكل تاجر منهم زريبة من شوك يأوي اليها ويضع فيها تجارته . وأهم الأصناف الرائجة في تلك البلاد الخرز على اختلاف انواعه وألوانه والودع والقصدير وكله مما يتزين به الاهلون نساء ورجالاً ويفضلونه على الذهب والفضة فيأخذونه من التجار مقايضة بسن الفيل والخرتيت وريش النعام واللاستك والحديد والنحاس وغيرها من محصولات البلاد .

اخماده ثورة محلية سنة ١٢٧٤ هـ ١٨٥٧ م : فأقمت مع صاحبي علي عموري مساعداً له على تجارته ولكن ما لبثنا بضعة أشهر حتى هاج اهل البلاد على التجار طمعاً في أموالهم سنة ١٢٧٤ هـ ١٨٥٧م فجمعوا جموعهم من كل الجهات وهاجموا الزرائب فقتلوا بعض التجار وسلبوا أموالهم وهاجموا زريبة صاحبي ابي عموري فقمت في رأس رجاله وأشعلت فيهم النار وهزمتهم شر هزيمة بعد ان قتلت منهم خلقاً كثيراً فلما سمع التجار في الجهات بانتصاري عليهم جاؤوا اليّ والتفوا حولي وهابني اهل البلاد فلم يعودوا يجسرون على مهاجمتي . وقد رأى صاحبي ابو عموري ان سلامته كانت عن يدي فأحبني وجعل لي قسماً من أرباحه أي عشر السن ولما هدأت البلاد تركني في محله وكيلا عنه وسار الى الخرطوم فغاب ستة اشهر وعاد بالبضائع فوجد عندي من محصولات البلاد ما لم يكن يجمعه هو في سنين فزادت رغبته فيّ وعرض عليّ الشركة بالنصف فأبيت وعزمت على انشاء محل تجاري لنفسي .

ذهابه الى الخرطوم وعودته الى بلاد قولو سنة ١٢٧٥هـ ١٨٥٨م : وبهذا العزم رجعت الى الخرطوم فدخلتها في ٧ ربيع الاول سنة ١٢٧٥هـ ١٥ اوكتوبر سنة ١٨٥٨ م وكنت قد جمعت من تجارتي مع ابي عموري نحو الف جنيه فاشتريت بها بضائع وذهبية واكتريت بعض الانفار على عادة التجار وسلحتهم

بالبنادق وسرت بهم والبضائع في الذهبية الى مشرع الريك فنزلنا فيه واستأجرت بعض السود فحملوا بضائعي وسرت براً في بحر الغزال وانا عازم على ان أطرق بلاداً جديدة لم يطرقها احد قبلي فقطعت بلاد الجانكاه والجور والبنقو وجئت الى بلاد قولو . وكان عليها ملك يقال له كواكي فرحب بي وأكرم مثواي فأخذت أتجر في بلاده حتى اجتمع عندي من سن الفيل وريش النعام وغيرهما من خيرات البلاد شيء كثير فأرسلتها مع ابن عم لي يدعى محمد احمد رحمة الى الخرطوم فباعها وعاد اليّ بالبضائع في ١٧ ربيع اول سنة ١٢٧٦هـ ١٤ اوكتوبر سنة ١٨٥٩ م .

سفره الى بلاد النيانم ١٢٧٦ هـ ١٨٥٩ : وفي أثناء اقامتي في بلاد قولو علمت ان بلاد النيانم الواقعة الى الجنوب الغربي منا بلاد واسعة الاطراف كثيرة الجواميس والافيال ولا قيمة لسن الفيل فيها لكثرته وعليها سلطان عادل يسمى السلطان تكه . فبعد رجوع ابن عمي بنحو شهر ونصف شهر حملت بضائعي وسرت بها خمسة وعشرين يوماً الى سلطان النيانم فقدمت له هدية فاخرة واستأذنته في الاتجار في بلاده فأذن لي . وكان النيانم لا يعرفون الحمير في بلادهم ولا الجمال ولا الخيل وكان معي حمار فأهديته الى السلطان فاستغرب هيئته وقد ظنه رجلاً ممسوخاً ولم يقبله . وكان لهذا السلطان نحو ٤٠٠ امرأة و ٤٠٠ ولد من صبيان وبنات فزوجني بأكبر بناته رانبوه فعلا مقامي بهذه المصاهرة في عيون اهل البلاد وزادت تجارتي رواجاً وتحسيناً حتى اجتمع عندي في وقت قصير شيء كثير من سن الفيل والخرتيت وغيرهما .

رجوعه الى الخرطوم مرة ثانية وتيهه في الطريق سنة ١٢٧٨هـ ١٨٦٢م : فلما كان ١٧ رمضان سنة ١٢٧٨هـ ١٨ مارس سنة ١٨٦٢ م استأذنت السلطان تكه وسرت بهذه السلع قاصداً الخرطوم فمررت بصاحبي علي عموري فوجدته متأهباً للسفر بتجارته الى الخرطوم فاتفقنا على الذهاب معاً وكانت زريبته عاشور قرب نهر البنقو احد فروع بحر الغزال الذي لم يسلكه احد من قبلنا

فأردنا فتحه للتخلص من مشقة نقل البضائع بالبر فبنينا مركبين ووسقنا فيها بضائعنا ورجالنا البالغ عددهم ٢١٤ نفراً وسرنا قاصدين مشرع الريك ومعنا من الزاد ما يكفينا نحو شهرين فبعد ان سرنا ١٣ يوماً بلياليها اتسع مجرى النهر حتى صار أشبه ببحيرة واسعة منه بالنهر وخفي علينا المجرى الاصلي فتهنا في تلك البحيرة خمسة وسبعين يوماً لا نرى فيها إلا السماء والماء وقد نفد منا الزاد فأكلنا ما كان معنا من الجلود واشتد بنا الجوع .

وفيما نحن في هذا الكرب اذا بدخان لاح لنا من بعيد فاخترت انا وصديقي علي عموري تسعة أنفار من رجالنا ونزلنا في قارب صغير أتينا به معنا وسرنا قاصدين جهة الدخان فلم نبعد عن المركبين إلا قليلاً حتى اختفى الدخان ثم غاب عنا المركبان فأصبحنا نسير على غير هدى فتهنا وجعنا حتى أشرفنا على الهلاك ثم حانت منا التفاتة فرأينا شجرة قائمة على تل في وسط الماء ووجدنا تحتها تمساحاً كبيراً فاصطدناه بالرصاص وتزودنا به فعاد لنا بعض نشاطنا وانقلبنا راجعين نحو المركبين فالتقينا بهما بعد غيبة ٤ ايام فوجدنا رجالنا قد مات منهم ١٨ نفراً ولما علموا بخيبتنا مات منهم رجل في الحال وقد أكدوا لنا انهم كانوا يرون الدخان كل يوم في آخر النهار فأيقنت اذ ذاك بوجود بر قريب فانتقيت ١٢ رجلاً من أقوى رجالي وأنزلتهم في القارب وتوجهت ثانية الى جهة الدخان فلم تمرّ بضع ساعات حتى أشرفنا على جزيرة واسعة مأهولة بالناس وفيها من الابقار ما لا يحصى عدُّه فنزلنا الى البر فوجدنا ان الدخان الذي كنا نراه هو دخان أرواث الابقار التي كان يحرقها الأهلون في عصر كل يوم ليتخذوا رمادها فراشاً لهم كما هي عادتهم . وكان يسكن تلك الجزيرة قوم من النوير وعليهم ملك يسمى كُرْيم فلما دخلنا الجزيرة اجتمع علينا أهلها وهم يتعجبون من زيّنا وملابسنا فسألونا وهم ينوون الغدر بنا من أين أتيتم من السماء ام من الارض ام من الماء وماذا ترومون من الدخول في جزيرتنا وكان معي مترجم يحسن لغة القوم ويعرف ملكهم فقلت اني اعرف ملككم كريم وأريد ان تأخذوني اليه فلما رأوني عارفاً بلغتهم وسلطانهم فرحوا بي

وأمنوني على حياتي وحياة رجالي وذبحوا لنا بقرة قصد الضيافة فأكلناها وقد أكل البعض منا بشرهٍ زايد فماتوا بعد الفراغ من الأكل ببضع دقائق . ثم اشتريت ثمانية أبقار وذبحتها وأرسلتها قطعاً في القارب الى بقية الرفاق في المركبين فأكلوا وجدُّوا السير حتى رسوا عند الجزيرة وذهبت لمقابلة الملك كرْيم ولما امتثلت بين يديه حييته فردّ عليّ التحية ثم اخذ يسألني عن أمري والسبب الذي أتى بي الى جزيرته فأجبته على جميع أسئلته . ولما انتشر خبرنا في الجزيرة أخذ كبارها يفدون الى الملك أفواجاً طالبين قتلنا والاستيلاء على أموالنا فأذن لهم في ذلك بعد تردُّد بعد خروجنا من داره وقد أدركنا غايتهم وبتنا تلك الليلة ونحن نحرس أنفسنا بالمناوبة وجاءت نوبتي في الهجيع الاول من الليل فشاهدت أسداً مقبلاً من بعيد فرميته بالرصاص فخرَّ على الارض يخبط بدمائه فاستيقظ الملك كرْيم من نومه ظاناً ان رجاله جاؤوا لحربنا واستيقظ الكثير من سكان الجزيرة فلما رأوا الاسد مقتولاً فرحوا فرحاً شديداً لأن ذلك الاسد كان متسلطاً عليهم يفترس كل من يصادفه منهم حتى لم يعد يجسر احد على الخروج من بيته ليلاً أما الملك كريم فقد عظم سروره من قتلي للأسد حتى انه عقد لي على احدى بناته ورغبني في الاقامة معه في جزيرته فاقمت عنده شهراً كاملاً حتى اشتريت جميع ما يلزمني من المؤن ثم احتلت عليه وخرجت من جزيرته بالمركبين ولكن ما كدنا نغيب عن الجزيرة حتى تهنا ثانية في عرض تلك البحيرة وما زلنا تائهين حتى فرغ زادنا ومات جميع من في المركبين إلا صديقي علي عموري وستة رجال واذ أشرفنا على الهلاك لاح لنا مركب من بعيد فأطلقنا له عياراً نارياً فأقبل علينا فاذا به عبد الرحمن ابو قرون من تجار بحر الغزال فلما رآنا على تلك الحال بكى وقدّم لنا ما لزمنا من الزاد والكسوة . وكنا على خمسة ايام من مشرع الريك فسرنا اليه مجدّين حتى أتيناه في ٢ صفر سنة ١٢٨٠ هـ ١٩ يوليو سنة ١٨٦٣ فاجتمع الناس حولنا يهنئونا بالسلامة ويعزوننا عما فقدناه من الاموال والرجال ثم أقلعنا بالمراكب الى الخرطوم فدخلناها في ٢٧ ربيع

الاول من تلك السنة ١١ سبتمبر سنة ١٨٦٣ فلبثت في الخرطوم بضعة أشهر ريثما بعت تجارتي واشتريت بثمنها تجارة اخرى مما يروج بتلك البلاد وأسلحة وذخائر وزدتُ عدد رجالي .

رجوعه الى بلاد النيام نيام سنة ١٢٨٠ هـ ١٨٦٣ م : وفي ٢٢ القعدة سنة ١٢٨٠ هـ ٢٩ ابريل ١٨٦٣ م برحت الخرطوم قاصداً بلاد النيام نيام فوصلتها في ٢٠ صفر سنة ١٢٨١ هـ ٢٥ يوليو سنة ١٨٦٤ م وقدمت هدايا نفيسة للملك تكمة فسُرّ بها وأولم لي وليمة فاخرة ذبح فيها عدداً وافراً من الوحوش ومئة كلب من أسمن الكلاب المعدّة لأكله وعدتُ الى دار زوجتي رانبوه وشرعت في بيع البضائع . وقد جرت العادة في تلك البلاد ان يبيعوا في الاسواق اصحاب الجنايات كالسارق والزاني ويذبحونهم كالغنم ويبيعون لحومهم طعاماً فافتديت من هؤلاء من وجدته اهلاً لحمل السلاح حتى اجتمع عندي نحو خمس مئة رجل فسلحتهم بالأسلحة النارية وعلمتهم حملها واستعمالها فأوجس الملك تكمة شراً وخاف مني على مملكته واستشار كهانه فأقرّوا على قتلي فعلمت بذلك امرأتي رانبوه ابنة الملك وأخبرتني به سراً ونصحتني بالرحيل من بلاد أبيها .

انتقاله الى بلاد الملك دويه سنة ١٢٨١ هـ ١٨٦٤ م : فاهتممت بالامر وتزلفت الى الملك تكمة بالهدايا وقلت له : بلغني ان في بلاد الملك دويه سن فيل كثير فأريد ان أذهب برجالي وآتي به فقال اذهب وائت به وحدك ودع رجالك هنا فقلت بلغني ان تلك البلاد ليس فيها عدل وأخاف ان أهلها اذا رأوا مني الضعف غدروا بي وقتلوني فلما رأى إصراري على أخذي رجالي وأمتعتي معي أذن لي في السفر ظاهراً وأوعز الى جيشه سراً ان يكمنوا لي في الطريق ويقتلوني انا ورجالي فما خرجتُ من بلاده حتى اعترضني جنوده الذين في الكمين فصليتهم ناراً حامية لم يطيقوها فانهزموا امامي ودخلت بلاد الملك دويه وكان عدواً للملك النيام نيام فلما علم بما جرى لي معه خرج لمقابلتي مسيرة اربع ساعات من عاصمته وأنزلني في جواره على الرحب والسعة وبنى لي حصناً

مربعاً منيعاً من الخشب وأمدّني من الحبوب والمؤونة بما يكفي رجالي مدة طويلة . اما الملك تكمة فانه لم يلبث ان أرسل جيشاً جرّاراً بقيادة عمه مغبوه اهتزت له بلاد الملك دويه واستولى الرعب عليه وعلى قومه ففرّوا هاربين خلسة تحت جنح الظلام .

انتقاله من التجارة الى الملك سنة ١٢٩٢ هـ ١٨٦٥ م : ولما أصبح الصباح ورأيت ما كان من الملك دويه داخلني الخوف وصرت أنظر في امر النجاة وبينما انا في ذلك اذ وفد عليّ رسل الملك تكمة وقالوا ان حرمة المصاهرة وسابق المودة تمنعان الملك من محاربتك ولكنه يرغب اليك ان تخرج من جميع بلاد الملك دويه التي اصبحت تحت سلطانه وتذهب الى حيث تشاء ولك الأمان فأجبتهم الى ذلك وخرجت الى بلاد قولو حيث يقيم الملك عدوَه شكو فدخلتها اول محرم سنة ١٢٨٢ هـ ٢٧ مايو سنة ١٨٦٥ م وكان هذا الملك قد غدر بأخي منصور وقتله هو ورفاقه الذين أرسلتهم للاتجار في بلاده واستولى على جميع مالهم فلم يشك في اني جئت للأخذ بثأر أخي فلم يسمح لي بالبقاء في بلاده وتهدّدني بالحرب فتزلفت اليه بالهدايا وأكدت له أن لا قصد لي سوى التجارة فرفض الهدايا وأصرّ على خروجي من بلاده في الحال وكان الفصل شتاء والبلاد مغمورة بالمياه فسألته ان يمهلني الى ان ينقطع المطر وتفتح الطرق فأبى فناجزته اذ ذاك الحرب وجرى بيني وبينه عدة وقائع دموية حتى قتل فخلفه ابنه فتغلبت عليه وأخذته أسيراً وامتلكت بلاده وجميع البلاد المجاورة لها الى بحر العرب واتخذت عاصمته بايه التي سميت بعد ذلك « بديم الزبير » مركزاً لي فصرتُ فيها ملكاً وصارت الناس تتقاطر إليّ من كل الجهات للانتظام في خدمتي فجلبت الاسلحة وجمعت جيشاً قوياً وحكمت البلاد بالكتاب والسنة وشرعت في تمدينها وعمارتها وتوسيع نطاق التجارة فيها .

معاهدته مع عربان الزريقات على فتح طريق شكا سنة ١٢٨٢ﻫ ١٨٦٦م : وكان اول ما سعيت اليه فتح طريق التجارة بين بحر الغزال وكردوفان لبعد طريق النيل وكثرة أخطارها ومشاقها . وفي شوال سنة ١٢٨٢ ﻫ مارس سنة ١٨٦٦ أوفدت رسلا بهدايا الى مشايخ عربان الزريقات الواقعين في طريق التجار فجاءني ثمانون شيخاً منهم وعاهدوني على فتح الطريق وتأمين القوافل والتجار من مسلمين ومسيحيين وأقسم كل منهم خمسين قسماً على الكتاب بالمحافظة على هذا العهد وجعلت لهم مقابل ذلك جعلا معلوماً يقتضونه من التجار فكثر ترداد الناس والتجار بأصناف البضائع لقرب هذه الطريق وسهولتها وما زالوا في ازدياد حتى صار ازدحامهم عليّ كازدحام العطاش على المنهل العذب .

حملة البلالي على بحر الغزال وقتله سنة ١٢٨٦ ﻫ ١٨٦٩ م : وفي سنة ١٢٨٦ ﻫ ١٨٦٩ م (وهي السنة التي ذهب فيها السر صموئيل باكر لفتح خط الاستواء) قدم رجل من الخرطوم من متخلفي حجاج الغرب يقال له الحاج محمد البلالي بقصد احتلال بحر الغزال ومعه سرية من العساكر مؤلفة من ٢٠٠ من العساكر المنظمة السودانية عليهم الصاغ محمد افندي منيب و ٤٠٠ من العساكر الباشبوزق عليهم السنجق كوشوك علي و ٦٠٠ من الخطرية . فطاف بلاد بحر الغزال ودخل زرائبها وقرأ لأصحابها فرمان الحكومة بتسميته مديراً على بحر الغزال فمنهم من طاع وسلم ومنهم من عصي فحارب او فرّ . ثم وجّه حملته عليّ فجمعت جيوشي ومن لجأ اليّ من اصحاب الزرائب المجاورة لي وكمنت له في خور على الطريق . فلما اقترب من الكمين أشعلت النار في جيشه فقتلته وقتلت بعض عسكره وأمرت الباقي ولكني أصبت في ذلك اليوم برصاصة في كراعي الأيمن ورجعت محمولاً الى مركزي . وكان الحاكم في الخرطوم اذ ذاك جعفر باشا مظهر فبعثت اليه بالخبر .

وانتشر خبر انتصاري على البلالي في أقاصي السودان واشتهر ملكي بالعدل والانصاف فوفد اليّ الناس من كل الجهات اما للانتظام في جيشي او للاتجار

في بلادي ولم يمض إلا القليل حتى صرت ذا ملك عظيم . وكنت أميل في أحكامي الى استعمال الشفقة على من ُولّيت إلا اني كنت اضطر في بعض الاحيان الى استعمال الصرامة نظراً لقساوة قلوب اهل البلاد فمن جملة ذلك اني كنت أعلق المحكوم عليه بالشنق برجليه ليتدلى رأسه الى اسفل وأتركه بلا أكل ولا شرب حتى يموت .

امتلاكه بلاد النيام سنة ١٢٨٩ ﻫ ١٨٧٢ م : وهذا الملك الذي انتظم لي في بحر الغزال لم يرُق للسلطان تكمة سلطان النيام وكانت ابنته رانبوه لا تزال في عصمتي وكان يرسل اليها في كل سنة هدية من السن خمسين قنطاراً ومن العسل مائتي زق ومن السمسم مئة أردب ومن الرقيق مئة فلما اشتهر ملكي في جواره قطع الهدية ونصب لي العداء . وفي اوائل ١٢٨٩ ﻫ ١٨٧٢م أرسل عمه مفبوه بجيش جرّار فأغار على اطراف مملكتي فبعثت اليه برسل أسأله عن ذلك فردّ الرسل مع ثلاثة رسل من عنده يقول انه لا يسمح لي بتأسيس ملك في جوار مملكته فاما ان أنزع عن نفسي صفة الملك وأعود تاجراً كما كنت او ان يحاربني وينزع الملك عني بالقوة . فقلت للرسل اذهبوا الى ملككم وقولوا له ما كنت لأتنازل عن ملك أسسته بسيفي لمجرد تهديد او وعيد فان كان يستصغرني الى هذا الحد فليجرّب قوته التي يتفاخر بها على ملوك المجوس . فجرّد الملك تكمة جيوشاً لا يحصى لها عدّ وانتشبت بيننا حرب سنة كاملة جرت فيها عدة وقائع شديدة وفي آخرها قتل السلطان تكمة وعمه مفبوه ودان لي ثمانية من كبار ملوك النيام الذين كانوا في حروب مستمرة بعضهم ضد بعض بل كانوا يصيدون بعضهم البعض صيد الطير فلما توليتهم قبحت فعالهم وألفت بينهم وبسطت الامن على ربوعهم وصاروا يتعاملون بالبيع والشراء ويتصاهرون . وسمع من جاورهم من المجوس اخبار عدلي وما نال الذين دخلوا تحت طاعتي من الراحة والامن واتساع العيش فصاروا يأتون اليّ من مسافات بعيدة مقدمين الطاعة وطالبين عمالاً من قبلي تقوم عليهم حكاماً فأجبتهم الى ذلك واتسع نطاق مملكتي اتساعاً عظيماً الى الجهات الاربع .

فتح دارفور

سنة ١٢٩٠ : ١٢٩١ هـ – ١٨٧٣ : ١٨٧٤ م

حربه مع الرزيقات واستيلاؤه على بلاد شكا سنة ١٢٩٠ هـ ١٨٧٣ م :
وكان الرزيقات في أثناء الحرب مع النائم قد نقضوا العهد وقطعوا الطريق وقتلوا بعض التجار فلما انقضت الحرب أنفذت اليهم رسلاً أسألهم عن ذلك فأجابوا بالشتم والسباب وأقسموا ألا يدعوا مسافراً يمرّ إليّ عن طريق بلادهم إلا قتلوه وسلبوه ماله .

وكان على دارفور اذ ذاك السلطان ابراهيم فأرسلت اليه كتاباً بتاريخ ١ جمادى الاولى سنة ١٢٩٠ هـ ٢٧ يونيو سنة ١٨٧٣ م أخبره بما أتاه الرزيقات من نكث العهد وقطع السابلة والتمست مساعدته عليهم وهذا فحوى الكتاب:

« الى حضرة امير الأمراء الكرام مولانا السلطان ابراهيم ابن السلطان حسين صاحب العزة والاقتدار والهيبة والفخار أدام الله علاه آمين .

« اما بعد فنحن عبيد افندينا وليّ النعم خديوي مصر المعظم أتينا منذ عام ١٢٧٠ هـ لفتح بلاد العبيد فدانت لنا بلاد الفراتيت برمّتها وفتحنا الطريق منها الى كردوفان عن طريق شكا فتعهد بحفظه مشايخ الرزيقات نظير جعل معلوم وضعناه لهم على التجار . ولكن لم يكن الا اليسير حتى نكث الرزيقات العهد وربطوا الطريق وأباحوا دماء المسلمين وأموالهم بدون وجه شرعي وقد نهيناهم عن ذلك مراراً فلم ينتهوا بل كانوا يتفاخرون بقوتهم وخيولهم العربية وأسلحتهم النارية وقتلهم المقدوم عبد العزيز ابي احمد شطه وآدم طربوش ابي الوزير بخيت وغيرهما من الفرسان التابعين لدولتكم الفوراوية فأوجب الله تعالى علينا حربهم بدليل قوله : « فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله » ونحن نتقدم اليكم بهذا الكتاب واثقين انكم متى علمتم حال هؤلاء العربان الطغاة الذين خرجوا عن طاعة سلطنتكم منذ ثلاثين سنة ونيف تنجدوننا بسرية من جيشكم حتى اذا ما تمّ لنا إذلالهم نعود فنسوّي الامر

بيننا فإما ان تتركوهم لنا لنحكمهم بالقسط والعدل وإما ان نتركهم لكم فتفتحون الطريق وتقدمون لنا النفقات التي نبذلها على عساكرنا في الحملة عليهم والأمل الافادة سريعاً في حفظ الله آمين » .

فلم يجب السلطان على كتابي هذا ولا انتهى الرزيقات عن التعدي فاستخرت الله في حربهم وسقتُ جيشي الى بلادهم فتجمعوا لقتالي وجرت بيني وبينهم عدة وقائع كان النصر فيها كلها لي وكانت اول الوقائع في ١٤ جمادى الاولى سنة ١٢٩٠هـ ١٠ يوليو سنة ١٨٧٣م وآخرها في ٤ رجب من السنة المذكورة ٢٨ اوغسطوس ١٨٧٣ . وفي الوقعة الاخيرة انهزم الرزيقات شر انهزام وقتل منهم خلق كثير وأصبحت بلاد شكا كلها في يدي .

خبر عبد الله التعايشي سنة ١٢٩٠ هـ ١٨٧٣ م : وكان الرزيقات قد استخدموا فقيهاً من فقهاء التعايشة يقال له عبد الله ود محمد آدم تورشين ليقرأ لهم الأسماء في خلوته لعلها تقبض على سلاحي فلا يطلق ناره في ساحة الحرب وقد تعهدوا له ببقرة من كل مراح فوقع اسيراً في يدي في حملة السروج بين شكا وداره فأمرت بقتله . وكان معي ١٢ عالماً من علماء الشرع وقد حلّفتهم على القرآن الشريف انهم اذا رأوا في احكامي اعوجاجاً عن الشرع ينبهوني اليه فلما أمرت بقتله اعترضني العلماء وقالوا ان الشرع لا يسمح لك بقتل اسير الحرب فضلاً عن ان السياسة تنكر عليك قتل رجل يعتقد الناس صلاحه لأنك إن قتلته نفرت القبائل منك وعدّتك رجلاً ظالماً مخيفاً فامتنعتُ عن قتله ويا ليتني لم أمتنع لأنه عاش ليكون من أعظم البلايا على السودان (كما سيجيء) .

[والمشهور في نسب عبدالله هذا انه من قبيلة التعايشة من فرع الجباراب من بطن يقال له ابو صرة وقد دفن جده في جهة هجيليجة من اعمال شكا ولما تولى الخلافة في عهد المهدية أمر اصحابه بعمل قبة فوق ضريحه وعاد الناس لزيارته كما يستفاد من كتابه الذي أرسله الى محمد شيخ محمد كرقساوي عامل

المهدية في شكا بتاريخ ٦ جمادى الآخرة سنة ١٢٠٤ هـ ٢ مارس سنة ١٨٨٧ م وهذا هو بنصه :

« ثم نعرفك الى جوابك المؤرخ في ٦ جمادى الاولى الذاكر فيه انه منذ حضرت بشكا لم يبلغك ان جدنا آدم مدفون بجهة هجيليجة الا عن قريب إذ أعلمك الحبيب عثمان آدم ووصف لك محله وقصدك عمل تابوت فيه وترغب الرد الى آخر ما به وصل وفهم . والحال يا حبيبنا نعلمك ان لا قصد لنا في رفعة الدنيا وشهرتها بل كل قصدنا مصروف الى لزوم الخضوع في هذه الدار وعدم التمييز لننال عظيم الرفعة عند الله ولكن حيثما انك يا حبيب من الاصحاب الكرام وقد يقظك الله ونوّر بصيرتك الى فعل هذا الخير فمن باب إعانتك على نيل ثوابه العظيم آذنّاك في فعل ما تراه في ذلك الضريح من عمل التابوت عليه ومداومة زيارته انت والاصحاب الذين معك ويكون لك من الثواب في ذلك ما لا يعلم به إلا الله حيث ان هذا الجد مشهور خبره وبركته لدى كل من له به إلمام فبعد عمل التابوت الموافق عليه بمقتضى حسن نيتك وعلو همتك واشهار ضريحه نبّه على كافة من معك من الاصحاب وأهالي الجهة بزيارة ضريحه على نية البركة فانه من اهل الفوز عند الله . واعلم ان الجد المذكور اسمه علي الكرار لا آدم وهو ود الاب المبرور السيد محمد أبينا فعرف الاصحاب بذلك ليعلموه وليداوموا على زيارة ضريحه فان ذلك من السنّة وجزاك الله يا حبيب خيراً في انتباهك لهذا الامر فانه من نعم الله عليك والسلام »] .

قال الزبير : والذي اتصل بي ان اصل جد عبد الله هذا من بلاد الفتري بين وداي وبرنو سار من بلاده طالباً الحجاز وهو لا يملك شيئاً كجميع الحجاج التكارنة فلما وصل بلاد التعايشة تزوّج منهم وسكن بينهم فانتسب اليهم . أما ابوه محمد آدم فكان يلقب بتورشين أي تور قبيح لقبح منظره وكان عالماً بالرمل فنال حظوة كبيرة عند التعايشة واشتهر بعلم الغيب والتقوى وكان التعايشة يغزون بلاد النوذ جنوبيهم من وقت الى آخر فكان اذا بشرهم بالنصر انتصروا واذا حذّرهم من الغزو ثم غزوا انكسروا حتى صاروا لا

يغزون غزوة ولا يقدمون على عمل هام إلا بمشورته فجمع بذلك مالاً جزيلا وتزوج بأكثر من امرأة من نساء التعايشة فرُزق من واحدة ولداً سماه يعقوب وهو اكبر من عبد الله وتزوج بأرملة كان لها ولد يسمى السنوسي فولدت له عبد الله هذا وتزوج بجارية فولدت له ولداً سماه هارون فكان لعبد الله ثلاثة اخوة اشتهروا في تاريخ المهدية وهم : يعقوب اخوه من ابيه والسنوسي أخوه من امه وهارون محمد اخوه من الجارية . ثم لما كبر تورشين قام ابنه عبد الله مقامه في هذه الصناعة فدعاه عرب الرزيقات عند انتشاب الحرب بيني وبينهم الى قراءة الأسماء فوقع أسيراً بيدي كما قدمت . وبعد فتح دارفور طلب مني ارضاً في قيجة غرب الكلكة فأعطيته اياها على ان يكف عما كان به من التدجيل فرضي ولكن لم يمضِ إلا القليل حتى أتاني منه كتاب وأنا في داره يقول فيه « رأيت في الحلم انك المهدي المنتظر وأني احد اتباعك فاخبرني ان كنت مهدي الزمان لأتبعك » فكتبت له في الجواب « استقم كما أمرتك انا لست بالمهدي وانما انا جندي من جنود الله أحارب من طغى وتمرّد » . وبقي في قيجة الى ان كانت ثورة السلطان هارون (الآتي ذكرها) وضاق الرزق في بلاد دارفور بسبب الثورة فرحل منها هو وأبوه وتلامذته قاصدين الحجاز وبقوا سائرين الى ان أتوا دار الجمع بكردوفان فنزلوا عند شيخها عساكر ابي كلام في ابي ركبة فمات ابوه ودفن هناك وبقي هو في أبي ركبة الى ان اشتهر أمر محمد احمد في جزيرة أبا فهاجر اليه وكان من اعز أنصاره . وكان في جملة تلامذة ابيه الذين رافقوه الى ابي ركبة فانتصروا معه للمهدية واشتهروا فيها المساعد قيدوم الهباني وحامد ود علي واخوه احمد من التعايشة وفضل المولى صابون اخ حمد ابن ابي عنجة (وسيأتي ذكرهم جميعاً) .

هذا ولما دخلت بلاد الرزيقات فرّ اثنان من مشايخهم وهما الشيخ مُنزّل والشيخ عُليّان ولجآ الى السلطان ابراهيم في الفاشر فبعثت اليه بكتاب بتاريخ ١٥ رجب سنة ١٢٩٠ هـ ٨ سبتمبر سنة ١٨٧٣ م أسأله تسليمها اليّ وهذا نصّ الكتاب :

من الزبير رحمة الجميعابي الى السلطان ابراهيم ابن السلطان حسين وعمه الامير حسب الله ابن السلطان محمد الفضل .

« اما بعد فقد دخلنا بلاد شكا في يوم الاثنين المبارك الموافق غرة رجب سنة ١٢٩٠ هـ ٢٥ اوغسطوس ١٨٧٣ م للاسباب التي قدّمناها لكم في كتاب سابق ووقعت بيننا وبين عربان الرزيقات معركة شديدة قتلنا فيها أعيانهم وفرسانهم وكثيراً من أخلاطهم ونحن الآن مقيمون في بلادهم وقد بلغنا ان الشيخ مُنزّل والشيخ عُليان من أكبر طغاة الرزيقات قد التجأ اليكم وهما بحثانكم على حربنا فغاية ما نرجوه ان لا تسمعوا لأقوالهما الفاسدة فتقعوا بحرب الدولة المصرية ذات السطوة الغالبة والمدد الغير المنقطع ولا نقول ذلك على سبيل التهديد بل هو النصح نمحصه لكم لمنع الفتن بين الدولتين وحقن دماء المسلمين لا سيما وأنتم تعلمون ما كان بين والدكم السلطان حسين وبين عزيز مصر الخديوي المعظم من المودة والمعاملات التي لا تزال متصلة بينكم وبين خديوي مصر الحالي لذلك نؤمّل منكم الآن ان تأمروا بالقبض على منزل وعليان وترسلوهما الينا « بالشعبة » والحديد مع الحرس اللازم لنسترد منهما ما أخذاه من حقوق المسلمين بلا تمثيل فيهما ولا ظلم بل بما يكون فيه تأديب لهما وعبرة لغيرهما . هذا ما رأيناه والرأي مفوض وأدام الله بقاكم آمين » .

وكان السلطان ابراهيم واجداً عليّ لدخولي بلاد الرزيقات التي هي جزء من بلاده فلم يجبني على كتابي بل ارسل الى الشيخ مادبو بن علي وغيره من مشايخ الرزيقات كتاباً مشحوناً شتماً وسباباً لي ويقول لهم لا تظنوا اني أترك البلاد لهذا الطاغية الجلابي وها انا أعدّ الجيوش للزحف عليه وطرده من البلاد بالخزي والخسران .

فعند اطلاعي على كتابه هذا أرسلت اليه كتاباً بتاريخ ٢١ رمضان سنة ١٢٩٠ هـ ١٢ نوفمبر سنة ١٨٧٣ م بهذا المعنى : من الزبير رحمة الجميعابي الى السلطان ابرهيم » :

« اما بعد فقد كتبت اليكم اولاً وثانياً بشأن الرزيقات فلم أحظَ بجواب منكم بل رأيت كتاباً مختوماً بختمكم الى الشيخ مادبو بن علي وغيره من مشايخ الرزيقات تكثرون فيه من ألفاظ الشتم والسباب لي بقولكم اني جلّابي باغٍ وتقولون انكم تجرّدون الجيوش لطردي من البلاد مع اني سبقت فأخبرتكم بالسبب الذي من اجله دخلت بلاد شكا وقلت اني ما جئت ثائراً ولا باغياً بل جئت لتأديب الرزيقات الذين سعوا في الارض فساداً وخرجوا عن سلطانكم وقد استنجدتكم عليهم فلم تنجدوني وسألتكم تسليم مُنزل وعليان اللذين هما اصل الفساد فما سلمتوهما وصممتم على الحرب . وذلك ليس قصدي ولا مرادي فقد قال عليه الصلاة والسلام « الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها » . خصوصاً وانه لم يكن بيننا وبينكم ولا كان بين آبائنا وآبائكم حرب ولا عداء ولا أمرتنا دولتنا بمحاربتكم . اما وقد اخترتم هذه السبيل فاعلموا يقيناً ان جميع ما يسفك من دماء الطائفتين من المسلمين انما أنتم المسؤولون عنه بين يدي الله يوم القيامة اذ تجتمع الخصوم . وبعد هذا الانذار الجلي فاذا حاربتمونا فاعلموا اننا منصورون عليكم لأننا بجانب الحق والعدل وأنتم بجانب البغي والظلم فضلاً عن اننا ليوث حربية وصلة عباسية وسلالة هاشمية ولنا النصر من رسول الله كما قال عليه الصلاة والسلام « اللهمّ انصر العباس وأبناءه » . أما ان كنتم تودّون خروجنا من بلاد شكا لأنكم تحسبونها قسماً من بلادكم فاعلموا ان خروجنا بعد الذي صرفناه على احتلالها بوجه شرعي لا يكون بالقوة والحرب وانما يكون بالتراضي والسلم بينكم وبين سمو وليّ نعمتنا الخديوي المعظم بأن تضمنوا لنا نفقات الحملة على الرزيقات التي بلغت ١٠ آلاف كيس ونيفاً فاذا اتفقتم مع سموه على ذلك وكتب لنا امراً لرفع يدنا من البلاد فنعود الى حيث كنا بجميع جيوشنا امتثالاً لأمره وإلا فلا يخطر ببالكم خروجنا من هذه البلاد وفي هذا كفاية والامر اليكم فانظروا فيما تفعلون أدام الله اجلالكم آمين » .

تعيين الزبير حاكماً على شكا وبحر الغزال سنة ١٢٩٠ هـ ١٨٧٣ م : وفي

أثناء ذلــك كتبت الى حكمدار الخرطوم اسماعيل باشا ايوب اعلمه بحالي وانتصاري على الرزيقات وأسأله ان يرسل من يتولى حكومة البلاد التي فتحتها في بحر الغزال ودارفور بالنيابة عن خديوي مصر وقلت في ختام كتابي « فاذا ما وصل الحاكم واستلم البلاد عدت الى تجارتي تاركاً كل ما أنفقت من الاموال في الفتح هدية لحكومة السنية وانتظرت مكافأتها الادبية حسبما تقتضيه عدالتها وكرمها » .

فجاءني الجواب بتاريخ ١ شوال سنة ١٢٩٠ هـ ٢٢ نوفمبر سنة ١٨٧٣ م بما مؤداه :

« عرضنا كتابكم على الجناب العـالي الخديوي فشكر ولاءكم وامتدح رغبتكم في وضع البلاد التي فتحتموها بين يديه ليولي عليها من يشاء وقـد أنعم عليكم بالرتبـة الثانيـة مع لقب بك وولاكم امر البلاد على ان تدفعوا لخزينته جزية سنوية قدرها ١٥٠٠٠ جنيه ». فقبلت الجزية وتوليت امر البلاد رسمياً وشرعت في تنظيمها وعمرانها. لكن السلطان ابراهيم لم يطق الصبر على بقائي في بلاد شكا فأصدر امره الى احمد شطة مقدوم الجنوب في داره وسعد النور مقدوم الشرق فأخـذا في حشد الجيوش وجمع العدة لاخراجي منها . وكنت اراقب حركات المقدومين وسكناتها وأبلغها اسماعيل باشا ايوب في الخرطوم فيرفعها الى اسماعيل باشا الخديوي في مصر فأقر الخديوي على اغتنام الفرصة التي كانت تترقبها حكومته منذ فتح كردوفان وأرسل اليّ ٢٨٠ من العساكر المنظمة وثلاثـة مدافع نجدة وأمر اسماعيل باشا ايوب فجهز جيشاً مؤلفاً من نحو ٣٦٠٠ مقاتل من الجنود السودانية والمصرية والباشبوزق والشايقية والاتراك والمغاربة والمتطوعة واربعة مدافع جبلية وساروخين على ان يزحف بها على دارفور من الشرق وأنا أزحف عليها من الجنوب وتمّ الفتح . على ان الفتح كله تمّ عن يدي بعون الله ولم يبقَ لجيش الشرق أقل عمل فيه .

ولما أتمّ احمد شطة وسعد النور استعداداتها زحفا بجيش ينيف على ٣٠ الف مقاتل قاصدين شكا فجرت بيني وبينهما واقعتان كانت العاقبة لي في كلتيهما

وفي الثانية قتلت احمد شطة وسعد النور وهزمت جيوشهما ثم تقدمت الى داره فاحتللتها وبنيت فيهـا استحكاماً منيعاً وبعثت الى السلطان ابراهيم بكتاب بتاريخ غرة محرم سنة ١٢٩١ هـ ١٨ فبراير ١٨٧٤ م هذا نصه :

« اما بعد فقد حرّرنا لكم من قبل مرتين بشأن الرزيقات فما أجبتمونا ثم لما علمنـا من جوابكم للشيخ مادبو وغيره من مشايخ الرزيقات انكم تجهزون الجيوش لقتالنـــا حذرناكم من ذلك وأبنّا ان ليس لكم فيه وجه شرعي ولا سياسي فما همكم تحذيرنا وتقدم وزيركم احمد شطة ومقدومكم سعد النور بمن معهما من الملوك والشراتي والجيوش الكثيرة المجندة فهاجمانا دفعتين ففي الدفعة الاولى هاجما قسماً من عساكرنا الذين انفردوا منـــا لغزوة على بعض العربان العصاة وذلك في ٢٥ القعدة سنة ١٢٩٠ هـ ١٤ يناير سنة ١٨٧٤ م ثم هاجمانا في مراكزنا فلم تمضِ ساعة واحدة حتى انهزما أمامنا شرّ انهزام . اما المقدوم سعد النور جزاه الله كل خير فانه قاتل قتال الابطال ومات بين كرات المدافع « والفضل ما شهدت به الأعداء » . واما وزيركم احمد شطة امير الجيش فقد فرّ على قدميه حافيـــاً يطلب النجاة حتى قتل مطروداً بمن معه من أخلاط النـاس بعيداً عن محل الواقعـة ولا بد ان الخوذة التي كان يلبسها على رأسه وصلتكم فأكدت لكم خبر موته . وبعـد الواقعة أمرنا بجمع جثث الوزير والمقدوم ومن قتل معهما من اولاد السلاطين والملوك والشراتي فكفنّاهم بأفخر الأنسجة وصلينا عليهم ودفنّاهم بتمام الاكرام ودخلنا داره في ٢٣ الحجة سنة ١٢٩٠ هـ ٤ فبراير ١٨٧٤ م . وأمـا الرجال الذين قُتلوا فأنتم المسؤولون عن دمائهم بين يدي الله تعالى يوم القيامة لأننـا أنذرناكم مقدماً بالكتاب والسنة واذا راجعتم كتبنا السابقة علمتم اننا لم نترك وجهاً للنصيحة الا عرضناه عليكم وأنذرناكم به فأعرضتم عن الانذار وخـالفتم الشرائط الاسلامية واتبعتم هوى النفس الغضبية وتغرير العربان المفسدين في الارض . وحيث ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم فقد فوّضت أمري الى الله تعالى وكفى به شهيداً بيننا والله المستعان » .

وفي هذا التاريخ كتبت ايضاً الى أجلّ علماء دارفور وهم الفقيه سلامه ابن الفقيه مالك شيخ الموطأ والفقيه فخر الدين ابن الفقيه محمد سالم شيخ الشفا والبخاري والفقيه سالم شيخ العزية والامام الضو ابن الامام المصري إمام السلطان (عم الشيخ الطيب المار ذكره) فبينت لهم السبب الذي جاء بي الى بلاد الرزيقات وأعدت لهم ما كتبته الى السلطان حباً برفع الحرب وحقن دماء المسلمين ثم ختمته بقولي : « فالأمل من حضراتكم يا علماء الاسلام ان تفيدونا عما دعا سلطانكم الى محاربتنا وهلاك عساكر المسلمين منا ومنه فإن كان له وجه شرعي في ذلك ونحن المخالفون للشريعة فنحن نشكره على ما أجراه ونطلب المغفرة منه وإن كان هو المخالف فكفى بالله شهيداً بيننا وبينه ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم اه » . فلا هم أجابوا كتابي هذا ولا السلطان ولكنهم أخذوا في حشد جيش جديد لأخذ الثأر .

واقعة الشرتاي احمد نمر : ثم ان الشرتاي احمد نمر كبير البرقد جمع شتات جيش المقدوم احمد شطة وحصرنا في الاستحكام وأخذ يشاغلنا حتى تصل الجيوش التي يعدّها السلطان ابراهيم فصبرت عليه حتى علمت ان الجيوش آتية نجدة له فأمرت احد قوادي رابحاً فخرج اليه بفرقة من الجيش فقتله هو ومن معه وغنم ما عنده من خيول ودروع وخوذ ومواش .

وفي ٣ رجب سنة ١٢٩١ ﻫ ١٦ اوغسطوس ١٨٧٤ م بعثت بكتاب الى السلطان ابراهيم أدعوه للتسليم هذا مؤدّاه : « اني سألتكم في بادىء الرأي ان تساعدوني على الرزيقات الذين سعوا في الارض فساداً ثم سألتكم مراراً تسليم مُنزَل وعُليان اللذين التجآ اليكم فراراً من وجه العدل فما أجبتم بل أرسلتم الجيوش لمحاربتي فأوجب الله تعالى علينا محاربتكم حتى تستقيموا انتم ومن معكم من المفسدين في الارض. وقد تلقينا جيوشكم ونصرنا الله عليهم ودخلنا مدينة داره وصار القصد الآن إدخالكم انتم وبلادكم تحت طاعة الحكومة الخديوية . فيا حضرة الامير إن كنت تحسب نفسك عبداً لله وموقناً ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده فبادرْ اخلع الملك عن نفسك

بالتسليم الى وليّ نعمتنا الخديوي المعظم حباً بالسلام وحجباً لدماء المسلمين واذا سلمت تسلم وتُترَك لك خزائنك وأموالك وتبقى مكرّماً مبجلاً عند الجميع وإلا فاننا لا بدّ ان ننال ما نروم بالرغم عنك وأنت المسؤول بين يدي الله عن دماء المسلمين والسلام » .

واقعة الامير حسب الله : فلما وصله هذا الكتاب طار صوابه وجهز جيشاً عرمرماً ينيف على المئة الف مقاتل بينهم عدد كبير من الفرسان المدرعين والمشاة المسلحين بالبنادق وعقد لواءه لعمه الامير حسب الله ومعه من الرؤساء علي التاماوي رئيس دادات السلطان والمقدوم احمد قومو مقدوم الصعيد خلَف الوزير احمد شطة والمقدوم حسن ود أبلي مقدوم الغرب وابن ابراهيم ود دير (المار ذكره في فتح كردوفان) فوصلوا داره في ١٢ رجب سنة ١٢٩١ ﻫ ٢٥ اوغسطوس سنة ١٨٧٤ م وحصرونا في الاستحكام من الجهات الاربع وكتبوا اليّ كتاباً يقولون فيه : « لقد دخلتَ بلادنا وقتلت وزيرنا احمد شطة ثم الشرتاي احمد نمر فاخرج الآن من بلادنا لنشيعك بالسلامة والأمان ! » وأرسلوا الكتاب مع ثلاثة رسل وفي جملتهم محمد خالد زقل الدنقلاوي (الآتي ذكره بعد) فكتبت اليهم في الجواب : « اني دخلت بلادكم عنوة ولست أنوي الخروج منها الا بقدر من الله فإن كنتم قد جئتمْ لحرب فتقدموا لها وإلا فعودوا من حيث أتيتم » . ورأى الرسل بعض عساكر النمام الذين في جيشي قد اجتمعوا على جثة آدمي يقتسمونها فيما بينهم فأخذ بعضهم الرأس والكراع وبعضهم الفخذين وبعضهم الصدر وشرعوا يشوونها على النار ويأكلونها فاقشعرّت أبدانهم من هذا المشهد فعادوا وأخبروا بما كان من عساكري ومن جوابي فاعتمدوا على الحرب ونزلوا ضمن دائرة مرمى الرصاص وصاروا يناوشوننا القتال كل يوم من قبل طلوع الشمس الى ما بعد نصف الليل وكان معي زهاء ١٢ الف مقاتل مسلحين بالبنادق فصليتهم ناراً حامية صبروا عليها سبعة ايام فأهلكت منهم خلقاً كثيراً وفي اليوم الثامن نقضوا خيامهم ونزلوا بعيداً عن مرمى الرصاص . ولكنهم لم يزالوا على حصرنا ومناوشتنا القتال الليل والنهار

حتى كاد الزاد يفرغ منا وإذ دخل علينا الملك احمد من معسكرهم طالباً ابنته التي أسرناها في واقعة احمد شطة وقدّم لنا عشر أواقي ذهب فدية لها فأخذت أسأله عن قوة جيش الفور وحركاته فاذا بالحرس الذين وضعتهم في مأذنة جامع داره لمراقبة حركات العدو يشيرون اليّ ان أصعد اليهم فرأيت الفور في حركة وجلبة فنزلتُ الى الملك وقلت له: إن كنت تذهب وتأتيني بالخبر فاني أسلمك ابنتك بلا مقابل فحلفني الكتـــاب على ذلك وحلف لي انه يعود بالخبر اليقين ورجع الى قومه وقال لهم ان الزبير طلب ٢٠ اوقية ذهب فداء ابنتي ولم يكن معي سوى ١٠ أواقي فقالوا خذ هذه عشر اخرى وبادر احضر ابنتك لأن الجيش يستعد للهجوم على السور غداً من كل الجهات فأخذ عشر أواقي الذهب وأتى بالخبر ليلة الخميس الموافق ١٨ رجب سنة ١٢٩١ هـ ٣١ اوغسطوس سنة ١٨٧٤ م . وكان الفور في تلك الليلة قد شربوا الخمر وأكلوا لحم الضأن والابل وناموا نوم الراحة فانتهزت هذه الفرصة الثمينة وخرجت اليهم بثمانيـة آلاف رجل بهيئة مربع وسرتُ في جنح الليل حتى صرتُ على قيد ١٠٠ متر منهم فأمرت عساكري فصبّوا عليهم الرصاص كالمطر الوابل فقـاموا مذعورين الى سلاحهم وصوّبوا علينـــا نيرانهم فأصابتني رصاصة طائشة في يـدي اليمنى وجرحتني جرحاً بليغاً ولكني لم أعبأ بها بل بقيت أشدد قومي وأصبّ عليهم الرصاص فولّوا الأدبار منهزمين وقـد امتلأت الارض من قتـلاهم وفيهم ٤٠ رجلاً من اولاد السلاطين فجمعت الغنائم فكان فيها نحو ألفي درع و ٢٧٠٠ خيمة و ٨ مدافع قديمـة مكتوب على بعضها اسم سعيد باشا وشيء كثير من الإسلحة والذخائر الحربيـة ومن الحبوب والزاد ما كفى الجيش أربعة اشهر وعدت الى السور . وعـاد الامير حسب الله فجمع شتات جيشه وهاجمني في السور في ٢٧ رجب سنة ١٢٩١ هـ ٨ سبتمبر سنة ١٨٧٤ م فدام القتـال بيني وبينه ٤ ساعات متوالية حتى كثر القتلى في جيشه فانهزم شر هزيمة .

غزوة السلطان ابراهيم الى دارة : فلما بلغ السلطان ابراهيم خبر انكسار عمه الامير حسب الله استعظم الأمر جداً واستكبره وصاح بقومه صيحة عامة

فجرد منهم جيشاً كثيفاً بلغ عدده نحو ١٥٠ الفاً بينهم ٣٠ الف فارس وعدة رجال مسلحين بالبنادق و ٨ مدافع وعزم على الخروج الى الحرب فخلّف على الفاشر ابنه الاكبر محمد الفضل وطلب من رجال دولته ان يجعل كلاً منهم ابنه الاكبر خليفة عنه مع ابنه محمـد الفضل ففعلوا (وكان في جملتهم الشيخ الطيب المتقدم الذكر اماماً لجامع الفاشر خليفة لعمه الشيخ احمـد الضو) وزحف بجيشه على دارة فوصلها في ضحى ٥ رمضان سنة ١٢٩١ هـ ١٦ اكتوبر سنة ١٨٧٤م واحتاط السور من الجهات الاربع وهاجمني بجميع جيوشه هجمة واحـدة فأمطرت عليهم ناراً حامية فثبتوا عليها حتى الساعة واحـدة بعد الغروب وفي اليوم التـالي أعادوا الكرة على السور من قبل طلوع الشمس فما كانت الساعة الرابعة من النهار حتى رددتهم على أعقابهم فاستراحوا الى ما بعد الظهر ثم عادوا الى الهجوم بعزم صادق مستقتلين وثبتوا والرصاص يحصدهم حصد الزرع الى ان فصل بيننا الليل فرجعوا وقد قتل منهم في ذلـك اليوم خلق كثير وفيهم البعض من اولاد السلطان ابراهيم واولاد اخيـه وأعمامه وعماته . وفي الليل أتاني كتاب من السلطان مملوء شتماً وسباباً وتهديداً وقـد أقسم بالله العظيم انه لا بدّ من اعادة الكرة عليّ في الصباح ودخوله الاستحكام عنوة وتأدية صلاة الجمعة في مسجد دارة. وفي الساعة الخامسة من الليل أطلق على السور خمسة واربعين مدفعاً فلم أجبه بل شرعت في الاستعداد للغد . فلما أصبح الصباح وانكشف لي معسكرهم رأيته خالياً من الجيوش فخرجت بنفر من رجالي لأستطلع خبرهم فوجدتهم قد هربوا بالفعل ولم يكن هناك خدعة لأن رجال السلطان لم يعودوا يطيقون مهاجمة السور فهجروا السلطان فتبعهم ليجمع شتاتهم ويسير بهم الى جبـل مرة فيمتنع فيه . فجمعت ما خلفه في معسكره وشرعت في الاستعداد للحوق به :

واقعة منواشي الاحد في ١٤ رمضان سنة ١٢٩١هـ ٢٥ اكتوبر ١٨٧٤م :

وفي ١٢ رمضان سنة ١٢٩١ هـ خرجت بالجيوش مقتفياً أثره حتى أدركته في بلدة منواشي الواقعة على يومين الى الجنوب الشرقي من الفاشر وذلك في الساعة

التاسعة من نهار السبت الواقع في ١٣ رمضان ومعه من العساكر نحو ٣٠ ألفاً وثمانية مدافع فرتّب عساكره ميمنة وميسرة وقلباً وكان هو ومن معه من الابطال المعدودين من أقاربه وغيرهم مع المدافع في القلب . وما طلعت شمس الاحد الواقع في ١٤ رمضان سنة ١٢٩١ هـ ٢٥ اكتوبر سنة ١٨٧٤ م حتى انتشبت الحرب فأطلقوا علينا احد عشر مدفعاً فما أجبناهم بل سرنا سيراً حربياً منظماً قاصدين القلب فهجمت علينا عساكر الميمنة والميسرة واشتد القتال فما مضى إلا خمس دقائق حتى انكشفوا عنا وتقهقروا الى الوراء وعند ذلك هاجم السلطان ومن معه في القلب فهزموا مقدمة جيوشنا ودخلوا القلعة واشتبك القتال بالسيوف والحراب وكنت ترى السلطان يجول في وسط المعمعة ويقاتل كأنه الأسد ولكن لم يكن إلا القليل حتى خرّ قتيلا هو ومن معه من الفرسان والشجعان وفيهم الكثير من اولاده وأكابر دولته وانكشفت الحرب عن النصر المبين لنا فأخذت جثة السلطان فكفنتها بالانسجة الفاخرة ودفنتها في جامع منواشي باحتفال عظيم اجلالاً لمقامه واقراراً ببسالته ثم دفنت القتلى من اولاده وأكابر دولته وعفوت عن جميع الاسرى وسمحت لهم بالذهاب الى حيث شاؤوا وقد اغتنمت في هذه الواقعة ثمانية مدافع وسبعة وعشرين حمل جمل جبخانة ما عدا الاسلحة النارية وغيرها .

دخوله الفاشر : وبعد ان استرحت ٤ ايام في بندر منواشي سرت بالعساكر الى الفاشر فدخلتها في ٢٣ رمضان سنة ١٢٩١ هـ ٣ نوفمبر سنة ١٨٧٤ م قبل طلوع الشمس فوجدت عائلة السلطان وأهله الذين تركهم بالفاشر قد فرّوا منها فلم يبق فيها سوى التجار وبعض العلماء فأمنتهم على أموالهم ودمائهم وأحسنت معاملتهم فلما بلغ الاهالي ما عاملنا به التجار وانتشر خبر عدلنا ووفائنا بالعهود أخذوا يفدون الينا ليلاً ونهاراً مقدمين الطاعة والامتثال ولم يكن إلا ايام قليلة حتى دانت لنا جميع اهالي السلطنة من أعاجم وعربان حضر وبادية .

دخول اسماعيل باشا ايوب الفاشر : اما اسماعيل باشا ايوب المهاجم لدارفور

من الشرق فانه أبطأ في سيره جداً وعند وصوله الى فوجه كتب اليّ وانا اذ ذاك في داره يقول : « اني جئتك بنجدة فتشدد » فبعثت أقول له : « إذ كنت قد جئتني بنجدة فلماذا هذا الابطاء في السير والعدو محدق بنا بجيوش لا اعداد لها ؟ » فأجاب : « ما أنا أمرتك بالتقدم الى داره ولا افندينا فان استطعت ان ترفع الحصار وتنجو بجيشك الى هنا فافعل وإلا فدبّر أمرك بما تراه صواباً » .

وبقي في فوجه حتى انقضت الحرب ولم يعد لي به حاجة . وبعد دخولي الفاشر بعثت اليه بالخبر فلقيه الرسول في طريقه الى داره فانثنى اذ ذاك عنها ووجّه الجيش الى الفاشر فدخلها في ١ شوال سنة ١٢٩١ هـ ١١ نوفمبر سنة ١٨٧٤م فأكرمت لقياه وأطلقت له مئة مدفع ترحيباً به فهنأني بالنصر وشكر لي ولائي وحسن خدمتي .

ضبط الامير حسب الله : هذا وكان المتخلفون من جيش الفور لما تحققوا موت السلطان ابراهيم في منواشي ولّوا عمه حسب الله سلطاناً عليهم وذهبوا الى جبل مرة فتحصنوا فيه . فلما حضر اسماعيل باشا ايوب الى الفاشر سلمته ادارة البلاد وجهزت جيشاً مؤلفاً من ١٢ الف مقاتل فيهم ٤٠٠ من العساكر المنظمة و ٢٠٠ فارس من عساكر الحكومة وزحفت على جبل مرة فلما رأى الامير حسب الله قوّتي سلم بلا قتال وكان معه بعض اولاد السلطان ابراهيم وعمتهم الميرم عرّفه وغيرهم من اولاد السلاطين ونحو ١٢٠٠ رجل من أعيان البلاد وكبرائها فجئت بهم جميعاً الى الفاشر . وقد غبتُ في هذه المهمة ٩٦ يوماً .

إرسال الامير حسب الله وسائر اولاد السلاطين الأسرى الى مصر والزبير الى داره : وكان الامير حسب الله قد سألني بعد التسليم اليّ في جبل مرة ان أساعده على توليه البلاد ليحكمها تحت طاعة الحكومة الخديوية فيدفع لها مئة الف جنيه جزية سنوية فأعجبني هذا الرأي ورأيته الرأي الصواب الذي فيه راحة البلاد والحكومة معاً فعرضته على الحكدار وأسندته بكل قوّتي فرفضه

الحكمدار بتاتاً ووقع بيني وبينه جدال طويل أفضى الى النزاع . وأرسل الامير حسب الله والامير محمد الفضل خليفة السلطان ابراهيم وكثيرين غيرهما من اولاد السلاطين الى مصر القاهرة حيث لا يزال أكثرهم أحياء الى اليوم (كما مرّ) . وأمرني بالذهاب الى داره والاقامة فيها بعساكري الى ان يصدر اليّ أمراً آخر بالرجوع الى بحر الغزال .

ثورة الامير بوش وقتله : ولكن لم يمض شهر حتى ورد عليّ كتاب منه يقول ان بوشاً أخا الامير حسب الله شقّ العصا فجمع بقية اولاد السلاطين في جبل مرة وملأ البلاد عيثاً وافساداً وأمرني بالخروج عليه وإخماد ثورته فصدعت بالامر وجئت جبل مرة في غرة رجب سنة ١٢٩٢ هـ ٣ اوغسطوس سنة ١٨٧٥ م وشهرت عليه حرباً عواناً مدة ١٥ يوماً فترك الجبل واعتصم بالفرار فتركت ابني سليمان مع ١٢٠٠ جندي في الجبل وتتبعته حتى أدركته في صرف الجداد قرب كبكبية فأوقعت به واقعة شديدة انتهت بقتله وقتل اخيه سيف الدين و ٢٧ رجلاً من كبراء جيشه .

دخوله دار وداي ورجوعه عنها : ثم توغلت بالجيش في بلاد الغرب فدانت لي ديار تامه والمساليت وقمر وسلا حتى جئت الى الترجة الفاصلة بين دارفور ووداي فأقمت فيها اياماً للراحة بعزم الدخول في دار وداي واخضاعها للحكومة الخديوية وكان عليها اذ ذاك السلطان علي ابن السلطان محمد شريف فبعثت اليه بكتاب أدعوه الى الطاعة ثم دخلت بلاده وتوغلت فيها حتى صرت على مسيرة يومين من عاصمته فورد عليّ كتاب منه يدل على قبوله الدخول في طاعة الحكومة الخديوية وقد تعهد بدفع مبلغ معلوم جزية سنوية على ان يبقى السلطان على بلاده ووجّه اليّ احد وزرائه بهدايا كثيرة للمفاوضة معي في هذا الشان ولكن قبل وصول الوزير ورد عليّ كتاب من اسماعيل باشا ايوب بناء على ارادة سنية ملحاً عليّ بالرجوع الى دار وداي في الحال فرجعت الى الفاشر متأسفاً على ما فات من فتح وداي فأخبرني الحكمدار ان سلطان وداي أرسل

وزيره احمد تنقه الى مصر عن طريق سيوه فتشكى للجناب الخديوي فأمر جنابه العالي برجوعي ولكنه أنعم عليّ برتبة اللواء الرفيعة مع لقب باشا .

هذا وكانت غزوة ودّاي آخر غزواتي التي زاد عددها على المئة والعشرين وقد نصرني الله فيها كلها فلم أفشل إلا في ثلاث منها .

تحصين الفاشر : وكان اسماعيل باشا ايوب بعد دخوله الفاشر شرع في بناء « استحكام » (حصن) منيع للعساكر على التلة الغربية من الفاشر فبنى سوراً مربعاً متيناً من الطوب سمكه ٣ أقدام وطول الضلع الواحدة منه ٢٠٠ قدم وأقام في أركانه الاربعة أبراجاً على كل ركن برجاً جعل فيها المدافع وحفر من وراء السور خندقاً بلغ عمقه ١٥ قدماً وأحاط الخندق بزريبة من شوك وبنى من داخل السور ديواناً للحكومة ومنزلاً للحاكم وقشلاقاً (ثكنة) للعساكر المنظمة وأما العساكر الغير المنظمة فقد أقرّها خارج السور وهدم المنازل التي الى جوار السور فجعل الارض التي حوله في غاية الانكشاف الى مسافة بعيدة فجاء حصناً منيعاً جداً . ثم وزّع مفشوراً في كل البلاد ودعا الناس الى الفاشر لأخذ الامان فصارت الوفود تأتيه من الجهات الاربع فيؤمنهم ويرجعهم الى بلادهم . ثم أمر فعمرت سوق كبيرة في الفاشر وعاد الناس الى معاطاة أشغالهم كالعادة .

وبعد ان تمهدت البلاد جعلها اربعة أقسام كما كانت قبل الفتح وهي مديريات الفاشر وداره وكلكل (او كبكبية) وادارة أم شنقة وأقام في كل من مركزي دارة وكلكل حصناً كالذي أقامه في الفاشر وجعل مرتب كل مديرية اورطتين من العساكر المنظمة وستة سناجق من الباشبوزق والشايقية والاتراك والمغاربة وبطارية بستة مدافع وأما ادارة أم شنقة فقد جعل مرتبها بلوكين من العساكر المنظمة وسنجقاً واحداً من الباشبوزق لقربها من الابيض .

وضع ضرائب على الأهلين : ثم لما دخلت سنة ١٢٩٢ هـ ١٨٧٥ م شرع في وضع الضرائب على الاهلين فجعل على كل نفر خمسين غرشاً في السنة ما عدا

اهل اليسار فانه جعل عليهم ضرائب أعظم على نسبة يسارهم . ولما كنت على يقين ان هذه الضرائب تثقل على الاهلين فلا يطيقونها نصحت للحكدار ان يجعلها من غرشين الى عشرة غروش وقلت اني اخاف اذا ثقلنا الضرائب على الاهلين وهم غير متعودين عليها نفروا منا ونزعوا الى الثورة وكان كما قلت فانهم لم يلبثوا ان ولّوا الامير هارون حفيد السلطان محمد الفضل سلطاناً عليهم وثاروا معه على الحكومة فأتعبوها مدة طويلة (كما سيجيء) ولكن الحكدار تكدر من نصحي له وكلمني بحدة زائدة وقال انه أدرى بما يجب فعله . فكتبت اليه اذ ذاك كتاباً رسمياً ثبتُّ فيه رأيي ورفعت المسؤولية عني وألقيتها عليه فزاده هذا الكتاب غيظاً وحدة . وأصدر أمره اليّ بالرجوع الى بحر الغزال في الحال فصدعت بالامر وخرجت بعساكري قاصداً دارة فما وصلت اليها حتى ورد عليّ تلغراف من سمو الخديوي اسماعيل باشا من مصر يأمرني بعدم التعرض للكدار في ادارة البلاد فعلمت من ذلك ان الحكمدار شكاني الى سموه وطعن في صداقتي واخلاصي له وقيل انه اتهمني بارادة الاستقلال في البلاد .

مجيء الزبير الى مصر وسيرته فيها فعزمت على المجيء الى مصر للتشرف بمقابلة الجناب العالي وعرض حقيقة الحال على سموه والنظر معه ومع رجال حكومته في تنظيم البلاد التي تمّ فتحها عن يدي والبلاد التي يمكن إلحاقها بحكومته في المستقبل فعرضت له ذلك تلغرافياً فلم يكن إلا يسيراً حتى أجابني تلغرافياً بما نصه :

« سعادتلو زبير باشا : لقد كانت أفكاري متعلقة بك لكن بالنظر لما بيني وبينك من بعد المسافة ولما هو بالغ مسامعي عما أنت فيه من المشغوليات الجسيمة ظننت انه لا يتيسر حضورك . فلما ورد تلغرافك بطلب مقابلتي بمصر صرت ممنوناً فبادر احضر الى مصر لأجل المداولة معك في تشكيل حكمدارية تكون مفوضة بك وتحت ارادتك وها قد تنبه على جميع طلباتك بغاية الاعزاز والاكرام » . فلما تلوت التلغراف شعرت في نفسي بأني ان ذهبت الى مصر

فلا أعود الى السودان وبذلك شعر رجالي ايضاً وأرادوا منعي عن الذهاب ولكن اخلاصي لحكومتي وشرف نفسي قضيا عليّ بالمحافظة على قولي فجئت الى مصر عن طريق الابيض والخرطوم وبربر وأبي حمد وكورسكو في ٦ جمادى الاولى سنة ١٢٩٢هـ ١٠ يونيو ١٨٧٥م وتشرفت بمقابلة الجناب الخديوي بسراي الجيزة فرحّب بي وهنأني بالسلامة وأنزلني في احدى سرايات العباسية مع عائلتي وأتباعي ورتّب لي كل ما أحتاج اليه من أكسية ومؤونة .

وكان في جملة ما أحضرته من السودان ١٠٠٠ عسكري سوداني بالسلاح الكامل و ١٠٠ حصان من جياد خيل العرب و ١٦٥ قنطار سن فيل من الاسنان المتناهية في الكبر والجودة و ٤ اسود و ٤ نمورة و ١٦ ببغاء قدمتها لاسماعيل باشا عن يد مهرداره خيري باشا بكتاب خاص فأجابني المهردار بكتاب رقيق العبارة يقول فيه : « ان أفندينا ممنون جداً من هديتكم » . وبقيت في السراي التي أعدت لي الى غرة رجب سنة ١٢٩٢ هـ ٣ اوغسطوس سنة ١٨٧٥م اذ دعاني سمو الخديوي الى سراي الجيزة وأصدر لي أمره بالاستعداد للسفر قريباً الى السودان وكان ذلك في حضور مهرداره خيري باشا فشكرت سموه وشرعت في الاستعداد للسفر فاشتريت ذهبيتين بألف وسبعماية جنيه وشحنتها من البضائع والتحف المصرية ما بلغت قيمته ٤٠ ألف جنيه .

ومكثت أنتظر صدور الامر بالسفر حتى كانت غاية رمضان سنة ١٢٩٣هـ ١٩ اوكتوبر ١٨٧٦ م فدعاني سمو الخديوي الى مقابلته وقال لي : « يا زبير باشا قد استصوبت بقاءك في القاهرة في ظل ساحتي حتى أنظر في أمرك » فأدركت اذ ذاك الغرض الذي دعيت لأجله وتمّ ما توقعت حدوثه ولكن لم يكن لي سوى الطاعة فقلت : « أمرك يا مولاي » وانصرفت والاسف ملء فؤادي على هذا المصير .

ولما كانت الحرب بين الروس والدولة العلية سنة ١٢٩٤ هـ ١٨٧٧ م ندبت الى مرافقة النجدة المصرية فذهبت معها وعدت بعد انتهاء الحرب .

هذا وكنت عند قيامي من دارة تركت جيشي بقيادة ابني سليمان فأساءت

الحكومة السودانية اليه فاضطر الى الخروج عن طاعتها فوشى به بعض المنافقين بقولهم اني قبــل قيامي من دارة أوصيت ابني سليمان بالثورة اذا حجزت الحكومة عليّ في مصر بـل قالوا اني كتبت اليه من مصر أحرضه على الثورة وكان على السودان اذ ذاك غوردون باشا فصدّق الوشاية وأمر بتصدير أموالي في السودان وأرسل « جسي » في طلب ابني سليمان فحاربه في عدة وقائع . فكتبت الى سليمان بالتسليم الى الحكومة وترك الحرب فسلم الى جسي فقتله غدراً .

فلما حضر غوردون الى مصر سنة ١٨٨٤ م اجتمعت بـه في بيت « السر افلن بارنج » (اللورد كرومر) بحضور السر افلن وود سردار الجيش المصري ونوبار باشا رئيس مجلس النظار فسألته عن سبب تصدير أموالي وقتـل ابني سليمان فوجدته مقتنعاً بأني كتبت الى ابني كتاباً احرضه فيه على الثورة فقلت له اذا ظهر هذا الكتاب وبان انه مني فاني أقدم نفسي للقتل وإلا فاني أطالب بدم ابني ورد أموالي اليّ. وبالطبع لم يظهر الكتاب لأنه لم يوجد إلا في مخيلة المفسدين اهل البغي ففضّ المجلس ولم يكن شيء .

هذا وكانت الحكومة المصرية قـد انتدبتني سنة ١٨٨٣ م لحشد آلاي من السود في مصر والذهاب الى سواكن لقمع عثمان دقنة فحشدت الآلاي وقمت به فعلاً الى السويس وبعثت بالرسل الى عثمان دقنة ثم علمت هناك اني سأكون تحت أوامر باكر باشا فقلت اما ان أذهب وحدي لقضاء هـذه المهمة او لا أذهب فلم ترضَ الحكومة بالاول فعدت الى مصر .

وعند ذهاب غوردون الى السودان قصد اخلائه سنة ١٨٨٤ م لم يلبث أن بعث الى الحكومة يستدعيني اليه لأساعده على اخلاء البلاد واستلامها بعـد ذهابه منها ولكن قيل لي ان جمعية أبطال الرقيق في لندن عارضت في ذلك .

وفي سنة ١٨٨٥ م عاد المفسدون فوشوا بي بقولهم ان بيني وبين متمهدي السودان مفاوضات سرية فهجم رجـال البوليس على بيتي ليلاً وفتشوه لعلهم يعثروا فيه على ما يؤيد تلك الوشاية فلم يجدوا شيئاً يلقي أقل تهمة عليّ ومع

ذلك فقد قبضوا عليّ وأخذوني الى جبل طارق فحبسوني ٣٠ شهراً ثم لمـا تأكدوا براءتي أطلقوا سراحي وأرجعوني الى القاهرة في سبتمبر سنة ١٨٨٧م.

ولما كنت في جبل طارق تذكرت عزّي في السودان وقابلته بذل الحبس فقلت منشداً :

« بعـد الأهل والونسه … وبعـد العز والحرسه
بعد انتظام العساكر المؤسسه … وبعد فرسان تفشّ المغّصه
انقلب الدهر وانعكسا … بحبس الزبير في الاندلسه
يارب ياخالق الكون يا مؤسسه … عجل بالفرج قبـل القسا
نرجع ونشوف عزاً مؤسسا … من فضلك يا كريم لا ينقصا »

وقلت: « يا ليل ماني هيّن ولاني هوَين … في الكفر والاسلامي اسمي بيّن
وفي قومي هنـاك بيتي بيّن … للمسافر والمقيم قدحي ليّن
وللجـار والعشير جانبي ليّن … للاقارب والارحام بعطي بهيّن
توفيقاً من المولى الكريم المهيمن … وكل شيء منه والامر بيّن » اه

هـذه هي سيرة الزبير باشا كما تلقيتها عنه سنة ١٩٠٠ م . وقد سمح له السردار الحالي بالرجوع الى بلاده وأعاد اليه أملاكه وأكرمه فبقي في الخرطوم سنتين شاهد فيهما أهله ودبر أملاكه ثم عاد الى حلوان حيث ابتنى لنفسه منزلاً فخيماً للسكنى فيه وله الآن اربع نساء شرعيات وعـدة اولاد بينهم ولد في سن الشباب يسمى ميسره متأسّلٌ أباه في خلقه وأخلاقه .

والزبير طويل القـامة قوي البنية اسمر اللون عربي الملامح حسن الطلعة خفيف الشاربين واللحية حديد الصوت فصيح اللهجـة ذكي الفؤاد عالي الهمة أبيّ النفس كريم الطبع سهل الحجاب قوي الارادة قريب الى الخير بعيد عن الشر محب للعلم وأهل العلم والتقوى غيور على الاسلام والمسلمين مع مسالمة الذين على غير دينـه وهو لم يزل في معيشته البيتية من المأكل والمشرب والملبس على نحو ما كان عليه في السودان لكنه اذا خرج لبس الطربوش ولباس الافرنج .

وقد وصفه بعض كتاب الافرنج بأنه رجل « تجاري سياسي حربي » وقال بعضهم : « انه خُلق ليحكم الناس » .

وأظهر صفاته الكرم والنجدة وحب الفخر والسلطة . وقد اشتهر كرمه منذ كان ملكاً في بحر الغزال فقصده الكثيرون من اهل البيوتات في السودان الذين أخنى عليهم الدهر فأزال كربتهم وفرّج ضيقهم . وقد ذكر في بعض مجالسه المبالغ الكبيرة التي أنجد بها قومه وهو في بحر الغزال فبلغ مجموعها نحو ٢٠ الف جنيه ولم تزل داره الى الآن مقصداً لمن خانه الدهر من اهل السودان المصري والغربي .

والزبير يطالب الحكومة الآن بمبلغ ينيف على المليون جنيه تعويضاً عما أنفقه في السودان ومصر في خدمة الحكومة المصرية وعما فقده هو وابنه سليمان من العساكر والأمتعة والاموال بسببها . وقد رافع عنه السر ماريوت لدى حكومة انكلترا قصد تحصيل هذا المبلغ فلم يفلح ولكن الحكومة المصرية ربطت له في ميزانيتها معاشاً قدره ٢٨٩ جنيه في الشهر لكنه غير راض به وهو لم يزل يطالب الحكومة بالتعويض المتقدم ذكره . وقد طالما سمعته قبل العودة الى السودان يكرر هذين البيتين :

سلوا أم عمرو كيف بات أسيرها   تفكّ الأسارى دونه وهو موثقُ
فما هو مقتول ففي القتل راحة   ولا هو ممنون عليه فيطلقُ

وما حضرت له مجلساً إلا قصّ عليّ شيئاً عن غزواته في بحر الغزال ودارفور وشكا من ثلاثة امور : ١ – عدم اعطاء الحكومة التعويض الذي يطلبه منها ٢ – قتل ابنه سليمان غدراً بعد التسليم . ٣ – هجوم البوليس على منزله وحبسه في جبل طارق . ولكنه يثني أطيب الثناء على الانكليز الذين ولوا أمر حراسته هناك وقد قال لي مرة : « ان الاكرام الذي لقيته من الانكليز مدة أسري في جبل طارق أنساني حبسهم لي بلا حق بل حمّلني منّة لا أنساها أبد الدهر ولأجلها اذا لقيتُ انكليزياً في أقصى الارض وقد وقع في ضيق او خطر فديته بنفسي » .

وقد تغنّى شعراء السودان في مدحه فمدحوه بالكرم والفروسية وعلوّ المقام من ذلك قصيدة الحاجة بنت مسيمس الشاعرة المشهورة التي نظمتها له بعد نزوله الى مصر ومنها :

في الخرطوم نزل ادّلى بالبابور   وفي بربر رسا بالقهوة غفُره يدور
جابوا له الجمال اقوجه المتمورْ   حلق الريف نزل قال لمصر دستور
في بلد النصارى كم سحت بالبابور   كل صبح جديد راكب على الحنتور
من قمت الجهل انت المتقديم منصور   أدوك الأمان خايفين عليك الجور
في السودان قبيل ما يشبهوك الناس   ويا جبل الذهب الصافي الماك نحاس
بارود النصارى عن قمزة الكباس   خليت الجوس ألين من القرطاس
عدّى عصره زين في ديار بلاد الناس   وفي دار الغروب دقيت للرجال اساس
كم قتل السلاطين خلّى الديار يباس   ود رحمة الزبير تام الرجاله خلاص

عود الى ولاية ٢١ ـ اسماعيل باشا ايوب :

اما اسماعيل باشا ايوب فانه بعد ان نظم البلاد على ما مرّ في تاريخ الزبير ولّى على الفاشر حسن باشا حلمي المشهور بالجويسر وعاد الى الخرطوم .

وأرسل الجناب العالي الخديوي رسالتين علميتين الى دارفور لأجل كشفها ومعرفة محاصيلها ومعادنها فسارتا من مصر في ٥ ديسمبر سنة ١٨٧٤ وذهبت احداهما بقيادة الكولونيل بردي عن طريق الاربعين فدخلت دارفور من الشمال والاخرى بقيادة الكولونيل كولستن فدخلتها من الشرق عن طريق كردوفان ولكن الكولونيل كولستن مرض في الطريق وعاد الى مصر فترأس الرسالة الماجور بروت وقامت الرسالتان بما عهد اليهما حتى القيام وعادتا الى مصر بتقارير علمية وافية عن سكان البلاد ومعادنها وتجارتها واجمال حالها .

هذا ما كان في السودان الغربي في عهد اسماعيل باشا ايوب على الخرطوم فلننظر الآن الى ما كان في عهده في السودان الشرقي :

احتلال سنهيت سنة ١٨٧٤ م :

تقدم ان الدولة العلية تنازلت الى مصر عن سواكن ومصوع في سنة ١٨٦٦م لزيادة في جزيتها السنوية فمذ اصبحت مصوع بيد مصر أخذت تسعى في تأييد المواصلات بينها وبين كسلا وكان اول مـا فتق لها وصل هذين البلادين بخط حديدي يمرّ في سنهيت التي عدّها اسماعيل باشا داخلة في الفتح الاول لكسلا فعارضه الملك ثيودورس ملك الحبشة في ذلك . ثم قتـل الملك ثيودورس في حرب أثارها عليه الانكليز سنة ١٨٦٨ م وتولى الحبشة بعـده الملك يوحنا فانشغل في محاربة القالا فاغتنم اسماعيل باشا الفرصة واستخدم الموسيو مونسنجر السويسري الذي كان قنصلاً لدولتي انكلترا وفرنسا في مصوع فاحتل سنهيت بألف وخمسماية رجل سنة ١٨٧٤ م وفي الوقت نفسه اشترى مقـاطعة آيلت الواقعة بين حماسين ومصوع من حاكمها فأهاج ذلك غضب الملك يوحنا ورفع الامر الى الدول الاوروبية معتمداً بالاكثر على انكلترا . اما اسماعيل باشا فلم يهتم لغضبه ولم يزل على سعيه ولكنه شُغل عنه قليلاً باحتلال هرر وحملة جوبا:

احتلال هرر سنة ١٨٧٥ م :

هرر سلطنة اسلامية مستقلة شرقي الحبشة وقد أسسها غزاة العرب بعـد الاسلام بقليل وحكمها عائلة من أهلها فلما كانت سنة ١٨٧٤ م مـات سلطانها الامير احمد فتولى السلطنة بعده الامير محمد فاستبد بالأهلين حتى لم يعـد لهم طاقة على حكمه فاستنجدوا باسماعيل باشا وسألوه ان يرسل من قبله والياً يتولاهم بدل سلطانهم محمد فأجاب اسماعيل باشا سؤالهم وأخـذ يسعى في شراء زيلع وبربره ميناءا هرر من الدولة العلية . وفي يوليو سنة ١٨٧٥ م تنازل له الباب العالي عنها بزيادة ١٣٣٦٥ جنيهاً مصرياً على جزية مصر السنوية . وفي سبتمبر سنة ١٨٧٥ م جهز حملة مؤلفـة من ٥ اورط من المشاة المصريين وبلوكين من الباشبوزق و ٣٠٠ جمل ومدفعين جبليين وعدّة صواريخ حربية وعقد لواءها

لرؤوف باشا الذي تقدم ذكره في فتح خط الاستواء فاحتل مدينة هرر في ١١ اكتوبر سنة ١٨٧٥ م وقبض على السلطان محمـد وقتله خنقاً بلا موجب وبقي الى ان عزله غوردون . وما زالت مصر قابضة على زمام الاحكام في هـذه البلاد الى ان كانت الثورة المهدية ولم يعد يمكنها ابقـاء جنودها فيها فأخلتها لأهلها في مارس سنة ١٨٨٤ م فآلت الى الاحباش في عهد الملك منيلك الحالي وما زالت بيد الاحباش الى اليوم .

حملة جوبا سنة ١٨٧٥ م : وفي سنة ١٨٧٥ م ارسل اسماعيل باشا حملة الى نهر جوبا لفتح الطريق بين البحر الهندي وبلاد خط الاستواء وتجنب السد في النيل الابيض الذي لم يقوَ على إزالته . وكان غوردون باشا اذ ذاك حاكماً على خط الاستواء فأصدر اليه الامر بملاقاة الحملة من جهته ولكن تضاربت عدة مصالح دولية ووقفت في سبيل هذه الحملة فنصحت الدولة الانكليزية لاسماعيل باشا فعدل عن رأيه وعادت الحملة الى مصر .

حرب الحبشة سنة ١٨٧٥ : ١٨٧٦ م : وعاد اسماعيل باشا الى النظر في احتلال حماسين فلما كانت أواخر سنة ١٨٧٥م أرسل أورطتين وبطارية مدافع بقيـادة الكولونيل ارندروب من ضباط الاميركان في خدمـة الجيش المصري بقصد احتلالها فلما علم الملك يوحنا بقدومه جرّد جيوشه وتقدم لقتاله فالتقاه في قندت في ١١ نوفمبر سنة ١٨٧٥م فقتله وأفنى جيشه وغنم أسلحته وذخائره وتقوّى بهـا وكان في جملة القتلى عراقيل بك وكيل مونسنجر في مصوع أما مونسنجر نفسه فلم يذهب مع الحمـلة ولكن لم تنته سنة ١٨٧٥ م حتى قتله الاحباش على بحيرة أوسا ومثلوا به .

ولما وصل الخبر الى اسماعيل باشا بمصر صمم على الاخذ بالثأر فأمر السردار راتب باشا فجرّد جيشاً مؤلفـاً من ١٥٠٠٠ مقاتل فيهم أورطة من السواري وأربعون مدفعاً وعدة سواريخ وسار بـه بطريق البحر الاحمر الى مصوع فوصلها السبت في ١٣ القعدة سنة ١٢٩٢ هـ ١١ ديسمبر سنة ١٨٧٥ م ومعـه

الكولونيل لونج رئيس أركان حرب والبرنس حسن باشا ثالث أنجال اسماعيل باشا أركان حرب شرف وزحف بالجيش على قرع الواقعة على ٥٥ ميلاً من مصوع فبنى طابية فيها وطابيتين في اول سهلها قرب قياخور وأسس ثلاث نقط حربية بينها وبين مصوع لحفظ خط الاتصال. ولما علم الملك يوحنا بقدومه جرّد جيوشه على قرع وكان من رأي السردار ان يتربص في الطوابي حتى يهاجمه الملك فأنكر عليه الكولونيل لونج هذا الرأي وقال انه دليل الخوف والجبن وليس من شأن المهاجم فوقع اللجاج بينهما واخيراً تغلب رأي الكولونيل لونج فما أطلّت جنود الملك يوحنا حتى خرج اليهم المصريون وحاربوهم في السهل فأطبق الاحباش عليهم من كل جانب وقد قدّر عدد الاحباش بنحو ٢٠٠٠٠٠ نفس مع النساء والاولاد وكان بعضهم مسلحين بالبنادق وأكثرهم بالسيوف والحراب والدرق فلم يكن إلا القليل حتى اخترقوا صفوف المصريين وأعملوا بهم السيوف والحراب ففتكوا بهم فتكاً ذريعاً وقتلوا منهم نحو عشرة آلاف رجل وغنموا بنادق القتلى و ٢٥ مدفعاً ومقداراً كبيراً من الذخائر وأسروا ٢٦٧ رجلاً وذلك في يوم الثلاثاء الواقع في ١١ صفر سنة ١٢٩٣ هـ ٨ مارس سنة ١٨٧٦ م .

وأما الذين نجوا من المصريين وعددهم لا يزيد عن الالف فقد لجأوا الى طابية قرع فهاجمهم الاحباش فيها بعد الواقعة بيومين ولكنهم لم يقووا عليها فعادوا بالاسلاب والاسرى الى عدوه .

وكان في جملة الاسرى محمد بك رفعت الذي رافق الحملة كاتباً للبرنس حسن باشا فأخذ يسعى في عقد الصلح مع الملك فتم الصلح على ان يرجع الجنود المصرية من ارض الحبشة ويرد الملك الاسرى الى مصر ويفتح التجارة بين مصوع والحبشة وعاد محمد بك رفعت مع الاسرى الى قرع في ٢٧ ربيع اول سنة ١٢٩٣ هـ ٢٢ ابريل سنة ١٨٧٦ م وعاد السردار وباقي العساكر من قرع الى مصوع ومصر فدخلوا مصر في ٧ محرم ١٢٩٤ هـ ٢٢ يناير سنة ١٨٧٧ م .

وبقيت سنهيت ومصوع بيد المصريين وبقي سليمان باشا نياظي في مصوع محافظاً عليها .

جرى ذلك كله واسماعيل باشا ايوب حاكم في الخرطوم وقد أمّن السبل وأنشأ محطات في طرق القوافل بين الخرطوم ودارفور وبين بربر وسواكن إلا انه لم يكن محبوباً في السودان وقد وصفه لي بعضهم بقوله : « كان رجلاً جباراً يعني بالعسكرية ويهمل الرعية ويقبل كل هدية » .

٢١ – غوردون باشا ١٢٩٣ : ١٢٩٦ هـ – ١٨٧٧ : ١٨٧٩ م

ولما دخلت سنة ١٨٧٧م عاد اسماعيل باشا ايوب الى مصر فلمَ يرَ الخديوي رجلاً يوليه السودان على اتساع أطرافه وكثرة مشاكله في هذا العهد أفضل من غوردون فأرسل يستدعيه تلغرافياً من بلاد الانكليز فحضر في أوائل فبراير سنة ١٨٧٧ م . وكانت مديريات السودان لا تزال مستقلة بعضها عن بعض فطلب غوردون ضمها كلها تحت ولايته فأجابه الى ذلك وأصدر له فرماناً بتاريخ ١٧ فبراير بالولاية على جميع بلاد السودان المصري مع دارفور وخط الاستواء وسواحل البحر الاحمر وهرر ومنحه السلطة العسكرية والمدنية عليها وأعطاه سلطاناً على القتل والعفو ومنع دخول احد الى السودان إلا باذنه وولجه منع تجارة الرقيق وتحديد التخوم بين السودان والحبشة. فسار غوردون الى الخرطوم بعزم وطيد لاصلاح البلاد وفض مشاكلها ووضع نظام عام يكفل لها الراحة ويرقيها في معارج المدنية والعمران ولكنه لم يلبث ان رأى خطارة المركز الذي تولاه وتعذّر النجاح نظراً لعدم تيسر الايدي اللازمة للعمل واتساع اطراف السودان ومشقة السفر في بلاده براً وبحراً مع قلة الجيوش اللازمة لحمايته بعد ان ذهب قسم منها لمساعدة الدولة العلية في حرب الروس ونهك الباقي حرب الحبشة . فقضى غوردون في السودان سنتين ونيفاً وهو يتنقل من مكان الى مكان تارةً بالبر وتارة بالبحر متمماً كلما أمكنه من الاصلاح حتى أعياه التعب وقاومته السياسة فاضطر الى الاستعفاء . وكان أهم

ما اشتغل به في هذه المدة : اخماد ثورة الامير هارون الرشيد في دارفور وحركة صباحي في كردوفان وسليمان الزبير في بحر الغزال ومنع تجارة الرقيق والنظر في مد سكة الحديد واصلاح ذات البين بين الحبشة والسودان .

ثورة السلطان هارون سنة ١٨٧٧ : ١٨٨٠ م : تقدم ان اسماعيل باشا ايوب ضرب الضرائب الفادحة على اهل دارفور فقبلوها على الرغم لأنهم كانوا قد سئموا عيشة الاضطراب والقلق التي وصلوا اليها في آخر سلطنة الفور وتاقوا الى السكينة ولكن لم يطل الأمد حتى انتشر الباشبوزق في أنحاء البلاد واقتضوا الضرائب منهم بالعنف والقوة فاستعظموا ذلك وفضلوا العودة الى ما كانوا عليه قبل . وكان عندهم من اولاد السلاطين الامير هارون الرشيد ابن الامير سيف الدين ابن السلطان محمد الفضل فبايعوه سلطاناً عليهم في أوائل سنة ١٨٧٧ م وثاروا ثورة عامة وحصروا حاميات الفاشر وداره وكلكل . وحصر الفاشر الملك سعد كبير البرتي والمقدوم آدم مقدوم الشمال سابقاً فهاجماها مرتين وكادا يستوليان عليها لولا ان العساكر حاربوا حرب الاسود فصدوهما ولكنهم لم يقووا على رفع الحصار . فأرسل حسن باشا حلمي الجويسر مدير الفاشر في طلب المدد من الخرطوم فأتاه عبد الرزاق باشا بجيش كبير فتصدّى له العصاة في بروش بين ام شنقه والفاشر فقتل منهم خلقاً كثيراً ودخل الفاشر فرفع عنها الحصار وأرسل الجنود الى داره وكلكل فرفعوا الحصار عنها ايضاً .

ثم أخذ حسن باشا عسكراً من الفاشر وخرج لمطاردة الامير هارون فأدركه في الطينة مسيرة يوم ونصف الى الفاشر فأوقع فيه واقعة شديدة ثم لحقه الى بير مرتال فقتل من عسكره خلقاً كثيراً وهزمه الى نيورنيا وسط جبل مرة.

ولما وصل غوردون الخرطوم وعلم بثورته أسرع الى الفاشر فوجده هادئاً في نيورنيا فتركه وشأنه وأمر الجباة بالرفق في تحصيل الضرائب وعزل جانباً كبيراً من عساكر الباشبوزق ورجع الى الخرطوم بعد ان أرجع اليها نصف العساكر النظامية .

وفي أوائل سنة ١٨٧٩ م عاد الامير هارون الى الحركة فعاد غوردون الى الفاشر فرأى ان دارفور لا يصلح حالها الا اذا حكمها رجل من أهلها تحت طاعة الحكومة على نحو ما أشار به الزبير من قبل فبعث الى مصر في طلب الأرشد من اولاد السلطان ابراهيم وعزل حسن باشا حلمي عن الفاشر وسمى مساداليه بك وهو ضابط ايطالي مديراً على دارفور . وكان عند مروره بسواكن في ديسمبر سنة ١٨٧٧م قد أطلق من سجنها المقدوم رحمة قومو المار ذكره وقد استصحبه الى الفاشر فجعله معاوناً لمساداليه بك الى ان يجيء ابن السلطان ابراهيم من مصر اما ابن السلطان ابراهيم فانه ما وصل دنقلة حتى فاجأته المنية فبقي حكم البلاد على حاله .

سلاطين باشا : وكان مساداليه بك قبل انتقاله الى الفاشر مديراً على داره فخلفه سلاطين بك وهو الآن سلاطين باشا الذي اصبح له شأن عظيم في السودان لذلك نأتي على لمع من بدء سيرته هنا فنقول : قدم سلاطين الى السودان سائحاً سنة ١٨٧٤ م وهو اذ ذاك في الثامنة عشرة من عمره فقصد جبال النوبة لدرس أحوالها فثار عرب الحوازمة على الحكومة لثقل الضرائب عليهم فرجع الى الابيّض وجعل وجهته الفاشر فبلغه في الطريق ان اسماعيل باشا ايوب قد أصدر أمره بعدم توغل الأجانب في بلاد دارفور خوفاً عليهم من أهلها فانقلب راجعاً الى الخرطوم فوجد فيها الدكتور امين بك وقد جاءها بقصد الدخول في خدمة غوردون في خط الاستواء فتعرّف به وكتبا الى غوردون يطلبان خدمة عنده فجاءهما الجواب بعد شهرين يدعوهما اليه فذهب امين بك على ما مرّ وأما سلاطين فقبل ان يرد الجواب من غوردون بعث اليه أهله يستحثونه على الرجوع اليهم فرجع في ختام سنة ١٨٧٥م. ولما تولى غوردون حكدارية السودان سنة ١٨٧٧ م ورأى قلة الأيدي اللازمة للعمل ذكر طلب سلاطين القديم فبعث اليه في أواسط سنة ١٨٧٨ م يستدعيه للخدمة في السودان وكان سلاطين اذ ذاك ملازماً في جيش النمسا في حرب الهرسك وقد حضر « واقعة هرزكوفينا » فلما انتهت الحرب وعادت

اورطته الى مركزها في برسبورج استعفى من الجيش وودّع اهله في فيينا في ٢١ ديسمبر سنة ١٨٧٨ م وجاء الخرطوم عن طريق سواكن فدخلهـا في ٢١ يناير سنة ١٨٧٩ م فرحب به غوردون وسماه مفتشاً في مالية السودان على ان يطوف في المديريات ويبحث في أسباب شكاوي الاهلين من الضرائب فذهب الى سنار وفازوغلي فرأى ان معظم الضرائب غير موزعة بالقسط وان الرشوة سائدة بين الموظفين عموماً ولا يمكن الاصلاح إلا بقلب هيئة العمال كلها فرفع استعفاءه الى غوردون وهو اذ ذاك في دارفور فقبلـه وعيّنه مديراً على داره كما مرّ . وذهب سلاطين لاستلام مهـامّ وظيفته الجديدة فالتقى بغوردون في الطريق بين الابيّض والنيل الابيض فأمره بتتبع الامير هارون وإخماد أنفاسه فما وصل داره حتى جاءته الأنباء ان الامير هارون قد قام من نيورنيا قاصداً نقطة بيرقوي على ثلاثة ايام جنوبي داره فأخذ سلاطين العساكر وقصد بيرقوي فرجع هارون عنها وعاد سلاطين الى داره .

وبعد ذلك بنحو شهر أي في فبراير سنة ١٨٨٠م جاءه كتاب من مساداليه بك يقول انه صمم على مهاجمة الامير هارون في نيورنيا وقد جرّد عليه سرية من الفاشر بطريق طرّة وسرية من كلكل بطريق ابي حراز وسأله ان يذهب بسرية من عسكره بطريق منواشي ويجتمع الكل في نقطة معينة قرب نيورنيا فجهز سلاطين ٢٢٠ رجلا من الجهـادية و ٦٠ من البازنجر وبعض الفرسان وسار بهم الى نقطة الملتقى ولم يكن إلا يسيراً حتى اجتمعت عليه سرية الفاشر فمكثوا في انتظار سرية كلكل . ولكن الامير هارون علم بخبر السرايا فجهز أنصاره وقد بلغ عددهم ٤٠٠ رجل مسلحين بالبنادق ومثلهم مسلحين بالسيوف والحراب و٦٠ فارساً وخرج بهم من نيورنيا فقـابل سرية كلكل في الطريق فقتل ثمنها وردّها الى كلكل وسار قاصداً داره فقتل وسبى وغنم ولكنـه لم يقوَ على الحامية فعاد عنها غانماً بالغنائم والسبايا . ولما علم به سلاطين خرج لمطاردته فأدركه في رهد النبق بالقرب من مركز سلطان المنبعات فباغته الهجوم وهو يستعد للرحيل فما شعر هارون إلا والرصاص يتخطف رجاله من

كل جهة فانهزم شر انهزام وغنم سلاطين منه ١٦٠ بندقية وجوادين و٤ نقارات و ٤ رايات وعاد الى داره . وفرّ هارون الى جهة الغرب فنزل في ابتره في دار قمر فعلم بـه النور بك عنجرة مدير كلكل فخرج له وباغته الهجوم في معسكره فقتله وهو يحاول الفرار على فرسه وقتل من أنصاره خلقاً كثيراً واستولى على معسكره وذلك في مارس سنة ١٨٨٠ م . وكان لقتله فرح عظيم في جميع دارفور .

وانضم القليل الذين نجوا من واقعة ابتره على الامير دود بنقه ابن الامير بكر ابن السلطان محمد الفضل فتحصن بهم في جبل مرة على ضعف وبقي الى ان كانت الثورة المهدية .

حركة سليمان الزبير في بحر الغزال ١٨٧٧ : ١٨٧٩ م : قـال الزبير : « وبعد ذهابي الى مصر خرج ابني سليمان بالجيش وعدده ٤٠٠٠ مقاتل الى شكا وأقام فيهـا الى ان حضر غوردون الى دارفور اول مرة فأرسل اليه أمراً لمقابلته مع جيشه في داره فصدع بالامر واجتمع على غوردون في شهر اوغسطوس سنة ١٨٧٧ م . وكان السعيد بك حسين احد سناجق الجيش قد وشى بي الى غوردون قائلا اني أوصيت ابني اذا لم أرجع سريعاً من مصر ان ينهض بثورة على الحكومة كما مرّ فرأى غوردون ان يفرق جيش سليمان فأعطى السعيد بك الف رجل وسماه مديراً على شكا وأعطى الباقي للنور بك عنقرة من سناجق جيش سليمان وأرسله الى كبكبية وأمر سليمان فرجع الى شكا بقلة وذلة . وفي أواسط سبتمبر سنة ١٨٧٧م وافاه الى شكا فطيّب خاطره وأنعم عليه بالرتبة الثانية مع لقب بك وسماه مديراً على بحر الغزال فسُرّ سليمان بهـذا الالتفات وذهب الى ديمي القديم وكنت قبل قيامي من الديم لحرب دارفور قد خلفت ادريس ابتر من تجار الدناقلة وكيلا عني في بحر الغزال براتب معين فقضى اربع سنوات في إدارة بحر الغزال لا يشاركه فيها احد فلما حضر سليمان وجد ان ادريس ابتر قد أخلّ بالادارة واستبدّ بالعبـاد ولم يهتم إلا بانتفاعه الشخصي فأعلن سليمان ارادته بمحاكمته في مجلس قضائي ففرّ الى الخرطوم ووشى به الى

غوردون بأنـه يريد الاستقلال في بحر الغزال بحجة انهـا بلاد أبيه وليس للحكومة حق فيها » .

حملة ادريس أبتر : ويظهر ان غوردون باشا أصغى الى وشايته فأنعم عليه بلقب بك وأعطاه مدفعين و ٢٠٠ من العساكر المنظمة وسماه مديراً على بحر الغزال . فلما وصل ادريس ابتر الى ديم قنده المعروف ايضاً باسمه كتب الى رؤساء الزرائب يخبرهم بتعيينه مديراً على بحر الغزال ويأمرهم بالحضور اليـه وكتب الى سليمان يدعوه للتسليم فغضب سليمان من ذلك وكتب اليه في الجواب يقول : « ان ولائي للحكومة يمنعني الخروج عن طاعتها الا ان شرفي لا يسمح لي بالتسليم الى مَن كان خادمي وخادم أبي من قبلي ولا يمكنني ان أأتمنك على نفسي واموالي بعد الذي رأيته من خيانتك وإنكارك للجميل لأنك لو كنت أميناً وذاكراً للجميل لحفظت عيشنا وملحنا وتربيتنا لك فلا تنتظر مني التسليم ولو ارسلت الحكومة إليّ رجلاً غيرك ولو عبـداً لسلمت وذهبت معه الى غوردون وأطلعته على جلية امري وبيّنتُ له نفاقك والسلام » .

فتيقن ادريس ابتر من هذا الجواب ان سليمان لا يسلم اليه الا بالقوة فترك جنده في عهدة اخيه عثمان وطاف في الزرائب يحرضهم على محـاربته وكان عثمان اخو ادريس رجلاً فظاً عاتيـاً مكروهاً من جميع البحارة وكان يرسل الشتائم الى سليمان وأتباعه ويتهددهم بالقتل وانواع العذاب فجرّد سليمان رجاله ورجال الزرائب الذين من حزبه وهاجمه في ديم قنده فقتله وقتل اكثر الجهادية والجلابة الذين معـه وغنم اسلحتهم وذخائرهم وعاد بالأسرى والغنـائم الى مركزه . فلما بلغ ادريس ابتر خبر الواقعة انقلب راجعاً الى الخرطوم وأخبر غوردون بما كان .

حملة جسّي : فجهّز غوردون سرية من العساكر وعقد لواءها لجسي باشا المار ذكره في فتح خط الاستواء ومعه يوسف باشا الشلالي فأقلع من الخرطوم في يوليو سنة ١٨٧٨م وسار في النيـل الابيض حتى وصل أورمبك بطريق

شامبي في سبتمبر سنة ١٨٧٨ م فوجد البلاد مغمورة بالميـاه بسبب الامطار فأقام في أورمبك نحو ثلاثة اشهر حتى جفّت الارض فسار قاصداً ديم سليمان ومعه ٣٠٠ من العساكر المنظمة و ٧٠٠ من البـاشبوزق و ٣ مدافع . وكان على طريقه في نقطة الدمبو رجل من مشاهير البحارة يُقـال له علي بك ابو عموري ومعه نحو الف رجل مسلحين بالبنادق فدعاه للانضمام اليه فأجابه بعد تردُّد لأنـه لم يكن يودُّ محاربة سليمان ولكن كان له محل تجاري في الخرطوم وآخر في مصر فأجاب الدعوة مضطراً مراعاة لتجـارته واجتمع على جسي في جور غطاس وساروا كلهم حتى نزلوا في قنـدة في اواسط ديسمبر سنة ١٨٧٨ م .

واقعة قندة : وكان سليمان لما علم بقدوم جسي قد أخذ في حشد الجيوش حتى اجتمع عنده نحو ١٠٠٠٠ مقـاتل فسار بهم الى قندة ونزل بالقرب من معسكر جسي . ولما كان صباح ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٧٨ م حمل على المعسكر حملة صادقة وكان جسي قد أمر جنوده فبنى كل منهم متراساً علوه متر ونصف متر ليقيه من الرصاص فصلوا رجال سليمان ناراً حامية فثبتوا برهة ثم انقلبوا راجعين الى معسكرهم فبنوا حصناً منيعاً من الاخشاب والتراب ونزلوا فيـه ثم جدّدوا الهجوم على جسي في ١٢ ينـاير سنة ١٨٧٩ م وفي ٢٩ منه فلم يظفروا بطائل .

وفي ١١ مارس سنة ١٨٧٩ م وصل جسي مدد من العساكر والذخـائر فزحف بجيشه حتى صار قريباً جداً من معسكر سليمان وأقام تلّاً من التراب وجعل عليه المدافع والسواريخ وشرع يرمي بقذوفاتها معسكر سليمان وكانت بيوته كلهـا من قش فاشتعلت النـار في المعسكر كله فذُعِر سليمان منه الى ديمه .

واقعة ديم الزبير : وبقي جسي في قندة حتى جاءه مدد آخر من غوردون فزحف بجميع جيشه على ديم سليمان فوصله في ٤ مايو سنـة ١٨٧٩ م فخرج

عليه سليمان من الديم وحاربه مستقتلاً مدة ساعة ثم انهزم راجعاً الى الديم فتبعه جسي على الاثر وأخرجه منه واستولى على جميع ما فيه من الأمتعة والاموال . واما سليمان فانه سار شمالاً حتى وصل غرّة غرب الكلكة من اعمال دارفور فأقام فيها .

وكان غوردون لما حضر المرة الثانية الى دارفور كما مرّ عرّج على شكا في ٧ ابريل سنة ١٨٧٩ م فوجد فيها بعض التجار الجعليين يهرّبون الاسلحة الى سليمان في بحر الغزال فألغى المديرية وشتت التجار وأمدّ جسي ببعض الذخائر وتوجه الى الفاشر للنظر في ثورة هارون ولم يلبث ان أتاه خبر من جسي بالاستيلاء على ديم الزبير وفرار سليمان الى غرّة فخاف غوردون ان ينضم سليمان على هارون فيصعب عليه إذلالهما معاً فعاد الى الطويشة وكتب الى جسي فترك الجيش بقيادة ساني بك في ديم الزبير ووافاه اليها في ٢٥ يونيو سنة ١٨٧٩ م ومعه يوسف باشا الشلالي فأمره بمطاردة سليمان الى غرّة وعاد بيوسف باشا الشلالي الى الخرطوم . فقاد جسي العساكر من دارة وبعض مشايخ الرزيقات والمعالية اصحاب الثأر على الزبير وسار حتى وصل الكلكة فأرسل رسلاً بكتاب الى سليمان يدعوه الى التسليم . قال الزبير :

« وكان قد بلغني خروج ابني سليمان على الحكومة بسبب ادريس ابتر فكتبت اليه من مصر بتاريخ ٢٥ الحجة سنة ١٢٩٥هـ ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٧٨م بما فحواه :

« أوصيتكم قبل مجيئي مصر بالامتثال لأمر الحكومة وعدم مخالفتها في شيء لتحوزوا تمام رضاها وتنالوا الرتب العالية . ثم بعد انفصال اسماعيل باشا ايوب عن الخرطوم وتولّي غوردون باشا حكمدارية السودان كتبت اليكم بالطاعة لأوامره وحذرتكم من مخالفته وقلت لكم ان رضاه مقرون برضى الحضرة الخديوية وغضبه كذلك واني أوصيته بكم فوعدني خيراً . وقد سرّني امتثالكم له في بادىء الرأي بمجيئكم مع ٤ آلاف عسكري لمقابلته في داره وسرّني بالاكثر خضوعكم له عند تجريده إياكم من العساكر لأن فعله هذا كان محض اختبار

لكم وليس بقصد إذلالكم يدل على ذلك لحوقه بكم الى شكا وإنعامه عليكم بالرتبة الثانية وتعيينه إياكم حاكماً على بحر الغزال . وقد بلغني ذلك وأنا في بلاد الترك فسرّني جداً وشكرت الله على حسن قيامكم بوصيتي واتخاذكم سواء السبيل .

« لكن بعد عودتي من بلاد الترك ورد عليّ تلغراف من محمد بك العقاد بالخرطوم كتبه بأمر حكمدار السودان يخبرني بعدم امتثالكم لأوامر الحكمدار ويرغب إليّ ان أكتب اليكم نصحاً لردّكم الى الطاعة وان ارسل كتابي اليكم عن يده فبعثت اليه بهذا الكتاب ليوصله اليكم فعسى ان يجدكم على أتم الطاعة والامتثال ويكون كل ما بلغ الحكمدار عنكم كذباً وافتراء . واذا كنتم لا سمح الله قد هفوتم وخالفتم أوامر الحكمدار فارجعوا في الحال الى الطاعة وطلب العفو عما فرط منكم واذا لم تفعلوا ذلك فاعلموا ان الله ساخط عليكم وأنا كذلك .

« وقد ورد عليّ الخبر اليقين بأن خادمكم ادريس ابتر الدنقلاوي قد زحف عليكم في مركزكم بقوة عسكرية تنيف على ٣٠٠٠ مقاتل من عساكر أميرية وخطرية وبسبب تعدّيه عليكم وخيانة العيش والملح وإنكار الجميل قد ردّه الله خائباً ولكنه مع ذلك أوقع الفتنة بينكم وبين الحكومة ولا بدّ ان تكون عاقبة ذلك وخيمة عليكم مع انكم فعلتم ذلك دفاعاً عن انفسكم فإنا لله وإنا اليه راجعون . واعلم يا ولدي ان من قد تربّى مثلكم في كنف الحكومة أباً عن جدّ وتشرف برتبها وانعاماتها لا يجدر به الا الطاعة والامتثال لأوامرها لا سيا وانتم تعلمون ان « الحكومة عالية ويدها طائلة » وقد طالما قاومتها الجيوش ورجعت عنها خائبة فما الذي زيّن لكم هذه الوساوس الشيطانية فان كانت من رأيكم فاطرحوها جانباً لأنها تلقيكم في المهالك ولا تفيدكم شيئاً وإن كانت من تغرير المفسدين بقولهم ان الحكومة حجزت على والدكم في القاهرة او انها قتلته فاعلموا انه قول كذب لا أثر للصحة فيه لأننا والحمد لله لم نزل في قيد الحيوة مشمولين بأنعام الحضرة الخديوية الفخيمة ومقيمين في ضيافتها

راحة والأمان نحن وجميع أتباعنا ولا نجد من لدن الجناب العالي الخديوي وجميع رجاله الفخام الا التجلة والاكرام فارجعوا الى رشدكم وعودوا الى الطاعة واذكروا أمر الله تعالى في كتابه العزيز بقوله : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم » فاذا عصيتم فما جوابكم يوم العرض وكيف الخلاص ؟.

« ثم اعلم يا ولدي ان تماديكم في العصيان يضرّ بمركزي الأدبي هنا كما يضر بكم هناك ويجلب عليكم سخط الله والحكومة فحافظوا على كرامتكم وكرامتي واستوعبوا الآن وصيتي. وقد ارسلت كتابي هذا مع محمد آدم (وهو الآن عمدة الجيماب في الجابلي) ليثبت لكم صحة قولي ويعيد عليكم وصيتي شفاهاً فعند وصوله اليكم اذهبوا معه لمقابلة غوردون باشا حكمدار السودان في الخرطوم او في دارفور . وأنا أعلم انه حالما يراكم يصفح عنكم ويحسن معاملتكم لأن شرف بريطانيا العظمى وكرم سجيته يوجبان عليه ذلك لا سيما واني أوصيته بكم عند سفره من مصر فوعدني خيراً . تولاكم الله وهداكم الى سواء السبيل » اه .

قتل سليمان وأعمامه بعد التسليم : قال الزبير : « وقد وصل كتابي هذا الى سليمان بعد خروجه من بحر الغزال فاستوعبه وصدّقه . ولما دعاه جسي الى التسليم مال اليه فعارضه رابح وانقسم الجيش بها الى حزبين : حزب مال الى التسليم ورئيسه سليمان وحزب أعرض عنه ورئيسه رابح . ولما كان صباح ١٤ يوليو سنة ١٨٧٩ م أتى سليمان الى جسي مسلماً ومعه ٧٠٠ رجل فيهم ثمانية من أقاربه وهم حسين ود عقيل وابو بكر منصور وموسى الحاج واحمد ود ادريس وابراهيم ود حسين وكلهم من الجيماب والارباب محمد ود دياب من السعداب وعبد القادر ود الامام وسليمان ود محمد والقائد برجي الاسود . وكان في جيش جسي كثير من الدناقلة الذين يكرهون سليمان والجعليين فوشوا به الى جسي قائلين ان تسليمه هو وأقاربه انما هو خدعة فاتخذ هذه الوشاية الساقطة مسوغاً لقتلهم فناداهم الى خيمته ثاني يوم التسليم وسقاهم القهوة وكان قد أوعز

الى بعض الجند فاحتاطوا بالخيمة ثم خرج منها فدخل بعضهم وأوثقوا سليمان وأقاربه وجعلوهم صفاً واحداً خارج الخيمة ووقفوا خلفهم ورموهم بالرصاص فانكبوا على وجوههم قتلى وبعد ساعة أتى قناوي بك ابو عموري فكفنّهم وحفر لهم حفرة ودفنهم فيها .

« وأما الرؤوس الذين لم يسلموا عدا رابح فهم : ابو القاسم من الجاذيب وموسى جلي وادريس سلطان ومحمد فضل الله وكلهم من الجيماب وعبد البين الاسود فأخذ كل منهم رجاله وتفرقوا بين عرب البادية فلما بلغ العربان قتل سليمان وأعمامه ألقوا القبض عليهم وساقوهم الى مساداليه بك في الفاشر فقتلهم عملا بأمر جسي .

رابح الزبير : أما رابح فقد انضم اليه نحو الف رجل مسلحين بالبنادق فقادهم الى جهة الغرب وأخذ يدوّخ البلدان الى ان وصل برنو ففتحها وأسس فيها ملكاً عظيماً جعل عاصمته دكوة في جنوبي بحيرة تشاد . وقبل وصوله الى برنو قام مهدي السودان فبذل الجهد هو وخليفته من بعده في استمالته وإرجاعه بجيشه الى ام درمان فلم يجب دعوتهما كما سيجيء ولكنه اختار راية المهدية راية لجيشه واشتهر ملكه بالعدل والصرامة وبقي الى ان دخلت برنو في نطاق نفوذ الفرنساويين فجرّدوا عليه الجيوش فحاربهم وظهر عليهم في عدة وقائع . فجردوا عليه اخيراً حملة مؤلفة من ٧٠٠ عسكري مسلحين بالبنادق و ١٥٠٠ عسكري من الباجرمة و ٤ مدافع بقيادة الكونت لامي وكان مع رابح نحو ٥٠٠٠ مقاتل فيهم ٢٠٠٠ مسلحين بالبنادق و ٦٠٠ فارس و ٣ مدافع فالتقى الجيشان في ٢١ ابريل سنة ١٩٠٠ قرب بحيرة تشاد واقتتلا قتالاً شديداً كانت العاقبة فيه للفرنساويين وقد قتل رابح وتشتت جيشه وقتل الكونت لامي بعد ان تمّ له النصر .

ولمّ ابن رابح شعث جيش أبيه ولكن لم تنته سنة ١٩٠٠ حتى قتله الفرنساويون وأسروا رجاله ولم يبقَ من قوم رابح مَن يطالبهم بثأر .

تنظيم مديرية بحر الغزال سنة ١٨٧٩ م : وبعـد ان فرغ جسي من امر سليمان عاد الى ديم الزبير فنظم فيه مديرية وجعل الساتي بك مديراً والارباب الزبير ود الفحل وكيلا له ومحمود الحلاوي المار ذكره مفتشاً لمنع تجارة الرقيق وقسم البلاد الى ثمانيـة اقسام وجعل في كل قسم منهـا نفراً من الباشبوزق والبازنجر وجعل في ديم الزبير اورطة جهادية وقفل راجعاً الى الخرطوم . ثم نظم ساتي بك اورطة جديدة من اهل البلاد وجاء موسى بك شوقي قومنداناً للعساكر من الخرطوم ومعه ١٦ كاتباً للقيام في اشغال المديرية . وبعد وصولهم بثلاثة اشهر حضر لبتن بك وهو من البحـارة الانكليز مديراً على بحر الغزال وقومنداناً للعساكر من قبل غوردون وعاد موسى بك شوقي الى الخرطوم . وبقي لبتن في بحر الغزال الى ان قام المهدي فاضطر الىالتسليم الى احد أنصاره كما سيجيء .

اما جسي باشا فقد اعترضه السـد في الطريق وفرغ منه الوقود والزاد حتى أكل رجاله بعضهم بعضاً وأشرفوا على الهلاك واذا بوابور قاصد خط الاستواء قد أقبل عليه فرجع به الى فاشودة ثم عاد فأتم سفرته وتقدم جسي بمن بقي من رجاله وفيهم قناوي بك ابو عموري الى الخرطوم فوصلها في ٢٥ يناير سنة ١٨٨١ م وسار منها قاصداً مصر عن طريق سواكن فوافته المنية في السويس في ٣٠ ابريل سنة ١٨٨١ م .

حركة صباحي في كردوفان سنة ١٨٧٩ م : وفي أثنـاء حركة هارون الرشيد في دارفور وسليمان الزبير في بحر الغزال نهض صباحي احد القواد الذين انفصلوا عن جيش الزبير فألـّف عصابة من ٤٠٠ رجل وأغار على الأضيـّة في كردوفان فقتل مأمورها وفرّ الى جبال النوبة فعلم بـه غوردون وهو ذاهب الى دارفور المرة الثانيـة في مارس سنة ١٨٧٩ م فأرسل من الابيض نفراً من العساكر فطارده وأتوا به أسيراً فحوكم في مجلس عسكري وحكم عليه بالاعدام.

عود الى تجارة الرقيق : تقدم لنا ذكر تاريخ تجـارة الرقيق في السودان

وسعى اسماعيل باشا في ابطالها فلما كان ٤ اوغسطوس سنة ١٨٧٧ م عقـد معاهدة رسمية مع انكلترا في هذا الشأن على ان تقفل اسواق الرقيق في مصر والسودان في الحـال ولكن يُغضى عن بيع الرقيق بين العائلات في مصر الى سنة ١٨٨٤ م وفي السودان الى سنة ١٨٨٩ م ثم يمنع البيع بتاتاً من البلادين . فنشر غوردون فحوى هـذه المعاهدة في جميع جهات السودان وسمى جيكلر باشا مديراً عاماً لمنع تجارة الرقيق وسمى في كل مديرية عدة مأمورين لهذه الغاية فأخـذ العبيد يفدون اليهم افواجاً يطلبون تذاكر الحرية فتعطى لهم . وفي أواسط سنة ١٨٧٨ م ضبط غوردون ١٤ قافلة من قوافـل الرقيق وفي السنة التالية ضبط ٦٣ قافلة .

سكة الحديد في السودان : وكان غوردون على رأي القائلين بمـد سكة الحديد في طريق سواكن وبربر لا في طريق النيل والاكتفاء بمدّ سكة الحديد عند الشلالات لأن النيل بين الشلالات صالح لسير المراكب فلا يفتقر الى سكة حديد . لكن اسماعيل باشا الخديوي فضّل مدّ سكة حديد على النيل وبـدأ بها سنة ١٨٧٧م فأتم منها نحو ٥٠ ميلا من حلفا جنوباً أنفق عليها ٤٥٠،٠٠٠ ليرة انكليزية ثم أوقف العمل في السنة عينها لعدم تيسر المال اللازم لاتمامه .

تحديد التخوم بين السودان والحبشة سنة ١٨٧٧ — ١٨٧٩م : ان مسألة تحديد التخوم بين السودان والحبشة قد شغلت غوردون مدة ولايته كلها فان اول ما باشره من الاعمال عند توليه حكمدارية السودان انـه ذهب الى مصوع لعقـد وفاق مع ملك الحبشة بشأن الحدود لكنه وجد ود ميخائيل شاهراً العصيان على حدود الحبشة ولا يتأتى الفصل في مسألة التخوم إلا اذا كفّ عن العداء فأجّل النظر في ذلك الى فرصة اخرى وذهب الى دارفور للنظر في اخماد ثورة هارون كما مرّ ثم عـاد الى سنهيت فوجد ود ميخائيل لا يزال على العصيان فطلب الى الملك يوحنا ان يتحد معه على سحقه فلم يجبه الى ذلك فعاد الى الخرطوم ومصر ثم رجـع بطريق البحر الاحمر الى هرر فوصلها في ابريل

سنة ۱۸۷۷ م فوجد رؤوف باشا مشغولاً بالتجارة وقد كثر ظلمه فعزله .

وفي ٦ رجب سنة ١٢٩٦ هـ ٥ يونيو سنة ١٨٧٩ م أقيل اسماعيل باشا من خديوية مصر وولي ابنه محمد توفيق باشا مكانه . فكان اول ما اهتم به تحديد التخوم بين السودان والحبشة فبعث في طلب غوردون الى مصر للنظر في هذا الشأن فحضر في اوغسطوس سنة ١٨٧٩ م . وفي هذه الأثناء سلم ود ميخائيل الى ملك الحبشة واتحد مع الرأس ألولا لمهاجمة سنهيت فعاد غوردون في الحال الى مصوع لاصلاح ذات البين مع الحبشة وفي ١١ سبتمبر سار من مصوع قاصداً ملك الحبشة فمرّ بالراس الولا في قُرَع واستطرد السير الى دبرتابور حيث كان يقيم الملك يوحنا فوصلها في ٢٧ اوكتوبر سنة ١٨٧٩ م وفي اليوم التالي قابل الملك وسأله عما يطلبه من مصر فقال مطالبي هي ان تردّ اليّ المتمة وسنهيت وتعطى لي زيلع وقسم من بلاد هرر وفوقها مليون جنيه او مصوع فسأله غوردون ان يكتب مطالبه هذه على ورق ويمهل الخديوي سنة أشهر للاجابة عليها فلم يفعل . وبعد قليل من الايام أعطاه كتاباً مختوماً في يده وأذن له في السفر فسار قاصداً الخرطوم بطريق القلابات ولكن قبل وصوله الى القلابات ألقي القبض عليه وأرجعه الى دبرتابور ثم أذن له في السفر عن طريق مصوع فوصلها في ٨ سبتمبر سنة ١٨٧٩ م بعد عناء شديد. وعلى أثر ذلك استقال من حكمدارية السودان وعاد الى بلاده .

ثم أغلق على هذه المسألة بسبب الثورة المهدية حتى عادت ففتحت بعد الفتح الاخير في ولاية السر رجينلد ونجت باشا حاكم عموم السودان الحالي فابرم وفاقاً مع الملك منيلك ملك الحبشة الحالي بتاريخ ١٥ مايو سنة ١٩٠٣ م حددت فيه التخوم بين السودان والحبشة فدخلت القلابات وفامكة والناصر في حدود السودان. [illegible]

[illegible]

٢٢ – رؤوف باشا سنة ١٢٩٦ : ١٢٩٩ هـ – ١٨٧٩ : ١٨٨٢ م

وخلف غوردون والياً على السودان رؤوف باشا المتقدم ذكره في الكلام

على خط الاستواء وهرر فصدر الامر العالي بتعيينه في ١٥ ربيع ثاني سنة ١٢٩٧ هـ ٢٧ مارس سنة ١٨٨٠ م وفيه الخطة التي أرادت الحكومة اتباعها في السودان وهذا هو بنصه :

« انه نظراً لثقتنا بما انتم متصفون به من الاهلية لأداء المأمورية المهمة المفوضة لأمانتكم والحالة هذه لا نرى لزوماً للاسهاب في شرح وتفصيل ما يجب اتخاذه واجراؤه من الوسائط والاعمال المؤدية لنجاح مأموريتكم التي نحن ناظرون اليها بعين الأهمية وهي تقدم وانتظام احوال مملكة واسعة مثل السودان وبذل ما يجب من المساعي للوصول الى توطيد اسباب عمارتها وتمدن ورفاهية أهاليها بتوسيع نطاق دائرتي التجارة والزراعة اللتين هما أعظم منابع الثروة العمومية انما نرى من اللزوم استجلاب دقة نظركم الى بعض مواد مهمة وهي الآتي ذكرها :

« أولاً – مالية السودان : وكما لا يخفى ان لفظة المالية تشمل كل ما يلزم ويمكن تقريره وتجعله من الاموال والعوائد بطريقة لا يتأتى منها الاضرار بحالة الاهالي ولا الاجحاف بحقوق الخزينة وكذا تقدير ما يلزم من المصاريف بالنسبة لحالة البلاد واحتياجاتها بشرط ان تكون كافلة لحسن ادارة المصالح العمومية بصورة منتظمة وعلى هذا فأول واجب عليكم هو تنظيم ميزانية مستوفية عن كافة إيرادات ومصروفات الحكمدارية ببيان انواعها ومفرداتها بغاية الضبط والدقة وحصر ما يكون موجوداً من الديون بأنواعها وأسماء أربابها وكيفية الوصول الى سدادها . هذا ومن اللازم ان الحكومة تكون عالمة بكافة احوال السودان اجمالاً وتفصيلاً وبالمثل انواع الضرائب والعوائد وسائر الاموال المقررة والجاري تحصيلها وكيفية استعمالها وصرفها فينبغي ان ترسلوا صورة من هذه الميزانية الى نظارة المالية واستمرار ذلك سنوياً وان تقدموا الى النظارة المشار اليها في كل ثلاثة اشهر حساب إيرادات ومصروفات الحكمدارية بالبيان الكافي وذلك كما هو جار بكافة مصالح الحكومة . وبما ان كافة ما يتعلق بالمواد المالية والحسابية مرجع الامر فيها الى نظارة المالية

فجمع ما يقتضيه الحال من المخابرات والاستئذانات في هذا الشأن يكون خاصاً بالنظارة المشار اليها .

« ثانياً — الادارة الملكية : يلزم تنظيمها وإجراؤها على صورة تلائم احوال تلك البلاد وما يختص بهذا القسم من المخابرات وما يتراءى لزوم تغييره وتبديله من المواد والنظامات ذات الأهمية وعزل وتنصيب ارباب المناصب الرفيعة مثل المديرين ووكيل الحكدار وما يتعلق بالادارة الملكية والاحوال الداخلية مما من شأنه استحصال أوامرنا عن جميع ما ذكر من هذه الانواع فينبغي ان تكون المخابرة عنه مع نظارة الداخلية . وأما ما يتعلق بالامور القضائية سواء كانت شرعية او نظامية تجرونه على قواعده المتبعة والحالة هذه انما ما يختص بهذا القسم من المخابرات او ما ترون لزوم اجرائه من الاصلاحات يجب اولاً المخابرة عنه مع نظارة الحقانية. ثم ان الرخصة التي كانت ممنوحة لأسلافكم بتنفيذ ما يصدر من الاحكام شرعية كانت او سياسية في المواد القضائية الحقوقية والجنائية قد أبقيناها لعهدتكم ايضاً ما عدا احكام القصاص الواجب استحصال أوامرنا عنها .

« ثالثاً — القسم العسكري : من المهم عند وصولكم الى مركز الحكدارية ان توجهوا أنظاركم والتفاتكم الى تنظيم واصلاح الحالة العسكرية حسبما يقتضيه احتياج تلك البلاد لتوطيد الامن والنظام العام لكافة أنحاء المملكة خصوصاً تقوية حدود الحبشة والمحافظة عليها في الحالة الراهنة مع ما يترتب عليه الامن والاطمئنان للوقاية من وقوع أدنى مهاجمة على هذه الحدود لأنكم عارفون جيداً بأفكارنا وأفكار أعضاء حكومتنا في هذه المسألة وهي اننا لا نقصد أي تجاوز كان على جيراننا ولا نريد أي فتوح جديد انما جل قصدنا المدافعة بغاية البسالة اذا وقع أدنى تعدٍّ على حدودنا . فهذه الأفكار هي التي تكون أس أعمالكم في ترتيب وتنظيم عسكرية السودان مع مراعاة اجراء القانون العسكري وكافة ما يتعلق بهذا القسم من المخابرات والاستئذانات هو خاص بنظارة الجهادية. هذا ومع بقاء حيازتكم الرخصة المعطاة لأسلافكم بتنفيذ أحكام القانون

العسكري في الجنايات وسائر الاحوال حسب ما تصدر به مضابط المجالس العسكرية فان حكم العزل او تنزيل رتبة او ترقي الضابط جميع ذلك لا بد من العرض عنه لطرفنا بواسطة نظارة الجهادية .

« رابعاً — من المعلوم ان مسألة « منع تداول بيع الرقيق » هي في غاية الأهميـــة اولاً ان بيع الرقيق أمر مخالف للانسانية ومخل باحترام بني آدم المنصوص عليه بالتكريم. ثانياً من الواجب المتعين علينا ابقاء شرائط المعاهدة المعقودة بين حكومتنا الخديوية والحكومة الانكليزية في ابطال تجارة الرقيق. ولو ان ما نعلمه ونثق به من افكاركم في هذه المسألة وما انتم عازمون عليه من المساعي الحميدة لمحو آثار هذه التجارة الذميمة لا يستوجب تكرار التأكيد انما رأينا من الواجب علينا ايضاً اثبات ما نحن عليه من شدة العزم والثبات في هذه المسألة لتوفقوا اعمالكم في ما تتخذونه من الوسائط المؤثرة والاحتياطات اللازمة لذلك لكي لا يسمع من الآن فصاعداً بحصول أمر مغاير من هذا القبيل في كافة البلاد والطرق المودعة تحت ادارتكم .

« هذا وحيث ان الاقطار السودانية بعيدة عن مراكز الحكومة الخديوية ومن الاقتضاء الوقوف على الوقوعات المهمة التي تحصل سواء كانت بالحدود او بخلافها فتبادروا بالاخبار عنها بوقت وقوعها الى طرفنا والى نظارة الداخلية بالتلغراف . وبناء عليه أصدرنا امرنا هذا لكم للمعلومية والاجراء على مقتضاه كما هو مطلوبنا » اه .

فباشر رؤوف باشا هـذه الاعمال عنـد وصوله الى السودان بهمة ونشاط واهتم على الخصوص بتحديد النفقات وتحصيل الاموال .

وفي صيف سنة ١٨٨٠ ثار السومال فأرسلت الحكومة نجدة لمساعدة حاكم هرر فأطفـأت الثورة . ولكن لم تنطفىء ثورة السومال حتى ظهرت الثورة العرابية في مصر .

وفي أثنائها ظهر في السودان رجل دنقلاوي الاصل يقال له « محمد احمد » ادعى انه المهدي المنتظر فصدق الناس دعواه وثاروا معه على الحكومة ورجالها

واستفحل امره سريعاً حتى انــه لم تكد تخمد الثورة العرابيــة في مصر حتى اصبح السودان كله شعلة ثورة تفاقم شرها وتعاظم خطرها وذهبت حاميات السودان كلها او اكثرها فريسة لهـــا . وكان رؤوف باشا آخر الولاة الذين حكموا السودان قبل الثورة . وحكم بعده من الولاة في زمن الثورة :

٢٣ – عبد القادر باشا حلمي ١٢٩٩ : ١٣٠٠ هـ – ١٨٨٢ : ١٨٨٣ م

٢٤ – علاء الدين باشا ١٣٠٠ هـ – ١٨٨٣ م

٢٥ – غوردون باشا المرة الثانية ١٣٠١ : ١٣٠٢ هـ – ١٨٨٤ : ١٨٨٥ م

وفي أيامهم أي في ٢١ فبراير سنة ١٨٨٢ م صدر أمر عالي فجعلت ادارة عموم السودان وفيهـــا مديرية شرقي السودان ومحافظة سواحل البحر الاحمر ومديرية هرر وزيلع وبربرة ونجرة حكمدارية واحدة. وشكلت نظارة جديدة بعنوان نظارة الأقاليم السودانية وملحقاتها مركزها مصر القاهرة .

ثم في ٢ ابريل سنة ١٨٨٢ صدر أمر عال بتقسيم جهات السودان ٤ أقسام وهي :

١ – حكمدارية اقليم غرب السودان وتشمل مديريات دارفور وكردوفان وشكا وبحر الغزال ودنقلة ومركزها الفاشر .

٢ – وحكمدارية اقليم وسط السودان وتشمل مديريات الخرطوم وسنار وبربر وفاشودة وخط الاستواء ومركزها الخرطوم .

٣ – وحكمدارية اقليم شرق السودان وتشتمل مديرية التاكا وملحقاتهـا ومحافظتي سواكن ومصوع وملحقاتها الى باب المندب .

٤ – حكمدارية عموم هرر وملحقاتها وفيها محافظتي زيلع وبربرة ومركزها هرر .

ثم في ٢٠ يناير سنة ١٨٨٣م صدر أمر عال فسمي علاء الدين باشا حكمداراً

لعموم السودان وملحقاتها وسمي راشد كامل باشا حكمدار عموم السودان الشرقي والبحر الاحمر . وأنشأت ادارة خاصة بأشغـال السودان وملحقاته برئاسة مجلس النظار .

ولما اشتدت الثورة صدر امر عال بتاريخ ١٥ يناير سنة ١٨٨٤ م فألحقت ادارة عموم السودان وملحقاته الى نظارة الحربيـة وبقيت في نظارة الحربيـة الى نهاية الثورة .

وقبل الخوض في تفصيل هـذه الثورة ووقائعها نذكر الاسباب التي حملت اهل السودان على تلقي دعوة زعيمها محمد احمد بالقبول والثورة معه على الحكومة ورجالها ثم نتبع ذلـك ذكر سيرة محمد احمد والاسباب التي حملته على الظهور بدعوى المهدية .

يا ربنا ربي عمري ما كتبت اسم كتاب بهذه الطريقة
إلا منت به علي يا مولاي مع ما بي من ما حاكس لا يعلمها إلا لك
مولاي امنت علي بسعادة المستهلك وغيره وكتبي إلهي
لطلب الطيب الظاهر وغير الباطن مولاي مالكي
سواك يا رب ثبت قلبي يا رب،

البابُ السّابع

في

تاريخ الثورة المهدية

الفصل الاول

في

أسباب الثورة المهدية وأسباب نجاحها

اعلم انه عند قيام محمد احمد الدنقلاوي بدعوى المهدية كان أهل السودان خاصتهم وعامتهم ناقمين من الحكومة واجدين عليها وهم يتوقعون باباً للفرج او فرصة لشق العصا . والاسباب التي أوصلتهم الى هذه الحالة كثيرة مرجعها كلها سوء الادارة وعدم اتقان السياسة اللائقة بأهل البلاد . وأهمّ تلك الاسباب :

١ - **العنف** : فقد رأيت ان السياسة التي اتخذها اسماعيل باشا فاتح سنار للتنكيل بالملك نمر عادت عليه وعلى اصحابه وآلت الى خروج الملك نمر عن طاعة الحكومة فلجأ الى الحبشة واجتمع عليه كل متشرد وعاصٍ فكان شراً عظيماً على الحكومة هو وأولاده من بعده نحو خمسين سنة . ولما ظهر المهدي كانت بقية اولاده في بلاد القضارف فكانوا اول من نصروه ورفعوا رايته في السودان الشرقي . ثم ان الدفتردار الذي جاء من كردوفان للاقتصاص من الجانين في قتل اسماعيل باشا لم يقف عند حدّ بل عمَّ غضبه المجرم والبريء ونكّل بالجعليين تنكيلاً لم يروه ولا سمعوا به من قبل ولا سيا في شندي

والمتمة والعيلفون فانه قتل وسبى وأذلّ الاهلين وأوجعهم فوجدوا على الحكومة بسببه وقد أورثوا الوجد أبناءهم من بعدهم فحفظوه حتى قام المهـدي فقاموا معه يطالبون بالثأر . وقد رأيت الكثيرين ممن ثاروا على الحكومة فقالوا انما فعلنا ذلك لأسباب شتى اولها الأخذ بثأر آبائنا من فظائع الدفتردار .

٢ ـ **الضرائب** : وتوالت الحكام بعـد الدفتردار وضربت الضرائب على الاهلين ولم يكونوا متعودين عليها فاستثقلوها وزادها ثقلا انها لم تكن موزعة بالقسط بل كانت شديدة على الفقراء خفيفة على الأغنياء وقد كانت خفتها على الأغنياء بالنسبة الى مقـدرتهم على رشوة المأمورين وقربهم من الحكام حتى كان جانب كبير من أملاك الاغنيـاء والمأمورين معفياً من الضرائب . وفوق ذلك فقد ناطوا تحصيل الضرائب بجماعة الباشبوزق الشايقية والاكراد والمغاربة الذين فتحوا البلاد فاستعملوا منتهى القسوة والعنف في تحصيلها حتى كانوا اذا تأخر احدهم عن دفع ما عليه أعملوا فيه السياط وأهانوه حتى يدفع الفلس الاخير . وشرّ من ذلك كله مما لم يكن له مثيل في غير السودان ان هؤلاء المأمورين لم يكتفوا بالضرائب الرسمية بل كانوا يفرضون على الاهلين « فرضاً » غير رسمية يحصلونها مع الضرائب . وذلك ان اكثر الولاة الذين حكموا السودان كانوا يأتونه من مصر على غير ارادتهم لبُعد السودان عن بلادهم وكثرة حره ومشاقه فكانوا لا يهتمون في الغالب الا بالانتفـاع من وظائفهم فيفرضون على المديرين اموالاً باسم الهدايا فيضطر المديرون الى استرجاعها من مأموري المراكز الذين تحت ادارتهم او من الباشبوزق المولجين بجمع الضرائب وهؤلاء يفرضونهـا على الاهالي اضعافاً لأجل وفاء مـا فرض عليهم وحفظ شيء لأنفسهم . وكانوا يشددون على الاهلين في تحصيل هذا الفرض تشديدهم على تحصيل الضرائب وهم آمنون من القصاص للتواطيء المشار اليـه مع الولاة والمديرين ولذلك اشتد نفور الاهالي من الحكام وتمكن الحقد والوجد في قلوبهم وصاروا يتمنون زوال هذه الحكومة التي سلطت عليهم من لم يرحمهم واستبدالها بأية حكومة كانت. يدلك على ذلك القول الذي جرى على ألسنتهم عند ظهور المهدي وهو «عشرة

في تربه ولا ريال في طلبه » . ويدلك عليه ايضاً هجر النـاس لأوطانهم والتجاؤهم الى اطراف البلاد كالقلابات وبحر الغزال ودارفور كما مر . ومما جاء في قصيدة الشيخ محمد شريف المشهورة التي نظمها في ذمّ المهدي بحرفه :

وما أبت السودان حكم حكومة ... الى ان أتى ضعف المطاليب من مصر
فكالثلث والثلثين للمير وحـده ... وللشيخ والنظـار اضعافه فادر
بضرب شديد ثم كتفٍ مؤلم ... ومن بعـده الالقاء في الشمس والحرّ
وأوتاد ذي الأوتاد من بعض فعلهم ... وأشنع من ذا كله عمـل الهرّ

أي أنهم كانوا يجعلون في سراويل الرجل هراً ثم يشرعون في ضربه حتى يمزق الهرّ جسمه . قـال وقد رأيت ذلك في قسم الخرطوم نظارة احمد اغا ابو زيد .

٣ ـ **منع الرقيق** : ثم الذي زاد الطين بلة والطنبور نغمة فكان منه معظم الشرّ هو تشديد الحكومة في منع النخاسة والاسترقاق فان النخاسة كما علمت مهنة قديمة في السودان يتعاطاها الجم الغفير من اهلها بل من اعظم أهلها جاهاً ونفوذاً والاسترقاق وبيع الرقيق غير محرمين في شريعة اهلها فهم لا يرون فيها شراً يجب ابطاله بل يرون الشر كله في ابطالها خصوصاً لأن خدمة عرب السودان في البيت وخارج البيت كلهـا منوطة بالرقيق ولم يكن للعرب إلا السيادة والتجارة كما مرّ . وقد تعودوا هـذه الحالة السنين الطوال وارتاحوا اليها كل الارتياح حتى لم يعد من الممكن منعهم عنها دفعة واحـدة ولكن الحكومة أصرّت على منعهـا بالقوة ولا سيما في عهـد السر صموئيل باكر وفي عهد الكولونيل غوردون فانهما مع اعتقادهما الشخصي بأن التشديد في منع الرقيق هو في غير محله وقبل وقته اضطرا عملا بأوامر الحكومة ان يبالغا في التشديد في منعه والتضييق على تجار الرقيق في جميع الأقطار السودانية ولاسيما في بحر الغزال وخط الاستواء فنكلا بهم تنكيلاً شديداً وفرقا جموعهم وعاقبا البعض بالقتـل والبعض بالسجن والبعض بضبط الأموال . وحرّر غوردون

كثيراً من الأرقاء من أيدي أسيادهم لا سيا بعـد نشر المعاهدة التي عقدت بين اسماعيل باشا والدولة الانكليزية سنة ١٨٧٧ م بل لـما رأى الأرقاء حريتهم في يدهم صاروا يتركون أسيادهم لأقـلّ سبب او بـلا سبب . وكان الأهلون يدفعون قسماً من الضرائب عبيداً فأصبحوا بعـد ابطال النخاسة لا يقدرون على ادائها فاستبد بهم الجبـاة وساموهم خسفاً على خسف وذلاً على ذل . وعدّ الجهال مداخلة باكر وغوردون وجسي وجيكلر وغيرهم من النصارى في منع الرقيق ان النصارى تتعرض لدينهم فعظم الخطب وعمت الشكوى .

٤ ـ **المحاباة** : قـال المضوي : « ومن الأمور التي ساءت الأهالي فزادتهم وجداً على الحكومة تميز الشايقية الذين جنّدتهم عساكر وحوالات وأعفتهم من الضرائب في حين انها ثقلت بها على سائر الاهالي مع ان الجميع من مقـام واحد وما من قبيلة معروفة في السودان تعترف بامتياز الشايقية عليها ومـما يدلك على استياء الاهلين منهم قول الجعليين المشهور عند ظهور الثورة :

يا نعم العباسية ، القامت المهدية والله ما في ربّة ، غنيمة الشايقية

« ومما ساء الاهالي ايضاً وعلى الخصوص رؤساء الطرق تميز المرغنيـة على سائر الطرق في السودان حتى كثر أتباعهم وعظم جاههم وهـذا وان لم يكن صريحاً من اصل الحكومة بمصر فهو مسبب عنها فان الحكام وأهل النفوذ من رؤساء الأقلام ليسوا من اهل السودان وعاداتهم في المأكل والمشرب والملبس والمعاملات تختلف عن عادات اهل السودان فمالوا الى مخالطة المرغنية للمشاكلة اولاً ولانتساب المرغنية الى مكة المشرفة ثانياً وبسبب ذلك مال اليهم عساكر الشايقية عموماً لتقربهم من رجال الحكومة ودخلوا في سلكهم حتى صار كل سر سواري يهدي اليهم مرتبه ومرتب رجاله شهراً في كل سنة فازدادت بذلك صولة خلفـاء المرغنية وصاروا يتطاولون على رؤوساء الطرق الاخرى بالشتم والاهانة فحقدوا عليهم وعلى الحكومة التي كانت سبب في تعظيم شأنهم اه ».

فهذه الاسباب كلها مع انتظار جمهور المسلمين للمهدي كما بيناه قبـل هي

التي حملت الأهلين على نصرة محمد احمـد والثورة معه على الحكومة ورجالها وكان رؤساء الطرق وتجار الرقيق من اكبر انصارها وأشد أيديها ولم يبقَ في جانب الحكومة إلا الشايقيـة والمرغنية الذين وُجهت الثورة ضدهم كما وجهت ضد الحكومة للأسباب التي قدمناها .

هذه هي أسباب الثورة وتعميمها وأما اسباب نجاحها فهي :

(١) استخفاف الحكومة بشأن محمد احمد في بادىء الرأي . مع ان الامر الذي قام به ذو بال وقد كان في كل العصور سبباً لاراقة دماء كثيرة وخراب بلدان شتى .

(٢) ثورة عرابي في مصر : فانه عند قيام محمد احمد في السودان قام ايضاً احمد عرابي في مصر فلم يتأتَّ للحكومة ان تتفرغ لأمر محمد احمـد وتنجد السودان بالعساكر قبل انتهاء الثورة العرابية في مصر . ثم لم تنتهِ هذه الثورة حتى كانت الثورة المهدية قد عمّت السودان كله واتسع الخرق على الراقع .

(٣) ضعف الحاميات العسكرية : فانه حين ظهور الثورة سنة ١٨٨١ م لم يكن في السودان كله مع اتساعه ووعورة مسالكه الا ٤٠٤٩٠ رجلا موزعين على الحاميات كما يأتي :

١٩٥٠ في دنقلة	٨٠٠ في الجيرة	٣٤٧٠ في هرر
٢١٧٠ « بربر	٢٠٠ « القضارف	٥٨٣٠ « كردوفان
٧٤٧٠ « الخرطوم	٣٩٤٠ « كسلا	٤٨٦٣ « دارفور
٢٣٥٠ « سنار	٩٢٠ « اميديب	٨٨٦ « بحر الغزال
١٦١٠ « القلابات	١٩٠٠ « سنهيت	٢١٣١ « خط الاستواء
		٤٠٤٩٠ الجملة

وهذه الحاميات مع بُعدها السحيق بعضها عن بعض لم تكن محصنة قبل الثورة ولما حصنت في أثناء الثورة كان في كل حصن منها غلطة دفاعيـة . ثم انه لم تكن حامياتها كلها من العساكر المنظمة بل كان بينهم كثير من الباشبوزق

وكلهم غير متمرنين على الحرب والقتال وقد تعوّدوا الترف والراحة في حين ان اهـل السودان مطبوعون على الفروسية والشجاعة ومتعودون على الحرب والنزال وقد صدقوا المهدي وأحبوا الموت معه في سبيل الله .

(٤) تردُّد الحكومة : فان الحكومة لم تتخذ سياسة ثابتـة نافذة في اخماد الثورة بل أظهرت احيـاناً التردد والارتباك في مكان الحزم والعزم ففقدت جميع حامياتها واحدة واحدة وعادت الى حدودها بمصر كما سيجيء بالتفصيل.

هذا ما كان من أسباب الثورة ونجاحها فلنتقدم الآن الى ذكر سيرة محمـد احمد والاسباب التي حملته على الظهور بدعوى المهـدية . ثم نتبع ذلك ذكر حوادث الثورة .

الفصل الثاني

في

بدء سيرة محمد احمد

وذكر الاسباب التي حملته على الظهور بدعوى المهدية

ولد محمد احمد هذا في جزيرة ضرار من اعمال دنقلة سنة ١٢٥٨هـ ١٨٤٣م او حواليها واسم أبيه عبـد الله وأمه زينب . وهو ذرية رجل يسمى حاج شريف طال عمره جداً واشتهر بالصلاح والتقوى . وقبيلته من العرب المتنوبة وقد عرفت في دنقـلة بصبر ُنسّي أي قبيلة صبر وهو جدّ له أبعد من جدّه حاج شريف وعرفت ايضاً بالاشراف لأنها تدعي النسبة الى جدّ أبعـد من صبر ُيقال له نجم الدين وهو جدّ الكنوز المدعي النسبة الى آل البيت. ولما ادّعى محمد احمد المهدية علّى نسبه حتى أوصله الى الحسن السبط طبقاً لمـا تدوّن في الكتب من شرائط المهدي . وهـذه هي سلسلة النسب التي ادّعاها لنفسه :

« محمد المهدي بن عبد الله بن فحل بن عبد الولي بن عبد الله بن محمـد بن حاج شريف بن علي بن أحمد بن علي بن حسـب النبي بن صبر بن نصر بن عبـد الكريم بن حسين بن عون الله بن نجم الدين بن عثمان بن موسى بن ابي العباس

وراجع تعليقات المحقق ص ٩٦٨

راجع أيضا تعليقات المحقق ص ٩٦٨

ابن يونس بن عثمان بن يعقوب بن عبد القادر بن الحسن العسكري بن علوان بن عبد البـــاقي بن صخرة بن يعقوب بن الحسن السبط بن الامام عـلي بن ابي طالب » اه .

وكان ابوه نجاراً ماهراً في بناء المراكب والسواقي وقد ضاق به العيش في دنقلة فرحل بعائلته الى الخرطوم ومحمد احمد اذ ذاك طفل . وصار يتردد منها الى كرري مشتغلاً بصناعته الى ان مـات ودفن في كرري . وقد خلف بنتاً تسمى نور الشام واربعة ذكور وهم : محمد ومحمد احمد الذي فيه كلامنا وحامد وعبد الله الذي تركه حملاً في بطن أمه فولد بعد وفاته فسمي باسمه على عادة أهل السودان من تسمية الولد الذي يكون بهذه المثابة باسم أبيه .

وقد تعلم اخوة محمد احمد صناعة والدهم واشتغلوا بهـا وأما هو فانه مال بالفطرة الى الديانة والعلم كجده حاج شريف فدرس القرآن في مدرستي كرري والخرطوم . ثم اشتغل بدرس العلوم الفقهيـة فأخذ عن الشيخ الامين الصويلح في مسجد ود عيسى بالجزيرة ثم عن الشيخ محمد الخير في الغُبُش تجاه بربر فأتقن مبادىء النحو والتوحيد والفقـــه والتصوّف واشتهر بين أقرانه منذ الصغر بالتعبد والتقوى بل بالترفض والزهد حتى قيـل انه كان يمتنع عن أكل زاد استاذه محمد الخير لأنه كان يجري عليه من الحكومة لقوله انه مال الظلم فكان اذا لم يأته الزاد من اهله اصطاد السمك من النيل وتقوّت به .

وبعد ان أتم دروسه على محمـد الخير مالت نفسه الى التصوّف فذهب الى الشيخ محمد شريف حفيـد الشيخ الطيب صاحب الطريقة السمانية وهو اذ ذاك مقيم عند قبر جدّه في أم مرّحي وسأله الدخول في مصاف تلامذته وذلك في سنة ١٢٧٧ هـ ١٨٦١ م فأجابه محمـد شريف الى طلبه فأقام عنده منقطعاً الى الصلاة والعبـــادة وما لبث ان أظهر من التقشف والزهد ما ميزه عن سائر التلامذة حتى انه كان يشتغل في منزل سيده بما هو منوط بالعبيد والجوار من احتطاب واستقاء وطحن وطبخ وهو غير مكلف الى شيء من ذلـك وكان كلما وقف للصلاة يبكي حتى يبلـل الارض بدموعه واذا جلس امام شيخه

نكّس رأسه ولم يرفع طرفه اليـه إلا اذا كلمه فيرفع طرفـه بأدب واحترام وأقام على ذلك سبع سنين . فلما رآه شيخه على هذه الحالة وأنه سالك طريق المريدين وناهج منهج الصالحين مال اليه وأحبه وجعله شيخاً وأعطاه راية وأذن له في الذهاب حيث شاء لاعطاء العهود وتسليك الطريقة. فذهب الى الخرطوم وتزّوج بابنة عمّ له وأقام مع اخوته يبث طريقته بغيرة وجدّ .

وفي سنة ١٢٨٦ هـ ١٨٧١ م رحل اخوته الى جزيرة أبا لكثرة أشجارها الصالحة للمراكب فرحل معهم وبنى في الجزيرة جامعاً للصلاة وخلوة للتدريس فاجتمع عليه سكان تلك الجزيرة وهم دغيم وكنانـة وغيرهم من عرب البادية وأخذوا العهد عنه ودخل بعضهم في تلمذته وفي جملتهم علي ود حلو الذي جعله بعد ادعائه المهدية خليفته الثاني . ولم يمض إلا القليل حتى اشتهر صيته وكثر أتباعه وكان استاذه محمد شريف قـد انتقل الى القادرية قرب جبل أولى على النيل الابيض فكان يزوره في كل موسم وعند لتقديم واجب الطاعة وقبـل الدخول عليه يجعل الرماد على رأسه والشعبة في رقبته وفروة الضأن على صلبه تشبهاً بالعبد في حالة ذلّه فكان محمد شريف يحلّ الشعبة من رقبته والفروة عن صلبه ويلبسه أفخر الثياب فيقيم عنده أياماً ثم يعود الى مركزه في جزيرة أبا. وفي بعض زياراته حدّثه عن خيرات البلاد التي رحل اليها وسهولة العيش فيها وزيّن له الاقامة في العراديب بين أبا والكوة فانتقل اليها سنة ١٢٨٨ هـ ١٨٧٢ م وكانت العراديب على خصبها خاليـة من السكان والزراعة فعمرها وأقام فيها على صفاء تام مع محمد احمد برهة ثم لم يلبث ان تكدر هذا الصفاء فصار جفاء ثم نفوراً ثم عداء .

وسبب ذلك فيما رواه الشيخ محمد شريف ان محمد احمد لمـا كثرت أنصاره ومريدوه كبرت نفسه وسوّل له شيطان الغرور انه أعظم من في الارض وانه المهدي المنتظر قال محمد شريف فأسرّ اليّ بدعواه ورغب ان أكون له وزيراً ومستشاراً فيجعل الامر كله في يدي وذلك سنة ١٢٩٥ هـ ١٨٧٨ م فزجرته ونهيته مراراً ولما لم ينته عقدت معه مجلساً في أبا جمعت اليه القضاة والنظار

وبعض الاخيار كبعدالرحمن اللبيح ناظر اللحويين واحمد جفون ناظر الشانخاب ويوسف ابي جمعة ناظر الجزائر ومحمد حسن قاضي الجهة وغيرهم من أكابر أبا وأمرته بالرجوع عن ضلاله وأشهدت الله ورسوله والحاضرين اني ان رجع شاطرته نصف ما ملكت يدي من مال وعقار فخرج من المجلس لمشاورة من معه من الأصحاب فلم يرجع . ومن ذلـــك الوقت نفيته من الطريقة وقلت لأصحابي ان يضربوه اذا جاءهم ونصحت لقائمقــام الكوة بوجوب القبض عليه وزجه في السجن خوفاً من تجسم الامر فلم يفعل وقال انه رجل صالح وصاحب الخضر فلا يمسه بسوء . وللشيخ محمد شريف قصيدة طويلة نظمها بايعاز عبد القادر باشا سنة ١٢٩٩ هـ ١٨٨٢ م في تكذيب دعوى المهدي جاء فيها بحرفه :

١	لقد جاءني في عام « زع » لموضع	على جبل السلطان في شاطىء البحر
٢	يروم الصراط المستقيم على يدي	فبايعته عهداً على النهي والأمر
٣	فقــام على نهج الهداية مخلصاً	وقد لازم الاذكار في السر والجهر
٤	وأفرغ في نهج المحامد جهـده	فرقيتـه جهلاً بعاقبــة الأمر
٥	أقام لدينا خادماً كل خدمة	تعزُّ على اهل التواضع في السير
٦	كطحن وعوس واحتطاب وغيره	ويعطي عطا من لا يخاف من الفقر
٧	وكم صام كم صلى وكم قام كم تلا	من الله لا زالت مدامعه تجري
٨	وكم بضوء الليل كبر للضحى	وكم ختم القرآن في سنة الوتر
٩	لذلك سقي من منهل القوم شربة	بها كان محبوباً لدى الناس في البر
١٠	وكان لدينا عيشه صدقاتنا	وخادمنا عشرين عاماً من العمر
١١	الى الخمس والتسعين أدركه القضا	على ما مضى في سابق العلم بالشر
١٢	بصحبة شيطان من الجن ايس	وشيطان انس وافقاه على الضر
١٣	ولا تنسَ داعي الاحتياج فثالث	وكم ساقط في الشر من ألم الفقر
١٤	فقال أنا المهدي فقلت له استقم	فهذا مقام في الطريق لمن يدري
١٥	وخادعني بالقول كالمهدِ ابنكم	ومحسوبكم في الحب في عالم الذر
١٦	فقم بي لنصر الدين نقتل من عصا	فأنت لك الكرسي ولي دول الغير

١٧	فقلت له دع ما نويت فانـه	وتالله شر قد يجر الى الخسر
١٨	وقال له الشيطان بشّر ولا تخف	فانك منصور على البر والبحر
١٩	وقد فهم القولين فهم أولى النهى	ومال الى حب الرياسة والجبر
٢٠	فقال أنا كالماء في الطبع بارد	واما يُسخّن كان كالنار في الحر
٢١	وان يستخفوا بي وان يقتلونني	فقبلي عليٌّ والحسين ولي أمري
٢٢	ومن ذلك النادي أبى وأبيته	وأفتيت فيه بالضلال وبالكفر
٢٣	واني أذنت الجيش ان يضربوه ان	أتاهم بما يهواه من واضح النكر
٢٤	وقد جاء للعلُّوب في سفهائه	وقد ردّه الاتباع بالجبر والقهر
٢٥	وكان من الاسرى لديهم بناقة	وراياته والجيش قد صار في البحر
٢٦	وكنت نصحت القيمقام بجنبه	فما جاءني من غير دعّ صاحب الخضر

هذا الذي قاله الشيخ محمد شريف في سبب العداء بينه وبين محمد احمد وقد أكده لي شفاهاً بعد فتح ام درمان سنة ١٨٩٨ م . ولكن أنصار محمد احمــد ينكرون هذا القول ويقولون ان اصل العداء هو انصراف الناس عن محمد شريف وميلهم الى محمد احمد بالعقيدة والاتباع . وقالوا في تفصيل ذلــك ان محمد شريف عند انتقاله الى العراديب رأى من عربان تلك الجهات إقبالاً على محمد احمد لم يرَ مثله عليه فساءه ذلك جداً واخذ يعمل على الخفض من سطوة محمد احمد فأقام له الشيخ رضوان احــد خلفائه ندّاً في قوز العلوب غربي أبا وحث العربان على اتباعه فأنكر محمد احمد على شيخه هــذا التحامل والجفاء ووقع النفور بينه وبين الشيخ رضوان وسرى ذلك الى تلامذتهما فصار كل فريق يندّد بالآخر ويحقد عليه وما زالت اسباب النفور تتزايد حتى اتصل الفريقان الى الضرب والملاكمــة وتغلب فريق الشيخ رضوان فهشموا جسم محمد احمــد وكسروا يد علي ود حلو فرفع محمد احمد الامر الى ناظر الكوّة وكان فيها اذ ذاك رحمة الدويهي فأحضر تلامذة الشيخ رضوان وزجهم في السجن فلما درى محمد شريف بما كان أتى بالشيخ رضوان الى أبا وحمل محمد احمد على مصالحته وتوسط عند ناظر الكوة فأخرج تلامذة الشيخ رضوان من السجن .

ومن ذلك الحين حقد محمد احمد على استاذه وذهب حبه واحترامه من قلبه فانكشفت له عيوبه وكان محمد شريف يقبل النساء في مجلسه ويسمح لهن بتقبيل يده فأخذ محمد احمد يندّد عليه بذلــك ويجاهر بأنه مخالف للشرع والاسلام واحتفل الشيخ محمد شريف بختان بعض اولاده فدعا جمعاً غفيراً من تلامذته وأذن لهم في الرقص والغناء وكان محمد احمد حاضراً فنهى اصحابه عن ذلك وقال ان الشريعة تمنع الرقص والغناء فليس في وسع احد ان يجيزهما ولو انه شيخ الطريقــة وبلغ ذلك محمد شريف وكان قد بلغه تنديده عليه لقبوله النساء في مجلسه فاتخذ تطاوله هذا ذريعة لشفاء غليله منه فاستحضره ووبخــه توبيخاً شديداً ومحا اسمه من الطريقة وقــال له اذهب فقد صدق فيك المثل القائل « الدنقلاوي شيطان مجلد بجلد انسان » .

وكان محمد احمــد يحب الطريقة السمانية وأصولها وكان له خلفاء وتلامذة يلقنون اورادها ويقرأون رواتبها فلم يكن أمر تركها واتباع غيرها من السهل عليه فتذلّل لأستاذه وطلب العفو منه مراراً فلم يعف عنه .

وكان في الحلاويين بين المسلمية والكاملين على النيل الازرق شيخ من مشايخ هذه الطريقة يُدعى الشيخ القرشي وقد أخذ الطريقة رأساً عن مؤسسها الشيخ الطيب وكان بينه وبين محمد شريف مناظرة شديدة فلما رأى محمد احمــد من استاذه هذا الاباء التجأ الى الشيخ القرشي وجدّد عليه عهده ومشيخته فكتب محمد شريف الى الشيخ القرشي يعاتبه على قبوله محمد احمد فكتب اليه في الجواب « اني رأيت محمد احمد مستحقاً ومنع المستحق ظلم » . وأذاع محمد احمد انــه انفصل عن شيخه لأنه خالف الشريعة والسنّة وكان قــد حفر غاراً تحت الارض وسكن فيه فاشتهر صيته في السودان بالتقشف والزهد والغيرة الدينية وأخذ الناس يفدون اليه من الجهات الاربع وكان المسافرون في النيــل يقفون بالمراكب والوابورات فيقدمون اليه الهدايا ويطلبون البركة فيبــاركهم ويوزع الهدايا على الفقراء زهداً وعفافاً .

وبقي الى ان توفي الشيخ القرشي أواخر سنة ١٢٩٧ هـ ١٨٨٠ م فخرج هو

وتلامذته الى الحلاويين وشرع في بناء قبــة فوق قبره . وكان الشيخ القرشي يحب محمد احمد ويثني عليه أمام أتباعه فاتخذوه بعد وفاة شيخهم شيخاً لهم وأشاعوا بأن وارث السلسلة الطيبية هو الشيخ القرشي فاورثها محمد احمد عند وفاته . ووافقهم على ذلك جلّ ذرية الشيخ الطيب لسابق كراهة بينهم وبين محمد شريف فقويت شوكة محمد احمد وكثر أنصاره وقــد بالغوا في محبته وتعظيمه حتى قالوا ان في كتب طريقتهم نصاً ان المهدي يكون منهم وان الشيخ القرشي قبل وفاته أومأ بها الى محمد احمد فشكلوا هــذه المفسدة في نفوسهم وصاروا يلوحون بها في أشعارهم .

هذا وكان من عادة محمد احمــد ان يخرج سائحاً مع بعض أصحابه لانذار الناس بطريقته ودعوتهم الى الله ثم يعود الى محل اقامته في جزيرة أبا . وقــد جال في جميع البلاد من دنقلة الى سنار شمالاً وجنوباً ومن النيــل الازرق الى كردوفان شرقاً وغرباً ورأى بعينه وجد الناس خاصتهم وعامتهم على الحكومة وشدة رغبتهم في التخلص منهــا حتى كان الكثير منهم يتمنون ظهور المهدي الموعود به لينقذهم من هذه الحال بل كانوا كلما رأوا رجلاً يفضلهم عقلاً ودراية وله الغيرة على الدين وأهله ظنوه المهدي .

فلما رأى محمد احمد لهج القوم بأنــه المهدي المنتظر وفكـّر في الاستعداد الذي عليه الأهلون لقبول المهدي ثم في الحالة التي صار اليها الاسلام في السودان على ما مثّله له استاذه محمد شريف وغيره من رجــال الدين وكانت نفسه مفطورة على التشيع للدين والغيرة على الاسلام والمسلمين كما مرّ اندفــع بحكم الضرورة والطبع الى الاخــذ بلهج القوم والقيام بدعوى المهدية وعقد النية على ذلك .

وبينا هو في هــذه الحال اذ وفد عليه عبد الله التعايشي المتقدم ذكره في تاريخ الزبير . قيل انــه لما رآه وقع مغشياً عليه ولم يفق من غشيته إلا بعــد ساعة او اكثر ولما أفاق عاد فنظر الى محمد احمد وتقدم لمصافحته فأغمي عليه مرة ثانية ثم أفاق وتقــدم الى محمد احمد حبواً على الارض فأخذ يده وشرع

يقبلها وهو يرتعد ويبكي فقال له محمد احمد من انت يا رجل وما شأنك قال يا سيدي انا عبد الله بن محمد تورشين من قبيلة التعايشة البقارة وقد سمعت بصلاحك الى دار الغرب فجئت لأخذ الطريقة عنك . وكان لي اب صالح من أهل الكشف وقد قال لي قبل وفاته انك ستقابل المهدي وتكون وزيره وقد أخبرني بعلامات المهدي وصفاته فلما وقع نظري عليك رأيت فيك العلامات التي أخبرني بها والدي بعينها فابتهج قلبي لرؤية مهدي الله وخليفة رسوله ومن شدة الفرح الذي شملني أصابني الذي رأيته . فاستبشر محمد احمد بهذا القول ورقص له قلبه لأنه يرمي الى غرضه وبايع التعايشي وقربه وجدّ في بناء القبة فأتمها بشهر وعاد بتلامذته ومعهم عبد الله التعايشي الى جزيرة أبا .

ومن ثمّ أخذ يفتش الكتب ويبحث عن كنه المهدي وصفاته وعلاماته وما تكون به نصرته ويطبق عليها صفاته . ولما استوفى غرضه شرع في اظهار دعواه فقام بها في بادىء الرأي سراً . وكان أوّل ما أسرّها الى عبد الله التعايشي ثم الى تلامذته الاخصاء ومحبيه الأمثل فالأمثل وذلك في ربيع الثاني سنة ١٢٩٨ هـ مارس ١٨٨١ م .

ثم خرج بهم سائحاً الى دار الغرب وقد لبسوا كلهم لباس الدراويش المعتاد وهو الجبة المرقعة والسبحة والعكاز وابريق الفخار فمرّ باخوة عبد الله في دار الجمع وبايعهم وذهب الى الابيّض فأسرّ دعواه الى أخصّ مشايخها وأعيانها قائلاً ان الله اصطفاه ليطهر البلاد من الظلم والفساد ولكنه قال ان وقت ظهوره لم يحن بعد . ثم قفل راجعاً الى جزيرة أبا ومرّ في طريقه بجبال تقلي والنوبة فأسرّ دعواه الى الملك آدم ود دباله ملك تقلي . وقد صرّح عبد الله التعايشي لجلسائه في المحراب بعد تولّيه الخلافة انه لم يكن قصد محمد احمد من هذه السياحة استطلاع رأي الناس في دعواه فقط بل كان القصد منها ايضاً كشف البلاد التي تصلح للهيجان وشن الغارة بعد اشهار دعواه ويظهر انه من ذلك الحين اختار جبل قدير مركزاً لهجرته وقد صرّح به في كتبه فيما بعد .

ولما عاد الى أبا شرع في دعوة الناس اليه سراً في الكتب وذلك في غرة

شعبان سنة ١٢٩٨ هـ ٢٩ يونيو سنة ١٨٨١ م فبدأ بمخاطبة اصحابه الأخصاء من الفقهاء والاعيان ومشايخ الطرق والقبائل فصرّح لهم بدعواه وحثهم على القيام معه لنصرة الدين والهجرة من أماكنهم للانضمام اليه ومبايعته على الجهاد في سبيل الله قائلاً : انه قد رأى النبي ﷺ بعيني رأسه يقظة ! فأجلسه على كرسيه وقلده سيفه وغسل قلبه بيده وملأه ايماناً وحكماً ومعارف منيعة وأخبره بأنه الخليفة الاكبر والمهدي المنتظر وان من شك في مهديته فقد كفر ومن حاربه خُذل في الدارين . وما زال النبي ﷺ يظهر له مع الخضر والملاك جبرائيل فيوحي اليه الى يوم وفاته .

وقال في بعض كتبه : « اني لا أعلم بهذا الامر حتى هجم عليّ من الله ورسوله من غير استحقاق فأمره مُطاع وهو يفعل ما يشاء ويختار»... « وقد أمرني سيد الوجود ﷺ بمكاتبة المسلمين ودعوتهم الى الهجرة معنا الى محل يكون فيه قوام الدين واصلاح امر الدارين » ... « فلازم تحضروا معنا في رمضان ولا تتخلفوا فيحل بكم الخسران في الدارين » ... وهذه صورة بعض كتبه التي نشرها في أوائل دعوته :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الولي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم .

« وبعد فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدي بن عبد الله الى أحبابه في الله المؤمنين بالله وبكتابه . اما بعد فلا يخفى تغير الزمن وترك السنن ولا يرضى بذلك ذوو الايمان والفطن بل أحق ان يترك لذلك الاوطار والوطن لإقامة الدين والسنن ولا يتوانى عن ذلك عاقل لأن غيرة الاسلام للمؤمن تجبره . ثم أحبابي كما أراد الله في أزله وقضائه تفضل على عبده الحقير الذليل بالخلافة الكبرى من الله ورسوله . وأخبرني سيد الوجود ﷺ بأني المهدي المنتظر وخلفني عليه الصلاة والسلام بالجلوس على كرسيه مراراً بحضرة الخلفاء الاربعة والاقطاب والخضر عليه السلام وأيدني الله تعالى بالملائكة المقربين وبالأولياء الأحياء والميتين من لدن آدم الى زماننا هذا وكذلك المؤمنون من الجن وفي

ساعة الحرب يحضر معهم امام جيشي سيد الوجود ﷺ بذاته الكريمة وكذلك الخلفاء الاربعة والاقطاب والخضر عليه السلام وأعطاني سيف النصر من حضرته ﷺ وأعلمت انه لا ينصر عليّ معه احد ولو كان الثقلين الانس والجن . ثم أخبرني سيد الوجود ﷺ بأن الله جعل لك على المهدية علامة وهي الخال على خدي الأيمن . وكذلك جعل لي علامة اخرى تخرج راية من نور وتكون معي في حالة الحرب يحملها عزرائيل عليه السلام فيثبت الله بها اصحابي وينزل الرعب في قلوب أعدائي فلا يلقاني احد بعداوة الا خذله الله . ثم قال لي ﷺ انك مخلوق من نور عنان قلبي فمن له سعادة صدق بأني المهدي المنتظر ولكن الله جعل في قلوب الذين يحبون الجاه النفاق فلا يصدقون حرصاً على جاههم قال ﷺ : حب المال والجاه ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل . وجاء في الاثر : اذا رأيتم العالم يحب الدنيا فاتهموه على دينكم . وجاء في بعض كتبه القديمة : لا تسأل عني عالماً أسكره حب الدنيا فيصدّك عن طريق محبتي فأولئك قطاع الطريق على عبادي . ولما حصل لي يا أحبابي من الله ورسوله أمر الخلافة الكبرى أمرني سيد الوجود ﷺ بالهجرة الى ماسة بجبل قدير وأمرني ان أكاتب بها جميع المكلفين امراً عاماً فكاتبنا بذلك الأمراء ومشايخ الدين فأنكر الاشقياء وصدق الصديقون الذين لا يبالون في ما لقوه في الله من المكروه وما فاتهم من المحبوب المشتهى بل هم ناظرون الى وعده سبحانه وتعالى بقوله : تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الارض ولا فساداً والعاقبة للمتقين . وحيث ان الامر لله والمهدية أرادها الله لعبده الفقير الحقير الذليل محمد المهدي بن عبد الله فيجب بذلك التصديق لإرادة الله وقد اجتمع السلف والخلف في تفويض العلم لله فعلمه سبحانه لا يتقيد بضبط القوانين ولا بعلوم المتفننين بل يمحي الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب . قال تعالى : ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ولا يُسأل عما يفعل ويخلق ما يشاء ويختار يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم. وقد قال الشيخ محيي الدين بن العربي في تفسيره

على القرآن العظيم : علم المهدي كعلم الساعة والساعة لا يعلم وقت مجيئها على الحقيقة الا الله . وقال الشيخ احمد بن ادريس : كذبت في المهدي اربعة عشر نسخة من نسخ اهل الله ثم قال : يخرج من جهة لا يعرفونها وعلى حال ينكرونه . وهذا لا يخفى عليكم ان التأليفات الواردة في المهدي منها الآثار وكشف الأولياء وغير ذلك فيختلف كل منها كما علمت من انه يمحو الله ما يشاء .. الآية.. ومنها الاحاديث فمنها الضعيف والمقطوع والمنسوخ والموضوع بل الحديث الضعيف ينسخه الصحيح والصحيح ينسخ بعضه بعضاً كما ان الآيات تنسخها الآيات وحقيقة ذلك على ما هي عليه لا يعرفها الا اهل المشاهدة والبصائر . هذا وقد أخبرني سيد الوجود ﷺ بأن من شك في مهديتك فقد كفر بالله ورسوله كررها ﷺ ثلاث مرات وجميع ما أخبرتكم به من خلافتي على المهدية الخ ... فقد أخبرني به سيد الوجود ﷺ يقظة في حال الصحة وأنا خال من الموانع الشرعية لا بنوم ولا جذب ولا سكر ولا جنون بل متصف بصفات العقل أقفو أثر رسول الله ﷺ بالامر فيما أمر به والنهي عما نهى عنه . والهجرة المذكورة بالدين واجبة كتاباً وسنة . قال تعالى : يا ايها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم . وقال ﷺ : من فرّ بدينه من ارض الى ارض وإن كان شبراً من الارض استوجب الجنة وكان رفيق ابيه خليل الله ابراهيم ونبيه محمد عليهما الصلاة والسلام والى غير ذلك من الآيات والاحاديث وإجابة داعي الله واجبة . قال تعالى : واتبع سبيل من أناب إليّ . فاذا فهمتم ذلك فقد أمرنا جميع المكلفين بالهجرة الينا لأجل الجهاد في سبيل الله او الى أقرب بلاد منكم لقوله تعالى : قاتلوا الذين يلونكم من الكفار فمن تخلف عن ذلك دخل في وعيد قوله تعالى : قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم الخ ... وقوله تعالى : « يا ايها الذين آمنوا ما لكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم الى الارض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة » الخ ... الآيتين . فاذا فهمتم ذلك فهلموا للجهاد في سبيله ولا تخافوا من احد غير الله لأن خوف المخلوق من غير الله يعدم الايمان بالله والعياذ بالله من ذلك

قال تعالى : فلا تخشوا الناس واخشوني وقال تعـالى : والله أحق ان تخشوه لا سيا وقد وعد الله في كتابه العزيز بنصر من ينصر دينه قال تعـــالى : إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم وقال تعالى : الّا تنصروه فقـد نصره الله وحيث إن لم تجيبوا داعي الله وتبـادروا لإقامة دين الله تلزمكم العقوبة عند الله تعالى لأنكم أدلة الخلق وأزمتها فمن كان مهتماً بإيمانه شفيقاً بدينــه حريصاً على امر ربه أجـــاب الدعوة واجتمع مع من ينصر دينه . ولـكن معلومكم اني من نسل رسول الله ﷺ فأبي حسني من جهة أبيه وأمه وأمي كذلك من جهة أمها وأبوها عباسي والعلم لله ان لي نسبة الى الحسين . وهذه المعاني الحسان تكفي لمن أدركه الله بالايمان فلا عبرة لمن يراها ولم يصدق بها هذا والسلام اه » .

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمـد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم .

« وبعد جزيل السلام الى عزيز المقام حبيبنا ذي الاكرام الاستاذ خليفـة جدنا الشيخ محمد الطيب البصير وقاه الله من كل التكدير . لا يخفى عزيز علمكم ان من كان لله وخرج من حظه وهاجر الى الله لا يخشى من شيء ولا يخـاف من احد فانه منصور مضمون رزقه وموقي من شرور الخلائق بالوعد الصادق الذي لا يشك فيه إلا منافق وحيث انك النائب عنا وكنفسنا في جميع الامور ولازم تشجع الأهل الى الهجرة الينا وجميـع من لم يصلنا فليبايعك وقد جعلت مبايعتك مبايعتي وانت الامين على حقوق الله تعـالى ولازم تزهـد المحبين عن الاوطان والأموال فان الدنيا غرور وما للعبد إلا الأعمال الموافقة للكتـاب والسنة ومن لم يجتهد على ذلك بشق الأنفس في هذه الأيام القريبة الزوال خسر الدارين ولا تنفعه الأوطان والأموال بل تبقى عليه الحسرة والندامة . ومن البشائر التي حصلت لنا بعدك انه حصلت لنا حضرة نبوية حاضر عليها محبنا الفقيه عيسى فيأتي ﷺ ويجلس معي ويقول للاخ المذكور شيخك هو المهدي فيقول اني مؤمن بذلـك فيقول ﷺ من لم يصدق بمهديته كفر بالله ورسوله

قالها ثلاث مرات ثم يقول له الاخ المذكور يا سيدي يا رسول الله النـاس من العلماء يستهزئون بنـا والخشية ايضاً من الترك فيقول ﷺ والله والله والله ان قوتي تقينكم ان أشرتم بأدنى قشة تنقضي حاجتكم . ثم يقول الشيخ عبد الله يا سيدي الشيخ الطيب نحن مصدقون بمهدية شيخنا والنـــاس ليسوا مصدقين فيقول الشيخ الطيب ان شيخك حين ولادته عرفته اهل الباطن والحقيقة انه المهدي فلما أتم اربعين يوماً عرفته الجمادات والنباتات بأنـــه المهدي ثم يقول الشيخ الطيب الطريقة فيها الذل والانكسار وقلة الطعام وقلة الشراب والصبر وزيارة السادات فتلك ستة والمهـــدية فيها ايضاً ستة الحرب والحزم والعزم والتوكل والاعتماد على الله تعالى واتفاق القول فهذه الاثنتا عشرة لم تجتمع لأحد إلا لك ويقول عظ قومك ولا تكن فيهم ثلاث خصال الحسد والكذب وترك الصلاة ومن كان متصفاً بواحدة من هذه الثلاث اتصف بالاخريين . ثم يقول وحين قدومك الى «قدير» ليكن النساء متسترات ولا يتكشفن كالبقارة وحين تكون بين كردوفان وتقلي عظ القوم بأجمعهم فمن كان سائراً الى الله بلا علة فليمش معكم ومن كان سائراً لعلة لا يمش معكم ولازم ان تصلوا الى الملـك آدم بهيئة حسنة مع ترتيب الاذكار فلمـا تصلوا «قدير» لازم تنفي عن قومك الصفات الثلاث ولا يدخل معكم من كان فيه احد اليهن . ثم يأتي الشيخ التوم ويقرأ عليّ السلام بالمهدية ويقول اجتهـــد على قومك ان يكون الكبير أباً والصغير ولداً والمساوي أخاً وفي رمضان ادخل خلوة الاربعين فتبين فيهـــا دسائس وغوامض . ثم يأتي جـدنا الشيخ البصير ويقرأ عليّ السلام بالمهدية ويتكلم بكلام المفهوم منه انه قال اشدد الحزام على سنة النبي العدنان . ثم يأتي الشيخ القرشي فيقرأ عليّ السلام بالمهدية ويتكلم بكلام مفهوم منه انـــه يقول كن ذاكراً ولمن معك ساتراً فيقول الشيخ عبـــد الله يا سيدي الناس منكرون في مهدية شيخنا فيقول ان النبي ﷺ أعلمني قبـل مماتي ان شيخك هو المهدي بذاته وكان أعلمني الشيخ الطيب قبل مماته وقال انك تدرك المهدي وتلاقيه وهو شيخك بعينه. ثم يأتي النبي ﷺ ومعه الشيخ عبد القادر الجيلاني

لابس جبة وعليها سيور فيقول الشيخ عبد الله يا سيدي يا رسول الله الناس منكرون بالجبة ويتعففون عنها أهي سنة واردة ام لا فيقول ﷺ في الانسان نفسه رقع فرأسه رقعة زرقاء وباطن شفتيه رقعة حمراء وأسنانه رقعة بيضاء وأظفاره رقعة صفراء ويقول ﷺ الرقع اربعة بيضاء وحمراء وزرقاء وصفراء ويقول ﷺ لولا اني خشيت عليك ان يكون مغشياً عليك لأريتك جبب الخلفاء الاربعة ويأمر ﷺ عزرائيل عليه السلام ويقول من هذه الليلة اصحب المهدي لا تفارقه ويقول ﷺ للخضر عليه السلام من هذه الليلة اصحب المهدي وكن في قومه وهذه الليلة المذكورة التي حصلت فيها هذه الحضرة المباركة غرة شعبان ليلة الاربعاء ثم تلى لنا جميع الاحوال الى دخول مكة ومنازعة أهلها ومبايعة الضعفاء والقربا اولاً ثم مبايعة الشريف ملك مكة وجميع أشرافها معه الى هذا كفاية والسلام غرة شعبان سنة ١٢٩٨ هـ ، ٢٩ يونيو سنة ١٨٨١ م اه .

وتاريخ هذا الكتاب هو تاريخ اشهار دعواه في الكتب وعمره اذ ذاك دون الاربعين سنة . وكان يدعى اولاً بمحمد احمد بتركيب الاسمين ثم قال أمرني سيد الوجود ﷺ بالاقتصار على الجزء الاول أعني محمداً وتغيير اسمي بمحمد المهدي فانه ﷺ قال في بعض حضراته اني كنت أسمى محمداً فلما بلغت الرسالة والنبوة سميت رسول الله ونبي الله كذلك انت كنت تسمى محمد احمد فلما حصلت لك المهدية يقال لك المهدي وسنطلق هذا الاسم بعد الآن . وقد كان له خواتم يختم بها كتبه ومنشوراته وآخرها خاتم منقوش فيه ثلاثة أسطر بهيئة مربع هكذا : لا إله إلا الله سطر . محمد رسول الله سطر . محمد المهدي ابن عبد الله سطر سنة ١٢٩٢ هـ .

الفصل الثالث

في

وقائع المهدي في جزيرة أبا

دعوة المهدي الى الخرطوم : هذا وكان محمد شريف قد أبلغ رؤوف باشا حكمدار السودان بالذي عليه محمد احمد وحذّره من عاقبة الاهمال ولكن رؤوف باشا حمل ذلك على ما بينهما من العداء فلم يهتم للامر حتى اشتهر امر المنشورات ووقع بعضها في يده فكتب الى محمد احمد يسأله عما نسب اليه من توزيع تلك المنشورات وقد انتحل له عذراً بقوله : لعلّ بعض العداة كتب هذه المنشورات ونسبها اليكم فأجابه محمد احمد ان هذه المنشورات هي منه لا من غيره وانه هو المهدي المنتظر وهذه صورة الكتاب بحرفه :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم .

« وبعد فمن عبد ربه محمد المهدي ابن السيد عبد الله الى الحكمدار (بالخرطوم) .

« وبعد فعلى مقتضى المكاتبة فالامر المطلوب كشفه ان دعائي الخلق على تقويم السنة والهجرة بالدين مما عليه الطباع الزمنية أمر من سيد الوجود ﷺ

لابس جبة وعليها سيور فيقول الشيخ عبد الله يا سيدي يا رسول الله النـاس منكرون بالجبة ويتعففون عنها أهي سنة واردة ام لا فيقول ﷺ في الانسان نفسه رقع فرأسه رقعة زرقاء وباطن شفتيه رقعة حمراء وأسنانه رقعة بيضاء وأظفاره رقعة صفراء ويقول ﷺ الرقع اربعة بيضاء وحمراء وزرقاء وصفراء ويقول ﷺ لولا اني خشيت عليك ان يكون مغشياً عليك لأريتك جبب الخلفاء الاربعة ويأمر ﷺ عزرائيل عليه السلام ويقول من هذه الليلة اصحب المهدي لا تفارقه ويقول ﷺ للخضر عليه السلام من هذه الليلة اصحب المهدي وكن في قومه وهذه الليلة المذكورة التي حصلت فيها هذه الحضرة المباركة غرة شعبان ليلة الاربعـاء ثم تلى لنا جميع الاحوال الى دخول مكة ومنازعة أهلها ومبايعة الضعفاء والقربا اولاً ثم مبايعـة الشريف ملك مكة وجميع أشرافها معه الى هـذا كفاية والسلام غرة شعبان سنة ١٢٩٨ هـ ، ٢٩ يونيو سنة ١٨٨١ م اهـ .

وتاريخ هذا الكتاب هو تاريخ اشهار دعواه في الكتب وعمره اذ ذاك دون الاربعين سنة . وكان يدعى اولاً بمحمد احمد بتركيب الاسمين ثم قال أمرني سيد الوجود ﷺ بالاقتصار على الجزء الاول أعني محمـداً وتغيير اسمي بمحمد المهدي فانه ﷺ قال في بعض حضراته اني كنت أسمى محمداً فلما بلغت الرسالة والنبوة سميت رسول الله ونبي الله كذلك انت كنت تسمى محمد احمد فلما حصلت لك المهدية يقال لك المهدي وسنطلق هذا الاسم بعد الآن . وقد كان له خواتم يختم بها كتبه ومنشوراته وآخرها خاتم منقوش فيه ثلاثـة أسطر بهيئة مربع هكذا : لا إله إلا الله سطر . محمد رسول الله سطر . محمد المهدي ابن عبد الله سطر سنة ١٢٩٢ هـ .

الفصل الثالث

في

وقائع المهدي في جزيرة أبا

دعوة المهدي الى الخرطوم : هذا وكان محمد شريف قد أبلغ رؤوف باشا حكمدار السودان بالذي عليه محمد احمد وحذّره من عاقبة الاهمـال ولكن رؤوف باشا حمل ذلك على ما بينهما من العداء فلم يهتم للامر حتى اشتهر امر المنشورات ووقع بعضها في يده فكتب الى محمد احمد يسأله عما نسب اليه من توزيع تلك المنشورات وقد انتحل له عذراً بقوله : لعلّ بعض العـداة كتب هذه المنشورات ونسبها اليكم فأجابه محمد احمد ان هذه المنشورات هي منه لا من غيره وانه هو المهدي المنتظر وهذه صورة الكتاب بحرفه :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمـد وآله مع التسليم .

« وبعد فمن عبد ربه محمـد المهدي ابن السيد عبـد الله الى الحكمدار (بالخرطوم) .

« وبعد فعلى مقتضى المكاتبة فالامر المطلوب كشفه ان دعـاني الخلق على تقويم السنة والهجرة بالدين مما عليه الطباع الزمنية أمر من سيد الوجود ﷺ

والاعلام بأني المهدي المنتظر من سيد الوجود ﷺ مراراً عديدة مع الهواتف الإلهية وعلامات أخبر بها سيد الوجود ﷺ فمن تبع صار من المقربين الفائزين ومن خالف خذله الله في الدارين وصدّه بقوته التي يعجز عن معارضتها جميع العالمين وأما المواعظ للمؤمنين فهي مبينة فمن لم يصدّق طهره السيف وليكن المعلوم انه أتاني من الحضرتين النبوة وحضرة الاقطاب سيف وأعلمت انه لا ينصر عليّ معه احد ومن أتانا بالعداوة يأخذه الله إما بالخسف او بالغرق وذلك إعلام منه ﷺ وكل ذلك لم أعمل فيه بشيء من نفسي ولا لغرضي وإنما هو من الله والى الله ومعلوم قوله تعالى : إن تنصروا الله ينصركم .. الآية . وقوله ﷺ : احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك والى غير ذلك من الأدلة الظاهرية والباطنية وفي ما ذكرته كفاية يكتفي بها اهل العناية والسلام سنة ١٢٩٨ هـ » اه .

فجمع رؤوف باشا العلماء وأطلعهم على كتاب محمد احمد ومنشوراته وسألهم رأيهم فيها فالتمس له بعضهم عذراً في انه قد حصل له جذب سماوي من انعكافه على الزهد والعبادة ولكنهم حكموا جميعاً بوجوب القبض عليه وتلافي الامر قبل اتساع الخرق . فندب رؤوف باشا لهذا الامر احد معاونيه محمد بك ابا السعود (المتقدم ذكره في فتح الاستواء) وكان اذ ذاك من معاوني الحكمدارية فسار على باخرة الى أبا فوصلها يوم الاحد ١١ رمضان سنة ١٢٩٨ هـ ٧ اوغسطوس سنة ١٨٨١ م فوجد محمد احمد في الغار جالساً وحوله جمهور من تلامذته فسلم عليه وقال ان حكمدار السودان بلغه أمر الدعوى التي قمت بها وأرسلني لآتي بك اليه بمدينة الخرطوم وهو وليُّ الامر الذي تجب طاعته . فأجابه محمد احمد : أما ما طلبته من الوصول معك الى الخرطوم فهذا مما لا سبيل اليه وأنا وليّ الامر الذي تجب طاعته على جميع الأمة المحمدية . ثم شرع في تقديم الأدلة على انه المهدي المنتظر فأغلظ له ابو السعود في الجواب وقال له ارجع عن هذه الدعوى فانك لا تطيق حرب الحكومة ولا نرى معك من يقاتلها فأجابه محمد احمد وهو يبتسم : أنا أقاتلكم

بهؤلاء وأشار الى أصحابه ثم التفت اليهم وقال : أأنتم راضون بالموت في سبيل الله ؟ فقالوا كلهم : نعم راضون بالموت في سبيل الله وباذلون أرواحنا في رضى الله ورسوله ومهديه فالتفت الى ابي السعود وقال له : قد سمعت ما أجابوا به فارجع الى وليّ أمرك في الخرطوم واخبره بما رأيت وسمعت . فلما رأى ابو السعود صدق عزم محمد احمد وأعوانه على نصرة دعواهم وان النصح لا ينجع فيهم عاد مسرعاً الى الخرطوم وقصّ على رؤوف باشا ما رآه وسمعه.

واقعة أبا في ١٢ اوغسطوس سنة ١٨٨١ م فجهز رؤوف باشا بلوكين من العساكر جعل على كل بلوك صاغاً ومدفعاً وأرسلهم مع ابي السعود على الباخرة للقبض على محمد احمد وأنصاره . وكان محمد احمد عند ذهاب ابي السعود قد جمع أصحابه وقال لهم : « ايها الناس ان الترك رجعوا لطلب المدد وسيعودون الى حربنا فمن كان منكم خائفاً على اولاده وأمواله فليخرج منا فنحن سامحون له وبيعتنا التي في أعناقكم ليس عليكم فيها حرج فان سلمنا فعودوا الينا وإلا فقد أحرزتم أبناءكم وأموالكم » فقالوا جميعاً بلسان واحد « يا سيدنا نحن بايعناك على الموت ورضينا بذلك ولا نرغب بنفسنا عن نفسك بل نحن معك حيثما توجهت فمر بما شئت فنحن لك سامعون ولأمرك مطيعون يا خليفة رسول الله » فدعا لهم .

ثم أرسل الى القبائل التي حول الجزيرة يستنفرها الى الجهاد فاجتمع عنده ٣٥٠ رجلاً وفيهم تلامذته . ولما كانت ليلة الجمعة الواقع في ١٦ رمضان سنة ١٢٩٨ هـ ١٢ اوغسطوس سنة ١٨٨١ م بلغ محمد احمد ان العساكر حضرت بالباخرة للقبض عليه فأمر رجاله بالاستعداد للحرب وان يكون على كل عشرة منهم مقدم وفي فجر يوم الجمعة المذكور وصلت الباخرة بالعساكر فرست تجاه الحلة وخرج العساكر منها وساروا نحو الحلة على غير انتظام فانه عند وصول اولهم الى قرب الحلة كان آخرهم لم يزل عند الباخرة . قيل وسبب ذلك انه وقع خلاف بين ضابطيّ البلوكين فان كلا منهما ادعى انه المقدم والرئيس فكان الواحد منهما يأمر العساكر بشيء والآخر بغيره فاختل نظامهم.

وأما محمد احمد فانه لما رآهم مقبلين أخذ سيفه من المسجد وخرج برجاله من الحلة وكمن لهم بين الأشجار في الجهة الشرقية منها فلما رآهم العساكر ابتدروهم بالرصاص فحملوا عليهم حملة رجل واحد فاختلطوا بهم وأعملوا فيهم السيف والحربة وكان محل الواقعـــة وحلاً لكونه قريب عهد بنزول المطر عليه فما استطاعت العساكر الفرار ففتك بهم انصار محمد احمد ولم ينج منه إلا الهاربون المسرعون وقليل ما هم . وقد أصابت محمد احمد رصاصة في كتفه اليمنى فجرح جرحاً بليغاً حتى اختضب جسده بالدم وكان عبد الله التعايشي واقفاً عن يمينه فأخذ ثوباً وطرحه على الجرح لئلا يراه الانصار فيفشلوا . وقـــد قتل من أنصار محمد احمد ١٢ رجلاً فحملوا الى غاره ودفنوه فيه . أما قتلى العساكر فتركوا في العراء وجمع المهدي سلاحهم ووزعه على أنصاره وكان ابو السعود لم يزل في الباخرة فعاد بها وبمن نجا من العساكر الى الخرطوم . وقـد سميت هذه الواقعة « بواقعة أبا » وانتشر خبرها في جميع أنحاء السودان بغلو كثير وعدها البسطاء من الاعاجيب السماوية والكرامات العظمى التي خُصّ محمـد احمد بها .

الفصل الرابع

في

وقائع المهدي في جبل قدير

هجرة المهدي الى جبل قدير: وعلم محمد احمد ان الحكومة لا تتغاضى عنه بعد الآن ولا بـدّ لها من تجريد الجيوش للانتقام منه فجمع أصحابه في عشية يوم الواقعة وقـال لهم « ان سيد الوجود ﷺ أمرنا بالهجرة الى جبـل ماسه بلصق جبل قدير » ولم يكن بلصق قدير جبل بهذا الاسم ولكنه اختلق هذا الاسم لحجر عظيم بجانب الجبـل طبقاً لبعض الأحاديث من ان المهدي المنتظر تكون هجرته الى جبل ماسة كما مرّ فوافقه اصحابه على ذلك وكان عندهم بعض المراكب فاجتازوا بهـــا النيل الى الغرب بما معهم من النساء والأولاد والأمتعة وساروا قاصدين جبل قدير .

مطاردة محمد سعيد باشا للمهدي: أما رؤوف باشا فانـه عند رجوع أبي السعود بالبـاخرة من أبا اهتم للأمر وسير القائمقـام علي بك لطفي الى الكوة بخمسماية رجل من العسـاكر المنظمة والباشبوزق وأرسل تلغرافاً الى محمد سعيد باشا مدير كردوفان فوافاه اليها بألف من العساكر المنظمة وثلاثماية من الباشبوزق وكان من رأي سعيد باشا مطاردة محمد احمد قبل فوات الفرصة ولكن رؤوف

باشا لم يأذن له في ذلك وأمره فأخذ بعض العساكر وذهب بها الى أبا ليتحقق فراغ الجزيرة من المهدي وانصاره ويقف على تفاصيل الواقعة . وقد رأيت في مصر بعض العساكر الذين صحبوا سعيد باشا الى أبا فقال : ذهبنا الى محل الواقعة فوجدناه مستوحلاً وغاصاً بشجر الاراك وكان قتلى العساكر لا يزالون في العراء وقد دلّت جراحهم على انهم قتلوا بالسيوف والحراب ولكن وجد بعضهم مقتول بالرصاص مما دلّ على اختلال نظام العساكر وقتلهم بعضهم بعضاً لأن أنصار المهدي لم يكن معهم سلاح ناري فدفنا القتلى وجئنا الى غار المهدي الذي هو أشبه بسرداب تحت الارض فوجدنا قتلى الدراويش قد دفنوا فيه بثيابهم . ثم دخلنا منزل محمد احمد فوجدنا فيه عدة كتب من مشايخ الطرق والقبائل جواباً على كتبه لهم وأكثرهم مسلمون بدعواه ويعدونه بالقيام معه حين ظهوره إلا الشيخ حمد النيل شيخ العراكيين في أبي حراز والشيخ محمد السقا في الخرطوم والشيخ احمد الكتاني في الابيّض فانهم في أجوبتهم يسفهون رأيه ويقولون « ان المهدي عند ظهوره يظهر كالشمس فان كنت نائماً فاصح » فأحرق سعيد باشا الحلة وعاد الى الكوة فاستأذن رؤوف باشا ولحق بمحمد احمد حتى وصل محلا يدعى أبا شجيرات ومحمد احمد اذ ذاك قريب منه في جبل الكُمُر فنزل مطر غزير حبسها على السير أياماً وكان سعيد باشا قد فرغ زاده واستخف أمر محمد احمد ولم يخطر بباله انه سوف يحصره في عاصمته أشهراً ثم يأسره ويقتله بعد ان يريه العذاب ألواناً فقرّ رأيه على الرجوع عنه وعاد الى الابيّض في اول القعدة سنة ١٢٩٨ هـ ٢٥ سبتمبر ١٨٨١ م .

واقعة المختار ٢٤ اكتوبر سنة ١٨٨١ م : واستطرد محمد احمد السير نحو جبل قدير وهو يدعو الناس من عرب وعجم الى طاعته حتى وصل الى جبل الجرادة وهو جبل حصين يسكنه اخلاط من العرب والنوبة السود وعليه ملك يسمى المختار فتصدى للمهدي وحاربه فتغلب المهدي عليه وقتله وعرفت الواقعة « بواقعة المختار » وتاريخها سلخ ذي القعدة سنة ١٢٩٨ هـ ٢٤ اوكتوبر سنة ١٨٨١ م .

وسار المهدي حتى وصل جبل قدير يوم الاثنين في ٧ الحجة سنة ١٢٩٨ هـ ٣١ اوكتوبر سنة ١٨٨١ م وكان على ذلك الجبل ملك يسمى ناصراً فقابله بالبشر والسرور وأنزله على الرحب والسعة . وأمر محمد احمد اصحابه فبنوا مسجداً للصلاة ومنازل للسكنى وكانوا في تعب شديد مما لاقوه في الطريق من الامطار والوحول والمحن فأصابتهم الحمى وساءت حالهم جداً .

واقعة راشد بك ٩ ديسمبر سنة ١٨٨١ : وبلغ راشد بك مدير فاشودة في ذلك الحين ان المهدي استقر في جبل قدير على خمسة ايام منه فاستأذن رؤوف باشا في مهاجمته فلم يأذن له. ثم أتاه مخبر من قدير وقال له ان المهدي في ضيق شديد وقد فشت الحمى في اصحابه فصمم راشد بك على مهاجمته بلا استئذان وجهز ٤٠٠ من العساكر المنظمة وألفاً من الشلك وعليهم ملكهم وزحف بهم قاصداً « قديراً » وقد بذل قصارى الجهد في كتمان سيره بقصد مباغتة المهدي الهجوم ولكن رأته امرأة كنانية تدعى رابحة قرب جبل قدير فقامت مسرعة حتى وصلت محمد احمد في الثلث الاخير من ليلة الخميس ١٦ محرم سنة ١٢٩٩ هـ ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٨١ م وأخبرته بسيره اليه . فجمع محمد احمد اصحابه وكانوا قد بلغوا بعد واقعة أبا ٨٠٠٠ رجل وخرج بهم الى غابة بالقرب من جبل قدير وهي طريق الجبل الوحيدة وهناك صفهم راية راية ووقف بينهم خطيباً فحرضهم على الجهاد ورغبهم في ما أعدّه الله للمجاهدين وصبر حتى دخل راشد بك الغابة برجاله وكان ذلك يوم الجمعة في ٩ ديسمبر سنة ١٨٨١ م عند طلوع الشمس فأمر اصحابه فحملوا على راشد ورجاله حملة رجل واحد قبل ان ينتظموا قلعة فقتلوهم باطلاق الرصاص فصبر اصحاب محمد احمد على نارهم ثم هاجموهم بحزم وصدق نية فدخلوا بينهم وقتلوهم شر قتلة ولم ينج منهم إلا القليل وقد قتل راشد بك وأسر ١١١ من رجاله وغنم محمد احمد ما كان معه من المال والاسلحة والذخائر والزاد فتقوى بها .

وقد عرفت هذه الواقعة «بواقعة راشد» وانتشر خبرها في أقطار السودان الاربعة وشاع ان المهدي يحارب بسيف القدرة وانه يحوّل رصاص العساكر

الى ماء فلا تضرُّ بأنصاره وان النـــار خرجت من حراب الانصار وسيوفهم فأحرقت أجسام العساكر وروى بعضهم انهم رأوا بأعينهم اسم المهدي مكتوباً على ورق الشجر وبيض الطيور في البرية . وكان محمد احمد بعـد استقراره في قدير قد أرسل البعوث الى كل الجهات فأخذ النـــاس يفدون اليه من سنار وكردوفان ودارفور ومن كل فج .

ولاية عبد القادر باشا حلمي ١٢٩٩ : ١٣٠٠ هـ — ١٨٨٢ : ١٨٨٣ م

وكالة جيكلر باشا ١٨٨٢ م :

ولما بلغ رؤوف باشا خبر راشد بك راعه الخبر وشرع في تجنيـد عساكر باشبوزق من الشايقية والدناقلة وخاف على فاشودة من المهدي فأرسل اليها قوة من العساكر بقيادة جيكلر باشا (رئيس مصلحة التلغرافات السودانية) وبعث في طلب المدد من مصر .

وكانت الحكومة في مصر لم تزل مشغولة بالثورة العرابية ولم يسعها امداد السودان بالعساكر فرأت ان تبعث اليه بوالٍ مدبّر حازم يتمكن من إطفاء الثورة بما لديه من العساكر فعزلت رؤوف باشا فبرح الخرطوم في أوائل مارس سنة ١٨٨٢ م وندبت لهذا العمل الهام البطل المدرّب والسياسي المحنّك عبد القادر باشا حلمي ولكن دعت الضرورة الى تأخيره بمصر فبقي فيها الى أوائل مايو من تلك السنة .

واقعة الشلالي في ٢٩ مايو سنة ١٨٨٢ م : وفي هـذه الأثناء قام بأعباء الاعمال بالنيابة عنه جيكلر باشا فأرسل الى مصر رسالة برقيـة يلحّ فيها على الحكومة ان تأذن له في تجهيز حملة قوية لسحق المهدي في قدير قبل استفحال أمره فأذنت له . وقد اتصل بي ان عبد القادر باشا عارض الحكومة في ذلك وألحّ على ترك المهدي وشأنه الى ما بعـد وصوله الخرطوم فينظر في أمره فلم يُسمع له . فحشد جيكلر جيشاً في الكوة مؤلفاً من ١٣ بلوكاً من العساكر

النظامية و ١٥٠٠ رجل من الباشبوزق والخطرية من عساكر الخرطوم وسنار والابيّض وعقـد لواءه ليوسف باشا الشلالي المتقـدم ذكره مع جسي في بحر الغزال وكان على باشبوزق الابيض عبد الله محمد دفع الله وعبد الهادي صبر من أعيانها وسلطان كنجارة وسلطان المسبعات وكلهم من الابطال المعدودين .

وفي أواسط مايو سار يوسف باشا الشلالي بجيشه من الكوة قاصداً قديراً عن طريق فاشودة وعلم المهدي بقدومه ممن هاجروا اليـــه من جزيرة سنار وأرسل طلائعه الى قرب فاشودة فكانوا يحتالون حتى يدخلوا الجيش ويتجسسوه فيعودوا اليه بالخبر كل يوم .

وأرسل يوسف باشا كتاباً الى المهدي يدعوه الى التسليم وحقن الدماء فكتب اليه المهدي في الجواب ما نذكره بالحرف الواحد ليعلم منه ما صار اليه محمد احمد من الجرأة والاستخفاف بالحكومة وعساكرها وهـــذه هي صورة الجواب :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله المنتقم القهار والصلاة على سيدنا محمد وآله الأخيار من الفقير المعتصم بمولاه محمد المهدي ابن السيد عبدالله الى يوسف حسن الشلالي ومن معه من الجموع .

« أما بعد فانه وصل الينا جوابكم وما ذكرتم فيه من وقوفكم على مكاتبتنا وانكاركم صار معلوماً لدينا وكنا قصدنا ان نضرب عن افادتكم صفحاً ونطوي دون اجابتكم كشحاً لوقوفكم على الانـذار ومجاهرتكم بالانكار لكن أردنا ان نبين لكم غلطكم في ما ذكرتموه في جميع المواضع ونوضح لكم خطأكم في ما ادعيتموه بالبراهين السواطع فنقول أما قولكم أنا قتلنا العساكر غدراً في الوقعتين قبل ان يحاربونا فهذا كذب صريح لأنهم في الوقعتين ابتدأونا بالمحاربة والضرب بالسلاح حتى حاربناهم وقتلناهم . وقولكم ان الحكومة أرسلتهم ليقفوا على ما عندنا من الأدلة باطل ضرورة لأن الحكومة لو أرادت المراجعة والاطلاع على ما عندنا من البراهين لأرسلت الصلحاء والعلماء أهل المذاكرة والدراية بهـــذا الشأن ولم ترسل العساكر الأغبياء وتعطيهم الأسلحة . وقولكم أنا قتلنا جملة من

المسلمين المتوطنين بهذا المكان ظلماً وعدواناً باطل ايضاً لأنا ما قتلنا إلا أهل الجرادة بعد ان كذبونا وحاربونا وقد أخبرنا النبي ﷺ وأخبر جميع أهل الكشف بأن من شك في مهديتنا وأنكر وخالف فهو كافر ودمه هدر وماله غنيمة فحاربناهم لأجل ذلك وقتلناهم وبعد ذلك لما انقاد باقيهم لحكمنا رجعنا لهم جميع أمتعتهم التي بأيديّ اصحابنا رفقاً بهم مع انها حلال لنا . وقولكم ان الذين قتلناهم من العسكر مسلمون ومتبعون ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ونسأل عن دمائهم بين يدي الله تعالى باطل لأن القطب الدرديري قد نص في باب المحاربة على ان امراء مصر وجميع عساكرهم وأتباعهم محاربون لأخذ أموال المسلمين منهم كرهاً فيجوز قتلهم كما قال تعالى انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فساداً ان يقتلوا الى آخر الآية . على ان النبي صلى الله عليه وسلم أمرنا صريحاً بقتال الترك وأخبرنا بأنهم كفار لمخالفتهم لأمر الرسول باتباعنا وارادتهم لاطفاء نور الله تعالى الذي أراد به اظهار عدله فكيف نسأل عنهم بعد هذا. وايضاً قد شاهد جمع من الاخوان التهاب النار في اعضاء العساكر المقتولين جهاراً تعجيلاً لعقوبتهم واظهاراً لحقيقتهم وقولكم انكم ضبطتم أربعة انفار الطليعة وآذيتموهم فاعلموا انه قد أوذي قبلهم اصحاب الرسول عليه افضل الصلاة والسلام بالسجن والضرب والقتل وجميع أنواع الأذى كبلال وحبيب وأمثالهم فليس لهم إلا الثواب ولا بد ان يجازيكم الله على ما صنعتم بهم . وقولكم ان الطليعة تنافي المهدية لأن المهدي يعلم الغيب ضرورة جهل منكم بسيرة الرسول فان النبي ﷺ كان يرسل الطلائع كحذيفة اليماني والزبير بن العوام وغيرهم ولم يناف ذلك رسالته فكيف ينافي مهديتنا وقد قال الله لنبيه ﷺ قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا اقول لكم اني ملك ان أتبع إلا ما يوحى اليّ وقوله تعالى انما الغيب لله هو يعلمه لا غيره إلا ان يريد الله اطلاعه في بعض الاحيان لحكمة يعلمها هو . وقولكم ما اتبعنا إلا البقارة الجهلاء والمجوس فاعلموا ان اتباع الرسل من قبلنا واتباع نبينا محمد ﷺ الضعفاء والجهلاء والأعراب الذين كانوا

يعبدون الحجر والشجر وأما العلماء والاغنياء واهل القوة والترف فلم يتبعوهم إلا بعد ان يخربوا ديارهم ويقتلوا أشرافهم ويملكوهم بالقهر قال تعالى حاكياً عن قوم نوح وما نريك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادىء الرأي وقال تعالى وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها اننا بما أرسلتم به كافرون وقالوا نحن أكثر اموالاً واولاداً وما نحن بمعذبين . ولما بعث نبينا محمد ﷺ كانت مدافن اليهود والنصارى مشحونة بالأحبار والرهبان والاغنياء والملوك أهل الطغيان وكانوا يتمنون ادراك زمنه ويستعزون به فلما ظهر أنكروا وجحدوا نبوته وقالوا ما اتبعه إلا أجلاف الأعراب عراة الأجساد وجياع الأكباد واستكبروا عن اتباعه وكفروا به مع انهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ويعلمون انه الحق من ربهم ولم ينفعهم علمهم ولا غناهم بل ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله ولم يبقَ لهم ملكهم الذي منعهم عن اتباع الحق إلا أياماً قليلة حتى فرقه الله وشتت شملهم وجعلهم غنيمة لضعفاء الاعراب الذين كانوا يستهزئون بهم وكذلك نرجو الله ان تكونوا أنتم ومن ورائكم غنيمة للبقارة الجهلاء الذين تستهزئون بهم قال تعالى موبخاً اهل الكتاب وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم وقال تعالى وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة وقال تعالى أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم فمثال العلماء والصلحاء الذين أنكروا مهديتنا وخالفونا كأمثال احبار بني اسرائيل ورهبانهم الذين اضلهم الله على علم . وقولكم قم واحضر عندنا لتتوجه الى محل الهدى مكة المشرفة فاعلموا ان توجهنا انما يكون بأمر رسول الله ﷺ في الوقت الذي يريده الله ولسنا تحت امركم بل أنتم ومن فوقكم تحت امرنا وانا وليّ الأمر في هذا الآن على سائر الانس والجان وان خالفتم امرنا في هذه الأيام فلا بد ان تقعوا في قبضتنا وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ونحن نتربص بكم ان يصيبكم الله بعذاب من عنده او بأيدينا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون . وقولكم ارسل الينا ملكاً من الملائكة جهل منكم كما قال تعالى موبخاً كفار قريش وقالوا لولا

أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكاً لقضي الامر ثم لا ينظرون وقـد أخبر تعالى بأنهم لا تنفعهم الآيات ولا يدلهم على الايمـان ظهور المعجزات قال جل وعلا ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هـذا إلا سحر مبين وقال تعالى ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا انما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون فالآيات لا تنفـع المنكر الجاحد واظهارها انمـــا يكون بارادته تعالى لا بتمني العباد وليس علينا إلا التبليغ والانذار كما قال تعالى وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه انما انت منذر وقال تعالى قل انما الآيات عند الله وما على رسولنا إلا البلاغ المبين فكذلـك نحن ليس علينا إلا التبليغ ولا نطلب من الله اظهار آية على مهديتنا بل نقف معه على حد أدبنا وعبوديتنا فان شاء اظهر آية كما ظهر لكثير من المحبين نقش اسمنا على بيض الدجاج وورق الاشجار حتى صار لهم ذلك سبباً في اليقين مع انا لا نطلب من الله ذلك ولم نتشوف الى ما هنالك والى الآن نكون ان شاء الله كذلك . وقولكم لا تغتروا بنوّاي ولا اسماعيل الامين جهل منكم بأمرنا لأننا لا نعتمد إلا على الله ولا نستنصر غير الله . وقد صرّح لنا النبي ﷺ في حضرات كثيرة بأن الله ناظرنا وناصرنا وأقسم على ذلـــك ثلاثاً . واذا كانت نصرتنا بالله فلا نبالي بمدافعكم وصواريخكم و كثرة جيوشكم ولو بلغتم عدد الرمل لأنه لن يغلب الله شيء وهو غالب كل شيء قـال تعالى ان ينصركم الله فلا غالب لكم وقـــال تعالى لن يضروكم إلا أذى وان يقاتلوكم يولوكم الادبار ثم لا ينصرون وقال تعالى : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين وقال موبخاً على أمثـــالكم السابقين : ولن تغني عنكم فئتكم شيئاً ولو كثرت وان الله مع المؤمنين . وقد ذكرتكم انكم كاتبتمونا لأن الخديوي الاعظم قال لكم لا تحاربوه حتى يتعدى الحدود فاعلموا انه مـا أخركم عنا الا الخوف الشديد والجزع الذي ليس عليه من مزيد لأننا من حين كنا بجزيرة أبا تعدّينا حدودكم وخالفنا مقصودكم . فكيف تخاطبونا الآن بمثل هـــذا القول الذي لا ينشأ الا عن ضعفاء العقول فسارعوا الى محاربتنا

لتأخذوا مناصبكم التي غرّكم بها الشيطان ولا تجبنوا وتحرصوا وتتخيلوا إن كنتم كما زعمتم رجالاً أبطالاً اهل دراية بالحرب فانه ليس بيننـا وبينكم الا السيف ولسنا محتاجين الى مراجعتكم حتى نرسل لكم العلماء ليذاكروكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر والحذر الحذر من المجاوبة ثانية فاننا لا نرد لكم جواباً ما دمتم منكرين ولو جاوبتمونا طول السنين فليس لكم عنـــدنا الا الرماح الطعان والسيوف السنان . وليكن معلوماً عندكم اني من نسل رسول الله ﷺ فأبي حسني من جهة ابيه وأمه وأمي كذلك من جهة امهـا وأبوها عباسي والعلم لله ان لي نسبة الى الحسين رضي الله عنه وفيما ذكر كفـاية لأهل العناية والسلام على من اتبع الهدى . في ٤ رجب سنة ١٢٩٩ هـ ٢٢ مايو سنة ١٨٨٢ م » .

ويوم الاحـد الواقع في ١٠ رجب سنة ١٢٩٩ هـ ٢٨ مايو سنة ١٨٨٢ م وصل الشلالي بجيشه الى جبل الجرادة فنزل في سهل بسفح الجبل وبنى زريبة مربعة من شوك ووضع العساكر عليها وجعل المدافع في أركانها الاربعة والمؤن والذخائر والدواب في الوسط فعادت طلائع محمد احمد اليه بالخبر . وبعـــد صلاة المغرب من ليلة الاثنين حادي عشر رجب ٢٩ مايو سنة ١٨٨٢ م خرج محمد احمـد من منزله شاهراً سيفه يكبّر وقال : أتانا الخبر من سيد الوجود ﷺ بأن نوجه الجيش الى حرب الترك واستدعى اصحـاب الرايات فجعلهم اربع فرق وعيّن لكل فرقة جهـــة من الزريبة يهاجمها وكان قد بلغ عدد أنصاره نحو ١٥ الفاً فساروا وسار وراءهم حتى قربوا من الزريبة فنزلوا هناك الى ان لاح فجر الاثنين فصلى محمد احمد بهم الصبح ثم حرضهم على الجهـــاد وقال : اذا رأيتم العدو فكبروا ثلاثاً وقولوا اللهم انت ربنـا وربهم نواصينا ونواصيهم بيدك وانما تقتلهم انت قولوها ثلاثاً ثم أمرهم بالحملة على الزريبة . وكانت العساكر تشتغل ببناء الزريبة وتحصينها الليل كله فناموا عنـد الفجر وفيما هم كذلك حمل عليهم أنصار المهدي بعزم وصدق نية ما بين مهلل ومكبر وصارخ فشعر الخفراء بهم وأيقظوا العساكر فأطلقوا المدافع والبنادق ولكن

ما كادوا ينتظمون في أماكنهم حتى دخل الانصار عليهم في الزريبة وتتبعوهم قتلاً حتى أخرجوهم منها فاقتفوا اثرهم يقتلونهم في كل جهة ولم ينجُ الا القليل الذاهب في بطون الأودية والمختبىء تحت الاشجار فاتخذوا الطريق الى فاشودة. وقُتل يوسف باشا الشلالي وعبد الله محمد دفع الله وعبـد الهادي صبر وطاها الشايقي بعد ان حاربوا حرب الابطال وقتلوا بسيوفهم عدداً كبيراً من أنصار المهدي وكان قتلى الانصار نحو ٢٠٠ رجل فيهم حامد اخو المهـدي فدفنوا بأمر المهدي كما هم ثم جُمعت الغنـائم فكانت شيئاً كثيراً من النقود والازواد والملبوسات والدواب والذخائر والاسلحة فعزل المهدي الخمس منها لنفسه ووزع الباقي على الانصار ففرحوا به جداً وتيسر امرهم بعد ان كانوا في ضيق شديد. وقد عُرفت هذه الواقعة بواقعة الشلالي .

وهذا النصر المتتابع الذي ناله محمد احمد على عساكر الحكومة أدهش عالم السودان كافة وحطّ من كرامة الحكومة في أعينهم بقدر ما رفع من كرامة محمد احمد . فلقد كان للحكومة قبل الآن سطوة عجيبة في البـلاد حتى كان جنديُّها الواحد يرهب رهطاً من الأهلين وقد مرّ عليها ستون سنة ونيف لم تظهر في خلالها بغير مظهر القوة والبطش فاقمعت كل ثورة ونكلت بمن ناوأها تنكيلاً شديداً . والآن قام فقيه خامل الذكر وضيع الشأن بنفر معدود من المستضعفين الجياع فتغلب على سراياها القوية المرة بعد المرة وما زال يتهددها ويستعد لمناوأتها فلم يبقَ للعامة ريب في ان هذا الفقيه هو المهدي المنتظر وان نصره من الله فهاجروا اليه من كل فج. وقد انحاز اليه على الأخص: أهل البادية لأنهم ميـالون بالفطرة الى الحرب والسلب فرأوا عنـده ما يوافق ميلهم خصوصاً وانه رفع عنهم الضرائب التي كانوا يئنون منها كما بيّنا قبل . وتجار الرقيق لأنهم رأوا الوازع قـد ذهب واطلقت لهم الحرية في البيع والشراء . وقطاع الطرق واللصوص لأنهم وجدوا به ملجأ من العقاب . والعلماء والفقهاء لأن القائم هو واحـد منهم وقد قام ليحررهم من المصريين ويجعلهم حكاماً في مكانهم . وهكذا اتفقت الأحزاب على نصره وكثرت الوفود عليه حتى بلغ

عدد انصاره في قدير نحو ٢٠ الفـاً فضلاً عن الذين أتوا وبايعوه وعادوا الى نصرته في بلادهم .

بيعة المهدي : اما المبايعة التي كان الناس يبايعونه بها فهذه صورتها :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمـد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم . اما بعـد فقد بايعنا الله ورسوله وبايعناك على توحيد الله وألا نشرك به احـداً ولا نسرق ولا نزني ولا نأتي ببهتان ولا نعصيك في معروف بايعناك على زهد الدنيا وتركها والرضى بما عند الله رغبة بما عند الله والدار الآخرة وعلى ان لا نفر من الجهاد .

وكانت هذه المبايعة على وجهين الاول باليد وهي ان يضع المبايع يده في يد المهدي جاعلاً ابهامه على ابهامه ثم يقرأ المهدي صورة المبايعـة فيعيدها المبايع بعده . وان كانوا اكثر من واحد الى العشرين وضع واحـد منهم يده في يد المهدي وألقى الباقون أيديهم فوق يديها. والوجه الثاني المبايعة باللسان وذلك متى زاد المبايعون على العشرين فيرقى المهدي الى منبر او يركب جملاً ويقف الناس امامه ويبايعونه .

لباس المهدي: وكان يلبس جبة مرقعة فوق سراويل من الدمور ويتمنطق بمنطقة من خوص وعلى رأسه طاقية مكيّة يلفُّ عليها عمـامة كبيرة بيضاء مفلّجة كعمامة اهل الحجـاز ويسدل لها عذبة على كتفه اليسرى طولها نحو نصف متر ويضع في عنقه سبحة وفي رجليه حذاء أو نعلين. وهو لباس الدراويش المعتاد في السودان الذي فرضه على جميع اصحابه فعرفوا عند رجال الحكومة بالدراويش كما عرفوا ايضاً بالأشقياء. اما المهدي فقد اطلق عليهم اسم الانصار والاصحاب والأحباب في الله .

حكومة المهدي : وقد تشبه محمد احمد بالنبي في جميع أعماله وجعـل جلّ غايتـه اعادة الاسلام الى ما كان عليه في اول امره في زمن النبي فنظم حكومته على ما تقتضيه هذه الغاية في الجند والمال والقضاء .

اما في « الجند » فانه قبل خروجه من أبا عين خلفاءه فجعلهم اربعة بعدد الخلفاء الراشدين يتولون الامر بعده الواحد بعد الآخر اولهم عبدالله التعايشي خليفة ابي بكر الصديق والثاني علي ود حلو من عرب دغيم خليفة الامام عمر الفاروق والرابع محمد شريف ابن عمه خليفة الامام علي الكرار واما الكرسي الثالث اي خليفة الامام عثمان فقـد خصّ به محمد السنوسي فرفضه كما مرّ فبقي فارغاً. وقسم جيشه الى ثلاثة اقسام فعقد لكل خليفة على قومه وجعل له راية خاصة فعقد للخليفة محمـد شريف على انصار السودان الاوسط وهم انصار دنقلة وبربر والخرطوم وسنار وضم اليهم الجلابـة واولاد النيل وخصه بالراية الحمراء وعقد للخليفة علي ود حلو على عرب دغيم وكنانة وخصه بالراية الخضراء وعقد للخليفة عبد الله على جميع قبـائل السودان الغربي كالتعايشة والرزيقات والحمر وضم اليهم الجهادية واولاد الريف وخصه بالراية السوداء التي عرفت عندهم بالراية الزرقاء وكان من عزمه ان يخص السنوسي بالراية الصفراء ليجمع بذلك رايات الاقطاب الاربعـة

وقد ميز الخليفة عبد الله بالامباية التي يبوّق بها لجمع الجيش كله وجعله رئيساً عاماً على الادارة والجند وقدمه على الخليفتين الآخرين لأنه كان أقوى منهما في الجنـد وأقدر على الادارة والتملق لا سيما وانه هو الذي قوّاه على دعواه كما علمت .

وكان لكل خليفة وكيل على رايته ودونه أمراء ومقاديم ولكل امير راية خاصة غير راية الخليفة . ومما كان يكتب على الرايات :

« بسم الله الرحمن الرحيم سطر ، لا إله الا الله محمـد رسول الله سطر ، محمد المهـدي خليفة رسول الله سطر ، يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والاكرام سطر». او يا الله يا رحمن يا رحيم يا حي يا قيوم سطر، يا ذا الجلال والاكرام سطر ، لا إله الا الله محمد رسول الله سطر ، محمد المهـدي خليفة رسول الله سطر . وكان لكل خليفة طبل كبير يعرف بالنقارة او النحاس يضرب عند ارادة جمعهم للعرضة او للحرب .

وكان المهدي يستعرض جيوشه في كل يوم جمعة فيجعلهم صفاً واحداً متجهين نحو القبـلة كوقوفهم للصلاة اولهم الراية الزرقاء ثم الى يسارها الراية الخضراء ثم الراية الحمراء ويمر عليهم راكباً جواداً او هجيناً من اول الصف الى آخره . وكان هذا دأبه الى يوم وفاته .

واما في « المال » فقد أنشأ له ادارة سماها بيت المال وحفظ فيه اموال الجند والعشور والزكاة والغنائم والغرامات وعهد به الى صديق له يسمى احمد ود سليمان من أهالي المحس وهو من أعز انصاره الأوّل . وأنشأ فرعاً في بيت المال سماه بيت مال الخمس جعل فيه ما خصه من الغنائم .

واما في « القضاء » فقد اسند منصبه الى الشيخ احمد ود جبارة من علماء الازهر الذين صحبوه من جزيرة أبا. ولقبه بقـاضي الاسلام وجعل دونه قضاة ونواباً كثيرين . اما القضاة فللحكم في المسائل الشرعية الاهلية واما النواب فللحكم في الغنائم والحقوق المتعلقة ببيت المال .

ولنترك الآن محمد احمد في قدير يستعد للمستقبل ويبثّ دعاته في الجهات ولننظر فيما كان من الثورة في جهات السودان .

الفصل الخامس

في

وقائع الثورة في جزيرة سنار

سنة ٢ – ١٨٨٣ م

حركة عامر المكاشف : تقـــدم ان مشايخ السودان وفقهاءه لمـا سمعوا بنصرات محمد احمد على سرايا الحكومة أخذوا يهاجرون اليه من كل الجهات لتحقيق دعوته ومبايعته . وكان اول من هاجر اليـه من جزيرة سنار الشيخ احمد المكاشف من كبار فقهاء الكواهلة وكانت الحكومة قد اصدرت منشوراً الى جميع الجهات تحذر الناس من اتباع محمد احمد والمهاجرة اليه وهدّدت من يخالف الامر « بتصدير » ماله ومعاقبة اهله في غيابه . فلمـا علمت حكومة سنار بمهاجرة الشيخ احمد المكاشف الى المهـدي ألقت القبض على اخيه عامر وزجته في السجن وحمّلته ما لا يطيق قيل فافتدى نفسه بمال وخرج من سنار وفي النفس حزازات وأتى عرب رفاعة الهوي في غابة الكبوش جنوبي سنار وكان هؤلاء العربان قد تأخروا عن دفع الضرائب والحكومة مشددة عليهم في تأديتها فنادى عامر المكاشف بهم باسم المهـدي فلبوا نداءه واجتمع عليه نحو ٣٠٠٠ رجل منهم فزحف بهم على سنار وكان المدير عليها اذ ذاك حسين بك

شكري (حسين باشا الآن) ومعه ١٥٠ جندياً ومدفع واحد ولم يكن للمدينة سور يساعدها على الحصار فجنـــد نحو ٢٠٠ رجل من المتطوعة وضمهم الى عساكره وخرج بهم ومعه المدفع لطرد المكاشف فلما بدأ القتال أطلق الطوبجية المدفع مرتين وفي الثـالثة ادخلوا القنبلة فيه قبل الخرطوش فتعطّل فانقض العرب على العساكر كالنسور واختلطوا بهم وأعمـلوا فيهم السيف والحربة فقتلوهم شر قتلة وألقوا المدفع في النيل وكان عليه الصاري محمد اغا النمر تلّب من الباشبوزق الاتراك فقاتل قتـال الابطال حتى قتل بجانبه . ورجع المدير بمن بقي من رجـاله الى سنار فنزلوا في الذهبيات والمراكب ودخل عامر المكاشف المدينة وقصد الخزينة في ديوان المديرية وكانـت عليها ١٢ رجلاً من السود مع الملازم علي افندي توفيق المصري يحرسونها .فدافعوا عنها حتى قتلوا عن آخرهم واستولى العرب على الخزينـة وكان الملازم قد صوّب رصاصة على عامر المكاشف فأصابت فخذه فتشاءم العرب من ذلـك فوضعوا الحراس على الخزينة وعادوا بعامر الى غابة الكبوش فعـاد المدير الى المدينة بمن معه من العساكر والتجار وقتلوا حراس العرب واسترجعوا الخزينـة ثم دخلوا قشلاق العساكر على النيل وتحصنوا بـه وقد جرى ذلك كله يوم الخميس في ٦ ابريل سنة ١٨٨٢ م .

فلمـا كان السبت اي ثالث يوم الواقعة تماثل عامر المكاشف من جرحه وعاد فهاجم القشلاق بأنصاره فلم يقوَ عليه فدخل الشونة شمالي المدينة وأخذ ما كان فيها من السمن والملح والغلال والدمور وهو شيء كثير وحصر المدينة وقطع خط التلغراف بينها وبين الخرطوم. وكان المدير قبل قطع خط التلغراف قد تمكن من مخاطبة جيكلر باشا بحـال سنار فأرسل جيكلر امراً الى صالح المك بالكوة فأتاها ورفع الحصار عنها بعد كفاح شديد واستخرج المدفع من النيل وأعاد خط التلغراف، بين سنار والخرطوم وذلك في صبـاح يوم الخميس في ١٣ ابريل . وامـا عامر المكاشف فانه فرّ بمن بقي من أنصاره الى بركة

تيقو وهي منهل مشهور في بطن الجزيرة وأقام فيهـا الى ان طرد منها بالقوة كما سيجيء .

حركة الشريف احمد طاها : وكان في جملة الذين استنفرهم محمد احمد فلبوا دعوته ورفعوا رايته الشريف احمد ود طاها من مشايخ الطريقة السمانية شرقي النيل الازرق بين أبي حراز ورفاعة فاجتمع حوله خلق كثير من البطاحين والشكرية والجمليين والدناقلة وغيرهم من سكان تلك الجهة . وكان جيكلر باشا بعد ان ارسل امره الى صالح الملك لنجدة سنار خرج بنفسه من الخرطوم بمئتي نفر من الباشبوزق وطلب من القلابات ان ترسل نجدة لتوافيه الى أبي حراز فلما وصل قرب حلة الشريف المذكور بلغه امر قيامه بنصرة المهدي فأرسل عليه الملك يوسف من سناجق الشايقية ومعه مئة رجل من نظامية وباشبوزق فأحاط الشريف ورجاله بهم فقتلوهم شر قتلة ولما رأى الملك يوسف ما حلّ برجاله افترش فروته فقتل عليها وذلك في اواخر ابريل .

ونجا بعض العساكر الى جيكلر فأخبروه بما كان فأقلع الى أبي حراز وانتظر حتى أتتـه النجدة من القلابات وهي اورطة من السود عليهم البكباشي سرور أفندي بهجت قومنداناً و ٢٠٠ فارس من الشايقية فأرسل منها ٧٠٠ نفر من نظامية وباشبوزق ومدفعاً واحداً بقيادة سرور أفندي لقتال الشريف فالتقاهم في الطريق وهزمهم شر هزيمة وغنم المدفع وكان ذلـك يوم الخميس في ٤ مايو سنة ١٨٨٢ م .

فأرسل جيكلر اذ ذاك خبراً الى عوض الكريم بك ابي سن شيخ مشايخ الشكرية فحضر بجيش كبير من عربانه وكتب الى الشريف يقول « اني أنصح لك ان تكف عن العداء وتحضر مسلماً فيعفى عنك وإلا فانج بنفسك واحقن دمك لأنك شريف ولا نريد قتلك فاذا لم تفعل هذا ولا ذاك فلا تلم إلا نفسك » فأجابه الشريف « دع عنك النصح فاني أوقدت ناراً وأريد ان أتدفأ بها » . فلما طلع فجر السبت في ٦ مايو جهز جيكلر جميع من عنـده من العساكر وأرسلهم لقتال الشريف وسير الشكرية وراءهم فنادى شيخ الشكرية بالعساكر

قائلا : « ان من ولّى ظهره خوفاً من الموت امامه لقيه مني وراءه » فساروا كلهم على عزم الموت او النصر حتى أتوا حلة الشريف فحمل عليهم بأنصاره حملة رجل واحد فتلقتهم العساكر بالرصاص وكان الشريف راكباً جواداً وقد احتاطه نفر من انصاره فأجلاهم الرصاص عنه ثلاث مرات حتى تراكمت القتلى حوله كالرُبى ثم سقط هو فوقهم وخذل انصاره فتتبعتهم الفرسان ومزقوهم كل ممزّق وحرقوا حلة الشريف بالنار وحملوا جثته على جمل وأتوا بها الى ابي حراز فقطع جيكلر رأسه وعلقه على عود وأرسله الى الخرطوم فعلق فيها أياماً.

وصول عبد القادر باشا الى الخرطوم في ١١ مايو سنة ١٨٨٢ م

تحصين الخرطوم : وفي ١١ مايو سنة ١٨٨٢ م وصل عبد القادر باشا الى الخرطوم فوجد الميرالاي حسن بك حلمي معسكراً في ظاهر المدينة ومعه نحو خمسماية جندي وثلاثة مدافع جبلية وليس حولهم متاريس ولا حصون ولا شيء من معدات الدفاع . ووجد اهل الخرطوم في غاية الخوف والجزع لقلة الجنود وخلو المدينة من كل تحصين مع وجود كثير من أنصار المهدي حول المدينة متحفزين للوثبة عليها عند سنوح الفرصة فشرع في تحصينها وتجنيد العساكر فأنشأ ثلاثة اورط من السود وغيرهم وباشر تمرينهم على الحركات العسكرية بنفسه واستدعى ست اورط من الجنود المنظمة من السودان الشرقي وخندق على المدينة فمدّ الخندق من النيل الازرق الى النيل الابيض وجعل عليه الابراج ووضع على الأبراج المدافع والحراس فذهب كل خوف من قلوب السكان وتوطدت السكينة وانتشر الامن في الخرطوم وما حولها .

واقعة محمد زين ٢٥ مايو سنة ١٨٨٢ م : واتفق انه حين وصول جيكلر الى سنار قام في ابي شوكة فقيه من التكارنة يقال له محمد زين ونادى باسم المهدي فالتفت حوله جموع كثيرة من عربان رفاعة الهوى وأخذ يستعد للزحف على سنار فعقد جيكلر للسر سواري علي أغا كاشف على نحو الف نفر من

العساكر المنظمة والباشبوزق وأرسله الى ابي شوكة فقتل محمد زين وشتت شمله وعاد برأسه الى سنار .

واقعة تيقو ٤ يونيو ١٨٨٢ م : وعاد جيكلر الى الخرطوم فوجد عبد القادر باشا مشتغلاً بتحصين المدينة فأخبره ان عامر المكاشف لم يزل مقيماً على العداء في بركة تيقو فأمر صالح بك الملك فأخذ اورطة من العساكر المنظمة وسنجقين من الباشبوزق من سنار وسار الى تيقو فأوقع في رجال عامر موقعة شديدة واضطره الى الانهزام ففرّ الى المهدي في قدير وعاد صالح بك بالغنائم والأسرى الى سنار وكان بين الاسرى جماعة من اقارب عامر المكاشف فرفع صالح بك امرهم الى عبد القادر باشا فأمر بشنقهم فشنقوا في سوق سنار .

واتضح لعبدالقادر باشا حينئذ خيانة بعض كتاب سنار ومعاونيها وتواطئهم على الثورة مع عامر المكاشف فعزل جميع الكتاب والمعاونين وأرسل بدلاً منهم طقماً جديداً من الخرطوم واستدعى الخونة وبينهم الزبير ود ضوه صاحب تاريخ سنار المار ذكره ففرقهم في النيل الابيض .

هذا وكان قد وقع خلاف بين حسين بك شكري المدير وبين وكيله محمد افندي جودت فعزلا فأرسل عبد القادر باشا موسى بك شوقي مديراً على سنار وجعل احمد بك مكوار من كبار تجار سنار وكيلاً له. ثم لم يلبث ان حصل بينهما منافسة ورُفع الامر الى عبد القادر باشا فعزل موسى بك وسمى بساطي بك مديراً على سنار مكانه وأرسل اليه خليل افندي فؤاد يوز باشي اركان حرب فساعده على تحصين المدينة فأحاطها بسور منيع جعل فيه المزاغل (الكُوى) وحفر حوله خندقاً بعمق ٣ امتار وعرض مترين وجعل وراءه زرباً متيناً من شوك ووضع العساكر على السور واستعد لكل طارىء مفاجىء.

الشيخ المضوي : ثم لم تكد تخمد نار الثورة في جزيرة سنار بطرد عامر المكاشف من تيقو حتى كانت واقعة الشلالي وبث المهدي دعاته في الشرق والغرب لمبايعة الناس له وحثهم على القيام بنصرة الدين وقتال الحاميات العسكرية

كما مرّ . وكان في جملة الدعاة الذين أرسلهم الى جزيرة سنار الشيخ المضوي عبد الرحمن من ذرية الشيخ ادريس ودالارباب المار ذكره في تاريخ سنار وهو من تلامذة الازهر النابغين وقد قادته المقادير الى مصر سنة ١٨٩٠ م فحدثني عن خبره مع المهدي في ذلك الحين قال: اني بعد ان أتممت دروسي في الازهر ذهبت الى بلاد كركوج في أعالي النيل الازرق فأقمت فيها حلقة للتدريس واشتغلت بالزراعة فلما ظهر محمد احمد بدعواه لم أحفل به ولكن لم يلبث ان انتصر على ابي السعود في جزيرة أبا ثم على راشد بك في جبل قدير وكثرت أقوال الناس بعجائبه وكراماته فاهتممت اذ ذاك بأمره وهاجرت اليه في جبل قدير لمشاهدته والوقوف على حقيقة حاله فوجدت عنده جموعاً كثيرة ينيفون على ١٥ ألف مقاتل من اخلاط الناس بينهم عدد كبير من العلماء ورجال الدين الذين جاؤوه من شرق البلاد وغربها بالقصد الذي جئت لأجله ووجدت العلماء معه فريقين فريقاً اعتقد او تظاهر بالاعتقاد بأنه المهدي المنتظر لا ريب فيه وجميع العامة من رأي هؤلاء وفريقاً قالوا انه ساحر وانه انما فاز بالحرب بسحره لا بمهديته وأما انا.فقد رأيت منه اموراً حملتني على الارتياب بأمره : فأولاً اني رأيته يؤثر اقاربه وأخصائه بالغنيمة على بقية جيشه ولا يقسم بينهم بالتساوي كما يطلب الشرع . وثانياً اني رأيت بعض أنصاره نزلوا على تجار سائرين في تجارتهم فقتلوهم وأخذوا اموالهم ووزعوها بينهم ولم ينكر عليهم ذلك ولا قاصهم . وثالثاً اني رأيته يقول ان من أنكر مهديتي فقد كفر مع ان أركان الايمان في الاسلام التي اذا انكر الانسان ركناً منها يعد كافراً هي ستة . والايمان بالمهدي ليس منها ، ورابعاً اني لم أر فيه شيئاً من العلامات الاجمالية التي أعرفها عن المهدي.ولكني أردت التخلص منه فأظهرت له الاعتقاد التام بمهديته واستأذنته في العودة الى أهلي لأحرضهم على اتباعه والجهاد في سبيل الله فأجابني الى ذلك وجعلني عاملاً عاماً على جزيرة سنار وأصحبني أميرين من اهل الجزيرة ليساعداني على الجهاد وهما : «ود الصليحابي» من الفقهاء المعتقدين عند عربان رفاعة الهوي «وود برجوب»

من فقهاء اللحويين فودعته وسرت في طريق سنار ومعي الاميران المذكوران وبعض الاصحاب . وفي الطريق سألني الأميران عن رأيي في المهدي فصرحت لهم برأيي فيه وقلت الأولى بنا ان نتثبّت في مثل هذه الأمور التي تلتبس على الناس فإن كان هذا الرجل هو المهدي المنتظر كما يزعم فلا بد ان يظهر ولو قاومته الانس والجن وعند ذلك نتبعه على بصيرة وإن كان كاذباً في زعمه سلمنا من شر الحروب والفتن فالرأي الآن ان نتفرق الى أوطاننا حتى نرى ما سيكون من امره . وسرنا حتى وصلنا الجبلين على النيل الابيض فوجدنا عربان رفاعة الهوي متجمعين عنده الوفاً متلهفين لسماع اخبار المهدي وقد أقبلوا علينا يقبلون أيدينا وأرجلنا ويتمسحون بنا تبركاً لأننا من اصحاب المهدي فلما رأى اصحابي من العرب هذه المظاهر العظيمة قالوا : لا شك ان محمد احمد هو المهدي وهذا نور المهدية قد ضاء في قلوب الناس وعقدوا مجلساً في ذلك الليل أجمعوا فيه على ان يقبضوا عليّ ويمنعوني السفر الى اهلي فأتى صاحب لي كان حاضراً المجلس وأخبرني بالذي نووا عليه فلما اصبحت ذهبت اليهم فرأيتهم متغيرين فقلت ما بالكم قد تغيرتم من نحوي ألا تعلمون ان الكلام الذي كلمتكم به امس بشأن المهدي عليه السلام انما اقصد فيه اختباركم وسبر غوركم وأتيقن صدق عقيدتكم لأن الامر الذي نحن بصدده امر عظيم لا يقدم عليه الا كل رجل صلب العقيدة ثابت العزم قوي الجنان فسُرّي عنهم ما كان من قبلي وسمحوا لي بالسفر على وعد ان آخذ عائلتي من كركوج وارجع اليهم فأخذت عائلتي من كركوج وذهبت الى اهلي قرب الخرطوم فدعاني عبد القادر باشا وسألني عن المهدي فأخبرته بالواقع وبقيت الى ان كانت واقعة شيكان وانتصر المهدي على هكس باشا فقامت الارض وقعدت فلم يسعني اذ ذاك الا القيام بنصرة محمد احمد فكنت من جملة الذين حصروا الخرطوم » اه .

ود الصليحابي وواقعة الجبلين : هذا ما كان من المضوي . اما ود الصليحابي فانه رفع راية المهدي وضمّ تحتها عربان رفاعة الهوي وتبعه ود

برجوب فشق على محمد مالك ابي روف شيخ عربان رفاعة الهوي انحياز قسم كبير من عربانه الى ود الصليحابي وخروجهم عن طاعته فأبلغ الخبر عبدالقادر باشا في الخرطوم فجمع في الكوة جيشاً من عساكر الدويم وسنار فيه ١٠٠٠ من العساكر المنظمة و ٨٠٠ من الباشبوزق و ٤٠٠ من عربان رفاعة الهوي ومعهم شيخهم محمد ابو روف وعقد لواءه للسعيد بك حسين الجميعابي المار ذكره في تاريخ سليمان الزبير فسار بالجيش في البر والبحر حتى أتى الجبلين فأنزل العساكر الى البر ونظم الجيش « مربعاً » جاعلا عربان محمد مالك ابي روف ضلعاً من اضلاعه فتلقاهم ود الصليحابي بجموعه وانتشب القتال فثقلت نيران المربع على عربان ود الصليحابي وكثر القتل فيهم فداروا حتى قابلوا ضلع مالك ابي روف فوجدوا رصاصه خفيفاً فدخلوا المربع من جهته وقيل ان مالكاً ابا روف فتح لهم الطريق عمداً لأنه رأى كثرة القتلى فيهم وهم عربانه فشفق عليهم فاختلطوا بالعساكر وفتكوا بهم حتى لم يبق منهم سوى ٥٠٠ رجل من نظامية وباشبوزق فقادهم السعيد بك الى الوابور وعاد بهم الى مركزه في الدويم فتحصن فيه وعاد أبو روف برجاله الى سنار . وقد عرفت هذه الواقعة بواقعة الجبلين وكان تاريخها اواخر شعبان سنة ١٢٩٩ هـ أواسط يوليو سنة ١٨٨٢ م .

ود برجوب : أما عربان رفاعة الهوي فانهم نفروا من ود الصليحابي لانخذالهم في بادىء الأمر على يده فانحازوا الى ود برجوب وبقوا في الجبلين الى ان جاءتهم الطامة الكبرى من جيش هكس على ما سيجيء .

احمد المكاشف وسقوط شات : هذا وكان في جملة الدعاة الذين بثهم المهدي بعد واقعة الشلالي لمناوأة الحكومة في جزيرة سنار الشيخ احمد المكاشف اخو عامر المار ذكره فجمع العربان في الطريق ونزل على شات في ٨ اوغسطوس سنة ١٨٨٢ وكان فيها ٢٠٠ رجل من الباشبوزق عليهم السر سواري مدني ود شنبول فقتلهم عن آخرهم وغنم أسلحتهم وذخائرهم .

واقعة الدويم الاولى : ونزل في وجهه على الدويم وكان السعيد بك لم يزل فيها وقد جمع الى الخمساية رجل الذين سلموا من واقعة الجبلين ٥٠٠ من الجمافرة المتطوعة وسلحهم بالاسلحة النارية وتحصن في طابيته فتلقى احمد المكاشف بنيران للمدافع والبنادق وردّه على الاعقاب بعد ان قتل من جيشه ما زاد عن الالف وكان ذلك في ٢٨ اوغسطوس سنة ١٨٨٢ م .

عبد الباسط وواقعة الدويم الثانية : فلما رأى عربان الدويم انخذالهم مع احمد المكاشف هجروه فاجتاز النيل الابيض وذهب الى سنار فألقى عليها الحصار كما سيجيء وولّى عليهم المهدي رجلاً منهم يسمى عبد الباسط الجمري من مشايخ الطريقة السمانية وأمره بحصر الدويم ولما طال الحصار بعث عبد القادر باشا بجيكلر من الخرطوم فأخذ عساكر الدويم وهاجم العربان في ديمهم فقتل منهم خلقاً كثيراً وشتتهم كل مشتت وأخذ عبد الباسط اسيراً فأتى به الى عبد القادر باشا في الخرطوم فشنقه وكانت هذه الواقعة في ١٨ نوفمبر سنة ١٨٨٢ م .

فضل الله ود كرّيف ، وواقعة ام سنَيطلة : وفي هذه الأثناء ظهر في غربي الجزيرة فقيه يدعى فضل الله ود كرّيف فرفع راية المهدي وشهر العصيان وقطع خط التلغراف بين الكوّة والمسلمية فأرسل عبد القادر باشا امراً الى البكباشي حسن عثمان الكريتلي فخرج من الكوة بخمسماية رجل من جهادية وباشبوزق لقتال ود كريف فالتقاه في ام سُنَيطلة على يوم ونصف يوم من الكوة فما انتشب القتال حتى دخل عرب ود كريف في عساكره وأعملوا فيهم السيف والحربة فقتلوا نصفهم وهزموا الباقي الى الكوة وذلك في اواسط ديسمبر سنة ١٨٨٢ م .

احمد المكاشف وحصار سنار : ثم ان احمد المكاشف بعد انهزامه من الدويم ودخوله الجزيرة هيّج العربان فالتفت حوله جموع كثيرة فنزل بهم في حلة الحجاج مسيرة ست ساعات من سنار وأخذ يستعد للزحف على سنار فلما

علم به بساطي بك ارسل الصاغ حسن افندي حسني بخمساية من العساكر المنظمة فهاجمه في مركزه فتغلب المكاشف عليه وقتله وقتل مئة رجل من عسكره وتقدم بنحو ١٠ آلاف مقاتل لمهاجمة سنار ثم احجم عنها لمناعتها فنزل في مشرع الداعي على نحو ٢٠ ميلاً شمالي سنار وألقى عليها الحصار وقطع خط التلغراف وطريق البوسطة بينها وبين الخرطوم .

واقعة معتوق : فلما رأى عبد القادر باشا اشتداد الخطب في الجزيرة عزم على مباشرة القتال بنفسه فخرج من الخرطوم في ٢ يناير سنة ١٨٨٢ م وأتى عبود عن طريق المسلمية فجمع اليها نحو ١٦٠٠ من العساكر المنظمة و ١٠٠٠ من الباشبوزق وتقدم الى ود كريف فالتقاه عند غابة قرب معتوق فأوقع فيه واقعة شديدة وهزمه ففرّ الى حيث ألقت .

واقعة الداعي في ٢٤ فبراير سنة ١٨٨٣ : ثم اخذ يستعد لسحق احمد المكاشف فجاء بجيشه الى الكوة فوجد فيها البكباشي حسن افندي عثمان السالف الذكر ومعه ٧٠٠ من العساكر السود و ٤٠٠ من للباشبوزق فضمهم الى جيشه وارسل الجميع بقيادة سليم بك عوني بطريق الجزيرة الى ود مدني ونزل في الوابور الى الخرطوم فأتمّ الشؤون التي كانت تنتظره فيها ثم ركب النيل الازرق الى ود مدني وقاد العساكر قاصداً احمد المكاشف في مشرع الداعي. فلما علم المكاشف بقدومه وضع النساء والاولاد الذين في ديمه على بُعد مرمى الرصاص تجاه سنار وفي أيديهم البيارق ليوهم اهل سنار انه قادم لحربهم فيشغلهم بأنفسهم عن نصر عبد القادر ثم اخذ انصاره وخرج الى ظاهر المشرع فتلقاه عبد القادر بنار حامية فصبر على ناره ٣ ساعات متوالية حتى قتل من جيشه الف رجل ونيف فانهزم الى جبلي سقدى وموية وقد أصابت عبد القادر رصاصة في جنبه فحطمت ساعته تحطيماً ولكنها لم تضرّ به وجرح من عسكره ٢٧ رجلاً ولم يقتل احد . وعرفت هذه الواقعة بواقعة الداعي وتاريخها يوم السبت في ١٦ ربيع آخر سنة ١٣٠٠ هـ ٢٤ فبراير سنة ١٨٨٣ م .

ودخل عبد القادر باشا سنار يوم الاثنين فعقد لصالح بك الملك على جميع الباشبوزق الشايقية والاتراك وكانوا ينيفون على ١٢٠٠ رجل وأمره بمطاردة احمد المكاشف فقصده الى جبلي سقدي وموبه وأوقع فيه في ٢ مارس سنة ١٨٨٣ م وهزمه شر هزيمة بعد ان قتل نحو ٦٠٠ من انصاره وفي جملتهم اخوه وصهره فقطع رأسيهما وأتى بهما الى عبد القادر في سنار . اما احمد المكاشف فانه فرّ الى ود برجوب في الجبلين . واما اخوه عامر فانه بعد وصوله الى المهدي في قدير أمره بالانضمام الى اخيه احمد الذي كان قد ترك قديراً فجاء يبحث عنه فالتقى به في سقدي وموبه بعد انهزامه من مشرع الداعي فانهزم معه الى الجبلين .

الحاج احمد عبد الغفار وواقعة التبنه: هذا وكان قد صحب احمد المكاشف من عند المهدي الحاج احمد عبدالغفار من عرب كنانة القاطن في جوار كركوج فتركه في مشرع الداعي محاصراً سنار وأتى الى بلاده وأخذ يحشد الجيوش لحصر كركوج فلما عاد صالح الملك من مطاردة المكاشف اخذ عبد القادر باشا الجيش وزحف على عبدالغفار فالتقاه في التبنه قرب الرصيرص فقتل من حيشه خلقاً كثيراً وشتت شمله كل مشتت وكان ذلك في ٢٧ جماد اول سنة ١٣٠٠ هـ ٢٦ مارس سنة ١٨٨٣ م . وقد قتل في هذه الواقعة والوقائع التي تقدمتها عدد كبير من عربان رفاعة الهوي فاغتم لذلك الشيخ احمد عم الشيخ محمد ابي روف وقال لعبد القادر باشا « لقد أفنيت الرعية ببطشك يا سعادة الباشا فدع عنك هذه المناوشات واقتل الدبيبة من رأسها » فأجابه عبد القادر باشا «اذا لم نظفر برأسها ياشيخ العرب نقطع من ذنبها حتى ندرك الرأس فنسحقه».

وهكذا نكّل عبدالقادر باشا بزعماء الثورة في سنار واحداً واحداً وملأ قلوب الاهلين رعباً وخوفاً واشتهر عندهم بالبطش والدربة وحسن السياسة وقد حصن الحاميات في كل الجهات وحمل علماء الخرطوم على نشر الرسائل في تكذيب محمد احمد وضيّق عليه وعلى انصاره المسالك فهو هو الرجل الذي كان يصلح للسودان حينئذ ولكن قيل ان بعض الحساد وشوا به فاتهموه

بارادة الاستقلال في البلاد وقبلت وشايتهم فاستُدعي الى مصر وسُمي علاء الدين باشا حاكماً على السودان مكانه كما سيجيء .

وكان عبد القادر باشا قد أرسل صالح بك الملك الى فامكه لكشف خبرها فترك باقي العساكر بقيادة الميرالاي سليم بك عوني وعاد الى مصر وعاد سليم بك الى سنار بعد ان أبقى حامية من العساكر في كركوج لحفظ خط الاتصال بين سنار وفامكة وبقيت هي وحامية فامكة الى ان عادت الثورة فعادتا الى سنار على ما سيجيء .

هذا ما كان من الثورة في جزيرة سنار فلنتقدم الآن الى ما كان منها في كردوفان .

الفصل السادس

في

وقائع الثورة في كردوفان

سنة ٢ – ١٨٨٣ م

المكي ود ابراهيم في دار حمر: كان اول من ثار على الحكومة في كردوفان المكي ود ابراهيم من مشايخ حمر هاجر الى المهدي في قدير فبايعه ورجع منه اميراً على قومه في ١٠ جمادى الاولى سنة ١٢٩٩ هـ ٣٠ مارس سنة ١٨٨٢ م فوجد البكباشي نظيم افندي مع نفر من العساكر المنظمة والباشبوزق يجمع الضرائب من دار حمر فحرض قومه على عدم دفعها وطرد نظيم افندي من الدار.

حامد ود السنجق وسقوط ابي حراز: فلجأ الى ابي حراز حيث كان محمد آغا رحمة الشايقي محافظاً مع نفر من العساكر فوجد البديرية أهل تلك الجهة قد تجمعوا على شيخهم حامد ود السنجق في منهل المشقة على نحو ساعتين من أبي حراز وحصروا البلدة. فخرج عليهم العساكر واهل البلدة في ٩ ابريل سنة ١٨٨٢ فردوهم على أعقابهم وتبعوهم الى ابي حراز فاعتصم العساكر في ديوان الحكومة والاهالي في الجامع فحصروهم في المكانين المذكورين فلما أرخى الليل

سدوله فرّ العساكر الى الابيّض فدخلوها الاثنين في ١٠ ابريل وبقي اهل البلدة محاصرين في الجامع ثلاثة ايام حتى اشتد بهم العطش والجوع فسلموا .

واقعة البركة في ١٨ مايو سنة ١٨٨٢م: وسرى روح الثورة الى الحوازمة والغدّيات فاجتمعوا على حامد ود السنجق حتى بلغ انصاره نحو العشرين الفاً فنزل بهم في منهل البركة فجهز سعيد باشا مدير الابيض سرية من العساكر فيها ٤٠٠ من الجهادية و ٦٠٠ من الباشبوزق و٨٠٠ من المتطوعة وعقد عليها للبكباشي نظيم افندي وكان على المتطوعه عمر ود دفع الله من الابطال المعدودين فسارت السرية بهيئة « مربع » المتطوعة ضلع منها والحملة في الوسط فخرج عليهم العرب ودخلوا المربع من جهة المتطوعة واشتغلوا بنهب جمال الحملة فصوبت العساكر اذ ذاك نيران بنادقهم اليهم والى الحملة معاً ففتكوا بهم وقتلوا منهم الف رجل ونيفاً وهزموهم شر هزيمة واستولوا على المنهل المذكور وكان ذلك يوم الخميس في ٢٦ جمادى الآخرة سنة ١٢٩٩ هـ ١٨ مايو ١٨٨٢م .

خراب اسحف في ٢٥ مايو سنة ١٨٨٢: ثم ان المكي ابرهيم صاحب حادثة الحمر حشد جيشاً من عربانه وزحف على اسحف وهي نقطة عسكرية على ١٠ اميال غرب بارة وفيها السر سواري محمد اغا شبو محافظاً مع ٢٠٠ رجل من الباشبوزق والنور عنقرة المار ذكره متقاعداً والشيخ عثمان حامد عمدة البلدة وجابر اغا الطيب ناظر القسم فخرجوا لقتال المكي ابرهيم بهيئة « مربع » جاعلين البلدة في الوسط فكان كل منهم مع رجاله في جانب من المربع فاخترق المكي ود ابرهيم صفوفهم ودخل المدينة ونهبها وأحرقها وقد نجا النور عنقرة ببعض اتباعه الى بارة وكان معه النحاس « المنصورة » الشهير المار ذكره في تاريخ الفور فتركه غنيمة للثائرين وآل بعد ذلك الى الخليفة عبد الله فاتخذه نحاساً له . اما محمد اغا شبو فانه نجا بعساكره بعد كفاح شديد ودخل بارة الخميس في ٧ رجب سنة ١٢٩٩ هـ ٢٥ مايو سنة ١٨٨٢ م .

السمّاني وواقعة بارة في ٢٧ يونيو سنة ١٨٨٢: وبعد واقعة اسحف

حضر رجل لحاوي" يدعى السماني من قبل المهدي فاتحد مع المكي ود ابرهيم وأخذ يستعد للزحف على بارة وكان في حاميتها اذ ذاك ٩٠٠ رجل من نظامية وباشبوزق بقيادة الصاغ سرور بهجت فاستقدم سعيد باشا العساكر من البركة وأرسل الى بارة ١٦٠٠ من العساكر النظامية والباشبوزق مع البكباشي محمود حسن فدخلوها في ٦ يونيو سنة ١٨٨٢م . وكان سعيد باشا في بدء الاضطراب في كردوفان قد ارسل يطلب المدد من الخرطوم فأرسل اليه عبد القادر باشا ٤٠٠ من العساكر المنظمة و ١٦٠٠ من الباشبوزق بقيادة البكباشي محمد الفولي فوصلوا بارة ثاني يوم وصول النجدة من الأبيّض فاجتمع في بارة نحو ٥٠٠٠ رجل من نظامية وباشبوزق وكان في الأبيض الميرالاي علي بك شريف (مدير دارفور قبل سلاطين باشا) متقاعداً فجاء قومنداناً عليهم وأخذوا يستعدون للدفاع . وكان على حامية بارة زريبة من شوك فشرعوا في حفر خندق من داخلها وقبل ان يتموه حضر السماني بجيوش لا عداد لها فتلقاهم العساكر بالمدافع والسواريخ والبنادق ففتكوا بهم فتكاً ذريعاً وهزموهم شر هزيمة فخرجوا من الخندق في اثرهم يقتلونهم حتى أخرجوهم من اكناف بارة وقد قتل منهم في هذه الواقعة نحو ٥٠٠٠ رجل .

وتجمع الباقون في منهل شتوره غربي بارة فكتبوا الى المهدي عما جرى لهم فأرسل اليهم عبد الله ود النور من أخصّ عماله فتولى قيادتهم وعاد معظم المدد الى الابيّض وبقي البكباشي محمود حسن بعسكره فلما علم بمقرّ العرب خرج عليهم فطردهم منه فنزلوا في منهل ابي سنون فأرسل سعيد باشا نظيم افندي من الابيض مدداً له وزحفا معاً على ابي سنون فأوقعا بعبدالله ود النور ففرّ الى منهل البركة وكتب الى المهدي عما أصاب أنصاره من الفشل في البركة وبارة وشتوره وابي سنون واستحثه على القدوم الى كردوفان بنفسه قبل ان تخمد حمية العرب ويرجعوا عن نصره .

وكان سعيد باشا قد بعث يطلب المدد من عبد القادر باشا فأرسل اليه

نصف اورطة جهادية من سنهيت وسبعة سناجق من الباشبوزق بقيادة البكباشي باشا حماد وصحبهم محمد باشا امام الملقب بالخبير حاملاً مدداً من الذخائر الى الفاشر فدخلوا الابيض في أواسط يونيو سنة ١٨٨٢ م .

المنة ود اسماعيل وسقوط الطيارة في ٦ اوغسطوس سنة ١٨٨٢ : وكان في جملة الذين عاهدوا المهدي على الجهاد في كردوفان المنة اسماعيل شيخ قبيلة الجوامعة فحشد نحو عشرين الفاً من عربانه وهاجم حامية الطيارة وكان للحامية خندق عظيم ومتراس وحولها زرب من شوك ولكن لم يكن فيها من العساكر سوى ١٣٥٠ رجلا من جهادية وباشبوزق وعليهم اليوزباشي محمد الشافعي قومنداناً فصدّوا هجوم المنة مرتين وطلبوا المدد من سعيد باشا فوجه اليهم خليل اغا السنجق ومعه ٦٠٠ من العساكر الجهادية والباشبوزق ومدفع واحد ولكن قبل وصول المدد الى الحامية هاجمها المنة اسماعيل ثالث مرة مستقتلاً فأخذها عنوة وأعمل في اهلها السيف والحربة فلم ينجُ منهم الا اليسير . وكان ذلك في ٢١ رمضان سنة ١٢٩٩هـ ٦ اوغسطوس سنة ١٨٨٢م.

وفي اليوم التالي انقلب المنة على العساكر الآتين من الابيض فقتلهم عن آخرهم وأرسل البشائر الى المهدي في قدير وعبد الله ود النور في البركة وقطع خط التلغراف والبوسطة بين الابيض والخرطوم وأقام في الطيارة منتظراً الامر .

وكان في خورسي نحو ٣٠٠ رجل من الباشبوزق مع احمد اغا الشايقي فلما كانت واقعة الطيارة ارسل اليهم سعيد باشا فأتوا بارة في ١٦ اوغسطوس سنة ١٨٨٢ م ولم يبقَ في كردوفان الى هذا العهد سوى حاميتي الابيض وبارة وحامية صغيرة في جبل الدلن ومجموعها كلها ٨٧٥٠ رجلاً من نظامية وباشبوزق .

وكان سعيد باشا منذ حادثة ابي حراز قد شرع في تحصين الابيض فحفر

حولها خندقاً وأقام من ترابه متراساً وأحاطه بزريبة من شوك ووضع عليه العساكر وفرّق الاسلحة على اهل البـلد وجعلهم على الخندق مع العساكر . هكذا كانت حال كردوفان لما أتاها المهدي غازياً من قدير وهاك تفصيل غزوته :

الفصل السابع

في

وقائع المهدي في كردوفان

سنة ٢ - ١٨٨٣ م

غزوة المهدي للأبيّض في ٢٨ يوليو سنة ١٨٨٢ : وكان للمهـدي في الابيض انصار اهل ثروة ووجاهة أخصهم الياس باشا ام برير الجعلي النفيعابي وهو من أكابر التجار وقد تولى مديرية الابيّض مدة ثم عزل عنها قبل لاشتراكه سراً في حركة سليمان الزبير وكان بينه وبين احمد بك دفع الله من أعيان التجار ضغائن شخصية شديدة وانحاز سعيد باشا المدير الى احمد بك فاشتد حنق الياس باشا عليهما ولم يكن يقوى عليهما مع الحكومة فانحاز الى المهدي للانتقام منهما وأنفذ رسله سراً الى المهدي بقدير فحثه على مهاجمة الابيض وأكد له النصر وذلك قبل واقعتي راشد والشلالي لكن المهدي شعر من نفسه اذ ذاك بالعجز عن اتخاذ خطة الهجوم فاكتفى ببثّ الدعاة لتهييج الناس على الحاميات كما مر . ثم كانت واقعة راشد ثم واقعة الشلالي وكثرت الوفود اليه حتى ضاقت به بلاد قدير وتحتم عليه النزوح الى بلاد أوفر خيراً واكثر اتساعاً وكبرت نفسه لتوالي النصر عليه فتطلب الهجوم بدل الدفاع وكان الياس باشا

لم يزل يستحثه على مهاجمة الابيض وقد وثق المهدي به حتى انه أرسل اليه اسماعيل العمرابي من قدير بالذهب والفضة التي غنمها من راشد والشلالي فباعها وأرسل اليه ثمنها ومهد له السبيل داخل الابيض وخارجها وكان عبد الله ود النور قد كتب اليه يستعجله الى كردوفان كما مرّ فاجتمعت له هذه الأسباب كلها على غزو الابيض .

فلما كان اليوم الثاني عشر من رمضان سنة ١٢٩٩ هـ ٢٨ يوليو سنة ١٨٨٢م خرج غازياً الابيض بجميع من كان معه من الجيوش إلا العواجز والمرضى واصحاب الاعذار فانه أبقاهم في جبل قدير عند محمود عبد القادر احد أقاربه الذي استعمله على دار هجرته وأبقى عنده المدافع والاسلحة النارية التي غنمها من المصريين لأنه لم يرَ داعياً الى أخذها . وكان معه من الجيوش نحو ٢٠ الفاً قيل خرج بهم من قدير وهم لا يعلمون الجهة التي يريدها حتى أتوا جبل الجرادة فقال لهم « ان سيد الوجود أمرني بالتوجه الى كردوفان فان الترك فيها آذوا المسلمين وضيقوا عليهم » . ثم كتب من هناك الى عامله عبد الله ود النور أنه قادم بجيشه الى غزوة الابيض وأمره بأن يجمع رجاله ويقابله بالقرب منها . وسار من جبل الجرادة فنزل بمحل يدعى اللخة وأقام به ثلاثة ايام وفيه أمر بقتل شخصين لأنهما قتلا نفساً بريئة . ثم سار حتى نزل بحجر ام لوبه وقد كان عند خروجه للسفر صائماً رمضان والناس معه صائمون حتى وصل الى هذا المكان فأفطر وأمر الناس فأفطروا . ثم استطرد السير في بلاد النوبة فنزلت الامطار في الطريق وفرغت أزواد جيشه فجاعوا وتعبوا فسار ببطء ومشقة حتى أتى البركة فوجد عبد الله ودالنور في انتظاره بنحو عشرة آلاف مقاتل فأقام في البركة أياماً للراحة . ثم زحف بجيشه على الابيض فنزل في منهل كابا على ستة أميال الى الجنوب الغربي من المدينة وذلك يوم الجمعة في ١٧ شوال سنة ١٢٩٩ هـ ١ سبتمبر سنة ١٨٨٢ م وكان قد كتب للمنة اسماعيل ليوافيه اليها من الطيارة فمكث في كابا في انتظاره وأرسل فرسانه لاستطلاع الابيض.

ثم انتدب رجلين من اصحابه وهما محمد المغربي وود جلي الزيادابي وأرسلهما

بكتابين الى الابيض احدهما الى سعيد باشا ورؤساء الجيش والآخر الى سكان المدينة من علماء وأعيان وتجار وغيرهم دعاهم فيهما الى التسليم وحقن الدماء متهدداً إياهم بالقتل اذا لم يسلموا فدخل الرسولان المدينة وكل منهما متقلد سيفه وحربته فسلما الكتابين الى محمد سعيد باشا فجمع الضباط والعلماء والأعيان وأمر بأن يتلى عليهم الكتابان ثم سألهم عن رأيهم فيهما فقال الضباط لا رأي لنا إلا الحرب أما التجار والأعيان والعلماء فانهم لم ينطقوا ببنت شفة ولكن لاحت على وجوههم سمات الميل الى المهدي إلا احمد بك دفع الله فانه انتصب في المجلس وقال أما انا فقد اخترت الحرب مع الجند والدفاع الى آخر نسمة من حياتي . ثم التفت سعيد باشا الى الباقين وقال وأنتم ما الذي أجمعتم عليه فبقوا صامتين ولما ألحّ عليهم في الجواب قالوا نتشاور في بيوتنا ثم نجيبكم وكان الياس باشا قد فاز باستمالة معظم الأهلين الى حزبه فأجمعوا على الفرار الى المهدي وقد علم احمد بك دفع الله ذلك منهم وحرّض المدير على حبسهم فلم يصغَ اليه خوفاً من وقوع الفشل في الحامية فان الياس باشا وسائر التجار والأعيان كان لهم سلطة نافذة على الأهلين وكان عند كل منهم من ١٠٠ رجل الى ١٥٠ رجلاً مسلحين بالأسلحة الكاملة فكان يطاولهم حتى تتسنى له الفرصة فينكّل بهم الواحد بعد الآخر فأذن لهم في الانصراف فانصرفوا الى منازلهم. وخرج من المجلس فرأى الرسولين قد اجتمع عليهما نفر من العساكر والأهلين وهما يكلمانهم ببذاءة واستخفاف ويقولان لهم « أيها النصارى الكفار سوف نقتلكم وننكل بكم كما فعلنا بجردتي راشد والشلالي» فاغتاظ سعيد باشا والضباط من بذاءتهما وطلبوا من العلماء الافتاء بقتلهما فأبوا قائلين ان الشرع لا يسمح بذلك فأصرّ الضباط خصوصاً اسكندر بك قائمقام العساكر على قتلهما فشنقا على الزاوية الجنوبية الشرقية منالسور وفرسان المهدي الذين أرسلهم لاستطلاع الابيض تنظر اليهم من بعيد . وقد أراد الضباط بقتل الرسولين ان يستخفوا بقوة المهدي ويلقوا الرعب في قلوب الأهلين الذين عوّلوا على اللحوق بـه . ولكن قتلهما لم يؤثر شيئاً في ما نواه الأهلون فانه ما خيم الظلام حتى أخذوا

يتسللون من خط النـــار ثلة بعــد ثلة ويأتون الى المهدي في كابا وفي مقدمتهم الياس باشا وقومه والحاج خالد العمرابي وجرجي استامبولي الحلبي من أعيان التجار ومحمد باشا امام المار ذكره حتى لم يبق في المدينة من الأهلين سوى احمد بك دفع وأتباعه وعددهم ٤٠٠ رجـــل فيهم ابن خالته عبد الله ود ابراهيم وابراهيم ود عدلان والمرسلين النمساويين وهم ثلاثـــة رهبان وخمس راهبات ولهم كنيسة .

وكان في الحاميـــة من العساكر ثلاث اورط نظاميـــة من المصريين وخمسة عشر سنجقاً من الباشبوزق الشايقية والاتراك والمتطوعة في كل سنجق من ١٠٠ رجل الى ١٥٠ رجلا وجملة العساكر نحو ٦٠٠٠ رجل ولم يكن عددهم كافياً لحماية السور العظيم الذي أقاموه في بدء الحصار فلما علموا بقدوم المهدي لمهاجمة الابيض شرعوا في حفر خندق مربع داخل السور العظيم على قدرهم فاشتغلوا فيه الليل والنهار حتى أتموه وجعلوا فيه القشلاق ومحل الذخيرة وديوان المديرية والشونة وجعلوا وراءه زرباً متيناً من شوك وأقاموا عليـــه خمسة ابراج برجاً في كل زاوية وبرجاً في وسط الضلع الشرقي تجاه مركز المديرية واصطف العساكر الجهادية والباشبوزق على الاضلاع هكذا :

١ – البكباشي محمـد الفولي ومعه نصف اورطة جهادية و ٣ سناجق على الضلع الشمالية .

٢ – البكباشي محمـد نظيم ومعه اورطة جهادية و ٩ سناجق على الضلع الجنوبية .

٣ – البكباشي باشا حمـاد ومعه نصف اورطة جهادية و ٤ سناجق على الضلع الشرقية .

٤ – البكباشي محمود حسن ومعه اورطة جهـادية وسنجقان على الضلع الغربية .

ووقف احمد بك دفع الله برجاله على الضلع الشمالية مع محمد الفولي ومكثوا ينتظرون هجوم المهدي ومعه الملازم يوسف منصور ضابط بوليس الابيض .

واقعة الابيض ٨ سبتمبر سنة ١٨٨٢ م : أما المهدي فانـه لما علم بقتل الرسولين واصرار العساكر على الحرب صمّم على الهجوم وأمر أصحابـه بالاستعداد ووصل المنة اسماعيل فأمره بالنزول في خور طقّت تجاه الزاوية الشمالية الشرقية من الاستحكام . ولما كان فجر يوم الجمعة في ٢٤ شوال سنة ١٢٩٩ هـ ٨ سبتمبر سنة ١٨٨٢م جمع جيوشه فصلى بهم الصبح ثم خطب فيهم خطبة حماسية وحثهم على الجهاد وقال « ان ابواب الجنة مفتوحة للشهداء فاذا استشهد احدكم في هـذا الجهاد تأتيه الحور العين من الجنة بجامات من الفضة والذهب وتسقيه أطيب الشراب وتحمله الى حيث أعدّ له ما لم تره عين ولا سمعت به أذن ولا خطر في بال انسان » ثم حذّرهم من الفرار وأمرهم بالهجوم هكذا : الشيخ المنة اسماعيل الذي نزل في خور طقت والقاضي احمـد ود جبارة من الزاوية الشمالية الشرقية وفرسان البقارة من الزاوية الشمالية الغربيـة وهو مع خلفائه ومعظم جيوشه من الزاوية الجنوبية الشرقية .

قال لي ضابط حضر الواقعة : « قدّر عدد جيوش المهدي في هـذا اليوم بنحو ٥٠ الف مقاتل فيهم ٥٠٠٠ فارس وكلهم مسلحون بالسيوف والحراب فلما تقدموا نحونا ارتفع غبارهم حتى سدّ الأفق وسمعت صوت مشيهم كأنه هدير بحر عجاج ثم أطلوا فحسبنا الارض قد ماجت فاجتازوا الخندق الخارجي وهم سكوت ولما اقتربوا من الخندق الداخلي صاحوا كلهم بالتهليل والتكبير صيحة واحدة دوت لها الارض وحملوا على الحامية بالترتيب المشار اليه حملة رجل واحد فتلقاهم العساكر بنيران المدافع والسواريخ والبنـادق وأمطروا عليهم من الرصاص ما كاد يحجب الشمس فحصدتهم النيران حصداً ولكنهم لم يزالوا يقتحمونها بجرأة وثبات غير مبالين بالموت والعساكر توالي رميهم بكرات المدافع ورصاص البنادق حتى سدّ الدخان الفضاء فتمكن نفر منهم من الدخول على العساكر في الخندق من طرف الضلع الشرقية عند الزاوية الجنوبية الشرقية التي هاجمها المهدي وخلفاؤه وكان سعيد باشا اذ ذاك يراقب القتال من سطح ديوان المديرية فلما رآهم دخلوا الخندق أسرع فأخذ جانباً من العساكر من كل

ضلع وتعقبهم فقتلهم عن آخرهم ثم أرجع العساكر الى محلاتهم على خط النار . اما العربان المهاجمون للزاوية الجنوبية الشرقية فلما رأوا اخوانهم قد دخلوا الاستحكام ظنوا ان الحامية اصبحت في يدهم فصاحوا صيحة النصر وحملوا على الحامية يرومون اختراقها فتلقتهم نيران العساكر أشد من قبل فردّتهم على أعقابهم ودام القتال من صلاة الصبح الى الظهر وقد حمي على العساكر حديد البنادق فتوقّوه بطرابيشهم ليتمكنوا من مواصلة اطلاق النار ومع ذلك لم يزل العرب يوالون الهجوم الكرة بعد الكرة حتى صاروا اذا أرادوا التقدم داسوا اخوانهم القتلى فعادوا اذ ذاك عن الحامية بالخزي والخسران وقد قدّرت خسارتهم بعشرة آلاف الى اثني عشر الفاً وفيهم القاضي احمد ود جبارة قاضي الاسلام المتقدم الذكر ومحمد وعبد الله شقيقا المهدي والشيخ ادريس شاعره وعبد الله التيجاني كاتبه وأمين ختمه ونحو خمسين رجلاً من عشيرته . وخاب أمل محمد باشا امام بالمهدي بعد هذا الانكسار واشتد به الأسف على الخيانة التي ارتكبها بالفرار من الحكومة التي شرفته برتبها ووظائفها فشرب سماً ومات بعد الواقعة بقليل . وأما خسارة العساكر فلم تزد عن ٣٠٠ رجل . وفرّ المهدي ناكصاً على عقبيه مع باقي جيشه الى كابا فأقام فيها حائراً ذليلا منكسر النفس .

ولو عمل سعيد باشا بمشورة احمد بك دفع الله وخرج للمهدي على اثر هذا الانكسار ربما كان أخمد أنفاسه ومحا ذكره ولكنه خاف ان يخرج من الاستحكام فيحتله المنة اسماعيل الذي رجع الى خور طقت فلم يرَ الخروج من الاستحكام رأياً . وقد أمر عساكره ثاني يوم الواقعة فأبعدوا جثث القتلى عن الخندق وشرعوا في تحصينه فزادوه عمقاً وأقاموا له سوراً من طوب وفتحوا فيه المزاغل ومتنوا الزريبة فأصبحوا في « حصن » منيع .

اما المهدي فقد قيل ان خليفته التعايشي أشار عليه بالرجوع الى قدير ولكن الياس باشا ثبّته ودله على حصار الابيّض والتضييق عليها الى ان يضطرها الى التسليم نظراً لقلة أقواتها وعدم المدد » .

حصار الابيّض : وفي ضحى الاثنين قال المهدي لأصحابه : « أمرني سيد الوجود بمحاصرة مدينة الابيض الى ان يسلم أهلها او يهلكوا جوعاً». ثم خرج من كابا فنزل قرب الابيض على بُعد مرمى قنبلة منها بمحل يدعى الجنزارة فيه آبار غزيرة تعرف بالعُشَر فرسم ديماً واحتل وسطه وأنزل خلفاءه من حوله وبعدهم الأمراء فكبراء الجيش فعامته وقد بنوا بيوتاً من قش وأقاموا على حصار الابيض . وكان المهدي قد أخبر اهل المدينة في الكتاب الذي ارسله اليهم ان يخرجوا اليه بأبنائهم ونسائهم ويتركوا أمتعتهم وأموالهم في منازلهم قال : « لأن الملائكة تحرسها لهم فلا يمسها احد حتى تُفتح المدينة فيعودون اليها فيجدونها كما تركوها » ففعلوا كما قال لهم وكان العساكر عند خروجهم مشغولين بحفر الخندق كما مرّ فكانوا يذهبون الى المنازل بالمناوبة ويحملون منها كل ما وجدوه من حبوب وأمتعة وأموال وقد وجدوا في بيوت بعض التجار مطامير ثمينة من الذهب والفضة والحلى فاقتسموها بينهم . وبعد الواقعة أمر سعيد باشا العساكر فانتشروا في أحياء المدينة وجمعوا كل ما استطاعوا جمعه من الغلال والمؤن . ثم ان اهل المدينة الذين فرّوا الى المهدي لما رأوا ان الملائكة لم تحرس منازلهم كما أخبرهم المهدي صاروا يأتونها خلسة بالجمال فيحملون ما استطاعوا حمله ويعودون الى ديم الجنزارة فلما درى العساكر بهم أخذوا يتعقبونهم ويقتلون من ظفروا به منهم فانقطعوا عن المجيء ولكن عربان المنة اسماعيل لم يزالوا يتسللون ليلا وينهبون المنازل حتى منعهم المهدي .

تسليم حامية الدلن في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢م : وكان المهدي قبل قيامه من البركة ارسل الملك عمر من فقهاء التكارنة بسرية من الانصار الى جبل الدلن وكان فيه بلوك من العساكر السود لمنع تجارة الرقيق وكنيسة للمرسلين النمساويين فيها قسيسان احدهما الأب اوهرولدر المشهور وأخان وثلاث راهبات فاضطرهم الملك عمر الى التسليم ونهب الكنيسة وخربها وساق الجميع الى المهدي في الجنزارة وكان تسليمهم في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ م .

ظهور نجم ذي ذنب : وفي ٢٨ من هذا الشهر ظهر في سماء السودان نجم ذو ذنب كبير قيل امتد في السماء كشراع السفينة وكان يطلع كل يوم قبيل الفجر ويمتد حتى يخفيه نور الشمس وبقي على ذلك اياماً . وفي خرافات اهل السودان ان ظهور مثل هذا النجم شؤم على البلاد فحسبه انصار المهدي شؤم على الحكومة وبالحقيقة انه كان شؤماً كبيراً على الفريقين .

تسليم بارة في ٥ يناير سنة ١٨٨٣ م :

ولما استقر المهدي في معسكر الجنزارة أرسل المنة اسماعيل والامير رحمة ود منوفل الجامعي بعربانها لأخذ بارة وكان في بارة اذ ذاك اورطة نظامية ونحو ٢٤٠ رجلاً من الباشبوزق عليهم الصاغ سرور افندي بهجت قومنداناً ومعه النور عنقرة المار ذكره. وكان سعيد باشا قد أرسل بعد واقعة الابيض الى عبد القادر باشا يعلمه بالنصر ويسأله المدد فأرسل اليه عبد القادر باشا الميرالاي علي بك لطفي المشهور بأبي كوكة على اورطتين من العساكر النظامية و ٧٥٠ رجلاً من الباشبوزق فتلقاهم الامير رحمة في مكان يدعى « كوع ود جفون » مسيرة يوم من بارة وكانوا عطاشاً تعابى فقتل منهم ما ينيف على الف رجل وغنم بنادقهم وذخائرهم وكان في جملة القتلى الاستاذ السيد احمد الازهري ابن الولي اسماعيل الكردوفاني المشهور الذي صحبهم على ان يكون شيخ الاسلام وقاضي عموم غرب السودان . وفر من سلم منهم فطاردهم رحمة المذكور حتى قربوا من بارة فتلقاهم المنة اسماعيل وأصبحوا بين قوتين فبلغ الحامية ان العرب يحاربون النجدة فخرج النور عنقرة ببعض العساكر ففرق العرب عنها وفتح لها طريقاً فدخلت بارة في ١٠ الحجة سنة ١٢٩٩ هـ ١٨٨٢ م .

وكان في الحامية دنقلاوي يقال له احمد ود مالك يود الخروج الى المهدي لأنه من جنسه فاتفق مع المحاصرين ثاني يوم وصول النجدة فأضرم النار في بعض البيوت القريبة من الشونة والذخائر حتى اشغل العساكر ففرّ مع نفر

من اهله وفي الوقت نفسه هاجم العرب الحامية من الجهات الاربع فاشتغل بعض العساكر في اطفاء النار وثبت البعض الآخر على القتال فردّوا العرب على اعقابهم . وفي اليوم التالي خرج النور عنقرة ليلاً بالعساكر وباغت المنة اسماعيل في معسكره فقتل من جيشه وغنم وعاد الى بارة. وكان سلاح أنصار المهدي الى هذا العهد السيف والحربة فلما نزل المهدي لحصر الابيض رأى ان السيف والحربة لا يفيان بالغرض فاستحضر الاسلحة النارية من قدير فوزعها على اصحابه وأرسل جانباً منها الى محاصري بارة فضيقوا على اهل الحامية ومنعوهم من الخروج ودام هذا الحال اياماً حتى فرغ زاد العساكر فأكلوا الحمير والكلاب والجلود وقد فرغت ذخائرهم او كادت فعقد الضباط والسناجق ومعهم النور عنقرة مجلساً للنظر في أمر نجاتهم فرأوا انهم اذا بقوا محصورين هلكوا جوعاً واذا خرجوا فان قصدوا الابيض فالابيض يحصرها المهدي وقومه وان قصدوا الخرطوم فهي بعيدة منهم والطريق معطشة فاذا نجوا من المحاصرين لم ينجوا من العطش فأقرّوا على التسليم وخافوا اذا سلموا للمنة اسماعيل ان يسيء معاملتهم أخذاً بثأره فكتبوا الى المهدي يسألونه ان يرسل اليهم اميراً للتسليم عن يده فأرسل اليهم عبد الرحمن النجومي بجيش كبير فسلموا له في ٢٥ صفر سنة ١٣٠٠ هـ ٥ يناير سنة ١٨٨٣ م فجاء بهم النجومي وبالمحاصرين الى ديم الجنزارة فقابلهم المهدي بجيش كثيف وأطلق ٢١ مدفعاً اعلاناً للنصر .

ثم تقدم اليه النور عنقرة وجميع الضباط والسناجق فبايعوه فطيب خاطرهم وعين لهم محلاً في المعسكر فأقاموا فيه . وقد فرج عنه فتح بارة بعض الغمّ الذي ناله من انكساره في واقعة الابيض .

عود الى حصار الابيّض : وكان المهدي لما استحضر الاسلحة النارية من قدير أنشأ راية جديدة ضمّ تحتها جميع الجهادية السود الذين كانوا في أسره وجعل عليها حمدان ابا عنجه أميراً فضيقوا على الابيض وقعدوا لها في كل مرصد .

اما حمدان ابو عنجه فهو عبد من المنضّلة أي العبيد المولدين في بلاد البقارة وقد خدم في جيش الزبير في بحر الغزال ثم في جيش ابنه سليمان ولم يسلم مع سليمان ولا فرّ مع رابح بل بقي في دار التعايشة فقبض عليه محمد زقل مدير داره في ذلك الحين وزجه في السجن ثم خرج من السجن وبقي في بلاد التعايشة الى ان ظهر المهدي فهاجر اليه وبايعه ودخل في راية التعايشي وعلم المهدي بسالته وتعوّده على ادارة الاسلحة النارية فجعله اميراً على الجهادية كما تقدم . وكان ابو عنجه يأخذ رجاله ويختبىء بهم في منازل الابيض المهجورة ويترصد العساكر فكلما لاح واحد منهم رماه بالرصاص حتى قتل عدة منهم وفيهم البكباشي باشا حماد قومندان الضلع الشرقية فقد أصابته رصاصة وهو جالس عند باب ديوان المديرية مع سعيد باشا فخرّ قتيلاً .

وفي آخر الشهر الرابع من الحصار نفد الزاد من الحامية واشتد الجوع على العساكر حتى صار فرسانهم يخرجون الى اطراف معسكر الدراويش فيخطفون منه القوت او يذهبون الى حلة ابي صفيّة قرب الاستحكام فيأتون منها بالكوريب للتقوت به فتنبه المحاصرون لذلك فوقفوا لهم بالمرصاد وأحرقوا الكوريب . ودام الحصار على هذا الحال حتى ملّ العساكر واشتد بهم القحط فأكلوا ما عندهم من الخيل والحمير والكلاب والهررة والفيران ثم شرعوا في أكل الصمغ. وقد غلت الاسعار اذ ذاك غلاء فاحشاً حتى بلغ ثمن اردب الذرة نحو ٣٠٠٠ ريال والحمار ٥٠٠ ريال والفرخة ٤٠ ريالاً والبيضة ريالاً والفأر ريالين ورطل اللبن ريالين ورأس السكر ٥٠ ريالاً . ولما بلغ الباعة في معسكر المهدي غلاء الاسعار في الحامية الى هذا الحد صاروا يأتون اليهم سراً بالزاد فيبيعونه لهم بأثمان فاحشة حتى اتصل الخبر الى المهدي فأصدر أمره الى الكافة بمنع ذلك بتاتاً وتهدّد من يخالف الامر بقطع يده ورجله من خلاف . فضاق الامر بالعساكر وبلغت الجاعة حدّها حتى صار البعض ينبشون أوكار النمل ويخرجون منها الحب للتقوّت به والبعض يأكلون جلود الأسرّة والأحذية وكلما ذُبحت ماشية اجتمعوا عليها أفواجاً يختطفون دمها تسكيناً لحرارة

الجوع واجتزاء به من القوت .

وفوق هذا الجوع الذي أصابهم انتشر فيهم مرض فقر الدم والديزنتاريا فمات منهم من ١٠ : ٢٠ في اليوم . ولما اشتد بهم الحال الى هذا الحد أخذوا يتسللون من الحامية واحداً واحداً الى معسكر المهدي وكان في جملة الذين خرجوا للمهدي فراراً من الجوع ابراهيم ود عدلان فكان له في المهدية شأن يُذكر .

تسليم الابيض في ١٩ يناير سنة ١٨٨٣ :

وكان سعيد باشا يتفقد العساكر على خط النار ليلاً ونهاراً ويثبتهم على الحصار وهو لم يزل يعلّل نفسه ويعللهم بقدوم النجدة من الخرطوم فلما سقطت بارة جاء بعض رجالها قريباً من الاستحكام ونادوا بالعساكر قائلين ان بارة سلمت والنجدة التي كانت آتية لانقاذكم قد أهلكها العرب في الطريق ومن بقي منها سلم مع حامية بارة فلم يصدقوا ما كانوا يسمعونه حتى دخل عليهم في ١٠ يناير سنة ١٨٨٣ ضابط من ضباط بارة وأخبرهم بما كان من سقوط الحامية وهلاك المدد الآتي من الخرطوم وحدثهم عن الثورة في سنار والثورة العرابية في مصر فسقط هذا الخبر على الحامية كصاعقة هدّت قواهم وقطعت رجاءهم .

ثم ان المهدي لما رأى كثرة اللاجئين اليه فراراً من الجوع وعلم تمام الحال التي صارت اليه الحامية صمم على الهجوم واستعد له فبلغ ذلك جرجي استامبولي التاجر المار ذكره فشفق على اهل الحامية وعلى الأخص قسس الكنيسة لأنهم اصحابه فذهب الى المهدي وسأله ان يمهله ريثما يذهب الى الحامية ويخاطب اهلها بشأن التسليم فأجاب المهدي سؤله فأتى ليلاً الى قرب الاستحكام ونادى طالباً مقابلة الضباط فجاءه علي بك شريف الميرالاي واسكندر بك القائمقام والبكباشي محمود فأخبرهم بالذي عزم عليه المهدي وألحّ عليهم بالتسليم فعقد الضباط مجلساً للنظر في ذلك فقال سعيد باشا : اني افضل ان ألقي النار في

البارود وأحرق الحامية كلها على ان أسلم لهذا الدجال الحقير وكذلك قال احمد بك دفع الله ولكن سائر الضباط والسناجق قالوا : ليس من الحكمة ان نهلك انفسنا وأنفس العساكر الذين في عهدتنا فاذا لم نسلم بالرضى فالمهدي لا بدّ انه يهاجمنا ويأخذنا بالرغم ولم نعد قادرين على صدّه اليوم كما صددناه بالامس اذ لم يبقَ للعساكر قوة على حمل السلاح فضلاً عن استعماله بل اذا لم يهاجمنا المهدي هلكنا من الجوع والمرض وقد ذهب منا الآن نحو النصف وانقطع رجاؤنا بالمدد من الخرطوم . وعليه فلم يبقَ لنا رأي غير التسليم لا سيما واننا اذا سلمنا بقي لنا أمل في النجاة إذ الحكومة لا تترك المهدي وشأنه بل لا بد لها من تجريد الجيوش لسحقه ويكفينا ولاءً لحكومتنا أننا حاربنا في سبيلها على قدر جهدنا وحافظنا على شرفها الى آخر رمق منا . ثم كتبوا كتاباً الى المهدي فاعتذروا عما مضى وطلبوا العفو والخروج لمبايعته وأمضى الكتاب علي بك شريف الميرالاي واسكندر بك القائمقام وباقي الضباط والسناجق وعرضوه على سعيد باشا فأمضاه على الرغم وكذلك فعل احمد بك دفع الله ثم دفعوا الكتاب الى جرجي استامبولي فحمله الى المهدي وكان ذلك مساء الخميس في ١٨ يناير سنة ١٨٨٣ م وقد طلبوا ان يكون التسليم صباح اليوم الثاني ونبهوا على العساكر في الخط اذا رأوا الدراويش مقبلين ان لا يطلقوا عليهم البنادق بل يتقدموا اليهم مسلمين .

فلما وصل كتاب التسليم من الحامية الى المهدي كتب اليهم في الجواب ما يأتي :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله مع التسليم .

« وبعد فمن عبد ربه محمد المهدي بن عبد الله الى كل من أقبل على الله بالمحبة وسلم لأمرنا ونهينا من الحكام والضباط والفقراء والمساكين الذين بالقفرة (الحصن) .

« انكم كنتم في أمر الترك ونهيهم صادقين وباذلين انفسكم وأموالكم لغير الله

بلا منافع تعود لكم عند الله وترفعكم في الدار الآخرة فكيف اني داعيكم الى الله وما يرفعكم عنده ويعود عليكم بالخير الدايم والنعيم السرمدي وبما انكم عاقلون وتعلمون ان ما كان لغير الله سلمتم فيه فسلموا امركم لي لأني لا أريد لكم إلا ما يرضي الله ورسوله ويديم الخير السرمدي فما دام فعلي بما يعود لكم فمن باب اولى انكم تسلمون لأمري ونهيي بأنفسكم وأموالكم وأولادكم من غير تهمة بل بمحبة وصداقة بما اني ولي امر الله لكم وخليفة رسول الله فيكم والسلام» .

فلما جاءهم هذا الكتاب اطمأنوا . ويوم الجمعة في ١٩ يناير سنة ١٨٨٣ م خرج اهل الحامية جميعاً بأبنائهم ونسائهم مسلمين . فخرج المهدي في ضحى ذلك اليوم من مسجده وعليه الدرع والمغفر ومعه خلفاؤه وسائر أصحابه فتلقاهم بقرب الخندق الكبير المحيط بمدينة الابيض وجلس على الارض كجلوسه للصلاة . ثم تقدم اليه محمد باشا سعيد وعلي بك شريف واسكندر بك واحمد بك دفع الله وباقي الضباط والسناجق فبايعوه الواحد بعد الآخر باليد ثم بايعه العساكر مشافهة . قيل فلما تقدم محمد سعيد باشا لمبايعته كان بيده خاتماً من الماس فأخرجه المهدي من يده ثم دفعه له في كفه وأطبق يده عليه مشيراً الى ان لبسه ممنوع وأجلسه الى جانبه وحوله الضباط والسناجق . ثم التفت اليه ولامه على قتله رسوليه وشكر الله لأنه أخرجهم من الظلمات الى النور ثم أمرهم بالانصراف والاقامة في محل خاص عيّنه لهم بلصق ديمه وأمر أمين بيت المال فرتّب لهم من الزاد ما فيه كفايتهم وقوام أمرهم على حسب أحوالهم وأخذهم الى المحل الذي أعدّ لهم فخلعوا عنهم الثياب العسكرية فوضعوها في بيت المال لتستخدم للرقع وألبسوهم الجبب المرقعة . وكان العساكر قد خاروا من الجوع فهرعوا الى السوق في طلب الطعام فأكلوا بشره زائد حتى مات الكثير منهم من كثرة الأكل .

أما المهدي فانه دخل الابيض ومعه خلفاؤه وامراؤه ونزل في ديوان المديرية وأنزل خلفاءه وأمراءه في منازل الضباط والسناجق وبقي ديم الجنزارة على حاله .

ثم أمر امين بيت المال وعماله بجمع الغنائم فجمعوا الأثاث والأمتعة ولما لم يجدوا فيها شيئاً من النقود والحلى نادوا ضباط الحامية وسناجقها واحداً واحداً وسألوهم عن نقودهم وحلاهم وبدأوا بسعيد باشا فأنكر أمواله وكان قد خبأ ٧٠٠٠ جنيهاً في صندوق وجعله في حائط منزله ولم يكن يعلم به إلا جارية له فاعترفت بـه فنقبوا الحائط وأخذوه . ثم استنطقوا باقي الضباط والسناجق والموظفين ليدلوهم على الأماكن التي أخفوا فيها اموالهم ومن أنكر أعملوا به السياط وعذبوه حتى اعترف او مات تحت الضرب كما جرى لأحمد شلبي وكيل اشغال المديرية فانهم جلدوه بالسياط الى ان مات وبمحمد المليجي متعهد « سلخانة الميري » فانهم ربطوه برجليه ودلوه في البئر حتى اعترف بماله . وقال الاب روسينيولي احد القسس النمساويين المار ذكرهم « لما دخل العرب الحامية كنت في الفراش مريضاً بفقر الدم فدخل بعض الدراويش عليّ فكسروا الصلبان والصور وأحرقوها ثم تقدموا اليّ وشرعوا يضربونني بحدّ السيف ويقولون اين مالك يا كافر قلت كان عندي الف ريال وهي كل ما أملك فاقترضتها لسعيد باشا فوزعها على العساكر ثم التفتوا فرأوا القبر الذي دفن فيه الاب لوزي فظنوه مالاً مدفوناً فنبشوه فرأوا جثة بالية فجمعوا عليها ما وجدوه من ورق الدخان وأحرقوها بـه وأما انا فأخذوني مع رفاقي الى ديم الجنزارة وضمونا الى جماعة كنيسة الدلن » . وبذلك جمع امين بيت المال مبالغ وافرة من النقود والحلى ولكن لم يدخل بيت المال سوى ١٤٠٠٠٠ ريال أخذوها من الضباط والسناجق وغيرهم و ٧٥٠٠ ريال من خزينة المديرية . فأفرز المهدي الخمس منها لنفسه وجعل الباقي في بيت المال لينفق على الانصار.

ثم امر فجمعت الاسلحة النارية التي كانت مع العساكر وفي حامية الابيض فضمها الى ما غنموه من واقعتي راشد والشلالي فاجتمع عنده ١٦٤٠٠ بندقية و ١٣ مدفعاً و ٧ سواريخ وشيء كثير من الذخائر. واجتمع عنده من عساكر الحكومة نحو ٥٠٠٠ من مصريين وسود فجعل السود في راية حمدان ابي عنجة وسلحهم بالاسلحة النارية والمصريين في راية حسن حسين احد المصريين المولدين

في السودان ولم يسمح لهم بسلاح غير السيوف والحراب .

وبقي انصار المهدي في ديم الجنزارة اياماً بعد التسليم ثم اشتعلت نار في الديم فالتهمته كله لأنه كان مبنياً بالقش كما مرّ فأذن المهدي اصحابه اذ ذاك في سكنى الابيض فاتسعت اتساعاً عظيماً الى كل الجهات أما أسرى الابيض فانه أبقاهم في المكان الذي عينه لهم في الديم القديم .

وبعد هذه الحريقة بعشرة ايام أتى الخليفة عبد الله الى معسكر الأسرى وجلس في خيمة الحاج خالد العمرابي المار ذكره فدعا اليه سعيد باشا وعلي بك شريف ونظيم افندي والصاغ محمد جمعة من رجال نظيم واحمد بك دفع الله ومحمد ياسين ناظر قسم خورسي وعثمان أغا سليمان ومشلي أغا حسين وكلاهما من سناجق الابيض وجعل كل اثنين منهما في عهدة شيخ من مشايخ العربان المخلصين لهم وأوعز اليهم سراً ان يقتلوهم فجعل سعيد باشا ومحمد جمعة في عهدة الشيخ اسماعيل ود الامين شيخ الغديات . وعلي بك شريف ونظيم افندي في عهدة الشيخ نواي شيخ الحوازمة . واحمد بك دفع الله ومحمد ياسين في عهدة الشيخ مادبو احد مشايخ الرزيقات . وعثمان سليمان ومشلي حسين في عهدة الشيخ مكي ود ابراهيم شيخ عربان حمر فذهب كل شيخ بفريستيه الى بلده وقتلها فماتوا مأسوفاً عليهم من كل حرّ. وسيبقى اسمهم محفوظاً في التاريخ بالتجلة والاكرام ما ذُكر حصار وناح حمام .

هذا وقد اختلف الرواة في السبب الذي حمل المهدي على قتل هؤلاء الرؤساء والذي عليه الاكثرون وذكره سلاطين باشا في كتابه « السيف والنار في السودان » ان هؤلاء الرؤساء كتبوا تقريراً الى عبد القادر باشا ذكروا فيه الاسباب التي حملتهم على التسليم وختموا التقرير ورفعوه الى رسول ليوصله الى الخرطوم وكان في جملة الذين ختموا التقرير الملازم يوسف منصور وكيل بوليس الابيض والقائمقام محمد بك اسكندر فخاف يوسف منصور ان يقع التقرير في يد المهدي فينتقم منهم جميعاً فمضى اليه ووقع على قدميه وأخبره بما جرى ورأى في طريقه محمد بك اسكندر فأقنعه ان يفعل مثله ففعل فأرسل المهدي

في الحال في أثر الرسول فقبض عليه وأخذ التقرير منه وشاع حينئذ ان النبي ظهر للمهدي وأخبره بهذا التقرير . واغتنم المهدي تلك الفرصة للانتقام من الذين قتلوا أخويه وخذلوه في وقعة الابيض فنفاهم ثم قتلهم وعفا عن يوسف منصور واسكندر بك وجعل الاول منهما قومنداناً على المدافع .

وقد قابلت اسكندر بك ويوسف منصور في ام درمان سنة ١٨٩٨ م فأنكرا هذه الرواية وقالا ان المهدي كان حاقداً على الضباط لقتل اخويه وخذلانه في وقعة الابيض ولم يعلم الضباط المشار اليهم كيف يتقون نقمته بل زادوه نكاية بعدم العناية به والاستخفاف بأمره. وذكر احدهما تفصيلاً لذلك وصدّقه بعض الرواة قال:كان المهدي في يوم جمعة بعد الصلاة يذاكر الضباط في جامع الابيض وكان سعيد باشا جالساً الى يساره معرضاً عنه ويده اليمنى على خده فأمسك المهدي يده وأزاحها عن خده وقال بماذا تتأمل يا محمد سعيد أنا أذاكرك بالله ورسوله واليوم الآخر وانت معرض عني أما آن لك ان ترجع الى الله وتترك الدنيا وهمومها وتنظر في أمر آخرتك فنهض اذ ذاك سعيد باشا وتأفّف ونفض ثوبه في وجه المهدي وانصرف، من المجلس مغضباً فانقبض وجه المهدي وهبّ أنصاره طالبين القبض على سعيد باشا فأمرهم بتركه وقال لهم لا تعجبوا من نزقه وحماقته فأنتم تعلمون انه كان بمقام عزيز من مقامات الدنيا ونزع هذا المقام من طلب الدنيا شديد على النفس .

ثم انصرف المهدي الى منزله وعقد مجلساً مع خلفائه ومجلس شوراه بشأن محمد سعيد فأجمعوا على سجنه وتكبيله بالحديد فأخذوه الى ديوان المديرية ووضعوا قيداً من الحديد في عنقه ومكنّة في رجليه وربطوه في طريق المارة وكان سميناً قصيراً فلقبوه بجراب الفول فكانوا كلما مرّوا به نادوه أي جراب الفول هذه ثمرة عنادك وعاقبة انكارك المهدية. وقد أراد المهدي بحبسه وتشهيره على هذه الصورة ان يذلل نفسه ويخضع كبرياءه ولكنه لم يزدد بذلك إلا أنفة وكبراً وكان ينظر الى معذبيه ومهينيه نظر المترفع الجلود ولسان حاله ينادي:

لا تحسبنْ يا دهر اني ضارع   لنكبةٍ تعرقني عرق المُدى
مارستَ من لو هوت الافلاك من   جوانب الجوّ عليه ما شكى

قالوا فلما رأى المهدي منه هذا الاصرار عقد مجلس شوراه فأقروا على قتله هو ومن كان على شاكلته من الضباط والسناجق فسلموهم الى المشايخ المتقدم ذكرهم فقتلوهم شر قتلة رحمة الله عليهم .

هذا وما انتشر خبر سقوط الابيض حتى هرع الناس اليها افواجاً لمبايعة المهدي وأشهر الذين أتوا اليه « عثمان دقنه » أتاه من سواكن فسماه أميراً على جميع البجة في السودان الشرقي فكان من اعظم انصار المهدية وأشد أياديها وسيأتي تفصيل خبره . وكان قد أرسل بعد واقعة الشلالي الشيخ مادبو المار ذكره اميراً على دارفور فكان له فيها من الشأن ما سنذكره بالتفصيل . وبث المهدي كتبه ومنشوراته في شرق البلاد وغربها مبشراً الناس بما ناله من النصر ومحرضاً إياهم على شق العصا والاجتماع على عماله في الجهات او المهاجرة اليه وحذرهم من ترك الجهاد او البقاء على الحياد .

وكان رابح الزبير اذ ذاك لا يزال في بلاد الفراتيت ومعه جيش قوي فكتب اليه يستحثه على الرجوع الى السودان والانضمام اليه للجهاد في سبيل الله فلم يجبه .

ثم كان أهم ما سعى اليه ضم كلمة السنوسي الى كلمته ليستعين به على غرضه ويتهدد مصر فلما لم يجبه على كتابه الاول عاد فكتب اليه كتاباً آخر بتاريخ ٥ رجب سنة ١٣٠٠هـ ١٢ مايو ١٨٨٣م وأرسله اليه مع طاهر اسحق الزغاوي الى جغبوب وفيه بيّن له كيفية تجلّي المهدية عليه من النبي كما بيّنه في منشوره العام الى « أحبابه في الله » وذكرناه بحرفه وقال :

« واعلم يا حبيبي قد كنا ومن معنا من الاعوان ننتظرك لاقامة الدين قبل حصول المهدية للعبد الذليل وقد كاتبناك لما سمعنا باستقامتك ودعايتك الى الله على السنة النبوية وتأهبك لإحياء الدين ونجتمع معك ولم ترد لنا المكاتبة وأظن

ذلك من عدم وصولها اليكم حتى اني ذاكرت جميع من اجتمعت معه من أهل الدين والشيوخ والأمراء المشهورين فأبوا ذلك لهوان الدين عندهم وتمكن حب الوطن والحياة في قلوبهم وقلة توحيدهم حتى بايعني الضعفاء على الفرار بالدين واقامته على ما يطلب رب العالمين وقنعت نفوس من بايعناه من الحياة الدنيا لما يرون للدين من الممات . ولا زال المساكين الذين لم يبالوا بالله بما فاتهم من المحبوب يزدادون وفيما عند الله يرغبون حتى هجمت المهدية الكبرى من الله ورسوله على العبد الحقير فأخبرني سيد الوجود ﷺ بأني المهدي المنتظر وخلفني عليه الصلاة والسلام على كرسيه مراراً بحضرة الخلفاء الاربعة والاقطاب والخضر عليه السلام ... ولا زال التأييد يزداد من الله ورسوله وأنت منا على بال حتى جاءتنا الاخبار فيك من النبي ﷺ انك من الوزراء لي ثم ما زلنا ننتظرك حتى أعلمنا النبي الخضر عليه السلام بأحوالكم وبما أنتم عليه ثم حصلت حضرة عظيمة عن النبي ﷺ فيما خلفه من أصحابه من اصحابي فاذ أجلس احد اصحابي على كرسي ابي بكر الصديق واحدهم على كرسي عمر وأوقف كرسي عثمان فقال هذا الكرسي لابن السنوسي الى ان يأتيكم بقرب او طول وأجلس احد اصحابي على كرسي علي رضوان الله عليهم ولا زالت روحانيتك تحضر معنا في بعض الحضرات مع اصحابي الذين هم خلفاء رسول الله ﷺ..» وختم كتابه بقوله :

« فاذا بلغك جوابي هذا اما ان تجاهد في جهاتك الى مصر ونواحيها ان لم يسلموا واما ان تهاجر الينا ولكن الهجرة احب الينا كما علمت من فضل الهجرة من زيادة الثواب والمقابلة ان تيسرت وعلى كل حال ترد الينا منك الافادة بما سيصير اليه عزمك من جهاد او هجرة ومثلك تكفيه الاشارة» اه.

فلم يجبه السنوسي على كتابه بل قال للرسول شفاهاً « قل لمحمد احمد اننا كلانا لا نساوي التراب الذي كان يطأه عثمان بن عفان » .

وأمر المهدي بعد فتح الابيض بقتل اثنين من اعظم أنصاره وهما المنة اسماعيل المار ذكره وعجيل ود الجنقاوي من كبار مشايخ الزريقات لمنافسة

حصلت بينها وبين التعايشي فساء قتلها جميع الناس وكثر الطعن على التعايشي وقومه سراً وجهراً وكان التعايشي وزير المهدي وقائد جيشه وعيبة سرّه فخوفاً من حصول الفشل في أنصاره اصدر منشوره الشهير بتاريخ ١٧ ربيع اول سنة ١٣٠٠هـ ٢٦ يناير سنة ١٨٨٣م في فضل التعايشي ومكانته في المهدية وأمر الناس بطاعته كنفسه وحذرهم من الطعن عليه سراً او جهراً . وهذه صورة المنشور :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم .

« وبعد فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدي بن عبد الله اعلاماً منه الى كافة عباد الله المؤمنين بالله وبكتابه أما بعد اعلموا أيها الأحباب أن الخليفة عبد الله خليفة الصديق المقلد بقلائد الصدق والتصديق فهو خليفة الخلفاء وأمير جيش المهدية المشار اليه في الحضرة النبوية فذلك السيد عبد الله ابن السيد محمد حمد الله عاقبته في الدارين فحيث علمتم ذلك يا احبابي ان الخليفة عبد الله هو مني وأنا منه وقد أشار اليه سيد الوجود ﷺ فتأدبوا معه كتأدبكم معي وسلموا اليه ظاهراً وباطناً كتسليمكم لي وصدقوه في قوله ولا تتهموه في فعله فجميع ما يفعله بأمر النبي صلى الله عليه وسلم او باذن منا لا بمجرّد اجتهاد منه ولا هو عن هوى بل هو نائب عنه في تنفيذ أمره ﷺ والقضاء باشارته فان فعله بكم وحكمه فيكم بحسب ذلك واعلموا يقيناً ان قضاءه فيكم هو قضاء رسول الله ﷺ كما قال الله تعالى وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً ان يكون لهم الخيرة من امرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً فمن كان في صدره حرج لأجل حكمه فذلك لعدم ايمانه وخروجه من الدين بسبب غفلته وذلك بشاهد قوله تعالى فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ولا شك في شرك من استنكف عن حكم الله ورسوله سيما بقوله ﷺ ان اخوف ما اخاف عليكم الشرك الخفي الخ الحديث مع انه خليفة الصديق

وأول المصدقين في المهدية فانظروا لمكانـــة الصديق عند الله ورسوله بنص القرآن العظيم وانظروا لمكانة من أورثـه الله مكان الصديقين وأوزره بالباطن بالخضر عليه السلام فهو مسدَّد مؤيد من الله ورسوله ويد من أيادي الله لنصر دينه باشارة سيد الوجود ﷺ وقد ورد في فضله كثير . فحيث فهمتم ذلـك فالتكلم في حقه يورث الوبال والخذلان وسلب الايمان.واعلموا ان جميـع أفعاله وأحكامه محمولة على الصواب لأنه أوتي الحكمة وفصل الخطاب ولو كان حكمه على قتل نفس منكم او سلب أموالكم فلا تتعرضوا عليه فقد حكمه الله فيكم بذلك ليطهركم ويزكيكم من خبائث الدنيا لتصفى قلوبكم وتقبلوا الى ربكم ومن تكلم في حقه ولو بالكلام النفسيّ جزماً فقـد خسر الدنيا والآخرة ذلك هو هو الخسران المبين ويخشى عليه من الموت على سوء الخاتمة والعيـــاذ بالله لأنه خليفة الصديق الذي قال الله في حقه : إذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا وقال ﷺ : ان أمنّ الناس عليّ في الصحبة ابو بكر وقال عليه السلام : ما طلعت شمس على احد بعد النبيين أفضل من ابي بكر . وحيث علمتم ذلك فهو بمنزلته الآن لأن اصحابي كأصحاب رسول الله وهو خليفتنا في الدين وخلافته بأمر من النبي فمن كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ومصدّقاً بمهـديتي فليسلم للخليفة عبد الله ظاهراً وباطناً واذا رأيتم منه أمراً مخالفاً في الظاهر فاحملوه على التفويض بعلم الله والتأويل الحسن واعتبروا يا أولي الألباب بقضية موسى والخضر عليهما السلام حكاها الله في كتـــابه العزيز كحكم داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام لتسلموا من الشكوك والاوهام وانمـا أنذرتكم بهذا رحمـة لكم وشفقة عليكم وليبلغ الشاهد منكم الغائب لئلا تسبوه وتنسبوا اليه الظلم والجور فتهلكوا فاحذروا عن أذية أولياء الله فانها أذية الله ورسوله وقد لعن الله ذلك في كتابه فقال : ان الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة كما أن من آذى لي ولياً فقد آذنته بالحرب فان الله غيور على أوليائه فقـد علمتم انه ورد من نقض الكعبة حجراً حجراً ثم حرقها بالنار أهون عند الله من ان يؤذي ولياً من أوليائه . وان الخليفة هو قادة المسلمين وخليفتنا النائب عنـا

في جميـع امور الدين وإياكم والوسوسة في حقه وظن السوء وعدم الامتثال اليه في قوله والمشاجرة له ولأحكامه والخلاف والحسد فتوبوا الى الله وارجعوا قبل ان تذهب حسناتكم وتسلبون ثوب الايمان وانما حملني على هذا البيان النصيحة في الله وحمايتكم من الوقوع في هـاوية الانفس والأماني فمن تاب تاب الله عليه ومن عاد فينتقم الله منه ويسلطه عليه وهـذا امر الله ورسوله فليحذر الذين يخالفون عن أمره ان تصيبهم فتنـة او يصيبهم عذاب أليم ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم والسلام اه » .

الفصل الثامن

في

حملة هكس باشا على المهدي في كردوفان

الحكومة والثورة : هذا ما كان من المهدي في الابيض اما الحكومة في مصر فانها كانت فيهذا العهد قد اخمدت الثورة العرابية واحتلّ الانكليز مصر في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢م فصارت باحتلالهم مستندة الى قوتهم مقيدة برأيهم ومشورتهم فلما استقامت الاحوال في مصر وعاد اليها النظام التفتت بكليتها الى السودان وكان عبد القادر باشا اذ ذاك يلحّ في ارسال المدد قبل فوات الفرصة فأقرّت الحكومة على إلغاء جيش عرابي وإرساله مدداً الى السودان وفي الوقت نفسه أقرّت على سحق المهدي في كردوفان فصدر الامر العالي بإلغاء الجيش في ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٨٢ م .

وأنشأ بدله جيش جديد من فلاحي مصر مؤلفاً من ٦٠٠٠ رجل جعل عليه السر افلن ود منخيار الانكليز سرداراً ومعه جماعة من الضباط الانكليز قواداً للاورط وأركان حرب الجيش .

ولاية علاء الدين باشا سنة ١٣٠٠ ه‍ ١٨٨٣ م :

ثم سقطت الابيض وكانت الوشاية على عبد القادر باشا فدعته الى مصر كما مرّ وارسلت علاء الدين باشا والياً على السودان فوصل الخرطوم في ٢٠ فبراير سنة ١٨٨٣ ولكنها حصرت سلطته في الادارة الملكية وجعلت على العسكرية سليمان باشا نيازي قومنداناً عاماً وهكس باشا رئيساً لأركان حربه . اما هكس باشا فهو من ضباط الانكليز النابغين وقد انتظم في الجيش الهندي سنة ١٨٤٩ وشهد عدة وقائع حربية في الهند والحبشة وتقاعد برتبة كولونيل . وفي سنة ١٨٨٢ قدم الى مصر فسمي رئيس اركان حرب الجيش المصري ولما ألغي جيش عرابي وصدر الامر بارساله مدداً الى السودان سمي رئيس اركان حرب الجيش في السودان كما مرّ فبرح مصر في ٧ فبراير وسار بطريق سواكن فوصل الخرطوم في ٧ مارس سنة ١٨٨٣ .

وتبعه جيش عرابي في هذه الطريق عينها وكان مؤلفاً من اربعة آلايات في كل آلاي ثلاث اورط ومجموعه نحو عشرة آلاف رجل عليهم اربع ضباط مصريين عظام وهم : الميرالاي سليم بك عوني قومندان١جي آلاي والميرالاي حسين بك مظهر قومندان٢ جي آلاي والميرالاي ابراهيم بك حيدر قومندان ٣ جي آلاي والميرالاي رجب بك صديق قومندان ٤ جي آلاي. فأقام هذا الجيش في ام درمان وبنى فيها رجب بك صديق طابية اشتهرت في حصار الخرطوم .

واقعة المرابيع في ٢٩ ابريل سنة ١٨٨٣ م : وكان اول ما أقرّ عليه هكس باشا بعد وصوله الخرطوم ان يجرّد حملة على ود برجوب الذي كان لم يزل شاهراً العصيان في الجبلين وقد اجتمع اليه الزعماء الذين خذلهم عبدالقادر باشا كود الصليحابي واحمد المكاشف وأخيه عامر وغيرهم كما مرّ . فلما كان يوم ٣ ابريل خرج من الخرطوم مع سليمان باشا نيازي القومندان العام وجمع في الكوة نحو ٥٦٠٠ مقاتل فيهم الميرالاي حسن بك مظهر والميرالاي ابراهيم

بك حيدر ومع كل منها ثلاث اورط واليوزباشي حسن عزمي قومندان الطوبجية ومعه سبعة مدافع و ٦٠ رجلاً وسنجقان من سناجق الأتراك مع كل منها ٤٠٠ رجل وسار بهذه القوة قاصداً الجبلين . وخرج ود برجوب لقتاله بنحو ٥٠٠٠ مقاتل فالتقى الجيشان في المرابيع جنوبي أبا في فجر ٢٩ ابريل سنة ١٨٨٣ م وكان هكس قد نظم جيشه مربعاً فجعل حملة الجمال والمهمات في الوسط ولم يجعل المدافع في الزوايا كجاري العادة بل جعلها بارزة عنها ووصل اضلاع المربع وصلاً تاماً حتى لا يبقى للعرب سبيل الى دخوله ثم نثر حول المربع قطعاً صغيرة من الحديد ذات اربعة رؤوس محددة تقف على ثلاثة منها. ولم يتم تنظيم المربع على هذه الصورة حتى أقبل الدراويش وفرسانهم في ساقتهم مهاجمين بهيئة قوس فلما صاروا على مرمى الرصاص صدرت الأوامر للعساكر فأمطروهم سحابة من الرصاص برَّحت بهم تبريحاً وخاف فرسانهم وكبراؤهم ان يثنيهم ثقل الرصاص عن متابعة الهجوم فصاحوا بهم وحملوا في مقدمتهم بقلوب لا تهاب الموت فكنت ترى الفارس مجرداً سيفه ومطلقاً عنان جواده قاصداً اختراق المربع فيصيبه الرصاص فيقع فيضمد جرحه بيده ويعيد الكرة راجلاً حتى يصرعه الرصاص الى ان ملئت الارض من قتلاهم فولوا الأدبار وقد قتل من كبارهم ١٢ رجلاً فيهم احمد المكاشف وجرح عامر المكاشف جرحاً بالغاً وجرح ود برجوب جرحاً أقعده حتى صار يحمل على سرير . أما جيش هكس فقد قتل منه رجلان وجرح عشرون وتقدم هكس بجيشه الى الجبلين فوجد ديم الدراويش خالياً فعاد الى الدويم فترك جيشه فيها وتقدم الى الخرطوم ليعد نفسه للحملة على المهدي في كردوفان . وقد اختار الدويم النقطة الأساسية لهذه الحملة لأنها ميناء حسن على النيل الابيض وبها شونة قديمة ومنها تتفرع الطرق الى كردوفان .

حملة هكس باشا على كردوفان : وكان عبد القادر باشا اذ ذاك قد عاد الى مصر قبل فألحّ على الحكومة ببقاء الجيش محافظاً على النيل الابيض من الخرطوم الى فاشودة لمنع امتداد الثورة الى جزيرة سنار وترك المهدي وشأنه

في كردوفان الى ان يظهر للناس نفاقه او تضيق به البلاد فيضمحل من نفسه وكان هذا رأي الكثير من ساسة الانكليز ولكن الحكومة لم تزل مصممة على سحق المهدي في كردوفان خوفاً على دارفور وبحر الغزال فأمرت هكس باشا بالزحف على المهدي في الحال فكتب تلغرافاً في ١٣ مايو الى حكومة مصر يقول انه لا يتحمل مسؤولية الحملة إلا اذا كانت له القيادة العامة عليها ولما لم تلتفت الى طلبه قدم استعفاءه في ٢٣ يوليو سنة ١٨٨٣ م فاهتمت اذ ذاك بالأمر ونقلت سليمان باشا نيازي محافظاً على عموم شرقي السودان وجعلت هكس قومنداناً عاماً على الحملة وأمرت علاء الدين باشا بمرافقته كقومندن ثان للحملة وجعلت حسين باشا سرّي وكيلاً عنه في الخرطوم .

فشرع هكس باشا في تجهيز الحملة . وكان اول ما لزمه الاهتمام به وسائط النقل فأرسل علاء الدين باشا الى شرقي النيل الازرق فاشترى ٤٠٠٠ جمل وكان عنده ١٥٠٠ جمل فاجتمع للحملة ٥٥٠٠ جمل . ثم أرسل علاء الدين باشا الى الدويم وشرع في ارسال الجند تباعاً من الخرطوم وأم درمان. وفي ٩ سبتمبر سنة ١٨٨٣ سار ببقية الجيش الى الدويم فوصلها في ٢٠ من الشهر المذكور فاجتمع عنده فيها اربع اورط مصرية وخمس سودانية فيها ٧٠٠٠ من المشاة المنظمة و ٥٠٠ من الفرسان المنظمة و ٥٠٠ من الفرسان الباشبوزق و ١٠ مدافع جبلية و ٤ كروب و ٦ من نوع النور دنفلت . ما عدا ٢٠٠٠ من الاتباع و ٥٥٠٠ جمل و ٣٠٠٠ بغل و ١٠٠٠٠ حمار و ٥٠٠٠ فرس .

وأما ضباط الجيش العظام فهم : الميرالاي سليم بك عوني قومندان الآلاي الاول والسيد بك عبدالخالق قومندان الآلاي الثاني وحسين بك فهمي قومندان الآلاي الثالث ورجب بك صديق قومندان الآلاي الرابع ما عدا السناجق الباشبوزق . واما حسين بك مظهر قومندان الآلاي الثاني السابق فقد رُقّي الى رتبة لواء ورافق الجيش قومنداناً على الآلايات الاربعة واما ابرهيم بك حيدر قومندان الآلاي الثالث السابق فقد رُقّي ايضاً الى رتبة لواء وسمي قومنداناً على خط النار في الخرطوم .

وصحب هكس من الضباط الافرنج الكولونيل فركوهار رئيس اركان حرب و ٨ ضباط اركان حرب وسكرتيره الخاص ميخائيل افندي ناصيف اللبناني شقيق سليمان بك ناصيف من كبار موظفي الحربية بمصر وجورجي بك الحكيم الرومي ومكاتبو التيمس والدالي نيوز والغرافيك وكلهم من الانكليز. وصحبه من الخبراء صالح غانم وابراهيم محجوب وأوّا. ومن الملكية الوطنيين الذين استصحبهم من الخرطوم ليأمن شرّهم ويوليهم امر كردوفان في حالة النصر : قناوي بك ابو عموري البحّاري الشهير الذي تقدم ذكره في تاريخ الزبير وبساطي بك المحسي باشكاتب الخرطوم وحمد بك التلب الجعلي رئيس مجلس الاستئناف ومحمود بك احمداني الكنزي مدير الخرطوم وعبد الرحمن بك بان النقا الجعلي من عمد التجار . وأبقى الكولونيل ده كوتلوجن من اركان حربه في النيل بين الخرطوم وفاشودة لمنع مهاجرة الناس من الجزيرة الى المهدي .

وفي حال وصوله إلى الدويم اجتمع بعلاء الدين باشا ونظرا في طريق الحملة. فللابيّض من الدويم طريقان شهيّرتان : طريق بارة طولها ١٧٦ ميلا وماؤها قليل وتصل الابيض من الشمال. وطريق شات طولها ٢٦١ ميلا وماؤها كثير وتصل الابيض من الجنوب . فقال هكس بطريق بارة لأنها أقصر وقال علاء الدين بطريق شات لأن ماءها أغزر يكفي الحملة فقرّ الرأي على قول علاء الدين. وسارت الحملة من الدويم في ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٨٣ فمرّت بشات وتركت فيها حامية صغيرة لحفظ خط الاتصال مع النيل. ثم تقدمت الى آبار زريقة وقبل الوصول اليها وقع اختلاف شديد بين هكس وعلاء الدين في شأن خط الاتصال فأراد هكس ان يجعل في كل منهل حامية عسكرية مؤلفة من ٢٠٠ رجل لحفظ خط الاتصال مع النيل وقد ترك حامية في شات لهذه الغاية فاعترضه علاء الدين وقال ان هذه الحاميات لا تستطيع حفظ نفسها فضلاً عن خط الاتصال اذ البلاد كلها قد سلمت للمهدي فلا نترك حامية في منهل حتى تحيط بها العربان وتأخذها عنوة فنكون بذلك قد أهلكنا جانباً من رجالنا

ولم نستفد شيئاً . فعقد هكس باشا مجلساً من الضباط الافرنج والمصريين للحكم في الامر فأجمعوا على قول علاء الدين وسار الجيش من ذلك الحين كأنه جسم واحد متأهب للقاء العدو في كل لحظة . وكان سيره بهيئة مربع عظيم في مقدمته الدليلان فالطلائع فالضباط العظام فأركان الحرب ثم المربع وهو مؤلف من المشاة في وسطه الطوبجية وفي ساقته الفرسان ثم الجمال والاحمال ثم الفرسان الباشبوزق وهم وراء الكل .

وكان المهدي لا يغفل طرفة عين عن مراقبة حركات الجيش فلما أتاه خبر قيام هكس من الدويم أمر اصحابه فخرجوا من الابيض الى ساحة في شرقي المدينة ثم خرج بنفسه ونزل تحت شجرة شهيرة من شجر التبلدي وانتدب اربعة من كبار قواده وهم : محمد عثمان الشهير بأبي قرجة وشيخ فضلو احمد وعبد الحليم مساعد وعمر ود الياس باشا ومعهم نحو ٣٠٠٠ رجل وأمرهم بالتوجه الى حيث تكون الحملة وتعقّب حركاتها وعدم محاربتها في واقعة بل ان يناوشوها القتال ويمنعوا أهل البلاد من الانضمام اليها ويوافوه بالاخبار تباعاً فصدعوا بالامر ووافوا الحملة بالقرب من العقيلة في ١١ اكتوبر فلازموها من ذلك الوقت وصاروا اذا سارت ساروا وراءها وطمروا الآبار بعدها واذا وقفت وقفوا بعيداً عنها وناوشوها القتال وما تطرف احد منها إلا قتلوه حتى ان الجمال لم تستطع المرعى لانحصارها في المربع فجاعت وأكلت قش رحالها وخارت قواها فمات كثير منها وبدأ اللغط في الجند من ذلك الوقت فأيقنوا بالخذلان وتوقعوا العواقب الوخيمة وصاروا كلما توغلوا في البلاد زاد خوفهم ولغطهم حتى رأوا انهم سائرون حتماً الى حتفهم وما زالوا كذلك حتى وصلوا الى منهل الرهد في ٢٠ اوكتوبر سنة ١٨٨٣ م فنزلوا في جنوبيه ونزل أمراء الدراويش قبالتهم في شماليه وذهب احدهم عبدالحليم الى الابيض فأخبر المهدي بما كان من أمرهم .

وفرّ من الحملة قبل وصولها الى الرهد بقليل خادم مكاتب الدالي نيوز وهو صف ضابط الماني اسمه كلوتس فذهب الى المهدي في الابيض وأخبره ان الحملة

في يأس وخوف شديد فأيقن المهدي انه غالب لا محالة وأمر كلوتس باعتناق الاسلام ففعل فسماه مصطفى وبقي في الأسر الى ان حاول النجاة من القلابات فمات في الطريق .

وأقام هكس في الرهد ستة أيام ينظر في طريق الحملة الى الابيض ولم يكن للأبيض من الرهد إلا طريقان : طريق الملبس وطريق البركة فقرّ الرأي على اختيار طريق البركة لأنهـا أغزر ماءً فسار بالجيش قاصداً المنهل المذكور وأرسل في الطريق احـد الخبراء ومعه عبد الى الابيض للاستعلام عن قوة المهدي ووجهته ووصل بالجيش الى منهل علوبه الاثنين في ٢٩ اوكتوبر فوجد فيه ماءً غزيراً فأقرّ على البقاء فيه الى ان يعود الخبير بخبر المهدي . فلما كان يوم الخميس ١ نوفمبر عاد العبد وحده ومعه ١٥٠٠ نسخة من كتاب كتبه المهدي الى هكس وجنوده وهذه صورته :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمـد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمـد وآله مع التسليم .

« وبعد فمن عبد ربه الفقير المعتصم بمولاه محمـد المهدي بن عبد الله الى من يسمع من اهل الجردة ممن له عقل فانه لا يخفى على ذي عقل ان الأمر بيد الله لا يشاركه في ذلـك بنادق ولا مدافع ولا صواريخ ولا عصمة لأحـد إلا من عصمه الله تعالى فاذا فهمتم ذلـك فاعلموا ان الله واحد فلا تغتروا بأسلحتكم ولا بجنودكم التي تريدون ان تقاتلوا بهـا جنود الله فان لا قوة لشيء دون الله وان قلتم ان مهديتنا مكذوبة فاعلموا ان الكذب انما يصدر ممن يحب الدنيـا ويخاف المخلوق ويستعجز قوّة الله فاذا فهمتم ذلك فلا تغرّنكم اقوال علمائكم فان الترك الذين قتلتهم شكوا للحق عزّ وجل وقالوا يا إلهنا ومولانا ان المهدي قتلنا من غير انذار فأقول انذركم يا رب فلم يسمعوا وحضر على ذلك شاهداً سيد الوجود ﷺ وقال لهم الامام المهدي أنذرتكم فلم تسمعوا له وسمعتم قول علمائكم فذنبكم عليكم فأقبـل بعضهم على بعض يتلاومون فقـال الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين وقال الذين استكبروا للذين

استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى اذ جاءكم بل كنتم مجرمين فان كان لكم نور تؤمنون بالله ورسوله والدار الآخرة وتصدقوا بمهديتنا وتخرجوا الينا مسلمين ومن سلّم يسلم وان أبيتم إلا الجحود والاغترار بالمدافع والبارود فأنتم مقتولون كما أخبر سيد الوجود وأسوتكم بمن سبقكم من الجنود والسلام » .

فلما أطلع هكس على الكتاب مزّقه وأحرق نسخه كلها . وسأل العبـد عن الخبير فقال ان المهدي أمر بقتله وهو يستعد لمقابلة الجيش بطريق البركة .

واقعة شيكان في ٥ نوفمبر سنة ١٨٨٣ م : ولما كان يوم الخميس ١ نوفمبر وهو يوم وصول العبد الى علوبه استعمل المهدي على الابيض احد أقاربه عبدالله ود الصمد وخرج بجيش ينيف على ٥٠ ألفاً قاصداً البركة فسار حتى نزل بمنهل فرتنقول وهو منهل قليل الميـاه جداً حتى ان المسافرين كانوا اذا نزلوا بـه لا يكاد يكفي العشرين منهم فضلاً عن دوابهم قالوا فلما نزل المهدي به ورأى قلة الماء صفر فخرج منه ماء غزير أروى تلك الجيوش وفاض حتى سقوا رواحلهم وملأوا قربهم !!!

ثم بلغ المهدي وهو بالمنهل المذكور ان الجيش قاصد منهل البركة وجـاد السير ليسبقه اليه فأمر في الحـال محمود بن عبد القادر من أقاربه وضوء الدين ابن عبدالله رئيس النواب ومن معهما من اهل رايتها فجدوا السير حتى وصلوا المنهل المذكور الجمعة في ٢ نوفمبر ثم ارتحل المهدي بباقي اصحابه صبيحة يوم السبت ٣ نوفمبر من منهل فرتنقول وفي ظهر ذلك اليوم نزل بمنهل البركة .

وكان هكس لما علم من العبد ان المهدي قاصد البركة أرسل اليها رسلاً من علوبه لتحقيق الخبر فعادوا وأخبروا ان الدراويش قد احتلوها فجمع هكس اذ ذاك الضباط والخبراء فعدلوا عن طريق البركة وأقروا على طريق الملبس التي تمر بشيكان فخرجوا من علوبه فجر السبت في ٣ نوفمبر وساروا عشرة أميال ثم وقفوا وزربوا زريبة متينة وباتوا فيهـا الى صباح الاحد وبات الدراويش المطاردون لهم بالقرب منهم .

اما المهدي فانه عند وصوله الى البركة ظهر يوم السبت كما مرّ أتاه ابراهيم الحاج الشهير بالترجماوي ومعه جماعة وقالوا له : يا سيدي يقول الناس ان الترك عدلوا عن طريق البركة وقصدوا مدينة الابيض ليستأصلوا من فيها ويحوزوا النساء والذرية حتى شاع الخبر في الجيش وأرجف الناس بذلك فلنتوجه الى الابيض قبل الترك . فالتفت المهدي وقال ايها الناس أنصتوا ثم بصق في كفه اليسرى وقال أي شيء هذا ؟ قالوا بصاق يا سيدي ثم طرحه على الارض فشربته في الحال فقال للناس : هل ترون لهذا البصاق أثراً ؟ فقالوا له لا فقال نحن كالارض والترك كالبصاق . ثم قال : اذا طار طائر فأين ينزل ؟ فقالوا له : على الارض فقال لهم : ان الترك كالطائر ونحن كالارض ايها الناس اثبتوا واطمئنوا ونزلوا رواحلكم واستريحوا فان الترك لا قدرة لهم مع قدرة الله ثم قال: غداً يوم الاحد نتوجه اليهم وفي صبيحة الاثنين بعد ان نأمركم بمحاربتهم اذا تأخر أحدكم لاصلاح نعله لم يدركهم أحياء . ثم جمع المهدي جميع الفرسان وأهل الاسلحة النارية فضمهم الى ابراهيم الترجماوي المذكور وأرسلهم نجدة للسرية لمطاردة الجيش في عشية ذلك اليوم (السبت) فوصلوها صباح الاحد في ٤ نوفمبر فوجدوا اخوانهم محيطين بالجيش من كل جانب إحاطة السوار بالمعصم فزادوا في حصره . وفي هذا اليوم قبيل الصبح ارتحل المهدي بكل جيوشه من البركة قاصداً الجيش ونزل في منهل شيكان عند الضحى ويسمى هذا المنهل ايضاً بمنهل أم مصارين فلما نزل المهدي به قال له بعض اصحابه : يا سيدي هذا المحل يدعى بمنهل أم مصارين فقال ان مصارين الترك تصب فيه .

وكان هكس لما أصبح صباح الاحد المذكور قد خرج من الزريبة التي كان بائتاً فيها واستطرد السير نحو منهل شيكان وهو لا يدري ان المهدي قد احتله بجيوشه فما سار ساعة حتى خرج من جيش المهدي حمدان ابو عنجه وعبد الله ود النور وفوزي احد كتاب المهدي بمن معهم من الانصار المسلحين بالاسلحة النارية وبينهم عدد وافر من الفرسان وحملوا حملة صادقة على ساقة الجيش حيث المهمات والذخائر فاختلطوا بالعساكر فدارت عساكر المقدمة عليهم وهزمتهم

ولكنهم تمكنوا من أخذ بعض الخيول والجمال والازواد وقد قتل منهم في تلك الهجمة اربعة بينهم فوزي كاتب المهدي وجرح عبد الله ود النور وقتل من الجيش رجب بك قومندان الآلاي الرابع ونفر من العساكر . وزرب الجيش في محل الواقعة زريبة من شوك وأقام فيها قيل ولما رأى اصحاب المهدي ما حلّ بالجيش من التزلزل والاضطراب رغبوا من المهدي ان يأذن لهم في الحملة عليهم مرة واحدة في ذلك اليوم فقال لهم : أخبرني سيد الوجود ان الترك لا يموتون كلهم اليوم وانما هلاكهم يكون غداً الاثنين . وبقي اصحاب الاسلحة النارية منهم محيطين بالجيش يرمونه بالرصاص بقية ذلك اليوم وليلة الاثنين الى الصباح فحملوه خسارة تذكر وكان في جملة من قتلوه جورجي بك الحكيم . فرأى هكس ان الاقامة في تلك الزريبة لا تجدي نفعاً ولم يكن يدري أي سبيل يتبع فجمع مجلساً من الضباط العظام والملكية الذين صحبوه فلم يقروا على رأي وكثر اللغط بين الجند وتسلط الرعب على قلوبهم واشتد بهم العطش لبعدهم عن الماء فأيقنوا بالهلاك . فعوّل هكس اذ ذاك على المسير تحت رحمة الله نحو منهل شيكان. وقيل ان الخبراء الذين كانوا معه كان بينهم وبين المهدي مواطأة سرية فقادوا الجيش في الطريق التي دلهم عليها المهدي .

فلما كان ضحى الاثنين ٥ نوفمبر سنة ١٨٨٣ خرج هكس بجيشه من الزريبة بثلاثة مربعات على شكل مثلث متساوي الاضلاع في كل زاوية مربع وبين المربع الواحد والآخر ٣٠٠ ياردة وفي وسط كل مربع مهماته وذخائره . وسار هكس وأركان حربه في مقدمة الجيش يتبعه بعض الطوبجية بأربعة مدافع ومن وراء المدافع المربع الاول ثم المربعان الآخران واحد الى اليمين وواحد الى اليسار وكان السواري يحمون المؤخرة والجوانب المكشوفة من المربعات . وما سار الجيش على هذا الترتيب نصف ساعة حتى دخل وادياً مفتوحاً شائكاً وعلى كل من جانبيه غابة كثيفة فجعل المهدي معظم جيشه في تينك الغابتين عن يمين الجيش وشماله وجعل الباقي في وسط الوادي في طريق الجيش وعليهم عبد الرحمن النجومي وكان محمد ابو قرجه ومن معه من الانصار

لم يزالوا متتبعين الجيش من الوراء فأصبح الجيش مكتنفاً بجيوش الدراويش من الجهات الاربع . وكان المهدي لما رأى الجيش من بعيد جمع أمراءه لآخر مرة وصلى أمامهم ثم رفع سيفه ونادى الله أكبر عليهم ثلاثاً ثم قال احملوا عليهم ولا تخشوا نيرانهم فان أرواحهم مزملة ونيرانهم لا فعل لها وانكم لظافرون عليهم باذن الله فما دخل الجيش ذلك الوادي حتى حملوا عليه حملة واحدة من كل جهة فاخترقوا صفوفه وأوقعوا الفشل في العساكر وأخذوا يقتلونهم طعناً بالرماح وضرباً بالسيوف واستفرسوا في القتال فلم يمض ساعة حتى قتل الجيش برمته وفيهم هكس وأركان حربه وعلاء الدين باشا وجميع الضباط المصريين والافرنج وقد تراكمت جثث القتلى في محل الواقعة كالتلال ولم ينج من الجيش كله إلا ملازمان (وهما محمد افندي صلّي من المنصورة وقد فرّ بعد ذلك من الخرطوم الى مصر واحمد افندي عزمي وقد مات في كردوفان) ونحو ثلاثماية جندي اختبأوا بين الأشجار ودواب الحملة والقتلى فوقعوا كلهم في الأسر . وعند نهاية الواقعة قطعوا رأس هكس وحملوه الى المهدي . وقد قاتل هكس وأركان حربه وجميع رجال الجيش ما استطاعوا الى القتال سبيلاً وماتوا مشرفين موت الابطال بعد ان قتلوا من الدراويش نحو مئتي رجل منهم ابو أميّة والطاهر وغيرهما من أقارب المهدي وضوء الدين بن عبد الله رئيس النواب وهو من اصحاب المهدي السابقين ومحمد وعبد الرحمن ابنا النصري وعثمان ابن عم الخليفة محمد شريف وعبد الرحيم احد المادحين للمهدي وغيرهم فنقلوا الى محل المهدي فأمر بدفنهم بما عليهم من الثياب . ثم أمر المهدي فجمعت الغنائم ونقلت الى البركة فكان منها كثير من الأسلحة والجبخانة والمدافع والميرة . وأقام المهدي بشيكان الى يوم الاربعاء ثالث يوم الواقعة ثم خرج منها عائداً الى منهل البركة فأقام فيه بضعة عشر يوماً وهناك فرّق الغنايم بين اصحابه بعد اخراج الخمس منها لنفسه .

ثم عاد الى الابيض بالمدافع والذخائر والأموال فدخلها باحتفال شائق وكتب الى عماله في الجهات مبشراً اياهم بالنصر الذي أتاه الله عن يده في قتلة

هكس وهذه صورة ما كتبه الى عثمان دقنه في ١٠ ربيع اول سنة ١٣٠١ هـ ٩ يناير سنة ١٨٨٤ م :

« ومن خصوص الجردة المصرية التي بلغكم أنها حضرت الينا من طريق الخرطوم وصلتنا وحصل الظفر عليها بأمر الله تعالى وقتلناها عن آخرها شر قتلة بما فيها من الرؤوس الكبار احدهم علاء الدين الحكمدار والثاني هكس النصراني والثالث حسن وغيرهم من الضباط والآن جميع مدافعهم وأسلحتهم بيدنا وهي شيء كثير جداً وكان هلاك المذكورين في يوم الاثنين ٤ محرم سنة ١٣٠١ هـ بجهة علوبه (شيكان) وعددهم كما قيل ستة وثلاثون ألفاً . فانقرضوا في أقل من ساعة واشتعلت النار في أجسامهم بأمر الله السماوي هذا وأفيدونا بأحوالكم والسلام » اه .

اخلاء السودان : وكان هذا الانخذال العظيم الذي أصاب الحكومة في شيكان قد قضى على نفوذها في السودان القضاء المبرم فان عقلاء أهل الجزيرة وغالب اهل الخرطوم والسودان كانوا قبل هذه الواقعة يترددون في اتباع محمد احمد وينتظرون حربه مع هكس فلما علموا بما أصاب هكس وجيشه ورأوا عجز الحكومة عن اذلاله انقطع كل رجاء لهم في الحكومة ووفدوا على المهدي بالابيض أفواجاً يبايعونه وفي جملتهم الملك آدم أم دباله ملك جبل تقلي . وانتشر خبر المهدي في العالم الاسلامي كله فجاءته الوفود من الحجاز والهند وتونس ومراكش لزيارته وتحقيق دعوته .

أما الحكومة في الخرطوم فانها عند سماعها خبر هلاك هكس اضطربت وارتاعت وأرسلت بالخبر تلغرافياً الى مصر وبعثت وابوراتها في النيل الابيض فانتشلت عساكرها من فاشودة والكوة وشات والدويم الى الخرطوم وشرعت في زيادة تحصين الخرطوم .

وأما الحكومة في مصر فقد رأت انها لا تستطيع سحق المهدي واعادة النظام الى السودان بعد الآن إلا بجيش جرار من الجنود النظامية المجربة ولم يكن هذا الجيش متوفرا لديها لا سيا بعد الذي صارت اليه مصر بسبب الثورة

العرابية من الضعف وتضعضع الاحوال . وكانت الحكومة الانكليزية قد أرسلت الكولونيل ستيورت من ضباطها العظام الى الخرطوم في أواخر سنة ١٨٨٢م فدرس احوال السودان درساً دقيقاً وأرسل لها تقرير بتاريخ ٩ فبراير سنة ١٨٨٣ م نظر فيه ملياً في حالة السودان المالية والادارية وبيّن وجوه الخلل وطرقَ الاصلاح وعجز المصريين عن حكم السودان وحدهم . فأقرّت الحكومة اذ ذاك على اخلاء السودان واسترجاع عساكرها من الحاميات كما سيجيء .

ثم ان المهدي لم يقتصر على بث الرسل والكتب الى الجهات لإذاعة النصر الذي ناله في شيكان بل أرسل السرايا الى الجهات كدارفور وبحر الغزال وبربر ودنقلة وغيرها لاخضاع الحاميات المصرية فيها واحتلال البلاد باسمه وأرسل الى كبراء المشايخ في جزيرة سنار لحصر الخرطوم وأخذ يستعد للزحف بنفسه عليها. فلنبدأ الآن ببيان ما كان من الثورة في تلك الجهات قبل زحف المهدي على الخرطوم .

الفصل التاسع

في

وقائع الثورة في دارفور

سنة ٢ — ١٨٨٤ م

كان آخر عهدنا بدارفور إخماد ثورة الامير هارون على يد سلاطين والنور عنقرة وكان سلاطين اذ ذاك مديراً على داره والنور عنقرة مديراً على كبكبية والمدير العام على الفاشر مساداليه بك والوالي على السودان غوردون باشا فلما تولى رؤوف باشا السودان عزل مساداليه بك فقام على مديرية الفاشر الميرالاي علي بك شريف المار ذكره في حصار الابيّض الى ان سمي سلاطين باشا مديراً عاماً على دارفور فوصل الفاشر في ٢٠ ابريل سنة ١٨٨١ وتولى زمام الاعمال فعزل النور بك عنقرة عن كبكبية لشكاوى وُجّهت عليه من ضباطها وأرسله الى كردوفان فكان من أمره فيها ما قدمناه فبقي البكباشي آدم افندي عامر السوداني قومنداناً على الحامية وسمي محمد بك زقل من أقارب المهدي مديراً على داره مكان سلاطين . ثم لم تكن إلا هنيهة من الزمن حتى ظهرت الثورة المهدية وامتدت شعلتها الى دارفور فكان لسلاطين فيها من الشأن ما فصّله في كتابه « السيف والنار في السودان » أحسن تفصيل .

ثورة الشيخ مادبو : وكان أول من أوقد نار الثورة في دارفور الشيخ مادبو أحد مشايخ الرزيقات المار ذكره هاجر الى المهدي في قدير فحضر معه واقعة الشلالي وعاد منه أميراً على دارفور فرفع راية المهدية فيها فاجتمع عليه خلق كثير وكان في شكا حامية عسكرية عليها يوسف افندي منصور قومنداناً فنازل الحامية فخرج عليه نفر منها فقتلهم وتقوّى بسلاحهم وذلك في ٢٠ يوليو سنة ١٨٨٢ .

واقعة أم ورَيقات : فلما اتصل الخبر بسلاطين أسرع الى داره فأخذ بعض عساكرها وقصد مادبو حتى وصل منهل الضعين فبلغه انه نازل بالقرب منه فعمل زريبة من شوك وتحصن فيها فعلم به مادبو وكان بينه وبين سلاطين مودة قبل المهدية فكتب اليه ينصحه بالتسليم ويقول: « ان البلاد كلها أصبحت للمهدي والأجدر بك ان تسلم فتسلم وإلا فلا بدّ لي من محاربتك وإن كنت صديقي » فلم يجبه سلاطين على كتابه بل قال للرسول اذهب الى مادبو وأخبره أن ليس بيني وبينه إلا السيف ثم تجسس جيش مادبو فوجده قوياً لا طاقة له بحربه لقلة رجاله فرجع الى داره لأخذ الأهبة لنفسه. ورجع اليها ايضاً يوسف منصور فارّاً من شكا فوبخه سلاطين لتركه حاميته بلا اذن . وجمع من داره وباديتها ٢١٥٠ من العساكر النظامية والبازنجر و ٧٠٠ من العربان المتحابة كالبيقو والبرتاث والبرقد و٤٠٠ فارس من الزغاوة والمسيرية والداجو والمعالية ومدفعاً جبلياً وعاد قاصداً مادبو وكان مادبو قد كمن له في أرض شائكة موحلة على طريق شكا تعرف « بأم وريقات » فلما دنا من الكين فاجأه بالهجوم عليه وكان سلاطين قد جعل عسكره على شكل مربع ولكن كان أكثره من البازنجر وعربان البادية فلم يحفظوا النظام الذي أُمروا به فدخل عربان مادبو في وسطهم وفتكوا بهم فتكاً ذريعاً حتى لم يبقَ منهم سوى ٩٠٠ رجل من نظامية وبازنجر وذلك في أقل من نصف ساعة وكانت الواقعة يوم سبت في أواخر اكتوبر سنة ١٨٨٢ . وقد أُصيب سلاطين برصاصة في بنصر يده اليمنى فذهبت بها وجرح برصاصة في فخذه فجمع بقية جيشه وكان بينهم

كثير من الجرحى فتحصن بهم في تل قريب من محل الواقعة الى ان تماثل الجرحى فرجع بهم الى داره كل ذلك ومادبو لا يزال يهاجمه ويطارده على التل وفي الطريق وهو يصدّه ويدفع غاراته حتى دخل داره .

عصيان حامية دارة : وكان قد ترك في دارة حامية مؤلفة من ٤٠٠ من العساكر المنظمة و ٢٥٠ من البازنجر و ٣٠ فارساً و ٧ مدافع فوجدهم قد تغيرت حالهم ومالوا الى العصيان وكان قد بلغهم خبر ثورة عرابي في مصر واخراج الخديوي منها لمصادقته النصارى فأرادوا ان يفعلوا مثل ذلك بسلاطين خصوصاً بعد انتصار مادبو عليه . ثم لم يكن إلا القليل حتى جاء خبر سقوط الابيض فسرى روح الثورة في جميع بلاد دارفور وازداد عساكر الحامية عتواً ولم يمنعهم عن المجاهرة بالثورة والفتك بسلاطين إلا ما بلغهم بعد قليل من عزم الحكومة على ارسال جيش جرار لسحق المهدي في كردوفان ولكن كان بينهم جماعة من اهل دارفور فاتفقوا على الفرار الى دود بنقه الذي قام في جبل مرّة بعد الامير هارون كما مرّ وجاهروا بالعصيان قائلين « اننا لا نرضى ان يحكمنا نصراني » فأمر سلاطين بمحاكمتهم بمجلس عسكري فحكم المجلس بقتلهم وصدقه سلاطين فقتلوا .

اسلام سلاطين : ومع ذلك لم يزدد العساكر إلا عتوّاً ونفوراً وقد أثرت ثورة عرابي تأثيراً ثابتاً في أذهانهم وأيقنوا انهم انما خذلوا في واقعة ام وريقات لأن رئيسهم نصراني فرأى سلاطين أنه لا يمكن استرجاع سلطته عليهم وهو نصراني فجمعهم ووقف بينهم خطيباً وقال « اعلموا اني مسلم مثلكم وأشهد ان لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله» ففرح العساكر باسلامه وعادوا الى طاعته.

بعثة زُقل الى المهدي: ولكن اهل دارفور في الخارج لم يزالوا على العصيان وتيقن سلاطين انه لا يمكن ودّهم الى الطاعة والولاء إلا اذا كُسرت شوكة المهدي في كردوفان وكان قد بلغه خبر حملة هكس فأصبحت آماله كلها معلقة بها فأحبّ مخاطبة هكس ليعلمه بحاله ويستحثه على انقاذه ولكن كان يخشى

شرّ محمد خالد زقل مدير دارة لأنه من أقارب المهدي وكان بينه وبين المهدي مخاطبات سرية فأراد سلاطين التخلص منه من جهة والاحتياط للمستقبل من جهة ثانية فخلا به وأخبره بأنه عالم بعلاقته مع المهدي وقال له اني مرسلك الى الابيض لمنع المهدي من ارسال جيش الى دارفور او تحريض اهلها على الثورة فاذا غلبه هكس واسترد منه البلاد فأنا شفيعك عند الحكومة والا فالبلاد من نفسها تسلم للمهدي وخير له ان يأخذها عامرة من ان يأخذها خربة وفي الوقت نفسه اعطيك كتاباً ترسله الى هكس ليعلم بحالنا ويعجل في انقاذنا » فسرّ زقل بهذا الرأي واراد سلاطين ان يجعله برأي اهل الحامية ليقيّدهم به فعقد مجلساً من الضباط والأعيان وعرضه عليهم فصدقوه وكتبوا كتاباً الى المهدي يعدونه بالتسليم وكتاباً الى هكس يستعجلونه لنجدتهم فحمل زقل الكتابين وذهب بهما الى المهدي في الابيض . فلما رأى سطوة المهدي والعزّ الذي صار اليه في كردوفان نبذ سرّ سلاطين ظهرياً واتحد مع المهدي قلباً وقالباً وأرسل سراً الى احد اصدقائه في داره يخبره بما رأى من سطوة المهدي ويقول له قم واحضر بعائلتي الى الابيض مستعيناً بمادبو فلما علم سلاطين بذلك حبس عائلة زقل في منزلها واستصفى أمواله وألقى القبض على بعض اقاربه في داره وزجهم في السجن .

واقعة كرشو : ولنرجع الآن الى مادبو فانه بعد دخول سلاطين في داره نزل في كرشو على يوم ونصف يوم جنوبيها فخرج عليه سلاطين ببعض عساكره وباغتته الهجوم فهزمه وعاد الى داره بكثير من الأسلاب والغنائم .

واقعة البوّيرة : وعاد مادبو فجمع جموعه في مكان يقال له البويرة في دار قمر فجرد عليه سلاطين ٤٥٠ من الجهادية و ١٥٠ من البازنجر وفتك به وأوقع الفشل في جيشه ففرّ حافي القدم عاري الرأس على جواد بلا سرج وغنم سلاطين جميع أمتعته وفيها نحاسه فعظم على مادبو فقد نحاسه لأن ذلك عار عليه فجمع العربان من جديد وتقدم لمناوأة سلاطين في داره واسترجاع نحاسه .

عقد الصلح : ولم يكن سلاطين يقوى عليه لقلة رجاله ولا كان من الممكن الخروج بجميع العساكر وترك داره بلا حامية فالتجأ الى الحيلة وجمع مشايخ العرب تحت شجرة خارج داره وعقد معهم صلحاً وكتب بمعرفتهم كتاباً الى المهدي يسأله ارسال رجل من قبله ليسلمه البلاد قائلاً انه لا يستطيع ان يسلمها الى العرب الذين حاربهم مخافة ان ينتقموا منه .

وفي هذه الاثناء جاء سلاطين ورقة صغيرة من علاء الدين باشا يقول فيها « ان سمو الخديوي قد سماك قومنداناً عاماً على العساكر في دارفور وان من عزم الحكومة ارسال قوة كبيرة لسحق المهدي في كردوفان وتسكين الثورة » فأرسل صورة منها الى الفاشر وكبكبية فقرئت للناس جهاراً وأُطلقت المدافع عند قراءتها. وكانت الحكومة قد أرسلت اليه مراراً بتسمية احد أمراء دارفور سلطاناً على البلاد وحشد عساكر الحاميات كلها في الفاشر والعودة بها الى الخرطوم ولكن هذه الرسالة لم تصله .

تسليم دارة في ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٨٣ م :

ثم لم يكن إلا القليل حتى كانت واقعة شيكان فاهتزت لها دارفور وأرسل المهدي محمد خالد زقل عاملا عاماً على دارفور بجيش عظيم فجاءها بطريق أم شنقه وكان فيها حامية صغيرة فسلمت له . ثم سار منها قاصداً دارة فنزل في حلة شعيريّة مسيرة يوم من دارة وكتب الى سلاطين يدعوه الى التسليم فحضر اليه مسلماً وذلك في ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٨٣ فأكرمه وذهب به الى دارة فسلمت اليه . وكان فيها ٥١٠ من العساكر النظامية والباشبوزق وشيء قليل من الذخيرة . وانتشر جيش زقل في المدينة يجمعون الغنائم فجرّدوا أهل الحامية وعذّبوا من أخفوا أموالهم او ظنوا انهم أخفوها وحمّلوهم ما لا يطاق. وأخبرني من أثق به وذكره فوزي باشا في كتابه « ان سلاطين باشا لما رأى ما أتاه زقل من تعذيب المصريين طار صوابه وذهب اليه في دارة وقال له جهاراً : « لو علمت انكم تعاملون ضباطي هذه المعاملة لصليتكم حرباً يشيب

لهولها الطفل وسمحت بموت هؤلاء الرجال في ساحة الحرب وأنا على يقين من ان الواحد منهم لا يموت الا بعد ان يقتل عشرة منكم » فأخذ زقل يلاطفه وأوصى بتخفيف العذاب عن البعض وأطلق البعض » .

تسليم كبكبية : وكان زقل قد كتب من شعيرية الى السيد بك جمعة في الفاشر والى آدم عامر في كبكبية يدعوهما الى التسليم وطلب من سلاطين ان ينصحهما بذلك ففعل فأرسل آدم عامر مفاتيح الخزينة والشونة والجبخانة علامة على التسليم ثم حضر مسلماً بمن معه من العساكر .

تسليم الفاشر في ١٤ يناير سنة ١٨٨٤ م :

وأما السيد بك جمعة فانه رفض التسليم ودافع عن حاميته أياماً حتى اضطر الى التسليم عطشاً وقد رأيته سنة ١٨٩٨ بعد واقعة أم درمان وسألته عن كيفية دفاعه وتسليمه الى زقل فقال: « لما ذهب سلاطين من الفاشر لتأديب مادبو عند أول ظهور الثورة بقيت أنا على الفاشر فقام رجل في كريو على ست ساعات منا يقال له « ابو ود جودة فات » البرناوي وجمع جموعه وأشهر العصيان فجرّدت عليه ونكلت به وفرقت جموعه . ولكن لم يكن إلا القليل حتى هبّ للثورة جلُّ أهل الدار من حضر وبادية فاجتمعوا على الملك حسب الله ملك زغاوة والسلطان جدُّوه سلطان ميمة والشيخ حسب الله من الماهرية وكوع النمر من الزيادية ونزلوا في وادي بيره على ساعتين جنوبي الفاشر يريدون حصرنا فخرجت عليهم بمعظم العساكر وضربتهم ضرباً شديداً وشتّتُ شملهم ثم عادوا فتجمعوا على السلطان جدُّوه وحصروا الفاشر من كل الجهات وأحرقوا المنازل المجاورة للاستحكام فصليتهم ناراً حامية من المدافع والبنادق ورددتهم على أعقابهم خاسرين . ومن ذلك الحين لم يعد أحد يجسر على مهاجمتنا حتى حضر محمد خالد زقل وطلب منا التسليم فلم نرضَ به ولا صدقنا ما قاله لنا من تسليم سلاطين اليه وصممنا على الحرب وكتبنا الى عساكر كبكبية للانضمام الينا ولكن خرج منا عمر أغا ود ترحو من سناجق الشايقية

مسلماً ولم نكن نعلم بما كان من عساكر كبكبية فخفنا ان عمر ترحو يخبر زقل بما كتبناه اليهم فيقطع الطريق عليهم ويصدهم عن الوصول الينا فكتبنا الى زقل نخادعه بأننا مسلمون ثم حضر فقابلناه بالرفض واشتعل بيننا قتال شديد دام ٤٨ ساعة أطلقنا فيها الف قنبلة عدا ما أطلقنا من الرصاص فهزمناه الى وادي بيره حيث أقام ١٨ يوماً حتى أتاه المدد من دارة وكان عساكر كبكبية قد انضموا اليه فأعاد الكرة علينا وحصرنا في الاستحكام وكان استحكاماً منيعاً وعندنا من الذرة ما ينيف على ٦ آلاف اردب ولكن أعوزنا الماء وقد كنا في بادىء الامر نستقي الماء من آبار في الخور خارج الاستحكام فلما حضر زقل لحصرنا هذه المرة سدّ الآبار فشرعنا في حفر بئر داخل الاستحكام أوصلناها الى عمق ٦٠ قامة ولم نظفر بالماء لأن الاستحكام قائم على تل رملي فعطشنا ودام القتال ثمانية ايام متوالية حتى صار العساكر يموتون عطشاً فعقدت اذ ذاك مجلساً من ضباط الحامية للنظر في رأي يكون فيه نجاتنا فلم نرَ بدّاً من التسليم فكتبنا بذلك كتاباً الى زقل يوم الاحد في ١٤ ربيع الاول سنة ١٣٠١ هـ ١٣ يناير سنة ١٨٨٤ م .

وفي اليوم التالي الاثنين فتحنا الابواب وكان في الحامية اذ ذاك ٥٠٠ رجل من الجهادية و ١٠٠ من الطوبجية على ١٢ مدفعاً فوق ستة أبراج ونحو ٦٠ رجلاً من الملكية فدخل الدراويش علينا وصادرونا في أموالنا وأمتعتنا وقد استنطقوا جميع الضباط والسناجق والأعيان ليدلوهم على أموالهم ومن أنكر عذبوه حتى اعترف او مات فضربوا الصاغ حمادة افندي من ضباط الطوبجية حتى فاضت روحه . وقبضوا على سعيد أغا الفولي وابراهيم أغا بُرل ولما لم يعترفا بأموالهما شرعوا في ضربهما بالسياط فطلبا مهلة ريثما يذهبان ويحضران المال فذهب كل منهما الى منزله وانتحر » .

ووزع زقل العساكر على العربان وأرسل سلاطين باشا الى المهدي في كردوفان فأدركه في الرهد فبايعه فسماه عبد القادر سلاطين وأمره بلزوم باب التمايشي والائتمار بأمره ثم ارسل بعده السيد بك جمعة فأدركه في الطريق غازياً الخرطوم.

تسليم دود بنقة الى زقل : هــذا وكان السلطان دود بنقة لا يزال مقيماً بأتباعه في جبل مرّة فكتب اليـه زقل يدعوه الى التسليم فأبى فجرّد عليه سرية بقيادة آدم عامر مدير كبكبية سابقاً وذلك في أواخر يونيو سنة ١٨٨٤م فدعاه الى التسليم فأجابه : « اني قاومت الحكومة المصرية التي هي أشد بأساً من الدراويش وأعظم قوة منذ موت السلطان هارون الى اليوم ولم يكن زقل اذ ذاك إلا عبداً في سلطنة آبائي فدع عنك النصح وما يحكم بيننا إلا السيف» وكان دود بنقة متحصناً في طابية منيعة في رأس جبل طره فهاجمه آدم عامر فصدّه عنه بعـــد ان أذهب نصف قوته فكتب آدم الى زقل في طلب المدد فاستدعاه الى الفاشر وأرسل مكانه عمر أغا ود ترحو الشايقي المتقدم الذكر بجيش كبير وكان عمر اغا متزوجاً باحدى بنــات السلطان ابراهيم فكتب الى دود بنقة ناصحاً إياه بالتسليم فطلب مقابلته فأتاه وأقنعه بوجوب التسليم فقال له دود بنقه سر أمامي بعساكرك وأنا أتبعك فسار عمر أغا وتبعه دود بنقه برجاله الى الفاشر فسلم الى زقل فأرسله الى المهدي في الخرطوم وذلك في سبتمبر سنة ١٨٨٤ م .

وبقي زقل في دارفور لا ينازعه فيها منازع الى ان مات المهدي واستدعاه الخليفة عبد الله الى أم درمان وأذلّه وكان من أمره ما سنذكره بالتفصيل .

الفصل العاشر

في

وقائع الثورة في بحر الغزال

سنة ٣ – ١٨٨٤ م

تركنا بحر الغزال سنة ١٨٧٩ م ولبتن بك من البحارة الانكليزية مدير عام عليها وساتي بك مدير ومحمود الحلاوي مفتش عام لمنع تجارة الرقيق والبلاد كلها مقسومة الى ثمانية اقسام على كل قسم ناظر ومعه نفر من الباشبوزق وفي مركز المديرية اورطتان من الجهادية . وقـد قادت التقادير محمود الحلاوي المذكور الى مصر بعـد حين فقص عليّ خبر الثورة في بحر الغزال وكيفيـة سقوطها في يد الدراويش قال ما ملخصه :

ثورة الجانقية : « لما بلغ مشايخ الجانقية والجور خبر المهدي ونصرته على رجـال الحكومة في أبا وقدير هاجروا اليه وبايعوه فأمرهم بالعودة الى بلادهم وقال لهم «اذهبوا واخرجوا الترك من بلادكم فان الله ناصركم ومتى أخرجتموهم فلتكن بلادكم لكم لا ينازعكم فيها منازع » وكان هـذا جلّ ما يتمناه السود أي الحرية والاستقلال لأنهم لم يتخلصوا من « البحارة » قبل عهـد الحكومة

حتى وقعوا في الجباة الباشبوزق في عهدها فعادوا الى بلادهم وجمعوا جموعهم وجاهروا بالعصيان . وكان اول من جاهر بـه الجانقية في جوار بحر العرب في اوائـل سنة ١٨٨٢ م فجرد عليهم لبتن بك سرية من العساكر المنظمة والباشبوزق بقيادة محمد افندي النصري معاون المديرية فأوقع فيهم واقعتين خُذل في الاولى وانتصر في الثانية .

ثورة الشيخ يانكو : ثم لما ظهر مادبو بالثورة في بلاد شكا قام الشيخ يانكو شيخ مركز تل قونه وهو من مشايخ الداجو فنزل على بعض العساكر الذين كانوا مقيمين بمركزه وقتلهم في ١٧ اوغسطوس سنة ١٨٨٢ م وفرّ الى الشيخ مادبو فحضر معه واقعة أم وريقات المار ذكرها ثم عاد الى تل قونـه ومعه جماعة من فرسان الرزيقات وجاهر بالعصيان . قال المحلاوي فعقد لي لبتن على ١٧٠٠ رجل من نظامية وباشبوزق وأمرني بمحاربته فأوقعت فيه واقعة شديدة وهزمته شر هزيمة وذلك في ٢١ يناير سنة ١٨٨٣ م . ثم جمع جموعه ونزل على مركز لفي فصده ناظرها بخسارة جسيمة في ١٠ فبراير من السنة المذكورة ففر الى دارفور وانضم ثانية على مادبو .

عود الى الجانقي : وفي هذه الأثناء حضر وابور من الخرطوم الى مشرع الريك لاستطلاع خبر بحر الغزال فجهز لبتن بك ٤٠٠ عبـد أمرد ومقداراً وافراً من سن الفيل وأرسلها مع بعض الخفراء الى الوابور في المشرع المذكور ليأخذها الى الخرطوم فلما درى بهم الجانقي قطعوا عليهم الطريق فقتلوا الخفراء وأخذوا ما كان معهم من الاسلحة والرقيق والسن وذلك في١٣ فبراير وكان ساتي بك المدير اذ ذاك في جور غطاس فلما سمع بخبرهم جرّد عليهم فقتل منهم وسبى وغنم وعاد الى الجور ثم اجتمع الجور على الجانقي ونازلوا لبتن وعساكره في عدة وقائع كان النصر في أكثرها للعساكر .

مكيدة الدناقلة : وكان في بحر الغزال عـدد كبير من الدناقلة متفرقين في جميع جهاتها تجاراً ومتسببين وموظفين وبينهم الفقيه عبد الرحمن بن عوف

النصري اخو محمد النصري المار ذكره وهو من خلفاء محمد احمد وقد أقام معه مدة في جزيرة أبا وجاء الى بحر الغزال بعـد تنظيمها للاقامة فيها مع اخيه وأقاربه وكان يراقب حركات محمد احمـد منذ ظهوره ويكاتبه سراً فلما رأى نصراته المتتابعة عزم على جمع الدناقلة في جميع المراكز والمهاجرة بهم اليه فضرب لهم موعداً في١٢ شعبان سنة ١٣٠٠هـ ١٨ يونيو سنة ١٨٨٣م يجتمعون به في قندة . وفي هذه الأثناء قام الشيخ الطيب اخو الشيخ يانكو في جهـة لفي فأرسلني لبتن بك بنفر من العساكر نجدة لناظرها فمررت بقندة ليلة الميعاد المذكور فأخبرني محافظها بمكيدة الدناقلة وكان في قنـدة اربعون رجلاً منهم ينتظرون قدوم النصري تلك الليلة فجردتهم من أسلحتهم وتأهبت للقبض على النصري فلما حضر أخبره رفاقه بما نويت عليه ففرّ ليلاً باثني عشر منهم الى مركز المديرية فأخبر اخـاه محمداً وكرم الله الشيخ محمد احـد التجار الدناقلة وغيرهما من الدناقلة في المركز بما كان من كشف مكيدتهم فقرّ رأيهم على الرحيل في الحـال فتركوا عيالهم وأموالهم وساروا بطريق تل قونا وشكا قاصدين المهدي فلقوه في الابيض فأقاموا معه الى انجاء جيش هكس فحضروا واقعة شيكان فقتل فيها عبدالرحمن ومحمد ابنا النصري كما مرّ وجرح كرم الله.

ولما تعافى كرم الله من جرحه عقد له المهدي على سرية من جيشه وأرسله لفتح بحر الغزال ولنرجع الى ما كنا فيه :

واقعة لفي : قال المحلاوي فلما اصبح الصباح وعلمت بفرار عبـد الرحمن النصري لحقته بالعساكر فلم أدركه فكتبت الى لبتن بما كان منه واستطردت السير الى لفي لقمع الشيخ الطيب فأدركته في غابة قرب لفي فأوقعت بـه وشتت شمله وقد اصابته رصاصة في فكه الاسفل فشوّهته وكان ذلك في ٢٢ يونيو سنة ١٨٨٣ م .

سفر ساتي بك الى الخرطوم: وفي رمضان سنة ١٣٠٠هـ يوليو سنة ١٨٨٣م حضر وابور من الخرطوم حاملاً الألبسة والملح والرواتب للعساكر وكان لبتن

بك في حاجة كبيرة الى الذخائر والكبسول فاستدعى ساتي بك من جور غطاس وأرسله الى الخرطوم لاحضار الذخائر والكبسول فأقلع بالوابور في ٧ سبتمبر سنة ١٨٨٣ فدخل الخرطوم في ٢٤ يناير سنة ١٨٨٤ فوجدها محصورة فلم يعد يمكنه الرجوع الى بحر الغزال فبقى يجاهد في الحصار الى ان قتل في واقعة القطينة كما سيجيء .

امين بك وخط الاستواء : وكان روح الثورة قد امتد الى خط الاستواء ولم يكن امين بك محتاطاً لها فبعث الى لبتن في طلب مدد من الذخائر والكبسول فأرسلني اليه بشيء منها واعتذر له فلقيته في اورمبك فسلمته الذخيرة وعدت منه بجواب الى لبتن .

واقعة بحر بيري : وفي أوائل يناير سنة ١٨٨٤ م هاج الجانقي من جديد فتجمعوا على بحر بيري فجرّد عليهم لبتن بك جيشاً مؤلفاً من ٨٠٠ من العساكر المنظمة و ١٠٠٠ من الباشبوزق و ٨٠٠ من البازنجر جمعه من جهات مختلفة وأتى بحر بيري فرأى الجانقي قد جمعوا جيشاً لا يقل عن ٥٠ الفاً فزرب على جيشه زريبة متينة من اغصان الشجر ثم أحاطها بزريبة أخرى . قال الحلاوي : فلم يتم لبتن بناء الزريبة حتى أقبل الجانقي علينا مهاجمين وكان الدراويش قد علموهم ان يكرروا عند الهجوم قولهم « الدايم الله الدايم هو » فكانوا يكررونه كلهم بصوت واحد جهوري حتى حسبنا الارض قد زلزلت زلزالها ولما قربوا من الزريبة انتشروا حولها فأحاطوها إحاطة الهالة بالقمر وقد سدّوا الأفق وأظلموا الجوّ لكثرتهم وسواد لونهم وكنا في الزريبة وهم من حولنا مهاجمين لنا والرماح تلمع فوق رؤوسهم كأننا في جزيرة صغيرة تلاطمها الامواج في وسط بحر عجاج. فلما قربوا جداً من الزريبة هجموا هجمة واحدة مستقتلين فتلقتهم العساكر بنيران البنادق الرمنتون وابي روحين فحصدتهم حصداً فلم يبالوا بها بل كانوا كلما سقط منهم صف خلفه آخر حتى تمكن بعضهم من الوصول الى الزريبة الخارجية وما زالوا مهاجمين والعساكر

تشويهم بنيرانها شيّاً حتى تراكمت القتلى حول الزريبة أكداساً وسدل الليل حجابه فرجعوا عنا بنيّة إعادة الكرّة في الصباح التالي وتاريخ هذه الواقعة ١٤ ربيع الاول سنة ١٣٠١ ﻫ ١٣ يناير سنة ١٨٤٤ م .

وبعد الواقعة فتّش لبتن الجبخانة فوجدها لا تكفي لواقعة اخرى فخرج بعساكره من الزريبة تحت جنح الظلام قاصداً مركز المديرية فمرّ بمركز الدمبو فوجد فيها عبدين قد حضرا من المهدي ومعهما كتب الى بعض الدناقلة في بحر الغزال يخبرهم بانتصاره على هكس ويحثهم على الهجرة اليه فأيقن لبتن اذ ذاك بمجيء الدراويش الى بحر الغزال فأسرع الى مركز المديرية وأخذ يستعد للحصار وكان في المركز حصن منيع فزاده مناعة وبثّ المعاونين في الاقسام لجمع الغلال .

تسليم بحر الغزال في ٢٥ جمادى الآخرة سنة ١٣٠١ﻫ ٢٢ ابريل سنة ١٨٨٤م

وقبل رجوعهم أتاه كتاب من حسان أغا عجيب ناظر قسم لفي بتاريخ ٢٨ فبراير سنة ١٨٨٤ يخبره بأن كرم الله الشيخ محمد الذي كان يتجر في بحر الغزال فرّ مع عبدالرحمن ومحمد ابنا النصري الى المهدي وقد حضر الآن أميراً من قبل المهدي على بحر الغزال ومعه ثمانية آلاف مقاتل من العرب والجلابة بينهم خمسة بلوكات من العساكر المنظمة مسلحين بالرمنتون وسأله عما يفعل فأجابه لبتن أن احضر حالاً بمن معك من العساكر وكتب الى نظار الاقسام الآخرين بالحضور الى المركز ايضاً وقبل وصول الأوامر اليهم تقدم كرم الله بجيشه الى لفي فسلم له ناظرها واستطرد السير حتى أتى حلة يانقو مسيرة يوم من مركز المديرية فكتب الى لبتن وضباطه وأعيان الحامية والموظفين يدعوهم الى التسليم فأراد لبتن ان يستطلع قوة كرم الله ويغنم وقتاً لجمع عساكره الباشبوزق من الاقسام فأرسل رسلاً من عنده الى كرم الله يسأله ان يرسل اليه منشور المهدي الذي سمّاه فيه أميراً على بحر الغزال لينظر في أمر التسليم ثم

شرع في الاستعداد للدفاع . وكان في مركز المديرية اذ ذاك ١٢٠٠ رجل من العساكر الجهادية السود ومعهم ٣ مدافع و ٤ سواريخ فاتفقوا مع الاهالي على التسليم وأطلعوني على رأيهم فذهبت وأخبرت لبتن به فلم يصدقني فقلت اجمعهم في مجلسك فأريك باطن امرهم . وكان لبتن قد جعل ضرب النقارة علامة لجمع الأعيان والموظفين الملكية وضرب البوري علامة لجمع الضباط العسكرية فأمر فضرب النقارة والبوري معاً فاجتمع الفريقان عنده في ديوان المديرية فوقف بينهم وقال : بلغني ان بعضكم ينوون التسليم الى كرم الله فمن صمم على الدفاع معي عن شرف الراية الخديوية فليقف فبقي الكل جلوساً . قال الحلاوي : فوقفت اذ ذاك وقلت مخاطباً لبتن اني لا أعلم ما نواه الحضور في هذا الشأن وأما انا فأقول إن كان كرم الله قد جاءنا من عند نفسه فأنا اول من يحاربه معك وأما إن كان قد جاءنا من عند المهدي فانضمامنا اليه لا يخلّ بشرفنا بل يزيدنا ديناً على ديننا . فانتهرني لبتن بك وقال : أي دين تزيد على دينك ايها الجبان بتسليمك شرفك وشرف حكومتك الى رجل مثل كرم الله وما هو شأن المهدي في السياسة والاحكام ؟. ثم التفت الى الاعيان والموظفين الملكية وقال : وأنتم ماذا تقولون ؟ قالوا : الذي قاله الحلاوي . ثم نظر الى الضباط وقال : سمعتم ما قاله الملكية وانتم رجال افندينا وحماة الذمار ماذا تقولون ؟ أتسلمون البلاد التي أنفق عليها افندينا مليون جنيه وقد عهد بحمايتها اليكم من غير ان تطلقوا عياراً نارياً في الدفاع عنها ؟ فقالوا : يا حضرة المدير انما المراد من الحرب النصر لا الحرب فاذا لم يكن النصر مضموناً فعلى مَ الحرب فأنت ترى ان جيش كرم الله اضعاف جيشنا فليس في وسعنا الانتصار عليه وإن انتصرنا عليه اليوم جاءه المدد من المهدي في الغد وأخذنا عنوة او حصرنا حتى نموت جوعاً وأما نحن فلا جهة لنا ننتظر منها المدد اذ الخرطوم التي كانت تمدنا قد اصبحت في الحصار وأهل البلاد كلهم ضدنا وجارتانا دارفور وخط الاستواء في أشد الضيق (اذ لم يكونوا يعلمون ان دارفور قد سقطت بعد) فلا حيلة لنا الا بالتسليم . فقال لبتن : اني أعلم الحرج الذي نحن فيه ولكن

لا عذر لنا في التسليم قبل بذل الجهد في الدفاع اذ النصر لا يكون على الدوام للفئة الكبرى بل قد تنصر الفئة الصغرى بعون الله ومع ذلك فاني افضل الحرب ولو لم أضمن النصر على التسليم لرجل مثل كرم الله فاذا لم تقرّوا معي عليه فاعلموا اني آخذ امرأتي وبنتي (وقد كان متزوجاً بجارية جنقاوية متربية في مدرسة المرسلين النمساويين في الخرطوم) وأدخل الطابية وأحارب كرم الله وحدي حتى اذا دخل المركز صوبت المدافع عليه وقلت عليّ وعلى أعدائك يا رب فأجابوه : افعل ما شئت فاننا لا نرى رأياً غير التسليم . فلما لم يرَ وسيلة تحملهم على الحرب كتب اليهم السؤال الآتي وسألهم ان يجيبوه عليه كتابة ويختموه بأختامهم فقال : « أتحاربون معي أم تسلمون الى كرم الله ؟ » فأجابوه بالتسليم الى كرم الله وختموه بأختامهم فأخذه لبتن وحفظه في جيبه. ثم كتبوا كتاباً الى كرم الله قالوا فيه : « سلمنا لله ورسوله ومهديه الذي أرسلك الينا اميراً فاحضر صباح الغد واستلم الحامية فليس بيننا وبينك حرب» وأمضاه لبتن والضباط والاعيان وأرسلوه الى كرم الله فحضر صباح الثلاثاء في ٢٥ جمادى الآخرة سنة ١٣٠١ هـ ٢٢ ابريل سنة ١٨٨٤ م ووقف بجيشه في ظاهر الحامية وكان قد ارسل الى لبتن بدلة من لباس الدراويش وهي حزام خوص وطاقية ونعلين فلبسها وخرج بالعساكر والملكية على نحو ميل من الاستحكام ووقف بهم تجاه كرم الله ثم تقدم بمن معه من الضباط والاعيان فسلموا على كرم الله وأمرائه وعاد العساكر والاهالي الى منازلهم ونزل جيش كرم الله خارج الاستحكام ودخل هو ورؤساء جيشه مع لبتن وضباطه وأعيان الحامية الى ديوان المديرية ولما استوى بهم المجلس التفت كرم الله الى لبتن وقال ان المهدي أمرني ان أعرض الاسلام عليك وأسمّيك عبد الله فقال : أشهد ان لا إله إلا الله وأشهد ان محمداً رسول الله وان محمد احمد بن عبد الله هو مهدي الله وخليفة رسوله . ثم دعا غبريال افندي وصالح افندي شنوده من كتاب المديرية الاقباط لاعتناق الاسلام ففعلا فسمى الاول محمد سعيد وأبقى الثاني على اسمه . ثم قام لبتن فسلم الى كرم الله مخازن الذخائر والاسلحة والبضائع

والسن وهي شيء كثير . ولما بلغ نظار الاقسام امر التسليم صاروا يفدون الى كرم الله واحداً واحداً مسلمين فأصبحت البلاد كلهـا بيده وارتفعت أعلام المهدية في جميع أنحائها .

قال الحلاوي ولما علم كرم الله اني انا ولبتن لم نسلم إلا مرغمين أساء معاملتنا فخشينا ان يغدر بنا فاحتلنا عليه وسألناه ان يأذن لنا في الذهاب الى كردوفان لمبايعة المهدي فأرسل معنا الخفراء الى الابيض فوجدنا المهدي قد ارتحل منها غازياً الخرطوم وكان في الابيض السيد محمود عبد القادر من أقاربه فكتب الى المهدي يسأله عما يفعله بنا فأجابه بأن يرسلنا اليه وقبل ورود الجواب أخذنا الى محل واقعة هكس في شيكان فوجدنا جثث القتلى متراكمة في ذلك الوادي تلالاً عظيمة . ثم أرسلنا الى المهـدي فوجدناه مخيماً في ابي سعد جنوبي ام درمان فبايعناه وكان ذلك في ١٨ اوكتوبر سنة ١٨٨٤. فجعل لبتن قومنداناً على مدفع وأرسله لمساعدة أنصاره في ام درمان فاستمرض وكتب الى غوردن كتاباً يخبره بما جرى له في بحر الغزال وأصحب كتابه الجواب الذي أخـذه من الضباط والأعيـان بشأن التسليم فوقع الكتاب بيد المهدي فزج لبتن في السجن وحاول صالح شنودة الفرار فقبض عليه وزجـه في السجن ايضاً . وكتب الى لبتن الكتاب الآتي :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمـد وآله مع التسليم .

« وبعد فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدي بن عبدالله الى عبدالله المسلماني وقاه الله السوء وجعله من اهل التداني . كان سابقاً اخبرنا الأخ الصادق وفي العهد الذي جاء صحبتكم من كردوفان بأنه اظهر لـك انه لم يكن راضياً بالمهدية واستجلب بذلك الوقوف على حقيقتك فأعلمته بأن التسليم الذي حصل منك ليس على غرضك انما لعدم الموازر على الحرابة لأجل العسكر الذي معك سلمت جميعها وأظهرت النفـاق معها وانك على ما انت عليه من الكفر ومراكنة الترك فصفحنا عن ذلك أملا انك ان لاقيتنا يصفى ايمانك ويتم

تصديقك وتسليمك لنا بالمذاكرة ولما قابلتنا ذاكرتك وأعلمتك ان أمرنا هذا إلهي وان الله اذا أراد امراً امضاه ولم تنفع في مقابلته مدافـع ولا جيوش انكليز ولا غيرها ولا بوابير ولا كافة الحيل اذ انه لا يغلب الله غالب وكل ذلك لتصفى معنا سريرتك ويصير لـك الحظ الوافر عند الله وتنال سعادة الأبد وتكون من الاصحاب المؤمنين الذين لهم عند الله حسن المكانة العظمى وكل ذلك خير لك أبدي حتى ظهرت خيانتك وتصميمك على النفاق بمكاتبتك للغردون واظهارك له انك لم تسلم باختيارك وانك منتظر نجـدة الانكليز واظهارك له ان جماعتنا كثيرهم مرضى وجايعين ولا يقدروا حرابة شهر وكل ذلك ظهر عند ضبط صالح شنودة لخيانته ايضاً . فمن الآن وصاعداً ان تبت من سريرتك بينك وبين الله واعتقدت ان هذا السجن لتصفيتك وتجريدك عما يضرك عند الله وصدقت مع الله في تسليمك لنا لا بد ان يظهر لنا على سمتك او اخبار من الغيب من رسول الله ﷺ او من الخضر عليه السلام وان لم تتب من سريرتك وفضلت على نفاقك كذلك لا بد ان يظهر لنا فتزيد عذاباً على عذابك وفي الآخرة أشد عذابا وأشد تنكيلا فان أراد الله بك خيراً يهديك وتظهر هدايتك لاتباعنا والصداقة معنا وان أراد الله شقاوتك وعذابك في الدنيا والآخرة تصمم على ما انت عليه من النفاق ولا تقل ان الهداية التي تنفع بادعاء اللسان فان ذلك لا ينفع كما رؤي عليك حين أتيتنا من عدم الصفا على وجهك فان اهتديت من سريرتك سترى خير الدنيا والآخرة ان شاء الله تعالى والسلام في ٢٠ محرم سنة ١٣٠٢ هـ ٩ نوفمبر سنة ١٨٨٤ م .

ثم أخرجه من السجن بعد فتح الخرطوم وبقي في ام درمان الى ان مات في ١٧ يوليو سنة ١٨٨٨ م .

وأما كرم الله فانه بقي في بحر الغزال الى سنة ١٨٨٦ م فانضم الى أخيه كرقساوي في شكا فبقيا في دارفور بأمر الخليفة الى سنة ١٨٨٨ م وكان لهما هناك من الشأن ما سنذكره في محله . ولنأت الآن على بيان ما كان من عثمان دقنة والثورة في سواكن .

الفصل الحادي عشر

في

عثمان دقنة والثورة في سواكن

سنة ٣ – ١٨٨٤ م

بقي السودان الشرقي هادئاً مطمئناً لا تقلقه الثورة وأهله البجة على أتم الولاء مع الحكومة حتى سقطت الابيض سنة ١٨٨٣م وجاءه عثمان دقنة عاملاً عاماً من قبل المهدي كما مرّ فثـار الأهلون معه ولا ثورة الذئاب واصبح بلاء عظيماً على الحكومة في السودان الشرقي وجرت بينه وبين جيوشها وقائع جمّة مشهورة ولم يزل على مناوأتها وقتـالها كلما سنحت له الفرصة حتى وقع في قبضتها سنة ١٩٠٠ م فرأيتـه في محطة مصر ثم في سجن رشيد ثم في سجن دميـاط حيث هو الآن فاذا هو رجل اسمر اللون طويل الوجه برّاق العينين معتدل الأنف واسع الفم عريض اللحية أشيبها غزيرالشعر ربع القامة مع ميل الى الطول . وقد دلّت ملامحه الظاهرة على ما انطوى عليه من المكر والدهاء وصدق العزم وهو يتردّى برداء من الدمور ويتعمم بعمامة بيضاء ويحلق شعر رأسه كزيّ حضر سواكن . قيل وهو سريع الحركة قليل الكلام وله صبر

غريب على المشي والجوع حتى لقد يمشي النهار بطوله حافي القدم بلا طعام ولا شراب ولكن اذا جلس للأكل أكل خروفاً في وجبة واحدة . وقد سألته عن سنه عند قيامه في المهدية فقال ٤٣ سنة . وسألته عن اصل منبته فقال: « ان اصل اجدادي من اكراد ديار بكر أتوا سواكن مع السلطان سليم الفـاتح فاستوطنوها واختلطوا بالهدندوة بالزواج فكان منهم قبيلتنا المعروفة بالدقناي وقد ولدتُ في سواكن ونشأت فيها واشتغلت بالتجارة مع السودان والحجاز بالبضائع والرقيق الى ان قام المهدي فنصرته ». قيل وقد كانت تجارته رائجة وحاله حسنة حتى شددت الحكومة على منع الرقيق فبـارت تجارته وساءت حاله وقد سجن مرة في جدّة هو وأخوه علي لمتاجرتهما بالرقيق فحقـد على الحكومة وكان من المتعصبين في الدين على طريقـة المجاذيب فحسب مداخلة الحكومة ببيـع الرقيق تعرّضاً في دينه فلمـا سمع بظهور محمد احمد في أبا اخذ يستنشيء اخباره ويستعدّ للمهاجرة اليه حتى فتحت الابيض فهـاجر اليه وبايعه وأظهر له الغيرة المرّة على الاسلام والمسلمين وتصديقه لمهديته والاستعداد لنصرته . وقد سألته مرة في سجن رشيد هل قام بنصرة المهـدي عن اعتقاد قلبي قال : « نعم ان محمد احمد هو المهـدي المنتظر لا ريب فيه وأموت على هذا الاعتقاد » قلت إن كان هو المهدي المنتظر فكيف مات قبل ان يتم نبواته بفتح مصر والقسطنطينية ومكة قال : « وقد مات النبي ﷺ من قبله ولم يتم فتوحاته فأتمها خلفاؤه من بعده » قلت ولكن خلفاء محمد احمد لم يتموا فتوحاته ثم ان أمة النبي باقية لم تزل وأمة المهـدي قد زالت قال : « هكذا أراد الله » !!! وعلى كل حال فانه اتحد مع المهدي قلباً وقالبـاً وسُرّ به المهدي سروراً عظيماً لأنه لم يكن له يدٌ في السودان الشرقي بعد . وكان عثمان دقنة عالماً بدخائل اهل سواكن وعارفاً لغة البجة وعاداتهم وهو يحسن القراءة والكتـابة في العربية فسماه عاملاً عاماً على جميع بلاد البجة التي بين الاتبرة والبحر الاحمر أي بلاد سواكن وطوكر وكسلا . وقـد اصحبه كتباً الى مشايخ تلك البلاد من هدندوة وبشارين وامارار وغيرهم يدعوهم بها لنصرة

الدين والقيام مع عامله عثمان دقنة لمحاربة الترك والجهاد في سبيل الله . وهذه صورة ما كتبه الى اهل سواكن بحرفه :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم .

« وبعد فمن عبد ربه محمد المهدي ابن السيد عبد الله الى كافة احبابه في الله المؤمنين بالله وبكتابه ومن تبعه ووافقه على إقامة الدين ونصرته . اما بعد فالذي نعلمكم به ايها الاحباب ان الامر كله لله واليه المرجع والمآب وانه مالك الملك يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء كما اخبر بذلك في منشور الكتاب فاتعظوا وتذكروا يا أولي الألباب وتنبهوا عن الغفلة والغرور بلوامع الدنيا التي هي سراب وتفكروا في انفسكم واعتبروا بفوات دول القرون الماضية وبمن هو أشد منكم قوة واكثر جمعاً للفانية فأصبحوا لا ترى إلا مساكنكم الواهية الخالية فاقبلوا نصيحتي وما تبعها إلا أذن واعية وانما انذرتكم بجوابي هذا نصيحة لكم ورحمة بكم وشفقة على عباد الله المؤمنين وسبباً لنجاة المسلمين والمستضعفين . وحيث فهمتم ذلك وعقلتموه . فاني موجه اليكم الشيخ عثمان ابا بكر دقنة السواكني لكي تستعينوا به على إقامة الدين وجهاد الكافرين وجعلته اميراً مباركاً لكم لدلالتكم وإرشادكم فاسمعوا له وأطيعوا امره ونهيه وبمجرد وصوله اليكم إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ومصدقين اني المهدي المنتظر فتحزبوا اليه وائتوه افواجاً افواجاً من كل سهل وجبل لبيعة الرضوان ورضاء الواحد الديان لأجل إقامة الدين والسنن وشمروا في ذلك بغاية الجهد وعلو الهمة واجتمعوا على كلمة واحدة باتفاق الجميع . والكلمة الواحدة هي التصميم والعزم على قتال الترك اهل المديرية التي انتم فيها ثم بعد اتفاقكم بأخذ عهودكم ومواثيقكم مع الله ورسوله وأميرنا النائب عنا في إقامة الدين فخذوا حذركم وأهبتكم الجميع ثم اخبروا أعداء الدين بذلك وبلغوهم امرنا هذا واطلبوا منهم في الحال احد الامرين إما التسليم وإما القتال فإن ندموا وسلموا بصدق وايمان فليسلموكم جميع ما عندهم من الاسلحة ولزومها والخزائن بما فيها

ومفاتيحها فان كان كذلك فاحمدوا الله واشكروه ومن الدنيا الساحرة فاحذروا وان أبوا وسلكوا مسالك الحيل فالقتال القتال لتنالوا مقام الصديقين من الرجال فاهجموا عليهم الجميع مرة واحدة فأنتم حزب الله الغالبون . واذا اتحد معهم بعض اهل البلد فجميع من هو موافق للشيخ عثمان ابي بكر دقنة فلينضم اليه واخرجوا عنهم خارج البلد واجمعوا العربان التي بأطراف البلد واحكموا فيهم بالحصار والمغار واقطعوا عنهم الموارد بالكلية الى ان يهلكهم الله تعالى كما أهلك اصحابهم فانهم قوم كتب الله عليهم البلاء والعذاب فهم في قبضة الله ونواصيهم بيده فلا تخشوهم ابداً فانهم هالكون باذن الله تعالى وعن قريب يورثكم الله ارضهم وديارهم فعليكم بالعدل والاحسان . واعلموا ان من بايع الشيخ عثمان المذكور فقد بايعني ومن استشهد معه فكأنما استشهد معي ومن صحبه فقد صحبني فاعلموا الجميع بذلك وابشروا بما بشرني به النبي ﷺ وهو ان اصحابي كأصحابه وان عوامهم لهم رتبة عند الله كرتبة الشيخ عبدالقادر الجيلاني والله ذو الفضل العظيم وهذا الفضل بشرط الاتباع ظاهراً وباطناً وحيث فهمتم ذلك فلا يفتكم هذا الفضل العظيم فاحرصوا على الصدق والوفاء واقتفاء آثار المصطفى ﷺ واختيار ما عنده تعالى بالجوع والفقر مع الرضاء والتسليم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم والسلام . غرة رجب سنة ١٣٠٠ هـ ٨ مايو سنة ١٨٨٣ م » اه .

فحمل عثمان هذه الكتب وسار مجداً حتى وصل محلا يدعى قباب في ضواحي سواكن فلقي فيه الطاهر المجذوب وهو كبير المجاذيب في تلك الجهات ومعظم اهلها على طريقته فسلمه كتاباً من المهدي فقبله وقبّله وبايع عثمان وكان له اكبر نصير. ثم تقدم الى اركويت حيث كان اهله فوصلها في ١ اوغسطوس سنة ١٨٨٣ م فتلقاه أهله بالقبول وبايعوه وبايعه ايضاً بعض مشايخ الهدندوة فرفع راية المهدي واستعد للجهاد .

واقعة سنكات في ٥ اوغسطوس سنة ١٨٨٣ م : وكان للحكومة في تلك البلاد عدا حامية سواكن في طوكر على ٤٠ ميلا جنوبي سواكن وحامية في

سنكات على مثل هذه المسافة غربيها ولم يكن في سنكات سوى ٢٥ عسكرياً. وكان المحافظ على سواكن في ذلك العهد الشهم الباسل محمد بك توفيق المصري فلما سمع بخبر عثمان أسرع الى سنكات ومعه مئة رجل فوصلها في ٢ اوغسطوس ليلاً . وفي اليوم التالي ارسل كتاباً الى كلٍّ من الطاهر المجذوب واحمد دقنة شقيق عثمان يطلب حضورهما ليتمكن من ضبط عثمان فمزّق كل منهما كتابه وانضم الى عثمان فجمعوا جموعهم وزحفوا على سنكات فوصلوها ضحى يوم الفطر أي ٥ اوغسطوس سنة ١٨٨٣ . وكان عثمان قد أتى بكتاب من المهدي الى توفيق بك يدعوه الى الانتظام في سلك المهدية فأرسله اليه وسأله التسليم في الحال او الاستعداد للقتال ولم يكن توفيق بك مستعداً للحرب لأن طابية سنكات كانت متسعة غير حصينة ورجاله قليلون فطلب الى عثمان ان يمهله ثلاثة ايام وقال اني لا استطيع ان اجيبكم من نفسي سلباً او ايجاباً لأني مأمور ولا بد لي من استشارة صاحب الأمر والنهي فعلم عثمان انها حيلة للتمكن من الاستعداد فأمهله الى الظهر ولم يزد فردّ توفيق الرسل وطلب المهلة الى العصر وشرع في الاستعداد ففتح بعض المزاغل في الطابية وسدّ بابها بأكياس من الرمل وجعل بعض العساكر على السور والبعض الآخر على سطوح المنازل وكان عثمان يرى استعداد العساكر رأي العين فلما كان الظهر أمر اصحابه فحملوا على الحامية حملة صادقة فدخلوها واختلطوا بالعساكر فالتجأ بعض العساكر الى منازلهم وأخذوا هم والذين على السطوح يرمون المهاجمين بالرصاص فقتلوا منهم وجرحوا وكان في جملة القتلى محمد اخو عثمان وجُرح عثمان نفسه جراحاً بالغة في يده ورأسه وجنبه فحمله اصحابه على جمل وعادوا منهزمين الى اركويت وكانت خسارتهم في ذلك اليوم ٦٠ رجلاً وخسارة العساكر ٧ قتلى و١٢ جريحاً بينهم توفيق بك فانه أصيب بعدة جراح وعاد الى سواكن .

واقعة قباب في ١١ سبتمبر سنة ١٨٨٣م : وبعد وصوله بقليل أرسل حملة من العساكر بمدفعين يصحبها محمود علي شيخ الامارار بنفر من رجاله وأمرهم ان يحملوا على عثمان في اركويت ويقضوا عليه . فعلم عثمان بخبر الحملة وكانت

جراحه لم تزل تؤلمه فعقد لأخيه محمد موسى على أنصاره وأرسله لملاقاتها فالتقى بها في خور قباب في ١٠ سبتمبر سنة ١٨٨٣ عند الغروب فبنت الحملة زريبة متينة ببابين جعلت على كل باب مدفعاً وباتت فيها وبات اصحاب عثمان بقربها وفي صباح اليوم التالي أحاطوا بها من كل الجهات وهاجموها هجمة واحـــدة فتلقتهم العساكر بنيرانها فصدتهم عن الزريبة إلا ثلاثة منهم فانهم تمكنوا من الدخول اليها فقتلوا في داخلها وفيهم رجل يسمى طاها كان من ملازمي المهدي وجاء مع عثمان قصد الجهاد . وقد خسر اصحاب عثمان في هـذه الواقعة ٢٧ رجلاً وعدة جرحى بينهم محمد موسى وخسر العساكر بضعة رجال بينهم احد أبناء الشيخ محمود علي المذكور وعادت الحملة الى سواكن . وأمر عثمان دقنه رجاله فقطعوا خط التلغراف بين سواكن وكسلا .

حصار سنكات وواقعة أبنت في ٢٥ اوكتوبر سنة ١٨٨٣م : ثم عقد لرجل يدعى علي طلاب بن محمد على سرية من أنصاره وارسله لحصر سنكات فسار من اركويت في ٢٥ اوكتوبر سنة ١٨٨٣م . واتفق انه في هذا اليوم نفسه أرسل توفيق بك البكباشي محمود افندي خليل ومعه ١٥٦ من العساكر المصرية مدداً لحامية سنكات فالتقوا بأصحاب عثمان في منتصف الطريق في مضيق يدعى أبنت وانتشب القتال بين الفريقين فلم تكن ساعة حتى قتل العساكر عن آخرهم وغنم اصحاب عثمان أسلحتهم وأمتعتهم وتقدموا لحصر سنكات . ثم أمدّهم عثمان حتى بلغوا ٧٥٠ رجلاً فأمّر عليهم علياً بن حامد المشهور بأمير سنكات لأن فتوحها كان على يده .

حصار طوكر وواقعة التيب الاولى في ٥ نوفمبر سنة ١٨٨٣م: وكان عثمان قد أرسل في ٢ اوكتوبر سنة ١٨٨٣ م الخضر بن علي شيخ الحسانات اميراً على قبائل طوكر الذين جلّهم من الارتيقة وأصحبه كتاباً اليهم من الطاهر المجذوب يدعوهم الى القيام معه لنصرة الدين فلبوا الدعوة هم وشيخهم موسى بن الفقيه وذهبوا مع الخضر لحصر طوكر. وكان في طوكر اذ ذاك ٤ بلوكات من العساكر

عليهم صاغ ولهم خندق حصين فلمـــا جاءهم الخضر بن علي دعاهم الى التسليم والتصديق بالمهدي فأبوا وأرسلوا في طلب المدد من سواكن .

وكان في سواكن اذ ذاك محمود باشا طاهر قومندان السودان الشرقي فجهز ٥٥٠ رجلا وسار لنجدتهم . وكان الخضر بن علي امير طوكر قـد قدّر مجيء المدد من سواكن فأرسل عبد الله بن حامد ومعه ١٥٠ رجـــلا من أنصاره ليتربصوا مجيئه في آبار التيب فلما اقترب العساكر منهم حملوا عليهم حملة رجل واحد فاختلطوا بهم وأعملوا فيهم السيف والحربة فقتلوا ١٤٨ رجلا وهزموا الباقي فأتى بهم محمود باشا الى سواكن فعزل من وظيفته على الأثر وكان قـد صحبه القومندار مونكريف الانكليزي فقتل في الواقعة وقتل فيها من أنصار عبد الله بن حامد ٢٧ رجلا . وتاريخ هذه الواقعة ٥ نوفمبر سنة ١٨٨٣ م وهو اليوم الذي هلك فيه جيش هكس في شيكان .

حصار سواكن وواقعة تماي (التمينيب) الاولى في ٢ ديسمبر سنة ١٨٨٣ :

ثم عوفي عثمان دقنه من جراحه فجمع نحو ٣٠٠٠ رجل ونزل بهم في آبار تماي (التمينيب) على نحو ٢٠ ميلا من سواكن وأخـــذ يشن الغارة عليها وقطع الطريق بينها وبين سنكات فخرج له كاظم افندي من سواكن ومعه ٧٠٠ من العساكر السود والباشبوزق و ٢٠ فارساً فتلقاهم عثمان دقنـه بأنصاره وقتلهم شر قتلة فلم ينج منهم سوى ٤٥ رجلا وقد قتل من أنصار عثمان ٨٠ رجلا وذلك في ٢ ديسمبر سنة ١٨٨٣ م .

حملة باكر باشا الى سواكن وواقعة التيب الثانية في ٤ فبراير سنة ١٨٨٤م :

وشدّد عثمان دقنه الحصار على سواكن وطوكر وسنكات معاً فرأت الحكومة انها اذا لم ترسل اليها المدد في الحـال وقعت في يد عثمان وهـذا المدد لم يكن متيسراً فان الجيش المصري القديم قد هلك في شيكان كما علمت والجيش الجديد لم يكن بعد مدرباً على القتـــال فجهزت الحكومة حملة من عساكر الجندرمة والبوليس وعساكر الرديف وهي سلاحها الأخير وعقدت لواءها لباكر باشا

وكلفت الزبير باشا فجمع لها اورطة من السود ورغبت اليه في مرافقـة الحملة فطلب ان يكون مستقلا في أعماله ولمـا لم تجب الى طلبه اعتذر عن السفر . وصحب باكر جماعة من الضباط الانكليز والمصريين اركان حرب وكان الكولونل سرتوريوس رئيس اركان حربـــه الانكليز والميرالاي عبد الرزاق بك رئيس اركان حربه المصريين وقد أعطي السلطة الملكية والعسكرية على جميع بـلاد السودان الشرقي وعهد اليه في استرجاع الأمن والسلام الى ربوعه على ان يبدأ اولاً بالوسائل السلمية فـلا يرجع الى القوة إلا اذا لم ينجع السلم وصحبه السيد محمد المرغني لهذه الغاية . فبرح مصر بمعظم قوته وأركان حربه في ١٩ ديسمبر سنة ١٨٨٣م فوصل سواكن في ٢٣ منه ثم ذهب مع الاميرال هيوث الى مصوع فوصلها في ٣١ منه فأخذ منها ومن سنهيت بعض العساكر السود وجعل مكانها عساكر مصرية ثم عاد الى سواكن فبدأ بالوسائل السلمية فأوعز الى السيد محمد المرغني فكتب الى عثمان دقنه ينصحه بترك الحرب ويخبره باتحـاد الدول على قمع الثورة فأجابه بالجواب الآتي :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمـد وآله مع التسليم .

« وبعد فمن عبدربه عثمان أبي بكر دقنه الى الجناب الأكرم السيد الجليل السيد محمد بن الاستاذ السيد محمد المرغني وفقنا الله وإياه الى باب العلي . فالذي نعلمكم به جناب الأكرم انه قد وصل جوابكم وفهم خطابكم الى آخر ما أبديتم من النصح العام وذلك على حسب ما بدا لكم لأن الدين مبناه النصيحة فجزاكم الله خيراً . وذكرتم انكم حضرتم بهذا الطرف من طرف الدول لاسكان هـذه الفتن الكائنة بهذه الجهة وكون اننا قمنا فيهـا بأسباب ناس مفتنين فعلى حسب فهمكم حكيتم ما حكيتم فاعلموا يقيناً انه لمـا قمنا من الامام المهدي المنتظر عندنا اليقين الذي لا يشك فيـه عاقل انه لو اجتمعت الخلائق بأسرها شرقها وغربها لم يقدروا على مقاومة الأيدي التي معها يد الله تعالى فضلا عما ذكرت لنا من اتحاد الدول ولو كان عندنا أدنى شك في عدم نصرة الدين لمـا أقدمنا

على هـــذا الأمر ولكن المطلوب من شيمكم الحضور لطرفنا لأجل المكالمة والمفاهمة في الأمر الذي جئنا بـــه فان كان قصدكم احياء سنة رسول الله ﷺ فبعد الكشف على حالنا تكونوا انتم بالخيار وان كان قصدكم تبليغنا اتحادية الدول فقد فهمنا والسلام ٧ ربيع اول سنة ١٣٠١ هـ ٦ يناير سنة ١٨٨٤ م .

فعلم باكر من هـذا الجواب ان الوسائل السلمية لا تجدي نفعاً فعوّل على القوة ونوى انقـاذ حامية سنكات اولاً ولكن قبل قيامه جاءته رسالة من قومندان حاميـة طوكر مفادها ان الحامية نفدت ذخائرها وأضنى عساكرها الاسهال فاذا لم تأته نجدة بعد يومين او ثلاثـة اضطر الى التسليم فعدل عن سنكات وسار في الحال لنجدة طوكر فخرج من سواكن بحراً ووصل ترنكتات في ٢٨ يناير سنة ١٨٨٤ م .

وكان عبد الله امير الساحل المار ذكره واقفاً له بالمرصاد فبعث الجنرال باكر يسأله ترك الحرب فأبى فتقدم اليه في ٢٩ يناير سنة ١٨٨٤ ومعه : ٣٠٠ من الفرسان المصريين و ١٥٠ من الفرسان الأتراك و ٦٥٠ من جندرمة الاسكندرية و ٥٠٠ من جندرمة القاهرة و ٤٥٠ من عساكر مصوع و ٤٢١ من عساكر سنهيت و ٤٢٩ من المشاة الأتراك و ٦٧٨ من عساكر الزبير باشا و ١٢٨ من الطوبجية المصريين و ٤٠ من البوليس الاوربيين المتطوعين ومجموعهم ٣٦٥٦ رجلاً و ٦ مدافع . فسار بهم بالانتظام العسكري مسافة ٣ أميال ثم وقف فبنى طابية جعل فيها ٣٠٠ رجل لحفظ خط الرجعة .

وفي فجر ٤ فبراير سنة ١٨٨٣ استطرد السير بباقي القوة تتقدمه الكشافة حتى صار على مقربة من آبار التيب فعاد الكشافة مذعورين وقالوا ان الدراويش قريبون منا وهم في عدد كثير . وكان عثمان دقنه قـد أرسل مدداً الى قوة التيب حتى بلغت ١٢٠٠ رجلاً مؤلفة من عدة فئات كل منها تحمل راية فظن الكشافة ان كل راية تمثل جيشاً ثم لما رأى العساكر كثرة الرايات ظنوا الذي ظنه الكشافة فهلعت قلوبهم وتولاهم الرعب حتى انه لما صدر لهم الامر بتشكيل مربع لم يحسنوا تشكيله كما مرّنوا عليه فاختلط رجـال الضلع الخلفية بدواب

الحمـلة ولم يحسنوا رمي الرصاص فاخترق الدراويش صفوفهم واختلطوا بهم فازدادوا هلعاً وخوفاً حتى طرح البعض سلاحهم في الارض وركعوا وبسطوا أيديهم نحو السماء طالبين الرحمة واختبأ البعض الآخر بين دواب الحملة فانقض الدراويش عليهم كالنسور يقتلونهم يميناً وشمالاً حتى لم يبقَ من الجيش كله سوى ١٢٠٠ رجل فانهزموا الى ترنكتات فعاد بهم باكر الى سواكن . وكان في جملة قتلى الجيش ١١٢ ضابطاً بينهم عبد الرزاق بك و ١٠ ضباط اوربيون وأما الدراويش فلم يقتل منهم سوى ٣٠٠ رجل بينهم محمود اخو الخضر وقد غنموا ٦ مدافع و٣٠٠٠ بندقية ونصف مليون خرطوشة وانضموا الى اخوانهم المحاصرين لطوكر فضيقوا عليهـا واضطروها الى التسليم كما سيجيء . وضيّق عثمان دقنه على سواكن .

سقوط سنكات يوم الجمعة في ١٠ ربيع الثاني
سنة ١٣٠١ هـ ٨ فبراير سنة ١٨٨٤ م

أما سنكات فكانت اذ ذاك في أشد الخطر وكان توفيق بك قـد جاءها بعد واقعة أبنت فحصّن طابيتها وخندق عليها وأحاطها بزريبة متينة من شجر السيال وبنى عليهـا اربعـة أبراج على كل برج مدفعاً فلما جاءها علي بن حامد وجدها حصينة فلم يجسر على مهاجمتها بل قعد لها بكل مرصد وجـال بينها وبين سواكن ومنع أهلها الخروج منها وكان يبعث بأصحابه الحاملين الاسلحة النارية الى قرب الطابية فكلما لاح لهم أحـد رموه بالرصاص وكان اذا رماهم العساكر بالقنابل صاحوا بهم مستهزئين اطلقوا مدافعكم مرة ثانية فان هذه الطلقة لم تصب. وداموا على ذلك حتى نفد زاد العساكر وأكلوا البغال والحمير والكلاب والقطط وشرعوا في أكل الجلود ومضغ أوراق الشجر تسكيناً لآلام الجوع . فلما صاروا الى هذه الحال جمعهم توفيق بك المعروف ببطل سنكات وقال لهم «أيها الرجال ان بقينا هنا هلكنا من الجوع وان سلمنا لهؤلاء الأشقياء لم نضمن السلامة وان سلمنا عشنا عيشة يهون معها الموت فلم يبقَ لنا الا ان

نخرج من الاستحكام ونتخذ طريق سواكن فاذا لحقونا حاربناهم حتى ظفرنا او متنا مشرفين ، وما زال يشدّد عزائمهم ويرغبهم في هـذا الرأي حتى وافقوه عليه . فلما كان يوم الجمعة ١٠ ربيع الثاني سنة ١٣٠١هـ ٨ فبراير سنة ١٨٨٤م أحرقوا مخازن البارود والجبخانة وسدّوا افواه المدافع وخرجوا من سنكات وعددهم ٦٠٠ نفس من رجال ونساء واولاد فما ساروا ميلاً ونصف ميل حتى أتوا مضيقاً وعراً فوجدوا الدراويش كامنين فيه فانتظموا بهيئة مربع وجعلوا النساء والاولاد في الوسط وشرعوا في رمي الدراويش بالرصاص حتى قتلوا منهم ٥٧ رجلا ولكن الدراويش تغلبوا عليهم لكثرتهم وقتلوهم فلم ينجُ منهم سوى خمسة رجال بينهم قاضي سنكات وثلاثين امرأة فماتوا موت الابطال الأعزاء وخلدوا ذكراً في التاريخ يمدحهم عليه كل شهم حرّ . وانضم امير سنكات اذ ذاك الى عثمان في تماي فاشتد الحصار على سواكن .

حملة جراهم الاولى الى سواكن سنة ١٨٨٤ م :

هذا وكانت الحكومة الانكليزية لما سمعت بانكسار باكر اخذت الامر كله في يدها فعقدت مجلس نوابها بعد الواقعة بيومين وأقرّت على حماية سواكن فأرجعت باكر باشا الى مصر وألقت مقاليد الاحكام العسكرية والملكية في سواكن الى الاميرال هيوت. فأبلغها في ١٢ فبراير خبر سقوط سنكات وهلاك حاميتها فعقدت مجلساً آخر أقرّت فيه على ارسال جيش في الحال لحماية سواكن وانقاذ حامية طوكر وأوعزت الى قومندان جنودها في مصر فعقد للجنرال جراهم على ٤٠٠٠ جندي فيهم ١٠٠ من الطوبجية بستة مدافع واورطة من الفرسان وصحبه بعض الضباط الانكليز الموظفين في الجيش المصري الجديد بصفة اركان حرب فوصل سواكن في أواخر فبراير فترك بعض الجند لحماية سواكن وسار بالباقي بحراً الى ترنكتات فوصلها في ٢٨ منه وبعث يتجسس احوال طوكر .

سقوط طوكر في ٢٤ فبراير سنة ١٨٨٤ م :

وكان الدراويش قد أخذوا المدافع والأسلحة التي غنموها في واقعة باكر وشددوا الحصار بها على طوكر وكانت مؤونة الحامية تكفيها مدة طويلة وماؤها من آبار في وسطها وحصنها منيع ولكن أعوزتها الذخيرة فثبتت على الحصار حتى علمت بانكسار باكر ولم تعد تسمع بنجدة اخرى فسلمت للدراويش في ٢٤ فبراير سنة ١٨٨٤ م .

واقعة التيب الثالثة في ٢٩ فبراير سنة ١٨٨٤ : فعاد الجواسيس الى جراهم في ترنكتات وأخبروه بسقوط طوكر في يد الدراويش فأبلغ الخبر حكومته فأمرته بالحملة عليهم في الحال وتشتيت شملهم فقام من ترنكتات بعد ظهر ٢٨ فبراير ونزل عند طابية باكر المار ذكرها وكان الدراويش قد علموا بقدومه فتجمعوا له في التيب وبعث اليهم عثمان بابن اخيه مدني بن علي مدداً حتى بلغ عددهم ٦٠٠٠ رجلا . فأرسل اليهم جراهم كتاباً ينصحهم بالتسليم وترك الحرب ودفع الكتاب الى الاميرالاي مارفي بك فألصقه براية بيضاء وسار وحده نحو الأعداء حتى قرب من التيب فغرز الراية في الارض وعاد الى الجيش ثم رجع في صباح اليوم التالي أي ٢٩ فبراير ومعه شرذمة من الفرسان الى المكان الذي غرز فيه الراية فلم يرَ الراية ولا رداً على الكتاب فصمم جراهم اذ ذاك على القتال فنظم جيشه مربعاً وجعل دواب الحملة في الوسط وسار تتقدمه طليعة من الفرسان . وكان الدراويش قد بنوا طابية على مقربة من التيب جعلوا فيها مدافعهم وخرجوا للقاء العساكر فما سار الجيش ميلاً من طابية باكر حتى أطلوا عليه ورموه بالرصاص ثم جعلوا يتقهقرون امامه كلما تقدم نحوهم حتى وصلوا الى طابيتهم فدخلوها فأمر الجنرال جراهم اذ ذاك فعزفت الموسيقى بعض ألحانها الحماسية وتقدم المربع بقدم ثابتة حتى صار على قيد مرمى القنابل فوقف فبادره الدراويش باطلاق المدافع فأطلق المربع اذ ذاك مدافعه فأسكت مدافعهم . ثم ضرب النفير فحمل المربع على الطابية فخرج عليهم قسم من

أهلها وقـــد أشهروا الأسنة وجردوا السيوف وفرسانهم في مقدمتهم فتلقاهم المربع بنيرانه فحصدهم حصداً وكان الواحـد منهم اذا أصيب بالرصاص سدّ جرحه بيده وأعاد الكرة حتى يلقى حتفه . وما زال المربع يتقدم مقتحماً نار العدو حتى امتلك الطابيـــة عنوة وفر من سلم من الأعداء الى آبار التيب فزربوا زريبة وتحصنوا فيهـا . وفي الساعة الواحدة بعد الظهر تبعهم الجيش وأخرجهم منها عنوة بعـــد قتال عنيف دام ٣ ساعات متوالية . وقتل من الانكليز في هذا اليوم ٣٤ رجلا وجرح ١٥٥ وأما قتلى الدراويش فقد زادوا عن الالفين وزاد جرحاهم عن ذلـك . وبين قتلاهم عبد الله بن حامد المشهور بأمير الساحل ومدني بن علي ابن اخي عثمان السالف ذكرهما والطاهر بن عمر ابن عم الطاهر المجذوب وموسى قيلاي الذي قال فيه عثمان انه رجل بمقام الف. ولم يقع منهم في الأسر إلا القليل لأنهم كانوا يحاربون الى آخر رمق حتى ان جريحهم كان وهو ملقى على الارض يختبط بدماءه اذا مرّ بـه عسكري يطعنه بحربة او بسيف . وقد حكي ان الطاهر بن عمر المجذوب المذكور آنفاً قال لأصحابه قبل الحملة على الجيش « اذا أصبت قبـل ان أتمكن من الوصول الى العدو فجروني برجلي حتى توصلوني اليه لعلي أتشفّى من أعداء الله بضربة ولو في آخر رمق مني ثم ادفنوني فأستريح من شؤم الدنيا » .

واسترجع الجنرال جراهم فيهذه الواقعة ٧ مدافع وشيئاً كثيراً من الاسلحة والذخائر . وفي اليوم التـالي أي ١ مارس تقدم الى طوكر فوصلها الساعة الرابعة بعد الظهر فلم يجد فيها احـداً من الدراويش بل وجد ٦٠٠ نفساً من المصريين بينهم ٧٠ رجلا من حاميتها فعاد بهم الى سواكن ثم أرسلهم الى مصر وأخذ يستعد للزحف على عثمان دقنة في تماي .

واقعة تماي (التمينيب) الثانية في ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ : وقـــد ظن الجنرال جراهم ان النصح ينجع في عثمان بعـد الذي جرى لأصحابه في التيب فكتب اليه ينصحه بالتسليم فلم يجبه فكتب ثانية اليه والى أمرائه في ٨ مارس سنة ١٨٨٤ يتهددهم بالزحف عليهم في تماي اذا لم يسلموا فأجابه عثمان بقوله :

« دع عنك النصح واستعد للقتال الذي يكون فيه هلاكك ان شاء الله» وختم جوابه هذا بختمه واختام أمرائه . فخرج الجنرال جراهم اذ ذاك بالجيش من سواكن في ١١ مارس فبات ليلته في زريبة من بنـاء باكر باشا . وفي صباح اليوم التالي (١٢ مارس) تقدم نحو تماي فالتقاه عثمان خارج الآبار فبـات جراهم بالجيش على مقربة منـه فأرسل عثمان رجاله المسلحين بالبنادق فأقلقوا الجيش الليل كله . وفي صباح الغد (١٣ مارس) الساعة ثمانية ونصف نظم جراهم جيشه في مربعين فسار المربعـان متحازيين احدهما متقهقر عن الآخر قليلا بهيئة « تدريجله » . وكان مع عثمان نحو ١٢ الفاً فجعلهم فرقتين كل فرقة صدد مربع فاخترقوا المربع الاول وغنموا بعض مدافعه ولكن المربع الثاني تغلب على فرقته وتقـــدم فأنجد المربع الاول واسترجع المدافع وصبوا على اصحاب عثمان ناراً لم يطيقوها فانهزموا شر هزيمـة فلحقوهم الى تماي فوصلوها الظهر فوجدوا ديم عثمان خالياً فأحرقوه وعادوا في اليوم الثاني الى سواكن . وقد قتل من اصحاب عثمان في هذا اليوم ٢٠٠٠ رجل وقتل من الجيش ٥ ضباط و ١٠٤ عساكر وجرح مثل ذلك من العساكر و ٨ ضباط .

وفي ١٧ مارس اعلن الاميرال هيوت ان من يأتيه برأس عثمان دقنة حياً او ميتاً يجيزه بخمسة آلاف ريال ولكن بعد ثلاثة ايام من تاريخ صدور الاعلان أتاه الامر من بلاد الانكليز بإلغائه لمخالفته لمبادىء حزب الاحرار .

وكانت الحكومة المصرية قد أقرّت على إخلاء السودان كما مرّ ووجهت بهذه المهمة غوردون باشا فحُصر في الخرطوم وطلب النجدة من حكومته فلما كانت واقعة تماي قال بعض الساسة الانكليز بوجوب فتح الطريق الى بربر وإرسال النجدة الى غوردون عليها وقال البعض الآخر بعدم صلاحية هـــذه الطريق لطولها ووعورتها وقلة مائها وخوف الغدر من أهلها الذين كانوا لم يزالوا متشيعين للمهدية فأقرّ رأي الحكومة على تركها ولكنها سلمت بكسر شوكة عثمان دقنة الذي عاد الى ديمه في تماي .

فحمل عليه جراهم ثانيـة في ٢٧ مارس ولم يكن مع عثمان اذ ذاك جيش

يصادم به فانهزم من أمامه وفرّ الى الجبال المجاورة فأحرق جراهم منازله وعاد الى سواكن .

وفي ٣ ابريل سنة ١٨٨٤ عاد الى مصر ولحقه جيشه . وفي ١٠ مايو سُمي الماجور تشمرسيد حاكماً على سواكن وجعل تحت يده اورطتان من الجيش الجديد واورطة من البحارة الانكليزية لحماية سواكن وكان على سواكن سور منيع عليه الابراج والمدافع . ولما علم عثمان دقنة بذهاب الجنرال جراهم وجيشه أشاع ان الانكليز انما أخلوا سواكن فراراً من سطوته وأخذ يجمع كلمة القبائل من جديد لحصر سواكن . ولنتركه الآن في هذا الصدد ولنأتِ على ما كان من امر غوردون وحصار الخرطوم .

الفصل الثاني عشر

في

غوردون باشا وحصار الخرطوم سنة ١٨٨٤ م

ولاية غوردون الثانية على السودان :

تقدم ان الحكومة المصرية لما بلغها خبر هلاك هكس في شيكان قرّ رأيها على اخلاء السودان وانتشال حامياتها وموظفيها منه . قيل فلما عُرض هذا القرار على النظار برئاسة شريف باشا لتصديقه قدموا استعفاءهم من الوزارة فشكل الجناب العالي مجلساً آخر برئاسة نوبار باشا في يناير سنة ١٨٨٤ وعرض القرار عليه فصدّقه وندب لهذه المهمة عبد القادر باشا فاعتذر قيل لأنه كان متيقناً الفشل بغير الجند . فندب لها غوردون باشا فحضر من بلاد الانكليز في ٢٥ يناير سنة ١٨٨٤ م . وفي اليوم التالي تشرف بمقابلة الجناب العالي فأصدر له فرماناً بتوليته حاكماً عاماً مفوضاً على السودان وأمراً آخر يتضمن الغرض الذي ندب له وهذا فحواه : « ان الغرض من إرسالكم الى السودان ارجاع الجنود والموظفين الملكيين والتجار الى مصر وذلك مع حفظ النظام في البلاد

باعادتها الى سلالة الملوك الذين حكموها قبل الفتح المصري ولنا مزيد الثقة انكم تتخذون افضل الطرق لاتمام هذه المهمة طبق رغبتنا والسلام » .

فسار غوردون في اليوم التالي (٢٧ يناير) قاصداً الخرطوم وليس معه من الأعوان سوى ستيورت باشا وابراهيم بك فوزي المتقدم ذكرهما . ويظهر من ارسال الحكومة لغوردون بهذه المهمة وقبول غوردون لها بلا عساكر تعضده ان الحكومة وغوردون لم يدركا حقيقة الحالة التي كان عليها السودان في ذلك الحين . فقد رأيت ان الثورة قد اشتعلت في السودان كله فسقط بعض حامياته في يد المهدي وأصبح البعض الآخر تحت الحصار او في خطر الحصار فكيف يتسنى لرجل واحد مهما اشتدت سطوته وحسنت سياسته ان ينتشل تلك الحاميات من مراكزها وفيها نحو ٣٠ الفاً من العساكر ومثل ذلك او أزيد من الموظفين والتجار وبين الحامية الواحدة والاخرى مئات من الأميال في برٍّ مقفر ونيل بعيد المدى قابل للانخفاض مع ما فيه من السدود والشلالات . ثم أية سلطة بقيت لسلالة الملوك الاولين بعد السلطة التي حازها المهدي في البلاد وأين الرأس الذي يجمع اولئك الملوك ويقف نداً للمهدي !

ومما زاد المركز حرجاً الخطة التي جرى عليها غوردون في بدء مهمته : قال حسين باشا خليفة مدير بربر « ان غوردون أرسل اليّ رسالة برقية من اسيوط يأمرني بها ان أبلّغ عمد البلاد وأعيانها انه سُمي والياً مفوّضاً على السودان وانه عند وصوله سيعزل جميع الموظفين الأتراك والمصريين ويولي حكاماً من اهل البلاد ليعيد الحكم كما كان قبل الفتح وانه أعفاهم من الأموال الأميرية المتأخرة لغاية سنة ١٨٨٣ ومن دفع الأموال مدة سنتين في المستقبل وانه خفض الضرائب الى نصف ما كانت عليه وألغى الأوامر الصادرة بمنع الرقيق وأذن لهم في المعاملة بالرقيق بعضهم مع بعض وأمرني بجمعهم في مركز المديرية الى ان يجيء . وعند وصوله الى كورسكو أرسل اليّ كتاباً معنوناً باسم محمد احمد يسميه فيه سلطاناً على كردوفان وكتب اليّ أمراً بارسال الكتاب الى محمد احمد مع رسول خاص مصحوب بهدية وهي جبة جوخ حمراء

وقفطان حرير احمر وطربوش احمر ومركوب احمر فأرسلت الرسول والهدية .

وعند وصول غوردون الى بربر عقد مجلساً من العمد والأعيان وألقى عليهم خطاباً أعاد فيه ما جاء في رسالته البرقية اليّ وقال ان الجناب العالي ترك السودان لأهله واني قادم الى السودان بقصد ارجاع العساكر الى مصر وليس إلا . ثم اختار ١٢ عمدة وأمرهم ان يشكلوا مجلساً كل اثنين وخميس ويحكموا فيه بالشورى وأمرني بأن لا أنفذ أمراً إلا بعد إقرار المجلس عليه . ثم عزل الحكام الأتراك وسمى عبد الماجد أبا اللكيلك ومحمد خشم الموس من كبار الميرفاب الاول مأموراً على الوجه البحري الى حلة برتي والثاني على الوجه القبلي الى حجر العسل . وأعلن الجمهور ان كل من اراد الرجوع الى مصر يرسل على نفقة الحكومة فرحل الكثير من التجار والغرباء. ثم أصدر منشوراً صرّح فيه بتسمية محمد احمد سلطاناً على كردوفان وفتح الطريق بينه وبين بربر بعد ان كان مقفلا وألصق المنشور على باب المديرية وباب الضبطية وفي شوارع المدينة فأخذ الناس يهاجرون الى المهدي افواجاً خصوصاً بعد الذي علموه من عزم الحكومة على اخلاء البلاد . وكان في جملة من هاجر اليه محمد الخير الذي افتتح المديرية باسم المهدي فيما بعد » كما سيجيء .

ثم سار غوردون الى الخرطوم فوصلها في ١٨ فبراير سنة ١٨٨٤ . قال نصحي باشا : « فاستقبله على الشاطىء جميع الجند وقناصل الدول ورؤساء الاديان والعلماء . ثم دخل ديوان المديرية وكان غاصاً بعمد البلاد ومشايخها وتجارها فأخرج فرمان توليته من جيبه ودفعه الى الشيخ حسين المجدي فتلاه على الجمهور . ثم وقف بينهم خطيباً وقال بما معناه : اني بمقتضى هذا الفرمان قد سُمّيت حاكماً مفوضاً على السودان لأنظر في ما حلّ فيه من المشاكل وأسأل الله ان يرشدنا جميعاً الى ما فيه اصلاح الحال واطمئنان البال وقد جئتكم وحدي غير مصحوب بالعساكر والاسلحة اعتماداً على معونة الله وولائكم للحكومة وانتم تعلمون شفقتي عليكم ومحبتي لكم من قبل فلا يعبث الباشبوزق بعد الآن في البلاد ولا ترون الا ما فيه راحتكم وإنماء ثروتكم ونجاح تجارتكم

وزراعتكم . ثم أشار الى ستيورت باشا الذي كان بجانبه وقال هذا الواقف أمامكم هو وكيلي ومعتمدي فأطلب اليكم إطاعة أوامره واعتباره كشخصي. ثم أمر فانصرف العساكر الى أماكنهم وذهب الى سراي الحكومة المعـدة لسكناه وأقام فيها .

وفي هذا اليوم أمر فجمعت دفاتر الضرائب على الاطيان في ساحة عمومية ووضعت فوقها السياط وآلات الضرب التي كان يستعملها الحكداريون السابقون وأضرم فيها النار . ثم زار السجون فأخلى سبيل الجميع ما عدا القتلة .

ثم تفقد العساكر على خط النار فسرّ من متانة الحصون التي أقامها عبد القـادر باشا وكان الجيش مؤلفاً من عساكر مصرية نظامية وعساكر سود نظامية وعساكر باشبوزق اتراك ومغاربة وشايقية فجعل ابراهيم بك فوزي قومنداناً على العساكر المصرية وفرج بك الزيني قومنداناً على العساكر السود والسعيد بك الجيعابي قومنداناً على العساكر الباشبوزق وحسين بك ابراهيم الشلالي وكيلا له ومنح كلا منها بعد ذلك لقب باشا . قال نصحي باشا : « ثم شرع غوردون في إخلاء الحامية ففرز القسم الاكبر من العساكر المصرية وأرسلهم بقيادتي الى ام درمان على نية ارسالهم الى مصر والاكتفاء بالعساكر السود الى ان يتم اخلاء البلاد وفرز ستيورت باشا بأمره المرضى وعيال الضباط والعساكر الذين قتلوا في شيكان والعساكر غير اللائقين للخدمة العسكرية والمرفوتين من الموظفين والكتّاب وشرع في تسفيرهم شمالاً هم ومن أراد من التجار المصريين وغيرهم وأمر ابراهيم باشا حيدر قومندان خط النار سابقاً فذهب الى بربر وأقام هناك مأموراً بتسفيرهم هم والتجار المقيمين في بربر فأرسلهم عن طريق كورسكو ثم لحقهم . وكان غوردون قد بعث برسالة برقية من كورسكو بعزل حسين باشا سرّي من وكالة الحكدارية فبرح الخرطوم قبل وصول غوردون اليها بأيام وناب عنه الكولونيل ده كوتلوجن المار ذكره فبرح الخرطوم بعد وصول غوردون بيومين . فكان مجموع من نزل الى مصر قبل ان سُدت الطريق نحو ١٠٠٠ نفس .

مخازن الخرطوم وشونها : « وفي صباح اليوم التالي أي ١٩ فبراير تفقد غوردون المخازن والشون والترسانة والخزينة وفتش دفاترها فوجد في المخازن:

٨٧٢	بندقية رمنتون	١٣،٣٢٣	دانة شنخان اجناس للمدفع الجبلي
٣٦٨٠	بندقية طرز قديم	٢،٠٤٥	حلقوم للمدفع الجبلي
٣١٥،٧٤٠	دستة جبخانة رمنتون	٩،٢٣٤	خرطوشة للمدفع الجبلي
١٠٣،٠٦٨	« « طرز قديم	١٣،٧١٠	كلة طرز قديم
٣،٧٠٠	« « للمتربليوز	٥٧٠	حلقوم لمدفع اوردي طرز قديم
١،٣٦٩	« « جديد	٢٥٥	قنطار بارود حب رفيع للبنادق
٢،٥١٢	خرطوشة للكروب	٢٧٧	« « خشن للمدافع
١،٩٠٠	دانة كروب قطر ٨	١٩	« « ملون للزينة
٢٥٠	حلقوم كروب .	٣٧٦،٠٠٠	كبسول طرز قديم للبنادق
١،٢٥٥	طلق ساروخ	٨٥٠،٠٩٠	كبسول طرز جديد لبنادق الرمنتون

ووجد في الشون :

٢٣،٥٠٠	اردب دره	٢١	قنطار ريش نعام
،١٠٠	اردب قمح	٣،٠٠٠	اردب ملح
٦٠،٠٠٠	اوقة ارز هندي	٤١٢	قنطار خرنيت
١٢٥٠،٠٠٠	اوقة بقسماط	٦٠٠	قنطار صابون
١٤	قنطار عسل	١٠٠٠	قنطار زيت
٢٠٠	قنطار تمر هندي	١٠٠٠	قنطار شحم

المجلس الوطني : «ثم نظر في تنظيم مدينة الخرطوم فأنشأ مجلساً وطنياً من أعيانها لفصل المشاكل بين الاهلين . وارسل في طلب عوض الكريم ابي سن شيخ الشكرية ليكون مديراً على الخرطوم بدلاً من علي بك جلاّب .

منشور غوردون : ثم وزّع منشوراً على اهل الخرطوم وضواحيها فقال: « ان السودان قد فُصل عن مصر فصلا تاماً وقد جئتكم حاكماً مفوضاً عليه فجعلت محمد احمد سلطاناً على كردوفان وألغيت الأوامر الصادرة في منع الرقيق وأغضيت عن المتأخر من الضرائب لغاية ١٨٨٣ وعن ضرائب سنتين في المستقبل وسأجعل حكومة وطنيـة من اهل البلاد ليحكم السودان نفسه

بنفسه وقد ندبت الشيخ عوض الكريم ابا سن ليكون مديراً على الخرطوم ».
وهو القول الذي أشاعه في بربر بعينه .

ولم تُعلم الحكمة التي أرادها غوردون في افشاء الغرض من رسالته لأهل السودان ثم في تسمية محمد احمد سلطاناً على كردوفان فان محمد احمد قد أصبح بعد واقعة شيكان سلطاناً معنوياً على السودان كله وسلطاناً فعلياً على جميع السودان الغربي فهل يحتفل بعد بلقب « سلطان على كردوفان » من حكومة جرّد سيفه لقتالها وقهر جنودها المرة بعد المرة . وما الفائدة في اعطائه هذا اللقب رسمياً ثم ما الفائدة في تبليغ الاهلين قصد الحكومة في اخلاء السودان في مثل تلك الأحوال سوى اظهار العجز امام المهدي وحمل الاهلين الذين كان لهم بقية امل في الحكومة على تركها بتاتاً والانضمام الى المهدي قبل فوات الفرصة .

مناشير المهدي : وقد تقدم لنا ان المهدي بعد واقعة شيكان أخذ يستعد للزحف على الخرطوم وكتب الى اهل الجزيرة يستحثهم على القيام لنصرة الدين وحصر الخرطوم الى ان يجيء بنفسه . وقد جاهر الشيخ محمد البصير حمو المهدي بالثورة في جهات النيل الازرق توّاً بعد واقعة شيكان وحصر صالح الملك في فداسي كما سيجيء . وكتب المهدي يتهدد المشايخ الذين لم ينصروه بعد وهاك ما كتبه الى الشيخ العُبيد ولد بدر (في ام ضبان) وأعوانه :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم .

« وبعد فجزيل السلام من عبد ربه الواثق بمولاه محمد المهدي بن عبد الله الى حبيبه العبيد بدر وكافة من كان لله وبذل نفسه في نصرة الدين من عباده المؤمنين أما بعد فالذي نعلمكم به أيها الاخوان ان قد تكررت منا اليكم المخاطبات والانذارات والمواعظ التي يهون في جنبها ارتكاب كل صعب شديد في طاعة الملك المجيد وقد كنا نعدكم للنائبات التي تزلّ من عدم الصبر عليها

اقدام الثقات لتعمير بواطنكم وأوقاتكم بذكر الله ودلالتكم لخلق الله وعكوفكم على قدم الصدق التي تنافس فيه اهل الله وحزبه وأنتم اهل دراية ومعرفة وقد علمتم ان القلب اذا خلا من غير الله يمتلي نوراً ويفيض منه الى خلق الله ولا شك ان الرباني المتمسك بالله كأمثالكم شأنه هكذا وسيماه هي عدم الخشية من احد غير الله والى الآن أنتم معدودون عندنا لأجل ذلك وقد بلغنا عنكم عدم الاهتمام والقيام لقتال الكفرة حيث ندبكم محمد الطيب البصير لذلك فتخلفتم عن اجابته وما كان لكم ان ترغبوا بأنفسكم عن الله ورسوله وتشاركوا المتخلفين عن رسول الله ﷺ فأي عذر لكم بعد أمر الله ورسوله وأمرنا هذا وان كنتم في أشد البلايا فان الدين بالبلوى يزيد تجملا ولا يعرف الذهب من الزيف إلا بحرقه في النار ولا يرغب عن ملة ابراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام إلا من سفه نفسه وما أراكم ترضون بذلك لكونكم عندنا من الأخيار فاطلبوا ما عند الله فالبدار البدار وتوبوا مما توقفتم لأجله فانه لا شيء يعتذر به ويستحي المؤمن اذا وقف بين يدي الله تعالى وينكس رأسه ذليلا منكسراً حيث آثر الغير على محبة الله وتأنى من طلب الله لأجل شيء ظنه عذر وتوانى عن نصرة الله فيود ان تسوى به الارض من شدة وجله وخجله من الله حيث انكشف له حقيقة حاله عند الله وبعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور. فاذا بلغك جوابي هذا فشمر وقوّ عزمك في الله وشد حزام العزم والحزم واجمع همك في الله وارسل لجميع أتباعك وأحبابك وأهلك وعشيرتك في الله وجاهر في معاداة الكفرة واقطع السكك وبارز بالعداوة ظاهراً وباطناً بالقتل والاسر والرباط والحصار ولا تتوقف أبداً لأمر ما ان كنت ممتثلا مصدقاً بمهديتنا افعل ذلك ولا تبالِ حكم ما فعل محمد الطيب البصير وان خشيت فانضم اليه وهاجر من محلك الذي انت فيه واتحد معه كيد واحدة فلا يكون لك بد عن هذا ابداً فحرض المؤمنين على القتال وسلم نفسك واتباعك من الحساب والسؤال فان من قصد الله ورسوله وإقامة الدين يجاهد عدو الله ورسوله ولو مع شلكاوي فلا تضر نفسك فلا يكون رضائي

عليك الا بفعل ما أمرتك من احد الامرين مع عود الافادة الينا عاجلاً لنعلم ما انت عليه والسلام ولا تجاوبنا بغير مـا أمرناك ولا تبسط لنا الاعذار وها قد أنذرناك ومن بلغه الانذار لا حق له في الاعتذار والسلام » .

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمـد وآله مع التسليم .

« وبعد فمن عبد ربه محمد المهدي بن عبدالله الى احبابه في الله المؤمنين بالله وبكتابه خصوصاً دفع الله تلميذ العبيد ولد بدر وكافة عصبته ورجاله وأتباعه اجمعين . اما بعد فالذي نعلمكم به ايها الاحباب انه جـاء الحق وزهق الباطل وقد علمتم ان خروج المهدي وظهوره كقيام القيـامة تنصح فيه اهل الدين والايمان وينكشف عن الصادقين من الاحباب وانتم أبنـاء الطريقة وخدمتها المريدين لحرث الآخرة ومجتهدين فيها وهذه سنة محمد رسول الله ﷺ قد ظلمت وأيدها الله بظهورنا وأوجب عليكم طاعتنا ونصرتنا في الله لإقامة الدين وترك كل ما لهى وشغل من مال وبنين . وحيث فهمتم ذلك وفاتتكم الهجرة الاولى وكان الله ورسوله والجهـاد في سبيله أحب اليكم من كل شيء سواه فبمجرد وصول جوابنا اليكم صحبة رافعه محمد النابر تحزبوا في الله احزاباً احزاباً وجهزوا حالكم واستعدوا للقتال والجهاد للكفرة بكل ما أمكنكم وانضموا الى العبيد بدر وبمجرد سماعكم بحلولنا بالبحر الابيض تقوموا بكامل رجالكم خفافاً وثقالاً وقابلوا الخرطوم بجهتكم التي يقال لها القبة وحاصروا أعداء الله وضيقوا عليهم فان الله يخزيهم وينصركم عليهم فاني موعود بالنصر والظفر عليهم باذن الله تعالى ولو كنت وحدي فمن تخلف بعد مجيئنا فدمه هدر وماله واولاده غنيمة للمسلمين يكون معلومكم ذلك وبعده السلام . وايضاً كتبنـا لوالدكم العبيد بالحصار والجهاد تجاه القبة للخرطوم وانه يساعدكم على هلاك الكفرة فتعاونوا عليهم فان المؤمنين كالبنيان يشد بعضه بالبعض يكون معلومكم والسلام» اه.

وكتب مثل ذلك الى الشيخ المضوي عبـد الرحمن المـار ذكره . والشيخ المضوي والشيخ العبيد همـا كبيرا الطريقة القادرية من فرع تاج الدين البهاري

وكثير من اهل الجزيرة والشرق على طريقتهما ولم يكونوا مصدقين المهدي ولكن عجز الحكومة عن إذلاله اضطرهما الى مسالمته والبقاء على الحياد الى ان ترجح احدى القوتين على الاخرى فيتبعانها. فما زالا يتتبعان اخبار الحكومة والمهدي الى ان كانت واقعة شيكان وقدم غوردون وحده بلا جند بقصد اخلاء السودان وقام الشيخ محمد البصير في الجزيرة وحصير فداسي كما أشرنا قبلاً فلم يريا بعد ذلك بدّاً من الأخذ بقول المهدي والقيام بنصرته فرفعا رايته وأخذا يستعدان لحصر الخرطوم .

وكان غوردون بعد ان وزع منشوره المار ذكره قد ارسل وكيله ستيورت باشا في باخرة على البحر الابيض لأجل تأمين الأهـالي ومعرفة تأثير المنشور وصحبه الشيخ حسين عبد الرحيم شيخ الدويم والشيخ عبدالقادر قاضي الكلاكلة وغيرهما من أعيان البلاد فلما وصلوا الدويم وجدوا العربان متجمعين للثورة تحت راية احمد المكاشف وما قربوا منهم حتى بادروهم باطلاق الرصاص فانقلبوا راجعين الى الخرطوم .

وفي هذه الأثنـاء ارسل الشيخ عوض الكريم ابو سن ابنه علي الهد الى الخرطوم فأخبر غوردون ان الثورة اشتعلت في جميع بلاد النيل الازرق ومحمد البصير لم يزل محـاصراً لصالح الملك في فداسي وان منشوره لم يكن له أقل تأثير ولذلك فهو لا يستطيع المجيء الى الخرطوم ويرى ان بقـاءه في جهات النيل الازرق أصلح للحكومة .

فلمـا علم اهل مدينة الخرطوم حال البلاد قلقوا واضطربوا وجاؤوا الى غوردون زمراً من تجار ومتسببين وصناع من وطنيين ومصريين وافرنج وقالوا له : إن كنت لم تزل مصمماً على ارسال العساكر فنسألك ان تسعى في ارسالنا قبلهم. وفرّ كثير من الوطنيين من المدينة وثاروا مع الثائرين وفي جملتهم الشيخ عبد القادر قاضي الكلاكلة .

طلب غوردون للزبير : فرأى غوردون الآن ان السودان اذا تُرك لأهله

فأهله لا رأس لهم يجمع كلمتهم لأنهم قبائل شتى لكل قبيلة منهم شيخ او ملك مستقل عن الآخر فاذا تركهم وشأنهم لم يروا بدّاً من الانضمام الى المهدي القائم بدعوى الرئاسة على الكون كله . فأراد ان يجعل له في السودان ندّاً تجتمع عليه القبائل فترجح كلمته على كلمة المهدي فلم يرَ ندّاً أفضل من الزبير لأنه فضلاً عن علوّ نسبه على نسب المهدي فهو معروف عند اهل السودان كافة بالكرم والشجاعة وحسن السياسة وأهل الخرطوم وضواحيها هم أهله وله منن جمة على كثير منهم منذ كان حاكماً على بحر الغزال ودارفور . وكان الزبير اذ ذاك في مصر فبعث غوردون يطلب ارساله الى الخرطوم ليولّيه السودان على الشروط الآتية :

« ١ – ان يمنح الزبير رتبة فريق والنيشان العثماني الاول ويُجعل حاكماً عاماً على السودان الى حد الخندق من اعمال دنقلة براتب ٦٠٠٠ جنيه في السنة .

٢ – ان يُمنح الحرية المطلقة في ادارة الشؤون الملكية والعسكرية فيولّي من يشاء ويعزل من يشاء وينظم المالية والترسانة والضرائب وجميع انواع الدخل والخرج .

٣ – ان يُعطى السلطة لمنح رتب ملكية وعسكرية الى رتبة ميرالاي على ان يطلب عرائضها من خديوي مصر .

٤ – ان تجعل له الحكومة المصرية إعانة سنوية قدرها مليونان ونصف مليون جنيه وهي قيمة ما كان يُنفق على السودان من قبل وذلك لمدة سنتين فقط .

٥ – ان يُترك له جميع ما للحكومة في السودان من الأسلحة والذخائر والوابورات .

٦ – ان تساعده الجنود الانكليزية على رفع الحصار عن الخرطوم وسنار وسواكن .

٧ – ان يشمل السودان جميع بلاد سواكن والقضارف وكسلا والقلابات وسنار والخرطوم وبربر ودنقلة الى حد الخندق . اما مصوع وسنهيت فتفصلان

عن السودان وأما بحر الغزال وخط الاستواء فتخليان ويؤتى بوظفيها الى الخرطوم او مصر .

٨ – ان يُنشأ جمرك في سواكن ويُضمّ دخله الى مالية السودان اما في الخندق فلا يكون جمرك بل تُعفى البضائع الصادرة والواردة من الرسوم .

٩ – ان تبقى تجارة الرقيق ممنوعة بموجب الاتفاق الذي أُبرم بين الدولة الانكليزية ومصر .

١٠ – ان تحكر طرق السودان لحسين باشا خليفة (مدير بربر) ولذريته من بعده » .

وقد صرّح غوردون بأنه لا يمكن استرجاع النظام الى السودان ومنع امتداد الثورة الى مصر الا بتوليج الامر كله للزبير فجاءه الجواب من حكومته في ٢٦ فبراير بعدم استصواب ارسال الزبير فبعث بعد يومين يلحّ عليها في ارساله ويبين الاسباب ولما لم تجبه عاد في ٤ مارس الى إلحاحه . قيل وكان الجناب العالي والسر أفلن بارنج (اللورد كرومر) ونوبار باشا رئيس مجلس النظار موافقين على ارسال الزبير الى الخرطوم ولكن جمعية ابطال الرقيق في لندن هي التي عارضت في ارساله وشددت المعارضة فجاءه الجواب من حكومته في ٥ مارس بأنه قد قرّ الرأي نهائياً على عدم ارسال الزبير الى الخرطوم .

فلما رأى غوردون ان حكومته لا تسمح له بالزبير ورأى استعداد الأهلين لحصر الخرطوم أخذ يهتم بتحصينها فأرجع اليها العساكر المصرية من طابية ام درمان ولم يُبقِ فيها سوى اورطة واحدة ومدفع وساروخ لحمايتها . ثم أمر فرج باشا الزيني قومندان العساكر السودانية فشكل مجلساً عسكرياً من الضباط العظام تحت رئاسته ونظر في أمر الدفاع فقرّ رأي المجلس على وضع جميع العساكر المصرية والسودانية والباشبوزق والمدافع على خط النار بين النيل الابيض والنيل الازرق . عدا اوردي من الباشبوزق يوضع في قصر

راسخ بك المعروف، بسراي الشرق تجاه سراي الخرطوم . وبلوك من العساكر النظامية ومدفع واحد في طابية المقرن عند التقاء النيلين . مع بقاء الاورطة في طابية ام درمان بالغرب فصدق غوردون هذا القرار ونُفّذ في الحال .

واقعة الحلفاية في ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ : ومـا أتمّ غوردون استعداده حتى حضر الجواسيس وأخبروه بأن الشيخ العبيد زاحف بجيوش تنيف على ٣٠ الفاً لحصر الخرطوم من جهة الشرق فأرسل ٥٠٠ من الباشبوزق مدداً الى سراي الشرق وفتح المزاغل في جدرانها وخندق حولها وأنشأ فيها محطة تلغرافية فوصل بينها وبين سراي الخرطوم . ثم أرسل ٥٠٠ من الباشبوزق الشايقية الى الحلفاية لمنع الدراويش من احتلالها . ولم يكن إلا القليل حتى أقبلت جيوش الشيخ العبيد وعليها ابناه ابرهيم والعباس والشيخ المضوي ونزلوا على الشايقية في الحلفاية فهزموهم منها بعد ان فتكوا بهم واحتلوها مكانهم . وكان غوردون باشا واقفاً على سطح السراي يشاهد القتال بالمنظار فلما رأى انهزام الشايقية ارسل ابرهيم بك فوزي في باخرتين مشحونتين بالعساكر فوجد الدراويش قد شادوا المتاريس والطوابي وتحصنوا بها مع انه لم يمض على احتلالهم إياها سوى بضع ساعات فحاربهم مستبسلا الى ان سدل الليل حجابه فرجع عنهم بعد ان زحزحهم من حصونهم وقد أصابته رصاصة في فخذه اليمنى فشوهتها فأنعم عليه غوردون برتبة اللواء . وكان تاريخ هذه الواقعة ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ وهي اول وقائع حصار الخرطوم .

واقعة الشرق في ١٦ مارس سنة ١٨٨٤ : وصمم غوردون رأيه على طرد الدراويش من الحلفاية فجهز جيشاً مؤلفاً من ٣٠٠٠ من الباشبوزق و ١٠٠٠ من الجهادية ومدفع جبلي وعقد لواءه للسعيد باشا ووكيله حسين باشا ابرهيم الشلالي المار ذكرهما فخرجا من سراي الشرق وسارا نحو الحلفاية فالتقاهم الدراويش في منتصف الطريق فانقسموا ثلاث فرق : فرقة عن يمينهم في غابة الملاحة وفرقة عن يسارهم شمالي القبة وفرقة أمامهم قيل وكان السعيد باشا

ووكيله متواطئين معهم على الفتك بالجيش فلما صاروا على بعد مرمى الرصاص لم يأمرا العساكر باطلاق النار فهاج قومندان الجهادية وأمر رجال المدافع ومقدمة القلعة فأطلقوا نيرانهم وأخذ الدراويش في الانهزام فأمر حسين باشا اذ ذاك ملازم الطوبجية بالكف عن الضرب ولما لم يفعل ضربه بسيفه ضربة أطاحت رأسه. وأمر سعيد باشا البروجي بضرب « نوبة رجعة » ولما اعترضه الصاغ قال انا القومندان دون غيري وأعاد الامر للبروجي فتوقف فضربه بالسيف فقتله ونادى بروجياً آخر فخشي ان يصيبه ما أصاب رفيقه فضرب نوبة رجعة وأخذ العساكر في التقهقر فعجب الضباط من هذا الامر وأخذ خشم الموس ومحمد أغا قرضية وغيرهما من الضباط يستوقفون العساكر للقتال ولكن كان السعيد والحسين يردانهم بالسيف وقد جعل كل منهما طربوشه في فمه فظنّ انها العلامة التي اتفقا عليها مع الدراويش . ولم يبقَ في ساحة القتال سوى ضابط من الباشبوزق يدعى موّلى بك وقد كان متولياً ادارة مدفع فبقي يقاتل الدراويش حتى تكاثروا عليه فقتلوه وأخذوا المدفع وتأثروا العساكر المنهزمين فأدركوا اربعة جمال محملة ذخائر فغنموها. وكان قتلى الجيش في هذا اليوم نحو ٤٠٠ رجل وأما الدراويش فلم يُقتل منهم سوى ٢٠ رجلا. وتاريخ هذه الواقعة الاحد في ١٦ مارس سنة ١٨٨٤ وقد عُرفت « بواقعة الشرق » لأنها كانت في شرق النيل .

وكان غوردون باشا يشاهد الواقعة من سطح السراي وقد كاد يتمزق من الغيظ لما رآه من انهزام العساكر فأرسل ستيورت باشا الى قصر راسخ ليتحقق سبب انهزامهم فأخبروه بالذي جرى فأبلغه غوردون تلغرافياً فأمر باحضار السعيد والحسين الى الخرطوم وشكل مجلساً عسكرياً من الضباط والسناجق برئاسة فرج باشا الزيني لمحاكمتهما وفي أثناء ذلك قدّم اهل العساكر الذين قُتلوا في الواقعة عرائض شديدة الى غوردون يطلبون بها قتل السعيد والحسين وإلا قتلوهما بأيديهم وأظهر التحقيق انهما كانا متواطئين مع الدراويش فحكم المجلس عليهما بالاعدام وصدّق غوردون الحكم فقتلا . وأنعم على خشم الموس

بالرتبة الثالثة وجعله قومنداناً على الشايقية مكافأة له على بسالته في واقعة الشرق .

وقد رأيت كتاباً من المهدي الى زقل بتاريخ ١٨ جمادى الآخرة سنة ١٣٠١ هـ ٥ ابريل سنة ١٨٨٤ م يشير فيه الى الواقعتين السابقتين قال :
« ... وايضاً نعلمكم انه في يومي تأريخه حضر لنا جواب من الشيخ العبيد بدر يذكر فيه بعد ما أتاه جوابنا له بالجهاد انه وجّه ابنه ابراهيم العبيد ومعه الانصار لأجل محاصرة الخرطوم فوافو مراكب ملآنات عساكر متوجهة للخرطوم تحت حلة الحلفاية فتقابلوا معهم وهزموهم وضبطوا منهم مابة وخمسين عسكرياً من ضباط وغيرهم واستلموا بعضاً من اسلحتهم النارية والباقون ولوا الادبار . وكذلك بيوم الاحد الموافق ١٨ جمادى اول سنة ١٣٠١ في ساعة الضحى خرجت اليهم جردة تساوي اربعة آلاف من قيقر قصر راسخ بالشرق فتقاتلوا مع المذكورين فهزموهم في أقل من نصف ساعة وقتلوا منهم اربعماية نفر واستلموا منهم مدفع وجبخانة اربعة جمال والشهداء من الانصار عشرون شهيداً » ...

حصار الخرطوم : وزاد انصار المهدي جرأة بعد واقعة الشرق فتقدموا لحصر الخرطوم وام درمان معاً فنزل ابراهيم ابن الشيخ العبيد والشيخ المضوي في قبة خوجلي فحصرا الخرطوم من الشمال واجتاز العباس ابن الشيخ العبيد النيل الازرق ونزل في الجريف فحصرها من الجنوب من جهة النيل الازرق . ثم ان عبد القادر قاضي الكلاكلة بعد فراره من الخرطوم نادى باسم المهدي فاجتمع عليه نحو ٣٠٠٠ رجل وأكثرهم مسلحون بالاسلحة النارية فنزل بهم في حلة الكلاكلة وحصر الخرطوم من جهة البحر الابيض . وكان المهدي قد كتب الى مصطفى الامين ام حقّين المقيم بجزيرة اسلانج شمالي الحلفاية فجمع نحو ٢٠٠٠ رجل ونزل في خورشنبات فحصر ام درمان من جهة الشمال. وجمع احمد ابو ضفيرة شيخ الجموعية نحو ٢٠٠٠ من عربان الجموعية والفتيحاب ونزل في ابي سعد فحصر ام درمان من جهة الجنوب .

ولما استقرّ بهم المقام ارسل كل منهم كتاباً الى غوردون باشا يدعوه الى التسليم وهذا ما كتبه اليه المضوي كما رواه لي :
« اما بعد فقد بلغني انك تزعم ان معظم اهل السودان مجبورون على اتباع محمد احمد المهدي وليس لهم الرغبة فيه باطناً وانك تحب خلاصهم منه فاعلم ان جميع اهل السودان خاصتهم وعامتهم قد اتبعوا محمد احمد قلباً وقالباً ودليل ذلك بذلهم أرواحهم بين يديه في الحروب واني أنصح لك ان تفعل احد امرين : إما ان تسلم للمهدي فتسلم بمن معك من اهل الخرطوم فيؤتيك الله أجرك مرتين او ان ترحل الى بلادك فتنجو من هذه المهالك فانه لا خير لك في البقاء هنا على هذا الحال لأنك إن بقيت فلا بد من هلاكك انت وجميع رجالك والسلام » .

فكسى غوردون رسل الزعماء وأرجعهم بجواب هذا مفاده : « اعلموا ان محمد احمد الذي اتبعتموه ليس المهدي المنتظر على ما أثبتته النصوص الشرعية والمعلوم عندي انه سلطان كردوفان كما سبقت فأخبرته في كتاب خاص . وأما نصيحتكم إليّ بالتسليم فتدل على جهلكم وغروركم ولا يسوغ لي ان أسلم لكم العساكر والرعية لتعاملوهم بما تعوّدتموه من القتل والنهب والسلب واعلموا انكم اذا لم ترجعوا عما انتم فيه ستبلون بجيوش من قبل الحكومة الخديوية والدولة الانكليزية لا طاقة لكم بها والعاقل من تدبر أمره والسلام».

جواب المهدي على كتاب غوردون : ثم لم يكن الا القليل حتى حضر الرسول (عبد الله العبادي) الذي أرسل بالهدية والكتاب الى المهدي ومعه رسولان من قبل المهدي فوقفوا امام السور ورفعوا راية بيضاء فأمر غوردون باحضارهم اليه وكان رسولا المهدي مسلحين فتقدم المأمور اليهما ليجردهما من سلاحهما قبل دخولهما على غوردون فأبيا فسمح لهما غوردون بالدخول عليه بسلاحهما ثم أمر لهما بكرسيين فجلسا وأمر ابراهيم بك رشدي باشكاتب الحكمدارية باستلام ما معهما فاذا بالهدية التي ارسلها غوردون مردودة ومعها هدية من المهدي وهي بدلة من لباس الدراويش وكتاب هذه صورته :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم .

« وبعد فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدي بن عبد الله الى عزيز بريطانية والخديوية غوردون باشا . قد وصلنا جوابك وفهمنا ما فيه والحال انك تزعم ارادة اصلاح المسلمين وفتح الطرق لزيارة قبر النبي ﷺ واتصال المودة فيما بيننا وبينكم وحل المسيحية من النصارى والمسلمانيين وان تجعلنا سلطاناً على كردوفان فأقول والامر لله اني قد دعوت العباد الى صلاحهم وما يقربهم من ربهم وان يفرغوا من الدنيا الفانية الى دار البقاء ويعملوا بما يصلحهم في آخرتهم وقد كتبت الى حكمدار الخرطوم وأنا بأبا بدعايته الى الحق وبأن مهديتي من الله ورسوله ولست في ذلك بمتحيل ولا مريد ملكاً ولا جاهاً ولا مالاً وانما انا عبد احب المسكنة والمساكين وأكره الفخر وتعزز السلاطين ونبوهم عن الحق المبين لما جُبلوا عليه من حب الجاه والمال والبنين وهذا هو الذي صدهم عن صلاحهم وأخذ نصيبهم من ربهم فأخذوا الفاني وتركوا الباقي واشتغلوا بما لا يكون من الفانيات ولم يسمعوا قول الله ولا رسوله ولم يذكروا خبر القرون الذين لم يغن عنهم ذلك شيئاً وتندموا على قدر الذي تمتعوا به فأيدني الله تعالى بالمهدية الكبرى لدلالتهم الى الله تعالى وليتركوا العز الفاني والنعيم الفاني الى العز الدائم والنعيم الأبدي في دار النعيم المقيم ولأعرّفهم غرور من يريد العاجلة ويظن انه ساع في رضاء الله ويكون له نصيب في الآخرة وقد قال المسيح عليه السلام : يا معشر الحواريين ابنوا على موج البحر داراً تلكم الدنيا فلا تتخذوها قراراً ومن ظن انه يخوض البحر من غير بلل فهو مغرور فكذلك من ظن انه يجمع الدنيا ويريد عزها وجاهها ويكون له في الآخرة شان . فأنب الى الله الباقي واخضع لجلاله واطلب عز الآخرة ولا تظن ان هذه الدنيا دار تسعى لملكها وعزها وكيف من يكون على خلاف سكة النبي ﷺ يفتح باب زيارة قبره ولم يكن النبي ﷺ ممن يرغب زيارة الكلاب كما ورد ان الدنيا جيفة وطلابها كلاب ولم يكن يرغب من عبد غير الله ونسي الله وأعرض عن

كلامه وطلب متاع الحياة الفانية فان كنت شفيقاً على المسلمين فبالاول اشفق على نفسك وخلصها من سخط خالقها وقوّمها على اتباع الدين الحق باتباع سيدنا محمد رسول الله ﷺ الذي أحيا ما اندرس من ملل الأنبياء والمرسلين وأتى مصدقاً لما بين يديه من الكتب فجميع الأنبياء عليهم السلام لو حضروه لما سلكوا غير ملته وكلهم يتمنون ان يكونوا من أمته ومن حضر بعثته وما بعد لا يقبل منه ديناً غير سكته فطهّر نفسك اولاً بالدخول في ملته ثم اشفق على أمته بسلوك سنته فعند هذا فأنت الشفيق ومن غير هذا فما لك من المحقين رفيق كيف وقد قال الله تعالى: يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولّهم منكم فانه منهم ان الله لا يهدي القوم الظالمين الى ان قال : وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلوة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ومن يتولّ الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون . واننا قد امتثلنا أمر الله فما نتخذ ولياً إلا الله ورسوله والمؤمنين وعلى ذلك قد وعد الله بالغلبة كما سمعته من قول الله . هذا وما دام ان الله يقول لهم الغالبون فلا غلبة لغيرهم فان رجعت عما انت عليه من ملة غير الاسلام وأنبت الى الله ورسوله واخترت الآخرة نتخذك ولياً وتكون من اخواننا وتكون المودة المطلوبة عند الله ورسوله وتكون ممن امتثل أمر الله بعد هذه الآيات فاستحق الوعد والبشارة في قوله تعالى : ولو ان أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفّرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنة النعيم ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم .. الآية . فبعد هذا تتصل المحبة والمودة فيما بيننا وبينك وتكون ممن عمل بالقرآن والتوراة والانجيل وتكون قد اتبعت باتباع نبينا محمد ﷺ عيسى وجميع الرسل والنبيين وحزت الخير الأبدي . وإلا حيث علمت ان حزب الله الذين وليهم الله ورسوله والذين آمنوا هم الغالبون من كلام الله فاعلم ان حزب الله أوصل اليك ومزيل لك عما شاركت به الله خالقك فاستدعيت ملك عباده وأرضه مع ان الارض لله يورثها عباده الصالحين وأما المسلمانيون

والمسيحيون الذين دعوت بطلقهم اليك فأنا أريد لهم الصلاح والنفع عند الله وفي دار الأبد كما أريده لك ولكافة عباد الله فلا أبعدهم من جنتهم الى محنتهم فان الله قد أيدني رحمة للعباد لأنقذهم من الهلاك الذين هم واقعون فيه لولا رحمة الله بظهوري فيهم . واعلم اني المهدي المنتظر خليفة رسول الله ﷺ فلا حاجة لي بالسلطنة ولا بملك كردوفان ولا غيرها ولا في مال الدنيا ولا زخرفها وانما أنا عبد الله دالٌ الى الله والى ما عنده فمن كان سعيداً أجابني واتبعني ومن كان شقياً أعرض عن دلالتي فأزاله الله عن موضعه وأذله وعذبه عذاب الأبد وقد أيدني الله تعالى بالأنبياء والمرسلين والملائكة والمقربين وجميع الأولياء والصالحين لإحياء دينه وقد بشرني النبي ﷺ ان جميع من يلقاني بعداوة يخذله الله ويهزمه ولو كان الثقلين الانس والجن فلا تغتر فتهلك كما هلك اخوانك فافهم وسلم تسلم . وأما الهدية التي أرسلتها لنا فعلى حسب نية الخير جزاك الله الخير وهداك الى الصواب واعلم انه كما كتبنا لك انا لا نرغب متاع الحياة الدنيا وزينتها وانما هي قصد المترفين الذين لم يكن لهم عند الله نصيب فما هي مرسلة اليك مع ما ترغبه من اللبس لنفسنا ولأصحابنا الذين يريدون الآخرة ويرغبون ما عند الله من الخير الباقي الأبدي ليستحقوا بذلك نعيم الأبد وملك الدوام كما درج على ذلك الأنبياء والمرسلون وجميع السعداء من عباد الله الصالحين وتعلم ذلك انت حقيقة من سيرة عيسى عليه السلام وحواريه وقد قال: كبيت لكم الدنيا فلا تنعشوها بعدي فتعلم بذلك ان من خالفه من الاحبار والرهبان وجميع ما يدعى أتباعه ليسوا محقين وانما غرّتهم الحياة الفانية والأمتعة الآئلة إلى ان تكون جيفة وعذرة ثم عد ما محضا فتكون حسرة وندماً عند فراقها ولما فوتته من إكتساب خيرات الدوام . ثم ان مثل هديتك عندنا كثير ولكن أعرضنا عنه طلباً لما عند الله وأقول لك في ذلك كما قال سليمان عليه السلام لبلقيس وقومها : أتمدونني بمال فما آتاني الله خير مما آتيكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قِبَل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون . واعلم انك اذا أتيتنا مسلماً نربيك ونريك من النور

ما يطمئن به قلبك ويزول به طمعك في الدنيا وما فيها ثم بعد ذلك إن رأينا فيك خيراً وصلاحاً للمسلمين ولبّيناك كما فعلنا ذلك بمحمد خالد المشهور بزقل مدير دارة سابقاً فانه لما أتانا ورأى الحق وفرح بلقائنا غاية وندم على ما فات مما ضيعه من عمره في الفاني فاطمأن قلبه بالله واختار الآخرة ووثق بالله ولبيناه على دارفور وقد كتب لنا قبل ذلك عبد القادر سلاطين بالتسليم فأكرمناه والى الآن نريد كمال تربيته وهو الآن في خير كثير وكذلك السيد جمعة الذي كان مدير الفاشر الآن أرسلنا الى محمد خالد المذكور يأتي به الينا لكمال التربية والارشاد وبلغنا حسن اسلام الدمتري سجاده وصدق أتباعه لنا وانابته للآخرة . وكذلك جميع امراء النقط بدارفور قد أذعنوا لله كباقي سلاطين دارفور وسلموا جميعاً أمرهم الينا في حب الله ورسوله فحسن تسليمهم واتباعهم لنا. وكذلك الملك آدم ملك جبال تقلي الآن أتى مهاجراً لما رأى الحق وحسن اتباعه وصدقه وقد أكرمناه وهو الآن معنا بخير كثير وهلمَّ جرّاً فكل سعيد لا بد ان يتصل بنا من جميع أقطار الارض ومن أبى لا بد ان يخذله الله ويعذبه في الآخرة كما أشار الى ذلك النبي ﷺ مراراً . وليكن معلوماً عندك يا حضرة الباشا ان جميع الذين قتلوا على يدي قد أنذرتهم اولاً انذاراً بليغاً وها هي واصلة اليك انذار ولد الشلالي بعد مخاطبته لي وانذار هكس بأجوبة عديدة للعامة وجواب مخصوص له ولأكابر جيشه وقد أرسلنا الى باشة الابيض بجواب فقتل رسلنا وبعد ان وقع في يدنا أكرمناه وأعطيناه جبة جميلة ليتدرج الى الصدق مع الله ولا زلنا نكرمه ونعظمه ليقتدي بنا ويصدق مع الله فيكون من الاصحاب الذين هم كالنفس فلم يصدق ولا زال يقع فيما يهلكه ونحن نصفح عنه حتى أخذته نيته فمات ومع ذلك لأجل مبايعته لي ومجالسته معي أياماً قد أتانا خبر بعد موته أنه عفي عنه في الآخرة فصار من السعداء والعبد اذا كان يسعد في الآخرة فهو المقصود ولا خير في الدنيا ولا في نعيمها بل انما متاعها يكثر الحسرة والحبس فقط يوم القيامة ونيتي بالعباد سعادتهم في آخرتهم الأبدية وازالة الهلاك عنهم من الله ولذلك لاطفت جميع الأكابر واهل الدولة

بالقول والفعل ليعرفوا ما عند الله فيرغبوا فيه ويتركوا الخسيس الفاني وهكذا جميع من وقع في قبضتنا من الأكابر من الدولة والحكام ما عملنا معه إلا الخير والاكرام فمن صدق منهم معناً فهم الآن في خير كثير وازدياد شرف السلام ٧ جمادى الاولى سنة ١٣٠١ هـ ٥ مارس سنة ١٨٨٤ م .

« وبعد هذا البيان فان اهتديت وسلمت لي واتبعتني حزت شرف الدنيا والآخرة وفزت بأجرك وبأجر جميع من اتبعك وإلا هلكت فكان عليك اثمك ومثل آثام جميع من اتبعك وان كان لك حسن نور في العقل تعلم اني خليفة رسول الله ﷺ فلا تتهمني فيما أسوق به الى الله والدار الآخرة ولم تسمع عليّ قول الظلماء الحساد الذين يريدون ان يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا ان يتم نوره وقد قال ﷺ من شك في نصرة المهدي فليقرأ قوله تعالى هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون وقوله كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ولزيادة الشفقة عليكم لزمت التحشية بهذا والهادي هو الله وكثرة البيان لا تهدي هدانا الله والعباد على الصواب آمين » .

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم .

« وبعد فمن عبد ربه الفقير الى الله محمد المهدي بن عبد الله الى غوردون باشا باطلاعك على ما تدوّن بالجواب اليك تعلم باطنه وبه كسوة الزهاد أهل السعادة الكبرى الذين لا يبالون بما فات من المشتهيات طلباً لعالي الدرجات وهي جبة ورداء وسراويل وعمامة وطاقية وحزام وسبحة فان أنبت الى الله وطلبت ما عنده لا يصعب عليك ان تلبس ذلك وتتوجه لدائم حظك وها هو الرسول الذي أتى منك واصل اليك مع رسل من عندنا كما طلبت والسلام » .

وكتب على الغلاف : « سألتك بحق الله ونبيه عيسى عليه السلام ان تقف على أجوبتنا هذه بالحرف وقد بلغني محمد سعيد المسلماني الذي يسمى جورجي اسلامبوليه ان رجلاً يسمى السيد افندي نعيم الاجزجي ان له معرفة

بلغتكم وبالخط العربي وما دام انه يعرف الخطين واللغتين نرغب منكم الوقوف على ما في هذا الظرف جميعه حرفياً على يد المذكور أو أما هو مثله وقد سألتك السؤال المذكور لما ذكرته والسلام اه » .

فلما ترجم الكتاب لغوردون استشاط غضباً ودفع الهدية برجله وأمر ابراهيم بك رشدي فأحرقها ثم أوعز اليه فكتب جواباً هذا مفاده :

« من غوردون باشا والي السودان الى محمد احمد المتمهدي : وصلني كتابك الركيك العبارة العاري عن المعنى الدال على سوء نيتك وخبث طويتك وعن قريب ستبلى بجيوش لا طاقة لك بها وتكون انت المسؤول أمام الله عما يُسفك من الدماء كما انك انت المسؤول الآن عمن أعميت قلوبهم وغشّيت بصائرهم ويتمت أطفالهم وخربت ديارهم وكنت لا أرى حاجة الى مخاطبة رجل مثلك جاحد النعمة عادم الذمة لكني تعلقت بأذيال الأمل راجياً من الله عزّ وجل ان يتجلّى على فكرتك الخامدة فتلقي النصيحة بيد القبول وتعلو متن سلطنة مكنتك منها وكان دون نيلها خرط القتاد وها أنا مستعد لقدومك ومعي رجال أقطع بهم أنفاسك والعاقل من تدبر والسلام » .

وكان غوردون قد جمع العلماء في الخرطوم فكتبوا نصحاً شرعياً بيّنوا فيه بطلان دعوى محمد احمد وحكموا بتكذيبه فسلم غوردون هذا النص والكتاب الى الرسولين وأعادهما الى محمد احمد في الابيض وأخذ يستعد للدفاع .

تجنيد المتطوعة والباشبوزق : ورأى غوردون قلة العساكر على خط النار فجنّد بعض ارادي باشبوزق جديدة وجمع جيشاً من المتطوعة من أهل المدينة ومرّنهم على حمل السلاح واستعماله ووضعهم على خط النار مع العساكر المنظمة فاجتمع في الخرطوم اذ ذاك من الباشبوزق والمتطوعة من قديم وحديث ٣٢ اوردياً في كل اوردي من ٥٠ الى ٣٠٠ رجل وجعل عليهم ثلاثة رؤوس وهم : خشم الموس بك على الباشبوزق الشايقية والمولدين والسودانية وميتو بك

على الباشبوزق الاتراك وعبد القادر بك حسن على العساكر المتطوعة وكان معهم ست اورط نظامية ثلاث مصرية وثلاث سودانية وفيهم الاورطة المصرية في طابية أم درمان والكل بقيادة فرج باشا الزيني السوداني .

تقوية الاستحكام : وتفقد غوردون الاستحكام على عادته فحصّن طابية بُرّي وبنى حائطاً على خط النار بعلو ٢٠ سنتيمتراً وفتح فيه المزاغل ليكون ستراً للعساكر يقيهم نار العدو ويمكّنهم من إجادة اطلاق النار . هذا وكان من مآثر عبد القادر باشا انه صنع عدداً كبيراً من الأهرام الفارغة التي توضع امام الخندق لتكون عثرة في سبيل العدو عند هجومه فأمر غوردون فرميت على مسافات مختلفة امام الخندق ولكن لم يكن منها عدد كافٍ فعمل على ما يعبر عنه في فن الاستحكام « بالشرخ فلك » وهي أوتاد من الأخشاب الصلبة المحدّدة الاطراف تغرز في الارض بعضها بجانب بعض وتربط بأسلاك على هيئة شباك وقد جعل ذلك على بُعد عشرين متراً من الخندق . ثم صنع دانات فارغة وملأها باروداً وموادّ فصفورية تلتهب بمجرد اللمس وجعل على بُعد ثمانين متراً من الشبكة وذلك على طول الخط من النيل الازرق الى النيل الابيض . وقد فعل مثل هذه الاحتياطات في طابية ام درمان .

ورأى ان الباشبوزق لا يصلحون لحماية سراي الشرق لأنهم كانوا يتركون السراي ويأتون الخرطوم بلا ترتيب فأتى بهم الى الخرطوم وأرسل بدلهم بلوكين من العساكر النظامية . وكان الباشبوزق في الخرطوم يتركون خط النار ويدخلون المدينة بلا اذن فنهاهم عن ذلك وجعل عليه قصاصاً شديداً ومنح خشم الموس لقب بك وأمره بملاحظة اصحابه وحملهم على حفظ النظام . ثم أنشأ نقطاً تلغرافية في كل مركز من مراكز الاستحكام فوصلها بالسراي .

تحصين الوابورات : وكان في الخرطوم من الوابورات: « بوردين والصافية وتل‌حوين والتوفيقية والمنصورة والفاشر والاسماعيلية وعباس وشبين والمسلمية والحسينية ومحمد علي » فأصلحها وحصّنها وجعل في أكثرها العساكر والمدافع

وجعل اثنين منهـا في النيل الازرق واثنين في النيل الابيض لحماية الخندق من طرفيه وجعل وابوراً عنـد المقرن لتقوية طابيته . ثم امر مدير الترسانة فبنى وابوراً صغيراً كوابور عبـاس وسماه الزبير فعُرف بعد ذلك بالطاهرة وغرق في واقعة الحفير سنة ١٨٩٦ كما سيجيء .

الغاء المجلس الحسبي واعادة المحافظة : هذا وكان اهل المدينة بعد واقعة الشرق قد اضطربوا وفقدوا الوازع فأطلق بعضهم عياراً نارياً على ستيورت باشا فأخطأه فألغى غوردون المجلس الوطني الذي شكله يوم وصوله الى الخرطوم لأنه لم يقم بالواجب عليه وأعاد الضابطة . قال نصحي : وقد عهد بها اليّ وجعل الصاغ السيد افندي امين وكيلا لي. فنظمت مع الضابطة ديوان محافظة ووضعت خفراً عسكرياً في كل جهة من جهات المدينة الاربع وفي الشوارع والاسواق والمعادي وأصدرت منشوراً لأهل المدينة فحذرتهم من اطلاق الأسلحة النارية داخل المدينة ومن الخروج ليلا من منازلهم وتهددت من يخالف ذلك بالاعدام فاستولت السكينة على المدينة واستتب الامن فوجه لي غوردون رتبة الميرالاي ولوكيلي رتبة البكباشي ثم ألغى الضابطة وأبقى ديوان المحافظة وجعلني محافظ المدينة » . فلنترك الآن غوردون يستعد للدفاع والعصاة يحصرونه من كل جهة ولننظر ما كان من الثورة في بربر ودنقلة وسنار .

الفصل الثالث عشر

في

وقائع الثورة في بربر سنة ١٨٨٤ م

محمد الخير : أما اهل بربر فقد كان وجدهم على الحكومة أشدّ من وجد غيرهم عليها لأنهم لم ينسوا فظائع الدفتردار في بدء الفتح ثم ظلم الحكام وجباة الضرائب ومفتشي الرقيق من بعـــده لكنّ قربهم من مصر وشدة علائقهم التجارية بها مع وجودهم بين القوات العسكرية بين بربر والخرطوم ذلك كله اضطرهم الى التربص للفرصة حتى جاءهم غوردون وفتح الطريق الى كردوفان وأعلن عن عزم الحكومة على اخلاء السودان فشرعوا في المهاجرة الى المهدي. وكان في جملة من هاجر اليه استاذه محمـد الخير وهو مدرّس مدرسة الغُبُش وله راتب شهري يجري من الحكومة قدره ٤٠٠ غرش وشيء من الحبوب . وهو قصير القامة صغير العينين اسود اللون وله لحية يدوّرها وقد كان المهدي يكاتبه ويلح عليــه بالحضور اليه وهو يتردد في الأمر حتى جاء غوردون وعلم منه عزم الحكومة فأقرّ على السفر الى المهدي . وكان محمد الخير صديقاً لحسين باشا خليفـــة مدير بربر قبل فأطلعه على سرّه وأراه التحارير التي أتته من المهدي وقال « ان الحكومة قد أقرّت على اخلاء السودان فأي خير لنـا في

البقاء معها وما الذي نقوله للمهدي بعد ذهابهـا واحتلاله مكانها » . فقـال له حسين باشا « اذاً بادر اذهب الى المهدي وانظر في أمره فان وجدتـه مصيباً عدت الى بربر فكنت حاكمها الشرعي وانا حاكمها السياسي الى ان يفتح المهدي الخرطوم ويأتي بربر فنسلمه اياها بمخازنها وخزائنها » . وقد أراد حسين باشا بهذا الرأي ان «يمسك الحبل من الطرفين» ويكون الحاكم في الحالين . فذهب محمد الخير الى المهدي في كردوفان فتلقـاه بالبشر والسرور وسماه عاملاً عاماً على بربر وأصحبه كتباً الى رؤوس قبائلها يدعوهم فيها الى طاعته والجهاد ضد الترك فعاد محمد الخير من عنـــد المهدي في ٢٧ ابريل سنة ١٨٨٤ م ونزل في وادي بشارة على النيل .

الشيخ الهدى الشايقي : وكان في تلك الوادي شيخ من مشايخ الشايقيـة السواراب يسمى احمد الهدى وهو غير مصدق المهدي فأرسل اليه المهدي سيفاً جميلاً والف ريال وأمراً بالامارة على دنقلة فقبل الهدية وبايع محمد الخير باسم المهدي .

الحاج علي ود سعد النفيعابي : ثم سار محمدالخير شمالاً يصحبه احمد الهدى وهو يدعو الناس في طريقه فيجيبونه حتى دخل المتمة بجيش كبير . وكان في جملة من هاجر الى المهدي في كردوفان عبد الله ود سَعد من كبار النفيعاب الجعليين في المتمة فأعطاه المهدي امارة لأخيه الأكبر الحاج علي ود سعد فقبل الحاج علي الامارة وجمع قومه للجهـاد فلما وصل محمد الخير المتمة بايعه باسم المهدي وانضم اليه .

احمد حمزة السعدابي : هـذا وكان اول من رفع راية المهدية في بربر احمد حمزة السعدابي من أقارب الملك نمر هاجر الى المهدي سنة ١٨٨٣ وحضر معه واقعة شيكان ورجع من عنده اميراً على قومه فنصره عرب البطاحين وأخلاط من العرب ونزلوا على السبلوكة وكان فيها محمد افندي وهبه محافظاً وقد كان قبل الآن مأموراً لجمع الضرائب فلما مرّ غوردون ببربر منعه من جمعها وجعله

في السبلوكة مع ٢٠٠ رجل ووابور لمراقبة الجعليين وموافاته بأخبارهم الى الخرطوم فلما جاء محمد حمزة ورأى انه لا طاقة له على حربه فرّ بالوابور الى شندي فتحصن في ديوان حكومتها فحصره محمد حمزة فيها وبقي في الحصار الى ان قدم محمد الخير الى المتمة فركب النيل وفرّ بعساكره الى بربر . وانضم محمد حمزة الى محمد الخير . وكان محمد حمزة قد قطع خط التلغراف بين بربر والخرطوم فأرسل محمد الخير بعض رجاله فقطعوه بين بربر ومصر وكان قطعه من اكبر الضربات على غوردون .

الامين احمد المجذوب : وتقدم محمد الخير بجموعه الى الدامر فبايعه الامين احمد المجذوب كبير المجاذيب في الدامر وانضم اليه .

هذا ويظهر ان محمد الخير صدق المهدي واتحد معه قلباً وقالباً فلم يعد يرضى بالذي قرّ عليه مع حسين باشا . قيل وكان بعض اهالي بربر مرتابين من صدق محمد احمد فقالوا لمحمد الخير « انت اميرنا وعالمنا ونحن نعتمد على علمك فان كان محمداحمد هذا ليس بالمهدي فأنت تحمل ذنبنا يوم القيامة » فقال ويده على لحيته « اذا لم يكن محمد احمد هو المهدي المنتظر فأمسكوني بلحيتي هذه وطالبوني بذنبكم امام الحق عزّ وجل » ولكنه لم يمت حتى رأى انه كان في شطط وندم على ما قال اشد الندم .

دعوة حامية بربر الى التسليم : وكتب من الدامر الى حسين باشا وضباط الحامية يدعوهم الى التسليم ويقول : ان خديوي مصر قد ترك لنا بلادنا فسلمونا إياها وإلا فنحن مصممون على قتالكم حتى نخرجكم منها بالرغم ». وكتب ايضاً الى اهل المدينة يدعوهم الى التسليم فخرج اليه عبد الماجد محمد خوجلي ابن اخيه ثم عبد الماجد ابو الكيلك وخشم الموس محمد اللذان سماهما غوردون مأمورين على بربر كما مرّ .

وكان على المدينة خندق عظيم محيطه نحو ٧٠٠٠ متراً ولم يكن فيه من العساكر سوى ١٦٠٠ النصف باشبوزق والنصف عساكر نظامية مصرية والكل

بقيادة البكباشي محمد افندي فهمي المصري وقد انتشروا على خط النار فكان بين الجندي الواحد والآخر اربعة امتار وزيادة . وكان حسين باشا قد قطع المواصلات التلغرافية يسأل غوردون عما يفعله فيعده بوصول المداد اليه قريباً من مصر ويسأل مصر فتصرّح له بعدم تيسر المدد فلم يكن يدري ما يفعل فلما جاءه كتاب محمد الخير عقد مجلساً من الضباط والسناجق وقرأ لهم الكتاب وسألهم عن رأيهم فقالوا كلهم بصوت واحد « الموت ولا التسليم » وكتبوا في ذلك الى محمد الخير فأعاد الانذار رفقاً بهم فعادوا الى جوابهم الاول .

حصار بربر: فلما رأى اصرارهم على الحرب سيّر عليهم الجيوش من الدامر تباعاً ثم جاء في آخرها فوصل بربر في ١٢ مايو سنة ١٨٨٤ م فنزل مع الحاج علي ود سعد وعبد الماجد ابو الكيلك المار ذكرهما في حلة الدكة فحصر بربر من الشمال وأمر سعد ود سالم المشهور بود بنونة من السعداب فنزل في قوز الفونج وحصرها من الجنوب وحصرها البشاريون وأخلاط من الجعليين من الشرق وكان مجموع جيوشه نحو ٤٠ الفاً من مشاة وفرسان وكثير منهم مسلحون بالاسلحة النارية . وعند وصوله جدّد الكتابة الى الحامية يدعوهم الى التسليم حقناً للدماء وكان الرباطاب قد أسروا علي باشا وهبي في بلادهم وهو مسافر الى مصر فأرسله محمد الخير الى اهل الحامية مع الكتاب لحثهم على التسليم فأبوا إلا الحرب . وفي صبيحة يوم الجمعة ١٦ مايو سنة ١٨٨٤ أطلقوا نيران المدافع والبنادق على الدراويش فأجابهم الدراويش باطلاق النيران من كل جهات الحصار وكان في جهة الدكة بستان فيه قصر شامخ يطلّ على العساكر في الخندق فاحتل الدراويش القصر وصاروا يوالون اطلاق الرصاص على العساكر فيفتكون بهم . وكان قومندان العساكر قد تنبّه لهذا القصر وأراد هدمه فمنعه حسين باشا لأنه لوكيل المديرية فكان أشد البلاء الذي اصاب الحامية من هذا القصر .

سقوط بربر الاثنين في ٢٣ رجب
سنة ١٣٠١ هـ ١٩ مايو سنة ١٨٨٤ م

ولما كان فجر الاثنين ١٩ مايو سنة ١٨٨٤ م ٢٣ رجب سنة ١٣٠١ هـ (وفي قمر السودان ٢٢ منه) صلى محمد الخير بأصحابه صلاة الصبح وأمرهم بالحملة على العساكر في خندقهم وأمر الذين في القصر فوالوا اطلاق النار على الحامية وفتحوا طريقاً للمهاجمين فدخلوا الخندق من تلك الجهة ومن جهة النيل وأعملوا السيف والحربة في العساكر وكان معظم العساكر لما رأوا العصاة قد دخلوا الخندق تركوا الخط ودخلوا منازلهم او ركبوا الوابور والمراكب واجتازوا النيل الى البر الغربي ولم يبقَ على الخط سوى البلوك الثالث من الاورطة الثالثة من العساكر النظامية وأوردي علي أغا اسلام وأوردي محمد أغا حسن عوض الله العبادي من العساكر الباشبوزق فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم رحمة الله عليهم. وأما حسين باشا فانه دخل منزله مع القواصة وبعض العساكر وأغلق بابه فبعث اليه محمد الخير بالأمان فسلم له. وما زال الدراويش يتعقبون العساكر ويقتلونهم الى قرب الظهر فنادى المنادي فكفوا عن القتل وكان مجموع الذين قتلوهم في ذلك اليوم نحو ١٠٠٠ رجل وأسروا الباقين وصادروهم في اموالهم إلا حسين باشا فانهم لم يمسوه بسوء. وكان في خزينة بربر مبلغ ٥٥٨١٢ جنيهاً قد أرسلت من مصر الى غوردون ثم سُدّت الطريق فبقيت في بربر مع أمانات اخرى في الخزينة تبلغ قيمتها نحو ٨٠٠٠ جنيهاً فكتب محمد الخير الى المهدي ثاني يوم الفتح يعلمه بالفتح والخزينة وأسر حسين باشا ويسأله عما يفعل فأرسل المهدي ابراهيم ود عدلان فأحضر المال من الخزينة فضمه الى بيت المال وكتب الى محمد الخير فأرسل اليه حسين باشا مع وكيله عمر بك العمراني وكان المهدي اذ ذاك في الرهد. — قال الكحّال: فوصل حسين باشا الرهد في ١٠ رمضان سنة ١٣٠١ هـ ٤ يوليو سنة ١٨٨٤ م فأمر المهدي الخليفة علي ود حلو فاستقبله في ظاهر الديم باحتفال عظيم. وقبل

وصوله الى زريبة المهدي وضع جنزيراً من الحديد في عنقه وحثا التراب على رأسه وتقدم للمهدي ذليلا وهو لابس الجبة المرقعة فبايعه فقرّبه المهدي وجعله من خواص رجاله وبقي في أسره الى ان دبّر الحيلة ونجا الى مصر » كما سيجيء.

وأما العساكر الذين وقعوا في الأسر فقد أمّر عليهم حسن افندي شريف احد معاوني المديرية ومن اقرباء الحاج علي ود سعد. ولما فتحت الخرطوم ذهبوا الى ام درمان فبايعوا المهدي وعادوا الى بربر يسعون وراء الرزق في سوق المدينة وكلما سنحت فرصة لواحد منهم فرّ الى مصر حتى لم يبقَ منهم الى الفتح الاخير إلا القليل.

الفصل الرابع عشر

في

وقائع الثورة في دنقلة سنة ١٨٨٤ م

الشيخ الطيب وواقعة الدبة الاولى في ١٨ مايو سنة ١٨٨٤ : تقدم ان المهدي أرسل الى الشيخ الهدي أمراً بالامارة على دنقلة فسار مع محمد الخير لحصار بربر وارسل خاله ود عبود بكتاب الى الشيخ الطيب الشايقي السوارابي في جهة مروي يسميه أميراً على الشايقية ويستنهضه للقيام بنصرة المهدي فنادى في الشايقية باسم المهدي ونزل بهم على دار الحكومة في مروي فنهب الخزينة والشونة وسار في وجهه شمالاً يستنفر اهل البلاد للجهاد . وكان المدير على دنقلة في ذلك الحين مصطفى باشا ياور من كرام الشراكسة وقد اشتهر بالتعبد والتقوى مع حسن التدبير والاستقلال في الرأي وقد كتب اليه المهدي من كردوفان يسأله التصديق بهديته فأجابه بما أرضاه وأحسن الى أقاربه في دنقلة قصد مخادعته فكتب اليه المهدي بالامارة على دنقلة . وكان مصطفى باشا يظن انه بهذه المخادعة يضمن راحة مديريته ويأمن دخول الثورة اليها لأنه لم يكن معه سوى اورطة من العساكر المنظمة و ٦٠٠ من الباشبوزق وبضعة مدافع فلما سمع بخبر الشيخ الطيب أخذ ١٠٠ من العساكر النظامية و٤٠٠ من

الباشبوزق ومدفعين وسار قاصداً الشيخ الطيب حتى وصل الدبة فعلم انه نازل في دبة الفقراء قريباً منه فتحصن في طابية الدبة فعوّل الشيخ الطيب على حصره وكان قد اجتمع عليه نحو ٦٠٠٠ رجل مسلحين بالسيوف والحراب وبعضهم مسلح بالبنادق فجعلهم قسمين غير متساويين فأتى بالقسم الاكبر الى الكرو شمالي الدبة وأبقى القسم الآخر في دبة الفقراء جنوبيها فخرج مصطفى باشا بمعظم قوته وباغت جيش الكرو فقتل منه ٣٠٠ رجل وجرح مثل ذلك وفيهم الشيخ الطيب وانهزم الباقون الى اخوانهم في دبة الفقراء فتبعهم مصطفى باشا اليها بعد ظهر ذلك اليوم بجميع قوته وأشعل فيهم النار فقتل منهم ٥٠٠ رجل وشتت الباقين كل مشتت ولم يقتل من عسكره احد . وكان ذلك يوم الاحد في ١٨ مايو سنة ١٨٨٤ م أي قبل سقوط بربر بيوم .

الشيخ الهدي وواقعة الدبة الثانية في ٢٩ يونيو سنة ١٨٨٤: فلما سقطت بربر لم يلبث الشيخ الهدي ان برحها بنحو ٣٠٠ من اهل الشايقية و٥٠ عسكرياً سودانياً حاملين البنادق وجاء بلاد الشايقية بطريق الدقاييت ونادى بالنفير فاجتمع عليه اهل الشايقية والشيخ نعمان ود قمر شيخ المناصير وبعض بادية الحسانية والهواوير فزحف بهم عن يسار النيل قاصداً الدبة . وكان مصطفى باشا بعد طرده الشيخ الطيب من الدبة عاد الى الاوردي بالعساكر المنظمة وترك فيها العساكر الباشبوزق بقيادة النور بك من سناجق الارناؤط ووكيل المديرية جودت بك فبنى جودت بك طابية صغيرة على قدر العساكر وحصنها بالمدفعين ولما سمع بقدوم الهدي بعث بالخبر الى مصطفى باشا فأرسل الى مصر في طلب المدد فلم يُسمع له فجمع نحو ٢٠٠٠ رجل من المتطوعة من اهل ارقو والحفير والاوردي والخندق ودنقلة العجوز وضم اليهم ٢٠٠ من الجهادية وسار الى الدبة لنجدة جودت بك .

وقبل وصوله أقبل الهدي بأنصاره في فجر ٢٩ يونيو سنة ١٨٨٤ وهاجموا الطابية مستقتلين ففتح العساكر عليهم أفواه المدافع والبنادق وأمطروا من القنابل والرصاص ما حصدهم حصداً حتى بلغ عدد قتلاهم ٢٧٠٠ رجل وفيهم

نعمان ود قمر شيخ المناصير ولم يقتل من العساكر سوى اثنين من الطوبجية وجرح جودت بك جرحاً خفيفاً في وجهه وانهزم الهدي بباقي جيشه الى الحتاني. ووصل مصطفى باشا الدبة بعد الواقعة بقليل فأخذ العساكر والمتطوعة وسار براً وبحراً الى الحتاني ففرّ الهدي من وجهه فطارده الى صنم فدخل بلاد المناصير فرجع عنه فترك العساكر في الدبة بعهدة جودت بك وعاد بالمتطوعة الى الاوردي ففرقهم الى بلادهم .

محمود ود الحاج وواقعة كورتي في ٤ سبتمبر سنة ١٨٨٤: ثم عاد الهدي الى مروي وبعث في طلب المدد من المهدي وكان المهدي اذ ذاك في الرهد في طريقه على الخرطوم فأرسل محمود ود الحاج من أقاربه مع نفر من اصحابه على ان يكون عاملاً عاماً على دنقلة وكتب الى الهدي بالانضمام اليه . فسار محمود في صحراء الكبابيش ونزل في ام بليلة على نيل دنقلة في أواخر اوغسطوس سنة ١٨٨٤ وكتب الى مصطفى باشا يقول له « قم واحضر لمقابلتنا بأبي قسْ ومنها نتوجه لمقابلة المهدي لأجل البيعة والتأدب بآداب المهدية » . ثم اجتمع على الهدي في كورتي .

أما مصطفى باشا فانه لما علم بقدوم محمود توجه بالوابور الى الدبة فأخذ عساكرها ومدفعاً واحداً وسار براً وبحراً طالباً محمود والهدي فالتقاهما الخميس في ٤ سبتمبر سنة ١٨٨٤ قرب كورتي وأشعل فيهم النار فلم يكن إلا القليل حتى قتل محمود والهدي وتشتت جيشهما كل مشتت فقطع مصطفى باشا رأسيهما ورأس رجل قيل انه امير طرابلس الغرب وآخر قيل انه امير مصر وأرسل الرؤوس الاربعة الى سردار الجيش المصري بحلفا وسأله ان يرسل رأس امير الغرب الى جلالة السلطان ورؤوس الباقين الى سمو الخديوي فكتب اليه السردار يمدح بسالته ويهنئه بالنصر ويتلطف له بقوله انه لم تجرِ عادة هذا العصر في ارسال مثل هذه العلائم ثم أمر فدفنت الرؤوس الاربعة . ولم يقتل في هذه الواقعة من العساكر سوى اثنين وجرح ضابط واحد . وبعد الواقعة جاء الكثير من

العصاة مسلمين وهدأت البلاد وعاد اليها الأمن كما كان ولم يعد يقم للدراويش قائمة فيها إلا بعد خروج الانكليز منها أواخر سنة ١٨٨٥ كما سيجيء .

وقد رأيت كتاباً من المهدي الى زقل امير دارفور بتاريخ ٨ الحجة سنة ١٣٠١ هـ ٢٩ ديسمبر سنة ١٨٨٤ م يشير فيه الى هذه الواقعة قال :

« ... وقد ورد لنا خبر أكيد من دنقلا ان حبيب الجميع محمود الحاج محمد واحمد الهدي استشهدا في سبيل الله. قيل انهما لما حضرا بالقرب من دنقلا نزلا في محل وهم قليلون جداً فما شعروا إلا وقد هجم عليهم أعداء الله فصبروا عليهم صبر الكرام حتى نالوا احدى الحسنيين . وكنا أرسلنا محمود الى دنقلا بناءً على ما ورد لنا من « ياور » مديرها يؤري بأنه طائع لله ومسلم لأمر المهدية وان الشيخ احمد الهدي أتى اليهم وحاصره وضايقه ورغب كف يد المذكور عنه بواسطة مخصوص من طرفنا فلذلك أرسلنا محمود بدون جيش اختباراً لحال المذكور وقد ألزمناه بتسليم البلد الى محمود وحضوره هو على وجه الفور فظهر غدره وعُلم انه منافق ماكر والله خير الماكرين » .

الفصل الخامس عشر

عودٌ الى

وقائع الثورة في سنار

سنة ٣ – ١٨٨٤ م

واقعة الشريف المجضو : تقدم لنا ان عبد القادر باشا قبلما برح سنار في أواسط سنة ١٨٨٣ م أرسل صالح بك الملك الى فامكة ليتعهدها وكان عليها مأمور تلياني ُيدعى مارنو بك ومعه ٤ بلوكات من العساكر النظامية و ١٠٠ من الباشبوزق بقيادة الصاري سعد أغا شميم الشايقي فلمــا جاءهم صالح بك وجدهم بغاية الجوع والعري فعاد على الأثر في طلب الزاد والكسوة لهم فاعترضه في الطريق قرب شلال الرصيرص فقيه من أنصار المهدي ُيدعى الشريف المجضو فأوقع فيه واقعة شديدة وقتله وشتت شمل أنصاره واستطرد السير شمالاً حتى وصل كركوج فوجد فيها حامية مؤلفــة من ٤٠٠ رجل بقيادة علي كاشف ووجد فيها أمراً من مدير سنار بالبقاء في سيرو تجاهها لحمـاية الغرب فصدع بالامر وكتب الى المدير يخبره بحال فامكة .

اخلاء فامكة ٣١ ديسمبر سنة ١٨٨٣ م : ولمـا أبطأ المدد على مارنو بك

جاء بقــارب صغير الى الخرطوم وكان عليها اذ ذاك علاء الدين باشا فأخبره بالضيق الذي صارت اليه حامية فامكة فأصدر أمره بعزل بساطي بك وأرسل حسن بك صادقاً مديراً على سنار مكانه فجـاء الى سيرو في وابور ومعه الزاد والعساكر الى فامكة فسلمها الى النور بك محمــد وعثمان بك الدالي فأخذاها بالمراكب الى الرصيرص ليحملاها من هناك على البقر. وقبل قيامهما من الرصيرص وردت الأنباء بانكسار جيش هكس وهاجت البلاد فرأى المدير ان يلمّ شعثه فبعث اليهما أمراً باخلاء فامكة فأخلياها ورجعــا بالحامية الى سنار في ٣١ ديسمبر سنة ١٨٨٣ م فوجدا حامية كركوج وصالح بك الملك قـد سبقاهما اليها . ونزل صالح بك بأمر المدير في ابي سقره على حدود سنار الشمالية فبقي فيها الى ان كانت حركة محمد ود البصير حمي المهدي في الحلاويين .

حركة محمد ود البصير في الحلاويين : وقد تقـدم ان المهدي أجاز حماه المذكور باعطاء البيعة بالنيابة عنه فبقي في مكانه يتربص للفرصة الى ان كانت واقعة شيكان وعاد من عند المهدي عبدالله ود الشيخ حمد النيل شيخ العراكيين في ابي حراز وعبــد الله ود البحر شيخ الكواهلة في وسط الجزيرة ومع كل منهما أمر بالامارة على أهله وأمر الى كل من عبد الله بن عوض الكريم باشا ابي سن في رفاعة والطيب ود حامدون ناظر الجعليين في المسلمية بالامارة على أهله فلبيا الدعوة وانضم الجميع الى محمد البصير فصادفوا عسكرياً في سوق الحلاويين فقتلوه قيل فغمس كل من حضر حربته بدمه وشهروا العصيان وذلك في أواخر ديسمبر سنة ١٨٨٣ .

واقعة ود مدني في ١٧ يناير سنة ١٨٨٤ : فلمـا بلغ الخبر صالح الملك في ابي سقره زحف على ود البصير ومعه نحو ١٤٠٠ رجل من الباشبوزق الشايقية وكلهم مسلحون بالاسلحة النارية فالتقاه اصحاب ود البصير قرب ود مدني في ١٧ يناير سنة ١٨٨٤ فقتل منهم ٥٠٠ رجل وفيهم الطيب ود حامدون وهزم البــاقي ثم تقدم الى فداسي فحفر خندقاً وتحصن فيه وبعث يطلب المدد من

سنار فجاءه محمد أغا الصاغ من مواليد الاتراك على وابور « محمد علي » بمئة صندوق من الذخيرة و ٧٥ رجلا من الباشبوزق .

واقعة فداسي : فجمع محمد البصير جيوشه وهاجم صالح الملك في الخندق فصدّه بخسارة ١٠٠٠ رجل ولم يفقد من عسكره سوى ١٤ رجلا . فلما رأى العرب ان لا طاقة لهم على حربه عوّلوا على حصره فنزل عبد الله ود الشيخ حمد النيل في جنوبيه لمنع المدد عنه من سنار ونزل محمد البصير وباقي الأمراء في شماليه لمنع المدد من الخرطوم ثم حضر الشيخ عوض الكريم باشا ابو سن بألف من رجال قبيلته ونزل تجاه فداسي شرقي النيل فتظاهر بأنه محاصر لصالح الملك واتفق معه سراً فأرسل كل منهما رسولاً الى غوردون يعلمانه بالحالة ويطلبان المدد فأرسل عوض الكريم ابنه علي ألهد كما مرّ وأرسل صالح بك حسن افندي وراق من ضباط الباشبوزق وكان غوردون اذ ذاك في مركز حرج فلم يستطع انجادهما فبعث يشكر لهما ثباتهما ويعدهما بارسال المدد بأول فرصة فعاد الرسولان منه بعد غياب ٣٠ يوماً وقد رُقي صالح بك الى رتبة اللواء ورفع رتبة كل ضابط من ضباطه رتبة وكانت حاجة صالح باشا الآن الى المدد لا الى الرتب وقد بعث الى سنار في طلب المدد فأحالوه على الخرطوم وكان الجوع قد مسّ الحامية فلم يبقَ له بعد هذا سوى التسليم فخشي ان سلم الى ود البصير ان ينتقم منه بمن قتل من رجاله فأرسل الى المهدي في الابيّض كتاباً يسأله ان يبعث اليه بأمير من قبله ليسلمه الحامية .

سرية محمد عثمان ابي قرجة وتسليم صالح الملك في فداسي في ٢٧ ابريل سنة ١٨٨٤ م

وكان المهدي اذ ذاك على أهبة الزحف على الخرطوم فأرسل اليه محمد عثمان أبا قرجة الدنقلاوي بجيش مؤلف من ٢٠٠٠ مقاتل من اخلاط حمر ودغيم وكنانة وجعليين وحسانية ومعهم ٤ بلوكات من العساكر السودانية الذين أسروا

في الابيض ومدفعان وساروخ وأمره باستلام فداسي من صالح الملك والتوجه منها لحصر الخرطوم . فخرج بجيشه من الابيّض في أواخر مارس سنة ١٨٨٤ وسار مجداً حتى نزل بجهة فداسي قرب الخندق وأرسل الى صالح الملك فخرج اليه مسلماً في ٢٧ ابريل سنة ١٨٨٤ م فاستولى ابو قرجة على جميع أسلحتهم وذخائرهم ووابورهم « محمد علي » وأرسل صالح الملك الى المهدي فوافاه بالرهد وصحبه الى أم درمان فحاول مكاتبة غوردون فعلم به المهدي فزجه بالسجن وعذبه وبقي في أم درمان الى ان مات قهراً سنة ١٨٨٩ رحمة الله عليه .

واقعة أبي الحسنى في ١١ يوليو سنة ١٨٨٤ : وجاء مع ابي قرجة من كردوفان شيخ من اليعقوباب من أتباع الطريقة السمانية يدعى عبد القادر أبا الحسنى كان قد هاجر الى المهدي في كردوفان وحضر معه واقعة شيكان وبقي الى ان جاء ابو قرجة فصحبه الى فداسي . وفي ثاني يوم التسليم انفصل عنه ببعض الأنصار فجمع الجموع وقصد سنار فوجدها محاطة بخندق حصين فلم يجتر على مهاجمتها فقعد لحصرها قرب حلة البقرة فخرج عليه مديرها حسن بك صادق في ١١ يوليو سنة ١٨٨٤ بمعظم العساكر فأمر ابو الحسنى اصحاب الأسلحة النارية من جيشه فساروا في منحدر شاطىء النيل متوارين به وداروا من وراء العساكر فقطعوا خط رجعتهم الى سنار وتصدّى لهم ابو الحسنى بحرابته من الامام فحصرهم في الوسط فدهش المدير من مكيدة أبي الحسنى وحار في امره فبرز له عثمان بك الدالي اذ ذاك وقال اعطني ٢٠٠ رجل وتفرغ انت لمن امامك ولا تهتم بمن وراءك فاني أكفيك شرهم فأعطاه ما طلب فانقلب على من في الوراء وأشعل فيهم النار وهو يتقدم نحوهم رويداً حتى هزمهم ونكل بهم وعاد على الأثر الى المدير فأنجده على أبي الحسنى فهزماه وشتتا شمله ومن ذلك الوقت خمد ذكر ابي الحسنى ومات بعد قليل فدفن في حلة البقرة وبنى ابنه قبة فوق قبره .

واقعة الشيخ غالب في ٢٥ يوليو سنة ١٨٨٤ : وظهر الشيخ غالب في حلة داود على الدندر فجاهر بالعداء ورفع راية المهدي فهاجمه المدير في ٢٥ يوليو سنة ١٨٨٤ وبدد شمله ونزل في حلة الجادين على ١٢ ميلاً من سنار وشرع في جمع الحبوب للحامية .

الفصل السادس عشر

عودٌ الى

غوردون وحصار الخرطوم سنة ١٨٨٤ م

ابو قرجة وحصار الخرطوم :

ولقب المهدي ابا قرجة بأمير البرّين والبحرين وجعله اميراً عاماً على محاصري الخرطوم فزحف بجيشه عليها ومعه ودالبصير وقد نادى بالنفير العام في الجزيرة كلها وأمر ان لا يتخلف احد عن الجهاد فكان جيشه يزداد ضخامة وقوة كلما تقدم شمالاً حتى نزل بالجريف قرب الخرطوم فكتب الى غوردون كتاباً هذا مفاده :

« اني حضرت من قبل المهدي أميراً على البرين والبحرين وقد أخذت فداسي وجئت الى الخرطوم أنصح أهلها بالتسليم فاذا سلّموا سلموا وأمنوا على أموالهم وأرواحهم وإلا فلا بد لي من محاربتهم وأخذ المدينة منهم عنوة والسلام » .

فأحسن غوردون الى الرسل وردّهم بلا جواب . فتقدم ابو قرجة اذ ذاك الى بُري ودنا جداً من الخندق فبنى طابية ونزل فيها بجيشه وأبقى محمد

البصير في الجريف فبنى فيها طابية كطابية بري وجعل الطاهر العبيد ود بدر السالف الذكر في الوسط بينهما . ثم أرسل وابور « محمد علي » الى الحلال فجمع مقداراً عظيماً من الحبوب وبنى لها مخازن بين طابيتي برّي والجريف وجعل في الطابيتين مزاغل ترمي على النيل والخرطوم وحصّن طابية برّي بالمدافع وشرع يرمي بمقذوفاتها على الخرطوم . وكانت ذخيرة الحامية في مخزن قريب من الخندق فأصبحت في خطر عظيم فنقلها غوردون الى كنيسة المرسلين النمساويين الكاثوليك الواقعة في وسط المدينة وقد كانت من أمتن أبنية المدينة وأتقنها صنعاً .

هذا وكان أصحاب الشيخ العبيد لم يزالوا يناوشون العساكر القتال كل يوم بلا انقطاع من الفجر الى الضحى ثم يصبرون الى ما بعد الغروب بنصف ساعة فيجددون المناوشة الى الساعة الرابعة في الليالي المقمرة فانتقى غوردون نفراً من العساكر الماهرين في الرماية وجعلهم على سطح السراي وأقام لهم حائطاً فتح فيه المزاغل ليقيهم نار العدو ويمكنهم من اجادة الرمي . وأصدر أمره الى ابراهيم افندي لبيب فصنع اشخاصاً من الخشب بهيئة العساكر وصفها على هيئة طابور على الشاطىء الشرقي للنيل الازرق فظنها الدراويش عساكر وأخذوا يرمونها بالرصاص ولما لم تتحرك علموا انها خدعة فكانوا يأتون اليها ليغنموا ملابسها فيدخلون ضمن دائرة مرمى الرصاص فيصوّب الرماة النيران عليهم من سطح السراي فيقتلونهم .

واقعة ود جار النبي : وبلغ غوردون ان في موردة ود جار النبي على النيل الابيض جموع من الدراويش ومعهم قطعان كثيرة من الغنم والبقر فأرسل ساتي بك مدير بحر الغزال باحدى الوابورات فشتت شملهم وغنم الف رأس من الماشية وعاد الى الخرطوم وكانت الحامية في أشد الحاجة الى اللحوم فتعللوا بها.

واقعة الشجرة: فلما رأى ابوقرجة ضعف أنصاره في النيل الابيض أرسل سرية من جيشه بقيادة شيخ فضل احمد الدنقلاوي فبنى طابية قرب شجرة محو

بك ووضع فيها مدفعاً فأرسل غوردون سرية من العساكر بالوابورات والمدافع ومعها من القواد ساتي بك وعبد القادر بك حسن وحسن بك العقاد فهدموا الطابية وعطلوا المدفع وطردوا شيخ فضل وأنصاره من تلك الجهة وعادوا الى الخرطوم. فمنح غوردون كلا من الساتي بك وعبد القادر بك الرتبة الثانية وحسن بك العقاد الرتبة الثالثة. ثم أرسل بعض العساكر فخربوا حلة الكلاكلة لمنع الدراويش من التحصن فيها وعادوا بأخشابها وقوداً للوابورات . وعاد الشيخ فضل بعدهم الى محله على النيل الابيض .

وكان النيل اذ ذاك في زمن انخفاضه ولا يمكن الانتفاع بالوابورات ولا سيما على النيل الازرق فبقي غوردون في انتظار ارتفاعه على أحرّ من الجمر .

هذا ولم تكن متاعب غوردون داخل المدينة أقل منها خارجها فقد كان في المدينة من السكان نحو ٥٠ الف نسمة ما عدا العساكر وأكثرهم من المصريين والمولدين والغرباء فحمّلوه مشاق كان في غنى عنها ولكنه تحملهم بصبر غريب وأظهر في سياستهم من الرفق والاحسان ما دلّ على تناهيه في حب العدل والانسانية .

علم الحامية بسقوط بربر : ولم يعلم غوردون بسقوط بربر حتى بعث اليها بجاسوس فوجدها بيد الأعداء وعاد اليه بالخبر فأمره بالتحفظ عليه ولكن ليصح القول « ان للحيطان آذاناً » شاع الخبر بين سكان الخرطوم فقلقوا وخافوا وكثر الشغب في المدينة فرأى غوردون ان يستنبط حيلة تسكن روعهم فعلق منشوراً في شوارع المدينة والمراكز العسكرية يقول « انه أتى بالأمس جاسوس ومعه بريد من مصر ينبىء بأن الانكليز قد جردوا حملتين لانقاذ الخرطوم حملة بطريق دنقلة وحملة بطريق كسلا وان حملة كسلا انقسمت فرقتين فرقة أتت بطريق الاتبرة بقصد النزول على بربر وفرقة بطريق ابي حراز بقصد النزول على الخرطوم وقد جرّد السلطان حملة ثالثة بطريق سواكن وجردت مصر حملة رابعة بقيادة السيد محمد عثمان المرغني عن طريق كسلا

ورفاعة وقد رسم صور العساكر في الحملات الاربع على ورق شفاف وعلقها مع المنشورات .

نجمة الحصار : وصنع مدالية كالمدالية المصرية علق في أعلاها النجمة والهلال وكتب في دائرها هكذا : « حصار الخرطوم سنة ١٣٠١ » وسماها « نجمة الحصار » وقد صنعها من فضة ونحاس وطلى بعض الانجم الفضية بالذهب فوزعها على الضباط من رتبة بكباشي فما فوق ووزع الانجم الفضية على الضباط من رتبة صاغ فما دون والانجم النحاسية على الصف ضباط والعساكر فكان لها أحسن تأثير على الحامية كلها .

اعانة الفقراء : وسمح للتجار والاعيان بحمل الانجم الفضية فجعل على كل نجمة عشرة جنيهات فجمع مبلغاً وافراً من المال وزعه على الفقراء .

ولما كان موسم النخيل جمع التمر من جنائن الخرطوم الأميرية فبلغ ثمنه ٢٦٠٠٠ غرشاً فوزعه على الفقراء والفقهاء وحملة القرآن وسألهم قراءة كتاب البخاري في المساجد والتوسل الى الله بصالح الدعاء ليعينهم على رفع الحصار وقطع دابر العصاة .

أوراق البون : وكان يدفع مرتبات العساكر والموظفين كل شهر حتى نفدت النقود من الخزينة فأخذ يقترض من تجار المدينة وأعيانها ويعطيهم « رجعاً » ممضاة باسمه واسم محمد باشا حسن رئيس المالية حتى عجز التجار عن زيادة القرض فأصدر اوراق « بون » بقيمة ٥٠ الف جنيه مصري الورقة بخمسة غروش صاغ وعشرة وعشرين وثلاثين وأربعين وخمسين ومئة وخمسمائة والف والفين وكتب على كل ورقة ما يأتي : « هذا المبلغ مقبول ونجري دفعه من خزينة الخرطوم او مصر بعد مضي ستة شهور من تاريخه في ٢٥ ابريل سنة ١٨٨٤ م » وجعل لكل ورقة نمرة متسلسلة وختمها كلها بختمه وختم الحكمدارية ثم أمضاها بامضائه وسلمها الى رئيس المالية فقيدها في دفاتر اليومية وصار ينفق منها على العساكر والموظفين كأنها نقود فتوقف أهل المدينة عن

قبولها لأنهم لم يكونوا متعودين عليها فرُفع الأمر الى غوردون فأوعز الى المحافظ فجمع أعيان التجار الوطنيين والاوروبيين وأرباب الصنائع والمتسببين وأفهمهم معنى تلك الأوراق وأمر الاوربيين بقبولها تشجيعاً للوطنيين فلم يجد ذلك نفعاً فعلق منشوراً في الشوارع والممرات فحواه « ان من يتجرأ على رفض أوراق البون يُقتل بالرصاص » فاضطر الأهلون الى قبولها بالرغم ولم يكن بينها اوراق اقل من خمسة غروش فتعسرت المعاملة بها فطبع غوردون أوراقاً بقيمة عشرة آلاف جنيه منها عشرة آلاف ورقة الواحدة منها بغرش والباقي بخمسة غروش وعشرة غروش . ولكن لم يلبث التجار ان بخسوا أثمانها وصاروا يشترونها بثمن أقل من الثمن المعين لها فقبض غوردون على بعضهم وأرسلهم الى سراي الشرق فحبسهم مدة ثم عفا عنهم وأعادهم الى الخرطوم بعد ان أقسموا بالتوبة . ثم لم يتلافَ هذا الشر حتى ظهر ان صابراً واحمد ابني الشيخ عبد الغني السلاوي قد قلدا ختم الحكمدارية « وفرمة » غوردون بالنقش على القرع وطبعا اوراق « بون » كأوراق غوردون فحوكما بمجلس عسكري فاعترف أبوهما انهما فعلا ذلك نظراً للضيق الذي صارا اليه فحكم المجلس بحبسهما سنة فصدق غوردون الحكم وجعل لوالدهما مرتباً يستعين به على معيشته قدره خمسة جنيهات في الشهر .

اخفاء التجار للغلال : ثم لما طال الحصار أخذ التجار في اخفاء الغلال في مطامير داخل منازلهم فارتفعت أثمانها وكثر عدد المتسوّلين في المدينة حتى غصّت بهم شوارعها فأحصاهم غوردون فكانوا ٣٠٠٠ نفساً فأمر بمرتب يومي يجري لهم من المخازن قدره ١٠٠ درهم من البقسماط لكل نفس ولما طال الحصار خفض المرتب الى ٥٠ درهماً. ثم أمر غوردون المحافظ فنبش المطامير وأحصاها في « كشف » فأخذ التجار يخفون منها ايضاً ويقولون انها نفدت فضجّ الأهالي لقلة الغلال ففتح غوردون شونة الحكومة وأخرج منها ٤٠٠٠ اردب غلة فبيعت للموظفين والاهالي بثمن معتدل وبحث المحافظ عن الغلال المخفاة فوجد تاجراً رومياً بشركة ابراهيم بك البورديني الوطني قد أخفى ٦٠٠٠ اقة ذرة

فأحضره ووبخه قيل وجلده بالسياط حتى أدماه فحمله رفاقه الاروام على سرير وأتوا به الى غوردون طالبين بثأره فألغى غوردون المحافظة تسكيناً لروعهم وأعاد نصحي ووكيله الى خط النار وأرجع الضابطة بمأمورها السابق حسن بك فؤاد ووكيله ابراهيم افندي لبيب وأمرهما ان يسلكا فيها مسلك المحافظة بلا فرق .

إباحة الفطر والحرب في رمضان : وقد تقدم ان غوردون كان ينتظر ارتفاع النيل بفارغ الصبر ليتمكن من استخدام الوابورات لرفع الحصار ويتمكن الانكليز من نجدته فلما بدأ النيل في الارتفاع بدأ شهر رمضان فجمع العلماء واستفتاهم في إباحة الفطر والحرب فيه فأفتوا بذلك بدليل ان النبي ﷺ فتح مكة في شهر رمضان فنشر غوردون هذه الفتوى في جميع المراكز العسكرية.

واقعة القطينة ٤ يوليو سنة ١٨٨٤ : ولما كان يوم ١٠ رمضان سنة ١٣٠١هـ ٤ يوليو سنة ١٨٨٤ م بلغه ان رجلاً يدعى حامد ود الفقيه عبدالله الدنقلاوي من سكان القطينة قد جمع جموعاً من بلده ونوى الزحف على الخرطوم فجرّد عليه ساتي بك بالوابورات فحاربه مستبسلاً ولكن حامد عبد الله تغلب عليه بكثرة العدد وقتله مع نفر من عسكره وهزم باقي العساكر الى الخرطوم وما انتشر خبرهم حتى ارتفعت أصوات الحزن في المدينة وتأسف غوردون لموت الساتي بك لأنه كان من أعزّ رجاله فاستدعى أخاه وعزّاه ووجّه اليه الرتبة الثالثة وقلده قومندانية الوابورات مكان أخيه .

واقعة الكلاكلة في ٩ يوليو سنة ١٨٨٤ : وقطع الدراويش رأس الساتي بك وعلقوه على خربة طويلة وأتوا به قرب الخندق وصاروا ينادون العساكر « اخرجوا ايها الملاعين ليحلّ بكم ما حلّ بالساتي » فاشتعل غوردون غيظاً من قحتهم وفظاعتهم فجهز جيشاً مؤلفاً من ٦٠٠ من العساكر النظامية و ٢٠٠ من الباشبوزق وطقم ساروخ وعقد لواءه للبكباشي السيد افندي امين فجعل العساكر النظامية بهيئة « قلعة » او « مربع » ووضع العساكر الباشبوزق

بهيئة « شرخجية » على ٣٠٠ متر من مقدمة المربع وسار حتى أقبل على الدراويش قرب حلة الكلاكلة وكان بينه وبينهم خور يمتد من تلك الحلة الى النيل الابيض فخاف اذا لجأ الدراويش اليه تعسر اخراجهم منه ففتح المربع وصفّه بهيئة طابور فسبقهم اليه ووارى عسكره به وفتح على الدراويش ناراً حامية فمالوا نحو الجناح الشمالي بقصد تجاوزه وقطع خط الرجعة فأمر السيد افندي فانكسر الجناح المذكور واصطف بهيئة طابور على زاوية مستقيمة مع الطابور الاول ووالى الطابوران رمي الرصاص وطوبجية الكروب من الخرطوم تساعدهما وكان الدراويش يوالون الهجوم مستقتلين حتى ان احد أمرائهم المسمى ود دفع الله دفع جواده وسط النيران وكرّ مهاجماً والسيف مشهور بيده وهو ينادي « انا ود دفع الله » حتى اخترق الصف فانبرى له الملازم عبد الخالق افندي المصري وابتدره بضربة من سيفه فجندله . ودام القتال من الضحى الى ما بعد الغروب وقد قتل من الدراويش نحو ١٠٠٠ رجل ولم يقتل من العساكر سوى اثنين وجرح ١٢ لأن الخور حماهم من النيران فعادوا الى الخرطوم وألوية النصر تخفق فوق رؤوسهم فزال الغم عن الحامية وعم الفرح المدينة كلها .

واقعة برّي في ٢٧ يوليو سنة ١٨٨٤ : وكان غوردون ينتظر ارتفاع النيل الازرق بفارغ الصبر ليتمكن من الانتفاع بالوابورات فلما كان يوم الاحد ٢٧ يوليو سنة ١٨٨٤ م وقد ارتفع النيل المذكور الى الحدّ المطلوب جرّد على ابي قرجة جيشاً من العساكر النظامية بقيادة الميرالاي محمد علي بك وجيشاً من الباشبوزق في البر بقيادة خشم الموس بك فحصرا أبا قرجة بين نارين وأخرجاه من الطابية عنوة وتقدما بالعساكر الى الطابية فهدماها وهدما المنازل التي في جوارها وكان غوردون يشاهد القتال من الخندق فلما رأى إنتصار العساكر أتى الى محل الواقعة فهنأهم بالنصر ورقّى كل ضابط الى رتبة أعلى من رتبته واستطرد العساكر القتال في اليوم الثاني والثالث فهزموا الدراويش

الى الجريف وقد قتلوا منهم في الايام الثلاثة ٨٠٠ رجل ولم يقتل من العساكر سوى ٣٠ رجلا .

واقعة الجريف في ١٢ اوغسطوس سنة ١٨٨٤ : وصمم غوردون الآن على طرد ابي قرجة من الجريف فلما كان يوم الثلاثاء في ١٢ اوغسطوس سنة ١٨٨٤ م عاد محمد علي بك بعسكره في النيل الازرق وخشم الموس بك في البر فحصرا ابا قرجة بين نارين كما فعلا به في برّي فحارب مستقتلاً حتى قتل معظم جيشه وفيهم أخوه نصر وحاج محمد ولد الزبير العابدلابي وغيرهما من الابطال المعدودين وقتل فرس ابي قرجة فشاع بين أنصاره انه قتل هو فانهزموا شر هزيمة واستولى العساكر على الديم فكانت غنائمهم ٦٠٠ اردب ذرة و ١٠٠٠ بندقية و ١٢ صندوق جبخانة وعدداً من السيوف والمواشي .

هذا وكان ابو قرجة قد أرسل يطلب الشيخ فضلاً من النيل الابيض لنجدته ولكن غوردون كان قد احتاط لذلك وأرسل سرية من العساكر الى الصحراء لتحول بينه وبين ابي قرجة فخرج فضل في اصحاب الخيل وترك باقي اصحابه في صدد السرية فقابله الدراويش المنهزمون في الطريق وأخبروه بنصر العساكر وخبر قتل ابي قرجة قيل فاسترجع ودمعت عيناه وهمّ ان يحمل على العساكر وحده فتعلق اصحابه في عنان فرسه ومنعوه عن ذلك فعاد وبحث عن ابي قرجة فوجده حياً فنزل معه بمحل يدعى ود شكر الله على النيل الابيض على نحو ٢٠ ميلاً من الخرطوم وأرسلا الرسل الى المهدي يعلمانه بما كان . وسرّ غوردون من محمد علي بك فرقاه الى رتبه اللواء الرفيعة .

واقعة الحلفاية الثانية وطرد الشيخ العبيد في اواسط اوغسطوس سنة ١٨٨٤ : هذا ولما فرغ غوردون من ابي قرجة التفت الى الشيخ العبيد الذي كان محاصراً الخرطوم في الحلفاية فسير عليه جيشاً في النيل في ثلاث بواخر بقيادة خشم الموس بك وجيشاً في البر بقيادة فرج الله بك فلما رأى العساكر مقبلين براً وبحراً ترك النيل وتوغل في البر الى غابة الملاحة فاجتمع العساكر

عليه وأشعلوا النار في جيشه من البر والبحر فثبت أمامهم الى الظهر ثم ولى الادبار منهزماً الى ام ضبان وقد قتل من جيشه نحو ٢٠٠ رجل وجرح ابنه ابراهيم وحمل على فرس واستولى العساكر على ديمه فغنموا شيئاً كثيراً من الحبوب والاقمشة والكتب والاسلحة .

ثم ان محاصري امدرمان لما رأوا بطش العساكر خافوا على أنفسهم وتركوا الحرب فانجلى الحصار عن الخرطوم وام درمان ووزع غوردون كتب الأمان الى أطراف البلاد وأعاد العساكر والتلغراف الى الحلفاية ففتحت سوقها وصار الناس يأتونها بالحبوب والمواشي والسمن من كل الجهات فتنفس اهل الحامية وزال عنهم الغمّ .

واقعة ابي حراز : وكان اول ما بدا لغوردون بعد رفع الحصار عن الخرطوم ان يستطلع حال سنار فبعث لها بخيت بك بطراكي بوابور بوردين و ٢٠٠ عسكري فأوصله محمد علي باشا بخمس وابورات الى ابي حراز فوجد أهلها لم يزالوا على العداء فأوقع فيهم واقعة شديدة وطردهم من البلدة وغنم منها ١٨٠٠ اردب ذرة و ٨٥ قنطار بن و٢٣ اردب سمسم فحملها في الوابورات وعاد بها الى الخرطوم .

واقعة العيلفون في اواخر اوغسطوس سنة ١٨٨٤ : فأخذ غوردون ينظر الآن في استرجاع بربر وفتح الطريق الى مصر فاستدعى رؤساء جيشه واستشارهم في الامر فوافقوه على ذلك فجهز جيشاً مؤلفاً من ١٠٠٠ جهاديّ و ٨٠٠ من الباشبوزق وعقد لواءه الى محمد علي باشا وفيما هو يتأهب للسير اذا بمخبر قد حضر من الجنوب وقال ان انصار الشيخ العبيد قد عادوا الى تجمعهم في العيلفون وسدّوا طريق النيل الازرق فرأى محمد علي باشا وجوب تمهيد العيلفون قبل الزحف على بربر وصدّق غوردون رأيه فركب الوابورات قاصداً العيلفون في ٢٩ اوغسطوس سنة ١٨٨٤ ونازل اهلها يومين فقتل منهم وهزمهم الى ام ضبان على ١٢ ميلاً من العيلفون حيث أقام الشيخ العبيد بباقي أنصاره .

واقعة ام ضبان في ٤ سبتمبر سنة ١٨٨٤ : فطلب محمد علي باشا الاذن من غوردون في الحملة عليه فلم يأذن له لأنه لم يرَ الخروج عن النيل رأياً فبعث محمد علي باشا يلحُّ عليه في طلب الاذن ويقول ان سحق الشيخ العبيد لا بد منه لراحة الخرطوم وفتح طريق سنار وان النصر عليه مضمون فأذن له بعد تردُّد . وفيما هو يتأهب للمسير الى ام ضبان أتاه عبد اسود أرسله الشيخ العبيد جاسوساً فقال اني فررت من الشيخ العبيد لشدة ما لحقني من الضرب والاهانة وجئت أدلكم على طريق يكون فيها هلاكه فلأم ضبان من هنا طريقان الطريق المعتادة وطريق قصيرة في غابة كثيفة ملتفة الأشجار فان أتيتموه بالطريق المعتادة شعر بقدومكم وفرَّ منكم فاقصدوه بطريق الغابة وباغتوه الهجوم وأنا أدلكم على هذه الطريق فانطلى خداع هذا العبد على محمد علي باشا فنظم جيشه مربعاً جعل الجهادية فيه ضلعين والباشبوزق ضلعين والحملة في الوسط وسلك طريق الغابة فما توسطها حتى خرج له كمينان عن اليمين والشمال فاخترقوا القلعة واختلطوا بالعساكر فقتلوا منهم نحو ٨٠٠ رجل وهزموا الباقي وقد أصيب محمد علي باشا برصاصة فافترش فروته على عادة اهل السودان المعهودة واجتمع عليه الدراويش فقتلوه ولم يقتل من اصحاب الشيخ العبيد سوى ٥٢ رجلاً . وقتل من الضباط سلطان بك عبد الله بعد ان حارب حرب الابطال ونجا فرج الله بك فجمع شتات المنهزمين وعاد بهم وبالبواخر الى الخرطوم فما انتشر فيها خبر الانكسار حتى ضجت بالبكاء والعويل فبذل غوردون جهده في تسكيتهم بالحسنى فلم يفلح فأصدر أوامره المشددة بأن من لم يكف عن الصياح والعويل يطرد خارج الخندق ويحرق منزله فهدأت المدينة .

وقد اغتمّ غوردون لقتل محمد علي باشا لأنه كان من أفضل قواده فجاء رؤساء العسكرية وقنصل اليونان وحكيم الاسبتالية يعزونه وقالوا ان كنا قد انكسرنا في هذه الواقعة فقد انتصرنا قبلها في وقائع وهذه عادة الدهر « يوم لك ويوم عليك » فشكر لهم غوردون سعيهم وقال اني لا زلت أجد بكم

الكفاءة لقمع العصاة ولكني أتأسف ان قائداً من قوادي العظام يتبع عادة همجية ويودي بنفسه الى الهلاك وله من ذلك مفرّ .

اما الشيخ العبيد فانه بث الرسل الى كل الجهات يخبرهم بالنصر الذي ناله في ام ضبّان ويستحثهم على حصر الخرطوم من جديد . فلنترك الشيخ العبيد يجمع رجاله على النيل الازرق وأبا قرجة ينتظر المدد على النيل الابيض ولنرجع الى المهدي في كردوفان فنقول :

عصيان جبل الداير : كنا تركنا المهدي بعد واقعة شيكان يعدّ نفسه للزحف على الخرطوم فعصاه اهل جبل الداير وقطعوا طريق الابيّض فجرّد عليهم الجيوش لقمعهم فكان بينهم وبين أهالي ذلك الجبل وقائع معدودة قتل فيها خلق كثير من الفريقين . وقد رأيت كتاباً من المهدي بتاريخ ٢ مارس سنة ١٨٨٤ الى عامله محمد خالد زقل في دارفور يخبره بما كان من عصيان جبل الداير قال : « ... والملك آدم ملك جبال تقلي أتى الينا مسلماً وجميع ملوك الجبال انقادوا لأمر الله ورسوله ما عدا أهالي جبل الداير عصوا وخالفوا امر الله ورسوله بقطعهم لطريق المسلمين ونهبهم لأموال الناس ولذلك عيّنا لهم من بيرق الخليفة شريف عبد الرحمن النجومي وعبد الله النور ومن بيرق الخليفة عبد الله حمدان ابا عنجه ومن معهم من الاخوان فتوجهوا لهم » .

انتقال المهدي الى الرهد غازياً الخرطوم
٧ جمادى الآخرة سنة ١٣٠١ هـ ٤ ابريل سنة ١٨٨٤ م

وقد خرج الجيشان المذكوران من الابيض في ربيع الثاني سنة ١٣٠١ هـ مارس سنة ١٨٨٤م وطالت الحرب بينهما وبين الجبل والمهدي لم يزل في الابيض حتى أتاه رسول صالح الملك من فداسي فسيّر اليه عثمان ابا قرجة كما مرّ وقام هو على الاثر قاصداً منهل الرهد بعد ان استعمل محمود عبد القادر من أقاربه على الابيض . وهاك ما كتبه الى زقل في ٥ ابريل سنة ١٨٨٤ بهذا الشأن :

« ... وقد عيّنا محمد ابا قرجة ومن معه من الانصار اميراً على جهة البحر ووجهناه لمحاربة أعداء الله . وأما نحن فقد أتانا الخبر النبوي بالتوجه الى البحر وجهاد الخرطوم فها هو قد صار قيامنا مع كافة الاحباب والاصحاب في اثره مع قيام وتوجه عمد وأعيان كردوفان معنا كمثل الياس محمد ام برير وبان النقا وولد العريق والمكي اسماعيل وغيرهم . وايضاً عينا السيد محمود اميراً لكافة أهالي مديرية كردوفان وملحقاتها لإزالة الفساد والضلال والامور غير المرضية كتاباً وسنةً » ...

قيل وفي أثناء سيره الى الرهد كان يمشي على رجليه مراعاة لحال الضعفاء من أنصاره الذين ليس لهم دواب حتى انه حفي وتورمت رجلاه . وقد اختار الرهد لكثرة مائه وقربه من جبل الدائر الذي كان لم يزل على العصيان وقد عجز عن قمعه الجيشان اللذان أرسلهما عليه في مارس فجهز جيشاً آخر من راية الخليفة علي ود حلو وعقد لواءه لموسى ود حلو وأرسله مدداً الى الجيشين المذكورين ووزع منشوراً بين اصحابه بتاريخ ١٩ مايو سنة ١٨٨٤ يدعوهم الى الجهاد فرافق موسى ود حلو خلق كثير من أخلاط الرايات فلما رأى اهل الدائر كثرة الجيوش أتى رؤساؤه مسلمين فكتب الأمراء الى المهدي بذلك وكان المهدي قد قلق لطول حرب الدائر وصار يتمنى عذراً من الغيم لتركها لأنها تحرفه عن قصده وتضعفه ولا تفيده بشيء فكتب الى الأمراء يدعوهم الى الرهد وهذه صورة الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم .

« وبعد فمن العبد الفقير الى الله محمد المهدي بن عبد الله الى احبابه في الله وأصفيائه المكرمين عبد الرحمن النجومي وحمدان ابي عنجة وموسى حلو عملاء المهدية جزاهم رب البرية خيراً واحساناً وتولاهم الله . نقريكم السلام ونعرفكم ان جوابكم ورد علينا كلما ذكرتموه صار معروفاً والحال ما دام ان المطلوب نصرة الدين وقد حصلت وظفركم الله على أعدائكم فجزاكم الله عنا كل الخير

وعن الاسلام والمسلمين حيث صبرتم وجاهدتم لوجه الله وللآخرة أردتم ولما عند الله قصدتم وفي الله تبعتم وعلى المقصود حصلتم بقاساتكم الشدائد كالجبال فبوصول هذا اليكم حالاً احضروا جميعاً انتم ومن معكم كما كاتبكم خليفة الصديق الخليفة عبد الله ولا يكون لكم تعويق الا مسافة الطريق هذا وبارك الله فيكم وعليكم وأنمى فضلكم الى لقاء ربكم آمين . بتاريخ ١٨ شعبان سنة ١٣٠١ هـ ١٣ يونيو سنة ١٨٨٤ م » . فلما وصلهم كتاب المهدي هذا أحرقوا الديوم التي كانوا مقيمين فيها ورجعوا جميعاً الى الرهد .

عبد الرحمن النجومي وحصار الخرطوم :

وعند وصول الجيوش من الدائر ندب المهدي عبد الرحمن النجومي وعقد له على ١٠٠٠ من العساكر النظامية و٣٠٠٠ من أخلاط العرب وكلهم مسلحون بالبنادق الرمنتون وأعطاه مدفعين كروب واربعة مدافع جبلية وساروخ وسيره الى الخرطوم اميراً عاماً على جميع المحاصرين فخرج من الرهد في غرة رمضان سنة ١٣٠١ هـ ٢٥ يونيو سنة ١٨٨٤ م وأبطأ في السير فنزل على النيل الابيض بمحل يدعى شبشة قرب الدويم في اواخر اوغسطوس فوافاه هناك رسول من أبي قرجة يخبره بما حصل له في الجريف يوم ١٢ اوغسطوس فجد السير حتى أتى ود شكر الله فأخذ ابو قرجة ومن معه من الانصار وزحف على الخرطوم فنزل بجيوشه في محل يدعى الغرقان بينه وبين خندق الخرطوم مرمى القنبلة وكذلك بينه وبين النيل الابيض فترك العائلات في الغرقان بعهدة ابي قرجة وتقدم بالمقاتلة لحصار الخرطوم فأقام لهم طوابي تجاه طوابي الخندق طابية تجاه طابية الكلاكلة وعلى مرمى الكلة منها وقعد فيها بمعظم جيوشه وأمر عبدالقادر ولد مدرع امير الحسنات فنزل بمقابلة باب المسلمية من ابواب الاستحكام وأمر عبد الله ود النور فنزل تجاه طابية برّي وكان محل نزوله أقرب اماكن الحصار حتى كان الواقف فيه يرى الداخل والخارج في منازل

الخرطوم ولذلك سمى بعضهم هذا المكان بالدار الآخرة اشارة الى ان من كان يقيم به للحصار كأنه صار من اهل الدار الآخرة .

وكان الشيخ العبيد لما علم بقدوم النجومي لحصر الخرطوم قد حشد جيوشه وتقدم لحصرها من الشرق فأسرع غوردون وأخرج عساكره من الحلفاية وهدم منازل قبة الشيخ خوجلي وقبة الشيخ حمد ولكنه أبقى على القبتين وعلى محل السادة المرغنية في حلة الشيخ خوجلي فجعل الشيخ العبيد مدفعاً في محل السادة المرغنية وقعد لحصر الخرطوم ومعه الشيخ المضوي . وأرسل اليه النجومي بأمر المهدي عبد الله ود جبارة وابو بكر ولد عامر ليساعداه على الحصار بتلك الجهة وهكذا حصر الخرطوم من الشرق والجزيرة وترك جهة ام درمان للمهدي الذي كان لاحقاً به . وبعد ان رتب النجومي جيوشه على ما قدمناه أرسل الى غوردون كتاباً هذا مفاده :

« اعلم اني ود النجومي امير أمراء جيوش المهدية الملقب بسيف الله المسلول وفاتح كردوفان والدارا وقد جئتك الآن بجيوش لا طاقة لك بها ومدافع لا قدرة لك على احتمالها فسلم تسلم ولا تسفك دماء العساكر والاهلين بعنادك والسلام » .

فرد عليه غوردون بقوله : « قد اطلعت على خطابك وأنا لست بمبال بك ولا بسيدك المهدي ولسوف يحلّ بك ما حلّ بأبي قرجة في بري والجريف وبابن عمك العبيد بالحلفاية فخلّ عنك شقشقة اللسان وكثرة الهذيان وجرّب نفسك والسلام » .

هذا وكان النجومي قد كتب الى اهل الخرطوم ايضاً كتاباً يدعوهم به الى التسليم وقد أوعز الى العلماء الذين صحبوه فكتبوا لهم كتاباً حاولوا فيه بيان صحة دعوى محمد احمد وتطبيق صفاته على ما جاء في الكتب من صفات المهدي فاجتمع علماء الخرطوم وأصدروا فتوى بتاريخ ٢٣ القعدة سنة ١٣٠١ ﻫ ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٤ م فندوا فيها كتاب النجومي بنداً بنداً وأمضاه كل من الشيخ الامين محمد رئيس ومميز علماء السودان وشاكر افندي مفتي استئناف

السودان والشيخ حسين المجدي مدرس العلم بالجامع ومحمد خوجلي قاضي عموم السودان وموسى محمد مفتي مجلس السودان . فدفع غوردون هذه الفتوى والكتاب الى رسول النجومي بعد ان طاف به على مراكز الدفاع ثم أخرجه من الاستحكام .

مواصلة سنار : ولننظر الآن الى ما كان من بخيت بك بطراكي الذي أرسله غوردون في اواخر اوغسطوس ليتعهد حال سنار فانه جدّ السير حتى وصل الجادين فوجد المدير لم يزل فيها ومعه النور بك محمد وعثمان بك الدالي ففرح بهم وفرحوا به وأخذوه الى سنار فمكثوا يوماً ثم عادوا الى الجادين وكان بخيت بك قد أخذ معه الى الحامية مقداراً من الذخيرة والصابون والملبوسات وعدداً معلوماً من ورق البون فسلمها الى المدير وكان معه أمر من غوردون الى النور بك محمد يسميه قومنداناً عاماً على العساكر لأنه كان يعرفه من خط الاستواء فسلمه إياه ثم وسق ٨٠٠ اردب ذرة في الوابور وانقلب راجعاً الى الخرطوم فوصلها في ٧ سبتمبر فعنفه غوردون على عاقته بلا سبب وقلة ما أتى به من الذرة وأوقفه عن الاشغال .

بعثة نصحي بك الى سنار في ١٠ سبتمبر سنة ١٨٨٤ : ثم عقد مجلساً من الضباط العظام للنظر في اخلاء سنار وجلب عساكرها الى الخرطوم فقرّ رأيهم على ترك العساكر في سنار والاستمرار على مواصلتها فندب غوردون نصحي بك وجهز له وابوري بوردين وتل حوين واربعة مراكب شراعية و ٢٠٠ عسكري وأعطاه الف طاقم للعساكر وأمراً بزيادة مرتب المدير الف غرش في الشهر ومعاملته كأميرالاي من كل وجه مع الوعد بالترقي الى رتبة لواء وأعطاه اوراقاً بيضاء مختومة بختمه وفوّض اليه منح الرتب لمن يستحقها من الضباط والعساكر ومشايخ البلاد . وكان مدير سنار قد ارسل مع بخيت بك : محمود افندي طلعت بكباشي العساكر واحمد افندي مكوار وكيل المديرية لخصام وقع بينهما فصالحهما غوردون ورقّى كلا منهما رتبة وأرجع

احمد بك مكوار مع نصحي بك فخرج نصحي من الخرطوم في ١٠ سبتمبر سنة ١٨٨٤ وسار حتى وصل الكاملين فتصدّى له أهلها فحاربهم ست ساعات متوالية وخرج منهم ظافراً ثم تقدم الى رفاعة فحاربوه اربع ساعات واستطرد السير نحو سنار وقد عانى المشاق في إيجاد الخشب وقوداً للوابورات فلم يصل الجادين الا الجمعة في ١٩ سبتمبر سنة ١٨٨٤ فوجد فيها بعض عساكر سنار يجمعون الحبوب فأنفذ خبراً الى المدير يعلمه بوصوله فحضر اليه في صباح الغد فناوله أمر غوردون القاضي برفع مرتبه وصالحه مع احمد بك مكوار . ثم أمر رجاله فشرعوا في شحن المراكب حبوباً وتقدم مع المدير الى سنار فاستقبله العساكر على الشاطىء « بالتشريفات » اللازمة ثم دخل ديوان المديرية فأمّه الاعيان والتجار وضباط الجيش فوقف بينهم خطيباً وقال : « لقد سُرّ حكمدار السودان من تعلقكم بالراية الخديوية وولائكم لحكومتكم في هذه الايام الشديدة وكلفني ان أبلغكم سلامه وشكره القلبي ووعد بمكافأة كلّ منكم بما يستحقه وهو يوصيكم بترويج اوراق البون والتعامل بها كالدراهم لأنها مضمونة من الحكومة الخديوية والدولة البريطانية وجميع الدول تتعامل بها لا سيما في الاحوال المماثلة لحالتنا واذا احتاج المدير الى نقود معدنية للانفاق منها على الجواسيس والرسل فاقرضوه ما يلزم وخذوا منه « رجعاً » واحفظوها معكم الى ان يرتفع الحصار فترجع لكم مع المكافأة اللازمة » . فأجابوه بالسمع والطاعة فوزّع عليهم الرتب حسب التماس المدير . وكان المدير قد ارسل مع بخيت بك بطراكي يلتمس جزاء السر سواري عثمان بك الدالي لأجل ما أبداه من الدربة والبسالة في واقعة ابي الحسنى المار ذكرها فرقاه غوردون الى رتبة ميرالاي جهادي فتقبلها شاكراً . وفي اليوم التالي الاحد تفقد نصحي الخندق فوجده في غاية المناعة وعاد يوم الاثنين الى الجادين ومعه أشياء كثيرة من الحبوب والزيوت والسمن والسمسم من اهل سنار الى اقاربهم في الخرطوم فوجد رجاله قد شحنوا مراكبهم بثلاثة آلاف اردب ذرة لحامية الخرطوم فشحن الف اردب اخرى أمانات وفي فجر الاربعاء قفل راجعاً بالوابورين والمراكب الى

الخرطوم وسار لا يعترضه احد حتى وصل الكاملين صبح الجمعة في ٢٦ سبتمبر سنة ١٨٨٤ فتصدى له أهلها كالاول فرماهم بالقنابل وتخلص منهم وسار حتى وصل الجريف وكان النجومي قد علم ببعثته الى سنار وأرسل بعض الطوبجية واصحاب الاسلحة النارية الى الجريف ففتحوا المزاغل في منازلها وعملوا متراساً على شاطىء النيل وكمنوا له فما اطل حتى ابتدروه بالقنابل والرصاص فأرسل غوردون وابور « المنصورة » بالعساكر فأنجده فدخل الخرطوم مساء الجمعة المذكور وقد قتل من عسكره ١٥ رجلاً وأصيب قزان وابوره بوردين فسرّ غوردون من نشاطه ودربته فرقاه الى رتبة لواء وقال « اني أريدك لأمر هام فاذهب الآن واسترح الى الغد » .

بعثة ستيورت باشا الى مصر في ١٠ سبتمبر سنة ١٨٨٤ : هذا وكان غوردون يوم وجّه نصحي الى سنار قد وجّه وكيله ستيورت باشا بوابور عباس الى مصر لابلاغ الحكومة حالة الخرطوم واستعجالها في انقاذه . وقد صحبه على الوابور ٤٠ رجلاً وفيهم المستر بور قنصل انكلترا في الخرطوم والمستر هربن قنصل فرنسا فيها وحسن افندي حسني من موظفي التلغراف الانكليزي و ١٩ من التجار اليونان و ٥ عساكر طوبجية ومدفع صغير . وجرّ الوابور وراءه اربعة مراكب صغيرة اخذ فيها جماعة من تجار اليونان والشوام واليهود بشرط تركهم عند أقل خطر . وبعث غوردون مع «عباس» وابوري المنصورة والصافية بقيادة عثمان بك حشمت ليساعداه على المرور ببربر ثم يعودان الى الخرطوم فسار ستيورت باشا بمن معه بلا معارض حتى أشرف على شندي فبادره اهلها بالرصاص من الشونة الاميرية فرماهم بقنبلة واحدة وبقي سائراً الى ان وصل الدامر فوجد اهلها قد أقاموا متراساً وكمنوا للوابورات فصوّب عليهم المدافع ونجا منهم ووالى السير حتى أطل على بربر فتلقاه أهلها بالقنابل والرصاص من الشرق والغرب فأطلق مدافعه وبنادقه يميناً وشمالاً وهو مواصل السير حتى تخلّص منهم فأمر عثمان بك حشمت فعاد بالوابورين الى الخرطوم فوصلها في ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٨٤ .

وجدّ ستيورت السير شمالاً وهو يجر المراكب الاربعـــة الى ان وصل العَبيدية فترك مركبين منها وراءه لضيق النيل هناك وكان محمد الخير عامل بربر لا يعلم سبب سفره فأفلت من الوابور رجل من الباشبوزق يقال له التوم ود علي بك فأخبر محمد الخير بقصده فأرسل وراءه ابن اخيه عبد الماجد على وابور الفاشر الذي غنمه في بربر فلمــا أدرك المركبين اللذين تركهما ستيورت رفعا له راية بيضاء دلالة على التسليم فتركهما وجدّ السير وراء وابور عبــاس حتى وصل شلال الحمــار فوقف لضيق الشلال عليه واجتازه « عباس » لصغر حجمه ولكنه ترك المركبين الآخرين وراءه لتخف حركتــه فوقع المراكب الاربعة في أسر « الفاشر » فقطرها وقفل راجعاً الى بربر .

وواصل وابور عباس السير حتى دخــل شلالات ود قمر فاصطدم بصخرة فدخله الماء فرسى على جزيرة صغيرة تجاه قرية هبّة على ٩ أميال من السلامات وذلك في ضحى الخميس ١٨ سبتمبر سنة ١٨٨٤ فأخرج ستيورت صحن الوابور الى الجزيرة ورمى بالمدفـع الى البحر فعلم به شيخ هبة الفقيه ود عثمان فأرسل الى السلامات الى الشيخ سليمان بن الشيخ نعمان ود قمر الذي قتل في الدبة يعلمه بغرق الوابور ويستعجله لاغتنام الفرصة والأخذ بالثأر فأتى الشيخ سليمان الى ستيورت باشا وأظهر أشد الاسف لما اصابه وسأله ان ينزل معه الى البر فيدبر له الركائب ويوصله بنفسه الى دنقلة قيــــل فارتاب ستيورت باخلاصه ولكن الحاجة وفراغ الاجل اضطراه الى قبول دعوته فترك أشياءه في الجزيرة ونزل بمن معه الى هبة فأبقى العساكر والخدم على شاطىء النيل ودخل منزل سليمان ودنعمان ومعه المستر بور والموسيو اربان والتجار اليونان وحسن افندي حسني الذي استعمله مترجماً وكان سليمان ود نعمان قد دبّر المكيدة لقتلهم فذبح لهم ذبيحة وأحضر بعض الجمال ليوهمهم إنه يهتم بترحيلهم بعد الضيافة وكان قــد بعث بالرسل الى قومه فاجتمعوا حوله من كل جهــة ثم أشار فانقضوا عليهم كالنسور وقتلوهم عن آخرهم حتى العساكر والخـدم ولكنهم أبقوا على حسن افندي حسني ورئيس الوابور فاختُلف في سبب نجاتهما فقال البعض انهما نطقا

بالشهادة واستغاثا بالمهاجمين فأبقوا عليهما وقال البعض انهما اشتركا في المكيدة. وقد رأيت حسن افندي بعد واقعة ام درمان فأراني جرحاً في جسمه قال انه أصابه في تلك الواقعة فصرع منه فظنه المهاجمون انه قتل ثم ظهر لهم انه حي فأبقوا عليه واستولى سليمان ود قمر على جميع مهمات ستيورت وأوراقــه وفي جملتها يومية غوردون منذ اول مارس الى قيام ستيورت من الخرطوم في ١٠ سبتمبر سنة ١٨٨٤ فوقعت بيد سليمان ودقمر فبعث بها الى المهدي وبعث بالخبر الى محمد الخير فأرسل ابن اخيه عبـد الماجد الى ود قمر فأخذ مهمات الوابور وعاد بها الى بربر . وأما غوردون فلم يعلم خبر ستيورت قبل ١٠ اوكتوبر .

بعثة نصحي باشا بالوابورات الى شندي لمقابلة الانكليز في ٢٩ سبتمبر سنة ١٨٨٤

هذا وكانت الحكومة الانكليزية قد أقرّت على ارسال حملة لانقاذ غوردون منذ ٨ اوغسطوس كما سيجيء وبلغ الخبر غوردون من طريق دنقلة في اواخر سبتمبر فنشره في المدينة كلها ولمــا عاد نصحي باشا من سنار جهز له ثلاث وابورات وأمره بملاقــاة الانكليز في المتمة واستقصاء اخبارهم وارسالها اليه تباعاً وهذا مفاد الامر الذي أصدره له في هذا الشأن بتاريخ ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٨٤ م أي ثاني يوم وصوله من سنار :

سعادتلو افندي محمد نصحي باشا

« اني اخترتكم للذهاب الى شندي لمقابلة الجيش الانكليزي القادم لنجدتنا بطريق دنقلة وجهزت لكم وابورات تــل حوين والصافية والمنصورة لتذهبوا فيها ومعكم من الضباط محمود بك طلعت وعلي افندي رضا فيكون كل منكم في وابور ويرافقكم خشم الموس بك ليؤلف السناجق الذين في شندي ويضمهم اليكم . وفي مروركم الى شندي اختبروا حــال الاهلين واعلموا الطيب منهم والرديء وأبقوا في شندي فـلا تتعدوها الى بربر ولا تخرجوا من الوابورات الى البرّ لأي سبب كان وابعثوا بالجواسيس الى دنقلة لاستطلاع خبر الجيش

وأرسلوه اليّ تباعاً. ويرافقكم يوسف افندي صديق من كتاب الحكمدارية بصفة كاتب لكم ومعه ٨٠٠ ريال لأجل الانفاق منها على الجواسيس واذا أتتكم رسالة من مدير دنقلة او من الجيش فأرسلوها اليّ حالاً . ولي الامل الوطيد انكم تقومون بواجب مأموريتكم هذه خير قيام والسلام » .

ولما كان يوم الثلاثاء في ٣٠ سبتمبر سنة ١٨٨٤ م خرج نصحي من الخرطوم بالوابورات الثلاثة قاصداً المتمة وسنعود اليه بعد . ولنأتِ الآن الى ذكر ما كان من المهدي فنقول :

المهدي وحصار الخرطوم

غزوة المهدي للخرطوم : تقدم ان المهدي أتى الرهد من الابيض في أوائل جمادى الآخرة فأقام فيه الى آخر شوال سنة ١٣٠١ هـ ٢٢ اوغسطوس سنة ١٨٨٤ م يستعد للزحف على الخرطوم . وفي أثناء ذلك أتاه سلاطين باشا (وقد سُمي بعبد القادر سلاطين) والسيد بك جمعة من دارفور وحسين باشا خليفة من بربر وصالح باشا الملك من فدامي وقد مرّ ذكر ذلك كله في محله .

وأتاه الحاج عبد الله الكحال التاجر الشامي المشهور في خان الخليلي بمصر وكان قد ذهب بتجارة الى الفاشر بطريق الاربعين فلم يصلها حتى كان زقل قد استولى عليها فأخذ منه ثلثي تجارته وترك له الثلث الباقي فباعه وأخذ يحتال على النجاة فطلب من زقل الاذن في زيارة المهدي فأتاه الى الرهد وبايعه فسماه المهدي أميراً على بلاد الشام وأصحبه كتباً الى أهلها للقيام بنصرته والانضمام الى أميرهم الكحال لمحاربة الترك فحمل الكحال هذه الكتب وجدّ السير الى مصر بطريق دارفور فودّاي فبني غازي فالاسكندرية وهو غير مصدق بالنجاة .

وأتى المهدي الى الرهد في أواخر يوليو سنة ١٨٨٤ رجل من الغرب يدعى فخر الدين ادّعى انه خليفة المهدي فسلمه الى الخليفة عبد الله فحبسه ثم قتله .

وأرسل من الرهد محمود الحاج محمد الى دنقلة كما مرّ ومحمد ود ارباب الى القلابات كما سيجيء .

ولما كان يوم ٢٩ شوال سنة ١٣٠١ هـ ٢٢ اوغسطوس سنة ١٨٨٤ م خرج من الرهد غازياً الخرطوم بجميع جيوشه فنزل في منهل البساطة وأذن لأصحابه فزاروا قبر والد الخليفة عبد الله المدفون في ابي ركبة .

قدوم الاستاذ محمد شريف الى المهدي : ثم استطرد السير حتى أتى شات فاستراح فيها نحو شهر حتى تكامل جيشه وهناك أتاه استاذه الشيخ محمد شريف السالف الذكر مسلماً طائعاً وكان الاستاذ المذكور قد انتقل من العراديب الى مقام جده الشيخ الطيب في ام مرّحي فبقي فيه مؤملاً كسر شوكة المهدي حتى سقطت بربر وسدّت طريق مصر في وجهه وزحف المهدي غازياً الخرطوم فلم يعد يرى بدّاً من التسليم اليه فاستقبله المهدي احسن استقبال وأمر بذبح النياق احتفالاً بقدومه وبقي في صحبته غير مهان الى ان مات المهدي فوقع في يد خليفته التعايشي فأهانه وأذله ثم وضعه في السجن وبقي فيه الى ان أنقذه الجيش المصري الانكليزي بعد واقعة ام درمان سنة ١٨٩٨ .

خبر اوليفر باين : وقبل وصول المهدي الى شات أتاه رجل فرنساوي عن طريق دنقلة والابيض يدعى اوليفر باين وعرض عليه مساعدته ومساعدة قومه فرفضها المهدي وجعله في صحبة سلاطين فمرض بالحمى التيفوسية ومات في الطريق .

وقد فصل سلاطين باشا خبره في كتابه « النار والسيف في السودان » فقال : « وشاع خبر قدوم اوليفر باين في جيش المهدي فقال البعض انه امبراطور فرنسا والبعض انه من أقارب ملكة الانكليز فأحضروه الى الخليفة فسأله عن غرضه فأخذ يتكلم بالعربية كلاماً لا يُفهم فقال له المهدي : تكلم بلسانك مع عبدالقادر سلاطين وهو يترجم لنا فأخذ يتكلم بالفرنساوية فقال: انا فرنساوي واسمي اوليفر باين وقد أحببت السودان منذ صغري وأهل

بلادي ايضاً يحبون السودان مثلي ونحن في اوروبا على خلاف مع الانكليز الذين احتلوا مصر وأرسلوا غوردون الى الخرطوم وقد أتيت اليكم لأعرض عليكم مساعدتي ومساعدة أمتي. فقال له الخليفة: وما هي هذه المساعدة ؟ فأجاب: أما انا فأساعدكم برأيي وأما أمتي فتساعدكم بالمال والأسلحة فذهب الخليفة ليخبر المهدي بذلك وبقي سلاطين وباين وحسين باشا خليفة فقال حسين باشا لسلاطين : أمن السياسة ان يعرض المال والأسلحة على أناس غرضهم قتل البشر ونهب الاموال وسبي النساء والبنات وأنتم اذا اشترى واحد منا عبداً اسود قلتم ان ذلك اثم فظيع وعاقبتمونا أشد العقاب ؟ فلم يحر سلاطين جواباً . ثم أحضروا باين الى المهدي وأمر سلاطين ان يترجم بينهما فقال باين للمهدي كما قال للتعايشي فأجاب المهدي : لقد علمت ما تقول ولكن لا أعتمد على الناس بل على الله ورسوله وأنتم قوم كفار فلا يمكني محالفتكم وفيّ الكفاءة على قهر جميع أعدائي بأنصاري هؤلاء ثم قال لباين هل انت مسلم فقال نعم ثم قال كلمة الشهادة بصوت جهوري فأعطاه المهدي يده فقبلها . ولما وقف باين على حقيقة المهدي ودّ لو ان طيراً من السماء يحمله الى بلاده وينجيه من تلك الهلكة التي أوقع نفسه بها وتوسل الى سلاطين فتوسط له الخليفة ليسمح له بالعودة الى بلاده فلم يفلح . ثم مرض بالتيفوس فقام سلاطين على الاعتناء به ولما اشتد عليه المرض استدعى سلاطين وقال له « قد دنا اجلي فأشكر لك اعتناءك بي واهتمامك بأمري وآخر معروف أطلبه منك هو انك اذا نجوت من أيدي هؤلاء البرابرة وأتيت باريز فأخبر زوجتي وأولادي التعساء انني كنت أفتكر بهم وأنا على حافة القبر ثم اخذ يبكي وينتحب وحملوه في اليوم التالي على جمل فوقع عنه وقضي نحبه ودفن في برية شات اه ملخصاً .

وارتحل المهدي من شات فنزل النيل عند الدويم ثم ارتحل الى الترعة الخضراء فصلى فيها صلاة عيد الاضحى سنة ١٣٠١ هـ ١ اوكتوبر سنة ١٨٨٤ م . ثم ارتحل الى القيعة وهناك أتته الوفود من جهات الجزيرة والسودان الشرقي لمبايعته ووردت عليه الكتب من اعيان الجهات المذكورة بالتسليم وطلب البيعة والتماس

العفو عما حصل من تأخيرهم لاجابة داعيه قبل الآن. وأرسل غوردون وابوراً فكشف خبره وعاد الى الخرطوم . ثم ارتحل ونزل بمحل يدعى ابا سعد بينه وبين طابية ام درمان مسيرة ساعة ومن هناك أمدّ النجومي بجيوش لتشديد الحصار على اهل الخرطوم وجهز جيوشاً لمحاصرة خندق ام درمان وبقي في ابي سعد الى ان فتحت ام درمان فانتقل اليها . وكان وصوله الى ابي سعد في ٢٣ اوكتوبر سنة ١٨٨٤ م قيل وكان عدد الجيوش التي حضر بها تنيف على ستين الفاً .

تأثير غزوة المهدي في الخرطوم : هذا ولما علم المحاصرون بقدوم المهدي ازدادوا جرأة حتى صاروا يحفرون في الليل حفراً قريبة من خط النار ويختبئون بها فاذا لاح لهم عسكري رموه بالرصاص والعساكر لا تراهم حتى اشتد أذاهم فأمر غوردون المهندسين فأقاموا على خط النار أبراجاً شاهقة أطلت عليهم في تلك الحفر فطردوهم منها .

أما اهل الخرطوم فانهم لما سمعوا بقدوم المهدي اضطربوا وهلعت قلوبهم وكثر شغبهم فعلق غوردون منشوراً في جميع الممرات والشوارع والمراكز العسكرية مؤداه : « ان الجيش الانكليزي القادم لنجدتنا تبلغ عدته خمسين الفاً وقد انقسم الى قسمين قسم بطريق ابي حمد وقسم بطريق ود قمر وقد وصلت اول فرقة منه بالرويان وعن قريب تصل بربر وربما وصلت الخرطوم قبل وصول محمد احمد الى امدرمان فتشددوا واعلموا ان الله ناصركم والسلام». ومنح مكافأة شهرين لجميع العساكر والموظفين الملكية .

وكان غوردون عند اول سماعه بقدوم الجيش الانكليزي قد أمر باعداد بعض المنازل على شاطىء النيل لسكنى الضباط الانكليز فذهب الآن بنفسه الى تلك المنازل وتعهدها فوجد انها مفتقرة الى اصلاح كثير فأعطى احد المعاونين ٢٠ الف غرش فرممها وداوم الكنس والرش داخل المنازل وخارجها.

كتاب النجومي الثاني الى غوردون : هذا وكان النجومي لما وصله الخبر

بقيام المهدي من الرهد قد كتب الى غوردون كتاباً مفاده: ان الامام المنتظر قد تحركت ركائبه الشريفة من الرهد غازياً الخرطوم بجيوش لا عـــدد لها فأنصحك ان تقابله مع من تختار من الاعيان طائعاً طالباً الامان وهو لا شك يؤمنك على نفسك ومالك ومن معك وذلك أولى من سفك الدماء . واما ما ينقله اليك الجواسيس من ان الانكليز قد أرسلوا جيشاً لانقاذك فكله كذب وهم انما ينقلونه اليك لتبذل لهم العطاء كما هي عادتك وانا بعون الله قادر على فتح الخرطوم وأخذها منك عنوة ولكن سيدنا الامام المهدي أمرني بنصحك والرفق بك حقناً للدماء والسلام على من اتبع الهدى » .

جواب غوردون للنجومي: فأجابه غوردون في ٩ اوكتوبر سنة ١٨٨٤ بكتاب هـــذا مفاده : « من غوردون باشا والي السودان الى ولد النجومي بالكلاكلة : اعلم اني لست بمبالٍ بك ولا بسيدك المهدي ولا بمـــا معكما من الجيوش. وأما خبر قدوم الجيش الانكليزي فليس هو من اختلاق الجواسيس بل قد جاءتني به أخبار رسمية من قبل الحكومة الخديوية والدولة البريطانية العظمى وسترى عن قريب ما يحـل بك من الدمار وتقول يا ليتني مت قبـل هذا ولا تعد الى مخاطبتي بعد الآن فهذا آخر العهد بيننا والسلام » .

خبر احمد العوام: وكان في الخرطوم رجل من خطبـاء الثورة العرابية يقال له احمد العوام وهو مصري الجنس حسيني الانتساب وقد نُفي الى الخرطوم بسبب الثورة العرابية فرأى الثورة المهدية في وجهه فتشيع لهـا وقد اطلعت على رسالة له بتاريخ ١٧ رمضان سنة ١٣٠١ هـ ١١ يوليو سنة ١٨٨٤ م سماها « نصيحة العوام » فاذا هي ثورية محضة وقد أعلن فيها تشيعه للثورة المهـدية وكرهه للحكومة الخديوية ومما قاله فيها مشيراً الى موظفي حكومة الخرطوم: « .. وقد طالما جادلتهم بالحق سراً ونصحت لهم حق في دار الحكومة جهراً على مرأى ومسمع من وكيلها النصراني ومن حضر من كتبة الديوان في ليـلة النصف من شعبان هـذه السنة (١٣٠١ هـ) ٩ يونيو ١٨٨٤ م ان يسعوا في

الصلح بين الطائفتين المتحاربتين عملاً بأمر الله فلم أجد فيما بينهم محقـاً كلا ولا ساعياً بكلمة حق لإخماد هذه الحرب بين المسلمين وعباد الله المؤمنين مع تطلع الحاكم غوردون باشا وهو نصراني لإطفاء لهيب هـذه الحرب الموقدة ولذلك اعتزلتهم وجميع المحصورين إلا من جاءني يسعى وهو يخشى فاني أبذل له محض النصح حتى يفتح الله بيننا وهو خير الفاتحين » ...

وقد أثرت أقواله تأثيراً سيئـاً في نفوس اهل الخرطوم فسجنه غوردون وكبّله بالحديد حتى رأى منه انكسار النفس ووعد انه لا يعود الى مـا كان عليه فعفا عنه وجعله معاوناً في الحكمدارية براتب ١٥٠٠ غرش في الشهر ولكن ما لبث ان عاد الى سابق عادته من انتقاد اعمال الحكومة وتهييج اهل البلاد ضدها . ولمـــا جاء الخبر بزحف المهدي على الخرطوم وأعلن غوردون خبر قدوم الجيش الانكليزي جاهر في تكذيب غوردون وتصديق المهدي ولم يقتصر على ذلك بل أغرى احدى النساء فرمت جمرة من شباك على معمل الفشكليك بقصد احراق الجبخانة كلها فسقطت الجمرة على بعض الاوراق فأحرقتها فشعر بها الديدبان فأطفأها واعترفت المرأة ان احمد العوام هو الذي أغراها بذلك فأمر غوردون بقتله فقتل في سراي الشرق .

خيانة بعض أعيان الخرطوم: ولما حلّ المهدي بأبي سعد زاد قلق أهل الخرطوم فاتفق جماعة من أعيانها وكبـار موظفيها وجمعوا مبلغاً من النقود لفقراء جيش المهدي وكتبوا اليه كتاباً يصرحون فيه بتسليمهم بمهديته وانهم ساعون في اضعاف الحكومة بكل جهدهم وينتظرون الفرصة للخروج اليه وقد ارسلوا الكتاب والنقود مع عبد لأحمـــد بك جلاب مدير الخرطوم فصادفته « دورية » ام درمان وأرسلته الى غوردون فاستنطقه فكان في جملة المشتركين في هذه الجناية :

احمد بك جلاب مدير الخرطوم وأخوه تيمي	الخليفة ولد ارباب من ارباب المعاشات
الشيخ محمد خوجلي قاضي عموم السودان	الفكي الامين الضرير شيخ الاسلام
الفضل ابراهيم باشكاتب مجلس الاستئناف	محمد عبد الرحمن البشير تاجر
ابو بكر الجركوك احد أعضاء مجلس الاستئناف	ادريس بك النور احد أعضاء مجلس الاستئناف

فأمر غوردون مأمور الضابطة فأحضرهم من منـــازلهم ليلاً وحبسهم في ثكنة العساكر ماعدا المدير وأخوه والقاضي وشيخ الاسلام وادريس بك النور فانه حبسهم في منازلهم ومنع النـــاس من الدخول اليهم . وسمى موسى بك شوقي مديراً للخرطوم بدلاً من احمد بك جلاب وأعاد المحافظة فجعل ابراهيم باشا فوزي محافظاً وأمره بمساعدة الضابطة على معرفـة المؤتمرين وقطع دابر المفسدين .

عودٌ الى نصحي والوابورات : وفي ١١ اكتوبر سنة ١٨٨٤ ارسل غوردون وابور التوفيقية بكتب الى نصحي والجيش ليستطلع خبرهم ويعلمهم بقدوم المهـدي فأبقى نصحي وابور التوفيقية وأرسل الى غوردون وابور تل حوين الى الخرطوم فوصلها في ١٩ اكتوبر سنة ١٨٨٤ بكتاب هـذا مفاده : « لما خرجنا من الخرطوم لم يقابلنا احد بالعداء إلا ادريس شيخ الجريساب فانه أقام متراساً على النيل وتحصن فيه هو ورجاله وبادرونا باطلاق النـار فصوّبنا عليهم المدافع فهزمناهم شر هزيمة وخرجنا الى الحلة فخربنـا منازلها وسواقيها وأخـذنا أخشابها وقوداً للوابورات ثم استطردنا السير الى المتمة فوجدنا أهلها وفي رأسهم احمد حمزة قد أقاموا استحكاماً منيعاً فبادرونا برمي الرصاص فرميناهم بالقنابل ثم انقلبنا الى شندي فوجدنا السناجق الشايقية قد تحصنوا في المنـازل التي على النيل واتحدوا مع الدراويش ورمونا بالرصاص فحاربناهم حتى هزمناهم من تلك المنـازل واحتللناها مكانهم ثم وسّطنا الست فاطمة والست نفيسة كريمتي السيد حسن المرغني المقيمتين في شنـدي لدعوتهم الى الطاعة فظهر انهم متذبذبون وما ينتصرون إلا للغـالب . وقد ارسل احمـد حمزة اخاه الى بربر يطلب المدد فعـاد بلا شيء . وبلغ محمد الخير ان الجنود الانكليزية زاحفـة على بربر من دنقلة وكسلا وكورسكو فنادى بالنفير العام في البلاد ليأتوا الى بربر لمحاربة الانكليز فلم يذهب احد من هذه الجهة خوفاً على بلادهم من الوابورات لكن حضر اليوم سعد ولد بنونه بمدفع من بربر ورمانا بعـدة قنابل فلم يصبنا بضرر . وقـد اظهر محمد بك طلعت

وعلي افندي رضا كل نشاط ودربة وبسالة وجرح منا في المناوشات التي حصلت بيننا وبين الأعداء ٢٥ رجـلا وها هم واصلون اليكم لمعالجتهم عندكم فأرجو ارجاع الوابور الينا بما عندكم من الاوامر وأما الكتب التي برسم الجيش فقد بعثناها اليه مع الجواسيس » .

فأعلن غوردون في المدينـة ان الانكليز قد زحفوا على بربر من كسلا وسواكن ودنقلة واستشهد بكتاب نصحي وأرجع اليه وابور تل حوين ثاني يوم وصوله ومعه وابور بوردين وأصحبها كتباً الى الجيش الانكليزي على ان تبقى في شندي الى حضور الجيش وكتاباً الى نصحي هذا مفاده :

« واصل اليكم بوردين وتل حوين بما يلزم من الذخائر والبقسماط فعنـد وصولها أبقوا خشم الموس بك بشندي بوابور المنصورة وخـذوا وابورات بوردين وتل حوين والتوفيقية والصافية وسيروا بهـا حتى تشرفوا على بربر فتستطلعوا طلع الجيش فاذا وجدتموه قريباً ساعدوه على بربر وأرسلوا الى تل حوين بعد ١٠ ايام بما عندكم من الاخبار . واحذروا من استعمال الذخيرة إلا عند الضرورة . وأكرر عليكم الامر بعدم الخروج من الوابورات الى البر فقد علمت ان الجرحى الذين أرسلتموهم انما جرحوا بالمحاربة في البر وها قـد أرسلت اليكم ٢٥ عسكرياً من المصريين بدلاً منهم واجابة للتمسك انعمت على محمود بك طلعت برتبة الميرالاي وعلى علي افندي رضا برتبة القائمقام » .

وصدع نصحي بالامر فذهب الى بربر واستطلع خبر الجيش ولما لم يجد له أثراً فيها عاد الى شندي وأرسل وابور تل حوين بالأخبار الى الخرطوم فأرجعه غوردون ثانية الى نصحي بكتاب الى رئيس الحملة الانكليزية بتاريخ ٤ نوفمبر سنة ١٨٨٤ فأوصله نصحي الى رئيس الحملة وسيأتي ذكره .

الفصل السابع عشر

في

تاريخ الحملة الانكليزية

سنة ٤ – ١٨٨٥ م

مأمورية كتشنر ورندل: هذا وكانت الحكومة في مصر ساهرة على الثورة في السودان وترقب حركاتها بكل اهتمام وكأن الحكومة الانكليزية في رفضها ارسال الزبير الى الخرطوم قد ضمنت سلامة غوردون والحاميات المصرية في السودان فوق سلامة مصر . وكان غوردون يطلعها على أحواله تفصيلاً الى ان سدت طريق مصر وخيف على حامية بربر فندبت الكبتن كتشنر (الجنرال كتشنر المشهور) واللفتننت رندل (الجنرال رندل الآن) وكان كلاهما من ضباطها النجباء الموظفين حينئذ في الجيش المصري وأمرتهما بالذهاب الى بربر ومساعدة مديرها حسين باشا خليفة على تمهيد البلاد فما وصلا كورسكو حتى علما ان الرباطاب ثاروا في ابي حمد فأمرتهما بتجنيد جيش من متطوعة العبابدة وانجاد بربر ولكن قبل ان يتما جمع الجيش المطلوب سقطت بربر فبقيا بمن جمعا من العبابدة في كورسكو .

ارسال الجيوش الى الحدود : وخافت الحكومة على حدودها النيلية لمجاورتها للسودان وشدة علائق اهلها التجارية والقرابية بأهله فجعلت الجيش المصري على الحدود منذ شهر ابريل سنة ١٨٨٤ ووزعته بين اسوان وكورسكو وحلفا . وفي ٧ يوليو أرسلت اورطة انكليزية الى اسوان .

بعثة كتشنر الى دنقلة : ثم كانت الثورة في دنقلة على ما علمت ولم تكتف الحكومة بما كان يرسله مصطفى باشا ياور من اخبارها فتطوع الكبتن كتشنر للذهاب الى دنقلة واستجلاء الحقيقة فترك رندل مع متطوعة العبابدة في كورسكو وذهب الى دنقلة فوصلها في ١ اوغسطوس سنة ١٨٨٤ فوجد مصطفى باشا ياور مشغولاً بمحاربة الدراويش فاستأذن الحكومة في مشاركته في العمل فلم تأذن له فأرسل لها تقريراً مطولاً عن حالة دنقلة وعما سمعه عن غوردون والثورة في الخرطوم وبقي في الدبة .

طريق الحملة الى الخرطوم : وكانت الحكومة الانكليزية منذ علمت بحصر غوردون في الخرطوم أخذت تفكر في أمر انقاذه وفي الطريق التي تتخذها الحملة اذا أقرّت على ارسالها الى الخرطوم فكان امامها اربع طرق : طريق مصوع الى كسلا فبربر وطولها ٦٠٣ اميال وطريق النيل وطولها من حلفا الى بربر ٦٦٦ ميلا وطريق سواكن الى بربر وطولها ٢٤٥ ميلا وطريق كورسكو الى ابي حمد فبربر وطولها ٣٦٠ ميلا فبحث كبار قوادها طويلاً في هذه الطرق ففضّل اللورد ولسلي طريق النيل مع انها اطولها لوفرة مائها وطيب هوائها ورفض طريق مصوع لقلة مائها ووعورة مسلكها فضلاً عن طولها ورفض طريق سواكن لقلة مائها وكثرة حرّها وعداء القبائل المالكة لآبارها. وفضّل الجنرال ستفنسن قومندان جيش الاحتلال في مصر طريق سواكن لقصرها . والسر افلن سردار الجيش المصري طريق كورسكو لقصرها وقربها من مصر. وقال السر صموئيل باكر باتخاذ هذه الطرق الثلاث معاً فاختارت الحكومة طريق النيل أي الطريق التي قال بها اللورد ولسلي .

الفصل السابع عشر

في

تاريخ الحملة الانكليزية

سنة ٤ – ١٨٨٥ م

مأمورية كتشنر ورندل: هذا وكانت الحكومة في مصر ساهرة على الثورة في السودان وترقب حركاتها بكل اهتمام وكأن الحكومة الانكليزية في رفضها ارسال الزبير الى الخرطوم قد ضمنت سلامة غوردون والحاميات المصرية في السودان فوق سلامة مصر . وكان غوردون يطلعها على أحواله تفصيلاً الى ان سدت طريق مصر وخيف على حامية بربر فندبت الكبتن كتشنر (الجنرال كتشنر المشهور) واللفتنت رندل (الجنرال رندل الآن) وكان كلاهما من ضباطها النجباء الموظفين حينئذ في الجيش المصري وأمرتها بالذهاب الى بربر ومساعدة مديرها حسين باشا خليفة على تمهيد البلاد فما وصلا كورسكو حتى علما ان الرباطاب ثاروا في ابي‌حمد فأمرتها بتجنيد جيش من متطوعة العبابدة وانجاد بربر ولكن قبل ان يتما جمع الجيش المطلوب سقطت بربر فبقيا بمن جمعا من العبابدة في كورسكو .

ارسال الجيوش الى الحدود : وخافت الحكومة على حدودها النيلية لمجاورتها للسودان وشدة علائق اهلها التجارية والقرابية بأهله فجعلت الجيش المصري على الحدود منذ شهر ابريل سنة ١٨٨٤ ووزعته بين اسوان وكورسكو وحلفا . وفي ٧ يوليو أرسلت اورطة انكليزية الى اسوان .

بعثة كتشنر الى دنقلة : ثم كانت الثورة في دنقلة على ما علمت ولم تكتف الحكومة بما كان يرسله مصطفى باشا ياور من اخبارها فتطوع الكبتن كتشنر للذهاب الى دنقلة واستجلاء الحقيقة فترك رندل مع متطوعة العبابدة في كورسكو وذهب الى دنقلة فوصلها في ١ اوغسطوس سنة ١٨٨٤ فوجد مصطفى باشا ياور مشغولاً بمحاربة الدراويش فاستأذن الحكومة في مشاركته في العمل فلم تأذن له فأرسل لها تقريراً مطولاً عن حالة دنقلة وعما سمعه عن غوردون والثورة في الخرطوم وبقي في الدبة .

طريق الحملة الى الخرطوم : وكانت الحكومة الانكليزية منذ علمت بحصر غوردون في الخرطوم أخذت تفكر في أمر انقاذه وفي الطريق التي تتخذها الحملة اذا أقرّت على ارسالها الى الخرطوم فكان امامها اربع طرق : طريق مصوع الى كسلا فبربر وطولها ٦٠٣ اميال وطريق النيل وطولها من حلفا الى بربر ٦٦٦ ميلا وطريق سواكن الى بربر وطولها ٢٤٥ ميلا وطريق كورسكو الى ابي حمد فبربر وطولها ٣٦٠ ميلا فبحث كبار قوادها طويلا في هذه الطرق ففضّل اللورد ولسلي طريق النيل مع انها اطولها لوفرة مائها وطيب هوائها ورفض طريق مصوع لقلة مائها ووعورة مسلكها فضلا عن طولها ورفض طريق سواكن لقلة مائها وكثرة حرّها وعداء القبائل المالكة لآبارها. وفضّل الجنرال ستفنسن قومندان جيش الاحتلال في مصر طريق سواكن لقصرها . والسر افلن سردار الجيش المصري طريق كورسكو لقصرها وقربها من مصر. وقال السر صموئيل باكر باتخاذ هذه الطرق الثلاث معاً فاختارت الحكومة طريق النيل أي الطريق التي قال بها اللورد ولسلي .

قرار الحكومة الانكليزية على ارسال الحملة : فقرّ رأيها في بادىء الأمر على ارسال آلاي من الجيش الانكليزي الى دنقلة بقصد تثبيت اهل الحدود ودنقلة على الولاء وارهاب قبائل السودان لعلها ترجع عن حصار الخرطوم فاذا لم ترجع جعلت هذا الآلاي مقدمة الحملة على الخرطوم وكان ذلك في ٧ اوغسطوس سنة ١٨٨٤ . فما لبثت ان رأت ان اهل السودان لم يكونوا اذ ذاك ليرهبوا آلاياً من الجيش في دنقلة ويرجعوا عن حصر الخرطوم فأقرّت نهائياً على ارسال حملة منظمة لانقاذ غوردون وأناطت قيادتها العامة باللورد ولسلي القائل بطريق النيل وهو من أكبر ضباطها شأناً وأشدّهم رأياً وأكرمهم خلقاً وأعظمهم اقداماً وقد أجملت له الغرض من الحملة بقولها : « ان الغرض الاساسي من الحملة انما هو انقاذ الجنرال غوردون والكولونيل ستيورت من الخرطوم فمتى تمّ هذا الغرض فلا تباشروا حركات عدائية أياً كانت والحكومة تعتمد عليكم بأنكم لا تتقدمون جنوباً إلا بقدر ما يلزم للحصول على هذا الغرض » .

قوة الحملة : وكان اول ما نظر فيه اللورد ولسلي القوة اللازمة للحملة فطلب جيشاً مؤلفاً من ٩ آلاف من العساكر الانكليزية فوق الجيش المصري على ان يجعل الجيش المصري في خط الاتصال بين شلال حلفا وشلال حنك ويجعل ٤ آلاف رجل من جيشه في هذا الخط بين شلال حنك وبربر وذلك للمساعدة على النقل والمحافظة على المؤن والذخائر في الطريق فيتوفر عنده ٥ آلاف عسكري انكليزي لساحة القتال فلبت الحكومة طلبه ولم تكن العساكر كلها متوفرة لديها في مصر فأتت بالباقي من مالطة وبلاد الانكليز .

العقبات في طريق الحملة : ولما تم للورد ولسلي ما طلب من الجيش أخذ يهتم في نقل هذا الجيش وما يلزمه من المؤن والذخائر وتمهيد العقبات التي وقفت في سبيله في البر والبحر وأهمها طول المسافة وكثرة الشلالات وقلة المؤن في الطريق فضلاً عن حرّ الشمس وبرد الليل ووعورة الطريق فصدر أمره بمدّ سكة حديد حلفا وسرس الى عكاشة ولكنها لم تتم حتى كان الجيش قد اصبح

جنوبيها . وكان آخر الحد الجنوبي لسكة الحديد المصرية أسيوط فعهد أمر النقل من أسيوط الى حلفا الى المستر كوك الشهير . وسأل بعض معامل بلاده في ١٢ و٢٢ اوغسطوس فصنعوا له ٩٠٠ قارب يسع كل قارب منها ١٢ رجلا بعدتهم وسلاحهم ومؤنتهم وكلها صالحة لسلوك أضيق الشلالات وأرسلوها الى حلفا فوصلتها في ١٤ اوكتوبر فأبقى ٢٠٠ منها بين حلفا وأسوان وأرسل الباقي بالعساكر الى دنقلة. وأجاز فوق شلال حلفا وابوري ناصف الخير والجيزة من وابورات الحكومة المصرية فوصل «ناصف الخير» الى دنقلة في ١٠ اوكتوبر سنة ١٨٨٤ وساعد كثيراً في النقل بين الشلال الثالث والرابع وأما «الجيزة» فانه غرق في شلال تنجور . وأحضر وابورين من بلاد الانكليز قطعاً فبنى احدهما «ووترللي» في الاسكندرية وسيّره بالنيل الى حلفا وبنى الآخر «لوتس» جنوبي شلال سمنة .

هذا بعض ما سهّل به النقل في النيل وأما لتسهيل النقل في البر فقد اشترى اربعة آلاف جمل واستأجر ضعفها من الجمال وعدداً كبيراً من البغال والحمير .

وكان خط التلغراف ممتداً الى مروي فأخذ معه جميع معدات التلغراف ليمده الى حيث أراد جنوبي هذا الخط . ونظم البريد أحسن تنظيم بحيث انه لم يسمع ان احداً فقد كتاباً واحداً كل مدة الحملة .

وقد كان من نصيبي اني رافقت هذه الحملة موظفاً في قلم المخابرات فوصلت معها الى آبار الجكدول في صحراء البيوضة وشهدت بعيني الهمة التي بذلها اللورد ولسلي ورجاله في تذليل الصعاب حباً بخلاص غوردون وحاميته فاذا هي مثال الهمم وعنوان الشمم .

وبعد ان أتمّ اللورد ولسلي استعداداته في مصر خرج منها بأركان حربه في ٢٧ سبتمبر فوصل حلفا في ٥ اوكتوبر سنة ١٨٨٤ . وكان قد أرسل اورطة من جيشه الى دنقلة فوصلتها في ٢٠ سبتمبر ووصل السر هربرت ستيورت في ٢٩ من الشهر المذكور فاستلم قيادة العساكر ووصل السر تشارلس

ولسن رئيس قلم المخابرات في ١١ اوكتوبر وكان من المساعدين في هـذا القلم الكولونيل كولفل والماجور ترنر وكلهم من كرام الانكليز . وبقي اللورد ولسلي في حلفا الى ان رأى بعينه المراكب تسير بالعساكر فوق الشلال فمرّ أولها في ٢٥ اوكتوبر بمساعدة كوكو شيخ الشلال وفي ٢٨ منه قام الى دنقلة فوصلها في ٣ نوفمبر . وكان قـد أتى بنيشان القديسين ميخائيل وجورج من جلالة الملكة فسلمه إياه وأرسله الى مصر . وأقرّ على جعـل كورتي النقطة الاساسية للجيش وعاد الى حلفا ليعجل في نقل الجيوش والمؤن فوصلها في ١٦ نوفمبر سنة ١٨٨٤ .

مواصلة غوردون: وكان همّ رجال المخابرات مواصلة غوردون واستطلاع حاله كما ان همّ غوردون من الجهة الثانية مواصلة مصر واستطلاع خبر النجدة التي كان ينتظرها بفارغ الصبر خصوصاً بعد ارساله ستيورت باشا وقـد بث كل فريق العيون والجواسيس حتى تمّ الاتصال بينهما وتحقق غوردون مجيء الانكليز لنجدته في ١٧ سبتمبر فأرسل للوابورات لملاقاتهم في المتمة في ٢٩ من الشهر المذكور وأرسل معها كتباً يخبرهم بحاله كما مرّ فبعد وصول اللورد ولسلي الى حلفا بيوم أي في ١٧ نوفمبر وصله كتـاب من غوردون بتاريخ ٤ نوفمبر وهو الكتاب المشار اليه آنفاً وهذه ترجمته :

كتاب غوردون الى رئيس الحملة بتاريخ ٤ نوفمبر سنة ١٨٨٤ : « وصلني أمس بريـد من كتشنر بالدبة بتاريخ ١٤ اوكتوبر سنة ١٨٨٤ ومعه كتاب « بالجفرة » من اللورد ولسلي بتاريخ ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٨٤ لا أستطيع حله لأني أرسلت المفتاح مع ستيورت . وما وصلني قبل هذا البريد إلا كتاب من كتشنر مؤرخ في ٣١ اوغسطوس سنة ١٨٨٤ وصلني في ١٧ سبتمبر أي بعـد سفر ستيورت من هنا باسبوع. في جهة المتمة الآن خمسة وابورات عليها تسعة مدافع بانتظاركم . يمكنا ان نثبت في الحصار ٤٠ يوماً بالراحة ومن ثمّ يصعب علينا الثبات . اني أشتعل غيظاً لغرق الوابور ومتى تأكدتم غرقـه اخبروا

نظارة الخارجية ان مفاح الجفرة قد ضاع لأني أرسلته مع ستيورت اذ كنت في ريب من نجاتنا . وقد ظننت ان سفر النيل سليم فأرسلت ستيورت وبَورَ وهربن في وابور ليطلعوكم على حالنـا لعلكم تعجلون بانقاذنا وأرسلت مع ستيورت يوميـة الحوادث من اول مارس سنة ١٨٨٤ الى ١٠ سبتمبر سنة ١٨٨٤ . المهدي هنا الآن على ثمانيـة اميال منا (في أبي سعد) والعرب يحصروننا من الشرق والجنوب والجنوب الغربي ولكن ليس منهم احد شمالي ام درمان . سنار لا تزال ثابتة في الحصار وهي عالمة بقدومكم. وفي الوابورات يوميتي من ١٠ سبتمبر الى هذا اليوم وفيها تفصيل حالنا وخارطة بربر . يقع بيننا وبين العرب قتال من وقت الى آخر ولكن المهدي يقول انه لا يحارب في هذا الشهر (وهو شهر محرم سنة ١٣٠٢) وقد أحضر معه جميع الاوربيين والراهبات الذين وقعوا في أسره ويقال انهم جميعاً اعتنقوا الاسلام . سلاطين ايضاً مع المهدي وكذلك لبتن ويقول المهدي ان لبتن سلّم . منذ ١٠ مارس سنة ١٨٨٤ الى اليوم وصلني (عدا كتابي كتشنر المشار اليهما آنفاً) رسالتان واحدة من دنقلة بدون تاريخ وواحدة من سواكن بتاريخ ٥ مايو سنة ١٨٨٤ ووصلتني رسالة بمعنى هـذه الرسالة من مصوع بتاريخ ١٧ ابريل سنة ١٨٨٤ وأما انا فقد أرسلت في الثمانية أشهر الماضية عدة رسل في كل الطرق .

« نزل العرب في ضواحي الخرطوم في ١٢ مارس سنة ١٨٨٤ فهاجمناهم في ١٦ مارس فهزمونا وحملونا خسارة جسيمة من العساكر وغنموا مدفعاً واحداً ومن ذلك الوقت لا نزال في قتال مستمر وقـد جرح ستيورت جرحاً خفيفاً في ذراعه في بعض المناوشات . ولمـا ارتفع النيل خرجنا عليهم فأوقعنا فيهم ثلاث وقائع او اربع ورفعنا الحصار عن المدينـة وأرسلنا حملتين الى سنار . وفي كل واقعة جرت لنا مع المحاصرين كانوا يهاجون المربع مستقتلين فيخترقونه ويدخلون وسطه وقد كسرونا في ٤ سبتمبر سنة ١٨٨٤ كسرة شنيعـة ومن بعدها لم يكن شيء يذكر . ومجموع ما أطلقناه من الرصاص الى الآن ٣ ملايين رصاصة والسراي احسن محل لاطلاق الرصاص . مع العرب هنا مدافع كروب

وقد عطلوا وابوراتنا مراراً وغنموا وابورين صغيرين في بربر ووابوراً في النيل الازرق وبنينا نحن وابورين جديدين وصفحنا جميع الوابورات وقوّينا الحصون بالألغام والشباك الشرخجية . ندفع مرتبات الجنــد شهراً شهراً فغير متأخر لهم إلا راتب نصف شهر . وقد استعملنا عملة الورق وأنفقنا جميع الثياب التي في المخازن . الأسرى الذين مع المهدي كلهم بخير وقد تزوج الراهبات زواجاً ظاهرياً بالاروام تخلصاً من التزوج بالعرب . سلاطين مع المهدي والمهــدي لم يصادره في ماله بل أبقاه له كله وهو يحسن معاملته ولكني سمعت اليوم انـه مقيد بالحديد . مع المهدي رجل فرنساوي جاءه بطريق دنقلة ولا أعلم سبب مجيئه . وقد صنعت مدالية وجعلتها ثلاثة انواع ذهب وفضة وقصدير ووزعتها على أهل الحامية . يقول كتشنر انه ارسل اليَّ عدة رسائل ولم يصله جوابهـا مع اني أرسلت في الشهر الماضي عشر رسائل على الأقل. يسافر الوابور بكتابي هذا نهار غدٍ الى المتمة ويُرسل لكم من هناك مع جاسوس. لا تدعوا العساكر المصرية تأتي الى هنا استلموا قيــادة الوابورات منهم واخرجوهم منها فانه لا فائدة بهم » .

جواب اللورد ولسلي على كتاب غوردون : فكتب له اللورد ولسلي جواباً على كتابه هــذا يوم وصوله (١٧ نوفمبر) وهو موجسٌ خوف وقوعه في يد المهدي فقال :

« وصلني كتابك بتاريخ ٤ الجاري (نوفمبر) وهو اول كتــاب أخذته منك الى الآن . وسأكون في دنقلة بعد ٤ ايام ويكون الجيش كله بين الدبة وامبقول في ٧ ينـاير سنة ١٨٨٥ ولست أعطيك تفصيل القوات التي يتألف منها الجيش ولكن تأكد انها كافية لسحق محمد احمد وأنصاره ومحو ذكره من الوجود وكلمـــا زاد عدد مقاتلته زاد سرورنا لأنه بذلك يزيد عدد قتلاهم . ويودُّ جنودي ان يثبت المهدي في ساحة الحرب لأنهم يحبون القتــال ويعظم أسفهم اذا قطعوا هذه المسافة الطويلة من بلادهم ولم يجدوا فرصة لقتل محمد احمد والفتك بأنصاره . اما أنا فقد رأيت سفك دماء كثيرة في زماني وأفضل ان

تنتهي المسألة سلمياً وذلك بمسامحة محمد احمد في ما مضى وجعله سلطاناً مستقلاً على كردوفان يكون الملك فيها له ولأولاده من بعده وبتأسيس حكومة وطنية في الخرطوم يكون الحاكم فيها مستقلاً عن مصر وحكمه وراثي فيملك دنقلة وبربر والخرطوم وتعود انت الى انكلترا . وأما اذا كان محمد احمــد أحمق وأبى إلا الحرب فاني أدع عساكري ينالون مأربهم منه وهم نخبة جيشنا المظفر وصفوته وهم الآن سائرون براً وبحراً الى دنقلة . لم أكتب هذا اليك في الجفرة لأنك تقول انك أضعت مفتاحها . ابعث برسلك الينا في كل اسبوع واخبرنا بجميــع أحوالك ونحن نكافىء رسلك الذين يأتوننـــا بكتب منك بكل سخاء » ...

وقد جعل من هذا الكتاب نسختين فأرسل نسخة بطريق الدبة بواسطة الكبتن كتشنر ونسخــة بطريق مروي بواسطة الكولونيل كولفل . ويظهر ان النسخة التي أرسلها كولفل وصلت الى نصحي في شندي فأرسلها بوابور بوردين الى غوردون .

وكان اللورد ولسلي لا يعلم عن غوردون والخرطوم إلا من الجواسيس فلما جاءه كتــاب غوردون وعلم منه حقيقة الحال التي صار اليها جدّد الهمة في تعجيل الجنود وكانت اذ ذاك (١٨ نوفمبر) موزعة على نقط خط الاتصال بين اسيوط ودنقلة فأرسل اليهم التلغرافات يحثهم على الاسراع في السير براً وبحراً الى كورتي فاجتازت المراكب بالجنود شلال حنك الى نيل دنقلة السهل في ٣٠ نوفمبر . وفي هذا اليوم نشر اللورد ولسلي في الجيش كله الأمر الآتي:

« الى عساكر الحملة النيلية وبحريتها .

« ان انقــاذ الجنرال غوردون وحاميته المحصورين في الخرطوم منذ زمان طويل هو العمل المجيد الذي ندبتنــا اليه جلالة الملكة وهو يحرّك عاطفة كل عسكري وبحري حباً بالاشتراك فيه . وجسامة المصاعب التي يستلزمها هــذا العمل انما هي بعينها تحركنا الى زيادة الهمة . فكلنا نفتخر بالشهامة وانكار النفس اللذين يظهرهما غوردون في الدفاع عن حاميته وذلك بما يزيــد شهرته

العالية ان كانت الزيادة ممكنة بعدُ ولكن غوردون لا يستطيع الثبات طويلاً في الحصار وهو الآن يدعونا لانقاذ حاميته . وشهامته وحبه لوطنه مشهوران في كل بلاد ناطقة بلغتنا فليس أمر انقاذه مما يهم الأمة فقط بل مجرد معرفتنا ان رفيقاً باسلاً في حاجة الى المساعدة يستفزنا الى اعانته بحمية مضاعفة وما تسمح لنا المروءة ان نتركه يلاقي ما لاقاه رفيقه المقدام ستيورت الذي غدر به الأهلون وقتلوه وهو مجدّ في القيام بمهمة خطيرة حرجة . وفي يدنا ان نخلص غوردون من ميتة كهذه بعون الله. المسير صعداً في النيل وشلالاته شاق جداً ولا يتحمل مشاقه إلا من كانت له أسمى الصفات العسكرية وهي احتقار الاخطار والمصاعب بالحزم والعزم الصفات التي امتاز بها عساكر جلالة الملكة وبحريتها في المعارك السالفة . اني عالم بجسامة الموانع التي تعوقنا عن الاسراع في السير ولكن منمنا يبالي بهذه الموانع اذا علم ان الجنرال غوردون وحاميته في خطر فانقاذ غوردون وحاميته من الخطر هو الآن بعد الله في ايديكم . وكيف كان الحال فلا بد من انقاذهم بعون الله وبهذا كفاية للعساكر والبحرية الانكليز » اهـ .

جيش الصحراء : وأقام اللورد ولسلي في دنقلة الى ١٣ ديسمبر حتى اجتمع الجيش المحارب كله في كورتي فتقدم اليها مع أركان حربه فوصلها في ١٦ ديسمبر سنة ١٨٨٤ وقسم جيشه قسمين : جيشاً يسير بطريق النيل بقيادة الجنرال أرل فيؤدّب المناصير الذين غدروا بالكولونيل ستيورت ويتقدم الى ابي حمد فيوافيه اليها اللفتننت رندل بالمؤن من كورسكو بمن معه من المتطوعة العبابدة ثم يسير القوتان لفتح بربر . وجيشاً يسير بطريق الصحراء الى المتمة بقيادة الجنرال السر هربرت ستيورت فيسرع في نجدة غوردون قبل فوات الفرصة . وكان غرض اللورد ولسلي ان يبعث بجيش الصحراء كله دفعة واحدة ولكن لم يتيسر له العدد اللازم من الجمال فجعل محطة في وسط الطريق عند آبار الجكدول وأرسل اليها الزاد والعساكر تباعاً .

أما آبار الجكدول فهي عبارة عن ثلاث برك واسعة بين التلال تجتمع اليها مياه الأمطار اثنتان منها وسط تلال شاهقة يشق الوصول اليها .

فلما كان يوم ٣٠ ديسمبر سنة ١٨٨٤ سار الجنرال ستيورت بقسم من جيشه حاملاً الذخائر والمؤن ومعه الكبتن كتشنر الذي ألحق بقلم المخابرات فترك الزاد والذخائر في عهدة الكبتن كتشنر ونفر من الجيش في الجكدول وعاد بمعظم القوة والجمال الى كورتي فوصلها في ٤ يناير سنة ١٨٨٥ وشرع في ترحيل الجند . وفي ٨ يناير سار بباقي قوته الى الجكدول وفي ١٤ منه سار بالجيش كله من الجكدول قاصداً المتمة .

سرية موسى ود حلو : وفي أثناء ذلك كان محمد الخير يبث العيون والطلائع في بلاد دنقلة والحدود لاستطلاع خبر الحملة ومراقبة حركاتها ويرسلها تباعاً الى المهدي والمهدي ايضاً يبث العيون بطريق جبرة لمراقبة الحملة فلما تحقق قيام جيش الصحراء من كورتي قاصداً المتمة أخرج سرية من جيش الخليفة ود حلو قيل فيها نحو ٣ آلاف مقاتل من عرب دغَيم وكنانة وهم أخلص انصاره وأشدهم بأساً وعقد لواءها للأمير موسى ود حلو أخي الخليفة علي ود حلو وأمرها بمقابلة الانكليز في الصحراء .

سرية الجعليين : وأمر محمد الخير في بربر بارسال سرية من بربر تنضم الى سرية موسى ود حلو فتصدان الانكليز عن الوصول الى النيل . فأخرج محمد الخير سرية من جيشه بقيادة ابن اخيه عبدالماجد محمد خوجلي وأوعز الى الحاج علي ود سعد فنادى بالنفير العام في بلاد الجعليين فاجتمع عنده وعند ابي الماجد في المتمة نحو ٨٠٠٠ مقاتل فأرسل الطلائع الى الانكليز فرجعوا وقالوا انهم خرجوا من آبار الجكدول قاصدين آبار ابي طليح وهي في منتصف الطريق بين الجكدول والمتمة وليس في الطريق آبار غيرها فلم يعد ينتظر موسى ود حلو بل أسرع بجيشه الى الآبار المذكورة ليمنع الانكليز من ورود الماء ويفتك بهم فيفوز بالغنيمة وحده .

واقعة ابي طليح في ١٧ يناير سنة ١٨٨٥ : وفي ١٦ ينـاير سنة ١٨٨٥ وصل الجنرال ستيورت الى ظاهر آبار ابي‌طليح فوجد الجعليين قد سبقوه اليها وكان الوقت اذ ذاك العصر فرأى‌ان يؤخر الهجوم الى صباح اليوم التالي خوفاً من دخول الليل قبل انتهاء المعركة فعسكر في محل حصين قرب الآبار وسهر الليل كله خوفاً من هجوم الجعليين . وفي ذلـك الليل حضر موسى ود حلو بجيشه فانضمّ على الحـاج علي ود سعد . وفي فجر ١٧ يناير سنة ١٨٨٥ نهض الجنرال ستيورت فنظم جيشه مربعاً وزحف على الدراويش وهو لا يرتاب من انهم يهاجمونه فاتخـذ خطة الدفاع وكانت قوة المربع ١١٥ ضابطاً و ١٦٨٧ عسكرياً انكليزياً و ٨ عساكر مصرية و ٣٤٠ من الخـدم و ١٥٣ جواداً و ٢٨٨٨ جملا و ٣ مدافـع وصحب المربع السر شارلس ولسن رئيس قلم المخابرات والكبتن كتشنر اركان حرب المخابرات وصحبه من السوريين جورج افندي زيدان من كبار موظفي المخابرات وامين افندي حداد مترجم الجنرال ستيورت ومن المصريين محمد افندي ابراهيم (محمد بك الآن) مترجم السر تشارلس ولسن .

وبقي الجنرال‌ستيورت زاحفاً بالمربع حتى صار على ٥٠٠ يرد من معسكر الدراويش فحملوا عليـه حملة واحدة في خمس فرق وفرسانهم في مقدمتهم وكان كشافة المربع اذ ذاك على ٢٠٠ يرد من الدراويش فتقهقروا الى المربـع حسب الاصول العسكرية فصبر المربع حتى انضموا اليه فـلما انكشف له الدروايش حتى صاروا على ٢٠٠ يرد منه ففتح عليهم أفواه المدافع والبنادق وفتك بهم فتكاً ذريعاً والدراويش مع ذلك يوالون الهجوم حتى اجتمع قتلاهم أكداساً . قيل اول من هاجم المربع موسى ود حلو وكان قـد أمر أصحابه بأن يكون اهل الاسلحة النارية في جهة وأهل الخيل في جهة والراجلون في جهة ليتمكنوا من الحرب على احسن منوال ولكنهم لما رأوا الانكليز قالوا كيف نرى الكفار امام أعيننا ونصبر عن قتالهم فبادروا بالحملة عليهم جميعاً دفعة واحدة من غير نظام او ترتيب فحصدهم الرصاص حصداً ولم يسلم منهم

إلا طويل العمر وقليل ما هم وكان في جملة القتلى اميرهم موسى ود حلو والأمير ود برجوب المار ذكره واحمد ود بلال من رؤساء دغيم وقـد أنشد شعراء السودان في رثائهم الأشعار فقالوا :

موسى‌الشهيد وود برجوب وود بلال   باعوا الجنـات من الدلّال

في أثناء ذلك هاجم الحاج علي ودسعد والجعليون فثقلت عليهم نار المقدمة فداروا الى ميسرة المربع ومؤخره وحملوا عليه حملة صادقة فاخترقوه ودخلوا وسطه وتقهقر عساكر المؤخرة والميسرة الى داخـل المربع واختل نظامهم فاختلطوا بجمال الحملة واشتبك القتال بالسيوف والحراب واتفق ان عساكر المقدمة والميمنة كانوا على ارض مرتفعة فوالوا النار على المهاجمين فصدوهم عن المربع واشتد القتال داخل المربع وعلا الصياح والضجيج حتى لم تعد تسمع أوامر القواد فكان كل عسكري يدافع عن نفسه بما بدا له فقتلوا الذين دخلوا المربع عن آخرهم وبذلك انجلت الواقعة فكانت خسارة المربع ٧٤ قتيلاً فيهم ٩ ضباط و ٩٤ جريحاً فيهم ٩ ضباط . وأما الدراويش فقد زادت قتلاهم عن ١١٠٠ وزادت جرحاهم عن ذلك وأما الحاج ود سعد فقد قيل ان فرسه قتل من تحته وأصيب هو بثلاث رصاصات داخل المربع فعدّ بين القتلى وبقي الى ان انجلى‌المربع عن محل‌الواقعة فأتى أهله وحملوه ورجعوا به مع باقي المنهزمين الى المتمة . وتقدم الجنرال ستيورت الى الآبار فاحتلها عصر ذلك اليوم .

وفي صباح اليوم التالي (١٨) يناير بنى طابيه صغيرة جعل فيها الجرحى ووضع عليهم مئة رجل لخفارتهم وخفارة الآبار وفي العصر تقدم بباقي الجيش نحو المتمة فسار بهم الليل كله لأنه أراد ان ينزل النيل الازرق بدون قتـال وكانت الطريق شائكة والليلة مظلمة والجمـال تعبة فتعبوا ونعسوا فلم يقطعوا في ١٤ ساعة سوى ١٨ ميلاً .

النور عنقرة وواقعة المتمة في ١٩ يناير سنة ١٨٨٥ : ولما طلع فجر ١٩ يناير أطلوا على المتمة فظنوا انهم ينزلون النيل بلا معارض . وكان المهدي قد

أرسل النور عنقرة بألف مقاتل من اهل الأسلحة النارية مدداً لموسى ود حلو فوصل المتمة يوم رجوع المنهزمين من ابي طليح فبقي فيهـــا متربصاً قدوم الانكليز فلما رآهم مقبلين خرج لقتالهم في الصحراء وهم على اربعة اميال من النيل فجعل ستيورت الجرحى وجمال الحملة على أكمة وأخـــذ يستعد للزحف على المتمة فأصابته رصاصة طائشة في بطنه فجرحته جرحاً مميتاً وذلك في الساعة العاشرة صباحاً فأحيلت قومندانية الجنود على السر تشارلس ولسن لأنه كان أقدم ضابط بعده فنظم الجيش مربعاً وسار قاصداً النيل وكان النور عنقرة لا يزال متربصاً للمربع فتلقاه بنار حامية واضطر الى الانهزام في اقل من خمس دقائق ونزل النيل عند قبة ابي خروق جنوبي المتمة وكانت خسارة الانكليز في هـــذا اليوم من القتلى ضابط و ٢٢ عسكرياً ومن الجرحى ٨ ضباط و ٩٠ عسكرياً . وأما الدراويش فقد قتل منهم اضعاف هـــذا العدد . وفي اليوم التالي أي ٢٠ ينـاير عاد الانكليز الى جرحاهم وجمال الحملة الذين تركوهم على التلة وأتوا بهم الى القبة فكان أول واجب على السر تشارلس ولسن الآن ان يسرع لنجدة الخرطوم ولكنه رأى ان يفتح المتمة قبل التقدم الى الخرطوم . فلما كان يوم ٢١ يناير اخذ معظم العساكر والمدافع وزحف على المتمة وقبـل مباشرة القتال كتب الى أهلها يدعوهم الى التسليم او الاستعداد للحرب ولما لم يجيبوه أمر الطوبجية فرموا المدينـة بالقنابل فأجابه الدراويش من حصونهم بالقنابل والرصاص وفيما هم كذلك اذا بالوابورات الاربعة وهي بوردين والصافية والتوفيقية وتل حوين التي أرسلها غوردون لمقابلة الانكليز قد أقبلت وكانت عند وصولهم تناوش العصاة شمالي شندي فنزل خشم الموس بك ببعض العساكر الى البر وأخبر السر تشارلس ولسن ان الفقيه مصطفى الامين المار ذكره قادم بجيش جرار من قبـل المهـدي مدداً للدراويش فرجع اذ ذاك عن المتمة وبنى طابية عند القبة وطابيـة اخرى تجاهها على شاطىء النيل ووضع العساكر في الطابيتين والجرحى في طابية النيل وفيهم الجنرال ستيورت .

وفي صباح ٢٢ يناير ركب بالوابورات الى شندي فرماها ببعض القنـابل

فوجد اهلها قد هجروها وعاد الى القبة بعد الغروب وكان قـد أرسل بعض الكشافة الى جهة الجنوب فعادوا في المساء ولم يروا احداً فأقرّ على التقدم الى الخرطوم فقضى يوم ٢٣ يناير في انتقـاء العساكر وترميم الوابورات استعداداً للسفر . وكان اللورد بارسفورد قـــد صحب جيش الصحراء على ان يكون قومنداناً للوابورات فاتفق انه كان اذ ذاك مريضاً في الاسبيتالية وقـد قتل أكثر عساكره البحـارة في واقعتي ابي طليح والمتمة او جرحوا فانتقى السر تشارلس ولسن ٢٤٠ رجلا من العساكر السودانية الذين في الوابورات فجعلهم تحت قيــادة خشم الموس باشا وضمّ اليهم ضابطين و ٢٠ عسكرياً انكليزياً وأنزل الكل في وابوري بوردين وتـل حوين وقطر بأحدهما مركباً مشحوناً ذرة اعانة لأهل الخرطوم وسار بها في ٢٤ يناير نحو الخرطوم تاركاً الكولونيل بوسكوين قومنداناً على العساكر في القبة . ولنترك الآن السر تشارلس ولسن سائراً في الوابورين الى الخرطوم لكشف خبرها ولنرجع الى غوردون وحصار الخرطوم لنرى ما كان من اخبارهما بعد حلول المهدي بأبي سعد .

الفصل الثامن عشر

عودٌ ثانٍ الى

غوردون وحصار الخرطوم

سنة ٤ – ١٨٨٥ م

تقدم ان المهدي حل بجيوشه في ابي سعد في ١٩ اوكتوبر سنة ١٨٨٤ م ٢٨ الحجة سنة ١٣٠١ هـ فقضى بقية الحجة ومحرم سنة ١٣٠٢ هـ في الاستعداد للحرب لأنه لم يحب الحرب فيمحرم فلما كان غاية الشهر المذكور أي ١٩ نوفمبر سنة ١٨٨٤ م كتب الى غوردون يدعوه الى التسليم وهذه صورة الكتاب بعد البسملة :

« وبعد فمن العبد المفتقر الىالله الواثق بما عند مولاه محمد المهدي بنعبدالله الى غوردون باشا : اعلم اني حضرت بالقرب من ام درمان بجيوشي المنصورة وأصحابي وأحبابي في الله المؤيدين بالنصر من عند الله وكن على يقين اني على علم من حضور عساكر الانكليز بجهة دنقلة ولكني لست مبالياً بهم ولا بغيرهم بفضل الله وسيكون لهم اسوة بجيوش هكس والشلالي ولا تغرك نصرتك المتوالية فكل من استشهد بها فهو عن امري رأفة بهم لينالوا درجة الصالحين تصديقاً لقوله تعالى « ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحيـاء

عند ربهم يرزقون فرحين بمـا آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقو بهم من خلفهم ان لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ولولا مراعـاة حسم دماء المسلمين لضربت صفحاً عن مخاطبتك وبادرتك بالهجومات التي لا أشك في نجاحها فسلم تسلم انت ومن معك وقد نصحتك وأنصحك وإلا فالحرب بعـد ذلك والسـلام على من اتبع الهدى » .

جواب غوردون للمهدي: فكتب اليه غوردون في الجواب يقول: «لست أبالي بك ولا بجيوشك وليست العساكر الانكليزية بجهة دنقلة كما تزعم تضليلاً لعقول انصارك واغرائهم بطلب المستحيل بل هم بجهة بربر والمتمة وسترى ما يحل بك وبجيوشك عند مجيئهم من النكال بـل اذا لم يأتوا ففيٌ الكفاءة لأن أعرفك قدرك ولا تغرّنك كثرة أنصارك فالبغي له مصرع والسلام». وكتب المهدي الى فرج الله بك ما نصه :

« وبعد فمن العبد المفتقر الىالله الواثق بما عند مولاه محمد المهدي بنعبدالله الى احبابه المكرمين المعظمين وأهلالدراية وهم كبير العساكر وعظيمهم فرجالله وصاحبه عبد النبي ومن انضم اليهم منالأكابر والأصاغر اعلموا وتحققوا احبابي اني لست قائماً هـذا المقام إلا بدعوة الخلق الى الله وسعادتهم الكبرى ونيل مراتبهم العليـة ومنفرهم عما يضرهم من خسيس فاني اللذات التي تعقب طول الحسرات وقد بلغني ان المكرم المعظم فرج الله من ضباط اهل فاشودة الذين يحبونني سابقاً وانا بأبا من معرفتهم زهدي في الدنيا وصدقي في الطلب لما عند الله وارادة الآخرة ودلالتي على الصلاح والفلاح وارشاد العباد الى رضا الفتـاح ليكتسبوا دائم المطلوب منالنجاح فلا تظنوا اننا نطلب أموالكم وما ملكت أيديكم ان سلمتم لنا وصرتم من أصحابنا الذين بشرنا سيد الوجود ﷺ بأنهم كأصحابه وأدنى اصحابي رتبة ينال مقام الشيخ عبد القادر الجيلاني عند الله تعالى وفيما ذكرته كفاية لأهل العناية . وأظن انه قد بلغتكم انذاراتي سابقاً فلا فائدة حينئذ فيالتطويل فان سلمتم فقد عفونا عنكم ورضينا عليكم وكنتم من الاصحاب المكرمين الذين لهم عند الله حسن المكانة الأبدية فاني المهـدي

المنتظر خليفة نبيكم ﷺ فابشروا بالكرامة والفخامة ان سلمتم لي واتبعتموني. وليكن معلوماً عندكم احبابي ان من لم يصدقني ويتبعني يعذب في الدنيا ولعذاب الآخرة أشد واني موعود بملك جميع الارض ورأيتم نصري في حال الضعف والقلة الى ان بلغت هذا المبلغ واجتمعت عندي أسلحة راشد بك وولد الشلالي وهكس والابيض ودارفور وبحر الغزال وجباخينهم وبشرت بأني لو أردت لقبض الله سلاح الترك بحيث ان اصحابي يقتلونهم ولا يقتلون ولكن اخترت توفيقاً من الله ان ينال اصحابي الشهادة ويبلون في الله لينالوا عظيم المكانة عند الله كما في كتاب الله واقتداء برسول الله ﷺ وأصحابه كما علمتم ولتعتمدوا هذا زيادة كتبت هذا بخطي والسلام في غاية محرم سنة ١٣٠٢ » اه ١٨ نوفمبر سنة ١٨٨٤ . فلم يجبه فرج الله بك على كتابه هذا .

فلما كان يوم الاربعاء غرة صفر سنة ١٣٠٢ هـ ١٩ نوفمبر سنة ١٨٨٤م أمر أنصاره فضربوا نقاقير الحرب وأبواقه وصاروا ينادون العساكر ويتهددونهم بالموت العاجل وشرعوا في اطلاق البنادق والمدافع على الخرطوم من كل جهات الحصار .

حصار ام درمان : وفي الوقت نفسه أرسل سرية من الانصار بقيادة أبي عنجة لمهاجمة طابية ام درمان وهي واقعة تجاه طابية المقرن وبينها وبين شاطىء النيل الابيض نحو ٥٠٠ متر ويوصلها بسراي الخرطوم خط تلغرافي وهي عبارة عن خندق عميق من داخله سور منيع مفتوحة فيه المزاغل وعليه الأبراج ومن داخل السور بئر ماء للشرب وفيها اورطة من العساكر المصرية عليهم فرج الله بك قومنداناً فما اقترب ابو عنجة منها حتى انهال عليه الرصاص انهيال المطر فرجع عنها خاسراً وقد ترك وراءه ٩٠ بقرة غنيمة للعساكر فأخبروا غوردون تلغرافياً فأمرهم فأرسلوا ٧٠ بقرة الى الخرطوم وأكلوا الباقي . وفي اليوم التالي هاجم ابو عنجة الطابية مرة اخرى فردّ عنها خاسراً كالمرة الاولى وغنم العساكر ٨٠ بقرة فأكلوا ٢٠ وأرسلوا ٦٠ الى الخرطوم . وبذلك امتنع ابو عنجة عن الهجوم وعوّل على حصر الطابية فنزل عند

شاطىء النيل وحال بينها وبين طابية المقرن وأجهد أصحابه فأقاموا في الليل متراسين متوازيين متراساً يقيهم مقذوفات الخرطوم وآخر يقيهم مقذوفات ام درمان وأقاموا طابية عن يمين المتراسين وطابية عن شمالهما وجعلوا في كل طابية مدفعين وشرعوا يرمون الخرطوم وام درمان معاً بالقنابل . وقطعوا خط التلغراف بين الحاميتين فأصبح أهلها يتخابرون بالاشارة الحربية .

وكان في طابية المقرن بلوك من العساكر النظامية ومدفع واحد فقوّاها غوردون بمدفعين آخرين واوردي باشبوزق وأمر فخرج وابورا الاسماعيلية والحسيني في النيل الابيض لمساعدة الطابيتين على طرد ابي عنجة من حصنه فرماهما بالقنابل فأصابت قنبلة احدى جوانب الاسماعيلية فعطلتها وأصابت قنبلة اخرى قزان الحسيني فغرقته وقتل قومندانه مصطفى افندي فأرسل غوردون الاسماعيلية الى الترسانة وناظر اصلاحها بنفسه الى ان تمّ فأرجعها لنشل الحسيني فما وجد لذلك سبيلاً فأخذ نوتيته وأمتعته وعاد الى الخرطوم .

وفي هذه الأثناء حضر وابور بوردين بكتاب اللورد ولسلي المار ذكره الى غوردون فأرجعه غوردون الى نصحي في الحال فأمر المهدي أصحابه فبنوا طابية في الحلفاية وطابية في خور شمبات تجاهها وذلك لمنع الوابورات من المرور ذهاباً وإياباً بين شندي والخرطوم . وبنوا طابية قبالة كل طابية من خط نار الخرطوم وثلاث طواب حول طابية ام درمان طابية الى شماليها وأخرى الى جنوبيها وثالثة الى غربيها عدا الطابيتين في شرقيها وجدد الهمة في مناوشة الحاميتين القتال الليل والنهار فدافع العساكر عن أنفسهم أحسن دفاع وحمّلوا الدراويش خسارة تذكر ولم يقتل منهم سوى البكباشي ابراهيم افندي سودان قومندان طابية المقرن وبضعة عساكر فسرّ غوردون من نشاطهم وتيقظهم وطبع ٩٠ الف غرش من اوراق البون ووزّع عليهم مرتب ستة أشهر ونصف شهر مكافأة لهم على حسن دفاعهم ووجه رتبة اللواء الى كل من موسى بك شوقي مدير الخرطوم وفرج الله بك قومندان طابية ام درمان وأمره فأعطى بالاشارة الحربية أسماء الضباط المستحقين الجزاء وهم البكباشي خليل

افندي عمارة والبكباشي مصطفى افندي عصمت والصاغ حسين افندي محمد واليوزباشي محمد افندي والملازم محمد افندي كريم فرقتى كلا منهم الى رتبة أعلى من رتبته .

اشتداد الجوع في الخرطوم: واشتد الجوع في الحاميتين ولاسيا في الخرطوم حتى صار أهلها يموتون جوعاً في الطريق وكان غوردون قد أوى الرقيق والمساكين والعواجز من النساء والرجال وجعل لهم مرتباً من الذرة كما مرّ فلما اشتد الحال عليه الى هذا الحد أخرجهم الى المهدي بكتاب هذا مفاده :

« اعلم ان الجنس للجنس رحمة وهؤلاء المساكين يشتركون معك في الجنسية وقد قضت الحال باخراجهم من الحامية بعد ان عاشوا فيها سنة على نفقة الحكومة فصار عليك الآن ان تتولى امر معيشتهم فافعل بهم ما انت اهله ».

وكان ذلك في اواخر ديسمبر سنة ١٨٨٤ ولم يكن اذ ذاك في المخازن ما يكفي العساكر مرتبهم الشهري فجمع غوردون مجلساً من الضباط من رتبة بكباشي فما فوق برئاسة فرج باشا الزيني فأقرّوا على تخفيض المرتب من ٢٠٠ درهم بقسماط و ٤٠٠ درهم ذرة في اليوم الى ١٠٠ درهم من البقسماط أو الذرة للعسكري النظامي و ١٥٠ درهم من الذرة للعسكري الباشبوزق وان يُعطى العساكر مرتب ٥ ايام فمتى انتهت يعطون مرتب ٥ ايام اخرى وهكذا الى ان يمن الله بالفرج فصدّق غوردون هذا القرار وامتدح صبر المصريين الذين رضوا بالشدة على أنفسهم دون سواهم .

اشتداد الجوع في ام درمان : ولما كان يوم ٢٨ ديسمبر أرسل فرج الله باشا قومندان ام درمان اشارة حربية الى غوردون بأن مرتبات الزاد للعساكر قد نفدت ولم يبقَ منها إلا مرتب ٣ ايام فاغتم غوردون لهذا الخبر ودعا الضباط العظام في الخرطوم من رتبة قائمقام فما فوق للنظر في حالهم فأقرّوا على الخروج من الخرطوم على المحاصرين وكسب قوت الحاميتين منهم بالقوة .

خروج حامية الخرطوم في ١ يناير سنة ١٨٨٥: ولما كان الخميس ١ يناير

سنة ١٨٨٥ أمر غوردون فخرج بخيت بك بطراكي من باب برّي بخمسمائة من العساكر السودانية ثم تبعه محمد بك الملك بألف من الباشبوزق وقصدا عبد الله ود النور في برّي وخرج البكباشي يوسف افندي عفت بخمسمائة من العساكر المصرية من باب المسلمة لحماية ظهر بخيت بك فما قرب بخيت بك من برّي حتى خرج عليه الدراويش فلم يسعه إلا التقهقر أما محمد بك الملك فاستل سيفه ودفع جواده في وسطهم وقاتل قتال الابطال حتى قتل . وفي أثناء ذلك ثار أنصار النيل الابيض في وجه يوسف افندي عفت وكان قد نظم عسكره قلعة فأمرهم فجلسوا على ركبة واحدة وما زال يمطر عليهم من الرصاص حتى هزمهم وأبى الرجوع الى خط النار إلا بأمر غوردون فأمره فرجع فامتدح غوردون بسالته ولام بخيت بك على عدم ثباته .

خروج حامية الخرطوم المرة الثانية في ٣ يناير سنة ١٨٨٥ : وصبر غوردون الجمعة حتى استراحت العساكر وفي فجر السبت في ٣ ينـاير سنة ١٨٨٤ أرسل تلغرافاً الى فرج باشا الزيني يأمره بالتنبيه على عساكر الخميس ان يخرجوا ثانية في طلب القوت للحامية إلا بخيت بك فانه أمر ببقائه على خط النار وذهاب حسن بك البهنساوي في مكانه قيل فتارض البهنساوي فولى الأمر الشجاع المدرّب البكباشي السيد افندي امين صاحب واقعة الكلاكلة المار ذكره ووعده بالترقي الى رتبة قائمقام فخرج السيد افندي بجميع العساكر من باب المسلمية ونظم عسكره قلعتين العساكر النظامية قلعة قادها بنفسه والباشبوزق قلعة ولى قيادتها للصاغ منصور عبد العال وسار بالقلعتين حتى صار على الف متر من خندق الخرطوم فوقف فجعل قلعة الباشبوزق قبالة انصار المسلمية والكلاكلة وتقدم بقلعته نحو برّي .

هذا وكان قد فرّ يوم الجمعة عسكري من الخرطوم الى النجومي وأخبره بأن العساكر خارجون اليه في ثلاث قلعات قلعة تهاجمه في الكلاكلة وقلعة تهاجم عبد الله ود النور في برّي وقلعة تهاجم عبد القادر مدرع تجاه باب المسلمية فأرسل النجومي أوامره المشددة الى عبد الله ود النور وعبد القادر

مدرع بالاستعداد للحرب فأمر عبد الله وه النور اصحابه بأن يسقطوا الى الارض ولا يباشروا القتال حتى يقرب العساكر منهم جداً فيخرجون عليهم اذ ذاك ويقتلونهم بالسيف والحربة . ولما قرب السيد افندي امين من طابيـة برّي ولم يرَ للدراويش حركة علم ان في الامر مكيدة فبعث فارسين يستطلعان طلعهم فرجعا وأخبرا بأن الدراويش قد أخلوا طوابيهم فأرسل فارسين آخرين فلم يريا احداً فسار اذ ذاك بنفسه وأمامه اوردي باشبوزق بهيئة «اطلاقجية» حتى اقترب جداً من طوابي الدراويش فأمر الاطلاقجية باطلاق النـار فهب الدراويش اذ ذاك من مراقدهم وبادروهم باطلاق الرصاص فأمر السيد افندي الاطلاقجية فرجعوا الى يمين القلعة وشمالها ثم أمر عساكر القلعة فاصطفوا بهيئة طابور وأسرعوا الى خرائب أبنية قديمـة فامتلكوها وصبوا على الدراويش ناراً دائمة .

وكان غوردون يشاهد القتال بالمنظار فلما رأى ان السيد افندي قد توغل نحو برّي أمر وابور الاسماعيلية فسار في النيل الازرق ومعه الجبخانة نجدة له فما خرج الوابور من الخرطوم حتى انتشر الدراويش الذين في الشرق على طول الشاطىء ورموه بالرصاص والقنابل فانقلب راجعاً فغضب غوردون منه وأمره باعادة الكرة فتلقاه اهل الشرق بنار أشد من قبل فرجع ثانية . وأما القلعة الثانية فقد تصدى لها أنصار المسلمية والكلاكلة واندفعوا عليها كالسيل العرم فاضطرت الى التقهقر بعـد ان قتلت جماعة من أكابر أمراء الدراويش وفيهم عبد القادر مدرّع قائد أنصار المسلمية وعمر ولد الخليفة وغيرهما . ولما عادوا الى الخنـدق أغلق فرج باشا باب المسلمية في وجوههم ووبخهم على ترك اخوانهم عرضة لهجوم الأعداء من وراء فلم يؤثر فيهم توبيخه لأنهم باشبوزق لا يعرفون نظاماً فاختبأ بعضهم بالخندق ولحق بعضهم بالدراويش .

وبقي السيد افندي يجاهد وحده الى ان نفدت منه الذخيرة فأنفذ اشارة حربية الى فرج باشا في طلب الذخيرة وارسال قلعة الامداد الى جهته فأجابه ان قلعـة الامداد انهزمت ولا واسطة لارسال الذخيرة وأمره بالرجوع الى

الاستحكام فعاد القهقرى حسب الاصول العسكرية . وفي أثناء ذلـك أصيب برصاصة في رجله وقتـل حصانه فحمله رجاله وعادوا به الى الخندق فأتى غوردون بنفسه ومعه حكيمباشي الاسبتالية فصافحه وشكر له بسالته ودربته ورقاه الى رتبة قائمقام وأمر الحكيمباشي فضمد جراحه وبالغ في الاعتناء به ورقّى كل ضابط من ضباطه الى رتبـة أعلى من رتبته . وكانت خسارة السيد افندي في هذه الواقعة ١٢ قتيلاً وجريحاً وأما الدراويش فقد قتل منهم ٦٠٠ رجل وزيادة وفيهم اميرهم عبد الله ود النور من الفرسان المعدودين فحزن عليه الدراويش حزناً شديداً وكان قتله خذلاً صريحاً للمهدي لأنه صرّح مراراً بأنه لا يموت في حصار الخرطوم بل يموت في الكوفة .

محاولة اخلاء ام درمان: ومن شدة حزن الدراويش على قتلاهم لم يناوشوا العساكر القتال ليل ذلك اليوم فرأى غوردون ان يغتنم الفرصة ويحاول اخلاء ام درمان وجلب عساكرها الى الخرطوم فأرسل اشارة حربية الى فرج الله باشا يعلمه بذلك فأجاب اني مستعد للخروج بالحامية والمدافعة الى آخر رمق على شرط ان الوابور المزمع ارساله لحملنا اليكم يقف في نقطة معينة ويثبت في مكانه الى ان نصل اليه . ففي صباح الاحـد في ٤ يناير سنة ١٨٨٥ م أرسل غوردون الوابور وأمره بالذي أشرطه فرج الله باشا فلما قرب من النقطة المعينة على الشاطىء حتى ابتدره الدراويش بالقنابل ومنعوه من الوصول الى الشاطىء فكر راجعاً الى الخرطوم فوبخه غوردون فرجع وعاد خائباً كالاول . وكان فرج الله باشا لما رأى الوابور مقبلاً قد خرج بنصف عساكره قلعة وترك النصف الآخر في الطابيـة تحمي ظهره فهاجمه الدراويش وانتشب القتال فثبت حتى رأى ان الوابور قد رجع المرة الثانية فقفل راجعاً الى الطابية بعـد ان نكل بالدراويش وقتل من عسكره اليوزباشي احمـد افندي فهمي والملازم عبد النبي افندي .

تسليم ام درمان الاثنين في ٥ يناير سنة ١٨٨٥

وبعد ظهر الاحد ارسل اشارة حربية الى غوردون يقول ان مؤونة الحامية قد نفدت فاذا لم يف الوابور بالشرط السابق ايضاحه اضطرّ الى التسليم او القتال الى الموت قيل فأذن له غوردون في التسليم . وفي يوم الاثنين ٥ يناير سنة ١٨٨٥ رفع العلم الابيض وكتب الى المهدي بالتسليم وأرسل الكتاب مع الشيخ موسى امام الاورطة فألبسه المهدي جبة مرقعة وأرجعه مع اربعة من اصحابه الى الطابية فأتوه بفرج الله باشا ثم أرسل جماعة من اصحابه فأتوه بالعساكر فسمي فرج الله باشا اميراً على عساكره وجعل له مرتباً قدره ٢٠ ريالاً في الشهر يجري له من بيت المال وأمر اصحابه بعدم التعرض له ولا لرجاله . وكان غوردون يشاهد حركة التسليم من سراي الخرطوم فشق عليه ذلك جداً قيل وأخذ يضرب الارض برجله ودموعه تجري على خديه وشيع العساكر بنظره الى ان غابوا عن عينيه .

وأذاع محمد احمد خبر تسليم ام درمان في الجهات . وهذا ما كتبه الى عامله عثمان دقنة : « ... وفي هذين اليومين يبلغكم ان شاء الله فتوح الخرطوم فان قفرة ام درمان التي كانت لها كالروح صار فتحها على يد جند الله ووقعت في القبضة بما فيها واضمحل امر الخرطوم ووهى وصار في ضعضعة نظراً للفتوح الذي ذكر ولكونه خرج اربع قلعات كبار منها على قصد المحاربة مع الانصار فأهلكهم الله بقدرته وردّ كيد اهلها في نحرهم والذي أسر منهم كثير ولما رأى ذلك الباقون الذين داخل القفرة صاروا يخرجون افواجاً ليلاً ونهاراً خفية وجهراً حتى اجتمع معنا أناس كثيرون من نساء ورجال وأطفال بعضهم اهل بلد وبعضهم مماليك (عبيد) وما زال جاري خروجهم وذلك لما رأوه من التضييق عليهم وشدّة بأس الله الذي حلّ بهم من حصارنا إياهم . وقد بلغنا ان بعضاً من أعداء الله الانكليز حضروا بدنقلة وأرسلوا منهم جانباً الى جهة المتمة لكي يدخلوا الخرطوم من قبلها والى الآن ما تم وصولهم بها وقد وجهنا

لهم من طرفنا نحو احد عشر الفاً والبشائر متواترة علينا بهلاك أولئك المخذولين وإن بلغوا في الكثرة عدد الشجر والمدر وزبد البحر ولافهامكم بما ذكر والعمل كما أشير لزم تحريره والسلام . في ٢٦ ربيع اول سنة ١٣٠٢ هـ ١٣ يناير سنة ١٨٨٥ م .

وقد كان لتسليم ام درمان أسوأ وقع في نفوس اهل الخرطوم فانهم أدركوا به حقيقة الضعف الذي صاروا اليه وازداد ألم الجوع فأخذوا يخرجون الى المهدي مسلمين فنشر المهدي كتاباً لقومه للرفق بمن يخرج من الخرطوم وهذه صورته بعد البسملة :

« وبعد فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدي الى احبابه وأصفيائه أنصار الدين بالهوي والشرق والغرب وخصوصاً العملاء والرؤوس : وبعد فاذا فهمتم هذا احبابي فالفوا عباد الله الذين يخرجون مسلمين ومنقادين بأنواع التأليف وتلقوهم بالاكرام والتشريف ولا تنظروا لمن استشهد من الانصار فتحنقوا بسبب ذلك على من كان مع الكفار فان قيامنا هذا لله ... ومن استشهد من الانصار فقد نال عظيم المقدار فيما فعله لوجه الله ... فاكرموا الذين يأتون مسلمين وخصوصاً العلماء ومن كانوا اهل وظائف كبار وبالأخص نحو الامين الضرير فقد قال ﷺ : اكرموا عزيز قوم ذل غني وافتقر ... والسلام . ١٩ ربيع اول سنة ١٣٠٢ هـ ٦ يناير سنة ١٨٨٥ م » .

وكتب ايضاً الى اهل الخرطوم يدعوهم الى التسليم بما نصه بعد البسملة :

« وبعد فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدي بن عبد الله الى كافة أهالي الخرطوم هداهم الله الى الصواب ... وقد طالما ذكرتكم بالله ورغبتكم فيما عنده وحذرتكم من وعيده فالى متى الغفلة والتسويف والى متى مبارزة مولاكم بالعداوة أترغبون النجدة والفرج عند الانكليز وتصرفون نظركم عن خالقكم الذي بيده أموركم وقوامكم وهو القوي العزيز فما الانكليز وغيرهم اضعافاً مضاعفة بشيء في جنب قدرة الله التي يعجز عن وصف كنهها كل لبيب ونجيب وما الغوث الا من عند الله القريب المجيب . وحيث فهمتم ما ذكر فاني لا

أؤاخذكم بما فات منكم ولا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين فأنيبوا الى ربكم وسلموا له من قبل ان يأتيكم العذاب بغتة وانتم لا تشعرون وعليكم أمان الله ورسوله وأمان العبد لله وليس عليكم حرج فيما مضى وغايته ان من سلّم سلم ومن خالف عطب وندم فهيّا هيا ثم هيا الى طريق الفلاح والنجاح قبل قص الجناح ولا تخشوا من شيء يحصل عليكم فانا مناظرون فيكم آية قوله تعالى : « واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة انه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فانه غفور رحيم . والسلام » .

وكتب ايضاً الى غوردون كتباً يدعوه الى التسليم هذا نصها بعد البسملة :

الكتاب الاول : « وبعد فمن العبد المفتقر الى الله المعتصم به محمد المهدي ابن عبد الله الى غوردون باشا فسلّم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإن أعرضت كان عليك إثمك وإثم من معك فقد أتاني الخبر من الرسول ان الجردة الآتية لو كان معي ستة انفار تموت او خمسة تموت او واحد تموت او وحدي كذلك ولو كانت مثل ورق الشجر ونبت الوعر وموج البحر وقد أتاني خبرها انها تموت أيسر من موت جردة ولد الشلالي وهكس والمديريات الغربية كلها والبحر الابيض وكذلك موعود بجميع البلاد فالامر لله وما دام ان الله القادر أيدني بالكرامات وبالنصر فلا يضرني انكار منكر وانما يضر نفسه فقط والامر الذي وعدت به من رسول الله ﷺ صار. على ان الجردة التي تعتمدونها ما لها وجه بوصولها لكم من سد الانصار الطرق فان اسلمت وسلمت فقد عفونا عنك وأكرمناك وسامحناك فيما جرى منك وإن أبيت فلا قدرة لك على نقض ما أراده الله والسلام . ٩ ربيع اول سنة ١٣٠٢ هـ ٦ يناير سنة ١٨٨٤ م » .

تحشية : وإن طلبت زيادة بعد وصول جوابي هذا فتخبرك المرأة الواصلة اليك وإن رأيت التمكين واليقين ان أردت التسليم اكثر من هذا الجواب

سنرسل لك عبد القادر ولد ام مريوم لزيادة الطمأنينة في الأمان فلا مانع وبذا لزمت التحشية .

الكتاب الثاني : « وبعد فان أراد الله سعادتك وقبلت نصحنا ودخلت في أماننا وضماننا فهو المطلوب وإن أردت ان تجتمع على الانكليز الذين أخبرنا رسول الله ﷺ بهلاكهم فنوصلك اليهم فالى متى تكذيبنا وقد رأيت ما رأيت وقد اخبرنا رسول الله ﷺ بهلاك من في الخرطوم قريباً إلا من آمن وسلم ينجيه الله ولذلك أحببت لك ألا تهلك مع الهالكين لأنا قد سمعنا مراراً فيك الخير ولكن على قدر ما كاتبناك للهداية والسعادة ما أجبتنا بكلام يؤدي الى خيرك كما نسمعه من الواردين والمترددين والآن ما أيسنا من خيرك وسعادتك ولما سمعنا من الفضل فيك سنكتب لك آية واحدة من كتاب الله عسى ان ييسر الله هدايتك بها إذ جعلنا الله باب الرحمة والدلالة الى الله ولذلك طالما كاتبناك لترجع الى وطنك وتحوز فضالتك الكبرى ولئلا تيأس من الفضل الكبير أقول لك قال الله تعالى : « ولا تقتلوا انفسكم ان الله كان بكم رحيماً » والسلام . ٢٠ ربيع اول سنة ١٣٠٢ هـ ٧ يناير سنة ١٨٨٤ م . وقد بلغني في جوابك الذي ارسلته الينا انك قلت ان الانكليز يريدون ان يفدوك وحدك بعشرين الف جنيه ونحن نعلم ان الناس يتقولون من البطال كلاماً كثيراً ليس فينا وذلك لصدود من أراد الله شقاوته ولا يعلم نفيه الا من اجتمع بنا وانت إن قبلت نصحنا فبها ونعمت وإلا ان أردت ان تجتمع على الانكليز فبدون خمسة فضة نرسلك اليهم والسلام في تاريخه .

فأجابه غوردون برفض التسليم وطلب اليه ارسال عبد القادر ام مريوم فكتب المهدي .

الكتاب الثالث : «... نعلمك ان جوابك رد الحرر منا وصل الينا وفهمنا مضمونه وقد عذرناك في عدم اذعانك واجابتك لنا بالطاعة كما طلبنا منك وذلك لأنك لم تدر الحقيقة التي نحن عليها وبحسب مقامنا ودلالتنا الى الله

وشفقتنا على عموم خلق الله حتى من هو مثلك لم يطب قلباً بصرف النظر عنك ولا زلنا ندارجك عسى الله ان يهديك الى سواء السبيل فأجب داعي الله واغتنم سلامتك من الشر الوبيل فقد رأيت ما حل ونزل ولا زلت ترى ولا طاقة لك ولا لأعوانك على حرب جند الله عز وجل وقد ذكرت ان عبد القادر ولد ام مريوم حبيبك وتقبل قوله ونصيحته وطلبت ارساله اليك فعلى م ذا ؟ هل انت منيب الى الله وقصدك التسليم لنا على يد المذكور ام انت على تصميمك في اعراضك ومعاداتك لربك فأفدنا على هذا لنعلم طلبك له على أي الوجهين هو ونرسله لك ان رأينا في ذلك صلاحاً للدين وأقول لك ان عزة الاسلام خير لك وأبقى لدوام احترامك في الدارين فتحلّ بها ان عقلت والسلام في ٢١ ربيع الاول سنة ١٣٠٢ هـ ٨ يناير سنة ١٨٨٥ م » .

ولما رأى غوردون اضطراب اهل الخرطوم علّق منشوراً في المراكز العسكرية والشوارع العمومية قال فيه : « انه وان تكن حامية ام درمان قد سلمت فهي انما سلمت بأمري وانا أعتني بعائلاتهم هنا وأجري لهم مرتباتهم كالاول وعن قريب ننقذهم من مخالب الأعداء لأنه قد جاءت البشرى بأن الجيش الانكليزي فرق جموعهم في صحراء البيوضة وقتل منهم الوفاً ونزلت مقدمته في المتمة وهي مسرعة لانقاذنا وبسبب هذه البشرى عفوت عن احمد بك جلاب مدير الخرطوم وعمن اشتركوا معه في مراسلة المهدي وأطلقت سراحهم من السجن » .

وحان ميعاد مرتب الخمسة ايام الثانية من يناير سنة ١٨٨٥ حسبما قرر المجلس العسكري السالف الذكر ولم يكن في المخازن ما يكفي خمسة ايام فعقد غوردون مجلساً برئاسة احمد بك جلاب للبحث عن الذرة في المدينة فلم يجدوا سوى ٣٦ اردباً ثم أمر فجمعت الأبقار والأغنام وثمّنت بأثمان باهظة وأعطى اصحابها « رجعاً » لتدفع لهم عند رفع الحصار واستشار الأطباء في أكل الصمغ فأقروا على أكله ولما تمّ جمع الذرة والماشية والصمغ أجرى مرتب الخمسة ايام الثانية من ٦ يناير الى ١٠ منه .

ثم بحث في المجلس عما يجريه للعساكر بعد انقضاء هذه المدة فقرّ الرأي على قطع النخيل في جنائن الخرطوم وأخذ قلبه وتجفيفه ففعلوا وكلفوا نساء العساكر فطحنته وخبزنه وصاروا ينفقون منه على العساكر مع ما بقي من الذرة والصمغ .

ثم كانت واقعة ابي طليح في ١٧ يناير كما مرّ قيل فبلغ خبرها المهدي في ٢٠ منه فامر فأطلقت المدافع مئة طلقة وطلقة وهي علامة النصر وقد أراد بذلك ان يوهم انصاره وأهل حامية الخرطوم بأن رجاله انتصروا على الانكليز. ثم وصل المنهزمون من ابي طليح فأخبروا اخوانهم بهول تلك الواقعة والخسائر التي حلت بهم . وتلاهم خبر انكسار النور عنقرة في المتمة ونزول الجيش الانكليزي على النيل فاضطرب المهدي وقومه واشتد النوح والبكاء في مخيمه . وصار عساكر الحكومة الذي في أسر المهدي يفرون منه ويدخلون الخرطوم سباحة في النيل حتى بلغ عدد اللاجئين الى الخرطوم ١٢٠٠ رجلا وقد حدثوا الحامية عن انهزام الدراويش في أبي طليح والمتمة وعن الاضطراب الحاصل في مخيم المهدي فانتعشوا وأملوا قرب الفرج . وتهلل غوردون فرحاً لهذا الخبر واطمأن باله وأعلن رسمياً منح مرتب شهرين مكافأة لجميع العساكر والموظفين الملكية داخل الاستحكام وخارجه وذلك عند تيسر النقود .

وقد أمّل غوردون ان الانكليز بعد هذا النصر الذي نالوه لا يلبثون ان يحضروا بالوابورات لنجدته فأصبح في انتظارهم كل ساعة وقلق لتأخرهم عن الميعاد الذي قدّره لهم فكنت تراه يقضي أوقاته على سطح السراي والمنظار بيده يوجهه الى الشمال لعله يراهم او يرى آثارهم فيرجع خائباً . وكان أهل الحامية قد نفد منهم القوت الذي جمعوه في المجلس الأخير وشرعوا في أكل الكلاب والحمير والخيل والبغال وصاروا يطلبون ربع الذرة بمئة ريال نقوداً ومئة جنيه ورق بون فلا يجدونه . وكنت ترى النساء حاملات الذهب في أيديهنّ وهنّ يطفن في الشوارع طالبات ربع الذرة بأربع اوراق ذهباً فلا يجدونه . واذا حظى صياد بسمكة في الليل باعها في الصباح بخمسين ريالاً او

أكثر . وظهر تأثير الجوع في العساكر فهزلت أجسامهم واصفرت ألوانهم وغارت عيونهم وأخــذ عساكر الشايقية والسودانية يخرجون الى الدراويش فراراً من الموت جوعاً فشق الأمر جداً علىغوردون وزاد ألم انتظاره للانكليز وهو لا يعلم السبب الذي يؤخرهم عنه وحار في الواسطة التي يصبّر بها عساكر الحامية الى ان تصلهم النجدة وكان قد قضى مدة ولم يدفع لهم مرتبهم نقوداً فجمع قرضاً من التجار والأعيـــان والضباط بسندات على نفسه ووزعه على العساكر فأصاب كلاً منهم مرتب نصف شهر وأصدر منشوراً قال فيه : «اني سبقت فأنعمت علىجميع العساكر والموظفين الملكيين بمرتب ٣ أشهر ثم بمرتب ٦ اشهر ونصف شهر ثم بمرتب شهرين والآن اعود فأثبت انعامي هذا وانا في انتظـــار الانكليز القادمين لنجدتنا كل يوم بل كل ساعة فكلما تأخروا يوماً حسبته لكم شهراً وجلالة ملكة الانكليز ضامنة لقولي هذا » ومع ذلك ظلّ العساكر يخرجون من الخندق فراراً من الجوع .

قرار المهدي على مهاجمة الانكليز : هذا وكان المهدي من الجهة الثانية لما بلغه خبر ابي طليح عقد مجلساً من خلفائه وخاصة اهل مشورته مثل محمد عبد الكريم والسيد عبد القادر ود ساتي علي واحمد شرفي وكلهم من أقاربه ويعقوب اخي الخليفة عبد الله ومحمد نوباوي شيخ بني جرّار واحمدي كاتب المهدي . حدثني المضوي عن محمد عبد الكريم قال : اتفق اولاً رأي الأكثرين في هذا المجلس على الهجرة الى كردوفان خشية من الوقوع في قبضة الانكليز فعارضهم محمد عبد الكريم في ذلك وقال : اننــا حاصرنا اهل الخرطوم حتى صاروا في حيزالعدم فاذا تركناهم وبهم بقية حياة وورد عليهم الجيش الانكليزي تقووا وسعوا في اقتفاء اثرنا ومعهم اهل النيل . وايضاً اذا كان غوردون وهو واحد من الانكليز قد اتعبنا كل هذا التعب فكيف يكون حالنا اذا اجتمع على غوردون جيش من ابنـاء جنسه . فالرأي الأتم هو الهجوم على الخرطوم وأخذها عنوة قبل وصول الانكليز اليها فلم يقبلوا رأيه خوفاً من ان يصيبهم في مهاجمة الخرطوم ما أصابهم في مهاجمة الابيض . واخبرني الشيخ اسماعيل

الازهري عن احمدي كاتب المهدي : « ان رأي الهجرة الى كردوفان لم يُشِر به احد ولكن عُرض في المجلس رأيان : الاول الزحف على الجيش الانكليزي وصدّه عن الوصول الى الخرطوم مع البقاء على حصرها حتى تضطر الىالتسليم جوعاً والثاني مهاجمة الخرطوم وأخذها اولاً ثم الانقلاب على الانكليز . وكان اول من أبدى هذا الرأي محمد نوباوي شيخ بني جرار وقد ضرب لهم مثلاً تأييداً لرأيه قال : اذا طارد صياد صيداً حتى ارهقه ثم عرض له صيد آخر فهل من الرأي ان يترك الصيد الاول الذي ارهقه ويلحق بالثاني الذي لا يزال قوياً ونحن الآن حصرنا الخرطوم حتىأضعفناها فكيف نتركها ونلحق بالانكليز الذين ما زالوا في قوتهم فصدق محمد عبد الكريم هـذا الرأي ولكن خالفها الباقون خوف الفشل وقرّ رأي الاكثرين على مهاجمة الانكليز » . فكتب المهدي الجمعة في ٦ ربيع آخر سنة ١٣٠٢ هـ ٢٣ يناير سنة ١٨٨٤ م كتاباً الى ابي قرجة يأمره بالاستعداد لملاقـاة الانكليز وصدهم عن النزول في الحلال كما فعل بجيش هكس الى ان يصلوا الى ام درمان ومما قاله فيها :

« ... وقد استحسنا مع الخليفة عبدالله والخليفة علي والخليفة محمد شريف وبقية الاصحاب من النواب وغيرهم توجهك الى الجردة متولياً على من يسير من هنا وهناك تنظرون فيها انلزم الأمر محاصرتها تحاصرونها كهكس فتحصرونها من التصرف في الحلال حتى تصل الينا او ما تروه فيها فقد يرى الحاضر ما لا يراه الغائب والسلام » .

فرار السنجق عمر ابراهيم : وفيما هم كذلك اذ فرّ اليهم من الخرطوم يوم السبت في ٢٤ ينـــاير سنة ١٨٨٥ سنجق من الباشبوزق يقال له عمر بك ود الفقيه ابراهيم الملقب بغرة العينين من اهل الخرطوم وقـــد أخذ معه راتبه ورواتب عساكر أوردية التي نقده إياها غوردون عن نصف شهر كما مرّ وكان المهدي لا يعلم حقيقة الحالة في الخرطوم اذ جميع الذين فرّوا اليه قبل هـــذا الرجل كانوا من ضعفاء الناس وليس لهم اطلاع على ماجريّات الأحوال فأخبره عمر المذكور بحال الخرطوم على التمام ودله على مواطن الضعف فيها .

نقطة الضعف في خندق الخرطوم : وقد تقدم ان خندق الخرطوم يمتد من النيل الازرق الى النيل الابيض إلا انه لم يكن يتصل بالنيل الابيض إلا في زمن ارتفاعه فاذا انخفض انحسر عن ثغرة يُدخل منها الى الخرطوم بسهولة وكانت الثغرة التي انحسر عنها النيل الى ذلك العهد (٢٤ يناير) نحو ١٥٠٠ متر فمدّ العساكر الخندق فيها رويداً متتبعين النيل مسافة الف متر وبقي ٥٠٠ متر بين الخندق والنيل كان الماء فيها ضحلاً ولا يمكن نزحه وحفر الخندق إلا بقوة جسيمة والعساكر في هذا العهد لا يقدرون على حمل انفسهم فضلاً عن حفر خندق مثل هذا ولم يعطوا جراية منذ ١١ يناير فكانوا يقتاتون ما يجدونه من الحيوان والنبات داخل المدينة وغاية ما استطاعه غوردون لأجل سد هذا الخلل في الخندق انه وضع عقبتين (مركبين) في النيل وجعل في كل منها ضابطاً و ٢٥ عسكرياً .

ترتيب العساكر على خط النار : وكان لخط النار كما علمت ثلاثة ابواب : باب الكلاكلة تجاه حلة الكلاكلة قرب النيل الابيض وباب برّي تجاه حلة برّي قرب النيل الازرق وباب المسلمية في الوسط . وكان عليه خمس اورط من العساكر النظامية اورطتان مصريتان وثلاث اورط سودانية ومعهم ٢٥ اوردياً من الباشبوزق الشايقية والاتراك والمتطوعة موضوعة على الترتيب الآتي مبتدئاً من جهة النيل الابيض :

اورطة مصرية فيها ٣٢٠ رجلاً فقط بقيادة يوسف افندي عفت . يليها عشرة ارادي باشبوزق بملاحظة القائمقام عثمان بك حشمت يمتدون الى باب الكلاكلة . ويليهم الاورطة الثانية المصرية وعليها القائمقام فرج بك صالح بدلاً من السيد بك امين الذي جُرح في برّي . ثم ثلاثة ارادي باشبوزق شايقية . يليهم اورطة سودانية بقيادة البكباشي علي افندي صقر . ثم تسعة ارادي باشبوزق بملاحظة القائمقام سرور بك بهجت . ثم الاورطة الثانية السودانية وعليها البكباشي محمد افندي عثمان. ثم اورديان باشبوزق بملاحظة احمد افندي

حماية ثم الاورطة الثالثة السودانية وتمتد الى النيل الازرق وعليها البكباشي محمد افندي دسوقي .

وقد جُعل خط النار كله قسمين : قسم اليمين ويمتد من النيل الابيض الى باب الكلاكلة وعليه الميرالاي حسن بك البهنساوي قومنداناً وقسم الشمال وعليه بخيت بك بطراكي قومنداناً . والكل بقيادة القومندان العام الفريق فرج الله الزيني .

قرار المهدي على مهاجمة الخرطوم : فدل السنجق المذكور المهدي على هذا الترتيب وعدد العساكر وشدة الحال التي صاروا اليها كما دله على نقطة الضعف في خط النار فجمع مجلس شوراه (السبت) وأخبرهم بما أتاه عمر المذكور فأجمعوا كلهم على مهاجمة الخرطوم . قيل وفي يوم الاحد (٢٥ يناير) أتى هجان من المتمة وأخبر المهدي ان الوابورات خرجت من القبة في فجر ٢٤ يناير قاصدة الخرطوم فأقرّ المهدي اذ ذاك على مهاجمة الخرطوم في الحال. وفي المساء (ليلة الاثنين) اجتاز النيل على المراكب ومعه خلفاؤه من أراد الجهاد من اصحابه في ابي سعد ونزل بالقرب من معسكر النجومي عند شجرة محو بك وأمر جميع اصحابه فحضروا بين يديه وكان النجومي قد أرسل يطلب عبد الله ود جبارة وأبا بكر ولد عامر بمن معهما من الانصار المحاصرين بجهة الشرق فحضروا ايضاً واجتمعوا كلهم حول المهدي في شكل نصف دائرة وهو في الوسط فقال لهم ان سيد الوجود امرني بمهاجمة الخرطوم في فجر غدٍ الاثنين فهل انتم مستعدون لاقتحام الخندق وعدم المبالاة بما سيكون قالوا كلهم نعم ثم قال هل أنتم طالبون الجهاد في سبيل الله بنية صادقة وقلوب سليمة قالوا نعم فقال وهل تثبتون فيه ولو مات منكم الثلثان قالوا نعم فرفع يديه اذ ذاك الى السماء فرفع الجميع أيديهم وقرأوا الفاتحة ثم استل سيفه وضرب به الهواء ثلاث مرات وهو يقول الله أكبر ثم قال هيا هيا على الخرطوم . ثم أرسل أوامره الى جماعة الشيخ العبيد في الشرق بمهاجمة سراي الشرق وجزيرة

توفي في الوقت الذي يهاجم النجومي فيه الخرطوم وعاد هو وخلفاؤه الى ابي سعد فوصلها في بقية ليلته المذكورة .

استعداد غوردون الاخير : وكان غوردون يقضي أكثر أوقاته على سطح السراي وبيده النظارة يرقب حركات الدراويش المحاصرين من الشرق والغرب والجنوب كما يرقب مجيء الانكليز لنجدته من الشمال . وفي مساء الاحد بينما كان ينظر الى جهة ابي سعد رأى الدراويش يجتازون منها الى الجزيرة ويجتمعون عند شجرة محو بك بالقرب من معسكر النجومي . فعلم ان الدراويش قد أقرّوا على مهاجمة الخندق قريباً فأعلن تلغرافياً الى جميع القومندانات على خط النار ما عوّل عليه الدراويش وأمرهم بالتيقظ وأخذ الأهبة لأنفسهم والاستعداد للدفاع ثم قال ان الجنود الانكليزية لا بد ان تكون هنا قبل ظهر الغد فاذا ثبتم الى ذلك الحين نجوتم لا محالة. ثم جمع الموظفين الملكيين وأعيان المدينة وكل من له قدرة على حمل السلاح وأرسلهم الى خط النار لمساعدة العساكر على الدفاع . -

سقوط الخرطوم الاثنين ٩ ربيع الثاني
سنة ١٣٠٢ هـ ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥ م

هذا ما كان من غوردون وأما النجومي ومن معه من الجيوش فانهم باتوا تلك الليلة بين مهلل ومكبر ومصل . وقبل طلوع الفجر بساعة زحفوا على الخرطوم وقد انقسموا فرقتين يمين وشمال فقاد النجومي فرقة الشمال وهي الفرقة الكبرى وهاجم قسم اليمين من خط النار جهة البحر الابيض وقاد ابو قرجة فرقة اليمين وهاجم قسم الشمال من خط النار جهة البحر الازرق وقد جعلت كل فرقة منها رجال الاسلحة النارية في مقدمتها فانتشروا أمام خط النار بصفة شرخجية وأبقوا الطوبجية في الطوابي. وقبيل الفجر فتحوا أفواه البنادق والمدافع على خط النار فنهض العساكر اذ ذاك ووجهوا نيرانهم الى طوابي الدراويش وشرخجيتهم

ووالوا عليهم رمي الرصاص والقنابل ولم يكن لهم علم بالمهاجمين من الجناحين فدخل عربان النجومي من الثغرة التي دلهم عليها عمر الفقيه وأعملوا السيف والحربة في الاورطة الاولى حتى قتلوا معظمها وفيهم قومندانها يوسف بك عفت والتجأ من بقي الى المركبين في النيل الابيض وعبروا النيل الى ام درمان . وأما ارادي الباشبوزق العشرة التي تلي هذه الاورطة فان اكثر عساكرها تركوا الخط فدخلوا المدينة او نجوا الى الصحراء وثبت الباقون فحاربوا الى ان قتلوا وفيهم من السناجق علي آغا وانلي ومتو بك وعبدالهادي آغا ومحمد بك كرسي ومحمد بن قرضية ونصر بك. وأما عثمان بن حشمت قومندان الارادي المذكورة فانه كان في جملة من دخلوا المدينة فقتل بعد حين في منزله. ثم انقلب الدراويش على الاورطة الثانية المصرية فنظم ضباطها العساكر ثلاث قلعات وحاربوا الى ان قُتلوا . وأما قومندانها فرج بك صالح فانه جاهد قدر المستطاع ثم نجا الى الصحراء . ودخل بعض أنذال الدراويش على السيد بك امين وهو على فراشه في غرفة قرب اورطته فطعنوه بالحراب وتركوه يخبط بدمائه ولطول أجله لم يمت . وأما حسن بك البهنساوي قومندان قسم اليمين كله فانه كان واقفاً بطابية باب الكلاكلة فلما رأى ما حلّ بالعساكر خلع ثيابه العسكرية وتعدّى الخندق الى جهة الصحراء فوقع أسيراً . وبعد ان أجهز الدراويش على عساكر قسم اليمين انقلبوا على قسم الشمال وكان في أوّله ٣ ارادي باشبوزق كما مرّ فدخل بعضهم المدينة وثبت البعض الآخر فحاربوا الى ان قُتلوا وفيهم من السناجق محمد بك السنجق وبشير بن خشم الموس بك ومحمد علي بن نعمان . ثم زحف الدراويش على الاورطة السودانية الاولى فقتلوا قومندانها علي افندي صقر ومعظم ضباطها. ثم انقضوا على الارادي التسعة الباشبوزق بقيادة سرور بك بهجت فمنهم من حارب وقتل ومنهم من فرّ . وأما فرج باشا الزيني قومندان العساكر العام فانه لما رأى انكسار العساكر خلع ثيابه العسكرية وفتح باب المسلمية وخرج منه فارّاً الى الصحراء ومعه سرور بك بهجت . وزحف الدراويش على الاورطة الثانية السودانية بقيادة البكباشي محمد افندي

عثمان فثبت أمامهم وحاربهم حتى قُتل هو ومعظم الضباط والعساكر وخرج من سلم من باب المسلمية الى الصحراء .

ثم لما فتح باب المسلمية دخل منه كثير من الدراويش المهاجمين وزحفوا على الباقي من عساكر قسم الشمال في جهة بري وهم الاورطة الثالثة السودانية واوردیان من الباشبوزق ومعهم بخيت بك بطراكي قومندان قسم الشمال العام وانتشب القتال بين الفريقين . وفي أثناء ذلك دخل ابو قرجة بجيوشه من باب برّي فهاجموا بخيت بك من الوراء وحصروه في الوسط وبقي يقاتلهم الى ان قتل رحمة الله عليه وقُتل معه اكثر الضباط والاعيان الملكية وفيهم محمد بك ابراهيم وابو بكر الجركوك وعصمت بك رئيس التلغرافات ومحمد بك القباني قومندان عموم الطوبجية . وأما حسن بك القباني واحمد بك ابو القاسم فانهما نزلا في صندل مع نفر من العساكر . وفرّ البكباشي احمد حماية مع بعض الضباط الى جهة الصحراء .

هذا وكان الدراويش الذين نكلوا بقسم اليمين من خط النار أي بجهة النيل الابيض قد انقلبوا على البلد فأدركوا الكثير من الفارّين اليها في الطريق فقتلوهم ودخلوا المدينة فوجدوا الكثير من أهلها قد أقفلوا ابواب منازلهم تخلصاً من القتل فكسروا الابواب ودخلوا المنازل وقتلوا من وجدوه فيها أشنع قتلة وأخذوا اموالهم وسبوا حريمهم وفي جملة هؤلاء موسى باشا شوقي مدير الخرطوم والمفتي شاكر وابنه وعثمان بك حشمت المار ذكرهم . ذلك مع اشتغال كثير من الدراويش بالنهب والسلب وارتكاب الفظائع والموبقات فملا الصراخ والعويل في المدينة وكان هول تلك الساعة عظيماً .

قتل غوردون : قيل وكان اول من اخترق خط النار ودخل الخرطوم محمد نوباوي شيخ بني جرار المار ذكره فأخذ فصيلة من عربانه وقصد سراي الخرطوم طالباً غوردون وكان غوردون قد صعد على سطح السراي من قبل الفجر لمشاهدة القتال ولم يكن معه في السراي سوى خادمه محمد ادريس وثلاثة من القوّاصة وعلى باب السراي ضابط وبعض الخفراء فلما أقبل العرب مهاجمين

السراي تلقاهم الخفراء بالرصاص فقتلوا منهم ٦ رجال ولكن العرب تغلبوا عليهم لكثرتهم فقتلوهم عن آخرهم وصعد جماعة في سلم السراي وفي مقدمتهم محمد نوباوي فوجدوا غوردون واقفاً عند رأس السلم بثيابه العسكرية والسيف عن جنبه فقال لهم : « أين محمد احمد ؟ » فأجابوه بالطعن بالحراب وكان اول من طعنه محمد نوباوي وقبل ان فاضت روحه مسكوه برجله وجرّوه على السلم بقسوة بربرية الى اسفل السراي ثم قطعوا رأسه وحملوه الى المهدي في ابي سعد. وقد شاع ان المهدي أوصى قومه ألّا يقتلوا غوردون بل يأتوه به حياً ليفتدي به عرابي باشا ولكن هذه الاشاعة لم يذكرها ثقة من محاصري الخرطوم وليس في كتب المهدي ما يصدقها او يشير اليها . حدثني ثقة قال : اني ذهبت مع ابي عنجة الى سراي الخرطوم توّاً بعد قتل غوردون فوجدنا جثة غوردون ملقاة في اسفل السلم عارية بلا رأس وهي مضرجة بالدماء مثخنة بالجراح ثم صعدنا في سلم السراي الى الدور العلوي فوجدنا في الغرفة ثلاثة قتلى ودخلنا غرفة الطعام وهي غرفة مكتبه الخاص فرأينا على المائدة صحناً فيه بيض مقلي وبجانبه علبة لحم صغيرة في وسطها شوكة والى جانبها ملعقة صغيرة وصحناً آخر فيه قطعة من السكر ثم دخلنا غرفة النوم فوجدنا الكلة مدلاة على السرير والمرايات وصناديق الثياب الجلدية على حالها . قال محدثي اني لا أشك في ان محمد نوباوي شيخ بني جرار هو قاتل غوردون وقد قطع رأسه وأخذه الى النجومي فأرسله النجومي الى الخليفة شريف فأتى به الى المهدي فأرسله المهدي الى سلاطين باشا وهو في السجن مقيد بالحديد ليتحقق انه رأس غوردون ثم علقه في المشنقة ثلاثة ايام .

هذه نهاية تلك الرواية المحزنة التي مثلها ذلك البطل العظيم في حصار الخرطوم فمثّل فيها الشهامة وانكار النفس وحب الانسانية أحسن تمثيل وسيبقى ذكره في التاريخ موضوع التجلة والاعتبار ما بقيت الخرطوم وُذكر حصار .

سقوط باقي نقط الحصار : أما طابية المقرن فان قومندانها الصاغ ابراهيم

الشيخ لما رأى انتشار الدراويش في المدينة كلها وان لا فائدة في المقاومة رفع العلم الابيض علامة للتسليم ولكن الدراويش لم يبالوا بالعلم الابيض بل دخلوا الطابية وقتلوه هو ومن معه.وفي الوقت الذي هجم فيه النجومي على الخرطوم هاجم رجال الشيخ العبيد سراي الشرق ونقطة جزيرة توتي عملاً بأمر المهدي وكان قومندان النقطتين عبد الله بك العبد في سراي الشرق فدافع دفاع الابطال ولكن تكاثر العرب عليه فقتلوه هو ومعظم رجاله وأخذوا النقطتين منه عنوة .

واستمر القتل في اهل الخرطوم منلدن طلوع الفجر الى قرب الضحى حتى امتلأت الطرق من جثث القتلى قيل وكان جملة من قتل من اهل الخرطوم نحو ٣٥ الف نسمة وأما الدراويش فلم يقتل منهم إلا القليل . وقد أوقف القتل في اهل الخرطوم بأمر المهدي قيل لما أخذوا له رأس غوردون وأخبروه بما كان لهم من النصر على الحامية أمر اصحابه فكفوا عن القتل وذلك في الساعة الخامسة حساباً عربياً .

الغنائم والاسرى : ثم صدر الأمر الى الامراء بجمع الأسرى والغنائم في ديم النجومي خارج الخندق فطافوا المدينة ودخلوا المنازل منزلاً منزلاً فساقوا من وجدوه فيها من النساس أسرى وأخذوا أموالهم غنيمة وكان ابراهيم باشا فوزي المحافظ في جملة هؤلاء . وقد عذبوا كل من ظنوا به انه أخفى أمواله حتى أظهرها . ثم أوقفوا الخفراء من النساء والرجال في ابواب الخندق الثلاثة ففتشوا الأسرى وهم خارجون وجردوهم من كل ثمين وتركوهم عراة الرؤوس حفاة الأقدام وجمعوا الكل في مكان واحد في العراء وجعلوهم قسمين أحراراً وأرقاء أما الأرقاء فقد أرسلوهم مع الغنائم الى بيت المال وأما الأحرار فقد جعلوهم ايضاً قسمين النساء والرجال ففرزوا الابكار والحسان من النساء وأرسلوهن الى المهدي فاختار منهن عشرين وأرسل الباقيات الى الخلفاء فانتقى كل منهم من حسنت لديه ووزعوا الباقيات على الامراء الأكبر فالأكبر وأما غير الحسان من النساء والعجائز فقد تركوهن وشأنهن . وأما الرجال فعند

فرزهم وجدوا بينهم فرج باشا الزيني وسرور بك بهجت وحسن بك البهنساوي فأدخلوهم المدينة اولاً أمروهم ان يسلموا أموالهم فسلموها بعد تهديدهم بالضرب ثم عقد المهدي مجلساً مع الخليفة عبد الله واحمد ود سليمان امين بيت المال في شأنهم فأقروا على قتل فرج باشا الزيني وسرور بك بهجت ورمي جثتيهما على تربتي السعيد باشا وحسن باشا ابراهيم اللذين قتلا لخيانتهما في واقعة الحلفاية كما مرّ وأنفذ القرار فيهما وأما حسن بك البهنساوي فقد أطلق سبيله ولكنه جرد من نسائه وقد اتخذ المهدي ابنته زوجة له وترك باقي الاسرى بلا قوت حتى مات بعضهم من الجوع فرفعوا أمرهم الى المهدي فأمر الحاج خالد العمرابي الذي سمي أميراً على الخرطوم فحصر أسماءهم في كشف وسلمه الى امين بيت المال فأجرى لكل منهم نصف غرش في اليوم وبقي على ذلك مدة يسيرة ثم تركهم وشأنهم فاشتد الحال عليهم حتى كان الموظف الكبير او الضابط يضطر ان يخدم في السوق او ينقل الماء من النيل ليلقى لقمة او حفنة من الذرة يسدّ بها رمقه فرفعوا شكواهم الى المهدي ثانية فوزعهم على الرايات وجعل لكل منهم ربع ريال في الاسبوع .

هذا ما كان من جهة الأسرى وأما الغنائم فقد جمع منها شيء كثير من الاسلحة والذخائر والنقود والأمتعة ما عدا المراكب والوابورات وكان الباقي في الخرطوم من الوابورات اذ ذاك : المنصورة والفاشر والاسماعيلية وشبين والمسلمية ومحمد علي .

وعلم المهدي ان بعض أصحابه أخفوا من الغنائم فأصدر اليهم منشوراً شديد اللهجة يحذرهم من الغلول في الغنائم وردّ جميع ما أخفوه الى بيت المال. وكتب الى عماله يخبرهم بفتح الخرطوم وهذا ما كتبه الى محمد زقل عامل دارفور بعد البسملة :

« وبعد فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدي بن عبد الله الى حبيبه في الله وعامله وابن عمه محمد خالد تولاه الله بلطفه وحرسه بعين عنايته آمين منا لكم السلام ورحمة الله وبركاته ثم اعرف الحبيب انه بمقتضى وعد الله الوفي ولطفه

الخفي قد صار فتوح مدينة الخرطوم بعون الله الحي القيوم وذلك بيوم الاثنين الموافق ٩ ربيع آخر سنة تاريخه بعد انفلاق الصبح بواسطة أنصار الدين فقد استعدوا واقتحموا الخندق توكلا على رب العالمين فلم يكن قدر ربع ساعة او أقل إلا وحلَّ بأعداء الله ما حلَّ من قطع دابرهم عن آخرهم مع شدة استعدادهم وفي اول الصدمة ولوا الادبار منهزمين بين يدي جند الله الأنصار ظانين السلامة بدخولهم الحيشان واغلاق أبوابها فاتبعوهم ضرباً بالسيوف وطعناً بالرماح حتى كثر الصياح واشتد الأنين وجندلوهم في الحين ثم استحصلوا على الباقين الذين أغلقوا الأبواب خشية من نزول العذاب فأخذوا وقتلوا تقتيلا ولم تبقَ لهم بقية إلا القليل والموالي والذرية. وأما عدو الله الغوردون فعلى قدر ما أنذرناه ولاطفناه بأن يرجع وينيب الى الله فلم يكن ليفعل ذلك لسبوق شقاوته وزيادة غباوته حتى بلغ أجله منتهاه وحصد بالندامة ما زرعه من خطاياه وأسكنه الله دار غضبه التي ساءت مستقراً ومقاماً فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين فويل لمن كانت النار جزاءه وهنيئاً لمن كانت الجنة مسكنه ومأواه جعلنا الله وإياكم من الفائزين برضائه الأكبر وعظيم خيره المستقر وقد فاز بالشهادة عشرة من أصحابنا في هذا الفتوح ولم يصب الباقين شيء من جراح او نكبة وذلك الفضل من الله وما النصر إلا من عند الله وقد سجدنا شكراً لله على نصرة الدين فافعلوا أنتم كذلك والسلام ١٢ ربيع آخر سنة ١٣٠٢ هـ ٢٩ يناير ١٨٨٥ م ».

الفصل التاسع عشر

عودٌ الى

تاريخ الحملة الانكليزية سنة ١٨٨٥ م

السر تشارلس ولسن وكشف حال الخرطوم : ولنرجع الآن الى السر تشارلس ولسن الذي تقدم انه سار بوابوري بوردين وتل حوين من القبة في صبح ٢٤ يناير سنة ١٨٨٥ لكشف حال الخرطوم فانه ما زال سائراً بلا معارض حتى وصل ود حبشي في رأس شلال السبلوكة فتلقاه الفقيه مصطفى الأمين بالقنابل والرصاص وكان قد أرسله المهدي نجدة الى النور عنقرة ومقاومة الوابورات فأقام في ود حبشي وبنى طابية فرماه السر تشارلس ولسن ببعض القنابل ومرق منه مروق السهم وذلك عصر ٢٥ يناير . وفي صباح ٢٦ يناير وهي ساعة سقوط الخرطوم ارتطم وابور بوردين في صخرة فعلق بها فأفرغ شحنه وأخرجه منها ثم لم يسر إلا قليلا حتى غرز في رملة فأخرج منها فكانت عاقته في الحادثتين ٢٤ ساعة. وفي عصر ٢٧ يناير وصل شمالي التمانيات فرماه الأهلون بالرصاص وسمع رجلا ينادي « الخرطوم سقطت والغوردون مات » فلم يصدقه وسار حتى أتى التمانيات فقطع الحطب وقوداً للوابورين وبات فيها ليلته الى فجر ٢٨ ينـاير فاستطرد السير جنوباً الى الساعة ١١ من الصباح فأطل على

الخرطوم وهو اذ ذاك شمالي الحلفاية في النقطة التي طالما وجّه غوردون نظره اليها ليرى تباشير النجدة وهنــاك سمع ايضاً رجلاً ينادي « الخرطوم سقطت والغوردون مات » .

وكان خبر الوابورين قـد وصل المهدي فأصدر أمره الى أمرائه في الشرق والغرب والخرطوم بالاستعداد لصدّهما فأقـام اهل الشرق خط نار في الحلفاية وآخر في جزيرة توتي وتحصن ابو عنجة في طابية ام درمان بالغرب والنجومي في طابية المقرن بالخرطوم فما اقترب السر تشارلس ولسن بالوابورين من الحلفاية حتى ابتدره اهلها بالقنابل والرصاص فلم يبال بهـا وتقدم نحو الخرطوم حتى اقترب من المقرن فانهالت عليه القنابل والرصاص من جزيرة توتي وطابيـة ام درمان وطابية المقرن فتيقن اذ ذاك ان الخرطوم قد سقطت فقفل راجعاً نحو المتمة وما نجا من الخطر حتى العصر . قيل وقـد أشغل الوابورين بال المهـدي جداً فمـــا سرّ بالنصر على الخرطوم ولا هدأ له بال حتى رآهما عائدين عن الخرطوم . حدثني السيد اسماعيل الازهري قال : « ان المهدي عند سماعه بخبر الوابورين أرسل الطلائع لمرافقتها وموافاته بأخبارهما تباعاً الى ابي سعد فلما قربا من الخرطوم صاح الخليفة عبد الله بقومه وسار بهم الى ام درمان فضم جميع الاسلحة النارية الى أبي عنجة في طابية ام درمان وأرسل الى النجومي واهل الشرق بالتيقظ وبذل المجهود فيمقاومة الوابورين . أما المهدي فانه صلى الظهر جماعة في مسجده بأبي سعد ثم رفع يديه نحو السماء وبكى وقال «اللهمّ يا قويّ يا عزيز انصرنا على الترك وأعوانهم الشايقية والانكليز » ثلاث مرات ثم خرج فركب جواداً وأردفخلفه الشيخ ود ارباب منمشائخ الدين بالخرطوم لأنــه كان عاجزاً هرماً وسار حتى أتى شجرة بين ابي سعد وام درمان فنزل تحتها فسميت بشجرة الحضرة -قيل لأن قـد هبطت عليه هناك « حضرة » . وعند نزوله ناوله احمد ود سليمان امين بيت المال سيفاً فاستله فوجـد مكتوباً عليه بماء الذهب هــــذه الآية « نصرٌ من الله وفتح قريب » فاستبشر بذلك فجمع بعض الحضور أحرف الآية بالجمّل فوجدها ١٣٠٢ وهي السنة التي كانوا

فيها فزاد استبشاراً وبقي تحت الشجرة الى ان رجع الوابوران فرجع الى ابي سعد فرحاً منشرح الصدر » .

هــذا ما كان من المهدي وأنصاره أما السر تشارلس ولسن فكل قارىء يعلم مقدار الاسف الذي تولاه وهو راجع الى قومه بخبر سقوط الخرطوم الذي ذهب بأتعاب الحملة أدراج الرياح وأقل ما يتمناه القارىء له الرجوع الى قومه بالامان والراحة ولكنه ما وصل جبل الرويان عند قدم شلال السبلوكة حتى ارتطم وابور تل حوين في صخرة فغرق قيل ان ربانه اتفق مع عبد الحميد بك احد ضباط الشايقية فغرقاه عمداً وقد فرّ الى المهدي تواً بعد غرقه وذلك في عصر ٢٩ ينـــاير . وفي المساء أتى رسول بكتاب من المهدي الى الانكليز والشايقية الذين علىالوابورين يخبرهم بسقوط الخرطوم وموت غوردون ويسألهم التسليم فأجابه خشم الموس بك مخادعاً له « اذا ضمنت لنا السلامة نسلم للفقيه مصطفى الامين في ود حبشي » ونقل السر تشارلس ولسن أمتعـة تل حوين ورجاله الى وابور بوردين وسار حتى أتى جزيرة مرنات على ٣ أميال جنوبي ود حبشي فارتطم في صخرة تحت الماء فغرق وذلك في ٣١ يناير فأنزل السر تشارلس ولسن رجاله وأمتعته الىالبر الشرقي وأرسل اللفتنت ستيورت ورتلي في قارب الوابور الى القبة يطلب النجدة فلما مرّ بود حبشي رماه الدراويش بالرصاص والقنابل فلم يصيبوه بضرر وبقي مجداً السير حتى وصل القبة الساعة ثلاثة من صباح ١ فبراير فأخبر قومه بسقوط الخرطوم ونكبة السر تشارلس ولسن .

وكان اللورد تشارلس بارسفورد قد تعافى من مرضه فأخذ بعض العساكر في وابور الصافية وأسرع لنجدة السر تشارلس ولسن فلما قرب من ود حبشي بادره الدراويش بالقنابل وقـد اضطر ان يسير على ٧٠ يرداً من الشاطىء لقلة ماء النيل اذ ذاك فأصابت قنبلة قزان الوابور فعطلته فرسى به في البر الشرقي على ٥٠٠ يرد منطابية العدو ليصلحه ومع ذلك فان مدافعه وبنادقه لم تكف عن العمل فأبلى بالدراويش وقتل قائدهم احمد ود فنّة . وكان السر تشارلس

ولسن قد شحن أمتعته في نقّر وجرّه بإزاء الشاطىء وسار هو ورجاله في البر محاذياً له حتى وصل الى حيث اللورد تشارلس بارسفورد فشاركه في محاربة الدراويش الى ان أصلح القزان فنزل هو ورجاله وأمتعته في الوابور وقفلوا كلهم راجعين الى القبة فوصلوها مساء ٤ فبراير .

هذا وقد وجّه فريق من الانكليز اللوم على السر تشارلس ولسن لعاقته في القبة وألقوا عليه تبعة سقوط الخرطوم فقالوا لو انه أسرع لنجدة الخرطوم حال التقائه الوابورات في المتمة أي صباح ٢١ يناير لأدرك الخرطوم قبل السقوط ومنع سقوطها. فدافع السر تشارلس ولسن عن نفسه بكتاب خاص نشره بين قومه وانتصر له جماعة منهم فقالوا ان أحوال المتمة وسلامة جيش القبة قضت عليه بهذه « العاقة » وايضاً فان المهدي لم يتأخر عن مهاجمة الخرطوم إلا مصابرة لها ليضطرها الى التسليم جوعاً ويكفي نفسه الخسائر ما أمكن ولكنه كان يرقب حركات الانكليز والوابورات وهو مصمم على مهاجمة الخرطوم حال علمه بتحرك النجدة اليها وقالوا بل لو وصل الوابوران الخرطوم قبل مهاجمة المهدي لها ما امتنع عن مهاجمتها ولا أمكن الحامية حينئذ صده عنها فسقوطها بعد الضعف الذي صارت اليه من قبل وصول الجيش الى القبة كان أمراً محتوماً سواء حضر الوابوران لنجدتها في الحال او تأخرا . ولكل من الفريقين أدلة كثيرة يؤيّد فيها رأيه . على ان المسألة الهامة في هذا البحث هي هذه : أكان تأخر السر تشارلس ولسن في القبة مما تستلزمه القواعد الحربية أم كان في امكانه السفر الى الخرطوم حال التقائه الوابورات لأننا قد رأينا ان المهدي لم يقرّ على مهاجمة الخرطوم بل أحجم عنها خوف الفشل حتى فرّ اليه ذلك السنجق الشقي ودلّه على مواطن الضعف فيها وهوّن عليه أمر افتتاحها فلو أمكن السر تشارلس ولسن نجدتها حين التقائه الوابورات أي صباح ٢١ يناير لوصلها قبل فرار السنجق منها (٢٤ يناير) ومنع مهاجمة المهدي لها . ثم لو وصل الوابوران بالزاد الى الخرطوم لأنعشا حاميتها أي انعاش وزاد خوف المهدي من مهاجمتها . حتى لو صح انه كان يهاجمها بعد

وصولها لاحتمل انه كان يُصدّ عنها . وعليه فالتأخر عن نجدة الخرطوم الى ما بعد ٢٤ يناير موجب للأسف الشديد مهما كانت الأسباب .

تغيير صبغة الحملة : ولنرجع الآن الى ذكر الوقائع فان قومندان القبة لما علم بسقوط الخرطوم من اللفتننت ستيورت ورتلي في ١ فبراير كما مرّ أرسل الخبر مع ضابط خاص الى اللورد ولسلي في كورتي فوصل في ٤ فبراير ووقع على اللورد ولسلي كصاعقة فأبلغه في الحال تلغرافياً الى حكومته ببلاد الانكليز وتبودلت بينه وبينها التلغرافات بشأن السياسة التي يجب اتباعها بعد الآن فأجابته في ٦ فبراير « أما الغرض الذي ترمي اليه الآن فهو سلامة غوردون ان كان لم يزل حياً ومنع تقدم المهدي الى البلاد التي لا تشغلها الثورة » فأجابها بأنه سيبذل جهده في خلاص غوردون ان كان باقياً حياً وسألها التصريح له بالسياسة التي تريد اتخاذها بشأن السودان عموماً. فجاءه الجواب مساء ٧ فبراير « بأن غاية الحكومة الآن سحق المهدي واخماد ثورته وانها تعتمد عليه في جميع التدابير العسكرية التي توصله الى هذه الغاية » فأقرّ اذ ذاك على فتح بربر قبل حلول الصيف وبعث في ٨ فبراير يشكر لحكومته التصريح بسياستها ويسألها ارسال الجند الى سواكن لسحق عثمان دقنة ومدّ سكة حديد منها الى بربر حتى متى جاء الخريف التالي ضمّ قوة سواكن الى قوة بربر وسار بالقوتين لسحق المهدي في ام درمان . وفي ٩ فبراير وصل السر تشارلس ولسن نفسه الى كورتي وأخبر اللورد ولسلي بتفاصيل سفرته الى الخرطوم فأبلغها هذا الى حكومته .

عود الى جيش الصحراء: هذا وكان اللورد ولسلي لما بلغه جرح الجنرال ستيورت في واقعة المتمة أرسل الجنرال بُلَر رئيس اركان حرب ليقود جيش الصحراء وسمى الجنرال وود سردار الجيش المصري رئيس اركان حرب مكانه فخرج الجنرال بُلر من كورتي في ٢٩ يناير قاصداً القبة . وفي صباح اليوم التالي سيّر اللورد ولسلي اورطة انكليزية مدداً له. وصدر لي الأمر من رئاسة

قلم المخابرات بالذهاب الى الجكدول مع شيخ من مشايخ الدين بدنقلة بقصد مكاتبة عربان الصحراء وتثبيتهم على الولاء فسرنا مع هــذه الاورطة . وفي الطريق بلغنا خبر سقوط الخرطوم المشوم فمكثنا في الجكدول الى ان عاد جيش الصحراء الى كورتي فعدنا معه .

وأما الجنرال بلر فقد علم بسقوط الخرطوم في الجكدول فتأخر فيها بضعة ايام بأمر اللورد ولسلي ثم استطرد السير الى القبة فوصلها في ١١ فبراير. وكان اللورد تشارلس بارسفورد وهو أقدم ضابط في جيش الصحراء قد كتب انذاراً الى أعيان النيل وسكانه أجمعين بتاريخ ٢٨ يناير سنة ١٨٨٥ هذا نصه :

« نكتب اليكم هــذا الانذار كي لا يفوتكم العلم اننا نحن القسم الاول من الجيوش الانكليزية الزاحفة على الخرطوم لمعاقبة العصاة الأشقياء فاذا أتيتم الينا مسلمين خاضعين قبلناكم وأهّلنا بكم ودفعنا لكم أثمان ما نأخذه من مواشيكم ومحصولاتكم لكن اذا رأينا منكم ما دلّ على اصراركم على عدم التسليم عاملناكم معاملة الأعداء وسلبنا جميع مواشيكم وأحرقنـا منازلكم وسواقيكم وكل ما ملكته أيديكم أما أنتم انفسكم فتلاقون ما لاقى الذين تجرأوا على قتالنا في ابي طليح والمتمة . ومن أراد المجيء منكم الى الجنرال الانكليزي للمفاوضة معه بشأن من الشؤون فليأتِ حاملاً راية بيضاء ماشياً وحده على شاطىء النيـل فيدخل بلا معارضة ويحمى من كل خطر والسلام » فلم يجبه احد . وفي مساء ذلك اليوم جـاء خبر فتح الخرطوم الى اهل المتمة فضربوا نقاقيرهم وزادوا جرأة على عساكر القبة . وأما العساكر فقد شقّ عليهم هذا الخبر وكانوا قد تعبوا لكثرة ما قاسوه من المشاق والحروب ولم يكن عندهم يوم وصول الجنرال بلر اليهم سوى مؤونة ١٢ يوماً وكان الزاد يأتيهم من الجكدول على جمال قد تلف اكثرها وانهك باقيها التعب والجوع . هذا وكان المهدي بعد ان عاد الوابوران عن الخرطوم قد اصدر امره للنجومي فحشد جيشه في كرري وزحف في ٨ فبراير قاصداً الانكليز في القبـة وكان في المتمة نحو ٢٠٠٠ من الدراويش ومعهم مدفعان ومن الف الى الف وخمسمائة بندقية. فلهذه الاسباب

كلما رأى الجنرال بلر وجوب اخلاء القبـة والعودة الى ابي طليح فكتب في ذلك الى اللورد ولسلي ثاني يوم وصوله (١٢ فبراير) وشرع فعلاً في تنفيذ رأيه.

وكان اللورد ولسلي لمـا أتاه تلغراف حكومته في ٧ فبراير مصرحاً له بعزمها على سحق المهدي وأقرّ على فتح بربر قد أرسل امراً الى الجنرال بلر في ١٠ فبراير ليفتح المتمة عنوة ويتقدم الى بربر فيتحد مع جيش النيل على فتحها فوصله الامر في ١٣ فبراير أي بعـد شروعه في اخلاء القبة فلم يكفّ عن اخلائها بل اعاد للورد ولسلي الاسباب التي حملته على الاخلاء . وفي ذلك اليوم ارسل جميع الجرحى والمرضى وفيهم الجنرال ستيورت الى الجكدول . وفي فجر اليوم التـالي ١٤ فبراير لحق بهم بنفسه مع باقي القوة (١٧٠٠ مقاتل) بعد ان عطل الوابورين الباقيين ورمى بالمثقلات في النيل وقد ترك بعض الخيام منصوبة والأنوار موقدة فيها ليوهم اهل المتمة انه لم يزل محتلاً القبة . ولكن الدراويش دروا بخروج حملة الجرحى فلحقوها في الطريق فقتلوا منهـا رجلين وجرحوا ستة ودروا ايضاً بخروج الجنرال بلر فلحقه بعض فرسانهم فرأوه من بعيد وعادوا الى المتمة وجـدّ بلر السير حتى وصل آبار ابي طليح صباح ١٥ فبراير فمكث في انتظار الامر. اما الجرحى فوصلوها في ١٤ فبراير فاستراحوا قليلاً وواصلوا السير الى الجكدول وكان الجنرال ستيورت قـد قضى مدة في النزاع بسبب جرحه فمات في الطريق بين ابي طليح والجكدول في ١٧ فبراير فحملوا جثته الى الجكدول ودفنوها هناك وذلك في ١٨ منه وكانت حكومته قد رقته الى رتبة ماجور جنرال فوصلته البشرى الى القبة ولكنه لم يتهنأ بها وكان رحمه الله قائداً حازماً شهماً كريم الخلق فاشتد اسف الجميع عليه .

وأما الجنرال بلر فلم يلبث ان رأى ان ماء الآبار لا تكفي عساكره فأرسل قسماً كبيراً منهم الى الجكدول وذلك في ١٦ فبراير . وفي هذه الأثناء وصل النجومي الى القبـة وأرسل مقدمة جيشه لمطاردة الجنرال بلر فوصلت الآبار مساء اليوم المذكور فنزلت على أكمة تجاه الآبار وشرعت في اطلاق الرصاص على الجنرال بلر ودامت على ذلك الليل كله . وفي صباح اليوم التـالي خرج

اليهم بعض العساكر وطردوهم عن الأكمة وكانت خسارة العساكر في اليومين من القتلى ٤ ضباط و ٣ عساكر ومن الجرحى ٢٣ عسكرياً . وأمـــا جيش النجومي فلم يصل أبا طليح حتى ظهر٢٣ يناير فرأى الجنرال بلر ان لا قبل له بمصادمته فلما أمسى ردم الآبار وخرج بجميع عساكره الى الجكدول وقـــد ترك نار المعسكر موقدة ليوهم النجومي انه لم يزل بائتاً فيه ولحقه بعض فرسان النجومي في اليوم التـالي فأدركوه الظهر فأطلقوا عليهم بنادقهم وعادوا الى حيث أتوا فاستمر السير حتى وصل الجكدول ظهر ٢٦ فبراير بعد عناء شديد.

هذا وكان اللوردولسلي لما عزم على فتح بربر قد ولّج الجنرال وود اخلاء نقط الصحراء بعد ذهاب الجنرال بلر من القبة فخرج من كورتي في ١٥ فبراير ومعه اللفتنت ونجت (سردار الجيش المصري وحاكم السودان العـام الآن) أركان حربه فلما وصلا الجكدول حتى كان الجنرال بلر قـد أخلى القبة كما مرّ فبقيا في الجكدول وساعداه على اخـلاء ابي طليح . وفي ١٨ فبراير وصل اللورد ولسلي كتاب الجنرال بلر بالاسباب التي حملته على اخلاء القبـة فصدقه وأقرّ على حشد جيش الصحراء في مروي والحاقـه بجيش النيل لفتح بربر ولكنه لم يلبث ان رأى هذا الرأي ايضاً لا يمكن تنفيذه لقلة الجمال وصعوبة الشلالات في الطريق من جهة ولسوء الحالة التي صار اليها جيش الصحراء من جهة اخرى . فعـدل عن فتح بربر في هذا الفصل وأقرّ على جمع الجيش كله بين الشلال الثالث والرابع أي بين الحفير وابي دوم الى الخريف التالي فيزحف على بربر والخرطوم بقوة مضاعفة وعزم جديد . وفي ٢٠ فبراير أصدر امره الى جيش النيل بالرجوع الى ابي دوم كما سيجيء والى الجنرال بلر والجنرال وود بالرجوع بجيش الصحراء الى كورتي . فخرج الجنرال بلر من الجكدول في ٢٧ فبراير وبقي الجنرال وود واللفتنت ونجت اركان حربه فيها حتى أتما اخلاء النقط كلها على احسن اسلوب ولم يرجعـا الى كورتي حتى ١٤ مارس ورجع آخر الجيش في ١٦ مارس سنة ١٨٨٥ . وقـد عانى جيش الصحراء مشاقّ كثيرة من العطش والحر والعري. ومما زاد هذه المشاق عناء قلة الركائب اذ لم

يكن للجيش واسطة للنقل إلا الجمال التي فني أكثرها كما مرّ حتى كنت ترى جثثها منتشرة في الطريق من القبة الى كورتي وما بقي من الجمال تقرحت ظهورها حتى اضطر العساكر كافة ومعظم الضباط الى المشي وقد بليت أحذية العساكر وتقرحت أرجلهم من الحفا .

هذا وقد احضر الجنرال بلر معه من القبة نصحي باشا وخشم الموس بك (الذي رقي بعد ذلك الى رتبة باشا) ورجالهما الذين حضروا بوابورات غوردون الاربعة . وكان معهم في الوابورات بريد من غوردون فيه يوميته من ١٠ سبتمبر أي من يوم سفر الكولونيل ستيورت من الخرطوم الى ١٤ ديسمبر سنة ١٨٨٤ فطبعت في كتـاب خاص . وفيها كتاب الى قومندان الجنود الانكليزية وعدة كتب خصوصية بينها كتاب بتاريخ ١٤ ديسمبر الى الماجور وطسن من ضباط الجيش المصري يقول فيه انه يتوقع شراً عظيماً في المدينة بعد عشرة ايام . وايضاً ورقة صغيرة مكتوب عليها ما ترجمته :

« الخرطوم بخير ويمكنهـا الاقامة على الحصار سنين . غوردون في ٢٩ ديسمبر ١٨٨٤ » . وكان قد وصل رسول من غوردون (بطريق المتمة) الى مروي في ٣٠ ديسمبر سنة ١٨٨٤ ومعه ورقة صغيرة بقـدر طابع البريد مكتوب على وجـه منها ما ترجمته : « الخرطوم بخير في ١٤ ديسمبر سنة ١٨٨٤ . غوردون » وعلى الوجه الآخر ختم غوردون .

جيش النيل وواقعة كربكان في ١٠ فبراير سنة ١٨٨٥: تقدم ان الجنرال أرلي تولى قيادة جيش النيل لفتح بربر فشرع في حشد الجيش في الحامداب في رأس الشلال الرابع فخرج اول الجيش من كورتي بالمراكب في ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٨٤ ووصل آخره في الحامداب في ٢٣ يناير سنة ١٨٨٥ وعنـده من المؤونة ١٠٠ جراية لكل عسكري . وفي صباح اليوم التـالي زحف الجنرال أرل بالجيش براً وبحراً فسار المشاة بالمراكب في النيـل . وصحبه ٣٠٠ من عساكر دنقلة بقيادة البكباشي احمد افندي سليمان يرافقهم جودت بك وكيل

المدير (على ان يكون مديراً لبلاد المناصير بعد فتحها) والكولونيل كولفل ضابط المخابرات فساروا عن يمين النيل لحماية يسار المراكب وسار هو ببـــاقي جيشه من الفرسان والطوبجية عن يسار النيل حماية يمين المراكب .

هذا وكان محمدالخير لما علم بجيش النيل أمر موسى ابا حجل كبير الرباطاب وسليمان ود قمر كبير المناصير فجمعا نحو ١٠٠٠ مقاتل من اهلها ونزلا في حلة برتي على الحد بين مديريتي دنقلة وبربر . ثم بعد رجوع ابن اخيه عبد الماجد الكيكلك من ابي طليح أرسله الى برتي بنحو ٢٠٠ مقاتل من اهل بربر على ان يكون رئيساً عاماً على الجيش كله . وكان الجنرال أرل عالمـــاً بنزول الدراويش في برتي فسار بجيشه حتى وصل غمرة على ٧ اميال منهم . ولـما رأى الدراويش ان لا قبل لهم بمقاومة الجيش في برتي تقهقروا الى جبل كربكان وذلك في ٣٠ يناير فتقدم الجنرال أرل واحتلها في ١ فبراير ببعض العساكر ومكث في انتظار باقي الجيش . قيل وهنا وقع الخلاف بين امراء الدراويش فأراد عبـد الماجد ان يتقهقروا امام الجيش رويداً فيضيقوا عليه في الطريق ويناوشوه القتال الى ان يصلوا بربر فينضموا الى اخوانهم فيها ويحاربوه هناك فأبى موسى ابو حجل وسليمان ود قمر هذا الرأي لأن فيه خراب بلادهما وأصرّا على الثبات في كربكان فتركهما عبد الماجد اذ ذاك وعمل برأيه . وفي ٥ فبراير وصل الجنرال أرل تلغراف من اللورد ولسلي يخبره بسقوط الخرطوم ويأمره بالبقـاء حيث هو منتظراً الامر . وفي ٨ فبراير وصله كتاب بتاريخ ٧ منه باستطراد السير واتباع الخطة التي رسمها له قبلا حتى متى وصل قرب بربر يوافيه جيش الصحراء اليها فيتحدان معاً على فتحها فأمر اذ ذاك عساكر دنقلة فعبروا النيل الى برتي فتركهم فيها وسار بالجيش براً وبحراً تتقدمه الكشافة حتى قرب من جبل كربكان فعاد الكشافة وقالوا ان الدراويش قد نزلوا في الجبل المذكور وقطعوا طريق الجيش . أما جبل كربكان فجبل حصين على النيل يعلو ٣٠٠ قدم عن سطح الارض ويمتد مسافة ٦٠٠ يرد الى جهة الصحراء وبينه وبين النيل مضيق لا يزيـــد عن ٢٠٠ يرد وفي فم المضيق اربع آكام

صخرية متجاورة في صف واحد تختلف في الارتفاع بين ٥٠ و ٨٠ قدماً اولها على ضفة النيل وطريق المارة بينها وبين الأكمة الثانية. فلما عاد الكشافة بخبر الدراويش أقام الجنرال أرل زريبة متينة على جيشه وذهب بنفسه لاستطلاع مركز الدراويش فوجدهم قـد احتلوا الأكمتين المتوسطتين من الآكام الاربـع والطرف الغربي من الجبل وأقاموا امامهم متاريس من الحجـــارة تقيهم شر الرصاص فتحتم على الجنرال أرل محاربتهم ليفتح طريقاً للجيش . وكانت قوة جيشه اذ ذاك ١٠٤٢ من العساكر الانكليزية و ٥٦ ضابطاً انكليزياً وبطارية بمدفعين من الطوبجية المصرية وبلوك من الهجانـة المصرية ومعهم الدكتور خليل افندي خير الله من الاطباء السوريين في الجيش المصري .

فلما كان صباح ١٠ فبراير استعد للهجوم فترك بلوكاً من العساكر في الزريبة لحماية المراكب وأمتعة الجيش وجعل بلوكين من العساكر الانكليزية والطوبجية المصرية بين الزريبة والآكام الاربع وعلى مرمى القنبلة من الآكام وأمر الهجانة المصرية فوقفوا على مرمى الرصاص من الدراويش الذين على جبل كربكان لمنعهم من الفرار وجعل ٣ بلوكات من العساكر في جزيرة كربكان تجاه الآكام وسار هو بباقي القوة فدار في الصحراء حول جبل كربكان حتى أتاه من الوراء فأرسل فرقة من جيشه لمهاجمـة الدراويش الذين في أعلاه وتقدم هو بمن بقي لمهاجمة الدراويش الذين على الآكام وهكذا أحاط بالدراويش الذين على الجبل والآكام من الجهات الاربـع وحصرهم في الوسط ثم أمر العساكر ففتحوا أفواه البنادق والمدافع من كل الجهات ففتكوا بالدراويش فتكاً ذريعاً وأخذ المهاجمون للآكام يتقدمون رويداً مقتحمين رصاص الدراويش بقلوب لا تهاب الموت حتى اختلطوا بهم وقتلوهم بالسنج ورمى بعض الدراويش بأنفسهم في النيـــل تخلصاً من القتل فتصيد العساكر أكثرهم بالرصاص وتنقّت الآكام منهم فوقف الجنرال أرل في ساحة بين الأكمتين المتوسطتين وأمر عساكره بالانتظام صفوفاً فيهـا وهو على ١٠ امتار من كوخ صغير قد التجأ اليه بعض الدراويش وهو لا يدري فنادى به صف ضابط وقال « في هذا الكوخ نفر من الدراويش وقـد رموا

واحداً منا الآن بالرصاص » فأمر باحراق الكوخ وتقدم هو بنفسه نحوه وكان الجنرال بركنبري بجانبه فصاح به « الحذر يا سيدي فان الكوخ ملآن من العدو » وما أتم كلامه حتى خرج من الكوخ رصاصة فأصابت الجنرال أرل في رأسه فقضت عليه في الحال وكان رحمه الله قائداً مدبراً شجاعاً فعم الاسف عليه .

وتولى الجنرال بركنبري قيادة العساكر مكانه وكان الدراويش الذين على جبل كربكان لا يزالون يقاتلون فأرسل الجنرال بركنبري مدداً لمقاتليهم فاقتحموا الدراويش في الجبل ونكلوا فيهم وفرّ من سلم منهم الى جهة السلامات فطاردتهم الفرسان الى مسافة بعيدة . وقد دامت الواقعة اربع ساعات ونصف ساعة وقتل فيها من الدراويش نحو ٨٠٠ رجل وفيهم الامير موسى ولد حجل . وأما خسارة الانكليز فكانت ٣ ضباط و ٧ عساكر قتلى و ٤ ضباط و ٤٣ عسكرياً جرحى .

ومن اشتهر في هذه الواقعة من الضباط الانكليز العظام بالبسالة والاقدام الكولونيل جرين قومندان العساكر الاسكوتلندية والكولونيل بتلر . أما الكولونيل جرين فقد بلغني انه لما رأى تحصن الدراويش على الأكمة التي جُعل في صددها ورأى ان لا حيلة له في قهرهم إلا بالمخاطرة والهجوم استل سيفه ونادى بجنده « اتبعوني يا رجالي اتبعوني » ثم أعمل بشاكلة جواده المهماز واقتحم النيران ورجاله تتبعه كالأسود حتى وصل الى أعلى الاكمة وقتل الدراويش عن آخرهم . وقد كوفىء على ذلك بعد الحملة بترقيته الى رتبة ماجور جنرال وجعل قومندان العساكر الانكليزية في اسوان فمكث هناك سنتين. وقد كان من حظي الخدمة في مركز قومندانيته كل هذه المدة. وكان معه اركان حربه الماجور ككوتش (الجنرال ككوتش الآن صاحب حصار كمبرلي في حرب الترنسفال الحديثة) الذي اشتهر ايضاً في جيش النيل بالدربة والاقدام كما اشتهر بين أقرانه بالذكاء والنبل وشرف الخصال .

وقد غنم الانكليز أمتعة الدراويش وأوراقهم فوجدوا بينها كتاباً من محمد

الخير الى عبد الماجد الكيلك بتاريخ ١٣ ربيع الثاني ١٢٠٣ هـ ٣٠ يناير ١٨٨٥ م وفيه ان قد وصله كتاب من الخليفة عبدالله يوم تاريخه يخبره بسقوط الخرطوم وقتل غوردون .

وكتب الجنرال بركنبري خبر الواقعة الى اللوردولسلي فكتب اليه بتاريخ ١٢ فبراير يأمره بالتقدم الى بربر ويسأله متى يصلها ليخبر قومندان القبة حتى يوافيه اليها فأجاب الجنرال بركنبري انه لا يستطيع تعيين الوقت بالدقة لأن أمامه شلالات لا يعرفها وعدواً لا يعلم حركاته وفي ظنه انه لا يصلها قبل ١٣ مارس .

وفي ١٣ فبراير استطرد السير براً وبحراً حتى وصل السلامات في ١٧ منه فأحرق منزل سليمان ود قمر الذي غدر بالكولونيل ستيورت وأحرق منازل اهله وسواقيهم ونخيلهم . ثم تقدم بالجيش حتى وصل تجاه هبّة في صباح ٢٠ فبراير فرأى النيل عندها سهل العبور فعبره لأن ابا حمد وبربر المراد احتلالها هما عن يمينه وكان معه ٨٧٠ من الجمال والخيل وستة مدافع فعبر بهم وذلك في ١٣ ١/٢ ساعة ثم ذهب الى قرية هبة والجزيرة التي غرق عندها وابور عباس وفتش لعله يجد شيئاً من آثار الكولونيل ستيورت فما وجد إلا بعض اوراق الزيارة باسمه وأقمصة ملطخة بالدم فأحرق القرية كلها وفيها بيت الفقيه عثمان المتقدم ذكره . وفي ٢٢ فبراير استطرد السير بالجيش براً وبحراً حتى أتى عصر اليوم التالي حلة الخلّة بين الرباطاب والمناصير على نحو ٣٠ ميلاً من أبي حمد و ١٥ ميلاً من هبة .

وفي صباح ٢٤ فبراير أتاه رسول بتلغراف من اللوردولسلي بتاريخ ٢٠ منه يقول فيه : « اني عدلت عن فتح بربر الى الخريف الآتي فقف عن السير الى ابي حمد ولكن احرق ودمّر البلاد البلاد التي اشترك اهلها في قتل الكولونيل ستيورت وعد بالجيش الى مروي إلا اذا امامك عدوٌ فاقهره قبل عودتك واذا لم يصلك هذا التلغراف قبل وصولك الى ابي حمد او وصلك وكنت قريباً منها بحيث لا يبقى عليك إلا احتلالها فاحتلها وارسل للحملة في كورسكو

لتوافيك اليها » . فانقلب الجنرال بركنبري راجعاً بالجيش ظهر ٢٤ منه وفي اليوم التالي مرّ بهبة فأتم خراب بيوتها وسواقيها وعاد الى مروي فعبر النيل الى ابي دوم صنم . ثم تقدم بمعظم القوة الى كورتي فوصلها في ٨ مارس سنة ١٨٨٥ وقد قاست عساكره في الشلالات وسفر البر من العناء ما لا يوصف وفقد ستة مراكب و ٣ رجال .

معسكر الصيف في دنقلة : ولما تمّ رجوع العساكر من ساحة الحرب أقرّهم اللورد ولسلي على يسار النيل بين الشلال الثالث والرابع في الحفير ودنقلة والخندق وابي قسّ والكرّد والدّبة والحتّاني وامبقول وكورتي وابي دوم . وقد وصل هذه النقط بعضها ببعض وصلاً متيناً بحيث لو هاجم العدو نقطة منها أمكن سائر النقط الاسراع الى نجدتها. وبنى للعساكر منازل من الطوب النيء وسقفها بالقش والجريد على اسلوب صحي يخفف وطأة الحرّ وجلب لهم عنكريبات ينامون عليها وألعاباً يتسلون بها . وأوصى معامل بلاده فصنعوا له ٣٠٠ قارب و ١١ وابوراً محمول الواحد منها من ٣٠ : ٥٠ طناً استعداداً للحملة المنوية .

رجوع الحملة الانكليزية النيلية : وبعد ان أقرّ العساكر في أماكنهم رجع الى القاهرة فوصلها في ١١ ابريل . وقد رجعت معه اليها . ورجع معه زهراب باشا (وكيل نظارة الحربية الآن) الذي صحبه من مصر أركان حرب فأحبه وامتدح كفاءته فمنحته الحكومة الانكليزية نيشان القديسين جورج وميخائيل مع لقب سر » .

وأراد اللورد ولسلي ان يجعل القاهرة مركزاً له مدة الصيف لأنها متوسطة بين دنقلة وسواكن ولكن أتاه تلغراف من وكيل نظارة الحربية بلندن في ١٣ ابريل بما مؤداه : « ان علاقاتنا الخارجية (يشير الى علاقاتهم مع روسيا على حدود الافغان) ربما اضطرتنا الى العدول عن استرجاع الخرطوم في الخريف التالي وطلب اليه اتخاذ افضل الطرق لارجاع العساكر الى مصر » . وفي ٢١

ابريل أقرّ مجلس النواب رسمياً على العدول عن استرجاع الخرطوم وكان ذلك ضد رأي اللورد ولسلي فحذّر حكومته من نتائج هذا القرار وقال : اذا رحلنا عن دنقلة اليوم احتلها المهدي في الغد وتقدم طالباً مصر فتضطر الى حشد جيش عظيم على الحدود فلم يُسمع له . وفي اواخر ابريل ذهب الى سواكن فكشف حالها وعاد الى مصر. وفي ١١ مايو اصدر أمره الى العساكر بالخروج من دنقلة وكان في النقط الحربية اذ ذاك ٦٨٢٥ من العساكر الانكليزية بينهم ٤٢١ عسكرياً في الاسبيتالية . وكان الجنرال وود قد عاد الى القاهرة مريضاً فتولى الجنرال دورمر قومندان العساكر في دنقلة امر ترحيلهم . وكان في دنقلة ايضاً ٥٠٧ من العساكر النظامية المصرية و ٦٧٣ من الباشبوزق و ٥٠ موظفاً ملكياً و ٩٤٠٠ من الاغراب والوطنيين الذين أحبوا المهاجرة مع الجيش فولج امر ترحيلهم بالماجور ترنر من ضباط المخابرات الكرام . فما أخلت العساكر الانكليزية النقط الجنوبية الى دنقلة حتى سقطت وزارة غلادستون رئيس حزب الاحرار وتولى الوزارة اللورد سلسبري رئيس حزب المحافظين فأمّل اللورد ولسلي ان الوزارة الجديدة تعود الى رأي الزحف على المهدي فأرسل تلغرافاً الى دنقلة بالتوقف عن الرحيل ولكن الوزارة الجديدة بعد إعادة النظر في الامر أيّدت قرار الوزارة القديمة وارسلت بذلك تلغرافاً الى اللورد ولسلي في ١ يونيو ودعته الى لندن للنظر معه في حماية الحدود المصرية فأرسل امره الى الجنرال بركنبري الذي كان قائد الجنود في دنقلة اذ ذاك باستطراد الرحيل فقام آخر الجند من دنقلة شمالاً في ١٥ يونيو سنة ١٨٨٥ فوصلوا كوشه في ٢١ منه . وسلم الجنرال بركنبري قيادة العساكر الى الجنرال غرنفل الذي سمي قومنداناً على جيش الحدود بلقب ماجور جنرال محلي وبذلك انحلت الحملة النيلية الانكليزية .

اما الجيش المصري فقد تقدم انه جُعل في خط الاتصال بين الشلال الاول والثالث في اصوان وكورسكو وحلفا وجاي وسرس وسمنه وامبقول وتنجور وعكه وعكاشه ودال ومفركة وكوشة وعبري وابي صاري ودلقو وخيبر وابي

فاطمة . فساعد على ترحيل الجيش الانكليزي والذخائر والمؤن وخـدم في الشلالات خصوصاً احسن خدمة حتى ان المراكب لما وصلت شلال دال منعها التيار من المرور فحملتها العساكر المصرية من رأس الشلال الى قدمه مسافة ٣ أميال في البر . ولم يتعدّ شلال حنك منهم الا نفر قليل فرافق بعضهم جيش الصحراء وهم : الملازم اول السيد افندي ماجد (ميرالاي الآن) ومعه ١٨ نفر من الطوبجية فرافقوا جيش الصحراء وحضروا واقعة ابي طليح . والملازم ثاني مرسي افندي فهمي (بكباشي الآن) والملازم ثاني ابراهيم افندي صادق (بكباشي الآن) ومعهم ٤٠ عسكرياً من المشاة فخدموا مع حملة الجمال . ورافق بعضهم جيش النيل وهم : اليوزباشي حسن افندي رضوان . (لواء باشا الآن) والملازم ثاني محمد افندي محمود (ميرالاي الآن) والملازم اول احمد افندي حافظ (قائمقام الآن) واليوزباشي محمد افندي حامد ومعهم بطارية من الطوبجية فيها ١٥٠ رجلاً و ٦ مدافع ، وبلوك هجانة فيه ١٠٠ رجل و ٤ ضباط و ١٨ رجلاً من الفرسان . وبقي بعضهم مع اللورد ولسلي في كورتي وهم : اليوزباشي اسماعيل افندي همت (بكباشي الآن) وقسم من الفرسان والملازم ثاني موسى افندي حموده (صاغ الآن) وبعض المشاة . فعاد الكل مع الانكليز الى الحدود المصرية .

ومن رافق هذه الحملة من الموظفين السوريين فامتازوا فيها بحسن الخدمة ولا يزالون في خدمة الجيش الى الآن : ملحم بك شكور سكرتير الجنرال غرنفل والآن سكرتير عربي السردار ، وسليمان افندي ناصيف سكرتير قومندان عموم السواري والآن سليمان بك رئيس قلم في رئاسة الجيش المصري ، وشاهين افندي جرجس مترجم مدير المهمات والآن شاهين بك سكرتير عربي السردار ، والدكتور سليم موصلي والآن الميرالاي موصلي بك من كبار أطباء الجيش ، وشاكر افندي الخوري مترجم صراف الحملة العام والآن شاكر بك مترجم جيش الاحتلال العام . ومنهم المستر ادوارد فنديك نجل الدكتور فنديك

الشهير سكرتير قلم المخابرات ، والاستاذ جبر ضومط ، ونجيب افندي ابكاريوس وكثيرون غيرهم ممن تركوا خدمة الجيش .

ومن الموظفين المصريين الملكيين الذين امتازوا في هذه الحملة ولا يزالون في خدمة الجيش المصري الى الآن : نخله افندي تادرس مترجم تشهيلات الجيش الانكليزي والآن وكيل قلم في ادارة سكرتير مالي السودان . وابراهيم افندي زيدان مترجم قومندانية حلفا والآن في رئاسة الجيش بمصر . وعبد الباقي افندي صالح كاتب بالنزلات والآن في ادارة سكرتير مالي الحربية . وغبريال افندي جرجس كاتب وصراف السردارية والآن في قومندانية حلفا . ويعقوب افندي صبري كاتب الاورطة التاسعة السودانية والآن في ادارة التعيينات . ومحمد افندي محمد كاتب عموم السواري والآن في ادارة سكرتير مالي الحربية . وحبيب افندي بطرس مترجم تشهيلات الجيش الانكليزي والآن في ادارة الطوبجية بالقلعة . وبشارة افندي حنا مترجم في بوسطة الجيش والآن في ادارة المهمات بالقلعة . وروفائيل افندي جرجس كاتب العربان المتحابة بكورسكو والآن كاتب وصراف قومندانية اسوان . وعبدالله افندي ميخائيل مترجم السواري الانكليزي والآن مترجم في قومندانية شندي . والسيد افندي حسين كاتب في السردارية والآن كاتب في القرعة العسكرية .

ومنهم احمد افندي حلمي مترجم رئاسة الوابورات والآن في شركة التلغرافات الشرقية الانكليزية بالسويس . ومحمد افندي شيخون باشكاتب الاورطة الرابعة . ومكارم افندي ضيف باشكاتب الاورطة السادسة وكلاهما الآن من ارباب المعاشات وكثيرون غيرهم ممن تركوا خدمة الجيش او توفاهم الله.

وبعد انحلال الحملة النيلية استقال السر افلن وود فسمي الجنرال غرنفل سرداراً للجيش المصري مكانه وسمي الجنرال بتلر قائداً للعساكر الانكليزية على الحدود فجعل كوشه آخر الحدود المصرية وبنى فيها طابية وبنى طابية في مفركة وأخرى في عكاشة واستمر العمل في سكة حديد عكاشة الى ان تمت في ٧ اوغسطوس سنة ١٨٨٥ .

أقارب المهدي بدنقلة : وكان قلم المخابرات بعد ان استقرّ العساكر في منازل الصيف قد التفت الى أقارب المهدي بدنقلة فقبض على جماعة منهم وهم محمد عبد القادر وشريف ساتي علي ومحمد ابراهيم وأحمد النجيب وحاج شريف محمد نور وحاج شريف محمود وعبد القادر عبد الكريم وسألهم ان يكتبوا الى المهدي كتاباً يسألونه اطلاق الاوربيين وغيرهم من رجال الحكومة الذين في أسره فديةً لهم فكتبوا اليه بذلك . فكتب المهدي الى الجيش كتاباً هذا نصه بعد البسملة :

« وبعد فمن العبد المعتصم بالله محمد المهدي بن عبد الله الى وكيل اللورد ولسلي وكافة عساكره. اعلموا ان الله تعالى قادر قاهر لا يخفاه شيء في الارض ولا في السماء واذا أراد شيئاً قال له كن فيكون وهو مالك الملك ذو الجلال والاكرام ولما اظهرني لتأييد دين الاسلام أيدني بملائكته وجنوده وأوليائه وبقذف الرعب في قلوب أعدائي ووعدني بالنصر عليهم وبملك جميع الارض ولا يثبت لقتالي انس ولا جن وقد كنت قبل ذلك رجلاً ضعيفاً فأيدني الله من عنده وأظهر أمري وأهلك من كذّبني من أعداء الله الترك وغيرهم ولا يخفى عليكم ما حصل على جرادتهم التي أعدّوها بالاسلحة والجباخين ووجهوها لقتالي من القتل والأسر والاحراق بالنار لمن قتل بسيفي وقد رأيتم امتلاكي لحصونهم في السودان وتحققتم ما صار اليه أمري من القوة بالله والمنعة ولا زال يزداد الى ان يتكامل لي ملك جميع الارض باذن الله تعالى. وحيث فهمتم ذلك فأنيبوا الى الله يا عباد الله وأجيبوا داعيه فاني ادعوكم الى الايمان بالله ورسوله والتسليم بأمر المهدية أسلموا تسلموا يؤتكم الله أجركم مرتين ويا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فانكم ان أسلمتم وأنبتم الى ربكم تكونوا من اخواننا في الله لكم ما لنا وعليكم ما علينا ونحفظ دماءكم وأموالكم وعروضكم وتنالوا من الله يوم القيامة الذي لا ريب فيه كل خير تؤملونه فان هذه الدنيا لا بد من زوالها وانما الدار آخرة فهلموا اليها فانها دار القرار ومسكن الاخيار.

وان ضربتم عن نصحنا هذا صفحاً وبقيتم على اختيار كفركم فاعلموا انه يحل بكم من النكال والوبال ما حلّ بمن قبلكم كهكس وغوردون ولن تغن عنكم عددكم من الله شيئاً وستعلمون غداً من الكذّاب هذا . ولكن بعلمكم انه قد ورد لنا خطاب من الجماعة الذين أسرتموهم في شأن القسيسين والافرنج والاقباط يلتمسون فيه ارسالهم اليكم لكي تفرجوا عنهم وما ذلك إلا من باب حيلكم ومخادعاتكم التي لا تجدي نفعاً . وحيث ان هؤلاء الجماعة الذين هنا قد أنابوا الى الله ودخلوا في دين الاسلام فقد صاروا أكرم الى الله وأعز عندنا من الجماعة الذين معكم وأسرتموهم ولا نرضى لهم الرجوع ليد الكفر بعد دين الاسلام كما أنهم لا يرضون ذلك ولا يمكن ارسالهم اليكم ولو قطّعتم الذين بطرفكم ارباً ارباً وجميع ما أجريتموه عليهم فهو أقل من جزائهم وأنتم وهم اسوة عندنا ولا فرق فيما بينكم ولا بد من وقوعكم الجميع في قبضتنا باذن الله وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ان لم تنيبوا اليه وهذا انذاري اليكم والسلام على من اتبع الهدى » .

قيل وقد جمع أنصاره في الجامع فقرأ لهم الكتاب والجواب عليه وسألهم إن كان الجواب مناسباً فصاحوا كلهم باستحسانه فطواه وأرسله، وأرسل معه كتاباً آخر الى أقاربه يقول لهم فيه : « كنا سابقاً كاتبناكم بالهجرة الينا فما هاجرتم ورغبتم في مناولة الجيف ومن أراد ان يأخذ من الجيف فليصبر على عض الكلاب وسيجعل الله كيدهم في نحرهم وسيكونون قريباً في قبضتنا » .

وكان الانكليز قد أخذوا أقارب المهدي معهم الى حلفا ، فلما وقفوا على ما قال لهم المهدي أطلقوا أقاربه وأكرموهم وأعطوهم رواحل وأزواداً وكسوة وأرجعوهم الى بلادهم . فأتوا الى المهدي في ام درمان واعتذروا لعدم مجيئهم اليه من قبل بسبب الجيش فقبلهم .

حكومة دنقلة الجديدة : هذا وقبل ان أخلت الحكومة دنقلة رأت ان تنظم فيها حكومة وطنية موقتة لكي لا تتركها فوضى لا حاكم لها فاختارت لها حكاماً من سلالة ملوكها الذين حكموها قبل الفتح المصري فجعلت محمداً ولد

كنيش الشايقي من البلل حاكماً على مروى ، وسعيد محمد فرح من بقايا الفونج حاكماً على الدبة ، والملك طنبلا حاكماً على ارقو ودنقلة، والشيخ محجوباً كبير المرغنية في بلاد سكوت حاكماً على سكوت والمحس . ولكن ما برح الانكليز دنقلة حتى احتلها الدراويش غنيمة باردة كما سيجيء وبادت الحكومة الجديدة من نفسها . اما محمد ولد كنيش فانه حال خروج الانكليز من بلاده ذهب الى ام درمان فبايع المهدي وعاد مع الجيش الذي أتى لاحتلال دنقلة وحارب معهم في واقعة جنس كما سيجيء . وانضم اليهم ايضاً سعيد محمد فرح حاكم الدبة . وأما الملك طنبل فانه ما وصل الدراويش دنقلة حتى فرّ بعائلته ولجأ بالجيش فأنزله في الشلال . وأما الشيخ محجوب فانه بقي في بلدته كويكة الى ان أتى الدراويش فقبضوا عليه وأرسلوه الى الخليفة في ام درمان فأساء معاملته فمات قهراً . وقد أسروا ابنه الشيخ ادريس معه فبقي الى ان ارسله الخليفة في حملة النجومي ففرّ منها وأعلم الحكومة بحاله بعد واقعة طوشكى فأرسلت اليه جمالاً فنجا بعائلة ابيه وأهله الى حلفا ، وبقي فيها خادماً للجيش الى ان عادت الحكومة الى السودان فعاد الى بلاده .

الفصل العشرون

عودٌ الى

عثمان دقنة والثورة في سواكن سنة ١٨٨٥ م

حملة جرام الثانية الى سواكن سنة ١٨٨٥ م :

تقدم ان اللورد ولسلي لما أقرّ على فتح بربر بعد سقوط الخرطوم سأل حكومته ارسال قوة انكليزية الى سواكن لسحق عثمان دقنة ومدّ سكة حديدية في طريق سواكن الى بربر فأجابته الحكومة الى طلبه . وفي ١٧ فبراير سنة ١٨٨٥ م عقدت اتفاقاً مع احدى شركاتها لمدّ سكة الحديد المطلوبة وفي ٢٠ منه ندبت الجنرال جراهم قائد الحملة الانكليزية الاولى الى سواكن ليقود حملة ثانية اليها فوصلها في ١٤ مارس سنة ١٨٨٥ وكان في سواكن اذ ذاك من الجنود ١٠٩ ضباط و ٢٥٢٦ عسكرياً و ١٨٧ جواداً و ٢٨ بغلاً و ٣٣٩ جملاً و ٦٣ تابعاً فأخذت الحكومة الانكليزية تحشد اليها الجنود من مصر والهند واستراليا وبلاد الانكليز حتى اجتمع فيها تحت قيادة الجنرال جراهم ١٣٠٠٠ مقاتل من فرسان ومشاة وطوبجية ومعهم كل ما يلزمهم من الجمال والدواب والمؤن والذخائر .

وجاء مع الجيش جماعة من العارفين بركوب البالون ومعهم بالون ولكن الرياح العالية المتغلبة في تلك الجهات منعت استعماله . وكان عثمان دقنة لما بلغه خبر قدوم الجنرال جراهم الى سواكن بعث اليه بكتاب يتهدّده فكتب اليه الجنرال جراهم ينصحه بالتسليم ويحذره من التمادي في الطغيان فلم يجبه .

واقعة تل هشيم في ٢٠ مارس سنة ١٨٨٥ : وكان عثمان دقنة اذ ذاك معسكراً في تماي ومعه نحو ٥٠٠٠ مقاتل وله جيش آخر فيه نحو ٣٠٠٠ مقاتل في تل هشيم على ٧ اميال من سواكن وجيش صغير في طوكر فاقرّ الجنرال جراهم على سحق قوة هشيم قبل التقدم على تماي . ففي صباح ١٩ مارس خرج ببعض الفرسان والمشاة فاستكشف التل وعاد الى المعسكر. وفي اليوم التالي ٢٠ مارس تقدم الى هشيم بالقوة الآتية من الفرسان والمشاة الهندية والانكليزية وهي : ٣٠٦ ضباط و ٧٨٨٦ عسكرياً و ٣١٧ تابعاً و ١١٩٢ حصاناً و ٢١٠ بغال و ٧٣٥ جملاً و ١٠ مدافع فوصل تل هشيم الساعة ٩ ١/٢ صباحاً وأحاط بالدراويش من كل جانب وأشعل فيهم النار فثبتوا له ودامت الحرب نحو خمس ساعات ثم انهزم العرب الى عثمان دقنة بعد خسارة جسيمة واحتل جراهم التل فجعل فيه نقطة عسكرية ورجع الى سواكن وكانت خسارته في ذلك اليوم من القتلى ضابط و ٨ عساكر ومن الجرحى ٣ ضباط و ٣٦ عسكرياً .

واقعة توفرك في ٢٢ مارس سنة ١٨٨٥ : ثم أخذ يتهيأ للزحف على عثمان دقنة في تماي فرأى ان يؤسس نقطة اتصالية في الطريق بين سواكن وتماي يجعلها مخزناً للزاد والماء اللازم للحملة . فلما كان ٢٢ مارس أخرج سرية من جيشه ببعض المدافع بقيادة الكولونيل مكنيل وأمره بأن يسير في طريق تماي حتى يكون على ثمانية اميال من سواكن فيبني ثلاث زرائب واحدة تسع ٢٠٠٠ جمل وواحدة عن يمينها وأخرى عن يسارها تسع كل منها اورطة من العساكر وبعد اتمام الزرائب يجعل فيها المدافع وقسماً من العساكر ثم يرجع

بالقسم فيبني زريبة في وسط الطريق بين تلك الزرائب وسواكن فيجعل فيها أورطة ويرسل الباقي الى سواكن .

وكان عثمان دقنة عالماً باستعداد الانكليز لمهاجمته فلما رأى سرية الكولونيل مكنيل ظن ان الجيش كله زاحف عليه فدق طبل الحرب وخرج لملاقاته بجميع انصاره . فلما سار الكولونيل مكنيل خمسة أميال عن سواكن حتى رأى ان تقدمه الى الميل الثامن فيه خطر وان جهد ما تسمح له الاحتياطات العسكرية التقدم الى الميل السادس وكان يمد خط التلغراف من سواكن ليبقى متصلاً بها فأرسل تلغرافاً الى الجنرال جراهم يعلمه بالحالة ويبين له رأيه فصدقه فسار الى الميل السادس ونزل في خور يعرف باسم « توفرك » وباشر بناء الزرائب ولكن قبل ان يتمها جاءت الطلائع وأخبرته بقرب الدراويش فأمر بترك العمل في الحال والاستعداد للدفاع وما انتظم العساكر في أماكنهم حتى كان الدراويش قد صاروا على مرمى الرصاص ففتحوا عليهم أفواه البنادق والمدافع فلم يبلوا بها بل هاجموا مستقتلين حتى اختلطوا بالعساكر وأعملوا بهم السيف والحربة فدافع الجنود أحسن دفاع حتى قيل ان احد الجنود الهندية تصدى له ثلاثة من الدراويش فضرب كلا منهم ضربة بالسيف فقتله . وكان هجوم الدراويش الساعة ٣ إلا عشر دقائق فانهزموا الساعة ٣ والدقيقة ١٠ وكانت خسارة الدراويش لا تقل عن ١٥٠٠ قتيل وأما خسارة الجيش فمن العساكر الانكليزية ٦٤ قتيلا و ٦٣ جريحاً ومن العساكر الهندية ٥٣ قتيلا و ٩٢ جريحاً وفقد ١٠ ومن الاتباع ٣٣ قتيلا و ١٩ جريحاً وفقد ١٢٤ ومن الجمال ٥٠١ فقتلوا او فقدوا .

حملة الجنرال جراهم على تماي ٣ ابريل سنة ١٨٨٥ : وبعد انهزام الدراويش عاد الكولونيل مكنيل الى بناء الزرائب فأتمها الساعة ٧ مساء فشرع الجنرال جراهم في حشد العساكر اليها فاجتمع عنده في ٢ ابريل ٨١٧٥ رجلا فسار بهم الساعة ١٠ من الصباح قاصداً عثمان دقنة فوصل تل تسلهاي على مقربة من تماي الساعة ٤ ١/٢ بعد الظهر فرأى انه اذا هاجم يدخل الليل قبل انتهاء

الواقعة فزرب زريبة بجانب التل وبات فيها ليلته فجاء رجـــال عثمان ليلا ورموه بالرصاص فأصابوا بعض رجـــاله ولكن العساكر فتحت عليهم أفواه المدافع فصدتهم الى تماي .

وفي الساعة ٨ من صباح اليوم التـــالي ٣ ابريل ترك الجنرال جراهم بعض العساكر في الزريبة لحفظ أمتعة الحملة وسار بمعظم العساكر الى تماي فوجدها خالية فاحتلها الساعة ٩ صباحاً . وكان عثمان دقنة لما رأى كثرة الجيش أخلي معسكر تماي وتحصن في الجبـــال المجاورة لها وأرسل كشافة يناوشون الجيش ويتقهقرون أمامه الى الجبال التي تحصن بها ليبعدهم عن الماء ويحاربهم وهو في مركز حصين فسار الجنرال جراهم وراءهم مسافة قريبــــة ولما لم يرَ عثمان ورأى ان توغله في الصحراء يعرضه الى العطش رجع الى تماي فأحرق معسكر عثمان وعاد بالجيش الى سواكن في اليوم التالي .

مدّ سكة الحديد : وبعـــد ان أتمّ جراهم الغرض الاول من الحملة وهو تشتيت شمل عثمان دقنه التفت الى الغرض الثاني وهو مدّ سكة الحديد الى بربر . وكان العمال قد بدأوا بمد الخط منذ ١٣ مارس ولكنهم لم يتقدموا فيه كثيراً بل أعدّوا المعدات اللازمة لمدّه بعد انتهاء القتال . فلما انتهى القتال اجتهدوا في مد الخط حتى أتموه الى اوتاوا في ٣٠ ابريل سنة ١٨٨٥ .

وأراد الجنرال جراهم عقـــد معاهدة مع القبائل التي على طريق سكة الحديد لحماية السكة فأشرطت عليه ألا تترك الجنود سواكن كما تركتها في السنة التي قبلها بل تبقى فيها لحمايتهم من عثمان دقنة فأرسل الجنرال جراهم تلغرافاً الى حكومته في ٢١ ابريل سنة ١٨٨٥ بهذا الشأن وكان اللورد ولسلي اذ ذاك قد عدل عن فتح بربر كما مرّ فلم يعد امر مد السكة الحديد وترك العساكر في حرّ سواكن من الضروري فأجابته حكومته بعدم عقدها .

خروج العساكر الانكليزية من سواكن : ثم أقرّت الحكومة على اخراج عساكرها من دنقلة كما مرّ فأمرت الجنرال جراهم بالخروج من سواكن فعاد

منها بحملته الى مصر في ١٧ مايو سنة ١٨٨٥ وهجر سكة الحديد . وكان أهل بادية سواكن لما رأوا ما حلّ بهم من النكال والضيق في محاربة الانكليز تفرقوا الى بلادهم ومراعيهم ولم يبقَ مع عثمان دقنة الا نفر قليل . فلما خرج الانكليز من سواكن عاد عثمان دقنة الى حثّ الأهلين على الجهـــاد مبيّناً لهم ان الانكليز انما فرّوا من سطوة المهدية وان لا قدرة لهم على مناوأتها فالتف حوله جمع كبير من الهدندوة والامارار وعاد الى تمـــاي (تسلهاي) وبقي فيها الى ان سلمت كسلا للدراويش فذهب اليها بأمر الخليفة كما سيجيء . ولنتقـــدم الآن لنرى ما كان من امر كسلا وسائر الحاميات التي الى جنوبي السودان الشرقي على حدود الحبشة وفي جملتها بلاد مصوع وهرر وذلك منـــذ بدء الثورة .

الفصل الحادي والعشرون

في

تاريخ الثورة في بلاد كسّلا

وفيه ذكر حاميات كسلا والقضارف والقلابات والجيرة واميديب وسنهيت
مع ذكر محافظي مصوع وهرر

تسليم القضارف الاثنين في ٢٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٠١ ﻫ ٢١ ابريل سنة ١٨٨٤ م

الامير الحسين عبد الواحد: تقدم ان المهدي سمى عثمان دقنة سنة ١٨٨٣ عاملاً عاماً على بـــلاد البجة بين البحر الاحمر والاتبرة أي على بلاد سواكن والقسم الاكبر من كسلا فبقيت البلاد الواقعة بين النيل والاتبرة فسمى الحسين عبدالواحد من ذرية الشيخ الطيب عاملاً عليها وأصحبه ثلاثة امراء وهم الطاهر محمد تاتاي وعبد الله الطريفي الجعلي والسمّاني ود احمد . وكان الحسين عارفاً أحوال تلك الجهات لأنـــه كان مقيماً قرب « تبارك الله » على الاتبرة فسار برفاقه حتى أتى القلعة أرانج من مراكز الشكرية فجمع اهلها وزحف بهم على مركز القضارف وكان فيه محمد باشا اغا ابو زبد من سواري المغاربة على ٢٠٠ رجل ومدفعين ومعه محمد بك بن عوض الكريم باشا ابو سن مأموراً من قبل

الخرطوم وجماعة من التجار والمتسببين من أروام ووطنيين فأرسل اليهم كتاباً أتى به من عند المهدي وكتاباً من عنده يدعوهم الى الطاعة ويعدهم بحفظ مالهم وسلامتهم فاجتمعوا وتشاوروا في الأمر فأقروا على التسليم وسلموا الاثنين في ٢١ ابريل سنة ١٨٨٤ فأخذ الحسين جميع ما في مخازن الحكومة من الاسلحة والذخائر ثم جمع بضائع التجار وأدخلها بيت ماله خلافاً للوعد وأجبر النصارى على الاسلام وقطع خط التلغراف بين القضارف والقلابات .

حصار القلابات وانقاذها سنة ٤ : ١٨٨٥ :

ثم تقدم لأخـــذ القلابات فمرّ بالتومات فوجـــد فيها محمود بك زايد شيخ الضباينة فسلمه كتاباً من المهدي باسمه فسلم اضطراراً . ودعا عرب الحمران في تلك الجهة الى الطاعة فسلم له قسم منهم بقيادة الشيخ عمر ود الكردي وعصاه القسم الآخر بقيادة الشيخ العجيل فحارب الدراويش في كسلا كما سيجيء . ثم تقدم الى « الصوفي » فوجد فيها الجعليين سلالة الملك نمر الذين تقـــدم انهم صالحوا الحكومة ايام موسى باشا سنة ١٨٨٦ وعليهم الامير خالد فانضموا اليه. واستطرد السير الى دوكة فسلم له الشيخ عجيب ود النيسي وكيل الشيخ محمود ود زايد . وكان في دوكة ٢٠ عسكرياً عليهم محمود اغا محمد التركي فسلموا له اضطراراً . وانضم اليه ايضاً اولاد الشيخ مريود من مشايخ العراكيين وبذلك دانت له معظم القبائل العربية التي بين الاتبرة والنيل .

وكان للحكومة في تلك الجهـــة حاميتان : المتمة عاصمة القلابات والجيرة فاهتم بأخذهما . أما المتمة فكان فيها اذ ذاك صالح بك ادريس المار ذكره ومعه من خاصة اهله التكارنة ٤٠٠ فارس ١٠٠٠ راجل عدا اهل الدار الذين بلغ عددهم ٢٠٠٠٠ نسمة . وفي المتمة طابيـــة حصينة فيها ٤٠٠ من العساكر الباشبوزق النصف فرسان والنصف مشاة بقيادة السر سواري محمد بك السيد و ٢٠٠ من العساكر السودانية و ٤٥ من الطوبجية و ١٢ مدفعاً بقيادة الصاغ محمد افندي رياض والكل بقيادة البكباشي محمد افندي سرّي. فكتب الحسين

عبد الواحد من دوكة الى صالح بك يدعوه الى التسليم فأجابه في غرة رجب سنة ١٣٠١ هـ ٢٧ ابريل سنة ١٨٨٤ م مخادعاً له : « اني انا وأهلي التكارنة مسلمون للمهدي ولكن العساكر الذين بيدهم الحامية غير مسلمين فامهلوني ريثما أدبر الحيلة للخلاص منهم». وكان الأوان اذ ذاك أوان الأمطار وبلاد القلابات مغمورة بالمياه ولا يمكن الحسين عبد الواحد مهاجمتهم قبل انقطاع الامطار فاستشار المهدي في شأنهم فقبل المهلة . ثم سار الى الجيرة كما سيجيء فوجدها حصينة والامطار تمنعه من حصرها فعاد الى دوكة في صدد القلابات .

وقد اطلعت على كتاب منه الى الشايقية الذين في حامية القلابات بتاريخ ٣٠ القعدة سنة ١٣٠١ هـ ٢١ سبتمبر سنة ١٨٨٤ يقول فيه :

« ... وانكم ممن يظنّ بالصداقة والاخلاص عندنا دون غيركم بسبب ما بلغنا من اخباركم بأنكم مسلمون ومتبعون الامام المهدي ... وأيضاً يا أحبابنا لا تقطعوا عنا مادة الجواب ... والمأمول المقابلة معنا في أي مكان والسلام».

وكتب صالح بك الى غوردون في الخرطوم بتاريخ ٢٢ سبتمبر يعلمه بحاله بما مفاده : « اننا محاطون بالأعداء من كل الجهات : الشكرية والضباينة والجعليين من جهة دوكة والحمدة ... من جهة الرهد ولكننا لا نزال ثابتين على الحصار ولا نحسب لهم حساباً فان الله ناصرنا والامل الجواب على كتابنا مع الرسول ونحن لم نكتب لكم قبل الآن لعدم الأمان في الطريق وقد قتل الضباينة اثنين من رسلنا في طريق التمرقو (جبل بين دوكة والتومات) ومع ذلك فلا زلنا نواصل مركز كسلا بالمكاتبات » .

واقعة مريود في ١٧ نوفمبر سنة ١٨٨٤ : وبقي الحسين محاصراً في دوكة حتى انقطعت الامطار فكتب الى صالح بك يطالبه بالوعد فعاد صالح بك الى المخادعة فسأله مهلة ٣ أشهر اخرى وبعث له بسرّية وقنطارين بناً وحمل عسل وخمسماية ريال هدية فتيقن الحسين اذ ذاك انه يخادعه فصمم على حربه فقسم جيشه قسمين قسماً ذهب به لحصر الجيرة وقسماً أرسله لقتال القلابات فهاجم رجال هذا القسم سرف سعيد فنهبوها وتقدموا لحصر المتمة فأمر صالح بك

أخاه عثمان فخرج عليهم بستماية من أهله وصحبه السر سواري محمد بك السيد بفرسانه فالتقوهم عند تل بين سرف سعيد ومريود يوم الجمعة في ١٨ محرم سنة ١٣٠٢ هـ ٧ نوفمبر سنة ١٨٨٤ م فارتقوا الى التل وصبوا عليهم ناراً حامية حتى هزموهم الى الحسين وقتلوا منهم نحو ٧٠٠ رجل وفيهم اثنان من اولاد الشيخ مريود قيل ان أكبرهما دفع الله كان حاملاً الراية فلما قتل حملها أخوه محمد فقتل فحملتها امها فقتلت وقتل من العساكر ٦٢ رجلاً .

النور فقرا وواقعة قدّبي في ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٨٤ : هذا وكان من جملة انصار المهدي في تلك الجهة رجل من الجبرته (مسلمي الحبشة) يُدعى النور فقرا هاجر الى المهـدي في كردوفان فبايعه وعاد منه اميراً فجمع نفراً من الضباينة ونزل بهم على قدبي من حلالات التكارنة ففزع اهل قدبي الى صالح بك فجهز الف فارس و ٢٠٠ رجل من اهله ومتطوعي الشايقية واستنصر الأحباش فأتاه الراس دهنشوم فتته بنحو ٨٠٠٠ مقاتل وزحف الجيشان في ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٨٤ على ود فقرا في قدّبي فقتلا من جيشه ٧٠٠ رجل وزيادة وفيهم الجبّار وعمر واحمد ود عايس من مشايخ الضباينة وجرحاه جرحاً بالغاً ففرّ بمن بقي من جيشه الى الحسين في حصار الجيرة . وعاد الاحباش الى بلادهم بالاسلاب والغنائم وقد قتل منهم نحو ٧٠ رجلا وعاد صالح بك الى المتمة ولم يقتل من جيشه احد .

واقعة زُرقه في ١٠ ديسمبر سنة ١٨٨٤ : وبعد هذه الواقعة بقليل نزل الحمدة بقيادة الرضى ابي ريش وبنى حسين البقارة بقيادة محمد ماجوق على زرقه من ارض القلابات فقتلوا وسبوا وغنموا فخرج عليهم صالح بك بسرية من جيشه فالتقاهم في خور القنا قرب زرقه في ٢١ صفر سنة ١٣٠١ هـ ١٠ ديسمبر سنة ١٨٨٤ وأوقع فيهم واقعة شديدة وقتل وأسر منهم خلقاً كثيراً وكان في جملة القتلى الرضي شيخ الحمدة وفي جملة الاسرى امرأة الرضي و ١٤٠ نفساً .

وبقي الحسين على حصر الجيرة حتى وقع الخلاف بينه وبين امرائه فرفعوا

الأمر الى المهدي فخطأ الحسين وبعث في طلبه في ٧ ربيع الاول سنة ١٣٠٢هـ ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٨٤ م . وكان عند المهدي في الرهد رجل من تكارنة القلابات يسمى محمد ود ارباب فأرسله اميراً على القلابات فأتى اليها وحشد الرجال وحصرها من الشمال الغربي وبقي الطريفي على حصار الجيرة .

انقاذ حامية القلابات في ٢٨ فبراير سنة ١٨٨٥ : هذا وكانت الحكومة في مصر عالمة بحصر الحاميات على حدود الحبشة ولكن لم يمكنها انقاذها فطلبت الى الملك يوحنا ملك الحبشة ان يساعدها على ذلك فتعطيه المراكز نفسها بما فيها من الاسلحة والذخائر . وقد أرسلت اليه الاميرال هيوت وماسون بك منذ شهر يونيو سنة ١٨٨٤ للمفاوضة معه رسمياً في هذا الشأن فأقرّ الملك يوحنا على انقاذ القلابات اولاً وندب لهذه المهمة قائده دهنشوم فنته . وندب لها الكولونيل تشرمسيد باشا (محافظ سواحل البحر الاحمر في ذلك العهد كما مرّ) القائمقام سعدبك رفعت (ميرالاي الآن) بالنيابة عن الحكومة المصرية فخرج من مصوع بخمسة وعشرين من الباشبوزق في ١٨ اوغسطوس سنة ١٨٨٤ وأتى الملك يوحنا في عدوة فصدر أمر الملك الى دهنشوم فسار معه بخمسة عشر الف مقاتل الى القلابات فوصلاها في ١٢ فبراير سنة ١٨٨٥ فوجد الدراويش قد حصروها من جهة السودان بامارة محمد ود ارباب كما مرّ فطرداهم الى سرف سعيد وجعلا الجيش بينهم وبين المتمة ثم شرعا في اخلاء الحامية فبلغ عدد المهاجرين من عساكر الحكومة ورجال صالح بك نحو ٣٠٠٠ نفساً فسلم سعد بك الاسلحة والذخائر الى دهنشوم وخرجا بهم كلهم من المتمة السبت في ٢٨ فبراير سنة ١٨٨٥ وأتيا قندر فتأخر فيها صالح بك ورجاله وذهب سعد بك مع دهنشوم الى الملك يوحنا فشكر له سعيه فأهدى اليه الملك بغلتين بسرجين من الفضة ودرقة مذهبة وأنعم عليه بلقب دجازماتش وأصحبه كتاباً الى جميع البلاد التي في طريق مصوع لمساعدته على السفر فأخذ سعد بك العساكر من قندر وسار الى مصوع بخفر من الاحباش فأكرمه اهل البلاد التي مرّ بها اعظم اكرام وقدموا له كل ما لزمه من الزاد

والماء والركائب حتى وصل مصوع في آخر مايو سنة ١٨٨٥ فسمح لأكثر الباشبوزق بالبقاء في مصوع وأخذ الباقي وهم ٦٧٠ نفساً الى مصر وفيهم السر سواري محمد بك السيد. وتقدم محمد ود ارباب بجيشه من سرف سعيد واحتل القلابات يوم الخميس في ٥ مارس سنة ١٨٨٥ أي بعد خروج الحامية منها بخمسة ايام وسنعود الى ذكره .

حصار الجيرة وانقاذها سنة ٤ : ١٨٨٥ :

الجيرة طابية حصينة على حدود الحبشة وهي مبنية بالحجر الصلب على أكمة مرتفعة على بحر ستيت وكان فيها في بدء الثورة اورطة من العساكر السودانية بقيادة البكباشي فضل الله افندي حبيب فذهب ٥ بلوكات منها نجدة الى سنار كما مرّ وبقي فيها ٣ بلوكات وبطارية طوبجية و ٣ مدافع ثم ذهب نصف بلوك الى كسلا لجلب رواتب العساكر وكساويهم فحُصروا فيها ولم يرجعوا كما سيجيء وحُصر الباقي في الطابية منذ مايو سنة ١٨٨٤ . وقد اطلعت على كتاب أرسله البكباشي فضل الله قومندان الطابية الى حاكم مصوع بتاريخ ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٨٤ يصف فيه حصاره بما مفاده : « جاءنا الشقي الحسين عبد الواحد منذ مدة وحصرنا بثمانية آلاف رجل ودعانا الى التسليم فرددناه بالخيبة وقد سبقت فأخبرتكم بذلك وسألتكم المدد وكنت ارجو ان يصلني في شهر فخاب رجائي والآن ارسل اليّ المهدي كتاباً يدعوني به الى التسليم لأحد امرائه القريبين كعبدالله احمد ابي سن او محمود زايد وأرسل اليّ امراؤه ايضاً عدة تحارير بهذا المعنى وأنا لا أزال اخادعهم واطاولهم حتى يأتيني المدد . وفي ٧ نوفمبر عاد الحسين عبد الواحد ومعه الطاهر ود تاتاي وعبد الله ود الطريفي وتيمي احمد ومحمود ود زايد وأعادوا طلب التسليم مني فسألتهم فرصة شهر آملا وصول المدد وأرسلت رسلا الى معسكرهم لأتجسس أحوالهم فعاد الرسل بكتاب منهم يقولون فيه : « اذا لم تسلموا بالرضى نأخذكم بالرغم » فلم نجيبهم وعقدنا النية على الثبات الى ان تأتينا النجدة وهم الآن

يهاجموننا كل يوم وقـــد انقسموا فريقين فريقاً لقتالنا وفريقاً لحصرنا وأصبح مركزنا من أحرج المراكز . نعم ان الطابية حصينة ولكن العساكر قليلون كما تعلمون لذلك ارجو ان تسرعوا بارسال المدد ولو اورطتين تأتيان بطريق الحمران.

انقاذ الجيرة في ٨ يوليو سنة ١٨٨٥ : وكانت الحكومة تسعى مع الحبشة في انقاذ جميع الحاميات التي على حدود الحبشة كما مرّ فكتب اليه حاكم مصوع في الجواب : « ان الحبشة آتون لانقاذكم قريباً فاخلوا لهم الطابية وسلموهم الاسلحة والذخائر وهم يأتون بكم الى مصوع ». فأرسل فضل الله افندي الملازم ابراهيم افندي حزّين بكتاب الى الملك يوحنا في دبر تابور فجاءه جيش جرار بقيـادة دجاج تسمّى . وكان امراء الدراويش اذ ذاك في خلاف كما مرّ فلما رأوا الأحباش في عـدد عظيم تفرقوا ودخل الأحباش الجيرة في أوائل يوليو سنة ١٨٨٥ واستلموا ما كان فيها من الاسلحة والذخائر وكان فيها من الاسلحة: ٣٠٠ بندقية رامنتون و ٦٠٠ بندقية بالكبسول و ٣ مدافع وصاروخ . وفي ٢٥ رمضان سنة ١٣٠٢ هـ ٨ يوليو سنة ١٨٨٥ خرجوا بالحامية الى « غبطة » فأقام العساكر هناك سبعة أشهر بسبب الامطار وامتلاء الأنهر فلما انقطعت الامطار وانفتحت الطرق أتى مندوب من طرف ملك الأحباش فأخذهم الى مصوع فوصلوها في اوائل فبراير سنة ١٨٨٦ ومنها أرسلوا الى مصر .

تسليم مصوع للتليان في ٦ فبراير سنة ١٨٨٥ :

أما محافظة مصوع فانها سُلمت للتليان منذ ٦ فبراير سنة ١٨٨٥ وعادت حاميتها الى مصر .

اخلاء أميديب في ١٠ ابريل سنة ١٨٨٥ :

وأما أميديب فقـد كان فيها اورطة من العساكر بقيـادة الصاغ عبد الله افندي سالم و ١٠٠ رجل من الباشبوزق بقيادة حسن اغا التوم فعادت بطريق سنهيت الى مصوع فوصلتها في ١٠ ابريل سنة ١٨٨٥ .

اخلاء سنهيت في ١٩ ابريل سنة ١٨٨٥ :

وأما سنهيت فقد كان فيها اورطتان من العساكر وفيها خسرو باشا قومندان شرق السودان فسلم سنهيت للحبشة وخرج منها الى مصوع فوصلها في ١٩ ابريل سنة ١٨٨٥ .

وقد كان في وسع هذين الحاميتين الرجوع الى مصوع قبل ذلك بزمان لأن الثورة لم تمتد اليها ولكن ظُنّ ان بقاءهما يساعد على اخلاء كسلا فلما وُجد ان اخلاءها ورفع الحصار عنها يستلزمان تجريدة قوية أمرت الحكومة فرجعتا الى مصوع .

اخلاء هرر وزيلع وبربرة في ١٣ مايو سنة ١٨٨٥ :

ثم ان قرار الحكومة على اخـــلاء السودان لم يستثنِ محافظة هرر شرقي الحبشة لا سيما وان حفظها كان يستلزم نفقات جمـة ومشقات جسيمة فندبت لذلك رضوان باشا من الجيش المصري والماجور هنتر من الجيش الانكليزي في الهند. فخرج رضوان باشا من السويس في ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٤ ومعه ٥٠٠٠ لاخلاء المحافظة فوصل عدن في ٢٣ منه فوجد الماجور هنتر في انتظاره فذهب به في اليوم التـالي الى بربرة وقرأ لأهلها الامر العالي القاضي باخلائهـا ثم أتى زيلع فوضع الدراهم في خزينتها وأرسل في البريد كتاباً الى محافظ هرر يعلنه بحضوره وعاد الى بربرة فباع ما أمكن بيعه من أشياء الحكومة بالمزاد العلني ثم سلمها الى قنصل الانكليز فيهـا وسار منها في ١٢ اوكتوبر الى هرر ومعه اللفتنت بيتن الذي ناب عن الماجور هنتر وشرع في اخلاء الحامية فباع ما في المخازن الاميرية بالمزاد العمومي ونقد العساكر رواتبهم المتأخرة عن خمسة أشهر. وفي آخر اوكتوبر أرسل ١٠٠٠ رجل ثم في وسط نوفمبر ارسل ٢٧٠٠ نفس ودفـاتر الحكومة . وفي ١٣ نوفمبر حضر الماجور هنتر ومعه ٤٠ الف رُبيّة وشرع مع رضوان باشا في تنظيم حكومة وطنية للبلاد فبنيا طابية جعلا فيها

٣٠٠٠ رجل من السومال حامية وسلحاهم بالبنادق وعلماهم كيفية استعمالها وعاد الماجور هنتر الى زيلع فوصلها في ١٥ فبراير سنة ١٨٨٥. وبقي رضوان باشا فعقد مجلساً اجتمع فيه ٥٦ من مشايخ هرر وأعيانها وسألهم ان يختاروا من يولوه عليهم من سلالة الامراء الذين حكموهم قبل الاحتلال المصري فاختاروا عبد الله عبد الشكور . وفي ٢٥ ابريل قرأ رضوان باشا على الجمهور الأمر العالي القاضي باخلاء هرر وأعلن تولية عبد الله المذكور حاكماً عليها وأطلق ٢١ مدفعاً اشعاراً بذلك . وفي اليوم التالي أي ٢٥ ابريل خرج بباقي الحامية وهم ٦٥٠٠ رجل الى زيلع . وبقي اللفتنت بيتن في هرر لحماية بعض التجار الاوروبيين الى ١٣ مايو سنة ١٨٨٥ فسلّم مباني الحكومة وجنانها التي قدرت قيمتها بنحو ٧٤٠٠ جنيه الى الحاكم الجديد وعاد الى زيلع .

وبقيت هرر بيد عبد الشكور لا ينازعه فيها منازع الى بدء سنة ١٨٨٧م فزحف عليه منيلك ملك شوه (ملك الحبشة الآن) وأخذها منه عنوة فاستعمل عليها الراس مكونن وعاد الى شوه ولا تزال بيده الى اليوم. وهكذا صارت هرر الى الأحباش وزيلع وبربرة الى الانكليز . ولم يبقَ في السودان الشرقي إلا حامية كسلا التي اضطرت الى التسليم بعد حصار طويل كما سيجيء.

حصار حامية كسلا

سنة ٤ : ١٨٨٥ م

بدء الثورة في كسلا في اوغسطوس سنة ١٨٨٣ : ما حرّك اهل كسلا ساكناً للثورة حتى قدم عثمان دقنة الى بلاد سواكن في اوغسطوس سنة ١٨٨٣ ووزع عليهم كتب المهدي فقام الكيلاب الهدندوة على جباره اغا الشايقي ونفر من الباشبوزق كانوا في بلادهم يشترون الابل لحملة هكس فحاربوهم مستبسلين وتملصوا منهم وأمّوا مركز كسلا حتى وصلوا بلاد السمر ندواب الهدندوة

فرحبوا بهم وأظهروا أسفهم من فعل الكيلاب وأمنوهم حتى ناموا عندهم . وكان الكيلاب لا يزالون يطاردونهم فوصلوا ليلاً واتحدوا مع السمر ندواب فانقضوا عليهم عند صلاة الصبح فقتلوهم وغنموا سلاحهم .

وكان في كسلا اذ ذاك راشد باشا كال قومندان عساكر شرق السودان فخرج بألف وخمسمائة رجل من نظامية وباشبوزق ونزل على السمرندواب فقتلهم عن آخرهم وتقدم لتأديب الكيلاب فهاج لذلك غضب محمد بك موسى ناظر الهدندوة ورفع الأمر تلغرافياً للجناب العالي بمصر وقال ان فعل راشد باشا يهيج القبائل كافة فصدر أمره الى راشد باشا بالرجوع عن الكيلاب والعودة الى مصر وسمي محمد خسرو باشا قومنداناً على عساكر شرق السودان مكانه فاتخذ مركزه سنهيت .

مصطفى هدل سنة ١٨٨٤ : وهدأت بلاد كسلا بعد ذلك اربعة أشهر حتى انتشر خبر هلاك هكس وجيشه في شيكان فتحفز الأهلون للثورة وقام رجل يدعى مصطفى هدل قيل انه من الشرعاب الهدندوة وحرفته صنع أسورة العاج للنساء ومسكنه الدقا مركز بني عامر وكانت له علائق تجارية وودية مع عثمان دقنة من قبل الثورة فلما بلغه خبر قيام عثمان في سواكن ذهب اليه وبايعه باسم المهدي فكتب اليه بالامارة على كسلا وأمره بجمع الهدندوة ومحاصرة حاميتها حتى تخضع له فحمل كتاب عثمان وأتى الى فِلّك مركز الهدندوة العام فوجد فيه احمد موسى شيخ مشايخ الهدندوة وحوّا الحبشي وكيل محمد بك موسى ناظر الهدندوة فقرأ لهما كتاب عثمان دقنة ودعاهما للجهاد فلبيا الدعوة وجمعا له جيشاً عظيماً من اهلها فزحف به طالباً كسلا .

وكان في كسلا اذ ذاك اورطة من العساكر السودانية المنظمة ونفر من الطوبجية معهم ١٨ مدفعاً وصاروخين وبضعة ارادي باشبوزق وعلى الجميع فرج بك عزّاز التقلاوي وهو من الأبطال المعدودين والمدير على كسلا احمد بك عفت الشركسي المشهور بالحزم والعزم وجودة الرأي والكل في « استحكام » منيع بخندق وسور لها خمسة ابواب وتسعة أبراج ومعهم بداخل الاستحكام

نحو ٢٠٠٠ من التبع و ٢٠٠ من التجار و ٥٠٠ من اهل الزراعة . وكان في الخاتمية جنوبي كسلا السيد محمد عثمان المرغني شيخ الطريقة المرغنية في السودان ومعه نفر من أتباعه وقد كتب اليه المهدي يدعوه للقيام بنصرته فلم يجبه بل حذّر أنصاره من اتباعه فكان الوحيـــد من مشايخ الدين في السودان الذي قاوم المهدية الى النهاية وكان اعظم سند لحامية كسلا كما سيجيء .

واقعة الجمّام في ١٢ فبراير سنة ١٨٨٤ : فلما وصل مصطفى هدل الجمام على ٣ ساعات من كسلا كتب الى المدير يدعوه للتسليم فأجابه المدير « ارتدع عن غيك وفرّق القبائل الى أماكنها ولا تكن سبباً في سفك دماء المسلمين ». فردّ مصطفى هدل كتابه بقوله « دع عنك هـذا القول الهراء وسلم تسلم او استعد للحرب » . فخرج له اذ ذاك فرج بك عزاز بألف وخمسمائة مقاتل من نظامية وباشبوزق فالتقاه مصطفى هدل في ظاهر الجمام ودارت رحى الحرب بين الفريقين فدامت من الصبح الى ما بعد الظهر وقـد فتك الرصاص بأنصار مصطفى هدل فتكاً ذريعاً ولكنهم فازوا اخيراً لكثرة عددهم ودخلوا وسط العساكر فأعملوا فيهم السيف والحربة وقتلوا منهم ٤٥٠ رجلاً فغنموا أسلحتهم واضطر الباقين الى الفرار وذلـك يوم الثلاثاء في ١٤ ربيع آخر سنة ١٣٠١ هـ ١٢ فبراير سنة ١٨٨٤ م .

وكان الهدندوة يعتقدون ان من يقتل منهم في هذا الجهاد تحمله الحور العين الى الجنة كما وعدهم المهدي في كتبه فرأوا بعـد الواقعة رجلاً منهم قـد جرح جرحاً مميتاً وهو في حـال النزع فتجمعوا حوله وسألوه هل ترى الحور العين مقبلة لتحملك الى الجنة فصاح بلغته قائلاً « حورية كا كا حورية كا كا أي لا أرى الحور لا أرى الحور بل أرى ناراً توقد فيّ فارفقوا بأنفسكم واتركوا هذه الحرب وعودوا الى أهلكم » .

أما المدير فانه لمـا عاد العساكر منهزمين من الجمام تحقق الأمر وشرع في تقوية الاستحكام والاستعداد للدفاع فهدم حلالات الحلانقة والجعليين والشايقية والتكارنة خارج الخندق لينكشف ما حوله ثم عمق الخندق وجعل المدافع على

الأبراج التسعة وأغلق بابين من ابواب السور وهما باب القاش وباب رجب بك وصفّ العساكر على خط النار فوجدها غير كافية لحماية السور فجند ١١ اوردياً من المتطوعين وأرسل في طلب المدد من الحاميات الأخرى فأتاه ٢٠٠ رجـل من اميديب و ١٠٠ من سنهيت و ١٠٠ من القلابات وجـــاء ٢٥ رجل من الجيرة جاؤوا لأخذ رواتب العساكر فيها فحصروا معه كما مرّ. وأرسل السيد محمد عثمان الى القبائل التابعة له فجاءه : شكرية الاتبرة وعليهم الشيخ عمارة ولد حمد ابو سن والشيخ ابراهيم ولد قلبوس . وشكرية القاش المعروفون بالنوايـة وعليهم ولد الفحل . وبنو عامر وناظرهم الشيخ علي بك البخيت . والقادين جماعة الشيخ احمد حجاج . وبعض اهل سبدرات جماعـة الشيخ علي نورين . وقسم من الحمران شياخة عجيل الحمراني المشهور . والحلانقة بقيـادة عبد القادر بك محمد إيلة . وقد جاؤوه بخيلهم ورجلهم وآلات حربهم فكانوا نحو ١٠٠٠ فارس بالدروع واللبوس و ٧٠٠٠ راجـل . وأما مصطفى هدل فانه بعد واقعة الجمام زحف بجيوشه الى قلوسيت على نحو عشرة أميال شمالي كسلا وألقى الحصار على كسلا .

الحسن ود حاشي وبلال السمرندوابي : وهنال « أتاه الحسن ود حاشي » من سكان قوز رجب « وبلال السمرندوابي » وكلاهما من فقهاء الهدندوة ومع كل منهما كتاب من المهدي بالامارة على اهله .

عمارة ولد ضاوي وواقعة العشرة في مارس سنة ١٨٨٤ : ثم جاءه عمارة ود ضاوي من فقهاء البوادرة الشكرية ومعه ايضاً كتاب من المهدي بالامارة على من يتبعه وكان عمارة المذكور صاحب مكر ودهاء فاستمال اليه الحسن ود حاشي وبلال السمرندوابي المذكوران فسلخهما عن مصطفى هدل وزحف بهما من قلوسيت الى توكرف على نحو ساعة من حصن كسلا وهنـاك كتب كتاباً الى المدير في كسلا وكتاباً الى السيد محمـــد عثمان في الخاتمية يدعوهما للتسليم فبعثا ينصحانه بالعدول عمـا هو فيـه فلم يزدد إلا طغياناً وأرسل جماعة من

رجاله فقطعوا الطريق بين كسلا والختمية وقتلوا وخربوا . فتجرد له المدير وجرّه الى كمين على القاش بالقرب من جميزة العوض وجعله بين نارين فقتل نحو ألفين من رجاله وهزمه شر هزيمة الى قلوسيت وكانت الواقعة في شهر جمادي الاولى سنة ١٣٠١ هـ مارس سنة ١٨٨٤ م وقد سميت بواقعة العشرة لأنها وقعت عند شجرة كبيرة من العُشَر .

واقعة الفقيه عيسى : وكان في جيش عمارة المذكور فقيه من التكارنة الفلاتة يقال له الفقيه عيسى كان هذا متوطناً في كسلا قبل الثورة بخمسة وعشرين سنة وكان اهلها يعتقدون به الصلاح والتقوى وهو يكره السيد محمد عثمان فجاء بجيش من قلوسيت لأخذ الثأر فرأى بعض نساء خارجات من الختمية من زيارة السيد محمد عثمان المرغني الى الاتبرة فجردهنّ من حلاهنّ وسبى بعضهن وقطع آذان البعض الآخر وأنوفهنّ فرجع المشوهات الى السيد محمد عثمان شاكيات مولولات فلما رآهن في تلك الحالة هاج به الغيظ وصاح بأنصاره فضربوا طبول الحرب وزحفوا على الفقيه عيسى فالتقوه على القاش وأوقعوا به واقعة دموية فقتلوا خلقاً كثيراً من أنصاره وهزموه أقبح هزيمة واسترجعوا النساء المسبيات وعادوا بغنائم كثيرة .

هذا وكان مصطفى هدل قد اشتكى عمارة ولد ضاوي المذكور الى عثمان دقنة فكتب عثمان الى عمارة يأمره بالحضور اليه في الحال فخرج بحجة انه ذاهب الى عثمان فاختفى ولم يعلم احد مقرّه وقيل انه التجأ الى الحبشة .

باشريك السمرندوابي وواقعة تنبكياي في ١٩ يونيو سنة ١٨٨٤ :
وبعد ذهاب عمارة وقع الخلاف بين مصطفى هدل والحسن ود حاشي وبلال السمرندوابي في من يكون رئيس المجاهدين فقام فقيه من السمرندواب يسمى باشريك واغتنم الفرصة ودعا الناس لاتباعه فاتبعوه فزحف بهم الى توكرف بنية فتح الختمية وكان معه محمد ولد حامد ابن أخي موسى بك فخرج بالقسم الاكبر من الجيش وزحف على الختمية فنزل بجهة تنبكياي أي محل زرع

التنباك على القاش تجاه الختمية فالتقاه رجال السيد وقاتلوه حتى قتلوه مع الف رجل من أنصاره وهزموا الباقين الى توكرف وذلك يوم الخميس في ٢٤ شعبان سنة ١٣٠١ هـ ١٩ يونيو سنة ١٨٨٤ م .

وكان موسى بك ناظر الهدندوة قد فرّ من الاستحكام وانضم الى الدراويش في توكرف فلما سمع بقتل ابن اخيه ضرب نقارة الحرب في اليوم المذكور وأتى تنبكياي بجيش عظيم فخرج محمد عثمان بنفسه ليلا بجميع جيوشه واستعد لملاقاته . وفي صباح اليوم التالي حضر كتاب من موسى بك الى السيد محمد عثمان يدعوه للتسليم فأجابه «قرأت كتابك وفهمت خطابك فان أقمت في محلك الى الظهر ألحقتك بابن اخيك بعون الله ». وأرسل الى المدير في طلب المدد فبعث اليه بألف رجل وكانت فاطمة بنت الشيخ موسى زوجة محمد المقتول في الختمية وهي على عقيدة السيد محمد عثمان فلما رأت القوة في جانب السيد خافت على اخيها ان يلحق بزوجها فأرسلت اليه رسولاً سراً تخبره ان لا طاقة له على هذه الحرب وتلح عليه بالرجوع فرجع .

خروج السيد محمد عثمان من الختمية في ٣٠ يونيه سنة ١٨٨٤ : ورأى السيد محمد عثمان ان الخطب قد تفاقم الى حد لا يمكن ملافاته إلا اذا جاء المدد من مصر فلم يجيء المدد من مصر وخاف اذا بقي ان يقع في الأسر فيهان ويذل فقرّ رأيه على الخروج من الختمية فخرج في ٦ رمضان سنة ١٣٠١ هـ ٣٠ يونيو سنة ١٨٨٤ م قاصداً مصر فشيعه العربان الذين كانوا مجتمعين عليه الى الدقا وتفرقوا الى أماكنهم أما السيد فانه بقي في الدقا مدة ثم ذهب الى مصوع فمصر فأقام في مصر بضعة ايام ثم توفي الى رحمة ربه السبت في ١٠ ربيع الآخر ١٣٠٣ هـ ودفن في باب الوزير ومقامه مشهور .

السيد البكري وسور الختمية : وتولى الختمية بعد ذهابه ابن عمه السيد البكري ابن السيد جعفر المرغني ولم يبقَ معه إلا أخلاط من الدناقلة والجعليين والحلانقة والبجة . فبنى سوراً حول الختمية جعل بناءه أقساطاً على الأهالي

على كل جماعة قسطاً فاشتغلوا فيه ليلاً ونهاراً حتى أتموه على ارتفاع خمسة امتار في أقل من شهر وكان جداره من جهة الشرق الجبل لأن الخاتمية بلصقه .

واقعة سدّينة الاولى في ٣٠ يوليو سنة ١٨٨٤ : هذا وكان العصاة بعد الانخذال الذي لقوه برئاسة باشريك قد انصرفوا عنه ووقع الخلاف بين مصطفى هدل والحسن ود حاشي بشأن الرئاسة فذهب الحسن ود حاشي الى المهدي شاكياً فزحف مصطفى هدل على الخاتمية مصمماً على فتحها فنزل في سدّينة غرب القاش وكان قد علم بخروج محمد عثمان منها فكتب الى السيد البكري بالتسليم فطلب السيد البكري المدد من كسلا فجاءه الف رجل من جهادية وباشبوزق بقيادة الصاغ فرج افندي من ضباط مدد امديب ومعه من الرؤوس صالح بك البغدادي وعبد القادر بك محمد ايله الحلانقي فطردوا مصطفى هدل من سدّينة بعد ان نكلوا بجيشه تنكيلاً وعاد الى كسلا عند الغروب وذلك اول اربعاء في شوال ١٣٠١ هـ يوليو ١٨٨٤ م .

واقعة سدينة الثانية: وفي اليوم التالي ضرب مصطفى هدل نقارته وجمع شتات جيشه وعاد به الى الحرب فخرج له فرج بك عزاز بألف وخمسمائة مقاتل من كسلا مع فرسان السيد البكري من الخاتمية فضربه ضرباً شديداً وهزمه الى قلوسيت . ومن ذلك الوقت لم يعد مصطفى هدل ولا غيره من امراء الدراويش يجسر على مهاجمة كسلا او الخاتمية بل اقتصروا على غزو القبائل المتحابة وداموا على ذلك أشهراً .

قتل الميتكناب في اوغسطوس سنة ١٨٨٤: ففي اول القعدة سنة ١٣٠١هـ ٢٣ اوغسطوس سنة ١٨٨٤ م أرسل مصطفى هدل ابن عمه جمعة بسريّة من جيشه لتأديب الميتكناب الذين على الطريقة المرغنية وكانوا نحو الف رجل فقاتلوه مستبسلين وصدّوه بخسارة جسيمة فأرجعه مصطفى هدل بسرية أعظم فأطبق عليهم من كل جانب وقتلهم عن آخرهم حتى النساء والاولاد وغنم أموالهم وخرب ديارهم .

عوض الكريم كافوت: وفي هذه الأثناء قدم جعلي من مواليد التاكا يسمى عوض الكريم كافوت كان قد ذهب بتجارة الى شكا قبل الثورة فلما كانت الثورة انضم الى المهدي في كردوفان فأرسله اميراً على قومه الجعليين في التاكا وكان رجلاً شريراً ولأهله مهارة في فن الحرب فجمعهم وأخذ يغزو بهم الشكرية الذين على الاتبرة فقتل من رؤسائهم عوض الكريم دكين وأخاه احمد . وكان من عادة اهل كسلا الخروج من الاستحكام لجمع الحطب للوقود والعلف للبهائم فوقف لهم عوض الكريم بالمرصاد ومنعهم من الخروج .

سبدرات والسمرندواب: وفي أواخر القعدة سنة ١٣٠١ هـ أواسط سبتمبر سنة ١٨٨٤ م غزا علي نورين شيخ سبدرات بلاد السمرندواب فأصاب قطيعاً من الماشية فباعه في كسلا وعاد الى سبدرات فجمع باشريك السمرندوابي قومه وقصد سبدرات فكمن له علي نورين خارج البلدة ولما أطل خرج من الكمين وأوقع الفشل في قومه فقتل منهم نحو الف رجل وهزم الباقين ولكنه جرح جرحاً شديداً في وجهه . ولم يعد في امكانه استمرار القتال ولم يكن يشك في عودة السمرندوابي للأخذ بالثأر فكتب الى المدير يسأله المدد فأرسل اليه المدير ٢٥٠ رجلاً من جهادية وباشبوزق بقيادة اليوزباشي دياب اغا والصاري ابراهيم اغا البدوي فأقاموا حامية في سبدرات . ولم يلبث باشريك ان عاد اليها بجيش عظيم فهزم العساكر المحافظين عليها وقتل اهلها واحتلها. وأما علي نورين فقد حمله ابنه وفرّ به الى كسلا .

وكان السيد محمد عثمان لا يزال في الدقا فلما سمع بنكبة سبدرات كتب الى المدير يسأله ارسال جيش الى سبدرات في يوم معين وساعة معينة فيهاجم باشريك من الغرب وهو يوجه البخيت شيخ بني عامر فيهاجمه من الشرق في الميعاد المضروب. فخرج المدير بنفسه بألف وخمسمائة رجل من جهادية وباشبوزق ومعه من الرؤوس القائمقام فرج بك عزاز والسر سواري بشير اغا كمبال والسر سواري حسن اغا سليمان وكان علي نورين قد تعافى من جرحه فصحبه المدير ونزل بالجيش في خور ملاسي غرب سبدرات وعمل زريبة من الشجر ومكث

ينتظر قدوم الشيخ البخيت ولكن هـذا الشيخ لم يصل سبدرات حتى بادرها بالهجوم ولم يعلم المدير بقدومه وكان جيش باشريك أقوى من جيشه فهزمه شر هزيمة وانقلب على زريبة المدير يريد اختراقها ففتح عليه ناراً حامية فثبت ساعة خسر فيها الف رجل ولم يقتل من عساكر المدير إلا رجل واحـد . وانهزم باشريك الى فتهاي على عشرة أميال من سبدرات فتبعه علي نورين وبقية المشايخ المتحابة المرافقين للجيش فهزموه الى قلوسيت .

غزوة قلوسيت في ٥ يناير سنة ١٨٨٥ : واغتر المشايخ بالنصر الذي نالوه على الدراويش فزيّنوا للمدير ان يهاجموهم في ديمهم العام في قلوسيت فرضي بذلك. وفي يوم الاثنين في ١٧ ربيع الاول سنة ١٣٠٢هـ ٥ يناير سنة ١٨٨٥م جهز نحو ٢٠٠٠ رجل من جهادية وباشبوزق وعزم على الخروج للحرب بنفسه فزلّت رجله وهو نازل على سلم المديرية فوُثئت فسلم قيادة الجيش الى فرج بك عزاز فزحف به على قلوسيت . وكان مصطفى هدل قد بلغه عزم الجيش على مهاجمته فاستعد لملاقاته وكان عوض الكريم كافوت متغيباً في غزوة على النوايبة فبعث اليه يستعجله في الرجوع الى الديم فوصل قبـل وصول الجيش بقليل والتقى الجمعان عند الضحى في ظاهر ديم قلوسيت وهاجم العصاة بحزم وثبات مستقتلين فلم يكن إلا القليل حتى دخلوا وسط العساكر وأوقعوا فيهم الفشل فانهزموا والعصاة وراءهم تقتـل بهم طعناً بالرماح وضرباً بالسيوف الى جبـل مكرام شرقي كسلا . وقد قتل من العساكر وحدهم ٧٥٠ رجلا من نظاميـة وباشبوزق فيهم ١٧ ضابطاً وغنموا مدفعاً وأسلحة كثيرة .

وقويت نفوسهم لهذا النصر فتقدموا الى توكرف وحصروا كسلا والخاتمية معاً وذلك في ١٣ يناير سنة ١٨٨٥ . ومن ذلـك اليوم انحصر العساكر في استحكاماتهم فلم يعودوا يجسرون على الخروج منه قيد شبر .

صد باشريك عن الخاتمية: وكان السيد البكري قبل واقعة قلوسيت يحمي سور الخاتمية بنحو ٦٠٠ بندقية فلما نزل العصاة بتوكرف طلب المدد من المدير

فأرسل اليه صالح بك البغـدادي ومعه ٢٠٠ جهادي و ٣٠٠ من الباشبوزق والخطرية فحصّن بهم سور الخاتمية وما أتم استعداده حتى هاجمه باشريك السمر ندوابي فردّه خاسراً .

عودة الحسن حاشي الى كسلا : وفي ٢٠ جمادى الآخرة سنة ١٣٠٢ هـ ٦ ابريل سنة ١٨٨٥ م عاد الحسن حاشي الى كسلا ومعه منشور من المهـدي بالامارة على من يتبعه فتبعه معظم الجيش فزحف به في ١١ ابريل الى سدّينة وحصر كسلا والخاتمية معاً ومنع ما كان بينهما من الاتصال .

سقوط الخاتمية في ١٨ رجب
سنة ١٣٠٢ هـ مايو سنة ١٨٨٥ م

ثم كتب الى السيد البكري يقول «اني جئتك بكتاب من المهدي بتوليتك على مديرية التاكا وعلى جميع هذه الجيوش فتعال للمفاوضة في هـذا الشأن » فلم يركن السيد البكري اليه فبعث الى بلال السمرندوابي نظراً لسابق المودة بينهما فأتاه الى باب سور الخاتمية وأكد له صحة قول الحسن حاشي وعاهده اذا خرج الى معسكر العصاة ان يحميه من كل ضرر فاستشار السيد البكري المدير وخرج الى ديم العصاة مساء ١٧ رجب سنة ١٣٠٢ هـ ومعه ١٥٠ رجلا من جهادية وباشبوزق فرحّب به بلال وباشريك وبات ليلته عند بلال ولما أصبح يوم ١٨ رجب سنة ١٣٠٢ هـ ٣ مايو سنة ١٨٨٥ م اجتمع اليه الأمراء ما عدا مصطفى هدل فانـه بقي منفرداً بجيشه واشتد الجدال بين السيد البكري والامراء في شأن التسليم . وانهم لكذلك اذا بعوض الكريم كافوت قد انقض على خفراء السيد البكري فقتلهم عن آخرهم ثم انقلب على السيد البكري يريد قتله فرمى بلال السمرندوابي بنفسه عليه وحماه من القتل وكذلك فعل علي شنتير الجعلي وابراهيم حمد الشبودينابي فاحتمله عمارة ابو سن الى محل الامان فأتى مصوع فسواكن فمكة فمات فيها سنة ١٣٠٤هـ . وفي الوقت نفسه زحف مصطفى هدل بجيشه على الخاتمية فأخذها غنيمة باردة ثم جاء الحسن حاشي

بجيشه فاحتل الخاتمية وعاد مصطفى هدل الى توكرف فحصرا كسلا من الشمال والجنوب وضيقا عليها بعد ان هدّما قبة السيد حسن المرغني وجامعه .

مواصلة الحامية للحكومة : وكان المدير قبل الآن في اتصال دائم مع خسرو باشا قومندان عموم شرقي السودان في سنهيت فكتب اليه بعد واقعة الجمام يسأله المدد والنقود فبعث بالنقود يخفرها سعد بك رفعت بمئة رجل . ثم عاد المدير الى طلب النقود والمدد فأجابه عندي نقود ولكن ليس عندي خفراء لحمايتها في الطريق وقد سألت مصر تلغرافياً ارسال المدد فمتى حضر أرسله اليكم مع النقود .

وكان المحافظ على سواكن في هذا العهد تشرمسيد باشا كما مرّ فبعد ان فاوضه خسرو في شأن كسلا كتب الى المدير كتاباً آخر يقول « ان الحكومة ليس عندها مدد فتخيروا الرأي الذي ينجيكم من العصاة واذا أمكنكم فاتركوا المثقلات في مكانها وتعالوا خفافاً الى مصوع » فجمع المدير الضباط والتجار وتلا عليهم الكتاب فكتبوا في الجواب « ان كثرة عائلاتنا تمنعنا من الخروج بلا نجدة قوية ويلزمنا ٥٠٠٠ جمل وخفراء أقوياء لحفظنا في الطريق » فلم يجبهم بشيء . ولكنهم لم يهتموا في بادىء الامر لابطاء المدد لأنهم كانوا فائزين على العصاة فلما كانت واقعة قلوسيت وأصيبت الحامية بتلك الضربة الموجعة أرسل المدير عبد القادر كبير الحلانقة الى سنهيت يستعجل المدد والنقدية ويقول انه لم يبقَ للحامية سوى قوت شهرين وقد اشتد الحصر عليها حتى لم يعد يمكنها الخروج في طلب القوت . فأبلغ خسرو باشا الخبر الى تشرمسيد باشا بسواكن . وبعد ذلك بقليل وصلت حامية اميديب ومعها السيد محمد عثمان المرغني الى سنهيت واستطردت السير الى مصوع فصحبها عبدالقادر بك. وبعد قليل لحقتها حامية سنهيت كما مرّ . وانتظر المدير المدة التي كان يمكن لعبد القادر بك الرجوع بها فلما لم يرجع ولا ورد منه خبر ارسل اربعة جاويشية الى سنهيت ليعلموا ما الخبر فوجدوا خسرو قد أخلى سنهيت فلحقوه الى مصوع . وكانت الحكومة على ما علمت تفاوض ملك الحبشة بشأن انقاذ

الحاميات التي على الحدود فكتب الكولونيل تشرمسيد الى الملك يوحنا في ١١ ابريل سنة ١٨٨٥ يستحثه على التعجيل في ارسال المدد ويقول اذا لم تسرعوا في ارسال النجدة فالحامية لا بد من سقوطها وقد وعدوه بعشرة آلاف بندقية فأرسل الملك يوحنا امره الى الراس الولا لانقاذها لأن جهته موالية لكسلا فأبطأ في نجدتها .

وكتب خسرو الى المدير بعد المفاوضة مع تشرمسيد بما مفاده : « اعلم ان الخرطوم قد سقطت وانسلخ السودان عن مصر وغير متيسر للحكومة ارسال مدد اليكم من جندها ولكن المفاوضة جارية مع ملك الحبشة للاسراع في نجدتكم فاعقدوا مجلساً من أعيان المدينة وانظروا في أمر سلامتكم فاذا حكمتم باخلاء الحامية فخاطبوا ملك الحبشة رأساً وعدوه بعشرة آلاف بندقية مكافأة على ما عساه ان يبذل من المساعدة لكم ». فكتب المدير الى ملك الحبشة في طلب المدد . وكتب الى حكومته في ١٣ ابريل سنة ١٨٨٥ يقول : ان الحامية قد صارت في أشد الضيق فقد نفد منها الزاد واضطرت الى أكل الحمير ونحن لا نزال ننتظر النجدة اذ لا يمكنا الخروج من الحصن بدونها .

كتاب الحامية الى المهدي بشأن التسليم : ولما لم يرَ جواباً من الحكومة ولا من الحبشة على الحاحه في طلب المدد ورأى انه اذا طال هذا الضيق على الحامية اضطرت الى التسليم او الموت جوعاً اختار التسليم على الموت ولكنه كره التسليم الى مصطفى هدل وأعوانه خوفاً من غدرهم فجمع ضباط الحامية وتجارها وكتبوا الى المهدي في الخرطوم كتاباً يخبرونه بأنهم مسلمون ويسألونه ارسال أمناء من طرفه ليسلموا لهم وقالوا فيما بينهم اذا جاءنا المدد قبل مجيء الأمناء استعنا به على المحاصرين وإلا سلمنا لهم .

جواب المهدي للحامية : فبعث المهدي حسين ابراهيم الشهير بالزهرة وابراهيم احمد عالم وجماعة من أصحابه ومعهم كتاب منه الى أهل كسلا ولفظ الكتاب بعد البسملة :

وبعد فمن العبد المعتصم بالله محمد المهدي بن عبد الله الى أحبابه في الله احمد عفت مدير التاكا وفرج عزازي رئيس العساكر وحسن لبيب وعبدالقادر هديب وحسن سليمان وبشير كمبال ونعيم الفكي وابراهيم بدوي وحسن موسى وخورشيد واحمد المنسي وحسن بدوي وخلف خلف الله واحمد حمدي وكافة عباد الله المحصورين بخندق كسلا تجاراً وعمداً وغيرهم وفقهم الله تعالى الى الصواب بجاه النبي الأواب آمين. منا لكم السلام ثم نعرفكم بأن خطابكم المحرر لنا صحبة رسولكم المعين عبد الله بطلب الأمان ورغبة تعيين احد من طرفنا للتسليم على يدنا والتماس العفو عنكم وخشيتكم من العمال المحاصرين لجهتكم ان سلمتم على يدهم الى آخر ما بخطابكم قد أحطنا به علماً وشكرنا صنيعكم ودعونا لكم بكل خير وحمدنا الله تعالى على هدايتكم وانابتكم الى ربكم فان ذلك سبب فلاحكم وفوزكم ونجاحكم الذي هو مقصودنا من دعاية الخلائق الى الله وقد عقلتم فيما صنعتم وتداركتم انفسكم من عطب الدارين والمقصود الأهم هو سلامة الآخرة فان هذه الدنيا قريبة الزوال منغصة العيش مكدرة الأحوال لا خيرها يدوم ولا شرها يبقى ولا فيها لمخلوق بقاء حلالها حساب وحرامها عقاب ومتشابهها عتاب لم ينظر الله اليها منذ خلقها وقد ورد في الخبر انها لا تزن عند الله جناح بعوضة وانها دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له كما جاء في الحديث وأما الآخرة فنعمت الدار هي دار دائمة النعيم أعدّ الله فيها لعباده المؤمنين ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وأكرمهم فيها بالنظر الى وجهه الكريم وقد ورد في محكم القرآن مدحها والتنويه بقدرها قال الله تعالى وان الدار الآخرة لهي الحيوان وقال الآخرة خير وأبقى وقال اذا رأيت ثمّ رأيت نعيماً وملكاً كبيراً الآية. وحيث كان الامر كما ذكر فينبغي للعاقل ان يطلب ما عند الله ويعرض عن هذا الفاني الخسيس المعوق عن الوصول الى الدائم النفيس . ولما أظهرني الله رحمة للعباد وطفقت أدعوهم الى الله والى الرغبة فيما عند الله وأنفرهم عن هذه الدار كثيرة المحن والأشرار وقد هدى الله بي من أراد هداه وأضل من أراد

شقاه. وبعد ان فتح الله مدينة الخرطوم حسنت الظن بأهل الخنادق المحصورين بالسودان وقلت في نفسي لعل الله ان يلهمهم رشادهم ويأخذ بنواصيهم الى طريق سدادهم . ولما وردت لي مخاطبتكم هذه ازداد حسن ظني بكم وسددت من جهتكم ورضيت عنكم واهتممت بأمركم رغبة في هدايتكم ورشادكم وعلى حسب التماسكم قد عيّنت لكم كلا من الحبيب الحسين بن ابراهيم زهرة والحبيب ابراهيم عالم فان المذكورين من الاحباب الأصفياء الذين لا قصد لهم سوى تأييد الدين وسوق عباد الله بالتي هي أحسن وأشرت عليهما بمعاملتكم بالرفق والتأليف ولين الجانب وها هما واصلان اليكم لتطمينكم وحقن دمائكم واعطائكم أمان الله ورسوله وأماننا في أنفسكم وأولادكم التي تؤخذ منكم ما يزيل ضرركم كل واحد منكم على حسب حاله وراحته التي تلزم له وترشيدكم وتذكيركم بالله وبأيام الله به وبأن من يريد الهجرة منكم الينا يعطياه الاذن بذلك فان أمركم على حسبما حكيتم بجوابكم وترغبون الاسلاك في سلك أنصار دين الله والانابة اليه والاقلاع عما مضى فما بيننا وبينكم إلا المحبة الخالصة لوجهه تعالى ولكن اول وصول هذا الخطاب اليكم سارعوا الى الخروج لمقابلة الجماعة المندوبين من طرفنا واطلبوا أماننا منهم وسلموهم كافة الاشغال الميرية ولا يصير منكم أدنى تأخير . هذا وليكن في علمكم انهم النائبون عنا في جميع ما يجرونه معكم أمضيناه فاعتمدتموه ولا تخشوا من شيء وابشروا بكل خير ما دمتم على الاخلاص معنا ألهمكم الله رشادكم وحفكم بعنايته وجعلكم من أهل هدايته والسلام في ٣ شعبان سنة ١٣٠٢هـ ١٨ مايو سنة ١٨٨٥ م . ولنترك الأمناء الآن سائرين لاستلام كسلا ولنرجع الى المهدي لنرى ما كان منه بعد سقوط الخرطوم .

الفصل الثاني والعشرون

في

المهدي بعد سقوط الخرطوم سنة ١٨٨٥ م

دخول المهدي الخرطوم في ٣٠ يناير سنة ١٨٨٥ : تقـدم ان المهدي ما سرّ بالنصر على الخرطوم حتى عاد الوابوران عنها . وفي يوم الجمعة ٣٠ ينـاير سنة ١٨٨٥ أي بعـد رجوعها بيومين ركب الوابور المسمى « الزبير » وعبر النيل الى الخرطوم فصلى الجمعة في جامعها وعـاد الى ابي سعد في الوابور نفسه فغير اسمه الى « الطاهرة » اشارة الى انه طُهر بركوبه فيه . ومن ذلك اليوم أخـذ يتردد الى الخرطوم فأعدوا له منزل ابي بكر الجركوك لأنه كان متقن البناء ولأن ابنة ابي بكر المذكور التي تسرّاها بعد فتح الخرطوم كانت ذات حظوة عنـده . وأعدوا للخليفة عبد الله سراي الحكومة ولكل امير من الامراء منزلاً في المدينة فرتعوا فيهـا وبقي معسكر المهدي في ابي سعد وابي عنجة وجهاديته في طابية ام درمان التي عرفت عندهم بالـكارة .

سرية النجومي الى القبة في ٨ فبراير سنة ١٨٨٥ : وفي ٥ فبراير أتى المهدي بخلفائه وخاصة امرائه من أبي سعد الى كرري لتشييع جيش النجومي

الذي أمره بطرد الانكليز من القبـة وعاد الى أبي سعد الاحـد في ٨ فبراير سنة ١٨٨٥ يوم خروج النجومي بآخر جيشه من كرري كما مرّ .

انتقال معسكر المهدي الى ام درمان أواخر فبراير سنة ١٨٨٥ : ثم لم يكن إلا القليـل حتى أتاه الخبر من النجومي ان الانكليز رجعوا الى دنقلة فطابت نفسه وسرّي عنه فشرع في نقل الديم من أبي سعد الى ام درمان لأنها أسهل مراساً وأفضل موقعاً من أبي سعد فضلاً عن انها قريبة الى الخرطوم فركب هو وخلفاؤه وبعض امرائه وأتوا ام درمان فخططوا جامعاً يسع الف نفس على شكل ظهر الثور وسقفوه بالزنك الذي وجدوه في ترسانة الخرطوم وبنوا للمهدي وخلفائه وكبـار أمرائه منازل من الحجر والطين وسقفوها بالقش والبروش ثم شرعوا في نقل الديم الى ام درمان حتى أتموه وكان ذلك في أواخر فبراير سنة ١٨٨٥ . قيل وقد اجتمع في ام درمان في ذلك الوقت نحو مليون نسمة .

سرية أبي عنجة الى جبال النوبة في أواخر فبراير سنة ١٨٨٥ : ولما استقر المهدي في عاصمته الجديدة نظر اولاً في جهات السودان التي لم تزل على العصيان . وكان البعض من أهل جبال تقلي وجبال النوبة قـد تخلّفوا عن الجهـاد ورجعوا الى أماكنهم بأسلحتهم وقطعوا طريق الخرطوم من الغرب فجرّد لهم جيشاً جراراً من راية الخليفة عبد الله وعقد لواءه لحمدان ابي عنجة وأمره بأن لا يبادرهم الى الحرب بل يدعوهم الى الطاعة ويحذرهم العاقبة فان أبوا ناجزهم فخرج حمدان ابو عنجة من امدرمان بجيش كبير من جهادية وحرابة فيه نحو ١٥٠ اميراً وسلاح الجهادية رمنتون وأبو روحين وأبو لفتة ومدافع وصواريخ . وذلك بعد فتوح الخرطوم بشهر .

سرية محمد عبد الكريم الى سنار ١٩ مارس سنة ١٨٨٥ : وكانت سنار لا تزال ثابتة على الحصار فندب لها ابن عمه محمد عبد الكريم فخرج بجيش كثيف

من راية الخليفة شريف يوم الخميس في ٢ جمادى الآخرة سنة ١٣٠٢ هـ ١٩ مارس سنة ١٨٨٥ م .

بعثة الأمناء الى كسلا مايو سنة ١٨٨٥ : وكانت كسلا في هذه الأثناء في أشد الحصار وقد كتب أهلها الى المهدي يسألونه ان يبعث اليهم أمناء من عنده ليسلموا لهم فأجابهم في شهر مايو سنة ١٨٨٦ الى سؤالهم كما مرّ .

مطاردة الانكليز الى دنقلة : هـذا وكان المهدي لما أتاه الخبر من النجومي ان الانكليز رجعوا من القبة الى دنقلة أمره باللحوق بهم وذلك في ٧ جمادى الآخرة سنة ١٣٠٢ هـ ٢٤ مارس سنة ١٨٨٥ م ثم أمره بالبقاء في المتمة وعهد بالامر الى محمد الخير فأخذ في الاستعداد واستنفار الجيش . وبينما هو في ذلك اذ أتاه الخبر باخلاء الانكليز لمديرية دنقلة فأمره المهدي بالزحف عليها واحتلالها .

استعداد المهدي لغزوة مصر : وكانت نفس المهدي تسوّل له فتح مصر والشام والقسطنطينية ومكة واخضاع جميع الأمم . فلما خرج الانكليز من دنقلة شرع في الاستعداد لغزوة مصر .

حسين باشا خليفة وغزوة مصر : وكان حسين باشا خليفة قد تمكن من مخادعته حتى أقنعه انه مخلص له في السر والجهر فسماه عاملا عاما على قومه العبابدة الذين في حدود مصر وعلى من أراد الانضمام اليهم من اهلها وأمره بمواقعة الترك الى ان يدركه بجيشه . وهـذه هي صورة المنشور الذي أصدره اليه بهذا الشأن .

« وبعد فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدي بن عبد الله الى حبيبه في الله وصفيه حسين خليفة تولاه مولاه واجتباه وأكرمه واصطفاه آمين. ايها الحبيب اعلم وفقني الله تعالى وإياك الى الصواب وجعلنا ممن اعتصم بحبل الله الوهاب ان الله سبحانه قد أكرمكم بصحبتنا وجعلكم من أنصارنا وأعواننا وأتم عليكم نعمه ظاهرة وباطنة بسماع وعظنا والتنوّر بأنوارنا فصرتم بذلك من

انصار الله وأحبابه وعددتم من الاصحاب الصادقين . ولما كان موضوع امرنا القيام بأمر الدين وجهاد أعداء الله الكافرين وقد انتهى امرهم بالسودان وعزمنا بإرادة الله على التفرغ لغيرها من البلدان فقد اخترنا الله تعالى ووجهناك امامنا عاملا عموماً على كافة قبائل جماعتك العبابدة الذين بالجهات البحرية عشاباب وشنانير وفقرا وعلى كافة من يرغب الانضمام عليك من القبائل الأخر بطوعه واختياره لتبلغهم دعوتنا وتعطيهم بيعتنا وتستنفرهم لإحياء الدين وحرّرنا لهم الأوامر بذلك وما تركنا لهم في الدلالة على الله والترغيب فيما عنده والتنفير عن هذه الدار الفانية شيئاً فخذ الاوامر المذكورة وتوجه على بركة الله وابذل وسعك في ابلاغ الدعوة واستنفار الناس للجهاد ودلالتهم على طريق السداد وكما آذناك في اعطاء البيعة لمريدها فقد آذناك في جهاد الأعداء تركا وغيرهم وفي تولية من ترى فيه اصلاح المسلمين وعزل من ترى فيه افسادهم وفوضنا اليك الامر في فعل كل ما ترى فيه مصلحة الدين بتلك الجهة فشمر فيما ندبناك اليه وقم بواجب امرنا هذا وتوكل على الله واعتصم به وليكن اكبر همك الاقبال عليه ومحبة لقائه فان من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه وأكرم نزله ووصيتنا الجامعة لك ان تتقي الله وتكون من الصادقين وان تسير في الناس بسيرتنا وامارتنا لك على شرط اتباع الكتاب والسنة فان غيّرت او بدّلت فلا امارة لك فافهم ذلك واسترشد به سدد الله امرك وجعلك ممن قال في شأنهم الذين إن مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر . وفقنا الله وإياكم على مرضاته والسلام . في ١٢ شعبان سنة ١٣٠٢ هـ ٢٧ مايو سنة ١٨٨٥ م .

تحشية : ثم اعلم ايها الحبيب انه قد سبق التحرير منا بامارة الحسن سعد محمد وشمعون ابرهيم والحسن ابي سيدين على جهات قبائل العبابدة ثم صار ضمهم على محمد الخير وحيث ان امارة محمد الخير محصورة ومحددة فلتكن امارات هؤلاء الجماعة على العبابدة الذين بمديرية بربر ويفضلوا مع محمد الخير كما كانوا ولا

يكن لأحد منهم تعرض على العبابدة بخارج مديرية بربر وانمـا يكونوا تحت امارتكم بذا لزم الالحاق في تاريخه والسلام اه » .

وأرسل في الوقت نفسه كتـاباً الى الشيخ منشتح كرّار يسميه اميراً على قومه الشناتير وفيه : « ... ان خطابك الذي تذكر فيه تسليمك لأمر المهدية ورغبتك للانسلاك في سلك انصار الله واحبابه وانتظارك لاشارتنا قد وصلنا وفهمنا مضمونه » . وكتـــاباً الى الشيخ بشير جبران يسميه اميراً على قومه العشاباب ويخبر كلاً من الشيخين المذكورين بتولية حسين خليفـة عاملا عاماً على العبابدة ويسأله الانقياد اليه ومعاونته على الجهاد .

فخرج حسين باشا من ام درمان في ١٦ شعبان سنة ١٣٠٢ هـ ٣١ مايو سنة ١٨٨٥ م وأتى القـاهرة وهو غير مصدق النجاة فحوكم بمجلس عسكري وخرج منه بريئاً فسمي مفتشاً في الداخلية وبقي الى ان توفاه الله سنة ١٨٨٦ .

كتاب المهدي الى أهل مصر : وكتب المهـدي منشوراً عاماً « الى سكان مصر حكاماً وتجاراً وعمداً وغيرهم » يخبرهم بعزمه على غزو مصر ويدعوهم الى نصرته .

كتاب المهدي الى الخديوي : وكتب في الوقت نفسه الى سمو الخـديوي كتاباً هذه صورته بعد البسملة :

« وبعد فمن العبد المعتصم بالله محمد المهدي بن عبد الله الى والي مصر .

« لا يخفى على من نوّر الله بصيرتـه وشرح صدره ان الدين الذي يكون المتمسك به ناجياً عند الله هو دين الاسلام الذي جاءنا به نبينا محمد ﷺ ونزل به القرآن من الملك العلام قال تعالى : ان الدين عند الله الاسلام وقال تعالى : ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يُقبل منه وما سوى ذلك من الأديان فضلال يدعو الشيطان اليه حزبه ليكونوا من اصحاب السعير ومن منحه الله تعـالى عقلا يميز بـه بين الخبيث والطيب لا ينبغي له ان يصرفه الا فيما ينتج خلاصه عند الله يوم تزلّ الأقدام ويشيب الطفل ويشتد الزحام والا كان أسوأ حالاً

من البهائم حيث أضاع حكمة تركيب العقل فيه ولا سبيل الى السلامة عند الله الا باتباع دينه وإحياء سنة نبيه وأمته وإماتة مـا حدث من البدع والضلال والإنابة اليه تعالى في كل الاحوال وقد تأكد ذلك في هـذا الزمان الذي عمّ الفساد فيه سائر البلدان فان دسائس اهل الكفر التي أدخلوها على اهل الاسلام وضلالاتهم التي مكنوها من قلوب الأنام قد أفضت الى اندراس الدين وعطلت احكام الكتاب والسنة بيقين فصارت شعائر الاسلام غريبة بين الأنام وتراكمت الظلمـــات وانتشرت البدع وأبيحت محارم الاسلام واشتد الكرب على اهل الايمان فصار القابض على دينه كالقابض على الجمر لتراكم البغي والعدوان فعند ذلك أظهرني الله طبق الوعد الصادق رحمة لعبـاده لأنقذهم من ظلمة الكفر الى نور الايمان وأدلهم الى الله على هدى منه وتبيان وطوقني بالخلافة الكبرى على المهدية وخلع عليّ حللها البهية وبشرني سيد الوجود ﷺ بالنصر على كل من يعاديني ولو كان الثقلين وبأن من يقصدني بعـــداوة يخذله الله في الدارين وقلدني سيف النصر وأيدني بقذف الرعب في قلوب أعدائي يسعى امامي اربعين ميلا . وأخبرني بأني أملك جميع الارض وبأن من شك في مهديتي فقد كفر بالله ورسوله ونفسه وماله غنيمة للمسلمين وبأن الله قد أيدني بالملائكة الكرام وبالجن أحياء وأمواتاً وهكذا من البشارات العجائب الذي يطول شرحها وكل ذلك بحضرة الملائكة المقربين والخلفاء الاربعة والخضر عليه السلام وما كنت أترقب هـذا الامر لنفسي ولا سألت الله إياه بل كنت أسأله ان يجعلني معيناً لمن يقوم به فلما أراد الله كان وحتم الأمر عليّ من سيد الأكوان فقمت بأعباء هذه الحالة واعتصمت بالله وتوكلت عليـه وأخبرت الحكدارية بأني المهـدي المنتظر وقد كان بها محمد رؤوف وما تركت لأهلها في ايضاح هذا الأمر شيئاً وأنا في انتظار الاختبار وتسليم الأمر لله الواحد القهار فما كان منهم إلا ان ضربوا عما أخبرتهم بـه صفحاً وطووا عن قبوله كشحاً وبادروني بالمحاربة من غير روية ولا تثبيت في هذا الأمر الديني الذي جئتهم به من خير البرية فأيدني الله عليهم كما وعدني . وهكذا صارت جيوشك تأتيني ثلة بعـد ثلة وأقدم لهم

الانذارات ولم تنفعهم والله يؤيدني وينصرني عليهم كما وعدني ويقطع دابرهم الى ان قلّت حيلتك وتلاشا أمرك فسلمت أمر أمة محمد ﷺ لأعداء الله الانكليز وأحللت لهم دماءهم وأموالهم وأعراضهم فجاءت الانكليز بكبرهم وخيلائهم واعتمادهم على غيرالله فلما سوّل الشيطان لهم ادراك غوردونهم بالخرطوم وأيست من هداية أهله وعلمت ان تكرار الانذارات لا ينفعهم وحقت عليهم كلمة العذاب وصاروا مثل من قال الله تعالى في شأنهم وسواء عليهم أنذرتهم أم لم تنذرهم الآية عجل الله بفتحه واهلاك من فيه وأحرقت النار أجسامهم عياناً كالذين منقبلهم اظهاراً للحقيقة وتعجيلاً للعقوبة وصدق عليهم قوله تعالى حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذتهم بغتة الآية . ثم أنذرت الانكليز فلووا رؤوسهم فوجهت اليهم طائفة من الانصار فقذف الله في قلوبهم الرعب فولوا هاربين بعد ان أهلك الله فيهم من أهلكه وشتت شملهم وهذا كله غير خاف عليك ولا زال حزب الله مقتفياً اثر باقيهم وعن قريب يحل الله منالدمار ما يكون عبرة لمن اعتبر هذا أوان المؤمن المصدق بوعد الله لا يرى لجميع ما في الحياة الدنيا من الفانيات قيمة ولا يأسف على ما فاته من ملكها الذي مآله الى الزوال وعظيم النكال وانما يكون مطمح نظره الى ما عند الله من النوال في دار الكرامة والافضال فان الدنيا لو بقيت للأول لم تنتقل للآخر ومن هنا نعلم ان هذا الملك لم يصل اليك إلا بموت او عزل من كان قبلك وهو خارج من يدك بمثل ما صار اليك . وحيث كان الأمر كذلك فلا ينبغي لك ان كنت ترجو من الله نعيم دار الأبد ان تأسف على ما فاتك من الدنيا ولو كان الدنيا بحذافيرها فدقق النظر واجمع عليك فكرك وتدارك نفسك واسع فيما ينجيك عند ربك اذا تمثلت بين يديه وسألك عما جرى منك وسلم الأمر اليه تسلم وما كان يحسن منك ان تتخذ الكافرين أولياء من دون الله وتستعين وهم على سفك دماء أمة محمد ﷺ ألم تسمع قول الله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم الآية وقوله تعالى لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادّ

الله ورسوله ولو كانوا آباءهم الآية وقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق الآية وقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزءاً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء الآية وما هذه الطاعة لأعداء الله والله تعالى يقول يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقاً منالذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله الى ان قال يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون الآية ، فاذا كنت ممن ينظر بعين بصيرته ولا يؤثر متاع الدنيا الخسيس على نعيم آخرته فاعتبر بذلك وبادر الىالنجاة والسلامة المعتبرة وهي سلامة الايمان ونزّه نفسك عن ان تكون في أسر أعداء الله دائماً ولا تهلك من كان معك من أمة محمد ﷺ واغسل ما جرىمنك بدموع الندم ولا تكترث بجاه الدنيا الفاني ولا بملكها الزائل فان لله داراً خيراً منها وقد أعدها لعباده المتواضعين لجلاله قال تعالى تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الارض ولا فساداً والعاقبة للمتقين الاية وإياك والركون الى أقوال علماء السوء الذين أسكرهم حب الجاه والمال حتى اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فيهلكوك كما أهلكوا من قبلك ففي الحديث القدسي لا تسأل عني عالماً أسكره حب الدنيا فيصدك عن طريقي أولئك قطاع الطريق على عبادي ولا تغتر بقوة حصن بلدك وكثرة أسلحتك وعددك الظاهرية ومظاهرة دول اهل الكفر لك فانها لم تغن عنك من الله شيئاً وكم أهلك قبلك من الملوك أهل الحصون المنيعة من هو أشد منك قوة واكثر جمعاً لما بغوا وعثوا في الارض مفسدين . وليكن في علمك ان أمرنا هذا ديني مبني على هدى من الله ونور من رسول الله ﷺ ومؤيد من عند الله بجنود ظاهرية وباطنية وما قصدنا فيه إلا إحياء الدين وإظهار آثار الأنبياء والمرسلين ولا نريد مع ذلك ملكاً ولا جاهاً ولا مالاً فان نوّر الله بصيرتك وخالفت النفسالامّارة بالسوء وقبلتهديننا هذا وأنبت الى الله بنية خالصة فعليك أمان الله ورسوله وأماننا وما بيننا وبينك إلا

المحبة الخالصة لوجهه تعالى ونكون الجميع يداً واحدة على اقامة الدين واخراج اعداء الله من بلاد المسلمين وقطع دابرهم واستئصالهم من عنـد آخرهم ان لم ينيبوا الى الله ويسلموا . وقد حررت اليك هذا الكتاب وأنا بالخرطوم شفقة عليك وحرصاً على هدايتك فأرجو الله ان يشرح صدرك لقبوله ويدلـك على صلاحك ورشادك في الدارين وها انا قادم على جهتك بجنود الله عن قريب ان شاء الله تعالى فان امر السودان قد انتهى فان بادرتني بالتسليم لأمر المهـدية والانابة الى الله رب البرية فقد حزت السعادة الأبدية وأمنت على نفسك ومالك وعرضك انت وكافة من يجيب دعوتنا معك وان أبيت بعد هذا إلا الاعراض عن طريق الفلاح والرشاد فانما عليك اثمك واثم من معك ولا بد من وقوعك في قبضتنا ولو كنت في بروج مشيدة وهذا انذار مني اليك وفيه الكفاية لمن أدركته العناية والسلام على من اتبع الهدى » اه .

عبد الله الكحال وغزوة الشام : وكان المهدي قد ارسل الحاج عبـد الله الكحال عاملاً على بلاد الشام فجاء مصر بطريق وداي وعاد الى تجارته فيها كما مرّ .

المهدي ومراكش : ويظهر ان جماعة من اهل مراكش المستوطنين مصر كتبوا الى المهدي يصرّحون له بتصديقهم مهديته ويسألونه تسمية احدهم السيد محمد الغالي اميراً على مراكش لنشر دعوته في بلادهم فأجابهم بالكتاب الآتي :

« وبعد فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدي بن عبدالله الى احبابه المكرمين السيد ابراهيم السنوسي الحسني ومحمد عبد السلام الحبابي وعبـد السلام البناني ومحمد قاسم الحلو وفقهم الله وسددهم وألهمهم الصواب وأرشدهم آمين . ايهـا الاحبـاب اهدي لكم جزيل السلام الممزوج بالرضاء عنكم وجليل الاكرام وأعرفكم بأن خطابكم المؤرخ ٧ ربيع آخر سنة ١٣٠٢ قد وصلني وما احتوى عليه من حسن تسليمكم لأمر المهدية ورغبة وصولها اليكم ونشرها بجهاتكم الغربية مع تولية السيد محمد الغالي عبد السلام على فاس وجهاتها الى آخر مـا بخطابكم

قد أحطت به علماً وجزاكم الله عن دينه وعنـا احسن الجزاء وشكر سعيكم وأدام هديكم وجعلكم مفتاح كل خير وقد سرّنا حسن رشادكم زادكم الله رشاداً ومحبة وها نحن قد أجبناكم الى ما طلبتم وحررنا الاوامر بامارة السيد محمـد الغالي وها هي واصلة اليكم صحبة الحبيبين عبد الخالق السبتي والطيب البنـاني فان المذكورين قد أوصلا جوابكم الينا وأخذا بيعتنا وسمعا من مواعظنا مـا ينور البصائر وصارا عندنا من الاحباب ورأينا تحميلهم للأوامر أصوب وأنفع فينبغي مراعاتها ومشاورتها في امر الدين . ثم انـه لا يخفى عليكم ان جهات فاس فيها أكابر من اهل الخير الذين يقتدى بهم في الدين فلذا ولمحبتي اتفـاق كلمة المسلمين في الله قد جعلت تفويض الامر اليهم فان اتفقت كلمتهم على السيد محمد الغالي المذكور فذلك جل قصدنا وقد باركناه لهم وان اتفقت كلمتهم على غيره من الأفاضل فقد آذناهم في ذلك وان السيد محمد عندنا من الملحوظين بعين الرعاية المكرمين الغـاية ولكن حيث كان قصدنا واحداً وهو تأييد الدين فلا يليق يا احبابنا الا الرضا والفرح والقبول لما نريده فانه عين الخير عنـد الله تعالى . هذا وأوصيكم ايها الاحباب بتقوى الله والاعتصام به والتوكل عليه في كل الامور وعزيمتي عليكم العمل بما في الأوامر وأخذها على النور والتوجه بها لجهة التعيين وابلاغ الدعوة فانكم القائمون بأعباء هـذا الامر بتلك الجهـة والمتسببون فيه ولكن الاعتماد على الله والاقبال عليه ومحبة لقـائه والاعراض عن هـذه الدار الفانية التي لا تزن عند الله جناح بعوضة ولا بد من تعجيل مخاطبتنا في كل مـا يتجدد لكم حال وصولكم بارك الله فيـكم وألهمكم رشادكم وجعلكم من اهل اجتبائه بجاه سيدنا محمد ومن والاه والسلام . ٢٥ رجب سنة ١٣٠٢ هـ ١٠ مايو سنة ١٨٨٥ م اه » .

وكتب في التاريخ نفسه كتاباً خاصاً الى السيد محمد الغالي بالعمالة العامـة على فاس وكتاباً الى الطيب البناني احد الرسولين بالاماة ضمن عماله . ثم كتب الى أهل فاس يدعوهم الى الانضمام الى عامله . وكتب الى والي فاس ما نصه بعد البسملة :

« وبعد فمن العبد المعتصم بالله محمد المهدي بن عبد الله الى حبيبه في الله السيد الحسن بن محمد بن عبدالرحمن والي فاس ونواحيها وفقه الله. أيها الحبيب منا اليك جزيل السلام ومزيد الاحترام ثم اعلم وفقني الله تعالى وإياك الى ما يحبه ويرضاه وغمسني وإياك فيبحار محبته ورضاه ان الدين خير للمرء من نفسه وماله وهو الرفيق الذي ينفعه عند هول المحشر. ولا يخفى ما حصل على الدين في آخر الزمان من الاهانة وتعطيل الاحكام وإهمال العمل بالشريعة المطهرة ولكن المسموع عنأهل جهتكم انكم اهل خير والىالان متمسكون بشريعة خير الانام وحيث انكم كذلك فقد جاءكم الهدى والرشاد ودعاكم داعي الله الى طريق السداد اذ قد طوقني الله بالخلافة المهدية وأمرني بدعاية الخلق الى احياء السنة المرضية وقد لبى دعوتي من أسعده الله ببلاد السودان وأعرض عنها من أشقاه فأهلكه واشتعلت فيه النيران وقد وفق الله جماعتكم الذين بصر وألهمهم رشادهم فخاطبوني بالتسليم التام لأمر المدية والرغبة الكاملة في نشرها في الاقطار العربية والتمسوا تولية السيد محمد الغالي عبد السلام عاملاً من طرفنا على فاس وما والاها ونحن لمحبتنا ايصال الخير للمؤمنين قد حررنا للمذكور بالامارة على تلك الجهة ولكن فوضنا الأمر لأهلها فان اتفقت كلمتهم عليه فبها ونعمت وان اتفقت كلمتهم على غيره من الفضلاء فقد أذناهم في ذلك . وحيث انك والي تلك الجهة من سابق وراع أمرها فقد حسّنا بك الظن وخاطبناك بهذا لتبادر الى فلاحك وفوزك ونجاحك وتجيب دعوتنا على اقامة الدين وجهاد أعداء الله الكافرين وان اتفقت كلمة أهل البلد على توليتك عليهم من طرفنا فقد وليناك عليهم ولكن تكون مع السيد الغالي المذكور يداً واحدة ونفساً واحدة وتتحابوا في الله ولا تتنافروا فان المقصود واحد وهو اقامة دين الله . وان اتفقت كلمة أهل البلد على غيرك سواء كان الغالي المذكور او غيره من المسلمين فكن انت كرجل منهم ولا تكترث بزوال الملك فان ذلك رحمة من الله حفّك بها . ألم تعلم ان النبي ﷺ قد ذمه في غير ما حديث وقال عليه السلام في الامارة اولها ملامة ووسطها ندامة وآخرها

عذاب يوم القيامة الى غير ذلك من الاحاديث التي لا تحصى . وحيث كان أمر الامارة كذلك فلا تحزن لفواتها واعلم انك ان أجبت دعوتنا فأنت مقبول ومكرم عندنا ومنا والينا دنيا وآخرة وابشر بخير الدارين وعزيمتي عليك ان تعمل بالكتاب والسنة وان تنفذ جميع ما في الأوامر المحررة الى أهل جهتك . وليكن في علمك اني عن قريب ان شاء الله تعالى حاضر بحزب الله للجهات المصرية فانأمر السودان قد انتهى فان بادرت أمري هذا بالتسليم وطلبت سلامتك عند الله وآثرت ما في الاخرة من النعيم فقد حزت السعادة الابدية وأمنت على نفسك ومالك وعرضك انت وجميع من يجيب الدعوة معك وان أبيت إلا الاعراض عن طريق الرشاد فانما عليك اثمك وإثم من معك وأمر الله واقع وفيما هو مسطر اليك في الاوامر الواصلة لك صحبة هذا كفاية لمن حفته العناية ألهمك الله رشادك ودلك علىالصواب بجاه النبيالاواب هذا والسلام ٢٨ رجب سنة ١٣٠٢ هـ » اه ١٣ مايو سنة ١٨٨٥ م .

ولكن لطفالله بعباده ولم تصلهذه الكتب الى اصحابها اذ الطيب البناني الذي عاد بها لم يبلغ بربر حتى كان المهدي قد مات وعلم الخليفة به فأرسل في طلبه فأخذ منه الكتب وحبسه « حبس عين » في ام درمان فبقي الى ان فتحها الجيش سنة ١٨٩٨ فرأيته فيها ورأيت هذه الكتب بين أوراق الخليفة فسألت البناني عنها فقال انه احتال على المهدي للتخلص منه فلم يقدّر الله له الخلاص . وسألت عنها بعض المراكشيين المخاطبين فيها فأجابوا : « لا علم لنا بذلك مطلقاً » .

انتشار الجدري في ام درمان : وفي ١٥ جمادى الاخرة سنة ١٣٠٢ هـ ١ ابريل سنة ١٨٨٥ م فشا وباء الجدري في ام درمان واستمر شهراً كاملاً ففتك بالأهلين فتكاً ذريعاً حتى قيل ان الأكفان التي أنفق عليها من بيت المال وحده بلغت ١٢٦ الف كفن . واصبح لسان حال السودان ينادي :

قل للوبا انت « وابن دُنقُلْ » قد جزتما الحدّ في النكاية
ترفقا بالورى قليلا في واحد منكما كفاية

يُكنى بابن دُنقل عن المهدي اذ في تقاليد الدناقلة ان أصلهم من جد يسمى دنقل .

الاحتفال بختان أولاد المهدي : وفي يوم المعراج أي في ٢٧ رجب سنة ١٣٠٢ هـ ١٢ مايو سنة ١٨٨٥ م احتفل المهدي بختان اولاده فاختتن في ذلك اليوم جميع اولاد الأمراء والأعيان طمعاً في ان ينال الاولاد البركة وقد عملوا وليمة عامة وذبحوا من الابل والبقر والغنم ما لا يحصيه عد وكان ذلك اليوم يوم فرح عظيم عند جميع الشعب .

تبرؤ المهدي من أهله : وكان الاشراف اهل المهدي قد طغوا وبغوا على الناس وأساؤوا السيرة فاستاء المهدي منهم فلما كان يوم آخر جمعة في شعبان سنة ١٣٠٢ هـ ١٢ يونيو سنة ١٨٨٥ م بعد ان فرغ من الخطبة في الجامع وهمّ الناس بالوقوف للصلاة أشار اليهم بيده وقال اجلسوا ثم نادى بأعلى صوته وقال : ايها الناس اني مللت من النصح والمذاكرة لأقاربي الاشراف الذين تمادوا في الطيش والغواية وظنوا ان المهدية لهم وحدهم ثم مسك ثوبه ونفضه ثلاث مرات وقال انا بريء منهم فكونوا انتم شهوداً عليّ بين يدي الله تعالى فنكس الاشراف رؤوسهم ولم يجبه احد بكلمة . ثم نزل عن المنبر وصلى صلاة الجمعة وخرج . وكان هذا آخر عهده بالجامع كما سيجيء .

سك النقود فبراير سنة ١٨٨٥ : وكثر ما غنمه المهدي من مصوغات الذهب والفضة من الابيّض والخرطوم وقلّت النقود في أيدي الناس فأراد ان يسد هذه الحاجة ويبين للملأ استقلاله عن الدول وتأسيسه مملكة جديدة بعملة جديدة فجمع الصاغه وأمرهم بسك النقود فأنشأوا ضربخانة في بيت المال وضربوا من الذهب جنيهاً قلدوا به الجنيه المصري فهو على مثاله بطغرائه وتاريخه وقطعه وثخنه عملوه من ذهب خالص ولكنهم جعلوا وزنه أقل من وزن الجنيه المصري بحبتين وضربوا من الفضة ريالاً بقطع الريال المجيدي ووزنه فجعلوه سبعة دراهم فضة ودرهم نحاس وقد كتبوا على وجهه الواحد « ضرب

في الهجرة سنة ١٣٠٢ » وعلى الوجه الثاني « بأمر المهدي » بهيئة طغراء وضربوا منه نصفاً وربعاً. وكان بدء هذا العمل في جمادى الاولى سنة ١٣٠٢هـ فبراير سنة ١٨٨٥ م .

جمع الزكاة والعشور : وقد شرع المهدي في جمع الزكاة والعشور تواً بعد فتح الخرطوم وهاك ما أرسله الى احد نوّابه في هذا الشأن بعد البسملة :

« وبعد فمن عبد ربه محمد المهدي بن عبد الله الى حبيبه وصفيه وعونه في الله محمد عثمان وقاني الله وإياه من كل علة ورفقني وإياه الى نور الرفيق الاعلى . حبيبي فجزاك الله كل الخير وأعطاك ما هو له اهل فيما بينت له مادة الزكاة على الاحاديث الواردة. وأما أخذ الزكاة فهي كما ذكرت المناشير حلول المهدية سنة قتلة الشقي الهكسي (٥ نوفمبر سنة ١٨٨٣) اذ ان أحكام الترك زالت سنتها من الجزيرة فلذلك تعدّ الزكاة منها اذ انها هي وضع حكمنا في تلك الأمكنة فمنها تؤخذ الزكاة وعلى السنة الناقصة من باب اولى . ولكن اذا سبقت الخدمة قبل تمام السنة الناقصة فلا يخدمونهم فيها حتى تتم السنة الثالثة ومن لا يخدمونهم في الناقصة يتركونهم الى حين تمامها فيخدمونهم هذا والسلام نهاية شعبان سنة ١٣٠٢ هـ » اه ١٣ يونيو سنة ١٨٨٥ م .

الغنائم : وقد حذر المهدي أنصاره من الغلول في الغنائم ونشر في ذلك عدة منشورات وجاء في واحد منها : « ان من أخذ ابرة من الغنائم تقع يوم القيامة في قعر بحر من نار ويُؤمر بأن يخوض في البحر ليخرجها » .

وأما توزيع الغنائم فيظهر رأيه فيها من كتابه الى محمود عيسى زايد عامله على جهات الضباينة بتاريخ ٢ جمادى الآخرة سنة ١٣٠٢هـ ١٩ مارس سنة ١٨٨٥ م .

« وأما الغنائم وتقسيمها فان كانوا المجاهدين منقطعين لله فقط ولا غرض لهم سوى الله ولا حرفة لهم سوى الجهاد وليسوا اهل بيع وشراء ولا حرث فليصر جمعها ووضعها في بيت المال والصرف منها شيئاً فشيئاً اذ انهم لا وسيلة

لهم سواه. أما اذا كانوا منذوي الحرف ويتجمعون للجهاد لوقت معلوم وعند انتهائه ينفرون لحرفهم فليصر اخذ الخمس منها (الغنائم) وباقيها ينقسم لهم على وفق كتاب الله وسنة رسوله »

وقد كان من مبدأ المهدي جمع أموال العشور والزكاة والغنائم كلها في بيت المال والانفاق منها على المجاهدين كافة بحسب عددهم وحالهم وهاك منشوره بهذا الشأن :

« وبعد فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدي بن عبد الله الى كافة أصحابه وأعوانه في الله من الخلفاء والعمال والانصار والمأمورين . احبابي ان أمر الدين يحتاج الى اتفاق الكلمة واتفاق القلوب واتصال الاحوال والمقال وان يتصل بالواطي العال فقد قال الله تعالى واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ولذلك أتتنا الوصية من الحضرة ان اصحاب المهدي يكون الصغير منهم ابناً والكبير أباً والمتوسط أخاً واذا حصل الامر على هذا الاتفاق استقام الامر واتصل العسر وتيسر العدل . وعلى ما سبق من الوصايا والمنشورات فعزيمة مني على كافة الاصحاب خصوصاً الخلفاء ان يعاونوا الخليفة عبد الله في جمع الغنائم والزكوات لبيت المال وهو يفرق بمعرفته العمال فيها وهم يكونون معاونين بأنفسهم وأتباعهم وقد عزمت على كل احد من الاخوان ان من كان يؤمن بالله ورسوله ومهديه ألا يؤخر عن بيت المال درهماً ولا ديناراً وتكون راحة جميع الاخوان والاصحاب كبيراً وصغيراً من بيت المال ولتفرح الاخوان لخدمة الدين وراحة المسلمين لا يخدم احد لنفسه ولا لجماعته فكل مؤمن بالله ورسوله ومهديه ومعاون لي على هذا الدين يكون على راحة المسلمين ولا يستبد احد بطائفة لجماعته ولا بقبيلة لرايته ولا بجهة ومعلومية لأمره لأن هذا فيه خدمة النفوس والاتكال على غير الله القدوس مع ان البيعة على زهد الدنيا والاتكال على الله وبذل النفس لاقامة الدين وحيث كان الواجب القيام بالبيعة فالاخوان جميعاً فليخدموا « الاعشار والزكوات والغنائم » لبيت المال ولا يأخذ أحد لنفسه ولا لجماعته شيئاً . ولتكن الراحة من بيت المال لجميع الانصار وليبين

من كان له عيال وأهل من كثير وقليل ومن ليس له إلا قليل فالكل يقنن له من بيت المال ما يكفيه والجميع خدمتهم لله وان فرغ بيت المال يكون الصبر حتى يعطي الله بيت المال الكفاية له والسلام » .

كتّاب المهدي : وكان المهدي قبل فتح الخرطوم ينظر بنفسه في جميع المسائل الادارية التي تأتيه من الجهات ويشير الى كتّابه بالاجابة عليها بما يقتضيه رأيه وأشهر كتابه : الصديق ولد ابو صفية من أعيان كردوفان الذي صحبه من قدير . واخوه عبد الكبير . وفوزي السوداني التلغرافجي الذي قتل في واقعة هكس كما مرّ . وفوزي محمود بادي من مواليد بارة . وأخواه احمدي ومختار . والطيب الهاشم وابو القاسم اخوه ومدّثر ابراهيم من جعلي بربر . وقد كان ختمه بيد فوزي السوداني فلما قتل سلمه الى فوزي محمود فبقي بيده الى ان مات المهدي .

أمناء المهدي : ثم لما فتحت الخرطوم واتسعت الاشغال الادارية على المهدي عجز عن النظر بنفسه في جميعها لا سيما وانه كان يهتم اذ ذاك في غزو مصر فاختار سبعة من الأمناء وعهد اليهم بالنظر في جميع الامور الادارية وأمرهم بألا يقطعوا في أمر إلا بعد عرضه على الخليفة عبد الله وأخذ رأيه فيه . وهؤلاء الامناء هم : الرئيس السيد عبد القادر الساتي علي من اقارب المهدي . والاعضاء فوزي محمود كاتبه وامين ختمه وقد امره بختم جميع الكتب التي يقر عليه مجلس الامناء والخليفة وارسالها الى جهتها . ومحمد سليمان شقيق احمد ود سليمان امين بيت المال . والشفيع رحمة الشايقي كاتب الالهام للمهدي وعلي ود الفقيه الامين خوجلي من علماء السودان . واسماعيل ود شجر الخيري الدنقلاوي ومعهم احمد ود النور كاتباً . وبقي حكمهم نافذاً الى ما بعد وفاة المهدي ففرقهم الخليفة عبد الله كما سيجيء .

وأجاز المهدي لعملائه الحكم بالقتل بدون استئذانه وهاك ما كتبه الى عامله على بربر محمد الخير في ٢٤ رجب سنة ١٣٠٢ هـ ٩ مايو سنة ١٨٨٥ م

« ... قد سبق منا مراراً وتكراراً ان أمر تلك الجهة مفوض منا اليكم ولو بقتل احد في الحق ... » .

منشور الراحة في رمضان : ولما اقبل شهر رمضان سنة ١٣٠٢ طلب الراحة من الاشغال والانقطاع الى النظر في تدبير المستقبل فنشر لأنصاره المنشور الآتي :

« وبعد فيقول العبد لله محمد المهدي ان هذا الذي أقبل هو شهر رمضان زمن الاقبال على الرحمن وميدان الاشتياق الى عظيم الشان فافزعوا أيها الاحباب فيه للديان ووطنوا قلوبكم على الشدائد والرضا بالبلايا والامتحان حيث اوعد بذلك الرحمن لتبيين حال اهل الصفوة والرسخان وبشر الصابرين بعظمة الشان وحسن العواقب وتولية الديان فتوكلوا على الله وفوضوا له في كل ما يفعل لحسن الظن به اذ هو حقيق بالاحسان وهو العالم بما لا يعلمه الأبوان ... فتحققوا ذلك أيها الاحباب وانصبوا أنفسكم لله وارفعوا حواجبكم فكلنا عبيد الله والامور بيده فلا تشغلوني بقضايا ولا بحوائج في هذا الشهر وخلونا للذكر والتذكار والصلوات والدعوات فان فقد العبد نورالصبر والرضا والتفويض وأراد ان يرفع حاجته الى العبيد فها هم الخلفاء نيابة عني والامناء المنيبين والقاضي فمن شغلني بشيء في رمضان بعد هذا فلا يلم إلا نفسه والسلام غاية شعبان سنة ١٣٠٢ هـ » اه ١٣ يونيو سنة ١٨٨٥ م .

الفصل الثالث والعشرون

في

وفاة المهدي وصفاته وتعاليمه

وفاة المهدي في ٢٢ يونيو سنة ١٨٨٥ : ولما كان يوم الاربعاء في ٤ رمضان سنة ١٣٠٢ هـ أصابت المهدي حمى خبيثة تعرف في السودان « باب دم » وعند الاطباء بالالتهاب السحائي الشوكي . وفي يوم الجمعة ٦ رمضان أمر الخليفة عبد الله فخطب وصلى بالناس الجمعة . ودامت الحمى على المهدي الى يوم الاثنين ٩ رمضان (وفي قمر السودان ٨ منه) سنة ١٣٠٢ هـ ٢٢ يونيو سنة ١٨٨٥م فأسلم الروح عند الضحى وكان عنده خلفاؤه وأقاربه فأمر الخليفة عبد الله أقاربه فجهزوه وحفروا قبره في محل فراشه في منزله ثم صلى عليه اماماً وباقي الخلفاء والناس مؤتمّون به ودفن عند الظهر ولم يسمع لدفنه صوت . وبايع الناس الخليفة عبد الله فقام بالامر بعده كما سيجيء .

وقد شاع بعد موت المهدي انه مات مسموماً وان بنت ابي بكر الجركوك هي التي دست له السمّ في الطعام انتقاماً لأبيها وزوجها اللذين قتلا في فتح الخرطوم ولكن الثقات من أهل السودان ينكرون هذه الاشاعة ويؤكدون ان بنت ابي الجركوك كانت تحب المهدي وكان المهدي يحبها وان أقارب المهدي

شدّوا شعر لحيته قبل دفنه وتيقنوا انه لم يمت مسموماً . وقد رثاه جماعة من أدباء السودان نظماً ونثراً ومنهم ابراهيم شريف الدولابي الكردوفاني فانه رثاه بقصيدة غراء هذه هي بحروفها :

كيف التئام فؤادي المفطورِ ... ورقوءُ دمع محاجري المفجورِ
أم كيف ينفك الضنا عن مهجةٍ ... أحشاؤها تُصلى على تنُّور
أسف على المهدي من مهد الصبا ... قد كان معصوماً عن المحظور
لا زال في كنف العناية يغتذي ... بدقائق التبصير والتنوير
حتى انتهى لمقامه الأعلى الذي ... عنه النهى في حيرة وقصور
وأقامه المختار عنه خليفةً ... خلعت عليه ملابساً من نور
ورقى الى كرسيه متسنماً ... في مشهدٍ بالأوليا معمور
فدعا الى الدين الحنيف مجاهداً ... بالسيف والانذار والتبشير
فتح الفتوح ودمّر الكفار في ... كل البلاد بجيشه المنصور
ومن اهتدى بهداه أصبح داخلاً ... سور الرضا أعظم به من سور
ومن انتمى لسواه أمسى حائراً ... ضلّ الطريق بليلةٍ ديجور
ما شئت فيه من الثناء فقل ولا ... تأخذك لومة لائم مدحور
ما أطنبت مدّاحه إلا وهم ... عن وصف بعض حلاه في تقصير
هو مجمع البحرين بحر شريعةٍ ... طام وبحر حقيقة مسجور
سر الوجود وترجمان الحضرة الـ ... عليا ومظهر غيبها المستور
والله أكرمه بطيب تحية ... يحذو بها موسى كليم الطور
قد كان قوّام الدجى متبتلاً ... متواصل الاحزان غير فخور
طلقَ المحيا خاشعاً متواضعاً ... كهف الفقير وجابر المكسور
وتفيض بالجود الكثير يمينه ... أبداً بلا منٍّ ولا تكدير
ويبيت طاوي الكشح جوعاً وهو قد ... أعطى الكنوز بجمعها الموفور
لا يبتغي جاهاً ولا مالاً ولا ... عز الموك ولا ارتباع الدور
ما همه إلا اجتذاب الخلق من ... درك الشقاوة عميهم والعور

لما أبان لنا السبيل ولم يدع ... ايضاح منهيٍّ ولا مأمور
والدين عز وأهله بلغوا المنى ... وتقلبوا في نعمة وحبور
تاقت الى الذات العلية روحه ... وسعت لمقصد صدقها المذخور
فمضى وأودع كل قلب حسرةً ... وحشا الحشا ببلابل وسعير
تبكي المساجد والمحارب فقده ... ومواطن الاذكار والتذكير
يا طيب أرض ضمّ جسمك تربها ... تزري بعرف المسك والكافور
يا آل بيت المصطفى صبراً وان ... جل المصاب وعزّ عن تصبير
فلكم تسلٍّ في مصيبة جدكم ... خير الأنام الحي والمقبور
واذا توارت في الثرى شمس الهدى ... فهناك بدر هدًى عظيم النور
أبقاه مهديُّ الإله وراءه ... خلفاً يسير بسيره المشكور
ويسوق للنهج القويم بحاله ... ومقاله وحسامه المشهور
هو ذاك عبد الله نجل محمد ... وسع الورى بالحلم والتدبير
وخليفة الفاروق نجم ثاقب ... بضيائه يجلو ظلام الزور
وخليفة الكرار سيف منتضى ... بالحق يقطع هام كل كفور
بطل اذا اقتحم الكتيبة غادر الا ... بطال بين مضرج وأسير
فبهم قوام الدين بعد امامه ... وبهم تمام ظهوره المأثور
صلى الإله على ضريح ضمه ... أزكى صلاةٍ في المساء وبكور

ورثاه محمد ابن الطاهر المجذوب بقصيدة طويلة اقتطفنا منها هذه الأبيات:

دهتنا دواهٍ يضرس القلب نابها ... ويوقد في الأحشاء ناراً مناُبها
غداة نعى الناعون نور الوجود من ... به مِلة الاسلام جلّ مصابها
امام الهدى المهدي افضل من دعا ... الى الله مفتاح النجاة وبابها
ألا قد أصبنا اذ عدمنا حبيبنا ... وضاقت بنا الارض الوسيع رحابها
ليبكِ له الدين الحنيف وملةٌ ... أبان هداها حين تمّ خرابها
فقدناك يا هدياً يتمنا بفقده ... فقدناك يا شمساً دهانا غيابها
الى الله انا راجعون هو الذي ... اليه نفوس العالمين إيابها

هو الفاعل المختار باق وأنفس الو   ری كلها جمعاً اليه انقلابها
وكنا نرى انا نفوز بوصله   بذي الدار حتى صاح فينا غرابها
فلم يبقَ فيها الآن ما يبتغي له   بقاها فقد أضحى سراباً شرابها
سقى الله ارضاً ضمّنته بقاعها   به فاقت العرش العظيم قبابها
عزاء الى الصديق نائبه الذي   بـه الملة الغراء شدّ انتصابها
عزاء الى الفاروق من كان دأبه   لدى نِعم الدنيا الغرور اجتنابها
عزاء الىالكرار ذي الناصر الذي   لديه يهـاب البـائرات ذبابها
عزاء الى الآل الكرام أولي التقى   على الله هاتيك الرزايا احتسابها
وألحقنا المهدي في جنة العلى   ليذهب عن هذيالقلوب اكتئابها
ألا أبلغوا عنا ضريح أبي الهدى   تحايا الى الله الكريم انتسابها

اوصافه : وكان عمر محمد احمد عند وفاته نحو اثنتين وأربعين سنة وكان طويل القامة كبير الرأس عريض الوجه اسمر اللون أدعج العينين ازج الحاجبين واسع الجبين أقنى الانف رحب الصدر واسع الفمعريض الشفتين عظيم المنكبين ضخم العظـام واسع الكفين والقدمين سائل الاطراف مفلج الاسنان مشرط الوجنتين على كل وجنة٣ شرائط افقية مستدير اللحية واسعها خفيفالشاربين. وكان يحلق شعر رأسه ويحسن لحيته . ولباسه الجبة والعمامة على ما تقـدم قبل . وكان كثير التبسم يظهر من تبسمه فلج اسنانه المستحب عند اهل السودان حتى لقبوه « بأبي فلجة » .

أخلاقه : وقدوصفه اسماعيل عبد القادر الكردوفاني وصفاً طويلا اضطر فيه الى التملق الكثير ومما قاله: « انه كان دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ ولا فحاش ولا عيـاب ولا مدّاح . ترك نفسه من المراء وما لا يعنيه وترك الناس من ثلاث لا يذم احـداً ولا يعيبه ولا يطلب عورته ولا يواجه احداً بما يكره . يتفقد اصحابه ويسأل عنهم فمن كان غائباً دعا له ومن كان حاضراً زاره ومن كان مريضاً عاده . وأفضل النـاس عنـده أعمهم

نصيحة وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة.لا يجلس ولا يقوم عن ذكر... يعطي كل واحد من جلسائه نصيبه حتى لا يحسب جليسه ان احداً أكرم عليه منه . وما جالسه احد إلا صابره حتى يكون هو المنصرف عنه . وقد وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أباً وصاروا عنـده في الحق سواء ... أوسع الناس صدراً وأصدقهم لهجة وألينهم خلقـاً وأكرمهم عشرة لا يجزي السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح . متخلقاً بالقرآن المجيد عاملاً بما فيه من الاجتهاد في طاعة الله والخضوع له والانقيـاد لأمره والشدة على أعدائه والتواضع ولين الجانب والرحمة لأوليائه ومواساة عباده وارادة الخير لهم والحرص على كمالهم والاحتمال لأذاهم والقيام بمصالحهم وارشادهم الى ما يجمع لهم خيرَي الدنيـا والآخرة.ذا حلم وعلم وصبر وشكر وعدل وزهد وتواضع وعفو وعفة وتقوى وحياء ومروءة وجود وسماحة وشجاعة وصمت إلا عن ذكر الله وتؤدة ووقار ورحمة المؤمنين ... وما وضع احد فمه في اذن له إلا استمر مصغياً اليه حتى يفرغ من حديثه . أكثر الناس شفقة على خلق الله وأرأفهم بهم. يركب الحمار ويردف خلفه ويجلس على الارض ويأكل مع الخادم .ويحمل حوائجه بنفسه من السوق يحب الطيب ويستعمله ويحب من الثياب ما خشن ومن الطعام ما خشن... واشتهر من اول نشأته بحب الخلوة والانفراد عن النـاس والتمسك بالدين كما بينا قبل .

جلوسه : وكان يجلس على فروة من الضأن ويقعد القرفصاء وحوله أخصاؤه وأقرباؤه يذاكرهم . واذا جلس على الطعـام جثا على احدى ركبتيه وبارك الطعام قبل الأكل ودعا اليه أخصاءه وأقرباءه .

الدخول عليه : وكان الداخل عليـه يخلع نعليه ويتقوم اليه حبواً حتى يقرب منه فيلمس يده ويرجع عنه قليلا ثم يكلمه وهو منكس الرأس ويخاطبه بقوله يا سيدي . وبعد الفراغ من حديثه ينصرف راجعاً القهقرى غير مولّيه ظهره .

نساؤه : ولكنه كان مولعاً بالنساء وقـد مات عن نحو ١٠٠ امرأة منهن اربع شرعيات عرفن بأمهات المؤمنين والباقيات سراري وقد حبسن في منزله بأم درمان ولم يسمح لهنّ بالزواج الى ما بعـد الفتح الاخير فأطلق سراحهنّ فتزوج بعضهن ولا يزال البعض الآخر بلا زواج .

أما نساؤه الشرعيات فهنّ : فاطمة بنت احمـد شرفي التي تزوجها في الخرطوم قبل المهدية وقد توفيت في قدير . وعائشة بنت احمد شرفي تزوجها في الابيض بعـد وفاة اختها . وفاطمة بنت حاج ابنة عمه تزوجها في كرري قبل المهدية . وفاطمة بنت حسين الحجازي تزوجها بشات قبـل المهدية . وعائشة بنت ادريس الفلاتي تزوجها بقدير .

أما سراريه فقد استقصيت أسماء ٦٣ منهن وأشهرهنّ من سبايا كردوفان: ام الحسن اخت احمد بك دفع الله ، وعائشة بنت حاج احمد ام برير ، وزنوبة بنت خورشيد كاشف ، وكنانة سرية الزبير ود ضوّه ، ونظيفة ونحل الجود سريتا محمـد بك الشايقي ، ومدينة سرية يوسف باشا الشلالي . ومن سبايا الخرطوم : آمنة بنت ابي بكر الجركوك المار ذكرها. وأمينة بنت ابي السعود بك العقـاد ، والشول بنت يوسف بك مدير فاشودة ، وفاطمة بنت حسن مسمار ، وزينب بنت حسن بك البهنساوي ، وفاطمة بنت النور بك، ونزهة بنت محمد بك سليمان الشايقي ، وآمنة بنت احمد شجر الخيري ، وزينب بنت يوسف باشا الشلالي ، وزينب بنت اختـه . ومن سبايا الجزيرة : النعمة بنت الشيخ القرشي . والسرة بنت محمد ولد البصير ، وزينب زوجـة حمد التلب ، ومقبولة الدارفورية ، ومأمونة الحبشية . وقبيل الله النوباوية .

اولاده : وله من فاطمة بنت احمد شرفي : ثلاثة اولاد ذكور وهم الفاضل وهو بكر اولاده ومحمد والبشرى وبنت تسمى زينب تزوجها الخليفة شريف. ومن فاطمة بنت حاج اربع بنات . ام كلثوم تزوجها الخليفة عبد الله ، ونور الشام تزوجها الخليفة علي ود حلو ، ونفيسة ، وعائشة توفيت بعـد وفاته .

ومن فاطمة بنت حسين الحجازي : ثلاث بنات رحمة توفيت قبله ، وام سلمة تزوجها شيخ الدين ابن الخليفة عبد الله ، ومريم ، وولد يسمى الصديق ومن نحل الجود سرية محمد بك الشايقي ولد يسمى عبدالله . ومن النعمة بنت الشيخ القرشي ولد يسمى علي ومن مقبولة الدارفورية ولد يسمى عبد الرحمن. ومن مأمونة الحبشية ولدان توأمان الطاهر والطيب . ومن قبيل الله النوباوية ولد يسمى نصر الدين. وجملة من ذكرنا ١٠ بنات و ١٠ صبيان سبعة من الصبيان ماتوا أو قتلوا وبقي ثلاثـة وهم علي والطاهر في قلعة مصر وعبد الرحمن في جزيرة الخرطوم وسيأتي ذكرهم بعد .

اخوته وأقاربه : وأما اخوته فهم ثلاثة محمد وحامد وعبد الله قتل حامد في قدير ومحمد وعبد الله في الابيض كما مر . وأما أقاربه الأخصاء فهم: السيد احمد شرفي حوه ، وعبد القادر ود ساتي علي ، ومحمود امير الابيض ، ومحمد عبد الكريم، والخليفة شريف،عدا محموداً الذي قتل في واقعة كورتي كما مرّ.

تعاليمه : وكان أساس تعاليمه ان يعيد الدين الى ما كان عليه في اول الاسلام ويملأ الارض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً ، فمن سلم له وبايعه على الجهاد ضمه الى أنصاره ومن لم يتبعه حاربه وأذله سواء كان مسلماً او غير مسلم بلا تمييز . وكان اذا أنكر احد عليه مهديته قتله . واذا خالف له أمراً قاصه اما بالقتل او بقطع اليد والرجل من خلاف. وقد رفع المذاهب الاربعة (وهي المالكي والشافعي والحنفي والحنبلي) وتفرّد بمذهب اجتهادي خاص به وحّد فيه المذاهب بتسوية ما بين بعضها من الخلاف والغـاء البعض الآخر وفرضه على أتباعه مدّعياً انه هو الواسطة بينهم وبين نبي الاسلام في تبليغ الاحكام الاسلام وان فعله كفعل النبي ففرض عليهم ان يتوضأوا كما رأوه يتوضأ ويصلوا كما رأوه يصلي وهكذا في جميع العـادات والعبادات من غير نظر لما تدون بالمذاهب الاربعة المذكورة.وقد أحرق كل كتب السنة والتفسير وأحرق معها جميع الكتب الدينية والعلمية حتى لم يبق في السودان من الكتب

إلا القرآن ومناشيره ورواتبه. واختار لراتبه آيات من القرآن الكريم والحديث الشريف وفرض على أتباعه حفظه غيباً وتلاوته كل يوم مع تلاوة حزب من القرآن بعد صلاة الصبح وصلاة العصر. وقد بدأ بانشاء هذا الراتب منذ اشهار دعوته فأخذ يزيد عليه من وقت الى آخر الى ان اتمه قبل وفاته بقليل.

وقال ان الطريق الموصلة الى الله تعالى محصورة في ستة اشياء وهي : صلاة الجماعة ، والجهاد في سبيل الله ، وامتثال اوامره ونواهيه. والاكثار من كلمة التوحيد ، وتلاوة القرآن ، وتلاوة الراتب. وقد كتب كراساً علم فيه اتباعه كيفية قيام رمضان. وسهل طرق الوضوء ، وعلّم الزهد في الدنيا والجهاد للدار الآخرة ، ومنع الناس من زيارة قبب اوليائهم التي كانوا يزورونها قبل المهدية وقد زربها زرباً قوياً. بل منع الحج الى الحرمين بحجة ان الجهاد اشد لزوماً منه ، وهدم اكثر الجوامع ، ومنع اقامة صلاة الجمعة في الجوامع الاخرى أو انشاء جوامع جديدة إلا بأمره ، وشدد في المحافظة على الصلوات الخمس جماعة. وابطل الرتب والالقاب الرسمية وغير الرسمية ، وساوى الغني بالفقير.

وفرض على جميع اتباعه لباساً واحداً وهو الجبة المرقعة التي كان يلبسها هو ، ومنع النساء من لبس الذهب والفضة وشعر العارية وخروجهنّ مكشوفات الرؤوس وخروج الحديثات السن منهن بين الناس وقاصّ من خالف ذلك بالجلد ولكنه سمح لهنّ بالتحلي في منازلهن بالسوميت والمرجان والصدف واللؤلؤ ، وامر اهل البادية بحلق شعر الرأس ولبس العمة بعد ان كانوا يرخون شعورهم ويدهنونها بالشحم وربما كان هذا من احسن آثاره. وحرّم الاحتفال بالاعراس احتفالاً يدعو الى النفقة وخفض مهر الزواج فجعله عشرة ريالات وبدلتين أي ثوباً وقرباباً للبكر وخمسة ريالات وبدلتين للثيب وعاقب من خالف ذلك بمصادرة أمواله لبيت المال. فسهل بذلك وسائل الزواج على الفقراء وقد كانت نفقات العرس الباهظة تحول بينهم وبين الاقتران فأقبلوا على الزواج حتى ان بعضهم عدّ ٧٠ عقداً عقدت في ليلة واحدة وأبطل الرقص والغناء وضرب الدلوكة الذي اشتهر اهل السودان بحبه وجازى من

خالف ذلك بجلده وتصدير ماله. وحرّم خصي العبيد. ومنع البكاء وراء الميت ، وابطل السحر والتعزيم وكتابة الحُجُب. وحرّم شرب الدخان ومضغه وشرب الحشيش والخمرة وقضى على من خالف أمره هذا بالجلد ثمانين سوطاً والحبس سبعة ايام مع تصدير امواله كلها. وجعل عقاب من شتم بلفظ الكلب والخنزير ٢٧ سوطاً والحبس سبعة ايام وعرف هذا القصاص عندهم والذي قبله « بحق الله ». وأعاد قصاص الرّجم للزّاني والزانية وقطع اليد للسارق.

كتب المناشير : وكان يبث تعاليمه ووصاياه في مناشير ينسخها النساخ. وبعد فتح الخرطوم واستيلائه على مطبعة الحجر الأميرية صار يطبعها بمطبعة الحجر ويوزعها على انصاره. وقد أمر قضاته باتخاذها أساساً لأحكامهم وقال لهم احكموا بالمناشير فاذا عرضت لكم مسائل لم ترد فيها فاحكموا بالكتاب والسنة. وجمع خليفته هذه المناشير في جزئين طبعهما بمطبعة الحجر وجعلها أساساً لأحكامه. وقد أسقط عدة منشورات منها كمنشور المهدي للسنوسي ومنشوره الذي صرّح فيه بفتح مكة وقال انه اسقطها حذراً من ضلال الجهال.

وكان المهدي قد شرع في تأليف كتاب سماه « المجلس » ضمنه ارشادات للصلوات والاذكار وقراءة الراتب وكان القصد ان يضمنه الاحكام الشرعية في المعاملات والديانة ويكون سنّة لأنصاره ولكن المنية عاجلته فمات قبل ان يتمه.

تعاليم المهدي من منشوراته : وأهم منشور نشره المهدي بين اصحابه فضمنه معظم تعاليمه المنشور الآتي وهو بحرفه بعد البسملة :

« وبعد فمن عبد ربه محمد المهدي ابن السيد عبد الله الى كافة الاحباب في الله. أيها الاحباب ان الامر كله لله واليه المرجع والمآب وان النبي ﷺ لما أجلسني على كرسي المهدية قد امرني بجهاد الترك وقال لي ان الترك كافرون بل هم أشد الناس كفراً ونفاقاً لقوله تعالى يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم

وانهم يسعون في اطفاء نورالله تعالى لقوله تعالى يريدون ليطفئوا نورالله بأهانة السنة النبوية واستعطاف الاسلام . وقد أظهروا كتباً يريدون بها طفي نورالله تعالى ويسمونها كتب القانون مع شتم الاسلام وقهره . أما ترونهم يسحبونكم في الحديد والسلاسل لاجل اخــذ أموالكم لا يوقرون كبيركم ولا يرحمون صغيركم ويحملونكم المشاق القوية.لا تتركوهم حتى يسلموكم الاسلحة والاموال فان فعلوا ذلكفلا تسترقوا أولادهم ونساءهم بل أقروهم علىحالهم وهم اخوانكم في الدين وأحسنوا اليهم . وان العمل كله للنية في الجهـاد في سبيل الله كمثل خطافاخذ بمنقاره من ماء البحر قالتعالى ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة عوضاً عنها اذ قتلوا او قاتلوا . قال تعالى ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله امواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون . وقال لي سيد الوجود ﷺ من أنكر مهديتك فقد كفر . وان أرواح الترك اشتكت اليّ وقالوا يا إلهنا ويا خالقنا ان الامام المهدي قتلنا من غير انذار فقلت يا إلهي أنذرتهم وخالفوني وصالوا عليّ وسيد الوجود شاهد علينا. وقال سيد الوجود ﷺ ذنبكم عليكم وانكم خالفتم وصلتم فقتلتم . واني عبد مأمور باظهار الكتاب والسنة المقبورين حتى يستقيما . وقد امرني سيد الوجود ﷺ ان كل من خالفني عدّ كافراً وان الله قد غفر ذنب من اتبعني وقواني . وقد أمرني سيد الوجود ﷺ ان زواج الثيب بخمسة والبكر بعشرة ريالات تخفيفاً لأمته ومن نقص الصداق عنذلك فهو أقرب اليّ من بياض العين الى سوادها وإياكم والزيادات . فامنعوا نساءكم عن النوح والتسنيم وذبح الاموال سرفاً . وأما كيفية الحافرين والحاملين النعش فلا بد من ماله اذا كان له مال وإلا فمن بيت مال المسلمين. فمن بكت او سوّدت الباباو ناحت او حدّت على غير زوجها فتؤدب حتى تظهر توبتها بالضرب والسخط بما يناسب لهـا . ونهيتكم عن التنباك الخبيث فمن شربه منكم فليؤدب حتى يموت او يتوب . وان الجهاد فرض فمن تخلف عنه فهو عاص الله ورسوله ولا تقبـل صلاته ولا صومه ولا صدقته بل أمره كله هدر فمن تركه من غير عذر باين فحكمه كذلك. أطعموا

طعامكم المجاهدين . فمن لم يأخـذ البيعة من الامراء اصحاب الرايات الذين يخرجون من عندنا لاجل الجهاد فهو منافق ملعون . فأما العـالم التابـع لي في مهديتي فهو كالنبي المرسل والعامي التابـع لي كرتبة الشيخ عبد القادر الجيلاني والعالم المخالف لي كفرعون والعاميّ المخالف لي كهامان . ومن علامة مهديتي ان النـار تخرج من ثقب السلاح أي يخرج دخاناً . وان الله قوّاني بالملائكة الكرام وعزرائيل حامل لواء نصرتي وان الخضر وسيد الوجود والاولياء من عهد أبينا آدم الى هنا معي ومؤمن الجن كذلك معي . وقـــد أمرني سيد الوجود ﷺ بأن يخرجوا الاحراز ساعة الملاقاة كون الجان تنفر منه.وأمرني بأن أتوكل على الله كيف يهتم العبد بالرزق حيث ضمن الله رزقه لقوله تعالى وفي السماء رزقكم وما توعدون وقوله تعـالى وما من دابـة في الارض إلا على الله رزقها . كيف يرتقي العبـــد من الأمراض كونه هو الفاعل والتوكل أولى . وكيف يصح للعبد ان يسوء في بساط الخيرات لأن الفاعليفعل والمفعول يدفع لقوله تعالى ومن يتوكل على الله فهو حسبه . ومن سرق منكم سرقة قـل او كثر فاقطعوا يـــده لأنه يوم القيامة يقوم بلا يد ويتخبط كما يتخبط العبد في الدنيا بجس الشيطان لا بارك الله في ولي تركه او امير استعان به . وكذلك الزّاني يرجم اذا كان محصناً ويجلد البكر وأما المرأة فاذا دخلت بالاجنبي الذي يخشى عليها منه فيؤدبان بالاجتهاد لأنالشاب والشابة اذا تلاقيا يكونالشيطان دليلهما فلا بأس بقاضاة الحاجات بحضرة واسطة من الناس . ومن ترك الصلاة او تهاون بها قتل حدّاً في ضرورّية . وأما من تعدى منكم على اخيه ببسط لسانه في عرضه او ماله فهو ليس مني وأنا لست منه . وان ادعيتم انكم أتباعي ولم تفعلوا فعلي فانكم منافقون لقوله تعـالى يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم فاذا لم تتحابوا كالأخوين من الأبوين فليس أنتم اتباعي. ومن ستر على سرقـة رآها او شرب خمر او زنى فكتمه رأفـة عليهم فهو كالفاعل . ومن تخلف عن الجهاد بصحة جسم لا بارك الله فيه . واذا أخذتم ذنب الأبقـــار والاغنام والابل والزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم .

اتركوا الترفهات وفراوي الريف لأن موت النفوس حياتها . والبسوا الجبب المرقعات ولبسوا نساءكم الثياب الخلقة. وان أمري مبهم لا يعرفه إلا اصحاب الحضرة الذين يرون رسول الله ﷺ لقوله تعالى ويخلق ما لا تعلمون . أما ترون الترك لهم الأسلحة النارية والقوة العديدة قد هلكوا وأورثكم ارضهم وديارهم . هذا حصل لهم بمعصية الله كذلك اذا عصيتم الله يحصل لكم كمثلهم لقوله تعالى ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. وأفضل الخلق من اتقاه بمأموراته ونهى نفسه عن منهياته . وان الشخص اذا اخذ البيعة وعاد الى فعله الخبيث فهو كالمرتد . ويقول الانسان اذا الليل أظلم بجناحه الله القادر المقتدر القاهر على كل جبار عنيد ناصر الحق حيث كان به الحول والقوة ان هي إلا صيحة واحدة فاذا هم خامدون اللهم انى أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشائي هذا اليك لم أخرج اشراً وبطراً ولا رياء ولا سمعة خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك أسألك ان تنقذني من النار وان تغفر لي ذنوبي فانه لا يغفر الذنوب إلا انت . ومن قال هذا الدعاء صباحاً ومساء احدى واربعين مرة فهو معي ومع سيد الوجود ﷺ وان عمله كعمل اهل السموات والارض. ولا تجاوروا من ترك الجهاد او فعل منكراً من المنكرات المنهية كتاباً وسنة فاستعينوا عليه فخذوا نفسه وماله غنيمة للمسلمين المجاهدين ان استحل ذلك وإلا فليؤدب . ولا تمنعوا الاراضي لأنها لا تملك بل هي محوزة لبيت مال المسلمين . وأما المجاهد فان استضافكم فأضيفوه وان استغاث بكم فأغيثوه. واما ارباب الجاه الذين اتخذتموهم اولياء ان نهوكم عن متابعتنا فانهم كافرون لا تسمعوا لهم قولاً لأنهم ضالون مضلون بل هم اشد اهل النار وعملهم كعمل الذين قال فيهم ربنا كمثل الشيطان اذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال اني بريء منك اني اخاف الله رب العالمين. وقال لي سيد الوجود ﷺ ان السعيد من اتبعك والشقي من خالفك واني عبد ضعيف ليس لي طاقة على قوام أدنى شيء فضلاً عن ذلك الملك الجائر الذي غيّر السنة النبوية والكتب الازلية واني على بصيرة من الله واعانة من رسوله ومعي سيف النصر لا ينفع الشريف

شرفه ولا العالم علمه ولا الولي ولايته إلا باتباعي والخير كله في تسليمه الأمر أيها الاحباب اني محمد بن عبدالله وأبي حسني من جهة ابيه وامه وامي عباسية من جهة ابيها وامها حينئذ لا شك اني من نسل المصطفى ﷺ واني ولدت في بحر النيل وهاجرت الى ماسة في اقصى الغرب بلصق جبل يقال له قدير لأني موعود به فلا تلبسوا على انفسكم بقول ظهرنا في المشرق المعنى اننا نظهر بالمشرق ويملأ الله لنا البلدان عدلاً كما ملئت جوراً ويدرّ الله لنا الارزاق درّاً ويفيض الماء غيضاً وتتآنس الذياب يعني بها السباع الضارية في الانعام ويؤمن كل مؤمن من سم الحية وهذا كله بعد وصولنا لبيت الله الحرام والبيعة الثانية هي الكبرى وتسمى بيعة الفوز والرضوان . اللهم اجعلنا واخواننا المؤمنين على التقوى لقوله تعالى ان المتقين في جنات وعيون . وقوله تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون . وقال تعالى واتقوني يا اولي الألباب وقال تعالى واتقوا الله لعلكم تفلحون وقوله تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب والتقوى المذكورة لا توجد غاية إلا بالجهاد في سبيل الله والعمل بالكتاب والسنة رأس المال والجهاد ثمنه . ويجب على المجاهدين يعني بهم أتباعنا الذين يلهجون بالذكر في جل احوالهم بالتهليل والتسبيح والتكبير . وان اصحابي كأصحاب رسول الله ﷺ وهذا قاله لي بلفظه الشريف ان اصحابك كأصحابي فلما كان كذلك ينبغي لنا ان نقتفي أثر اصحاب رسول الله ﷺ الذين قال فيهم ربنا تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون وكن كذلك واحمل نفسك ودسها تحت اقدامك لعل الله يعلوك . أيها الاحباب قد أمرتكم ان من ترك منكم عقيقة ابنه فليدعها لأن الروح تشكي اليّ وتقول والدي لم يدعني فاعطني اسماً أدعى به فيقول الله لها سمي نفسك بنفسك وكذلك من لم يسمه ابوه فليسم نفسه ولو بعيد الشيب والهرم فيا حسرة اب لم يسمّ ابنه . وكذلك تجب اعادة الزكاة لمفرطها والصوم والكفارة فتفحصوا من الذنوب. واذا ضعف المجاهدون عن الجهاد أعينوهم أيها القاعدون

اولوا الضرر بثلث مالكم واتقوا نفوسكم بمالكم ولا تخزنوها فيها لكم ضرر وسوء حظ . وحكم النساء ان المرأة الناشزة لزوجها احبسوها في الاوكار والبيوت المظلمة حتى ترجع او يتوفاها الله تعالى كالزانية فمن ثبطت نفسها عن زوجها فمالها غنيمة لزوجها وان راضاها فماله غنيمة للمسلمين فان فعلوا ذلك فلا تعودوهم ان مرضوا ولا تشيعوا جنائزهم ولا تعينوهم عند الشدائد . ولا يجهل في مهديتي إلا شقي محروم الحظ وعادم الخير والاحسان . واعلموا ان الوقت قد أزف وربما قام كالشمس تكون في اوكار غروبها . وتجنبوا عن النساء واللذات العديدة التي تورث صاحبها الكبر والبطر وجاهدوا في حق الله حق جهاده ايها الاحباب الناظرون لرضوان الله الواحد القهار . وناصحوا المؤمنين وحب لأخيك المؤمن كما تحب لأخيك من ابويك وقدم حب اخيك المؤمن على نفسك وذلك الوقت تكون صاحبنا فان لم تكن كذلك بل انت مغرور وقد حرّم الله عليك سيد الوجود . واموال الغنيمة وان قلت كابرة فانه لا يدخل الجنة إلا من اخذها بقسمة او شراء او استحق شيء من بيت مال المسلمين فان من سرق منها لا تقبل عمله حتى يردها او قيمتها. فمن أعان مجاهداً بلقمة او درهماً او اناء شرب او آلة حرب فكان يوم القيامة تحت ظل العرش ومن ناصح مجاهداً فكأنما ناصح محمداً ﷺ وأمن في الجنة . ليتعلم بعضكم من بعض وليتأدب بعضكم لبعض وليكسر طرفه لأخيه المجاهد . وان لا يعلوا عليه وان يساويه في الفراش والاكل إلا الضرر البيّن وان الامراء والعاميين فكلهم على حدّ سوى إلا في الامر والنهي فليحبوهم ولا يتفاضلون عليهم في المركب والملبس والاكل فمن فعل ذلك فهو مردود منا . وقال في الغنيمة المتقدمة وما كان لنبي ان يغلّ ومن يغلل يأتِ بما غلّ يوم القيامة فهو العتاب عدم نهب الغنيمة للنبي وغيره . فمن جاهد خوفاً على ماله او عياله وجاهه فهو مخسور عند الله كالصدقة تخرج الناس . ايها الاحباب كونوا ربانيين وفوّضوا امركم الى الله فان النصر لكم وان القتل الذي ترونه امتحاناً لكم وليس يريد به تضعيف المسلمين وان الله مع المؤمنين والسلام » .

تعاليم المهدي عن استاذه محمد شريف: وجاء في رائية الاستاذ محمد شريف عن تعاليم المهدي ما يأتي بحرفه مع اصلاح وزن بعض الابيات :

أكاذيب ابداها فمنها عن النبي	ومنها عن المولى ومنها عن الخضر
كأخباره بالخسف والمسخ للعدا	وكم في قدير من سلاح ومن تِبر
ومن بعضها تحليل كل جميلة	ولو ذات بعل دون عقد ولا مهر
ومنها روى عن زوجة المتخلف	بما لم يكن في المسلمين ولا الكفر
ومنها اصلي في الجوامع كلها	الى المسجد الاقصى ولم يدرِ مايجري
ومنها انا المهدي منتظر الورى	ولم يستحِ من عالم السرّ والجهر
وينهى النساء عن حليهنّ وان بدت	بها كان منه والحكم بالنتف للشعر
وينهى عن التنباك نهياً كأنما	أتى منعه في الذكر من شدة الزجر
وينهى عن الارباح في الاخذ والعطا	ويمنع عن حرث وعن سبب الخير
وينهى عن العلم وعن كل واجب	ويأمر بالمنهي وينهى عن الامر
ويمنع عن حجّ ~~وينهى عن النبي~~	ويمنع عن درس وينهى عن الذكر
يبيح حرام الدين كالمال والزنى	وسفك الدما والبيع للمسلم الحر
وينسخ حكم الله بالرأي والهوى	ويقضي بالقاء الشريعة في البحر
ويزعم بالجهل المركب فضله	على الانبيا إلا الرسول فذو شطر

مراتب اصحاب المهدي : وقد كان انصار المهدي مراتب متفاوتة في المقام والكرامة بحسب أسبقيتهم في الانضمام اليه : فالمرتبة الاولى « تلامذته » الذين صحبوه قبل ادعائه المهدية ويقال لهم أبكار المهدي . والمرتبة الثانية « انصار أبا » أي الذين نصروه في أبا . والمرتبة الثالثة « انصار قدير » أي الذين هاجروا اليه وهو في قدير . والمرتبة الرابعة « انصار كابا » وهم الذين خرجوا له من الابيض الى كابا . ثم باقي الانصار وهم ايضاً طبقات بحسب أسبقيتهم في صحبته فأهل بارة اكرم من اهل الابيض وهؤلاء اكرم من اهل الخرطوم وهكذا . قيل ان اللواء ابراهيم باشا فوزي اجتمع بالملازم يوسف

افندي منصور في بيت الحاج خالد العمرابي بعد سقوط الخرطوم فلما حضر الخادم بالقهوة قدّمها الى يوسف منصور اولاً فأشار هذا اليه ليذهب بها الى ابراهيم باشا فالتفت الحاج خالد الى يوسف منصور وقال لماذا تردّ القهوة وتقدمها الى ابراهيم فوزي قال يا سيدي لأنه أكبر مني مقاماً فقال الحاج خالد لا بل انت أكرم منه الآن لأنك اسبق الى صحبة المهدي . وكان الخادم قد قدّم القهوة الى ابراهيم باشا فلما سمع كلام سيده اخذ الفنجان من يد ابراهيم باشا وأعطاه ليوسف منصور ثم قدّم لابراهيم باشا فنجاناً فاعتذر عن شربه وانصرف وهو يحرق الارّم على المهدية وساعتها .

اهل السودان ودعوى المهدي : وقد صدّق اهل السودان خاصتهم وعامتهم دعوى المهدي ونصروه وهم لا يشكّون ان من مات في سبيله فنصيبه الجنة والحور والعين حتى صاروا يتمنون الموت وينادون عند رؤية القتال «الجنة جت قريبة تحت المدفع وتحت الزريبة» . وقد سموا التجار بـ «كلاب الدنيا» لتقاعدهم عن الجهاد . وحُكي ان جعلياً جرّ صديقاً له الى المحاكمة لأنه قال له عند وداعه « الله يكتب سلامتك » . ولم يبقَ في السودان من شك في دعوى المهدي إلا نفر قليل من الادباء العقلاء وهؤلاء لم يجسروا على الاباحة بسرّهم حتى الى نسائهم خوفاً على انفسهم من نقمتهنّ فضلاً عن نقمة المهدي . ومن أباح منهم بسرّه قتل إلا ثلاثة من العلماء خطأوا المهدي في وجهه قصد إراحة ضميرهم مع الله فسلموا وهم :

« الشريف محمد الامين بن الشريف يوسف افندي » من سكان رهد النيل الازرق. قيل ان المهدي كتب اليه يأمره بالانضمام الى عامله احمد المكاشف او الهجرة اليه في الابيض فاختار الهجرة اليه ليختبره وأتاه الى الابيض بعد فتوحها في شوال سنة ١٣٠٠ فأنزله مع الشريف حمد النيل قرب ديوان المديرية فلما خبره أنكر عليه أشياء كثيرة ولم يكن له القدرة على ردعه ولم يطاوعه رأيه على المظاهرة بنصرته فقال للمهدي في بعض زياراته له « اني أستحلفك الله ان تتركني وشأني فلا تزورني ولا تدعوني الى زيارتك » قيل وطلب من الله

ان يقبض روحه وينجيه من هذه الضلالة فلما زحف المهدي من الابيض لغزو الخرطوم خرج معه فتوفاه الله في رهد كردوفان في ٢٧ رجب سنة ١٣٠٠ ﻫ ودفن هناك رحمة الله عليه . وقد رأيت نجله الشريف يوسف الهندي في مصر فأكد لي هذه الرواية وقال انه سيبني قبة فوق قبره في وقت قريب .

« والشيخ محمد الزاكي من اقارب ود الزاكي المدفون على البحر الابيض ». قيل انه كتب الى المهدي يصرّح له في الامور التي خالف بها الشريعة واحدة واحدة وقال له : اني أكتب هذا اليك لمجرد النصح فأملي ان تعمل وتخفيه عن اصحابك لأنهم لو علموا به لقتلوني جهلاً فان أخفيته وحفظت هذه النصائح فأنت جدير بذلك وان لم تخفه ولحقني شرٌّ بسببه فأعدّه «كلمة حق عند ملك جائر» فأخفاه المهدي عن اصحابه ولكن اباح به ود الزاكي لبعض اخصائه.

« والشيخ محمد نور احمد من عمد بارة » . قيل انه كان يصلي كثيراً بالصلاة الجزولية فلما أمر المهدي بمنع قراءة الكتب كلها اغتاظ من منع كتاب الصلاة الجزولية فحمله بيده وتقدم الى المهدي وقال له اني لا أستطيع ترك هذه الصلاة وانا راضٍ بما يصيبني من قراءتها فكتب اليه المهدي كتاباً يسمح له بقراءتها هذه صورته بعد البسملة :

« وبعد فمن عبد ربه محمد المهدي الى حبيبه محمد النور وقاه الله الشرور اننا قد قلنا ان من أمكنه ان يصلي على النبي بالصلوات الواردة المأثورة فخير لأجل الاقتداء ومن كان لا ينشط لذلك فليصلي على النبي بما ينشطه من جزوليته او غيرها والسلام » .

العالم الاسلامي ودعوى المهدي : هذا وقد اهتز لمهدي السودان العالم الاسلامي في جميع الأقطار وهاجر اليه جماعة من مصر والحجاز والهند وبلاد المغرب قصد زيارته والوقوف على حاله ولو أطال الله في أمده وزاد في توفيقه لقلب وجه الشرق انقلاباً عظيماً ولكن لطّف الله بعباده وأوقفه عند هذا الحد فلم تتعدَّ نصرته السودان .

الحكومة ودعوى المهدي : وكانت الحكومة قد تحوطت له فأصدر جلالة السلطان عبد الحميد السلطان الحالي أيده الله منشوراً رسمياً كذّب فيه دعوى محمد احمد ونشره في جميع البلاد الاسلامية . وكذلك استفتى علماء الازهر في شأنه فأفتوا بتكذيبه ونشر مجلس النظار منشوراً بذلك . قال العوّام في نصيحته المنشورة : « ان الحكومة لم تستفتِ علماء الازهر في أمر المهدي إلا في شهر محرم سنة ١٣٠١ هـ أي بعد مباشرتها الحرب سنتين وأربعة أشهر وعجزها عن القيام باستمرار الحرب فكان رجوعها بعد ذلك الى الاستفتاء رجوع فرعون الى الايمان » . ثم لما ذهب عبد القادر باشا والياً على السودان أوعز الى علماء الخرطوم فألفوا الرسائل في تكذيب محمد احمد وتسفيه رأيه وقد طبعت في مطبعة الحجر في الخرطوم ووزعت في البلاد وأشهر هذه الرسائل :

رسالة السيد احمد الازهري ابن الشيخ اسماعيل الولي الكردوفاني شيخ الاسلام في عموم غرب السودان المسماة بالنصيحة العامة لأهل الاسلام عن مخالفة الحكام والخروج عن طاعة الامام . ورسالة الشيخ الامين الضرير شيخ الاسلام في عموم شرق السودان المسماة هدي المستهدي الى بيان المهدي والمتمهدي . ورائية الاستاذ محمد شريف المار ذكرها . ورسالة المفتي شاكر مفتي مجلس استئناف السودان . وهذه هي :

رسالة المفتي شاكر الغزّي

في بطلان دعوى محمد احمد المتمهدي

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي جعل السلطنة سراً من أسرار الالوهية وفرضاً من الفروض الشرعية الدينية . وجعل لزوم طاعتها فرضاً لازماً وأمراً جازماً . والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي بين الحلال والحرام وأزال الشكوك والاوهام . وعلى آله وأصحابه السادة في الاهتداء وشموس

الاقتداء فيقول العبد الفقير شاكر الغزّي مفتي مجلس استئناف السودان بلغه الله أقصى منازل الرضوان :

لما كان ما ادعاه محمد احمد من المهدية بعيد عن الصدق بالكلية وصدقه في مدعاه جهلة العوام والأوباش الطغام جمعت هذه الرسالة في نصحهم وارشادهم من هذه الضلالة مرتبة على مقدمة وفصلين وخاتمة فأقول والله المستعان .

المقدمة

في وجوب طاعة السلطان وولاة الامور

اعلموا أيها الاخوان أصلح الله لي ولكم الشأن ان الدين والسلطان اخوان متلازمان فالدين هو الأساس والسلطان هو حافظه ومشيده وما لا حافظ له ضائع يعز تأييده فلا دين إلا بالسلطان . فالسلطان في الحقيقة هو القائم بحماية الدين وحفظ بلاد المسلمين وهو ظل الله في ارضه وبه تقام شعائر سنته وفرضه فهو خليفته على خلقه وأمينه على رعاية حقه قد ارتضاه من خليقته وأمرهم بطاعته . قال تعالى اطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم . وقال ﷺ عليكم بالسمع والطاعة وان تأمر عليكم عبد حبشي كان رأسه زبيبة . وقال عليه السلام تسمع وتطع وان ضرب ظهرك وأخذ مالك . واعلموا ان من أوضح الأدلة السالمة من الاعتراض الحاسمة أبواب الانتقاض ما ورد في القرآن العظيم وسنة النبي الكريم من الأمر بالاعتصام بالكتاب والسنة والائتلاف وعدم النزاع والخلاف قوله وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم . وقال تعالى واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا . وقال تعالى لو أنفقت ما في الارض جميعاً ما ألّفت بين قلوبهم ولكن الله ألّف بينهم والمراد بحبل الله المعتصم به هو القرآن وهو اختيار جماعة من أئمة التفسير . ونقل عنه عليه السلام انه قال ان الله رضي لكم ثلاثاً وكره لكم ثلاثاً رضي لكم ان تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً . وان تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا . واسمعوا وأطيعوا لمن ولاه الله تعالى أمركم . وكره لكم قيل وقال واضاعة

المال الحديث . وقال عليه السلام المؤمنون كالبنيان يشد بعضه بعضاً . وقال عليه السلام من حمل علينا السلاح فليس منا . وقال عليه السلام من رأى من أميره شيئاً فكرهه فليصبر فانه ليس احـــد يفارق الجماعة شبراً فيموت إلا مات ميتة جاهلية . واعلموا ان نور التألف ينسخ ظلم العداوة من القلوب ويكون ستراً من هجوم الحوادث وسداً في وجه الخطوب . وقديماً شبت في القبائل والعشائر نار العداوة فأحرقتهم وانبسطت يـد المنازعة والمخالفة بينهم فمزقتهم واستلت فيهم سيوف الاحن والبغضاء ففرتهم ولمعت بروق التقابـل والتقاتل فتألقت . ثم هبت عليها رياح التآلف والاتفـــاق فأطفأت ضرامها وصرفت غرامها وشفت سقامها ونفت عنهـا آلامها وملامها فتبدلوا بالاساءة احساناً وبالمخالفة أماناً وبالمنافرة اذعاناً وبالنقيصة رجحاناً فعادوا بعد التباين صنواناً وأصبحوا بنعمة الله اخواناً . فاذا علمتم ذلك وعلمتم ما تضمنته هـذه الآيات الكريمـة والأحاديث العظيمة من وجوب طاعة ولاة الأمور وحرمة قتالهم والخروج عن طاعتهم أيقنتم ان من خرج عن الطاعـة شبراً فقد عصي الله ومات ميتة جاهلية . واذا علمتم ايضاً ما في الخلاف والمنازعـة والعداوة من الخراب والدمار أيقنتم ان الواجب عليكم الرجوع الى الائتلاف والاتفاق فاتقوا يوماً ترجعون فيه الى الله ثم توفّى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون. فذكروا انفسكم رحمكم الله تعالى فان الذكرى تنفع المؤمنين .

الفصل الاول

في بطلان دعوى محمد احمد المهدية

ان بعض العلماء قال بظهور المهدي في آخر الزمان واحتجوا لذلك بأحاديث خرجها الأئمـة . وبعض العلماء أنكرها وتكلموا فيها وربما عارضوها ببعض الاخبار . وللمتصوفة المتأخرين طريقـة اخرى في امره . ورمز بعضهم الى خروجه في جفـج اشارة الى انه يخرج سنة ٦٨٣ . ورمز بعضهم الى خروجه في سنة ٧٠٠ وكسور وغير ذلك ولم يخرج . فللعلماء فيه قولان قول بخروجه

في آخر الزمان وقول بعدم خروجه . وعلى القول بخروجه فهذا ليس زمانه. ومحمد احمد ليس هو المهـــدي المنتظر لمخالفته له في اوصافه وفي مكان مولده ومكان خروجه ووزرائه ورجاله . فما ورد من ذلك ان مولد المهدي المنتظر ومظهره بمكة كما في العرف الوردي والصواعق . وقيل مولده بالمدينة . وقال العلقمي والقول بأنه يخرج من المغرب لا اصل له وعلى تسليم صحته فالذي قال بخروجه من المغرب قال انه يخرج بموضع يقال له ماسة وراء السوس الاقصى. وأنتم لا يخفى عليكم ان مولد محمد احمد بدنقلة وخروجه بجزيرة ابا وجبل قدير فقد باين المهدي في المولد والخروج وهذا دليل على بطلان دعواه وظهور كذبه وافتراه. ومنها انه من عترته ﷺ أفرق الثنايا أجلى الجبهة وجهه كالكوكب الدري ومحمد احمد ليس كذلك . ومنها انه شاب أكحل العينين ازج الحاجبين أقنى الانف كث اللحية على خده الايمن خال وعلى يده اليمنى خال وهـــذه الاوصاف تباين اوصاف محمد احمد وهو ايضاً برهان قاطع بعدم صحة دعواه وبطلانها . ومنها انه يشبه رسول الله ﷺ في الخَلق ويقرب منه في الخُلق وانتم تعلمون ان لونه ﷺ ابيض مشرب بحمرة كما في الشمائل الترمذية ولون محمد احمد ليس بأبيض كما هو مشاهد لكم فمن اعتقد ان لون نبينا ﷺ كلونه فقد انتقصه وحكم منتقصه ﷺ الردة حتى قال في الشفاء لا تقبل توبته وهذا دليل ايضاً على عدم صحة دعواه . وأيضاً لا يقارب خلقه ﷺ لقتله المسلمين واستباحة أموالهم وحملهم على قتـل بعضهم بعضاً ورسول الله ﷺ منزه عن ذلك . ومنها انه ينادي عند ظهوره فوق رأسه ملك هذا المهدي خليفة الله فاتبعوه ومحمد احمد ليس كذلك فكيف تتوهمون في عدم صحة دعواه الباطلة وهذه الاحاديث تكذبه أكذبتم بأحاديث رسول الله والعيـــاذ بالله تعالى . ومنها ما أخرجه الحاكم في صحيحه عنه عليـه الصلاة والسلام قال يحل بأمتي في آخر الزمان بلاء شديد من سلطانهم لم يسمع بلاء أشد منه حتى لا يجـــد الرجل ملجأ فيبعث الله رجلا من عترتي اهل بيتي يملأ الارض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً يحبه ساكن الارض وساكن السماء وأنتم لا يخفى عليكم ان

شدة البلاء من السلطان وعـدم الملجأ لم يوجدا فأنا وأنتم في رغد من العيش آمنين مطمئنين وملجأنا وملجأ العامة موجود وهو ولي النعم الخديوي الاعظم وسعادة افندم ناظر ديوانه وحكمدار عموم الاقاليم السودانية «عبدالقادر باشا» بلغه الله ما يشاء . والمأمورون من تحت ادارتـــه تلجأون اليهم في مهاتكم فيأخذون بيد المظلوم وينتقمون من الظالم . فلا يتوهم حينئذ ظهور المهدي في هذا الزمان لأن هذا الزمان ليس زمان ظهوره لوجود الملجأ وفقد البلاء. وان كنتم تتوهمون انـه المهدي فأين ملؤه الارض عدلاً وقسطاً كما في الحديث بل والله ما ملأها إلا قتلاً وفساداً وخراباً كما هو مشاهد وأين حب ساكن الارض له هل يحب العاقـل من يسعى في الارض بالفساد وينهب ويقتـل العباد وهل يرضى احد بفقـد الامن وقتـل المسلمين بغير حق وتفريق كلمتهم . فاعتبروا يا أولي الابصار وانظروا بعين الاستبصار واعتقدوا ان محمد احمد ليس مهدياً وكذبوه في دعواه لما بسطناه من الاحاديث ولما ورد عن رسول الله ﷺ ان رجـال المهدي المنتظر الهيون ابدال الشام وعصائب اهل العراق فهل رأيتم يا جهلاء المسلمين معه رجالاً الهيون من ابدال الشام وعصائب اهل العراق كلا والله ما معه إلا جهلة العوام واوباش الطغام كما هو ظاهر لكم وهذا دليل ايضاً يكذبه في دعواه . ومنها انه يخرج لقتال يوسف السفياني لا لقتـــال المسلمين ومحمد احمد انمـا يقاتل المسلمين ويقتلهم ظلماً فهل رأيتم في كتاب الله او سنة رسول الله ان المهدي يقاتـل المسلمين ويقتلهم وينهب أموالهم وهو انمـا يظهر لحماية الدين ونصرة المسلمين . وأين السفياني وجيوشه الذين خرج محمـــد احمد لقتالهم فهذا برهان آخر على ان دعوى محمد احمد زور وبهتان . ومنها ان المهدي يبايع وهو كاره لهذه البيعة ومحمد احمد يندب الناس الى مبايعته ويقتل من لم يبايعه وهذا دليل على ضلال محمد احمد وبطلان دعواه . ومنها ان المهدي المنتظر لا يخرج عن الكتـاب والسنة ومحمد احمد نبذ كتاب الله وراء ظهره وإلا فالكتـاب والسنة لا تبيحان الخروج عن طاعة الامام والكذب والغش والتلبيس على المسلمين وقتلهم ونهبهم بـــلا حق والشرع لا يبيح قتل الكافر

المؤمَّن والمعاهد ولا نهب ماله فأين العمل بالكتاب والسنة فهـذه عدة أدلة نقلناها في بطلان دعواه. فهل رضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة وما متاع الحيوة الدنيا في الآخرة إلا قليل ام قبلتم الخروج عن سنن الكتاب والسنة وانقلبتم على أعقابكم خاسرين أهكذا شأن المسلمين فكيف ترضون باقرار هذه المعاصي بين أظهركم ولمَ لا تغيرون هذا المنكر من بين أظهركم. فيا أيها المسلمون أنشدكم الله تعالى في دينكم لا تغيروه بوساوس محمد احمد الشيطانية وهذياناته النفسية. فانا رأينا وسمعنا كثيراً من ادعى المهدية قبله كابراهيم السوداني فانه ادعى المهدية بالخرطوم واتخذ محمدالهراف وزيراً وتلاشى أمره وبطلت دعواه بقوةالحكومة. وكذلك الشيخ احمد بن عبيد المدعي انه المهدي بصعيد مصر قد تلاشت دعوته الباطلة وفرقت جموعه العاطلة وغير ذلك ممن ادعى المهدية بل النبوة بل الالوهية كالمقنع الكندي وبطلت دعواهم وكذبهم الكتاب والسنة فيها وانقطع امرهم. فاعلموا ان محمد احمد هذا قد تأسى في دعواه هذه بمن ادعاها قبله وسيحل به ان شاء الله تعالى ما حل بهم فاتقوا الله عباد الله وأزيلوا هذا المنكر بما قدرتم لأنه ورد عنه عليه السلام من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فان لم يقـدر فبلسانه فان لم يقدر فبقلبه وذلك اضعف الايمان والله سائلكم عن ذلك .

الفصل الثاني

في النهي عن اتباعه ونصيحة من اتبعه

قد أوضحنا لكم السبيل السويّ ونقلنا لكم القول القوي ممـا ليس فيه شائبة توهم ان محمد احمـد هو المهدي فلا يتبعه إلا من استحكمت عليه عوائد التوحش ووقع في ظلمات الجهل والطمع في ايدي الناس وباع دينه بدنياه فجملة أتبـــاعه من حمقى العربان وحمقى الدراويش الذين ليس لهم مقصد إلا النهب والسلب والقتل اذ انهم أضل من الأنعام سبيلاً لا بصيرة لهم ولا معرفـة ولا دين . فما مثال هؤلاء الأتباع إلا كمثـــال امرأة عجوز سمعت ان الشجعان والابطال من المقاتلين ثبتت أسماؤهم في الديوان ويقطع لكل واحد منهم قطر

من اقطار المملكة فتاقت نفسها الى ان يقطع لها مملكة فلبست درعاً والبست على رأسها مغفراً وتعلمت من رجز الأبطـــال أبياتاً وتعودت ايرادها بنغماتهم حتى تيسرت عليها وتعلمت كيف تبخترهم في الميدان وتحريكهم الأيدي وتلقفت جميع شمائلهم في الزّي والمنطق والحركات والسكنات ثم توجهت الى المعسكر ليثبت اسمها في ديوان الشجعان فلما وصلت الى المعسكر أنفذت الى ديوان العرض وأمر بأن تجرّد عن المغفر والدرع وينظر ما تحته وتمتحن بالمبارزة مع بعض الشجعان ليعرف قدر عنائها فلمـــا جردت عن المغفر والدرع فاذا هي عجوز ضعيفة زمينة لا تطيق حمل الدرع والمغفر فقيـل لها أجئت للاستهزاء بالملك والاستخفاف بأهل حضرته والتلبيس عليهم. خذوها فألقوها قدام الفيل لسحقها فألقيت الى الفيل وهكذا يكون حال الجهلة الطغام الذين لا يعرفون عاقبة ما هم فيه المغرورين الملبسين الذين سوّل لهم الشيطان أعمالهم فصدّهم عن السبيل وما كانوا مهتدين . فاياكم أيها الاخوان الاقتداء بهؤلاء الجهلة والعمل بأعمالهم فيجب عليهم ان يرجعوا الى طاعة الحكومة ولا يقتـــدوا بشيخهم ابليس لأنه اذا كشف عنهم الغطاء وأتتهم الجلل والمدافع والبنادق والرصاص لتمنوا الخلاص ولات حين مناص اذ ما من احـد ينكر ان عساكر الحكومة هي مئات من الالوف وان الحكومة قادرة في كل وقت على تجديد الوف الالوف من العسكر وتجهيزها بالمهمات الكافية الحربية وعلى تشكيل القوى العديدة وان حصول التلف لجزء من عساكرها لا يؤثر في الحكومة شيئاً ولا تعتـــد به لاقتدارها على تجديد أكثر منه في اقرب وقت . فبمجرد وقوع الفشل لبعض العساكر في بعض الوقائع لتهاون الضباط واهمالهم لا تؤيد دعوى الشقي محمد احمد اذ لذلك امثال مضت ووقائع تقدمت . ألا ترون ما وقع من عساكر الحكومة مع العصاة الذين كانوا بجهـة شكا ودارفور وغيرها ففي اول الأمر أوقعوا الفشل في عساكرها ثم انتصرت عليهم عساكر الحكومة وعـاد عليهم العصيان بالوبال والخسران وذهبوا فريسة عساكرها جزاء خروجهم عن الطاعة وأمثال هذا كثير يعلمه من شاهد الحوادث او سمع بها . فكيف يتصور بعقل

عاقل ان هـذا الشقي بمجرد اجتماع شرذمة من المفسدين عليـه غايتهم السلب والنهب يقاوم حكومة لها مئات من الوف العساكر والجيوش قادرة بمنه تعالى على تسليحهم بأسلحة نارية وآلات حربية . وهذا ما أعد لهم في الدنيا وقـد أعد الله لهم جهنم وساءت مصيراً جزاء خروجهم عن طاعة الله ورسوله وولاة الأمور وقتلهم النفس التي حرّم الله قتلهـا ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها فالله الله عباد الله عليكم بتقوى الله تعالى والعمل بكتـاب الله وسنة رسوله وارجعوا الى طاعة الله وطاعة الحكومة ولا تتبعوا الأوهام الشيطانية والوساوس الخرافيـة وأنشدكم الله في دمائكم وأموالكم ودينكم ألا تضيعوها بمتابعة محمد احمد الشقي وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .

الخاتمـــة

في وجوب قتل الخوارج ونصر السلطان

اعلموا أيها الاخوان قد أجمع أئمة الدين ان الخروج عن الطاعة من الكبائر ولو جار السلطان لا يجوز الخروج عليه ويجوز له قتالهم. ويجب عليكم قتال الخوارج معه ونصرته عليهم لخلعهم ربقة الاسلام قال ﷺ من فارق الجماعة شبراً فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه . وقال ﷺ يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان سفهاء الأحـلام يقولون من قول خير البرية يمرقون من الاسلام كما يمرق السهم من الرمية لا يجاوز ايمانهم حناجرهم فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فان قتلهم أجر لمن قتلهم يوم القيامة . وعنه عليه الصلاة والسلام قال سيكون في أمتي اختلاف وفرقـــة قوم يحسنون القول ويسيئون الفعل يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية لا يرجعون حتى يرتد على فوقهم هم شر الخلق والخليقة طوبى لمن قاتلهم وقتلهم يدعون الى كتـاب الله وليسوا منه في شيء من قاتلهم كان أولى بالله منهم . فعليكم أيها المسلمون ان تنصروا الله تعالى بنصر سلطانكم قال تعالى ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم . فيجب عليكم صيانة لدينكم وحفظاً لأموالكم ودمائكم ان

تقاتلوا هؤلاء الخوارج الدجالين وتقتلوهم حيث وجدتموهم وان تمنعوا كل من أراد الخروج معهم وتفرقوا جماعتهم وتمنعوا زيادتهم ويحرم عليكم جلب السلاح اليهم وكلما يؤدي الى قوتهم وزيادتهم حتى يرجعوا الى الحق ويعلنوا الطاعة ولا يغرنكم قول محمد احمد الشيطان الغرور ان يخرج عليكم مدافع الترك وبنادقها ورصاصها ماءً بارداً لا ناراً وانه يمسك سر النار لكم فهذا كذب وغرور وبهتان وزور لا صحة له ولا دليل عليه بدليل ان الرصاص من الترك اصابه في كتفه ولم يقدر ان يجعله ماء على نفسه فكيف يجعله عليكم ماء وهذا وزيره ولد المكاشف واحمد ولد طاها وغيرهم ممن كانوا بجزيرة أبا وغيرها وجميع من كان معهم من حزب الشيطان قتلهم الرصاص ولم يجعله عليهم ماء كما هو مشاهد لكل مطلع بالعيان . فيا أتباع محمد احمد قد اوضحنا ما أنتم عليه ومحمد احمد من الباطل مؤيد بالكتاب والسنة وعلمتم حكم الله فيكم فالله الله في دمائكم ودماء المسلمين والدين. فبادروا الى الحكومة بطلب العفو والأمان وتقربوا اليها بالسمع والطاعة وتوبوا الى الله تعالى وتوسلوا اليه باتباع أوامر الحكومة واجتناب نواهيها فانها تقبل متابكم وتعفوا عن عقابكم وتشملكم بالرحمة والاحسان والعفو والامان . وها قد بذلت لكم النصيحة فاتركوا الأفعال القبيحة فكم للحكومة عليكم من الاحسان الجليل والغفران الجزيل فانها ربتكم فوق مهد عدلها وأدرّت عليكم وافر فضلها وخلصتكم من ملوككم الاولين الذين اتخذوكم عبيداً وخولاً وعمرت بلادكم وأمنت اوطانكم وكثرت زراعتكم بعد ان كانت بلادكم بغاية الخراب والبوار وأموالكم وذراريكم للنهب والاسار لا تملكون خطيراً ولا حقيراً . والآن لله الحمد صرتم بفضلها وحسن سياستها في غاية الامن والعمار وكثرة الغنى واليسار ومع ذلك فهي تنفق على عمار بلادكم وحفظ حياتكم المبالغ الوافرة من خزائنها العامرة ولا تحملكم دفع شيء من ذلك . وما تأخذه منكم من المطاليب الميرية ينفق مع زيادة عليه منها في مصالح بلادكم الضرورية . ومع هذا فلا يبلغ مطلوبكم نصف مطلوب مديرية من المديريات مع ان الله تعالى أوجب

عليكم ان تدفعوا للحكومة زكاة سائمتكم من ابل وبقر وغنم وخراج أراضيكم واذا حاسبتكم الحكومة على ما هو واجب عليكم دفعه شرعاً اليها وأخذت منكم على مقتضاها يكون اضعاف ما يؤخذ منكم من المطاليب الآن . فمع شمولها بهذه الشفقة والرحمة الخديوية كيف يليق بكم ان تقابلوها بالعصيان وتتبعوا حزب الشيطان واهل الفساد والبهتان وتسعوا في خراب دياركم وقتل نفوسكم ونهب أموالكم فلولا شفقتها ورحمتها بكم لأنزلت بكم العذاب وعاملتكم بأشد العقاب فاقبلوا هذه النصيحة وأسال الله لي ولكم الهداية في المبدأ والنهاية وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم»
انتهت . ويليها :

رسالة السيد احمد الازهري

في تكذيب دعوى محمد احمد المتمهدي

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي خصّ من اصطفاه بالهداية وهدى من وفقه الى سلوك سبيل الرشد بمحض العناية والصلاة والسلام على حبيبه ورسوله الذي أنزل عليه كتابه الذي لم يفرط فيه من شيء وعلى جميع آله واصحابه الناهجين منهاجه في تبيين الرشد من الغيّ .

«أما بعد فأقول وانا الذي من كل حول وقوة بريء الفقير اليه تعالى «السيد احمد المعروف بالأزهري ابن الشيخ اسماعيل الولي الكردوفاني» أفاض الله تعالى عليّ وعلى المسلمين من فيض مدده الرحماني . انه لما كانت النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم من الدين وقد ورد ذلك في الأحاديث الصحيحة عن سيد المرسلين وخاتم النبيين وورد عنه ايضاً من لم ينصح في ديننا هذا فليس منا أي ليس تابعاً لسنتنا وورد عنه ايضاً من لم ينصح في ديننا هذا فبيعته منقوضة وغير ذلك مما لا يمكننا ايراده هنا قد عنّ لي ان أتدرك نفسي والمسلمين من اتباع الوساوس الشيطانية واقتحام سبيل المهالك بالتسويلات

النفسانية وذلك لما تحقق عندي من عموم البلوى التي انتشرت ببلاد السودان حتى ضاعت بسببها الالوف المكررة من دماء المسلمين وأموالهم خصوصاً في جهات سنار وجهات كردوفان وانجبرت الحكومة العثمانية على بذل التكاليف لتحصيل العُدَدِ والعدَد غيرة على الدين والاسلام وأهله لأجل الذب وردع المفسدين بسطوة الدولة وقوة المدد . وحيث ان شتيت القبائل من العربان وغيرهم أغلبهم عوام وقد قام بأفكار ارباب العقول الضعيفة ما قام بها من الاوهام نظراً لما سمعوه من دعوى المهدية التي قام بها محمداحمد وصدور مكاتبات منه لبعض من يظن انه يعتمدها وتكون له كالمستند وقد هيجت تلك الدعوى وما اشتملت عليه من المكاتبات فتنة عظيمة بين المسلمين حتى صار البعض منهم يقتل بعضاً وينهب ماله من غير حق الاسلام وغاب عنهم ما حذر الشارع ﷺ وصرح بأن ما كان مماثلا لما ارتكبوه لا يشك فيه بأنه حرام . وكان قبل خروجي من محل وطني كردوفان قد بلغني ان مدعي المهدية المذكور قد خاطبني بكتاب وكنت حريصاً على وجدانه والنظر لما اشتمل عليه من الخطاب ولكني لم أجده ولم اجد احداً يكيّفه لي لكي أبني عليه مخاطبة تشتمل على ما لا بد منه من النصيحة وأوضح فيها ما يحتاج اليه من النصوص الصريحة رجاء مني بأنها ان وصلت اليه وتليت بين يديه فانه لا يسعه إلا الرجوع الى الحق ومقابلة أولي الأمر بالسمع والطاعة وتسكين هذه الفتنة التي هاجت بين الخلق وما كنت أظن اشتداد هذه الفتنة يبلغ هذه الغاية حتى مررت بجزيرة الخرطوم قاصداً التوجه الى مصر المحروسة وبعد وصولي الى الخرطوم تراكمت عليّ المخاطبات بوصول تلك البلوى والفتنة الى ما ليس له نهاية . ثم لما حضر صاحب الجلالة والشهامة والرأي السديد والتدبير الكامل والبسالة والفخامة ناظر الديوان وحكمدار عموم الأقاليم السودانية « سعادتلو عبد القادر باشا » بلغه الله تعالى غاية الأمنية بمركز الحكومة الذي هو في الخرطوم وبسديد رأيه دبّر الأمور ورتب الترتيبات ونشر راية الأمن واجتهد في نشر ما يكون به اصلاح العموم ومن الجملة فان الواجب علينا القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر والاجتهاد في بذل النصيحة ودرء الشبه التي قامت بأفكار من ليس لهم قريحة بايراد الأدلة المأخوذة عن الأحاديث الصريحة وأقوال اهل العلم المعتمد على اقوالهم الصحيحة عسى ان يكون في ذلك نفع للعموم وردع للمفسدين بما يكون لهم من الدين معلوم وقد ألّفت هذه النصيحة التي سميتها « النصيحة العامة لأهل الاسلام عن مخالفة الحكام والخروج عن طاعة الامام » وعند شروعي في ما قصدت بعون من عليه اعتمدت وقلت :

« اعلموا ايها الاخوان في الاسلام الراغبون فيما عند الله تعالى من الكرامة والانعام ان الله سبحانه وتعالى بيَّن لعباده طريق الضلالة وطريق الهدى وانه مراقب لهم في جمع احوالهم وأفعالهم ولم يتركهم سدى واختار من عباده أناساً أولاهم أسرار المملكة وأمر بطاعتهم وجعل مخالفتهم مؤدية الى الوبال والتهلكة قال تعالى اطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم وقال عليه الصلاة والسلام عليكم بالسمع والطاعة وان ولّي عليكم عبد حبشي . وقد نص العلماء على ان الخروج عن طاعة الامام حرام . وقال عليه الصلاة والسلام من أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصى أميري فقد عصاني . وقد نص العلماء ايضاً على ان الامام لا يعزل ولا تنبذ بيعته ولا يطرح عهده إلا اذا أمر أحداً ان يكفر او كفر هو أي الامام وأما اذا لم يكفر فانه لا يعزل عن الامامة ولا يُنبذ عهده ولا تطرح بيعته ولو زالت عنه العدالة واتصف بالفسق كما عليه أهل التحقيق . وحيث علمتم ما أوردته لكم من النصوص من ان طاعة الامام واجبة عليكم وان خروجكم عن طاعته حرام عليكم وانه لا يصح لكم نبذ عهده وطرح بيعته ولو اتصف بالفسق ما لم يكفر فكيف يسوغ لكم الاستماع لما نقل عن محمد احمد من دعوى المهدية والاغترار بما ينقل عنه من الاقوال في المخاطبات مع ان دعواه المهدية له دليل عقلي ولا نقلي يوافقه على صدقه فيها وها اني اذكر لكم أدلة تناقضه في دعواه المذكورة :

أولها : ان محمد احمد المنقول عنه انه مدعي المهدية مولده ببلاد السودان وذلك معروف متواتر عند جميع من يعرفه من اهل عصره فضلاً عن كونهم

يعرفون أباه وأمه وانها مما يطلق عليها اسم الدناقلة ولو ان ذلك نسبة الى البلد ولم ينقل عن احد انه توجه الى مكة ولا الى المدينة . والذي ذكره العـالم المحدث شهاب الدين احمـد بن حجر الهيتمي نزيل مكة في كتابه الصواعق المحرقة في الرد على اهل البدع والزندقة نقلاً عن الامام علي كرم الله وجهه انه قال مولد المهدي بالمدينة .

ثانيها : ان المحققين من العلماء ذكروا من الحديث الذي أخرجه ابو نعيم ليبعثن الله رجلا من عترتي أفرق الثنايا أجلى الجبهة أي منحسر الشعر عن جبهته . ومما أخرجه الروياني وغيرهما المهدي من ولدي وجهه كالكوكب الدري اللون لون عربي والجسم جسم اسرائيلي أي طويل . وورد ايضاً في حليته انه شاب أكحل العينين أزج الحاجبين أقنى الانف كث اللحية على خده الايمن خال اه فهذه الصفات المذكورة في صفات المهدي مفقودة في محمد احمد المذكور فانه حضر عندنا بكردوفان في مدينة الابيض مركز المديرية وحضر عندنا بجامعنا زائراً لنا وجلس مجلسنا ونحن نقرأ وقتئذٍ درس الحديث في الشمائل الترمذية وهو بالمجلس الى ان فرغنا من الدرس وانه زارنا وطلب منا الدعاء وتوجه الى منزله ولم نرَ فيه شيئاً من تلك الاوصاف بل انما هو عند جلوسه بمجلسنا لم نرَ منه إلا الرزانة والخضوع والصمت وكان اذ ذاك في الربيع الاول ثم رجع الى جزيرة أبا وأقام فيها أشهراً . ثم بلغنا انه تفوه بتلك الدعوى وقيل انه قال انه له خال في خده الايمن فان ثبت ذلك مع عدم ثبوت بقية الاوصاف لم يفد شيئاً .

ثالثها : ان الذي ذكره العلماء المحققون ان ظهور المهدي بعد ان يخسف القمر في اول ليلة من رمضان وتكسف الشمس في النصف منه ومثل ذلك لم يوجد منذ خلق الله السموات والارض اه ومن المعلوم ان محمد احمد المذكور تفوه فيما قيل بتلك الدعوى بجزيرة أبا في شهر شعبان وان رمضان قدم ولم ينقل عن احد خسوف القمر في اول ليلة منه ولا كسوف الشمس في النصف

منه وذلك دليل واضح على ان المهدية التي ادعاها لم يظهر فيها ما يدل على دعواه .

رابعها : انه نقل عن الامام المحقق الجامع بين الحقيقة والشريعة الشيخ الشعراني انه قال في مختصره روي انه يخرج في آخر الزمان رجل يقال له المهدي من أقصى المغرب يمشي النصر بين يديه اربعين ميلا راياته بيض وصفر فيها رقوم وفيها اسم الله الأعظم مكتوب فيها فلا تهزم له راية . وقيام هذه الرايات وانبعاثها من ساحل البحر بموضع يقال له ماسة من جبل المغرب فيبعث هذه الرايات مع قوم قد أخذ الله تعالى لهم ميثاق النصر والظفر أولئك حزب الله ألا ان حزب الله هم المفلحون اه وقد علمت ان محمد احمد المذكور لم ينقل عن احد انه رآه توجه الى أقصى المغرب ولم يكن بجبل المغرب بالموضع الذي يقال له ماسة بل ان المسموع الآن انه بجبل قدير من جبال الصعيد وان قال قائل بأن جبل قدير هو الذي يقال له ماسة يرد عليه انه ليس بجبل قدير بحر له ساحل ولم يحصل منه بعث رايات بالصفات المذكورة وان من بيدهم الرايات الزاعمين انهم وزراء له قد اتضح لكل احد خذلهم وقتلهم على يد عساكر الحكومة ولم يأخذ الله لهم ميثاق النصر والظفر .

خامسها : ان شهاب الدين احمد بن حجر قد ذكر مما أخرجه ابن عساكر عن علي كرّم الله وجهه اذا قام قائم آل محمد ﷺ جمع الله اهل المشرق وأهل المغرب فاما الرفقاء فمن اهل الكوفة وأما الابدال فمن اهل الشام ثم قال وصح انه ﷺ قال يكون اختلاف عند موت خليفة فيخرج رجل من المدينة هارباً الى مكة فيأتيه ناس من اهل مكة فيخرجونه وهو كاره فيبايعونه بين الركن والمقام ويبعث اليه بعث من الشام فيخسف بهم بالبيداء بين مكة والمدينة فاذا رأى الناس ذلك أتاه ابدال اهل الشام وعصائب اهل العراق فيبايعونه ثم ينشأ رجل من قريش أخواله كلب فيبعث اليهم بعثاً فيظهرون عليهم وذلك بعث كلب والخيبة لمن لم يشهد غنيمة كلب فيقسم المال ويعمل في الناس بسنة

نبيهم ﷺ اه . ولا يخفى على العاقل ان الامام هو خليفة رسول الله ﷺ موجود الآن فلم يمت ولم يحصل اختلاف في الخلافة حتى يدعيها احد فدعوى محمد احمد بالخلافة الكبرى والمهدوية مع وجود الخليفة وطلبه من الناس مبايعة فيه مخالفة لنفس الحديث المتقدم فضلاً عن كون نبذ عهد الموجود وطرح بيعته مع انه لم يكفر لا يجوز شرعاً . ومما ذكرناه يعلم رد جميع الأدلة التي تنقل عنه بأنه يستدل بها على ايجاب طاعته وإلزام موافقته لأنه لم تثبت امامية مع وجود الامام فجميع الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المعزوة اليه بأنه يستدل بها مسوقة في غير موضعها .

سادسها : ان الذي رواه الامام احمد وغيره المهدي منا اهل البيت يصلحه الله في ليلة اه والمعروف عند جميع المعاصرين لمحمد احمد المذكور انه قد سلك الطريقة الخلوتية على يد الشيخ القرشي وعلى يد غيره وحضر مجالس العلم عند جماعة فعلى تقدير اصلاحه من المشايخ المذكورين فانه لا يوافق ظاهر ما رواه الامام احمد فضلاً عن كون الامام المهدي المنتظر من السودان ولم يعهد له شيخ أرشده بسلوك طريقة مخصوصة .

سابعها : ان الحاكم قد روى في صحيحه يحل بأمتي في آخر الزمان بلاء شديد من سلاطينهم لم يسمع بلاء أشد منه حتى لا يجد الرجل ملجأ فيبعث الله رجلا من عترتي اهل بيتي يملأ الارض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً يحبه ساكن الارض وساكن السماء وترسل السماء قطرها وتخرج الارض نباتها لا تمسك فيها شيئاً اه والمشاهد في حكومة الدولة العثمانية لم يحصل من حكامها البلاء الذي ذكرناه حتى يخرج المهدي والمشاهد الآن ان كل من وقع في قبضة محمد احمد مدعي المهدية يسخط عليه لأنه يقتل رجاله وينهب ماله فأين الاتفاق من ساكني الارض على محبته فضلاً عن الظلم والجور الذي حصل من بعض الناس لبعض وأين العدل والقسط .

ثامنها : ان الامام الأكبر سيدي محيي الدين بن عربي الصوفي قال في

فتوحاته المكية قد استوزر الله للمهدي طائفة خبأهم الله تعالى في مكنون غيبه أطلعهم كشفاً وشهوداً على الحقائق وما هو إلا امر الله في عباده فلا يفعل المهدي شيئاً إلا بمشورتهم وهم على أقدام رجال من الصحابة الذين صدقوا الله ما دعاهم اليه وهم من الأعاجم ليس فيهم عربي لكنهم لا يتكلمون إلا بالعربية لهم حافظ من غير جنسهم ما عصى الله قط هو أخص الوزراء اه . فعلم مما ذكره هذا الامام ان الجانين على أنفسهم هم الذين عرضوا أنفسهم للتلف حتى طهّر الله تعالى الارض منهم بسيف الحكومة كان ادعاؤهم الوزارة مجرد تسويلات نفسية وان ثبت ان محمد احمد قد خاطبهم بالوزارة المذكورة او أقرهم عليها فذلك دليل على عدم دعواه المهدية .

تاسعها : قال بعض أئمة التحقيق وجاء في بعض الروايات انه ينادي عند ظهوره فوق رأسه ملك هذا المهدي خليفة الله فاتبعوه فتقبل عليه الناس ويشربون حبه وانه يملك الارض شرقها وغربها وان الذين يبايعونه اولاً بين الركن والمقام بعدد اهل بدر ثم تأتيه ابدال الشام ونجباء مصر وعصائب اهل الشرق وأشباههم ويبعث الله له جيشاً من خراسان برايات سود نصرة له ثم يتوجهون الى الشام وفي رواية الى الكوفة والجمع ممكن وان الله تعالى يؤيده بثلاثة آلاف من الملائكة وان أهل الكهف من اعوانه . فالذي عليه الناس الآن من تمنيهم ظفر الحكومة بمحمد احمد ونصرتها عليه لازالة المفاسد التي حدثت بأسباب ادعائه هذه الدعوى ينافي نداء الملك واشراب محبته في قلوب الناس .

عاشرها : قد ورد ان الكنوز تفتح في زمن المهدي وانه يضع الجزية ويقتل من لم يسلم وأجابوا بأن اتصاف سيدنا عيسى بذلك لا ينافي اتصاف المهدي بأن كلا منهما امام متبع ومقرر لشريعة رسول الله ﷺ وحيث ان الكنوز تفتح في زمانه فلا نفع لأخذ الجزية حينئذ حتى يشرع اخذها لأن الوسيلة اذا لم يترتب عليها مقصدها فلا تشرع . وورد في رواية الترمذي ان

الرجل يجيء اليه فيقول يا مهـــدي اعطني فيحثي له في ثوبه ما استطاع ان يحمله . وأخرج احمد ومسلم يكون في آخر الزمان خليفة يحثي المال حثياً ولا يعده عداً . وأخرج احمد الماوردي انـه ﷺ قال ابشروا بالمهدي رجل من قريش من عترتي يخرج في اختلاف من الناس وزلزال فيملأ الارض عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً ويرضى عنه ساكن الارض والسماء ويقسم المال صحاحاً بالسوية ويملأ قلوب أمة محمد غنى ويسعهم عدله حتى ان يأمر منادياً فينادي من له حاجة اليّ فما يأتيه احد إلا رجل واحد فيأتيه فيسأله فيقول ائت السادن حتى يعطيك فيأتيه فيقول انا رسول المهدي اليك تعطيني مالاً فيقول احث فيحثي ما لا يستطيع ان يحمله فيلقي حتى يكون قدر ما يستطيع ان يحمله فيخرج به فيندم فيقول انا كنت أجشع امة محمد نفساً كلهم دعي الى هـــذا المال فتركه غيري فيرده عليه فيقول انا لا نقبل شيئاً أعطيناه اه. فما ذكرناه في سابع الأدلة ومـا ذكرناه هنا يتضح لكل عاقـل ان الامر الآن بالعكس فأين ارسال السماء قطرها وأين اخراج الارض نباتهـا وأين غنى القلوب وأين اخراج الكنوز وأين حثي المـال وأين فيضانه بل ان الامر الآن لم تشاهد إلا شدته من قلة الأمطار وغلاء الاسعار وتكالب الناس في الدنيا حتى ان بعضهم صار يقتل بعضاً لأجل أخذ ماله وبهذا يتضح لكل عاقل ان هذا الزمن ليس زمن الامام المهدي .

حادي عشر : قـــال شهاب الدين الامام احمد بن حجر قال ابو الحسين الابري قـــد تواترت الاخبار واستفاضت بكثرة رواتها عن المصطفى ﷺ بخروجه وانه من اهل بيته وانه يملك سبع سنين وانه يملأ الارض عدلاً وانه يخرج مع عيسى على نبينا وعليه افضل الصلاة والسلام فيساعده على قتل الدجال بباب له بأرض فلسطين وانه يؤم هذه الأمة ويصلي عيسى خلفه اه وما ذكروه من ان المهدي يصلي بعيسى هو الذي دلّت عليه الأحاديث كما علمت اه وقال سيدي الإمام محيي الدين بن عربي الصوفي الحاتمي الطائي الأندلسي في كتـابه بلغة الغواص في مبحث سيدنا عيسى عليه السلام وتمام ملكه موقوف على ظهور

المهدي وبظهوره يعمّ النـداء وينفتح فم الاحاطة ويسمع الرجل من شراك نعله وعذبة سوطه ويخبره فخذه بما عمله اهل بيته من بعده وتدعوهم الاحجار والأشجار لليهود ويفعلون بالقول ما يفعله غيرهم بالفعل فيفتحون القسطنطينية بالتسبيح والتقديس اه . فأين ما ذكره هؤلاء المحققون من حال هـذا الوقت ودعوى محمد احمد للمهدية فكيف يليق بعاقل تصديقه فيها .

وأما ما نقل عنه بأنـه ادعى انه مأمور من رسول ﷺ وانه مصرح في مكاتباته بذلك فان حاله لا يخلو اما ان يكون رأى رسول الله ﷺ في المنام وأمره بذلك فان صحّ ذلك فان أمر رسول الله ﷺ له في المنـام بذلك لا يصح له العمل به حيث كان يخالف ظاهر الشرع من الخروج عن طاعة الإمام ونبذ عهده وطرح بيعته فضلاً عن تأدية ذلـك الى سفك دماء المسلمين وتلف أموالهم بغير حق الإسلام وقـد نص الفقهاء بأن الرجل اذا رأى رسول الله ﷺ في المنام وأخبره بطلاق زوجته فانه تجوز له معاشرتها معاشرة الأزواج ولا تحرم عليه وذلك لعدم ضبط النائم وان كان الشيطان لا يتمثل برسول الله ﷺ في النوم . واما ان يكون ذلك يقظة بطريق الكشف فان كان بطريق الكشف فانه لا يصح له ايضاً ان يعمل بـه حيث انه يخالف لظاهر الشرع وقد نص أكابر العلمـــاء على ان الولي يناط به حكم الظاهر فكيف وانه ان ارتكب امراً مخالفاً لظاهر الشرع يتبع فيه خصوصاً ان أدى الى سفك دماء المسلمين وتلف أموالهم . وحيث كان ذلـك فلا يصح لمؤمن يؤمن بالله واليوم الآخر ان يوافقه على ذلـــك فضلاً عن كون الدلائل الظاهرة تناقض دعواه المذكورة وقـد نص أكابر الصوفية على ان الكشف أقسام وان بعضه يكون خيالياً فكيف بالعمل به مع ايقاعه في المحذور .

وأعجب من ذلك ما نقل عنه بأن من شك في مهديته كفر فانه ان أراد بالكفر تغطية الحق بالباطل فان ذلـــك لا يحصل إلا اذا اتضحت له دلائل تصدقه في دعواه والمكذب او الشاك لم يجد دليلاً يعارض تلك الدلائل فضلاً عن ان جميع الأدلة الظاهرة التي أطبق عليهـــا المحققون مناقضة لدعواه

المذكورة . وان أراد بالكفر الخروج عن الإيمان فذلك لا يقول به احد لأن المهدية ليست بنبوة ولا رسالة وغايتها خلافة فانكار أصل المهدية والشك فيها لا يوجب كفراً بمعنى الخروج عن الإسلام لمــا مال اليه بعض العلماء في بعض طرق الحديث من قوله ﷺ لا يزداد الأمر إلا شدة ولا الدنيـا إلا ادباراً ولا الناس إلا شحاً ولا تقوم الساعة ولا على شرار الناس ولا مهدي إلا عيسى بن مريم . وان اوّل هذا الحديث بعض العلمـاء بأن معناه لا مهدي معصوم إلا عيسى او لا مهدي على الإطلاق سواه يأتي بعده عيسى فضلاً عن مهدية انسان مخصوص ادعاها في زمن لم يقم دليل على حصولها فيه .

وحاصل الأمر ان الإمام الذي هو خليفـة رسول الله ﷺ موجود الآن بقيد الحياة ودولته منتظمة مؤيدة بوزرائه وجميع اهل الإسلام يخطبون باسمه في المنابر ويدعون له بالنصر والتوفيق بوجوده وانتظام دولتـه خاصة لجميع اهل الدولة الصيانة لدمائهم وأموالهم فالخروج عن طاعته مع ان اوصافه التي انعقدت بيعته عليها من اهل الحل والعقد باقية لم تزل عنه حرام على كل مسلم وان الذي يخرج عن طاعته ويكون باغياً ومحارباً لله ورسوله وساعياً في الارض بالفسـاد تجوز مقاتلته ورده عما هو عليه واقامة حد الشريعة فيه . فلا وجـه الآن يجوز لكم معاشر المسلمين الخروج عن طاعة امير المؤمنين واتباع الباغين المفسدين فان قابلتم ما قلته لكم بالامتثال وتركتم سبيل الضلال فالله سبحانه وتعالى يعفو عما سلف ويوفق الجميع لصالح الأعمال وان أبيتم إلا ما أنتم عليه عاكفون فسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .

هذا والحمد لله اولاً وآخراً والصلاة والسلام على من جاء بالحق المبين وعلى آله وصحبه أجمعين . كان الفراغ من تأليفها صبيحة يوم الجمعة المباركة لعشر ليالٍ بقيت من شهر شعبان المكرم من شهور سنة ١٢٩٩ الف ومايتين وتسع وتسعين من هجرة أشرف المرسلين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه اجمعين» اه.

الى هنا انتهى بنا الكلام عن سيرة محمد احمد المهدي ووقائعه فلنأتِ الآن على ذكر خليفته التعايشي وما كان في ايامه من الوقائع والحروب .

الباب الثامن

في

خلافة عبد الله التعايشي

الفصل الاول

في

مبايعة عبد الله التعايشي

مات محمد احمد عن ثلاثة خلفاء يتولون الأمر بعده الواحد بعـــد الآخر وأولهم وأدهاهم عبد الله التعايشي الذي تولى أمر دفنه . ولولا الدهاء والحزم اللذان فطر عليها هـــذا الرجل ومساعدة الاقدار له لانفلت الامر من يده وعمت الفوضى السودان . ولكنه حال وفاة المهدي دعا اليه احمد علي قاضي الإسلام (الذي تولى هذا المنصب بعد قتل احمد جبـارة في الابيض) وبعض الامراء والاعيان الذين من حزبه كالسيد المكي الكردوفاني وعبـد المحمود نور الدائم فحضروا الدفن مع رفيقيه الخليفتين وأقارب المهدي . وبعد الدفن عقد معهم مجلساً وخاطبهم قائلاً :

« أيها الاخوان ان المهدي الآن قد مات ولكن مات النبي من قبله وقـام الخلفاء بعده فأتموا عمله . وقـــد ترك المهدي خلفاء يتولون الامر بعده وانا خليفته الاول فمن احبه وآمن به فليبايعني الآن على السبيل الذي خطه لنا لنقتفي اثره ونتم عمله » .

أما الخليفة شريف وقومه الاشراف فانهم حاروا في أمرهم ولم يدروا ما

يفعلون وقالوا في انفسهم مات المهدي الآن وقد أسس مهدية وملكاً فلماذا نتبع ترتيب المهدية فنولي علينا عبد الله التعايشي غريب الوطن والجنس ولا نتبع ترتيب الملك فنولي ابن مؤسسه او خليفته ابن عمه . ولكن لم يكن في وسعهم اذ ذاك المجاهرة بهذه الافكار او القيام بحركة عدائية لأن قوات المهدي في السودان كانت كما علمت ثلاث رايات : الراية الزرقاء راية الخليفة عبد الله وهي أكبر الرايات وأقواها وتحتها جميع اهل الغرب ولم يكن غائباً منها سوى جيش ابي عنجة الذي أرسل لغزو جبال النوبة كما مرّ. والراية الخضراء راية الخليفة علي ود حلو وهي أصغر الرايات وتحتها قبيلتا دغيم وكنانة وتوابعهما . والراية الصفراء راية الخليفة شريف وهي راية قوية وتحتها جميع سكان النيل والجزيرة والجلابة وغيرهم . فلو كان رجال هذه الراية كلهم في أم درمان لترجح وقوع حرب شديدة بينهم وبين الخليفة عبد الله ولكن كان اعظم قوادها متفرقين في الجهات وهم : عبد الرحمن النجومي في المتمة ومحمد عبدالكريم في سنار ومحمود عبدالقادر في كردوفان ومحمد خالد زقل في دارفور وكرم الله في بحر الغزال ومع كل منهم جيش كبير .

وكانت راية الخليفة عبد الله اذ ذاك اقوى من رايتي الخليفة ود حلو والخليفة شريف معاً فضاقت أنفس الأشراف من حرج هذا المركز وظهرت على وجوههم علامات الحيرة والأسف ولكن التعايشي اخذهم بالدهاء والحيلة وبالغ في ملاطفة الخليفة علي ود حلو الذي لا يوافقه تحوُّل المهدية الى ملك لأنه ثاني الخلفاء من جهة ولا قرابة له بالمهدي من جهة اخرى فكان اول من بايع الخليفة عبد الله ثم بايعه الخليفة شريف مضطراً ثم اولاد المهدي وأقاربه ثم الامراء والاعيان الذين في المجلس .

ولما شاع خبر موت المهدي ومبايعة الخليفتين وأقارب المهدي والامراء للخليفة عبدالله هرع اهل أم درمان وضواحيها الى منزله افواجاً وبايعوه بقية ذلك اليوم والذي بعده . وهذه صورة المبايعة : « بايعنا الله ورسوله ومهديه وبايعناك على طاعتك والانقياد الى حكمك » .

ثم بعث الخليفة بكتبه الى امرائه وجميع قبائل السودان في الجهات الاربع لتجديد البيعة له ودعا اهل الجهات البعيدة الى حضور عيد الاضحى في أم درمان في ٣٠ سبتمبر سنة ١٨٨٥ فاجتمع عنده في هذا العيد خلق كثير . وحضر اهل الجهات القريبة قبل العيد فبايعوه وعادوا الى بلادهم . وكانت مبايعتهم له بالصيغة الكبيرة وهي : « بايعنا الله ورسوله ومهديه وبايعناك على توحيد الله وألا نشرك بالله احداً ولا نسرق ولا نزني ولا نأتي ببهتان ولا نعصيك في معروف ، بايعناك على زهد الدنيا وتركها والرضى بما يريد الله رغبة في ما عند الله والدار الآخرة وان لا نفر من الجهاد » .

تأثير موت المهدي في السودان : أما موت المهدي فقد أوقع الدهشة في نفوس اهل السودان خاصتهم وعامتهم . وكان العقلاء قد انكروا عليه بعض الافعال والاقوال مثل قتله عجيل ود الجنقاوي الزريقي بعد ان أتاه مسلماً وقتله المنة اسماعيل الذي نصره في كردوفان وقتل عبدالله ود النور في واقعة برّي بعد قوله انه يموت في الكوفة . ورأوا ان هذه الاقوال والافعال لا تنطبق على ما ظنوه في مهدي الزمان ، ولكن ادهشهم توالي النصر على يديه وأخذوا ينتظرون اتمام باقي نبوته كصلاته في كراسي مصر والشام والاستانة ومكة وقوله ان مهديتنا تظهر خيراتها ويرعى فيها الذئب مع الغنم وتأمن الناس الآفات فتلعب الاولاد الصغار بالعقارب وذلك بعد فتح مكة . فلما مات في أم درمان ولم يصلّ في الكراسي المذكودة ولا لعبت الاولاد بالعقارب أيقنوا انهم كانوا في ضلال وأن الأمر الذي قام به محمد احمد انما هو ثورة وبلاء ليس إلا .

قيل ان الملك أبا حجل ملك الرباطاب لما عاد من مبايعة الخليفة من أم درمان حضر اهله للسلام عليه وسألوه عن البيعة الجديدة فقال : « البيعة اس » أي اسكتوا .

ولما عاد الشيخ أبو خرسي من مبايعة الخليفة الى قومه في المسلمية قال لهم

« اشفقوا على انفسكم ايها الناس واستغفروا ربكم عما فرط منكم فانهـا مصيبة عامة وقد حلّت في السودان وليست من المهدية بشيء » .

على ان ضعاف العقول لم يؤثر ذلك كله في اعتقادهم وبقوا مصدقين انـه المهدي ، ولا يزال بعضهم يعتقدون بأنه المهدي الحقيقي الى هذا اليوم . لكن الحمية التي قاموا بها اولاً خمدت في نفوسهم فلم يقدموا على الجهـــاد من ذلك الحين إلا مكرهين ، وأخذ الامر يتحول تدريجياً من صبغة دينيــة الى صبغة سياسية . وكانوا كلهم قد اغضبوا الحكومة ورفعوا السلاح في وجهها وكانت الحكومة قد تركتهم وشأنهم فاضطروا عقلاء وجهالاً الى متابعة صاحب القوة الخليفة عبد الله والعمل بأوامره ونواهيه .

منشور وفاة المهدي : وقد قرر التعايشي التأثير الذي يحصل للناس بموت المهدي واحتاط لذلك فوزع منشوراً في جميع البلاد بأن المهدي قد مات وأنه قام في الامر بعده ، وقال ان موت المهدي انما يزيدنا احتقاراً لهذه الدنيـــا وحبـــاً للموت في سبيل الله . وأمر رفيقيه الخليفتين والأشراف اهل بيت المهدي فوزعوا منشوراً صرحوا فيـه بمبايعتهم له وحثوا الناس على الاقتداء بهم وقالوا « ان المهدي ليلة وفاته حصلت له « حضرة » ظهر له فيهـا الشيخ القرشي ومعه جمع من الأولياء فقال له ان النبي ﷺ قد استعجل انتقالك الى الدار الآخرة فاجعل لك وكيلاً من خلفائك يقوم بالأمر فقال المهدي أوكلت الخليفة عبد الله فاتفقت كلمتنا عليه » . ثم شاع ان الخليفة شريف لم يبايعـه وان الخليفـة ود حلو منحاز اليه فأمر اذ ذاك الخليفتين فوزعا منشوراً آخر صرحا فيه بأنهما بايعـاه حقاً وان جميع ما شاع عن وقوع خلاف بينهما وبين الخليفة عبد الله هو محض كذب واختلاق . وهـذه هي صورة المنشور الذي أصدره الخليفة عبـد الله بشأن وفاة المهدي وتولّيه الخلافة بعده بحرفه بعـد البسملة :

« وبعد فمن عبد ربه الخليفة عبد الله بن محمد خليفة الصدّيق الى أحبابـه في الله ...

«أحبابي بعد اهداء السلام اليكم فان الله جل شأنه وعز سلطانه هو الفاعل المختار الحي الدائم الباقي الذي لا يموت والخلق عبيده وتحت مشيئته وكلهم موعودون بالفناء والانتقال من هذه الدار الى تلك الدار ولا اكرم عليه تعالى من نبيه محمد ﷺ وقـد نعاه بقوله تعالى في كتابه المكنون انك ميت وانهم ميتون وزاد الامر تأكيداً بقوله تعـالى وان الدار الآخرة لهي الحيوة لو كانوا يعلمون وحيث كان كذلك فان الرضا بالقضاء من الواجبات.ثم ليكن معلومكم ان المهدي عليه السلام قد دنا أجله فتدلى ودعا ربه فلبى وقبض اليه كريماً طيباً في يومنا هـــذا الذي هو يوم الاثنين الموافق ٨ شهر رمضان سنة تاريخه وقت الضحى الاعلى بام درمان ودفن عليه السلام بها بعد صلاة الظهر بداخل بيته وان مصيبته لعظيمة على الجميع احسن الله عزاءنا وإياكم فيه وألزمنا الصبر وضاعف لنا ولكم الأجر والثواب بعده وهو حسبنا ونعم الوكيل ليهننا وإياكم انه عليه السلام فرطنا بعد النبي ﷺ ونحن وأنتم لاحقون بهما وقد سار الى الله تعالى الى سدرة المنتهى ثم الى جنة المأوى والفردوس الاعلى والكأس الأوفى والرفيق الأسنى والحظ الانفس والعيش الهني وان موعدنا الحوض الذي عرضه كما بين الشام وصنعاء اليمن يصبُّ فيه ميزاب الكوثر ماءً أشد بياضاً من اللبن والين من الزبد وأحلى من الشهد . من شرب منه لم يظمأ ابداً حصباؤه اللؤلؤ وبطحاؤه المسك ومن حُرّمه فقد حرم الخير كله نعوذ بالله من ذلك . وان سبب وفـــاة المهدي عليه السلام حمّى أصابته ولازمته نحو ستة ايام . وقد تعلمون انه داعيكم الى الله وخليفة نبيكم ﷺ وقد أبان الدليل وأوضح السبيل ودلّ الى الجليل فجزاه الله عنا وعنكم احسن الجزاء وأمدنا بمدده دنيا وآخرة وانه عليه السلام قد كان على نور من الله وتأييد من رسول الله . ونائبه العبد لله تعالى بعده كذلك بحسب اشارته عليه السلام التي هي عن أمر رسول الله. واني أقول لكم نصحاً في الله ورسوله كمقالة ابي بكر الصديق رضي الله عنـه حيث دلّ الى الله بقوله « أيها الناس من كان يعبد محمداً فان محمداً قـد مات ومن كان يعبد الله فان الله حيٌ لا يموت وان الله قد تقدم اليكم في أمره فـلا

تدعوه جزعاً فان الله عز وجل قد اختار لنبيه ﷺ ما عنده على ما عندكم وقبضه الى ثوابه وخلّف فيكم كتابه وسنة نبيه ﷺ ومن أخـــذ بهما عرف ومن فرق بينهما أنكر . يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم ولا يفتنكم عن دينكم وعاجلوا الشيطان بالخير تعجزوه ولا تستنظروه فيلحق بكم ويفتنكم . هـذا والمطلوب منكم أيها الأحباب ان تثبتوا مع الله كما عاهدتموه وبايعتموه على اتبـــاع المهدي عليه السلام وطاعته وبذل أموالكم وأنفسكم في سبيل الله لإعلاء كلمته وشدوا حيلكم وشمروا فان اصحاب رسول الله ﷺ لم يهملوا الدين بعده بل تحزبوا عليه وأيدوه وجاهدوا في الله حق الجهاد ورغموا انف أهل الشرك والمرتدين وفتحوا كثيراً من البلاد ولكم بهم أسوة حسنة فاقتفوا أثرهم لتنـالوا نيلهم وتدركوا اللحوق بنبيكم ومهديكم معهم ولا تغتروا بأيام الدنيا القليلة فقد انقضت مدتها وزال عرضها وآن أوانها فعضوا على أيمانكم بالنواجذ وأيقنوا بأنكم ما دمتم على عهد البيعة فأنتم حزب الله وأنصاره والفـائزون برضاء ربكم ونبيكم ومهديكم ورضانا عليكم وابشروا بالخير فان دين الله منصور بحول الله وقوته . وواصل لكم مع هـذا جواب من الخلفاء والأشراف اهل بيت المهدي عليه السلام وباقي المهاجرين والأنصار اطلعوا على مـا فيه واعملوا بمقتضاه وفقنا الله واياكم الى سلوك طريق المقربين الاخيار هـذا والسلام سنة ١٣٠٢ – ٨ رمضان » اه ، والصواب ٩ رمضان ٢٢ يوليو سنة ١٨٨٥ .

ختم المهدي وسيفه : وعند وفاة المهدي اخذ التعايشي خاتم ختم المهدي وخاتم يده . فأما خاتم الختم فقد ابطل العمل بــه واستعمل بدلاً منه خاتماً مستديراً نقش عليه « حسبنا الله ونعم الوكيل » . وأما خاتم اليد وهو خاتم من فضة له فص من عقيق احمر مستدير فقد جعله في بنصر يده اليمنى. وطلب سيف المهدي فلم يجده لأن نساء المهدي اخفينه عنه ثم اعطينه للخليفة شريف زاعمين ان النصر يكون فيــه وكان ذلك من أهم اسباب الضغائن بينـه وبين الاشراف .

سياسة التعايشي : وتولى التعايشي الخلافة وهو لا يصدق انـــه يتولاها وكان يغار عليها حتى من خياله ويحرص عليها حرصه على نفسه وقـد ساسها بثلاثة أمور وهي :

الاول: المحافظة على شعائر المهدية مع علمه بمروق العقلاء منها إذ لا جامعة لأنصاره إلا بها ولا حجة له في الملك سواها .

والثاني: مراقبته المنكرين حقه في الملك والمزاحمين له على السلطة والبطش بهم بالقتل او بالنفي كثروا او قلوا .

والثالث : حصر المناصب العـــالية في اهله التعايشة وتفريق كلمة سائر القبائل وإذلالهم حتى لا تقوم لهم قائمة .

وكان اول مـا أتاه بعد توليه الخلافة انه اسند الى اخيــه يعقوب المنصب الذي كان له في زمن المهدي فجعله وزيره وقائد جيشه ومدبر اشغاله الحربية والمالية. ثم اخذ يدرّب اهله التعايشة على الادارة والملك ويوليهم امور الجيش والبلاد تدريجياً حتى اصبح جميع القواد والعمال وأصحاب المناصب العـــالية منهم .

وأما المهام التيباشرها اولاً قياماً بواجب الخلافة واقتفاء لأثر المهدي فهي: فتح كسلا وسنار وغزو جبال النوبة ومصر ولكنه دبرهـا حسبما تقتضيه سياسته كما سيجيء .

الفصل الثاني

عودٌ الى

حصار حامية كسلا

سنة ١٨٨٥ م

كتاب مدير كسلا الى محافظ سواكن في ٩ يونيو سنة ١٨٨٥ :
تقدم ان حامية كسلا لما اشتد عليها الحصار كتبت الى المهدي فوجه اليها بعض الأمناء للتسليم على يدهم . وقبل وصولهم وفد الى المدير كتاب من تشرمسيد باشا محافظ سواكن يقول فيه أنه لم يزل باذلاً الجهد في تعجيل الرأس الوله لنجدتهم فكتب اليه المدير جواباً مفاده : « ان حاكم مصوع ارسل إليّ نسخ الكتب التي بعثتم بها الى الرأس الوله للتعجيل في انقاذنا فشكرنا لكم هذه الغيرة ونحن ايضاً كتبنا اليه اربع كتب والى الآن لم يأتنا منه خبر وقد صرنا في اشد الضيق فالحصار لا ينفك عنا ليلاً ولا نهاراً والزاد قد نفذ منا وأصبحنا نأكل الصمغ والجلود بل هذان الصنفان ينفذان منا قريباً وقد عدمنا كل حيلة وسلمنا أمرنا الى الله في ٩ يونيو سنة ١٨٨٥ » .

صدّ الحسن حاشي عن الحامية في ١٣ يونيو سنة ١٨٨٥ :
هذا وكان الحسن ود حاشي كبير المحاصرين لما بلغه قدوم الأمناء لاستلام

الحامية عزّ عليه ان تسلم لغيره بعد طول حصرها فهاجمها في ١٣ يونيو سنة ١٨٨٥ هجمة صادقة فأمطرت الحامية عليه سحائب الرصاص والقنابل ونكلت به تنكيلاً ولكنه صمم على اخذها عنوة في ذلك اليوم فوالى الهجوم عليها المرة بعد المرة حتى قتل من جيشه نحو ٣ آلاف رجل فارتد عنها ولم يعد يجسر على مهاجمتها ولكنه زاد في حصرها والتضييق عليها .

وبعد الواقعة بأيام معدودة وصل أمناء المهدي وهم : الحسين الزهرة وادريس عبد الرحيم وعبد الله حمزة وأخوه محمد فنزلوا في معسكر توكرف وكتبوا الى المدير يدعونه للتسليم ومعه كتاب المهدي المتقدم ذكره . فعقد مجلساً من الضباط والتجار والموظفين للنظر في أمر التسليم وقبل ان يقروا على شيء حضر رسول من الرأس الوله يقول : « تشددوا واثبتوا فاني منجدكم قريباً » فأقروا إذ ذاك على انتظار الوله وعدم التسليم فهاج المحاصرون وأخذوا يناوشونهم القتال الليل والنهار وكانوا هم يصدونهم بشجاعة وثبات وقد أطلقوا يوماً مدافعهم فقتلوا عبدالله حمزة احد الأمناء وعشرة آخرين .

تسليم حامية كسلا الاربعاء في ١٦ شوال

سنة ١٣٠٢ هـ ٢٩ يوليو سنة ١٨٨٥ م

وصبر أهل الحامية على الجوع صبر الكرام حتى نفد منهم القوت او كاد ولم يبقَ لهم طعام سوى الجلود القديمة والأشياء المسترذلة حتى صار يموت منهم في اليوم ٤٠ نفساً وزيادة . فلما رأى المدير اشتداد الحال الى هذا الحد وقد يئس من انتظار المدد لم يرَ بداً من التسليم فانتدب ثلاثة من رجاله وهم اليوزباشي حسن افندي برنوس والصاري طيفور أغا وحسين افندي خليل معاون التلغراف وأرسلهم الى الامناء بكتاب التسليم على انهم لا يؤذون احداً من أهل الحامية ولا يأخذون منهم سوى خمس مالهم . فتلقاهم الحسين الزهرة كبير الامناء عند جميزة العوض « وحلفهم الكتاب » على ذلك فخرج المدير اليهم راكباً حماراً بنفر من الضباط والموظفين الملكية والتجار وفيهم: اليوزباشي

علي افندي خوجه والسنجق بشير اغا كمبـــال وحسين افندي بدوي وكيل المديرية والعوض المرضي باشكاتب المديرية وبرسوم القبطي رئيس الحسابات وعلي جاويش من أعيان التجار فتلقاهم الحسين الزهرة عند الجميزة بالترحيب ثم أحضر لهم طعاماً من اللبن والعصيدة والسلات فأكلوا ثم بايعوه باسم المهدي فألبسهم الجبب المرقعة وأرسلهم الى ديم توكرف ثم ساق الجيش ودخل الخندق .

الغنائم والاسرى: وكان العساكر قد تركوا خط النار وأووا الى منازلهم فأحاط الدراويش بهم وبالمنازل الاميرية واستولوا على الخزينة فما وجدوا فيها شيئاً يذكر . ثم استولوا على مخازن الجبخانة والاسلحة فوجدوا فيها : ٦٠٠٠ بندقية ارشليك وكبسول قـــديم و ٢٠٠٠ بندقية رمنتون وشيئاً كثيراً من الجبخانة ما عدا المدافع والبنادق التي كانت على خط النار . ثم دخلوا المنازل وجمعوا الاسرى فكانوا نحو ٣٠٠ من العساكر النظامية و ٤٠٠ من الباشبوزق و ٥٠٠ من التجـار و ٣٦٠٠ من النساء والاولاد والجملة نحو ٤٨٠٠ نفساً وهم عشر سكان الحلمية قبل الحصار او اقـــل . فجردوهم من مالهم ورقيقهم وأخرجوهم خارج السور فقسموهم قسمين قسماً أرسلوه الى ديم الحسن حاشي في الخاتمية وآخر الى ديم مصطفى هدل في توكرف . ثم أخذوا في جمع أموال أهل البلد وأشيائهم وقد دلهم عليها الرقيق الذي أبقوه داخـل السور . وفي اليوم الثالث بعد التسليم أتوا بالاسرى من الخاتمية وتوكرف الى ديوان المديرية وأخذوا يستنطقونهم واحداً واحداً عما خبأوه من الاموال وقد تولى الاستنطاق ود حمزة أحد الامناء مستعيناً بالعوض المرضي باشكاتب المديرية فمن لم يعترف بماله جلدوه بالسياط او جلدوا امرأته حتى يظهر المال وكان في جملة من ضربوهم الضرب المبرّح حسين افندي بدوي المصري وكيل المديرية . قيل ومع ذلـك فقلّ من اعترف بماله وبقيت أموال كثيرة مدفونـة تحت الارض الى ان كان الفتح الاخير .

قدوم عثمان دقنة الى كسلا في ٢٦ اوغسطوس سنة ١٨٨٥ م : وكتب

الامناء الى الخليفة عبد الله بأم درمان وعثمان دقنة بجهـــة تماي يعلمونهما بفتح كسلا فحضر عثمان دقنـة الى كسلا وكان الخليفة قـد أرسل اليه كتاباً بموت المهدي وطلب اليه ان يدعو اهل عمالتـه الى تجديد البيعة له على يده فعنـد وصوله الى كسلا صعد على سطح ديوان المديرية فاجتمع اليه الامراء والانصار فقرأ لهم كتاب الخليفة ثم قال ان كنتم تعبدون المهدي فان المهدي قـد مات وان كنتم تعبدون الله فالله حي لا يموت والخليفة عبد الله هو خليفة المهـدي القائم بالامر بعده فهل أنتم طائعون له متبعون لامره قالوا كلهم نعم ثم بايعوه باسم الخليفة .

واقعة كوفيت في ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٨٥م : وبعد وصول عثمان دقنة الى كسلا بأيام معدودة أتت اليه امرأة من نساء الهدندوة تنادي بأعلى صوتهـــا « واغوثاه اللصوص التقوني بجانب جبل مكرام وأخذوا مني حمارتي وأشيائي التي عليها » وكان عثمان جالساً مع نفر قليل من أصحابه فقام لساعته وتأبّط نعليه وأسرع حافي القـــدم الى جهة الجبل وقال ان من يكره الظلم ويأبى التعدي فليتبعني فتبعه اصحابه الذين كانوا جالسين معه فطاردوا اللصوص الى سبدرات فلم يقفوا لهم على أثر. ثم تبعه الجيش كله وفيه من الامراء مصطفى هدل والحسن ود حاشي وبـلال السمرندوابي وباشريك السمرندوابي وعوض الكريم كافوت . ولم يبق في كسلا إلا نفر قليل لحمايتهـــا وخفر الاسرى . وأتاه الى سبدرات احمد حجاج شيخ الجادين وعجيل شيخ الحمران المار ذكرهما طائعين فأمنهما وزحف بالجيش كله على كوفيت في حدود الحبشة .

وكان الرأس الوله إذ ذاك في اسمرة يستعد لنجدة كسلا فلمـا بلغه خبر سقوطها وتهجم عثمان دقنه على الحدود كتب اليه يقول: « بلغني انك حضرت كوفيت وقصدك دخول الحبشة فانتظرني ثلاثة ايام فأدخلك الجنـــة عاجلاً ان شاء الله » .

وفي الميعـاد المضروب أي في ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٨٥ حضر الراس الوله بجيش جرار الى كوفيت ومعه علي نورين شيخ سبدرات وعبد القادر بك محمد

ايله ومحمد الفيل شيخ بني عامر المتقدم ذكرهم . قيل وكان جيش الرأس الوله نحو ٢٠ الفاً وجيش عثمان دقنه نحو ١٠ آلاف . وكان دجاج قبره في مقدمة جيش الرأس الوله فأطبق عليه عثمان بجيشه فقتله وقتل معظم رجاله وتقدم الى جيش الوله فاشتبك القتال بين الفريقين وانجلى عن هزيمة عثمان بخسارة جسيمة فرجع يجر اذيال الخيبة الى كسلا .

وكان الشيخ محمد عوض ناظر الحلانقة سابقاً قد ذهب الى القادين قصد الانضمام الى عثمان دقنه فلما بلغ القادين انهزام عثمان قبضوا عليه وعلى رفيقه الشيخ نافع الحلانقي وأخذوهما الى الرأس الوله في امرة فقتلها .

قتل المدير وبعض الموظفين والتجار : اما عثمان دقنه فانه حال وصوله الى كسلا أمر بسجن احمد بك عفت المدير وابراهيم افندي شوقي الشركسي باشمعاون المديرية والسر سواري حسن آغا سليمان الارناؤطي وثلاثة من التجار وهم : الخواجه استيلو الرومي والخواجه بدروس الارمني وعلي جاويش الحجازي . وبعد يومين عفا عن ابراهيم شوقي وعلي جاويش وقطع رؤوس الباقين . وقد اختلف الرواة في سبب قتلهم والذي عليه الاكثرون أن عثمان دقنه وجد بين اوراق قتلى الأحباش في كوفيت كتباً يستحثون فيها الرأس الوله لنجدتهم ويلعنون المهدي وأعوانه . وقد أسف الجميع على قتلهم ولا سيما على المدير لأنه كان صاحب عفة ونزاهة وعدل مع حسن رأي وشجاعة وتدبير . وقد رقته الحكومة بعد وفاته الى رتبة باشا برّاً بخدمته ورفقاً بعائلته .

وكتب الخليفة الى عثمان دقنه فأخذ الخمس من الغنائم وقسم الباقي على الامراء ثم ارسل الامناء مع الاسرى والغنائم الى أم درمان فأرسل نحو الف من الجهادية وجانباً كبيراً من المدافع والاسلحة والذخائر فأفلت منهم الصاغ فرج افندي ونّي المارّ ذكره بأربعة وخمسين رجلاً وأتى بهم الى مصر بطريق مصوع .

هدم عثمان دقنه الخاتمية ورجوعه الى سواكن : ثم أخذ عثمان دقنه الجيش فهدم منازل الخاتمية وخرّب قبة السيد الحسن المرغني وجامع نجله السيد محمد عثمان تخريباً تاماً وعاد الى كسلا فكتب اليه الخليفة عدة كتب للرجوع الى سواكن لأهمية وجوده فيها فسمى محمد فاي ابن اخيه اميراً على كسلا وعبدالله ابا بكر اميناً على بيت المال وعاد الى معسكره في تماي فوصله في ٢١ فبراير سنة ١٨٨٦ وسنعود اليه .

٣
٦٥٤ - إلى النهاية

الفصل الثالث

عودٌ الى

حصار حامية سنار

سنة ٤ – ١٨٨٥ م

كتاب مدير سنار الى غوردن في ٩ اوكتوبر سنة ١٨٨٤ : كان آخر عهدنا بسنار يوم رجوع نصحي باشا منها الى الخرطوم في ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٨٤ وكانت إذ ذاك آمنة مطمئنة. وفي ٩ اكتوبر سنة ١٨٨٤ كتب مديرها حسن بك صادق الى غوردن جواباً على كتاب ارسله اليه مع رجل تكروري هذا مفاده :

« من حسن صادق مدير عموم سنار الى غوردن باشا حاكم عموم السودان

« في ٦ اكتوبر سنة ١٨٨٤ تشرفنا بورود كتابكم الكريم المؤرخ في ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٨٤ فسرّنا ما حواه من البشائر بقدوم تسع اورط من ابطال الانكليز ومسلمي الهند من فرسان ومشاة ومدفعية بمدافع جديدة وخيول شديدة وقد قرأنا كتابكم على رجال الحامية ونشرناه في البلاد فسرّ الجميع به سروراً عظيماً وكلهم يدعون لكم وللجيش بالظفر . ثم ان حامية سنار وأهلها من علماء وتجار وأعيان يقبّلون يديكم ولنا الرجاء انه بهمة سعادتكم

وبجاه نبينا عليه السلام تسكن الثورة في السودان وتزول دعوى المهدي ويخضع الكل لسيف الحكومة بحول الله وقوته » .

حاشية : المرجو الاسراع بارسال وابور بالأشياء التي طلبناها في كتابنا نمرة ١٤/٢٩ » .

المرضي ابو روف وحصار سنار : فظهر من هذا الكتاب ان سنار كانت الى ٩ اوكتوبر سنة ١٨٨٤ م هادئة مطمئنة ولكنها لم تبقَ طويلاً في هذه الطمأنينة فانالمهدي في طريقه الى حصر الخرطوم كما مرّ أمر المرضي أبا روف أخا ملك ابي روف المار ذكره فحشد جيشاً كبيراً من عربان رفاعة الهوي ونزل لحصر سنار في حلة عابدين على ٤ ساعات جنوبي سنار وذلك في أواسط نوفمبر سنة ١٨٨٤ م .

حبس المدير : وقبل ذلك بايام وقع نزاع بين المدير والنور بك قيل سببه الأمر الذي أرسله غوردون الى النور بك ليكون قومنداناً على العساكر فعدَّ المدير الامر اهانة له لأنه أقدم من النور بك وأحق منه بالقومندانية وانحاز معظم العساكر الى النور بك فحبس المدير في منزله ووضع الخفراء على بابه .

واقعة العرديبة : فلما قدم المرضي لحصر سنار خرج عليه النور بك بنحو ٧٠٠ من عساكر الحامية وعثمان بك الدالي فالتقاه المرضي في العرديبة على ٣ ساعات من سنار وهزمه وتقدم الى غابة الكبوش فأقام فيها محاصراً سنار الى ان سقطت الخرطوم فكتب الى النور بك يعلمه بسقوطها ويدعوه الى التسليم فبعث النور بك بجعليّ يدعى سعيد وداعة الله الى الخرطوم لتحقيق الخبر فرجع وأخبره بأن الخرطوم سقطت والانكليز عادوا من المتمة ومحمد عبد الكريم قادم بجيش كبير لفتح سنار .

اطلاق المدير وقتله : فعقد النور بك مجلساً من الضباط والأعيان للنظر في أمر نجاتهم فتوسل الاعيان اليه فأفرج عن المدير ودعاه الى المجلس وسأله رأيه فقال لا رأي لي إلا الحرب فاذا ُسلمت لي قيادة العساكر تكلفت بطرد

الدراويش المحاصرين حتى اذا ما جاءنا عبد الكريم قاتلناه فاذا لم نفز به لجأنا الى الحبشة . وعندي مخزن كبير من الحبوب أقدمه للعساكر فصدقوا رأيه وسلموه قيادة العساكر فخرج بهم لقتال المرضي في غابة الكبوش فتوغل المرضي في الغابة وانقلب المدير راجعاً بالعساكر قلعة الى سنار وفي الطريق نزل مع بعض الضباط تحت جميزة ظليلة للراحة وتناول الطعام وأمر العساكر ففرطوا عقد القلعة وتفرقوا جماعات فورد بعضهم النيل فشربوا واتخذوا الطريق الى سنار وجلس البعض الآخر قرب الجميزة للراحة . وكان كشافة المرضي لا يزالون يرقبونهم فلما رأوا المدير ورفاقه تحت الجميزة تواروا بشاطىء النيل حتى أتوا بالقرب منهم فباغتوهم الهجوم فهبّ كل منهم الى جواده فأجفل جواد المدير وأفلت من يد السايس فانقض العرب عليه وقتلوه هو ونحو مئة من الضباط والعساكر . وأما النور بك وعثمان بك الدالي فقد ركب كل منهما جواده وضربا النفير فجمعا بعض العساكر ورجعا الى محل الواقعة فهزما الدراويش وعاد بجثث الضباط الى سنار فدفناها بالجبّانة . وعادت القيادة العامة الى النور بك وعاد المرضي الى غابة الكبوش .

محمد عبد الكريم وحصار سنار : وفي ١٨ ابريل سنة ١٨٨٥م وصل محمد عبد الكريم حلة البقرة ومعه من الامراء الشيخ عبد الرحمن المضوي السالف الذكر ومحمد احمد ود الشيخ ادريس من أقارب المهدي ومصطفى ود جبارة وخليل عمر ابو زهانة ومن الوابورات وابور محمد علي فحصر سنار من الشمال. وحال وصوله ارسل الى أهل سنار كتاباً يدعوهم الى التسليم ويعدهم بالعفو والصفح عما مضى ان خرجوا اليه طائعين فسأل النور الرسل عن الأمراء الذين معهم فسموا له خليل عمر ابا زهانة وكان النور بك يعرفه من خط الاستواء فطلب من محمد عبد الكريم ارسال خليل المذكور للمفاوضة معه بشأن التسليم فحضر بموكب حافل فاستقبله الضباط والاعيان في ديوان المديرية فأخذ يعدد لهم نصرات المهدي وأعاجيبه ولكن قيل انه خلا بالنور بك فأخبره بما يحصل لهم اذا سلموا فقال : اما كبار الضباط فيقتلون او يعذّبون وأما اهل البلد

فيأخذ مالهم وتسبى الجميلة من نسائهم . فصمم النور بك إذ ذاك على القتال ولكنه اخذ يخادع محمد عبد الكريم ويطاوله ريثما يتمكن من تقوية الخندق . وكان الخندق على شكل مربع مستطيل يحيط بالبلدة من ثلاث جهات والنيل يحيط بها من الجهة الرابعة فقطعه من الجنوب حتى صيّره مربعاً فضم اكثر منازل المدينة ومخازن الذخائر والشونة وثكنة العساكر وديوان المديرية . وقد عمّقه وعلّى ابراجه وجعلها سبعة اي في كل زاوية برجاً وبرجاً في وسط الضلع الشمالية وبرجين في الضلع الغربية وجعل في كل برج مدفعاً . وجعل للخندق بابين باب في طرف الضلع الشمالية الغربي وباب في وسط الضلع الغربية . وصفّ العساكر على خط النار فجعل في كل جانب من جوانب الخندق الثلاثة نحو ٥٠٠ من العساكر النظامية و ٣٠٠ من الباشبوزق وجنّد الملكية من موظفين وتجار وجعلهم مع العساكر على خط النار . وجعل عثمان بك الدالي قومندان الضلع الشمالية والقائمقام حسن بك عثمان الكريتلي قومندان الضلع الغربية وحمى بنفسه الضلع الجنوبية واستعد للدفاع .

فلما تحقق محمد عبد الكريم ان النور بك يخادعه شرع في التضييق عليه فأمر بعض الأمراء فنزلوا في البساتين الملاصقة للخندق من جهة الشمال وبنوا فيها طابيتين حصنوهما بالمدافع . وأمر مصطفى ود جباره ومن معه فعبروا النيل الى الشرق ونزلوا تجاه سنار وبنوا هناك ايضاً طابيتين حصنوهما بالمدافع وصاروا كلما لاح لهم شخص او بهيمة رموه بالرصاص حتى صار اهل البلد يأخذون من المياه ما يكفيهم النهار كله ويحبسون في منازلهم الى الليل .

وكان اهل الحامية من الجهة الاخرى كلما رأوا رجلاً خارج الخندق رموه بالرصاص حتى اهلكوا كثيراً من المحاصرين .

مهاجمة محمد عبد الكريم لسنار في ١٧ يونيو سنة ١٨٨٥ : وداموا على ذلك حتى فرغ صبر محمد عبد الكريم فعقد مجلساً من أمرائه وأهل شوراه فأجمعوا على مهاجمة الخندق وأخذ البلد عنوة فأمر مصطفى ولد جباره فعبر

بمن معه الى الديم العام في الغرب . وكان قد فرّ اليه في هذه الاثناء كاتب من سنار فظنّ انه هو الذي جرأه على مهاجمتها . ولما كان الثلث الاخير من الليل في ٢ شعبان ١٣٠٢ هـ ١٧ يونيو ١٨٨٥ م زحف محمد عبد الكريم بجيوشه على الخندق وقد أمر اصحابه بالسكوت فساروا تحت جنح الظلام سيراً بطيئاً هادئاً حتى وصلوا الخندق فتسلق بعضهم الطابية الشمالية الغربية وقتلوا بعض الطوبجية ودخلوا الشونة ومحل الذخائر فاستيقظ الخفراء ورجال الخط كله وكان عثمان بك الدالي قومندان الخط في الطرف الشرقي منه فأخذ بعض العساكر وانقلب على الدراويش الذين دخلوا الشونة . قيل وكان الصاغ رمضان بهجت قومندان الطابية نائماً في منزله فلما علم بدخول العرب جمع من بقي من عسكره وانضم الى عثمان بك الدالي وأشعلوا النار في الشونة من جهة الشمال . وعلم النور بك بهم فأسرع ببعض العساكر وأشعل النار في الشونة من الجنوب فحصرهم بين نارين ووالوا اطلاق الرصاص عليهم حتى أفنوهم عن آخرهم ورجع كل الى محله على خط النار . وكان محمد عبد الكريم قد ارسل خبراً الى المرضي قبل الفجر فهاجم الخندق من الغرب فأمطر العساكر عليهم سحب الرصاص والقنابل ووالوا الضرب بغير فاصل وتتبعوا الذين داخل الخندق فقتلوهم عن آخرهم وهزموا الباقين شر انهزام . قيل وكان قتلى الدراويش نحو ٢٠٠٠ رجل وفي جملتهم احمد المكاشف السالف الذكر .

ومن ذلك اليوم لم يعودوا يجسرون على مهاجمة الحامية بل اقتصروا على حصرها والتضييق عليها . وقد بذل اهل الحامية الجهد في مواصلة الانكليز أملاً بأنهم يأتون لنجدتهم وتفننوا في استنباط الحيل لايصال الرسائل اليهم فكتبوها على ورق رقيق جداً وجعلوها بين نصاب السكين ومقبضه او في جوف العصا او في طي النعال او بين الفص والخاتم ومع ذلك فما ارسلوا رسولاً إلا قبض الدراويش عليه واستنطقوه وعذبوه حتى اعترف برسالته ، فانقطعت آمالهم من وصول النجدة اليهم واشتد الحال عليهم وعمّهم الجوع وتعذر وجود القوت فأكلوا الكلاب والحمير والجلود وصار الضعفاء منهم

يخرجون خارج الخندق لالتقاط بعض النباتات البرية كالضريسة وقش النال وغيرها للتقوت بها فيقع البعض في ايدي المحاصرين ويسلم البعض انفسهم هرباً من الموت جوعاً فصمم النور بك إذ ذاك على الخروج من الخندق ومهاجمة الدراويش في ديمهم وكسب غلالهم للتعلل بها او الموت دون ذلك .

خروج حامية سنار مهاجمة في ٢٠ يوليو سنة ١٨٨٥ : ولما كان يوم الاثنين في ٢٠ يوليو سنة ١٨٨٥ خرج النور بك بألف ومايتين من العساكر النظامية والباشبوزق وهم جلّ عساكره فهدم طابيتي الدراويش اللتين في الجنائن وقتل من فيهما ثم زحف قاصداً ديم الدراويش في البقرة فالتقوهُ في الطريق واشتعل القتال بين الفريقين فأصيب النور بك برصاصة في رجلهِ فحملوهُ على حمار وأخذوهُ الى سنار وألقيت قيادة العساكر الى عثمان بك الدالي فأشعل في الاعداء ناراً حامية حتى هزمهم وقتل منهم نحو ٢٠٠٠ رجل ودخل ديمهم فغنم كل ما فيهِ من حبوب وخيم واسلحة وعاد الى سنار فعمّ الفرح أهل الحامية كلها وزال ما حلّ بهم من كرب الجوع والحصر . وقد وجد العساكر في كوخ عبد الكريم كتباً من أم درمان تنبيء بوفاة المهدي ، فازدادوا سروراً واستبشاراً وظنوا ان المهدية قد زالت بوفاتهِ وان الدراويش لا يرجعون الى القتال .

خروج حامية سنار المرة الثانية في ٣٠ يوليو سنة ١٨٨٥ : ولكن ما لبث الدراويش ان تجمعوا وعادوا الى ديمهم في البقرة فأقر أهل الحامية على اعادة الكرة عليهم وكان النور بك لا يزال طريح الفراش من جرحه فقاد عثمان بك الدالي العساكر وخرج بهم صباح الخميس في ١٧ شوال سنة ١٣٠٢ هـ ٣٠ يوليو ١٨٨٥م وكان الدراويش قد أقاموا متراساً امام الديم ووضعوا عليه أهل الاسلحة النارية فلما أقبل العساكر بادروهم بالرصاص فمال عثمان بك بالعساكر الى جهة الغرب فهاجمه اذ ذاك الحرابة وكانت العساكر بهيئة قلعة ففتحت عليهم نيران البنادق فأصابت عبد الكريم رصاصة في فخذه فكسرتها

فوقع فيهم الفشل وانهزموا شر هزيمة . ودخل العساكر الديم فأخذوا جميع ما وجدوه فيه من حبوب وغلال وأغنام وغيرها ثم أحرقوه وعادوا بالغنائم الى سنار ودامت هذه الواقعة من الساعة واحدة من النهار الى الساعة ١١ حساباً عربياً وقد قتل في هذا اليوم من الدراويش نحو ٢٠٠٠ رجل وأما العساكر فقد قتل منهم ١٢٠ رجلا من ضباط وعساكر وجرح احمد بك مكوار جرحاً مميتاً فحمل الى سنار ومات هناك . وأصيب عثمان بك الدالي بثلاث رصاصات واحدة أصابت يده اليمنى واثنتين أصابتا فخذيه ولكنه سلم منها كلها . أما عبد الكريم فقد حمله أنصاره الى البرياب لمعالجته هناك وقد لزم الفراش بسبب انكسار فخذه ولم يعد له طاقة على ادارة الجيش فأمر محمد احمد ولد شيخ ادريس المار ذكره فجمع شتات الانصار وعاد الى ديم البقرة وعاد مصطفى ود جبارة الى ديمه في الشرق .

واقعة كساب الاثنين ١٧ اوغسطوس سنة ١٨٨٥ : ولم يكن إلا القليل حتى فرغ الزاد الذي كسبه العساكر وجاءهم نبأ ان في جهة كساب شرقي النيل على نحو عشرة أميال من سنار مخزناً كبيراً من الحبوب فأقروا على أخذه وكان النور بك وعثمان بك الدالي لا يزالان طريحي الفراش بسبب جراحهما فجهز القائمقام حسن بك عثمان نحو الف من العساكر النظامية والباشبوزق ومعهم الملك تاج الدين كبير الفونج بسنار وعدّى بهم الى الشرق السبت في ١٥ اوغسطوس سنة ١٨٨٥ وفي صباح الاحد تقدم بالعساكر الى كساب فلم يجد فيها شيئاً فأراد ان يتوغل جنوباً للتفتيش عن الغلال فلم تذعن العساكر لأمره فبات ليلته في كساب وهو لا يدري ما يفعل . ولما استيقظ صباح الاثنين في ١٧ اوغسطوس سنة ١٨٨٥ م وجد ان ٤٠٠ رجلا من عساكره السود قد هجروه وانضموا الى مصطفى ود جبارة امير الدراويش بالشرق فقفل راجعاً بباقي العساكر قاصداً سنار فكمن له مصطفى ود جبارة في غابة الشيخ فرح بين سنار وكساب وما اقترب منه حتى خرج عليه بجيشه فقتله وقتل معه الصاغ رمضان افندي بهجت والملك تاج الدين كبير الفونج المار ذكرهما وبعض

العساكر وأسروا البعض ولم ينج من العساكر إلا القليل فعبروا النيل سباحة الى سنار ونزل بعضهم بالمراكب فقذفهم التيار الى قرب معسكر محمد احمد ولد الشيخ ادريس في البقرة فأرسل وابور محمد علي فقبض على المراكب ومن فيها ولم يرجع من الالف رجل الذين خرجوا الى الشرق إلا نفر قليل . وأصبحت حامية سنار بعد هذا المصاب تحت رحمة الدراويش .

تسليم حامية سنار في ١٩ اوغسطوس سنة ١٨٨٥ م

وكان محمد احمد ولد الشيخ ادريس لما ألقى القبض على العساكر في المراكب ألبس اربعة منهم جبباً مرقعة وأرسلهم في صبيحة اليوم الثاني أي ١٨ اوغسطوس الى سنار بكتاب الى أهل الحامية يدعوهم الى التسليم ويقول « اذا سلمتم سلمتم وإلا هاجمتكم ودخلت الخندق عنوة » . فجمع النور بك اذ ذاك مجلساً من الضباط والتجار والأعيان فلم يجدوا بداً من التسليم فكتبوا بذلك كتاباً الى محمد احمد شيخ ادريس وأمضاه الميرالاي النور بك قومندان العساكر وعثمان بك الدالي ثانيه والبكباشيان محمد صالح وعثمان ذهني والشيخ احمد مكي قاضي سنار والشيخ احمد ابو عامر سر تجار سنار وغيرهم من التجار والأعيان . ثم خرجوا فسلموا له وبايعوه وذلك في يوم الاربعاء ٨ القعدة سنة ١٣٠٢ هـ ١٩ اوغسطوس سنة ١٨٨٥ م وكانت سنار آخر من سلم من حاميات السودان بعد جهاد ثلاث سنين وخمسة أشهر .

الغنائم والأسرى : ودخل الدراويش الخندق فأخرجوا العساكر الى الديم وكانوا لا يزيدون عن ٧٠٠ رجل من نظامية وباشبوزق ثم اخرجوا أهل البلد وأخذوا في جمع الغنائم فأتوا بمن ظنوه اخفى ماله فعذبوه وجلدوه بالسياط حتى اعترف به كما فعلوا في كل حامية فتحوها . أما النور بك فانه لم يهن لأن ابنته كانت في عصمة محمد عبد الكريم وقد تسرّاها بعد فتح

هذا وكان قد شاع في أم درمان ان محمد عبد الكريم لما علم بوفاة المهدي اراد جمع كلمة جيشه لمحاربة التعايشي وجعل الخلافة لابن عمه الخليفة شريف لأنه أحق منه بالملك ، فعند وصول محمد عبد الكريم الى أم درمان استدعاه الى مجلسه وتهدده وطلب اليه ان يحلف له يمين الطاعة ففعل .

وأذاع التعايشي خبر فتح كسلا وسنار وكتب بذلك الى امرائـــه في الجهات ، وهاك ما كتبه « الى حبيبه المكرم يونس الدكيم » : « ... واعلم حبيبي انه بحمد الله قد انتصر الدين النصر المبين وذلك ان كلا من مديرتي كسلا وسنار قد صار فتوحها ببركة الله تعالى على أتم حـال وأسرّ بال . وسيرتها ان اهل كسلا قد اشتد عليهم الضيق بواسطة انصار الدين وقطعت عليهـــا المواد بالكلية حتى تضايقوا المضايقة الشديدة وأكلوا الحمير ولحوم بني آدم ، ولما ضاق بهم الحال واشتد عليهم النكال رجعوا الى الواحد المتعال وسلموا للمهـــدية حقراً أذلا منقادين ، والآن جميـع مدافعهم وجبخاناتهم وأسلحتهم استلمت بيد الانصار والجهادية كذلك والحمد لله على ذلك . وكيفية فتح سنار هي ان اعداء الله لمـــا اشتد كربهم خرجوا لجنود الله للحرابة فتصادموا فقتلت منهم مقتلة ثم انهزموا ودخلوا حصنهم وقد املّوا التوجه لجهات الصعيد لقصد اخذ غلال لإزالة مـا بهم من الضرر فدخلوا في مراكب وتوجهوا فصادمهم الانصار وشددوا عليهم حتى هلك منهم نحو الالف وثلثمائة وأسر منهم نحو الثلثمائة واستلمت مراكبهم ومـا فيها من الجباخين والأسلحة ولما رأوا ما حصل لهم من الدمار انحل عزمهم وتشتت رأيهم ، وبعد هـذه المقتلة منهم عزم الانصار على دخول خندقهم وافتتاحه ليدمروا من فيه نصرة لدين الله وإحيـــاء لملة رسوله ﷺ فقبل انتقامهم خاطبهم الاعداء بالتسليم والانقياد للمهدية وطلبوا الامان خيفة على انفسهم من الهلاك فأمّنهم الانصار فخرجوا من حينهم واستلمت مديريتهم بجميع مـــا فيها وصارت غنيمـة

الخرطوم وكان النور بك وعثمان بـك الدالي لا يزالان طريحي الفراش بسبب جراحها فتركوهما داخل الخندق .

بعثة النجومي الى سنار : هذا وكان الخليفة عبد الله لمـــا رأى محمـد عبد الكريم قد أبطأ في فتح سنار استدعى عبد الرحمن النجومي من المتمـة وأرسله الى سنار ومعه ثلاثة وابورات وهي : تل حوين وبوردين والاسماعيلية فسار براً وبحراً بجيش لا يقل عن ١٣٠٠٠ رجل وفيهم من الأمراء ود جبارة وابو قرجـــه ومكين النور وعبد الحليم مساعد فوصل سنار السبت في ٢١ اوغسطوس أي بعد التسليم بثلاثة ايام. وكان انصار محمد عبدالكريم لا يزالون مشتغلين في نهب المدينة وتعذيب اهلهـــا ، فمنعهم النجومي من ذلك وأمّن البلاد .

خراب سنار : وكتب محمـد عبد الكريم الى الخليفة يبشره بفتح سنار فكتب اليه جواباً بتاريخ ١٢ القعدة سنة ١٣٠٢ هـ اوغسطوس سنة ١٨٨٥ م يخبره بوصول كتابه الحاوي بشائر فتح سنار وعليـــه حاشية : « جزى الله الانصار خيراً وخصوصاً الحبيب المكرم مضوي عبد الرحمن فقـد سرّنا مـا نوهتم بـــه في حقه من حسن الثبات وفتكه بالعدا وهكذا شأن من تكمّل وتصفّى وبعهد الله وفى » .

وكان الخليفة عبد الله لا يأمن جانب الاشراف لما تقدم من الاسباب ، وخشي من اتحاد النجومي وعبد الكريم عليه في سنار فأخذ يوالي تحاريره الى كل منهما بحرق سنار والرجوع الى أم درمان في الحـــال ويقول : « سنار تصيبها النار» . فعاد النجومي بجيوشه ووابوراته اولاً فوصل الخرطوم في ١٢ سبتمبر سنة ١٨٨٥ وأقام فيها . ثم لحقه عبدالكريم بعد ان احرق سنار وأتم خرابها وبقيت خراباً فلم يجسر احد على سكناها الى ان كان الفتح الاخير فعمّرت كما كانت .

للمؤمنين ، ولمعلوميتكم بما ذكر تحرر هذا . فاسجدوا شكراً لله كما سجدنا وان شاء الله بعد الآن تتكاثر الفتوحات ويتأيد الدين زيادة على ما فات فشدوا الحزم وقووا العزم وتشوقوا للقاء الله يا حزب الله فان خيركم قدام فلا تطلبوه هنا رحمكم الله . هذا والسلام على جميع من معكم من انصار الدين ... »

الفصل الرابع

في

وقائع الحدود وأم درمان

سنة ٥ : ١٨٨٦ م

واقعة جنس في ٣٠ ديسمبر سنة ١٨٨٥ : تقدم ان محمد الخير لما علم بخروج الانكليز من دنقلة في ١٥ يونيو سنة ١٨٨٥ أرسل مقدمة جيشه بقيادة ابن اخيه عبد الماجد محمد خوجلي فاحتلها في ٢٦ اوغسطوس بنحو ٣ آلاف مقاتل . ثم لحقه على الأثر فوصل دنقلة في ٢٠ اوكتوبر سنة ١٨٨٥ . وبعد وصوله بقليل سيّر عبد الماجد المذكور بمعظم أنصاره لمناوأة جيش الحدود في كوشة وأخذ يستعد للحوق به . فوصل عبد الماجد بلدة جنس على نحو ٣ أميال من كوشة في ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٨٥ فأقام فيها ديماً ووضع بعض الانصار في بلدة كوشة والبعض الآخر على أكمة صخرية شماليها عرفت بالحجر الاسود تطل على طابية الجيش ووضع على الأكمة مدفعاً وبعض الرماة فشرعوا يرمون الطابية بالقنابل والرصاص حتى صار أهلها يحفرون الحفر ويختبأون بها فأقرّ الكولونيل أفرت قومندان الطابية على طردهم من الأكمة عنوة . وفي ١٥ ديسمبر سنة ١٨٨٥ خرج عليهم بمعظم العساكر فرماهم بالقنابل اولاً ثم أمر

الصفوف فوضعوا السنج في رؤوس البنادق واقتحموا رصاص الأعداء وتسلقوا الاكمة فأجلوهم عنها وغنموا المدفع فجعل الكولونيل أفرت نفراً من العسكر في مكانهم ورجع بباقي القوة الى الطابية . وقد خسر في هذه الهجمة ضابطاً وعسكرياً وجرح الكبتن هنتر (الجنرال هنتر الآن) وثلاثة عساكر .

هذا وقد صحب عبد الماجد من دنقلة عبد الله ود سعد فنزل بأنصاره في الشاطىء الغربي تجاه ديم الدراويش في جنس وكانوا يأتون قبالة الطابية فيختبئون بالصخور ويترقبون العساكر فكلما لاح لهم عسكري رموه بالرصاص فاجتاز البكباشي بارو ببعض العساكر السودانية والمصرية وزرب زريبة تجاه الطابية ومكث بها فمنع أذاهم .

وكان الجنرال ستفنسن قائد جيش الاحتلال في مصر لما علم بقدوم الدراويش الى كوشة ساق اليها الجنود الانكليزية والمصرية من مصر والحدود فوصلها في ١٩ ديسمبر سنة ١٨٨٥ م ومعه الجنرال غرنفل سردار الجيش المصري بصفة رئيس أركان حرب . وكان الجنرال بتلر قومندان العساكر الانكليزية في الحدود قد سبقه اليها فاجتمع عنده بين طابيتي مغركة وكوشة خمس اورط مشاة واورطة راكبة من الجيش الانكليزي وقسم من الاورطة التاسعة السودانية وآخر من الاورطة الثالثة والاورطة الاولى من الجيش المصري وأقسام متفرقة من الطوبجية والمهندسين والهجانة والسواري من انكليز ومصريين . ذلك عدا وابور لوتس الحربي بقيادة الكبتن لويد في النيل . وكان مع عبد الماجد في جنس وكوشة والغرب نحو ٦٠٠٠ مقاتل . فأقرّ الجنرال ستفنسن على مهاجمة الدراويش في الشرق والغرب فجعل الماجور بارو وجنوده في صدد عبد الله ود سعد في الغرب وقسم جيشه الى آلايين : الآلاي الثاني — وهو مؤلف من ثلاثة انصاف اورط انكليزية والاورطة الاولى المصرية وبعض الهجانة الانكليز والمصريين وستة بلوكات من الهيلندرس وبلوكين من الاورطة التاسعة السودانية بقيادة الكولونيل هوش — يهاجم بلدة كوشة ثم يتقدم على ديم الدراويش في جنس بطريق النيل . والآلاي الاول — وهو مؤلف من

ثلاث اورط انكليزية وأقسام من الطوبجية والهجانة والاورطة الثالثة المصرية بقيادة الجنرال بتلر . تتبعه الاسلحة الراكبة من انكليز ومصريين بقيادة الكولونيل بلاك — يسير في نصف دائرة ويهاجم ديم جنس من الجنوب .

وفي ٣٠ ديسمبر قبيل الفجر زحف الجنرال ستفنسن بالجيش من النيل الى التلال الجنوبية المطلة على كوشة وجنس من جهة الصحراء جاعلاً الآلاي الاول ومعه الاسلحة الراكبة أمامه والآلاي الثاني وراءه . ولما كان الفجر أمر مدفعية الآلاي الاول ففتحوا أفواه مدافعهم على كوشة. ثم أمر الستة بلوكات من اورطة الهيلندرس والبلوكين من الاورطة التاسعة السودانية من الآلاي الثاني فهجموا على بلدة كوشة هجمة الاسود واحتلوها عنوة وغنموا منها مدفعاً وذلك في الساعة ٦ والدقيقة ٥٠ . وكان الآلاي الاول اذ ذاك قد اتخذ مركزاً على التلال الجنوبية على نحو ميل ونصف ميل من ديم الدراويش في جنس والآلاي الثاني وراءه تجاه بلدة كوشة . وكان الدراويش في جنس لما سمعوا اطلاق المدافع قاموا مذعورين الى سلاحهم فما طلع النهار حتى رأوا العساكر قد ملأوا التلال وهم زاحفون عليهم فخرجوا لصدّهم زمراً ففتح العساكر أفواه البنادق والمدافع فاقتحموا النيران وتسلقوا التلال بقلوب لا تهاب الموت وذهبت فرقة منهم في خور متوارين بشاطئه حتى أتوا على الهجانة المصرية في يسار الآلاي الاول والتحم القتال بينهم وبين الهجانة بالسيوف والحراب فساعد هؤلاء فرقة من العساكر الانكليزية فردوهم على أعقابهم خاسرين وشتتوهم كل مشتت . ووالى العساكر رمي النار على الدراويش حتى أجلوهم عن التلال وتقدم الآلاي الاول الى الديم فاحتله الساعة ٩ والدقيقة ١٥. وبعد ربع ساعة انضم اليه الآلاي الثاني واستولى الجيش على جميع ما كان في الديم من الامتعة والذخائر والاسلحة وفيها ٤ مدافع .

أما عبد الله ود سعد في غربي النيل فانه كان قد استعد للهجوم على زريبة الماجور بارو فلما رأى قومه قد شرعوا بالانهزام انهزم هو ايضاً بلا قتال .

ولحق فرسان الجيش بالدراويش المنهزمين الى عبري فقتلوا من أدركوه في الطريق وعادوا بالغنائم الى جنس .

وأما الوابور لوتس فانه ساعد الجيش في أثناء القتال ولما انهزم الدراويش تتبعهم الى ابي صاري فغنم منهم تسعة مراكب ملأى بالمؤن والذخائر وعاد الى جنس .

هذا وبعد انجلاء الواقعة علم ان جماعة من الدراويش لا زالوا مختبئين في بيت من بيوت كوشة فدُعوا الى التسليم فلم يسلموا بل رموا العساكر بالرصاص وقتلوا ضابطاً مصرياً فأتى العساكر بالمدافع فهدموا البيت وقتلوا من فيه .

وكانت خسارة الجيش في هذا اليوم ٧ قتلى و ٣٤ جريحاً وأما خسارة الدراويش فقد قدرت بنحو ٥٠٠ قتيل و ٣٠٠ جريح وبين قتلاهم عبد الماجد الكيلك الميرفابي المار ذكره وحسن ابو قرجة وبين الجرحى عبدالماجد رئيس السرية وعثمان ازرق .

وقد أعجب الهيلندرس ببسالة عساكر الاورطة التاسعة السودانية الذين صحبوهم في الهجوم على كوشة فأهدوهم راية مكتوباً عليها اسم جنس فصارت الاورطة التاسعة تحملها مع رايتها الخاصة الى اليوم .

وممن امتاز في هذه الواقعة والمناوشات التي تقدمتها من الضباط المصريين وذكروا في الاوامر العسكرية : البكباشي احمد افندي فهمي اركان حرب فانه « أدّى مساعدة ذات قيمة » . والبكباشي في الطوبجية المصرية حسن افندي رضوان (رضوان باشا الآن) فانه « اصيب بجرح في طابية كوشة وقد صبر شهراً على نيران العدوّ وأظهر بسالة ومهارة في ادارة المدفع » .

وممن امتاز من الموظفين السوريين : البكباشي الطبيب سليم افندي موصلّي (الميرالاي موصلي بك الآن) فانه « ساعد مساعدة عظيمة جداً اذ كان طبيب طابية مغركة . ثم ألحق في الآلاي الاول وحضر واقعة جنس فداوم على الاعتناء بالجرحى وقام بالواجب عليه أحسن قيام » . وملحم افندي شكور (ملحم بك الآن) سكرتير السردار العربي فانه « خدم مدة ثلاثة

أشهر قبل الواقعة بصفة معاون المخابرات في نقط الجيش الأمامية . فأظهر من الهمّة والمهارة وحسن التدبير في تأدية واجباته مما أتى بأحسن النتائج . وقد صحب سعادة السردار في الواقعة فكان له افضل مساعد في الدلالة على نقط شتى لزمت الجيش معرفتها » .

هذا وبعد الواقعة رأت الحكومة ان لا فائدة لها من احتلال بطن الحجر غير تحمل المشاق والنفقات فأخرجت جنودها منها وجعلت آخر حدها الجنوبي حلفا فوصل آخر الجند اليها من الجنوب في ١٣ ابريل سنة ١٨٨٦ . وفي ٧ مايو خرج العساكر الانكليز من حلفا فتركوا حمايتها للجيش المصري ولكن بقي الف رجل منهم في اسوان لنجدة الجيش المصري اذا مست الحاجة الى سنة ١٨٨٧ فعادوا الى مصر .

التعايشي وخبر الحملة على دنقلة : هذا وكان محمد الخير لما بلغه خبر استعداد الانكليز لواقعة جنس بعث الى الخليفة بكتاب وصله في ١٧ سبتمبر سنة ١٨٨٥ قال فيه :

« ... ان الانكليز لما بلغهم خبر وفاة المهدي سوّلت لهم أنفسهم الرجوع الى دنقلة وقد قاموا فعلاً من حلفا قاصدين دنقلة في ثلاث طوائف طائفة بالبحر وطائفة بالخلا بالجهة الغربية وطائفة بالجهة الشرقية وان بعضهم دخلوا عكاشة ... » .

فاضطرب الخليفة لهذا الخبر وأرسل في الحال طليعة من عنده الى الحدود لتأتيه بالخبر اليقين . وكان النجومي قد حضر من سنار في ١٢ سبتمبر سنة ١٨٨٥ كما مر فأمره بالزحف على دنقلة فصدع بالأمر وشرع في تسيير الجيوش الى بربر .

وكتب الخليفة في ٢٦ سبتمبر سنة ١٨٨٥ م « الى جماعة مضوي عبد الرحمن وكافة الحلاويين التابعين لحمد البصير وأولاد المرحوم العبيد بدر وغيرهم » يقول : « ... حيث أمرنا الرايات بالخروج الى الجهاد في سبيل الله

وأنتم من جمـــلة الرايات التي تعينت للجهـاد فيقتضي ان تستعدوا لذلك ولا يتخلف منكم احد ... »

وبعث امراً الى أبي عنجة في جبال النوبة في ٩ اوكتوبر سنة ١٨٨٥ : « ليستعد للرجوع الى أم درمان عند اقل اشارة » . وقد كان من رأيـه ان يجعل الخليفة شريفاً في صدد الجيش المهاجم ثم يجمع اطرافه في أم درمـــان ويستعد للطوارىء .

قيل وعند وصول الخبر اليه من محمد الخير استدعى رفيقيه الخليفة شريفاً والخليفة ود حلو وقال لهما ان الحضرة النبوية قضت بتقسيم الرايات على الجهات فجعلت كل راية في صدد جهة ، فالراية الحمراء التي هي راية الخليفة شريف في صدد مصر والجهات البحرية . والراية الخضراء التي هي راية الخليفـة ود حلو في صدد السودان الشرقي والحبشة . والراية الزرقاء في صدد السـودان الغربي الى آخر حد الاسلام في السودان . وعليه ، فقد عهدت امر مصر والجهـات البحرية بالخليفة شريف ووجهته فتح مصر .

وقد رأيت كتاباً منه الى عثمان دقنة بتاريخ ٩ صفر سنة ١٣٠٣ هـ ١٧ نوفمبر سنة ١٨٨٥ م رداً على كتابه عن واقعة كوفيت يقول فيه : «...وليعلم لديك إنا بخير وقد تعين خليفة الكرار برايات الى فتح الجهات البحرية ودعاية من فيها الى رب البريّة وها هم على جناح السـفر » ... « ثم اعلم يا حبيبي انه قد صار تعيين الحبيب عبد الرحمن الجنومي وقيامه في أول السرية وفي تاريخ اثنين ربيـع الاول الآتي يصير قيام خليفة الكرار بباقي الجيش » .

وكتب له في ١٢ ربيـع الاول سنة ١٣٠٣ هـ ١٩ ديسمبر سنة ١٨٨٥ يقول : « ... خرج خليفة الكرار مديماً للسفر خارج المدينة ونحن أخرجنا خيمتنا معه للمشاورة والمدابرة في امر الجيش وفي شهر ربيـع الثـــاني الآتي يقوم ببركة الله الى الجهات البحرية بجيوش لا قِبل لها من العداء » .

ثم كانت واقعـــة جنس في ٣٠ ديسمبر سنة ١٨٨٥ فازداد قلق الخليفة وجدّد الهمة في حشد الرايات الى دنقلة . وكان محمد الخير قـد ارسل الطلائع

لاستطلاع طلع الجيش فعادوا في اواسط ابريل سنة ١٨٨٦ وأخبروه بـأن الانكليز قد أخلوا البلاد كلها الى حلفا ، فكتب في ذلك الى الخليفة فسُرّي عنه وأشاع ان الانكليز فزعوا من سطوته فعادوا الى بلادهم .

تجريد الخليفتين من الأسلحة والرايات : وكان التعايشي انما جعل الخليفة شريف في صدد مصر ليدرأ به نار مهاجميه فلما سمع برجوعهم الى حلفا خاف انه اذا ذهب الخليفة شريف الى دنقلة ومعه تلك الجيوش الجرارة يفلت من يده ويستقل عنه ويكون له نداً اينما حل فأمره بالبقاء في أم درمان . ولم يكتف بذلك بل امر بتسليم العساكر الجهادية الذين في رايته وما معهم من الاسلحة النارية الى اخيه يعقوب لضمهم الى الراية الزرقاء . وطلب مثل ذلك من الخليفة علي ود حلو ، فأدرك ود حلو ان مراد التعايشي بذلك انما هو تنكيس الاشراف ليس إلا ، ولم يكن عنده إلا نفر قليل من السود فسلمهم طائعاً ، فلم يسع الخليفة شريفاً اذ ذاك إلا الطاعة . فجعل التعايشي جميع الجهادية راية واحدة وولى عليهم فضل المولى صابون أخا حمدان ابي عنجة وجعلهم في طابية أم درمان التي عرفت بكارة الجهادية . ثم أمر التعايشي الخليفتين فسلما طبولهما الحربية ثم راياتهما التي كانا ينصبانها امام منزليهما بحجة ان الدين واحد والجيش واحد . وكان ذلك في اواسط جمادي الآخرة سنة ١٣٠٣ هـ اواسط مارس سنة ١٨٨٦ م .

فرار الشيخ المضوي : ولم يكن ذلك كله بلا جلبة او لغط بل قيل ان الشيخ المضوي انكر هذه المطاليب وحرّض الاشراف على رفضها والعبور الى شرق النيل ، فتكفل بضم اهل الشرق والجزيرة اليهم وتدبير ما يلزمهم من المؤن ، ولما لم يوافقوه على رأيه خشي ان يبلغ التعايشي تحريضه فيبطش به ففر الى الحبشة . وخاف ان يعترضه احد في الطريق ، فلفق كتاباً بختم التعايشي قال فيه انه مرسل من قِبله بأمر ديني .

ولما علم التعايشي به بث اصحابه في أثره فلم يدركوه فبعث الى ملك

الحبشة في تسليمه فلم يجبه . وبقي المضوي في عاصمة الاحباش الى سنة ١٨٨٩ ثم أتى الى مصر وتوسط له الزبير باشا فمُنح العفو الخديوي وعـاد الى الأزهر فأقام فيه حتى فتحت دنقلة سنة ١٨٩٦ فسمّي قاضياً عليها ثم عُزل وعاد الى بلاده على النيل الازرق .

عزل احمد سليمان وتسمية ابراهيم عدلان مكانه : وقد تظاهر احمد سليمان أمين بيت المال بأنه محازب للأشراف وكان التعايشي حاقداً عليه من ايام المهدي فاحتال لعزله والايقاع به فطلب اليه تقديم حساب مدقق عن السنين السالفة واذا لم يستطع ذلك رماه بالاختلاس والخيانة وعزله وزجه في السجن فبقي فيه سنة وشهراً وسمّى مكانه أميناً على بيت المال ابراهيم ود عدلان المار ذكره في حصار الابيض .

بعثة النجومي الى دنقلة ورجوع محمد الخير الى بربر : هذا وكان النجومي قد شرع في ترحيل جيشه من بربر الى دنقلة منذ اوائل ابريل سنة ١٨٨٦ م . وكان التعايشي يود تنكيس محمد الخير لأنـه كان ذا سطوة ونفوذ في البلاد من لدن المهدي فاتخذ انكساره في جنس سبباً لذلـك فكتب اليه فسلم البلاد الى حسن ود جبارة امير مقدمة جيش النجومي ورجـع بجيشه الى بربر . وكان معه من جيش النجومي راية حسن ابي قرجة وراية مرغني سوار الذهب فتركها في دنقلة .

عزل محمد الخير عن بربر وتولية عثمان الدكيم مكانه : ثم لم يكتف التعايشي بعزله عن عمالة دنقلة بل عنـد وصوله الى بربر استدعاه الى ام درمان وعزله عن عمالة بربر وأرسل عثمان الدكيم من أقاربه مكانه. وهاك ما كتبه الى عثمان الدكيم في ٦ الحجة سنة ١٣٠٣ هـ ٥ سبتمبر ١٨٨٦ بنصه بعد البسملة :

« وبعد فمن عبد ربه خليفة المهدي عليه السلام الخليفة عبد الله بن محمـد خليفة الصديق الى حبيبه وعونـه في دين الله عثمان الدكيم كان الله له آمين . بعد السلام عليك ورحمة الله وبركاته . حبيبي ان هـذا الأمر الذي نحن عليه

هو الدين الخالص الذي كان عليه نبينا ﷺ وجاء به عن الله . وظهر المهدي عليه السلام لاحيائه واقامته وإظهاره على الدين كله ونحن نحمد الله على اثره . وحيث انك من الاصحاب الكرام الذين أخـذ عليهم العهد من المهدي عليه السلام ومنا ومعدود عندنا من اهل الحزم والعزم والتشمير في الدين وظننا بك جميل فقد جعلناك عاملاً على عموم بربر ونواحيها تعمل فيها بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وتجتهد في إشهار شعائر الدين وتتحزب أنت وجميع أهالي الجهة المذكورة لجهاد أعداء الله الكافرين لتكون كلمـة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى فاعلم ذلـك حبيبي وسر في العباد بسير الصدق وكن على الحق الذي يرضي الله ورسوله واتق مولاك في الحركات والسكنات وساوِ الضعيف والقوي في الحق وأرفق بالمسلمين وسر بهم الى مولاهم وعظهم بالحكمة والموعظة الحسنة وكن انت ومن معك على الاستقامة أشداء على الكفار رحمـاء بينكم وأجرِ الحق ولو على نفسك وكن على غاية الاجتهاد وعلو الهمة في الاستعداد لملاقاة مولاك ونصرة الدين حتى تفوز بذلك الفوز العظيم وتنال من ربك التكريم ولا يبلغنا عنك إلا الخير وحسن السير . واعلم ان امارتنا لك هي على شرط اتباع الكتاب والسنة والعمل بما يرضي الله فكن على ذلك تسلم من المهالـك والسلام .

تسمية مساعد قيدوم وكيلاً للنجومي : ثم ان التعايشي لم يبقِ النجومي وحـده على ادارة الجيش بل أرسل مساعد قيدوم من أهله رقيباً عليه فسماه وكيلاً على الجيش على ان يوليه بلاد دنقلة فيما بعد . وهاك ما كتبه الى أبي عنجة في ١٦ يوليو سنة ١٨٨٦ بهذا الشأن : « ... فالآن عزمنا على تعيين الحبيب مساعد قيدوم برايتـه اللحوق بالحبيب عبـد الرحمن النجومي ويوم الاثنين بعد غدٍ قصدنا اخراجها للسفر ... » .

وكتب الى الامراء الذين مع أبي عنجة في ١٨ القعـدة سنة ١٣٠٣ هـ ١٨ اوغسطوس سنة ١٨٨٦ يقول : « ... وان سألتم عن حال اخوانكم الانصار فانهم على حـالة تسر الخاطر وتقر الناظر ولا زالوا متوجهين للجهاد وتافرين

خفافاً وثقالاً للحوق بالحبيب عبد الرحمن النجومي وقد تكامل بدنقلة منهم خمسة عشر الف مجاهد منهم من وصل بذات العرضي ومنهم من لا يزال بدار الشايقية ونحوها من الجهات والباقي منهم ببربر ستة آلاف مجاهد بمعية عبد الرحمن النجومي والحبيب مساعد قيدوم وهم شارعون الآن في السفر وجميع جهات الارياف ساكنة وليس بها أدنى حركة . وأما أعداء الله الانكليز فقد هربوا منجهة مغركة وكوشة وغيرهما من محلات قياقرهم السابقة ولا زالوا في هرب الى مصر ومنها الى ديارهم وتركوا الترك وحدهم حيارى في ما يصنعونه وقلّت حيلهم لا سيما بعد ما بلغهم نزول الانصار الى جهات الارياف، فلذلك وبالنظر لامتلاء دنقلة بجيش الحبيب عبد الرحمن النجومي حررنا الى الحبيب العامل محمد الخير عبد الله خوجلي بالحضور والنزول بجهات ابي حمد بمن معه من الجيوش لشن الغارة على اهالي الجهات البحرية وربنا يتم بالخير ودين الله لا زال منصوراً وعدوه مغلوباً مقهوراً » اه .

وخرج النجومي ببقية جيشه من بربر في ١٤ اكتوبر سنة ١٨٨٦ فوصل دنقلة في ٩ نوفمبر من السنة المذكورة . وفي ٣ ديسمبر من هذه السنة كتب الخليفة الى انصار دنقلة يحثهم على الجهاد والمحافظة على رباطهم والطاعة لعاملهم النجومي بما نصه :

« ... وبعلمكم ان الله تعالى قد عظم امر الجهاد واستنفر اليه جميع العباد ونوّه بفضله كثيراً ووعد عليه اكيداً فقال تعالى ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التورية والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم . وقال تعالى: ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص . وقال تعالى: يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون يغفر لكم الآية . وقال نبيه المعظم : ان مثل المجاهد في سبيل الله والله اعلم بمن يجاهد

في سبيله كمثل الصائم القائم الخاشع الراكع الساجد . وقال ما معناه من نزل منزلاً يخيف فيه العدو... كتب له كأجر ساجد لا يرفع رأسه الى يوم القيامة وأجر صائم لا يفطر الى يوم القيامة وأجر قائم لا يقعد الى يوم القيامة . وقال من غزا فمات في سنته دخل الجنة ومن ضمان الله ألا يترك من خرج في سبيله بدار ضيقة ولا هوان بل يتولاه بلطفه ويرفع ضرره بما يسوق من فضله ويستجيب دعاءه برحمته. وقال ما جميع اعمال العباد عند المجاهدين في سبيل الله إلا كمثل خطاف اخذ بمنقاره من ماء البحر وأن الله تعالى يغضب للمجاهدين كما يغضب للأنبياء والرسل ويستجيب لهم كما يستجيب للأنبياء والرسل ولا طلعت شمس ولا غربت على احد أكرم على الله من مجاهد . وقال من سأل عني او سره ان ينظر إليّ فلينظر الى أشعث شاحب مشمر لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة رفع له علم فشمر اليه ليوم المضمار وغداً السباق والغاية الجنة او النار » ... « فشدوا يا احبابنا في الله حيلكم واعلموا انكم الآن في خير كثير وفضل غزير ومستقرون ما بين فضيلة الجهاد وقد تقدم لكم بيانها وفضيلة الرباط وقد ورد فيها عن النبي انه قال من رابط يوماً في سبيل الله جعل الله تعالى بينه وبين النار سبع خنادق كل خندق كسبع سموات وسبع أرضين . وقال: ثلاثة لا ترى النار أعينهم عين حرست في سبيل الله تعالى وعين بكت من خشية الله تعالى وعين كفت عن محارم الله تعالى . وقال : من حرس ليلة على ساحل البحر كان افضل من عبادته في أهله الف سنة وأن من ادركه الموت وهو في الرباط فقد فاز فوزاً عظيماً . قال ﷺ ليبعثن اقوام يوم القيامة يتلألأ نور. وجوههم يمرّون بالناس كهيئة الريح يدخلون الجنة بغير حساب فقيل من هم يا رسول الله قال اولئك قوم أدركهم الموت وهم في الرباط » ... « ومادمتم من اهل الكمال وتعلمون ان الحبيب الصفي عبد الرحمن النجومي هو صاحب امركم ونهيكم ومأمورون منا باتباع اشارته وإداء طاعته فما زلتم فكونوا قائمين بسماع امره ونهيه ما أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فانكم ما دمتم على ذلك فرضانا عليكم ولا زلتم

ببالنا مذكورين وبصالح دعواتنا مغمورين واني اوصيكم ايها الاحباب بتقوى الله في السر والنجوى والقيام بإداء طاعته في السراء والضراء وملازمة القيام بشعائر الاسلام ولا سيما التحزب والتجمع بمحل الذيم وإقامة الصلوات فيـــه جماعة وقراءة راتب المهدي عليه السلام والحزب في الاوقات المعلومة وانكم لا شك منصورون وأعداؤكم مخذولون بمقتضى الوعد الصادق الذي لا يخلف . فشمروا في أمر دينكم وتحابّوا فـــيما بينكم وليرحم كبيركم صغيركم ويوقر صغيركم كبيركم وكونوا على طريق السلف الصالح الذين انتم على أثرهم ناهجين ولسكنّتهم سالكين لتدخلوا في مدح قوله تعالى: الذين ان مكناهم في الارض أقاموا الصلاة واتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، بارك الله فيكم وتولاكم وحفظكم ورعاكم وفي هذا كفاية لكم والسلام » اه .

الفصل الخامس

في

كتب التعايشي الى خارج السودان في الدعوة الى المهدية

سنة ٦ — ١٨٨٨ م

كتبه الى اهل مصر وحكومتها :

كتابه الى اهل مصر : هذا وقد كان من هوَس التعايشي الذي أخذه عن سيده المهدي ان المهدية ستعم بلاد الدنيـا ويخضع لسطوتها جميع الأمم طوعاً او كرهاً فأخذ في بث مناشيره خارج السودان للدعوة الى المهدية والحث على الجهاد محذراً الناس من الاحجام عنها . ولما كان فتح مصر من اول احلامه كما مرّ أمر انصاره في دنقلة فهاجموا حدود مصر الى حلفا كما سيجيء . وكتب منشوراً عاماً الى «احبابه في الله أهالي الريف والجهات البحرية كافة» يدعوهم الى الانخراط في سلك المهدية ويحذرهم من المخالفة وهو منشور طويل جـــاء في ختامه :

«... واعلموا ان ما حملني على نصحكم ولا دعاني الى بسط العنان في عظتكم إلا مزيد الشفقة عليكم والخوف من ان لا تنجع فيكم المواعظ غروراً بالأماني

الكاذبة وركوناً الى راحة الدنيـــا الفانية الذاهبة فتدور عليكم الدوائر كما دارت على من قبلكم في بلاد السودان لما أعرضوا عن قبول الحق وجنحوا الى اتباع أقوال علمـاء السوء الذين أضلهم الله على علم واغتروا بأكاذيب حكامهم وكثرة عدد جنودهم وُعددهم العـارية عن معونة الله تعالى فختم الله على سمعهم وقلبهم وجعل على بصرهم غشاوة وحاق بهم مكرهم وهلكوا وحرقت النـار أجسامهم وخسروا الدارين والعياذ بالله ولكم فيهم عبر وعندكم من أمرهم خبر والسعيد من اتعظ بغيرة ونظر في صلاح عاقبتـه وكشف ضيره . وليكن في علمكم ان هذا الأمر ديني مبني على نور من رسول الله ومؤيد من عنـــد الله بجنود ظاهرية وباطنية ولا يختلج في صدوركم انقطاع ذلك المدد الالهي بسبب انتقال المهدي عليه السلام فان للمهدي بجدّه المصطفى ﷺ اسوة حسنة ولما انتقل ﷺ لم يزل المدد مع اصحابه الكرام حتى تأيد دين الله واتسعت دائرته كما لا يخفى عليكم . وانتقال المهدي عليه السلام للدار الآخرة قبل فتح مكة والقسطنطينية وغيرهما من الامصار كما هو مذكور في بعض الروايات لا يقدح في انـه مهدي آخر الزمان الذي بشر الأمة بظهوره سيد الاكوان على فرض صحة تلك الروايات لما ان النبي ﷺ قـــد أخبر في حياته بفتح بعض البلاد كاليمن والشام وغيرهما وأضاف ذلك الى نفسه الشريفة كما قيل به في حديث حفر الخندق والله اعلم ثم لم يكن فتح ما ذكر على يـده الشريفة بل كان على يد خلفائه الكرام بعد انتقاله ﷺ ولم تقدح ذلك في نبوته اذ لا غرو في نسبة فعل خلفائه اليه لما انهم أياديه وخاصته الوارثون لمقامه المنيف . ولا يخفى ان فعل التابع ينسب الى المتبوع وقد أخبر أنبياء الامم السابقة أممهم ببعثة نبينا ﷺ وذكروا انه يفتح الأمصار ويقهر الملوك ويخرب المدائن الكبار ومعلوم انه لم يفتح في زمنه غير مكة وخيبر وكانت بقية الفتح على يد الخلفاء بعده . وعلى طريقته المثلى أتى خليفته المهدي عليه السلام فجميع ما وجـد مضاف اليه في الأحاديث من فتح البلاد فلا بدّ من حصوله على يد خلفائه واصحابـه لما انهم ورثته القائمون بالأمر بعده وأما نسبة جميـع ذلك اليه فمن كال وراثته

المصطفوية . وحينئذ فلا بد من ان يعمّ أمره هـذا مشارق الارض ومغاربها بعون الله تعالى فان الله غالب على أمره ومعلوم ان قدرته لا تقاوم وبطشه لا يصادم . وها قد بلغتكم وأعذرت اليكم فلا عذر لكم بعد هـــذا الانذار وفقكم الله وشرح صدوركم لقبوله . ثم انـه لا بد من ورود الردّ منكم بما تصيرون اليه ألهمكم الله رشادكم وأخذ بنواصيكم الى طريق سدادكم هـــذا والسلام » اه .

كتبه الى حكومة مصر : ومـــا دلّ على تناهيه في الغرور وجهله التام بأحوال العالم الخارجي انه أرسل الى مصر اربعة رسل بثلاثة كتب بتاريخ جمادي الآخرة سنة ١٣٠٤ هـ سنة ١٨٨٧م منها كتاب الى جلالة السلطان عبد الحميد وآخر الى سمو الخديوي توفيق باشا وآخر الى جـــلالة الملكة فكتوريا ملكة الانكليز وفيهـا يدعوهم الى اعتناق المهدية قبل ان تطأ جيوشه بلادهم وتنتقم منهم !. فوصل الرسل حلفا في ١٢ ابريل سنة ١٨٨٧ م فأرسلوا الى الجناب العالي في مصر حيث قرئت الكتب وأرسل كتاب جلالة الملكة اليها ثم أرجع الرسل من حيث أتوا بجواب شفاهي هذا نصه : « ان اولئك الملوك الذين تجرأ سيدكم على الكتابة اليهم لأرفع جداً من ان يتنازلوا الى مجاوبته ». أمـــا الخليفة فانه تباهى بهذه الكتب وأرسل صورها الى جميع أمرائه في الجهات للاطلاع عليها وتلاوتها على الانصار . وهذه هي صور كتبه الثلاثـة بحروفها :

كتابه الى سمو الخديوي توفيق باشا : « وبعد فمن عبد ربـــه خليفة المهدي عليه السلام الخليفة عبدالله بن محمد خليفة الصديق الى « والي مصر محمد توفيق » وفقه الله لمرضاته وسلك به طريق نجاته آمين . سلام على من اتبـع الهدى . أمـا بعد فاعلم ارشدك الله تعالى الى الصواب ورزقك حسن المـآب ان هدي الله هو الهدى ومن حاد عنه باتباع النفس والهوى فقد هوى. وخير الهدى هدى نبينا محمد ﷺ الذي نزل به الروح الامين على قلبه من عند ربه

الا وهو دين الاسلام الذي عناه الملك العلام بقوله جل شأنه: ان الدين عند الله الاسلام . وأن الله سبحانه وتعالى لما اراد إحياء هذا الدين بعد اندراسه بين العالمين أظهر لذلك المهدي المنتظر وأيده بالنصر والظفر فاعتمد على ربه ودعا العباد الى طريق الهداية والرشاد وأجاب داعيه كل سعيد أواه وأعرض عنه من كُتب عليه شقاوة ومنهم اتباع دولتك بالسودان ومن نحا نحوهم وسلك مسلكهم من اهل الطغيان حتى قضى الله عليهم بالهلاك على يده وجندهم بسيفه ثلة عقب ثلة وقرية تتلو قرية بعد تكرار الانذارات وتتابع الآيات . وانك مع علمك بذلك وادعائك انك من ولات المسلمين السالكين احسن المسالك فما زلت مصراً على اعراضك عن طريق هداك ومحجماً عن اجابة داعي من دعاك الى مولاك فان كان ذلك منك ايثاراً لجانب علو الدنيا الذاهب عما قريب على الخضوع لأمر الله المفضي الى الفوز بأوفر نصيب فاعلم ان الدنيا بحذافيرها ليست بشيء في جنب ما عند الله ولا تزن اقل قليل منه كما ورد . وكيف يليق بمن يؤمن بالله واليوم الآخر حب العلوّ في الدنيا بعد العلم بقول الله تعالى: تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الارض ولا فساداً والعاقبة للمتقين . وقوله تعالى : من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفّ اليهم اعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون اولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون . وان كان ذلك استكباراً منك عن قبول الحق فان الله تعالى قد اوعد المستكبرين في الارض بغير الحق بأليم العذاب وسوء المآب . قال تعالى: ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين . وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى: الكبرياء ردائي والعظمة ازاري فمن نازعني واحداً منها القيته في جهنم ولا أبالي. وقال ﷺ بئس العبد عبد تجبر واعتدى ونسى الجبار الاعلى ، بئس العبد عبد تجبر واختال ونسى الكبير المتعال ، بئس العبد عبد غفل وسها ونسى العقاب والبلا ، بئس العبد عبد عتى وبغى ونسي المبدأ والمنتهى . وغاية الامر انه لا حجة لك مع الله تعالى ان لم تنسلخ عن الحالة التي انت فيها وتبادر الى اجابة دعوتي بالتلبية

فاني ادعوك الى القيام بتأييد دين الاسلام كما دعاك الى ذلك المهدي عليه السلام فان كنت تريد سلامتك مع ربك فأنب اليه بالوقوف مع اوامره ونواهيه وتسليم الأمر إليّ والتصديق بأمر المهدية والدخول تحت طاعتها المرضية فاني خليفة مهدي الله وصاحب العهد من بعده والقيام بأمر الله ولا فخر . وليس قصدي من دعوتك الى هذا الأمر الذي انا بصدده الا جلب النفع الدائم لك فان ما انت عليه من ملاذ الدنيا لا يدوم لك وعما قريب يزول عنك ولا يصبحك لآخرتك إلا عملك نجّاك او اهلكك فدقق نظرك وتوق ضررك ولا تركن الى دار الفناء والذهاب بل تأهب لدار البقاء والمآب . واعلم ان ما دعوناك اليه هو ان الدين الحق القديم والمنهاج الواضح المستقيم فلا تعرض عنه الى نزهات الباطل فان الحق جدير بالاتباع والباطل حريّ بالتلاشي والضياع ولو كان قصدي من هذا الأمر ملك الدنيا الزائل وعزّها الفاني الذي ما تحته طائل لكان في السودان وملحقاتها كفاية كما تعلم من اتساعها وتنوع ثمراتها . ولكن ما القصد كما يعلم الله إلا إحياء السنّة المحمدية والطريقة النبوية بين أظهر عامة البرية . ولو نظرت بعين البصيرة والانصاف وتركت التعامي عن الحق والاعتساف لأذعنت لي بذلك وسلكت باتباعي احسن المسالك وتيقنت انك الآن بمعزل عن الهداية حيث اتخذت الكافرين اولياء من دون المؤمنين اهل العناية وركنت الى مؤاخاتهم والانخراط في سلكهم حتى كأنك تريد بهم اطفاء نور الله ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره اعداؤه ... ومن ثم فقد حملتنا الشفقة عليك على تحرير هذا اليك مقدماً قبل حلول جيش المهدية بديارك البحرية وأقطارك المصرية بدعوتك الى الله وتسليمك الامر لنا لتكون من أعز رجال الدين القائمين بنصرة الاسلام وجهاد اعدائه الكافرين . فان كنت من اهل الغيرة على دينك وتريد الفوز عند ربك والتخلص من أسر اعدائه الكافرين فبادر الى اجابة الدعوة واندرج في سلك اهل الصفوة انت ومن تبعك من المسلمين لتكون الأمة المحمدية يداً واحدة على قطع دابر الفئة الكفرية او ينيبوا لأمر رب البرية وحينئذ نصفح عن جميع ما سبق صدوره منك

وتكون كريماً لدينا وحبيباً الينـــا في الله وتأمن على نفسك ومالك وكافة متعلقاتك انت ومن يكون معك من أمة محمد ﷺ . واعلم اني عبد ضعيف لا طاقة لي بقوام ادنى شيء وانمـــا سبيلي التوكل على الله وهو وليي وكفيلي ولولا اني على نور منه على هذا الامر الذي انا بصدده اقتفاء لأثر مهديه وهو المحرك لي والمؤيد والمسكن والمشيد لما كان في طاقتي ان اقوم بمدافعة اضعف مخلوقاته ولكني عليه توكلت فكفاني بقدرته وبـــه اعتصمت فهداني وتولاني بنصرته ولا شك ان ناصية كل شيء بيـــده وان قدرته لا تقـاوم وبطشه لا يصادم . فتدارك ايها الرجل نفسك ودبر حالك ولا تغتر بما يلوح على نظرك من عددك الظاهرية العارية عن معونة رب البرية فان قوة العدد وتحصن البلد لا يدفعان عنك مقدور الواحد الصمد . وليكن بعلمك يقينـاً ان لا قصد لي غير سوق العباد الى طريق الهدى والرشاد فهلم رحمك الله الى ذلك واسلك محجة فوزك ومنالك ولا تعرض عما دعوتك اليه ركوناً الى علماء السوء الذين أسكرهم حب الدنيا حتى باعوا بهـا دينهم فيصدوك عن طريق هداك وتخسر دنياك وأخراك . فقد ورد عن الله تعـالى في الحديث القدسي : لا تسأل عني عالماً أسكره حب الدنيا فيصدك عن طريقي اولئك قطاع الطريق على عبادي الى غير ذلك من الاحاديث الواردة في هذا الصدد. فأمعن ايها الرجل فكرك لتستبين طريق هداك قبل ان تحل رمسك فتساعدني على نجاتك وسلامتك من موبقاتك فاني لأشفق عليك من نفسك التي بين جنبيك . وان أبيت بعد هذا الاحجام فقد انقطعت حجتك فصار ذنبك وذنب من تبعك مطوقـاً بك في رقبتك ولا بد بمشيئة الله من وقوعك في قبضتنا أسوة من تقدمك فـــإنا موعودون بالنصر على كل من يبادرنا بالعداوة ولو كان في عدد معدودة وبروج مشيدة وهناك ترى عاقبة امرك ولوائح خسرك . وحيثما ان الهمم نهضت الى توجيه الجيوش نحو وجهتك وعن قريب ان شاء الله تعالى تحل بديارك فلا بد من سرعة ورود الرد منك بما يحط عليه رأيك صحبة المخاصيص المعينين لك من طرفنـا . فان سلمت فقـد فزت وللخير ادركت وإلا فذنب جميع من

معك من المسلمين يكون عليك يوم لقاء احكم الحاكمين وفي هـذا القدر كفاية لك والسلام على من اتبع الهدى » اه .

كتابه الى جلالة الملكة فكتوريا ملكة الانكليز : « وبعد فمن العبد المعتصم بمولاه القـــاهر خليفة المهدي عليه السلام عبد الله بن محمد خليفة الصديق الى « عزيزة قومها فكتوريا ملكة بريطانيا » سلام على من اتبع الهدى . امـا بعد فاعلمي ان الله عز وجل هو ملك الملوك القـادر المقتدر الذي ليس كمثله شيء وجميـع مـا في الكون فهو في حيز قبضته لا يعجزه في الارض ولا في السماء ولو اراد ان يهلك اعداءه في اقل من خطوة بال لكان جـديراً بحصول مراده ولكنه لكرمه يمهل ولا يهمل ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين . وقـد أرسل الرسل الكرام لايضاح السبل للانام وجعل نبينا محمـداً خاتمهم رسولاً عاماً الى كافة الخلق بشيراً ونذيراً وداعياً الى الله بإذنه وسراجاً منيراً فكان ناسخ الملل وفاسخ الدول وكل من آمن به وصدق ببعثته فاز برضاء الله وأدرك من الحظ الاوفر ما تمناه ومن كفر به وأنكر بعثته باء بخزي من الله وصار الى النار وبئس القرار . ولما كان المهدي المنتظر عليه السلام هو خليفة نبينـا محمد الذي أظهره الله لدعوة الناس كافة الى احياء دين الاسلام وجهاد اعدائه الكفرة اللئام . وأنا خليفته القافي أثره في ذلك فاني ادعوكِ الى الاسلام فان أسلمتِ وشهدتِ أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله واتبعتِ المهدي عليه السلام وأذعنتِ لحكمي فاني سأقبلك وأبشرك بالخير والنجاة من عذاب السعير وتكونين آمنة ومطمئنة ، لكِ ما لنا وعليكِ ما علينا وتتصل بيننا المحبة في الله ويغفر الله لك جميـع ما فرط منك في زمن الكفر كما وعد بذلك في قوله تعالى قال للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف. وان أبيت إلا الجحود اعتماداً على ما عندك من الاستعدادات والجنود فاعلمي انك في غرور كبير وبعد عن السداد والتدبير اذ ان ما نحن بصـدده فهو الدين الحق الذي تكفل الله الملك القادر بنصرته وتأييده ورفع مناره وتشييده فلا طاقة لأحد بمقاومته ولا سبيل الى مغالبته ضرورة ان قدرة الله غالبة فلا تقاوم وبطشه شديد فلا

يصادم . وان كنتِ تظنين توهماً ان جيوش المهدية القائمة بتأييد السنة المحمدية مثل عساكر احمد باشا عرابي الذين أدخلت الغش عليهم بالدنيا حتى افتتنوا بها عن دينهم وتخــذلوا عن نصرته ومكنوكِ من الاستحصال على البر المصري وصاروا أذلة أسرى لا يستطيعون المدافعة عن أنفسهم فهذا توهم فاسد وغرور كاسد فان رجال المهدية رجـال الهيُّون طبعهم الله على حب الموت وجعله أشهى لهم من المــاء البارد للظمآن فلذا صاروا أشداء على الكفار كأصحاب رسول الله الأبرار لا تأخذهم في الله لومة لائم ولا يثنيهم عما هم بصدده صدمة صادم بـل لا يرون لجميع ما سوى الله التأثير لصدق يقينهم بربهم القدير ولا يريدون حياة الدنيا الذاهبة الساحرة وانمـا يرون ان نعيمهم الدائم وعيشهم الناعم منعد لهم في الدار الآخرة . بخـلاف اولئك فانهم لو صدقوا مع ربهم وكانوا على حسن اسلامهم وطرحوا حب الدنيا وراء ظهورهم وحفظوا الله فيما أمرهم به لأنجدهم الله بنصره ولمـا توصلت عساكركِ الى هزمهم والاستيلاء على بلدهم ولو نظرت بعين البصيرة والانصاف لعلمت الفرق . ثم ممـا يقضي عليك بتمني الغرور الفاسد منك انك بعد ان بلغك ظهور المهدي المنتظر عليه السلام ومحاربة دول الاتراك له وظفره بهم في عدة وقائع سوّلت لكِ نفسك ان منك الكفاية لحربه والاستيلاء عليه فبادرتِ الى ارسال احــد رجالك المشاهير المدعو هكس باشا ومعه جيش عرمرم مؤلف من أجناس شتى وعدد منوعة وذلـك من بادي رأيك بدون امعان نظر في العواقب بلا مشورة باقي الدول في ذلك توهماً منكِ انك ستظفرين بالنصر على جند الله الغالب فعندما حضر ذلك الجيش في ألوف مؤلفـة وعدد معددة ما ثبت امام حزب الله إلا نصف ساعة بل قضى الله عليه بالدمار والبوار عن آخره . وكان هلاك ذلـك الرجل المدبّر الشجاع بجيشه بأسباب سوء تدبيركِ وكثرة غرورك ولم تغنِ عنه كثرة العدد ولا قوة العدد بل صار الى النار وغضب الجبـــار . ثم ما اعتبرت بذلك ولا دبّرتِ حالك بل صرت تجهزين عساكرك من بادي رأيك جردة بعد جردة بكل فج لمحاربـة الله ورسوله ومهديه تارةً بسواكن وتارة

بدنقلة وتارة بوادي قمر حتى أهتكتِ بسوء صنيعك من رجالك ما ينوف عن عدة ألوف . ومن ذلــك هلك كثيراً من رؤساء رجالك المعروفين لديكِ بالشجاعة وحسن التدبير والثبــات وقوة العزم كالجنرال غوردون باشا هلك بالخرطوم والجنرال استيورت هلك بأبي طليح واستيورت الثاني ومن معه من القناصل بوادي قمر وفلان وفلان وما يكثر عددهم من مشاهير رجالك كما هو بعلمك. ومع كثرة دعواكِ التقدم في مجالات الحروب وتفوهك بقوة البأس والشهامة فما بال عساكركِ رجعت من السودان القهقرى بالخيبة والهزيمة قانعة منها بالكلية ولا شك ان موجب ذلك الهرب محض الخوف من سطوة حزب الله الغالب كما هو بديهي وانهم صاروا الآن الى أسوأ حال وأضيق مجال تائهين في أودية الحيرة لا يهتدون الى المخلص سبيلا . وكل هــذا من سوء تدبيرك واستبدادك برأيك عن باقي الدول ولو رفعت الشورة اليهم كما هو الواجب عليك لأرشدوك الى ما يسكن روعك في الجملة وكانوا اما ان يشيروا عليك بالكف عن مصادمة حزب الله الذي لا طاقــة لك بمقاومته وتكوني مقتصرة على محافظة بلدك لا غير واما ان يمدوك بالرجـال والاسلحة ويحزّبوك على حرب حزب المهدية وحينئذٍ لا يتوجه عليك العار وحدك عند حصول الهزيمـة بل يكون ذلك بالاشتراك . والحاصل انكِ قد أخطأت الرأي وصرت الى نقص كبير ولا مخلص لك من ذلك إلا بالانابة الى الله المالك والدخول في ملة الاسلام واتباع المهدي عليه السلام فانكِ ان فعلت ذلــك وسلمت الامر لنا تظفرين بمقصودك من السعادة التامة والراحة الحقيقية التي هي الفوز عنــد الله بدار النعيم المقيم الذي فيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وان كنت لا تزالين على غرورك واستبدادك برأيك فأقدمي على حرب حزب الله بنفسك بجميع جيوشكِ واستعداداتك الحربيـة لنرى كيف عاقبة أمركِ فتهلكي بحول الله وقوته او تعذري من مات أو فرّ من رجالك الذين تطفلوا على محاربة حزب الله بمقتضى غرورك ... واعلمي يقيناً اني مؤيد من عند الله وبه قوّتي ونصرتي لا بنفسي فاني عبد ضعيف لاقوة لي من نفسي وانما عصمتي

بالله واعتمادي على الله وهو كفيـل بنصرة من اعتمد عليه واعتصم به ومن ثم فكل من بادرنا بعداوة يقتل على يدنا بعون الله وقوته ولو كان الثقلين. فأعي ذلك جيداً ولا تغتري بما يلوح على نظرك من العدد والجنود فان ناصية كل شيء بيد الله ولن يغلب الله احـد بل هو القاهر فوق عباده . وانك ان لم تسلمي لأمر الله وتدخلي في ملة الاسلام واتبـاع المهدي عليه السلام فاحضري بنفسك وجنودك لحرب حزب الله وان لم تحضري فاستعدي في محلك فان حزب الله سيطأ دارك باذن الله في الوقت الذي يريده الله ويذيقك السوء بما صددت عن سبيل الله وفي هذا كفاية لكِ والسلام » اه .

كتابه الى جلالة السلطان عبد الحميد : « وبعد فمن عبد ربه المعتصم به خليفة المهدي عليه السلام الخليفة عبدالله بن محمد خليفة الصديق « الى سلطان اسلامبول عبد الحميد » جعله الله من خواص العبيد وشرح صدره بنور الايمان والتوحيد آمين .

« لا يخفى عليك ان الله سبحانه وتعـالى هو القاهر فوق عباده المتصرف فيهم بحسب مراده وقد أراد اظهار دين الاسلام واحيـاء ما اندرس من سنة خير الأنام فأظهر سيدنا الامام المهدي المنتظر خليفة سيد البشر وأنجع دعوته في العباد والبلاد وخذل اهل العناد والفساد فنهى بنهي الله وأمر وبشر وأنذر وأجاب داعيه كل سعيد وأعرض كل شقي عن الرحمة طريد . وكان فيمن أعرض عن اجابـة داعية الذي هو داعي الله اهل دولتك ومن تبعهم حرصاً على فاني الملك وزائل الجـاه فضربوا صفحاً عما أصدره اليهم من الانذارات وطووا كشحاً عن الهدى وابتدروه بالمحاربات فنصره الله عليهم ثلة بعـد ثلة وأهلكهم على يده مع ما كان عليه من الضعف والقلة . ولا شك انك قـد رويت من آثاره وسمعت من اخباره ما يكون عبرة لمن اعتبر وهدية لمن اهتدى ومقنعاً لمن اختبر . ومع كونك تدعي انك سلطان الاسلام القائم بتأييد سنة خير الأنام فما لك معرضاً عن اجابة داعي الله الى هذا الآن ومقراً لرعيتك على محاربة حزب الله المؤمنين مع اهل الكفر والعدوان فهل أمنت مكر الله ام

كذبت وعد الله حتى صرفت مجهودك في اعانـة اهل الاصنام على هدم اركان الاسلام ما كان الظن بك ان تحيد عن طريق الصواب وترغب عن اتباع السنة والكتاب لما انك أولى الناس بالاعتناء بهذا الشأن والوقوف منه على بنيـان .

فالعجب كل العجب من اعراضك عن اجابة داعي الهدى واتباعك لشهواتك الى الردى وتمكينك للأعداء من بلاد الاسلام مع علمك سعيهم في اطفاء نور الله بأشد اهتمام . وأنت تزعم انك والي المسلمين الذاب عن حرم الدين فما عذرك غداً اذا وقعت بين يدي مولاك فسألك عما قدمته يداك . فهل جرى منك ما جرى ثقة بخلودك في الدنيا ألم تعلم ان من ذوقته الدنيـا حلاوتها بركون منه اليها أذاقته الآخرة مرارتها بتجافيه عنها . وان النبي ﷺ قال انما الدنيا دار بلاء ومنزل عناء قـد نزعت منها نفوس السعداء وانتزعت بالكره من أيـدي الأشقياء وأسعد الناس فيها أرغبهم عنها وأشقاهم بها أرغبهم فيها . هي الغاشة لمن استصحبها والمغوية لمن أطاعها والفـائز من اعرض عنها والهالك من هوى فيها . طوبى لعبد اتقى فيها ربـه وناصح نفسه وقدم توبته وأخر شهوته من قبل ان تلفظه الدنيا الى الآخرة ... فيحشر اما الى جنـة يدوم نعمها او نار لا ينفك عذابها . ام اغتراراً بالملك الفاني ألم تعلم انه لم يصل اليك إلا بموت او عزل ممن كان قبلك وهو خارج من يـدك بمثل ما صار اليك اسوة من تقدمك قال النبي ﷺ انما أنتم خلف ماضين وبقية متقدمين كانوا أكثر منكم بسطة ... فلا تكن أيهـا الرجل ممن خدعته العاجلة وغرته الامنية واستهوته الخدعة فركن الى دار قريبة الزوال وشيكة الانتقال فقد ورد عن النبي ﷺ انه قال انه لم يبقَ في دنياكم هذه في جنب ما مضى إلا كاناخة راكب او صر حالب ... وحيث أيقنت من دنياك بالزوال وتحققت حلول الارتحال فتدارك أيها الرجل نفسك قبـل ان تحل رمسك واعلم اني داعيك الى الله ومرشدك الى ما يجلب لك رضاه فأجب الداعي تسلم وسلم الأمر لله ورسوله ومهديـه والي تغنم فاني خليفة مهدي الله القائم بعده بأمر الله ولا فخر وقد دعوتك الى جنة عرضها السموات والارض فأعنـي على جلب الخير لك بالامتثـال تفز يوم العرض ولا

تسوف بالاجابة فتخطىء الاصابة بل بادر التسويف بالعزم والتفريط بالحزم فرحم الله امرءاً نظر لنفسه ومهّد لرمسه ما دام رسنه مرخيّ وحبله على غاربه ملقى قبل ان ينفذ أجله وينقطع عمله . ولا يغرنك ان الله وسع عليك سلطانك وكثر خدمك وأعوانك وسوّى لك البلاد وملكك أمر العباد فان ذلك مع اقامتك على تعدي الحدود ومخالفة الرب المعبود استدراج من الله وامهال لا اهمال فيوشك ان تثبطت بعد هذا عن اجابة داعي الله ان يحل بك الندم وتزلّ منك القدم فتلحق بمن غرّهم حلم الله عنهم وطول أملهم فزلّت بهم الاقدام فهووا في النار فلا جعلك الله منهم وألحقك بمن رضي عنهم . وما كان يجب منك ان تتخذ الكافرين أولياء من دون الله وتركن الى موادتهم ومتابعتهم على ما يجلب لك سخط الله . ألم تسمع قول الله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم الآية . وقوله تعالى لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادُّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم او ابناءهم الآية . وقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوّي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة الآية . وقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزؤاً ولعباً من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم والكفار اولياء الآية. وما هذه المطاوعة لأعداء الله ومتابعتهم على اطفاء نور الله والله تعالى يقول : يا ايها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقاً من الذين اوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات ، الى ان قال : يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا الآية. فان كنت ممن ينظر بعين بصيرته ولا يؤثر متاع الدنيا الفاني على نعيم آخرته فتذكر ذلك وانتشل نفسك من اوحالك وبادر الى نجاتك وسلامتك من موبقاتك ونزّه رأيك في عظمته عن أن يراك حيث نهاك او يفقدك حيث امرك ودعاك ولا تكترث بزخرف الدنيا الباطل وملكها الزائل . وأجب داعينا الذي هو داعي الله ورسوله ومهديه ويكون ذلك بتسليم الأمر لنا

والقيام بواجب طاعتنا والمبادرة الى فعل احد امرين أما جهاد الكافرين وإخراجهم من بلاد الاسلام كمصر وغيرها صاغرين مع العمل بكتاب الله وسنة رسوله الامين وإبطال جميع البدع التي احدثتها اعداء الدين واما السعي في الاجتماع بنا لنقوم جميعاً بنصرة الدين وقطع دابر القوم الكافرين فانك ان بادرت الى اجابة الداعي فزت بالسعادة الابدية وجلبت رضاء رب البرية ، فاجمع عليك ايها الرجل فكرك ودبر امرك واغسل ما جرى منك بدموع الندم وتدارك سلامتك قبل أن تزل منك القدم . واعلم إنا قد فرغنا من فتوحات السودان منذ ازمان وسمت بنا همتنا الى فتح الجهات البحرية والممالك المصرية فان كنت طائعاً لأمر الله وتريد الفوز بقربه ورضاه فبادر الى الاجابة فيما طلبناه منك وسلم تسليماً وتكون كريماً علينا فخيماً لدينا وتضرب عما جرى منك صفحاً وتنال منا محبة كاملة وعفواً فان هذا الأمر الذي نحن عليه ديني مبني على هدى من الله ونور من رسوله الأواه ومؤيد من عند رب البرية بجنود إلهية ولا قصد لنا غير اقامة الدين وإحياء ما اندرس من سنّة سيد المرسلين ولا نريد مع ذلك ملكاً ولا جاهاً ولا مالاً واعتمادنا في قوامه على الله فمنه نصرتنا وبه استعانتنا وعليه اعتمادنا واتكالنا . فعليك بالمبادرة الى ما دعوناك اليه لتنال رضاء الله وتحظى بالاكرام لديه. وإن اعرضت بعد هذا البيان ... فاعلم ان أمر الله غالب على أمرك وسلطانه فوق سلطانك ولا بد ان شاء الله من وقوعك في القبضة . فانظر ايها الرجل بنور بصيرتك فانما ينفعك مع الله صفاء سيرتك فاعلم ان جميع من تحت طاعتك فذنبه مطوق بك في رقبتك وها قد انذرناك الى وجهة فلاحك وفوزك ونجاحك شفقة عليك وعلى من ينسب بالطاعة اليك فساعدنا على نجاتك بحسن الامتثال واتبع رضاء الجلال واعلم أن دين الله بلا شك منصور وعدوه قطعاً مقهور فلا تغتر بكثرة عددك وقوة حصن بلدك فان قدرة الله لا تقاوم وبطشه لا يصادم فارحم نفسك واتق ربك . ومن باب اتباع الأثر النبوي والسير المهدي فقد حررنا هذا الكتاب انذاراً لك من الوقوع في سخط رب الأرباب فامعن فيه نظرك

وأفدنا بما يوافق رأيك وليس بعد هذا الانذار إلا الاعذار والسلام على من اتبع الهدى » اه .

عجباً لفعل الجهل والغرور في الناس !!

كتبه الى قبائل نجد والحجاز :

كتبه الى قبائل الحجاز : وكتب ايضاً الى جميع قبائل الحجاز يدعوهم الى المهدية والجهاد ، ومنهم قبائل قريش وخزاعة ولحيان والحمران والمجانين والصحاف وبشر وزبيد والحجاولة وصبح والحوازم والطواهرة وعوف والهلبة والصواعق وميمون والدعاجين والمزاميم والزاهرة وهذيل الشام وبنو مسعود والمطارحة والأحامدة وغيرهم .

تسميته حذيفة بن سعد عاملاً على الحجاز : وقد جعل حذيفة بن سعد كبير الأحامدة عاملاً عليهم وكتب اليه منشوراً في العمالة بتاريخ ٢١ شوال سنة ١٣٠٣ هـ ٢٣ يوليو سنة ١٨٨٦ م قال فيه : « ... فإنا بالنظر لما بلغنا من جهتك من خلوص النية وصفاء الطوية وقوة العزم وثبات النفس قد حسّنا بك الظن وأملنا فيك الخير وجعلناك عاملاً من طرفنا على قبائل الحجاز كافة لتدعوهم الى الله وتحرضهم على الجهاد فحقق حسن ظننا بك وقم بواجب أمرنا هذا وابشر بنصر الله وولايته ولا تأل جهداً في جهاد الترك واخراجهم من جهاتك وقطع دابرهم فانهم قد غيروا دين الله وبدلوا فيه ... وقد حررنا الى قبائل الحجاز كافة بامتثال أمرك ونهيك ما دمت قائماً بأمرنا هذا على اتباع منهج الحق وها هي الاوامر المحررة اليهم واصلة اليك صحبة هذا الامر بمعية رسولنا اليك الحبيب علي... فان المذكور من اهل الصدق مع الله ومن خاصة الاصحاب الذين بذلوا ارواحهم لله وحسنت لهم التربية ، وبالنظر لذلك ولمعرفته بالأحوال من جهة الطرفين احببنا ارساله اليك بأوامرنا لتقوم بواجب أمرها .

تحشية : أيها الحبيب نعلمك إنا كنا قد حررنا « لعثمان نورين الدين » والي الحرمين من طرف الترك بالدعوة الى الله ويجعله عاملاً على تلك الجهات على شرط مبادرته الى القيام بأمر المهدية وذلك بناء على ما ورد منه الى المهدي عليه السلام بالتسليم ورغبة الدخول تحت سلك المهدية وطاعتها ومن حيث كونه من طرف الترك فغير بعيد ان يركن الى تأثير ملكه فليكن لك علم بحاله فان عمل بمقتضى امرنا له بالانسلاخ عن طاعة الترك فكونوا الجميع متوازرين على اقامة الحق وعجلوا لنا بالافادة وإلا فان كان اعرض عن اجابة الداعي اغتراراً بملكه الذين لا بقاء له فالاذن معك بحصاره وشن الغارة عليه وكل من يأتيك مسلماً منيباً لأمر الله راغباً للدخول في سلك المهدية فاكرمه وأمّنه ولا سيما اهل الحرمين الشريفين وبهذا لزمت الحاشية والسلام » اه .

كتابه الى قريش : ومما كتبه الى قبيلة قريش : « ... فكيف يليق بكم وانتم بضعة سلف طاهرين وبقية اخيار بذلوا ارواحهم في نصرة الدين ان تتكاسلوا عن المبادرة لاجابة دعوة المهدية بل المناسب لحالكم حيث انكم بتلك البقاع الطاهرة والأماكن التي لا يليق بها إلا نشر احكام الاسلام واتباع سكة خير الأنام ان تبادروا لاجابة تلك الدعوة الدينية وتبذلوا ارواحكم في طاعة رب البرية ولو أدى ذلك الى التقطع ارباً ارباً فانه يسهل في جنب رضاء الله عند من رضيه رباً » ... « وقد توسمنا في المكرم حذيفة بن سعد الصدق وحسن الانقياد للمهدية والاهتمام بأمر السنّة المحمدية فجعلناه عاملاً من طرفنا وأذناه في الجهاد فيلزم ان تنضموا اليه وتوازروه على اقامة الدين وتمتثلوا امره ونهيه في طاعة رب العالمين لكن عمالتنا له على شرط اتباع الكتاب والسنّة والقيام بأمر المهدية فحزبوه على ذلك ولا يحصل منكم تراخ بعد كتابنا هذا عن شن الغارات على اعداء الله تعللاً بضعف الحال فان امر المهدية هذا مبناه التوكل على الله وهو تعالى قائم بنصرته وخذلان اعدائه بقدرته . وحيثما ان الوجه عليكم ولا بد من بلوغ المهدية الى جهاتكم فقد

حررنا لكم هذا مقدماً بالانذار فان عملتم بموجبه وتحزبتم مع المكرم حذيفة ابن سعد على القيام بأمر المهدية وجهاد من خالف ذلك الى ان يجتمع بكم جيش الاسلام فقد أديتم الواجب عليكم وإلا فقد وصلكم البلاغ وأمر الدين لا بد من قوامه بقدرة الملك الخلاق وفي هذا كفاية لكم ولترد لنا منكم الافادة . والله المسؤول ان يوفقكم والى طريق الحق يرشدكم » اه .

كتابه الى اهل المدينة : ومما قاله لأهل المدينة بتاريخ ٢٣ شوال سنة ١٣٠٣ : « ... فمع هذا لا يسوغ لأمثالكم حيث أكرمكم الله بجوار خير الأنام وبدر الظلام ان تكونوا راغبين عن القيام في نصرة سنّته ركوناً لهذا الحطام الذي لا يزن جناح بعوضة عند الملك العلام بل اللائق ان يكون مطمح نظركم ومنتهى أمركم الالتفات الى الخير الابدي والنعيم السرمدي الذي فيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ... ومن باب حسن الظن بكم ومحبة الخير لكم قد حررنا لكم هذا بالدعوة الى الله فان كانت لكم طاقة بذلك فنيبوا عليكم من تختارون واتبعوا اشارته وجاهدوا الترك بعد انذارهم حتى يهلكهم الله على أيديكم او تخرجوهم من جهاتكم صاغرين وإلا بأن حسستم بالضعف من أنفسكم ولم تقدروا على مقاومتهم فانحازوا الى الحبيب حذيفة بن سعد وانضموا عليه وتوازروا جميعاً على جهادهم فانا قد حرّرنا للحبيب المذكور بالامارة على جهات الجهات الحجاز كافة نظراً لما بلغنا في حق المذكور من كمال الصدق مع الله والتسليم لأمر المهدية فكونوا معه ظاهراً وباطناً ان رأيتم الانضمام اليه . وعلى أي حالة فلا بد من اجابة داعي الله والانخراط في سلك المهدية والقيام بجهاد الطائفة الكفرية ابتغاء لاحياء سنة خير البرية وافادتنا عن ذلك هذا والوصية لكم بعد تقوى الله العمل بمقتضى كتابنا هذا فان فيه الكفاية لمن أدركته العناية والسلام » اه .

تسميته عبد الله بن فيصل عاملاً على نجد : هذا وكان قد كتب الى جميع امراء نجد وسمّى « عبد الله بن فيصل بن مسعود » عاملاً عليهم وبعث

اليه في ذلك منشوراً بتاريخ ١١ جمادي الاولى سنة ١٣٠٣ هـ ١٥ فبراير سنة ١٨٨٦ م جاء فيه : « ... هذا وليعلم لديك حبيبي ان رسولك الحبيب ... قد منّ الله عليه بالوصول لساحة الامام المهدي عليه السلام وحظي بزيارة ضريحه وتم مقصوده بمقابلتنا وسماع مذاكرتنا وصار من الاحباب الكرام والأصحاب الفخام وقد ذكر لنا من جهتكم ما يشرح الخاطر من مزيد هممكم بإقامة الدين وجميل تصديقكم بخليفة رسول الله الامام المهدي عليه السلام وبالنظر لذلك وحسن الظن بكم فقد اخترنا ان تكون عاملا من طرفنا على عموم جماعتك كافة أمراء نجد وعموم اهاليها على شرط دلالتهم على الله وإدخالهم في سلك المهدي والتحزب بهم على جهاد اعداء الله والعمل بكتاب الله وسنة رسوله... وقد فرغنا من فتوحات السودان وتطلعت انظارنا لتجهيز السرايا لفتح جهات الامصار ونحن الآن ان شاء الله شارعون في ذلك بعون الله ومشيئته وعن قريب يبلغكم فتحها واتساع دائرة الدين فيها فليكن الاجتهاد يا حبيبي فيما أمرنا به عليك وصورة ما تحرر لأهل الامصار البحرية واصلة اليكم طي هذا مع بعض من منشورات المهدي فليكن الاطلاع على ما ذكر والعمل بمقتضى هذا وما في مناشير المهدي عليه السلام وسرعة الرد منكم بما تصيرون اليه . هذا واني اوصيك بما اوصى به رسول الله معاذ بن جبل حيث قال يا معاذ اوصيك بتقوى الله وصدق الحديث والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وترك الخيانة وحفظ الجوار ورحمة اليتيم ولين الكلام وبذل السلام وحسن العمل وقصر الامل ولزوم الايمان والتفقد في القرآن وحب الآخرة والجزع من الحساب وخفض الجناح وإياك ان تسب حليماً او تكذب صادقاً او تطع آثماً او تعصى إماماً عادلاً او تفسد ارضاً . أوصيك بتقوى الله عند كل حجر وشجر ومدر وان تحدث لكل ذنب توبة السر بالسر والعلانية بالعلانية بذلك أدّب الله عباده ودعاهم الى مكارم الاخلاق ومحاسن الآداب .

كتبه الى ملك الحبشة :

هذا وكان المهدي قد كتب الى يوحنا ملك الحبشة في سنة ١٨٨٥ يدعوه الى اعتناق الاسلام والمهدية ويحذره من المخالفة فلم يجبه . فلما مات المهدي كتب التعايشي اليه والى خلفه الملك منيلك الحالي عدة كتب يدعوهما الى الطاعة ويتهددهما وقد جرت بينه وبينهما وقائع مشهورة يأتي ذكرها في ما بعد مع بعض كتبه اليهما .

كتبه الى غرب السودان الاقصى :

كتابه الى الاستاذ محمد السنوسي : وقد اهتم التعايشي كما اهتم سيده المهدي من قبله باستمالة الاستاذ محمد السنوسي اليه للاستعانة به على فتح مصر فكتب اليه يدعوه الى اعتناق المهدية ويؤاخذه على تقاعده عن نصرتها ومما قال له: « ... وبعلمك ان المهدي عليه السلام عندما طوق بهذه الحالة الالهية وأعلن بأمر المهدية اعتنى بشأنك واهتم بأمرك وكاتبك اولاً وثانياً بأسرار غيبية وإشارات نبوية للقيام بأمر الدين وإحياء أثر سيد المرسلين وما ذاك إلا لحسن ظنه بك وتوسمه الخير فيك وشفقته عليك وما زال حاله معك طيباً ورضاؤه عليك مسبلاً وظنه بك حسناً وترقبه لقاءك في الله حاصلا الى أن انتقل الى الرفيق الاعلى . ثم نحن كذلك لما رأينا من حال المهدي عليه السلام معك ما زلت منا على ظن حسن وما زلنا نترقب قيامك في الدين وانتدابك لجهاد الكافرين ولكن من عهد ظهور المهدي ومكاتبته لك الى هذا الآن قد مضت عدة أعوام فضلاً عن الشهور والايام وما أتى من جهتك رسول ولا جواب ولا بلغنا عنك التفات لأمر المهدية ولا استصحاب مع انك لست بالبعيد عن جهة المهدية بعداً يتصور معه عدم بلوغ الدعوة ... ولا بد من ورود الردّ منك عن هذا الجواب فانا لذلك في انتظار والعاقل مثلك يكتفي بأقل من هذا والوصية بيننا تقوى العظيم والسلام في ٢٩ شعبان سنة ١٣٠٥هـ، ١١ مايو سنة ١٨٨٨ م اه .

قد عهد بايصال هذا الكتاب الى محمود احمد المغربي وسلمه أمراً الى أبيه بالعمالة على « أهل المغرب » فذهب تعبه باطلاً .

كتبه الى سلطان وداي : وكان على دار وداي في زمن المهدي السلطان محمد يوسف ابن السلطان محمد شريف ابن السلطان محمد صالح ابن السلطان صليح العباسي فكتب اليه المهدي يدعوه الى طاعته والقيام بأمره . قيل فسأل السلطان يوسف الاستاذ السنوسي عن السياسة التي يتخذها مع المهدي فأجابه السنوسي « اتركه وشأنه ما تركك فاذا دخل دارك فحاربه فانك منصور عليه بعون الله » فعمل برأيه ولكنه أحب مجاملة المهدي ليأمن شرّه فكتب اليه انه مصدق مهديته وتبادل الهدايا وكُتب المودة هو ومحمد خالد زقل عامله على دارفور فبعث اليه زقل بمدفع جبلي مع طوبجيته وقنابله. ولما تولى التعايشي كتب الى السلطان يوسف مراراً يذكره عهوده ويحثه على القيام بأمر المهدية وهذا بعض ما قاله له في كتابه الاخير في أواخر سنة ١٣٠٥هـ : « ... وانك يا حبيبي على علم من أمر المهدية وقد كنت بادرت بالتصديق والاذعان لأوامرها السنية وورد كتابك بذلك للمهدي عليه السلام وحظي لديه بالقبول والاكرام وتحرر لك منه بالحث على اقامة الدين واحياء الاثر النبوي بجهتك بين العالمين. وكذا مكاتبتك وكبراء قومك المحررة منكم لمحمد خالد لما كان بدارفور بعد انتقال المهدي عليه السلام بأنكم ما زلتم على عهدكم وتصديقكم بالمهدية وقيامكم بأوامرها المرضية وانك سترسل مخصوصاً من طرفك لمقابلتنا وتجديد العهد لك عن يدنا قد وصلت بطرفنا وفهمناها ولكن من وقت ما كاتبك المهدي عليه السلام بل من وقت وصول مكاتباتك المذكورة بطرفنا قد مضت مدة ولم يأتنا منك رسول ولا جواب ولا سمعنا منك بقيامك في المهدية ظاهراً عملا بما تحرر لك في الكتاب مع انتظارنا لذلك وترقبنا لحصول ما هنالك فلما طال علينا المطال دعانا داعي المحبة لك والشفقة عليك الى مخاطبتك ثانياً فكاتبناك في تاريخ ٢٣ شوال سنة ١٣٠٤ هـ بحثك على القيام بأمر المهدية والانتداب لاحياء السنة المحمدية وعدم انقطاع أخبارك عنا وفتح طريق الهجرة لكل من

يرغب القدوم الينا وقد مضت على ذلك مدة ولم يأتنا الرد منك وما علمنـــا السبب الذي دعا لقطع اخبارك عنا بالكلية مع قرب جهتك وموالاتها لحدود المهدية ... وبالنظر لكونك من المظنونين لدينا بالخير لسابق تصديقك فقـد حررنا لك هذا وهو ثالث مكاتباتنا لك فان كنت على حسب ظننا بك وتوسمنا الخير فيك فأول وصوله بطرفك فبادر باجابة الداعي وقم بتأييد أمر المهدية بجهتك واحمل من معك على العمل بالكتاب والسنة ومنشورات المهدي عليـه السلام وافتح طريق الهجرة لكل من رغبها من المؤمنين واجعـل اخبارك متصلة بنا في كل وقت . وكل من أتاك فاراً من المهـدي فلا تأوه بجهتك ولا تقبله أياً كان وبالاخص ان كان من القور او العرب بل اضبطه وارسله الى المكرم عثمان آدم عامل المهدي بجهات دارفور ونواحيها بالمحافظة القوية واجعل اخبارك متصلة معه في الله فانك ان فعلت ذلك فقـد صرت حقاً من ضمن أعوان المهـدية وكنت منا على بال ومن خواص الاصحاب اهل الكمال وإلا فأنت الجـاني على نفسك ولا بـد من قدوم حزب الله لجهتك ويكون عليك إثمك وإثم من معك من المستضعفين وهذا ما لزم اعلامك به وفيـه الكفاية ولترد لنا منك عنه الافادة فانا في انتظار لذلـك والوصية بيننا تقوى الله والسلام » اه .

كتبه الى حياتو بن سعيد : وكان المهدي قد أرسل الى « حياتو بن سعيد ابن محمد بلّـو سلطان سوكوتو » يدعوه الى اعتناق المهدية فأجابه بأنه مصدق دعواه وانه سيجمع قومه ويلحق به. فلما تولى التعايشي الخلافة كتب اليه والى جميع أهالي سوكوتو وملي يخبرهم بوفاة المهدي ويدعوهم الى الهجرة اليه لنصرة الدين وجهاد أعداء الله الكافرين ومما كتبه الى حياتو بن سعيد بتاريخ ١٤ صفر سنة ١٣٠٤ هـ ١٢ نوفمبر سنة ١٨٨٦ م : « ... وفي موسم هذا العيد الماضي وفدت الينا عمال المهدية المشاهير من الجهات فوفد الينا الحبيب عثمان بن دقنه ابن ابي بكر من جهة بوغاز سواكن والحبيب محمد الخير من جهة بربر والحبيب

محمد ارباب من بوغاز القلابات بنواحي الحبشة وأخذوا معنا مدة في المذاكرات ثم وجهنا كل منهم الى جهته . وان شاء الله تعالى يبلغكم فتح الجهات المصرية بقدرة رب البرية إذ الاعداء على فزع شديد وخوف أكيد من جهة انصار الله المجيد وجميع الاهالي في عموم الجهـات المصرية متشوقون للاندراج في سلك المهدية . وقد حضر بطرفنا بعد انتقال المهدي أمة من الناس من الجهـــات النائية البعض من الهنـد والبعض من بخارى على مسافة خمسة أشهر من مكة المشرفة والبعض من بني تميم شرق مكة بمسافة عشرين يوماً والبعض من الحبشة والبعض من الرحمنو والبعض من تونس والبعض منهم حسنت تربيته ورجع الى انذار قومه رسولاً منا بما فيهم الحبشة قد حسن اسلامهم ورجعوا منذرين الى اهاليهم ودين الله قـد تأيد . فعليكم يا حبيبي بالتشمير في أمر الدين وبذل المهج في تأييده ابتغــاء مرضاة رب العالمين وفيما تحرر لكم في الأجوبة التي ارسلت اليكم مع الحبيب محمد العربي كفاية فليكن العمل بموجبهـا بارك الله فيكم وتولاكم ورعاكم » اه .

ومـــا كتبه اليه في ٢٨ شعبان سنة ١٣٠٤ هـ ٢٢ مايو سنة ١٨٨٧ م : « ...كاتبناك مراراً وألححنا عليك في الهجرة لله ورسوله الى عندنا والى الآن لسنا بصارفين النظر عنك ولا بأس عليك فيما مضى من تأخيرك لأننا تحققنـا انك معذور بعدة امور فمنها اولاً من مكاتباتك الواردة الى المهدي عليه السلام مراراً ومن رسولك الحبيب محمد العربي وثانياً من اجوبتك التي وردت الينـا اخيراً بعد أوبة المذكور اليكم من عندنا وفيها تعرّفون انــه وصلكم على السلامة هو والحبيب محمد الامين احمد فالحمد لله على ذلك وكل مـــا في تلك الاجوبة من حسن اجراءاتك قد علمناه واستصوبناه لظننا بك انك على هدى ولا ترى إلا مصلحة الدين ولا تقصد غير وجه رب العالمين وغاية الامر اننـا في انتظار وشوق اليك فان وجدت بعد وصول هذا لك سبيلاً فبادر للهجرة الينا بنفسك ... » اه . وقد كتب اليه مراراً بعد هذا على غير جدوى .

كتابه الى رابح الزبير وفيه خلاصة وقائع المهدية
الى ٢٢ اوغسطوس سنة ١٨٨٦

وسعى التعايشي والمهدي من قبله اعظم السعي للحصول على رابح الزبير الذي فرّ بجيشه الى الغرب الاقصى سنة ١٨٧٨ م كما تقدم فكتبا اليه مراراً قصد ارجاعه الى السودان وضمه الى جيش المهدية فلم يفلحا. ولكن يظهر ان رابحاً اتخذ المهدية شعاره وراية المهدية راية له وما زال يتوغل في غرب السودان الاقصى حتى فتح مملكة برنو فأسس فيها ملكاً عظيماً بقي فيه الى ان تغلب الفرنسيس عليه وقتلوه سنة ١٩٠٠ كما مر.

وهذا اول كتب التعايشي لرابح بحرفه وفيه مجمل وقائع المهدية من اول ظهورها في أبا الى يوم تاريخ الكتاب في ٢٢ القعدة سنة ١٣٠٣ هـ ٢٢ اوغسطوس سنة ١٨٨٦ :

« وبعد فمن عبد ربه خليفة المهدي عليه السلام الخليفة عبد الله بن محمد خليفة الصديق الى الحبيب في الله ورسوله المكرم رابح فضل الله كان الله له متولياً وحافظاً وهادياً ووفقه لما فيه رضاه وأدخله في كنف بره وحماه آمين. أيها الحبيب انه بعد السؤال عن كامل احوالك والدعاء لك بشرح بالك فنعلمك إنا بحمد الله وعنايته على احسن حالة وأطيب سيرة جادّين في ما نحن بصدده من اقامة الدين وإرشاد عباد الله الى ما يجلب لهم رضاه في كل حين. وقد كنا ونحن بالابيض سنة ١٣٠١ هـ بالنظر لكونك منا على بال ونحب لك الخير والكمال خاطبناك وأخبرناك بأن اعداء الله الترك لما تزايد طغيانهم واشتد فسادهم وعصيانهم وانتشرت ضلالاتهم بين المسلمين وعطلوا احكام سنّة سيد المرسلين خيب الله سعيهم ونغص عيشهم بظهور المهدي المنتظر الذي بشر به سيد البشر. وانه عليه السلام ظهر بجزيرة يقال لها أبا من جزائر البحر الابيض ودعا الناس الى الله وخاطب الترك بأمر المهدية ودعاهم الى رب البرية فأجاب من أسعده الله من المؤمنين وأعرض الترك ومن تبعهم عن داعي الله لشقاوتهم

وضلالهم المبين فجيّشوا جيشهم وحاربوه بالجهة المذكورة فقتلهم الله شر قتلة في اسرع مدة ومع قلة عدده إذ ذاك وضعف امره وكثرة عددهم واستعداداتهم هلكوا على يده ولم ينج منهم إلا النادر الذي فر هارباً ببوابيرهم. وأنه عليه السلام بعد قتله اياهم جاءهم الاذن في الهجرة الى جهة قدير وماسة فجيشوا كذلك جيشاً من جهة كردوفان تحت رئاسة مديرها محمد سعيد لمحاربته ومنعه عن التوجه الى الجهة التي قصدها على زعمهم الفاسد فألقى الله الرعب في قلوبهم فما استطاعوا الوصول اليه من شدة الفزع مع قربهم منه في بعض الحالات بمرأى العين وهو عليه السلام في غاية الأناة والثبات وعدم الاكتراث لهم ثقة بالله واعتصاماً بحبله المتين. وكلما نزل عليه السلام في محطة وتأنى بها انتظاراً لهم يرجعون القهقرى عن القدوم فرقاً من صدمته الالهية وهكذا الى ان خرج من جهات مملكتهم فرجعوا ناكصين على أعقابهم. وهو عليه السلام جاد فيما هو بصدده فعرض له اهل الجرادة فدعاهم الى الله فلم يقبلوا فناجزهم الحرب فكانوا تحت القبضة وأذعنوا لحكمه وانقادوا لطاعته فأخذ فيما هو فيه حتى حلّ بجهة قدير. فحضر اليه راشد مدير فاشودة بعساكره فأهلكهم الله على يده وشتت شملهم وآل اليه ما كان لهم من الاسلحة والجباخين وغير ذلك. ثم لم يلبث إلا يسيراً حتى حضر اليه يوسف الشلالي في جردة عظيمة مؤلفة من جهادية وبازنقر وبحارة وأولاد عرب وعساكر تركية وغير ذلك من الأجناد والاتباع في عدد وعُدد فحين قاربوا أنذرهم وحذرهم فلم يسمعوا غروراً بما معهم من العدد والعُدد فقام فيهم بأمر الله فناجزهم الحرب فقطع دابرهم في أيسر مدة واغتنم جميع ما أتوا به من الاسلحة والجباخين وغير ذلك. ثم بعد ان نشر معالم الدين في تلك الجهات جاءه الاذن في التوجه الى جهة الابيض لانقاذ من فيها من الظلمات الى النور فخرج في كتائب أنصاره وسار في حفظ الله وأمانه الى ان حلّ بالقرب من بندر الابيض فدعا من فيه الى الله فمنهم من أجاب الداعي ونجا بنفسه ودينه ومنهم من أبى وبقي في الخندق كالأتراك وأتباعهم فحاصرهم حصاراً شديداً واشتدت وطأته « عم » عليهم. فلما ضاق بهم

الحال استنجدوا اهل مملكتهم فحضر لنجدتهم عدو الله المدعو ابا كوكه ومعه جردة من العساكر التركية من جهادية وحمران وغيرهم فقابلها حزب الله قبل وصولها وقطع دابرها ولم يصل اليهم منها احد وجميع ما كان معها من الاسلحة وغيرها صار تقوية للدين . فلما انقطع رجاؤهم وضعفت قواهم وأشرفوا على الممات وصاروا في حيز الهلاك والشتات وعاينوا من صولة حزب الله ما أذهل عقولهم وأرعد فرائصهم انقادوا لحكم الله صاغرين وجميع ما حوته تلك المديرية من الجباخين والاسلحة وغير ذلك آل الى المهدي « عم » وأصحابه في الحين . وانه بعد ان تكامل فتوح جهات كردوفان كافة جيشوا لهم جردة كثيرة العدد متنوعة العدد مؤلفة من نصارى وجهادية وأرانطة وأولاد عرب وأولاد بلد واتباع وقائد جردتهم هذه عدو الله هكس ومعه الحكمدار . ومن حين وصولهم في جهات الدويم وشروعهم في القيام تعين حزب الله لمقابلتهم ومناوشتهم وحصرهم عن الرجوع القهقرى فأحاطم حزب الله بالأماكن الى ان أوصلهم بجهة شيكان بنواحي البركة فقابلهم المهدي « عم » بباقي أنصاره هنالك وقطع دابرهم في أقل من ساعة فلكية ولم ينجُ منهم احداً ما عدا نفراً قليلا أخذوا أسرى وجميع ما أتوا به من الأسلحة والجباخين صار تقوية لدين الله. وانهم في جميع وقائعهم المذكورة تحرق النار أجسامهم عياناً اول خروج الأرواح من ابدانهم ومبداها من محل طعنة الكبس وذلك اظهاراً لحقيقتهم وتعجيلا لعقوبتهم الى آخر ما سطرناه لك آنفاً قبل هذا مستوفياً من الاحوال والأخبار والدعاء الى الله العزيز الغفار وما ندري هل وصلك ام لا .

« وها نحن على حسب ارادتنا الخبر لك واعتنائنا بشأنك نفصّل لك ما جرى بعد ذلك من الأحوال وما حصل للدين من الاتساع والتأييد من ذي الجلال ليكون مدركاً لديك ومحسوباً لك او عليك فنقول لك ايها الحبيب انه بعد ان نصر الله دينه في مواطن كثيرة وعز جنده وقوّى شوكة اهل الاسلام وفلّ شوكة أعدائه اللئام وجاء عباد الله من جهات شتى وفوداً وفوداً داخلين في دين الله افواجاً افواجاً مشاةً وركباناً جماعة ووحداناً وهم لا

يحصون في كل حالاتهم كثرة طفق « عم » يجهز السرايا للجهات النائية فجهز سرية لجهات دارفور وفتح مدائنها وسرية لجهات الجزيرة وحصار مدينة الخرطوم وسرية لجهات بربر وفتح مدينتها وهكذا نشر سراياه في الجهات البعيدة لدعوة العباد الى طريق الرشاد . ولما أزمع عم على الهجرة الى جهات البحر لقطع دابر من بغى بها من أعداء الله الترك وجّه جملة سرايا لدعاية أهالي جبل الدائر وانضمامهم الى حزب الله والقيام بأمر الدين فلووا رؤوسهم اجابة داعي الله واغتروا بحصانة جبلهم وشدة حمايته ووعورة طرقه وغفلوا عن قدرة التي لا تقاوم وبطشه الذي لا يصادم فعند ذلك ناجزهم حزب الله الحرب وشنوا عليهم غارات بأسهم وعلت راياتهم على رأس جبلهم فألانوا شديدهم وقتلوا صناديدهم وأثخنوهم ضرباً وطعناً واستأصلوهم قتلا وأسراً وصيروهم عبرة لمن اعتبر ومقنعاً لمن اختبر وأنزلوهم من صياصيهم صاغرين وأقامت الجيوش بجبلهم أشهراً حتى اجلوهم عن دورهم وصيروا أماكنهم بلاقع . وهكذا الى ان حضر الاذن بهجرة المهدي « عم » الى نواحي البحر فخرج من الابيض ونزل بالرهد حيث اجتمعت عليه الجيوش وهم في كثرة لا يحصى عددهم إلا الله ووردت الأخبار من بعض الجهات بفتح كثير من المدائن كبربر وغيرها . ثم زحف المهدي « عم » من الرهد الى جهة البحر بجيوش لا قبل بها للعدى ولا يدرك عددها إلا رب السماء وتراكمت حتى ضاق عنها الفضاء وأربت على عدد الحصى بل كانت جيوش متواصلة وأنصار متزاحمة يتلو بعضها بعضاً وقد أعدوا من اليقين بالله والاستغراق في حب الموت في سبيله ما لا يكاد يوصف . ومعهم فوق ذلك آلات حربية من خيول ولبوس ودروع وأسلحة نارية وغيرها ما لا يحصى وهم جادّون مع مهدي الله « عم » من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله الى ان نزلوا بالقرب من مدينة الخرطوم ووجدوا من كان قبلهم من الانصار وأهالي البلد عاقدين عليها الحصار فترتبت الجيوش لحصار تلك المدينة من جوانبها الثلاثة أي الجانب الغربي والشرقي وجانب الهوي وشنوا الغارة عليها من كل الجهات بالضرب وشدة

الحصار . ومن ذلك فالأنصار الذين بالجهة الغربية شدوا الوطأة على أعداء الله فحالوا بينهم وبين عساكرهم المقيمين بخندق ام درمان بالغرب وعملوا المرصاد والطوابي اللازمة ما بين الجهتين لضربها كلتيهما والبوابير المحاربة بالبحر وانقطعت المواصلة بين الققرتين وجرت في أثناء ذلك محاربات شديدة حتى انكسرت شوكة الأعداء وداخلهم الرعب الشديد وضاقت عليهم السبل وتقطعت بهم الأسباب فعند ذلك خرج عساكر ققرة ام درمان مسلمين منقادين لأمر الله . ثم التفت جند الله الى المدينة الكبيرة وهم في أثناء حصارها اذ ورد الخبر بحضور أعداء الله الانكليز زاعمين انهم يلحقون الخرطوم قبل فتحها لينجدوها السرّية الكافية لمقابلتهم على الطريق وانحزم الامر على اقتحام خندق الخرطوم فاقتحمه حزب الله من جهة الهوي وقطعوا دابر من فيه في اقل من ساعة وفي الحال قطع رأس عدو الله الغوردون وحمل الى المهدي « عم » ضحوة يوم الفتوح . وكذلك الأنصار الذين بالجهة الشرقية اقتحموا الخندق المحفور بالجهة المذكورة وقتلوا من فيه من أعداء الله وفاز الدين بالنصرة وجنده بالظفر . وداخل اعداء الله الانكليز الرعب الشديد والخوف الذي ما عليه من مزيد فحفروا لهم ثلاث ققرات بالقرب من حلة المتمة موالية البحر. ودخل بعضهم في وابورين وأتوا ليختبروا أمر الخرطوم في ثالث يوم الفتوح فوجدوا أنصار الدين قد تبوأوها داراً وابتدروهم بالقاء الجلل والسواريخ عليهم من كل جهات الخرطوم والمقرن وام درمان وتوتي فجدوا السير هاربين نحو جماعتهم . فبعد ذلك تعينت اليهم الجيوش الكافية لقطع دابرهم فعندما سمعوا بقدومها خرجوا من ققراتهم ليلاً وفروا هاربين جادين السير نحو جهة دنقلة بطريقهم التي أتوا بها بعد ان طرحوا كثيراً من منقلاتهم بالبحر فاقتفى الانصار أثرهم الى محل يقال له ابو طليح على مسافة يوم في الخلاء من جهة المتمة فلم يدركوهم لتمكن الرعب من قلوبهم وسرعتهم في المسير . فعندما وصلوا بجهات دنقلة خائبين تنازلوا عن حرب السودان وجدُّوا في السير الى بلادهم فزعاً من كفاح أنصار الله . ثم تعينت الجيوش الكافية لفتح جهات سنار . وفي أثناء حصارها وقبل

فتحها انتقل المهدي عم الى الرفيق الأعلى حسبما هو مبين في الكتاب الواصل اليك طي هـذا . وما زال أنصار الله بعد انتقاله « عم » جادين في ما هم بصدده من أمر دينهم حتى فتح الله على يدهم مدينة سنار المذكورة ومدينة كسلا والجيرة ، وبعضاً من مدائن الجهات الشرقية . وبحمد الله وعونه قد اتسعت دائرة الدين وكثرت أجناده وأنصاره وجميع جهات السودان الآن صارت تحت طاعة المهدية مباشرة اقامة السنة المحمدية في طمأنينة وأمان وخيرات حسان .

« وقد تواتر وفود عباد الله علينا من الجهات القاصية والأماكن النائية مهاجرين رغبة في دين رب العالمين ومحبة في بذل الروح لله ابتغاء مرضاته في كل حين . فمن ذلك انه قبل انتقال المهدي « عم » وبعده حضر الينا جماعة من المهاجرين البعض من مكة المشرفة . والبعض من المدينة المنورة . والبعض من الهند. والبعض من بخارى على مسافة ستة أشهر من مكة المشرفة. والبعض من نجد على مسافة عشرين يوماً منها ايضاً . والبعض من تونس . والبعض من استنبول . والبعض من الرحمنو والجبرته والبعض من المكادة بما فيهم أسرى وكلهم قد أخذوا البيعة عنا واندرجوا في سلك الاصحاب وصاروا من أنصار الدين . والبعض منهم قد كملت تربيته وتنور قلبه وحررنا المكاتبات الكافية اليه والى أهالي جهته لدعوتهم الى الله ووجهناه اليهم رسولاً من طرفنا وباقيهم معنا على أحسن حالة مرضية من الجهة الدينية .

« وبوغازات السودان كافة مشحونة بالأنصار فبوغاز دنقلة فيه الحبيب عبد الرحمن النجومي ومعه من الجيوش أهل الهمة والعزم ما فيه الكفاية لقطع دابر أعداء الله وأولهم الآن بنواحي وادي حلفا والأعداء في غاية الفزع والجزع من جهتهم ومقتصرون على حفظ جهاتهم البحرية وفي كل يوم يتصورون هجوم الانصار عليهم ولا بد من حصول ذلك عن قريب بمشيئة الله . وبوغاز ابي حمد فيه الحبيب محمد الخير بجميع جيوش أهالي بربر والجعليين والرباطاب وغيرهم من القبائل التي يكثر عددها والأعداء ايضاً في غاية الفزع من جهتهم

والمحافظة على أنفسهم . وبوغاز سواكن فيه الحبيب عثمان دقنة ابن ابو بكر بجميع جيوشه والأعــداء كذلك في غاية الجزع من جهته وكثيراً ما أفنى جموعهم في وقائـع كثيرة يطول شرحها . وبوغاز المكادة فيه الحبيب يونس الدكيم بجيوش لا قبل للعدى بهـــا والأعداء ايضاً في غاية الفزع من جهتهم وكثيراً ما يطلبون الصلح خوفاً من سطوة الانصار اذ قـد حصلت لهم معهم مناوشات كثيرة ووقائع خطيرة هلك منهم فيها جم غفير وهدم الأنصار لهم كنائس قديمة وكسروا ما فيها من الصلبان . وبالجملة فجميع جهات السودان من بوغازات وجبال وغيرها مشحونة بالانصار . وعلى ذلـك فنحن جادُّون في تجهيز السرايا وتسفيرها لفتح جهات الامصار وعن قريب يصير فتحهـــا بعون الله القهار . والأخبار الواردة الينــا من جهتهم تفيد ان جميع الأهالي راغبون في الاندراج بسلك المهدية اول حلول جيشها بتلك الجهــة والأعداء كافة تركاً وغيرهم على وجل شديد من جهة الانصار وخصوصاً الانكليز فقد تنازلوا عن مصر وتركوا حمايتها للترك وقــد داخل الترك من جهة المهدية رعب شديد وفزع أكيد، وقد اطلعنا على وقائم المطبوعة فعرفنا منها حالهم وخشيتهم من جهة حزب المهدية . ولما بلغنا من أحوال اهل الجهات البحرية وحال أهالي الجهات الحجازية فقـد حررنا لكل من اهالي الجهتين الانذارات الكافية والتبشيرات الوافية بالدعوة الى الله والانخراط في سلك طاعة مهـدي الله والقيام بجهاد أعداء الله وبعثنا اليهم المحررات وها هي صورها واصلة اليكم طي هذا للاطلاع عليها والاسترشاد بما فيها .

« وقد اجتمع للدين من القوة والعدد ما يكثر عدده فعندنا الآن من صنف المدافع ما ينيف على ماية مدفع فضلاً عن كثير من الاسلحة المتنوعة من صنف الرامنتون وغيره والجباخين والبوابير وعـددها ثمانيــة فضلاً عن الكبكات والمراكب المعدة لأهبة الأنصار . ومع هـذا كله فاعتمادنا في نصرة الدين على الله لا على هذه العدد وان كانت مطلوبة بحسب امتثال قوله تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم الآية».

« وها نحن ايها الحبيب اعتناء بك قد بسطنا لك الاخبـــار على سبيل الاجمال والاختصار ولو أردنا ان نستقصي لك كل ما جرى لضاق عنه النطاق ولم تسعه الاوراق. وحاصل الامر ان عناية الله بأنصار دينه وأصحاب مهديه صيرتكم في غايــة لا تدرك ونهـاية لا تستدرك ولا غرو فالله غالب على أمره ومتم نوره بتأييد حزبه . فافهم ذلك أيها الحبيب بقلبك السليم وبادر الى مـا فيه نجاتك وفوزك بالثواب العظيم واعلم انك منا على بال كبير ونحب لك ما نحب لنفسنا من الخير الغزير وما دعانا الى بسط الاحوال اليك إلا مزيــد شفقتنا عليك ورغبتنا في ان تفوز بنصرة الدين كما فاز أصحابك وأقرانك من السابقين فصاروا الآن في حالة يغبَطون عليها وحازوا رضاء الله باعراضهم عن الدنيا وما لديها ولا شك انك ان بادرت الينا بعــد ذلك يكون لك ما لهم وتنال من الخيرات ما لا يكون في حسابك وفي هــذا القدر كفاية لأمثالك والله المسؤول انـ يوفقك للالتفات الى ما فيه الخير » والمبادرة الى الهجرة الينا ، انه جواد كريم .

تحشية : « ايها الحبيب ان الاسلحة النارية التي استحوذت عليهـــا المهدية كثيرة جـداً ولا يمكن حصرها الآن بالدقة ومن باب الحزر والتقريب فصنف البنادق ما بين رامنتون وأبي روحين وأبي لفته وخشخان يزيد عن مائة الف بكثير وغالب ذلك رامنتون . وصنف المدافع مـــا بين الكروب والجبلي والمتربوز واوردي وبلبل وكبس ينيف على مــــائة مدفع كما اشرنا . وصنف الصواريخ كذلك كثير. وهذه الاصناف منها ما هو بمدينة المهدي عليه السلام تحت الطلب ومنها ما هو بأيدي الانصار في السرايا وجميع البوغازات مشحونة منها بما فيه الكفاية . وأما البوابير الموجودة فهي وابورات بوردين والصافية والاسماعيلية والفاشر ومحمد علي والملمية والتوفيقية وهذه تحت خدمة الدين وقد اضحناها لكم بأسمائها القديمة المعروفة عنـــد اعداء الله الترك . ووابور الطاهرة وهذه أسماها المهدي عليــه السلام لأن الاعداء صنعوها ايام الحصار وعند تمامها وقبل دخول عدو الله الغردون بهـــا حصل الفتح ودخل فيها

المهدي عليه السلام ولم يسبق دخول احد من اعداء الله بها فلذا سماها الطاهرة وهي وابور عظيم جداً وكان عدو الله الغردون قصد الهروب فيهـا بطريق البحر وسماها الزبير ولم يمكنه الله من ذلك وأهلكه لسابق شقاوته . وبقية البوابير قد تكسرت في محاربة الانصار فمنها وابور تل حوين كسرها الانصار بجهة ود رملي . ووابور المنصورة كسروها بجهات شندي . ووابور عبـاس كسروها بجهات وادي قمر حين هرب فيها عدو الله استورت وكيل الغردون بالبوستة وقتلوه هو ومن معه هناك . ووابور الحسينية غرّقها الانصار قبالة ام درمان في اثنـاء الحصار . وأما وابور شبين فهي الآن بالخرطوم تحت التصليح . والأنصار جماعة الحبيب محمد الخير الذين اخبرناكم في أصل هـذا الجواب بأنهم في بوغاز ابي‌حمد فطائفة منهم بجهات المرّات قريبة من كورسكو وكذلك بعض من امراء المهدية بجهات عربان الريف شارعون في جمع الجيوش هنالك . وجماعة الحبيب عثمان دقنه الذين ببوغاز سواكن منتشرون بنواحي عتباي الى الملاحة من الجهة المذكورة . وبحمد الله فالدين كل يوم يزيد اتساعاً ويعلو مناره ارتفاعاً والأعداء في وجل شديد وخوف مـا عليه من مزيد ولمزيد افهامكم بالأحوال لزم الالحاق في تاريخه والسلام » اه .

وكتب اليه مع هذا ايضاً كتاباً آخر ذكر فيه بعثة صديقه حمدان ابي عنجة الى جبال النوبة وما أوتيه من الظفر هناك مما سنأتي عليه في ما بعد وذكر له اسماء سائر اصحابه وأقرانه الذين نصروا المهدية قال :

« ... والذين مع الحبيب حمدان المذكور من الاخوان احبـابكم وأهل معرفتكم فهم الحبيب النور عنقرة والحبيب السيد جمعة مدير الفاشر سابقـاً والحبيب الزاكي ولد طنبل والحبيب بلـل ناقور والحبيب ولد فرح والحبيب ابو بكر ولد الحـاج والحبيب عبد الرسول عمر والحبيب ابّو ولد محمود والحبيب ام بدي ولد حمدون والحبيب عبـد الرحيم ولد ابي دقل والحبيب ابراهيم المليح والحبيب عبد الحميد الشايقي والحبيب البشير اليـاس ام برير والحبيب عمر اليـاس وهم الذين حضروا لنـا من معارفك معـه وغيرهم من

الجيوش والأمراء ومن لم نعرفهم كثيرون جـداً لا يستقصى عددهم في هـذا الخطاب. وأما الذين معنا منهم بمدينة المهدي عليه السلام لمساعدتنا في خدمة الدين فهم الحبيب حمدان ولد حمد والحبيب السعيد صغير ولد احمد وهذا من الملازمية ابنـاء البيت والحبيب موسى ولد تاي الله والحبيب الحسن اخـوه والحبيب عبد المولى صابون والحبيب عبد القادر سلاطين مـدير عموم دارفور سابقاً والحبيب عبـد الله لبتن المسلماني مدير بحر الغزال سابقاً وهـذا معين بالترسانة لإصلاح البوابير نظراً لما له من الدراية التامة بدلك والحبيب صالح الملك الشايقي والحبيب محمد حامد جفون والحبيب الياس ام برير وغير ذلك من الاحباب الذين لهم الدراية بمعرفتك . ومع ذلك فبيان الحـال الواقع على ما هو عليه من كال التأييدات الالهية والوقائع المهدية لا يمكن ان تسعه هذه الاوراق وعند حضورك سترى بما هو فوق ذلك ما يسر خاطرك ويقر عينك وتطلع من ذلك على ما لا يكون في حسابك هذا ما لزم وبعده السلام» اه .

وأرسل له مع هذين الكتابين عدة منشورات ورواتب .

الفصل السادس

في

وقائع السودان الغربي

سنة ٥ : ١٨٩١ م

حمدان ابو عنجة وجبال النوبة سنة ٥ : ١٨٨٧ م :

غزو جبال تقلي : تقدم ان المهدي وجّه ابا عنجة في أواخر فبراير سنة ١٨٨٥ بجيش كثيف لغزو جبال النوبة فأتى اولاً جبل الدوري من جبال تقلي ودعا اهله الى الطاعة ولما لم يجيبوه أشعل فيهم ناره « ففرقهم في بطون الاودية والكهوف وغنم ماشيتهم وغلالهم » . ثم تقدم الى جبل كراية كرسي مملكة تقلي ايام الملك آدم ود دباله المار ذكره وكان فيه البعض من ذرية الملك المذكور فرأوا ضعفهم بجانب قوته فسلموا له فضمهم الى جيشه . وقصد جبل تُكم وهو جبل شاهق صعب المرتقى فوجد اهله مستعدين لمحاربته فحاربهم اياماً حتى ظفر بهم وأسر ملكهم فمات في الاسر . وتوجه منهم الى جبل الكجاكجة وهو جبل مرتفع حصين وأهله سبع طوائف على كل طائفة ملك فاتفقوا كلهم على قتاله فحمل عليهم وقهرهم واتخذ جبلهم ديماً له . ثم دخل

بلاد الكواليب فتجمعوا له في جبل دري فحاصرهم اياماً حتى دانوا له فاستولى « على جميع ما ملكته أيديهم من غلال ومواش مع ٣٠٠ رأس رقيق و١٢٠ بندقية » وعاد الى ديمه في جبل الكجاكجة وقد قتل من جيشه ٢٥ رجلا فيهم عمر بن الملك آدم .

غزو الحوازمة : ثم تفرغ الى عرب الحوازمة المنتشرين في أودية تلك الجبال وسهولها وكانوا هم الذين أغروا اهل الجبال بالتحزب عليه فدعاهم الى الهجرة الى ام درمان فأخذوا يحاولونه ويخادعونه فتلطف لهم حتى ظفر برؤوسهم فجرّدهم من مالهم فكان ما غنمه منهم « ٢٧٠٠ بقرة و٥١ حصاناً و ٢٠٠ رأس رقيق » .

غزو جبل قدير : هذا وكان قد بعث بجماعة من أصحابه الى جهات جبل قدير لجمع الغنائم فقام اهلها بقيادة الملك بوش وقتلوهم عن آخرهم فخرج عليهم بنفسه وقاتلهم اياماً فنكل بهم واكتسح بلادهم وعاد الى الكجاكجة . فوجد ان اولاد ملوك تقلي قد نقضوا العهد وجمعوا جموعهم في جبل شندوَرة وصاروا يشنون الغارة على ديم الكجاكجة فانتقل بالديم الى جبل كراية وسط بلادهم وجرّد عليهم السرايا وما زال يتتبعهم في المعاقل والجبال حتى ظفر بهم وقتل منهم نحو ١٠٠ رجل بالسيف فدانت له جميع البلاد من سهول وجبال عرب ومجوس وكانوا قد غنموا كثيراً من الاسلحة النارية من واقعة شيكان فأتوه بها من انفسهم وقدموا له ما عليهم من الزكاة والفطرة وهم صاغرون .

كردوفان والامير محمود

سنة ٥ : ١٨٨٧ م :

حادثة جهادية الابيض : تقدم ان المهدي قبل خروجه من الابيض لغزو الخرطوم استعمل عليها ابن عمه محمود عبد القادر فبقي فيها نافذ الامر والنهي

حتى مات المهدي واستدعاه التعايشي الى ام درمان لتجديد البيعة عليه فلبى الدعوة وحضر الى ام درمان في اوغسطوس سنة ١٨٨٥ . وكان جيشه في الابيض مؤلفاً من نحو ٣٠٠٠ من العرب و ٣٠٠ من السود وأكثر هؤلاء أسرى من رجال الجيش المصري فكان محمود يرفق بهم نظراً لما يعهده فيهم من حب الحرية وعدم تحمل الضيم فلما غاب أساء العرب اليهم ولم يحسنوا سياستهم فشقوا العصا واجتمع عليهم اخوانهم السود فبلغوا نحو الف رجل فحملوا على العرب وقتلوا منهم جماعة ونهبوا بعض المنازل وساقوا نساءهم وأولادهم وخرجوا من البلد علانية وما زالوا سائرين حتى أتوا جبل النا من جبال النوبة فجعلوا احدهم علي يوسف رئيساً عليهم ورفعوا الراية الخديوية وصاروا يحلفون برأس « افندينا » ومن حلف باسم المهدي سهواً جلدوه ٨٠ سوطاً. وبالغوا في التحفظ على الذخيرة حتى جعلوا قصاص المفرّط بها القتل.

عزل محمود وتولية عثمان آدم مكانه: ولما بلغ الخبر ام درمان طلب محمود الى الخليفة ان يأذن له في الرجوع الى الابيض لمطاردتهم . وكان الخليفة يهتم كثيراً لغرب السودان لأنها بلاده وحامية ظهره وقد ودّ اخراج الاشراف منها على الخصوص وجعلها بيد اهله الاخصاء فسمى عثمان آدم الملقب بجانو من أعزّ اهله عاملاً على الابيض وقال لمحمود « ان مصلحة الدين تقضي بتركك الابيض واللحوق بعبد الرحمن النجومي في دنقلة » . وكان محمود رجلاً نحيفاً اصفر اللون خفيف الشاربين واللحية وكان قبل المهدية تاجراً قبل فلما ظهر المهدي ذهب اليه والمصحف في يده وقال له اني رجل أمّي لا أعرف القراءة ولا الكتابه فاحلف لي على هذا المصحف ان دعواك هذه على حق فحلف له فقام بنصرته وهو يثق انه ينصر الله ورسوله ومهديه وكان عادلاً في أحكامه صادقاً في أقواله وأفعاله متقشفاً في مأكله وملبسه . فلما جاء ام درمان رأى اموراً كثيرة مغايرة لمبدأ المهدية فناصح الخليفة بها فلم يسمح له ثم عزله عن منصبه كما مرّ فساءه جداً انقلاب الحال وانخفاض سلطة الأشراف الى هذا الحد فقال لأصحابه « الموت بعد هذا خير من الحيوة » .

قتل محمود في ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٨٥ : ثم استأذن الخليفة في العودة الى الابيض لجلب عائلته فأذن له فأتى الابيض ولم يدخلها بل نزل تحت شجرة ظليلة في ظاهرها وبعث الى الانصار فيها يقول من أحب الموت في سبيل الله فليتبعني فتبعه نحو الف رجل فسار بهم حتى أتى جبل النا فدعى الجهادية الى الطاعة ولما لم يجيبوه حمل الراية بنفسه واقتحم رصاصهم غير مبالٍ بالموت فقتلوه وقتلوا جماعة من أنصاره وهزموا الباقين الى الابيض وكان ذلك في ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٨٥ م . ووصل عثمان آدم الابيض بعد ذلك بقليل وسنعود اليه . ويذكر اهل السودان انه لم يمس اليوم الذي قتل فيه محمود حتى بدأت النجوم تتساقط في الجو تساقطاً عجيباً ودامت كذلك الى آخر الليل .

هذا وكان الخليفة حالما علم بحادثة الجهادية بعث الى ابي عنجة يأمره بمراقبتهم حتى كلما ظفر بواحد منهم وضع الشعبة في رقبته وأرسله مخفوراً الى ام درمان . فلما بلغه خبر محمود كتب اليه بمطاردتهم وتلافي أمرهم قبل اتساع الخرق . ثم لم يكن إلا القليل حتى عرضت له فرصة على زقل عامل دارفور وهو من أكبر زعماء الأشراف فكتب الى ابيعنجة بترك أمر الجهادية وموافاة زقل الى كردوفان في الحال واليك البيان :

دارفور ومحمد خالد زقل سنة ٤ : ١٨٨٦ :

تقدم ان زقل استولى علىدارفور كلها سنة ١٨٨٤ فعاش فيها ملكاً عظيماً الى ان توفي المهدي فعزم التعايشي على عزله عملاً بقاعدته الاساسية المار ذكرها فاستدعاه الى ام درمان بجيشه وأشار الى رفيقيه الخليفتين فكتبا اليه بذلك ايضاً . بل أمر النجومي وأمراءه فكتبوا اليه قبل سفرهم لفتح سنار يقولون: « ... فاذا وصلكم هذا الكتاب فاجمعوا رجالكم مشاةً وركباناً واسرعوا بالحضور كما أمر خليفة المهديلتبايعوه وتسمعوا مذاكرته وتزوروا ضريح سيد الجميع . ولما أبطأ كتب اليه لحضور عيد الاضحى في ام درمان . ثم لما مضى العيد ولم يحضر عاد فكرّر الطلب فأدرك زقل ان التعايشي انما يريد تنكيسه

واحتال جداً على البقاء ولكنه لم يرَ بدأ من اجابة الداعي فترك الامير يوسف ابن السلطان ابراهيم اميراً على الفاشر وخرج بجيشه منها في ٧ ينار سنة ١٨٨٦ فوصل بارة في أوائل ابريل من السنة المذكورة ومعه من الأمراء عمر الياس الجعلي وعمر محمد خير ترحو الشايقي ومحمد ولد فرح الدنقلاوي الفونجي وابراهيم المليح الحمرّي وحسن ام كدوك البرتاوي وحسب الله الماهري وابو جوده فات البرتاوي وآدم عامر السوداني البكباشي رئيس جهادية كبكبية ومحمد سليمان رئيس سائر الجهادية وغيرهم . ومعه من الانصار نحو ١٠٠٠ فارس و ٢٠٠٠٠ راجل و ٣٠٠٠ من الجهادية السود وكان التعايشي انما يريد تجريده من الاسلحة النارية والخيول قبل وصوله الى ام درمان خوفاً من اتحاده مع الاشراف عليه بعد وصوله . فلما سمع بخروجه من الفاشر كتب الى ابي عنجة بتاريخ ١١ مارس سنة ١٨٨٦ لموافاته الى كردوفان كما مرّ وتجريده من الاسلحة النارية والخيول وأرسل كتابه هذا مع كاتبه الخاص مدثّر ابراهيم ليتأكد وصوله اليه في وقته فسار ابو عنجة لساعته بطريق البركة والابيض قاصداً بارة فوصلها بعد وصول زقل اليها بتسعة ايام .

تجريد زقل وسجنه في ١٨ يونيو سنة ١٨٨٦ : وكان التعايشي بعد ان ارسل جوابه الاول الى ابي عنجة قد جرّد الأشراف من الاسلحة والرايات كما مرّ ورأى منهم علامة الغدر فألحق بأبي عنجة كتاباً آخر بتاريخ ٩ ابريل سنة ١٨٨٦ يأمره بتجريد زقل من الجيش كله وبيت المال فعند وصوله بارة أحاط جيش زقل بجهاديته ثم بعث في طلبه ودفع اليه أمر الخليفة فلم يسعه إلا الطاعة فاستلم منه الجيش ويوم السبت في ١٨ يونيو سنة ١٨٨٦ عند استلامه الخزينة وجد في حساباته بعض العجز فرماه بالاختلاس وألقى القبض عليه ثم كبله بالحديد وأرسله الى الابيض فأم درمان فبقي فيها الى سنة ١٨٨٩ فعفا الخليفة عنه وسماه اميراً على دنقلة كما سيجيء .

قتل جهادية الابيض في اوائل اوغسطوس سنة ١٨٨٦ : ولما أنفذ

التعايشي غرضه في زقل كتب الى ابي عنجة في ٢٧ يونيو سنة ١٨٨٦ لمداركة أمر الجهادية قبل استفحاله فزحف بالجيش الى جبل النما محل واقعة الامير محمود فرأى الجهادية قد هجروه وتوغلوا في الجنوب فسار في أثرهم حتى وصل جبل الوطا فبلغه انهم نازلون في جبل السمّا على ٣ ايام جنوبيه فعقد لعبد الله ابراهيم على سرية من الجيش وأمره باللحوق بهم فلما علم الجهادية به فروا ليلا الى « قفرة صباحي على جبل تلك » فلحقهم اليها فثبتوا له وحاربوه حتى قتل رئيسهم علي يوسف ففروا منهزمين فاعترضهم نهر كبير ولحقهم عبد الله ابراهيم فقتل منهم وأسر ٤٠ رجلاً وعدداً كبيراً من النساء والاولاد ثم حزّ رأس رئيسهم ورأسي اثنين من زعمائهم وأرسلها الى ابي عنجة فبعث بها الى الابيض فأم درمان فعلقت في السوق اياماً . وكان ذلك في اوائل اوغسطوس سنة ١٨٨٦ .

هذا وكان عبد الله ابراهيم قبل قتله الجهادية قد سبق أبا عنجة الى جبال النوبة فغزا جبل كودور والكافير في اوائل يونيو سنة ١٨٨٦ فغنم منها ٤٠٠ رأس رقيق و ٢٠٠ بقرة و ٥٥ بندقية . ثم غزا جبل الدائر فنكل بجلتي كمله وسدرة وغنم ٤٠٩ رؤوس رقيق و ٦٠١ بقرة وقتل الملك الباجي وتسعة من اعيانه . ثم بعد قتل الجهادية بين أواخر سنة ١٨٨٦ وأوائل سنة ١٨٨٧ زحف ابو عنجة بالجيش كله فغزا جبال انبرى وتقوي ورشاد والكدور وغنم منها اشياء كثيرة من نحاس وبارود وكبسول ورصاص ولبوس وشايات وعبايات جوخ وقمصان مقصبة وطواق حرير وثياب علج وأثواب دمور ونحوها .

رجوع ابي عنجة الى أم درمان في ٢٣ ابريل سنة ١٨٨٧ : ثم لم ينته أمر جبال النوبة وجهادية الابيض حتى دعت الحاجة الى ابي عنجة في السودان الشرقي فاستدعاه الخليفة الى أم درمان فأتى الابيض وقسم جيشه قسمين فأرسل قسماً منه بقيادة عبد الله ابراهيم بطريق بارة وقسماً بقيادة الزاكي طمل بطريق الطيارة ثم خرج بمن معهم الزوامل في طريق بينهما يوم السبت

في ١٢ مارس فدخل أم درمان بالجيش كله السبت في ٢٣ ابريل سنة ١٨٨٧ . وكان جيشه مؤلفاً من : ٨١ راية و ٢٨٢٥١ مجاهداً و ٣١٩٥٥ من النساء والاولاد و ٨٤٨٧ بندقية رمنتون و ١٣٦٠ بندقية ابو لفتة وروحين و١٠١١ جواداً و ١٣١ درعاً و ٧٤ من اللبوس و٢٨١ صندوق ذخيرة رمنتون ومدفع و ٥ مدافع و ٥ صواريخ و ٦٣ نقـــارة نحاس و ٧١ بورياً و ٣٦ طرنبيطة فاستقبله الخليفة احسن استقبال وعين له ديماً جنوبي أم درمان فأقام فيـــه الى أن عيّد الاضحى فأرسله الى القلابات لقتال الحبشة كما سيجيء .

هذا ولم تنته متاعب التعايشي في السودان الغربي بانتهاء أمر جبـــال النوبة بل خرج عليه هناك في هذه الاثناء اربعة رؤوس فأقلقوا باله وتهددوا راحته مدة فجرّد عليهم ووقف لهم معظم اهتمامه حتى ظفر بهم جميعاً وهم : الشيخ صالح شيخ الكبابيش في شمالي كردوفان والشيخ مادبو شيخ الرزيقات المــارّ ذكره في جنوبي دارفور والامير يوسف ابن السلطان ابراهيم الذي ابقاه زقل وكيلا عنه في الفاشر وابو جميزة في دارتامة .

حركة الشيخ مادبو وقتله في اواسط فبراير سنة ١٨٨٧ :

أما مادبو فقد كان آخر عهدنا به انكساره على يد سلاطين قبل تسليم دارة بقليل فلما سلمت دارة والفاشر عاد الى باديته في شكا فكتب اليـــه الخليفة مراراً من الابيض والرهد وأم درمان للهجرة الى جيش المهدية فلم يجبه ثم لـــما مات المهدي كتب اليه للحضور الى أم درمان لتجديد البيعة على يده وزيارة ضريح المهدي ثم طلبه لحضور عيد الاضحى ثم عاد فكرر اليه الطلب بالحضور وحده على جواده وحذره من المخالفة فلم يحضر وكان في كل مرة ينتحل عذراً او لا يكتب ثم جمع جيشاً من أهل قبيلته وأشهر العصيان فكتب الخليفة الى قبائل الرزيقات والهبانية وبني هلبة فهدر لهم دمه وكتب الى محمد كرقساوي عامله على شكا فأرسل جيشاً لمطاردته في رمضان سنة ١٣٠٣ هـ . هذا وكان الخليفة قد بعث في طلب كرم الله من بحرالغزال فأخلى البلاد وحضر الى شكا

في محرم سنة ١٣٠٤ هـ اوكتوبر سنة ١٨٨٦ م كما مر . وفي اوائل صفر اخذ جيشه وسار في أثر مادبو فطارده الى قرب الفـــاشر فلم يدركه فكتب الى الامير يوسف فقبض عليـــه في الدُّور قرب جبل مرّة وأرسله الى كرم الله فأرسله كرم الله الى كرقساوي فبعث به الى أم درمان فاتفق مروره بالأبيض عندما كان ابو عنجة مشتغلاً في ترحيل جيشه الى أم درمان كما مر ، وكان لأبي عنجة ثار عليـــه قبل المهدية لأن مادبو سخره حينئذ في حمل صندوق ذخيرة على رأسه مسافة طويلة ولما تشكى جلده وأهانه فعلم مادبو انه لا يلقى رحمة عنده فقال له : « اني لا اطلب منك رحمة بل عدلاً فاني ما كنت أود محاربة المهدية ولكن مظالم كرقساوي اضطرتني الى محاربتها» فقال ابوعنجة : « ومع ذلك فلا بد من قتلك » فتيقن مادبو من قوله هذا ان لا فائدة له من الاحتجاج وانه مقتول لا محـــالة فأسلم نفسه لعزتها وقال مخاطباً أبا عنجة : « لست أنت الذي يقتلني ايها العبد الذميم بل الله سبحانه وتعالى يقتلني اذا شاء وأنا ما سألتك الرحمة بل العدل ولكن عبداً مثلك لا يتاح له ان يكون شريفاً فان كان قتلي يبرد غليلك ويبرىء الدّبرة (الندبـــة) التي في رأسك (من حمل صندوق الذخيرة) فلا بأس من قتلي ولكن اعلم انـــه كيف جاءني الموت يجدني رجلاً صنديداً ثابت الجأش قوي الجنان فاني انا مادبو والقبائل تعرفني » . فانتهره ابو عنجة وأمر بارساله الى السجن ، وفي اليوم التالي أمر فعقلوه وقطعوا رأسه فأرسله الى الخليفة في أم درمان فعلقه في الجـــامع من صلاة الصبح الى صلاة الظهر .

حركة الشيخ صالح الكباشي وقتله في ١٧ مايو سنة ١٨٨٧ :

وكان في جملة الذين دعاهم التعايشي مراراً للهجرة الى أم درمان بعد موت المهدي فلم يلبوا الدعوة الشيخ صالح كبير مشايخ الكبابيش فصمم الخليفة إذ ذاك على الفتك بـــه فكتب الى رؤوس الكبابيش فهدر لهم دمه وكتب الى النجومي في دنقلة فسدّ طرق الشمال في وجهه فجعل سرية من انصاره بقيادة

مكين النور في العقب وأخرى بقيادة احمـــد الطيب البصير وعثمان ازرق في جهة عيلاوي وأخرى في عين حامد ولد تنكل وكتب الى عثمان آدم عامله على كردوفان فمنع بيع الحبوب لأهله الكبابيش من كردوفان ليهلكهم جوعاً وأرسل سرية من الانصار لمطاردته . فطاردوه في بادية الكبابيش من منهل الى منهل حتى ظفروا به حيـــاً في عين حامد ولد تنكل وذلك في ١٧ مايو سنة ١٨٨٧ فقتلوه وقطعوا رأسه وأرسلوه الى الخليفة فعلقه في الجامع وجرّد عربه الكبابيش من إبلهم وأموالهم ونكل بهم تنكيلاً شنيعاً .

اسر نوفل النمساوي في ١٦ ابريل سنة ١٨٨٧ :

هذا وكان الشيخ صالح منذ صمم العصيان يواصل جيش الحدود لمساعدته على التعايشي . وفي أوائل سنة ١٨٨٧ بعث بأربعين رجلاً من أخصائه بمئة وعشرين جملاً الى حلفا لجلب الاسلحة والذخائر فجهز له الجيش ٢٠٠ بندقية رمنتون و ٤٠ صندوق ذخيرة وغيرها من الاسلحة والهدايا . وفي هذه الاثناء جاء الى اسوان خوجال دفع الله التاجر الجعلي المشهور فوجد فيهـــا تاجراً نمساوياً يدعى نوفل وأخبره أن في كردوفان صمغاً كثيراً بثمن بخس جداً او بلا ثمن ، وكان نوفل جاهلاً حال السودان والدراويش واغتر بالربح فعزم على الذهـــاب الى كردوفان فأتى القاهرة ورأى الجنرال ستفنسن قومندان جيش الاحتلال فأخبره بعزمه فحذره من سوء العاقبة ونصحه بالعدول عن رأيه ، ولما لم يقبل النصح أخبره بعرب الشيخ صالح الآتين لأخذ الاسلحة ، فاستأذنه في الذهاب معهم فأذن له وأعطاه كتاباً الى الشيخ صالح . فخرج هو وجماعة الشيخ صالح من حلفا في ١ ابريل سنة ١٨٨٧ فوصلوا سليمة في ٧ من الشهر المذكور فاستراحوا فيها اياماً ثم استطردوا السير الى صحراء الكبابيش وكان خبر جماعة صالح والقصد الذي جاؤوا لأجله قـد وصل النجومي من بعض اياديه فأرسل عليهم محمد حمزه ومعه ٦٠ رجلاً فالتقاهم في الطريق بين البطحاء وسليمة ضحوة يوم السبت في ١٦ ابريل سنة ١٨٨٧ فبادرهم القتال فقتل منهم

عشرة رجال وأسر ٤٣ نفساً وفيهم نوفل وغنم ما معهم من الاسلحة والذخيرة وأتى بالجميع الى النجومي في دنقـلة فأرسل النجومي نوفل الى الخليفـة في أم درمان وكتب اليه في تفصيل الواقعة بما نصه :

« وبعد فمن عبد ربه عبد الرحمن النجومي الى سيده وسنده ووسيلته الى ربه خليفة المهدي « عم » الخليفة عبـد الله خليفة الصديق نصر الله بوجوده الاسلام ومحق بسيف قهره رقاب الكفرة اللئام آمين. سيدي بعد ان اهدي لمحيا طلعتكم أوفر السلام ومزيد التحيـات الفخام أبدي ... اني سبقت فأخبرت جنابكم بالبوسطة الماضية بأن عدو الله المخذول صالح الكباشي أرسل جماعة من قبله الى أعداء الله الكفرة لاحضار السلاح والجبخانة منهم ليستعين بهـــا على حرب الانصار ... فخرج اصحابه بالاسلحة والجبخانة من حلفا في ٧ رجب كما حققه لنا الحبيب محمـد احمد هاشم في كتابه ففرزنا في الحال ٦٠ رجلا من الانصار وجعلنـا عليهم الحبيب محمـد حمزة رئيساً وأمرناهم بالتوجه الى منهل اللقيّة في طريق الاربعين على سبعة ايام منا ليتربصوا به للمذكورين فلما وصلوا البطحاء مسيرة يوم من رباط الحبيب مكين النور واربعة ايام من اللقية سقوا رواحلهم وملأوا رواياهم اذ لا ماء منها الى اللقية ثم استطردوا السير الجمعة في ٢١ رجب . وفي ضحى السبت ٢٢ منه صادفوا عربان المخذول صالح وعبيده الحاملين الاسلحة والجبخانة فبادروهم باطلاق الرصاص وانتشب القتــال بين الفريقين مدة ٣ ساعات ثم حمل الانصار عليهم حملة صادقة فقتلوا منهم عشرة وأسروا الباقي وهم ٤٣ نفساً فأتوا بهم الينا وفيهم رجل نصراني من دولة النمسا يدعى نوفل خرج معهم من قيقر حلفا مرسلاً من أعداء الله الانكليز الى عدو الله صالح للنظر في ما عرضه عليهم بكتبه والاطلاع على حال جيوش المهدية. وفيهم سرية للنصراني المذكور وعبد عارف بالخط قال انه تابعه . وجميع ما أحضره المذكورون وقع في يد الانصار وهو من الاسلحة ٢٠٠ بندقية رمنتون و ٤٠ صندوق جبخانة و ١١ طبنجة ذات ستة ارواح و ٤ بنـادق بروحين وبضائع غير الهدية المرسلة اليه من اعـــداء الله الموضحة بالكشف الملصق

بكتابهم له المرسل طيه لطرف السيادة للعلم بما حواه... وقد وعدوه بكتابهم انه متى وصلت هذه الرسالة اليه فاذا أرسل رسله يزيدونه أسلحة وذخائر... وقد وجد بشنطة النصراني كتب وخارطة بلسان الانكليز وهي واصلة لقراءتها هناك بواسطة من له إلمام بلسانهم ... ومن جملة الأسرى اولاد العرب اولاد هدال ... ومنهم علي ولد الأمين الذي سبقت فعرضت عنه لسيادتكم بأنـه توجه الى اسوان بنـاء على طلب الأعداء له وانه طلب لأجل توصيل هذا النصراني الأسير الى عدو الله صالح والرجوع اليهم بأخبارهما . وقد عاد الينا الحبيب محمد حمزة وانصاره وهم على احسن حالة ولم يصب منهم احد في الواقعة بجرح . وعند استنطاق الأسرى اتضح لنا ان جميع عبيد المخذول صالح من أكبر المفسدين ولا ثمرة للدين في بقائهم فحكمنا بعـد استشارة الاخوان بقتلهم قهراً لسيدهم المخذول وارهاباً لغيرهم فحفرنا شقاً في ارض السوق فقتلناهم عنده ودفناهم فيه . أما اولاد هدال وغيرهم من عرب الكبابيش فقد رأى معشر الاخوان ان الصواب عدم قتلهم ترغيباً لأهاليهم الذين مع المخذول في الدخول في الدين اذ لو سمع أهاليهم بأنهم قتلوا زادوا نفوراً عن الدين فكبلناهم بالحديد ووضعناهم في السجن الى ان يصدر أمر السيادة في شأنهم ... أما النصراني نوفل فها هو مرسل الى سيادتكم لتجروا ما يوافق بشأنه ... وأما الأسلحة والجبخانة فهي محفوظة عنـدنا ... والسلام في ٢ شعبان سنة ١٣٠٤ هـ ٢٦ ابريل سنة ١٨٨٦ » اه .

وبقي نوفل في أسر التعايشي تارة في السجن وتارة خارجه مقيداً بكتبة في رجليه الى ان فتحت ام درمان وكان اذ ذاك في السجن فأخرج منه وعاد الى مصر .

دارفور والامير يوسف ابن السلطان ابراهيم سنة ٦ : ١٨٨٨

تقدم ان زقل لمـا خرج من الفاشر سنة ١٨٨٦ أبقى الأمير يوسف ابن السلطان ابراهيم اميراً عليها . فلما رأى هـذا انه جالس على كرسي آبائه

وأجداده ارتاحت نفسه الى منصبه وعقـد النية على حفظه والاستقلال به . لذلك لما جـاءه كرم الله مطارداً مادبو ألقى القبض عليه وسلمه إياه كما مر أملاً بسرعة خروجه من بلاده . فلما رآه قد استقر في دارة صمم على اخراجه منها بالرضى او بالرغم فرفع الامر اولاً الى الخليفة فأحس بالغرض الذي يرمي اليه يوسف فكتب اليه في ١٠ فبراير سنة ١٨٨٧ يؤيـد كرم الله على دارة ويقول : « ... والحال يا حبيبنا ما دام ان امر المهدية ديني لا منافسة فيـه وانت والامير كرم الله اخوان في الدين فلا يليق بكما إلا المحابية والاتفاق على ازالة كل ما لا يرضي الله ... فيلزم بوصول كتابنا هـذا اليك ان تتفق مع الحبيب كرم الله وتطلب منه المسامحة وهو كذلك وقـد حررنا اليه بمثل ما حررنا لك والسلام » . فساء يوسف تأييد الخليفة لكرم الله وبعث برجاله الى دارة فأكرهوه على تركهـا . وفي ٢١ فبراير سنة ١٨٨٧ م كتب كرقساوي أخو كرم الله الى الخليفة يقول : « ... ان الفور قد شرعوا بالفساد وأعادوا الى البلاد نظام حكومة آبائهم السابقين فسموا الحكام بالملوك والشراتي وسموا الجهات بالحواكير وأطلقوا على اميرهم يوسف اسم السلطان وصـاروا يسلمون عليه سلامهم على سلاطينهم السابقين ويقبلون الارض بين يديه وقـد جاهروا بشرب الخمر والتنباك ومشوا سكارى في شوارع الفاشر وارتكبوا غير ذلك من البدع والمنكرات... » .

فاهتم الخليفة جداً لهذا الخبر وأخذ يتلطف في السعي للحصول على يوسف فكتب اليه أولاً ان يحضر الى أم درمان مع بعض اعوانه لتجديد العهـد على يـده والتبرك بزيارة ضريح المهدي ثم يعود الى الفاشر ، وكرر الطلب مراراً بصور متنوعة فأجابه يوسف بعدم مقدرته على اجابة دعوته نظراً « لما وقع بين رجاله ورجال كرم الله من الخلاف ولأن أعوانه المطلوب حضورهم معـه متفرقون في الجهات لتسكين الحركات » .

عثمان آدم في دارفور سنة ٨٧ : ١٨٩١ :

فتيقن التعايشي اذ ذاك ان السياسة لا تنجع فيه فكتب الى عثمان آدم

عامله على كردوفان فجهز جيشاً عظيماً وسار به قاصداً الفاشر بطريق شكا. فضم أنصار كرم الله وكرقساوي الى جيشه وأبقى كرقساوي محافظاً على شكا ، وسار يصحبه كرم الله قاصداً دارة فالتقاه جيش يوسف قبل وصوله اليها فهزمه في واقعتين ودخل دارة .

قتل الامير يوسف في يناير ١٨٨٨ : وكتب الى الامير يوسف يدعوه الى الطاعة ، ولما لم يجبه زحف بجيشه عليه فخرج الامير يوسف بجميع انصاره والتقاه في وادي بيرة قرب الفاشر واقتتلا قتالاً شديداً فلم تكن ساعة حتى انهزم الامير يوسف ودخل عثمان الفاشر . وقد قُتل ليوسف في هذه الواقعة اخوان وهما ناصر وعباس، وأما هو ففرّ بباقي انصاره الى جبل مرّة فأرسل عثمان آدم بعض الانصار خلفه فطاردوه حتى ادركوه في وادي عزوم فقتلوه وحزوا رأسه وأتوا به الى عثمان في الفاشر فأرسله الى الخليفة فعلقه في السوق وكان ذلك في يناير سنة ١٨٨٨ .

هذا وكان قد وقع في أسر عثمان آدم في الفاشر جماعة من أمراء الفور وفيهم تاج الدين ابن بنت السلطان محمد الفضل فأمر عثمان بقطع رأسه ، فلما شرعوا في شد وثاقه قال لهم : على مَ الوثاق ؟ إيذنوا لي أن أصلّي ركعتين فأذنوا له فصلى ثم جاء الى عثمان آدم فجثا أمامه وألقى بيديه الى الارض ثم نكس رأسه وقال : افعلوا بي ما شئتم ، فضربوا عنقه بالسيف . تباً لهم !

الامير ابو الخيرات : ثم ان الذين سلموا من امراء الفور، ولوا أبا الخيرات اخا الامير يوسف سلطاناً عليهم وبثوا الدعاة في أكناف البلاد لاستنفار الأهلين الى القتال .

حركة ابي جميزة وانطفاؤها سنة ٨ : ١٨٨٩ :

وفي هذه الأثناء ظهر في الغرب في دار تامه رجل فقيه يدعى ابا جميزة ادّعى انه خليفة عثمان وانه قام لفتح طريق الحج التي سدّها التعايشي وكان اهل الغرب خصوصاً حانقين لسدّ هذه الطريق فاجتمعوا على ابي جميزة من

كل فج من برقو وبرنو ومساليت وتامه وترجم واسنقور وزغاوه وبني هلبة والقرعان والبديات ورنقا . وكان ذلك طبق مرام ابي الخيرات فانضم اليه بأنصاره فأصبح ابو جميزة في جموع كثيرة فزحف بها على الفاشر . وكتب الى التعايشي في ١٧ نوفمبر سنة ١٨٨٨ يعلمه بظهوره فأجابه التعايشي بتاريخ ٢٤ ديسمبر من السنة المذكورة بما نصه بعد البسملة :

« وبعد فمن عبد ربه خليفة المهدي عليه السلام الخليفة عبد الله بن محمد خليفة الصديق الى الشخص المدعي خلافة عثمان بالغرب . اما بعد فنعلمك ان جوابك المحرّر لنا بتاريخ ١٣ ربيع الاول سنة ١٣٠٦ هـ (١٧ نوفمبر سنة ١٨٨٨ م) وصل بطرفنا وما سطرته به من انك على اتباع الكتاب والسنة وسكة المهدي « عم » وانك خليفة عثمان وقد بايعتنا على السمع والطاعة في الأمر والنهي الى آخره فهم لدينا . ونقول لك أما من خصوص قولك انك على اتباع الكتاب والسنة وسكة المهدي «عم» مع ما انت عليه من المجاهرة بالعداوة لحزب المؤمنين والاعراض عن اجابة داعي رب العالمين فهو زور وافتراء وكذب على الله واجتراء فانك قد خالفت أمر الله ورسوله ورفضت العمل بالكتاب والسنة واتباع سكة المهدي « عم » بمحاربتك لأنصار دين الاسلام واصحاب مهدي الله الكرام الذين شاهدوه وبايعوه وبذلوا أرواحهم في نصرته وشيدوه ... وأما قولك أنك خليفة عثمان فهذا ايضاً مع تلبسك بما انت عليه من محاربة الله ورسوله ومهديه ومحاربتنا وإثارة الفتن التي قال فيها رسول الله ﷺ الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها محض زور وافتراء على الله وفجور فان من كان متصفاً بخلافة عثمان « رضه » على الحقيقة لا يكون بهذه المثابة بل يكون مقتفياً لاثره وسالكاً لمنهجه . وهل بلغك ان عثمان «رضه» جرّد سيفه على مسلم او سعى في الارض فساداً او حارب احداً من اصحاب رسول الله ﷺ في زمان ابي بكر الصديق او في زمان عمر الفاروق او في زمانه هو ... وأما قولك انك قد بايعتنا على السمع والطاعة في الامر والنهي فان كنت صادقاً فيما ذكر فقد صرت ببيعتك هذه تحت أمرنا ونهينا وفي حيز

اشارتنا فيلزمك الوفاء بذلك عقداً وعملاً قولاً وفعلاً بنصّ قوله تعالى وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها الآية . ولا بد ان تسأل عن تلك البيعة بين يدي الله كما أخبر سبحانه بذلك في قوله تعالى وكان عهد الله مسئولاً وها نحن قد أمرناك أمراً جازماً وعزيمة مؤكدة بالاقلاع عما انت فيه وان تتوب الى الله توبة نصوحاً مما ارتكبته من عظم الفساد ومحاربة رب العباد فاعمل بأمرنا هذا ولا تحرك شيئاً او تسكنه من الآن فصاعداً إلا باذن منا حيث علمت وجود طاعتنا عليك من كتب الله تعالى ولا تقدر على محاربة احد أياً كان ولا سيما اصحاب المهدي « عم » المعينين بأمرنا الى اصلاح العباد وإزالة الفساد ودعوة الخلق على الدخول في طاعة المهدية تحت رئاسة عاملنا المكرم عثمان آدم في الجهات الغربية ان كنت على طاعتنا كما ذكرت . وان لم يكن لما ذكرته من مبايعتك لنا والتزام طاعتنا صحة ولا عزم من قبلك فاعلم انك رجل قد غرّك الشيطان حتى سلك به سبيل الهوان فتدارك نفسك قبل الفوات وتلافَ سلامتك قبل الممات ولا يسوّل لك شيطانك انك تقوم بمحاربة المهدية ويزين لك ذلك حتى يوقعك في ورطة الهلاك ويتبرأ منك وتبوء بسخط رب البرية والعياذ بالله فان أمر المهدية هذا من الله ورسوله وما تصدّى احد لمحاربته إلا خذله الله وقطع دابره وشتت شمله ودمر أمره فاعتبر بالمعرضين قبلك كيف أهلكهم الله ودمرهم أجمعين ولا تغتر بما حصل لك من الاستدراج والامهال فان ذلك من عادة الله مع أمثالك في مبدأ امرهم ثم يأخذك اخذ عزيز مقتدر ... ففرق من معك من جموع الفساد واحضر لطرفنا منيباً لأمر رب العباد لننظر في أمرك ونرشدك الى طريق فلاحك وفوزك وإلا بأن كنت لم تزل على سعيك في الارض بالفساد والبغي والعناد فالله أكبر عليك الله أكبر عليك ! الله أكبر عليك ! ولا بد بمشيئة الله وعونه من وقوعك في القبضة أينما كنت وحيثما توجهت وفي هذا كفاية لمن كان من اهل العناد والسلام على من اتبع الهدى ٢٠ ربيع آخر سنة ١٣٠٦ هـ ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٨٨ م » اه .

هذا وكان عثمان آدم لما علم بظهور ابي جميزة جهز عليه جيشاً بقيادة الامير محمد بشارة فعـاد منهزماً فأرسل عليه جيشاً آخر فانهزم كالاول فاضطرب الخليفة من ذلك ومدّ عثمان بالرجال . وتقدم ابو جميزة بجيوشه الجرارة قاصداً الفاشر فأصابه الجدري فمات في الطريق . قيل وقد سمي أبا جميزة لأنه كان يقيل تحت جميزة كبيرة في دار تامة .

واقعة ساغة في ٢٢ فبراير سنة ١٨٨٩ : وخلفه اخوه ساغة فقاد الجيوش وسار حتى نزل بمحل يدعى مجدوب على ٤ ساعات جنوبي الفاشر فبرز عثمان آدم الى لقائه في ارض مكشوفة بظاهر الفاشر . وفي يوم الجمعة في ٢٢ فبراير سنة ١٨٨٩ زحف عليه ساغة بجيوش لا يحصى عددها وقد صحبها النساء والاولاد فسدّت الأفق لكثرتها . وكان جيش عثمان اربعة ارباع على كل ربع أمير وأمراء الارباع : محمد بشارة والختيم موسى وعبد القادر دليل والعطا أصول فوقفوا كلهم صفاً واحداً كل ربع على حدته والفرسان عن الجناحين وصبروا حتى صار ساغة على بعد مرمى الرصاص ففتحوا افواه البنادق وامطروا عليهم من الرصاص ما حصدهم حصداً فامتلأت الارض من قتلاهم وما زالوا مهاجمين حتى اختلطوا بجيش عثمان والتحم القتال بالسيوف والحراب. فما لبث جيش ساغة في الملحمة حتى انهزم وأسلم نساءه وأبناءه للأسر وتبعه انصار عثمان فرساناً ومشاة يقتلونه في كل جهة بقية ذلك النهار ، وقد قُتل ساغة وكثير من رؤساء جيشه وتفرق الباقون أيدي سبا . وحزّ عثمان رأس ساغة ورأس وكيل ابن السلطان سُلا وأرسلهما الى الخليفة في أم درمان فعلقا في السوق وأرسل مع الرأسين كتاباً بتفصيل الواقعة قال فيه : « ... أما الأعداء فلما لم يجدوا سبيلاً الى الخلاص تحوّل بعضهم قردة وبعضهم ذئاباً وبعضهم ارانب وغزلاناً . وأما الانصار فقد رأى بعضهم ساعة الحرب رايات بيضاء بأطراف خضراء في الهواء . ورأى بعضهم سوراً عظيماً كهيئة الجبال نازلاً من السماء على الأعداء . وسمع بعضهم صوت أم بابه سماعاً محققاً لا شك فيه ... » !

قتل ابو الخيرات : وأما ابو الخيرات فانه فرّ بمن بقي من اتباعه الى جبل مرّة فبقي فيه الى ان ثار عليه عبيده اوائل سنة ١٨٩١ فقتلوه وذهبوا الى الفاشر مسلمين .

عثمان آدم وودّاي : هذا وكان عثمان آدم بعد قتل الامير يوسف قد شرع في تتبع الرؤوس الذين نصروه فكتب الى السلطان يوسف سلطان ودّاي يسأله ألا يأوي احداً من العصاة الفور في داره فكتب اليه السلطان يوسف يخادعه بكتاب مؤرخ في ١٨ اوغسطوس سنة ١٨٨٨ هذا نصه بعد البسملة :

نقش خاتم السلطان في أعلى الكتاب : ملك السلطان محمد يوسف ابن السلطان محمد شريف ابن السلطان محمد صالح ابن السلطان صليح العباسي سنة ١٢٩٣

« انه من عبد مولاه اللطيف السلطان محمد يوسف ابن السلطان محمد شريف عامل المهدية بالديار الوداوية — الى امير الامراء ونخبة الوزراء عامل المهدية بعموم الجهات الغربية مولانا الامير عثمان آدم حفظه الله. من بعد اهداء السلام وإسداء التحية والاحترام اللائقين بعالي المقام قدم الينا رسلكم مسعود وحسن ورفيقاهما وكنت لدى حضورهم خارج البلد لأجل الصدقة والزيارة للوالدين لما أوجب الله لهم من الحقوق علينا ... فلما بلغني خبر رسلكم تركت بعض شؤوني وقدمت لملاقاتهم يوم الاحد في ٣ الحجة فاجتمعت بهم في الاثنين ٤ الحجة فبقراءة كتابكم انشرح الصدر بعد ضيقه وانسرّ الخاطر بعد «صفوقه» ولله الحمد على ذلك . وليكن في علمك حبيبي انه لو كانت الدنيا تدوم لدامت لمن قبلنا وأمر المهدية لا يخفى حتى على غير العاقل حتى الاطفال الذين لا حساب عليهم ولا عقاب يتمنون زمن المهدي وحضوره . ونحن لأول وهلة ساقتنا السعادة الازلية الى مبايعته وأخذ العهد عليه وكيف ينكث العاقل وعده وينقض عهده ولكن الوشاة وهم شياطين الانس الذين تخشاهم شياطين الجن لفقوا الاكاذيب ونشروها في الناس فأقلقوا البلاد والعباد . هذا ومنذ مجيء

رسولنا اسحق ونحن متجهزون في ردّ كتبكم الواردة الينا معه فجاءت الاخبار المرجفة وشوشت علينا وما خطر ببالنا انه يصدر من حضرتكم ما لا يليق بها كما اتضح لنا بكتابكم المرسل الينا صحبة رسلكم ولذلك حررنا هذا مقدماً لتقفوا على حقيقة حالنا وبعد العيد بيومين او ثلاثة نبعث لكم رسلكم ومعهم رد الكتب المبعوثة لنا من الاحباب ومن حضرتكم . ومن الآن فصاعداً ان شاء الله تجري المواصلة التامة بيننا وبينكم حسب اشارة خليفة المهدي «عم» وهو ذخرنا يوم العرض والزحام . وكذلك انت ايها السيد لا تسمع كلام الوشاة ولا تصغ لتسويلاتهم فانهم قوم بهت ... وليكن في علمك أيها الحبيب ان الاحباب عبد القادر دليل وحامد مجبور والعطا اصول خاطبوني بشأن العصاة وادريس القمراوي فأجبتهم بأنك خاطبتني انت من قبل في شأنهم وقد شرطت على عمالي بأن يردوا كل مخالف حتى الفوراوي مع انه تربى عندنا لم نقبله امتثالاً لأمركم . وأما ادريس القمراوي فانه ارسل إليّ رسولاً وهو بدار زغاوه اطاريف دارنا فرددت له رسوله وحلفته بالله وبمحمد رسول الله وبالمهدي والخلفاء ألا يدخل داري فاني لا اقبله ومن يومئذ ما بلغني خبره والذي بلغني قبل هذا انه متوجه بطريق الفيزان وقد اشرت عليهم ان يكاتبوه ويحالفوه ليطمئن فعسى الله ان يهديه ويدخله في قبضتكم ولأجل المعلومية حررت لكم هذا وسيأتيكم مع رسلكم شرح ما هو لازم تفصيلاً ونرجوكم المسامحة في التقصير والسلام ٧ الحجة سنة ١٣٠٥ » .

وكتب عثمان آدم الى الخليفة يسأله عن السياسة التي يتخذها مع ملك وادي (برقو) فأجابه بتاريخ ١٦ شعبان سنة ١٣٠٦ ه ١٧ ابريل سنة ١٨٨٩م « ... أما البرقاوي فلا تدخلوا داره وخاطبوه بالكلام اللين وأخبروه بأن خليفة المهدي لم يأمرني بدخول دارك وانه في انتظار رد ما تحرر اليك منه اذ لم يزل ظاناً بك الخير وحذروه من ان يأوي محارباً للمهدية فعسى الله ان يهديه ... »

فلما أقام ابو جميزة في دار تامة تبعه كثير من اهل برقو وغيرها من أهل

الغرب كما مرّ فصمم عثمان على فتح بلاد الغرب الى عاصمة وداي فخرج من الفاشر بجيش ينيف على ٣٦ ألفاً أكثرهم مسلحون بالبنادق وسار حتى أتى أم دخن من بلاد المساليت فتفشّى في جيشه مرض « اب دم » ففتك بـه فتكاً ذريعاً فاضطر ان يرجع على عقبه الى الفاشر وما زال المرض يفتك بالجيش حتى هلك نحو ثلثيه وامتلأت الطرق من الجثث وأصيب عثمان آدم نفسه بالمرض في الطريق فحملوه على عنقريب الى الفاشر فمات بعد وصوله بقليل وذلك في يوم الجمعة ١١ صفر سنة ١٣٠٨ هـ ٢٦ سبتمبر سنة ١٨٩٠ م . وكان مربوع القامة نحيف البدن اسمر اللون على وجهه اثر الجدري وكان كثير الدهاء شجاعاً في الحرب ميالاً الى التخشن وقد حزن الخليفة لموته . وكان قد سماه عاملاً عاماً على الغرب كله أي على كردوفان ودارفور وشكا فأرسل محمود احمد ابن عمه عاملاً على الغرب مكانه فوصل الفاشر الاثنين في ١٥ جمادى الآخرة سنة ١٣٠٨هـ ٢٦ يناير سنة ١٨٩١ م وكان من أمره في دارفور ما سنبينه في محله ان شاء الله . وأما كرم الله وأخاه كرقساوي فقد دعاهما الخليفة الى ام درمان فلبيا الدعوة قبل ذلك بزمان ولنأتِ الآن الى ما كان من اخبار السودان الشرقي :

الفصل السابع

في

وقائع السودان الشرقي

سنة ٥ : ١٨٩١ م

وقائع القلابات والحبشة سنة ٥ : ١٨٨٩ :

عمالة محمد ود ارباب على القلابات : تقـدم ان محمد ود ارباب احتل القلابات بعد خروج الحاميـة المصرية منها بخمسة ايام أي الخميس في ٥ مارس سنة ١٨٨٥ . ونزل النور ود فقراء مع جماعـة من أنصاره في تبارك الله على الاتبرة وصار يشن الغارة على حدود الحبشة والاحباش لا يحركون ساكناً حتى ظهر رجل من قطـاع الطرق يدعى الحاج علي عاث في الحبشة والتجأ الى القلابات فكتب الراس عدار الى محمد ود ارباب يسأله ارسال الحاج علي مخفوراً الى الحبشة ولما لم يجبه زحف بجيش كبير ومعه صالح بك على ود فقراء في تبارك الله فقتل من جيشه نحو ٥٠٠ رجل وشتت شمله كل مشتت . ثم انقلب في اليوم التالي على القلابات فقتل محمد ارباب وجيشه وأحرق القلابات وعـاد بالغنائم والاسرى الى الحبشة وذلك في اوائل يناير سنة ١٨٨٧ .

عمالة يونس الدكيم على القلابات : فلما بلغ التعايشي الخبر اضطرب جداً واهتم للأمر « اذ القلابات ثغر حصين في صدد الحبشة وحفظ السودان يقضي بحفظه مسدوداً » فجهز جيشاً عظيماً وعقد لواءه ليونس الدكيم من أخص أقاربـه وأرسله عاملاً على القلابات في ١١ مارس سنة ١٨٨٧ فجاءها بطريق القضارف فوجد فيها رجلاً يدعى سكراً من جماعة محمد ارباب كان قـد جمع شتات جيش ود ارباب المذكور وأقام بالقلابات الى ان وصل يونس فعزله . وكان قد وفد الى القلابات بعض تجار الحبشة فألقى يونس القبض عليهم وأرسلهم مخفورين الى ام درمان فأدخلهم الخليفة في دين الاسلام وبايعهم وعفا عنهم ثم أرجعهم الى يونس ليجعلهم مع الانصار او يرسلهم الى أهلهم ليبشروا بسطوة المهدية . هذا وكان المهدي قد كتب الى الملك يوحنا ملك الحبشة يدعوه الى اعتناق الاسلام والمهدية ويحذره من المخالفة ومما قاله له :

« ... غير خافٍ عليك ما حصل لأعـداء الله الترك من القتل والأسر وتخريب ملكهم وكذا ما حصل لأعداء الله الانكليز من القتل وتمكن الرعب من قلوبهم حتى صاروا كلما عزمت على التوجه لجهـة تجمعهم يفرون هاربين لغيرها وهكذا ينسحب الامر على من خالفني من اهل الكفر بحول الله وقوته لأني مؤيد من عند الله بالملائكة الكرام وبالأولياء وبمؤمني الجن وموعود من عنده ايضاً بالنصر والغلبة على كل من يعاديني ولو كان الثقلان الجن والانس فافهم ذلـك . واعلم اني قد استعقلتك وشكرت صنيعك وظننتك بالخير فيما صنعت من ارسالك الرسل الى عاملنا على جهة القلابات محمد ارباب والتماسك لتحرير مخاطبة منا اليك بحقنا ببيان ما نحن عليه فان فعلك هـذا انما يصدر من العقلاء الذين يطلبون الحظ . وبناء عليه قد حررت لك هـذا الكتاب اجابة لطلبك ورغبـة في هدايتك ومحبة" لايصال الخير لك ودعوتك فيه الى الاسلام فأسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين وتفوز بخير الدارين وتغنم أجر صحبتنا وتكون مكرماً عنـد الله ورسوله وعندنا . وحيث ان الله سبحانه وتعالى قد أكرمك بحضورك هذا الزمن النبوي بظهوري فيـه خليفة لنبينا

محمد ﷺ حقاً فكن كسلفك النجاشي رضي الله عنه فانه لما أكرمه الله بحضور زمن نبينا محمد ﷺ آمن به وصدقه وآوى اليه اصحابه ولم يمنعه ملك الدنيا من اتباع الحق لما جاءه فنال من النبي ﷺ غاية الاكرام ولما مات رضي الله عنه ببلده صلى عليـه النبي ﷺ وهو بالمدينة اظهاراً لشرفه ورفعة لمكانه وورد في حقه احاديث كثيرة وقصص عجيبة تنبيء عن علو شأنه عند الله تعالى بسبب اتباعه لنبينا محمـد ﷺ وعدم اكتراثه بملك الدنيا الفاني وأرجو الله الذي أحضرك هذا الزمن المبارك أن يجعلك وارثاً لمقـام سلفك المذكور باتباعي ويخرجك من ظلمات الكفر الى نور الايمان ويزيل عنك ولات الطاغوت ويدرجك في سلك ولاية الكريم انه على ذلك قدير . هـذا وليكن في علمك اني على سكة نبينا محمـد ﷺ ومـا قصدي من الخلق إلا دلالتهم الى الله وإرشادهم لسلوك طريقة النجاة ولا اريد بحمد الله ملك الدنيا ولا جاهها ولا مالها الفاني فان انبت الى الله وسلمت وأسلمت فابشر بخير الدارين وطب نفساً وقرّ عينـاً وستجد منا ما يسرّك دنيا وآخرة وإن أبيت إلا الاعراض واستحباب العمى على الهدى والرشاد فانما عليك اثمك واثم من اتبعك ولا بد من وقوعك تحت يدنا فإنا موعودون بملك جميع الارض التي انت في جزء قليل منها ... سنة ١٣٠٢ ﻫ » .

فلما ارسل الخليفة يونس الى القلابات كتب الى الملك يوحنا كتاباً هـذا نصه :

« وبعد فمن العبد القائم بأمر مولاه في نصرة الاسلام خليفة المهدي عليه السلام الخليفة عبد الله بن محمد خليفة الصديق الى يوحنا عظيم الحبشة. اما بعد فاعلم ان الله عز وجل هو ملك الملوك يؤتي الملك من يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيـده الخير والشر والنفع والضر لا إله غيره ولا شريك له يفعل في ملكه ما يريد وله التصرف النافذ في جميع العبيد خلق الخلق ليعبدوه وأرسل اليهم رسله ليعرفوه فيوحدوه وجعل للمطيع الجنة بفضله وللعاصي النار بعدله وختم الرسالة بحبيبه ونجيبه ورسوله وصفيه ونبيه محمـد ﷺ حين ارسله الى

جميع الخلق بشيراً ونذيراً وداعياً الى الله بإذنه وسراجاً منيراً وشرع على لسانه دين الاسلام ونسخ به ما سواه من شرائع الانبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام . ثم أرسل خليفته الموعود به في الخبر الامام المهدي المنتظر ليجدد دين الاسلام ويقيم شعائره بين الأنام فدعا الناس الى اقامة الدين وإحياء شريعة محمد سيد المرسلين ﷺ وأجاب دعوته من فاز وسعد وأعرض من شقي وطرد . ولما اني خليفته عليه السلام القائم من بعده في تأييد دين الاسلام فاني أدعوك الى ذلك الدين الحق كما دعا الله اليه في قوله تعالى «قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً ارباباً من دون الله» . فان شهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله نطقاً بلسانك واعتقاداً في جنانك وأجبت دعوتي وألقيت زمام أمرك طوع اشارتي فقد دخلت في حرم الاسلام وألفيت الرشد والفوز والاكرام وصرت أخاً لنا ومنا وإلينا لك ما لنا وعليك ما علينا وتتصل بيننا المحبة في الله وتصدق المودة لله وتكون في أمن وأمان وخيرات حسان .
وإن أعرضت عن قبول الاسلام وإجابة الملك العلام فانما عليك اثمك ويحيط بك مكرك وحينئذ فليكن بعلمك ان تعدّي الحدود عاقبته وخيمة وضرورته جسيمة . ونحن قد كنا معك ملاحظين اشارة قول سيد المرسلين : اتركوا الحبشة ما تركوكم ومن ثم فلم نصرح لجيوش المسلمين بغزو جهتك حتى حصل منك التعدي البليغ على ضعفاء المسلمين الذين بالقرب الى بلدك المرة بعد المرة والكرة بعد الكرة بالقتل والأسر والنهب والضر وصار يأوي اليك كل من يرتد عن دينه من المسلمين كصالح شنقة وعجيل وادريس أبي جن ومضوي ومن معهم من المرتدين . ولما لم يمكن تركها سداً على ذلك الحال وتعين الالتفات الى صدرك عن هذا المجال عيّنا الجيوش الكفاية من الانصار اهل النجدة والحماية الى الاقامة بالثغر الموالي لجهتك صداً لم يتوقع منك . فان كنت تريد رفع المحاربة عنك وعدم غزو جيوش المسلمين لبلدك فأولاً بادر بارجاع جميع الاسرى المسلمين الذين بطرفك من ذكر وأنثى حر وعبد صغير

وكبير بإكرام واحترام حتى لا تترك احداً منهم عندك ولو كالغلام . وثانياً الجماعة الذين ارتدوا وانضموا عليك كصالح شنقة وادريس ابي جن وعجيل ومضوي ومن معهم ان كانت لهم رغبة في الرجوع لدينهم مستسلمين فاخرجهم من بلادك وأرسلهم الينا مكرمين وان كانوا لم يزالوا مصرين على ردتهم ومختارين الكفر على ايمانهم فخذ اقرارهم بذلك بمقتضى مكاتبة منهم بأختامهم وأرسلها لطرفنا لكي نعدهم من جماعة قومك وحزبك وأهل ملتك وجندك . وثالثاً كف يدك عن التعدي على بلاد الاسلام من الآن فصاعداً وألزم حدودك ولا تمد لغيرها يداً . فان فعلت ما ذكرناه لك فاعلم اننا نكف الحرب ولا ندع جيش المسلمين يدخل بلدك وان اخترت الاسلام والدخول في صحبة المهدي «عم» فستلقى القبول والاكرام في هذه الدار ويوم القيامة وإن أعرضت عن كلا الامرين وغرّك ابليس اللعين فلا بد من مناجزتك الحرب ووقوعك في القبضة بمشيئة الرب لما انا على هدى من الله وهو تعالى ناصرنا وخاذل اعدائنا ولو كانوا عدد الرمل لا بحول منا ولا قوة بل بحوله وقوته وتأييده ونصرته ولا شك ان من ينصره الله فلا غالب له ومن يخذله فلا ناصر له . وحينئذ فلا تغتر بكثرة عددك وقوة عددك العاريتين عن معونة الله فان لله من البطش الشديد ما لو تجلى به على الجبال لدكت وعلى الارض لرجت . وهذا ما لزم تحبيره اليك من الانذار وفيه الكفاية لك ان كنت من اهل الاعتبار وبعد وصوله بطرفك صحبة الرسل الواصلين به لك فلترد لنا منك الافادة عنه بما يوافق رأيك والسلام على من اتبع الهدى في جمادي الاولى سنة ١٣٠٤ هـ مارس ١٨٨٧ م » اه .

بعوث يونس الى الحبشة : فلم يجبه الملك يوحنا على مطالبيه ولا أجاب كتابه فشرع يونس في ارسال البعوث لغزو الحبشة فأرسل بعثاً بقيادة علي جبير الى جبل غورة على نحو ٣ اميال من القلابات فخرب كنيستين للأحباش وغنم وسبى . وأرسل بعثاً آخر على عجيل الحراني الذي نزل بأرض غبطة على حدود الحبشة فقتل اثنين من اولاده وأخاه وابن عمه ووكيله وبعض

رؤوس الشكرية المتحزبين معه وأسر نساءهم وذراريهم . وأرسل بعثاً آخر بقيادة عربي دفع الله الى دبرسينة بقصد القبض على صالح فأوقع به وبالأحباش الذين نصروه وقتل منهم خلقاً كثيراً وعاد بالأسرى والغنائم الى القلابات . وكان كلما مرّ بحلة من حلال الحبشة قتل من فيها وأحرقها .

عمالة حمدان ابي عنجة على القلابات سنة ٧ ، ١٨٨٩ :

فلما رأى الملك يوحنا تمادي الدراويش في البغي أمر الراس عدار فشرع في حشد الجيوش الى غندر بقصد النزول على القلابات وطرد الدراويش منها. وكان يونس لا ينفك يتجسس أخبار الحبشة فلما علم باستعداداهم طيّر الخبر الى الخليفة . فاهتم الخليفة لذلك ولم يكن عنده قائد يدفع به شر الحبشة افضل من أبي عنجة فأمره بالسفر على جناح السرعة الى ثغر القلابات فخرج من ام درمان بجيشه في منتصف محرم سنة ١٣٠٥ هـ ٣ اكتوبر سنة ١٨٨٧ م وسار براً وبحراً الى ان وصل ابي حراز فشرع في ترحيل جيوشه الى القلابات طائفة بعد طائفة لئلا تضيق بها المناهل فأرسل قسماً منها بقيادة الزاكي طمل بطريق القلعة ارانج وآخر بقيادة النور عنقرة بطريق البحر على ان يجتمعا في راشد ثم يتقدما معاً الى القلابات . وفي أوائل نوفمبر سنة ١٨٨٧ خرج بباقي الجيش وسار بطريق البحر والقضارف حتى دخل القلابات بجميع جيوشه في ٢ ديسمبر سنة ١٨٨٧ .

ظهور النبي عيسى في القلابات في ديسمبر سنة ١٨٨٧ :

وفي هذه الاثناء ظهر في القلابات رجل تكروري يدعى آدم محمد البرقاوي ادعى انه نبي الله عيسى وصدّق به عشرة من الامراء وخمسة من العامة في جيش يونس وقد حفظوا الامر سراً ليعرضوه على يونس عند سنوح الفرصة حتى اذا لم يسلم بـه قتلوه . فاطلع ابو عنجة على السر بعد وصوله بيومين فاستدعى اليه صاحب الدعوى واستنطقه عن دعواه في مجلس من القضاة

والامراء فأجابه بكل صراحة وجرأة انه النبي عيسى وسأل أنصاره عن ذلك فأجابوه انه على حق وانهم مصدقون دعواه وثابتون عليهـا فزجهم في السجن وبعث هو ويونس الى الخليفة يفصلان له خبرهم ويستشيرانه في شأنهم بما نصه بعد البسملة :

« وبعد فمن العبدين الذليلين العاجزين حمدان ابي عنجة ويونس الدكيم الى سيدهما وسندهما ووسيلتهما الى ربهما خليفة المهدي « عم » الخليفة عبد الله بن محمد خليفة الصديق « رضه » آمين ... سيدي انه لقد حدث عنا بمركز القلابات امر عجيب جلل وهو ان احد المجاهدين المدعو آدم ولد محمد البرقاوي من راية الحاج عبد الله البرقاوي ادعى زوراً وبهتاناً انه نبي الله عيسى بن مريم عليها السلام . وقـد قام بهذه الدعوى من أمد بعيد غير انه لم يظهرها إلا لبعض خواصه الذين يثق بهم سراً وأكد عليهم بعدم افشائها إلا لمن يأتمنونه وبذلك أضلّ كثيرين من أعيان السريّة الذين أقرّوه على أمره وحالفوه على كتاب الله تعالى وما زال مستمراً على فعله غير مكترث لقبيح عمله وكبير زلله حتى تكاثر ما قد افتراه ووصل الينا خبره من بعض الاصدقاء وذلك في يوم الاربعاء في ١٨ ربيع الاول سنة ١٣٠٥ فبعثنا في طلبه. وقبل حضوره حضر بعض أنصاره عبدالله البرقاوي ومحمد عمر المشهور بأبي القرشي ومهاجر اسماعيل وعيسى احمد والطيب محمد بن البديري ومحمد احمد ابو ام فضالي الحمري فسألناهم عن الامر فأقروا لدى المجلس المؤلف من جماعة من المسلمين وفيهم نواب الشرع الثلاثة وهم آدم ضو البيت وحامد بلوله وآدم علي وجميع العمال والنقبا وغيرهم. ثم حضر هو بذاته في المجلس فقلنا له: « أيها الاخ لقد بلغنا بأنك زعمت انك نبي الله عيسى وروح الله فهل ما نسب اليك صحيح أم هي اشاعة كاذبـة لا اصل لها » ؟ فأجاب أيها الاخوان ان ما قـد بلغكم حقيقتي هو وأنا نبي الله عيسى فان لم تصدقوا بي الآن فلا تصديق لكم بعد هذا ثم قلنا له وما دليلك على ثبوت دعواك فأجابنا بأن الحق عز وجـل أخبرني بأني نبي الله عيسى وكذلك الرسول ﷺ فقلنا له ان كان ولا بد من ذلك فاعلمنا في أي زمن

وبأي وقت اجتمعت بخليفة المهـدي « عم » وفي أي محل صليت خلفه فان عندنا منه « رضه » اشارات نفهمك بها فان أنبأتنا بشيء منها فورب المهدي « عم » وهـــذا الكتاب الشريف لنصدقنّ بك فيما ادعيته . فأجابنا بقوله يا هؤلاء انكم تلوّنون الكلام وانني انا عيسى ومالي بغير هـذا لكم من جواب فافعلوا ما أنتم فاعلون او خاطبوا في أمري خليفة المهـــدي « عم » ليعلمكم بحقيقتي فانكم انتم لا تعلمون ووافقه على ذلك وزيره ابو القرشي وغيرهم ممن تقدم ذكرهم وكذلـك الطائف احمد وهنون النيل الهباني ومحمد حسين بقاري ومحمد علي البرتاوي وداوود التاماوي وعبد الرحمن ابراهيم البرتاوي وعبد الله جاموس وعثمان احمد المغموس وجميع هؤلاء امراء رايات فحينئذ أخذتنـــا عليهم غيرة الاسلام وأمرنا بسجنهم جميعاً . ثم أحضرناهم ثانياً وأعدنا لهم السؤال علهم يرجعون عما هم فيه فما زادوا إلا تصميماً وإصراراً عليه. فسألنا المتنبي عن أبيه وأمه ومولده ومنشأه فقـال اني من البشر مثلكم واني نبي الله عيسى بلا ريب ولكن ليس هـــذا أواني وليس لكم معي الآن من قول لأني للآن ما أنذرتكم وعما قليل ترون صدق ذلـــك . ولشدة اعتقاد جماعته فيه وتصديقهم إياه كانوا لا يتكلمون في المجلس إلا عن اذن منه فلو سألناهم صدّوا عن الاجابة حتى يأذن لهم فاستأذنه احـدهم مهاجر اسماعيل في الكلام فأذن له فقال ان دعوى هذا الرجل صحيحة وانه قبل هذا أخبرنا بأن هـذا ليس أوانه . ثم سألنا المدعي عن شأنه في المهدية فقـال نحن وأنتم الآن فيها سواء تحت اشارة خليفة المهدي « عم » وتابعون اليه فعليكم بالايمان . وعلامة ستأتيكم الحبشة علىجردتين فتفوت الاولى ويأتيكم الدجال في الثانية وهناك ترون العجب من أمري ويتم لكم ظهوري فقلنا له ما شأنك مع خليفة المهدي « عم » فقال ان الخليفة عبـد الله والخليفة علي عارفان بأمري وأما الخليفة شريف فلا علم له بي واني الآن تحت اشارة خليفـة المهدي « عم » الى الوقت المعلوم . ثم ان مهاجراً المذكور اجاب ثانياً بقوله للمجلس يا أيها الاخوان ان الأنبيـاء والمرسلين والمهدي عليهم الصلاة والسلام المؤيدين من الله بالملائكة

والأولياء والجن والانس فأول تأييدهم لهم هل هو ظاهري أم باطني فأجبنـاه بأنه باطني فأجابنا هل لكم من علم في الباطن فقلنا لا فقال هذا تأييده لعبده هذا . وقد طال الكلام وكثر المقال على هذا المنوال فأعدناهم الى السجن فقال بعضهم عند القيام الى السجن لا إله إلا الله محمد رسول الله ان هذا هو عيسى حقاً لا غيره لا نشرك به شيئاً . وحيث سيدي ان هذا من أهم ما يجب رفعه لباب السيادة وان ارباب هـذه الدعوى امراء رايات كما سلف ومن الضروري ان تكون عقيدة اتباعهم مثل عقيدتهم . وربما اذا داموا على ذلك او أمهلوا ودام لهم هـذا المدّعى ان يوقدوا نار الفتنة على غفلة ويحصل الفشل في الدين فقد ثقلناهم الآن بالحديـــد وتجاسرنا برفع هذا لتصدر لنا الاشارة الكريمة بشأنهم . أما صاحب الدعوى فانـه مولود في برقو وأمه فاطمة بنت خديجه وعمره ٢٥ سنة وهو أمرد لا لحية له ولونـه أخضر الى صفرة أعجمي اللسـان مفلج الاسنان السفلى مفتوح الوجه مربوع القامة متوسط الجثة واسع الجبهـة عظيم الرأس ونظر السيادة فيه كفاية والسلام ٢٩ ربيع اول ١٣٠٥ هـ ١٥ ديسمبر ١٨٨٧ م اه .

فاهتم الخليفة للأمر وكتب الى ابي عنجة في قتل المدعي في الحال وخيّره بين قتل الامراء معه والرفق بهم بالاقتصار على سجنهم . وأرسل مع الكتاب أربعة أمناء لتحقيق الخبر فحالما وصل كتاب الخليفة نصب ابو عنجة المشنقة وشنق المدعي وأنصاره واحداً واحداً امام الجيش كله وذلك في صباح الخميس في ١٥ ربيع آخر سنة ١٣٠٥ هـ ٣١ ديسمبر سنة ١٨٨٧ م. ثم قطع رؤوسهم وأرسلها الى أم درمان فعلقت في السوق . وكان الخليفة قد ألحق كتابه الاول بكتاب آخر يقول فيه « أما المدعي ووزيره فيقتلان في الحال واما الامراء فان رجعوا عن الدعوى يكتفى بسجنهم وإلا فليقتلوا». فوصل هذا الكتاب بعد الكتاب الاول بثلاث ساعات وعاد الأمناء الاربعة الى الخليفة وأخبروه بجلية الامر فلم يأسف على قتلهم ونشر منشوراً وزعه على جميع انصـاره في الجهات يحذرهم من اتباع اهل الضلالة ومما قاله فيه : « ... ان شخصاً في

القلابات أعظم الفرية على الله تعالى وادعى ضلالاً وكذباً انه نبي الله عيسى مع انـــه معلوم الام والاب والقبيلة وسار بذلك اشخاصاً ودعاهم الى تصديقه ومخالفته فصدقوه وحالفوه لضعف يقينهم فآل أمرهم الى الهلاك وقتلوا جميعاً باشارتنا وطهرت الارض منهم » ... « ومن الآن فصاعداً فأي من عـثر على صاحب دعوى فليرفع امره الينا ويتبين خبره منـا ولا يبادر الى تصديقه من عند نفسه فينقض عهده مع الله ورسوله ومهديه ومعنا ويخسر الدارين ويهلك أسوة بالهالكين ... » .

رجوع يونس الى ام درمان : هذا وكان الخليفة قد ارسل أبا عنجة الى القلابات على ان يكون قائداً عاماً لجميع جيوش المهدية فيهـا ويكون يونس الدكيم ممتثلا له في الادارة العسكرية فثقل الامر على يونس لأنـــه من اقرباء الخليفة ولم يكن ابو عنجة في الاصل سوى عبـد من المنضلة ففرز جيشه عن جيشه ورفض الطاعة له . فاستدعاه الخليفة الى أم درمان وجعله ملازمـاً له الى ان ارسله عاملاً على دنقلة اواخر سنة ١٨٨٨ كما سيجيء وأبقى أبا عنجـة عاملاً على القلابات ادارياً وعسكرياً . وكان قـد ارسل معه كتاباً الى الملك يوحنا ملك الحبشة يدعوه من جديد الى طاعته ومما قاله له :

« ... وبعد فان المهدي « عم » قد كاتبك وحثك على الدخول في ملة الاسلام فحصل منك الصدود والاعراض عن طريق الرشاد ثم نحن قد كاتبناك قبل هذا بمثل ما كاتبك بـه المهدي « عم » وأعلمناك بأنك ان لم تعمل طبق أمرنا فلا بـد من حلول جيوش الاسلام بديارك ومناجزتك الحرب وقتـل رجالك فما حصلت منك الى الله انابة ولا لداعيه اجابة حتى غزا المسلمون بلادك فخربوا الديار وقتلوا الرجال وأحرقوا الكنائس والمدن الكبار وسبوا النساء ويتموا الاطفال وعادوا غانمين حائزين لرضاء ذي الجلال وصار اثم من هلك من اتباعك عليك ولو أجبت داعي الله لأجابوا معك تبعـاً اليك . والحاصل ان ما مضى قد فات وما زلنا نريد هدايتك فيما هو آت ودخولك

في دين الاسلام وانتظامك في سلك اصحـاب المهدي « عم » ومن ثم حررنا هذا ثانياً اليك قبل اعادة الكرة عليك فان رحمت نفسك بالدخول في مـلة الاسلام والانتظام في سلك اتبـاع المهدي « عم » وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله نطقاً بلسانك واعتقاداً في جنانك وأقمت بجهتك شعائر الاسلام من صلاة وصيام وزكاة وغير ذلك من الاحكام فاعلم انك تكون منا وإلينـا ونكف عنك المحاربة ويغفر الله لك جميع الآثام التي وقعت منك في زمن الكفر . وإلا فان كنت لم تزل على اعراضك عن اجابة داعي الهـدى واصرارك على دين الكفر واتباع الهوى فاعلم انك تصير من الهالكين بقدرة رب العـالمين إذ لا بد من حلول جيوش الاسلام بدارك ومناجزتك الحرب وقطع دابرك ... » ولترد لنا منك الافادة بما تختاره من اعراض او اجابـة وعلى من اتبع الهدى السلام سنة ١٣٠٥ هـ » اه .

غزوة حمدان الاولى للحبشة : فلم يجبه الملك يوحنا على كتابه كعادته فأمر أبا عنجة « فخرج لغزو الحبشة في ٩ يناير سنة ١٨٨٨ بجيش كثيف جعله اربعة ارباع وجعل على كل ربع اميراً وهم : احمـد علي وعبد الله ابراهيم والزاكي طمل وعربي دفـع الله . وكان في كل ربع جماعة من اهل الاسلحة النارية والباقون من اهل السيوف والحراب فجعل اهل الاسلحة النارية صفاً واحداً واهل الرماح صفاً آخر وراءهم كل ربع على حدته وكان هو وملازموه في الوسط وراء ربع الزاكي طمل وله اشراف على الجيش كله حتى اذا ظهر له خلل في الارباع ولزمت مداركته أمدّه بملازميه . وأما الفرسان فقـد جعلهم في الجناحين وجعل طليعة الجيش امام الكل . وسار على هذا الترتيب حتى أتى بلاد دمبيا من الحبشة فعاث فيها فأخرب حلالها وقتل أهلها وغنم وسبى وعاد الى القلابات » وكتب الى الخليفة تفصيل غزوته بمـا نصه بعد البسملة :

« وبعـد فمن العبد الحقير ذو العجز والتقصير حمدان ابي عنجة الى محيي الدين ومدمّر الكافرين وسفينة المؤمنين الموصلة لرب العالمين سيدي وسندي الى

الله خليفة المهدي « عم » الخليفة عبد الله ابن محمد خليفة الصديق « رضه » وارضاه ونفعنا ببركته وأفسح في ايامه وأهلك اعـــداء الدين بماضي حسامه آمين ... سبق فأخبرنا السيادة انه صار قيامنا على بركة الله تعالى من القلابات الاثنين في ٢٤ ربيع الآخر سنة ١٣٠٥ ... فبعد مضي ثلاثة ايام من قيامنـا تناولنا اطراف دار العدو من جهة علـّفه فمرّ بعض الانصار بشجرة ذات ثمر يؤكل ولكنها في ارتفاع عظيم وكانوا جياعاً فحاروا لا يدركون كيف يقتطفون ثمرها وبينا هم كذلك اذ بها تدانت لهم باذن الله تعالى الى الارض بكليتهـا فأكلوا جميعاً وشبعوا وحمـدوا مولاهم على تلك الكرامة في الدين والانصار المذكورون هم من جماعة الاخ علي فايت وقد قابلونا وقصوا علينا القصة . وفي اليوم التالي أتى جماعة من الاخوان الرزيقات جماعة عيسى عبد الله على شجرة بحذاء كنيسة الكفرة بالجهة المذكورة فتسلقها ثلاثـة منهم وجعلوا يأكلون فسألهم الباقون ان يناولوهم من طلعها فلم يعطوهم كفايتهم فمـا شعروا إلا والشجرة قد خرّت الى الارض فأكلوا وشبعوا ... هذا ولما تمّ لنا في المسير تسعة ايام وصلنا دمبيا محل الكافر عدو الله النقس راس عدار (وهو الذي صار ملكاً على كوجام باسم تقله هيمنوت) فالتقتنا طلائعه الفرسان في اول البلاد فهزمناهم وقتلنا منهم واستطردنا السير بقية يومنا الى الاصفرار فنزلنـا قريباً من ديم أعـداء الله ... ولما طلع فجر اليوم العاشر من خروجنا من القلابات توضأنا على حالتنا المعهودة ورتبنا حزب الرحمن من الاسلحة والخيول بحسب ما يسّره الله لنا من علمه وقمنا بعد صلاة الصبح على بركة الله تعـالى قاصدين ملاقـاة حزب الشيطان وعلينا من الله السكينة والوقار لا نؤمل إلا لقاء الله ونصرة الدين فلما أشرقت الشمس قبل وصولنا لأعداء الله أخرج الله تعالى نوراً عظيماً ساطعاً تجاه الشمس من جهة بحر هناك يقال له «بحر ابيض» وعندما شاهدناه استبشرنا وخررنا من ظهور الركائب سجـداً لله تعالى على اسداء النعمة وفعل كذلك جميع الاخوان الذين معنا ... ولما تراءينـا مع اعـداء الله الكفرة اذا هم من كثرتهم لا اول لهم يعرف ولا آخر يوصف

فابتدرونا ضرباً بمدافعهم الاربعة بمسافة لا يصلها الرمنتون لزعمهم اننـا نقف مكاننا ونناوشهم مناوشة ومـا زالوا كذلك ونحن زاحفون زحفاً عليهم حتى اطلقوا علينا ١٦ قنبلة ثم شرعوا بضرب السلاح. هذا كله والاخوان زاحفون عليهم يسبق بعضهم بعضاً اقدامـاً بلا احجام طمعاً فيما ينالونه من نفحات العزيز العلام . ولم نأذن لهم بالضرب الى ان حققنا بأن أفواه السلاح امتلأت من اعداء الله فعند ذلك شرعنا في ضربهم بغاية الحزم وشدة العزم مع الزحف عليهم فما كانت لهم ساعة إلا وقد زلزل الله أقدامهم وألحق الرعب في قلوبهم وانكشفوا عن وجوهنا مسرعين مرتكبين عار الفرار ذاهلين عن كل مـا لهم من ذراري ونساء وخيول وبغال وحمير وخدم وحشم ونحو ذلك . هذا كله والاخوان الصادقون يسمعون صوت الأم بأية تضرب في وقت اشتداد الحرب. وبعـد انكشاف الاعداء اقتفينا أثرهم طعناً وضرباً وأسراً حتى اضطر الذين امامنا الى ان رموا بأنفسهم في النهر المذكور وكانوا يزيدون عن الف نفس من ذكر وأنثى فمات اكثرهم غرقى . ومـا رجعنا عن مطاردتهم الا بعد الساعة العاشرة من النهار ووجدنا الهالكين من اعداء الله الوفاً مؤلفة لا يحصي عددهم إلا الذي اراد هلكهم ولم يفز بلقـاء الله من الانصار إلا نفر قليل كما يرى في الورقة الاخرى طيه . هذا وجميع الغنائم مع المدافع الاربعة وبعض السلاح الذي تيسر جمعه والخيول والبغال وغير ذلك اخذناه بفضل الله تعـالى بلا منازع ولا معارض لأن الكفار تركوا الديم كما هو . وقد أعلمنا نقـاد رأس صابون من ثقاة مسلمي الجبرته الذي شهد معهم الواقعة وسلم بالفرار ان عدد الكفار مايتين وأربعين الفـاً بلا نقصان منها خاصة اهل الحربة والدرقة والسيف مايتين الف وخاصة السلاح الرمنتون اثنا عشر الفاً والأجناس ثمانية آلاف والخيول عشرون الفاً والمدافع اربعة . وأهل الديار التي تجمعت معهم لحربنا هم قجـام واجفر وعلفه وطاقسة ودمبيا وقندر وشقلته وشلمة وأم بجارة وارجوه وغيرهم من عامة الديار . وقـد هلك أكثر البطارقة والرؤوس ومن جملتهم الشقي دجاج كاسة قائد جميع الجيش بعـد الشقي

رأس عدار الذي حصلت على يـده وقعة القلابات . وهذه ثلاثة أروس مع رافعه وهم دجاج كاسة عقيد الحربة وبزابة بن الشقي رأس عدار وقداري يقرا عقيد السلاح وكان جملة من يقال له دجاج ستة عشر ومع كل دجاج خمسة عشر الفاً أعني كل واحد صاحب جهة ونقارة وما أرسلنا هـذه الأروس الثلاثة إلا لشهرة اربابها . ومن جملة الاسارى لدينا اولاد الشقي رأس عدار ذكوراً وأناثاً مع حرم وأولاد الرؤوس المفسدين بما فيهم بعض حرم وأبناء عدو الله المخذول صالح شنقة وغيره ...

« هذا ولما خلت الدار من الكفار وانتنت رائحة الديم من جيف أعـداء الله ورمم بهائمهم انتقلنا على بركة الله تعالى طالبين قندر ام مدائنهم يوم السبت في ٧ جمادى الاولى وقبل وصولنا اليها قابلنا اهل الديار المذكورة أعلاه راغبين الامان ورافعين الرايات البيض وفي ايدي البعض الاغصان الخضراء ثم لما قربنا اليها قابلنا جميع كبرائها من مسلمي الجبرته بالطاعة والاذعان طالبين الأمان فأمناهم . وبعض المكاتبات التي قابلتنا منهم بالطريق ها هي واصلة طي هذا. وجميع الكفار الساكنين بها ولوا مدبرين فدخلنا يوم الاثنين وجلنا فيها يميناً وشمالاً فأعجبنا بما شاهدناه من القصور الشامخات وأحرقنا فيها ٤٥ كنيسة ما عـدا الكنائس التي أحرقناها بالديار المذكورة عند مرورنا بها وهي تزيد على ٢٠٠ كنيسة . فلما لم نجـد بالمدينة المذكورة إلا المسلمين من الجبرته (وكانوا نحو ٢٠٠٠) ولم نعلم جهة للعدو فلزيادة اشتياقنا لمخاطبات السيادة لانقطاعها عنا مدة غزوتنا هذه وايفاء بوعدنا السابق للسيادة عن تعجيل الأوبة قمنا منها ومعنا جمع من الجبرته بأموالهم وأولادهم مهاجرين لله والغنائم المتقدم ذكرها آنفاً . وسيتم وصولنا الى القلابات غداً ان شاء الله تعالى . ولعلمنا بأن الافكار الشريفة متعلقة بنا قد بادرنا بتحرير هذا في ١٥ جمادي الاولى سنة ١٣٠٥ هـ ، ٢٩ يناير سنة ١٨٨٨ م اه .

« تحشية : استقر ومع الرؤوس الثلاثة رأس رابع وهو رأس شيخ عموم

القالة المدعو « اسوري قلا » كان بالعـام الماضي شاهداً معهم وقعة العامل ابن ارباب » اه .

غزوة حمدان الثانية للحبشة : وأقام ابو عنجة في القلابات نحو اربعـة اشهر ثم «تاقت نفسه الى غزوة اخرى للحبشة فخرج في ٧ شوال سنة ١٣٠٥هـ ١٧ يونيو سنة ١٨٨٨ بطريق علفة وبعـد ثمانيـة ايام من خروجه وصل محلا يدعى تنكل فوضع الديم فيه وأرسل البعوث يميناً وشمالاً فلم يجد أحداً على محاربته وبلغه ان في مدينة ام بشارة رئيساً يدعى دجاج مششه قد جمع له فقصده ففر من وجهه فرجع الى تنكل. وفي رجوعه مر بدير عظيم في جزيرة من جزائر « بحر ابيض » فأمر الزاكي طمل وعبد الله ابراهيم فأحرقاه وقتلا من وجدا فيه من الرهبان والقسس ورجعا اليه فعاد الى القلابات فدخلها في ٧ الحجة سنة ١٣٠٥ هـ ١٥ اوغسطوس سنة ١٨٨٨ » .

كتاب الملك يوحنا الى ابي عنجة في طلب الصلح : وكان الملك يوحنا في هذه الأثناء منشغلا بالتليان الذين احتلوا مصوع وقد خشي على بلاده منهم فرأى ان يعقد مع الدراويش صلحاً ليتفرغ للتليان فكتب الى ابي عنجة كتاباً بالحبشية والعربية يدعوه الى الصلح بما نصه :

« نقش خاتمه : ملك الملوك يوحنا ملك صهيون الصليب بالحبشة غلب امة اسماعيل .

« رسالة من المؤيد من الله يوحنا ملك صهيون ملك ملوك الحبشة – تصل الى المعظم دجاج ابي عنجـة . اول سؤالنا عن صحتك وسلامتك عسى ان تكون بخير وعافيـة . نحن الآن مع جميع الجيوش والامراء والوزراء بخير بمعونة الله والأولياء الأبرار ولله العظمة والحمد دائماً لأن رحمته دائمة الى الابد . قبل تاريخه بخمس عشرة سنة حكم الترك بلادكم الى حدود المتمة . وقد أرادوا ان يحكموا بلاد التيغرى فأتوا بطريق مصوع ودخلوا بـلاد هماسين فحاربناهم وأعطانا الله القوة فظفرنا بهم وهزمناهم مرتين . وبعد ذلك فيما نحن في مدينة

اسمره حاكمين الاسلام بالايمان المسيحي كتب الينا المهدي كتاباً يأمرنا بالدخول في دين الاسلام فغضبنا وأرسلنا « حريـــة » الى مدينة المتمة فأهلكت من الخلائق عـــدداً جزيلا . ثم حضرتم أنتم الى بلاد دمبيا وحاربتم وغلبتم من غلبتموه وبهذا السبب هلكت المساكين . والآن فاذا انا حضرت الى بلادكم وأهلكت المساكين ثم جئتم أنتم وأهلكتم المساكين فما الفائدة في ذلك . ونحن ليس لنـا ارادة على التعدي من حدودنا الى حدودكم فلا يكن لكم ارادة على الخروج من حدودكم الى حدودنا بـل نحن وأنتم نكون ساكتين جلوساً ببلادنا فلا تهلك المساكين في الباطل . والواقع ان الافرنج أعداء لنا ولكم فاذا غلبونا وهزمونا لم يتركوكم بل أخربوا دياركم واذا غلبوكم وكسروكم فعلوا بنا كذلك. فالرأي الصواب ان نتفق عليهم ونحاربهم ونغلبهم ويتردد التجار من اهل بلادنا بالمتاجر الى بلادكم وكذلك تجار بلادكم تتردد الى غندر لأجل المعايش والمكاسب لأهلكم ولأهلنا . فاذا صار كذلك فهو غاية المنفعة لنا ولكم لأنكم أنتم ونحن في الاصول السابقة اولاد جدّ واحـــد فاذا قاتلنا بعضنا بعضاً فماذا نستفيد فالافضل والاصوب لنا ولكم ان نكون ثابتين في المحبة جسداً واحداً وشخصاً واحداً متفقين بعضنا مع بعض ومتشاورين بالمشورة الواحدة ضد اولئك الذين يحضرون من بـلاد الافرنج والترك وغيرهم الذين يريدون ان يحكموا بلادكم وبلادنا مزعجين لكم ولنا اولئك اعداؤكم وأعداؤنا نحاربهم ونهينهم ونحرس حدود بلادنا وممالكنا منهم . هـــذه هي مشورتنا العظمى لمن يسمع وينظر فيفرح ويبتهج . وايضاً قبل تاريخه بنحو خمس سنوات ونحن في امباجاره طلب الطليان التوجه الى سنهيت وكسلا وطلبوا منا خبر السكة والمعاونـة قائلين لنا الانكليز من هنـاك ونحن معكم من هنا نحارب الدراويش ونهلكهم فمنعتهم من ذلك وما مكنتهم من شيء وقلت لهم أليس الناس نامي وهم بلاد واحدة معنا وحبشة واحدة فمنعتهم من ذلـك منعاً باتاً ولهذا السبب صارت العداوة معهم الى الآن فليكن ذلك معلوماً لديكم في ١٧ كيهك سنة ١٨٨١ مسيحية » اه ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٨٨ م .

جواب ابي عنجة للملك يوحنا : فأجابـه حمدان ابو عنجة بكتاب فظّ هذا نصه :

« وبعد فمن عبـد ربه قائد جيوش الاسلام لتدمير الكفرة اللئام حمدان ابي عنجة الى يوحنا بالحبشة . انه لقـد وصلنا جوابك عربياً وعجمياً تاريخه ١٧ كيهك سنة ١٨٨١ مسيحية وفيه تعرفنا بملك الترك سابقاً لبلادنا الى حدود المتمة وما قد حصل لهم فيما بعد . وانهم لما أرادوا الدخول في بلادك منعتهم منها وهزمتهم مرتين . وان سيدنا الامام المهدي « عم » أرسل اليك جواباً يدعوك فيه الى الاسلام فغضبت وأرسلت الى المتمة من حاربهـا وكان ما كان من امر الله ثم توجهنا نحن الى بلادك وكان ما قـد كان بأرض دمبيا وعلى ان يقف كلا منها على حـده وينعقد الصلح بيننا ويكف الحرب ونكون اخواناً واعواناً على من يقصدنا من دول الافرنج والانكليز وان يتردد بيننا وبينكم التجار بمتاجرهم فذلك الذي رأيتموه صواباً ولعدم الثمرة في المحاربات وهلاك المساكين الى آخر ما عددته لنفسك من المزايا والتظاهرات الباطلة فهمناه وها سأوضح لك ما ظهر لمهدينا « عم » من الكرامات وخوارق العادات فلعلك ان عقلتها تكون لك أكبر عبرة (ثم عدد له الوقائع التي فاز بهـا المهدي وخليفته من بعده وقال) : وأما غضبك من جواب سيدنا المهدي «عم» فهو من أعظم الشقاء عليك ولقد رأيت ما حل بمن جاء الى المتمة انتقاماً من عند الله تعالى فـاذا لم تعتبر به فستكون انت ان شاء الله عبرة لغيرك . وما كان بالمتمة سابقاً إلا التكارير الذين يحرثون الارض ويستعملون القطن ولكنها الآن امتلأت ليوثاً ضواري يقاوم الواحـد منهم عشرة من الكفار وجميعهم بايعوا الله ورسوله ومهديه وخليفته من بعـــده عهداً وثيقاً على الموت في سبيل الله ابتغاء وجهه الكريم فان لم تعرفهم فستعرفهم غداً فانه ما جاء بهم الى هـذه الجهة حب مال ولا جاه بل جاؤا لقطع دابرك وجميع الكفار فانتبه من الغفلة واصح من النومة وفق من السكرة ولا تغرنك جموع الشيطـان التي لم تغن عنك من الله شيئاً وفيما سبق عبرة لأولي الألبـاب . فأما نداؤك لي في صدر

الجواب بقولـــك دجاج ابو عنجة فاعلم اني لست بدجاج وانما انت الدجاج لكفرك وتماديك على غضب باريك . وأمـا طلبك الصلح منا وأنت باقٍ على كفرك فبعيد بعد المشرقين ودليل على ضعف عقلك وفراغ ذهنك فيا لك من سفيه ويا لك من جاهل أتريـد منا صلحاً ومؤاخاة ولم تدخل في الدين الحق وكتاب الله ناهٍ عن ذلك . فان رمت الصلح فقل مخلصاً من قلبك أشهد ان لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ﷺ وإلا فإنا نقاتلكم ونخرب دياركم ونتيم باذن الله أطفالكم ونغنم أموالكم كما وعدنا الله ذلـك في كتابه العزيز اذ انه لا قصد لنا في الدنيـا وما هي لنا بدار وانما هي دار الكفار اهل الذل والصغار ودارنا هي الآخرة ذات الدرجات الفاخرة ولم تكن اقامتنا هـــذا لخدامة قُبُر ولا جمع رزق وانما هي لجهادك وجهـاد أمثالك في رضاء الله . فحينئذ انت والطليان والافرنج ومن والاكم الله أكبر عليكم جميعاً فما بيننـا وبينكم إلا السيف ما لم تؤمنوا بالله وحده فان آمنت فذلك الذي تريده وإلا فاتخذ لك داراً غير التي انت فيها فلا بد ان تتجلي عنها قريباً . واعلم انه لا حد لنا نقف عليه إلا بيتك خاصة حيث جاهرت بكفرك وخالفت مهـدي الله خليفة الرسول وسيف الله المسلول فان كنت ذا قوة وشجاعة كما تزعم فأقدم علينا ولا تحجم اذ ما أخرك كل هذه المدة إلا شدة الخوف واذا لم يكن ذلك فأثبت في محلك فلا بد لك من الهلاك عن يد حزب الله الغالب وجنده المفلح فأولى لك الانابة الى الله ومداركة عمرك قبل فواته فسلامتك في الاسلام وعطبك في ضده فابكِ ان كنت باكياً على نفسك فقد حان ذهابك ولن يتعظ شقي مثلك إلا بنفسه وها قـد نصحت لك وأنذرتك فأنب الى الله او بوء بغضب من الله ورسوله فقد هيأ مقعدك من النار وبئس القرار وفي هذا كفاية والسلام على من اتبع الهدى جمادى الاولى سنة ١٣٠٦ ﻫ يناير سنة ١٨٨٨م .

غزوة الملك يوحنا القلابات : فلما اطلع الملك يوحنا على كتاب ابي عنجة طار صوابه وصمم على طرد الدراويش من القلابات ومطاردتهم الى ام درمان فأرسل الى جميع مدائن مملكته باستنفار الجيوش فاجتمع عليه نحو ٢٥٠ الف

مقاتل ومعهم من الرؤوس والأعيـان الراس عدار والراس الوله وهيلا مريم وصالح شنقة وغيرهم من مشاهير دولته الابطال فقادهم وزحف بهم قاصداً القلابات .

تحصين القلابات : وعلم ابو عنجة باستعداده فشرع في تحصين القلابات فأحاط الديم بزريبة مربعة متينة ومن داخلها متراس بغاية الحصانة وأقام من داخـل المتراس سوراً طول الجانب منه ١٧٠ متراً لوقاية العائلات والذخائر والشون وجعل الزريبة اربعة أبواب على كل باب مدفع .

وفاة ابي عنجه في ٢٩ يناير سنة ١٨٨٩ : وقبل ان يتم زريبته أصابته حمى فقضت عليه في ٢٧ جمادى الاولى سنة ١٣٠٦ ﻫ ٢٩ يناير سنة ١٨٨٩ م فبكاه أصحابه والجيش كله لأنه كان محبوباً من الجميع وكان طويل القامه غليظ الجثة قوي البنية خفيف اللحية أشيبها اسود اللون حتى تظنه عبداً لكنه كان مهيباً عادلاً حسن الخلق سديد الرأي ونقش خاتمه : « وفق يا ذا القـدرة عبدك حمـدان ابو عنجة » . وكان أشد قواد المهدية بأساً وأكثرهم جرأة وأطوع الى الخليفة من بنانه لذلك حزن عليه حزناً شديداً ونعاه الى جميـع امرائه في السودان . وقد رثاه محمد المجذوب بن الطاهر بقصيدة منها :

حمدان انك طالما سمت العدى ... ذلاً وذكرك في المحافل يرفعُ

ما وُجّهت رايات نصرك وجهة ... إلا وبالظفر المؤكد ترجع

فلك الهنا بلقاء ربك شاهراً ... سيف الجهاد وكل قرمٍ تقمع

فسحائب الرضوان تغشى تربة ... ضمتك ما نجم يغيب ويطلع

عمالة الزاكي طمل على القلابات سنة ١٨٨٩ :

واقعة القلابات في ٩ مارس سنة ١٨٨٩ وموت الملك يوحنا : هذا وكان ابو عنجة قبل وفاته قد سمى الزاكي طمل خلفاً له على جيوش القلابات فنازعه الرئاسة احمد علي من أخص رجـال التعايشي وكاد الامر يفضي الى وقوع

الفشل في الجيش فأرسل الخليفة القاضي احمد علي وبعض أخصائه فثبّتوا الزاكي طمل في الرئاسة . فأتم الزريبة التي شرع فيها ابو عنجة وصفّ عليها المقاتلة وقد بلغوا نحو ٦٠ الفاً ومعهم ١٢ الف بندقية رمنتون و ٣٥٠٠ بندقية من اجناس شتى والف جواد . ويوم السبت في ٩ مارس سنة ١٨٨٩ وصل الملك يوحنا القلابات بجيوشه الجرارة وانتشبت حرب هائلة ظلّ النصر فيها في جانب الاحباش حتى جرح الملك يوحنا جرحاً مميتاً فحمله رجال حاشيته وخرجوا به من الموقعة فوقع الفشل في الاحباش اذ ذاك وانهزموا شر انهزام. وتبعهم الزاكي في اليوم التالي فأدركهم على الاتبرة يوم الثلاثاء في ١٢ مارس فأوقع فيهم واقعة شديدة فقتل وغنم وسبى وعاد الى القلابات وبعث الى الخليفة في تفصيل الواقعتين بكتاب طويل هذا نصه بعد البسملة :

« وبعد فمن العبد الحقير المعترف بالعجز والتقصير الزاكي طمل الى سيده وسنده ووسيلته الى ربه خليفة المهدي « عم » الخليفة عبد الله بن محمد خليفة الصديق رضي الله عنه ونفعنا به آمين . بعد ان يهدي العبد الى سيده جزيل السلام ويقبل أياديه الكرام يعرض للأعتاب العلية والمسامع الزكية ما حصل بحول الله وقوته من عظيم البشارة بتأييد الدين وقطع دابر أعداء الله الحبشة الكافرين وهو انه بعدما سبق العرض للسيادة عما بلغنا من حضور أعداء الله الحبشة لمحاربتنا فقد تم وصول الأعداء المذكورين يوم السبت في ٦ رجب ومعهم نقسهم الهالك الملعون يوحنا قريباً منا فكانوا على حالة عجيبة وقوة شديدة وجموع كثيرة العَدد عظيمة العُدد لا يحصى مقدارهم إلا الله تعالى حتى من شدة كثرتهم ضاقت بهم الارض وما وسعتهم الطرق فصاروا يطلقون الحرائق امامهم لتنظيفها ولقد رأينا نيرانهم من مسافة ثلاثة ايام فلما قربوا من المركز مسافة ساعتين ثار الغبار من جهتهم حتى سد الافق وصار من في ديم الانصار لا ينظر من يكون بحذائه من شدة ثوران الغبار وانتشاره . وعندما شاهد الانصار ذلك أظهروا من الثبات والصبر والشهامة والاشتياق الى لقاء الله والوفاء بالعهد ما هم به حريون وبقينا مترتبين ومستعدين على الحالة

المعهودة ومنتظرين قدوم الأعداء الى ميدان الحرب لمناجزتهم وقطع دابرهم فحضروا الينا في ألوف مؤلفة وعدد متنوعة ومعهم من الخيول والأسلحة والبغال ما لا يحصى وقد ساقوا أمامهم الوحوش كالجواميس والذئاب والغزلان وخلاف ذلك وأحاطوا بنا من كل جانب حتى صرنا في وسطهم كالخاتم الصغير وهم في غاية الغرور والاعتماد على كثرتهم العارية من المعونة الإلهية وكان عدد الانصار اهل الاسلحة النارية اذ ذاك سبعة عشر الفاً بخلاف الحرابة لكون الأعداء المذكورين أتونا على حين غفلة قبل التمكن من جمع جيوش الأنصار المتفرقة بالجهات في المصالح . فبعدما أحاطوا بنا من كل جانب ومعهم نقسهم الملعون يوحنا يحثهم ويحرضهم على القتال ويمنيهم بحسب ما يلقيه اليه الشيطان وتسوّل له نفسه الخبيثة من القدرة على اطفاء نور الرحمن ابتدرونا بضرب المدافع والاسلحة النارية من كل الجهات وحملوا علينا حملة ارتج لها الكون وصار لهم دوي عظيم وأصوات مختلفة من ضرب الاسلحة المتنوعة والانصار في تلك الحالة في غاية الثبات والصبر وقوة العزم وعدم الاكتراث لكثرة الاعداء وجموعهم ولم يسبق لأحد مصادمة نظير هذه فيما نعلم في زمن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم . فعندما ابتدرونا بالضرب عاقبناهم بضرب المدافع من كل ناحية وصبرنا لهم حتى «ملأوا أفواه الاسلحة» فتوكلنا على الله وضربناهم ضربة رجل واحد واستمر اطلاق الاسلحة النارية من الجهتين وتواتر حتى ارتجت الارض من أصوات الاسلحة واسود النهار وصار كالليل المظلم من تراكم الدخان والغبار في الجو وكأنما السماء قد أطبقت الارض من عظيم ما حصل والانصار وقتئذ جزاهم الله خيراً مع قلتهم بالنسبة الى كثرة جموع الأعداء في غاية الثبات والصبر والاقدام والشهامة والبسالة وشدة الوطأة على أعداء الله ضرباً بالأسلحة وطعناً بالرماح وقطعاً بالسيوف واستمر الحرب بيننا وبينهم نحو خمسة ساعات بحيث لم يكن في أثنائها فاصل بين الضرب بالاسلحة والالتحام مع الأعداء . وبعد ذلك أنزل الله علينا نصره وأنجز لنا وعده وزلزل أقدام أعدائه فولوا هاربين وعلى أعقابهم ناكصين بعد ان أهلك الله نقسهم الملعون

يوحنا وجماعة من رؤساء دولتـه ووزرائه وأهلك من جموعه ألوف مؤلفـة حتى امتلأت الارض من جيفهم الخبيثة وجيف خيولهم وبغالهم . وبعـد انكشافهم عن وجوهنا أخـذوا نقسهم الملعون يوحنـا وأدخلوه في صندوق وأشاعوا انـه حي ولكنه مجروح جرحاً خفيفاً وحملوه معهم وفروا هاربين ولعار الفرار مرتكبين . وبالنظر لكون الانصار جزاهم الله خيراً ما انتبهوا في حالة التحام الحرب مع الاعداء لشيء سوى مصادمتهم وقطع دابرهم ولم يشغلهم عن ذلك شهيد ولا جريح حتى كشفوهم وصدوهم على أعقابهم فنحن بعد هرب الأعـداء شرعنا في دفن من أكرمه الله بالشهادة من الأنصار وهم عدد يسير وتمييز المجاريح وكان ذلك ليلة السبت ويوم الاحد .

« ثم تجهزنا بما لزم من الاستعداد واقتفينا أثر الأعداء المذكورين في صباح الاثنين وجددنا السير في طلبهم وأدركناهم عشية يومنا هـذا على بحر اتبرة نازلين وبايتناهم هناك فطلعونا في تلك الليلة بجانب من خيولهم فحملنا على طلائعهم فانهزموا . فلما أصبحنا بيوم الثلاثاء الموافق ٩ رجب (والواقع ١٠ رجب ١٢ مارس) ناجزناهم الحرب فانتشب القتال بيننا وبينهم فثبت لهم الانصار ثبوت الروامي واشتد الحرب وعظم الخطب واستمر الحال على ذلك ست ساعات فانكشفوا عن وجوهنا منهزمين لا يلوي منهم احد على احـد لشدة ما رأوه من سطوة انصار الدين وذلك بعـد ان اهلك الله منهم كل من يقال له رأس او دجاج من الباقين بعـد الواقعة الاولى فاقتفى الأنصار أثرهم ضرباً وطعناً حتى استأصلوهم عن آخرهم ولم ينجُ منهم إلا الهارب وقـد غنمنا جميع ما معهم من الاسلحة والمدافع والجباخين والخيول والبغال وبقية الامتعة . وبعد استئصال المنهزمين صار تفقـد الهالكين من رؤساء الكافرين بواسطة منهم المعرفة التامة بهم فوجدنا عدو الله الهالك النقس يوحنا مقتولاً في الواقعة الاولى كما ذكرناه آنفاً مدخلاً في صندوق مشمع ببطن خيمته وعلى صدره صليب من ذهب كان يعبـده من دون الله ومعه ايضاً أفخر ملابسه وبعنقه العتبة التي يتخذونها وعليه أنواع من الادوية لئلا يتمزق ففي الحـال

أخرجنـاه من الصندوق وحززنا رأسه ورفعناه على قناة فاستبشر الانصار بذلك وحمدوا مولاهم على تلك النعمة العظيمة ثم أرسلنا رأس الهالك يوحنا المذكور ورؤوس وزرائـه كرأس الوله وغيره لصوب السيادة اعلاماً بتأييد الدين ودمار الكافرين ومعها تاج المملكة الذي للملعون المذكور وخيامه ونحاساته وغير ذلك من أمتعته الخاصة به . وبعد ان فرغنا من مكافحة الاعداء وقطع دابرهم تفقدنا من أكرمهم الله بالشهادة من الانصار في تلك الواقعة فوجدناهم عدداً يسيراً بالنسبة الى الأعـداء وقلة الانصار واستمرار الحرب وفرحنا لهم بما نالوه من حسن لقاء الله ودفناهم ورجعنا الى المركز سالمين غانمين . ثم من جملة ما رأينا من الكرامات في حال انتشاب الحرب مع الاعداء المذكورين ان كثيراً من الانصار سمعوا صوت ام بايه وشاهدوا خليفة المهـدي « عم » ذاته امام الاصحاب وبعضهم رأوا رايات بيضاً بأيدي رجال نازلين من السماء يقتلون في الاعـداء فضلاً عن مشاهدة التهاب النار في اجسام أموات الكفار من محل الطعنة حتى تعم الجسد كافة وغير ذلك من البشائر والكرامات التي لا يمكن استقصاؤها فهـذا ما كان لنا مع أعداء الله الهالكين في كلتا الوقعتين . اما الانصار ففي كل يوم يلتمسون منا التوجه لغزو الحبشة في بلادهم وما يمكننا ان نجيب التماسهم إلا بعد تشريفنا بصدور امر كريم للتبرك به والعمل بما فيه. وبالنظر لما هو واجب علينا من رفع الاحوال مفصلة لولي امرنا فقـد حررنا هذا اداء للواجب علينا ولا شك ان جميع ما حصل من هلاك الكافرين ونصرة الدين فهو من عناية الله وتأييـده لخليفة مهديه عليه الرضوان فنسأل الله تعالى سيدي بجاهكم عنده ان يمنحنا رضاكم في الدارين ويعمنا بعفوكم في كل حين ويوقع في قبضتكم كل معاند من الكافرين انه على ما يشاء قدير وبالاجابة جدير هـذا والسلام في ١٠ رجب سنة ١٣٠٦ هـ » اه ١٢ مارس سنة ١٨٨٩ م .

وكتب اليه كتـاباً آخر في التاريخ نفسه يقول : « ... سيدي ان بعض خيالة الأعداء وجدوا لهم منفذاً من جهة المكرم احمـد علي وأخذوا بعض « عوائل » الانصار ... وقـد فاز بالشهادة من انصار الدين جهـادية واولاد

عرب جماعة ما أمكن حصرهم وفيهم عشرون رجلا من اهل الرايات وأكثرهم من راية المكرم احمد علي ... وعنـد دخول الأعداء في الديم ساعة المصادمة أثاروا فيه الحرائق بقصد نهب الامتعة ... » .

وفي كتاب ثالث بتاريخ ١١ رجب سنة ١٣٠٦ هـ ١٢ مارس سنة ١٨٨٩م يقول : « ... سيدي ها هو برنس عدو الله الملعون يوحنا من الحرير الأخضر المرصع بالذهب والجواهر ومعه عراقية ملطخة بدمه وخاتم الملعون راس الوله ذهباً بفصّ احمر ... » .

وفي كتاب رابع بهـذا التاريخ يقول : « ملحق بما سبق ذكره من أشياء الملعون يوحنا : طاقيـة ذهب خالص تساوي ٤٠٠ اوقية وصليبان من فضة وذهب ومركوب قطيفة وسوار كبير فضة ... سيدي ان هـذه الأشياء أحضرها الانصار بعـد تحرير الكتب المرسلة مع هذا وها هي واصلة للسيادة مع رافعه عبد الكريم لغرابتها ليراها أنصار الدين ويحمدوا الله على ما أولاهم من النصر المبين ... » .

وكتب اليه في ١٤ شعبان سنة ١٣٠٦ هـ ١٥ ابريل سنة ١٨٨٩ م يقول : « ... بحسب ما ورد لنا من سيادتكم بجمع الاسلحة التي غنمناها من أعداء الله الحبشة أكدنا على الاصحاب في احضارها فحصلنا منها الى الآن ١١٨٦ بندقية من رمنتون وابي لفتة وخشخان وشيئاً قليلاً من الجبخانة كما ترون في الكشف طيه ... وقد حفظنا الجميع في منزل سيدنا المرحوم حمدان ابي عنجة الى ان تصدر الاشارة الشريفة بشأنها ... » .

فطبع الخليفة كتاب الزاكي الاول في مطبعة الحجر ووزعه على أنصاره في جميع البلاد اشهاراً للنصر على الاحباش . ولكن الراس الوله لم يقتل كما جاء في كتاب الزاكي.وجاء مصر وفد من الحبشة سنة ١٨٩٩ لأخذ مطران لمملكة كوجام وكان احد اعضاء الوفد غبريل بقطر قد حضر واقعة القلابات فسألته عن الواقعة وموت الملك يوحنا فقال : « كنا قد انتصرنا في بادىء الامر حتى اخترقنا زريبة القلابات وكدنا نستولي عليها فأصابت الملـك يوحنا رصاصة

طائشة اخترقت ذراعه ودخلت صرته فجرحته جرحاً مميتاً فحمله رجال حاشيته الى الخيام فطلب ابنـه الراس منقشا وقال له ان جرحي قتّال فشد حيلك واجمع رجالك وارجع الى بلادك فرجع في مقدمة الجيش والملك يوحنا معه محمولاً على سرير حتى وصل دير محبره سلاسه على نحو يومين من المتمة فثقل حال الملك ومات الاحـد مساءً وكان قبل موته أوصى ان يدفن في الدير المذكور فدفن فيه صباح الاثنين في ١١ مارس سنة ١٨٩٩ . وفي اليوم التالي لحق الدراويش ساقة الجيش عند فرع للاتبرة يعرف بنهر الكلب فأوقعوا فيهم وكان معهم جثة هيلا مريم من وزراء الملك يوحنا فأخذوها وذهبوا بها ظانين انها جثة الملك » .

هذا وكان أقوى ملك في الحبشة بعد الملك يوحنا الملك منيلك ملك شوا فلما بلغـه خبر وفاة الملك يوحنا أشهر نفسه ملك ملوك الحبشة وعقد صلحاً مع الطليان ثم نقضه وكانت بينه وبينهم وقائع مشهورة يأتي ذكرها في تاريخ الحبشة .

وقائع كسلا سنة ٦ : ١٨٨٩ :

تقدم ان عثمان دقنه قبـل رجوعه الى تماي سمى ابن اخيه محمد فاي أميراً على كسلا فضرب الزكاة على الماشية بأكثر ممـا تحمّله الأهلون وحبس محمد ابن الشيخ موسى ناظر الهدندوة لتقصيره في تأدية الزكاة فضج الهدندوة لذلـك ورفعوا الامر الى عثمان دقنة ولمـا لم يجبهم تجمعوا برئاسة بلال السمرندوابي ودخلوا السجن وأخرجوا محمد موسى منه عنوة وكتبوا الى الخليفة يطلبون عزل محمـد فاي من كسلا وتسمية عامل عليهم غير عثمان دقنة . فاستدعى الخليفة عثمان الى ام درمان وسأله عن ذلـك ففنّد شكوى الهدندوة وتزلّف الى الخليفة فثبته في مركزه وأصحبه بجيش كبير فيه نحو ١٠ آلاف من اخلاط البقارة والجعليين والدناقلة بقيادة محمد عثمان ابي قرجة . وبلغ الهدندوة ان الخليفة أيّد عثمان دقنة على عماله فتجمعوا في أم قروفه على ١٦ ساعة من

كسلا مصممين على القتـال فخف الفقيه علي بن حـامد الجميلابي الى ام درمان وأخبر الخليفة بالذي عليه الهدندوة فتلافى الأمر وكتب الى ابي قرجة ودقنة ان يأخذ احدهما منصب الآخر فجعل دقنة امير الجيش وأبا قرجة عاملاً على القبائل وكتب الى القبائل النافرة منشوراً بتاريخ ٢٣ صفر سنة ١٣٠٤ هـ ٢١ نوفمبر سنة ١٨٨٦ قال فيه : « ... فان كان ما جرى منكم من الاعراض عن طريق الهدى والرشاد سببه كما بلغني ما أصابكم من الحبيب عثمان أبي بكر دقنة من الضرر وعـدم المراعاة ومعاملتكم بالشدة وانكم ما زلتم على طاعتكم لأمر المهدية ... فاعلموا أنا قـد عينا لكم من طرفنا الحبيب محمد عثمان أبا قرجة لمباشرة اموركم وراحة بالكم ورفع الضرر عنكم والسير فيكم بمقتضى السنة المحمدية والطريقة المهدية . وأرسلنا معه قاضياً شرعياً وعضدناهما برجال من أمناء الدين والاصحاب السابقين وما تركنا للحبيب محمد عثمان المذكور من التوصية والرفق بكم شيئاً وسيعمل فيكم بمقتضى وصيتنا ويعاملكم بالعدل والفضل ولا يأخذ منكم غير الزكاة المفروضة عليكم في كتاب الله وسنة رسوله ... » .

فرضي الهدندوة بذلك . وحـال وصول ابي قرجة الى كسلا بثّ المقادم في أنحاء البلاد فعـدّ الانفس والمواشي وشرع في جمع الزكاة على ما يفرضه الشرع الاسلامي . وكان محمد فاي قد هجر بندر كسلا ونزل في ديم توكرف فاتخذ ابو قرجة محلجة القطن البخارية للتاجر عمر أغا خارج البندر ديماً له . وسمى الخليفة علي حامد المذكور آنفاً عاملاً على جهـات سواكن وبني عامر والحبـاب فنزل في طوكر وكتب الى اهل سواكن في ٧ يناير سنة ١٨٨٧ م يدعوهم الى الطاعة فلم يجبه احد .

وقائع سواكن سنة ٨٦ : ١٨٩١ م :

احتلال عثمان دقنة لهندوب : هذا وكانت الحكومة في سواكن لما علمت بذهاب عثمان دقنـة الى ام درمان اوعزت الى محمود علي شيخ الامارأر فهجم بنفر من رجاله على ديه في تماي في ٦ سبتمبر سنة ١٨٨٦ فقتل جماعة من أهله

وأسر آخرين . وبلـغ عثمان الخبر وهو في طريقه الى كسلا ولكنه انشغل بالهدندوة مدة. وفي اوائل نوفمبر سنة ١٨٨٧ أخـذ جانباً من جيش كسلا وأتى هندوب على ١١ ميلاً الى الشمال الغربي من سواكن وأرسل بعثاً الى بلاد الامارأر للأخذ بثأر اهله فالتقاهم في مكان يدعى دارة فقتل وسبى وعاد الى هندوب . ثم أرسل بعثاً آخر بقيـادة شائب الدنقلاوي فأوقع فيهم في ١٧ يناير سنة ١٨٨٨م قرب محل الواقعة الاولى فقتل منهم نحو ٥٠٠ رجل وفيهم محمد شيخ اخو شيخ الامارأر .

واقعة هندوب في ١٧ يناير سنة ١٨٨٨ : وكان المحافظ على سواكن في ذلك العهد كتشنر باشا فلما علم بخروج سرية شائب من هندوب رأى ان ينتهز الفرصة ويهاجم عثمان وهو في قلة لعله يظفر بـه ويريح السودان الشرقي من شره فاستأذن مصر وخرج من سواكن الساعة الاولى بعد نصف الليل في ١٧ يناير سنة ١٨٨٨ومعه ٥٠٠ رجل من الامارأر والعساكر السودانية والباشبوزق والبوليس ونفر من السواري والهجانة فلما صار على ٣ اميـال من هندوب وقف ينتظر بزوغ الفجر وهو يظن انه على ميل واحد منها . وفي الساعة ٤ والدقيقة ٤٥ أمر المشاة بقيادة محمـد بك احمد مأمور بوليس سواكن فخفّوا نحو هندوب وسار هو في اثرهم بالفرسان والهجانة متمهلاً . وكان عثمان دقنة مديّماً في زريبة متينة بين سلسلة من الآكام عن اليسار وأكمة منفردة عن اليمين ومن ورائه بلدة هندوب ومن امامه غابة من الأشجار فكمن المشاة في الغابة الى ان بزغ الفجر فخرجوا منها وهجموا على عثمان وهو يصلي بأنصاره خارج الزريبة فانهزموا مذعورين تاركين أسلحتهم في الزريبة فطاردتهم العساكر الى بلدة هندوب . وكان كتشنر قـد اوعز الى العساكر السودانية بمطاردة عثمان ذاته فأتوا محلاً في البلدة ظنوا انه يلجأ اليه فرأوه من بعيد فاراً على جمـل سريع ولكن انصاره تجمعوا بعد الشتات فرساناً ومشاة وداروا حول الأكمة المنفردة ورجعوا الى الديم فأخذوا سلاحهم وأوقعوا الفشل في العساكر فأسرع كتشنر اذ ذاك الى نجدتهم وضرب البوري فاجتمعوا عليه فهاجم الزريبة بجميع

رجاله فأصابته رصاصة في وجهه فجرحته جرحاً بالغاً اضطره الى ترك القتال فعاد بالعساكر الى سواكن وقد خسر ١٠ عساكر قتلى و ١٩ عسكرياً و ٣ ضباط جرحى .

واقعة شكسبير : وعـاد عثمان الى ديمه فأرسل جماعة من انصاره في ٣ مارس على سواكن فنزلوا على مسافة ١٩٠٠ يرداً منها وأخذوا يرمونها بالرصاص. وكان كتشنر اذ ذاك قد ذهب الى مصر بسبب جرحه وناب عنه الماجور شكسبير فخرج عليهم في صباح ٤ مارس ببعض العساكر فردوه خاسراً وعادوا الى ديمهم في هندوب ولما بلغ كتشنر خبر هـذه الحادثة أسرع الى سواكن وكان لم يزل متألماً من جرحه فلم يمكث إلا القليل حتى عاد منها عليلا وناب عنه الماجور رندل رفيقه القديم الى انرقي الى منصب ادجوتانت جنرال فسمى هولد سمث باشا محافظاً على سواكن فأخذها من الماجور رندل في ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٨ .

تولية حامد علي عاملاً على كسلا وذهاب ابي قرجة الى هندوب :

هذا وكان عثمان دقنة بعد واقعة هندوب قد ارسل الى الخليفة في طلب المدد . فأرسل الخليفة حامد علي من أخصاء رجاله عاملا على كسلا وكتب الى ابي قرجة فأتى هندوب في اوائل ابريل سنة ١٨٨٨ فوجد الاقامة فيها شاقة لقلة مائها وعدم وجود الغلال فيها فأشار على عثمان بنقل الديم الى طوكر فلم يسمع له فاشتد الخلاف بينهما ورفعا الامر الى الخليفة. وكان الخليفة يحرص على رضى عثمان لأنه لم يكن عنده في السودان الشرقي اصلح منه فاستدعى ابا قرجة الى ام درمان وارسل عثمان نائب مدداً الى هندوب .

واقعة الجميزة في ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٨٨ : وفي ١٧ سبتمبر اصدر عثمان دقنة امره الى عثمان نائب فنزل بأنصاره على ٩٠٠ يرد الى الجنوب الغربي من طابيتي الشاطة والجميزة اللتين تحميان آبار الماء الحامية سواكن وحفر خندقاً

طويلا فتمنّع به وجعل يترصد العساكر ووراد الماء فكلما لاح له شخص رماه بالرصاص . وفي ١٣ اوكتوبر أمر جماعة من انصاره فأتوا الآبار خلسة في الليل وشرعوا في ردمها فأحس العساكر بهم وأجلوهم عنها . وكان هولد سميث باشا يرفع خبر الدراويش الى السردارية في مصر ويسألهم المـدد فحضر السردار غرنفيل باشا بنفسه الى سواكن واستكشف الخنـدق وعاد الى مصر فاستأذن الحكومة في الحمـلة عليهم وطردهم من الخندق فأذنت له فطلب الاورطتين التاسعة والعاشرة من الحدود النيلية فذهبتا الى سواكن بطريق قنا والقصير . وخافت الحكومة الانكليزية ان العساكر التي توفرت للسردار في سواكن لا تضمن له النصر فبعثت اليـه بأورطة من عساكرها . فخرج من مصر في ٢ ديسمبر سنة ١٨٨٨ قاصداً سواكن فوصلها في ٩ منه وقـد اجتمع فيها ٧٥٠ من العساكر الانكليزية و ٢٠٠٠ من العساكر السودانية و ٢٠٠٠ من العساكر المصرية. وكانت العساكر الانكليزية بقيادة الكولونيل كوك وعساكر السردار لواءين : اللواء الاول وفيه الاورط التاسعة والعاشره والثانية عشرة السودانية بقيادة اللواء كتشنر باشا واللواء الثاني وفيه الاورطتان الرابعة المصرية والحادية عشرة السودانية بقيادة اللواء هولد سميث باشا. وكان معه من الضباط المصريين اركان حرب : القائمقام علي بك حيدر ياوراً . وملحم بك شكور ضابط ملكي المخابرات . والبكباشي ابراهيم افنـدي فتحي من اركان حرب اللواء كتشنر باشا والبكباشي احمد افندي فهمي من اركان حرب اللواء هولد سمث باشا. ولما كان فجر ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٨٨ خرج السردار من سواكن بالجيش كله فوقف بين طابيتي الجميزة والشاطة ومعه الطوبجية السواري المصرية والاورطة الانكليزية وأمر اللواءين فزحف الواحد بجانب الآخر مهاجمين الدراويش عن يسارهم فتجمع أكثرهم الى هـذه الجهة وأطلقوا رصاصهم على العساكر وهم على ٦٠٠ يرد منهم فاقتحم العساكر الرصاص بجنان ثابت الى ان صاروا على ٢٠٠ يرد منهم فأشعلوا فيهم ناراً حامية . وفي أثنـاء ذلك كان الطوبجية السواري

والاورطة الانكليزية مع طوبجية الوابورات الانكليزية الراسية في ميناء سواكن يمهدون السبيل للواءين باطلاق القنابل والرصاص في زاوية منحرفة على الخندق وما زال اللواءين يتقدمان وهما يفتكان بالدراويش حتى دخلا عليهم في الخندق وطرداهم منه بحد السنج فتبعهم السواري اذ ذاك الى مسافة بعيـــدة فقتلوا وأسروا وانتهت الواقعة الساعة ٨ صباحاً . وكان عدد الدراويش في الخندق نحو ١٦٠٠ رجل فقتل منهم ٥٠٠ واكثر وفيهم اربعة امراء وأسر جماعـــة وفيهم ضرير موسى دقنة ابن عم عثمان . واما خسارة الجيش فكانت ضابطين و ٦ عساكر قتلى و ٢٤ جريحاً. وكان عند الخندق جميزة كبيرة فعرفت الواقعة بها. وقد تسلق هذه الجميزة ساعة القتال رجل من البقارة واخذ يرمي العساكر بالرصاص وهو يشتمهم بأعلى صوته ويناديهم بأقبح الألفاظ فصوب العساكر نارهم عليه فخرّ الى الارض قتيلا . وبعـــد الواقعة امر السردار فزيد عدد الطوابي خارج سور سواكن لحماية الآبار ومنع الدراويش من العودة الى مثل حالهم الاول وعاد الى مصر .

انتقال عثمان دقنة بالديم الى طوكر : وبعث عثمان دقنة بخبر واقعـــة الجميزة الى الخليفة فاهتم للأمر وكتب اليه فانتقل بالديم الى طوكر في ١١ فبراير سنة ١٨٨٩ وامر ابا قرجه فخف الى كسلا واخذ ما بقي من رايات عثمان فيها ووافاه الى طوكر في اواخر مارس . ولكن لم يكن إلا القليل حتى وقع الخلاف بينهما بشأن الرئاسة على الجيش ورفعا الأمر الى الخليفة فكتب في ٣٠ ابريل سنة ١٨٨٩ بأن يكون عثمان دقنة العامل وابو قرجة وكيلا له وارسل اربعة امناء وهم : محمد خالد زقل والطاهر المجذوب والشفيع رحمة واسماعيل احمد ليكونوا معهم في طوكر يصلحان ما بينهما ويرفعان الأحوال كما هي الى الخليفة. وفي ١٤ يوليو سنة ١٨٨٩ كتب الخليفة الى عثمان فذهب الى امدرمان قبل للنظر في أمر مهاجمة مصر من طريق القصير بينما النجومي يهاجمها من جهة النيل فمرّ وهو راجع بالقضارف وكسلا فأخذ منها كل من له رغبـــة في

الجهاد وأرسلهم امامه ثلة بعد ثلة الى طوكر وما عاد اليها حتى كان النجومي قد خذل في طوشكي كما سترى فبقي في طوكر . وما زال النفور بينه وبين ابي قرجة فاستدعى الخليفة ابا قرجة الى ام درمان في ٣٠ ابريل سنة ١٨٩٠م فسماه اميراً على بربر وبقي عثمان في طوكر وله نقطة صغيرة في هندوب الى ان طردته الحكومة منها في اوائل سنة ١٨٩١ كما سيجيء .

الفصل الثامن

في

وقائع الثورة في خط الاستواء

سنة ٧٩ : ١٨٨٩ م

نزول امين بك الى الخرطوم : تقدم لنا الكلام على بلاد خط الاستواء الى ان برحها غوردون سنة ١٨٧٩ وصارت في عهدة امين بك . وكان فيها اذ ذاك نحو ١٥٠٠ من العساكر النظامية و ٣٠٠٠ من الباشبوزق. وفي مارس سنة ١٨٨٢ نزل امين بك الى الخرطوم لمقابلة حاكمها رؤوف باشا وبقي فيها الى ١٥ يونيو من السنة المذكورة ثم قفل راجعاً الى خط الاستواء . وكان قد علم في الخرطوم بقيام محمد احمد وعند وصوله الى فاشودة سمع بانكسار جيش الشلالي في قدير ولكنه لم يعبأ بما كان ولم يكن يشك ان الحكومة تسحقه عاجلاً او آجلاً فعاد الى خط الاستواء ناعم البال وكان مولعاً بدرس النبات والحيوان فعاد الى درسه وجمع رواميز النبات الى يوم ٢٨ مارس سنة ١٨٨٤ اذ جاءه كتاب من لبتن بك مدير بحر الغزال ينبئه بهلاك جيش هكس في شيكان وتسليم سلاطين في دارة وامتداد الثورة الى بحر الغزال .

كتاب كرم الله الى امين بك يدعوه الى التسليم : ثم فتح كرم الله بحر الغزال على ما علمت وبعث الى امين بك كتاباً يدعوه الى التسليم وصله في ٢٧ مايو سنة ١٨٨٤ . وكان امين بك اذ ذاك في موقف حرج لأن عساكره على قلتها وعدم تدريبها على القتال كانت موزعة على نحو ٤٠ نقطة في شرق البلاد وغربها ولم يكن عنده من القواد ما يعتمد عليه وقد اعوزته الاسلحة والذخائر والميرة لأن آخر وابور وصله من الخرطوم في ١٦ مارس فعاد منه في ١٤ ابريل سنة ١٨٨٣ . وفوق ذلك فقد كان الدناقلة منتشرين في كل أنحاء البلاد تجاراً ومتسببين بل كان بعضهم كتاباً وموظفين في المديرية وقد مدُّوا اعناقهم لسماع اخبار ابن وطنهم المهدي وكتب كرم الله الى كثير منهم يدعوهم الى الهجرة اليه . فأغلق امين بك اذ ذاك كتاب الطبيعة واخذ يقلب في كتب السياسة والادارة لعله يجد فيها باباً ينجيه من ذلك الحرج .

ارسال وفد الى كرم الله : فعقد مجلساً من ضباطه وموظفيه الملكيين وقرأ لهم كتاب كرم الله وسألهم رأيهم فيه فأجمعوا كلهم على التسليم وكتبوا بذلك كتاباً واختاروا وفداً يوصله الى كرم الله فجعلوا امين بك رئيساً له وعثمان حاج حامد قاضي المديرية وعثمان ارباب الباشكاتب وكلاهما من أقرباء المهدي وابراهيم اغا مأمور اللاتوكا اعضاء فقلق امين بك لاختيارهم اياه رئيساً للوفد فاعتذر بأن البلاد تصبح في غيابه فوضى واقترح ان يكون القاضي رئيساً للوفد واحب القاضي الرئاسة فبيّن للناس اوجه الصواب في بقاء امين بك فرضوا به وخرج الوفد من اللادو في ٣ يونيو سنة ١٨٨٤ وكان في جملة شروط التسليم ان تبقى البلاد على ما هي عليه الى ان تأتي الوابورات من المهدي في الخرطوم فيذهبون بها ويسلمون اليه وان جيوش كرم الله لا تدخل البلاد بأية صورة كانت . وقد اراد امين بك ان يطاول كرم الله الى ان يجمع شتات عسكره فما سار الوفد حتى أصدر اوامره الى النقط البعيدة بالتجمع على النيل وحشد جيشاً في امادي الواقعة على طريق كرم الله الى اللادو وخندق على اللادو واستعد للدفاع .

حصار امادي نوفمبر سنة ١٨٨٤ : واما كرم الله فانه لما اطلع على شروط التسليم أبى قبولها وصمم على ان يكون التسليم على يده فأرسل عبدالله عبد الصمد في مقدمة جيشه الى خط الاستواء فحاربه مرجان اغا قومندان طابية امادي في عدة وقائع وقتله فزحف كرم الله اذ ذاك بمعظم جيوشه على امادي فحصرها حتى نفد زادها وأكل اهلها الجلود فخرج ستة ضباط و٣٠٠ رجل منهم واخترقوا صفوف المحاصرين ونجوا الى ودلاي بطريق وندي عاصمة مكركة . ثم خرج مرجان اغا القومندان بباقي القوة بقصد اللحوق بهم فاعترضه كرم الله وقتله هو ومن معه وذلك في اواخر مارس سنة ١٨٨٥ م وكتب الى امين بك بلاغاً نهائياً ليحضر مسلماً في ٥ ابريل فاذا لم يحضر في الميعاد المذكور زحف عليه واخذ البلاد عنوة وكان قد كتب له من قبل واخبره بسقوط الخرطوم وقتل غوردون فلم يجبه بل جمع عساكره في نقط النيل بين الرجاف وودلاي وجعل الدفلاي مركز المديرية وجعل العساكر اورطتين الاولى في النقط الشمالية بين الدفلاي والرجاف والثانية في النقط الجنوبية بين الدفلاي ووداي واستعد للقتال. وفيما هو كذلك شاع ان كرمالله رجع بجيشه الى بحر الغزال . واختلف الرواة في سبب رجوعه فقال البعض ان المهدي دعاه الى ام درمان ليرسله في جيش مصر وقال البعض الآخر ان العبيد في بحر الغزال ثاروا على من خلّفهم وراءه في المركز فرجع لتمهيد الثورة وبقي الى ان مات المهدي واستدعاه الخليفة فلبى الدعوة كما مر .

مواصلة امين بك لمصر: ومهما يكن السبب في رجوعه فقد كان من سعد امين بك الذي اصبح همه بعد الآن مواصلة مصر . وقد جاءه في هذه الأثناء سائحان اوربيان وهما ينكر الالماني والكبتن كازاتي الايطالي فبقي الكبتن كازاتي معه لمساعدته على حمله وسافر ينكر الى مصر في يناير سنة ١٨٨٦ م وكان امين بك قد كتب الى الحكومة المصرية في ١ نوفمبر سنة ١٨٨٥ يسألها النجدة وارسل كتبه عن طريق زنجبار . ومن غريب الاتفاق ان الحكومة المصرية كتبت اليه بهذا التاريخ ايضاً وفي الطريق عينها فوصلته الكتب في ٢٦

فبراير سنة ١٨٨٦ وكان بينها كتاب بامضاء نوبار باشا رئيس مجلس النظار بتاريخ ٢ نوفمبر سنة ١٨٨٥ يقول له فيه : ان الحكومة قد أخلت السودان وليس في قدرتها ان تساعده بشيء ولكنها فوضته في اتخاذ أفضل الطرق لاخلاء البلاد .

على ان اخلاء البلاد لم يكن من السهل لأنه فضلاً عن بُعد طريق زنجبار وكثرة مشاقها ومخاطرها . فان العساكر واكثر الضباط كانوا من السود وقد تزوجوا من نساء البلاد واقتنوا من رقيقها . وفوق ذلك فان انشغال امين بك بدرس النبات والحيوان وعدم اهتمامه بالادارة العسكرية أنسى العساكر الطاعة العسكرية حتى لم يكونوا يسمعون له امراً إلا اذا وافق أميالهم . فلما قرأ لهم كتاب نوبار هاجوا وماجوا وقالوا اذا كان لا بد لنا من ترك البلاد فلا نعرف لنا طريقاً غير الخرطوم وقد أرادوا القبض عليه ولكن بعض ضباط الاورطة الثانية انحازوا اليه وحالوا دون ذلك .

حملة المستر ستنلي لانقاذ امين باشا سنة ٧ : ١٨٨٩ :

وفي يناير سنة ١٨٨٧ وصل السائح الالماني ينكر الى مصر ووصلت قبله كتب امين بك الى الحكومة المصرية فعلم العالم المتمدن بحاله في خط الاستواء فتألفت حملة في لندن لانقاذه وتبرع الرحالة الشهير المستر ستنلي فترأس الحملة وأتى بها الى مصر في اواخر يناير سنة ١٨٨٧ . فقابل الجناب العالي الخديوي فناوله فرماناً الى امين باشا بتاريخ ٨ جمادى الاول سنة ١٣٠٤ هـ ١ فبراير سنة ١٨٨٧ م هذا مفاده :

« حررنا لك قبلاً في٢٩ نوفمبر سنة ١٨٨٦ نمرة ٣١ مع ما حرّره عطوفة نوبار باشا رئيس مجلس نظارنا فشكرنا لك الهمة والبسالة اللتين أظهرتها انت والضباط والعساكر الذين معك في الدفاع عن بلاد خط الاستواء المصرية . لذلك قد رقيناك الى رتبة لواء باشا وصدّقنا جميع الترقيات التي توصي بها للضباط الذين تحت ادارتك . ولما كان غرضنا الاعظم انقاذك انت والضباط

والعساكر الذين معك من المركز الحرج الذي صرتم اليه . وقد ألّفت الآن حملة بقيادة السائح الخبير الطائر الصيت المستر ستنلي لانقاذكم من ذلك الحرج والمجيء بكم الى مصر في الطريق التي يختارها فقد أصدرنا امرنا العالي هذا وبعثنا به معه لاعلامكم بما كان . وعند وصوله أكلفكم بابلاغ الضباط والعساكر احسن رغائبي واعلموا انكم احرار في المجيء الى مصر او البقاء حيث أنتم مع الضباط والعساكر ولكن اعلموا ان من احب البقاء هناك من الضباط والعساكر فهو انما يفعل ذلك على مسؤوليته فلا ينتظر أية مساعدة من الحكومة . افهم ذلك جيداً وأفهمه للضباط والعساكر ليكونوا على بصيرة مما يفعلون .
الامضاء : (توفيق) .

وفي ٣ فبراير سنة ١٨٨٧ خرج ستنلي بحملته من مصر فسار بطريق البحر الاحمر الى زنجبار ودار حول رأس الرجاء الصالح حتى أتى نهر الكونغو في ١٨ مارس فأبحر فيه الى يمبوعة فوصلها في ١٦ يونيو فترك بعض الحملة فيها حرساً خلفياً وسار بنحو ٤٠٠ رجل فاخترق الغابة العظيمة المشهورة ونزل عند بحيرة البرت في ١٥ ديسمبر بعد معاناة شدائد جمة ووقائع دموية مع اهل الغابة . ولما لم يجد امين بك في البحيرة ولا رأى مركباً يوصله اليه انقلب راجعاً الى يمبوعة . فأتى بقارب كان قد تركه فيها وعاد الى البحيرة . هذا وكان القناصل في زنجبار قد بعثوا فأخبروا امين باشا ان ستنلي ذاهب لانقاذه بطريق الكونغو فوصل الخبر في مايو سنة ١٨٨٧ وارسل الرسل الى البحيرة للتفتيش عليه فلم يجدوه ولكنهم سمعوا بخبر الحروب التي كانت بينه وبين عبيد الغابة وكان هؤلاء العبيد من حلفاء كبريقة ملك يونيورو فحنق على امين ظاناً انه بعث في طلب ستنلي لفتح بلاده . وكان امين قد ارسل اليه الكبتن كازاتي لتسهيل مواصلة مصر فطرده كبريقة من داره فذهب به امين في الوابور « الخديوي » الى البحيرة للتفتيش عن ستنلي فلقيه في نسابي في ٢٩ ابريل سنة ١٨٨٨ . فسلمه ستنلي الفرمان العالي المار ذكره للعمل به وترك عنده المستر جفسن احد اعوانه لمساعدته في شؤونه . ثم رجع ثانية الى يمبوعة لجلب بقية

عسكره . فعاد امين باشا ومعه المستر جفسن الى العساكر وقرأ لهم الامر العالي مبتدئاً من نقطة ودلاي فكان جوابهم انهم يتبعونه حيثما ذهب حتى وصل نقطة كيري فأتاه كتاب من حامد أغا محمد قومندان الاورطة الاولى في الرجاف يحذره من التقدم شمالاً ويقول ان العساكر لا يريدون السفر الى مصر فاذا أتاهم قبضوا عليه وحبسوه فرجع على عقبه . هذا وكان في النقط الجنوبية ضباط من رجال الثورة العرابية فنفثوا روح الثورة في عساكر الاورطة الثانية بقولهم ان الفرمان الذي سمعتموه من امين مزور وان ستنلي ورفاقه ليسوا الا سياحاً وقد أتوا بهذه الحيلة ليأخذوكم من بلادكم ويسلموكم عبيداً للانكليز . فصدق العساكر قولهم وقاموا على امين وجفسن في اللابوره وكادوا يفتكون بهما وعند وصولهما الى الدفلاي في ١٨ اوغسطوس سنة ١٨٨٨ كان فضل المولى احد ضباط السود العظام قد حضر من نقطة فبُّو الشرقية فألقى القبض عليهما وحبسهما ثم عقد مجلساً من الضباط فعزل امين عن منصبه وسمى حامد أغا مديراً على خط الاستواء مكانه وسليم بك مطر قومنداناً للاورطة الثانية .

سرية عمر صالح الى خط الاستواء سنة ١٨٨٨ :

وانهم لكذلك اذ ورد خبر من الشمال في ١٥ اوكتوبر سنة ١٨٨٨ انه قد وصل اللادو سرية من الدراويش في ثلاثة وابورات وتسعة مراكب . وبعد يومين جاء الدفلاي ثلاثة من الدراويش ومعهم كتاب من عمر صالح امير السرية الى امين باشا يخبره بما جرى في السودان ويدعوه الى التسليم .

وتحرير الخبر ان الخليفة لم يبرح من باله ان بلاد خط الاستواء كانت لا تزال بيد امين وقد زين له أصحابه فتحها لكثرة ما فيها من سن الفيل والعبيد الصالحين للانتظام في الجيش . وكان قد نوى فتحها بعد فتح سنار ولكن شغلته حوادث ام درمان والحدود المصرية وكردوفان ودارفور والقلابات المار ذكرها فلما انتهى منها او كاد جهز سرية مؤلفة من ١٥٠٠ من اخلاط الجعليين

وعربان النيل ومعهم ٧٠٠ بندقية من رمنتون وغيره وعقد لواءها لعمر صالح وهو جعلي مترب في شكا ومتزوج من الرزيقات واصحبه ثلاثـــة وابورات وتسعة مراكب والكاتب عثمان ارباب المـار ذكره . وأوعز الى سلاطين باشا وجورج استمبولي وبولس صليب فكتب كل منهم الى امين باشا كتاباً اجمل فيه نصرات المهدي ونصحه بالتسليم وهذه هي صورة كتاب سلاطين :

« وبعـد فمن عبد ربه عبـد القادر سلاطين الى حضرة المكرم محمد امين مدير خط الاستواء وفقه الله الى الصواب. بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته نعلمك ان العـارف لا يعرّف وانك ذو عقل ودراية وتعلم ان ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . وقد أراد الله تعالى ظهور المهدي المنتظر «عم» وانتشار امره في جميع الأقطار . وبلغك ما حصل له من النصر على جيوش الحكومة في جزيرة أبا وجبل قدير . ثم زحف على كردوفان فافتتحها وأهلك من فيها من العساكر . وأرسلت عليه الحكومة جردة برئاسة علي بك فقتلهـــا . ثم أرسلت عليه الجيش المصري بقيادة هكس باشا الى كردوفان فأهلكه « عم » في ربع ساعة بجميع من معه من ضباط مصريين واوروباويين وفيهم علاء الدين. ثم بعـد قتل المذكورين حرر الينـا مكاتبات ونحن اذ ذاك بجهة الغرب بدارة فحررنا اليه ردها بالاذعان والتسليم ثم حضر الجيش المعين لجهتنا فلما تراءى لنا وجه الحق خرجنا اليهم من الاستحكام الذي عملنـــاه في دارة وسلمنا الأمر للمهدية وجميع ما معنا من أشياء الميري سلمناه لهم وأعطيت لنا جميع املاكنا من خيل ورقيق ومصوغات وغيرها. ثم توجهنا معهم الى مديرية الفاشر وكان فيها السيد جمعة فسلمناهم جميع ما فيها من أشياء الحكومة . وكذلـك سلمنا مديريات كلكل وكبكبية وام شنقة . ثم توجهنا لمقابلة المهدي «عم» وخليفته عليه الرضوان فقابلناهما وأخذنا البيعة وحصل لنا من الاكرام والاحترام ما سرنا وشرح صدرنا . وتوجهنا مع جيش المهدية الى الخرطوم وحين وصولنـا حررنا كتاباً الى الغوردون وعرفناه بما شاهدناه في جيش المهدية وأعلمناه بمـا حصل لنـــا من الاكرام وطلبنا منه ان يفعل مثل ما فعلنا فأبى ومكر .

وحرّر اليه المهدي « عم » انذاراً وأمّنه على نفسه فأعرض عنه فأمر المهدي « عم » وخليفته عليه الرضوان الجيش باقتحام خندق الخرطوم وكان فيه من العساكر ما ينيف على الف مقاتل من جهـــادية وملكية وغيرهم وفي ساعة واحدة قتل الغوردون وجميع الضباط والعساكر والتجار وما نجـا منهم إلا طويل الاجل وصارت الحكدارية في حوزة المهدية بجميع ما فيها من الاسلحة المتنوعة والجباخين والمدافع والصواريخ والخزائن . ثم ارسل جيش لفتح سنار وآخر لفتح كسلا ففتحتا . وفي أثناء اقامة المهدي « عم » وخليفته بجهـــة كردوفان والبحر ارسلت الحكومة ما ينيف على خمس وعشرين جردة بطريق سواكن فخذلت جميعها على يد جيش المهدية المقيم بتلك النواحي وقتل جميع ضباطها من باشوات وغيرهم كباكر باشا واستورت واستوزت الثـاني وغيرهم وخربت جميع مراكز الحكومة مثل بربر وفاشودة وفازوغلي ودنقلة والقلابات. ثم بعـــد هلاك الجردات المصرية أرسلت الحكومة الانكليزية عدّة جردات بطريق دنقلة وسواكن فقتلت ايضاً وما رجع منها الى القطر المصري إلا النذر اليسير . وفي شهر جمادى الاولى من هـذه السنة وجّه جيش وافٍ يضاهي ١٢٠ الفاً من طرف سيدنا خليفة المهدي « عم » لغزو الحبشة فدخلها وأهلك من جيوشها عدداً وافراً وغنم جميع ما معهم من الاسلحة والمدافع والخيول والبغال وكان جيش الحبشة تحت رئاسة النقس راس عدار واحضرت نساؤهم واولادهم حتى اولاد راس عدار ذاته وقد أحرقت مدينة غندر وهدم ما فيها من الكنائس والقصور . والآن حضر ابن النقس تادرس طالباً الأمان فأعطيه وهو الآن في البقعـــة بمعية سيدنا خليفة المهدي « عم » وصار الحبشة يأتون افواجاً للمهدية مسلمين ومسلّمين . ولما صار جميع جهـات السودان من دار برقو والى وادي حلفا في قبضة المهدية أرسلت الجيوش الكافية لفتح الجهـات البحرية وقـد وصل اوائل الجيش بقرب كورسكو وهجم على النقط التي في جوار المركز المذكور وقتل من فيه من العساكر وضبط رؤساء النقط المذكورة واحضروا الآن الى خليفة المهدي « عم » وهـــذا الجيش الذي وصل بقرب

كورسكو هو المعين بطريق المرات وأما الجيش المعين بطريق دنقلة فهو الآن في حلفا . وبما ان المهدية لا قصد لها إلا هداية العباد قد حرر سيدنا خليفة المهدي « عم » انذارات الى السلطان عبد الحميد وتوفيق والي مصر وفكتوريا ملكة الانكليز فان أذعنوا وسلموا فقد حازوا السلامة وان أعرضوا فلا بد من هلاكهم اسوة من تقدمهم من رؤساء الحكومة . ولما توجهت انظار سيدنا خليفة المهدي « عم » لخلاصكم مما أنتم فيه وانضمامكم الى جيش المهدية استأذناه في مخاطبتكم لسابق مودتنا معكم فأذن لنا « رضه » وحررنا اليكم هذا لتعلموا حال الحكومة وانشغالها بنفسها عنكم فعليكم قبول اوامر خليفة المهدي «عم» وإياكم والاعراض عنها فانه ما اعرض عن أوامره أحد إلا ذاق شديد النكال لأن أمر المهدية هذا من الله ورسوله فلا يستطيع أحد من المخلوقين ان يقاومه كما شاهدنا ذلك بأعيننا ونحمد الله تعالى ونشكره على ما أولانا من الاسلام والتسليم والاندراج في سلك المهدية وأخرجنا من الظلمات الى النور . فان أردتم السلامة فافعلوا كما فعلنا ولا تظنوا انكم تقاومون المهدية التي أمرها دولة مصر والانكليز فضلاً عمن كان مثلكم منقطعاً في بلاد العبيد وما كتبنا هذا اليكم إلا حباً بسلامتكم فان سمعتم نصحنا وسلمتم للمهدية فقد حصل المقصود وسنجتمع ان شاء الله تعالى ونصير يداً واحدة في خدمة المهدية فتشكرون صنيعنا وتعلمون محبتنا لكم وان أعرضتم فأنتم الجانون على أنفسكم. وبلغوا سلامنا الى جميع من معكم من الضباط والعساكر وها نحن منتظرون رد الجواب لنعلم ما أنتم عليه ليطمئن قلبنا من جهتكم . ثم نعلمكم ان عبد الله لبتن قد توفي الى رحمة مولاه (هذه السنة) بالحمى . وطيه صورة ما تحرر من خليفة المهدي « عم » الى السلطان وتوفيق والانكليز للاطلاع عليها سنة ١٣٠٥ هـ » اه .

فحمل عمر صالح هذه الكتب وخرج بالجيش والوابورات من ام درمان في ١١ يونيو سنة ١٨٨٨ فوصل اللادو في ١١ اوكتوبر فوجدها خالية من العساكر ولكنه وجد فيها كثيراً من سن الفيل فأرسله الى ام درمان . وسأل عن امين

باشا فعلم انه في الدفلاي وان اول جيشه في الرجاف فأرسل اليه ثلاثة رسل بكتاب يدعوه الى التسليم كما مرّ ويخبره بكتاب سلاطين له فقتل العصاة الرسل وصمموا على الحرب .

واقعة الرجاف الاولى: وكان عمر صالح بعد ان أرسل الرسل ترك حامية صغيرة في اللادو مع الوابورات وتقدم بمعظم جيشه الى الرجاف فخرج اليه حامد آغا في قلعتين فهزمه ودخل الرجاف فاستحوذ على النساء والاولاد وغنم مدفعين و ١٨ صندوق من الجبخانة وكثيراً من الاسلحة والأمتعة والحبوب والرقيق والمواشي .

واقعة الرجاف الثانية في ١٢ نوفمبر سنة ١٨٨٨ : ثم جمع حامد آغا شتات جيشه وعاد به لاسترجاع الرجاف فخرج اليه عمر صالح الاثنين في ١٢ نوفمبر سنة ١٨٨٨ فقتله وقتل نفراً من عسكره وضباطه وفيهم علي جبور وبخيت من الضباط السودانيين وسالم خلاف وعبد الوهاب طلعت من الضباط المصريين وحسن لطفي الكاتب . وكانت خسارة عمر في الواقعة الاولى ١٠٦ قتلى وفي الثانية ٧ قتلى و ٣ جرحى .

خروج امين وجفسن من السجن : هذا ولما بلغ النقط الجنوبية خبر هاتين الواقعتين اضطربوا وارتاعوا وأخذوا يستعدون للدفاع فاغتنم انصار امين من الموظفين الملكيين وغيرهم فتوسطوا له عند العصاة فخرج هو وجفسن من السجن واخذ النساء والاولاد والموظفين الملكية وفيهم عثمان بك لطيف وكيل المديرية وسار جنوباً الى ودلاي .

حصار الدفلاي : وتقدم عمر صالح لفتح الدفلاي وكان قد اجتمع في طابيتها بقية الاورطة ومعظم الاورطة الثانية بقيادة سليم بك مطر فأقام على حصرها مدة ثم رجع مخذولاً الى الرجاف بعد ان قتل نحو ١٤ ضابطاً من ضباطها وهاك ما كتبه الى الخليفة في ١٣ ربيع آخر سنة ١٣٠٦ هـ ١٧ ديسمبر سنة ١٨٨٨ م بهذا الشأن :

« وبعد فمن عبد ربه عمر صالح الى القائم بأمر الله خليفة المهدي « عم » الخليفة عبد الله بن محمد ... بعـد الفراغ من محاربة حامد محمد مأمور ادارة خط الإستواء فجميع الكفرة في محطات الشلال وكيري ومقي واللابورة توجهوا الى الدفلاي مركز المديرية وتركوا المحطات قاعاً صفصفاً . ولعلمنـا ان أميناً معهم بالمركز المذكور وهو الغرض المطلوب خرجنا بنفسنا ومعنا غالب الجيش تاركين باقيه لمحافظة ديم الرجاف والوابورات والعائلات والمريض من الاخوان وجددنا السير ثمانية ايام حتى وصلنا الدفلاي فوجدنا اميناً قد توجه الى محطة ودلاي ومعـه البعض من النصارى واولاد الريف المائلين اليه وأما العساكر والضباط من السودان واولاد الريف فقـد اقاموا في قيقرة الدفلاي فكاتبناهم ثلاث مرات وأخبرناهم بما معنا من المكاتبات الشريفة الصادرة اليهم من السيادة وعرضنا عليهم ان نرسلها اليهم فـلم يفيدونا بسوى قولهم « انتم خُطَّرية » فحاصرناهم ليلا ونهاراً قريباً منهم جداً حتى كنا منهم بمرأى ومسمع . وبعد ثلاثة ايام خرجوا قلعة فحمل عليهم الانصار حملة رجل واحـد فولوا هاربين ودخلوا قيقرهم . فلما كان اليوم الرابع من الحصار أي يوم الاربعاء في ٢٤ ربيع الاول سنة ١٣٠٦ أجمع الاخوان على مهاجمتهم في القيقرة فحمل عليهم تسع رايات ... وبعض الجهادية ليلا قبـل طلوع الفجر وحصروا القيقرة من الجنوب وحصرها باقي الرايات من الجهة الغربية وعندما وصلوا الصبح حملوا على القيقرة حملة رجل واحد فوجد بعض الاخوان الذين هاجموا من الجنوب سبيلا الى الدخول بعد مخاطرة جسيمة وتعذر ذلك على باقي الجيش لأن القيقرة كانت محصنة بخندق عظيم ولها ابواب محكمة فاجتمع الاصحاب على البـاب الجنوبي يضربونه بالفؤوس والسيوف فما أراد الله فتحه لشدة متانته ولا أراد الأنصار الرجوع فتمكن أعـداء الله منهم وصاروا يرمونهم بالرصاص حتى استشهدوا جميعاً هم ورؤوس الرايات الثمانية وكان الواحد منهم يقول لصاحبه تقدم على الكفرة فأنا شهيد فيجيبه صاحبه وانا ايضاً شهيد ولما لم يجدوا للدخول سبيلا وخشية من ان يراهم الله مدبرين من أعداء الله كان يقبض الواحـد منهم على

يديه كاقباض المصلي ويطرق استحياء من ان يراه الله مدبراً عنه حتى استشهدوا جميعاً بهذه الحالة. وأما راية أدم جاد الرب التاسعة فقد نجاها الله بصاحبها. وأما الذين دخلوا القيقرة من الاصحاب فانهم مع قلة عددهم اختلطوا بالعساكر داخل القيقر وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ودخـــل بعضهم الوابور فقتلوا قبطانه وجميع من فيه حتى ضرب الأعــداء بوريهم وتجمعوا على الاصحاب من كل جانب فاستشهد منهم من استشهد وسلم من أراد الله سلامته . ويوم الجمعـة أي بعد الواقعة بيومين خرجوا قلعـة فما حمل الانصار عليهم حتى رجعوا الى قيقرهم . وفرغت الجبخانة منا في زمن الحصار والوقعات الثلاث فلم يبقَ منها إلا جانب يسير ومع ذلك ما زلنا مصممين على محاصرتهم حتى أتانا خبر بأن الترك الذين بمكركة متحركون على ديم الرجاف وقـد أرسلوا لهم طلائع من العبيد فاستصوبنا الرجوع لوقاية الديم فوجـــدناه بحمد الله سليماً والطلائع موضوعة في الحديد ونحن الآن مقيمون بديم الرجاف على أحسن حـــال ... والسلام » اه .

هــذا وكان عمر صالح قد علم بمجيء ستنلي لانقاذ امين وحبس العساكر لأمين وجفسن في الدفلاي ورفضهم الذهـــاب الى مصر فكتب في ذلك الى الخليفة وكان قد ارسل اليه تفاصيل واقعتي الرجاف وبعض الغنـائم فلخص الخليفة هذه الكتب وأرسلها الى محافظ سواكن اشهاراً للنصر فقلقت الافكار في مصر بشأن ستنلي وأمين مدة .

وفي ٤ ديسمبر شاع في ودلاي ان الدفلاي سقطت في ايـدي الدراويش فخرج امين باشا بمن معـه من الملكية والاتباع وفيهم كازاتي وجفسن وسار جنوباً الى تنقرو فأقام فيها ينتظر ستنلي . وفي ١٨ يناير سنة ١٨٨٩ عـــاد ستنلي بحملته فعسكر في كفالي غربي البحيرة وبعث في طلب امين وقومـــه فشق على امين رجوعـه الى مصر بدون عسكره فكتب الى سليم بـك مطر وهو أرشد ضباطه وأعقلهم ملحاً عليه بالمجيء مع سائر الضباط لمقابلة ستنلي وكان الضباط قد سمعوا ان ستنلي عاد في المرة الثالثة بقوة عظيمة فخافوا اذا

لم يصدعوا بالأمر ان يزحف ستنلي عليهم من الجنوب والدراويش من الشمال فيصبحوا بين نارين فجاء سليم بك ومعه ١٤ ضابطاً في وابوري الخديوي ونيانزة الى امين باشا في تنقرو فاعتذروا له عما فرط منهم فسامحهم وذهب بهم الى ستنلي فعقد معهم مجلساً أقروا فيه على السفر من كفالي بطريق زنجبار في ١٠ ابريل سنة ١٨٨٩ ومن تأخر عن الميعاد تركوه . ورجع الضباط على أن يعودوا بالعساكر في الميعاد او قبله ولكنهم لما رأوا ستنلي آتياً بنفر قليل ورأوا الدراويش قد استكنوا في الرجاف اعتصب اكثرهم برئاسة فضل المولى وعادوا الى رأي البقاء حيث هم . على ان سليم بك مطر كتب الى امين باشا بأنهم لا يزالون مصممين على السفر وسأله انتظارهم فطلب امين تأجيل السفر ٣ اشهر فرفض ستنلي ذلك بتاتاً وبلغه ان بعض المهاجرين في المعسكر قد رغب عن السفر فصفهم صفاً واحداً وقال من اراد البقاء هنا فليخرج من الصف فبرز له واحد فأمر بسجنه في الحال وأقر الباقون على السفر وكان عددهم ٦٠٠ نفس وعدد نفوس الحملة كلها ١٥٠٠ . فلما جاء الميعاد المضروب للسفر خرج ستنلي بأمين والحملة من كفالي وسار في طريق زنجبار فأصابته حمى في مازمبوني فتأخر فيها الى ٨ مايو وما خرج منها حتى وصله رسول من سليم بك مطر يخبره بأنه آت على أثره ومعه ٨٠٠ رجل ما عدا النساء والأولاد ويسأله انتظاره قليلاً فبعث اليه في الجواب : « ان اسرع في السير فتدركني لأني اسير على مهل واما ان انتظرك ولو دقيقة فلا » . وبقي دائباً في السير حتى وصل زنجبار في ٦ ديسمبر سنة ١٨٨٩ وذهب منها الى مصر فبلاد الانكليز فكتب تاريخ رحلته هذه في مجلدين .

وفاة سليم بك مطر : وأما سليم بك فانه وصل بجماعته الى كفالي فحل فيها الى ان أتاه الكبتن لوجارد من رجال الشركة الانكليزية في شرقي افريقيا فأخذه الى اوغنده فجند من رجاله من اراد التجنيد في خدمته وأرسل الباقي الى مصر ثلة بعد ثلة فوصل اولهم في ٩ يونيو سنة ١٨٩٢ وآخرهم في مارس

سنة ١٩٠٣ . وأما سليم بك فقد وافته المنية في اوغنده وهو على أهبة السفر الى مصر .

وفاة امين باشا : أما امين باشا فانه لم يذهب مع ستنلي الى مصر بل بقي في زنجبار فدخل في خدمة الالمان وعاد الى خط الاستواء فمرّ بكفالي في ابريل سنة ١٨٩١ قبل سفر سليم بك منها فأحب ان يجند عسكره في خدمته فأبوا لعلمهم انه ترك الحكومة المصرية فسار في مهمته الى الكونغو فاعترضه بعض العبيد في الطريق وقتلوه :

ومن كانت منيته بأرضٍ فليس يموت في أرضٍ سواها

وبقي في خط الاستواء خصمان عنيدان عمر صالح في الرجاف وفضل المولى في الدفلاي ثم انتقل هذا الى ودلاي ودخل خدمة البلجيك فبقي حتى قتله الدراويش كما سيجيء .

هذا وقد اصبح التعايشي بعد فتح خط الاستواء سيد السودان المصري كله من حلفا الى الرجاف شمالاً وجنوباً ومن سواكن الى وداي شرقاً وغرباً وكان قد اقمع جميع مقاوميه في السودان فبلغ الآن اعالي مجده ثم اخذ نجم سعده في الأفول الى ان دالت دولته وانقضى امره. وكان بدء سقوطه انخذاله في غزوة مصر كما سيجيء .

الفصل التاسع

في

وقائع الحدود ودنقلة وفيها غزوة النجومي لمصر

سنة ٦ – ١٨٨٩ م

وقائع الحدود سنة ٦ – ١٨٨٩ :

تخريب سكة الحديد بين حلفا وعكاشة سنة ٥ – ١٨٨٦ : تقدم لنا ذكر اخبار الحدود الى ان خرج الانكليز منها سنة ٦ – ١٨٨٧ وتركوها لحماية الجيش المصري بقيادة سرداره الهمام غرنفيل باشا . وكان على دنقلة اذ ذاك عبد الرحمن النجومي يستعد لغزوة مصر . وقد أرسل مقدمة جيشه بقيادة النور الكنزي الى الحدود فوصل سرس في ٩ نوفمبر سنة ١٨٨٦ . وكان محمدالخير قد خرّب سكة الحديد بين عكاشة وسرس سنة ١٨٨٥ فخربها النور الكنزي بين سرس وعبكه في أواسط نوفمبر سنة ١٨٨٦ واحتل عبكة . وكان آخر نقطة للجيش في خور موسى باشا فأخذ النور الكنزي بعض رجاله واقتلع بعض قضبان سكة الحديد بين خور موسى وحلفا . وكان قومندان الحدود اذ ذاك الجنرال مونتمورنسي فساق الجنود وقصده الى عبكه ففر امامه الى جنوبي سرس ثم عاد الى سرس وديّم فيها .

واقعة سرس في ٢٨ ابريل سنة ١٨٨٧ : فبلغ خبر عودته تشرمسيد باشا قومندان حلفا في ظهر ٢٧ ابريل سنة ١٨٨٧ فجهز سرية من العساكر الطوبجية والسواري والمشاة والباشبوزق الشايقية وسار بهم ليلاً الى سرس قصد مباغته الهجوم . وما طلع فجر ٢٨ ابريل حتى كانت العساكر قد أحدقت بالبلدة من الجهات الثلاث ومن الجهة الغربية النيل . وكان النور الكنزي قد عسكر في سفح تلة هناك وجعل رجاله المسلحين بالأسلحة النارية في برج على التلة بناه الجيش قديماً فأمر تشرمسيد الطوبجية فصوبوا القنابل نحو البرج فهدموه ثم أمر الباشبوزق الشايقية وكانوا نحو ٧٠ رجلاً فتسلقوا التلة وقتلوا من كان في البرج . وفي اثناء ذلك هاجم النور الكنزي فأوقع الفشل في ديمه وقتله هو ورجاله وكانوا يزيدون عن ٢٠٠ رجل فلم يفلت منهم احد. وأما خسارة تشرمسيد باشا فكانت ٢١ قتيلاً و ٣٠ جريحاً .

مجيء عبد الحليم مساعد الى الحدود سنة ١٨٨٧ : ولما بلغ النجومي خبر هذه الكسرة أرسل الى الحدود جيشاً قوياً بقيادة عبد الحليم مساعد فبنى ديماً في فركة وأرسل مقدمة جيشه فاحتلت سرس في ١٨ يونيو ثم لحقها بجميع الجيش في١٨ ديسمبر سنة ١٨٨٧ فاجتمع عنده هناك ٢٨٠٠ مقاتل فيهم ٢٠٠ فارس و ١٠٠ هجان .

غزوة دراويش ابي حمد للكلابشة في ٢٥ فبراير سنة ١٨٨٨ : هذا وكان الخليفة قد جعل حامية في بوغاز أبي حمد لرصد حركات الجيش في كورسكو وعهد بها الى الحسن محمد خليفة فبلغه ان في شرقي الكلابشة نقطة للبوليس المصري عليها الملازم محمد فنّي فركب بجماعة من انصاره وهجم على النقطة في ٢٥ فبراير سنة ١٨٨٨ فقتل بعض البوليس واختطف الملازم وعاد به الى أبي احمد ثم ارسله الى أم درمان فسر به التعايشي سروراً عظيماً وخرج به الى ساحة « العرضة » فاستعرض جيوشه امامه ثم أرسله الى القلابات ليرى جيوش أبي عنجة وأعاده الى أم درمان . وجعل السردار سنة ١٨٨٩ نقطة من العبابدة المليكاب في آبار المرات برئاسة صالح بك خليفة لتكون في صدد

بوغاز أبي حمـد كما سيجيء فسعى قلم المخابرات مع صالح بك فأنقذ الملازم محمـد فنّي من قلب أم درمان وأتى به مصر بطريق المرات في ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٩٢ .

غزوة دراويش سرس لارمنة في ٥ ابريل سنة ١٨٨٨ : ولنرجع الى الدراويش في سرس فان الزاد الذي أتوا بـه من دنقلة نفد ولم يكن في بلاد سرس إلا الحجارة وبعض اشجار النخيل فقطعوا تلك الاشجار وأكلوا جوفها وبعثوا في طلب الزاد من دنقلة فأبطأ عليهم . وفي ٢٢ مارس أتاهم مـدد مؤلف من ٥٠٠ مقاتل بلا زاد . وكان امر الخليفة لهم ان يبقوا محافظين على الرباط فلا يباشرون حركة عدائية حتى يصلهم النجومي بجيشه فلما جاءوا عصوا الأمر وأصبحوا كالذئاب الخاطفة يشنون الغارة على بلاد الحدود فيقتلون وينهبون ويعودون الى ديمهم في سرس . ففي ٥ ابريل سنة ١٨٨٨ غزا جماعة منهم ارمنة على ٥٠ ميلاً شمالي حلفا فانتهبوا ماشيتها وقتلوا ٣ من أهلها وعادوا الى سرس .

غزوة التوفيقية في ١٩ يوليو سنة ١٨٨٨ : وفي ١٩ يوليو سنة ١٨٨٨ م هجمت سرية منهم على التوفيقية وهي مدينـة استحكام حلفا فانتهبتها وقتلت من أهلها وعادت الى سرس غانمة . وقد ذعر اهل التوفيقية ذعراً شديداً عند رؤية الدراويش فرموا بأنفسهم الى النيل وكان عند شاطئه ٢٠ مركباً فنزلوا فيها وعبروا الى جزيرة تجاه البلدة فغرق ثلاثة مراكب فيها ١٣٧ نفساً . ولما وصل خبر الدراويش الى حامية حلفا حتى كانوا قـد أبعدوا جنوباً فركب بعض السواري والهجانة في اثرهم فلم يدركوهم .

مهاجمة طابية خور موسى في ٢٩ اوغسطوس سنة ١٨٨٩ : وهذا النصر الذي ناله الدراويش عنـد انف الاستحكام جرأهم على مهاجمة الاستحكام نفسه ففي ٢٩ اوغسطوس سنة ١٨٨٨ خرج ٥٠٠ رجل منهم بقيادة عبـد الحفيظ وهجموا على طابية خور موسى قصد اخذها فقتلوا الخفير على الباب فاستيقظ وكيل الخفراء وفتح البـاب مذعوراً ليعلم ما الخبر فقتلوه هو ومن معه من

الخفراء ودخلوا الطابية نصف الليل . وكان فيها بلوكان من الاورطة السابعة المصرية وبلوك من الهجـانة عليهم البكباشي عبد الغني فؤاد قومنداناً فبعث عبد الغني رسالة تليفونية الى ود هوس باشا قومندان العساكر في حلفا فأرسل في الحال وابوراً حربياً في النيل ونفراً من العساكر في سكة الحديد بقيـادة ماتشل بك . وكان الدراويش قد احتلوا الجهة الجنوبية من الطابية وتجمع لهم العساكر مع القومندان في الجهة الشمالية فأخذ الوابور يرمي قنابله على الجهة التي فيها الدراويش الى ان وصل ماتشل بك فأحاط جهتهم بمعظم العساكر وأتى بالباقين الى باب الطابية ففتح عليهم ناراً دائمة فذعروا وتسلقوا الجدران قصد الفرار فتلقـاهم العساكر الذين كانوا متربصين لهم خارج الطابية ودخل ماتشل الطابية فنقاها منهم . وكانت خسارتهم في تلك الليلة ٨٥ قتيلا وكثير من الجرحى . وأما خسارة الجيش فكانت ١٩ قتيلاً و ٢٤ جريحاً .

غزوة صحابة وارجين في ١٥ ابريل سنة ١٨٨٩ : وبقي الدراويش في سرس مدة بعد هذه الكسرة لا يحركون ساكناً حتى عـاد النجومي من ام درمان على نية غزو مصر فجددوا الهمـة وكان لهم نقطة امامية في عبكة ونقطة تجاهها في معتوقة فلما كان يوم ١٥ ابريل خرج جماعة عبكة على صحابة على ٦ اميال من حلفا وجماعة معتوقة على ارجين تجاه صحابة فانتهبوا ماشية البلدتين وعادوا قبل ان تدركهم العساكر :

غزوة دبيرة في ٢٩ ابريل سنة ١٨٨٩ : وفي ٢٩ من الشهر المذكور خرج جماعة منهم ليلا قاصدين دبيرة على نحو ١١ ميلا شمالي حلفا وكان الجيش قـد أخرج الوابورات في النيل لحماية البلاد شرقاً وغرباً بين حلفا وكورسكو فعلم بهم البكباشي دنن قومندان احد الوابورات فأسرع لنجدة البلدة ولكن الدراويش كانوا قـد دخلوها قبل وصوله فاختطفوا ما استطاعوا من الماشية والامتعة وساقوا بعض الاهالي أسرى وانقلبوا راجعين فأسرع البكباشي دنن الى حلفا وأخبر ود هوس باشا بما كان فأصدر امره في الحال الى هكمن بك فخرج بمئـة فارس وكمن لهم في طريقهم الى سرس على ٣ اميال من حلفا . وفي فجر ٣٠

ابريل أطل الغزاة وكانوا نحو ٥٠ رجلاً وقد ركب بعضهم الابل وبعضهم الخيل والباقون مشاة وهم يسوقون أمامهم الماشية والأسرى فأغار عليهم هكمن ورجاله حتى صاروا على ٣٠٠ يرد منهم فنزلوا عن خيولهم وأصلوهم ناراً حامية ثم ركبوا خيولهم واقتحموهم ودخلوا بينهم وأعملوا فيهم السيف وقد صالوا عليهم حتى كانوا يلتقطون حرابهم من الارض ويطعنونهم بها . وهجم اميرهم ود رحمة على باشجاويش من السواري يدعى حسن محمد الفقي (الآن يوزباشي) فطعنه بحربة في جنبه فأخرج حسن الحربة من جنبه وأنشبها في صدر ضاربه فصرعه وبلغ ود هوس خبره فأوصى به فرقي الى رتبة ضابط . وقد أظهر الفرسان المصريون في هذه الوقعة خبرة تامة في استعمال الحراب فأدخل السردار المزراق في سلاح السواري من ذلك العهد فجعل نصفهم بالسيوف والنصف الآخر بالمزاريق . ولم يفلت من الدراويش في هذه الوقعة إلا طويل الاجل وقد أسر العساكر منهم ثمانية رجال وأنقذوا أسرى دبيرة وعادوا الى حلفا مكللين بالظفر .

غزوة سرّا الغرب في ٩ مايو سنة ١٨٨٩: ومع ذلك لم يكف الدراويش عن التعدي والغزو ففي ٩ مايو سنة ١٨٨٩ خرج عبد الحفيظ ثمّت بنحو ٦٠٠ رجل وهجم سرّا الغرب فقتل وأسر وغنم ولكن علم به ود هوس فأنجد البلدة وأنقذ الأسرى .

وقائع دنقلة سنة ٧ - ١٨٨٩ :

وقوع النزاع بين النجومي وقيدوم : تقدم ان التعايشي ارسل مساعد قيدوم من اهله ليكون وكيلاً للنجومي في الظاهر ورقيباً عليه في الباطن فنازعه السلطة ولم يسمح له ان يقطع أمراً إلا بمشورته فعظم ذلك على أعز أبكار المهدي وفاتح الدائر والخرطوم وقائد السرية المصرية فاستأذن الخليفة وخرج من دنقلة الخميس في ٢٢ مارس سنة ١٨٨٨ فأتى أم درمان وبسط شكواه من قيدوم فتصامّ الخليفة عن سماعها وحبس النجومي عنده مدة قصد تذليله وتعويده على الرضى بالحال التي يرضاها له .

حكى لي من أثق بصدقه : ان الخليفة التفت الى النجومي في بعض جلساته في الجامع وقال انت يا ولد النجومي « ماك هيّن لكن هويّن » أي اسمك كبير ولكن فعلك صغير وكرر ذلك مراراً ثم التفت الى الهادي دفع الله من كبار الحلاويين وقضاة الفتح الاول وقال : « يا الهادي اذا كان الرئيس هوين ولكن مو هين اما يضر الجيش » فقال الهادي : في المثل السائر يا مولاي « ان الف ثعلب يقودهم اسد خير من الف اسد يقودهم ثعلب » . فضحك الخليفة حتى استلقى على قفاه وقرّب الهادي فجعله قاضياً من قضاته فاغتاظ النجومي من ابتذاله امام الجمهور وقال لأصحابه : لا خير في العيش بعد هذا فاذا لقيت العدو رميت بنفسي في نحره ومت موت الشهداء . ثم اذن له الخليفة فرجع الى دنقلة فوصلها الاثنين في ١٠ سبتمبر سنة ١٨٨٨ ورجع الى النزاع مع قيدوم فكتب قيدوم يشكوه الى الخليفة بما نصه :

« ... وبالتفحص في حاله وجدنا ان المذاكرات التي سمعها من جنابكم شفاهياً ما أثرت فيه ولا هو راض بما في الأوامر الرسمية المحررة اليه بل ازداد من جهتنا بغضاً ولا زال منطوياً على غير المطلوب وعلى قدر ما سعينا في الطريقة التي تحبب اليه الجيش فهو لا يزال صاداً عنها ونيته بخلاف نيتنا فان كانت السيادة مؤملة فيه نصرة الدين والقيام بأحوال الجيش فلا نرى لذلك سبيلاً لعدم عمله بشروط النصرة وواجباتها وعدم صفاء نيته . وقد تداولنا معه قريباً في مصالح الدين فقلنا له في عرض الكلام أنت رئيس الجيش فاعرض عن هذه الكلمة وقال ان رئاستي ليست برئاسة بل هي عملية وهو لا يزال متضجراً ويتلفظ برغبته في الرجوع ... وهذه الحالة لا تحصل بها راحة ولا يمكننا السكوت عليها فلزم رفعها لجنابكم للمعلومية سنة ١٣٠٦ » .

تسمية يونس الدكيم عاملاً على دنقلة : فأرسل الخليفة ثلاثة أمناء وهم ابرهيم الحاج ومكي ابو حراز والهادي دفع الله فنظروا في الخلاف بين النجومي وقيدوم ورفعوا تقريرهم اليه فاستدعى قيدوم الى أم درمان وأرسل يونس الدكيم المارّ ذكره عاملاً على دنقلة وأمر النجومي بطاعته .

غزوة النجومي لمصر سنة ١٨٨٩ :

وكان التعايشي قــد استراح من المشاغل الداخلية واستتب له الأمر على حدود الحبشة ودارفور وخط الاستواء فباشر الآن ما طالما جاهر به من غزو مصر بدهاء عجيب فانه أمر النجومي فسلم جميع الجهادية والأسلحة والذخائر الى يونس الدكيم ولم يبق مع النجومي إلا الجيوش والأمراء الذين لا يـأمن جانبهم او لا يهمه عاشوا او ماتوا وبقي يونس في دنقـلة بجيش قوي بحجة المحافظة على دنقلة ونجدة النجومي عند الاقتضاء متوقعاً للنتيجة حتى اذا فاز النجومي لحقه وانتفع بنصره وإلا بقي بالجيش المصفى في دنقلة .

وكان الخليفة قد كتب الى مشايخ العبابدة وبعض اهـالي الصعيد للخروج عن طاعة الترك والقيام معه للجهاد تمهيداً لجيوشه الزاحفة لغزو مصر . وممـا كتبه بتـاريخ ٢٥ محرم سنة ١٣٠٦ هـ ١ اوكتوبر سنة ١٨٨٨ م الى بشير مصطفى ابي جبران :

« ... وبعلمك ان المهدية قد اتسعت دائرتها وشاع في بلاد الله امرهـا وقد التفتت الآن لفتح الجهات البحرية والشروع في توجيه الجيوش اليها بعون رب البرية ولا بد من وصولها لجهاتكم عن قريب فيلزم ايها المكرم ان تكون في غاية الاهبة والاستعداد والتحزب لجهاد اعداء رب العباد فإنا بالنظر لمـا بلغنا عنك من علو الهمة وتصديق المهدي عليه السلام اخترناك ان تكون عاملاً من طرفنا على أهاليك العشاباب وجميع من تبعهم وحررنا لك هـذا بالعمالة عليهم وأمرنا المكرم محمد بحر كرار بمؤازرتك على ذلـك ومساعدتك على تنفيذ اشارتنـا والقيام بأمرنا في تأييد الدين وجهاد الكافرين فيلزم أول وصول كتابنا هذا اليك ان تنبه على اهاليك كافة بالتحزب والاستعداد لجهاد أعداء رب العباد بحيث اول ما يبلغكم قدوم الجيوش من دنقلة الى جهـات حلفا تنفصلون عن اعداء الله وتأخذون في شن الغـارة عليهم وقطع طرق المواصلات عنهم ومناجزتهم الحرب والانحياز الى جيش المهدية ... »

وكتب الى أهل دنقـلة يستنفرهم الى الجهاد فضرب على كل ساقيـة رجلاً نشيطاً يقوم مع النجومي لغزو مصر . وكتب الى محمد الخير في بربر وعـلي ود سعد في المتمة ان يجمعا الجيوش بمثل هذه الضريبة ويلحقا بود النجومي .

فخرج النجومي من دنقـلة في ٣ رمضان سنة ١٣٠٦ هـ ٣ مايو سنة ١٨٨٩ م بجيش مؤلف من ٤٠٠٠ مقاتل و ٧٠٠٠ من النساء والاولاد من اخلاط الجعليين والدناقلة والبطاحين والفلاته والمولدين والبقارة ومعهم نحـو ٣٠٠ بندقية و ١٠ مدافع و ٣٠٠ جواد و ٥٥٠ جمل و ٣٠٠٠ حمار . وكان قد جمع لهم الغلال والتمر في الكرمة فوزعها عليهم للرجل الواحد ٣ قراريط ذرة و ٣ قراريط شعيراً و ٣ قراريط تمراً وللأمير اردب واحد من كل صنف. وسار بالبر الغربي مع علمه بأفضلية البر الشرقي ليتجنب حصون الجيش . وقد اكتسح بلاد المحس وسكوت وساق أهلها كرهاً أمامه لحمل أثقاله وسار ببطىء حتى وصل سرس بمقدمة جيشه في ٢٢ يوليو سنة ١٨٨٩ . وكان قـد كتب الى عبد الحليم مساعد فاستقبله غربي سرس ومعه من الانصـار ١٢٠٠ مقاتل و ١٠٠٠ من النساء والأولاد معهم ٣٠٠ بندقية و ٤ مدافع و ٥٠ حصان و ٥٠ جمل .

وزحف النجومي بالجيش كله على معتوقة فوصلهـا في ٢٨ يونيو فأخـذ بعض الأمراء وصعد على حجر ابي صير فكشف منه حلفا وحصونها ثم عاد الى المعسكر وهناك قسم جيشه الى ثلاثـة اركان : الركن الاول الجعليين والبطاحين وعليهم ابن اخيه احمد بشير . والركن الثاني الدناقلة والمولدون وعليهم عثمان ازرق . والركن الثالث البقارة من حمر وهبانية وأولاد حميـد ومسيرية وعليهم اسماعيل عبـد الجابد من اولاد حميـد . وجعل عبد الحليم مساعد وكيلا له في الجيش .

واقعة ارجين في ٢ يوليو ١٨٨٩ : وفي ظهر الاثنين في ١ يوليو تقـدم بالجيش طالباً ارجين شمالي حلفا بقصد الاستقاء منها فاحتل التلال المطلة عليها ضحوة ٢ يوليو .

وكان ود هوس باشا عالماً بجميع تحركاته ومستعداً لملاقاته وقد أمر أهل العدوة الغربية من حلفا الى توماس على نحو ٧٠ ميلاً شمالي حلفا فقطعوا ثمر نخيلهم وأخلوا منازلهم وعبروا الى العدوة الشرقية وبقي في حلفا يرقب حركاته فلما علم بخروجه من معتوقة أسرع الى ارجين فحصنها . أما ارجين فهي بلدة مستطيلة تمتد على النيل نحو اربعة اميال في وسط غابة من النخيل في طرفها الجنوبي طابية صغيرة على نحو ٣ اميال من حلفا وفي طرفها الشمالي بيت العمدة فحصن ود هوس البيت والطابية وجعل اورطة من العساكر في مجموع من المنازل وسط البلدة وحصن طابية اشكات تجاه بيت العمدة وبقي هو مع بقية عساكر حلفا في اربع وابورات حربية وهي المتمة وابو طليح والتيب وتماي لنجدة النقطة التي يقع فيها القتال فاجتمع عنده من العساكر في ارجين عدا اركان حربه ١٩٤٢ عسكرياً منهم ١٦٠ من السواري و ٥٠ من الطوبجية معهم ٨ مدافع كروب و ١٣٠ من الهجانة والاورطة السودانية التاسعة والعاشرة والحادية عشرة و ٢٣٢ رجلاً من القسم الطبي . وكانت تلال ارجين التي نزل بها النجومي على ٥٠٠٠ يرد من النيل اي ضمن دائرة مرمى القنابل فلما أطل النجومي أمر ود هوس طوبجيته فرموه بالقنابل من الشرق والغرب والوابورات وكان جيش النجومي في أشد العطش فرأى انه لا يتسنى له الوصول الى الماء إلا بالقوة فأمر وكيله عبد الحليم مساعد فأخذ ركن احمد البشير وفيه نحو ٣٠٠٠ مقاتل ومدفعاً واحداً وسار في خور متصل بالنيل تحت القنابل والرصاص حتى ورد الماء بين الطابية الجنوبية والاورطة التي في وسط البلدة ونصب المدفع في محل مرتفع فأسرع ود هوس وأنجد الطابية والاورطة التي في وسط البلدة وحتم على العساكر طرد الدراويش من النيل فصبوا عليهم الرصاص والقنابل من كل الجهات ثم هاجموهم في مراكزهم فدافعوا عن انفسهم دفاع الابطال ودام القتال من الضحى الى قرب الغروب فكان النصر للعساكر والهزيمة للدراويش وقد قتل من الدراويش نحو ٩٠٠ رجل وأسر ٥٠٠ وجرح من أمرائهم عبد الحليم مساعد وعثمان ازرق وأصابت

النجومي شظايا قنبلة وهو على التلال البعيدة فجرحته في فخذه وغنم الجيش مدفعهم وأسر نحو ٥٠٠ نفس من النساء والاولاد . وأما خسارة الجيش فكانت ١١ قتيلاً و ٥٩ جريحاً . وقد كان بين قتلى الدراويش من الأمراء ٢٥ وفيهم شيخ ادريس ود الهاشمي الجملي . قيل انه قال لأصحابه قبل الهجوم : « هيا بنا نموت قبل أن نجقّت » أي نضعف ونهزل جوعاً .

وبات النجومي ليلته على تلال ارجين فعقد في تلك الليلة مجلساً من الامراء فقال عبد الحليم الرأي ان نرجع الى بلاد المحس الى ان يأتينا الزاد والنجدة من الجنوب لأننا عدمنا القوت والماء والطريق أمامنا مفازة قاحلة معطشة والجيش يطاردنا فيمنعنا ورود الماء وجلب القوت . فقال النجومي لا والله لا أرجعنّ الى الوراء إلا محمولاً على الاكتاف فاذا عطشنا او جعنا فانما نحن في جهاد فلنتدرع بالصبر والثبات حتى نفوز بالنصر او بالشهادة قال ذلك وهزّ سيفه فوق رأسه فتحمس الأمراء في المجلس وهزوا سيوفهم فوق رؤوسهم وانحازوا الى رأيه . وفي صباح في ٤ يوليو سنة ١٨٨٩ نهض من التلال وأوغل في طريق الصحراء حتى تجاوز مرمى القنابل واستطرد السير شمالاً ولم يكن مع ود هوس ما يكفي من العساكر لمهاجمته في الصحراء فسار بحذائه في الوابورات بقصد منعه ورود الماء . ومع ذلك فقد فرض النجومي على أصحابه النزول الى الماء متناوبين فكل ليلة ينزل جماعة منهم الى النيل خلسة في الظلام فيحملون منه كفاية الجيش كله يوماً واحداً . وما زال كذلك حتى أتى البلينة جنوبي هيكل أبي سمبل فاتخذ تلالاً على نحو ميلين منها و ٣٠٠٠ يرد من النيل وأقام فيها ينتظر علي ود سعد الجعلي ومكين النور العركي اللذين كانا يتبعانه . فعسكر ود هوس قبالته في البلينة .

وأرسل الخليفة الى النجومي رسلاً هجانة مخصوصين ليطلعوا على حاله ويعودوا اليه بالخبر اليقين وأرسل معهم كتاباً يوصيه هو وأمراءه بالتيقظ وعدم الغفلة من الأعداء والاخذ بالحزم والعزم والاتحاد الى ان يأتيهم عاملهم يونس الدكيم . فكتب اليه النجومي عما جرى له منذ خرج من معتوقة وما لاقاه

هو وقومه من المشاق والمحن في الطريق . ومما قاله له بعد ذكر واقعة ارجين وأسماء الامراء الذين قتلوا فيها :

« سيدي وملاذي بعد اهداء مزيد السلام نرفع الى مكارمكم عن احوالنا وأحوال الانصار الذين معنا انه قد مسهم الضرر الشديد الذي ما عليه من مزيد واشتد بهم الحال وضاق الامر جداً فان الجوع الحالّ بهم أضناهم وأذهب قواهم فورّم أجسامهم وغيّر أحوالهم لأنهم قبل دخول بلد العدو كان قوتهم التمر الأخضر المرّ ونواه وانقطع عنهم من مدة ولطول الطريق وكثرة المشقة ضعفوا فدخلوا البلد على حالة ضعيفة . ولشدة الضرر جلسوا جميعهم على الارض وكثيرون منهم ماتوا جوعاً . وأما ضعفاء اليقين منهم فلعدم صبرهم على البأساء والضراء رغبوا في الأعداء . والجهادية والعبيد والخدم لحقوا ايضاً بالأعداء وارتدوا عن الدين ولم يبق منهم إلا النادر . ثم ان الجهادية الذين أرسلوا معنا طوبجية للمدافع من طرف سيدي يونس كانو خمسة وثلاثين الجميع رغبوا في الكفرة وهربوا اليهم ولم يبق منهم إلا ثلاثة . وكذلك من سرس انضم الينا نحو سبعين من الجهادية والجميع دخلوا القياقر ما عدا ستة وما دعاهم لذلك إلا تراكم الضرر والاضطرار الذي ألجأ الناس كافة الى أكل ما لا يذكر من الحيوانات وغيرها ولم يبق معنا من الانصار إلا من تداركه الله بلطفه وصبر على البلاء والاختبار وله جلد على ذلك ولولا لطف الله بنا وجميل نظركم لما قدرنا على الوصول الى بلاجه (البلينة) . والحاصل ان الانصار تعبوا وضاق بهم الحال وعظم الخطب وطالما صبروا على ذلك لأنهم من عهد ما « صرفوا » بدنقلة لم يجدوا « صرفاً » اصلاً ولم يكن معنا ما نعطيهم لسد رمقهم وحفظ انفسهم وأرجو الله بجاهكم سيدي ان يتولاهم ويصلح شأنهم ويأتيهم بالفتح من عنده . وكذلك الجمال التي كانت عندهم وجمال الجبخانة والخيول والحمير ماتت من شدة المحل وطول السفر ولم يبقَ منها إلا النادر . وان الخيل الموجودة بالجيش فهي مايتان بالكشف المعروض لسيدي يونس الدكيم في تعداد الجيش مع انها كلها هزيلة ولا تقدر على كرّ او فرّ .

والخيل القوية منها لا تزيد على الخمسة عشر حصاناً ولذلك فان خيل الكفرة دائماً تبدو بنواحي الديم وليس عندنا خيل قوية لمطاردتها غير الخمسة عشر المذكورة . وان جبخانة الرمنتون التي معنا جميعها وزعت على اهل السلاح لعدم القدرة على مشالها دفعة واحدة وكذلك جبخانة المدافع وزعت على الانصار جملة جملة خرطوش خرطوش لموت جمالها كافة وان من المدافع مدفعاً جرّه الانصار اولاد العرب على أعناقهم الى مكان بعيد لعدم وجود جمل يحمله. وكذلك بعض الجبخانة والمدافع التي كانت بسرس تركت بجهاتها لعدم وجود الجمال . وجميع الانصار كبيرهم وصغيرهم ذكرهم وأنثاهم ماشون على أرجلهم حاملون على رؤوسهم كما شاهد ذلك الاخوان الهجانة الذين أتوا من سيادتكم .

حاشية : انه لشدة الضرر الحاصل على الانصار فلو صار قيامنا من المرحلة الاولى فلا يمكن جد السير وقطع مسافة الى مرحلة اخرى بل ننزل بالقرب منها برأي العين ولا يتلاحق الناس إلا الى الغروب لعدم القدرة على المشي . ولو صار قيامنا من هذه المرحلة فالمدافع لا يمكن حملها معنا بحال مطلقاً. وقد نوينا انه لو قمنا ندفنها بالخلاء ونأخذ واحدة منها فقط حتى ينصر الله دينه . وجميع الملازمين الذين معنا ليلة تاريخه لحقوا بالأعداء حتى حامل ركوتنا وما بقي منهم إلا نحو ثلاثة او اربعة ...

أما اهل الريف من معتوقة الى بلاجة التي وصلنا اليها فكلهم قاموا في عون الكفرة وحزّبوهم كل التحزب ومن عهد دخولنا ديارهم الى الآن لم يأتنا منهم وارد ولا معرج ولا راغب في الدين ولا من يريد تجارة بل الجميع حملوا الاسلحة النارية وحاربونا أشد المحاربة وما من قرية من قراهم التي بشاطىء البحر الغربي إلا رأينا اهلها قد قطعوا أثقالهم بالشرق او ادخلوها الجزائر وتركوا القرية خالية لتكون حصناً لهم وللكفرة لحرب الانصار . وتبين ان جميع الجهات التي مرّ الجيش بها من ارض الريف اهلها اعداء وعصاة بل الذين لم نصل جهتهم الى الآن فالمترامي من حالهم انهم كذلك لأننا ناهزنا الوصول الى بلدهم ولو كانوا راغبين لأتونا فان المكان ليس ببعيد . أما بوابير الكفرة فما

زالت سائرة معنا بالبحر تبيت معنا حيث بتنا وتقيل حيث قلنا وعساكرهم ماشية بالشرق في خيل وجمال لمنع الانصار ماء البحر ولم يمكن شرب الماء إلا بقتال ومضاربة واستشهاد وجراحات وجزى الله الانصار خيراً وبارك فيهم فانهم ما زالوا مطمئنين على حالهم وثابتين على محاربة عدوهم لا ينتظرون إلا النصر والظفر بالأعداء او الفوز بالشهادة . ولقد وصلهم المنشور الكريم الصادر من لدنكم لهم بالمذاكرة والمداولة والتذكير بالله وبأيام الله فتلقوه بقلوب صادقة ونيات صافية وألزموا انفسهم القيام بذلك حق القيام وزادوا به نشاطاً في الدين وعلو همة لكفاح القوم الكافرين . ولقد رفعنا لسيدي يونس الدكيم ما جرى من هذه الوقائع بالتفصيل ولم نزل نرفع اليه ما يتجدد من الاخبار شيئاً فشيئاً حسب الاشارة ... في ١٢ القعدة سنة ١٨٠٦ هـ » اه ١٠ يوليو سنة ١٨٨٩ .

مجيء السردار الى البلينة وكتابه الى النجومي : هـذا وكان السردار غرنفيل باشا يدير حركات جيش الحدود تلغرافياً من مصر ويحشد الجيوش الى اصوان . فلما كان ٥ يوليو سنة ١٨٨٩ خرج بأركان حربه وأتى معسكر ود هوس في البلينة في ١٥ من الشهر المذكور فعلم من الفارين سوء الحالة التي صار اليها النجومي وجيشه فأرسل اليـه ثاني يوم وصوله كتاباً مع رسولين يدعوه فيه الى التسليم بما نصه :

« ما على الرسول إلا البلاغ . وبعد فاني اكتب اليك هذا يا ولد النجومي لأعلمك ان قائدي الباسل ود هوس باشا اخبرني بتهجمك على الحدود فجئت لأرى بعيني الحالة الراهنة وعلى أثري ألوف من العساكر الانكليزية والمصرية . وقد بلغني انتهابك لممتلكات الناس المساكين الذين لا طاقة لهم بالدفاع عن أنفسهم وأخذك نساءهم وأولادهم وتخريبك بلاداً كانت بالأمس عامرة مطمئنة . وكنت قد صممت على سحقك ومحو أثرك وأثر انصارك عن وجه البسيطة بلا انذار ولكن عند مجيئي الى هنا وجدت انكم قوم مستضعفون مساكين تموتون جوعاً وعطشاً . وأنا عالم سوء حالك انت وعالم انك فريسة لغيرة

ذلك الخليفة الكذاب الذي جعل ابن عمه يونس عاملاً في مكانك وجعلك تحت طاعته وأرسلك أنت والأعراب الذين يخشى شرهم بحجة فتح مصر وهو انما يريد هلاككم فانه يعلم ان الذي أرسلكم اليه لمستحيل عليكم بل انتم ايضاً تعلمون ذلك ولكنكم لعماوة قلوبكم تظنون ان طاعة ذلك الكذاب واجبة . ولقد رأيتم الآن خيبة مسعاكم وسوء مصيركم . وأنتم فيما نعلم طالبون بمبان وتظنون ان اهلها ينصرونكم فاعلموا ان بمبان تبعد عنكم مئات من الاميال وتفصلكم عنها مفازة طويلة لا ماء فيها . بل هب انكم وصلتم اليها فانكم تلاقون فيها جيوشاً انكليزية ومصرية متعطشة لشرب دماء الأعداء . وعليه فاذا تقدمت الى الامام فأنت هالك لا محالة واذا رجعت الى الوراء فان جيوش حلفا واقفة لك بالمرصاد . واذا بقيت حيث أنت مت جوعاً وعطشاً فأصبحت كالطائر في القفص لا منفذ لك ولا معين. لذلك ولما كانت حكومتنا السنية مجبولة على حب الشفقة والانسانية ولا تريد قتل النفوس ولا سيما النساء والأولاد فقد جئتك بهذا ادعوك الى التسليم فاذا سلّمت سلمت أنت ومن معك من الأمراء والأعوان . واعلم انك تأخذ هـذا الوعد من جنرال انكليزي . وأما اذا أبيت التسليم فليس امامك إلا الهلاك كما بيّنا لك . فاختر أرشدك الله الى الصواب احدى الطريقين واني في انتظار الجواب على كتابي هذا مع رافعيه والسلام » .

فأجابه النجومي في اليوم التالي بكتاب هذا نصه بعد البسملة :

« وبعد فمن عبد ربـه المعتصم بمولاه عبد الرحمن النجومي الى السردار غرنفيل باشا هداه الله الى الصراط المستقيم. سلام على من اتبع الهدى وخاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. ثم نعلمك ان جوابك المرسل منك بإعلامنا بحضورك وما جئت لأجله وصلنا ولآخر ما ذكرته فيه وزعمته من الاقاويل التي لا طائل تحتها قد علم لدينا ونقول لك إنا ما بعثنا من طرف السيادة إلا لدعاية النـاس والمسلمين وإدخالهم في سور الرحمة والهداية اجمعين . وليس حضورنا الى بمبـان فقط كما تقول ولسنا نقصدها بالذات بل المقصود بالذات

الوصول الى جميع البلاد وإدخال أهلها في الدين بمعونة الله رب العبـــاد فمن صدق وآمن واتبع وسلم الأمر لله تعالى ورسوله ﷺ ومهديه «عم» وخليفته عليه الرضوان وسلم جميع ما كان معه من الاسلحة والجباخين أمّناه على نفسه وماله وولده له ما لنا وعليه ما علينا ومن خالف واتبع نفسه وهواه وأبى إلا جماحاً فالسيف حتى يحكم الله بيننا وبينه وهو احكم الحاكمين. هـــذا واعلم ان جوابك المذكور وغيره مـــن الاجوبة الواردة منك الى الاخوان الثلاثة ارسلت الى سيدي يونس مع احد الرسولين عبد الهادي ومنه الى سيدنا ووسيلتنا الى الله خليفة المهدي « عم » للاطلاع عليها وحضور الرد لكم من لدنه بما فيه الكفاية. ولو كنا مأمورين بردّ امثالها لكتبنا اليكم من ذلك ما فيه المقنع. أما مـــا ذكرته من كثرة عساكرك وقرب وصولها الخ فذلك لا يهولنا ولا يخيفنا بل لا نخشى احداً إلا الله تعالى ولو الثقلين الانس والجن فلقد كنا قبل هذا متربصين بكم وقائمين على جهادكم وشن الغارة عليكم وبما ان الله تعـــالى اخرجنا من ظلمات موالاتكم وقربكم فاعلم إنا باقون على قتالكم وجهادكم واستئصالكم حتى لا ندع على وجه الارض منكم داعياً ولا مجيباً او يفوز بالشهادة من يفوز ويلاقي الله تعالى. فتحقق ذلك ولا تغتر بعساكرك ومدافعك وصواريخك وكثرة بارودك العارية عن معونة الله تعـالى وفيما سبق من إهلاك رجالكم ورؤساء دولتكم كهكس وغوردن وأشباههم مع كثرة جنودهم وعدّتهم وعددهم كفاية فان أسلمت وسلّمت جميع المدافع والجبخانات والاسلحة سلمت وعليك أمان الله ورسوله ﷺ ومهديه « عم » وخليفته عليه الرضوان وإلا فهذا حجة عليك وذنبك وذنب من معك مطوق في ذمتك. أما رسولكم الآخر فضل المولى فهو عائد لكم بهذا والسلام على من اتبع الهدى القعدة ١٣٠٦ » اه يوليو ١٨٨٩ .

وأرسل النجومي الرسول الآخر الى يونس والخليفة كما قال ومعه الكتب التي ارسلها اليه السردار وصورة جوابه هذا. فكتب الخليفة اليه بهذا الشأن ما نصه :

« وبعد فمن عبد ربه خليفة المهدي عليه السلام الخليفة عبد الله ابن محمـد خليفة الصديق الى المكرم عبد الرحمن النجومي كان الله له وتولاه وحفظه ورعاه آمين. بعد السلام عليكم ورحمـــة الله وبركاته نعلمك أيها المكرم ان المحررات التي وردت من عدو الله جرنفل برسمكم قد وصلت لطرفنا من المكرم يونس الدكيم ومعهـا المحررات منكم له بأحوالكم وأحوال من معكم وما بالجميع فهم. والحال أيها المكرم ان ما حررته لعدو الله المذكور رداً لما ورد منه قد وافق فجزاك الله تعالى خيراً وكفاك هماً وضيراً وبارك فيك وحمـــد مساعيك وهكذا شأن من يكون بمثابتك من رجال الدين الذين بايعوا الله ورسوله ومهديه وبايعونا. وقد اطلعنا على محررات جرنفل الخبيثة وما ذكره فيها من الأمور التي سوّلها له الشيطان وحمله عليها ظنه الفاسد مؤملاً ما ليس له اليه سبيل ولم يعلم قاتله الله ان اصحاب المهدي « عم » لا يلتفتون الى مثل هذه الاباطيل ولا ينخدعوا بأقوال الكافرين. وقد علمنا من محرراته ان الذي حمله على ما قاله هو محض الخوف الشديد فانه لمـا كان بجهة سواكن وحصلت المضايقة الشديدة من الانصار على اهل القيقر حرّر مكاتبات مثل هـــذه الى المكرم عثمان دقنة ولمـا رفعها المذكور الينا أمرناه بعـدم الردّ عليها وصرف النظر عنها ولما علم ان الانصار لا يلتفتون الى قوله ولا يردون له جواباً كفّ عن المخاطبات وخيب الله سعيه. فالآن بمـا انه حضر الى جهتكم وابتدأكم بالمحررات فاعلم ان قصده ادخال الغفلة عليكم. والرسل الذين يأتون منه بالمكاتبات انما هم طلائع يكشفون اخباركم ويعرفونه بما أنتم عليه فلا يجد عدو الله فيكم مدخلاً ولا غفلة بمحرّراته الفاسدة فانه قد علم بهزمكم لعساكره مراراً عديدة ودخولكم ارض الريف على رغم انفه ولحقه من ذلـك الفزع الشديد فأراد ان يوقع في قلوبكم أقاويله الكاذبة ومعتقداته الفاسدة فلا تقبلوا له قولاً ولا يبلغه من جهتكم أدنى وهن او ضعف. ومن الآن فصاعداً اذا أرسل اليكم جواباً ورأيتم استصواب رده فحرّروا له على ظهر ظرفـه بأن جوابك وصل وها هو عائد اليك ولا رغبة لنا في نظره وسماعه ما لم توف بالله

ورسوله وتصدق المهدي « عم » وتسمع اشارة خليفته وانا لسنا بمأذونين في مجاوبتك وإلا فان رأيتم عدم رجوع رسوله فأحرقوا جوابه بالنار ولا تجيبوه بشيء وجزاكم الله تعالى خيراً حيث تفطنتم لأقواله وحررتم له ما يغيظه فلا تشتغلوا معه بمكاتبات ولا يطلع احد من الاصحاب على محرراته فان الأقوال الفاحشة فيها كثيرة وسماعها لا خير فيه لأنه مضر وعلية ظلمة الكفر وما زلتم فعاملوه بما يغيظه من عدم رد محرراته فان ذلك أليق بحاله لأنه كافر بالله ورسوله وآيس من رحمة الله والسلام في ٢ الحجة ١٣٠٦ هـ » اه ٣٠ يوليو سنة ١٨٨٩ م .

هذا وكان السردار لما رأى عناد النجومي واصراره على الحرب اخذ يهتم لصدّه عن التقدم شمالاً والتنكيل به فرجع الى اصوان وشرع في حشد الجيوش الى طوشكي . وفي ٢٢ يوليو فرّ الى معسكر ود هوس باشا كاتب عبد الحليم المدعو حسن حبشي من كتاب الفتح الاول فأخبر ود هوس بعدد جيش النجومي وما عليه من سوء الحال وانه أحصاه بنفسه قبل فراره فكان ٢٨٢١ مقاتل معهم ٣٠٩ بنادق و ١٣٢ جواداً و ٢٠٠ جمل و ٤٠٠٠ من النساء والاولاد. وفي ٢٥ من الشهر المذكور وصل علي ود سعد ومكين النور اللذان كان النجومي في انتظارهما ومعهما نحو ٥٠٠ مقاتل و ٣٠٠ بندقية . وبعد وصولهما بثلاثة ايام خرج النجومي بجيشه مستطرداً السير شمالاً. وعند خروجه ذهب بعض الجنود المصرية الى معسكره لتفقد حاله فوجدوا بعض المرضى قد تركوا وحدهم بحالة تفتت الأكباد من الجوع والعطش والعري والألم فنقلوهم الى اسبيتالية الجيش في البلينة . ووجدوا في الديم ٢٥٠ ضريحاً عدا الجثث التي تركت في العراء بلا دفن . ووجدوا عظام البهائم التي أكلوها قد كسرت واستخرج ما فيها من الدهن مما دلّ على شدة احتياجهم الى القوت . واقتفوا اثر النجومي شمالاً فما أبعدوا حتى وجدوا مدفعين مطمورين بالرمال والطريق مغطاة بالدروع التي عجزوا عن حملها .

هذا وحال خروج النجومي من البلينة خرج ود هوس بعساكره وأتى

طوشكي وكان السردار قد حشد اليها من اصوان الجيوش المصرية وفرسان الجيوش الانكليزية وهو في انتظار الجنود الانكليزية المرسلة من مصر لنجدة الجيش المصري. فلما علم بتحرك النجومي شمالاً أسرع بأركان حربه الى طوشكي فوصلها في ٣١ يوليو وقد اجتمع له فيها القوات الآتية : الأسلحة الراكبة وفيها ٤٠٩ فرسان من السواري الانكليز الهوسار والسواري المصرية والشايقية بقيادة اللواء كتشنر باشا . والطوبجية المصرية وهم ٢٤١ مقاتلاً ومعهم ٨ مدافع بقيادة القائمقام رندل بك . والمشاة المصرية وهم لواءان اللواء الاول مؤلف من الاورط السودانية التاسعة والعاشرة والثالثة عشرة وفيه ١٤٨١ جندياً. واللواء الثاني مؤلف من الاورطتين المصريتين الاولى والثانية والاورطة السودانية الحادية عشرة وفيه ١٤٨١ جندياً وكلاهما بقيادة اللواء ود هوس باشا ذلك ما عدا ٧ ضباط اركان حرب و ٧١ رجلا من القسم الطبي والقسم البيطري. ومجموع الكل ٣٦٨٠ رجلاً و ٨ مدافع . وكان رئيس اركان حرب السردار اللواء ستل باشا المشهور بثبات الجأش وسداد الرأي . وكان أهم اركان حربه في هذه الواقعة كما في واقعة الجميزة المار ذكرها القائمقام ونجت بك (السردار الحالي) الذي عهدت اليه وظيفة مساعد ادجوتانت جنرال المخابرات فوق وظيفة اركان حرب فقام في الوظيفتين خير قيام وأثنى عليه السردار في تقاريره الرسمية أجمل الثناء . وقد كان ما أبداه في ذلك العهد من الكفاءة والبسالة وعلو الهمة بشيراً صادقاً بما بلغ اليه الآن من سمو المنزلة ورفعة المقام .

واقعة طوشكي السبت في ٣ اوغسطوس سنة ١٨٨٩ :

اما طوشكي فهي بلدة مستطيلة على غربي النيل على نحو ٦٠ ميلا من حلفا وفيها نخيل كثير وتمتد أراضيها الزراعية نحو ١٢٠٠ يرد الى جهة الصحراء ومن ورائها سهل رمليّ متسع تتخلله الآكام والصخور العظيمة وتكتنفه الجبال من الشمال والجنوب والغرب . أما الجبال التي الى جنوبيه فتبعد اربعة أميال

من طوشكي وتمتد من النيل ٣ اميال غرباً. فلما كان مساء الخميس ١ اوغسطوس سنة ١٨٨٩ وصل النجومي تلك الجبال وعسكر عند سفحها الغربي ليكون في مأمن من قنابل الوابورات التي كانت لا تزال تطارده . وكان قد هجره بعض أتباعه في الطريق فبقي معه ٣٢٠٠ مقاتل و ٣٦٠٠ من النساء والاولاد والأتباع وهي القوة التي حارب بها في واقعة طوشكي .

وفي فجر الجمعة في ٢ اوغسطوس خرج السردار ببعض الفرسان من طوشكي وكشف معسكر النجومي من تلة في السهل فرآه يصلي هو وجيشه . وأفاد الفارُّون منه انه مستطرد السير شمالاً في فجر اليوم التالي فكشف السردار طريقه فوجد انه لا بد له من المرور في سهل طوشكي فعاد الى البلدة على نية الخروج الى هذا السهل وصده عن التقدم شمالاً الى ان تصل النجدة الانكليزية فيوقع به .

ولما كان فجر السبت في ٣ اوغسطوس نهض النجومي بجيشه ودخل سهل طوشكي فخرج له السردار بأركان حربه والاسلحة الراكبة حتى صار على ١٥٠٠ يرد منه الساعة ٦ والدقيقة ٤٥ فتقدم اهل البنادق من جيش النجومي ورموه بالرصاص وتبعهم الباقون مهاجمين فأمر السردار السواري فتواروا خلف تل صغير وأمر الهجانة فترجلوا ووقفوا صفاً واحداً وصبوا الرصاص على الدراويش حتى كثر عدد المهاجمين فتقهقر السردار بالعساكر امامهم لجذبهم الى وسط السهل فظنوا انه يفرُّ خوفاً منهم فأسرعوا وراءه مهاجمين فاتخذ مركزاً حصيناً وسط السهل وأرسل في طلب مدفعين من البطارية السواري واللواء الاول وما زال رجال الاسلحة الراكبة يطلقون نارهم حتى كانت الساعة ٨ والدقيقة ٣٠ فحمل النجومي عليهم بجيشه حملة واحدة في مقدمته اهل الاسلحة النارية وفي ساقته النساء والاولاد . ولم يكن السردار قادراً على صده بما لديه من العساكر فتقهقر امامه الى جهة طوشكي واتخذ مركزاً حصيناً عند سفح تلة مخروطية الشكل على نحو ميلين من جنوب طوشكي الغربي ولم تمضِ عشر دقائق حتى كان العدو قد وصل المركز الذي هجره السردار وظلَّ مهاجماً . وفي الساعة

٩ وصل المدفعان اللذان طلبهما السردار فاتحد رجالهما مع رجال الاسلحة الراكبة وسدّدوا رمي القنابل والرصاص على النجومي فلم يكن إلا القليل حتى غيّر وجهة سيره وسار نحو الشمال الغربي ليتخلص من السهل وكان السردار انما يريد حصره فيه لموافقته لتحركات العساكر فأصدر أمره الى الأسلحة الراكبة بقيادة كتشنر باشا فخفّت الى التلال التي الى الشمال الغربي من السهل وسدّت طريقه شمالاً .

وفي الساعة ١٠ وصل اللواء الاول بقيادة هنتر بك فاحتل مركز الاسلحة الراكبة وهو سلسلة من الآكام الصخرية تمتد نحو ٢٠٠ يرد شمالاً وجنوباً وتبعد نحو اربعة أميال من النيل فلما رأى النجومي ان طريقه الى الشمال قد سدّت عوّل على الحرب ورأى أمامه اربع آكام متجاورة في وسط السهل تجاه مركز اللواء الاول وعلى ٨٠٠ يرد منه فصف أنصاره عليها فجعل اهل البنادق في الامام ومن ورائهم الحرابة ونصب هو رايته في تلة وراءها وجعل النساء والاولاد والحملة في مكان منخفض وراءه بعيداً عن مرمى الرصاص والقنابل . وفي هذه الأثناء حضر اللواء الثاني مع الستة مدافع الباقية فأمره السردار فوقف وراء اللواء الاول لنجدته عند الحاجة . ولما كانت الساعة ١٠ أمر السردار اللواء الاول والطوبجية ففتحوا نيرانهم على حامية العدو فأجاب العدو نيرانهم مدة نصف ساعة ثم امر اللواء الاول فاقتحم رجاله رصاص الدراويش من القلب والجناحين بجرأة الاسود حتى وصلوا تلالهم والتحموا بهم وساعدهم اللواء الثاني والطوبجية والاسلحة الراكبة فأجلوا الدراويش من مراكزهم عنوة بعد ان جندلوا أبطالهم وكانت الساعة اذ ذاك ١١ ونصفاً وفرّ من سلم من الدراويش نحو معسكر النساء والحملة ولحق بهم النجومي على جواده ليجمع شتاتهم فأمر السردار الاسلحة الراكبة والطوبجية بمطاردتهم وعند الظهر تقدم بسائر العساكر فسار اللواء الثاني اولاً ليأخذ « نوبته » في القتال وتبعه اللواء الاول . وفي أثناء ذلك جمع النجومي شتات جيشه وكرّ على العساكر فلم يلبث ان اصابه الرصاص فسقط مجندلاً الى الارض ومات فحمله بعض اصحابه

على جمل وفروا منهزمين وانهزم بقية جيشه فتقدم العساكر واستولوا على الديم وما فيه من الخيـام والطبول والسروج والسيوف والدروع ولحقوا بالمنهزمين فأسروا عدداً كبيراً من الرجال والنساء والاولاد. ولحقت كتيبة من السواري الجمل الذي حمل الجثة فقتلوا حراسها وأتوا بها الى طوشكي فوجدوا انها جثة النجومي . وأمر السردار فأوقفت النار الساعة الثانية بعـد الظهر وعادت العساكر بالغنـائم والاسرى الى طوشكي فوصل آخرهم الساعة الخامسة بعد الظهر وقد قضوا النهار كله يقاتلون بلا زاد ولا ماء او بماء قليل لأن أكثرهم خرجوا للحرب قبل ان يفطروا .

القتلى والجرحى : وقد كانت خسارة الجيش في هـذه الواقعة ٢٥ قتيلاً و ١٥٠ جريحاً فضموا القتلى جميعاً الى مكان واحد في ساحة القتال وبنوا فوقه قبراً نقشوا على واجهته باللغة العربية كتابة هـذا نصها : « شيّد هذا الاثر تذكاراً لواقعـة طوشكي التي حصلت في ٦ الحجة سنة ١٣٠٦ هـ وانهزم فيها جيش العصاة السوداني المرسل تحت امرة عبـد الرحمن ولد النجومي فتشتتوا بعد قتل اميرهم وكان الجيش المصري تحت قيادة سعادة السردار غرانفل باشا وفي هذا القبر دفنت جثث العساكر المصرية الذين استشهدوا وهم بالميدان
وأما العدو فقـد قدرت خسارته بنحو ١٢٠٠ قتيل فيهم ٦٢ اميراً وأهمهم النجومي وابنه وعبـد الحليم مساعد . ونجا من امرائه عثمان ازرق وعلي ود سعد وحسن النجومي ومرغني سوار الذهب والطاهر والشيخ العُبيد ، ومن عامتهم ١٤٠٠ نفس نصفهم او أكثر من النساء والاولاد فعـادوا الى دنقلة .
وأما محمد الخير فانه لم يكد يصل من بربر الى دنقلة حتى مرض بالحمى فمـات قهراً قبل واقعة النجومي بأيام معدودة . قيل وقد استغفر ربه كثيراً قبـل وفاته لنصرته المهدية .

الغنائم والاسرى: وجمعت الغنائم بعد الواقعة فبلغت ١٤٧ راية و٤٠٠٠ حربة وعدداً كبيراً من السيوف والبنادق والدروع والسروج والطبول . وأما

أسرى الواقعة فكانوا ١٢٠٠ فأصبح عدد الاسرى والفارين من جيش النجومي منذ دخوله الحدود نحو ٤٠٠٠ من رجال ونساء واولاد فوزع نحو الف منهم في مديرية الحدود وأرسل الباقون الى اسيوط فوزعوا على مديريات القطر إلا نحو مئـة من الامراء والمقاديم فانهم وضعوا في سجن طره مدة ثم نقلوا الى رشيد حيث بقوا الى ما بعـد فتح دنقلة سنة ١٨٩٦ فأطلق سراحهم . وكان السردار قد أذن لـ ٣٤١ نفساً منهم فرجعوا الى بلادهم بطريق سرس في ١٣ ابريل سنة ١٨٩١ . هذا وكان بين الأسرى النجومي عمره سنة فأدخل في المدارس الاميرية بمصر ولا يزال يتلقى العلوم فيها الى اليوم . وكان بينهم تاجر يدعى أبا زيـد فرّ من التوفيقية سنة ١٨٨٨ وهو الذي دلّ الدراويش على مهاجمتها فحوكم بمجلس عسكري وقتل رمياً بالرصاص .

« وانحلت قوة الحملة » على النجومي في ٦ اوغسطوس وعـاد السردار الى مصر في ١٧ منه . وقد امتاز فيها من الضباط المصريين برتبة بكباشي : علي بك حيدر ياور السردار وحسن افندي رضوان من الطوبجية ومصطفى افندي رمزي اركان حرب . وامتـاز فيها من الموظفين الملكيين السوريين : ملحم بك شكور سكرتير عربي السرداز وسليمان بك ناصيف من موظفي السردارية وطنوس افندي شحادة مترجم السواري وأمين افندي حـداد مترجم في « المهمات » . ومن الملكيين المصريين : عبد الله افندي فكري المـار ذكره وابراهيم افنـدي زيدان مترجم الحدود ونخله افندي تادرس مترجم الاورطة الحادية عشرة السودانية. وحضر منهم ميدان القتال ملحم بك شكور وطنوس افندي شحادة وابراهيم افندي زيدان .

وبعد واقعـة طوشكي مدت الحدود المصرية جنوباً الى سرس فاحتلتها الاورطة الثالثة عشرة في ١١ اوغسطوس سنة ١٨٨٩ ورُمم خط سكة الحديد بينها وبين حلفا . وكان الدراويش قد جعلوا حدودهم الشمالية حلة فركة فلما رأوا الحكومة قـد احتلت سرس رجعوا الى سواردة على نحو ١٠٠ ميل من سرس وبقوا فيها الى ان طردتهم الحكومة منها سنة ١٨٩٦ كما سيجيء .. ثم

لما استقر الدراويش بسواردة هاجر جماعة من اهل المحس وسكوت الى الحدود فأعطاهم السردار ارضاً في دبيرة شمالي حلفا فسكنوها الى ان فتحت بلادهم سنة ١٨٩٦ فعادوا اليها .

احتلال المرات : هذا وكان التعايشي لما صمم على ارسال النجومي لغزو مصر أمر حسن خليفة فخرج من ابي حمد واحتل آبار المرات في ١٩ يونيو سنة ١٨٨٩ م فلما توجه السردار لملاقاة النجومي أمر صالح بك خليفة كبير المليكاب فجهز سرية من عربانه وهاجم المرّات فطرد الحسن منها واحتلها في مكانه وذلك في ٣ اوغسطوس سنة ١٨٨٩ أي يوم واقعة طوشكي . فاتهم التعايشي حسن خليفة بعدم الدفاع عن المرّات فعزله وجعل جريجر من أقاربه في مكانه .. وهكذا انتهى حلم التعايشي الذي رآه سيده المهدي من قبله في فتح مصر والعالم فانه بعد انخذاله في هذه الواقعة لم يعد يخطر بباله فتح ولا حملات عدائية كبيرة بل حصر كل اهتمامه في حفظه مملكته من القوات المحيطة بها من الخارج والفتن التي تهددتها من الداخل . وأما حكومة مصر فانها منذ واقعة طوشكي اخذت تهتم في استرجاع السودان وكان لها بعد الواقعة أحسن فرصة لما اصاب السودان من الجوع والضيق في ذلك العهد ولكن أعوزها المال فما زالت متربصة حتى أتاحت لها الفرص فأعادت السودان حامية حامية كما سيجيء .

وكان السردار قد أصدر الى اهل الحدود منشوراً بتاريخ ١٠ يوليو سنة ١٨٨٩ حذرهم فيه من ممالأة النجومي بقوله : « ان من كاتب الدراويش او ساعدهم بشيء ما فعقابه القتل ومن بقي على الولاء وفقد شيئاً من زرعه فالحكومة تعوض عليه » . وفي اوكتوبر سنة ١٨٨٩ أصدرت الحكومة الى أهل السودان منشوراً تستحثهم فيه على الرجوع الى الولاء وأرسلته مع بعض أسراء طوشكي ليوزعوه عليهم وهذه صورته :

« بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيد المرسلين . وبعد فلا يخفى عليكم ما كانت عليه بلادكم السودانية ايام الحكومة الخديوية من رغد العيش

وراحة البال وما آلت اليه حالتها من الضنك والاضمحلال بأسباب الفتنة المهدوية التي هي نتيجة اغراض الرؤساء وحب التظاهر من الأغنياء دون مبالاة منهم بما يترتب على ذلك من سفك الدماء والضرر بالأفراد وخراب البلاد . على ان ملتنا الغرّاء الاسلامية تأمر بالائتلاف والاتحاد وتنهي عن التنازع والسعي في الفساد وأي فساد اعظم من ايقاد نار الفتنة بين المسلمين . وقد غشكم اولئك الرؤساء تمويهاً باسم الدين وهم أبعد الناس عن معرفة شيء منه حتى اوردكم المهالك واكتسبوا بدمائكم ودماء اخوانكم من المسلمين حسن التمتع بنفوذ الكلمة وظنوا انهم صاروا من ارباب الممالك . أمن قواعد الدين منع الناس عن الحج وهو من الأركان الخمسة التي بني عليها الاسلام وها أنتم ترون اولئك الرؤساء يمنعون قوافل السودانيين عن اداء تلك الفريضة المبرورة. أمن قواعد الدين التحريض على قتال المتمسكين بالكتاب والسنة من المسلمين وها أنتم ترونهم يحرضونكم على قتال امة مسلمة عاشت معكم مع حسن التمسك بكتاب الله العزيز وسنة نبيه الكريم وقد ورد عن النبي ﷺ « اذ أشهر المسلم على اخيه في الدين سلاحاً فلا تزال الملائكة تلعنه حتى يغمده » . أمن قواعد الدين تحريضكم على ان تلقوا بأيديكم الى التهلكة وقد قال الله تعالى ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة . فلا حاجة الى اطالة الكلام على ما هم عليه اولئك الرؤساء من الاعوجاج عن الدين القويم ومخالفة جماعة المسلمين . واعلموا أيها الاخوان ان ما حل بولد النجومي وقومه وقد اشتهر بينكم بالبسالة والاقدام مما يذكركم بعاقبة الامر الذي أنتم فيه والعاقل من اعتبر بغيره فالنصيحة ان تعودوا الى قول القائل :

يقضى على المرء في ايام محنته   حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن

فترجعوا عما انتم عليه مما أضرّ بلادكم ويتّم اطفالكم ورمّل نساءكم كل ذلك خدمة لأغراض الرؤساء وابتغاء غاياتهم . والحق الذي يعلمه الله ان الجناب الخديوي العالي نصر الله أعلامه أشفق على الرعية من الآباء على الأبناء

حريص على راحة العباد واطمئنان البلاد وقد أبى افتتاح بلادكم بالقسوة والعنف حقناً للدماء وشفقة على الفقراء وكثيراً ما غيّر خاطره الشريف ما ألمّ بكم من الوبال وسوء الحال وتمنى ان ينعم الله عليكم بالهداية ويمنحكم من مراحمه ما يرجع بكم الى ما كنتم عليه من الرغد وصفاء البال فاغتنموا هذه الفرصة الجليلة وقدموا لاعتاب حكومته الخضوع تفوزوا بالمساعدات الجمة والنعم الجزيلة ولا تنسوا الشرف الرفيع والمزايا التي خصتكم بها الحكومة السنية أنتم وآباءكم من الشايقية والجعليين وغيرهم وما أصبحتم فيه من الذل والاهانة تحت أحكام أناس كانوا يلجأون الى سطوتكم ويهابون سلطتكم ففي ذلك الكفاية لمن رام الهداية والسلام سنة ١٣٠٧ هـ » اه .

وكتب الخليفة من الجهة الثانية الى اهل دنقلة والمقاتلين الذين نجوا من واقعة طوشكي يصبرهم على ما اصابهم من الخذلان قال: « ... وبما انه لا يخفى عليكم أيها الاصحاب ان أمرنا هذا ديني والقصد منه إحياء السنة النبوية واتباع الاثر فالابتلاء الحسن لا بد ان يحصل للمؤمنين لكي يتميز بذلك الخبيث من الطيب طبق ما وقع للصحابة رضوان الله عليهم فانهم قد كابدوا في الله كل شدة وحصل عليهم من البلاء الحسن ما لا يطاق فصبروا صبر الكرام وأوفوا بعهد الملك العلام وجميع ما وعدهم الله به في قوله تعالى «ولنبلونكم بشيء من الخوف والجزع ونقص من الاموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين» حصل عليهم في الغزوات والجهادات فما ثناهم عن قصدهم ولا برّد هممهم عن اقامة الدين وجهاد الكافرين بل لم يزدهم ذلك إلا قوة وثباتاً وشجاعة وإقداماً وإيماناً وتسليماً . وأنتم يا اصحاب المهدي « عم » لا شك انكم على أثرهم فجميع ما يحصل عليكم من نزول الشدائد وحلول المصائب فهو لرفع درجاتكم واختباركم فيلزم ان تلبسوا لذلك جلباب الصبر والثبات وتتدرعوا بدرع التوكل فان الخير كله امامكم في الآخرة وما الدنيا إلا مزرعة لها فازرعوا فيها صالح الاعمال وأوفوا بعهدكم مع الله ورسوله ومهديه ومعنا . ولا تهنوا او تضيعوا في دينكم والوفاء بعهدكم مع ربكم بسبب ما حصل لأعداء الله من الاستدراج

والامهال وفوز اخوانكم الصادقين ناس الشهيد عبد الرحمن النجومي فان ذلك قدر إلهي وسعادة كتبها الله لهم في ازله ودين الله لا شك منصور وعدوه مقهور كما وعد الله تعالى بذلك في غير ما آية من كتابه والعاقبة لا شك للمؤمنين والدائرة على الكافرين ... »

ثم كتب الى اهل دنقلة ما نصه: « ... وبما انكم من الاعوان والأصحاب التابعين المهدية بصدق وصفاء نية فعليكم منا أمان الله ورسوله ومهديه وأماننا في أنفسكم وأموالكم ولا يحصل عليكم من احد من الانصار أدنى شيء ما دمتم صادقين في معاملتكم ومنقادين لعاملكم المكرم يونس الدكيم وكل من له ساقية فليصلحها ومن له نخيل فليلقحه ومن له انسان بجهات الريف فليسعى في حضوره لوطنه ان أمكنه ذلك فان من يحضر لوطنه ويقيم فيه تحت طاعة المهدية فعليه منا الأمان ومن له نخيل او سواقي بجهة دنقلة ويحضر اليها على مقتضى أماننا هذا وعلى وجه الفور فهي له ولا يحصل عليه تعدٍّ من احد لأنا لسنا نريد منكم إلا القيام بأمر الدين واداء ما هو مطلوب منكم من حقوق الله تعالى . وبما ان المكرم يونس الدكيم هو العامل عليكم بأمرنا فاسمعوا امره ونهيه وقد اوصيناه بكم خيراً وان شاء الله لا ترون إلا ما يسركم هذا والسلام ٥ جمادي الاولى سنة ١٣٠٧ هـ » اه ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٨٩ م .

الفصل العاشر

في

وقائع ام درمان وسائر السودان

سنة ٨٦ : ١٨٩٠ م

خراب الخرطوم وعمار ام درمان سنة ١٨٨٦ :

جرت عادة الدراويش انهم كلما فتحوا مدينة أخربوها وأقاموا لهم ديماً بجانبها كما فعلوا في الابيض وبربر ودنقلة وكسلا وغيرها ولم يستثنوا من ذلك الخرطوم فانهم هجروها تدريجاً وعمروا ام درمان تجاهها على النيل الابيض مع ان الخرطوم افضل موقعاً وأخصب تربة وأعذب ماء . وقد كانوا يأخذون اخشاب منازلها ويبنون بها مدينة ام درمان فلم تنته سنة ١٨٨٦ م حتى خربت الخرطوم خراباً تاماً ولم يبق فيها عامراً إلا جنائنها وترسانتها .

بناء جامع ام درمان : وما زالت ام درمان تزداد عمراناً واتساعاً حتى ضاق على اهلها جامع الصفيح الذي بناه المهدي فأقام الخليفة بجانبه جامعاً متسعاً فوضع حجر اساسه بيده يوم الاحد في ٤ ربيع الاول سنة ١٣٠٥ ه ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٨٧ م وسخر اهل المدينة فبنوه في مدة ٧٣ يوماً . وهو

عبارة عن حوش عظيم مربع يحيط به سور مرتفع من الطوب المحرق طوله نحو ٤٧٠ ذراعاً وعرضه نحو ٢٩٥ ذراعاً وله ثمانية ابواب لكل جهة بابان . وقد تركه مكشوفاً بلا سقف لكنه أقام قرب المحراب صفاً من الرواكيب لجلوس أمرائه وخاصة رجاله وفرض على اهل أم درمان كافة حضور الصلوات الخمس فيه يومياً .

بناء قبة المهدي : وبعد ان أتم بناء الجامع بدا له ان يقيم فوق قبر المهدي قبة ليصرف الناس الى حجها بدل الكعبة فدعا اليه الأمراء من الجهات وأبا عنجة من القلابات للاحتفال بذلك . وفي يوم الاربعاء في ٣ ربيع الاول سنة ١٣٠٦ ه ٧ نوفمبر سنة ١٨٨٨ م شرع في حفر الاساس بيده ثم تبعه الخليفتان فالأمراء وتتابع الناس في العمل به فأتموه باسبوع ثم وضع لهم حجر الاساس وشرعوا في البناء حتى اكملوه فكانت بنية عظيمة مربعة طول كل جدار من جدرانها الاربعة ١٧ ذراعاً وسمكه ٣ ½ ذراع وعلوه ١٤ ذراعاً وفوقه بناء مثمن يعلو ١٥ ذراعاً وفوقه القبة وتعلو ٢١ ذراعاً . فكان علو البنيّة من الارض الى القمة ٥٠ ذراعاً . وقد بنيت بالحجارة على علو ذراعين ثم بالطوب الاحمر الى آخرها ولها بابان كبيران باب الى الجنوب وباب الى الشمال وثمانية شبابيك في كل جدار من جدرانها الاربعة شباكان وثماني كوى او «مناور» بيضوية الشكل في القسم المثمن في كل تثمينة « منور » فجاءت أعظم قبة بنيت في السودان الى هذا العهد وكان المهندس لها رجلاً مصري الجنس يدعى اسماعيل . وفي فتح أم درمان سنة ١٨٩٨ دكها الجيش الى الارض هي والجامع كما سيجيء . وقد وصفها اسماعيل عبد القادر الكردوفاني بقصيدة غراء هذه هي بحروفها :

سمت قبة المهدي مجداً وسؤددا   ونيطت بها الجوزاء عقداً منضّدا
وصيغ من الاكليل تاج لهامها   وسال بها نهر المجرّة مزبدا
وقد نظمت زهر النجوم قلائداً   لجيد علاها حائز السبق مفردا
ولاحت بأنوار الهداية شمسها   فأشرق منها الكون وانقشع الردى

بنيّة مجدٍ شادها الحلم والتقى ... يطوف بها الزوار مثنىً وموحدا
فلله مغناها ومحكم صنعها ... وروضتها الزهراء بالفضل والندى
ولمْ لا وقد ضمت لأفضل وارث ... لخير الورى طه المشفع احمدا
خلاصة صفو المجد عن آل هاشم ... وأفضل من في الخير راح او اغتدى
امام له في كل مجد وسؤدد ... مآثر فضل ما أجلّ وأمجدا
محمد المهدي بشرى محمد ... شفيع الورى في الحشر من طاب محتدا
ببشراه غنى بلبل السعد مطرباً ... وقام على غصن المسرات منشدا
به الله أحيانا وأظهر دينه ... وأولاه افضالاً ونصراً مؤيدا
وقد أحرز الدين الحنيفي بالظبى ... ودمر جباراً طغى وتمردا
وجاهد من قد حاد عن شرع احمد ... وقد فلّ جيش المعتدين وشردا
ولما دعاه الحق جل جلاله ... لدار بها الفوز العظيم مخلدا
أجاب الندا فالقلب بعد فراقه ... يذوب اساً والصبر عزّ وابعدا
وقد جبر الله الوجود بأسره ... وأعلى منار الدين حقاً وشيّدا
بهدْي الذي قد قام فينا مقامه ... خليفته هادي الورى قامع العدى
فقام بأمر الدين حق قيامه ... وأعمل في أهل الضلال المهندا
قلوب الورى تعنو جميعاً لهديه ... فلا تنثني إلا عنها وانجلى الصدى
إمام أجلّ الله في الكون قدره ... وتوّجه تاج القبول وأيدا
مآثره في الدين يعسر حصرها ... فغاية ما عندي القصور وقد بدا
وقد أصدر الأمر الكريم مخاطباً ... لأنصار دين الله حالاً ومبتدا
وقال لهم قوموا بكامل جهدكم ... لنحرز اجراً في البنيّة سرمدا
وبادر أبقاه الاله مسارعاً ... يباشر اعمال البنيّة مرشدا
ومن بعده الانصار تحت اشارة ... له وهو بدر في سماء العلا بدا
فجاءت بحمد الله أعظم قبة ... حوت كل مجد لا يعد وسوددا
فيا زائراً تلك البنية لائذا ... بقبر حوى الفضل الجسيم المؤبدا
توسل ببشرى المصطفى متأدباً ... لتظفر بالحسنى وتبلغ مقصدا

وقف خاضعاً وارجُ القبول مؤرخاً ... بقبة مهديّ الأنام ترى هدى

وقد نقش تاريخ القبة على حجر رخام فوق عتبة بابها الجنوبي سنة ١٣٠٦ هـ .

قتل محمد نور في جمادي الاولى سنة ١٣٠٥ هـ فبراير سنة ١٨٨٧ م :

هذا وعلى أثر بناء الجامع ظهر في أم درمان رجل من الفادنية يدعى محمد نور جاهر بإنكاره المهدية ورفض الصلاة في الجامع فاتصل خبره بالخليفة فحاكمه بمجلس من القضاة حضره الامير محمد الخير لأنه كان اذ ذاك في امدرمان فحكم المجلس بقتله فقتل شنقاً وكتب الخليفة بشأنه الى جميع امرائه في الجهات ومما كتبه الى ابي عنجة في ٢٨ جمادي الاولى سنة ١٣٠٥ هـ ١١ فبراير سنة ١٨٨٨ م :

« وبعد فمن عبد ربه خليفة المهدي عليه السلام الخليفة عبد الله بن محمد خليفة الصديق الى المكرم حمدان ابي عنجة كان الله له آمين . بعد السلام نعلمك انه ظهر رجل بهذا الطرف يدعى محمد نور فأعرض عن الدين ونفر من جهتنا غاية النفرة حتى انه لم يصلّ بالمسجد معنا وقد توجه اليه بعض الاصحاب الثقات مراراً في محله فوجدوه في غاية الاعراض والانكار . ثم أحضر عند القضاة في المحكمة فقالوا له ان الله سبحانه وتعالى يقول أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم وان خليفة المهدي « عم » قد ولاه الله علينا وطاعته واجبة فقال لهم المراد من أولي الامر هو الله. فقالوا له ان الله تعالى قال أولي الأمر منكم فكيف مع هذا تقول ما ذكرته فلم يعترف بخطأه وما زاد إلا نفوراً . ومع ذلك فانه منكر قتل من قتل على يد المهدي « عم » كأهل الخرطوم وغيرهم من الأعداء الذين خرجوا من الدين بكفرهم بالامام المهدي « عم » ومحاربتهم له وليس مصدقاً بكفرهم . ولما لم يرجع عن اعراضه حكم الشرع بقتله فصلب وقد أكلت النار لسانه ولحيته ويديه

ورجليه وسرحت فيه وتغير لونه والعياذ بالله من ذلك وبعد ذلك أمرنا فأخرج من الديم خارج قبور المسلمين وقد حررنا هذا لاعلامكم بما كان ... » اه .

التعايشي وقبائل السودان سنة ٨٦ : ١٨٩٠ :

تقدم ان التعايشي بعد موت المهدي كتب الى مشايخ السودان كافة من حضر وبادية بالحضور الى ام درمان لتجديد البيعة على يده والتبرك بزيارة قبر المهدي فمن أطاع ونصره رضي الله عنه ومن عصى جرّد عليه حتى أقمعه ونكل به وبأهله كما فعل بصالح الكباشي وأهل الكبابيش ومادبو شيخ الرزيقات وكثيرين غيرهم من القبائل والأفراد نخصّ بالذكر :

عوض الكريم باشا أبا سن شيخ الشكرية : المار ذكره فانه تمنع عن اجابة داعي المهدي الى ان سقطت الخرطوم فحضر الى ام درمان وسلم للمهدي فعفا عنه . وبعد موت المهدي امره الخليفة فكتب الى رؤساء قبيلته يدعوهم الى الحضور الى ام درمان بخيلهم وإبلهم ولما لم يحضروا قبض الخليفة عليه وزجه في السجن فمات قهراً سنة ١٣٠٤ هـ وجرّد على الشكرية فقتل وسبى وغنم حتى استجاروا بالحبشة والانكليز ومن ذلك قول شاعرهم الحاردلّو اخي عوض الكريم باشا :

ناس قباح من الغرب يوم جونا — جابوا التصفية ومن البيوت مرقونا
اولاد ناس عزاز مثل الكلاب سوّونا — يا يا با النقس يا لانكليز الفونا

ومحمد البشير علي طه بن جن شيخ الحمدة : فانه أبى الحضور الى ام درمان فظل يتتبعه حتى ظفر به وقتله ونكل بأهله تنكيلا وذلك سنة ١٣٠٤ هـ .

ومحمود ود زايد شيخ الضباينة : فانه رفض اجابة داعيه فأمر عثمان دقنة فجرّد عليه عوض الكريم كافوت بمدفع جبلي و ٤٠٠ رجل مسلحين بالبنادق فوجده مستعداً للحرب بقوة كبيرة فخادعه حتى جرّه الى معسكره

فقبض عليه وكبله بالحديد وجرّده من جميع ماله وأرسله الى ام درمان والى ذلك أشار الحاردلّو بقوله :

يا شايل الجواب وديه للحمراني — وقل له الزمان مثل الكلب سوّاني
اكتب لي جواب ياصاحبي لا تنساني — ولد زايد يقول ظاهر الامان غشاني

وبقي ود زايد في سجن الخليفة الى سنة ١٣٠٧ هـ فعفى عنه وعاد الى بلاده فمات ذليلا .

والمرضي أبا روف شيخ بني حسان : السالف الذكر فانه حضر الى ام درمان بعد فتح سنار وبايع الخليفة فأمره بالعودة الى بلاده وجمع رجال قبيلته للجهاد فذهب الى قومه ولم يرجع فبعث الخليفة يستعجله فأخذ الأسلحة من الرسل ونصره قومه قيل وذبحوا الثيران التي عنده وقالوا للرسل اذهبوا الى التعايشي وأخبروه أننا ذبحنا هذه الثيران لأنها تشبه لباس الدراويش وتجمعوا في قوز الاهليلج تجاه فاشودة واستعدوا للحرب . وكان ذلك على اثر عودة أبي عنجة الى جبال النوبة فأخرج التعايشي سرية قوية من هذا الجيش وعقد لواءها لعبد الله ود ابراهيم والزاكي طمل وأرسلها عليهم بطريق النيل الابيض وأرسل اسماعيل ود الامين من مشايخ حمر برجالها بطريق النيل الازرق فنزلوا في أبي شوكة وقطعوا خط الرجعة عليهم . فسار عبد الله ابراهيم بالوابورات حتى أتى الجبلين فأنزل جيوشه الى البر وتقدم الى قوز الاهليلج فأوقع في المرضي وقومه واقعة مشهورة فقتله هو وجميع كبار جيشه وفيهم الشيخ محمد ابن الشيخ مالك ومردس شيخ العلاطين وابراهيم ود صابون شيخ العقليين والفقيه ابراهيم ود خالد وغيرهم . ومن فرّ من الواقعة وقع في يد جيش النيل الازرق فاجتمع عند أنصار الخليفة عدد لا يحصى من الأسرى والغنائم من الابل والغنم فأتوا بها الى الخليفة فوزع الأسرى في الجهات وضم الغنائم الى بيت المال . واخترق عبد الله ود ابراهيم الجزيرة وأتى أبا حراز في ٣ صفر سنة ١٣٠٥ هـ

٢١ اوكتوبر سنة ١٨٨٧ م حيث كان أبو عنجة ينتظره فسار معه الى القلابات كما مر .

قتلة البطاحين نوفمبر سنة ١٨٨٨ : هـذا وفي مجاعة سنة ١٣٠٦ هـ فرّ بعض البطاحين من جيش النجومي لشدة ما أصابهم من الجوع في دنقلة وأتوا الى باديتهم شرقي النيل الازرق بين رفاعة والحلفاية ورجعوا الى عادتهم من قطع السابلة ونهب المارة فأرسل اليهم التعايشي الامير ود جار النبي من جيش الخليفة ود حلو بنفر قليل من الانصار يدعوهم الى ام درمان فحاربوه وقتلوا بعض رجاله فجرّد عليهم التعايشي جيشاً يزيد على ٢٥٠٠ مقاتل من حرابة وجهادية وخيالة فأوقع فيهم واقعة شديدة وقتل معظم أكابرهم وساق الباقين الى ام درمان وفيهم ٦٧ رجلاً فجعلهم الخليفة اربع فرق فرقة قتلت شنقاً وفرقة ضربت أعناقها واخرى قطعت أيديها اليمنى واخرى قطعت أيديها وأرجلها من خلاف . وقد أثبت سلاطين باشا هذا المشهد في كتابه « السيف والنار في السودان » فاذا هو مما تقشعر له الأبدان ويقضي بأن البشر قد يبلغون في الشراسة مبلغاً تقصّر عنه الوحوش الضارية .

الخليفة والبقارة : ورأى الخليفة ان سكان النيل لا يقيمون على ولائه اذا ضعف أمره او خانه دهره فبعث الى مشايخ البقارة في جنوبي كردوفان ودارفور يستحثهم على الهجرة الى ام درمان بخيلهم وابلهم ومواشيهم ليعزّز بهم ملكه ويأمن بهم غدرات الزمان وقد كرّر أجوبته لهم وأكثر من الوعود براحتهم وبدأ بهذا المسعى بجد واهتمام منذ سنة ١٣٠٤ هـ . على ان البقارة فضلوا جدب صحرائهم وحرية البادية على خصب النيل وعزّ الملك ولسان حالهم ينشد قول تلك البدوية التي زوجت للحضر :

لبيت تخفق الارياح فيه ... أحبّ الي من قصر منيف
ولبس عباءة وتقرّ عيني ... أحبّ اليّ من لبس الشفوف
وأكل كسيرة في كسر بيتي ... أحبّ اليّ من أكل الرغيف

خشونة عيشتي في البدو أشهى ... الى نفسي من العيش الظريف
فما أبغي سوى وطني بديلا ... فحسبي ذاك من وطن شريف

لكن الخليفة صمم على انفاذ رأيه فيهم فأمر عماله بتخريب ديارهم وجلبهم الى ام درمان بالرغم او بالرضى فهاجر الوف من التعايشة والرزيقات والهبانية والحمر وغيرهم فسرّ الخليفة بهم سروراً عظيماً وكتب الى أبي عنجة بتاريخ ٨ محرم ١٣٠٦ هـ ما نصه :

« بعد السلام نعلمك انه بحمد الله قد انتهى أمر التعايشة فحضروا من بلادهم بأكملهم والآن قاموا من الفاشر وأولهم قد وصل جبل الحلة وهم كثار حتى لقد يبلغون من عائلة الجاهد نحو ستين الفاً وكون ذلك مما يزيد المسرة في الدين حرّرنا لك هذا . ثم ان الهبانية حاضرون جميعهم بعد التعايشة بواسطة المكرم عثمان آدم ومن بعدهم يحضر قبائل متفرقة من اهالي الناقة وخلافهم رزيقات وغيرهم نساء ورجال والله ينصر الدين ويخذل الكافرين ... » اه .

وما زال البقارة يفدون الى ام درمان الى آخر سنة ١٣٠٧ هـ فاستقبلهم الخليفة احسن استقبال وأسكنهم على الرحب والسعة ومع ذلك حاول الكثير منهم الفرار فأرسل الخليفة الى عثمان آدم « بالبحث عن الفارين وارجاعهم الى ام درمان بالشعبة والجنزير مع المحافظة القوية » . وفر الغزالي كبير التعايشة فألحق به بعض الجند فأدركوه على يومين من ام درمان فقتلوه وأتوه برأسه . هـذا بعض ما فعله التعايشي بقبائل السودان وسيأتي ذكر ما فعله بالشلك وبالاشراف وأقارب المهدي .

الجوع في السودان سنة ٦ : ١٣٠٧ هـ سنة ٨٨ : ١٨٩٠ م :

مضى خريف سنة ١٣٠٦ هـ سنة ١٨٨٨ م فلم يقع مطر كاف في السودان ولا زاد النيل الزيادة المعتادة . ثم جاءت سنة ١٣٠٧ هـ ٨٩ : ١٨٩٠ م فأتى الجراد وأكل معظم الزرع وأحضر التعايشي أهله البقارة من الغرب كما مرّ فأكلوا ما في البلاد من الحبوب المذخورة فأصاب الناس في السنتين المذكورتين

جوع عظيم لم يروا مثله في سالف الأعصار فأهلك منهم اضعاف مـا اهلكته الحروب والأوبئة. وقد اقفل الكثير عليهم الابواب وماتوا جوعاً هم وأولادهم لكي لا يضطروا الى التسول فيعيروا بذل السؤال . وعمّت هذه المجاعة جميع بلاد النيل والسودان الشرقي والغربي ما عدا فاشودة فذهب التجار اليها وأتوا منها بالحبوب الى أم درمان فخففوا بعض المصاب على اهلها . ولقد رأيت في كتب عمال الجهات الى الخليفة ما يشير الى هذه المجاعة . من ذلك مـا كتبه اليـه النجومي من دنقلة في ٩ صفر سنة ١٣٠٦ هـ ١٥ اكتوبر سنة ١٨٨٨ م : « ومما ينبغي الاخبار عنه من احوال دنقلة هو الضيق الحاصل فيها هذه السنة بخلاف عاداتها وذلك لأن انتاج الحبوب قليل لعدم فيضان البحر فيها فكثير من الاماكن التي كانت تنتج الحبوب عندهم كالجزائر الكبار ما عمّها النيل ولا زرعت. والزراعة فيها قليلة وأهلها يشكون الضيق والتعب من عدم العيوش..»

وكتب اليـه عثمان الدكيم من بربر في ١٤ القعدة سنة ١٣٠٦ هـ ١٢ يوليو ١٨٨٨م يقول: «...ان الاردب الواحد من الذرة بلغ في الثمن ستين ريالاً...»

وخرج الزاكي طمل من القلابات الى القضارف طلبـاً للقوت وكتب الى الخليفة في ١٨ شعبان سنة ١٣٠٦ هـ : « ... والحال سيدي ان الجيش بعد ما حررنا في طلوعه لأرض العدو قد تزايد به الضرر من جهة المعايش وعمّ ذلك الكافة صغيراً وكبيراً مجاهداً وعائلة حتى صاروا يأكلون الجيف ويلتقطون الحبوب من الارض في الطرق والمزابل ومحلات الرماد وهم الآن بحالة لو رآها سيدي لرثى لهم .. وتفرق الغالب منهم في الجهات في التماس المعايش وبعضهم يلتقطون القشوش والأشجار من الاودية مسافة ٣ ايام او اربعة ... لذلك قد أخّرنا السرية عن التوجه الى الحبشة ونحن كذلك غير متيسر توجهنا اليها الآن لأن الجيش قد اشتغل بنفسه ... وفي هذين اليومين قصدنا ارسال سرية الى جهات الجبال الصعيدية كمثل أبي رملة وما يليه فيها ٨٠٠٠ رجل ٤٠٠٠ سلاح ناري و ٤٠٠٠ حرابة وفي رأسها عبد الرسول عمر فبذلك تحصل مداركة الجيش بما يحضرونه من المواشي وهم ايضاً يتمعشون ... »

وقد اجتمعت بكثيرين ممن حضروا هذه المجاعة في السودان فقصوا عليّ كثيراً مما قاسوه بأنفسهم وما شاهدوه بغيرهم . من ذلك ما حكاه لي عمر بك ابو سن قال: «خرجت من الخرطوم في شهر محرم سنة ١٣٠٧ هـ قاصداً رفاعة فمـا أقبل الليل حتى تراكمت السحب وخفنا ان يداهمنا المطر في الطريق فعرجنا الى حلة في الجزيرة تسمى « ولد عشيب » للمبيت فيها فوجدنا ابواب منازلهـا مقفلة ولا يسمع فيهـا صوت انسان فعمدنا الى باب دار فخلعناه فانتشرت منه رائحة منتنة فأوقدنا ناراً لنرى ما الخبر فاذا بأهل المنزل رجالاً ونساء وأطفالاً قد رقدوا على أسرتهم موتى ثم طرقنا بيتاً آخر فسمعنا صوت أنين ضعيف فدخلناه فـاذا بسكانه قد أشرفوا على الهلاك فسألناهم عن الخبر فأومأ الينا صاحب الدار ان اطعمونا فنعلكم بحالنا فأحضرنا لهم ما تيسر من الزاد فأكلوا وشربوا وأكل بعضهم بنهم زائد فماتوا في الحال وقـال صاحب الدار ان القحط قد بلغ حده عند اهل البلدة بسبب انحباس الأمطار فأقفلوا عليهم الابواب فماتوا جوعاً كما ترون » اه .

وأخبرني من أثق بـه انه دخل منزلاً في المتمة من اهل البيوتات فرأى صاحب المنزل ميتاً على سريره وأولاده موتى بجانبه وقـد ربطهم الى قائمة السرير لئلا يفلتوا ويضطرهم الجوع الى التسول فيعيّر بهم .

وحدثني احـد الثقات قال : كنت في مجاعة سنة ١٣٠٦ هـ في كسلة في امارة حامد علي البقاري وكيلا على السوق فدخلت ذات يوم منزلاً فوجدت امرأة تطبخ في قدر فكشفت القدر فاذا فيهـا يدا عروس لا يزال عليها أثر الحنـاء فسألتها عن ذلك فقـالت اني دخلت ليلاً على عروس فلان مع فلانة وفلانة فوجدناها قد أشرفت على الهلاك جوعاً فذبحناها واقتسمنا لحمها للتقوت به . قال محدثي : وكثيراً ما رأيت الموتى قد بقرت جثثهم وأخذت اكبادهم طعاماً للجياع . الى غير ذلك من الاخبار الرائعة والانباء المحزنة .

قتل ابراهيم ود عدلان سنة ١٣٠٧ هـ :

تقدم ان الخليفة عزل احمد سليمان وسمى ابراهيم ود عدلان المار ذكره في

حصار الابيض أميناً لبيت المـــال فأحسن ادارته ونقله من مكانه الاصلي الى شاطىء النيل لتقليل نفقـات النقل ومشقاته ونظم أساليب الدخل والخرج وضرب الريالات مازجاً فضتها بالنحاس . وقـــد علم كيف يكتسب رضى الخليفة فخصه وأقاربه بالنصيب الاكبر من بيت المال فبقي مكرّمـاً مسموع الكلمة الى ان كانت سنة ١٣٠٧ هـ وتم ورود البقاره من الغرب فأمره الخليفة ان يمضي الى الجزيرة ويقنع اهلها بارسال مـا استغلوه من الذرة إعانة للبقارة بلا ثمن فذهب مكرهاً لأنه لم يكن يرضى بالجور الى هذا الحد وكان قد أثرى من بيت المال وكثر حساده فوشوا بـه الى الخليفة انه غير راض بأمره وانه نسب المجاعة التي حصلت سنة ١٣٠٦ هـ اليـه والى سلبه الناس لأجل قبيلته وكان اكبر خصومـه يعقوب أخا الخليفة فاستدعاه الخليفة الى أم درمان ووبخه توبيخاً صارمـاً وكان ود عدلان جـسوراً أبيّ النفس فقال له نعم انك بتفضيلك لقومك نفرت منك قلوب الذين كانوا يخلصون لك وأنا لا اقدر ان اخدمك بعد . فاضطرب الخليفة من هذا الكلام وقال في نفسه ان الرجل لم يتكلم بهذه الجرأة إلا وله انصار في البلاد ولم يستعف من منصبه إلا وهو على ثروة طائلة وقد صمم على الفتك به لكنه اضمر الكمد وأظهر الجلد وقال له : اذهب الآن وغداً أرد لك الجواب . فطلب الخليفتين والقضاة وأخاه يعقوب ثم استدعى ود عدلان وعنفه امامهم على جرأته ثم أمر الملازمين فقبضوا عليه وخفوا بـه الى السجن وأمر باستصفاء امواله ولكن ود عدلان رشى السجان وأسرع الى بيته ليلاً وأخفى أمواله في مكان قيل انه لا يزال مجهولاً الى اليوم وعاد الى السجن فلما جاء رسل الخليفة لاستصفاء ماله لم يجدوا منه إلا النزر اليسير . هذا وكان الملازمون عند القبض عليه وجدوا ورقة في جيبه عليهـا اسم الخليفة وكتابة مبهمة فقال الخليفة انها طلسم اراد ان يسحرني بـه فحكم عليه بالقتل فقيد الى المشنقة فصعد الى السلم بقدم ثابتة وأسلم الروح . وسمي في مكانه النور الجريفاوي من تجار الخرطوم سابقاً وسيأتي ذكره .

الباب التاسع

في

استرجاع السودان

الفصل الاول

في

استرجاع طوكر

في ١٩ فبراير سنة ١٨٩١

تقدم ان الحكومة المصرية ما خرجت من السودان إلا مكرهة مضطرة فوقفت عند حدودها في حلفا على النيل وفي سواكن على البحر الاحمر وهي غير آيسة من الرجوع الى السودان بل ما زالت تؤمله وتترقب الفرص . وقد تسنت لها فرصة بعد واقعة طوشكي سنة ١٨٨٩ فأعوزها المال كما قدمنا . ثم أتاحت لها فرصة في سواكن في اوائل سنة ١٨٩١ فاسترجعت طوكر بنفقة لا تذكر واليك البيان :

غزوة عثمان دقنة للحباب : قد ذكرنا ان عثمان دقنة هجر هندوب بعد واقعة الجميزة واحتل بلاد طوكر الخصيبة فاشتغل في تهريب الرصاص من أرض الحجاز الى السودان وقد ترك عصابة من الرجال في هندوب وأخرى في تماي فقطعوا السابلة وضيقوا على سواكن وكثر تهريب الرقيق الى الحجاز من داخلية السودان وكان المحافظ على سواكن الى هذا العهد هولد سمث باشا

فرأى ان لا يمكن اصلاح الحال إلا بطرد عثمان دقنة من طوكر فأخذ يترقب الفرص لذلك .

ولما دخلت سنة ١٨٩١ خرج عثمان دقنة بمعظم جيشه لغزو الحباب الذين خرجوا عن طاعته ولم يبق في طوكر إلا حـامية صغيرة فأبلغ هولد سمث الخبر تلغرافياً الى السردار في ١٥ يناير سنة١٨٩١ واستأذنه في مهاجمة طوكر بما لديه من العساكر قبـل عودة عثمان اليها وكان السردار اذ ذاك في الحدود النيلية بمعيـة المغفور له توفيق باشا الخديوي السابق فرجع الى مصر للنظر مع رجال الحكومة في اغتنام هذه الفرصة .

أخذ هندوب وتماي: وتمهيداً للزحف على طوكر اخذ هولدسمث الاورطة الحادية عشرة وبعض الفرسان ونزل على هندوب في ٢٧ ينـاير وكان فيها نحو ١٠٠ رجل فقتل نحو ٤٠ رجلا وفيهم مقدمهم رقعة وهزم الباقي الى الجبال . وفي ٢ فبراير ارسل العربان المتحابة الى تمـاي وكان فيها ٥٠ رجلا عليهم الشريف قبسة فأسروا الشريف المذكور وبعض اصحابه وعادوا الى سواكن .

الزحف على طوكر : وفي ٨ فبراير أقرت الحكومة على استرجاع طوكر فأبلغ السردار قرارها الى هولدسمث تلغرافياً وأرسل اليه بعض أركان حربه من مصر لمساعدته على الفتح وهم اللواء ستل باشا رئيس اركان حربه والقائمقام ونجت بك مدير قلم المخابرات (السردار الحالي) والميرالاي رندل بك . وكنت في هذا العهد في قلم المخابرات تحت ادارة القائمقام ونجت بك فصحبته انا وملحم بك شكور سكرتير عربي السردار . فدخلنـا سواكن في ١٤ فبراير فوجدنا هولدسمث قد سبقنا بالعساكر الى ترنكتات ومعه من اركان حربه البكباشي ابراهيم افندي فتحي فلحقناه اليها في اليوم التالي .

وفي صباح ١٦ فبراير أبقى هولدسمث في مرمى ترنكتـات بلوكاً من العساكر وسار نحو ساعة حتى بلغ اليبس فأقام مخزناً للماء حصنه بمدفعين وبعض العساكر واستطرد السير قاصداً التيب بالقوة الآتيـة : اورطة من السواري

ومدفعين كروب والاورطة الرابعة المصرية والاورطتين السودانيتين الحادية عشرة والثانية عشرة وبعض رجـال القسم الطبي ومجموع الكل ٨٥ ضابطاً و ١١٩٦ عسكرياً و ١٥١ جواداً و ١٩٥ جملا و ٣٠ بغـلا و ٤٦ حماراً . وقبل وصولنا الى التيب بقليل رأينا عظام القتلى قد انتشرت أكداساً في سهل فسيح تعلوه الانجم فعلمنا أننا في ميدان واقعة باكر. وعند العصر بلغنا التيب فوجدنا الآبار مسدودة وكان الجيش قـد أحضر معه بعض الفؤوس والفعلة فحفرها وأخذنا منها كفايتنا من الماء وبتنا على نية استطراد السير نحو طوكر في فجر الغد . ولكن ما طلع الفجر حتى ثارت زوبعـة شديدة غشيت الجو والطرق بسحاب غبار كثيف دام عدة ساعات فانتظرنا الى صباح اليوم التالي.

هذا وكان عثمان دقنة قـد عاد من غزوة الحباب وعلم باحتلال هولدسمث لهندوب فترك ابن الطاهر المجذوب وكيلا عنـه في طوكر وقام لساعته بمعظم أنصاره قاصداً استرجاع هندوب فلما وصل تماي حتى جـاءه رسول من ابن الطاهر المجذوب يعلمـه بخروج العساكر من ترنكتات قاصدين طوكر فرجع على الاثر ودخل الديم الاثنين في ١٦ فبراير وكان الديم في بقعة خصيبة تسمى عفافيت على نحو ٣ أميال الى الجنوب من طوكر القديمة وهو ديم متسع محيطه ٤ اميال وفيه نحو ٦٠٠٠ طفـل . فحال وصوله ضرب نقـارة الحرب وجمع أهل بادية طوكر الى جيشه فاجتمع عنده في ذلك اليوم : ٦١٣٠ مقاتل منهم ٥٠٠ رجل من الارتيقـة والجميلاب والنوارب والاشراف والدقناي والخاسة وغيرهم من أهل بادية طوكر وكلهم مسلحون بالسيوف والحراب والدرق و ٧٠٠ من الاغراب الجعليين والدناقلة والبقارة معهم ٣٠٠ بندقية و ٣٠٠ جهادي مسلحين بالبنادق و ١٣٠ فارساً .

وفي ظهر الثلاثاء في ١٧ منه خرج بجميع مقاتليه الى ظاهر الديم فلم يبق فيه سوى النساء والاولادوجعلهم اربعة ارباع في كل ربع خليط من الوطنيين والاغراب والجهادية وجعل على ربع اميراً وكان امراء الارباع : شايب احمد والشريف حمد النيل ومحمد احمد واحمد بدوي أبو صفيّة وجعل على الفرسان

عثمان نائب وكلهم من مولدي الدناقلة وقد جعله وراء الجيش ليمنع الناس من الفرار وأرسل طلائعه لتنبئه بحركات الجيش .

هذا وكنا عند وصولنا ترنكتات قد علمنا برجوع عثمان دقنة الى طوكر ولكننا لم نتحقق ذلك حتى مساء ١٦ فبراير اذ فرّ الينا محمد اغا حسين الشايقي من ضباط كردوفان الباشبوزق فأخبرنا برجوع عثمان من غزوة الحباب وشخوصه الى هندوب . وفي فجر ١٨ فبراير قبض كشافة الجيش على طليعة لعثمان فأكد لنا رجوعه الى عفافيت واستعداده لملاقاة الجيش وانه يوم رجوعه شنق ثلاثة من مشايخ البلاد لأنهم حاولوا الفرار الى الجيش وقطع يد ورجل ٢٠ رجلاً منهم لاتهامه اياهم بالجاسوسية .

واقعة طوكر في ١٩ فبراير سنة ١٨٩١ :

وفي فجر ١٩ فبراير ترك هولد سمث في التيب المدفعين و ٥٠ رجلاً من الطوبجية ونصف بلوك من الاورطة الثانية عشرة وسار بالجيش الى طوكر تتقدمه السواري وكان في مقدمة السواري القائمقام ونجت بك فالتقى بطلائع العدو عند خرائب طوكر القديمة فردّهم على اعقابهم وبعث يستحث الجيش على الاسراع لاحتلال تلك الخرائب والامتناع بها قبل وصول العدو فسار الجيش حثيثاً حتى وصلها الساعة ١٠ صباحاً فاتخذ من جدرانها متاريس واصطف فيها على شكل نصف دائرة جاعلاً حملة الماء والذخيرة وراءه ومكث هولد سمث وأركان حربه في الوسط . وفي اثناء ذلك كنا نرى العدو من خلال الأنجم التي ملأت السهل من حولنا وهو مقبل نحونا ركضاً قصد احتلال الخرائب قبلنا فسبقناه اليها ببضع دقائق ولو سبقنا اليها لاستحال علينا اخراجه منها وترجح رجوعنا عنه بالخيبة والخسران وكان الفضل كل الفضل في هذا السبق للحازم الباسل القائمقام ونجت بك كما ذكرنا . وأتم الجيش انتظامه في الخرائب حتى كان العدو قد اصبح على قيد ٥٠ يرداً منها ففتح الجيش افواه البنادق وصب الرصاص عليه كالمطر الوابل وأجاب العدو نيراننا

واشتد القتال باطلاق الرصاص من الجانبين . وقد كنت قبل بدء القتال على قمة تلة بين الخرائب أشاهد العدو وهو مقبل علينا فبقيت على تلك التلة أشاهد القتال فكان رصاص العدو على كثرته قليل الاصابة عالي المرمى حتى انه كان يمر فوق رأسي مع شدة ارتفاع موقفي وأما رصاص الجيش فقد كان صائباً فتاكاً فكنت أرى ابطال العدو مهاجمين والرصاص يجندلهم الواحد بعد الآخر حتى كان بعضهم يقتل على قيد متر او مترين من صفوف الجيش . ولما كثر القتل فيهم رأيت فرسانهم يدورون حول الجناح الايمن قصد مهاجمتنا من الوراء فمد الجيش جناحه وصلاهم ناراً حامية فجندل ابطالهم وصدهم عنه ولكن فاز اميرهم عثمان نائب باختراق الصف وإذ قتل فرسه من تحته هجم راجلاً وبيده الحربة وهو ينادي : « اين الملعون كبيركم » فتصدى له الكبتن ماتشل قومندان الحملة (مستشار الداخلية الآن) ورماه برصاصة من مسدسه فاحتمل الضربة وظل مهاجماً ثم رأيت محمد بك احمد مأمور سواكن قد كرّ عليه راكباً جواده وشاهراً سيفه ولكنه قبل ان يدركه وقع يخبط بدمائه عند أسفل التلة التي كنت جالساً عليها فضربه بالسيف ضربة فأجهز عليه . واخترق صف العساكر ايضاً فارس آخر يدعى الأخيضر فقطع ارباً . ثم ان رماحة الدراويش حاولوا ان يدوروا حول الجناحين فلم يفلحوا ودامت الواقعة في احتدامها ساعة ونصف ساعة فكانت أشد الوقائع التي جرت للجيش مع الدراويش وحق لجميع الضباط والعساكر الذين اشتركوا فيها كل مدح وثناء. وقد انجلت عن انهزام عثمان دقنة وانصاره فمروا بديمهم وأخذوا نساءهم وما خفّ من الامتعة وفرّوا جنوباً وما ابعدوا حتى انقسموا فريقين فريقاً انضم الى الامير شايب فذهب الى حامد علي البقاري في كسلة وفريقاً بقي مع عثمان دقنة فنزل في ادارأمه على الاتبرة . وزحف الجيش على الديم وكان قد تخلف فيه كثير من اهل البلاد وجماعة من رجال الفتح الاول الذين كانوا في أسر الدراويش من ضباط وعساكر وملكية وتجار فرفعوا راية بيضاء وخرجوا لاستقبال الجيش فتلقاهم بالترحيب واحتل الديم مساء يوم الواقعة

وبذلك عادت بلاد طوكر الى الحكومة المصرية بعد ان رتع فيها الدراويش سبع سنين . وقد قتل من الجيش في هذه الواقعة ضابط و ٩ عساكر وجرح ٤٨ رجلاً وأما الدراويش فقد بلغ عدد قتلاهم ٧٠٠ رجل فيهم ١٧ اميراً وزاد عدد جرحاهم على ذلك .

الغنائم : ثم جمعت الغنائم من الديم فكانت أكداساً عظيمة من الأسلحة القديمة والجبخانة والرصاص والنقاقير والذرة والأثاث وفيها ٤ مدافع وخيام من ايام باكر . وقد وجدتُ بين دفاتر بيت المال وأوراقه تاريخ وقائع عثمان دقنة كما قدمه للخليفة فاطلعت منه على حقائق شتى . وبيعت الغنائم التي لم يحتج الجيش اليها بالمزاد فاشترى القائمقام ونجت بك نقارة كبيرة عليها كتابة قديمة تقرأ هكذا : هذه نقارة الفضة ... نقارة سلطان الحبشة السلطان ياسو ابن السلطان الكبير .. بيوم الاثنين ... سنة ١١٠٧ ... يوم جاء بنفسه فقتله السلطان بادي في شهر صفر » وعليها كتابة اخرى حديثة بأحرف رفيعة : ملك السيد محمد احمد الشيخ ادريس سنة ١٣٠٤ .

ولم نرَ في عفافيت شيئاً يستميل النظر سوى مشنقتها وجامعها وهو عبارة عن عدة رواكيب من قش بعضها بجانب بعض . وبجانبه قبر الطاهر المجذوب الذي مات سنة ١٨٩٠ . وثاني يوم الواقعة جاء مشايخ البلاد المجاورة وقدموا الطاعة للجيش فعفي عنهم . وفي ٢٣ فبراير حضر السردار غرنفل الى عفافيت وأرسل منشورات الى اهل بادية السودان الشرقي كافة يخبرهم باحتلال الحكومة لطوكر ويدعوهم الى مجلس في سواكن . وفي ٣ مارس أخذ اركان حربه والمحافظ وعاد بطريق تماي وسنكات فوصل سواكن في ٧ مارس وفي ٨ مارس عقد مجلساً مع مشايخ البلاد فصرح لهم بالعفو باسم افندينا . وفي ٩ منه عاد الى مصر هو وأركان حربه فعدت معهم .

ولاية سمو الخديوي عباس باشا حلمي الثاني في ٨ يناير سنة ١٨٩٢ :

وكانت طوكر البلاد الوحيدة التي استرجعها الجيش في عهد المغفور له

توفيق باشا الذي انتقل الى رحمة ربه في ٧ يناير سنة ١٨٩٢ . وكان نجله الاكبر عباس باشا حلمي (الخديوي الحالي) اذ ذاك يتلقى العلوم في كلية برلين فوصل مصر في ١٦ يناير وقرىء الفرمان السلطاني بتوليته في قصر عابدين في ١٤ ابريل من السنة المذكورة فكان استرجاع السودان في ايامه السعيدة ادام الله نصره وأيده .

الفصل الثاني

في

استرجاع كسلا عن يد التليان

في ١٧ يوليو سنة ١٨٩٤

مع ذكر وقائع فاشوده والسودان الشرقي سنة ١٨٩٦-١ :

غزوة الزاكي طمل للشلك : تقدم لنا ذكر قتل ملك الشلك في واقعة راشد بك في قدير فتولى الشلك بعده الملك عمر قيل انه ذهب الى المهدي فأعطاه البيعة وثبته ملكاً على بلاده فبقي لا يعارضه فيها معارض الى ان كانت مجاعة سنة ٦ – ١٣٠٧ هـ فأرسل اليه الخليفة جيشاً في باخرتين لجلب العشور منه فأبى تأدية العشور ولكنه ارسل اليه ٢٠٠٠ اردب ذرة على سبيل الهدية.

فلما كانت سنة ١٣٠٨ هـ أنفذ الخليفة أمره الى الزاكي امير القلابات فخرج بنحو ٢٠ الف مقاتل واخترق الجزيرة الى بلاد الشلك فوجد الملك عمر قد حشد الجيوش واستعد لمحاربته فأوقع فيه وقائع دموية حتى قتله فأرسل رأسه الى الخليفة وبقي يعيث في بلاد فاشودة فيسترق اهلها وينهب ماشيتهم وغلالهم الى اواسط سنة ١٨٩٢ .

سفر الزاكي طمل الى القضارف : فاستقبله الخليفة احسن استقبال وأرجعه بجيشه الى القضارف في اوائل سنة ١٨٩٣ بطريق ابي حراز ليكون مع جيش كسلا في صدد التليان الذين كانوا يمدون حدودهم في الأرتريا جنوباً وغرباً فبنى الزاكي في القضارف قصراً جميلاً وعاش بأبهة عظيمة . فسعى به بعض حساده الى الخليفة وفيهم حامد البقاري وعبد الله ابراهيم من أمراء جيشه بأنه طامح الى الاستقلال . قيل وقد أساء معاملة الامراء الذين رأى منهم الانحراف عنه .

موت الزاكي في سجن ام درمان : فاستدعاه الخليفة الى أم درمان فحضر الجمعة في ٢٥ اوغسطس سنة ١٨٩٣ . فألقى القبض عليه وزجه في السجن وكبله بالحديد ومنع عنه الغذاء فمات جوعاً في ١٦ سبتمبر سنة ١٨٩٣. وكان رجلا جباراً عبوساً طويل القامة قليل اللحم متماسك البدن اسمر اللون جداً خفيف اللحية طويل الشاربين ونقش خاتمه : « وفق لأحسن العمل عبدك الزاكي طمل» . وقد غنم الخليفة ماله فوجد عنده ٥٠ الف ريال مجيدي وأبو طيره وحلى ثمينة من غنائم الحبشة وكثيراً من الخيل والماشية والرقيق . قيل وكان عنده من النساء فوق المئة ومن الاولاد ٢٧ فوزع الخليفة النساء اللواتي لهن اولاد على عبيده واللواتي ليس لهن اولاد على خاصة رجاله .

وكتب الى امرائه في الجهات يخبرهم بسجن الزاكي ثم بموته فما كتبه الى محمود احمد امير الفاشر في سجنه : « ... هذا ونعلمك أيها المكرم ان الزاكي طمل قد كثرت فيه التشكيات من الانصار الذين معه وتضرر كثيراً من سيره فيهم بالعنف وضيق الاخلاق وتغير احواله فطلبناه لطرفنا ومعه العمال وبالممارسة لأحواله وجدنا ان به عارضاً شديداً وقيل انه كان معه من سابق إلا أنه اشتد عليه في هذا الوقت وبأسباب ذلك أجرينا زجره وحبسه بالمشورة فان طاب وشفي من ذلك العارض فبها وإلا فتصير معالجته منه الى ان يقدّر الله له الشفاء او يقضي الله أمراً كان مفعولاً... والسلام في ١٤ صفر سنة ١٣١١ هـ » ٢٧ اوغسطوس سنة ١٨٩٣ م .

ثم كتب اليه في ١٠ ربيع الاول ٢١ سبتمبر من السنة المذكورة يقول « انه هلك في السجن على صفة فظيعة وحالة شنيعة وانه بمجرد خروج روحه اشتعلت النار في جسمه واسود وجهه والعياذ بالله ! » .

واقعة اغوردت في ٢١ ديسمبر سنة ١٨٩٣ : وسمى الخليفة احمد علي قائداً على الجيش مكانه وكان التليان لم يزالوا يعدون حدودهم الى جهة كسلا فأمره بصدهم فساق الجيش وفيه ١٢ الف مقاتل وأوغل في بلاد الارثريا حتى بلغ اغوردت فيمنتصف المسافة بين كسلا ومصوع فالتقاه الكولونيل اريموندي بنحو ألفي مقاتل من العساكر الوطنية و ٤٢ ضابطاً وأوقع فيه واقعة عظيمة فقتله هو ومعظم رجاله وفيهم الامير عبد الله ود ابراهيم وهزم الباقين الى كسلا وكان ذلك في ٢١ ديسمبر سنة ١٨٩٣ .

فتح التليان كسلا في ١٧ يوليو سنة ١٨٩٤ :

فاشتد قلق الخليفة اذ ذاك على كسلا فعزل اميرها حامد علي (اخا احمد علي) وولى مكانه أبا قرجة ثم مساعد قيدوم وأرسل جيشاً بقيادة احمد فضيل من أقاربه الى القضارف تعزيزاً له وشرع يستعد لأخذ الثأر فرأى التليان ان اخذ كسلا يقوي مركزهم في السودان والحبشة فاستأذنوا الحكومة المصرية وأمروا قائدهم الكولونيل بارتياري فتقدم بـ ٢٥١٠ رجال الى كسلا وباغت اهلها الهجوم في فجر ١٧ يوليو سنة ١٨٩٤ فاحتلها عنوة وفرّ مساعد قيدوم ومن سلم من القتل الى القضارف وام درمان فحصن التليان كسلا وأقاموا فيها الى ان سلموها للحكومة المصرية في ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٩٧ م .

ولما وصل خبر كسلا الى الخليفة طار صوابه فركب جواده وأتى بأنصاره الى ضفة النيل الابيض ثم دفع الجواد في الماء حتى غمره الى صدره فاستل سيفه وهزه مشيراً الى كسلا ثم كبر على التليان ثلاثاً وأقسم ان لا يرجع عنهم حتى يسترجع كسلا ويردهم الى مصوع . ولكنه لم يأت شيئاً يستحق الذكر حتى

كانت واقعة عدوة في ١ مارس سنة ١٨٩٦ التي انتصر فيها الأحباش على التليان انتصاراً باهراً كما سيجيء في تاريخ الحبشة فشرع في تعبئة الجيوش في القضارف لاسترجاع كسلا وكان استعداده هذا السبب الاعظم الذي حمل الحكومة المصرية على مباشرة الفتح الاخير كما سيجيء . هذا ما كان في السودان الشرقي فلننظر الآن الى ما كان في السودان الغربي بعد ان تولاه محمود احمد ابن عم التعايشي .

الفصل الثالث

في

وقائع السودان الغربي في ولاية محمود احمد

سنة ١ : ١٨٩٦

مرّ بنا ان محمود احمد وصل الفاشر الأثنين في ٢٦ يناير سنة ١٨٩١ وتولى قيادة جيوش الغرب بدلاً من عثمان آدم . وكان عنده من الجيوش عدا حامية صغيرة في الابيض ٥٤٣١ جهادياً و ٥٥٥٠ حراباً و ٨٢٨ فارساً فجعل منها حاميات في دارة وشكا وكبكبية والاضيّة وبقي هو بمعظم الجيش في الفاشر.

غزوة الميدوب في ٢٠ فبراير سنة ١٨٩١ : وكانت باكورة أعماله فيها انه أرسل سرية بقيادة البشاري ريدة على الميدوب فالتقاهم في عدّ المالحة يوم الجمعة في ٢٠ فبراير سنة ١٨٩١ م وقتل منهم خلقاً كثيراً وعاد بالأسلاب والغنائم الى الفاشر .

غزوة الرزيقات مارس سنة ١٨٩١ : وأرسل فضل النبي اصيل على الرزيقات فغنم منهم : ٣٩ جواداً و ١١٣ جملا و ٥٥٩ بقرة و ٦٢ حماراً و ٤٤٦٨ رأس غنم و ٦٤ رقيقاً .

حسن تور : هذا وكان الفور المطالبون بملك اجدادهم بعد قتل ابي الخيرات قد تجمعوا على حسن تور وهجموا على سنين حسين عامل كبكبية فردهم بالخيبة والخسران ثم أعادوا الكرة عليه يوم الجمعة في ٦ مارس سنة ١٨٩١ م فردهم ثانية .

الامير علي دينار والتعايشي : فولى الفور الامير علي دينار ابن الامير زكريا ابن السلطان محمد الفضل سلطاناً عليهم بدلاً من ابي الخيرات فامتنع بهم في جبل مرة فكتب اليه محمود يدعوه الى التسليم فحاوله مدة ثم جاءه مسلماً. فكتب محمود بذلك الى الخليفة في ٢٨ مايو سنة ١٨٩١ فكتب الخليفة الى الامير علي دينار مراراً يستدعيه الى ام درمان وقد بالغ في التلطف له وأكثر من الوعود فلبى الدعوة بعد تردّد كثير فقابله بالاحتفاء والاكرام وأبقاه عنده الى ان كانت واقعة كرري سنة ١٨٩٨ ففرّ منها بأنصاره الى دارفور فتولاها الى اليوم وسيأتي ذكره .

تمرد الجهادية في النهود في ٢٠ يوليو سنة ١٨٩١ : وفي هذه الأثناء حصل جوع في الفاشر فانتقل محمود بجيوشه الى النهود وقد أساء معاملة الجهادية فائتمروا على قتله وقتل جميع التعايشة الذين معه وخرجوا عليه الاثنين في ٢٠ يوليو سنة ١٨٩١ فأخذ بعضهم بالحيلة وبعضهم بالقوة ففاز بالنجاة ونكل برؤوس العصاة. وأقلق الخليفة عليه فكتب يستدعيه مع الجيش الى ام درمان لأجل تدريب الجهادية على طاعته فوصلها في ٧ يونيو سنة ١٨٩٢ فأقام فيها نحو خمسة أشهر وعاد الى الفاشر .

خبر مزيل المحن سنة ١٨٩٣ : ولم يكد يصل الفاشر حتى أتاه كتاب من الخليفة يخبره بأن الناس أرجفوا كثيراً في ام درمان بقيام رجل في جبال النوبة ادّعى الاصلاح فدعا الناس لحرب الأنصار فالتفت عليه جموع كثيرة وقد سمى نفسه مزيل المحن وسماه بعضهم ابا نعال لأنه يلبس نعالاً . فكتب اليه محمود بتاريخ ٢٩ يناير سنة ١٨٩٣ يقول : « ان هذه الأخبار شائعة في

الفاشر ايضاً وان الناس على خلاف في شأنه فبعضهم يقول انه كجور جبال الكدرو وبعضهم انه رجل غيره ظهر لرفع الظلم وغالب الناس يقولون انه في السما » . قلت وقد وصلت هذه الاشاعات مجسمة الى مصر حتى ظننا ان نهاية التعايشي قد اقتربت ولكن لم‌تلبث الاشاعات ان انطفأت وبقي التعايشي على حاله. وقد رأيت كتاباً من محمود الى الخليفة بتاريخ ٢٥ فبراير سنة ١٨٩٣ يقول : « اني جلت في جبال النوبة كلهـــا افتش على الرجل فوجدت خبره كذباً واختلاقاً » .

غزوة الشانقية وخبر النصارى في بحر الغزال سنة ١٨٩٣ : وفي أوائل سنة ١٨٩٣ غزا فضل النبي اصيل عامل شكا بـــلاد الجانقية فتجمعوا عليه وقتلوه هو ومعظم جيشه . وخلفه الزبير الفحل على شكا فكتب الى محمود في ٧ مارس سنة ١٨٩٣ يقول : ان ٣٠ سائحاً من النصارى حضروا الى بلاد الفراتيت ثم عادوا الى النمانم .

خبر النجل المكرم سنة ٤ : ١٨٩٥ : هــذا ومما يذكر في هــذا الموضع « خبر النجل المكرم » الذي بلغ دوّيه أقاصي السودان ومصر وذلـــك ان الخليفة عبد الله لما كان في الابيض استحظى جارية من النوبة فحملت منه وهما لا يعلمان فلما خرج مع المهدي لغزو الخرطوم سنة ١٨٨٤ لم ترضَ الذهاب معه فرجعت الى جبالهـا فولدت ولداً ذكراً ومرت الأيام والسنون حتى بلغ عمر الولد ١٠ سنين فنقل بعض التجار خبره الى الخليفة فاهتم له جداً وأرسل رسلاً مخصوصين الى جبال النوبة فأحضروا الولد وأمه الى ام درمان بطريق الفاشر سنة ١٨٩٥ فاستقبلهما الخليفة باحتفال عظيم باهر وهذا « النجل المكرم » وقع أسيراً في يد السر رجينولد ونجت باشا في واقعة « جديد » سنة ١٨٩٩ وهو الآن في قلعة مصر يتعلم الأشغال اليدوية في ورشتها واسمه عبد الصمد .

غزوة محمود لدار قمر ودار تامة سنة ١٨٩٥ : وفي أوائل سنة ١٨٩٥ م خرج ادريس القمراوي عن طاعة المهـدية فزحف عليه محمود من الفاشر ففرّ

أمامه الى دار تامة فطارده اليها فجرّد عليه سليمان بن ابراهيم سلطان تامة جيشاً جراراً بقيادة ابن اخيه وولى عهـــده يونس فالتقاه محمود وأوقع به في مكان يدعى كيمه ضحوة الثلاثاء في ٢٧ شعبان سنة ١٣١٢ هـ ٢٣ فبراير سنة ١٨٩٥ فقتله وهزم جيشه .

مهدي تامة الاول : فجهز السلطان سليمان جيشاً آخر اعظم من الاول وعقد لواءه لأخيه فضل وأرسله لقتال محمود وقبل الوصول اليه ظهر فقيه من قرية الجميزة التي خرج منها ابو جميزة المار ذكره وادعى انه المهـدي المنتظر وتكفل لجيش السلطان سليمان بابادة الدراويش فصدقه وكتب الى برقو والمساليت فوفد اليه جموع كثيرة ثم كتب الى محمود يخبره بظهوره ويدعوه الى الطاعـة وكان محمود قريباً منه فاستعد له والتقـــاه ضحى الاثنين في ٢٤ مارس سنة ١٨٩٥ م قرب وادي « بالي » فكان بين الفريقين قتـــال شديد اقتتلا فيه بالحراب والسيوف فقتل مهدي تامة وانهزم جيشه . وقد علق كل من أنصاره لوحاً في عنقه عليه كتابة مقطعة زعم انهـــا تقيه من الرصاص فأرسل محمود رأس المدعي وبعض هذه الألواح مع تفصيل الواقعة الى الخليفة وتقدم لقتال السلطان ابراهيم في عاصمته ففر من وجهه الى برقو .

مهدي تامة الثاني : ولكن لم يكن إلا القليل حتى ظهر من قرية الجمـيزة مهدي آخر يدعى احمـــد بن عبد الله فالتفت حوله الانصار من تامة وبرقو والمساليت وقـــد ادعى انه نزل من السماء وان أبا جميزة تلميذه ولكنه قام بالدعوة بلا اذنه فلم يفلح فطارده محمود الى مكان يدعى « ليلة » ففر منهـــا فأرسل خلفه الفرسان فأدركوه جنوبي ليلة فقتلوه وشتتوا جموعه وتقدم محمود الى قرية الجميزة فأخربها وحرق الجميزة ثم ولـّى ادريس ابرهيم وكيلاً عنه في دار تامة فأقام في عاصمتها نيرة وولى حسب الله ابوبكر اخا ادريس القمراوي وكيلاً عنه في دار قمر فأقام في عاصمتها قناطير .

وفي ١ اوغسطوس سنة ١٨٩٥م غزا زغاوة فغنم وسبى وعاد الى الفاشر .

النبي عيسى في دار تامة : ورأيت منه كتاباً الى الخليفة بتاريخ ٤ اوكتوبر سنة ١٨٩٥ م يقول فيه : « انه ظهر في دار تامة رجل ادعى انه نبي الله عيسى » ..

وبقي محمود في الفاشر الى أن زحف الجيش المصري لاسترجاع دنقلة فاستدعاه الخليفة الى أم درمان فحضر وعاد في ٦ سبتمبر سنة ١٨٩٦ وأخذ في جمع أطرافه . ثم ولّى امبدّي الرضي على الفاشر والختيم موسى على الابيض وأتى بجيشه الى أم درمان فوصلها في ٨ الحجة سنة ١٣١٤ هـ ١٠ مايو سنة ١٨٩٧ م فأرسله الخليفة الى المتمة لتأديب الجعليين الذين خرجوا عن طاعته والوقوف في صدد الجيش المصري كما سيجيء تفصيلاً .

الفصل الرابع

في

وقائع ام درمان

سنة ١ : ١٨٩٦ م

الخليفة والاشراف سنة ١ — ١٨٩٥ :

أشرنا غير مرة الى الشدة والدهاء اللذين عامل بهما التعايشي رفيقه الخليفة شريف لمناظرته اياه في الخلافة وما زال التعايشي يضيق عليه حتى ضاق صدره ونفد صبره . وقد نال اولاد المهدي والاشراف عموماً نصيبهم من هذا التضييق لمحازبتهم للخليفة شريف فاجتمعوا كلهم وألفوا جمعية سرية في أم درمان على قتل التعايشي والقبض على ازمة الملك وقد كاتبوا اخوانهم الدناقلة في الجزيرة يدعونهم الى أم درمان للتضافر على هذا العمل . وأودعوا سرهم بعض الجعليين وفيهم البدوي ود العريق فوشى بهم الى التعايشي فشرع هذا في اتخاذ التحوطات اللازمة لصيانة نفسه والتنكيل بالاشراف . وعلم هؤلاء بافتضاح سرهم فأسرعوا الى تنفيذ مشروعهم قبل ان يتمكن التعايشي من عرقلة مساعيهم . فاجتمعوا في قبة المهدي والمنازل المجاورة لها وكانوا قد

خبأوا بعض الاسلحة والذخيرة فأخرجوها ولم يبقَ واحداً منهم إلا تقلد حساماً أو بندقية حتى ارامل المهدي فانهن كن الى ذلك العهد محجورات في منازلهن لا يخرجن ولا يرين احداً فخرجن في تلك الليلة وتقلدن السيوف طالبات الحرب .

كل ذلك والخليفة عبد الله في منزله يستعد لرد كيد الاشراف في نحرهم ففرق على ملازميه البنادق والذخيرة وأمر بعضهم بملازمة بابه وبعث البعض الآخر الى الاسواق لمنع المدد عن الاشراف. ثم جمع اهله التعايشة فوزع عليهم نحو الف بندقية وجعلهم في الساحة التي بين منزله ومنازل الاشراف وأقام أخاه يعقوب بجيشه في الجامع بجانب منزله وقد جرى ذلك كله مساء الاثنين في ٢٠ ربيع الثاني سنة ١٣٠٩ هـ ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٩١ م . وفي صباح الثلثاء أحاط بالاشراف إحاطة السوار بالمعصم واستعد أتم الاستعداد للبطش بهم . ولكنه لم يكن يود الالتجاء الى القوة ما استطاع الى الدهاء سبيلاً وقد خشي انه اذا انتشبت الحرب ينتهز عرب الغرب الفرصة فينهبون المدينة ويفرون الى بلادهم فأمر رجاله بأن يلزموا خطة الدفاع مهما بدا من الاشراف حتى يأمرهم بالهجوم . ثم ارسل الخليفة ود حلو وجماعة من اكابر القوم الى الاشراف يدعوهم الى الصلح ويعاهدهم على اجابة سؤالهم وإزالة شكواهم فلم يرضَ الاشراف بالصلح وبدأوا باطلاق النار على منزل التعايشي فأجابهم انصار التعايشي باطلاق النار وداموا على ذلك نحو ساعة. فعاد الخليفة وعرض عليهم الصلح ثانية فلما رأوا استعداد التعايشي مالوا الى المسالمة وقالوا نريد ان نعرف ما هي شروط الصلح . فأجابهم التعايشي : ضعوا انتم الشروط . وما زالت المفاوضة جارية بقية ذلك اليوم (الثلثاء) وطول ليله الى الصباح التالي (الاربعاء في ٢٥ نوفمبر) فانفرجت الازمة وتمّ الصلح على شروط اهمها :

١ – ان يعفو التعايشي عفواً عاماً عن جميع المشتركين في الثورة . ٢ – ان يجعل لمحمد شريف مقاماً يليق به ويخلي له كرسياً في مجلسه. ٣ – ان يرد اليه راياته ليجمع تحتها المتطوعة . ٤ – ان يخصص له راتباً شهرياً قدره

٢٠٠٠ ريال ولأولاد المهدي ونسائه رواتب تكفيهم من بيت المال ٥ – ان يسلم الاشراف سلاحهم ويطيعوا التعايشي طاعة عمياء .

وعاهد الخليفة علي ود حلو الخليفة شريفاً على انفاذ هذه الشروط وحلف على المصحف انه يكون ظهيراً له اذا لم تنفذ. ثم أتى به الى التعايشي فاستقبله احسن استقبال ووقع على عنقه يقبله ويتأسف على ما جرى وأمّل ان تعود المياه الى مجاريها ثم امضى له الشروط وأمضاها الخليفة شريف وعاد الى منزله وهو بغاية الطمأنينة وراحة البال . ثم أخذ التعايشي يبحث سراً عن مثيري هذه الفتنة ولم يمض ٢٠ يوماً على الصلح حتى قبض على جماعة من الاشراف أهمهم : احمد ود سليمان امين بيت المال الاسبق وفوزي محمود وأخوه احمدي كاتبا الخليفة وصالح ود سوار الذهب وسعيد محمد فرح وكلاهما من كبار الدناقلة وأحمد محمد خير من الاشراف وأحمد النور كاتب الخليفة شريف فسجنهم في أم درمان اياماً مكبلين بالحديد . ارسلهم في قارب الى الزاكي طمل في فاشوده فقتلهم ضرباً بالنبابيت . وكان قد اصدر منشوراً بحبسهم هذا نصه :

« وبعد فيقول عبد ربه خليفة المهدي « عم » الخليفة عبد الله بن محمد خليفة الصديق انه بليلة الاثنين الماضي الموافق ١٢ الجاري سنة تاريخه قد سمعت وأنا بين اليقظة والنوم هاتفاً يتلو عليّ هذه الآية وهي قوله تعالى « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » . ثم في ضحوة هذا اليوم الذي هو يوم الاربعاء الموافق ١٤ الجاري ايضاً حصلت لي حضرة اجتمعت فيها بالنبي عليه الصلاة والسلام والمهدي « عم » فقال لي المهدي « عم » بلغ الخليفة علياً والاصحاب الواقفين مع اشارتك السلام وقل لهم المهدي يقول لكم جزاكم الله خيراً عن ذلك ثم أخبرني « عم » بأن الاصحاب الذين وقفوا مع اشارتي في المسألة التي حصلت قد نظر الله اليهم بعين الرحمة ثم قال لي « عم » ان احمدسليمان واحمد النور واحمد محمد خير وسعيد محمد فرح وفوزي واحمدي وصالح سوار الذهب

لا حول ولا قوة الا بالله

فليكن حبسهم فقلت للمهدي « عم » ان اهل الظاهر ينكرون عليّ ذلك ويقولون عفا عنهم ثم حبسهم فقال لي المهدي « عم » ان الحق معك وأهل الباطن معك فاحبسهم واتل على الاصحاب المنشور المحرر منا في حقك فمن ينكر بعد ذلك فذنبه عليه ثم قال المهدي « عم » ان من يخالف اشارتك في هذا الزمان ولو كان يمشي على البحر حتى يقطعه فأمن باطل وهذا ما لزم الاعلام به والعلم لله والسلام في ١٤ جمادى الاولى سنة ١٣٠٩ هـ ١٦ ديسمبر سنة ١٨٩١ .

سجن الخليفة شريف : ولما بلغ الخليفة شريفاً قتل المذكورين غضب وشكا أمره الى الله جهاراً من ظلم التعايشي وجوره وامتنع عن صلاة الجمعة والجماعة ففتح للتعايشي باباً طالما ترقب فتحه فأمر الخليفة علي ولد حلو والقضاة ان يقضوا عليه بما فيه تأديب له وعبرة لغيره ويعلموه ان تجاوزه حدوده أوجب قتل أقاربه . فاجتمع القضاة والامراء وحكموا بسجنه فسيق مضروباً مهاناً الى السجن حيث وضعوه وحده في كوخ من قش وكبلوه بالحديد وذلك في ٢ مارس سنة ١٨٩٢ . وهذه هي صورة الحكم حرفياً بعد البسملة :

حمداً لمن جعل الاستقامة طريقاً للسلامة وشكراً لمن وفق ذوي البصائر الى الوقوف على قدم الصدق فصاروا من اهل الكرامة وخصّ أهل عنايته بأنوار هدايته فاستسلموا لقضائه واستراحوا من الوقوع في هاوية الندامة وحضّ على طاعة أولي الأمر بقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم لانتظام الحال والسلامة في يوم القيامة وصلاةً وسلاماً على قطب دائرة الاصل النوراني ومنبع الفيض الرحماني وأشرف النوع الانساني ومعدن السر الرباني سيد محمد الذي قصم بسيف الحق ظهر الخلاف ومكن حسام الشرع من رقاب اهل الانحراف وعلى آله وأصحابه الذي قوي في الله يقينهم فأمنوا بالغيب فانكشفت غياهب الشك عن بصائرهم فازدادوا ايماناً وتمكن دينهم . وبعد فان الخليفة محمد شريف حامد قد بارز خليفة المهدي « عم » بالعداوة والعصيان والخلاف حتى تظاهر بالحرابة له وشهر

السلاح عليه ولم يبال بادخال الخلل في الدين وشق عصا المسلمين . فبعد هذا كله اجتمع جماعة المسلمين وأحضروه بين أيديهم وحلّفوه على كتاب الله تعالى فحلف وعاهد على ان لا يعود الى مثل ما صدر منه ثم جاء خليفة المهدي «عم» نادماً على شنيع فعله فقبله مع ما ارتكبه من عظيم الذنب والخطيئة... وعفا عنه وقابله بالصفح والاكرام . ثم نقض العهد وعاد الى الخلاف واضمار السوء والاصرار على عدم الامتثال فضلاً عن كونه تاركاً الجمعة والجماعة فعند ذلك اجتمع اصحاب المهدي « عم » من قضاة الشرع الشريف وأمراء وعمد وأعيان وسألوه عن ذلك فقابلهم بأقبح المقال وتفوّه بما يؤدي الى سوء الحال حتى قال ان الغوث معه وفي حزبه وان نصرة المهدية تحت قدمه وان الصحابة اعترضوا على النبي ﷺ وغير ذلك من سوء المقال وما زالوا يراجعونه بالقول اللين الحسن وتلوا عليه منشور المهدي «عم» في خليفته والمنشور الذي وجّه اليه خاصة وأمره فيه باتباع خليفته وعدم خروجه عن أوامره فعند ذلك أظهر التوبة والندم. فنظرا لما حصل منه من نقض العهد وعدم استمراره على التوبة السابقة اقتضى نظر اصحاب المهدي « عم » طبق الوجه الشرعي وضعه بالسجن تأديباً له . ولولا اظهاره التوبة عما حصل منه لكان جزاؤه أعظم من السجن . وقد ثبت جميع ذلك لدى اصحاب المهدي « عم » الآتي ذكر أسمائهم وأختامهم فيه أدناه وجميعهم شهدوا عليه شهادة حتى يؤدونها بين يدي أحكم الحاكمين والسلام سنة ١٣٠٩ . وأمضى المنشور ٤٦ رجلاً من أكابر دولة التعايشي وأهل شوراه وهم :

احمد علي قاضي الاسلام	السيد المكي اسماعيل	عبد القادر ام مريوم	اسماعيل عبد القادر
الهادي دفع الله الحلاوي	عثمان احمد البطحاني	محمد البدوي	مكي ابو حراز
احمد حمدان	حسين جزو	شرف الدين دفع الله	عبد الله الحسن
احمد الاخيضر	الزاكي محمد	محمد عمر البنا	البدري العريق
محمد حامد جفون	علي الامين	عبد الباقي الماحي	عمر الياس ام برير
طه الجعلي	خالد عطا المنان	طه الازيرقابي	العطا الدرد
المبارك جباره	محمد البصير	عبد الله احمد	عجب الفيه

بابكر عمر	القوشي احمد	ابراهيم الفكي	محمد علي بلال
عبد الله برجوب	عبد الرحمن ابو سيل	عثمان ابو خويدم	كباشي محمد
جاد الله بليلو	النور السبيفي	النعيم احمد	الشريف الناير
جفون احمد	ابراهيم علي. عبيد موسى	محمد عثمان الضعيف	علي المدني. سعيدلبطه

وأما منشور المهدي المشار اليه في حق الخليفة عبد الله فهـــذا هو بنصه بعد البسملة :

« وبعد فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهـدي بن عبد الله اعلاماً منه الى عباد الله المؤمنين بالله وبكتاب الله . أما بعد فاعلموا أيها الاحباب ان الخليفة عبد الله خليفة الصديق المقلد بقلائد الصدق والتصديق هو خليفة الخلفاء وامير جيش المهدية المشار اليه في الحضرة النبوية فذلك السيد عبد الله ابن السيد محمد حمد الله عاقبته في الدارين . فحيث علمتم ذلك يا احبـابي ان الخليفة عبد الله هو مني وانا منه وقد أشار اليه سيد الوجود ﷺ فتأدبوا معه كتأديبكم معي وسلموا اليــه ظاهراً وباطناً كتسليمكم لي وصدقوه في قوله ولا تتهموه في فعله فجميع ما يفعله بأمر النبي ﷺ او باذن منا لا بمجرد اجتهاد منه ولا هو عن هوى بل هو نائب عنه في تنفيذ أمره ﷺ والقضاء باشارته فان فعله بكم وحكمه فيكم بحسب ذلك . واعلموا يقيناً ان قضاءه فيكم هو قضاء رسول الله ﷺ كما قال تعالى « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله امراً ان تكون لهم الخيرة من امرهم ومن يعص الله ورسوله فقـد ضل ضلالاً مبيناً » فمن كان في صدره حرج لأجل حكمه فذلك لعدم ايمانـه وخروجه من الدين بسبب غفلته وذلك بشاهد قوله تعالى : فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجـدوا في انفسهم حرجاً ممـا قضيت ويسلموا تسليماً . ولا شك في شرك من استنكف عن حكم الله ورسوله سيما بقوله ﷺ ان أخوف ما اخاف عليكم الشرك الخفي الحديث . مع انه خليفة الصديق واول المصدقين في المهدية فانظروا لمكان الصديق عند الله ورسوله بنص القرآن العظيم وانظروا لمكانة من أورثه الله مكان الصديقين ووازره بالباطن بالخضر « عم » فهو مسدد

مؤيد من الله ورسوله ويد من الله لنصر دينه باشارة سيد الوجود ﷺ وقـد ورد في فضله كثير. فحيث فهمتم ذلك فالتكلم في حقه يورث الوبال والخذلان وسلب الايمـان . واعلموا ان جميع افعاله وأحكامه محمولة على الصواب لأنه أوتي الحكمة وفصل الخطاب ولو كان حكمه على قتل نفس منكم او سلب أموالكم فلا تعترضوا عليه فقد حكمه الله فيكم بذلك ليطهركم ويزكيكم من خبائث الدنيا لتصفى قلوبكم وتقبلوا الى ربكم ومن تكلم في حقه ولو بالكلام النفسي جزماً فقد خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ويخشى عليه من الموت على سوء الخاتمة والعيـــاذ بالله لأنه خليفة الصديق الذي قال في حقه اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا . وقال ﷺ ان آمن الناس عليّ في الصحبة ابو بكر . وقال «عم» ما طلعت شمس على احد بعد النبيين افضل من ابي بكر. وحيث علمتم ذلك فهو بمنزلته الآن لأن اصحابنا كأصحاب رسول الله ﷺ وهو خليفتنا في الدين وخلافتـه بأمر من النبي ﷺ فمن كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ومصدقاً بمهديتي فليسلم للخليفة عبد الله ظاهراً وباطناً واذا رأيتم منه امراً مخالفاً في الظاهر فاحملوه على التفويض بعـلم الله والتأويل الحسن واعتبروا يا أولي الأبصار بقضية موسى والخضر عليهما السلام حكاهـا الله في كتابه العزيز كحكم داود وسليمان عليهما السلام ولتسلموا من الشكوك والأوهام وانما أنذرتكم بهذا رحمة لكم وشفقة عليكم وليبلغ الشاهد منكم الغائب لئلا تسبوه وتنسبوا اليه الظلم والجور فتهلكوا . فاحذروا عن اذية أولياء الله فانها أذية الله ورسوله وقد لعن الله ذلـــك في كتابه فقال : ان الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة كما ان من آذى لي ولياً فقد آذنته بالحرب فان الله غيور على أوليائه فقد علمتم انه ورد «من نقض الكعبة حجراً حجراً ثم حرقها بالنار أهون عند الله من ان يؤذي ولياً من أوليائه» وان الخليفة هو قادة المسلمين وخليفتنا النائب عنا في جميع امور الدين واياكم والوسوسة في حقه وظن السوء وعـــدم الامتثال اليه في قوله والمشاجرة له ولأحكامه ... فتوبوا الى الله وارجعوا قبل ان تذهب حسناتكم وتسلبوا ثوب الايمان .

وانما حملني على هـذا البيان النصيحة في الله ... فمن تاب تاب الله عليه ومن عاد فينتقم الله منه ويسلطه عليه وهذا امر الله ورسوله فليحذر الذين يخالفون امره ان تصيبهم فتنـة او يصيبهم عذاب أليم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم والسلام سنة ١٣٠٠ هـ » اه .

حبس اولاد المهدي : وبعد حبس الخليفة شريف أمسك التعايشي اولاد المهـدي البالغين وهم الفاضل ومحمد والبشري وحبسهم في منزل جدهم لأمهم احمد شرفي ومنعهم الخروج منه ولم يسمح لأحد ان يراهم وبقوا على ذلك مدة.

حبس الدناقلة : ثم أرسل بعض رجـاله الى الجزيرة فأمسكوا نحو الف رجل من الدناقلة الذين اتهموا بمشاركة الاشراف في الفتنـة وأتوا بهم الى ام درمان فزجهم في السجن ثم استصفى أموالهم وأطلق سراحهم وأودعهم منّة عفوه عنهم .

نفي بعض التعايشة وقتل محمد عبد الكريم وعبد القـادر ساتي علي :
وفي شهر يوليو سنة ١٨٩٢ ائتمر نحو ٧٠ رجلاً من التعايشة على قتل الخليفـة عبد الله أخذاً بثأر الغزالي فخانهم واحد منهم وأعلم الخليفة بمكيدتهم فقبض عليهم ونفاهم الى الرّجاف .

ثم لم يبقَ في ام درمان من كبراء الأشراف إلا محمد عبد الكريم المشهور وعبد القادر ود ساتي علي طبيب المهدي وكانا قـد اشتركا في فتنة الأشراف فأبقى عليهما الخليفة ريثما يطلع منهما على أسماء بقية المشتركين في الفتنة فلمـا كانت فتنة التعايشة قبض عليهما بحجة انهما يغريان الناس بشق عصا طاعته ثم أوثقهما بالحديد وأرسلهما الى الزاكي في فاشودة فقتلهما ضرباً بالفؤوس وذلك في اوغسطوس سنة ١٨٩٢ .

وفي هـذه الأثناء انتدب الجعليين الذين عاهدوا الاشراف على الثورة ثم خانوهم كما مرّ وأمرهم بالذهاب الى كسلا فتأخروا في رفاعة فاستدعاهم الى ام درمان ونفى رؤوسهم الى الرجاف في نوفمبر سنة ١٨٩٢ وهم: البدوي العريق

وعمر الياس باشا ومحمد حامد جفون ومحمد صالح وحاج مرزوق الشايقي وعبد الباقي الماحي المكابرابي وعبد المجيد نور الدايم وقـد سجنهم سنة في الرجاف ثم أطلق سراحهم فمات بعضهم في المنفى ونجا البعض .

وكان قد نفى قبلهم الى الرجاف اسماعيل شجر الخيري لاتهامه بأنه محازب للأشراف .

نفي أبي قرجة وزقل: وبقي من الأشراف المعروفين في السودان ابوقرجة وزقل . أما ابو قرجة فانه عند قيـام الأشراف كان عاملاً على كسلا فخشي الخليفة ان يتحد مع التليان فاستدعاه الى ام درمان بعد ان تولى كسلا ثمانيـة اشهر وولى مكانه مساعد قيدوم كما مرّ ثم ارسله الى خط الاستواء بنفر من الانصار معللاً إياه بأنه سيكون عاملاً عليها وأصحبه بقارياً بكتاب الى امير الرجاف فقبض عليه حال وصوله وزجه في السجن . ثم ألحق بـه محمد خالد زقل سنة ١٨٩٣ على ما سيجيء .

المصالحة : وطال الزمان على الخليفة شريف في السجن فتوسط له اولاد المهدي وأمهات المؤمنين مع التعايشي فأرسلهم التعايشي الى اخيـه يعقوب فضرب لهم المثل الآتي :

« حكي ان رجلاً كان ينتاب حية في جذع شجرة فيحمل اليها كل يوم شيئاً من اللبن فتشربه وتلفظ من فيها قطعة من الذهب في الوعاء فيحملها وينصرف ثم يأتي في اليوم التالي باللبن فيعود بقطعة من الذهب وبقي على ذلك اياماً حتى عرض له سفر فأناب ابنه عنه في ارسال اللبن الى الحية فلما رأى الابن ان الخير كله في جوف الحية قال في نفسه اقتل الحية وآخذ الذهب من جوفهـا مرة واحدة واستريح من العناء فأخذ سيفاً في يده وحمل اللبن على عادته وقدمه الى الحية فلما همت بشربه بادرها بضربة من سيفه فقطع ذنبها فثارت الحية عليـه وقتلته . فلما عاد الرجل من سفرته تفقد ابنـه فلم يره فذهب الى مكان الحية فوجده مقتولاً تحت الشجرة ثم اقبلت الحية فقدم اليها اللبن فقالت له دع عنك

هذه الصحبة بعد الآن فان ابنك غدر بي فقتلته فأنت لن تنسى قتل ابنك وأنا لا انسى قطع ذنبي » اه .

ففهم المتوسطون من ذلك ان التعايشي لا يعفو عن الخليفة شريف لأنه لا يأمن غدره بعد الآن .

وكان في جملة المتوسطين للخليفة شريف محمد ابن المهدي المتزوج باحدى بنات التعايشي فلما رأى اصراره على سجن الخليفة شريف ثار به الغضب فطلق امرأته هذه فزوجها التعايشي سلفها البشرى فازداد محمد غيظاً واستياء. وبقي الجفاء مستحكماً بين التعايشي والاشراف حتى بدأ الجيش المصري بالزحف على السودان فرأى التعايشي ان يسلّ الضغائن والأحقاد التي بينه وبينهم فأطلق الخليفة شريفاً من السجن وزوج محمد المهدي بابنة اخيه يعقوب وعاد الى مصافاتهم .

زيادة ملازمي الخليفة وتولية ابنه اميراً عليهم وبناء سور حول منزله سنة ٣ – ١٨٩٤

أما ملازمو الخليفة فهم حرسه الخاص وكانوا قبل فتنة الاشراف لا يزيدون على ٥٠٠ من الجهادية السود فلما كانت الفتنة اخذ في زيادة عددهم من شبان السود وجميع القبائل من عرب وعجم حتى بلغوا الوفاً. فأسكنهم حول منزله وجعل ابنه البكر الذي سماه شيخ الدين اميراً عاماً عليهم ورشحه للملك بعده. وسخر اهل ام درمان فبنوا حول منزله ومنازل ملازميه سوراً منيعاً سمكه اكثر من متر وعلوه نحو ٥ امتار وظل يزيد عدد ملازميه حتى ضاق بهم السور فأقام لهم سوراً آخر لاصقاً بالسور الاول وطرد اهل البلد منه وقد شرع في بناء السور في اوائل سنة ١٨٩٣ فأتمه سنة ١٨٩٤ .

قتل ود جار النبي الثلثاء في ١٠ صفر ١٣٠٩ ﻫ ١٥ سبتمبر سنة ١٨٩١ م :

مرّ بنا ان التعايشي أنفذ ود جار النبي الى البطاحين ليجلبهم الى امدرمان

وانه هو الذي هيج التعايشي عليهم فنكل بهم تنكيله المعلوم . وكان ود جار النبي فارساً مشهوراً في راية الخليفة ود حلو ومعه في الراية نفسها رجل من دهاة البطاحين يدعى عثمان احمد فحنق عليه لعدم الرفق بقومه وأخذ يسعى في تنكيسه والحط من كرامته عند الخليفة ود حلو فأفلح مسعاه وأقصاه الخليفة ود حلو بعد ان كان مقرباً جداً عنده فاستاء ود جار النبي من ذلك وخرج من راية الخليفة ود حلو الى راية يعقوب اخي التعايشي وأطلق لسانه في ذم الخليفة علي ود حلو والاستخفاف به فعظم ذلك على ود حلو ورفع الامر الى التعايشي وكان التعايشي يود مراعاة رفيقه لمضافرته له على الخليفة شريف فأحال الامر على القضاة فحكموا بقتل ود جار النبي وصدّق الخليفة الحكم . وكانوا قد قيدوا المحكوم عليه وأرسلوه الى السجن فلما صدر حكم القتل عليه جاؤا ليأخذوه من السجن . فقال لهم : حلوا القيد من رجلي لأن فارس السودان لا يمشي بين الناس راسفاً بالقيود . وأصر على ذلك فرفعوا الامر الى الخليفة فأمر ان يقطعوا كعبي قدميه ويخرجوا القيد منهما بلا فتح ففعلوا كما أمر وساقوه الى المشنقة بالضرب والاهانة فأطلق لسانه إذ ذاك على الخليفة والبقارة وأخذ ينادي بأعلى صوته بما معناه : « يا قبائل السودان وأبطال هذا الزمان استيقظوا من غفلتكم وارفعوا براقع الجهل عن عيونكم فليس بينكم مهدية ولا خلافة ولا دين بل هو ملك مدنيّ جائر في يد بقّاري ظالم غشوم يسعى الى اعدام كل بطل في السودان وجعل اهله كالأنعام يسوقهم رعاة من البقارة الاجلاف الذين كانوا بالامس يلبسون « الكنفوس » ويركبون الثيران وستبقون في حكم هؤلاء الانذال الى ان تستفزكم نخوة الرجال وتتحدوا قلباً واحداً على قتلهم او طردهم الى اقصى الجبال . انهضوا ما دامت لكم بقية حيوة وجاهدوا في سبيل الحرية والاستقلال فحيوة الحيوان ارقى من حيوة تقضى بالذل والهوان . وقولوا لذلك المغفل الجبان علي ود حلو انه لن يرى الخلافة في عينيه لأن التعايشي يرشح ابنه للملك بعده وأخبروه اني لم اقتل مراعاة لمقامه او اكراماً لشأنه بل قتلت لأني بطل كرار وفارس مغوار ولأن

التعايشي يرهب فعالي ويخاف على نفسه مني ومن امثالي » .

ثم لما أدنوه من المشنقة عظم عليه القتل شنقاً فالتفت الى البقارة وقـال : أمن المروءة ايها اللئام ان تقتلوا فارس السودان قتل لص جبان ؟ أليس بينكم فارس ينازلني في هذا الميدان فأشفي غليلي بقتله او أموت ميتـة الفرسان . ثم أصعد على كرسي المشنقة فأتوه بالماء ليشرب فرفض الماء باحتقار وقـال : انما يشرب في هذا الموقف الجبان. ثم التفت الى الناس وقال: من لم يرَ شجاعاً يُقتل فلينظر إليّ وياليتني أُقتل وأنا على ظهر جوادي أجاهد البقارة الانذال في الدفاع عن الحرية والاستقلال . ثم تنفس الصعداء وقـال : أفارق الحيوة بهـذه النغصة فاعتبروا بمصيري وخذوا ان كنتم رجالاً بثأري . ثم رفس الكرسي برجله فتعلق جسمه في الهواء وأسلم الروح. وكان ذلك ضحوة الثلثاء في ١٠ صفر سنة ١٣٠٩ هـ .

نفي أسماعيل عبد القادر الى الرجاف سنة ١٨٩٣ م :

تقدم لنا ذكر اسماعيل عبد القادر مراراً بلا تعريف فهو ابن اخت السيد احمد الولي الكردوفاني المشهور وقد قضى في الازهر مع خاله ٨ سنين فاشتهر بالنجابة والذكاء ثم عـاد الى الابيض فخدم فيها مفتياً للمديرية الى أن كانت المهدية واتى المهدي الى كابا مهاجراً الأبيض فخرج اليه مسلما في من خرج من اهلها كما مر فصحب المهدي الى ان توفي فصحب خليفته التعايشي الذي عهـد اليه تأليف سيرة المهدي ومـا كان في المهدية من الوقائع والفتوحات لتكون شاهدة بفضل المهدية ومؤيدة لملك خليفتها في السودان . فشمر عـن ساعد الجد وكتب الى جميع العمال في الجهات فأرسلوا اليه التقارير الوافية عما جرى على يدهم من الوقائع والفتوحات وجمع اليـه من كان في ام درمان من القواد والمحاربين فألف سيرة نفيسة ضمّنها وقائع المهدية منذ قيام المهدي الى ما قبل واقعة طوشكي اي منذ رمضان سنة ١٢٩٨ الى ٣ ربيع الاول سنة ١٣٠٦هـ وقد قضى في تأليفها بضعة عشر شهراً وتحرّى فيها الحقيقة ما امكن ولكنه

طلاها بطلاء كثيف من الاطراء والتملق للمهدي وخليفتـه واضطر الى ذكر كثير من الكرامات والخوارق المنسوبة اليهما مما لم يكن في اعتقاده فسرّ بها الخليفة سروراً عظيماً وأمر النسّاخ فنسخوا منها عدة نسخ وزعها على الامراء. وعلت منزلة اسماعيل عبد القادر ونفذت كلمته فحسده القاضي احمـد وسلط عليه بعض اخصائه فسعوا به عند الخليفة فشهد بعضهم انـه سمعه يقول : « كيف تطاق ان تسلم امور الرعية كلها الى رجل جاهل غشوم مثل عبد الله التعايشي » وشهد آخر عليه انه قال : اني والخليفة كاسماعيل باشا المفتش مع اسماعيل باشا الخديوي . وقال آخر : انه ملأ السيرة مغـامز تحط من شأن المهـدية وتدل على انكاره اياها . ففعلت هذه الوشايات في رأس الخليفة فعل النار بالهشيم فنفى اسماعيل عبد القادر الى الرجاف وأرسله مع زقل في وابور واحد سنة ١٨٩٣ وأمر ان تحرق سيرته اينما وجدت فأحرقت كلها إلا نسخة منها خبأها احد كتاب الخليفة حرصاً على حقائقها . وقد بلغني خبرهـا وأنا في قلم المخابرات في مصر أتحرى وقائع الثورة من الضباط والعساكر الذين نجوا من الأسر فبحثت عنها مستعيناً بالتجار الذين يترددون الى السودان حتى ظفرت بها فاذا هي مع كثرة مـا فيها من الاطراء والتملق للمهدي وخليفته قـد ضمنت الحقيقة احسن تضمين وانطبقت حقائقها على ما تحرّيت جمعه في مصر فزدت به ثقة واستشهدت بالسيرة في مواضع كثيرة من التاريخ . أما المؤلف فانه بقي في الرجاف في اشد العناء والضيق حتى مات اوائل سنة ١٨٩٧ م . وقيل ان مرعفيباً اختطفه وهو ملقى على سريره لا يستطيع حراكاً من شدة الجوع رحمة الله عليه .

سجن احمد علي قاضي الاسلام وموته في السجن في يونيو سنة ١٨٩٤ :

اول من سمي « قاضي الاسلام » في المهدية احمد ود جبارة فقتل في واقعة الابيض كما مر وتولى القضاة بعده ود حلاب احد فقهاء النيل الابيض فمات في حصار الابيض فخلفه القاضي احمد علي من فقهاء بني‌هلبة فلم يكن له في زمن

المهدي شأن يذكر لأن المهدي أقام النواب للفصل في القضايا الشرعية ثم أقام الأمناء للنظر في القضايا السياسية كما رأيت فلما مات المهدي واستبد التعايشي عزل الامناء ثم النواب وجعل المحكمة واحدة برئاسة القاضي احمد فقضى له بما اقتضاه رأيه سواء وافق الشرع او خالفه فأصبح من أعظم المقربين عنده . وكان مع وظيفة القضاء امير راية في جيش يعقوب فانضم الى رايته كثير من سراة البلاد وأغنيائها ومدّ يده الى الرشوة فجمع مالاً طائلا وعظم شأنه جداً فحسده يعقوب على ذلك وسلط عليه بعض القضاة فعادوه وتتبعوا هفواته فوجدوا انه يأمر الجباة باعفاء المنتمين الى رايته من الضرائب فشكوه الى الخليفة فجرّده من رايته وأمره بالانقطاع الى القضاء . ثم شكوه لقبوله الرشوة ومداخلته في الضربخانة متحزّباً لفريق دون آخر فجرّده من جميع أمواله ونسائه وزجه في السجن ومنع عنه الغذاء حتى مات وذلك في يونيو سنة ١٨٩٤ . وكان طويل القامة غليظ الجثة اسود اللون حتى تظنه زنجياً خفيف اللحية عبوساً مهاباً شجاعاً نهاباً وهاباً وكان من الدهاء على جانب عظيم . وفي اعتبار اهل السودان انه قام في هذا القرن اربعة دهاة لم يقم في السودان أدهى منهم . اثنان قبل المهدية وهما الملك بشير عقيد من المسلمات والحسن الملك سعد من السعداب . واثنان في زمن المهدية وهما القاضي احمد المذكور والحاج علي ود سعد امير الجعليين المار ذكره في واقعتي ابي طليح وطوشكي وقد عاد هذا بعد واقعة طوشكي الى ام درمان فمات فيها سنة ١٣٠٧ هـ وقيل ان الخليفة أماته مسموماً . وخلفه على الجعليين اخوه عبد الله ود سعد فكان له من الشأن مع التعايشي ما نذكره في محله :

سجن الحسين الزهرة وموته في السجن سنة ١٨٩٥ : وبعد القاضي احمد أسند منصب القضاء الى سليمان الحجاز من تجار بربر المتفقهين فكث فيه مدة قصيرة ثم خلفه الحسين الزهرة المتقدم ذكره في حصار كسلا وهو من قرية ام عظام في ضواحي المسلمية ومن متخرجي الازهر النابغين وقد هاجر الى المهدي بعد واقعة هكس وظن انه ينال في دولته مقاماً عالياً فلم يلبث ان

رأى ان هذه الدولة تبغض العلم والعلماء ولا تولي الوظائف إلا الجهلة الطغام فلما كانت واقعة الخرطوم نظم للمهدي قصيدة طويلة في ١١٢ بيتاً أشار فيها الى فتح الخرطوم وقتل غوردون ونصح المهدي بوجوب اسناد الوظائف الى العلماء وقد استدل بعضهم من بعض أبياتها انه منكر للمهدية ومندد في رجالها مع انها تدل على اضطراب قصد المؤلف وليس فيها تصريح بسوى كدره من اسناد الوظائف الى غير اهلها . وهذه هي بعض مقتطفات منها :

برح الخفا ما الحق فيه خفاءُ … وتوالت الآيات والأنباءُ
بالآية الكبرى التي بظهورها … كمل الرضى وانجابت الاسواء
بشرى لنا بظهور مهدي الورى … ايه ونعمى بعدها نعماء
علماء امة احمد ناشدتكم … ردوا جوابي انكم علماء
أرضى وترضون الضلال بعيد ما … ظهر الهدى وانجاب عنه قذاء
ويخيب ظني فيكم وعشيرتي … أنتم ويقمع جمعنا الغرباء
مهدي امة احمد بي لم تذر … خلًا يدوم له لديّ اخاء
مالي سواك وليس بعدي من جفا … لكن بذاك جرى عليّ قضاء
لم تعرف الايام قبلك منزلي … ولذاك لم يرفع عليّ لواء
جهل الولاة أمات دين محمد … وأهيله ماتوا وهم أحياء
يا ابن النبي محمد ووليه … وأمينه ماذا اليك مراء
انا عبد عبد أستعيذ بذمتي … ابداً اليك ولي هنا أعداء
ما بي استهانوا بل بشرع محمد … فعليه من اثر الدماء حياء
واماته الجم الغفير مهاجراً … وله بماء سمائك الاحياء
فتناولنه من اللئام واعطه … صنف الكرام فأهله العلماء
واشرط عليهم ما أردت من الهدى … يعطوا العهود لأننا امناء
وديار من ناوى الهدي منقوضة … وسقوفها بين السقوف هواء
في تاسع من رابع في الثان من … بعد المئين وللأمور مضاء
والله دمر من طغى وأباده … حتى تولى قتله الضعفاء

ولقد تبدد جسمه برماحهم — فكأنه من خلقه أشلاء
صالوا به وذويه بين حصونهم — في خندق غرت به الاذواء
والنار ترعى في الجسوم كأنها — عشب لعمري ان ذا لبلاء
أتظن تلك كرامة مأنوسة — لا والذي ضلت به الآراء
فسوى خلائف احمد مهدي الورى — كل الأنام من الخبور فضاء
إلا الذين غدوا على آثارهم — اهل الولاية والصفا الامراء
ذاك الرفيق الزمه واترك غيره — ربط الجياد لغير ذاك نواء
واعصم سقاءك بالوكاء من الظماء — ما في الفضاء امام قصدك ماء
واحلل أسيرك ههنا ان تستطع — ما في القيامة للأسير فداء
خفض عليك فللخطوب ترسّل — طوراً وطوراً شدة ورخاء

ويظهر ان المهدي التفت اليه على أثر هذه القصيدة فأنفذه الى كسلا لاستلام حاميتها كما مر . وبعد رجوعه كان المهدي قد مات فعاد الى بلاده . ثم جمع الخليفة جميع العلماء في ام درمان وهو في الجملة فعهد اليه تدريس علم الميراث في المسجد الى ان ولاه منصب القضاء كما مرّ فوقف عند حد الشرع وقضى بعدة مسائل على خلاف ما اراد التعايشي فاغتاظ منه وحبسه وكبله بالحديد ومنع عنه الطعام والماء الى ان مات قهراً سنة ١٨٩٥ . ومما قاله التعايشي في ود الزهرة ان مثل العالم بين اصحاب المهدي مثل الشجرة وسط الزرع فانها تأوي الطير الذي يفسد الزرع فما يستريح الزارع حتى يقطعها من اصلها . وتولى القضاء بعد ود الزهرة امبدّى البقاري ثم النذير من علماء الخرطوم فبقى الى فتح ام درمان سنة ١٨٩٨ .

الخليفة والاسرى المصريون في السودان :

مرّ بنا ان الدراويش أسروا كثيرين من موظفي الحكومة المصرية وضباطها وعساكرها عند فتح حامياتها في السودان فعرفوا بأولاد الريف لأن اكثرهم من المصريين وعرف النصارى منهم الذين اكرهوا على الاسلام بالمسلمانيين .

وقد قضت سياسة التعايشي وسيده المهدي من قبله بالحجز عليهم جميعاً في السودان للانتفاع بصنائعهم ومعارفهم الكتابية من جهة وكتم اخبار السودان عن مصر من جهة اخرى . وقد اطلعت على كتب كثيرة من الخليفة الى عماله يحذرهم فيها من ائتمانهم على الاشغال الهامة ويأمرهم بشدة المراقبة عليهم لئلا يفلتوا . فمن ذلك ما كتبه الى احمد محمد خوجلي في دنقلة بتاريخ ٨ محرم سنة ١٣٠٣ هـ : « حبيبنا ينبغي ان تنبهوا على جماعتكم بأن من يوجد من اولاد الريف متوجهاً من هنا ان يحضروه اليكم وأنتم ترسلونه الينا ولا تتركوا احداً منهم يتوجه الى بحري او خلافها إلا أن كان معه خطاب منا. وأولاد الريف الذين معكم احرصوا عليهم كل الحرص » .

وكتب الى كرم الله شيخ محمد بتاريخ ٢٦ ربيع الآخر سنة ١٣٠٤ هـ : « اما اولاد الريف فأرسلوهم جميعاً لهذا الطرف ليقيموا في البقعة ولا تتركوا منهم احداً كلية لأنهم اينما كانوا لا يؤتمنون » .

ورأيت كتاباً من مساعد قيدوم الى الخليفة بتاريخ ٢٤ رمضان سنة ١٣٠٦هـ يقول فيه : « انه بناء على الاشارة الكريمة بدقة البحث عن أبناء الريف في دنقلة وارسالهم اليكم فقد بحثنا عنهم في جميع جهات دنقلة من ارقو الى صنم وألقينا القبض على من وجدناه وها هم واصلون مع الحبيب محمد عبدالله الفادني وجماعته للمحافظة عليهم ومع المذكور كشف بأسمائهم ووظائفهم السابقة » .

وكتب الخليفة الى عثمان آدم بتاريخ ٢٩ جمادي الآخرة سنة ١٣٠٧ هـ : « وكذلك جميع اولاد الريف لا تمكنوهم من اموركم المهمة لأننا نحن هنا لم نمكنهم من امورنا بل نشغلهم بالكتابة على قدر اللزوم بدون دخل لهم في شيء آخر . ومن الجملة موسى حسين وجماعته فانهم وإن كانوا من الانصار فما دام انهم ابناء ريف فخذ حذرك منهم » .

وكتب الى محمود احمد في ٥ جمادي الآخرة سنة ١٣١٠ هـ : « ينبغي الانتباه الى مثل موسى حسين ومن معه من المواليد وأمثالهم الذين كانوا

مخالطين الترك سابقاً فاجعلوهم في وسط بلاد الاسلام ولا تجعلوهم في الجهات الموالية لجهة الاعداء ولا تندبوهم اليها » .

وقد جمع الخليفة اكثرهم في امدرمان واستخدم الصناع والكتبة والطوبجية في مصالحه العامة وترك الباقين يحتالون على معائشهم بتعاطي الاشغال الوضيعة جداً حتى كان الضابط الذي قاد الجنود الى ساحة القتال يضطر ان يعيش بالاستقاء او الاحتطاب من الصحراء او بفتح دكان للقهوة او لبيع الخضر . وقد حاول كثيرون منهم الفرار فمنهم من قبض عليه وعذّب او سجن حتى ذاق الموت الاحمر ومنهم من نجا بطرق اسوان وكورسكو وسواكن وقليل ما هم وأكثر هؤلاء من العساكر والكتبة الصغار . وأما الضباط والموظفون الكبار مثل سلاطين باشا وفوزي باشا والافراد الاوربيون من قسس وتجار فقد كانت المراقبة عليهم شديدة جداً حتى عدّ أمر فرارهم مستحيلاً أو شبيهاً به .

مآثر الميرالاي ونجت بك مدير قلم المخابرات سنة ١ – ١٨٩٦ :

انقاذ اوهر ولدر من الاسر سنة ١٨٩١ : وكان الميرالاي ونجت بك مدير المخابرات في مصر (السردار الحالي) عالماً بحال الاسرى في ام درمان وباذلاً جهده في انقاذهم وإمدادهم بالمال. فسعى مع مطران المرسلين النمساويين في القاهرة فأرسلا الى ام درمان خبيراً من عبابدة السيّالة يدعى احمد حسن فأنقذ الاب اوهر ولدر الذي أسر في جبل الدلن وراهبتين من راهبات الابيّض فخرج بهم من ام درمان في ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٩١ على أثر فتنة الاشراف واتخذ طريق المرات وكورسكو فوصل بهم مصر في ٢١ ديسمبر من السنة المذكورة .

تأليف كتاب المهدية والسودان سنة ١٨٩١ : وكان ونجت بك قد فرغ من تأليف كتابه المشهور المسمى « المهدية والسودان المصري » الذي فصّل

فيه وقائع الثورة المهدية ولا سيا وقائع الجيش مع الدراويش الى ما بعد واقعة طوكر احسن تفصيل .

تأليف كتاب اسر عشر سنين في معسكر المهدي سنة ١٨٩٣ : فرأى ان الأب اوهر ولدر ذو اطلاع كبير وخبرة تامة في احوال السودان والثورة المهدية مع ذكاء وفطنة وصدق لهجة فطلب اليه ان يخط اختباره هذا على ورق فكتب اصوله بالألمانية فألف منها ونجت بك كتاباً بالانكليزية من أنفس الكتب سماه « أسر عشر سنين في معسكر المهدي » ونشره سنة ١٨٩٢ فنال رواجاً عظيماً في اوربا كلها .

انقاذ روسينيولي من الاسر سنة ١٨٩٤ : ثم ارسل الى ام درمان عبّادياً آخر يدعى عبد الله محمد عمر من سكان دراو فأنقذ الأب روسينيولي الذي أسر في الابيض ١٨٨٣ وأتى به الى مصر في ٢٠ اوكتوبر سنة ١٨٩٤ .

انقاذ سلاطين من الاسر سنة ١٨٩٥ : وكان اخوة سلاطين باشا باذلين الجهد في انقاذ اخيهم من الاسر وقد استودعوا قنصلية النمسا في مصر الف جنيه لهذه الغاية فسعى ونجت بك والقنصلية المذكورة سعياً متواصلاً حتى وفقوا اخيراً الى تاجر جعلي يدعى العجيل فعقدوا معه اتفاقاً ودفعوا له ٢٠٠ جنيه مقدماً وكتبوا له صكاً بـ٨٠٠ جنيه تدفع له بعد رجوعه بسلاطين سالماً الى مصر . وكان سلاطين بعد وصوله الى ام درمان مع المهدي سنة ١٨٨٤ م قد كتب الى غوردن كتاباً بأمل التخلص من أسر المهدي والفرار اليه فوقع الكتاب في يد المهدي فسجنه وكبله بالحديد ثمانية اشهر . ولما مات المهدي جعله الخليفة من ملازمي بابه لا يبرح منه من الفجر الى ما بعد العشاء إلا اذا ركب فيركب معه . وقد شدد المراقبة عليه وأعطاه منزلاً ينام فيه قرب منزله وكان يفخر بأن مدير دارفور اسير عند بابه . فدبر العجيل الامر سراً مع سلاطين وخرج به من ام درمان في ٢٠ فبراير سنة ١٨٩٥ وأرسله مع رسل مخصوصين على هجن قوية فعبر النيل بين أبي حمد وبربر وأتى بطريق

اسوان فوصل مصر في ١٩ مارس من السنة المذكورة . وقد اغتاظ الخليفة جداً من فراره وبحث عن الساعين في ذلك حتى درى بالعجيل فنفاه هو وصديقاً له يدعى الصادق عثمان الى الرجاف وقتلهما هناك .

تأليف كتاب النار والسيف في السودان سنة ١٨٩٦ : وكان سلاطين باشا أعلم الناس بأحوال السودان ومطلعاً على اسرار حكومة التعايشي فأوعز اليه ونجت بك فشرع حال وصوله في كتابة معلوماته بلغته الالمانية فانشأ منها ونجت بك كتاباً ثميناً في الانكليزية سمي « النار والسيف في السودان » فنشر في اوائل سنة ١٨٩٦ ثم ترجم الى اهم اللغات الاوروبية وكان له اعظم شأن في اوربا كلها . وقد جاء بعد كتاب اوهر ولدر محرضاً قوياً للحكومة المصرية على استرجاع السودان. وسمي سلاطين باشا مساعداً لمدير قلم المخابرات فرافق الجيش في الفتح الاخير الى ان تم استرجاع السودان فسمي مفتشاً عاماً على السودان كله ولا يزال في هذا المنصب الرفيع الى اليوم .

وبعد نجاة سلاطين باشا بأيام أهدى جلالة امبراطور النمسا الى ونجت بك وساماً من أعلى وسامات الدولة النمسوية . ثم رفع سلاطين باشا الى جلالته اسمي واسم ملحمبك شكور فانعم على كلٍّ منا بوسام عالٍ فرفعت الى جلالته في ٣ نوفمبر سنة ١٨٩٦ قصيدة عربية عنوانها « شكر الجميل » هذه هي بحروفها :

أحمّل أنفاسَ النسيم اذا سرى   وفي طيّه ما فاق في النشر عنبرا
لعاصمة النمسا « فيينا » التي همت   على روضها مزن المعالي فأزهرا
عقودَ ثناء رائعات أصوغها   وأنظمها في السلك دراً وجوهرا
واجمل تعبير « امتنان » عبيره   أتى يستعير المسك منه التعطرا
تقبّل اعتاب المليك « فرنسوي »   وتبدي بناديه الرفيع التشكرا
هو الامبراطور الذي فاق مجده   وفاخر كسرى في المعالي وقيصرا
تسامى على هام الثريا بهمةٍ   علت ابيضاً للهند يُعزى وأسمرا

تقول لمن رام التشبّه وانبرى   يقلده اين الثريا من الثرى
هو البحر قد عمت موارد فضله   ولكن معاذ الله ان يتكدّرا
لقد جاد لي فضلاً بأكرم منّة   «وسامَ صليب فوقه التاج أسفرا»
سأجعله عنوانَ فخر وعزّة   يحقّ به لي ان أعِزّ وأفخرا
وتذكار تشريف بمنحة سيدٍ   غدا حمده فرضاً عليّ مقرّرا
واني وان أطنبت في وصف فضله   يظلّ لساني في الثناء مقصرا
ولكنني أرجو الى الله داعياً   مدى الدهر ان يُبقيه للفضل مصدرا
فلا زال في عرش الجلالة زاهياً   بعزّ واسعاد ودام مظفرا

الفصل الخامس

في

استرجاع دنقلة في سنة ١٨٩٦

وفيه وقائع دنقلة والحدود سنة ١ : ١٨٩٦

امراء دنقلة سنة٨٩ : ١٨٩٦ : تركنا دنقلة بعد خروج النجومي منها سنة ١٨٨٩ وعليها يونس الدكيم عاملا ومساعد قيدوم وكيلا له فوقع بينهما خلاف اشتد حتى لم يعد من الممكن ازالته فاستدعى يونس الى ام درمان وسمي زقل عاملا على دنقلة في ٢٥ شعبان سنة ١٣٠٧هـ فاغتاظ مساعد قيدوم لعدم انتخابه عاملا وكان معه من امراء البقارة عربي دفع الله فنصبا العداء لزقل . وفي ١١ شعبان سنة ١٣٠٨ كتبا الى الخليفة « انه مواد للكفرة وانه متحيز لأولاد البلد الجعليين والدناقلة على البقارة والجهادية السود » فبعث الخليفة في طلبه وحاكمه في مجلس من القضاة فأثبت خصماه شكواهما عليه فأمر الخليفة بسجنه . ولما ثار الأشراف ثورتهم المار ذكرها كان في جملة شروط الصلح اخراج زقل من السجن فأخرجه ثم نفاه الى خط الاستواء سنة ١٨٩٣ م كما قدمنا . واعاد يونس الدكيم ثانية الى دنقلة فعامل الأهلين بالشدة والغلظة فرفعوا شكواهم الى الخليفة فلم يسمع لهم ولما كرروا شكاويهم خاف ان

يلجأوا الى الحكومة المصرية لقربهم منها فاستدعى يونس الى ام درمان سنة ١٨٩٥ وأرسل مكانه محمد بشارة المار ذكره في الكلام على دارفور وكان عمره اذ ذاك لا يزيد على ٣٣ سنة ولكنه كان على حداثة سنه من اعظم رجال التعايشي دهاء وأعلاهم همة واشدهم رأياً وافضلهم سياسة .

تسمية كتشنر سرداراً على الجيش: وفي أثناء ذلك استعفى السر جرنفل باشا من منصبه فخلفه اللواء كتشنر باشا سرداراً على الجيش المصري وذلك في ١٢ ابريل سنة ١٨٩٢ . وفي أيامه استرجعت الحكومة دنقلة وسائر السودان وقبل الكلام على ذلك نذكر ما كان من وقائع الحدود بعد حملة النجومي في ايام يونس وزقل .

وقائع الحدود سنة ٨٩ : ١٨٩٦ :

غزوة سرس : تقدم ان الدراويش بعد حملة النجومي رجعوا الى سواردة فجعلوها أقصى نقطة لهم في الشمال وكان عليها حموده ادريس البقاري اميراً فبقوا نحو ثلاث سنين لا يبدون حراكاً . ثم عادوا الى تهجماتهم السابقة على الحدود فأغار جماعة منهم في ٤ ابريل سنة ١٨٩٢ على سرس القديمة واختطفوا ماشيتها وعادوا الى سواردة .

غزوة سرّا الغرب : وفي ٢١ مايو سنة ١٨٩٢ أغار عثمان ازرق على سرّا الغرب شمالي حلفا بنفر من الهجانة فقتل ٣٤ نفساً من اهلها وغنم ٥٠ رأساً من الماشية .

غزوة قستل : وفي ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٩٢ غزا جماعة منهم بلدة قستل قرب ادندان فقطعوا خط التلغراف بين كورسكو وحلفا وغنموا ماشية البلدة وقفلوا راجعين .

غزوة جماي : ولما رأى اهل سواردة ان الجيش لم يبد حراكاً اشتد طمعهم وزاد طموحهم فخرجوا كلهم يتقدمهم اميرهم حموده بقصد غزو جماي

وسرس وتخريب سكة الحديد بين سرس وحلفا فاتصل الخبر بقلم المخابرات قبل وصولهم فاستعدت حامية سرس لصدهم وذهبت الاورطة العاشرة فاحتلت جماي وجاء الدراويش بطريق امبقول فلما قربوا من النيل انقسموا فريقين فريق الهجانة وعليهم عثمان ازرق وفريق الفرسان والمشاة وعليهم حموده فأغار الاول على جماي والثاني على سرس فردّ الجيش الفريقين خاسرين الى امبقول وذلك مساء ٣١ ديسمبر سنة ١٨٩٢ .

واقعة امبقول في ٢ يناير سنة ١٩٠٣ : وفي أثناء ذلك جهز البكباشي باين ضابط المخابرات اربعة بلوكات من السواري وبلوكاً من الهجانة و ٢٥ رجلاً من عساكر الشايقية وسار بهم الى سرس فوصلها في فجر ١ يناير سنة ١٨٩٣ فعلم ان الدراويش قد فروا راجعين بطريق المرات وامبقول فتقدم الى المرات ولما لم يجدهم أبقى السواري في المرات وتقدم بالهجانة الى امبقول في فجر ٢ يناير فوجد بعضهم قد تأخروا في الآبار يسقون رواحلهم فأمر هجانته فترجلوا واتخذوا ثلاث تلال متقاربة في صف واحد وابتدروهم بالرصاص فتمنعوا في تلال منيعة شرقي الآبار وأجابوا اطلاق الرصاص بمثله وسمع اخوانهم صوت البنادق فأسرعوا الكرة لنجدتهم فهاجم فرسانهم ميمنة الهجانة ودار الباقون عليهم من شمالهم فالتحموا بهم وقتلوا البكباشي باين والصاغ فؤاد افندي قومندان الهجانة وبعض العساكر وخف الباقون الى هجنهم فركبوها وانقلبوا راجعين فرقتين : الهجانة المصرية وعليهم الملازم محمد افندي بركات والهجانة الشايقية وعليهم الصاغ سليمان افندي عبدالله فتأثرهم الدراويش فنجا محمد افندي بركات بفرقته وأما سليمان افندي عبد الله فانه لما رأى الدراويش قد قربوا منه أمر رجاله فترجلوا وتسلقوا أكمة وشرعوا في اطلاق النار على الدراويش الذين أحاطوا بهم من كل جهة وما زالوا يطلقون الرصاص حتى فرغت جبخاناتهم او كادت . وكان معهم موظف في المخابرات يدعى الشيخ صالح جبريل من مواليد دنقلة النجباء فلما رأى حرج المركز صعد الى أعلى التلة وطفق ينادي « ابشروا بالخير ابشروا بالخير جاءت السواري » فلما سمع

الدراويش هذا النداء صدقوه وانقلبوا راجعين فنزل الهجانة عن التلة وأتوا سرس في اليوم التالي . وكان الملازم محمد افندي بركات قد سبقهم اليها وأنفذ خبراً الى السواري في المرات فرجعوا الى سرس . وقد عرفت هذه الواقعة بواقعة امبقول وكانت خسارة العساكر فيها ٣٦ قتيلا و ١٥ جريحاً . وأما خسارة الدراويش فكانت ٥٠ قتيلاً و ٦٠ جريحاً . وقطع الدراويش رأس البكباشي باين وأرسلوه الى الخليفة في ام درمان مع مسدسه ونظارته ومرآته . وقد مررت بامبقول سنة ١٨٩٦ وشاهدت محل الواقعة فاذا فيه آثار ملابس العساكر وبعض رفاتهم .

غزوة بريس في ٢٥ يوليو سنة ١٨٩٣ : وبلغ يونس الدكيم امير دنقلة ان في واحة بريس على ٦٠ ميلاً من الخارجة خيراً كثيراً وهي خالية من العساكر والحصون فجهز عثمان ازرق بنحو ٣٠٠ مقاتل وأرسله لغزوها في يونيو سنة ١٨٩٣ فلما أتى واحة سليمة رأى آثار قافلة آتية من سوهاج الى آبار النطرون فأرسل خلفها مئة رجل فأدركوها عند الآبار فاعتقلوا رجالها وغنموا ما كان معهم من الجمال والمال وساقوهم الى دنقلة . وسار عثمان ازرق بباقي القوة الى بريس فدخلها في ٢٥ يوليو سنة ١٨٩٣ ولم يجد من يقاومه فأخذ يجمع ما فيها من الغنائم فكانت ٥٤ بقرة و ١٨٧ رأس غنم و ١٠ جياد و ٢٥٦ بندقية و ١٠٠ اردب حنطة و ٤٥ حماراً و ٥ قناطير من آنية النحاس ومن الذهب والفضة ما قيمته ٣٤٠ ريالاً و ١٥٠ جنيهاً وقضى في جمعها ٣ ايام ثم حملها وعاد بها الى دنقلة ومعه ١١ رجلاً من أهلها فأخذ يونس جانباً من الغنائم الى بيت المال ووزع الباقي على الغزاة وارسل اسرى الواحات والآبار الى ام درمان .

وكان اهل بريس قبل خروج الدراويش من واحتهم قد أنفذوا خبراً الى معاون الخارجة فأنفذه الى مدير اسيوط ووصل السردارية بمصر في ٣٠ يونيو فأرسلت الجند الى سوهاج بقصد انجاد الواحة وقبل ذهاب الجند اليها ورد الخبر بأن الدراويش قد خرجوا منها فذهبت اورطة من العساكر لتسكين

روع الاهالي. وخصصت الحكومة ٥٠٠٠ جنيه لتنفق على حماية الواحات فبنى العساكر طابية في بريس وطابية في الخارجة ومُدَّ خط التلغراف من الخارجة الى جرجا . وجُعلت نقطة من الكبابيش في بير الشب غربي حلفا على طريق الاربعين .

غزوة المرات وقتل صالح بك اخذاً بثار سليمان ود قمر في ١٢ نوفمبر سنة ١٨٩٣ م

ذكرنا احتلال صالح بك للمرات يوم واقعة النجومي سنة ١٨٨٩ . وفي سنة ١٨٩١ بلغه ان الدراويش في ابي حمد يستعدون للهجوم عليه فرأى ان يتغداهم قبل ان يتعشوه ، فجهز رجاله ونزل بهم على ابي حمد فباغت اهلها الهجوم في الفجر وهم يصلون صلاة الصبح في الجامع فذعروا وأسرعوا الى اسلحتهم وبدأ اطلاق النيران من الفريقين ثم برز سليمان نعمان ود قمر الغادر بستيورت باشا راكباً على جواده وهجم على رجال صالح بك فرموه بالرصاص فسقط الى الارض يتخبط بدمائه فغنموا جواده ورجعوا الى المرات . فجار الخليفة بعد هذه الواقعة على المليكاب الذين في السودان ونفى كبيرهم حسن محمد خليفة الى بحر الجبل وصمم على اخذ الثأر من صالح بك فأمر يونس الدكيم امير دنقلة فعقد لعثمان ازرق على ٦٠٠ مقاتل بالاسلحة النارية وارسله لغزو آبار المرات فوصلها في فجر ١٢ نوفمبر سنة ١٨٩٣ وكان مع صالح بك ١٠ رجال مسلحين بالبنادق وقد تحصنوا وراء متراس من الحجارة على رأس أكمة فانتشب القتال بين الفريقين ودام من لدن الفجر الى ما بعد العشاء وقد وقف صالح بك بين رجاله يحثهم على القتال والثبات الى ان اصيب برصاصة في فخذه حالت دون تمكنه من الوقوف ومع ذلك ظل يشجع رجاله على القتال الى ان توفي بعد ان جرح بخمس ساعات. وتولى اخوه عبد العظيم قيادة العربان مكانه واستمر القتال حتى ارخى الليل سدوله فرجع الدراويش الى دنقلة وقد قتل منهم ٢٩ رجلا واما العبابدة فقد قتل منهم عدا صالح بك ١١ رجلا .

وجعل السردار عبد العظيم مكان اخيه ووصى الحكومة بعائلة صالح بك فأجرت لها مرتبه بتمامه حتى بلغ اولاده سن الرشد . وارسل الكبتن ماتشل فبنى في المرات طابية حصينة في ديسمبر سنة ١٨٩٣ .

زيارة الجناب العالي للحدود في يناير : وفي يناير سنة ١٨٩٤ زار الجناب العالي الخديوي بلاد الحدود وكان قومندان الحدود اذ ذاك لويد باشا فوزع منشوراً على الأهالي أخبرهم بتشريف سموه بلادهم وأوعز اليهم بغرس شجرة من الجميز في كل بلدة تذكاراً لزيارته . وبلغ الدراويش خبر هذه الزيارة فظنوا ان الحكومة تستعد للزحف على السودان فتيقظوا .

غزوة الشب سنة ١٨٩٤ : وفي آخر سنة ١٨٩٤ نزل جماعة منهم على حامية الشب فوجدوا حاميتها الكبابيش متيقظين فرجعوا عنها .

غزوة ادندان : وفي ١٠ ديسمبر سنة ١٨٩٥ غزا ود حمزة الاتربابي بجماعة من الهجانة بلدة ادندان على ٣٠ ميلا من حلفا فقتل ١٦ رجلا من أهلها.

غزوة سرس القديمة ٣٠ يناير سنة ١٨٩٦ : وفي ٣٠ يناير سنة ١٨٩٦ م اغار جماعة من سواردة على سرس القديمة فقتلوا ٣ من اهلها .

حملة دنقلة سنة ١٨٩٦ م

وهكذا كان الدراويش كلما سنحت لهم فرصة ركبوا الهجن وضربوا في عرض الصحراء واغاروا على بلدة من بلاد الحدود فقتلوا ونهبوا ثم رجعوا قبل ان تدركهم العساكر حتى اقلقوا راحة الجيش وسكان الحدود ولم يمكن توقي شرهم ومنع تعديهم إلا بنشر العساكر على طول البلاد من اصوان الى حلفا شرقاً وغرباً وهذا لم يكن ميسوراً لقلة عدد الجيش. وكان السردار قد طلب من الحكومة في اواخر سنة ١٨٩٢ مبلغ ٦٠ الف جنيه ليزيد بها عدد الاسلحة الراكبة ويقف للدراويش في المرصاد فلم تعطَ له . ولم ينفك يحث الحكومة

على وجوب الحملة على دنقلة وطرد الدراويش منها رفقاً بالحدود والجيش وهي لا تجيبه الى طلبه لعجز ماليتها عن تحمل النفقات حتى كانت واقعة عدوة بين التليان والحبشة في ١ مارس سنة ١٨٩١ وهب الدراويش لاسترجاع كسلا من التليان كما مر فأقرت بادىء بدء على ارسال الجنود الى سواكن والتظاهر في الحملة على بربر لارهاب الدراويش وحملهم على العدول عن كسلا ثم رأت ان مجرد التظاهر لا يفي بالمقصود فأقرت ايضاً في ١٢ مارس سنة ١٨٩٦ على الحملة على دنقلة والتظاهر في الحملة على بربر. وفي ١٨ مارس سنة ١٨٩٦ أصدر السردار امره تلغرافياً الى هنتر باشا قومندان الحدود فأرسل معظم العساكر الى عكاشة وأسس نقطاً حربية بينهما وبين حلفا لحفظ خط الاتصال وشرع في مدّ خط سكة الحديد اليهما بطريق الصحراء . وفي ٢٩ مارس وصل السردار حلفا بأركان حربه وشرع في اعداد معدات الحملة والتهيؤ لها .

غزوة عثمان دقنة لطوكر مارس - ابريل سنة ١٨٩٦ :

ولكن لم يلبث ان جاءته الانباء من سواكن ان عثمان دقنة حضر الى اركويت بنحو ٢٠٠ فارس و ١٠٠٠ راجل بنية استرجاع طوكر فظهر ان الخليفة انما اراد استرجاع طوكر وكسلا معاً وقد عهد الى عثمان دقنة استرجاع طوكر كما عهد الى احمد فضيل استرجاع كسلا فأصدر السردار امره الى لويد باشا محافظ سواكن وكان اذ ذاك في مصر فخف الى سواكن وأرسل الى سدني بك قومندان طوكر ليوافيه بما لديه من الجند الى خور ونتري على ٢٢ ميلاً من سواكن في يوم عينه له بقصد جمع القوتين وطرد عثمان دقنة من البلاد . وكان في سواكن من الجند نحو ٩٠٠ رجل من سواري وهجانة وبيادة وفي طوكر نحو ٢٥٠ رجلاً من الاورطة العاشرة السودانية .

واقعة سدني في ١٥ ابريل سنة ١٨٩٦ : فخرج سدني بعساكره من طوكر في ١٤ ابريل ولويد باشا من سواكن في ١٥ منه قاصدين نقطة الملتقى فما وصل لويد الى طروة حتى أتاه مخبر بأن عثمان دقنة قد خرج من اركويت قاصداً خور ونتري فأقام في مكانه وأنفذ خبراً في الحال الى سدني ليعدل عن خور

ونتري ويأتي رأساً الى طروة وأرسل البكباشي فنك بـ ٨٠ فارساً تقوية له . فأبطأ رسول لويد ولم يعلم سدني بك بشيء حتى صار على نحو ميل من خور ونتري في عصر ١٥ ابريل فعاد الكشافة وأخبروه بأن عثمان دقنة قد احتل الخور فأمر العساكر في الحال فترجلوا ونظموا قلعة حول هجنهم وما أتموا انتظامهم حتى هجم عليهم عثمان بجيشه وأحاط بهم من كل جانب فصبوا عليه الرصاص كالعارض الهطال وهزموه في اقل من ساعة بعد ان قتلوا من جيشه نحو ٢٥٠ رجلاً .

واقعة فنك : وكان فرسان عثمان دقنة لما رأوا ثقل الرصاص من مربع سدني تحولوا عنه الى جهة طروة فصادفوا «السواري» الآتين من لويد لنجدة سدني فهجموا عليهم وقتلوا منهم وأوقعوا فيهم الفشل فانهزموا فرقتين فرقة فازت بالنجاة الى طروة وأخرى وفيها البكباشي فنك و ٣٨ فارساً صعدت الى اكمة ثم ترجلت وصلّت فرسان عثمان بنار بنادقها فردتهم على اعقابهم . ثم انضم اليهم بقية جيشهم المنهزم من واقعة سدني فحصروا الاكمة الليل كله الى الصباح (١٦ ابريل) فلم يظفروا منها بطائل فارتدوا عنها فنزل فنك بفرسانه عن الاكمة الساعة ٩ صباحاً وعاد الى طروة . وأما سدني فانه بات ليلته في محل الواقعة وفي صباح اليوم التالي (١٦ ابريل) تقدم الى خور ونتري وأنفذ خبراً الى لويد باشا فوافاه اليه وطلبا عثمان دقنة فوجداه قد انقلب راجعاً الى ادارمة فدخلا سواكن فبقي لويد فيها محافظاً وجاء سدني وفنك والعساكر الى النيل للمشاركة في حملة دنقلة .

غزوة احمد فضيل لكسلا مارس - ابريل سنة ١٨٩٦ :

وقعة كسلا ٢ ابريل سنة ١٨٩٦ : هذا ما كان من غزوة عثمان دقنة لطوكر . اما احمد فضيل فانه زحف على كسلا في اواخر مارس سنة ١٨٩٦ بنحو ٦٠٠٠ مقاتل فحصرها . وكان التليان قد ارسلوا اليها من مصوع حملة كبيرة من المؤن والذخائر يحرسها ٣٥٠٠ رجل بقيادة الكولونيل ستفاني فالتقاه احمد فضيل في ظاهر المدينة في ٢ ابريل سنة ١٨٩٦ فجمع الكولونيل

ستفاني قواه وأوقع فيـه واقعة مشهورة وهزمـه الى طوكرف بخسارة ٤٠٠ قتيل وأما خسارته فكانت ١٠٠ قتيل وجريح .

واقعة طوكرف في ٣ ابريل سنة ١٨٩٣: وفي صباح اليوم التالي ٣ ابريل خرج عليه بجميع عساكره الى طوكرف وأوقع فيه واقعة أشد من الواقعة الاولى فقتل من جيشه ٨٠٠ رجل وهزمه الى القضارف وكانت خسارته في هذه الواقعة ١٤٣ قتيلاً منهم ٤ ضباط و ٢١٧ جريحاً .

عود الى حملة دنقلة سنة ١٨٩٦ :

واقعة ١ مايو سنة ١٨٩٦ : ولنرجع الآن الى حملة دنقلة فان الدراويش لما علموا بتحرك الجيش الى عكاشة هبوا الى سلاحهم وتقدم حمودة بحامية سواردة الى كوشة فاحتلها في ٢ ابريل سنة ١٨٩٦ ثم تقدم الى فركة فاحتلها في ٢٨ منه . وخرج محمد بشارة امير دنقلة بجميع مقاتلته خارج الديم وشرع في ارسال المدد الى حموده حتى اجتمع عنده في فركة نحو ١٦٥٠ رجلا فخرج بهم في ١ مايو بطريق الصحراء بنية جرّ عساكر عكاشة الى الصحراء والايقاع بهم . وكان قلم المخابرات متنبهاً للدراويش وقد بث العيون والارصاد لمراقبة حركاتهم ومعرفة احوالهم فلما علم بخروجهم من فركة ابلغ السردار فصدر أمره الى القائمقام برن مردخ بك قومندان السواري فخرج بـ ٢٥٠ فارس والتقاهم في منتصف الطريق بين عكاشة وفركة فقتل منهم ١٢ رجلا وردهم على اعقابهم مدحورين وقد قتل من عسكره رجل واحد وجرح سبعة . وكانت الاورطة التاسعة السودانية قد خرجت لنجدته فما وصلت حتى كانت الواقعة قد انتهت فعاد الكل الى عكاشة .

قوة جيش فركة : قيل وقد أظهر حموده الجبن في هذه الواقعة فشكاه الامراء الى محمد بشاره امير دنقلة فعزله وسمى عثمان ازرق اميراً على الجيش مكانه وكان الجيش مؤلفاً من ١٦٣٢ رجلا فجعله اربعة ارباع وجعل على كل ربع اميراً من جنسه وهم : الهبانية وعددهم ٣٣٦ رجلا وعليهم حموده ادريس . والدناقلة والحمر وعددهم ٤٤١ رجلا وعليهم كرم الله كرقساوي

الدنقلاوي . والجعليين وعددهم ٢٤٥ رجلاً وعليهم محمد الامين ابن عبدالحليم . والجهادية السود وأولاد العرب وعددهم ٦١٠ رجال وعليهم يوسف عنقر ودودوبدر البقاريين . اما الجهادية فسلاحهم البنادق الرمنتون وأما الباقون فالسيوف والحراب وبعض البنادق . ومعهم كلهم ٧٢١ بندقية رمنتون و ٥٠ صندوق جبخانة و ٢٠٥ افراس و ١١٠ جمال و ٥٠٠ حمار .

استعداد العدو في فركة : واستعد عثمان ازرق للدفاع في فركة فعين لكل امير مكاناً يدافع فيه . امـا فركة فهي بلدة حسنة على ضفة النيل هجرها اهلها منذ الحملة النيلية فراراً من الدراويش فأصبحت خراباً وفي شمالها جبل شاهق علوه ٩٠٠ متر ينسب اليها . والى جانبه الجنوبي اكام تختلف في الارتفاع من ٣٠ الى ١٥٠ قدماً وبينها وبين خرائب البلدة ديم الدراويش فجعل عثمان ازرق الهبانية والجهادية على الاكام والجعليين شمالي خرائب فركة والدناقلة والحمر جنوبيها . وقد علم قلم المخابرات قوة العدو تماماً بل رسم له فركة وعين مكان كل امير فيها وقت الدفاع حسبما رتبه عثمان ازرق فشرع السردار في الاستعداد للحملة وهاك ما دبّره .

جيش الحملة على دنقلة : لما صدر الامر بالحملة على دنقلة كانت قوة الجيش المصري مؤلفة من: آلاي من السواري فيه ١٢٥٣ فارساً . وآلاي من الطوبجية فيه ٩٥٣ رجلا و١٨ مدفعاً . وآلاي من الهجانة المصرية والسودانية فيه ٦١٨ رجلا . و١٣ اورطة بيادة أي ثماني اورط مصرية وهي التي انشئت بعد الغاء الجيش القديم سنة ١٨٨٣ وخمس اورط سودانية وقد انشئت في اثناء الثورة المهدية وفي الكل ١٠٧١٥ رجلا. واركان حرب مصالح الجيش وعددهم ١٦٠١ رجل . ذلك مـا عدا ٩٤٢ من العساكر غير المنظمة ونحو ٦٠٠ من رجال حملة النقل ومجموعهم كلهم ١٦٦٨٠ فيهم نحو ٧٠٠ ضابط . وسلاح الجميع بنادق مارتين هنري إلا العساكر غير المنظمة فانها كانت مسلحة ببنادق رمنتون .

فجعل السردار الاورط المصرية الاولى والخامسة والسادسة في نقط خط

الاتصال بين اسوان وعكاشة وأعد باقي الجيش للحملة على دنقلة. وتبرع الجناب العالي ببلوك من الهجانة كان في خدمة سموه فأضيف الى قوة الحملة . وكان السردار قبل صدور الامر بالحملة على دنقلة أمر بانشاء الاورطة السودانية الرابعة عشرة فأتم انشاءها وأبقاها في اساس الجيش في مصر . ثم لما صدر الأمر بالحملة أنشأ اورطتين من العساكر الاحتياطيين : الخامسة عشرة فجعلها في اصوان وكورسكو والسادسة عشرة فأرسلها الى سواكن . وكان في خدمة الجيش نفر من عربان العبابدة والكبابيش والعليقات فزاد عددهم اكثر من الف رجل وحصن بهم نقط الصحراء الشرقية والغربية . واستنصر دولته فأرسلت اليه اورطة من الآي نورث ستفوردشير فيها ٨٧٠ رجلا وبعض المهندسين الملكيين والطوبجية والبحارة فاستخدمهم في حملة دنقلة . وأرسلت الى سواكن آلاياً من الهند بقيادة الجنرال اجرتن فكان لوجوده في سواكن في أثناء الحملة على دنقلة تأثير أدبي عظيم في الدراويش .. وقد تطوع لها جماعة من كبار ضباط الانكليز فكانوا من اركان حرب فيها أهمهم : اللورد ادورد سسل ابن اللورد سلسبري وزير انكلترا الشهير فألحق بأركان حرب السردار. واللورد اثلمي ألحق بأركان حرب اللواء هنتر باشا . والكونت كليخن من افراد العائلة الملوكية ومن اركان حرب مخابرات الجيش الانكليزي جعل في قلم المخابرات في حلفا اياماً ثم نقل الى سواكن فتولى اشغال المخابرات فيها . والماجور ستيورت ورتلي من رجال الحملة النيلية . والماجور كتشنر شقيق السردار .

وسائط النقل : وكان أهم ما لزم السردار بعد حشد الجيش الاهتمام بوسائط النقل في صحار مقفرة ونيل تعترضه الشلالات .. وكان في الجيش عند صدور الامر بالحملة ٣٠٤٨ رأساً من خيل وجمال وبغال وحمير فأرسل السردار بعض ضباطه وأركان حربه فاشتروا الفي جمل من اسيوط وقنا واصوان فوق جمال الحملة . وأنشأ عشرة بلوكات من عساكر القرعة غير المستوفين الشروط من جهة القد والطول فضمهم الى البلوكات الثلاثة المخصصة للحملة في الجيش

وجعل لكل بلوك قومنداناً وجعل الكل بادارة شقيقه الماجور كتشنر .

وكانت الحكومة قد أقرّت قبل الحملة على مد سكة الحديد من كورسكو الى المرات وبوشر العمل فلما كانت الحملة اوقف السردار العمل وأتى بمواد السكة الى سرس وشرع في مدها جنوباً الى عكاشة فكوشة وقد أنشأ اورطة من عساكر القرعة غير المستوفين الشروط ووجها العمل ثم استخدم اورط الجيش عند الحاجة .

هذا من جهة تدبير النقل في البر اما في النيل فقد كان بين اسوان وحلفا ١٢ وابوراً من الوابورات التي تخلفت عن الحملة النيلية فاستخدمها السردار في نقل المؤن والذخائر من اسوان الى حلفا وأعدّ سبعة منها للصعود فوق الشلال الثاني وسماها الظافر والفاتح والناصر .

ونظم بوسطة يومية على الهجن عهد بها الى الشيخ صالح جبريل المار ذكره في واقعة امبقول فقام بها خير قيام . وأما التلغراف فكان يمده الى حيث يكون الجيش .

تأليف ادارة الجيش: وفي ٢ يوليو نقل مركز السردارية الى عكاشة وألفت ادارة الجيش من سرس وجنوبيها كما يأتي :

قومندان عموم القوة	السر هربرت كتشنر باشا السردار . وياورانه : اللورد ادورد سسل . والقائمقام ونسن بك . والصاغ محمد افندي بدر
رئيس اركان حرب	اللواء رندل باشا
مدير قلم المخابرات	الميرالاي ونجت بك
مساعد قلم المخابرات	الميرالاي سلاطين باشا
حكيمباشي التجريدة	القائمقام هنتر بك
حكيمباشي بيطري	جريفث بك
مدير المهمات	القائمقام دراج بك
مدير حملة النقل	الماجور كتشنر
مدير سكة الحديد	البكباشي جيروارد
اركان حرب التلغراف	البكباشي مانيفولد

قومندان عموم السواري	القائمقام برن مردخ بك
قومندان طوبجية السواري	البكباشي يونج
قومندانات بطاريات الطوبجية	بيك بك والبكباشي لوري والصالح محمد افندي حافظ
قومندان الهجانه	القائمقام تدوي بك

قومندان فرقة البيادة	اللواء هنتر باشا
قومندان اللواء الاول (وفيه الاورط الـ ٣ و ٤ و ٩ و ١٠)	الميرالاي لويس بك
قومندان اللواء الثاني (وفيه الاورط الـ ١١ و ١٢ و ١٣)	الميرالاي مكدونلد بك
قومندان اللواء الثالث (وفيه الاورط الـ ٢ و ٧ و ٨)	الميرالاي مكسول بك
قومندان خط المواصلات (بين اصوان وعكاشة)	الميرالاي كوكرين بك

واقعة فركة في ٧ يونيو سنة ١٨٩٦ :

وفي اوائل يونيو مُدت سكة الحديد الى آبار امبقول وكانت دوريات الدراويش تصل الى تلك الآبار فتعترض حملات النقل وتحاول منع العمل في سكة الحديد فوجد السردار ان استمرار العمل في السكة يقضي بطرد الدراويش من فركة وقد أقر على مهاجمتهم بطريق الصحراء وطريق النيل معاً . فلما كان يوم ٦ يونيو جمع الجيش كله في عكاشة وجعله قسمين : الاسلحة الراكبة وهم آلاي السواري والبطارية السواري والهجانة ومعها الاورطة الثانية عشرة السودانية راكبة على الهجن ومدفعا مكسيم وجماعة من القسم الطبي بقيادة الميرالاي برن مردخ بك تسير بطريق الصحراء فتأتي فركة من الشرق والجنوب . وفرقة البيادة ومعها بطاريتا ميدان ومدفعا مكسيم واسبيتالية ميدان بقيادة اللواء هنتر باشا تسير معه بطريق النيل فتأتي فركة من الشمال ويكون الجيشان محيطين بفركة في فجر اليوم التالي فيهاجمانها معاً من الجنوب والشرق والشمال . ولما كانت الساعة الرابعة بعد الظهر خرج السردار بجيشه

من عكاشة وسار بطريق النيل وخرج برن مردخ بك بالأسلحة الراكبة بعده بساعتين وسار بطريق الصحراء واتيا فركة في فجر ٧ يونيو والدراويش اذ ذاك يؤدون صلاة الصبح فما شعروا إلا والقنابل تنصب عليهم من كل جهة فهرع كل فريق منهم الى مكانه مذعوراً واستعدوا للدفاع وانتشب قتال حاد دام نحو ساعتين أبلى العساكر فيها بالدراويش بلاء حسناً . ثم هجمت فرقة البيادة عليهم في اماكنهم فقتلتهم شر قتلة وامتلكت الديم . وتمكن بعضهم من الفرار متوارين بجرف النيل وفيهم عثمان ازرق وكرم الله كرقساوي فلحقهم السواري الى مغركة فقتلوا منهم وأسروا . ولجأ بعضهم الى جزيرة في النيل تجاه فركة فرفعوا راية بيضاء وأتوا مسلمين وفيهم بان النقا عبد الحفيظ من موظفي حكومة الفتح الاول . وقد سر السردار من بسالة برن مردخ بك وحسن تدبيره فرقاه الى رتبة ميرالاي في الحال وأمره فتقدم بالاسلحة الراكبة الى سواردة واحتلها في صباح اليوم التالي اي في ٨ يونيو . وكان عثمان ازرق قد سبقه اليها فعدّى العائلات الى البر الغربي حيث كان النجومي معسكراً بثلاثماية مقاتل وبقي في سواردة الى ان رأى غبار الجيش ففر بمن معه من الانصار الى كدّين ثم الى الكرمة . وفرّ حسن النجومي بالعائلات الى دنقلة .

القتلى : وقد قتل من الجيش في واقعة فركة ٢٠ رجلاً وجرح ٨٦ . وأما قتلى الدراويش فنحو ٥٠٠ وفيهم الأمراء حموده ومحمد الامين ويوسف عنقر . وقد رأيت بين القتلى امرأة من الهبانية قالوا انها جاءت الى الحرب لتقتل مع رجلها او تحيا معه فأصيبت برصاصة في صدرها وكانت علامات الهدوء والاطمئنان بادية على وجهها كأنها نائمة .

الاسرى والغنائم : وقد جُمع الاسرى بعد الواقعة فكانوا ٥٩٣ نفساً من السود والجعليين والدناقلة والبقارة فأدخل السود في خدمة الجيش في الحال وأما العرب فمن عرف انه كان مكرهاً على الحرب اطلق سراحه وأما البقارة وأنصارهم فقد ارسلوا بعيالهم الى سجن حلفا . وكان بين الاسرى ٧١ جريحاً

فنقلوا الى الاسبيتالية وعولجوا فيها الى ان شفوا فوزعوا على الاسلوب المارّ ذكره. وكان بين الجرحى الشيخ الطاهر ود العبيد المذكور في حصار الخرطوم فانه كان في ربع الجعليين وقد كرّ على الجيش في وسط المعركة فقتل فرسه فترجل وقعد على قناة ماء ووضع سيفه بجانبه اشارة الى تركه الحرب فرآه احد ضباط الاورطة الرابعة فأفرغ فيه مسدسه فجرحه في فخذه وجنبه وصدره ويده اليمنى ومع هذا كله لم يتحرك من مكانه إلا انه أشار الى ضاربه بيده فأتى اليه بعد توقف فقال له : ما الذي دعاك الى ضربي وأنا مطوي اليدين . فقال : الغدر الذي لقيناه من اخوانك في المواقع السالفة . فقال له: ان الذي يقعد قعودي لا ينوي الغدر . ثم حملوه الى المستشفى . وكان قد سأل عن سلاطين باشا فأتى وأوصى بالاعتناء به .

وقد غنم الجيش في فركة ٢٥ صندوقاً من الجبخانة وشيئاً كثيراً من الاسلحة والنقاقير والدروع والخيل والجمال والحمير والحبوب والخوذ . وكان بينها خوذة نقش عليها هذا البيت من قصيدة البردي المشهورة :

ومن تكن برسول الله نصرته ... ان تلقه الأسد في آجامها تجم

ولعلها من خوذ ملوك سنار لأن هذا البيت كان شعارهم الذي يكتب على اختامهم .

وقد فتشت عن اوراق الدراويش فوجدت بينها كتباً كثيرة من محمد بشارة الى حموده وعثمان ازرق حثهما فيها على التيقظ والثبات ودربهما أحسن تدريب .

معسكر كوشة : وبعد انتهاء الواقعة عسكر السردار في جنوبي فركة اياماً ثم انتقل الى كوشة في فم عقبة ابي صاري وجعلها مركز الجيش واهتم باتمام سكة الحديد اليها ونقل الوابورات . وأرسل من فركة **منشوراً الى اهل السودان** فوصل نسخ منه الى ود بشارة في دنقلة والخليفة في ام درمان هذا ملخصه :

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين . اما بعد فغير خاف على الحكومة ان الذي حملكم على شقّ عصا طاعتها انما هو تصديقكم دعوى محمد احمد المتمهدي وقد اتضح لكم الآن ان تلك الدعوى لم تكن من المهدية بشيء بل هي ثورة دموية افضت الى ملك جائر يتولاه الآن عبد الله التعايشي الذي عزل كل امير من غير اهله وولى أهله فاستبدوا بكم . ولما رأت الحكومة سوء مصيركم أرسلت الآن جنودها الجرارة لانتشالكم من وهدة الضلال التي اوقعكم فيها ذلك المتمهدي وانقاذكم من الظلم الذي تقاسونه في عهد خليفته التعايشي . وقد كان من مبتدعات المتمهدي وخليفته هذا منع الحج الشريف مع انه فرض وجب على كل من استطاع اليه سبيلا. ثم ان كلا منهما فسر القرآن على رأيه وهواه واستنبط أحكاماً شرعية كما أراد ومنعكم قراءة كتب الحديث والتفسير فضلا عما يأتيه التعايشي الآن من جمع المال وتفريق كلمة الاسلام وهتك الاعراض وظلم الفقراء وهدم بيوت الكبراء وبعد ان كان رجلا مسكيناً لا يملك شروى نقير استأثر بأموال الرعية كلها وسكن القصور المشيدة واتخذ نساء المؤمنين سراري له واستحل وطأهن بلا عقد ولا ملك يمين وهو مع ذلك يدعي بالزهد والمسكنة ويتنعم سراً بكل ما تطيب به نفسه وتقرُّ عينه وهو ظالم غشوم ما تكلم احد بالحق إلا قتله او سجنه او نفاه . وقد سجن الخليفة شريفاً وأهان الخليفة ود حلو واولاد المهدي وقتل ابراهيم عدلان واقارب المهدي مثل عبد القادر ود ساتي ومحمد عبد الكريم واخوانهم سجن والزاكي طمل والقاضي احمد والحسين ود الزهرة أماتهم جوعاً . وخرب مساجد المسلمين كمساجد الحسن المرغني واولاد نور الدايم والشيخ العبيد والشيخ حمد النيل العركي . ونفى امراء الجعليين مثل بدوي ودالعريق وغيره وبذلك أسخط جميع العالم الاسلامي وأصبحت مكة المشرفة وكرسي الخلافة العظمى تنظر الى عمله بعين المقت والكراهة . ولما رأى ولي النعم خديونا المعظم **عباس حلمي الثاني** ان جرائم هذا الطاغية تزداد يوماً فيوماً اخذته الشفقة على المسلمين المظلومين وصمم على انقاذهم من الظلم

فأرسل جيوشه المظفرة لكي تهدم اركان دولة التعايشي وتقيم حكومة شرعية مؤسسة على العدل والاستقامة وتبني المساجد وتعين على نشر الدين القويم . وقد أصدر سموه عفوه التام عن جميع ذنوبكم وأمر بردّ املاككم . وهو يدعوكم الى استقبال جيوشه بالترحيب فاذا قبلتم الدعوة وعرفتم قيمة الانعام كنتم انتم الراجحين الناجين وإلا فالويل لمن رفض نعمة ربه وكرم خديونا المعظم وباسمه لي الرجاء الوطيد ان أراكم قريباً طائعين ومعضدين للحكومة الخديوية والسلام يونيو سنة ١٨٩٦ » . الامضاء : كتشنر قائد جيش حملة السودان وسردار الجيش المصري .

هذا ولم يعد في الامكان الانتقال من كوشة جنوباً قبل مدّ سكة الحديد والوابورات اليها . اما الوابورات فلم يمكن عبورها فوق الشلالات إلا بعد استيفاء الفيض حدّه وذلك في اوائل اوغسطوس فاهتم السردار بأتمام سكة الحديد الى كوشة بأسرع ما يمكن من الزمن لينقل اليها الزاد والذخائر واجزاء الوابورات التي أوصى بها في بلاد الانكليز على ان يبنيها في كوشة حتى اذا ما ارتفع النيل الى الحد المطلوب وجاءت الوابورات من حلفا تكون الوابورات الجديدة قد تمت فأضاف اربع اورط من الجيش الى اورطة سكة الحديد وحثهم على الجد في العمل .

انتشار الكوليرا في الجيش : وكانت الكوليرا قد تفشت في مصر بعد خروجنا منها بقليل فوصلت اسوان في أواسط يونيو وما زالت تذهب صعداً في النيل حتى تفشت في جميع نقط خط الاتصال من اسوان الى سواردة فاجتهد السردار وأركان حربه والأطباء في محاربتها حتى زالت في ١٠ اوغسطوس وبلغت الوفيات في جميع نقط الجيش ٩١٩ منهم ١٤ عسكرياً و ٥ ضباط من الانكليز وفيهم البكباشي فنك بطل الاكمة المار ذكره في سواكن و١٥٦ عسكرياً و ٤ ضباط من المصريين و١٨٣ من « حريمات » العساكر السودانية و ٤٥٦ من أهل البلاد . ومنهم المرحوم يوسف شكور من مهندسي سكة

الحديد النجباء وابن اخي ملحم بك شكور ونسيب سليمان بك ناصيف . توفي في فركة في ٢٩ يوليو رحمة الله على الجميع .

تفشي الحمى التيفودية في الجيش : ولكن المصائب لا تأتي فرادى فانه قبل زوال الكوليرا تفشت في الجيش الحمى التيفودية وما زالت حتى اخذت نصيبها منه .

الحر والزوابع والامطار : ومعلوم ان الفصل الذي قامت فيه الحملة هو فصل الحر وقد اشتد علينا حتى بلغت درجة الحرارة ١٢٥° بمقياس فارنهيت في الظل . ثم لم يبدأ شهر اوغسطوس حتى بدأت الاعاصير والرياح واللواقح فكانت كلما ثارت تقتلع الخيام وتثير الغبار وتغادر الجو مظلماً . وفي ٢٥ اوغسطوس ثار اعصار شديد عند الغروب فاقتلع نصف خيام المعسكر ونسف خيمة هندية كبيرة كنت اكتب فيها فسقطت عليّ ولكنني نجوت منها بمعونة الله وخرجت فوجدت العاصفة قد أثارت الغبار وهي لا تزال تهب بشدة وعنف حتى كنت اذا وقفت ترميني الى الارض واذا جلست تنسف التراب والحصى في وجهي وبقيت على هذه الحالة الشديدة نحو ساعة أذكرتني جيش كمبيز الذي هلك في صحراء سيوه . ثم هطلت الامطار فسكنت الرياح وانقشع الغبار فذهبت الى خيمتي لأتقي المطر فوجدت الريح قد اقتلعتها والمطر مبللاً فراشي وثيابي ولكنني وجدت كثيرين قد اصيبوا بما اصبت فقضينا ليلة شر الليالي .

وفي ٤ اوغسطوس مدت سكة الحديد الى كوشة وأخذ الجيش ينقل عليها المؤن والذخائر بكل اهتمام . وفي ١٥ منه وصلت اجزاء الوابور الجديد المسمى الظافر الى كوشة فبناه القومندان كولفل من البحارة الملوكية في ايام معدودة وأنزله الى الماء قصد تجربته فانفجر قزانه فتأخر في كوشة مدة .

وتأخر ارتفاع النيل هذه السنة عن ميعاده فلم يمكن الشروع في مرور الوابورات فوق شلال حلفا قبل ٢٠ اوغسطوس وقد تولى هذا العمل الشاق

اللواء هنتر باشا والقومندان روبرتصن من البحارة الملوكية وكان عدد الوابورات التي عبرت الشلالات سبعة : اربعة مدرعة وهي تمـاي والمتمة وأبو طليح والتيب وثلاثة غير مدرعة وهي عكاشة ودال وخيبر وقد وصلت كوشة في ٢٣ اوغسطوس .

وفي هـذا اليوم عاد الينـا رسول كنا ارسلناه في بدء الحملة الى دنقلة لاستطلاع اخبارها فقبض عليه اميرها وأرسله الى الخليفة في ام درمان فزجه في السجن الى ان كانت واقعة فركة فاستدعاه اليـه وسأله هل سلاطين باشا في الحملة قال نعم فقال له « ان سلاطين كتب الينا كتاباً وهذا جوابه فسلمه إياه سراً » فحمله وأتى به الى سلاطين وهو غير مصدق انه نجـا . وكان سلاطين عند وصوله الى مصر قد ارسل الى الخليفة كتاباً يخادعه بـه ليرفق بخدمه الذين تركهم وراءه وهذه صورته :

« اما بعد فمن عبد ربـه عبد القادر سلاطين الى سيدي وسندي خليفة المهدي (عم) السيد عبد الله بن السيد محمـد حفظه الله آمين نخبر سيادتـكم اننا وصلنا الى مصر بعون الله سالمين وبعد وصولنا حصل لنـا لطف من الله وان شاء الله عن قريب يحصل الشفاء ونتوجه الى بلادنا لمقابلة اهلنا واخواننا وأنا لا زلت اذكر فضلكم ومعروفكم أيام كنت في بابكم واذا بلغكم عنا مـا يكدر خاطركم فأرجو ان لا تصدقوه وأنتم قـد وهبكم الله سبحانه معرفة الباطن ومن ذلك تعلمون ان محبتنا لكم خالصة . نعم اني تركت بابكم بدون اجازة منكم ولكن هيبة سيدي خليفة المهدي منعتني عـن طلب الاجازة والآن ألوم نفسي على ذلك وأطلب منكم العفو وان شاء الله بعد رؤية الاهل والوطن نعود الى خدمة بابكم العـالي وذلك عند وصول كتاب الأمان من سيدي خليفة المهدي . مصر في ٧ ابريل ١٨٩٥ » اه . وهذا جواب الخليفة عليه :

« وبعد فمن عبد ربه خليفة المهدي عليه السلام الخليفة عبد الله بن محمـد خليفة الصديق الى عبد القادر سلاطين . بعد السلام نعلمك ان الجواب المحرر

لنا منك بخطك بأنك ثابت على دين الاسلام وانك لا تخون العيش والملح قـد وصلنا وهو الآن محفوظ بطرفنا وحيث انك على ذلك وقد حضرت الآن مع الكفار الذين انت معهم فاعمل المكيدة التي تمكن من انتهاز الفرصة فيهم وها هي الجيوش الاسلامية متوجهة اليهم وهذا ما لزم اعلامك بـه لتجري العمل بموجبه سراً والسلام في ٢٠ صفر سنة ١٣١٤ هـ » اه ٣١ يوليو سنة ١٨٩٦ .

وعنـد وصول الوابورات الى كوشة أي في ٢٣ اوغسطوس أمر السردار حامية سواردة فتقدمت الى ابي صاري وشرع في ترحيل الجيش اليها بطريق العقبة فخرج اللواء الاول من كوشة في ٢٧ اوغسطوس وتبعه اللواء الثاني على الاثر . وفي مساء هـذا اليوم جاءت الأنباء بهطول امطار غزيرة شمالي عكاشة أفاضت الخيران وأخربت ٢٠ ميلا من سكة الحديد بين المرات وسرس فأمر السردار جميع من توفر لديه من العساكر وقـد زادوا على ٥٠٠٠ فأصلحوا الخط بمزيد الهمة وما كادوا يتمونه حتى هطلت الأمطار ثانية وخرّبت محطة عكاشة وثمانية اميال من الخط بقربها فخفّ العساكر اليها فانصبوا على العمل فيها ليلا ونهاراً حتى أتموها في ٣ سبتمبر . فاستأنف السردار ترحيل العساكر جنوباً وأرسل اللواءين الثالث والرابع في عقبة أبي صاري في ٥ سبتمبر وأتى بالاورطة الانكليزية من حلفا بسكة الحديد وأرسلها في الوابورات في ١٢ منه وسار وراءها في النيل فاجتمع الجيش كله والوابورات في دلقو في صبـاح ١٣ سبتمبر . وعنـد العصر سار السردار بالجيش المصري براً وسارت العساكر الانكليزية بالوابورات مقابله حتى وصل الى ابي فاطمة جنوبي شلال حنك مساء ١٨ سبتمبر . وقـد عبرت الوابورات شلال حنك سالمة إلا وابور خيبر فانه ترك شمالي الشلال ووابور التيب فانـه ارتطم بصخرة جنوبي الشلال فقرّ عليها وتعذر اخراجه منها فترك مؤقتاً .

هـذا وكان ود بشارة لما علم بخروجنا من كوشة خرج بجميع جيشه الى الحفير تجاه الكرمة فأقام فيها ٣ طوابي على النيل جعـل في كل منها مدفعين ووصلها بخندق حصين بنى من ترابه متراساً فتح فيه المزاغل وجعل فيه رجاله

المسلحين بالبنادق وكانوا نحو ١٨٠٠ ونزل هو بباقي جيشه بعيداً عن مرمى الرصاص وراءهم . وكان قد بنى استحكاماً في الكرمة وعزم على مقاومة الجيش فيها وفي الحفير معاً ولكن امراءه ألحوا عليه فأخلى الكرمة وأتى بالعساكر التي كانت فيها الى الحفير وذلك في مساء ١٨ سبتمبر أي عند وصولنا ابا فاطمة فاجتمع عنده في الحفير من الجيش ما يأتي :

القبائل	الامراء	القرابة	الجهادية	الهجانة	الفرسان
الملازمون (او الحرس الخاص)	محمد بشارة		١٦٠	١٣٠	١١٠
الجهادية السود	عبد الباقي عبد الوكيل (وثلاثة غيره من التعايشة)		١٥٣٢	٨٦	١٠٥
التعايشة	احمد محمد منجي	٦٠٠	٦٠	١٥	١٧٠
الحمر	حماد رقيمات	٥٦٥		٢	١٥٠
الهبانية	مساعد قيدوم	٤١٠	٣٠	٥	٥٠
دغيم	سليمان جمعه	٤٥٩		٦	٦٠
الجعليين	الحسن النجومي	١١٠٨	٢٠	١٥	٣٠
الدناقلة	عثمان ازرق	٣٣٢	٢٥	٤	١٢
	مجموعهم	٣٤٧٤	١٨٢٧	٢٦٣	٦٨٧

واقعة الحفير في ١٩ سبتمبر سنة ١٨٩٦ :

الوابورات الحربية : وفي فجر ١٩ سبتمبر سار الجيش كله براً وسارت الوابورات مقابله في النيل وفي كل منها نفر من العساكر الى ان وصل الكرمة الساعة ٦ صباحاً فوقف تجاه الحفير . وأما الوابورات فقد صدر لها الأمر

باستطراد السير الى دنقلة وضرب الحفير عند مرورها بها . وندبت من قلم المخابرات لمرافقة الشريف الكبتن كولفل قومندان العمارة فصحبته في وابور « طماي » الذي سار في مقدمة الوابورات . وما زلنا سائرين حتى صرنا على بعد مرمى القنابل من الحفير فلاحت لنا خيمة ود بشارة في وسط معسكره وراء غابة من النخيل فصدر أمر القومندان فصوبت القنابل عليها وقد علمنا بعد ذلك ان اول قنبلة اصابت ود بشارة وهو يقرأ كتاباً من الخليفة جاءه في تلك الساعة فجرحته وقتلت عبداً له وكانت الساعة السابعة فاضطر أن يتقهقر الى التلال البعيدة فراراً من القنابل . وأمر السردار طوبجية الجيش فاتخذوا مكاناً عالياً في الكرمة وشاركوا الوابورات في رمي الحفير بالقنابل ولم يلبث العدو ان اطلق علينا مدافعه فتقدمنا نحوه ونحن نرميه بالقنابل حتى ظهرت طوابيهم للعين المجردة فسددنا مرامينا فهدمنا الطابية الاولى وصوبنا القنابل نحو الثانية والثالثة ومازلنا نتقدم حتى صرنا على ٥٠٠ يرد من الشاطىء ففتح اهل الخندق بنادقهم وصلونا ناراً حامية فأصيب سليم افندي شقره مترجم الوابور برصاصتين احداهما في كتفه اليمنى والاخرى في جنبه فجرح جراحاً خفيفة . وأصابت رصاصة رسغ الكبتن كولفل فجرحتها جرحاً شديداً دامياً فألح عليه الطبيب في الدخول الى غرفته لضمد الجرح في الحال فأمر الوابورات اذ ذاك بالتقهقر عن مرمى الرصاص وعاد بالوابور الى البر الشرقي ليضمد جرحه ولكنه أبقى الوابورات الاخرى تجاه الحفير ترميها بالقنابل . وعند وصوله الى البر ذهب الكبتن ده روجمان قومندان الطوبجية في الوابور فأخبر السردار بما كان فتكدر لجرح الكبتن كولفل وأمر باخراجه الى البر لمعالجته وعهد بقومندانية الوابورات الى الكبتن ده روجمان وأمره بالعبور بها الى دنقلة تحت كل خطر فرجع ومعه اللورد اثلمني الذي ابلغ الكبتن كولفل أوامر السردار فطار صوابه وكان حكيمباشي الجيش قد جاء لينزله الى البر فأخذ يتوسل اليه بالحاح ان يسمح له بالبقاء في الوابور ويخبر السردار ان جرحه لا يمنعه عن اتمام وظيفته فسمح له بالبقاء في الوابور بعد تردد كثير وما

نزل الحكيمباشي حتى غاب الكبتن كولفل عن صوابه من شدة ألم الجرح فأقلع الوابور الساعة ٩ ١/٢ يقوده الكبتن دهروجهان وأهاب بالوابورين أبي طليح والمتمة ان يتبعاه الى دنقلة فتبعاه ولما رآنا الاعداء مقبلين قاصدين المرور امطرونا وابلاً هطالاً من الرصاص والقنابل فرددنا نارهم بأحر منها حتى اغرقنا وابورهم الطاهرة . وكان معنا الملازم الباسل حسن افندي توفيق نجل بدر بك الحكيم ومعه ٣٠ رجلاً من الاورطة السابعة فاستل سيفه ووقف في رجاله يحثهم على مواصلة اطلاق الرصاص ويدلهم على مواقف العدو بجنان ثابت وعزم راسخ . وما زلنا نصادم تيار النيل ونواصل العدو برصاص البنادق وقنابل المدافع وطوبجية الجيش تساعدنا من البر الشرقي حتى اجتزنا الحفير آمنين وذلك الساعة عشرة وربع وقد أصابت قنابلهم وابوراتنا الثلاثة لكنها لم تضر بها ضرراً يذكر وجرح بعض العساكر والبحارة . وكان مرورنا بالحفير تحت قنابل العدو ورصاصه مخاطرة شديدة لكن السردار رأى انه لا بد من هذه المخاطرة لأنه اراد ان يزحزح الدراويش من الحفير ويعبر اليها بالجيش فيهاجمهم في ديمهم وقد فاز بتدبيره هذا كل الفوز فان الدراويش لما رأوا ان الوابورات تجاوزت الحفير قلقوا أشد القلق على ديمهم وعيالهم التي تركوها فيه وكان مدير المخابرات قد ارسل اليهم رسلاً من اهل البلاد فأشاعوا ان الجيش لاحق بالوابورات في البر الشرقي ليعبر بها الى دنقلة ويستولي على الديم وانه لم يبق الا الطوبجية لمشاغلتهم فازداد قلقهم ولما ارخى الليل سدوله حتى اخلوا الحفير وأسرعوا الى ديمهم في دنقلة فوصلوه في صباح ٢٠ سبتمبر .

عبور الجيش الى الحفير : وفي فجر هذا اليوم شرع السردار في العبور الى الحفير بجميع الجيش وكان مؤلفاً من ١٢٦٩٣ رجلاً و ١٣١٢ جواداً و ٣٧١ بغلاً و ١٤٤٢ جملاً و ٦٤ حماراً و ٢٢ مدفعاً ولم يكن عنده سوى وابورين وبعض المراكب التي غنموها في الحفير فعبروا جميعاً في ٣٠ ساعة .

عود الى الوابورات الحربية : هذا ما كان من الجيش والدراويش أما

نحن في الوابورات فاننا بعد ان تجاوزنا الحفير واصلنا السير حتى صرنا تجاه ديم الدراويش وكانت الشمس قد غابت فبتنا في البر الشرقي قبالته . والديم المذكور من بناء النجومي طوله نحو ٣ اميال وعرضه نصف ميل وهو على ٣ اميال شمالي مركز الاوردي وعلى نحو ميل من النيل ولكنه قائم على ترعة قديمة تجري من جنوبي مركز الاوردي وتصب عند مسجد الحجر شمالي الديم. أما مركز دنقلة الاوردي فقد هدمه الدراويش عند دخولهم البلاد وبنوا بأخشابه ديمهم إلا مركز المديرية فقد جعلوه شونة للغلال والتمر .

وفي فجر ٢٠ سبتمبر خرجنا من مبيتنا وقصدنا الشونة فوجدناها خالية وإذ لم يكن لنا اذن في النزول الى البر انقلبنا راجعين الى حيث كان السردار فوجدناه لم يزل مهتماً لتعدية الجيش الى الحفير وكان وصولنا اليه الساعة ٤ بعد الظهر فأخبرناه بما كان فأمر الكبتن كولفل بالبقاء في الحفير للراحة وأمر المستر بيتي قومندان ابي طليح بالرجوع الى الديم في فجر الغد لمراقبة العدو بعد تقهقره اليه وندبني للذهاب معه .. وفي فجر ٢١ سبتمبر سرنا حتى قربنا من ديم الدراويش وكان الأهلون يستقبلوننا في الذهاب والاياب وعن اليمين والشمال بالتأهيل والترحيب والزراغيت فسألناهم عن الدراويش فقالوا ان ود بشارة حال وصوله امس الاحد من الحفير ارسل ٣٠٠ رجل بثلاثة مدافع الى الشونة لمصادمة الوابورات فجعلوا مدفعين في طابية قديمة شمالي الشونة والمدفع الثالث في غرفة جنوبيها وكان بين الطابية القديمة والشونة حائط حصين قديم فتحت فيه المزاغل فاحتله بعض الجهادية ثم حفروا بين الشونة والمدفع الثالث خندقاً وبنوا من ترابه متراساً كما فعلوا في الحفير فاحتله باقي الجهادية وتربصوا للوابورات . فتقدمنا الى الشونة لتحقيق الخبر وابتدرناهم بقنبلة من أقوى مدافعنا فأجابنا العدو على الفور من الطابيتين وانتشب القتال باطلاق القنابل من الجانبين لكن قنابلهم كلها أخطأت المرمى إلا انهم رموا قنبلة من قنابل شرنبل فتفرقعت في الجو فوق وابور ابي طليح ولكنها لم تلحق به ضرراً يذكر . وأصابني اذ ذاك شظية من كبسول مدفعنا عند اطلاقه فجرحتني في

وجهي جرحاً خفيفاً فظن انها من قنبلة العدو . وبعد ان رمينا الشونة بسبعين قنبلة رجعنا عنها الى الديم فرميناه بالقنابل الى قرب غروب الشمس فجئنا الى جزيرة ارقو وأرسلنا منها اخبار يومنا الى مدير المخابرات وبتنا فيها الى الصباح .. وفي فجر اليوم التالي (٢٢ سبتمبر) رجعنا الى الشونة فناجزناها نحو نصف ساعة وعدنا الى الديم نستطلع اخباره فما كدنا نصل اليه حتى جاءنا الوابوران الحربيان يقودهما الكبتن كولفل وقد أتى ليتحقق بنفسه خبر الشونة التي بعثنا به امس فندبني اليه وسار حتى أتى الشونة الظهر فرماها بالقنابل فأجابته واشتد القتال ساعتين ثم انقلبنا راجعين الى الجيش وكان قد خرج من الحفير في ظهر ٢١ سبتمبر وأتى الزورة على ٦ أميال من ديم الدراويش صباح ٢٢ منه . وكنا نحن عنده بعد ظهر هذا اليوم فرأيناه يستعد للهجوم على ديم دنقلة فأخذ الكبتن كولفل يعد عمارته ايضاً للهجوم وكان الظافر قد أصلح قزانه (مرجله) فوصل الزورة بعد الغروب وانضم الى الوابورات الثلاثة المدرعة .

احتلال دنقلة في ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٩٦ :

ولما كان فجر٢٣ سبتمبر سار الجيش كله براً لمهاجمة دنقلة وسارت الوابورات في النيل فسار طماي في مقدمتها وتبعه الظافر ثم الوابورات الاربعة الاخرى وكنا نتقدم الجيش قليلاً حتى كان الوابور الاخير مقابلاً مقدمته . ولما كانت الساعة السابعة صباحاً أشرفنا على ديم الدراويش فرأيناهم قد اجتمعوا كلهم في شماله وراء خط النار الذي سبق ذكره فأمر الكبتن كولفل فأطلقت الوابورات الحربية مدافعها عليهم فسقطت القنابل في وسطهم ففرقتهم وقتلت منهم وقد رأيناهم مهرولين غرباً وجنوباً حتى أبعدوا عن مرمى القنابل . ثم أرسلت الوابورات قنابلها الى الديم فصرنا نرى الناس يخرجون منه أفواجاً مسرعين الى جهة الجنوب وكنا نشاهد الجيش كله سائراً نحو الديم ومستعداً للهجوم في نظام بديع جداً .

ولما كانت الساعة ٨ والدقيقة ٤٥ رأينا فارساً مقبلاً نحونا من بعيد ومعه بعض الأتباع فوقفنا ننتظره حتى اقترب منا وصاح الامان الامان فقلنا له عليك الامان فترجّل ودخل الوابور فسألته عن اسمه فقال الامير حسن النجومي وكان متقلداً سيفه وحاملاً بيده حربة فرحبت به وأخذت منه الحربة وأتيت به الى الكبتن كولفل قومندان العمارة وعرّفته به فأخذ السيف بين يديه وقدمه له وقال ارجو الامان فقال له القومندان عليك الامان فما وراءك من الاخبار قال : رجعنا من الحفير مساء ١٩ الجاري على نية الحرب فأرسلنا بعض الجهادية والمدافع الى الشونة لمقاومة الوابورات وأمرنا باقي الجهادية فحفروا خندقاً طويلاً شمالي الديم وتترسوا به وبنوا طوابي ايضاً للمدافع الاربعة وبقينا في الديم الى ان عاد الكشافة امس الصبح فأخبرونا بقدوم الجيش الى الزورة وانه في عدد عظيم فخرجنا كلنا ووقفنا كل امير مع رجاله صفاً واحداً وراء خط النار وفي نصف الليل عقدنا نحن الامراء مجلساً دعونا اليه ود بشارة وقلنا له يا سيدنا اذا باشر احد الناس تجارة ثم تحقق انه خاسر لا محالة أفلا يحجم عنها قال بلى فقلنا له اذا كان هذا شأن الانسان والاتجار في المال فما قولك به والاتجار في الارواح فأنت تعلم ان جيشنا كله من فرسان ومشاة نحو ٦٢٠٠ رجل وجيش المصريين ينيف على ١٥٠٠٠ رجل ثم ان عدد بنادقنا ١٨٠٠ وأما هم فكل رجل منهم مسلح ببندقية فضلاً عن ان بنادقنا من نوع رمنتون وبنادقهم مارتين هنري وعندنا من المدافع ٧ وأما مدافعهم فتعد بالعشرات ولهم جيش في البر وعمارة في البحر أفلا تظن ان قتالنا إياهم تجارة خاسرة يجب الاقلاع عنها . نعم اننا اذا ثبتنا أمامهم نحملهم خسائر جمة ولكن هل يمكننا الثبات الى النهاية حتى نظفر بهم ونردهم الى مصر اذاً فالرأي عندنا ان نأخذ عيالنا ونتقهقر بهم الى الدبة ومن هناك نطلب النجدة من ام درمان . قال ود بشارة عندي الموت خير من عار القهقرى ورأيي ان نثبت ونقاتلهم هنا حتى نظفر او نموت مشرفين . قلنا ليس من الحكمة ان يلقي الانسان بنفسه الى التهلكة وما زلنا به حتى أقنعناه بترك

الحرب وانصرفت الجلسة الساعة الاولى بعد نصف الليل وقبيل الفجر جئنا نحن الامراء وود بشارة فأخبرنا العائلات في الديم بالاستعداد للرحيل . وما طلع الفجر حتى جاء فارس من الكشافة وقال ان الجيش مقبل نحونا في البر والبحر بعدد الرمل والانصار على خط النار ينتظرون الامر فركب ود بشارة جواده وهمّ بالمسير لمقاتلة الجيش فأخذنا بعنان الجواد وأنزلناه عنه وأركبناه حماراً وقلنا له قد أجمعنا ان لا نلقي بأنفسنا في المهالك فالى اين تذهب ثم أوعزنا الى الجيش بترك الحرب والتقهقر جنوباً وصعدنا الى التلة ننتظر قدومهم واذا بالوابورات مقبلة وقنابلها تعبث بهم فانهزموا جنوباً وود بشارة في مقدمتهم وأما انا فانتهزت هذه الفرصة التي طالما تمنيتها فخضت بجوادي الترعة وجئت اليكم لأن أنفسنا سئمت حكم البقارة وقد ارسلكم الله رحمة لنا . ثم سألناه عن الشونة فقال ان ود بشارة لما أوعز الى الجيش بترك الحرب أمر ايضاً بترك الشونة فاذا ذهبتم اليها لم تجدوا مقاوماً . فلخص الكبتن كولفل هذه الاقوال وأرسلها مع رسول خاص الى السردار الذي كان لم يزل زاحفاً بجيشه على الديم وأسرعنا الى الشونة فوجدنا جماعة من الناس قد رفعوا راية بيضاء وأتوا لاستقبالنا فنزلنا الى البر فأمّناهم وعلمنا انهم وكلاء الشونة وعمالها وكبيرهم عبد الدائم بدر من أهالي اسنا . ثم دخلنا الشونة فاذا هي ملأى بالذرة والقمح والشعير والتمر ووجدنا الدراويش قد تركوا المدافع وفروا هاربين . وفي الساعة العاشرة صباحاً رفعنا الراية الخديوية على مركز المديرية وأرسلنا الخبر الى السردار .

أما السردار فظل زاحفاً بالجيش حتى صار على مرمى القنابل من خط نار الدراويش فجرى بينهم وبين مقدمة الجيش اطلاق القنابل والرصاص على التبادل وذلك قبل أن يبلغهم أمر ود بشاره بالتقهقر فلما جاءهم الامر المذكور تركوا المدافع الاربعة وفروا هاربين واستولى السردار على الديم .

الاسرى والغنائم : وكان قد تخلف فيه بعض موظفي الفتح الاول

وفيهم حامد البدوي كاتب ود بشاره ومحمد بساطي ابن بساطي بك الشهير فسلما له وجمعت الاسرى في مساء هذا اليوم فبلغت ٢٠٠٠ نفس وصاروا يزيدون كل يوم حتى بلغوا ٣٠٠٠ نفس . وجمعت الغنائم فكان منها شيء كثير من الاسلحة والجبخانة والحبوب والأمتعة والجمال والخيل والمواشي . وكان في جملة الغنائم طبلة غريبة الشكل ليونس الدكيم صنعت من جذع شجرة ضخم على هيئة ثور ذي قرنين وذنب وأربع أرجل ثم شقت من الوسط وجوفت وجلد الشق على مثال طبلات الفراتيت المسماة قدو قدو . ومن الغنائم ايضاً سيف مكتوب عليه باللاتينية ما محصله « لا تسلني إلا مضطراً ولا تغمدني إلا مشرفاً » وهو في الارجح من سيوف الصليبيين .

وجمعت دفاتر بيت المال وأوراقه فملأت ٣ صناديق كبيرة فاستخرجت منها فوائد شتى عن محصولات البلاد الزراعية وضرائبها مدة حكم الدراويش لها .

مطاردة السواري للدراويش : هذا وكان السردار بعد ان دخل الديم قد ارسل السواري والهجانة في أثر الدراويش المنهزمين فطاردوهم الى حلة الشيخ شريف فقتلوا منهم وسبوا وغنموا . ثم جاء الشونة ومعه الميرالاي ونجت بك مدير المخابرات فشكر للقومندان كولفل رسائله وحسن تدبيره وأوعز اليه ان يكف عن الحركة رفقاً بجرحه .

احتلال الدبة في ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٩٦ : ثم أمر القومندان روبرتصن ان يطارد الدراويش في النيل فيرسل من جاءه مسلماً ويحمي الاهالي من تعدياتهم ويسرع الى الدبة فيحتلها قبل وصولهم اليها فأخذ وابوري المتمة وأبا طليح وسار جنوباً الساعة ١١ ونصف صباحاً . وكان قد صدر لي الامر فسرت معه . وكان الدراويش المنهزمون قد تسابقوا في الفرار فانقسموا جماعات يتلو بعضها بعضاً في سلسلة متقطعة طويلة لا يدري اولها اين آخرها والسابق منها الجواد وقد ابعدوا عن النيل فراراً من الوابورات ولكن

كانوا كلما عطشت جماعة منهم نزلت الى النيل فشربت وسقت رواحلها ثم عادت الى طريق الصحراء . وقد لقينا بعض الجماعات في طريقنا فأمناهم وأمرناهم بالرجوع الى دنقلة . وفي صباح ٢٤ سبتمبر وصلنا دنقلة العجوز فبلغنا ان في جزيرة حمُّور اميراً من اقارب ود بشارة يدعى عبد الرحمن معه ٦ رجال مسلحين بالبنادق يجمعون الضرائب فأتينا الجزيرة وأرسلنا في طلبهم ولما لم يأتوا تهددنا اهل الجزيرة فلم يلبثوا ان أتونا بهم واستطردنا السير الى الدبة فوصلناها ظهر ذلك اليوم ورفعنا العلم المصري عليها . وكان ود بشارة قد ارسل مشايخ الحسن وسكوت الى الدبة على نية ارسالهم الى ام درمان خوفاً من انضمامهم الى الجيش فلما رأونا اقبلوا علينا يرحبون بنا فسألناهم عن الدراويش المنهزمين فقالوا انه لم يمر بهم احد بعد ولكن كان في الدبة امير من التعايشة يدعى فضالي فلما رأى الوابورات من بعيد فرّ بمن معه من الانصار فأرسلنا وابور أبي طليح بالخبر الى السردار ومكثنا في الدبة .

احتلال مروي في ٢٦ سبتمبر سنة ١٨٩٦ : وفي فجر ٢٥ سبتمبر حضر الكبتن دهروجهان على وابور الظافر مأموراً من قبل السردار بأن يذهب الى مروي ويأخذني معه فانتقلت الى الظافر وسرنا حتى اتينا جزيرة قانتي فأخبرونا ان فيها اميراً من التعايشة يدعى حامداً ومعه قاض يدعى محمد هاشمي لجمع الضرائب فأنزلنا بعض العساكر الى الجزيرة وأتينا بهما الى الوابور واستطردنا السير فوصلنا صنم (تجاه مروي) في فجر ٢٦ سبتمبر ورفعنا العلم المصري عليها . وكان فيها امير من التعايشة مع بعض الانصار فلما رأونا مقبلين من بعيد فروا هاربين .

وكان السردار قد ارسل تلغرافاً الى عبد العظيم بك في المرات ليوافي الوابورات الى بلاد الشايقية ويحول دون المنهزمين من دنقلة فلما لم نره صعدنا في النيل الى كاسنجر عند اول الشلال الرابع فرأينا آثار نبتة في البرقل ونوري من بعيد ولم نرَ عبد العظيم بك فبعثنا اليه برسول يستعجله الى مروي وانقلبنا راجعين الى دنقلة .

وفي الطريق اخبرونا ان اول المنهزمين من جيش ود بشارة وصلوا كورتي وهم في أسوأ حال من الجوع والعطش والعري وان بعضهم يترقبون ابتعاد الوابورات فيغشون ضفاف النيل وينهبون البلاد المجاورة ثم يرجعون من حيث أتوا فأخذنا كلما لاح لنا جماعة منهم نرميهم بالقنابل لنرهبهم ونكفي اهل القرى شرهم .

مجيء السردار الى مروي في ٣٠ سبتمبر : وما زلنا سائرين حتى قربنا من دنقلة فاذا بالسردار مقبل على الوابورين دال وطماي ومعه الميرالاي ونجت بك وسلاطين باشا وكانت الساعة الاولى بعد نصف الليل من صباح ٢٨ سبتمبر فأمر بانتقالي الى دال ورجوع الظافر الى دنقلة ثم استطرد السير الى الدبة فوصلها الساعة ٣ بعد الظهر ورأى ان ساقة الدراويش قد تجاوزتها فأرسل اليهم الأمان فلقي الرسل فتى من الهبانية ضالاً في الطريق وقد أنهكه التعب والجوع فأتوا به الى السردار فناوله بيده فنجاناً من الشاي . وبقي في الدبة الى الساعة ٢ من صباح ٢٩ سبتمبر ثم استطرد السير الى مروي فدخلها في صباح ٣٠ سبتمبر ورأى ان الدراويش ساروا بطريق بئر الغزالي الى بربر فأرسل الى عبد العظيم رسولاً آخر يستحثه على المجيء الى مروي وفي الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر انقلب راجعاً الى دنقلة فمر بالدبة ولم يمكث إلا ريثما أصدر أوامره الى الوابور المقيم فيها وما سار إلا قليلا حتى اتاه ضابط براً يحمل اليه تلغرافاً من حكومته بترقيته الى رتبة ماجور جنرال فأخذه ورجع الى حيث كان الجيش معسكراً في حلة الشيخ الشريف فوصلها الساعة ١١ في ١ اكتوبر .

تنظيم مديرية دنقلة : وفي ٢ منه خرج بأركان حربه لانتقاء مركز جديد للمديرية فاختبر النيل الى جزيرة ارقو فلم يجد محلا افضل هواء وأحسن ميناء للوابورات في الصيف والشتاء من مركز الاوردي القديم فنقل الجيش اليه . وفي هذا اليوم أتاه تلغراف من الجناب العالي يهنئه بالفتح وينعم عليه

بالنيشان العثماني العالي من الطبقة الاولى فأجاب سموه شاكراً وقال ان الفضل في هذا الفتح عائد الى همة جيش سموكم وثباته وحسن صفاته العسكرية . ثم وزع معظم الجيش المصري بين دنقلة والخندق والدبـة وكورتي وصنم وشرع مع مدير قلم المخابرات في تنظيم حكومة البلاد ووضع القوانين والأوامر للحكام والمأمورين الى صباح ٨ اكتوبر فجعل اللواء هنتر باشا قومنداناً على الجيش وحاكماً عسكرياً على دنقلة ورجع مع اركان حربه الى مصر وقد رجعت معهم فوصلناها في ١٣ اكتوبر سنة ١٨٩٦ .

وانحلت تجريدة دنقلة في ١٥ منه ورجعت الاورطة الانكليزية الى مصر . وقد امتاز في هـذه التجريدة جماعة كثيرة من الضباط المصريين فمن رتبـة قائمقام: محمد بك بكير من الطوبجية وعبدالجواد بك برهان قومندان الاورطة الخامسة ومحمـد بك بليغ قومنـدان الاورطة السادسة . وابراهيم بك فتحي قومندان الاورطة السابعة . ومحمد بك خلوصي قومندان الاورطة الثامنـة . وسليم بك موصلي من القسم الطبي . ومن رتبـة بكباشي احمـد افندي زكي واسماعيل افندي همت وعبـد السلام افندي زكي من اركان حرب . وحسين افندي شريف من السواري . ومحمـد افندي مختار من الطوبجية . وابراهيم افندي صبري من الاورطة الاولى . ومحمد افندي رفعت من الاورطة الخامسة. وعثمان افندي عفت من الاورطة السابعة . ومصطفى افندي فكري من الاورطة الثامنة . وابراهيم افندي زهني من الاورطة الخامسة عشر . واحمد افندي فضلي من القسم الطبي . وامتـاز ايضاً من القسم الطبي ولا سيما عند ظهور الكوليرا الصاغ حسين افندي طلعت ومحمد افندي عهدي . ورافق هذه التجريدة جماعـة من الموظفين الملكيين فامتازوا في خدمتها وقاسوا فيها ما قاسى الجيش أهمهم : سليمان بك ناصيف من كبار موظفي السردارية وشاهين افندي جرجس . وطنوس افنـدي شحاده وسليم افندي شقره وكلهم من موظفي المخابرات ويوسف افندي حسب الله وعلي افندي وهبه وحسن افندي

حسين واسعد افندي حنا من موظفي مصالح الجيش. ورافقها الى حلفا ملحم بك شكور سكرتير عربي السردار ونجيب افندي شقره من موظفي المخابرات. وقد بالغ السردار في اقتصاد نفقـات الحملة حتى كان الموظف حينئذ وهو في ساحة الحرب يتناول علاوة على مرتبه اقل جداً من العلاوة التي يتناولها الآن والسودان في بحبوحة السلم والامان .

الفصل السادس

في

استرجاع بربر

سنة ٧ : ١٨٩٨

لما رأت الحكومة انها لم تنفق على فتح دنقله الا قليلاً جداً من المال والرجال وان اهل السودان مستعدون لقبولهـــا وليس فيه من يناوئها الا التعايشي واتباعه اقرت على استطراد الفتح واسترجاع سائر السودان . وكان السردار قد ابقى معظم الجيش في دنقله كما مرّ فاستخدمه في اتمام مد سكة الحديد الى الكرمة ليتخلص من شلالات الحس وسكوت فأتمها في ٤ مايو سنة ١٨٩٧ . ثم شرع في مدها من حلفا الى ابي حمد للتخلص من شلالات المناصير واخذ ينتظر ارتفاع النيل لاستطراد الفتح .

استعداد الخليفة للدفاع : أما التعايشي فانه منذ سمع بواقعة فركة خرج بأنصاره من ام درمان الى ظاهر المدينة وشرع في حشد الجيوش من جميـــع جهات السودان ظاناً ان الجيش المصري يسرع في استطراد السير فلما رآه مبطئاً قدومه رجع الى المدينة وأخذ يترقب أنباء دنقلة الى ان أتاه الخبر بانهزام

ود بشارة فظن ان السردار يتخذ خطة اللورد ولسلي فيقسم جيشه في كورتي الى قسمين فيرسل احدهما بطريق النيل الى ابي حمـــد وبربر والآخر بطريق الصحراء الى المتمة. وكان قد ارسل في طلب محمود وجيشه من دارفور فحضر في سنة ١٨٩٧ كما مرّ فأرسله الى المتمة ليصد جيش الصحراء . وعقـد لآدم يحيى الحمري على ٤٠٠ جهادي و ٥٠٠ فارس وأرسله الى بلاد المناصير ليصد جيش النيل . وأوصى محمد الزين بالتيقظ في حراسة طريق كورسكو . وكان قد بعث في طلب احمد فضيل من القضارف وعثمان دقنة من ادارامة فجعلها في السلوقة فبقيا فيها مدة ثم شاع ان التليان زاحفون على ام درمان من كسلا فأرجع احمد فضيل الى القضارف ليصدهم وأمر عثمان دقنـــة فانضم الى محمود في المتمة .

واقعة المتمة في ١ يوليو سنة ١٨٩٧ : هذا وكان الخليفة لما علم بانهزام ود بشارة من دنقلة استدعى اليه عبدالله ود سعد امير الجمليين وفرض عليه عدداً معلوماً من اهله يستنفرهم للجهاد وقدراً معيناً من المؤنة يقدمها للجيش المنوي ارساله الى المتمة فثقل الطلب على عبد الله ود سعد وقد طالما أرهقه الخليفـة من قبل فعقد النية على عصيانه ولكنه أظهر الطاعة وعاد الى المتمة فجمع كبار قومه وأسرّ اليهم ما نوى فمن وافقه ضمه الى جيشه ومن لم يوافقه استحلفه على كتم السر فاجتمع اليه نحو ٣٠٠ رجـل من اهله الادنين وأرسل في طلب المدد من جيش الحكومة في دنقلة . وكان له عدو من اهله يدعى احمد ود حمزة فوشى به الى الخليفـة وكان محمود اذ ذاك في كرري وجيشه في طريق المتمة فأمره الخليفة ان يلحق بجيشه في الحال ويسحق عبد الله ود سعد قبل وصول المدد اليه من دنقلة فجد محمود السير حتى وصل المتمة بجميع جيشه في فجر ١ يوليو سنة ١٨٩٧ فأحاط بها من كل الجهات وابتدرها القتال بدون ان يدعوها الى التسليم . وكان عبد الله ود سعد قد تحصن في منازل المتمة الجنوبية وفتح فيها المزاغل فرأى انصاره انهم هالكون لا محـالة فأشاروا عليه بالفرار الى دنقلة حتى اذا ما تقدم الجيش لمحاربة الخليفة عادوا معه فقال دعوني من الفرار وعاره

فاني كلما ذكرت حادثة الملك نمر وفراره من وجه الدفتردار ضاقت عليّ الارض بما رحبت وتمنيت الموت فلنمت هنا او نحيا هنا وشرع في اطلاق النار فتبعه انصاره على الاثر وصدوا غارة المهاجين وقتلوا منهم. فلما رأى محمود ما أصاب رجاله امرهم بالهجوم على المنازل فدخلوها عنوة وقتلوا ود سعد وأنصاره عن بكرة أبيهم ثم انتشروا في البلدة يقتلون ويسبون ويعيثون حتى قتلوا من اهلها نحو ٢٠٠٠ نسمة وبلغ خمس السبي الذي أرسل الى الخليفة خاصة ٢٣٤ جارية و ٣٢ حرّة . وأما خسارة محمود فكانت ٨٨ قتيلا و ٣٣٠ جريحاً . وقد ارتكب رجاله في المتمة من المنكرات ما تقشعر لذكره الأبدان وأظهر نساء المتمة من الحصانة والعفاف ما يخلد لهن الذكر الجميل ما ذكر السودان حتى ان بعضهن ألقين بأنفسهن في النيل وفضلن الموت على حياة الفضيحة والعار. وبعد نهاية الواقعة امر الخليفة فجمع الجعليون والشايقية من بلادي المتمة والزيداب فبلغ عدد الجعليين ٢٣٠٥٦ نفساً والشايقية ١٢٢٦٦ نفساً وأرسلوا الى ام درمان فبقوا فيها حتى دخلها الجيش سنة ١٨٩٨ فأرجعهم الى بلادهم .

مجيء السردار الى مروي في ٨ يوليو سنة ١٨٩٧ : وكان السردار اذ ذاك في مصر يتهيأ للفتح وهو في انتظار ارتفاع النيل فخرج منها في ٨ يوليو سنة ١٨٩٧ يصحبه اركان حزبه وأتى رأساً الى مروي فجعلها مركزاً له وأخذ يحشد الجيوش اليها .

وكانت الحكومة الانكليزية قد بعثت وفداً سياسياً بعد حملة دنقلة الى منيلك ملك الحبشة برئاسة السر رنل رود من الوكالة البريطانية ومعه الميرالاي ونجت بك والكونت كليخن واللورد ادورد سسل المار ذكرهم وبنشنج بك من أطباء الجيش المصري وشاهين افندي جرجس من موظفي المخابرات فعادوا الى مصر قبل ذهاب السردار الى مروي فذهب الميرالاي ونجت بك وشاهين افندي معه .

رجوع ابي الخليل من السلامات : وكان أبو الخليل قد ضاق به العيش

في بلاد المناصير فرجع الى بلاد الرباطاب ونزل في كعب المرة وأرسل في طلب المؤونة من الزاكي امير بربر فبعث اليه بستة مراكب من الحبوب .

واقعة أبي حمد في ٧ اوغسطوس سنة ١٨٩٧ :

فبقي محمد الزين وحده في صدد الجيش في ابي حمد ومعه من الانصار نحو ١٥٠ فارساً و ٢٥٠ جهادياً و ١٥٠ من عربان البقارة والكبابيش والفادنية و ٣٠٠ من الرباطاب والمناصير . وقد كتب الخليفة يحرضه على الثبات في رباطه ومحاربة الجيش إلا اذا أتاه بالوابورات فليتقهقر الى بربر . قيل وجاءه كتاب من امرأته في ام درمان تستحثه على الثبات وتقول له ان نساء البقعة يقرعن ود بشارة في غنائهن لانهزامه من دنقلة وينظمن في ذمه الأشعار فإياك والانهزام لأني لا أطيق العيش معك بالذل والاهانة فصمم محمد زين على القتال حتى يموت او ينتصر . ورأى السردار انه لا بدّ من طرده من ابي حمد ليتمكن من استئناف العمل في سكة حديد ابي حمد فجهز جيشاً مؤلفاً من بلوك من السواري وبطارية طوبجية واربع اورط بيادة وهي الثالثة والتاسعة والعاشرة والحادية عشرة وعقد لواءه لهنتر باشا وأمره بمهاجمة محمد زين فسار من مروي في ٢٩ يوليو حتى بلغ تخوم ابي حمد في ٦ اوغسطوس بعد سفر شاق. وكان السردار قد ارسل تلغرافاً الى عبدالعظيم بك في المرات ليوافي هنتر باشا الى ابي حمد فوافاه اليها بـ ١٤٠ رجلا . وكان محمد زين قد ارسل طلائعه لمراقبة حركات الجيش منذ قيامه من كاسنجر فعلم من انبائه انه لا يقوى على مهاجمته فحفر خندقاً شرقي البلدة وفتح المزاغل في المنازل الشمالية والشرقية واستعد للدفاع .

وفي فجر اليوم التالي (٧ اوغسطوس) أعد هنتر عساكره للهجوم وزحف بهم فلما صارت العساكر على ١٠٠ ياردة من الخندق أمر محمد زين رجاله في الخندق والمزاغل فأمطروهم عارضاً هطالاً من الرصاص فرد العساكر نيرانهم بأشد منها وما زالوا مهاجمين غير مبالين بالموت حتى دخلوا البلدة وقتلوا كل

من وجدوه فيها بحراب البنادق. حكى لي ضابط شهد الواقعة قال ان بقارياً يدعى كراراً لمـــا رأى العساكر منتشرين في البلدة نثر على عتبة بابه بعض الريالات ليشغل العساكر بها وتوارى بالحائط وصار كلما جــاء عسكري وهم بالتقــاط الدراهم يصرعه ويجره الى داخل المنزل حتى قتل سبعة منهم فدرى بـــه احد ضباط الانكليز فأحاط منزله ببلوك من العساكر فرماهم بالرصاص فأتى بالمدافع ودك منزله عليه ثم بحث عنه بين الانقاض فوجده مقتولاً وامرأته وأولاده مذبوحون بجانبه . وقد رمى البعض بأنفسهم في النيل تخلصاً من نار الجيش فلاقوه فيه وحمل التيار بعض جثثهم الى حلفـــا . وبلغ مجموع قتلى الدراويش في هذه الواقعة نحو ٥٠٠ رجل . وأما خسائر الجيش فكانت ٢٣ قتيلاً وفيهم القائمقام سدني بك قومندان الاورطة العاشرة المار ذكره في الكلام على سواكن والبكباشي فتزكلارنس من ضباط الاورطة المذكورة وجرح ٦٣ رجلاً فيهم ٣ ضباط مصريون. وأسر الجيش محمد زين في منزله ومعه ٥٠ رجلاً وغنم مدفعاً وكثيراً من الاسلحة والذخائر .

مرور الوابورات فوق الشلال الرابع : وكان السردار قد بنى وابوري الناصر والفاتح المشار اليهما قبل فضمهما الى الظافر وطماي والمتمة ودال والتيب وأرسلها كلها الى فوق الشلال الرابع منذ ١٣ اوغسطوس فوصلت ابا حمد في ٢٩ منه إلا التيب فانه غرق في شلال كعب العبد .

احتلال بربر في ٦ سبتمبر سنة ١٨٩٧ :

ومن ثم توجهت عناية السردار الى فتح بربر وكان فيها الزاكي عثمان البقاري اميراً وكان ابو الخليل لا يزال مقيماً في كعب المرة فلما علم بسقوط ابي حمـد رجع الى بربر فدخلها في ١٦ اوغسطوس وكتب الزاكي الى محمود يطلب منه النجدة فلما لم تأته خرج من بربر في ٢٤ اوغسطوس وانضم اليـه في شندي . وفي ٢٧ اغسطوس بلغ هنتر باشا ان الزاكي ترك بربر فأرسل احمد بك خليفة (اخا عبد العظيم بك) بأربعين رجلاً من عربانه لتحقيق الخبر فوصل بربر في

٣١ منـــه فوجد الخبر صحيحاً فبعث برسول الى هنتر باشا فحضر بأربع وابورات ودخل بربر في ٦ سبتمبر فرفع العلم المصري عليها. ثم جاءها السردار في ١٠ اوكتوبر ولم يكن يدري بذهاب عثمان دقنة من ادارامة فأرسل اليهـا هنتر باشا بالأورطة الحادية عشرة وبعض الملحقات العسكرية فوصلها في ٢٩ منه فوجدها خالية فعاد الى بربر في ٩ نوفمبر .

وجاء مشايخ الهدندوة الى السردار في بربر فقدموا له الطاعة ففتح الطريق الى سواكن . وجدّد الهمة في سكة حديد ابي حمد فأتمها في ٣١ اوكتوبر سنة ١٨٩٧ . وبنى طابية في الداخلة عند ملتقى الاتبرة وجعلها مركزاً للوابورات وأخذ يستعد للحملة على محمود في المتمة . وقد رأى ان الجيش المصري وحده لا يكفي لقهره فاستنصر دولته فأنجدته بآلاي من العساكر فيه اربع اورط بقيادة الجنرال كاتيجر .

خروج محمود الى الاتبرة : امـــا محمود فانه بعد قتل الجعليين أخرب المتمة ونزل بجيشه في شماليها على نحو ٣ اميال منهـــا وتحصن هناك متأهباً للدفاع فحفر خندقاً طويلاً على زاوية قائمة مع النيل جعل فيـه البنداقة وبنى طوابي على شاطئي النيل شرقـاً وغرباً وجعل فيها عشرة مدافع لمقـــاومة الوابورات وبث العيون والارصاد بطريق الصحراء وطريق النيل لاستطلاع طلع الجيش . وكان من رأي الخليفة قبل واقعة ابي حمد ان يتقدم محمود بجيشه وينزل في بعض المضايق او الشلالات شمالي بربر ويتربص للجيش هناك وفيما هو يستعد لذلك جاءه الخبر بسقوط ابي حمد وفرار الزاكي من بربر واحتلال الجيش لها فكتب الى الخليفة في ذلك فأقر الرأي اخيراً على العبور الى الشرق والزحف على بربر . وفي ٢٠ فبراير سنة ١٨٩٨ تم عبور محمـــود بالجيش الى الشرق فبقي في أخذ الأهبة الى ١٠ مارس ثم زحف شمالاً فوصل العالياب في ١٥ منه وهناك حصل خلاف بينه وبين عثمان دقنة بالذهاب فأراد هو الزحف بطريق النيل ومهاجمة طابية الداخلة وأشار عثمان دقنة بالذهاب بطريق الصحراء الى الاتبرة ومنهـا الى الداخلة لأن طريق النيل مكشوفة للوابورات ورفعـا

الأمر الى الخليفة فصدق رأي عثمان فخرج محمود من العالياب في ١٨ مـارس فوصل الأتبرة في ٢٠ منه ونزل في مكان يدعى النخيلة على٣٢ ميلاً من الداخلة ومعه من الجيوش عدا جيش عثمان ما يأتي :

الامراء	اولاد عرب	جهادية	رمنتون	بنادق	خيل	دروع
علي السنوسي	١٩٤٥	١٥١٣	٨٢٠	٥٤٤	٣٤١	٣٤
صلاح ابتوه	١٤٢٢	١١٢١	٤٨١	٣٦٨	٣٢٦	٤٣
محمد علي	١٨٠٤	٢٢٠٦	٨٩٥	٥٩٣	٤٨٦	٤٧
عيسى زكريا	٤٩٠	٦٢٣	٢١٤	٢١٣	٨٢	١٦
البشاري ريده	١٥٨٦	٥٣٨	٣٤٣	٢٠٦	١٤٣	١٩
محمد فضل الله	٤٦١	٤٦٥	١٥٢	٢٥٨	١٤١	١٦
عبد القادر دليل	١٣١٤	٤٢٥	٢٠٨	٣٦١	١٧٩	١٦
الفضلي آدم	٤٤٣	١٤٧	١٠٢	١٥٨	٨١	٧
العطا اصول	١٢٨	٢٤١	٥٨	١٤٢	٤٧	٢
المجموع	٩٥٩٣	٧٢٧٩	٣٢٧٢	٢٨٤٣	١٨٢٦	٢٠٠
فضل الحسنة	٣٨٣	٦٥٧	٦٧٢	٢٢	٩٦	٢
عبد الله حامد	٤٢٦	٣٣٤	٥٤٥	٦	٥٤	٢
محمد الزاكي عثمان	٦٦٢	٩٩٥	٧٦٧	١٢٩	٣٧١	٧
محمد ود بشاره	٢٧	٦٠	٥٨	٢	١٨	
المجموع	١١٠٩١	٩٣٢٥	٥٣١٤	٣٠٠٢	٢٣٦٥	٢١١

وكان عندهم من البنادق غير الرمنتون : ابو صرة وبيـادة وابو روحين واورشليك وخشخان . وكان مع الجهادية من الجبخانة لكل بندقية رمنتون خمس دستات ولكل بندقية بيادة ست دستات ولكل بندقيـة ابي روحين خمس دستات .

خروج السردار على محمود في الاتبرة : هـذا وكان السردار يراقب حركات محمود ويرسل الوابورات في النيل الى المتمـة فتناوش طوابيه وتعود اليه باخباره وقد جاءت بخبر تحركه من المتمة فاستعد له حتى اذا تقدم شمالاً حشد جيوشه كلها في كنـثور على ٦ اميال شمالي الداخلة . ثم لـما علم بتحوله الى الاتبرة زحف الى رأس الهودي على١٢ ميلاً من الداخلة فكان فيها في ٢٠ مارس اي يوم وصول محمود الى النخيلة ومكث ينتظر قدوم محمود ومعه جيش مؤلف من نحو ١٣٠٠٠ رجلاً .

اخذ شندي في ٢٦ مارس سنة ١٨٩٨ : هذا وكان محمود قـد ترك في شندي عائلات الأمراء وعائلات الجعليين التي اسرها من المتمة وبلغ السردار ذلك فأرسل هكمن بك بالاورطة الثالثة و ١٥٠ من الجعليين في ٣ وابورات حربية فأتى حوش بان النقا قرب شندي حيث كانت العائلات في ٢٦ مارس سنة ١٨٩٨ فقتل الخفراء وأنقذ ٦٥٠ نفساً من النسـاء والأولاد وأعادهن الى المتمة وغنم كميات وافرة من الحبوب والمواشي وهدم طوابي شندي وعـاد الى الداخلة .

واقعة الاتبرة الجمعة في ٨ ابريل سنة ١٨٩٨ :

وظن السـردار ان محموداً يهاجمه فانتظره في رأس الهودي اياماً وظن محمود ايضاً ان السردار لم يخرج من النيل إلا بقصد مهاجمته فاتخذ خطة الدفـاع وتحصن تحصناً قوياً في النخيلة فحفر خندقاً مستديراً في وسط أجمة وبنى من ترابه متراساً فتح فيــه المزاغل وأحاطه بزريبة متينة من شوك فرسم مدير المخابرات صورة الزريبة للسردار كأنه يراها . فزحف السردار بالجيش من رأس الهودي في ٤ ابريل قاصداً النخيلة فنزل في رأس عدار على ٩ اميـال من الهودي و ١١ ميلاً من النخيلة . وفي صباح ٥ ابريل أرسل هنتر باشا بالسواري والطوبجية وبعض البيـادة لاستكشاف زريبة محمود والاحتيال على اخراجه منهـا فسار هنتر حتى اقترب جـداً من الزريبة ونصب

المدافع وأطلقها عليها فنفر فرسان الدراويش من جانبيها وحاولوا ان يكتنفوا هنتر فتقهقر برجاله رويداً وهو يطلق المدافع حتى خرج منهم ظافراً وعاد الى معسكره . ولما رأى السردار ان محموداً لا يخرج من زريبته أقرّ على مهاجمته فسار بالجيش في ٦ ابريـل الى ام ضبيّع على نحو اربعة اميال من خور ابي عدار فترك فيها الاسبيتالية والاثقال تحميها نصف الاورطة الخامسة عشرة في زريبة قوية وسار في مساء ٧ ابريل بالجيش كله قاصداً محموداً في زريبته فوقف على ميل ونصف ميل منه فاستراح الى الساعة ١ بعد نصف الليل وكان الجيش من قبل يسير قلاعاً فصفه الآن صفوفاً للهجوم فجعـل اللواء الانكليزي عن اليسار ولواء مكسول عن اليمين ولواء مكدونلد في الوسط ولواء لويس مـع الماء والحملة في الوراء يحمي ظهور الألوية الثلاثـة . وتقدمت المدافع الجيش فكان منها ٢٤ مدفعاً وصاروخ بقيادة الكولونيل لونج في الميمنة و ١٢ مدفعاً من مدافع مكسيم موزعة على الميمنة والميسرة والقلب . وسارت الجيوش بهذا الترتيب والسردار واركان حربه بين اللوائين المهاجمين حتى صارت على ٦٠٠ يرد من الزريبة وبزغت شمس يوم الجمعة الواقع في ٨ ابريل سنة ١٨٩٨ وعلت درجتين فوق الافق فصدر الامر للجيش بالوقوف لاجراء التدبير الاخير قبـل الهجوم . فخطب قومندانات الاورط الخطب الحماسية على جنودهم فقـال الكولونيل مري قومندان اورطة السيفورث هيلندرس لجنوده « لا بد ان تبلغ اخبار نصرتنا مدينة لندن هذه الليلة » وخطب الجنرال جاتيكر خطبة غراء قال فيها للجنود « اني على يقين انكم لا ترجعون حتى تخترقوا زريبـة العدو وتطردوه الى الاتبرة » . وفي الساعة السادسة وربـع ابتدأ الطوبجية عن اليمين باطلاق القنابل فخرج فرسان الدراويش حينئذ من طرف الاجمة الاقصى عن اليسار فتلقتهم مدافع مكسيم وردتهم على أعقـابهم خاسرين . وأطلق الدراويش مدافعهم ولكن أكثرها لم يطلق غير طلقة واحـدة وأما البنادقة فانهم صبروا على نار المدافع نصف ساعة حتى اقترب الجيش منهم جداً فصلوه ناراً حامية . وما زالت المدافع ترمي بقذوفاتها على الزريبة والجيش يتقـدم

رويداً نحوها حتى كانت الساعة السابعة وربع فصدر الامر للعساكر بالهجوم فصدحت الموسيقات العسكرية بالنغمات الحماسية امام الجنود وهجموا كلهم من انكليز ومصريين هجمة الاسود وهم يطلقون البنادق غير مبالين بنيران العدو التي كانت تشويهم حتى وصلوا الزريبة فاخترقوها عنوةً بحراب البنادق وقتلوا كل من وجدوه فيها وأجلوا الباقين ووقع محمود اسيراً في يد الاورطة العاشرة بقيادة الباسل الميرالاي ناسون بك (اللواء ناسون باشا الآن وسكرتير ملكي السودان) قيـل وجدوه مختبئاً في حفرة وسط الزريبة . وأظهرت الجنود الانكليزية في هذه الواقعة البسالة المشهورة عنهم في مواقع القتـال . وكان الكبتن فندلي من ضباط الكمرون هيلندرس اول من اخترق الزريبـة فأصابته رصاصة اخترقت صدره فخر صريعاً فقال لرجاله « تقدموا يا رجالي وخذوا بثأري » وهو من الضباط البواسل الظرفاء الذين امتـازوا في الحملة النيلية وكان قد تزوج قبل الواقعة ببضعة أشهر رحمة الله عليه . ولمـا خرّ الماجور اركهرت صريعاً قال للذين حوله « سيروا ولا تبالوا » وكان هذا آخر ما فاه به . ولما وصل الجنرال جاتيكر قائـد اللواء الانكليزي الزريبة كان معه الجندي كروس من الكمرون هيلندرس فصوب درويش كبير الهامة حربته الى الجنرال وهمّ ان يرميه بها فابتدره كروس المذكور بطعنة من حربة بندقيته أردته حتفه . وقـال السردار لقومندان الكمرون هيلندرس « يحق لك الافتخار بهذه الاورطة » فأجابه الكولونيل « نعم اني لمفتخر بها » . هـذا ولم تكن بسالة الجنود المصرية والسودانيـة في الهجوم بأقل من بسالة الجنود الانكليزية فقد سار أمامها قائدها العام هنتر باشا وسيفه بيده يلوحه في الهواء ويحرضهم على الهجوم فهجموا هجمة الاسود غير مبالين بنيران العدو وقـد خسروا خسارة عظيمة في تلك الهجمة . وكان ختـام الواقعة الساعة الثامنة ونصفاً . وبعدها جدّ لواء لويس بك والسواري والمدافـع الراكبة في أثر المنهزمين فقتلوا وأسروا . وانقسم المنهزمون قسمين فذهب بعضهم الى القضارف وبعضهم الى ام درمان وفيهم عثمان دقنة .

القتلى : وكانت خسارة الجيش في هـذه الواقعة : من الجيش الانكليزي ٣ قتلى و ١٠ جرحى من الضباط و ٢٢ قتيلا و ٨٢ جريحاً من العساكر . ومن الجيش المصري ١١ قتيلا من الضباط منهم ٥ من الانكليز و ٥٧ قتيـلا و ٣٦٥ جريحاً من العساكر. وقد كان رصاص الدراويش كعادته عالي المرمى حتى انه اخترق كثيراً من خوذ العساكر ولولا ذلك لكان فتكه بالجيش أشد وأعظم. وأما الدراويش فقد قتل منهم نحو ٣٠٠٠ رجل وفيهم من الأمراء: عـلي السنوسي والبشاري ريده والعطا اصول وعبد القادر دليل وصلاح ابّو وعبد الله حامد والشريف النقيب وكيل دقنة .

الغنائم والاسرى : وأسر منهم عـدا محموداً نحو ٢٠٠٠ نفس وغنمت مدافعهم العشرة وشيء كثير من الاسلحة والذخائر والرايات والنقاقير. وعاد السردار الى بربر فدخلها في ١٤ ابريل باحتفال شائق . وقد كان هذا الظفر أحسن تمهيد لفتح السودان .

الفصل السابع

في

صفات الخليفة عبدالله واخلاقه وحكومته وجيشه وإجمال حاله

صفات الخليفة وأخلاقه :

صفاته : كان التعايشي ربع القامة اسمر اللون أشيب الشعر عربي الملامح خفيف الشاربين خفيف اللحية مستديرها يهذب لحيته وشاربيه. علىوجهه آثار الجدري أقنى الأنف حسن الفم قصير الشفتين حتى تكاد اسنانه تظهر منخلالها فاذا تكلم برزت لامعـة بيضاء كأنه يبتسم وبالاجمال فانه كان كثير الشبه بالمهدي بالقد والملامح إلا أنـه كان اقصر قليلاً من المهدي وأقل سمرة وأضيق جبهة وأصغر لحية . وكانت ملامحه في اول ايامه تتخللها طلاقة وبهجة فأمست بعد تولية الخلافة وقد كساها انقباض تنقبض منه النفس ويدل على ما انطوى عليه الرجل من الاستبداد والمكر والدهاء . وكان في اول امره نحيف الجسم شديد العضل فلمـا تولى الخلافة سمن كثيراً إلا أن سمنه لم يضعف نشاطـه ولا همته .

لباسه : وكان لباسه كلباس المهدي أي الجبـة المرقعة فوق سراويل من الدمور المعروف بالقنجة والعمة المفلجة فوق المكاوية مدلاة منها عذبة على كتفه

اليسرى ويلقي على كتفيه رداء بطرف حرير ازرق ويتمنطق بمرّقعة حول خصره وكتفه اليسرى ويتلثم برداء من الشاش الرفيع فوق العمة بحيث لا يظهر من تحته إلا دائرة وجهه ويلبس في عنقه سبحة كبيرة وفي قدميه الخف الاصفر في الحذاء الاصفر فاذا جلس خلع الحذاء وأبقى الخف وتربع على عنقريب فوقه فروة من جلد الضأن وهي التي يصلي عليها . وكان مولعاً بالتطيب والنظافة فكانت رائحة الطيب تفوح من ثيابه على بعد خطوات . واذا مشى حمل بيساره سيفاً وبيمينه حربة قصيرة هدندوية ومشى وراءه بعض غلمانه الاحباش وغيرهم . وهو يعرج في مشيته عرجاً خفيفاً . وسبب عرجه انه وقع عن حصانه بعد فتوح الابيّض فكسرت ساقه . وكان يركب جملاً او جواداً او حماراً او احدى العربات التي غنمها من الخرطوم . واذا ركب الجمل تقلد السيف على جنبه الايمن او وضعه امامه على السرج واذا ركب الجواد لبس احياناً الدرع والخوذة وألبس جواده اللبوس .

نساؤه : وكان يحب النساء كسيده المهدي وقد بالغ مثله في الاكثار منهن فكان اربع منهن شرعيات والباقيات جواري وأكثرهن من اللواتي اسرن في الحرب فهن في اعتباره ما ملكت يمينه وهن من كل أمة من أمم السودان والحبشة . وكان اذا اراد ان يتزوج بنت زواجاً شرعياً تنحى عن احدى زوجاته الشرعيات وتزوج بها .

أما نساؤه الشرعيات اللواتي كن في عصمته عند وفاته فهن : زهرة التعايشية التي تزوجها في بلاده قبل التصاقه بالمهدي . ونفيسة بنت بابكر القاسمية . وأم كلثوم بنت المهدي . والسرة بنت وقيع الله الجعلية .

وأما سراريه فأشهرهن : مريم بنت ابراهيم . ومرحومة بنت زايد . والسرة بنت عبد الله . وخادم الله بنت عبد الهادي . وسعيدة بنت بيت الامان . وحفصة بنت عبد السلام وكلهن من المولدات . ومدينة بنت علي . وزمزم بنت حسن وهما حبشيتان . ونصرة بنت مدني . ورقيقة وكلاهما نوبيتان . ونخل الجنة بنت المبارك . وآمنة بنت كرم الله وهما جعليتان .

وفاطمة بنت الكرة تقلاوية . وآمنة بنت السيد حامد الخناقية . والتومة بنت راض الله المحسية . وزينب بنت نقيب المصرية . ومن مطلقاته فاطمة بنت احمد اغا يسين دولابية دنقلاوية .

اولاده : وله من امرأته الاولى زهرة التعايشية ثلاثة اولاد وهم شيخ الدين ويحيى وخديجة أما شيخ الدين فهو بكر اولاده وقد رشحه للملك بعده وجعله رئيساً للملازمين كما مرّ وزوجه بابنة اخيه يعقوب وله من العمر ١٧ سنة واحتفل بزواجه احتفالاً عظيماً وبنى له منزلاً واسعاً قرب منزله وعني بتربيته وأحضر له الفقهاء فعلموه القراءة والكتابة وقد رأيت في منزله كتابي « أمثال العوام » وقيل لي انه كان يحب مطالعته . ومن نفيسة بنت بابكر ثلاثة اولاد عمر وهو الذي أشار اليه بأنه عند بلوغه سن الرشد يكون اميراً على أخواله العباسيين وسليمان والفاضل . ومن ام كلثوم بنت المهدي اربعة اولاد محمد الطاهر ومحمد السيد والطاهرة . ومن السرة بنت وقيع الله بنت تسمى زهرة . ومن مريم بنت ابراهيم ثلاثة اولاد داود وحليمة وحوا . ومن خادم الله بنت عبدالهادي ولدان حسن ونور الشام . ومن سعيدة بنت بيت الامان بنت تدعى نفيسة . ومن حفصة بنت عبد السلام ولد يدعى عبد السلام . ومن مدينة بنت علي ولد يدعى اسماعيل . ومن زمزم بنت حسن بنت تدعى رابحة . ومن نصرة بنت مدني ولد يدعى حمزه . ومن رقيقة النوباوية ولد يدعى عبد الصمد وهو « النجل المكرم » الذي تقدم لنا خبره . ومن نخل الجنة بنت المبارك ولد يدعى عبد الحميد . ومن آمنة بنت كرم الله بنت تدعى مريم . ومن فاطمة بنت الكرة ولد يدعى عبد الرحيم . ومن آمنة بنت السيد حامد ولد يدعى عبد الله . ومن التومة بنت راض الله ولدان محمد الامين وام نعيم . ومن زينب بنت نقيب بنت تدعى صافية . ومن مطلقته فاطمة بنت احمد اغا ولد يدعى عبد الرحمن القرشي الذي أشار اليه بأنه عند بلوغه سن الرشد يكون اميراً على أخواله الدناقلة .

وجملة من ذكرنا ٣٢ ولداً أي ٢١ ذكراً و ١١ انثى مات منهم شيخ الدين

في سجن رشيد سنة ١٩٠٠ من اثر جراح اصيب بها في واقعة جديد وله من العمر ٢٤ سنة والباقون أحياء بين مصر وحلفا وام درمان ويختلفون في السن بين ٥ و ١٩. وقد مات له عدة اولاد وهم صغار فدفنهم في تربة خاصة داخل حوش منزله .

وكان عنده كثير من الخصيان لادارة حرمه وعليهم رئيس يدعى عبدالقيوم.

اخوته : وأما اخوته فهم ثلاثة تقدم لنا ذكرهم وهم : يعقوب اخوه من أبيه الذي جعله وزيره ووكيل رايته ورئيس مجلس شوراه وقد كان أطوع له من بنانه . وصفته مربوع القامة فاتح اللون خفيف اللحية بوجهه اثر الجدري يتمهل في الكلام واسع الصدر صبور بعيد الغور اذا صادقته صدقك واذا خاصمته خادعك وألان جانبه لك حتى تسنح له الفرصة فيغدر بك. والسنوسي احمد اخوه من أمه وقد جعله اميراً على الجبارات التعايشة . وهارون محمد اخوه من أبيه وامه جارية .

أقرباؤه : وأما أقرباؤه الأخصاء فهم الأمراء محمود احمد وأخوه ابراهيم الخليل . وعبد الباقي عبد الوكيل . وأحمد فضيل . ويونس الدكيم وأخوه عثمان . والزاكي عثمان . وحامد علي واخوه احمد علي . ومساعد قيدوم . ومحمد بشارة وقد تقدم لنا ذكرهم . ويعقوب ابو زينب من أخصاء مجلس شوراه وصالح حماد وامير الجزيرة . واب بسام من امراء الملازمية. وقد كان من امنائه الاخصاء الحاج الزبير الجعلي وهو المولج في تبليغ رسائله الى امرائه في ام درمان وفي كشف أسرار الاهلين والجمعيات السرية .

معيشته اليومية : وقد استقصيت من أمنائه عن كيفية معيشته البيتية فقالوا : انه كان يقوم عند طلوع الفجر ويدخل الجامع فيصلي في الناس صلاة الصبح ثم يمكث في مصلاه قليلا ليسمع شيئاً من الراتب . ويرجع الى منزله فيخلع الجبة والسراويل ويلبس الشقة كما هي عادة اهل السودان في منازلهم . ويطلب الطعام فيأتونه بشيء من الزبدة البقرية واللبن البقري الحليب . ثم ينام

الى الضحى . وعند استيقاظه يطلب الطعام فيأتونه بعصيدة من الدخن وعليها ملاح التقلية او ام دقوقه وهو ملاح مركب من السمن والشرموط البقري والويكة مع الشطة والملح والبصل ثم يأتونه باللحم المنصص وهو عضو من خروف الضأن مشوي على النار . ثم يخرج الى مجلسه فيطلب الكتاب وينظر معهم في تحريراته ومراسلاته الى الضحى الاعلى . فيصرف الكتاب ويدخل الحريم فيستريح الى الظهر . ثم يدخل الجامع وبعد ان يصلي الظهر في محرابه يجلس تحت الرواكيب فيجتمع الامراء والأعيان والقضاة حوله حلقة واسعة ومن ورائهم الملازمية وكلهم جاثون على ركبهم منكسو الرؤوس وأيديهم مقبوضة على صدورهم او مبسوطة على ركبهم فيتفقد الغائب منهم ثم يشرع في اصدار الأحكام التي دبرها ليلا . قال لي بعض الادباء الذي أوجده سوء الحظ في زمن التعايشي ان تلك الساعة كانت أشد الساعات علينا فانه فيها كان يسكب جامّ غضبه على من خرجوا عن حد اشارته او خالفوا رأيه او وشي بهم اليه فتراه يُوبخ هذا ويأمر بسجن ذاك ونفي ذلك وقتل الآخر. ثم يدخل الى منزله فيطلب الطعام فيحضرون له الكسرة والطبيخ فيدعو اليه بعض التعايشة والقضاة فيأكلون معه وينصرفون الى العصر . فيرجع الى الجامع لصلاة العصر ثم يعود الى منزله . وكان في غالب الأيام يولم وليمة عامة بعد العصر لجيشه كله فيقدم لهم طعام الكسرة وعليها اللحم المشوي من الضأن او البقر يضعه في قدح كبير يسع اردب غلة وهو قدح ود زايد المشهور الذي غنمه منه سنة ١٨٨٦ كما مر وكان الجيش يأتي الى الطعام أفواجاً حتى لقد تدوم الوليمة من صلوة العصر الى ما بعد صلوة الغروب . وبعد صلاة العصر يجلس قليلا لسماع شيء من الراتب ثم يخرج من الجامع فيذهب في الغالب الى مكان معد له في شرق القبة ليرى الملازمية وهم يقرأون الراتب وقد ينتظر الى تمام الراتب فيأمرهم بضرب البوري واجراء التمرينات العسكرية الى قبيل المغرب فيدخل منزله ويجدد وضوءه ثم يدخل الجامع فيصلي المغرب ويجلس في مصلاه للمذاكرة والامر والنهي كالجلسة التي بعد الظهر ويرجع الى منزله فيطلب

العشاء فيؤتى بالكسرة والطبيخ كالظهر فيتعشى ويستريح الى وقت العشاء فيصلي العشاء في الجامع ويدخل منزله للنظر في الأمور الهامة مع اهل مشورته وكبار دولته كابنــه عثمان شيخ الدين وأخيه يعقوب وقاضي الاسلام وشيخ السوق وأمين بيت المال وأمين بيت مال الخمس فينظر مع كل منهم في شؤون مصلحته ويدبر امور المملكة على ما يقتضيه رأيه . كل ذلك وملازمو الباب جالسون بباب داره او في الجامع منتظرين اشارته ويمكثون كذلك حتى يغلق باب منزله ويتحققوا انصراف مجلسه فينصرفون. ثم يدعو رئيس خصيانه عبد القيوم وحده او يدعو محمد بشير وكيل الفي معه فينظر معهما في نفقات منزله. ثم يدخل مخدعه ويدعو اليه من شاء من نسائه فينام الى قبيل الفجر اذ يقوم للصلاة وهكذا شأنه في كل يوم إلا اذا طرأت حوادث مزعجة فانــه يطيل جلسته بعد صلاة العشاء مع اهل مشورته ويمتنع عن النساء .

آداب الدخول عليه: وكان اذا أراد احد الدخول عليه في مجلسه استأذنه اولاً ثم تجرد من سلاحه ودخــل عليه وهو منكس الرأس قابض يديــه على صدره حتى يكون على بضع خطوات منه فيقف ويقول السلام عليك يا خليفة المهدي « عم » فيجيبه وعليك السلام يا فــلان ثم يشير اليه بالجلوس فيجلس جاثياً او يمد له يــده فيهرول نحوه مطرقاً فيأخذ يده ويقبلها ظاهراً وباطناً وهو جاث على ركبتيه والخليفة يرحب به ثم ينهض ويرجع القهقرى الى حيث وقف اولاً فاذا أمره بالجلوس جلس في الارض جاثياً على ركبتيه واضعاً يديه عليها وانتظر حتى يأذن له الخليفة فيحدثه بما جاء لأجله وهو لا يرفع طرفه اليه حتى يتم كلامه فيأمره بالانصراف فينصرف راجعاً القهقرى الى ان يتوارى عنه فيعود الى سلاحه . هــذه هي آداب الدخول على الخليفة وهي سواء على الجميع من عامة وخاصة جهلاء وعلماء . . وأما آداب مخاطبته في الكتب فكما رأيت في كتب لمراثاته اليه .

اخلاقه : كان التعايشي قبل اتصاله بمحمد احمــــد في مصاف الدجالين فتخلق بأخلاقهم مع الدهاء والمكر والتشيع للدين . فلما التصق بالمهدي تجلت

فيه هذه الصفات وامتاز بالقسوة وسفك الدماء كما امتاز بالادارة والتدبــير . ثم لما مات المهدي واستأثر بالملك كان أظهر صفاته الغيرة على ملكه . فــكان اذا رأى او توهم عدم الولاء من احد بطش به وقتله او نفاه او اذله وغنم ماله حتى انه ارهب اهل السودان كافة على ما بهم من الجرأة واحتقار الموت . ولم يكن احــد منهم يجسر ان يخالف أمره او يتعدى اشارته . وكان يصغى الى النميمة ويرتاح الى الاطراء فما كان احد يجسر ان يكلمه إلا نعته بالحكمة والقوة والعدل . والويل لمن ينطق بكلمة تحط من قدره . وكان على قسوته سريــع الغضب شديد النقمة فاذا سخط على احد صب عليه جام غضبه بقسوة بربرية ولم يرض عنه إلا اذا تذلل له وهيهات ان يرضى . ثم ان ما اوتيه من النصر المتوالي أورثه العجب والخيلاء والاعتداد بالنفس حتى كان يثق بنفسه وثوقــاً عظيماً ويظن انه قادر على كل شيء لذلك كان أكره الناس اليه من أتاه بنصيحة.

حكى لي محمــد خدام كبير الحمر الذي وقع اسيراً في واقعة طوشكي قــال : « لما أراد الخليفة ان يرسل جيشاً لغزو مصر اخذ في جمع اهل الجزيرة الى ام درمان بأموالهم وعيالهم وأبعدهم عن مزارعهم فذهبت الى محله واستأذنته في الدخول عليــه فأذن لي فقلت له : يا سيدي ان الزراعة لمن أضر الأمور للأمة وفي اهمالها خطر كبير على سلامة الرعية والجيش فأنت الآن قد جمعت اليك أهل الجزيرة وأبعدتهم عن زراعتهم ونحن بشر نحتــاج الى الطعام ولسنا بملائكة فغداً نطلب القوت فلا نجده فنموت جوعاً . قال محمد فانقبض وجه الخليفة وقال يا محمد خدام ألم يكن المهدي يطلب الناس للهجرة اليه بأموالهم وعيالهم ليكونوا من اهل الجنة وأنا جار على أثره ومقتف خطواته وأخاف اني اذا تركتهم ينسون الخالق فيسألني عنهم. ولم يمض إلا القليل حتى اصدر لي أمراً بمرافقة النجومي لغزو مصر ليستريح مني » اه .

صلاته : وكان الخليفة يلازم الصلوات الخمس كل يوم في الجــامع ويفرض على أهل ام درمان ولا سيما الامراء حضور الصلوات معه وكان اذا تخلف عنها احد الأمراء ولو مرة في اليوم لامه وعنفه . واذا منعه مانع كمرض او غيره

عن الخروج للصلاة أناب عنه الخليفة علي ودحلو او احد قضاته ولكن لم يكن يجلس في المحراب احد غيره. ويجلس وراءه في الصف الاول القضاة وعن يمينهم بعض الملازمية ثم يعقوب اخوه وأخصاؤه وأمراؤه وعن شمال القضاة بعض الملازمية ثم الخليفة علي ود حلو ثم جماعة الخليفة شريف هذا في الصف الاول ومن ورائه باقي الملازمية صفوفاً وعن يمينهم رجال راية يعقوب صفوفاً وعن يسارهم رجال راية الخليفة ود حلو صفوفاً ومن وراء الجميع الجعليون والدناقلة وأهل البلد وفي آخر الجامع النساء وبينهم وبين الرجال فسحة رحبة . وكان يقف وراء الخليفة تماماً في صف القضاة سعد الدين الكناني وهو المؤذن والمقيم والمبلغ . ويجلس علي مرحوم قاري الفواتح بين الملازمية وراء القضاة وعند انتهاء الصلاة يقرأ الفاتحة ثم يقول: اللهم انصر خليفة مهديك كما نصرت نبيك وأيده بالظفر على اعدائك اعداء الدين يا رب العالمين. ثم يكبرون وينصرفون. وكان الخليفة على جهله يتولى الخطابة في الجامع أي خطبة الجمعة والخطب المعتادة التي يراد بها الوعظ والقاء الأوامر فاذا اراد هذه الخطب افتتح خطبته بقوله : السلام عليكم يا اصحاب المهدي فيجيبونه عليك السلام يا خليفة المهدي ويشرع في الخطبة ثم يدعو لهم بالبركة والخير فيؤمنون على دعائه . وكان جهير الصوت قويّه غزير المادة في الكلام عاميّ النطق بقاري اللهجة إلا انه كان يحسّن لهجته بتقليد اهل النيل . وقد كان في بادىء امره أميّاً لا يحسن القراءة ثم تعلم مبادىء القراءة والكتابة على اخيه يعقوب بعد تولية الخلافة . ولكنه استخدم أمهر كتاب السودان علماً وأوفرهم عقلاً وأذكاهم فطنة وآخرهم الشيخ مدثّر ابراهيم أمين ختمه والشيخ ابو القاسم احمد هاشم المارّ ذكرهما .

حضراته : وكان يدعي ان الحق سبحانه وتعالى يتجلى له ومعه النبي والخضر والمهدي فيوحون اليه ما أرادوه من الأمور العظيمة وأول حضراته الحضرة التي رواها لأنصاره في الجامع بعد فتح سنار وهذه صورتها بعد البسملة : « وبعد فمن ربه خليفة المهدي «عم» الخليفة عبد الله بن محمد خليفة

الصديق الى أحبابه وأعوانه على اقامة الدين . أحبابي ان في هذه الصفوف التي هي صفوف الصلاة أولياء وأتقياء وعلماء عاملين وفيها ايضاً من التائبين والمعرضين . واني منذ انتقال المهدي «عم» الى الآن وأنا أفكر في تقديمي على هؤلاء الأخيار من المهاجرين والأنصار وفي كيفية ايصال التائبين الى الله وإرجاع المعرضين عنه اليه . ففي ضحوة الثلثاء في ٢٨ القعدة سنة ١٣٠٢ (١٨ سبتمبر سنة ١٨٨٥) بينا أنا أفكر في ذلك اذ حصلت لي حضرة عظيمة بين اليقظة والمنام . وهي : انه حضر لي واحد من الجن وطلب البيعة فسألته عن اسمه فقال كان اسمي السابق ماشي لأني كنت لا عقل لي وأما الآن وقد حضرت الاسلام فاسمي خاشي . ثم سألته عن قبيلته فقال العرضيون ويقال للواحد منا العارض دعينا بذلك لإعراضنا عن الحق . فقلت له قل آمنا بالله والرسول وآمنا بالامام المهدي وبك فقال ثم أعطيته البيعة . وسألته عن اسم ابيه فأخبرني فنسيته لصعوبته ومخالفته لأسماء الانس . ثم سألته عن أمّه فسكت فظننت ان لا أم له . ثم سألته عن بلده فقال بلدي من المحيط ثلاثون سنة وطلب الاذن في الذهاب الى اهله ليدعوهم الى حضور الصلاة هنا وملازمة الصف فأذنت له وذهب ... وبعد انصرافه حضر جن بكثرة طالبين البيعة ورافعين أصواتهم بلا إله إلا الله محمد رسول على صفة اهل البيعة وقائلين في شأن الله على هيئة الاصحاب وكان بعضهم لابسين الفراوي وبعضهم قمصان بلا رقع فسألتهم عن عددهم فقالوا الذين حضروا هنا ٧٠ الفاً فسألتهم عن قبيلتهم فقالوا الشمسيون فظننت انهم من عباد الشمس فلقنتهم البيعة ثم حضر نساؤهم فبايعنني ايضاً . ثم طلبوا الانضمام الى الاصحاب في الرايات فقلت الى أي راية تنضمون قالوا الى الراية الزرقاء مع يعقوب فأذنت لهم في ذلك . ثم طلبوا تعيين محل لهم بين الصفوف لملازمة الصلاة فقلت أي محل تختارون فاختاروا محل الاخوان الذين يتأخرون عن الصلاة فأذنت لهم في ذلك . ثم طلبوا محلاً يسكنونه في المدينة فخيّرتهم فاختاروا الجبال التي بقرب المدينة ثم قدم لي واحد منهم بنته هدية فلم أقبلها ... ثم اضطجعت على العنقريب وأدخلت

أرسي بهدومي فحضر لي الخضر وصلى على فروتي ركعتين ... وبعد ان سلم قال لي ربك يقرئك السلام والملائكة يقرئونك السلام والنبي ﷺ يقرئك السلام والمهدي «عم» يقرئك السلام ويقول لك بارك الله فيك فيما صنعته في الدين... ثم قال ان المهدي «عم» أخبرني بأن اخبرك لتبشر الاصحاب الذين لازموا الصفوف الثمانية من اول نشأتها الى الآن هم مضمونون وكلما أمرت بحفر صف ولازم فيه الاخوان يلحق بهذه الصفوف ...

ثم سألت الخضر «عم» عن سبب انقطاعه عني منذ انتقل المهدي فقال اني كنت خافراً شعرة من شعر المهدي أمّن احمد سليمان عليها فحفظها ولكنه كان يكشفها احياناً ويبكي عند رؤيتها وقد كشفها مرة في الخرطوم فخشيت ان يخطفها ريح او تقع في محل وسخ تضيع فيه فبعد ان بلعتها انت امس استرحت وسُرّي عني. وكانت هذه الشعرة أمانة لك عند أحمد سليمان فالآن ان رضي ببلعك إياها فله ثواب حفظ الامانة وان لم يرضَ فلا ثواب له. ثم قال الخضر «عم» ان القلب الذي تدخله هذه الشعرة يأمن النفاق». وقد كانت هذه الشعرة أيها الاخوان عند الحبيب احمدسليمان في ورقة حرصاً عليها وفي يوم الاثنين في ٢٧ القعدة وهو اليوم الذي بنى فيه هذا الحبيب التابوت أراد ان يكشف لنا الشعرة للتبرك بها فقبل ان يكشفها شممت رائحة عجيبة واول ما بدا لي رأس الشعرة حصل لي انشراح لا يعلم مقداره إلا الله فتناولتها بقصد شمها فأراد الله ادخالها في فمي وابتلعتها. فطلبها الحبيب احمد سليمان مني ففتحت له فمي فلم يجدها والحمد لله على ذلك ... ثم قال لي الخضر «عم» أخبرني المهدي ان اخبرك ان في ساعة الحرب النبي معك والمهدي معك والخضر معك والملائكة معك فقلت من هم الملائكة الذين معي قال جبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل ومنكر ونكير ورقيب وعتيد ومالك ورضوان وأرواح جميع المؤمنين من ابينا آدم الى الآن. وكذلك جميع المؤمنين من الجن وقد جعل الله روح من يعاديك في رؤوس حراب الانصار وسيوفهم .. ثم قال يقول لك المهدي سنار اصحابي لا يسكنوها كررها ثلاثاً ويقول ان الذي

يسمع الانذار ويموت فيها ليس من اصحابنا. وكذلك جبل الضباب وكاجة وجبل مرة ودار التعايشة لا يسكنها اصحابي إلا اذا توجهوا لغزو وأما سنار فلا يسكنوها ولو كانوا في الغزو. ذلك كله عن لسان الخضر من غير زيادة ولا نقصان اخبرتكم به تحدثاً بنعمة الله وتبشيراً لكم قصد صلاحكم فتلقوا ذلك بانشراح أرشدكم الله والسلام» اه.

ومن تدجيله المضحك ما كتبه الى عامله حمدان ابي عنجة في غرة محرم سنة ١٣٠٤ هـ قال: أيها الحبيب بعد السلام عليك نعلمك ان أمر الدين بعون الله وقوته لا زال في تأييد ومدد من الله المجيد وقد تكاثر ظهور البشائر والخوارق والكرامات بين الاصحاب في مدينة المهدي «عم» حتى تواتر ظهور الأنوار على اسلحة الانصار ففي يوم الثلاثاء الموافق ٢٩ الحجة سنة ١٣٠٣ حضر لدينا بالحراب اثنان من الاصحاب من راية الحبيب جلال الدين وهما الحبيب طاها علي والحبيب محي الدين وأخبرانا بأنه في يوم الاحد الذي نزل فيه المطر وظهرت الانوار على الاسلحة سمعا حراب احدهما طاها تنطق بالشهادة أي كل حربة تقول لا إله إلا الله محمد رسول الله سمعه الحبيب طاه ونادى ابنه فسمعه ايضاً وكذلك جماعة من الاخوان الصادقين حضروا معهم وسمعوه وفي ليلهم المذكور حضروا لدينا في المحراب وأخبرونا بهذا الخبر. هذا فضلاً عن بقية الخوارق والعجائب التي أظهرها الله في الخارج بين الاصحاب وكل ذلك من عناية الله بأنصار الدين وبروز الأدلة الظاهرة على اعلاء الحق واخماد الباطل جعلنا الله وإياكم من اهل عنايته والسلام».

ومن هذا القبيل ما كتبه اليه عامله على القلابات احمد علي في ١٠ الحجة سنة ١٣٠٦:

«سيدي مما لزم الحال عرضه لجنابكم هو انه لما قابلنا سيادتكم بالعام الماضي سألتمونا عن زوجتنا زينب بنت الريف هل هي حامل فقلنا لا فلما عدنا الى القلابات وجدناها حاملاً قبل توجهنا لمقابلة سيادتكم بشهر ثم وضعت بنتاً في

اوائل ذي القعدة الماضي وليلة امس التي هي ليلة الثلاثاء في ٨ الحجة كانت مضطجعة في حجر والدتها ترضع فجذبت والدتها منها الثدي ظناً بأنها نامت وولت مدبرة ففي الحال تكلمت البنت المذكورة بلسان فصيح قائلة لا إله إلا الله محمد رسول الله فلما سمعت والدتها بذلك فزعت منها وطاش لبها وأشهدت عليها من كان حاضراً معها من النسوة فتعجبنا من تكلم هذه الصبية في المهد مع ان عمرها لا يتجاوز الشهرين فلذا لزم ترقيمه لسيادتكم راجين الارشاد في أمر هذه الصبية والسلام » اه .

اذا كان رب البيت بالطبل ضارباً   فلا تلم الصبيان فيه على الرقص

حكومة الخليفة وجيشه واجمال حاله :

عمالاته : قسم الخليفة السودان الى عمالات كما قسمته الحكومة الى مديريات إلا أنه ألغى مديريتي سنار والخرطوم وجعل منها ٨ عمالات وهي عمالة الجزيرة من المقرن الى جبال ادريس وتشمل حلال شرق البحر الازرق وغربيه من العيلفون الى سيرو وحلال شرق البحر الابيض . وعمالة جبال ادريس . وعمالة غرب البحر الابيض من امدرمان الى بلدة شبشه تجاه شات . وعمالة البادية الغربية من امدرمان الى شات. وعمالة البادية الشرقية في البطانة. وعمالة شرق النيل الكبير من العليفون الى حجر العسل . وعمالة غرب النيل الكبير من خور شمبات الى حجر العسل . وسمّى مديرية فاشودة عمالة الشلك والدنكا ولكنه لم يحتلها بل كان يرسل اليها العمال من وقت الى آخر فيأتون منها بالحبوب والعبيد على سبيل الجزية . وهكذا فعل ببلاد فازوغلي . وهجر بحر الغزال واحتل مديرية خط الاستواء وسماها بعمالة بحر الجبل . وجعل مديريتي دارفور وكردوفان عمالة واحدة سماها عمالة الغرب وذلك بعد تجريد زقل سنة ١٨٨٦ . وجعل ايضاً القلابات والقضارف عمالة واحدة . وكان قد ضم كسلا وطوكر الى عمالة واحدة تحت ادارة عثمان دقنة ثم فصلها فجعل

كلا منها عمالة . وكان كل من دنقلة وبربر عمالة . وكانت كل عمالة مستقلة عن الاخرى ترجع بأحكامها اليه . وجعل ام درمان عاصمة حكومته بدل الخرطوم . وحكم البلاد حكماً عسكرياً فجعل في كل عمالة جيشاً وكان العامل قائداً للجيش ومديراً للجهة التي هو فيها يجمع زكاتها وعشورها ومعه وكيل عامل وأمين بيت مال وقاض وكاتب .

وقد أوجب على عماله الطاعة العمياء له كما أوجبها على من دونهم لهم . من ذلك ما كتبه الى عثمان آدم عامل كردوفان يوصيه بالطاعة لحمدان ابي عنجة ايام كان ابو عنجة في جبال النوبة قال: « ... وما زلت فكن للحبيب حمدان ابي عنجة عضداً وساعداً وساعده في جميع أمور الدين وكن معه كاليد للفم او كالميت في يد الغاسل يقلبك كيف شاء واخدمه بنفسك ومن معك من الانصار وكل ما يأمركم به تلقّوه بالقبول وافعلوه بالسرعة...في ٤ رجب سنة ١٣٠٤ هـ » اه .

ثم لما أرسل ابا عنجة عاملا على القلابات ورئيساً على يونس الدكيم خشي ان يثقل الأمر على يونس لأن اباعنجة لم يكن في الاصل إلا عبداً في بلاده فكتب الى يونس يأمره بالانقياد الى ابي عنجة وكتب الى ابي عنجه يسأله الرفق بيونس بقوله : « ... لا يخفى عليك ايها الحبيب ان أمر الدين يحتاج الى المعاضدة والمرء كثير بأخيه والمؤمنون كالبنيان يشد بعضهم بعضاً وكاليدين تغسل احداهما الاخرى وان الحبيب يونس الدكيم هو نفسك وأخوك وهو لك وأنت له قديماً وحديثاً فينبغي ان تزداد المحبة بينكما وتخاطبه قبل وصولك اليه بما يشرح صدره وعند مقابلته تلقّه بالمودة والبشاشة حتى يرى ذلك الخاص والعام ويحصل الغيظ للمنافقين الشامتين الذين يتربصون بالمؤمنين الدوائر ويريدون التفرقة وتكدير السرائر. وكن كأنك حضرت تأييداً له وعضداً... ولو إنا أمرناه بالامتثال لك فان الكفرة اعداء الله اذا كان احدهم في جهة وأرسلوا اليه رجلا أكبر منه لأمر حدث في تلك الجهة فيكون هذا الرجل

واقفاً في حده كأنه تحت الاول الذي هو صاحب المحل فذلك شأنهم وهم على الباطل فأهل الحق والدين أولى بذلك وأحرى لا سيا أمثالك الذين أنار الله بصائرهم بمعرفة مكايد الاعداء وكيد الحساد والله المسؤول ان يتولاك وبعين عنايته يرعاك والسلام سنة ١٣٠٥ هـ » اه .

وقد أوصى عماله بكتم الاسرار وعدم اطلاع افراد الجيش على مفصلات احوالهم ولا سيا احوال الجبخانة . وكان يذكرهم على الدوام بأمور أهمها : ملازمة الصلوات الخمس وقراءة الراتب والتشمير للجهاد والوقوف عند الاشارة. ومن وصاياه الرفق بالجيش ونهيه عن الفساد والعدل في الرعية وعدم الغلول في الغنائم . وكان من شأنه انه كلما أتاه خبر النصر من جهة قرأه لأنصاره في الجامع وأذاعه الى جميع الجهات . وكذلك كان كلما نكل بأحد لذنب أتاه نشر خبره في الجهات وبالغ في الاسباب التي حملته على التنكيل به . وكان العمال يهابونه لأجل بطشه حتى لم يكن احد منهم يجسر ان يباشر عملاً او يتزوج امرأة او يسمي ولداً رزق به إلا بإذنه . واذا حصل نزاع بين عامل ووكيله ارسل امناء من عنده فرفعوا اليه تقريراً في اسباب الخلاف ففصله . وكان من عادته ان يعقد مجلساً من عماله وأعيان البلاد في كل عيد من الاعياد العمومية أخصها عيد الرجبية (٢٧ رجب) وعيد الضحية (١٠ الحجة) وذلك لاختبار حالهم ومذاكرتهم في مصلحة البلاد .

جيشه : أما جيشه في أم درمان فجيش ضخم يزيد على ٥٠ الف مقاتل من جميع اجناس السودان من السود وشبه السود والنوبة والبجة والعرب والمواليد على اختلاف قبائلهم وقد انقسم الى ستة جيوش كبار وهي : (١) جيش الملازمية القديم وهم حرس الخليفة الخاص وقد أسكنهم حول منزله داخل السور وأكثرهم من السود المسلحين بالبنادق الرمنتون وعليهم قائد نوبي يدعى بخيت جاموس (٢) جيش الملازمية الجديد وهو الذي أنشأه بعد حادثة الأشراف وسلحه بالأسلحة النارية وأسكنه السور وجعل عليه ابنه

شيخ الدين قائداً عاماً وهو اقوى جيوشه ومؤلف من نخبة شبان السود والعرب ومنقسم الى ١٦ « ربعاً » على كل ربع امير من التعايشة (٣) جيش الكارة وهم العساكر الذين وقعوا في الأسر من جيش الحكومة فأسكنهم طابية ام درمان القديمة التي عرفت بالكاره وجعل عليهم ابراهيم الخليل اميراً . (٤) جيش الراية الزرقاء وهو الجيش الذي كان يقوده قبل وفاة المهدي فسلمه لأخيه يعقوب وكان جيشاً قوياً مؤلفاً من ٤٣ قبيلة من عرب وعجم وهي : التعايشة والهبانية والحمر والزريقات وبني هلبة والزيادية والمعالية والماهرية والمحاميد والمسيرية والعريقات ودار حامد وبني جرار وحمر والتام والغديات والهوارة وبني عمران والفور والكنجارة والمسبعات والتامة والبرتي والميمة وجماعة الخبير علي ونوبة الحرازة والميدوب والبزعة والداجو والترجم والبرقو والبرنو والباجرمة والفلاتة وكلهم من اهل الغرب ومعهم نفر من الجعليين والسعداب والدناقلة والشنابلة والركابية وأولاد البلد وأولاد الريف والأقباط والمسلمانية من اهل الجزيرة والنيل. (٥) جيش الراية الخضراء او جيش الخليفة علي ودحلو وجلته من اهل الجزيرة وهو ثلاث رايات: راية دغيم بأمارة عبدالله احمد ابي سوار وتحتها الشانخاب والحسناب والعبيساب والحجاجة ودار محارب والمسلمية والعقليين والمحمدية والعرواب والبجة . وراية اللحويين بامارة عبدالله برجوب وتحتها الشبيلاب وبني حسين والعركيين والمعاشرة والبطاحين والأحامدة والعمارنة والكواهلة . وراية كنانة بامارة البشير عجب الفيّة . (٦) جيش الراية الصفراء وهو شرذمة قليلة عليها الخليفة شريف ومعه عثمان ازرق الذي فرّ من دنقلة . وانضم الى هذه الجيوش جيش عثمان دقنة ومعظمه من سكان الصحراء الشرقية الأشراف والهدندوة والمجاذيب والبشارين ومعهم نفر من الدناقلة وغيرهم . وهاك بيان عدد كل جيش من هذه الجيوش وما معهم من الاسلحة النارية والخيل نقلاً عن الاوراق التي وجدتها في بيت يعقوب بعد فتح ام درمان :

الجيوش	الامراء	المجاهدون	الاسلحة النارية	الخيل
جيش الملازمية القديم	بخيت جاموس النوبي	١٤٨٦	٩٠٠	١١٢
جيش الملازمية الجديد	عثمان شيخ الدين بن الخليفة	٢٥٢٩٢	١١٢٥٢	٢٦٧٨
جيش الكارة	ابراهيم الخليل اخو محمود	١٦٠٠	٧٣٠	١٣٥
جيش الراية الزرقاء	يعقوب اخو الخليفة	١٤٤٤٨	١٠٥٣	١٥٨٨
جيش الراية الخضراء	الخليفة علي ود حلو	٥٥١١		٧٩٤
جيش الراية الصفراء	الخليفة شريف	٨١		١
جيش الصحراء الشرقية	عثمان دقنة	٣٣٧١	٣٦٥	١٨٧
	المجموع	٥١٧٨٩	١٤٣٠٠	٥٤٩٥

الاسلحة والذخائر : أما الأسلحة النارية التي كانت عند الخليفة فغالبها من نوع الرمنتون والباقي من بنادق «الخشخان» الكبيرة التي استخدمها البحارة قديماً لصيد الأفيال وتعرف عندهم بربع مدفع . وبنادق «بيادة» وهي بنادق ثقيلة من عهد ابراهيم باشا تطلق بالكبسول وتعرف ايضاً باب لفته . و « ارشليك » وهي البنادق القديمة بزناد وشطفة . وبنادق « ابو روحين » المعروفة . وكان عنده من المدافع في ام درمان ٦٣ مدفعاً منها ٣٥ جبلياً و ٨ كروب و ٦ متريليوز و ٥ شرخة و ٢ اوردي و ٢ حبشي و ٣ قبس و ١ رمنتون و ١ فرنساوي. وأما الصواريخ التي غنموها من الخرطوم فقد تطرقت اليها الرطوبة فأخربوها وأخرجوا الرصاص منها .

وأما « الجبخانة » فقد كان عند الخليفة منها مقادير وافرة إلا انه كان محاطاً بالأعداء من كل الجهات وكان في حرب دائمة معهم وقد منعوا عنه الاسلحة والذخائر منعاً صارماً بل منعوا عنه كل ما يساعد على عملها كالرصاص والنحاس والمبارد والكبريت وملح البارود . لذلك كان أعظم ما وجّه اليه اهتمامه عمل الجبخانــة . وكان أهم ما لزمه الكبريت وملح البارود والرصاص والنحاس والمبارد وعجينة الكبسول (وهي المادة المفرقعة فيها) . أما الرصاص فقد استخرجه من جبــل الكتُم في دارفور وأغرى التجار فهرّبوه له ايضاً مع

الكبريت والمبارد من الحجاز ومصر بطرق سواكن ومصوع واسوان . وأمـا عجينة الكبسول فقد استعان على عملها بلبتن بك مدير بحر الغزال الى ان توفي سنة ١٨٨٨ فاستعان بالدكتور حسن افندي زكي من أطباء الخرطوم . وأمر نوفل النمساوي وغيره فصنعوا له ملح البارود . وجمع كل ما أمكن جمعه من آنية النحاس في البلاد فصنع منها الظروف وأرسل الى عماله في الجهــات فجمعوا له الظروف الفارغة من محال الوقائع . وأقام معملاً للبارود في جزيرة توتي وورشة لعمل الخرطوش في ام درمان فقلّد جبخانة الحكومة أحسن تقليد فكان يصنع كل شهر من البارود ١٠ قناطير ومن الرصاص ١٠٠ صندوق في كل صندوق ١٤٤ خرطوشة. وشيّد داراً واسعة لحفظ الاسلحة والجبخانة والمهمات الحربية والتحف احاطها بسور منيع وسماها « بيت الامانة » . وقد شدد في المحافظة على الجبخانة فجرّد الأهلين من الاسلحة النارية وأصدر أمراً بمنع الصيد بالبنادق وعدم اطلاق الرصاص إلا في ساحة الحرب .

أقسام الجيش حسب أسلحته : وقد انقسم جيش الخليفة بحسب الأسلحة الى ١١ قسماً وهي :

«الجهادية» وهم المسلحون بالأسلحة النارية ويعرفون ايضاً بالبنداقة وهم من السود والعرب إلا ان أكثرهم من السود . وقــد أدرك الخليفة قدر السود في الحرب فأكرمهم وأحسن معاملتهم وأوصى عماله في الجهات بداراتهم . وهاك ما كتبه الى عثمان دقنة في ٣ الحجة سنة ١٣٠٣ هـ بشأن جهادية كسلا قال :

« ... نعلمكم حبيبي ان الجهادية لا بد لهم من التربية التامة وبعد المشقة في مذاكرتهم والتأليف الكلي لهم اولاً حتى يوافقوا على الدين وتنشرح قلوبهم وقد علمنا يقيناً شأنهم مما شاهدناه فيهم من ابتداء المهدية الى الآن فمن ذلك اننا في محاربة أعداء الله بجزيرة أبا أمرنا بعضاً من الجهادية وظهر لنا منهم الالفــة والانشراح فتوجهنا بهم الى قدير فلما غزونا الفنقر هربوا منا وتوجهوا لأعداء الدين بفاشودة . ثم حضر أعــداء الله جيش راشد فأسرنا منهم جهادية فهربوا

ثانية الى جهـة فاشودة . ثم حضرت جردة ولد الشلالي فأسرنا منهم جهادية بكثرة فاتحدو مع الانصار وظننا انه لايحصل منهم مثل ما حصل من السابقين فعند حضورنا للأبيض هربوا وانضموا الى اهل قفرته حتى فتحها الله . ثم بعد فتوح الأبيض وجـدوا فيها جهادية بكثرة فاهتممنا بأمرهم وأكرمناهم وما تركنا لهم من الاكرام شيئاً وبعد ذلك كله هرب بعضهم الى جهة الخرطوم . وعند مجيء جماعة ابي قرجة لحصار الخرطوم هرب بعض من معه وانضموا الى القيقر وكذلك بعض من جهادية ولد النجومي انضموا الى اهل الخرطوم فبقوا حتى وقعوا في الأسر ففرّ بعضهم الى سنار وانضموا الى أهلهـا حتى فتحت . فمن ذلك اتضح ما ذكرناه . فينبغي ان تعتنوا بالمذكورين غاية الاعتنـاء وتربوهم التربية التـامة حتى يرسخ الايمان في قلوبهم فانهم اذا تربوا صلحوا للمساعدة في الدين . ومما يساعد على تأليف المذكورين اعطاؤهم زوجاتهم واذا كان لهم أقارب يضمون اليهم حيث ان مصلحتهم عمومية ولو انضم اليهم غير المستقيم من اخوانهم يجره حالهم الى الايمـان والاذعان اذ الطبائع تسرق الطبائع والأوادم الذكور الذين يطيقون حمل السلاح جميعهم يلحقون بالجهادية في جميع ما ذكر. والدمور الموجود بمخازن كسلا أكسوا منه الجهادية ونساءهم لأجل تأليفهم ... » اه .

وقد وسم الجهادية بحرف ج في أيديهم اليسرى بين الابهام والسبابة وجعل لكل منهم مرتباً شهرياً قدره نصف ريال وربع اردب ذرة ولم يفعل ذلـك لباقي الجيش .

« والخيالة » او الفرسان ويقابلهم القرابة او المشاة من جهادية وغيرهم وأكثر الخيالة من البقـارة . وسلاح الفارس سيف يتقلده على جنبه الأيسر والبندقية يعلقها في مقـدم السرج والتركاش وفيه ٧ طبانق يعلقه في مؤخر السرج ويحمل بيده الكيس . ويمتاز في لبسه بعمامة حمراء وشال احمر يتحزم به حول خصره وكتفه اليسرى وهو لا يلبس حذاء في رجليه لضيق الركاب وقد يلبس الدرع تحت الجبة ويلبس فرسه اللبس .

« والهجانة » وهم اصحاب الجمال ولكن لم يكن عنده من الهجانة سوى ٧٠ رجلا استخدمهم في بريده الخاص الى جهـات السودان المختلفة . وسلاح هؤلاء السيوف والدرق والبنادق الرمنتون .

« والطوبجية » وكلهم من طوبجيـة الجيش المصري الذين وقعوا في الأسر وقد اجتمع عنده منهم في ام درمان ١٥٢ رجلا .

« والحرّابة » وهم حاملوا الحراب والسيوف وجلهم من عرب البـادية . ويقال لحاملي الدرق والسيف الدرّاقة .

« والخشخانجية » وهم المسلحون بالبنـادق الخشخان المار ذكرها وعددهم نحو ألفي رجـل وجلهم من السود . وهم يمتازون بلبس صدرة حمراء فوق جبيهم على نحو لبس بازنجر الزبير ولها جيبان للكبسول واحـدة عن اليمين واخرى عن الشمال .

« والبلطجية » او «الفرّارة» وهم جند من العرب والسود يحملون بلطات كبيرة مما كان مستعملا في الجيش القديم وهم يمتازون بلبس قبعة مزينة بريش النعام .

« والمتشمرون » ويبلـغ عددهم نحو ٢٠٠ رجل وكلهم من التكارنة وهم طوال القامة غلاظ الأجسام يحملون حراباً طويلة بيضوية الشكل يبلغ طول الواحدة منها نحو ذراع وطول قناتها نحو ٤ أمتار ويمتازون بلبس جبة قصيرة مشمرة الى ما فوق الركبة ومن ذلك اسمهم . ويحمل الواحد منهم في وسطه خنجرين وعلى رأسه طاقية ذات قرنين تعرف بام قرينات . وهـذا الجند من مبتكرات التعايشي .

« وجوق الفروع الحربية » ويحملون آلات موسيقية كالآلات المستعملة في الجيش .

« وجوق البيدو والصفّار » مؤلف من نحو ٥٠ عبداً يحملون أبواقاً من قرون الوعل وطبولاً مصنوعة من جذوع الشجر وقرعاً يابساً محشواً حصى وهي على نحو موسيقى سلطنة الفور القديمة ولها اصوات تخدش الآذان .

« وجوق الامباية » وهم اربعة رجال مع كل منهم امباية يصوّت بها عند ركوب الخليفة . اما الامباية والبيدو والصفّار والفروع الحربية وكذلك المتشمرون والبلطجية والخشخانجية فكلهم تابعون لحرس الخليفة ومنهم جميعاً تتألف قلعة يركب في وسطها اذا خرج لعرضة او لحرب .

موكبه في العرضة او الطرّ : وكان التعايشي في اول أمره يستعرض جيشه في يوم الجمعة من كل اسبوع ثم عهد بذلك الى اخيه يعقوب واقتصر على استعراض الجيش في ايام المواسم والأعياد وذلك في موكب حافل جداً. قالوا انه كان اذا أراد الاستعراض المعروف عندهم بالعرضة او الطرّ أمر من الفجر بضرب نحاسه «المنصورة» المشهور الذي وضعه في محل مرتفع في بيت الأمانة. فاذا سمع الناس صوت النحاس هرولوا الى الجامع فصلوا صلاة الصبح وقرأوا الراتب . ثم ذهب البيرقدارية الى بيت الامانة فأتوا بالرايات وانضم كل رجل الى رايته وساروا فرساناً ومشاة وهم يهللون ويكبرون الى محل العرضة في ساحة فسيحة غربي المدينة تتقدمهم الراية الزرقاء فالراية الخضراء فالراية الحمراء فيقف الكل صفوفاً مستقيمة من الجنوب الى الشمال متجهين نحو الشرق . أما جهادية الكارة فانهم يأتون رأساً من كارتهم ويقفون في الجنوب والى يسارهم الراية الزرقاء فالراية الخضراء فالراية الحمراء في أقصى الشمال ويقف الأمراء على خيلهم كل عند رايته في الصف الاول ويقف يعقوب والخليفة علي ودحلو والخليفة شريف كل على جواده عند رايته العامة بارزين عن الصف الاول . ثم يأمر الخليفة فتضرب الامبايه فيخرج جيش الملازمية ببنادقهم يتقدمهم شيخ الدين على جواده ويتبعه الارباع الستة عشر ربعاً ربعاً صفوفاً متوالية في كل صف من ٦ : ١٢ رجلا وأمام كل ربع رايته وأميره وفرسانه والبوري والطرنبية . ثم يأتي وراءهم الخليفة بقلعته فيحيط به ملازموه الاخصاء بالبنادق صفوفاً اربعة من الجهات الاربع أمامهم البلطجية ومن ورائهم المتشمرون ثم جوق البيدو والصفّار والفروع الحربية . وفي ساقة القلعة وعن جانبيها الخشخانجية وفي وسطها الخليفة على جمل او جواد فاذا

ركب الجمل قاده محمد بشير كرار العبادي وهو رجل طويل القامة كبير الهامة ومشى عن جانبيه جوادان مسرجان وحمار مسرج ومن امامه جوق الامباية ومن خلفه اصحاب النفير العسكري لتبويق الوقوف او المسير وخلف هؤلاء خدمه الخصوصيون من الاحباش وغيرهم يحملون له ركوة الوضوء وسعن الماء وأدوات التزيين وفروة الصلاة والنعال والكبس والطبائق والرمح الذي يتوكأ عليه . ويسير الموكب الى ان يصل اول جيش الملازمية عند منزل الخليفة في محل العرضة فيقف صفوفاً متوالية متجهاً نحو الشمال على زاوية قائمة مع صف الرايات ؟ فيمر الخليفة بقلعته من امامه الى ان يأتي المنزل فيحيط به ملازموه ثم يخرج من بينهم مع نفر قليل فيمر بالرايات مبتدئاً من جيش الكارة الى ان يأتي على آخر الجيش . وقد يقف في مروره عند امير فيخاطبه قائلا السلام عليك يا فلان طيبين يا الاخوان الله يوديكم البركة يا انصار الدين الله يوديكم العافية يا الاخوان . هذا والأمير ورجاله يؤمنون على دعائه . ثم يرجع الى منزله فيستريح قليلا ويأمر الأمراء فيشيعون الرايات الى بيت الأمانة ثم ينصرفون الى اماكنهم ويرجع اصحاب الخيل منهم الى ساحة العرضة لتشييع الخليفة الى منزله . ثم يأمر جيش الملازمية فيرجع الى السور براياته ويعود بقلعته على نحو ما جاء ووراءه الفرسان الى ان يصل منزله فيدعو لهم فيؤمنون وينصرفون .

ماليته : سار الخليفة على خطة سيده المهدي فجمع الزكاة والعشور والغنائم في بيت المال وأنفق منها على الجيش. لكنه لم يبق بيت المال واحداً كما كان في زمن المهدي بل فرّع منه بيت مال الملازمية وخصص له ريع الجزيرة وبيت مال ورشة الحربية والترسانة وخصص له ريع جنائن الخرطوم والسواقي التي حواليها والسن الوارد من خط الاستواء . وفرز مال الخمس عن بيت المال وأضاف اليه مال الفيء كإيراد المشاريع والمراكب وأراضي الغنيمة والغابات والسن والريش وثلث الصمغ وعشور البضائع وجعل لها بيت مال خاص سماه بيت مال الخمس والفيء وعهد به الى محمد بشير كرار العبادي

وأنفق منه على بيته وأخصائه . وجعل لكل عمالة بيت مال ينفق منـه على أنصار العمالة ومـا فضل يرسل الى بيت المال العـام في ام درمان مع حساب الدخل والخرج بالدقة كل شهر . ولم ينفق من بيت المال العام إلا على عمـال مصالحه المتنوعة والكتاب والخليفة ود حلو ونساء المهدي وأما المجاهدون أولاد العرب فقد كانوا يعولون انفسهم إلا اذا أرسلوا لغزو او لحرب فانـه كان ينفق على ترحيلهم . ثم ان الجباة الذين ارسلهم لجمع الزكاة والعشور لم يكتفوا بما فرضه الشرع بل فاقوا الباشبوزق في الظلم فعلت الشكوى وعمت البلوى . وكثيراً ما شكى الخليفة من فراغ خزينة بيت المال وأخذ المال من التجار على سبيل السلفة بحجة إعالة الجيش ولكن المشهور انه لم يفعل ذلك إلا قصد ابتزاز أموال الأغنياء ليضعفهم ويتقوى بمالهم . وقد قيل انـه كان يخزن المال في أجربة من جلد وصناديق الجبخانة ويطمرها داخل منزله فلمـا فتحنا ام درمان فتشنا عن المال فلم نجد إلا النذر اليسير جداً كما سيجيء. أما أمناء بيت المال العام فهم :

احمد سليمان سنة ١٣٠٠ : ١٣٠٢ هـ . وابراهيم عدلان سنة ٢ : ١٣٠٧هـ. والنور الجريفاوي سنة ٧ : ١٣١٠هـ . والعوض المرضي المرة الاولى سنة ١٠: ١٣١٤ هـ . وابراهيم رمضان الاسواني سنة ١٤ : ١٣١٥ هـ . والعوض المرضي المرة الثانية ثلاثـة أشهر والحج احمد ياسين النيلة سنة ١٣١٥ هـ فبقي الى فتح ام درمان .

الزراعة : أما الزراعة فقد كان الخليفة يجهل أهميتها حتى كانت مجاعـة سنة ١٣٠٦ هـ فتنبه لها وحث العمال على تنشيطها .

الصناعة : وأما الصناعة فقـد أحيا منها صنع الأسلحة والذخيرة وأبقى على الترسانة لاصلاح الوابورات وعلى خط التلغراف بين الترسانة وام درمان وروّج صناعة المراكب وعمل الحراب وشاد معملاً للصابون في بيت المـال للانتفاع بريعه وأهمل ما سوى ذلك .

التجارة : وأما التجارة فانه لم يكن يودّ تنشيطها لكرهه مواصلة البلاد الأجنبية لكنه رأى ان أهم حاصلات بلاده كالصمغ والريش والسن اذا بقيت عنده ولم ترسل الى الخارج ذهبت سدى . وطمع بأخـذ العشور من البضائع الواردة الى السودان ففتح ابواب التجارة الى اسوان وسواكن ومصوع والحبشة ووداي ولكنه سد طريق الاربعين وطريق كوركسكو . وضرب العشور على البضائع في كوكزيب وبربر وكسلا والقلابات والفاشر وام درمان . واحتكر السن والريش كله لنفسه وأما الصمغ فقد أخذ من التجار ثلثه وأعطاهم الثلثين.

وهاك ما كتبه الى ابي عنجة في ٢٥ يوليو سنة ١٨٨٦ بشأن احتكار السن:

« حبيبي نقرئك السلام ونعرفك ان سن الفيل كانت سابقاً للكفرة وآلت بعد ذلك للمهدية وصارت حقاً لعموم المسلمين وحقهـا ان تحفظ من الضياع لذلك نحن قبلا لم نأذن في بيعها لأحد او التصرف فيها بدون اجازة منا . والآن أردنا حصرها في بيت المـال لينظر فيها فألقوا نظركم عليها وأينما وجدتموها اضبطوها وأرسلوا جميع ما عندكم منها ولا تبيعوا منه شيئاً وتحروا ما يحضر منها من جهات شكا وتولوا واضبطوه وأرسلوه الينا والسلام » اه .

وقد منع تصدير العبيد الذكور الى الخارج وبيعهم في داخل البلاد إلا الى بيت المال وذلك لمنع المدد عن جيش مصر وتنظيمهم في جيشه .

وبلغت قيمـة البضائع الصادرة الى السودان بطريقي اسوان وسواكن في سني ٢:١٨٩٨ نحو ٤٧٧٨٩٦ جنيهاً وقيمة البضائع الواردة منها نحو ٣٩٧٤٥١ جنيهـاً .

ضرب النقود : واستمر الخليفة على ضرب النقود كسيده المهدي ولكنه لم يضرب شيئاً من الذهب بل ضرب الريال وأجزاءه من الفضة والنحاس وأول ريال أصدره في ايام ود عدلان كتب على وجهه الواحد « ضرب في ام درمان سنة ١٣٠٤ هـ » وعلى الوجه الآخر « مقبول » فكان كالريال المجيدي بقطعه ووزنه وقيمته أي سبع دراهم فضة ودرهم نحاس وهو الريال الوحيد الحالي من

الغش . ففي ايام النور الجريفاوي اصدر ريالاً سمي « ابو صدر » فجعله ٤ دراهم فضة و ٤ دراهم نحاس وهكذا اخـذ ينقص من قيمته تدريجياً حتى صيّره سنة ١٣١٢ ﻫ سبعة دراهم كلها نحاس وليس فيه من الفضة إلا الطلاء فأطلق عليه التجار اسم « بزاجوزي » قيل أرادوا به « بداجوره » وقد رفعوا أسعار الأشياء بالنسبة الى نقص الريال ليحفظوا قيمتها الحقيقية . وقلد البعض عملة الخليفة فعاقبهم بقطع ايديهم وأرجلهم من خلاف . وراج في ايامه الريال المجيدي والريال ابو طيره والليرة الانكليزية .

العلم : وأما العلم فقد حاربه الخليفة جهده شأن الجاهل الغشوم وجمع العلماء كلهم في ام درمان وأذلهم ولم يسمح لهم بتعليم كتاب إلا القرآن ومنعهم تعليم تفسيره فساد الجهل في أيامه وفسدت الآداب العمومية وساءت الأحوال .

القضاء : اما القضاء فقد كان في ايامه اسماً بلا مسمّى فانه ابطل الأمناء والنواب الذين اقامهم المهدي وحصر القضاء كله في قاضي الاسلام وأعوانه الذين جعلهم طوع بنانه كما مر . وفي غرة رمضان سنة ١٣٠٣ ﻫ أصدر منشوراً الى انصاره كافة مفاده : « ان القضايا التي قبل وفاة المهدي سواء كانت جنائية او دمائية او مالية او غير ذلك يصير رفعها وعدم سماع شيء منها بالكلية ما عدا المستثنيات الاربعة المعلومة من منشورات المهدي وهي الدين والأمانة ومال اليتيم والحرية » . وأمر قضاته بالحكم في الدعاوي التي جدّت بعد وفاة المهدي بحسب كتاب الله وسنة رسوله ومنشورات المهدي هذا اذا وافقت غرضه فاذا علم ان الشريعة لا تساعده عليه اوعز الى قاضي الاسلام فانتحل مسوغاً وقضى له بما اراد فأصبحت ارادته هي الشريعة .

وقد أبقى على قصاص السارق والزاني ومنع الحج وشرب الدخان وقراءة الكتب إلا القرآن والمنشورات كما أمر المهدي .

ولم يكن يقبل شكاوى على ورق لأنه لم يكن يحسن القراءة كما مرّ فاذا أراد احد ان يرفع شكواه اليه ناداه وهو داخل الى الجامع : « يا خليفة

المهدي انا مظلوم » . فيقف ويسمع له ويحكم في الامر ولا يجسر احد ان يعارضه .

أما سجنه فهو عبارة عن حوش متسع محاط بسور حصين وفي وسطه بعض اكواخ من الحجر والطين كان يحشر الناس فيها بعضهم فوق بعض راسفين بالقيود . أما القيود التي استعملها فالمكتّية بالرجل والجنزير بالعنق واستخدم للقصاص المشانق والبربندي (الفلـّق) باليدين للنساء وبالرجلين للرجال .

سياسته الداخلية : قضى التعايشي السبع السنين الاولى من حكمه في مناوأة المعارضين له في الملك من الاشراف وغيرهم حتى خذلهم وأذلهم وأيد ملكه تأييداً قوياً . ثم لم يكتف بتأييد ملكه بل سعى سعياً حثيثاً لجعل هذا الملك وراثياً في نسله كما مر ولكن لما كانت المهدية التي هي حجته الوحيدة في الملك تنافي هذه الغاية وتقضي بجعل الملك من بعده للخليفة علي ود حلو ثم للخليفة شريف جعل همه تقوية نفسه وإضعاف كل ذي قوة في السودان من الخليفة علي ود حلو فنازلاً حتى لا يبقى في البلاد من يقوى على معارضته . فسلح ابنه البكر بجيش قوي من السود وغيرهم وجرّد الخليفة علي ودحلو من الاسلحة النارية كما مر وفرق عنه ما استطاع من جيشه وساس الاهلين بأخسّ مبادىء السياسة الداخلية فرفع أسفلهم على أعلاهم وفرق بينهم على حد قوله « فرّق تسدْ » . وقد أطلعت على كتاب منه الى عامله على دارفور عثمان آدم بتاريخ ٢ رجب سنة ١٣٠٢ للتفريق بين الحمر والرزيقات هذا هو بنصه :

« واعلم أيها المكرم إنا قد ألزمنا أخاكم احمد فضيل ان يحكم من جهة عربان الحمر ويشتغل بضربهم وتشتيتهم والحصول عليهم بأي وجه كان فليكن معلومكم ذلك . وانظروا على أي حالة الكيفية التي توقع العداوة والخلاف بين الرزيقات والحمر وافعلوها لأن في عداوتهم مساعدة في الحصول عليهم ومتى وصلت الجيوش اليهم وضربتهم فالهارب منهم لا يدخل دار الرزيقات لوقوع العداوة فاسعوا فيما ينفرهم بعضهم من بعض والله نرجو ان يأخذ بيدكم والسلام » اه .

وحكى لي من أثق به قال : كان بين محمد عمر البنّا من اهل رفاعة والعباس ابن الشيخ العبيد صداقة قديمة مشهورة ففي ذات يوم تشاحنا في مجلس الخليفة مشاحنة حادة وصدّ كل منهما عن الآخر حتى اشتهر الخصام بينهما كما اشتهر الود . قال الثقة : فلما كانت واقعة ام درمان وخرج الخليفة منها منهزماً قابلت محمد البنا فسألته عن سبب المشاحنة بينه وبين العباس معما هو مشهور بينهما من الصداقة والود قال : « احمد الله الذي أراحنا من هذا الطاغية فقد ساءه الود الذي بيننا فدعاني يوماً الى مجلسه الخاص وقال لي يا ود البنا أي شر فعلت للعباس حتى انه كلما جاءني رماك بوشايات لو أصغيت اليها لنفيتك او قتلتك فحاق بي مكر التعايشي وعجبت كيف ان العباس مع ما له عندي من الود يشي بي الى الخليفة فأخذتني الحدة وقلت والله يا سيدي خليفة المهدي ان العباس لكاذب في ما يقوله عني فاني خادم جنابك بتمام الولاء والاخلاص فقال لي التعايشي بارك الله فيك وجزاك خيراً . فانصرفت الى منزلي وأرسلت صديقاً لي الى العباس أعاتبه فلما جنّ الليل وأقفلت باب منزلي سمعت الباب يدق ففتحته فاذا بالعباس متنكر وبيده المصحف الشريف فسألني عما كان بيني وبين الخليفة فأخبرته فقال اعلم ايها الاخ ان هذا الماكر ساءه الود الذي بيننا فنوى تفريق كلمتنا ولقد طلبني اليوم قبل ان يطلبك وكلمني عنك بمثل ما كلمك عني ثم حلف لي العباس بذلك على المصحف فصدقته ومن ذلك الحين تعاهدنا فأبقينا الود في سرنا وتظاهرنا بالعداء فمكر بنا ومكرنا به والله خير الماكرين » .

وكان الخليفة كلما وفرت نعمة شخص او عظمت سطوته ولو انه من اعز انصاره الذين خدموه السنين الطوال بدمائهم واموالهم خشي على نفسه منه وترقب الفرص للايقاع به كما فعل بابراهيم عدلان والزاكي طمل والقاضي احمد وغيرهم .

هذا ولما احس بعدم ميل اهل النيل الى نصرته جردهم من سلاحهم واتى باهله البقارة من الغرب واسكنهم بينهم وسلطهم عليهم فأذلوهم حتى كانوا

لا يرون ثياباً نظيفة على احد إلا حاولوا نزعها عنه ولا يمرّون ببلد إلا دخلوا منازلها ونهبوها حتى قيل ان ظلمهم تناول محمد الخير المشهور فرفع الأمر الى عثمان الدكيم امير بربر فقال له : « أتكلمني في الدنيا الفانية يا محمد الخير ألم يقل المهدي « عم » الدنيا جيفة وطلابها كلاب » فانصرف وهو يحرق الارمّ على المهدية التي اوصلته الى هذه الحال . ومن اقوال البقارة المشهورة :

« التعايشة اولاد نبي الله عيسى. والجعلي ما أكثر حديثه والشايقية شرابين المريسه . والدناقلة أكالين الفطيسه واولاد الريف عين الكديسه » . وقالوا ود الريف شن جابه حربة وكوكاب (رمح مسنن) في جمابه .

ولما كثرت الشكاوى الى الخليفة من ظلم اهله أراد ذرّ الرماد في أعين الاهلين فأصدر منشور « منع الظلم » المشهور ومما جاء فيه :

« ... فيلزم ان تكونوا واقفين على قدم الاستقامة بامتثال أوامر الله واجتناب مناكره لا سيا ظلم العباد فان الله تعالى قد نهى عنه في محكم الكتاب وبيّن شؤم عاقبته في دار المآب . قال تعالى الا إن الظالمين في عذاب مقيم . وقال تعالى ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً . وقال انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الارض بغير الحق اولئك لهم عذاب أليم . وقال ألا لعنة الله على الظالمين. وقال وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا. وقال ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد اليهم طرفهم وأفئدتهم هواء . وقال رسوله ﷺ اتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة. وقال لا يحل لمسلم ان يأخذ عصا اخيه بغير طيب نفس منه . وقال ينادي منادي يوم القيامة أين الظلمة وأشياع الظلمة حتى من لاق لهم دواة او برى لهم قلماً فيجمعون في تابوت من حديد فيرمى بهم في جهنم ... الى غير ذلك من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الواردة في ذم الظلم والتحذير منه فكيف بعد ذلك يليق بالمؤمن وخصوصاً من كان بمثابتكم ممن رحمه الله وأكرمه بصحبة المهدي ان تحدثه نفسه بالإقدام على ظلم احد من المسلمين وأخذ حقه بغير وجه جايز عند رب العالمين . فيلزم ان

تكونوا واقفين مع حـدود الله وتلزموا طريق الاستقامة والاستعداد ليوم القيامة وتتباعدوا عن كل ما يجر سخط رب العالمين ويعطل نصرة الدين كالظلم والغل والحسد والكبر والعجب والرياء والتعـدي على حقوق العباد والجور في الأحكام والركون الى حب الدنيا . وغير ذلـك من الصفات الذميمة التي نهى الله عنها ... في ٦ ربيع الآخر سنة ١٣٠٦ » .

فصدق فيه قول الآية : « أتأمرون النـــاس بالبر وتنسون انفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون » .

سياسته الخارجية : هذا كان شأن الخليفة مع رعيته أما شأنه مع الدول المحيطة به فالعداء والحرب او يصدقدا المهدية ويخضعوا لسلطانه ! وقـد سد بلاده في وجـه جميع الاجانب لا سيا الاوربيين بل سد باب المفاوضة في أي بحث كان . وقـد ذكرنا ما كان له من الشأن مع مصر ووداي والتليان في الأرتريا ومع الحبشة في ايام الملك يوحنا .

الصلح مع الحبشة : ولما ارتقى الملك منيلك الى عرش الحبشة كتب اليه يدعوه الى التسليم ويحذره من تعدي الحدود ولما لم يجبه كتب اليه ثانيـة سنة ١٣٠٨ هـ بما نصه :

« وبعد فمن عبد ربه خليفة المهدي عليه السلام الخليفة عبد الله بن محمـد خليفة الصديق الى منيلك . نعلمك انا قـد كنا قبل هذا كاتبناك للدخول في الملة الاسلامية والانتظام في سلك اتبـاع المهدية رحمة بك وشفقة عليك وحباً لهدايتك وخوفاً عليك من الموت على ملة الكفار الذين مصيرهم الى النار وغضب الجبار وحذرناك عاقبة الخلاف والاعراض وقد مضت من عهد ذلك مدة وما أتانا منك رد عن المكاتبة التي حررناها اليك وما علمنا السبب في ذلـــك أفما وصلت اليك مكاتبتنا ام وصلت واخترت عـدم مجاوبتنا كما حصل من الهالك النقس يوحنا عظيم الحبش فانا قـد كاتبناه مراراً ودعوناه الى الاسلام جهاراً فاستكبر واستنكف حتى أهلكه الله تعالى على يد انصار الدين هو ومن معه

من الوزراء والمشركين وقطعت رؤوسهم وحملت الينا فكانت عبرة للمعتبرين وعظة للمتعظين . وغايـة الأمر انا قد ضربنا صفحاً عن جميع ما مضى منك ومن باب الشفقة عليك حررنا هـــذا ثانياً اليك بدعوتك الى الدخول في ملة الاسلام والانتظام في سلك أتباع المهدي والاذعان لحكمنا والعمل باشارتنا فان أجبت داعينا وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وحسن اسلامك والتزمت العمل باشارتنا وصرت من ضمن اتباع المهدية القائمين بأوامرها المرضية فاعلم انا سنقبلك ونجعلك اميراً من طرفنا على بلادك وتكون مكرماً لدينا وإلا فان أعرضت عن ذلك فذنبك عليك لكن يلزمك ان تكون واقفاً على حدودك ولا تتعدى حـــدود الاسلام وإلا فان تعديت الحدود فلا بد من مناجزتك الحرب ويكون عليك من الهلاك والدمار مثل ما كان على الهالـــك يوحنا لما طغى وبغى وتعدى الحدود وها قد أنذرناكم بهذا وفيه الكفاية لك والسلام على من اتبع الهدى في سنة ١٣٠٨ هـ » .

فلم يجبه منيلك على هـذا ايضاً ولكنه بعد انتصاره على التليان في عدوة كتب اليه بتاريخ ١١ يونيو سنة ١٨٩٦ بما نصه :

« غلب الاسد من طائفة يهوذا منيلك الثاني المجعول بارادة المولى ملك ملوك الايثيوبية – الى جنـــاب الخليفة عبد الله بن محمد . بعد مزيد السلام كيف حالكم اما انا فأشكر الله بخير وعافية واخبركم اني بعد حصول المحاربة بيننا وبين التليان بناحية مدينة عدوة غلبتهم باحسان البـاري وعدت الى مدينتي المحروسة بخير وسلام : واما باقي الكلام الذي اريـد ان ابلغكم اياه فالرسول الواصل صحبة هذا وهو الحاج احمد يخبركم به شفاهاً ودمتم . كتب بمدينة اديس أبابا في سنة ١٨٨٨ حبشية ٢٩ ذي الحجة سنة ١٣١٣ هـ ١١ يونيه سنة ١٨٩٦ م » . وكان جيش الحكومة اذ ذاك قـد زحف على دنقلة فكتب اليه الخليفة بعد البسملة :

« وبعد فمن عبد ربه خليفة المهدي عليه السلام الخليفة عبد الله بن محمـد

خليفة الصديق الى عظيم الحبش منيلك . نعلمك ان جوابك المحرر لنا في ٢٩ الحجة سنة ١٣١٣ صحبة رسولك الحاج احمد وصل بطرفنا وجميع ما تضمنه ذلك الجواب وحمله منك رسولك المذكور من الوصية فهمناه ونقول لـك أما ما اردته من انعقاد الصلح بيننا وبينك فليكن بعلمك اننا لا نريد دخول احد من الاوربيين في أية جهة من جهاتنـا الاسلامية لا بحرفة البيع والشراء ولا بصفة السياحة وليس بيننا وبينهم إلا الحرب فان كنت انت كذلك ومنعت جميع الاوربيين من الدخول في بلدك إلا بالحرب بحيث لا يكون بينك وبينهم علاقة او اتصال وعلى هذا الشرط ينعقد الصلح بيننا وبينك . فها نحن قـد أرسلنا لك سفيراً معتمداً من طرفنا اسمه محمد عثمان خالد مع رسولك حسب التماسك فان قبلت الشرط المذكور فاكتب لنا بذلك وابعث لنا مع سفيرنا المذكور مخصوصاً معتمداً من طرفك لانعقاد الصلح فيما بيننا وبينك على الوجه المرضي وعلى من اتبع الهدى السلام ٦ ربيع آخر سنة ١٣١٤ هـ ١٤ سبتمبر سنة ١٨٩٦ م .

فحمل محمدعثمان هذا الكتاب وأتى الى الملك منيلك في أديس أبابا فقال له منيلك أما الافرنج فـلا مداخلة لي معهم إلا بالتجارة التي منها النفع لبلادي وأعاده الى ام درمان مع رسول منه الى الخليفة لعقـد الصلح فقال الخليفة للرسول بلغ منيلك ان ود تور الجوري في جبال فازوغلي عاص عليّ فليؤدبه فأرسل منيلك جيشاً بقيادة راس مكونن الى فازوغلي سنة ١٨٩٧ فأوقع بود تور الجوري في واقعتين وامتلك بلاده وما زالت هـذه البلاد في يد الحبشة الى اليوم .

وبالاجمال فقـد كان التعايشي من الدهاة المحنكين الساهرين على حفظ ملكهم وتقويته وجعله وراثياً في نسله ولكن جهله بمبادئ ارتقاء الامم وطبع الاستبداد الذي فطر عليه شوّها ادارته وأفسدا تدبيره ونفرا اهل البلاد منه ومهدا السبيل للسردار احسن تمهيد .

الفصل الثامن

في

استرجاع الخرطوم وسائر السودان

استرجاع الخرطوم سنة ١٨٩٨ :

استعداد السردار للزحف على الخرطوم : وشرع السردار بعد واقعة الاتبرة في الاستعداد للزحف على الخرطوم وأم درمان فزاد عمال سكة الحديد ومدّها من ابي حمد الى الاتبرة ومد الى الاتبرة ايضاً خط التلغراف وشرع في مده من بربر الى سواكن وكان قد استلم كسلا من التليان كما مرّ فمد خطـاً تلغرافياً منها الى سواكن .

قوة جيش السردار : ورأى ان الجيش الذي حضر واقعـة الاتبرة لا يكفي لفتح امدرمان فاستنصر دولته فأنجدته بآلاي آخر مؤلف من ٤ اورط فأصبح جيشه مؤلفاً من القوات الآتية : ٤ اورط سواري انكليز و ٩ اورط سواري مصريين و ٨ بلوكات هجـانة وبطاريتين مـدافع انكليزية وخمس بطاريات مدافع مصرية والفرقة البيادة الانكليزية وفيهـا آلايان بثماني اورط والفرقة البيادة المصرية وفيها اربع آلايات بست عشرة اورطة . وجملة الجيش

نحو ٢٥ الفاً. ضم اليه نحو الفي رجل من العربان المتحابة من العبابدة والجعليين والجميعاب والمسلمية والشكرية والشائقية والبطاحين وغيرهم . وأحضر من بلاد الانكليز ثلاث مدرعات مثل التي احضرها لحملة دنقلة فبناها في العبيدية شمالي بربر وسماها بأسماء « السلطان والملك والشيخ » فأصبح عنده لحملة الخرطوم عشر مدرعات وهي:السلطان والملك والشيخ والفاتح والناصر والظافر وتماي والتيب وأبوطليح والمتمة . فغرق وابور الظافر عند شندي في ٢٨ اوغسطوس فبقي ٩ مدرعات . فحشد هذا الجيش كله في الاتبرة ثم في ودحامد شمالي شلال السبلوقة . وفي ١٤ اوغسطوس سنة ١٨٩٨ ألفت ادارة الجيش كما يأتي:

قومندان عموم القوة	الفريق السر هربرت كتشنر باشا (سردار) وياورانه الكبتن اللورد سسل والبكباشي وتسن
رئيس اركان حرب	اللوا رندل باشا
مدير قلم المخابرات	الميرالاي ونجت بك
مدير مساعد قلم المخابرات	اللوا سلاطين باشا
مدير مساعد قلم المخابرات	والماجور الشريف م. ج. تلبوت
مساعد ادجوتانت جنرال	الكبتن السر هـ. س. رولنصن
(للجيش الانكليزي)	والكبتن ي. ي. برنارد

حكيمباشي الجيش الانكليزي	الجراح الجنرال و. تيلر
حكيمباشي الجيش المصري	الميرالاي جلوي بك
حكيمباشي بيطري الجيش الانكليزي	الكبتن ج. ل. بلنكنسوب
حكيمباشي بيطري الجيش المصري	القائمقام جريفث بك

ادارة التعيينات	الكولونل ل. ا. هوب
(للجيش الانكليزي)	والماجور هـ. ج. مورغن
ادارة التعيينات	الميرالاي روجرس بك
(للجيش المصري)	والقائمقام دراج بك والبكباشي بلنت
مدير حملة النقل	الكولونل كتشنر

قومندان السواري الانكليزي	الكولونل ر. هـ. مارتن
قومندان السواري المصري	القائمقام برودود بك
قومندان الهجانة	القائمقام تدوي بك
قومندان الطوبجية	الكولونل س. ج. لونج

قومندان فرقة البيادة الانكليزية	الماجور جنرال جاتيكر
قومندان الآلاي الاول	الجنرال ووشب
قومندان الآلاي الثاني	الجنرال لتلتون

قومندان فرقة البيادة المصرية	اللواء هنتر باشا
قومندان الآلاي الاول (وفيه الاورط الـ٢ و٩ و١٠ و١١)	الميرالاي مكدونلد بك
قومندان الآلاي الثاني (وفيه الاورط الـ٨ و١٢ و١٣ و١٤)	الميراي مكسول بك
قومندان الآلاي الثالث (وفيه الاورط الـ٣ و٤ و٧ و١٥)	الميرالاي لويس بك
قومندان الآلاي الرابع (وفيه الاورط الـ١ و٥ و١٧ و١٨)	الميرالاي كولنسن بك
قومندان العمارة البحرية	القومندان كولن كبل
قومندان العربان المتحابة	الماجور ستيورت ورتلي

وفي ٢٤ اوغسطوس زحف السردار بالجيش من ودحامد الى جبل الرويان جنوبي شلال السبلوقة. وأمر الماجور ستيورت ورتلي قومندان العربان المتحابة فسار تجاهه في شرق النيل . وفي ٢٨ منه أبقى مستحفظاً من المؤن والذخائر واسبتالية حربية في جبل الرويان وسار بسائر الجيش طالباً ام درمان وكانت الوابورات تتقدمه في النيل وجمال الحملة تتعقبه في البر والعربان المتحابة تسير

في حذائه في الشرق فبات ليلته عند جبل الشيخ الطيب على نية الزحف بالبر والبحر على الخرطوم وأم درمان في الغد . وفي تلك الليلة أرسل الى التعايشي يتهدده بكتاب هذا نصه :

« من سردار الجيوش المصرية والانكليزية الى عبـد الله التعايشي زعيم السودان »

«اعلم ان شرورك في السودان ولا سيا قتلك الجم الغفير من نفوس المسلمين الابرياء أوجبت تقدمي بجيوشي الى هـذه البلاد لدك سلطتك وإراحة البلاد من شرك وبغيك . ولكن بـين جيوشك كثير مـن الاهلين الكارهين لك ولحكومتك ومن العواجز والنساء والاولاد الذين لا نريـد ان يلحقهم سوء فاعزل هؤلاء من ديمك الى مكان لا تصله القنابل والرصاص لئلا يقتلوا وتكون أنت المسئول عن دمائهم امام الله واثبت أنت وأشياعك فقط في ساحة القتال لتلاقوا النقمة التي أعدها الله لكم . وأما ان كنتم تودون التسليم حقنـاً للدماء فاعلموا اننـا نستقبل رسلكم استقبالاً حسناً ونعاملكم بالعدل والسلام في ١١ ربيع الآخر سنة ١٣١٦ هـ » اه ٣٠ اوغسطوس سنة ١٨٩٨ م . فجعلنا من هـذا الكتاب صورتين وعلقنا كل صورة في رأس عود وأرسلناهما مع عبد فغرز عوداً منهما قرب كرري والآخر في الطريق بين كرري وأم درمـان . أما الكتاب الذي وضع قرب كرري فقـد بقي الى ان تقدم الجيش ولقيه ضابط انكليزي فترجمه ونشره في جرائد بلاده وأما الكتاب الثاني فيظن انه وصل للخليفة ولكننا لم نر له جواباً .

استعداد الخليفة للدفاع : أما الخليفة فانه بعد واقعة الاتبرة تيقن ان الجيش زاحف عليه قريبـاً فجمع مجلس شوراه من التعايشة وغيرهم للنظر في الاستعداد للدفاع . قيل وكان من رأي يعقوب اخي الخليفة وسائر التعايشة الهجرة الى دارالغرب ولكنهم لم يجسروا ان يبدوا هذا الرأي للخليفة فحملوا الزاكي عثمان الذي حضر واقعة الاتبرة على القول به فلمـا انتظم المجلس سأل الخليفة كلا من الحضور عن رأيه حتى انتهى الى الزاكي عثمان فقـال : « اعلم

يا مولاي اننا لم ننس ما كنا عليه قبل ان خصك الله سبحانه بالخلافة فقدكان أعظم رجل منا يملك بقرة او بقرتين يرعاهما في البادية في النهار ويأتي بهما في المساء فيحلبهما فيشتري بنصف لبنها عيشاً يصنعه عصيدة ويجعل عليـه باقي اللبن مُلاحاً فيأكله هو وزوجته وأولاده ولكن من حين اجتماعنا بك أطعمتنا ما تأكله أنت وأكل اولادنا مما يأكله اولادك ولبس نساؤنا ممـا يلبسه نساؤك وصار كل من حضر في هذا المجلس كملك في بيته وفي الناس فليس بكثير علينا اذا نصرناك وفديناك بدمائنا ولكن يا مولاي اذا هوى قصرك هذا علينا في هـذه الساعة فما الذي نفعله بحكم السليقة والطبع أنقف حتى يسقط علينـا ويهلكنا أم نفر من وجه الخطر . وأنا أؤكد لمولاي ان الجيش الذي حاربنا في الاتبرة لا طاقة لنا على حربه هنا فاذا وقفنا له تغلب علينـا وأهلكنا لا محالة . وأم درمان ليست بلادنا حتى نقف فيها وندافع عنها فالأولى بنـا أن نأخذ رجالنا وأسلحتنا ونرحل الى كردوفان فـاذا لحقنا جيش الحكومة اليها وهو لا يفعل ذلك إلا بعد استعداد كثير وزمن طويل هجرناها الى شكا وهي دارنا فاذا جاءنا اليها قاتلناه ودافعنا عن وطننا حتى انتصرنا او متنا» . فاحتدم الخليفة غيظاً من هذا الرأي لأنـه لم يكن يطيق الخروج من مركز ملكه وعزه وقال لمن عن يمين الزاكي « شيّله ام آذان » أي الطمه كفاً على وجهـه ففعل ثم قال لمن عن شماله وأنت ايضاً شيّله ام آذان ففعل ثم امر فجرّوه الى السجن وكبلوه بالحديـد . وقال الخليفة : يا سبحان الله يستقبح عبدالله ودسعد الفرار ويقاوم جيشاً ضخماً كجيش محمود بثلاثمائة رجل لأجل حلة واحدة ونحن رجـال المهدية وأنصارها العديدين نجبن عن حرب جيش الكفرة المخذول لأجل السودان كله فـأنا أحارب حتى انتصر او يقتل جيشي كله فأجلس اذ ذاك على فروتي عند قبة المهدي وأسلم أمري الى الله . فنكس جميع اهل المجلس رؤوسهم ولم يجسر احد ان يجيبه بكلمة. ثم تشفع شيخ الدين بالزاكي فأخرجه من السجن وألحقه بيعقوب فبقي الى ان مات معه في واقعة أم درمان كما سيجيء .

طوابي الخليفة ومدافعه وطوبجيته : وشرع الخليفة في حشد الجيوش في ام درمان والاستعداد للدفاع وكان من أهم ما شغله وابورات الجيش وقد أعد لمقاومتها ١٧ طابية طابيتين في الخرطوم واحدة عند المقرن وأخرى عند السراي وطابيتين في البر الشرقي جنوبي الحلفاية واحدة في الصبابي وواحدة في شمبات واثنتين في جزيرة توتي و ١١ طابية في ام درمان . وكان قد بنى سبع طواب في مضيق السبلوكة ولكن اضطر الى اخلائها لجمع رجاله حوله من جهة ولعدم مقدرته على امدادها بالمؤن والذخائر من جهة اخرى . وكان عنده من المدافع ٦٣ مر" تفصيلها فكان منها اثنان في الترسانة بقصد تصليحها وثمانية في بيت الأمانة غير قابلة التصلح و ١٩ مدفعاً معدة لساحة القتال والباقي وهو ٣٤ مدفعاً موزعة على الطوابي السبع عشرة وكلها بعهدة ١٥٢ رجلا من الطوبجية المصريين الذين كانوا في الأسر وعليهم رؤساء من التعايشة. وقد كان لكل طابية جناحان مفتوح بها المزاغل وعليها نفر من الأنصار المسلحين بالبنادق .

ألغام الخليفة : ومما استنبطه الخليفة لمقاومة وابورات الجيش الألغام فانه أمر رجلا مغربياً من عمال الترسانة يدعى منوّراً فصنع له لغماً من البارود في اسطوانة كبيرة من حديد أتى بها من معمل النيلة القديم في الكاملين وجعل للغم ديكاً يرمي على كبسولة متصلة بالبارود وحمل اللغم في مركب جرّه وابور الاسماعيلية وأتى به الى وسط النيل تجاه خور شمبات لينصبه للوابورات فأفلت الديك من يده سهواً على الكبسول فانفجر اللغم وحطم المركب والوابور تحطيماً وقتل جماعة من البحارة والعمال وفيهم منوّر نفسه . ثم أمر الخليفة عمال الترسانة ان يصنعوا ألغاماً اخرى فلم يفلحوا .

وابورات الخليفة : هذا وكان وابور محمد علي الملقب كاو كاو والفاشر المعروف عندهم بالمنصورة قد غرقا في السد. وشبين والمسلمية قد عتقا وتعطلا. وأرسل الصافية الى فاشودة لمحاربة البيض كما سيجيء فلم يكن في ام درمان

سوى بوردين والتوفيقية ومعها ٥١٩ مركباً فخبأها الخليفة في خور لأنها لم تكن تصلح للدفاع وبقي كل اعتماده في مقاومة الوابورات على طوابي شرقي النيل وتوتي والخرطوم وام درمان .

العربان المتحابة وفتح شرق الخرطوم : وفي فجر اول سبتمبر زحف السردار بالجيش والوابورات والعربان المتحابة قاصداً ام درمان حتى تجاوز جبل كرري عند الظهر فوقف بالجيش في مكان يدعى العجيجة على نحو ٨ اميال من ام درمان . وكان قد اصدر امره الى الوابورات والعربان المتحابة في الشرق لمقاومة طوابي العدوّ في الشرق والغرب والخرطوم . وقد تقدم ان في الشرق بين الحلفاية والخرطوم طابيتين شمبات والصبابي فسار الماجور ستيورت حتى أتى بلدة شمبات فوجدها خالية وعلم ان في طابيتها التي على شاطىء النيل على نحو ميل منها أميراً من الجعليين يدعى محمد ود فايت ومعه عشرون رجلا من اهله وبعض الطوبجية المصريين ومدفع واحد وان في طابية الصبابي على ربع ساعة منها اميراً من التعايشة يدعى غالي جودة ومعه ٢٠ رجلا من البقارة والجهادية وبعض الطوبجية المصريين وان في بلدة الصبابي نفسها اميراً من التعايشة يدعى عيسى زكريا معه نحو ٣٠٠ رجل من اخلاط العربان ومعهم كتيبة من الفرسان التعايشة . فأمر الماجور ستيورت الشيخ ابراهيم ود فرح كبير الجعليين بأخذ طابيتي الصبابي وشمبات وأمر ميسرة بن الزبير باشا كبير الجميعاب والطاهر العبيد (الذي وقع اسيراً في فركة) كبير المسلمية بمهاجمة بلدة الصبابي من الجنوب وهاجمها هو بالعبابدة وعليهم عبدالعظيم بك من الشمال تاركاً العربان المسلحين بالحراب والسيوف في شمبات. فزحف الشيخ ابراهيم على طابية شمبات وارسل الأمان الى اميرها فسلم له ثم تقدم الى طابية الصبابي فأخذها عنوة وانقلب على بلدة الصبابي لنجدة الماجور ستيورت . وقبل وصوله اليها اغار فرسان الدراويش على الماجور ستيورت فانهزم العبابدة امامهم وكان مع الماجور ستيورت ابن للجنرال ود فثبت للفرسان ورماهم بمسدسه فجندل فارساً منهم وصاح الماجور ستيورت بالعبابدة فثبتوا وصوبوا

نيرانهم على الفرسان . ووصل في هـذه الأثناء الشيخ ابراهيم لنجدتهم فرأى فرسان العدو انهم اصبحوا بين قوتين فانقلبوا راجعين الى الصبابي . وكان عيسى زكريا قد تحصن برجاله في بيت من بيوت البـلدة فأطبق عليه ميسرة الزبير والطاهر العبيـــد من الجنوب والشيخ ابراهيم من الغرب وعبد العظيم والعبابدة من الشمال فقتلوه هو ومعظم رجاله وكانت خسارة العربان المتحابة في هذا الهجوم ١١ قتيلاً و ١٨ جريحاً وأما خسارة الدراويش فقـد قُدرت بنحو ٢٠٠ رجل . وحضر هـذه الواقعة طنوس افنـدي شحادة من موظفي مخابرات الحدود فأظهر فيهـا من البسالة والدربة مـــا أطلق لسان الماجور ستيورت بالثناء عليه. ولما تم للماجور المذكور فتح الشرق انضم الى الوابورات وكان الوقت الظهر .

الوابورات وفتح توتي والخرطوم : وأما الوابورات فكانت في أثنـاء القتـــال في الشرق تساعد العربان المتحابة برمي القنابل على طابيتي شمبات والصبـابي . ثم انقلبت على طابيتي توتي حتى اسكتتها وتقدمت الى الخرطوم فأخذتها عند العصر .

رمي ام درمان بالقنابل : هذا وكان مع الوابورات بطارية من البطاريات الانكليزية المعروفة بالهويتزرس فلمـــا اخذت طابيتا شمبات والصبابي نزلت البطارية الى البر الشرقي وصوبت قنابلها على ام درمان . وبعد اخذ الخرطوم وتوتي انضم اليهـا الوابورات فخرّبت في ام درمان واسوارها وكانت طوابي ام درمان تجيب نيرانها إلا انها لم تحسن الضرب فلم تصبها بأقل ضرر . وكان الهويتزرس قد صوبت بعض القنابل على قبـــة المهدي ففتحت في قمتها ثغرة كبيرة فذعر الناس من ذلك . قيل وصاح الخليفة ويلاه من نار الكفرة فقـد هشموا قبة المهدي ولم يخافوا الله . وفي المساء جـاء ضابط من ضباط البحرية وأخبر السردار بما كان من فتح الشرق وتوتي والخرطوم فاطمأن قلبـه وتفرغ للخليفة وأم درمان .

واقعة ام درمان الجمعة في ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨ :

خروج الخليفة لمقاومة السردار : وكان الخليفة قد أنفذ الامير عبدالباقي من اهله ليراقب حركات الجيش فأقام في وادي بشارة حتى زحف الجيش من الاتبرة فرجع الى شلال السبلوقة وصار كلما تقدم الجيش جنوباً يتقهقر امامه ويرسل بخبره الى الخليفة حتى دخل ام درمان الاربعاء مساء . وكان الخليفـة لما علم بخروج الجيش من جبل الرويان الاربعاء صباحاً في ٣١ اوغسطوس سنة ١٨٩٨ خرج بجميع جيوشه من المدينة الى ساحة العرضة غربيها . وكان عدد جيوشه ٥١٧٨٩ مقـــاتلا فيهم ٨٦ اميراً و ٥٤٩٥ فارساً و ١٤٣٠٠ راجلا مسلحين بالبنادق الرمنتون وغيرهـا والباقون مسلحون بالسيوف والحراب كما بيناه قبل . ويوم الخميس في ١ سبتمبر عند الضحى زحف الخليفة من ساحـة العرضة لمقـــابلة جيش السردار على الترتيب الآتي : جيش الملازمية الجديد وجيش الكاره وجيش الخليفة علي ودحلو في صف واحد في المقدمـة وجيش يعقوب ومعه جيوش الخليفة شريف وعثمان ازرق وعثمان دقنة في السـاقـــة والخليفة في وسط حرسه الخصوصي بينهما . وكان السردار عند وصوله الظهر الى العجيجة قد صعد هو وأركان حربه الى اكمة على نحو ٨٠٠ يرد من البلدة في طريق امدرمان تعرف بجبل صرغام فرأى جيوش الخليفة على ثلاثة اميال من الاكمة تموج في عرض ذلك البر كأنها بحر عجاج فظن ان الخليفة يهاجمه في ذلك اليوم فرجع للحال عن الاكمة وأخذ يستعد لملاقاته فصف العسـاكر حول البلدة على هيئة نصف دائرة طرفاها يمسان النيل — الجيش المصري الى اليمين والجيش الانكليزي الى اليسار — وجعل الحمـلة في الوسط والوابورات تحمي ظهرنا في النيل . فأقـام الجيش الانكليزي زريبة من شوك للتترس بهـا وأما الجيش المصري فلما لم يجد الشوك في جهته حفر خندقاً وتترس به . وكان بيننا وبين الخليفة سهل فسيح جـداً في وسطه الى اليسار جبل صرغام الذي كان يحجب جيش الخليفة عنا وبين الجبل والنيل الطريق الى ام درمان والى يميننا جبل كرري الذي يمتد من النيل الى مسافة بعيـدة في الصحراء . وفي

الساعة الثانية بعد الظهر عاد كشافة الجيش وأخبروا ان الخليفة وقف بجيشه عند خور شمبات . ثم جاءت الانباء انه ينوي الهجوم ليلا . ولما لم يكن الهجوم ليلا من مصلحة الجيش ارسل قلم المخابرات الجواسيس من اهل العجيجة فنشروا الخبر في معسكر الخليفة ان الجيش يستعد لمهاجمتهم قبل دخول الليل وذلك ليشغلهم بالاستعداد للدفاع عن الهجوم . على ان الخليفة لم يقرّ على مهاجمة الجيش ليلا لأنه كان على يقين ان الجيش مستعد للقائه أي وقت جاءه وأن عنده الانوار الكشافة فيلقي بها على جيشه فيحاربه وهو يرى ولا يُرى . ثم انه لم يكن واثقاً من ولاء جميع رجاله وثباتهم معه الى النهاية فخاف انه اذا أمرهم بالهجوم ليلا ان يتستروا بالظلام ويفروا فيفشلوا فعقد مجلساً من أخصاء اهل مشورته وأقروا على تأجيل الهجوم الى الصباح .

ولما كان فجر الجمعة في ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨ صلى الخليفة الصبح وتقدم بجيوشه مهاجماً الزريبة حتى بلغ جبل صرغام فتوارى به وجعل الجعليين والشايقية والدناقلة شرقي الجبل الى النيل وقال لهم أنتم العباسية نصرة الدين فسدّوا هذا الثغر . وجعل عثمان دقنة وعبد الباقي عبد الوكيل ومساعد قيدوم في صف آخر وراءهم لنجدتهم ومنعهم من الفرار . وجعل جيش الكارة بقيادة ابراهيم الخليل غربي الجبل والى يساره جيش الملازمية بقيادة ابنه عثمان شيخ الدين وكان شيخ الدين نفسه في وسط قلعة من ملازمية تنيف على ٤٠٠٠ مقاتل وراء الصفوف بعيداً عن مرمى القنابل والى يسار جيش الملازمية جيش الخليفة علي ود حلو وبقي يعقوب اخو الخليفة بالراية الزرقاء وراء الجميع .

الهجوم الاول : ولما كانت الساعة ٦ والدقيقة ٤٠ سمعنا اصوات التهليل والتكبير الى الزريبة فعلمنا ان جيوش الخليفة تهاجمنا ولم يمض إلا بضع دقائق حتى رأيناهم مهاجمين في هيئة هلال متسع على نحو ٢٥٠٠ يرد منا . وكان السردار قد أعد جيشه منذ الساعة ٤ قبل الفجر وبدأت الوابورات ترمي قنابلها على ام درمان منذ الساعة ٥ والدقيقة ٢٠ فما اطل الدراويش حتى تلقاهم طوبجية الزريبة بالقنابل فلم يبالوا بها وما زالوا مهاجمين حتى صاروا

على نحو ١٢٠٠ يرد من الزريبة فبدأ الجيش باطلاق البنادق ومدافع مكسيم . وقد هاجم الدراويش اولاً ميسرة الزريبة ثم قلبها ثم ميمنها فاشتعلت النيران من كل أنحائها وأنجدتها الوابورات في النيل بمدافعها من اليمين والشمال فكان لأصوات البنادق والمدافع في البر والبحر من الجيش والعدو دويّ لا يعبر عنه بالقلم . وكنت اذ ذاك على هضبة عالية وسط الزريبة تُشرف ساحة القتال من كل الجهات فكنت أرى الدراويش فرساناً ومشاة يسقطون صفاً وراء صف امام نيران الجيش الحاصدة وهم يتلقونها بقلوب لا تهاب الموت حتى رأوا انه يستحيل عليهم اختراق هذه النيران الى الزريبة فنكصوا عنها بعد ان فقدوا اعظم ابطالهم وأعزّ رجالهم .. أما الجعليون والشايقية والدناقلة الذين هاجموا ميسرة الزريبة فما لبثوا بعد ان حمي الوطيس ان انقلبوا راجعين الى ام درمان لأنهم سيقوا الى ساحة الوغى بالرغم . وأما جيش الكارة الذين هاجموا قلب الزريبة فانهم كرّوا مستبسلين حتى صار بعضهم على نحو ٥٠٠ يرد منا فكمنوا في منخفض من الارض تجاه الجيش الانكليزي وصوبوا رصاصهم عليه فقتلوا وجرحوا وكان في جملة القتلى ضابط انكليزي وعدة عساكر ومن الجرحى المستر وليمس مكاتب الدالي كرونكل والكولونيل رودس (اخو المستر سسل رودس الشهير) مكاتب التيمس فصوب الطوبجية الانكليز قنابل مدافع الميدان عليهم فنكلوا بهم واضطروهم الى الفرار وبقي جيش الكارة يجاهد محاولاً اختراق الزريبة حتى قتل قائدهم ابراهيم الخليل فحملوه الى الخليفة فأمرهم ان يذهبوا به الى ام درمان ويدفنوه هناك ففعلوا . وأما شيخ الدين فانه بقي في وسط حرسه الخاص بعيداً عن مرمى القنابل وقسم جيشه قسمين قسماً هاجم قلب الزريبة مع جيش الكارة فخذل معه وقسماً انضم الى الراية الخضراء فهاجموا السواري والطوبجية في ميمنة الزريبة على جبل كرري وقتلوا منهم ودحروهم الى النيل وغنموا مدفعاً من مدافعهم ولكن لم يكن إلا القليل حتى أسرعت الوابورات الى نجدتهم وأنجدهم ايضاً عساكر الميمنة فأكثروا من القتل في الأعداء وهزموهم شر هزيمة واسترجع السواري مدفعهم . وما كانت الساعة

٨ والدقيقة ٣٠ حتى انجلى الدراويش عن ساحة القتال .

هجوم السواري الانكليزي: وكان الخليفة اذ ذاك لم يزل في مركزه وراء جبل صرغام واخوه يعقوب وراءه وعثمان دقنة عن يمينه الى جهة النيل وعثمان شيخ الدين بقلعته في أقصى جبل كرري وبقربه جيش الخليفة علي ود حلو وجميعهم متوارون عن نظر الجيش فظن السردار انهم تركوا القتال وانهزموا الى ام درمان فأرسل السواري الانكليز (اورطة اللانسرس الحادية والعشرين) في الطريق التي بين جبل صرغام والنيل لقطع طريق العدو ثم شكل الجيش مربعات جاعلاً كل لواء مربعاً وسار في أثر السواري « بهيئة تدريجله » .

هجوم السواري الانكليز : ولكن ما انتهى السواري الى منحدر الجبل الجنوبي حتى هبّ عثمان دقنة من كمينه وأشعل فيهم النار وذلك في الساعة ٩ والدقيقة ٣٠ وكانوا اذ ذاك على مقربة منه فلم يكن لهم بدّ من اختراق صفوفه فبذلوا في شواكل خيلهم المهاميز وأطلقوا لها الأعنة واندفعوا على الصفوف فتلقتهم بالسيوف والحراب فجاهدوا جهاد الأبطال المدربين حتى اخترقوا الصفوف واتخذوا لهم مكاناً على ٤٠٠ يرد منهم حيث ترجلوا وأصلوهم ناراً لم يطيقوها فانهزموا غرباً الى الراية الزرقاء وعاد السواري الى الجيش وقد فقدوا ٢١ قتيلاً فيهم اللفتننت غرنفيل و ٤٩ جريحاً وقتل وجرح من خيلهم ١١٩ .

الهجوم الثاني : وفي أثناء ذلك كان السردار يتقدم نحو ام درمان بالألوية الخمسة فما وصل منحدر جبل صرغام الشرقي حتى جاءه الخبر بأن الخليفة لا يزال مقيماً بأنصاره غربي الجبل فأصدر امره في الحال بتغيير السير واتجاه الجيش الى اليمين وكان الخليفة قد أصدر امره لأخيه يعقوب صاحب الراية الزرقاء (السوداء) فحمل الجيش حملة صادقة وكان هجومه على لواء مكدونلد فتصدى له هذا القائد الباسل وأسعفه قواده المدربين الميرالايات وولتر وناسون وجكسن قومندانات الاورط التاسعة والعاشرة والحادية عشرة السودانية فدرّبوا جنودهم أحسن تدريب وصدوا هجمات العدو المرة بعد المرة وما زال

رجال يعقوب يكرون على اللواءين طالبين اختراق صفوفه او الموت ونيران اللواء تنكل بهم تنكيلاً حتى تراكمت جثث القتلى كالربى وقتل يعقوب نفسه وخذل جيشه . وكان الخليفة قد أرسل حرسه الخاص بقيادة بخيت جاموس لنجدة اخيه يعقوب فأصابه ما اصاب يعقوب .

الهجوم الثالث : ولكن لم ينته اللواء من هذين الجيشين حتى كان جيش الراية الخضراء قد أقبل عليه من الغرب وهاجم من عن اليمين فاتجه اللواء نحوه وصبّ عليه نيرانه وصدّ هجماته المتتابعة وجندل ابطاله وهزمه أقبح هزيمة . وكان السردار قد ارسل لواء ووشب الانكليزي لنجدة مكدونلد فلم يكد يصل اليه حتى كان قد أتمّ عمله . وأمر لواء مكسول ولواء لتلتون فأخذا جبل صرغام ثم دارا الى الغرب ووجها نيرانهما على الفارين من رجال الراية الزرقاء ثم من رجال الراية الخضراء فأوغل هؤلاء في الفرار غرباً فتبعهم السواري والهجانة وقتلوا منهم وأسروا .

فرار الخليفة من ساحة القتال : أما الخليفة فانه ثبت في مكانه حتى انهزم جيش الراية الخضراء وعلم ان أخاه يعقوب قد مات فأيقن بالخذلان التام ولم ير باباً للنجاة سوى الفرار ففر مع بعض اصحابه وأخصائه وأرسل خبراً الى ابنه عثمان شيخ الدين بترك الحرب وموافاته الى ساحة العرضة غربي ام درمان ففعل .

احتلال الجيش لأم درمان : وفي الساعة ١١ والدقيقة ٣٠ أمر السردار بايقاف النيران وتقدم الى خور شمبات ومعه لواء مكسول ولواء لتلتون فاحتله الساعة ١٢ والدقيقة ٤٥ واستراح نحو ساعتين حتى تكامل الجيش في الخور ثم تقدم الى ام درمان ومعه اركان حربه وفيهم الميرالاي ونجت بك مدير المخابرات وسلاطين باشا مساعده ولواء مكسول وستة مدافع من الطوبجية الانكليز تخفق فوقه راية الجيش والراية الزرقاء التي غنمها من الواقعة ولما وصل ضواحي المدينة خرج اهلها الى جانبي الطريق فاستقبلوه بالترحيب والتأهيل

وعلت اصوات النساء بالزراغيت وما زال سائراً حتى وصل الزاوية الشمالية الغربية من السور فسأل عن الخليفة فقالوا انه داخل منزله فأرسل مدفعين وثلاث اورط من لواء مكسول فوقفوا غربي الجامع لقطع طريق الخليفة وتقدم هو بالاورطة الثالثة عشرة السودانية والاربعة مدافع الباقية للقبض عليه فدار حتى دخل من باب السور الشرقي الذي يفتح على النيل وأتى منزل الخليفة وفتش عنه فلم يجده .

فرار الخليفة من ام درمان : وكان الخليفة قد أتى من ساحة العرضة الى منزله ومعه ابنه وأخصاؤه وضرب النحاس والأمباية بقصد جمع الناس لمقاومة الجيش داخل السور فلم يجتمع عليه إلا القليل فرأى انه اذا بقي وقع في قبضة الجيش فأخذ نساءه ونساء المهدي وأركن الى الفرار جنوباً ومعه بضعة آلاف من الجهادية والعرب البقاره وفيهم: عثمان شيخ الدين ابنه وهارون محمد اخوه من أبيه والسنوسي احمد اخوه من امه والخليفة علي ود حلو والبشير عجب الفيه امير كنانة والخليفة شريف الذي تخلف عنه في الطريق وأتى مسلماً كما سيجيء والبشرى ابن المهدي صهره والفاضل ابن المهدي صهر الخليفة شريف والصديق ابن المهدي وعثمان دقنة وعبد القادر ام مريوم الذي تخلف عنه وأتى مسلماً بعد ايام ويونس الدكيم وعبد الباقي عبد الوكيل وحامد علي الذي كان في كسلا ويعقوب ابو زينب من أخص أقربائه وغيرهم . وبفراره اصبحت ام درمان بل السودان كله بيد السردار والى ذلك أشار نساء ام درمان بقولهن :

الليلة هاي قلبوها تركية   ود تورشين شرد رقدوا الملازمية

وكان فرار الخليفة قبل دخول السردار بساعة على انه بقي داخل السور بعض البقارة فرموا السردار وأركان حربه بالرصاص ولكن كان رصاصهم عالياً فلم يمسنا بضرر . ثم ان الطوبجية الذين جعلهم السردار عند باب الجامع الغربي لما سمعوا اطلاق النار من داخل السور ظنوا ان الخليفة لم يزل محاصراً

فيه فرموا بالقنابل الى داخل السور فوقعت قنبلة عند باب القبة حيث كان السردار وأركان حربه فأصابت الشريف هيوبورت هوّرد مكاتب النيويورك هارولد فقتلته فأسف عليه كل من عرفه . فأرسل السردار أمراً الى الطوبجية بإيقاف النار وخرج من السور فأتى الى السجن وكان فيه ٨٨ سجيناً بينهم ابراهيم باشا فوزي والمستر نوفل يرسفان بالقيود فأطلق سراحهما ووضع الخفراء على السجن وبيت الخليفة وبيت يعقوب وبيت شيخ الدين وبيت الامانة وبيت المال وغيرها من المحلات الشهيرة وبات ليلته بجميع الجيش غربي المدينة .

مطاردة الخليفة : وكان السردار حالما تحقق فرار الخليفة قد أرسل في أثره السواري والهجانة ومعهم سلاطين باشا في البر وأرسل مدرعتين في النيل فطارده السواري والهجانة مسافة ٣٠ ميلاً حتى أعيت ركائبهم ونفد زادهم وطارده الوابورات تسعين ميلاً جنوباً فلم يدركوه فعادوا كلهم الى امدرمان .

رفع الرايتين : ويوم الاحد في ٤ سبتمبر أي بعد الواقعة بيومين عبر السردار النيل الى الخرطوم فرفع الرايتين الانكليزية والمصرية معاً على خرائب السراي وأقام الصلاة عن نفس المرحوم غوردن. ومن هذا اليوم دخل السودان في عصر جديد فعرف باسم السودان الانكليزي المصري . وعرفت الواقعة بواقعة الخرطوم وواقعة ام درمان وواقعة كرري وهي اكبر واقعة رآها السودان منذ قام العالم ولقد أظهر السودانيون فيها من البسالة واحتقار الموت والاستهلاك في سبيل الغرض ما لا مزيد عليه .

جهاد الجيش : أما الجيش المصري الانكليزي فكل رجل فيه جاهد حق الجهاد واستحق أطيب الثناء وان خُصّ بعضهم بالمدح كلواء مكدونلد والسواري الانكليزي . وأما الموظفون الملكية الذين صحبوا هذا الجيش وشاركوه في الاتعاب والاخطار فاستحقوا الثناء فأهمهم : شاهين افندي جرجس الذي حضر واقعة الاتبرة وواقعة الجميزة من قبلها وابراهيم افندي دمتري وجورج افندي مظلوم وكلهم من موظفي المخابرات.. وخطار افندي

كنعان ومحمود افندي عباسي وحسن افندي حسني من موظفي السردارية .

القتلى والجرحى : وقد قتل في هذه الواقعة من الدراويش نحو عشرة آلاف رجل وجرح مثل ذلك وأكثر. وكان في جملة القتلى من الراية الزرقاء: الامير يعقوب ومحمد ابن المهدي صهر يعقوب وأب بسام تعايشي من اخصاء شورى يعقوب وعثمان الذكيم اخو يونس الدكيم ومحمد الزاكي وعثمان امير بربر وعثمان ازرق وحسين ودجزو الحمري واحمد حمدان العركي ومحمد بشارة امير دنقلة سابقاً وسليمان كشه تاجر الممنوعات . ومن جيش الكاره : ابراهيم الخليل امير الجيش ومحمد اسحق التعايشي وحامد صابون الرزيقي. ومن الراية الخضراء: عبدالله وداحمد ودابوسوار وكيل راية دغيم واحمد ودعبدالجليل ابن عم الخليفة علي ودحلو واحمد عبدالله برجوب امير ربع اللحويين واحمد ود المكي الدنقلاوي كاتب الراية .

أما خسارة الجيش فكانت ٤٩٠ قتيلاً وجريحاً من انكليز ومصريين . فالقتلى من الجيش الانكليزي ٣ ضباط و ٢٤ عسكرياً ومن الجيش المصري ضابطان و٢٧ عسكرياً وأما الجرحى فمن الجيش الانكليزي ٨ ضباط و١٢٥ عسكرياً ومن الجيش المصري ١٥ ضابطاً و ٢٨٦ عسكرياً .

وقد دفن قتلانا بالاكرام اللائق بهم . وسمح السردار لأهل المدينة فذهبوا الى محل الواقعة ودفنوا اقاربهم. وبعد الواقعة بأيام معدودة صعدت على جبل صرغام لمشاهدة محل الواقعة فاذا بالقتلى قد غطّت السهل من حوله على مدى النظر والنسور قد حامت فوقها أسراباً فملأت الجو وكان المشهد مما تنقبض له النفس اشد الانقباض ويوجب منتهى السخط على الحروب وأسبابها .

اوراق الخليفة : وفي ثاني يوم الواقعة عند الفجر أتى رسول بكتاب من الشيخ مدّثر ابراهيم الى الميرالاي ونجتبك مدير المخابرات يسأله الامان فذهب المدير الى بيت الشيخ مدّثر وأعطاه الامان وسأله عن كتب الخليفة وأوراقه فدله عليها وكان بعضها في منزله وبعضها في منزل الخليفة وكنت قد صحبت

المدير فشرعت في فرزها وجمعتها في عشرين عدلاً وأتيت بها الى مكتب المخابرات في مصر فاذا هي جامعة لأهم ما دار من الكتب بين الخليفة والمهدي من قبله وبين امرائهما وغيرهم في الجهات وقد تحققت منها بعض الوقائع التاريخية واستشهدت بها كثيراً في هذا الكتاب . وأعطانا الشيخ مدثر ختم الخليفة وأما ختم المهدي فقد عثر عليه بعض رجال الحملة ليلة الواقعة وباعه الى المستر كوك الشهير في مصر .

بيت الخليفة : ثم جلنا في بيت الخليفة فوجدناه فارغاً بعد ان كان مفروشاً بأفخر الاثاث والتحف السودانية إذ أن اهل المدينة وغيرهم قد نهبوه ليلة الواقعة ولم يبقوا فيه سوى كرسي كبير من خشب في القاعة المعدّة لجلوسه .

قبة المهدي وقبره وجثته : وخرجنا من بيت الخليفة الى قبة المهدي والجامع فاذا هما كما وصفناهما قبل إلا أن قنابل الجيش قد هشمت قمة القبة وجانباً من جوانبها العليا وفتحت فيها عدة ثغور . وأما قبر المهدي فقد كان محاطاً بدرابزون من النحاس إلا أنّ الرداء الذي كان يغطيه مأخوذ عنه . وفي ١٨ سبتمبر لغمت القبة فسقطت الى الارض ولم يبق قائماً منها إلا اركانها الاربعة . ونبش قبر المهدي وأخرجت جثته فحمل رأسه الى معرض التحف بلندن وبعثرت عظامه .

بيت يعقوب ومال الخليفة : ثم ذهبنا الى بيت يعقوب قرب بيت الخليفة حيث كان يظن ان مال الخليفة محفوظ فيه فوجدنا عدة مخازن ملأى بالمؤن والذخائر كالدرة والبن والقرب وسروج الجمال والجبب والسيوف والحراب والخوذ ونحوها وأتينا المخزن الذي كان يحفظ فيه المال فوجدنا بابه مخلوعاً والصناديق التي فيه فارغة وبينها صندوق صغير قيل كان فيه المجوهرات الكريمة التي غنمها الدراويش من الخرطوم والحبشة ولم نجد من المال سوى كيس من « خيش » فيه ٤٠٠ ريال مجيدي فسألنا الخفراء عن ذلك فقالوا

انهم منذ اتوا مساء الواقعة وجدوا الباب مخلوعاً وصدق قولهم بعض الاهـالي فقالوا ان بعض رجال يعقوب لما علموا بقتله اسرعوا الى منزله فخلعوا الباب وحملوا ما استطاعوا حمله من المال وفروا هاربين .

بيت الامانة : ثم ذهبنا الى بيت الامانة قرب بيت يعقوب فوجدنا مخازن كبيرة من البارود تحت الارض وأشياء شتى من التحف والمهمات الحربية بينها مدفع وعـدة صناديق جبخانة وخمس عربات كانت للحكمدارية والمرسلين الكاثوليك في الخرطوم ونحو ١٠٠ نقارة من نقاقير اهل البلاد جمعها الخليفة بعد استيلائه على الملك لكي يحصر السلطة كلها في يده ولا يكون في البلاد رأس يجمع للحرب غيره . وكان بينها نقارة كبيرة مكتوب عليها : « ملك السلطان بادي بن نول سنة ١١٦٧ هـ » وهو الملك السادس عشر من ملوك سنار الملقب بأبي شلوخ الذي اشتهر في حرب الحبشة وقد مر في تاريخ سنار. ونقارة الخليفة (المنصورة) موضوعة على دكة مرتفعة على شكل نصف دائرة عند مدخل باب البيت يصعد اليها بسلم كانت تضرب عند اجتماع رجـاله للعرضة . وفي احدى الغرف الكبيرة معرض للتحف والغنائم الحربية وقد جعلوا مـا غنموه من كل دولة على حدة فترى هناك غنائم من المصريين والأحباش والتليان والبلجيك والشلك وبين هذه الغنائم صندوق صغير عليه ورقة صغيرة مكتوب عليها هكذا : « هذا الصندوق داخله الاصناف الآتية ادناه المحضرة من بحر الجبل برفقة سعيد صغير في شهر ربيع آخر سنة ١٣١٤ هـ — نيشان . ميزان هوا . ختان . بوسطة ووقائع » ففتحت الصندوق فلم اجد فيه غير «البوسطة والوقائع» وهي جرائد افرنسية وتحارير خصوصية لبعض الضباط البلجيك من اقاربهم في اوربا .

والى شرق بيت الامانة بيت مال الحربية وفيه معمل الخرطوش والاسلحة الصغيرة وأما معمل البارود فقد كان في جزيرة توتي . وكان هناك اسدان كبيران نقلا الى حديقة الحيوانات بمصر .

بيت المال : ثم ذهبنا الى بيت المال فوجدنا فيه نحو ٢٠٠ قنطار من العاج أتي بها من خط الاستواء . ومحل الضربخانة وفيه ٨ قوالب « تمغة » العملة و ٣ صناديل و ٣ مرزبات و ١٥ سندالاً من سناديل الصياغ و ١٥ مطرقة حديد و ١٥ ماشة حديد و ١٥ نفاخ جلد و ٥ مبارد مثلثة لبرد العملة . ومطبعة الحجر التي غنموها من الخرطوم واستعملوها لطبع مناشير المهدي ورواتبه ثم لطبع مناشير الخليفة وكتب اخرى وأهم ما طبع فيها غير منشورات المهدي ورواتبه : رسالة حسن سعد العبادي ورسالة العوّام ورسالة الشيخ الحسين ابراهيم ولد الزهراء ومنشور منع الظلم للخليفة وكتاب الرحبية في الميراث وكتاب النصائح المرسلة الى الجهات البحرية ومنشور ترك الاسلحة النارية ودعوة رمضان والجزء الثاني من تاريخ فتوح الشام . أما منشورات المهدي فقد طبعت في جزئين ووزعت على الجهات .

سجن الخليفة : وبعـد الواقعة بأيام ذهبت الى السجن مع قدمندان ام درمان لانقاذ باقي المسجونين فاذا هو عبارة عن حوش متسع محاط بسور من الحجر وفي وسطه بعض الأكواخ من الطوب والطين وكان الباقي فيه من الـ ٨٨ سجيناً نحو ٤٠ رجلاً وكان بعضهم مقيداً بالمكاكي وبعضهم بالجنازير وبعضهم بلا قيد فأمر القومندان باطلاق سراحهم ففكوا قيودهم بالحجارة والعصيّ وهم يدعون للحكومة بالنصر والتأييد . وكان أهم من في السجن عدا ابراهيم باشا فوزي والمستر نوفل المار ذكرهما : الشيخ محمد شريف نور الدايم استاذ المهدي وقد سجن لعدم ولائه للخليفة والعوض المرضي وابراهيم رمضان لاتهامهما بمحاولة الفرار وابراهيم محمد حمزة لاتهامه بالمساعدة على انقاذ سلاطين باشا وحسن سرف ام كدوك كبير البرته لأنه علم بفرار سلاطين ولم يخبر به وبولص صليب من كتاب الحكومة في الخرطوم لأنه زوج ابنته لرجل من الأقباط بعد ان أمر بحفظها للخليفة وحمد محمد الملك من دنقلة لعدم ولائه لحكومة التعايشي .

أسرى الحكومة : وكان في ام درمان نحو ١٤٠٠ رجل من الموظفين الملكيين والضباط والعساكر النظامية والباشبوزق الذين وقعوا في أسر الدراويش وأهمهم عدا ابراهيم باشا فوزي: القائمقام محمد بك اسكندر والملازم يوسف افندي منصور والميرالاي النور بك محمد والقائمقام عثمان بك الدالي والقائمقام السيد بك جمعة والدكتور احمد افندي زكي من اطباء الخرطوم . ذلك ما عدا ٨٠٠عائلة من عيال الضباط والملكيين الذين توفوا في أثناء الحصار او بعد الأسر .. وكان فيها ٥٣ رجلا من التجار الأروام والتليان والشوام والارمن واليهود واكثرهم من الاروام وقد عرفوا بالمسلمانية كما مرّ وسكنوا حيّاً خاصاً بهم فكان انظف احياء المدينة واجملها وقد غرس البعض في دورهم الليمون البرتقال والحامض والحناء واهمهم : الخواجه يوسف الشيخاني اللبناني المشهور بالمروءة والوفاء ولين العريكة وجورجي اسطمبولية المار ذكره ونعوم عجبي الحلبي ومعهم الراهبة تريزة من راهبات المرسلين النمساويين في الابيض وقد أمرها الخليفة بالزواج فخافت اذا امتنعت عنه ان يزوجها رجلا من اهله فتزوجت بتاجر رومي مسيحي وبنت جورجي بك الحكيم الذي قتل في واقعة هكس وقد تزوّجت برجل رومي آخر فأرسل السردار جميع هؤلاء الأسرى الى مصر ... وكان في ام درمان من الاحباش الذين وقعوا في أسر التعايشي ٢٣٣ نفساً فأرسلهم السردار الى الحبشة عن طريق مصر ومصوع .

موظفو السودان «والماهيات» والتعويضات والرُّجع : وانهالت طلبات الاسرى وغيرهم من سكان السودان على المالية المصرية فمن طالب ماهيته في أثناء الثورة ومدة الأسر ومن طالب ديناً أسلفه للجيش مدة الحصار وذلك بموجب رُجع محفوظة في يده او مفقودة منه ومن طالب تعويضاً على ما فقده من الاموال بسبب الثورة فانقسمت طلباتهم الى ثلاثة أنواع : ماهيات ورُجع وتعويضات أما الماهيات فقد سعى السردار مع المالية فوزعت على الموظفين الملكية والعسكرية من باشبوزق ونظامية وعلى عيال المتوفين منهم ٢٩ الف

جنيه وذلك بنسبة ماهياتهم وسني خدمتهم وكفاءتهم. وأما الرُجع فقد وُزّع على أصحابها ٤٠ الف جنيه . وأما التعويضات فقد نظر في كل طلب على حدة وكوفيء المستحق منها .

حادثة مارشان واحتلال فاشودة في ١٩ سبتمبر سنة ١٨٩٨ :

مارشان في فاشودة : اتصل بنا قبل وصول الحملة الى ام درمان ان جيشاً من البيض جاء من الجنوب، فاحتل فاشودة وان الخليفة أرسل سرية من أنصاره في وابورين واحد عشر مركباً ومدفعاً بقيادة سعيد صغيّر الجعلي لطرده منها. فلما دخلنا ام درمان تأكدنا الخبر . وبعد الواقعة باسبوع أي في ٩ سبتمبر اقبل احد الوابورين «التوفيقية» وهو يظن انه يجد الخليفة فوجد السردار وقصّ عليه الخبر فقال : «وصلنا تجاه فاشودة صباح ٢٥ اوغسطوس فوجدنا البيض قد تحصنوا في طابيتين فرميناهم بالقنابل والرصاص فأجابونا بالرصاص ودام القتال الى قرب الغروب فقتل منا ٣١ رجلا وجرح ٦٠ ووجدنا ان لا قدرة لنا على حربهم فانثنينا عنهم الى الرنك وجئت بهذا الوابور لأخذ المدد». فشرع السردار في الاستعداد للزحف على فاشودة . وفي فجر اليوم التالي ١٠ سبتمبر خرج بخمسة وابورات حاملة بلوكاً من الكامرون هيلندرس وأورطتين سودانيتين وبطارية من الطوبجية المصرية ومعه اركان حربه الباسل الكولونيل ونجت مدير المخابرات العام وسار حتى اقبل على الرنك في ١٥ سبتمبر فتلقاه الدراويش بقنبلة من مدفعهم ففتح مدافعه عليهم فقتل منهم وأسر وكان في جملة الأسرى سعيد صغيّر امير السرية وغنم وابور «الصافية» واحدى عشر مركباً .

السردار في فاشودة : ثم استطرد السير جنوباً نحو فاشودة حتى صار على ١٢ ميلا منها فأرسل الى رئيس السرية الاوربية في فاشودة كتاباً بتاريخ ١٨ سبتمبر يخبره بما كان في امدرمان والرنك وانه واصل قريباً لاحتلال فاشودة. وفي صباح ١٩ سبتمبر استطرد السير الى فاشودة فالتقاه في الطريق زورق

عليه الراية الفرنساوية فعلم ان هؤلاء البيض هم فرنساويون ثم وصل الزورق وفيه بعض العساكر السود ومعهم كتاب من الموسيو مرشان الى السردار يهنئه بالنصر على الخليفة ويخبره ان حكومته اوعزت اليه فاحتل بحر الغزال الى مشرع الريك ثم جاء الى فاشودة فاحتلها في ١٠ يوليو وعقد معاهدة مع ملكها عبدالفضيل على ان يكون تحت حماية فرنسا ثم ذكر له انتصاره على الدراويش وانه بعث يطلب المدد من فرنسا بطريق الحبشة وطريق بحر الغزال وكان مع مرشان تسعة ضباط فرنساويون فيهم الكبتن جرمان و ١٢٠ عسكرياً من عبيد النيجر . فلما وصل السردار تجـاه فاشودة جاءه مرشان الى الوابور ومعه الكبتن جرمان فحياهما وهنأهما بالسلامة . ثم التفت الى الماجور مرشان وقال اني مأذون ان اصرح لك بأن وجود الفرنساويين في فاشودة وفي وادي النيل يعـد تعدياً صريحاً على حقوق مصر وبريطانيا العظمى واني بحسب الأوامر المعطاة لي أقيم الحجة على احتلالك فاشودة ورفعك الراية الفرنساوية في أملاك الحضرة الفخيمة الخديوية . فأجابه الماجور مرشان انما انا عسكري وليس لي إلا الطاعة . والامر الذي تلقيتـه من حكومتي باحتلال بحر الغزال وفاشودة صريح لا يقبل التأويل والآن قد أتممت الامر فلست أستطيع ان افعل شيئاً حتى تصدر لي أوامر جديدة . فقال السردار وانا مأمور من حكومتي ان أرفع الراية المصرية في فاشوة فهل انت مستعد بالنيابة عن الحكومة الفرنساوية ان تقاومني ثم قال والرجـاء ان لا تبدي الحكم النهائي قبل النظر ملياً في الامر .واذا قررت اخلاء فاشودة والنزول الى مصر عن طريق الخرطوم فاني اعطيك وابوراً من هـذه الوابورات تنزل فيه . فرفض مرشان بتاتاً اخلاء فاشودة قبل الوقوف على أوامر حكومته بهذا الشأن وقـال للسردار اني لا اضادك في رفع الراية المصرية على فاشودة بشرط ان تبقى الراية الفرنساوية في مكانها ثم قال وانا عالم بضعف قوتي بالنسبة الى قوتك ومع ذلـك فاذا أحرجتني وقررت انزال الراية الفرنساوية بالقوة فاني ادافع عنها الى ان أموت انا ورفاقي تحتها. فرضي السردار بترك الراية الفرنساوية في مكانها ورفع الراية

المصرية على ٥٠٠ ياردة منها في الطرف الجنوبي من الطابية القديمة المصرية ثم أطلق ٢٠ مدفعاً تحية لها ووضع عندها اورطة من العساكر السودانيـة و ٤ مدافع ووابور حربي بقيـادة الماجور جكسن وكان ذلك الساعة الاولى بعـد ظهر ذلك اليوم . ثم تقدم الى سُبت فبلغها بعد ظهر ٢٠ سبتمبر فأسس فيها طابية على شاطىء النهر الغربي عنـد التقائه بالنيل الابيض ورفع فوقها العلم المصري ووضع فيها نصف اورطة سودانية وأرسل بلوكاً من العساكر فاحتل الناصر وانقلب راجعاً الى ام درمان فوصلها في ٢٤ سبتمبر وعسكر بالجيش في خور شمبات .

زيارة الجنرال غرنفل لأم درمان : وقدم في هذا اليوم من مصر الجنرال غرنفل السردار السابق وقومندان جيش الاحتلال العام فمكث أياماً فشاهد محل الواقعة وتفقد الاحوال وعاد الى مصر .

اخلاء مرشان لفاشودة : وعرض السردار أمر مرشان تلغرافياً الى مصر فاعترضت الحكومة المصرية رسمياً بلسان بطرس باشا غالي ناظر خارجيتها على احتلال فرنسا لفاشودة وسألت الحكومة الانكليزية ان تساعدها على ذلك . فطلبت الحكومة الانكليزية من الحكومة الفرنساوية اخلاء فاشودة وجاهرت بأنه ليس لدولة اوروبية حق في أي جهة من جهات النيل . وكان مرشان قد ارسل الكبتن جرمان بتقريره الى فرنسا ثم جـاء بنفسه الى مصر لتلقي اوامر دولته فرأت دولته بعـد النظر ملياً في الأمر ان الحكمة والسداد يقضيان بإخلاء فاشودة فأصدرت امرها الى مرشان فرجع الى فاشودة وأخلاها في ١١ دسمبر سنة ١٨٩٨ وعاد الى فرنسا عن طريق سُبت والحبشة .

رجوع السردار الى مصر : وقام السردار وأركان حربه من أم درمان في ٣ اكتوبر سنة ١٨٩٨ فسافر بحراً الى الاتبرة ثم بسكة الحديد الى حلفا فبحراً الى اصوان فبسكة الحديد الى مصر فوصلنا مصر صباح ٦ اوكتوبر بعد سفر ٣ ايام بلياليها وهذه اول مرة وصل فيها المسافر من ام درمان الى مصر

بهذا الوقت القصير منذ قام العالم . ثم بنى جسراً (كوبري) على الاتبرة أقامه على ٨ ركائز وفتحه في ٢٦ اوغسطوس سنة ١٨٩٩ . وشرع في مد سكة الحديد الى الخرطوم فتمت في آخر يوم من سنة ١٨٩٩ فزادت المسافة قصراً وستقصر ايضاً بعد وصل سكة حديد اصوان بسكة حديد حلفا في المستقبل القريب ان شاء الله .

مكافأة السردار ومدير المخابرات : وقد دلت اعمال السردار في فتح الخرطوم وجميع الفترحات التي تقدمته على مقدرة فائقة في الاقتصاد المالي والادارة العسكرية كما دلت على براعة تامة في الفنون الحربية فكافأته حكومته بلقب لورد وخيرته باللقب الاضافي فاختار الخرطوم فسمي اللورد كتشنر أوف خرطوم .

وكان الكولونل ونجت مدير المخابرات العام يده اليمنى في هذه الفتوحات كلها فرقته حكومته في جيشها ومنحته نيشان القديسين ميخائيل وجورج مع لقب « سر » ورقي في الجيش المصري الى رتبة لواء مع لقب باشا وسمي ادجوتانت جنرال للجيش المصري وذلك في ١٨ ديسمبر سنة ١٨٩٨ .

احتلال القضارف في ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨ :

خروج احمد فضيل قاصداً ام درمان : تقدم ان الخليفة بعد احتلال الجيش لدنقلة أتى بأحمد فضيل من القضارف للاستعانة به على الجيش فلما اخذت الحكومة المصرية كسلا من التليان سنة ١٨٩٧ ظن انها ترسل جيشاً منها على القضارف فأخرج من جيش احمد فضيل رايتي فضل الحسنة وعبد الله حامد فضمها الى جيش محمود كما مر وأرجعه الى القضارف ليقف في وجه جيش كسلا. ثم كانت واقعة الاتبرة وزحف السردار على امدرمان ولم يتحرك جيش كسلا من مكانه فأمر احمد فضيل فأبقى في القضارف حامية مؤلفة من نحو ٣٠٠٠ مقاتل بقيادة سعدالله التعايشي ومعه النور عنقرة المشهور للوقوف في صدد جيش كسلا وسار هو بمعظم القوة أي بنحو ٤٠٠٠ مقاتل من السود

والعرب المسلحين بالبنادق الرمنتون طالباً امدرمان لانجاد الخليفة ولكنه ما وصل رفاعة على النيل الازرق حتى كانت واقعة امدرمان وأصبحت البلاد كلها بيد السردار .

واقعة القضارف : وكان السردار قبل سفره الى فاشودة قد علم بخروج احمد فضيل من القضارف فأرسل امراً الى بارسونز باشا بالزحف على القضارف وأوعز الى هنتر باشا بالذهاب بالوابورات في النيل الازرق لمراقبة حركات احمد فضيل ورفع الرايتين المصرية والانكليزية على سنار والرصيرص. فخرج بارسونز باشا من كسلا في ٧ سبتمبر ومعه ١٤٠١ من العساكر النظامية و ٢٨ ضابطاً مصرياً و ٨ ضباط انكليز ونحو ٨٥٠ من العربان المتحابة من الشكرية وبني عامر والهدندوة فاعترضه نهر الاتبرة في الطريق فصنع اطواقاً من الخشب وعبر بها النهر عند الفاشر وأما الجمال والخيل فقد عبرت النهر سباحة وسار عن يسار الاتبرة الى ان انتهى الى جزيرة المقطع في ١٨ سبتمبر . وكانت « دورية » الدراويش قد جاءت من القضارف لمراقبة حركاته فقتل منها ٣ وأسر ٧ . وسار قاصداً القضارف حتى أتى تلة مشرفة عليها في صباح ٢٢ سبتمبر فرأى الدراويش قد خرجوا اليه مصطفين للقتال فأشعل فيهم ناره ودارت رحى الحرب بين الفريقين فدامت الى الساعة العاشرة ونصف اذ انهزم الدراويش وتشتت شملهم . وتقدم بارسونز الى القضارف فخرج النور عنقرة بمدفعين و ١٥٠ رجلا وسلم له وكان بيده كتاب الأمان من ادارة مخابرات الجيش اذا خرج مسلماً عند مجيء الساعة فأراه الكتاب فأمنه ودخل القضارف عند الظهر .

رجوع احمد فضيل الى القضارف : أما هنتر باشا فانه عند صدور أمر السردار اليه بمراقبة احمد فضيل لم يكن عنده من الوابورات إلا وابور واحد فأرسله بقيادة الشريف الماجور تلبوت فالتقى بأحمد فضيل قرب ابي حراز فرماه بالقنابل وأبعده عن النيل ولم يمكنه من العبور الى الجزيرة فعسكر في

الصحراء على ٨ اميال من أبي حراز وهناك علم باحتلال جيش كسلا للقضارف فانقلب راجعاً الى القضارف وهاجمها في ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٩٨ هجمة صادقة من كل الجهات وكان جيش الحكومة قد تحصن في ثلاث طواب من بناء الدراويش فتلقاه بنار حامية وصد هجماته المتتابعة العنيفة المرة بعد المرة وردّه خائباً بخسارة ٥٠٠ رجل فقعد لحصار القضارف في جبل عصّار على ٨ اميال جنوبيها وأرسل « الدوريات » لقطع طريق الجيش الى كسلا . وفي اواسط اكتوبر سنة ١٨٩٨ التقت « دورية » من جيشه بنفر من العساكر يخفرون خزينة فيها ١٦٠٠ جنيه مرسلة من كسلا فانقضت على الخفراء وقتلت منهم وحملت الخزينة الى عصّار . وكان مع الخفراء امين افندي حداد مترجم اللواء بارسونز باشا فبذل الجهد في تخليص الخزينة فلم يفلح فنجا بنفسه .

احتلال سنار والرصيرص : وفي ١١ سبتمبر خرج هنتر باشا في النيل الازرق فأسس نقطة في سنار ونقطة في الرصيرص وقفل راجعاً الى ام درمان في ٢ اوكتوبر .

واقعة الرصيرص في ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٩٨ : وكان السردار قد عاد اليها من فاشودة في ٢٤ سبتمبر كما مر فلما علم برجوع احمد فضيل الى القضارف أرسل رندل باشا رئيس اركان حربه بجيش من العساكر في النيل الازرق لمطاردته والاتحاد مع جيش القضارف على سحقه . فلما وصل رندل الى ابي حراز ارسل سرية من جيشه الى القضارف بقيادة القائمقام كولنسن بك فسار بطريق القلعة أرانج ووصل القضارف في ٢٢ اوكتوبر سنة ١٨٩٨ .

فأخذ بارسونز إذ ذاك في الاستعداد للخروج على احمد فضيل في عصّار أما احمد فضيل فانه تيقن بعد وصول المدد الى القضارف انه لا يقوى على أخذها فأقرّ على تركها واللحوق بالخليفة فخرج من عصار في ظهر ٢٣ اوكتوبر قاصداً الرصيرص للعبور منها الى الجزيرة فهجره ابو بكر دود بنقة من امراء دارفور بنحو الف مقاتل وانضم الى بارسونز باشا فبقي معه نحو ٣٠٠٠ مقاتل

ما عدا النساء والأولاد فسار بهم الى شلال الرصيرص وشرع في اجتياز النيل الازرق الى الجزيرة فأتاه الميرالاي لويس بك قومندان حامية الرصيرص بنحو خمسمائة رجل من الاورطة العاشرة السودانية ومدفعين مكسيم وكان قد عبر بنحو نصف جيشه الى الجزيرة فأشعل النار في من بقي في البر الشرقي فرمى البعض بأنفسهم في النيل وثبت البعض فدافعوا مستقتلين حتى قتلوا ووقع الباقون اسرى . وفي اثناء ذلك كان احمد فضيل ورجاله الذين اجتازوا النيل معه الى البر الغربي قد اصطفوا على الشاطىء وفتحوا نيرانهم على العساكر حماية لاخوانهم في الشرق فقتلوا من العساكر وجرحوا فحوّل العساكر مدافع المكسيم عليهم فأسكتوهم وهزموهم .

القتلى والاسرى : وكانت خسارة الجيش ٢٨ قتيلاً و ١١٨ جريحاً وأما خسارة العدو فكانت ٥٠٠ قتيل ما عدا الذين غرقوا في النيل . وأسر الجيش نحو ٣٠٠٠ نفس من الرجال والنساء والاولاد وغنم شيئاً كثيراً من المواشي والحراب والسيوف . وكانت هذه الواقعة التي عرفت بواقعة الرصيرص في ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٩٨ . وفي اليوم التالي عاد الجيش الى الرصيرص وأما احمد فضيل فانه سار بمن بقي من رجاله الى النيل الابيض فالتقوا بوابور المتمة آتياً من فاشودة وكانوا قد تعبوا وجاعوا وسئموا عيشة القتال والفرار من مكان الى مكان فسلّم اكثرهم الى الوابور في ١٧ يناير سنة ١٨٩٩ واجتاز احمد فضيل النيل بمن بقي فانضم الى الخليفة عبد الله الذي كان لا يزال يتنقل في جبال النوبة كما سيجيء .

احتلال القلابات في ٧ ديسمبر سنة ١٨٩٨ :

وبقي بارسونز في القضارف الى ان جاءه الامر باحتلال القلابات فأرسل اليها الميرالاي كولنسن بك فاحتلها ورفع عليها العلم المصري والعلم البريطاني في ٧ ديسمبر سنة ١٨٩٨ . وكان الحبشة قد احتلوها قبله ورفعوا عليها علمهم بحجة ان مصر تركتها لهم سنة ١٨٨٥ فأخبر كولنسن حكومته بذلك

فدارات المفاوضات السياسية بين مصر والحبشة بهذا الشأن وانتهت برجوع الحبش عن القلابات وبقائها للسودان كما كانت في الاصل ثم فتحت فيها سوق وضربت العوائد على حاصلات السودان والحبشة فكان نصفها لحكومة السودان والنصف الآخر لحكومة النجاشي .

احتلال الجزيرة وسنار وفازوغلي سنة ١٨٩٨ :

وكان في الجزيرة احمد السني عاملا في ودمدني ومعه نحو ٨٠٠ مقاتل فسلم للماجور تلبوت في ١٥ سبتمبر عند مجيئه لمطاردة احمد فضيل كما مرّ . وكان فيها ايضاً صالح حمادو التعايشي محافظاً بثلاثمائة مقاتل ومعه الشيخ عبدالرحيم ابو دقل شيخ عربان الحمر فسلم الشيخ عبد الرحيم للشيخ الطاهر ود العبيد . وأما صالح حمادو فانه لم يسلم إلا بعد ان جال في الجزيرة ورأى عجزه عن الفرار فسلم في ١٥ ديسمبر سنة ١٨٩٨ .

تسليم الخليفة شريف في ١٥ نوفمبر سنة ١٨٩٨ : وتخلف الخليفة شريف واثنان من أولاد المهدي وهما الفاضل والبشرى عن الخليفة عبدالله عند جزيرة أبا فسلموا للبكباشي بليوت الذي ذهب من الدويم لاستقبالهم .

جبال الفونج : وكان على الفونج محمد سرور وهو من سلالة الهمج إلا انه لم يكن وارث الهمج وانما كان وارثهم ادريس رجب وقد حبسه الخليفة في ام درمان فأعطاه مدير المخابرات الامان وأرسله الى الجبال فحكمها باسم الحكومة .

وكان هنتر باشا قد احتل سنار والرصيرص في شهر سبتمبر سنة ٩٨ كما مر . فتقدمت عساكر الحكومة الى فازوغلي فاحتلتها وأسست نقطة في فامكة في ٢٢ يناير سنة ١٨٩٩ . وأما بني شنقول فانها بقيت بيد الحبشة كما تقدم الكلام .

احتلال بحر الغزال سنة ١٩٠٠ :

الفرنساويون في بحر الغزال : تقدم ان الدراويش أخلوا بحر الغزال في اوكتوبر سنة ١٨٨٦ فصارت الى أهلها وان فضل النبي اصيل غزاهم في أوائل سنة ١٨٩٣ فقتلوه . وفي ١٤ يوليو سنة ١٨٩٤ عقد الفرنساويون اتفاقاً مع حكومة الكونغو على ان تكون بلاد بحر الغزال ضمن دائرة نفوذهم وأسسوا نقطاً حربية في ديم الزبير وبحر العرب واورمبيك واياك ومشرع الريك وغيرها ثم تقدموا الى فاشودة فاحتلوها حتى تقرر خروجهم منها ومن بحر الغزال سنة ١٨٩٨ كما مر .

وكان السردار لما جاء الى سُبت أمر الماجور بيك بالذهاب الى مشرع الريك ورفع علم الحكومة عليها فخرج من سبت في ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٩٨ وسار حتى صار على بضعة أميال من مشرع الريك فمنعه السد عن مواصلة السير فرفع الراية المصرية هناك وعاد ثم فتح السد ولكن لم يتيسر للحكومة احتلال بحر الغزال إلا في أواخر سنة ١٩٠٠ فأرسل السردار الحالي اللواء سباركس باشا بسرية من العساكر فوصل مشرع الريك في ١٣ ديسمبر سنة ١٩٠٠ واحتل بلاد بحر الغزال فجعل عاصمتها واو .

وقائع خط الاستواء سنة ١٨٨٩ : ١٨٩٨ :

مرّ بنا ذكر وقائع خط الاستواء الى سنة ١٨٨٩ اذ كان عمر صالح اميراً على الرجاف من قبل الخليفة وفضل المولى مقيماً في ودلاي مع بقية جيش امين باشا . وفي سنة ١٨٩٢ ارسل الخليفة أبا قرجة عاملاً على الرجاف وجعل المختار من أقاربه رقيباً عليه وفي ايامه حضر البلجيك الى بحر الغزال وخط الاستواء وأسسوا نقطاً حربية فكتب المختار الى الخليفة يخبره بقدومهم الى خط الاستواء وانحراف ابي قرجة عن التعايشة . فأرسل الخليفة عربي دفع‌الله عاملاً على بحر الجبل فوصل الرجاف في ١٠ ربيع ثاني سنة ١٣١١ هـ ٢١

اوكتوبر سنة ١٨٩٣ بعد سفر شهرين و ١٢ يوماً وما أبطأ ان قبض على أبي قرجة وزجه في السجن .

وكان البلجيك قد أدخلوا فضل المولى وعساكره في خدمتهم على شروط معلومة بتاريخ١٩ اوكتوبر سنة ١٨٩٢ فصمم عربي دفع الله على طردهم جميعاً من البلاد فسار اولاً الى فضل المولى وكان مقيماً قرب ودلاي فقتله وشتت شمله وغنم ما كان معه من اسلحة وجبخانة وكتب وغيرها وأرسلها الى الخليفة . وكان قد طلب مدداً من الخليفة فأرسل اليه عمر صالح العامل الاسبق ومحمد حمدنا الله وبعض الأنصار في ثلاثة وابورات فخرجوا من ام درمان في أوائل سنة ١٣١٢ هـ فاعترضهم السد في الطريق ففتحوه بعد كل جهد ومشقة الى شامبي وبعثوا رسلا منها الى عربي دفع الله وكان قد استبطأهم وأتى الى بور يتنسّم أخبارهم فلقيه الرسل في بور فأخبروه بحبس السرية في شامبي وانها في أشد الضنك مما تقاسيه من العري والجوع والمرض فأتاهم بزاد وحاول فتح السد من شامبي فلم يفلح فأعاد الوابورات الى الخليفة وأتى بمن بقي من جماعة عمر صالح ومحمد حمدنا الله الى الرجاف . ثم جمع جيشه وهاجم البلجيك في نقطهم الغربية فأوقع فيهم ٣ وقعات كان النصر له فيها جميعها .

واقعة الرجاف في ١٤ فبراير سنة ١٨٩٧ : فجهز البلجيك سرية من العساكر بقيادة الموسيو شلتن ونزلوا على الرجاف يوم الاثنين في ١٥ فبراير سنة ١٨٩٧ فأوقعوا في عربي دفع‌الله واقعة عنيفة وطردوه من الرجاف واحتلوها مكانه وكانت خسارة البلجيك١٠٠ قتيل و١٦٠ جريحاً وأما خسارة الدراويش فكانت ٩٣ قتيلا وفيهم عمر صالح ومحمد حمدنا الله ومحمد الطريفي وعلي ود فايت والبدوي ود العريق .

وكان محمد عثمان ابو قرجة ومحمد خالد زقل واسماعيل شجر الخيري قد لجأوا الى البلجيك سنة ١٨٩٦ فلم يبقَ مع عربي سوى: ٤٠٠ رجل وكلهم من عامة الانصار وليس معهم سوى أسلحتهم وقليل من الجبخانة فانهزموا بهم الى بور وبعث بالخبر الى الخليفة ولكن كتبه لم تصل بلاد فاشودة حتى كان

السردار قد احتل ام درمان وسار في النيل الابيض فالتقى الرسول في الطريق وأخذ منه الكتب .

عربي دفع الله : أما عربي دفع الله فانه لما علم بقدوم الجيش وفرار الخليفة من ام درمان فرّ بجيشه الى شكا فأرسل السردار بعضاً من الباشبوزق لمطاردته ففر منهم الى بلاد فرتيت ثم انضمّ الى علي دينار في الفاشر .

زقل وابو قرجة واسماعيل شجر الخيري: أما زقل وابو قرجة واسماعيل شجر الخيري فانهم أتوا مع قافلة من التجار الى وداي واستجاروا بسلطانها فمات اسماعيل شجر الخيري هناك ولجأ زقل وابو قرجة الى علي دينار . ثم قيل ان زقل أغرى بعض الأمراء بقتل علي دينار فعلم به هذا فقتله وأما ابو قرجة فلا يزال عنده الى الآن .

حملة الكولونيل مارتر من اوغندة : وكانت الحكومة الانكليزية عند قيام السردار لفتح ام درمان أمرت الكولونيل مارتر والماجور مكدونلد من مقاطعة اوغندة فخرجا بسرية من العساكر لمقابلة حملة السردار ومساعدته على طرد الدراويش من وادي النيل . فلما أتى السردار الى سُبت في ٣٠ سبتمبر أرسل اليها كتاباً بما كان فكتب مارتر من الدفلاي بتاريخ ٢٩ سبتمبر سنة ٩٨ يقول انه اوصل قطع الوابور الى اللابوره وسيتقدم شمالاً الى ان يلتقي السردار . أما السردار فانه أمر الماجور بيك بعد ان عاد من سفرة بحر الغزال ففتح السد في بحر الجبل بعد معاناة مشاق جمة وأسس نقطة في منجالا شمالي اللادو جُعلت آخر حد السودان المصري الانكليزي . وأما القسم الجنوبي من خط الاستواء فألحق بأوغندة وأعطيت اللادو وما حولها لملك البلجيك على ان تعود للانكليز بعد وفاته .

الخليفة بعد واقعة ام درمان سنة ٩٨ : ١٨٩٩ :

لا تقطعن ذنب الافعى وترسلها   ان كنت شهماً فاتبع رأسها الذنبا

حملة الكولونيل كتشنر على الخليفة في ٢٢ يناير سنة ١٨٩٩ : تقدم ان الخليفة فرّ من واقعة ام درمان وسار جنوباً متخذاً طريق الصحراء واستمر على الفرار حتى وصل « ابا ركبة » فأقام فيها بأتباعه وكتب الى الختيم موسى الذي أبقاه محمود في حامية الأبيض فانضم اليـه بأنصاره وبعض العائلات التي أبقاها محمود في بارة. وكتب الى مشايخ النوبة وكردوفان للانضمام اليه ولكن قلّ من أجابه . وكتب الى احمد فضيل كتاباً هذه نصه بعد البسملة :

« وبعد فمن عبد ربه خليفة المهدي «عم» الخليفة عبدالله بن محمد خليفة الصديق الى المكرم احمد فضيل كان الله له وتولاه آمين . بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فنعلمك أيها الحبيب إنا عنك سائلون ولك بالخير والبركة داعون وما زلت ملحوظاً منا بعين الرضى ومزيد الاكرام لما انت عليه من القيام بأمر الدين وبذل الهمة فيه فجزاك الله عن ذلك خيراً وهداك سيراً وشكر مسعاك وحفظك وتولاك . ثم نعلمك ايها الحبيب اننا بحمد الله تعالى فيمن معنا من الانصار بخير وقد انحزنا عن الاعداء بعد حصول الحرب بيننا وبينهم الى جهة دار الجوامعة بنواحي المحل المسمى بالغبشة فنحن الآن به في أمن وأمان ومزيد اطمئنان وليس القصد من حضورنا في هذه الجهة المذكورة إلا التحيز عن الاعداء أخذاً بالحزم وإلا فليس القصد ان شاء الله تعالى إلا إعادة الكرة على الاعداء المخذولين ومحاربتهم حتى ينتصر الدين ان شاء الله تعالى ويهلك الكافرون . ثم ليكن بعلمك ايها الحبيب ان ما حصل للأعداء المخذولين فهو محض استدراج لهم واختبار وتمييز للمؤمنين من الله كما قال تعالى: « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مسّتهم البأساء والضرّاء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين معه متى نصر الله » ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم تكون الدولة عليهم في الاحيان والنبي ﷺ بين ظهرانيهم حتى انزل الله تعالى في ذلك «ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ان يمسسكم قرح فقد مسّ القوم قرح مثله وتلك الايام نداولها بين النـاس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين

وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين » فالعاقبة للمتقين بمقتضى وعد الله الذي لا يخلف فثقوا بوعد الله تعالى وأيقنوا بنصره ولا يهمنكم أمر الاعداء فانهم ان شاء الله تعالى أحقر شأناً من ان تهتموا بهم وأضعف كيداً وبعد هذا ان شاء الله تعالى لا تقوم لهم قائمة بل يكون الدين في نصر وتأييد وقواعد الاسلام في أعز تمهيد وجميع الاصحاب الذين معكم فليكونوا على يقين من هذا الأمر وثبات فؤاد في هذا الشأن وإعراض عن سماع اقوال المرجفين والاصغاء لما يلقيه الشيطان لأوليائه ليرديهم وليلبس عليهم دينهم فان لنا فيما حصل أسوة بأصحاب رسول الله ﷺ فذكّروا جميع الاصحاب الذين معكم بذلك وبلغوهم منا جزيل السلام فرداً فرداً أولاد عرب وجهادية وخصوصاً رؤوس المئات فأقروهم منا السلام واعلموا الجميع اننا على رضاء تام من جهتكم وانشراح صدر باذلين لهم الدعاء بالخير والبركة . ولانبهام احوالكم علينا قد حررنا لكم هذا الكتاب لكي بوصوله لديكم تفيدونا عن احوالكم تفصيلا وتعرّفونا بما انتم عليه وتعجلوا لنا بذلك لرفع المشغولية . ثم ليكن بعلمك أيها الحبيب اننا قد حررنا لك هذا ونحن في غاية الانشراح من جهتك والرضاء التام عليك كيف لا وأنت من أجلّ الايادي وأعظم الأعوان المعدودين للقيام بنصرة الدين فاحمد الله على ذلك واشكره والله يجزيك خيراً ويثيبك اجراً ويهديك سيراً » اه .

فأتى احمد فضيل بمن بقي معه من الانصار وانضم اليه في دار الجوامعة كما مر .

حملة الكولونل كتشنر على الخليفة سنة ١٨٩٩ : اما السردار فانه اقام جنداً في الكوة وجنداً في الدويم لحماية النيل . وفي ٢٢ ينـاير سنة ١٨٩٩ أرسل أخاه الكولونل كتشنر بحملة صغيرة للقبض على الخليفة فوصل ابا ركبة في ٢٦ منه فوجد الخليفة قد فرّ جنوباً ولم يكن هناك إلا نفر قليل من اتباعه فأسرهم وعاد بهم الى النيل .

حملة السردار على الخليفة سنة ١٨٩٩ : ثم جاءت الانباء ان الخليفة قد استقر في جبل قدير وقد اتعب اهل النوبة من عرب وعجم بالغزو والسلب والتعدي فجرّد عليه السردار جيشاً مؤلفاً من ٨٠٠٠ مقاتل وقصده من طريق كاكا فما وصل الجيش جبل فنقر على نحو ٥٠ ميلاً من كاكا و ٣٠ ميلاً من جبل قدير حتى فرّ الخليفة شمالاً فعاد السردار بجيشه الى ام درمان وترك بعض الجند بقيادة الميرالاي لويس بك يجولون في النيل في جهة الدويم ليرقبوا حركاته .

حملة السر رجينلد ونجت باشا على الخليفة سنة ١٨٩٩ :

وبعد قليل شاع ان الخليفة قادم لغزو ام درمان فجهز له السردار حملة صغيرة وولى عليها وكيله السر رجينلد ونجت باشا فقادها بما اشتهر به من البسالة والدربة والاقتدار وفاز بالغرض المطلوب فقتل الخليفة في جديد في ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٩٩ وأراح البلاد من شره ورفع بذلك تقريراً وافياً الى السردار بتاريخ ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٩٩ هذه ترجمته :

واقعة ابي عادل واحمد فضيل في ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٩٩ :

« بناء على أمركم لي بالخروج بسرية من الجيش على احمد فضيل والخليفة عبد الله في جهة « جديد » أتشرف بأن اعرض لسعادتكم اني خرجت من الفشاشوية (غربي أبا) في ٢١ نوفمبر الجاري الساعة ٤ بعد الظهر ومعي ٣٧٠٠ رجل من السواري والهجانة والبيادة والطوبجية فسرنا ٥ اميال الى الجنوب الغربي حتى كانت الساعة ٦ فاسترحنا الى الساعة ١٠ وكانت الليلة مقمرة فاستطردنا السير على ضوء القمر حتى صرنا على ١٥ ميلاً من أبا وكنا نسير والسواري في مقدمتنا على بعد ميلين منا والهجانة في الساقة والجناحين وقد رأى سوارينا عشرة فرسان من الدراويش فطردوهم ودلت الأنباء في الطريق ان احمد فضيل غزا العلّوب فغنم منها مقداراً كبيراً من الحبوب وانقلب راجعاً الى الخليفة وكان اذ ذاك في نفيسة على مقربة منا . فلما طلع فجر ٢٢

نوفمبر تركت حملة الجمال في محل حصين وسرت بالعساكر سيراً حربياً قاصداً احمد فضيل في نفيسة ولكن لم نسر إلا القليل حتى عاد السواري وأخبرونا ان نفيسة خالية من الدراويش فتقدمنا واحتللناها الساعة ٨ صباحاً فوجدنا فيها كمية كبيرة من الدرة ووجدنا رجلا مريضاً قد تخلف من جيش احمدفضيل فأخبرنا انه خرج من نفيسة الفجر قاصداً أبا عادل على ٥ اميال منا. فأرسلت اليوزباشي محمود افندي حسين مع بعض الفرسان لتحقيق الخبر فعاد بعد قليل مصدقاً له فخفت اني اذا تمهلت يستطرد احمد فضيل السير جنوباً ويفلت من يدنا فجرّدت عليه حملة بقيادة الكولونيل ماهون مؤلفة من السواري والهجانة والعساكر السودانية غير النظامية ومعهم اربعة مدافع مكسيم ومدفعا ميدان وأمرتهم ان يسرعوا في المسير اليه ويناوشوه الى ان أدركهم بباقي السرية فأتم الكولونيل ماهون الأمر بمهارة تامة ولما صار على ٣٠٠ يرد من ابي عادل أتى تلة تشرف على معسكر الدراويش فأشعل فيهم ناره . وكنت بعد خروج الكولونيل ماهون قد أرسلت باقي الطوبجية والمكسيم في أثره وسرت وراءهم بالبيادة سيراً حثيثاً فوصلت في الساعة المطلوبة وقد هاجم الدراويش مستقتلين وكانت حزون الارض التي بيننا وبينهم تحجبهم عنا حتى صاروا على ٦٠ يرداً منا ولكن نيران الطوبجية والمكسيم والهجانة الدائمة حصدتهم حصداً وردتهم على أعقابهم خاسرين . فتقدمت اذ ذاك بالسرية كلها الى معسكرهم في غابة كثيفة حول بركة ماء فخرجوا منه الى سهل يغطيه العشب فتعقبهم البيادة ميلاً ونصف ميل والسواري والهجانة ومدافع مكسيم خمسة اميال فقتلوا وأسروا وغنموا . وقد قدرت خسارة الدراويش بنحو ٤٠٠ قتيل وأما خسارتنا فكانت قتيلاً من العساكر وأربعة جرحى فيهم اليوزباشي مصطفى افندي شاهين .

واقعة جديد وقتل الخليفة عبد الله يوم الجمعة في ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٩٩ :

« وبعد الواقعة أصبح همنا محصوراً في معرفة مكان الخليفة فكانت أقوال

المخبرين فيها مضطربة وأقربها الى التصديق انه خرج من منهل الحمارة منذ ٣ ايام قاصداً منهل جديد وانه ارسل احمد فضيل ليوافيه بالحبوب الى هناك كلهم شمالاً لغزو ام درمان وعليه خرجنا من ابي عادل نصف الليل فوصلنا منهل جديد الساعة ١٠ من صباح ٢٣ نوفمبر فوجدناه خالياً ولكن لحسن الحظ وجدنا فيه بركة ماء صالحة للشرب ولولا هذه البركة لاضطررنا ان نرجع القهقرى . وكنت قد رجحت من أقوال الخبراء في ابي عادل ان مياه هذا المنهل غير صالحة للشرب فأرسلت بعض الجمال للاستقاء من النيل ووجدنا في جديد رجلا فاراً من الخليفة فأخبرنا انه معسكر بجيشه على نحو سبعة اميال الى الجنوب الشرقي من جديد فأرسلت اليوزباشي محمود افندي حسين بكتيبة من فرسان العرب المتحابة ليكشف لنا خبره ويعين مكانه فأتم الامر بالاقدام والبسالة كما في المرة الاولى وعاد فأخبر ان الخليفة معسكر في منهل ام دبريكات على بضعة أميال منا . وقد تبين لنا ان احتلالنا لمنهل جديد أوقع الخليفة في مركز حرج جداً لأنه لم يعد بسببنا قادراً على المسير شمالاً ولا يستطيع ان يتركنا وراءه ويرجع جنوباً بجموع من النساء والاولاد في قفر وعر لا ماء فيه وزد عليه انه كان في حاجة شديدة الى الحبوب التي أتى بها احمد فضيل واستولينا نحن عليها فلهذه الأسباب ترجح لنا انه يثبت حيث هو وكانت طريقنا في ارض شائكة وعرة مشتبكة الشجر حتى كنا في بعض المحال نفتحها بالفؤوس . ولما كانت الساعة ٣ من الصباح أخبرنا الكشافة ان الدراويش على ثلاثة اميال منا . وكان الكولونيل ماهون قد استكشف معسكرهم بنفسه وعين موقعه ووقف بالسواري والمكسيم الراكبة عند هضبة عالية على نحو ميلين منا . فانتظم العساكر انتظام الحرب وسرنا بحذر وهدوء حتى لم يكن يسمع لنا صوت وفيما نحن كذلك سمعنا اصوات النقاقير وبوقت الامباية تبويق الحرب ثم سكتت بغتة . وفي الساعة ٣ والدقيقة ٤٠ وصلنا الى الهضبة التي وقف السواري والمكسيم عندها فأبدلنا بكشافة السواري كشافة بيادة ومكثنا ننتظر بزوغ الفجر . فلما كانت الساعة ٥ والدقيقة ١٠

من الصباح وذلك عند اول طلوع الفجر رجع الكشافة البيادة الينا ورأينا صفوف الدراويش مقبلة نحونا من بعيد فاستعد العساكر على خط النار للقتال . وفي الساعة ٥ والدقيقة ١٥ بدأت المدافع والمكسيم باطلاق النار وتبعها البيادة فشرعوا كلهم في اطلاق النار دفعة واحدة وكان نور الفجر لا يزال ضعيفاً فلم نتمكن من مراقبة حركات الدراويش بالدقة ولكن رأينا من نيرانهم التي كانت تزداد من جهة الشمال انهم كانوا يتحركون نحو تلك الجهة بقصد مهاجمتنا من الوراء فأخذ عساكر الميمنة يتحركون رويداً الى الامام وعساكر الميسرة يعدون خط النار الى جهة الشمال حتى بقي الدراويش تجاهنا ولم يمكنهم ان يدوروا من خلفنا كما أرادوا . وكان كلما انقشع الظلام وأضاء نور النهار زادت حركات الدراويش وضوحاً حتى رأيناهم يهاجموننا زمراً وهم يضجّون بالتهليل والتكبير غير مبالين بالموت ولكن نيراننا التي كانت تنصب عليهم بلا انقطاع ردّت هجماتهم وأخمدت نيرانهم وهزمتهم الى معسكرهم فأخذنا نتقدم رويداً ونحن نتصيد من نراه منهزماً امامنا حتى كانت الساعة ٦ والدقيقة ٢٥ فأمرت بايقاف النار فأتانا كثيرون منهم مستأمنين فأمناهم . وما زلنا سائرين حتى أتينا معسكرهم فاذا هو في وسط غابة كثيفة على نحو ميل ونصف ميل من محل الواقعة وفيه الوف من النساء والاولاد وبعض الرجال فأتوا الينا مسلمين . واقتفى السواري والهجانة اثر الدراويش ولكنهم ما أبعدوا حتى علموا ان جميع الذين سلموا سلموا إلا بعض جهادية الختيم موسى فانهم حاربوا اولاً ثم سلموا .

القتلى والأسرى والغنائم : « وبعد انجلاء الواقعة وجدنا في ساحة القتال في طريق الاورطة التاسعة السودانية ثلة من القتلى في بقعة واحدة فسألنا الأسرى عنهم فقالوا انهم الخليفة عبدالله التعايشي والخليفة علي ودحلو واحمد فضيل والسنوسي احمد اخو الخليفة من امه وهارون محمد اخوه من جارية والصديق ابن المهدي ويعقوب ابو زينبة وحامد ود علي شقيق احمد ود علي وعبدالباقي عبدالوكيل وكلهم من التعايشة وبشير عجب الفيه أمير كنانة .

ورأينا وراءهم على مسافة قريبة منهم جثث خيولهم . وأخبرنا يونس الدكيم الذي وجد مختبئاً بين القتلى ان الخليفة عبد الله لما عجز عن الوصول الى الجيش أراد ان يدور حوله ولمـــا لم يفلح نزل عن جواده وأمر امراءه فنزلوا عن جيادهم ايضاً ثم افترش فروته وجلس عليها على عادة فرسان العرب في السودان فجلس الخليفة علي ودحلو عن يمينه وأحمد فضيل عن يساره وجلس باقي الامراء حوله حلقة وجعلوا حرسهم الخاص صفاً واحـــداً أمامهم على ٢٠ ياردا منهم ومكثوا ينتظرون الموت بجنان ثابت فلما رأيتهم على تلك الحالة أمرت اهلهم الذين وقعوا في الاسر فحفروا لهم حفرة في المكان الذي قتلوا فيـه ودفنوهم فيها امامي » .

(قلت وكان وتسن بك اول من رأى الخليفة مقتولاً في ساحة القتــــال فنزع عنه جبته وسيفه قبل دفنه وأتى بها الى مصر ورأيت الجبة فـاذا هي ملطخة بالدم ومخرقة بالرصاص وقد وجد في جيبها كيس صغير فيـــه صور التحارير التي ارسلها الى مشايخ البلاد بعد فراره من امدرمان يحثهم على الانضمام اليه . ورأيت السيف فاذا به سيف قديم مكتوب على جانب منه اسم صاحب السيف وهو الشيخ ناصر ابن الوزير المرحوم الشيخ محمد السلطان وعلى الوجـه الآخر : يا رب بهم وبآلهم عجل بالنصر وهب لي يا وهاب علمـــاً وحكمة وللرزق يا رزاق كن لي مسهلاً .

ومهما يكن من ظلم الخليفة واستبداده لا يسع الانسان إلا الاعجـــاب بالشهامة وثبات الجأش اللذين لاقى بها منيته . وقـد حدثني من شهد واقعـة احمد فضيل انه رأى رجلين ربطا يديهما معاً عند رسغيهما بوثاق وتعاهدا على أن يهجما معاً فينتصرا او يسيرا الى الجنة يداً بيد وهذا ما يعرف عندهم بعقد الطرف والى ذلك يشير شاعرهم بقوله :

يا اخوات البنات تعالوا أوصيكم   وأودعكم نبياً لا يخون فيكم
اعقدوا الطروف ما تجونا بقفيكم   الموت في الخلا وفي الحلة راجيكم

قال السير رجينلد ونجت : « ولما شاع خبر موت الخليفة سلم من لم يكن قـد سلم بعد فاجتمع عندنا من الاسرى نحو ٣٠٠٠ رجل و ٦٠٠٠ من النساء والاولاد بينهم ٢٩ امـــيراً من اكبر امراء المهدية وأهمهم عثمان شيخ الدين ابن الخليفة ويونس الدكيم والختيم موسى وفضل الحسنة واسماعيل أخو الامير محمود (فأرسل هؤلاء مع الامير محمود ومحمد الزين وغيرهما الى سجن رشيد ثم نقلوا الى سجن دمياط ولا يزالون فيه) .

« وكانت خسارتنا في هذه الواقعة (التي عرفت بواقعة جديـد) ٣ قتلى و ٢٣ جريحاً فيكون مجموع خسارتنا في الواقعتين ٦ قتلى فيهم ضابطان و ٢٧ جريحاً من العساكر . وأمـا خسارة الدراويش فقد قدرت بنحو ١٠٠٠ قتيل وجريح و ٩٤٠٠ اسير من الرجال والنساء والاولاد . « وغنم الجيش ٣٥ جملا و ٥٠ حماراً و ١٨٠ بقرة و ٣٠٠ رأس مـاعز ونحو ٢٠٠٠ بندقية و ٢٠٠٠ سيف وحربة و ٢٠٠ اردب غلة .

« وفي الختام أسرّ بأن أشهد بالبسالة والاقدام وثبات الجأش التي أظهرها العساكر في الواقعتين فان اهمية الاسراع في ضرب احمـد فضيل والاستطراد الى ضرب الخليفة اوجبا متابعة السير آناء الليل واطراف النهـــار في ارض وعرة بلا راحة او براحة لا تذكر . وقد قام العساكر بهذا الواجب ولم يبالوا بمـــا لقوه من المشاق والاخطار فانهم من الساعة ٤ بعد ظهر ٢١ نوفمبر الى الساعة ٧ من صباح ٢٤ من الشهر المذكور أي في مدة ٦٣ ساعة قطعوا مسافة ٥٧ ميلا وواقعوا العدو في واقعتين وخرجوا ظافرين . وما اظن قائداً يلقى من ضباطه وعساكره مساعدة حقيقية مخلصة كما لقيت من الضباط والعساكر الذين أسعدني الحظ بقيادتهم وأنا أصدق الترقيات التي جاءتني من القومندانات للضباط والصف ضباط والعساكر الذين امتازوا في الخدمة وأتشرف بأن أعرض اسماء الذين امتازوا في هاتين الواقعتين ... » اه .

ثم ذكر اسماء الضباط الانكليز والمصريين الذين امتازوا في الخدمة وكان في جمـــلة الضباط المصريين : البكباشي احمد افندي حافظ من الطوبجيـة .

والصاغ محمود افندي صادق من الهجانة . واليوزباشيون محمود افندي بهجت اركان حرب ومصطفى افندي شاهين من الهجانة وأحمد افندي عوني من الاورطة الثانية . وعبد الله افندي رومية من الاورطة التاسعة . وعبد الرحمن افندي رضى من الاورطة الثالثة عشرة . ومحمد افندي طلعت واسماعيل افندي كامل وحسن افندي عطية من الحملة فكوفئوا جميعاً .

وحضر هذه الواقعة من الملكية شاهين افندي جرجس وابراهيم افندي ديمتري وكلاهما من موظفي المخابرات فأظهرا فيها من الهمة والنجدة والاقدام ما أظهراه في الوقائع السالفة التي حضراها فسرّ السر رجينلد من سلوكهما وأوصى بترقيتهما فأنعم على شاهين افندي بالرتبة الثانية مع لقب بك ثم سمي سكرتير السردار العربي ولا يزال في هذه الوظيفة الى الآن . ومنح ابراهيم افندي النيشان المجيدي الرابع ثم سمي سكرتيراً لمفتش السودان العام ولا يزال .

وكان السردار قد وعد بجائزة ١٠ آلاف جنيه لمن يلقي القبض على الخليفة فوزعها على عساكر هذه التجريدة . وقد دلت اعمال السر رجينلد ونجت في هذه التجريدة على صفات عسكرية عالية كما دلت على همة بالغة الحد وحزم ودربة وإقدام فجاءت اجمل ختام لمآثره الحسان في استرجاع السودان وحملت دولته على ترقيته الى المركز الذي أعد نفسه اليه فما اشتهر حرب الترنسفال حتى ندب اللورد كتشنر اليها وسمي السر رجينلد ونجت باشا سرداراً على الجيش المصري وحاكماً عاماً على السودان وذلك في ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٩٩ وقد رقي في الجيش المصري الى رتبة فريق وفي الجيش الانكليزي الى رتبة ماجور جنرال محلي ثم رقي حديثاً الى رتبة ماجور جنرال وهو لم يتجاوز الثالثة والاربعين من العمر .

ولقد كانت واقعة جديد الضربة الاخيرة القاضية على الخليفة والمهدية وختام الوقائع التي انقذت السودان من بلاء شديد حاق به مدة ١٧ سنة متوالية فأهلك نحو ٣/٥ اهله وأراحت مصر من نفقات الحروب الباهظة

وأعادت اليها بلاداً واسعة الاطراف كثيرة الخيرات جزيلة النفع . وقد قدرت نفقات استرجاع السودان بنحو ٢٣٥٤٣٥٤ جنيهاً مصرياً منها ١١٨١٣٧٢ جنيهاً على سكة الحديد من حلفا الى الكرمة والى الخرطوم و ٢١٨٢٥ على التلغراف و ١٥٤٩٣٤ جنيهاً على الوابورات الحربية و ٩٩٦٢٢٣ جنيهاً نفقات عسكرية . مع ان نفقة الحملة الانكليزية وحدها كانت ١٥ مليون جنيه وأكثر .

قتل الخليفة شريف وابني المهدي في شكابة في ٢٧ اوغسطوس سنة ١٨٩٩ :

تقدم ان الخليفة شريفاً سلم للحكومة قرب جزيرة ابا في اواسط نوفمبر سنة ١٨٩٨ ومعه الفاضل والبشرى ابنا المهدي فأمنهم السردار وأرسلهم الى حلفا فبقوا فيها مدة ثم استأذنوا السردار فسكنوا في شكابة على ٤٠ ميلاً من سنار وهناك عاد الخليفة شريف الى قراءة راتب المهدي وشرع في جمع الناس بنية اللحوق بالخليفة عبد الله وذاع خبره في الجزيرة حتى وصل فرج افندي شحاده باشكاتب مديرية سنار فأبلغه سمث بك مفتشها فسار في ٢٦ اوغسطوس مع بلوك من الاورطة الـ ١٥ السودانية بقيادة البكباشي و. ب. واليوزباشي محمد افندي شفيق وجماعة من البوليس وأحاطوا بشكابة صباح اليوم التالي فقبضوا على الخليفة شريف والفاضل والبشري ابني المهدي وكانت شكابة مملوءة بالمقاتلة فحاولوا تخليصهم من الجنود عنوة وجرحوا ٣ منهم فأشعل العساكر فيهم النار فقتلوا منهم ١٧ رجلاً وأسروا ٥٥ وحوكم الخليفة شريف والفاضل والبشري ابنا المهدي في مجلس عسكري وقتي فأعدموا رمياً بالرصاص .

اسر عثمان دقنة في ١٨ يناير سنة ١٩٠٠ :

أما عثمان دقنة فانه لما رأى الجيش في جديد متغلباً على الخليفة أسلم نفسه للفرار شأنه في كل واقعة لم يظفر بها وكان اذا سئل في ذلك يقول : « اني أبذل كل ما في طاقتي قبل الحرب لجمع الانصار وحثهم على الجهاد وأقاتل

العدو بجنان ثابت وعزم وطيد حتى اذا ما ظفر بجيشي لجأت الى الفرار لا حباً بالفرار او خوفاً من الموت ولكن هرباً من الوقوع في أسر الكفرة فاني أريد أن اعيش لأقهرهم وأجمع رجالي مرة اخرى وأعود الى حربهم حتى اجد فيهم الفرصة » . أما الآن وقد فلّ جيش المهدية ولم يبق في السودان من ينصره فقد عوّل على الفرار الى الحجاز والاحتماء بمكة . فعبر النيل الابيض عند جزيرة ابا ثم النيل الازرق ثم الاتبرة عند أدارامه وأتى الى جبال ورّيبه فنزل عند الشيخ محمد علي عمر اور شيخ الجميلاب وأخبره بعزمه على الفرار الى الحجاز وسأله ان يساعده على اكتراء قارب له من احدى مين البحر الاحمر البعيدة عن المدن فرحب شيخ الجميلاب به ووعده بإجابة سؤاله وأضمر له السوء فأرسل سراً الى الحكومة بسواكن يخبرها بوجوده عنده فاستأذن حاكم سواكن السردار وأرسل البكباشي برجس مفتش المديرية بنفر من الجيش والبكباشي محمد بك احمد قومندان بوليس سواكن الى الشيخ محمد علي اور فدلهم على مخبأ عثمان فوجدوه تحت حجر من حجارة الجبل فقبضوا عليه ووجدوا معه جراباً فيه قليل من الدوم وكان لابساً جبة وعلى رأسه عمامة فوضعوه بالحديد وقفلوا راجعين الى سواكن وذلك في ١٨ ينـاير سنة ١٩٠٠ فوصلوا سواكن في ٢١ من الشهر المذكور بعد الظهر . ثم أتي به الى مصر القاهرة فرأيناه فيها بعد ظهر ٢٧ من الشهر المذكور وفي اليوم نفسه أرسل الى سجن رشيد فجعل مع أسرى الدراويش ثم نقل الاسرى الى دمياط فنقل معهم وهو لا يزال هناك الى اليوم . وقد حصل له في هذه الاثناء جذب ديني فأغمض عينيه ومنع نفسه عن الكلام والأكل فلا يأكل إلا اذا أمره قومندان السجن فيشرب فنجاناً من اللبن بلقمة من العيش ولكنه لا يتكلم مطلقاً ويقضي وقته كله نائماً .

بدعة علي عبدالكريم الدنقلاوي اوائل سنة ١٩٠٠ :

وفي اوائل سنة ١٩٠٠ ظهر رجل من اقارب محمد احمد المهدي يسمى

علي عبد الكريم (شقيق محمد عبد الكريم المشهور) فابتدع بدعة غريبة في الاسلام ادّعى فيها انه من يوم واقعة ام درمان انتهت اعمال « التكليف » ولم يعد احد مطالباً بما يفعل فمن كتبت له السعادة فقد سعد ومن كتب له الشقاء فقد شقي سواء فعل خيراً ام شراً وقد نهى انصاره عن الصلاة والصوم فغنى له بعض شعرائهم بقوله : جيت لنا بالخير بطلت لنا الصلاة « ام دنقير » وعلمهم ان يسلموا هكذا : الحمد لله فيجيبه الثاني : في رضاء الله . ولما بلغ أمره الحاكم العام عقد مجلساً من علماء الخرطوم وفقهائها للنظر في امره وهم السيد ندا قاضي ام درمان والطيب احمد هاشمي قاضي الخرطوم والاستاذ محمد شريف باشا نور الدايم والسيد محجوب المرغني والسيد المكي والشيخ محمد البدوي والشيخ مدثر ابراهيم والسيد اسماعيل الازهري فأصرّ على اعتقاده امامهم فظهر لهم ان في عقله خللا ونصحوا بنفيه هو واتباعه من الخرطوم فصدق الحاكم العام الحكم ونفاهم الى حلفا في ٤ مارس سنة ١٩٠٠ ولا يزالون فيها الى الآن .

احتلال كردوفان سنة ١٨٩٩ : ١٩٠٣ :

تعمير البلاد : وبعد قتل الخليفة عبد الله في جديد تحولت انظار الحاكم العام الى احتلال كردوفان فأرسل اليها الكولونيل ماهون بفرقة من الهجانة فاحتلها في ١٧ ديسمبر سنة ١٨٩٩ ونشر الحاكم العام الحالي منشوراً عاماً الى أهالي مديرية كردوفان المنتشرين في الجزيرة. وغيرها من بلاد السودان يدعوهم الى الرجوع الى بلادهم وقد ساعدهم على الانتقال اليها وأمدّهم التقاوي اللازمة لزرعها فعادوا اليها وشرعوا في تعميرها .

مهدي جبال تقلي وشنقه في ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٠٣ : وفي هذه الأثناء ظهر في جبال تقلي رجل ادعى المهدية والكرامات والشرف اسمه محمد الأمين فصدق به ملك تقلي وجماعة من اخلاط الناس واشتهر امره حتى بلغ الابيض في اول سبتمبر سنة ١٩٠٣ وكان مدير الابيض ماهون باشا في طريقه الى

الخرطوم ذاهباً بالاجازة وقد ناب عنه اوكنل بك وكان السردار والحاكم العام بالاجازة في بلاد الانكليز ونائبه في الخرطوم اللواء ناسون باشا فعند وصول ماهون باشا في ٦ سبتمبر الى الخرطوم حتم ناسون باشا بوجوب القبض على المدعي في الحال وتلافي الخطر في حينه فاستأذن السردار تلغرافياً فخرج الكولونيل ماهون من الخرطوم بكوكبة من الفرسان يرأسها البكباشي الباسل شحاتة افندي كامل في ٨ سبتمبر وسار بها سيراً حثيثاً بطريق فششوية وشركيلة وأبي ركبة فباغت المدعي وأشياعه سحراً وهم يصلون الصبح في ١٢ سبتمبر في حلة على ٣٥ ميلاً من ابي ركبة فأسرعوا الى حرابهم ولكنهم لما رأوا انهم محاطون من الجهات الاربع سلموا فشد ماهون باشا وثاقهم وساقهم الى الابيض وهناك حوكم المدعي بمجلس عسكري وشنق عصارى الاحد في ٢٧ سبتمبر . والرجل مربوع القامة اسود اللون غليظ الشفتين ذو عينين نجلاوين ولحية صغيرة وشعر اسود جعد وعمره ٤٥ سنة ولما جيء به الى المشنقة كان مرتدياً فوق اللباس العادي برنساً من الجوخ الأخضر النفيس بقبعة على الزي التونسي ولكنه برناوي الاصل في الارجح وكان رحالة يضرب في الآفاق فزار دمشق الشام وازمير ومراكش وغيرها من البلاد الشرقية وزار الابيض غير مرة فلقي من أعيانها اكراماً وحفاوة وذهب الى الحجاز لاداء فريضة الحج وعاد منها قريباً بطريق مصوع وكسلا وبقي الى ان ظهر في جبال تقلي.

دارفور والامير علي دينار سنة ١٨٩٨ الى الآن :

أما علي دينار فقد مرّ انه فرّ من واقعة ام درمان بنفر من اهله وأخصائه وفيهم الامير قمر الدين البرتاوي من امراء الارباع والفقيه امين الفلاتي وهو من رجال السلطان ابراهيم الذين اشتهروا بالصلاح والتقوى وسداد الرأي وقد كان عند الخليفة اميناً للجبخانة فسار بهم الى الترعة الخضراء وكان فيها قطيع من ابل الخليفة فأخذه وتقدم الى كجمر فأقام فيها ٨ ايام الى ان تكامل الفارون من اهل دارفور من عرب وسود وسار بهم الى الفاشر . وكان محمود قد ترك

فيها حامية مؤلفة من ٣٠٠ رجل بقيادة امبدي الرضي التعايشي وحامية في كبكبية مؤلفة من ٥٠ بندقية بقيادة سنين التاماوي فطرد علي دينار امبدي الرضي من الفاشر واحتلها مكانه وطرد سنين بعد وقائع جمة الى دار تامة . وكان قد لجأ الى السردار من جيش محمود سنة ١٨٩٧ رجل من سلالة سلاطين الفور يُدعى ابراهيم علي فأذن له السردار قبل الحملة على ام درمان ان يذهب الى دارفور ويجمع كلمة أهلها على طاعة الحكومة ولكنه لم يصل أم شنقة حتى كانت واقعة ام درمان وأتى علي دينار الى الفاشر وطرد امبدي الرضي كما مر فانضم الى ابراهيم علي في ام شنقة . وعدّ علي دينار دخول ابراهيم علي تعدياً على حقوقه بحجة انه احق منه بحكم دارفور فجرّد عليه جيشاً وغلبه فبعث ابراهيم علي يطلب المدد من السردار فكتب السردار كتاباً الى كل منهما يوفق بينهما الى ان يتسنى للجيش الذهاب الى دارفور لاحتلال البلاد . ورأى ابراهيم علي ان لا طاقة له على مناوأة علي دينار فرجع الى ام درمان وكتب علي دينار الى السردار بالطاعة وانه يحكم البلاد على جزية يدفعها لحكومة السودان ولا يزال يرسل الجزية كل سنة الى الآن . وقد أسس حكومته على مثال سلطنة اجداده وصنع ختماً للسلطنة كأختام اجداده هذه نقشه : السلطان علي دينار ابن السلطان زكريا ابن السلطان محمد الفضل ابن السلطان عبد الرحمن الرشيد ابن السلطان بكر سنة ١٣٠٠ هـ .

– انتهى –

وكان الفراغ من تأليف هذا الكتاب يوم ٢٧ اوكتوبر سنة ١٩٠٣ بعد اختبار نحو ٢٠ سنة في السودان وأهله . وقضاء جل ساعات الفراغ الثمينة مدة سبع سنين متوالية في جمع مواده وتمحيص حقائقه . وسنة ونصف سنة في تبيضه وطبعه . والحمد لله اولاً وآخراً .

ملحق

تعليقات :

صفحة	
٤٧	منها تمثال أسد نقله خورشيد باشا احد ولاة السودان السابقين الى مصر وتمثال أوسيرس احد آلهة المصريين القدماء مصنوع من الغرانيت الاسود نقله احد الالمانيين الى الكاملين وشاهده لبسيوس هناك سنة ١٨٤٤ (المؤلف) .
١٠٧	س ٧ من أسفل : أمير فور يقصد به أمير المسبعات وكان خميس من أمراء المسبعات وقد هرب الى سنار مع جماعة من الأتباع ولعب دوراً خطيراً في هذه الحرب وما بعدها من الحوادث ، ويظهر اسمه كثيراً في وثائق الارض . وقال الفور للمسبعات لأن هؤلاء أصلاً من الفور .
١٢٣	أشار الى زيارة السيد محمد عثمان المرغني الى سنار دون أن يشير الى زيارته إلى بلاد السودان الأخرى قبل سنار وبعدها لكلفه هنا بحوادث سنار وحدها .
١٢٨	ذكر أختام ملوك سنار وقال انها أكبر أختام ملوك السودان قاطبة وهذا خطأ لأن أختامهم كانت كبيرة بالنسبة إلى أختام أتباعهم بينما هي أقل حجماً عن أختام سلاطين الفور . وهذا ولم نجد العبارة التي قال انها كانت بأختامهم في أي من أختام الفونج . ويبدو ان مصدره هنا سماعي . راجع ذلك في كتابينا الفونج والأرض والفور والأرض .
١٣٥	في نهاية الصفحة : أوردنا في كتاب الفونج والأرض بعض المشيخات التابعة لسنار وبعض المشيخات التابعة للعبدلاب فليرجع اليه من طلب ذلك .

١٦١ س ٤ سلاطين الفور : لقب الرشيد وقف على السلطان عبد الرحمن وهو لا يرد في ختمه ولا في أختام غيره .

١٩٦ س ٦ بعد المالكي : يلاحظ هنا انه لم يرسل حنفياً ، والقصد من هؤلاء هو النظر في الأمور الدينية والقضائية للجنود وربما كان مـــا يذكره نعوم هنا مهمة إضافية . وظاهر انه لم يرسل حنفياً لأن الجند لم يكن بينهم حنفي .

٢٩٥ ان الجناب العالي استدعى أولاد السلطان ابراهيم الذين أتى بهم إلى مصر فوجدهم دون البلوغ فندب الأمير عبد الشكور بن الأمير عبد الرحمن ابن السلطان حسين وأنعم عليه بلقب باشا والنيشان المجيدي الاول وجعل له راتباً قدره ١٢٠ جنيهاً في الشهر ووجهه إلى الفاشر فما وصل دنقلة حتى قامت قيامة المهدي فرجع إلى أسيوط وسكن فيها الى اليوم (المؤلف) .

٣١٦ س ٣ قال ان الجعليين وأمثالهم ممن نكل بهـــم الدفتردار بعد مقتل اسماعيل باشا هبوا عندما جاءت المهدية للأخـذ بثأر آبائهم من فظائع الدفتردار . والحق ان الجعليين لم يلبوا نداء الثورة إلا في وقت متأخر . والقول أدناه ان الناس لم يكونوا متعودين على الضرائب خطأ إذ ان الناس كانوا يدفعون جملة من العوائد الى السلاطين ومن دونهم من الحكام وربما كان الصواب ان الضرائب كانت فادحة وانها كانت تطالب بعنف لم يعرف من قبل الترك .

٣١٩ س ٦ لا أرى أن الحكومة استخفت بشأن محمد أحمد ولكن الصواب انها أخفقت فيما اتخذت من إجراءات .

٣٢١ س ٦ من أسفل : على نسبه (*) لم يعل نسبه بعد المهدية إنمـــا كان هذا النسب معروفاً من قبله .

٣٢٣ س ١١ جبل أولي (*) هو ما يعرف الآن بجبل الأولياء ، وأصل الاسم ما ذكر نعوم .

٣٢٤ س ٩ فيها بحرفه (*) بدار الوثائق المركزية نص أطول لهذه القصيدة ولكنه فيما يبدو ليس بالنص الكامل .

٣٣٤ سطر أخير : تاريخ هذا الختم ١٢٩٢ .

٣٤٣ س ٩ وأرسل يوسف باشا كتاباً (*) ما زال هذا الكتاب مفقوداً ولكن المهدي يشير في خطابه إلى الشلالي الى أهم ما ورد فيه من المسائل .

٣٤٨ س ٣ من أسفل : ملجأ من العقاب (*) ليس صواباً أن المهدية أطلقت لتجار الرقيق الحرية لبيع الرقيق وشرائهم أو أنهـــا أوت اللصوص وقطاع الطرق .

٣٥٠ س ٦ فبقي فارغاً (*) هناك خلاف حول تعيين الخلفاء ، هـل كان في أبا أم في قدير . وخلافة خلفائه وخلفاء الرسول فكرة جاءت بعد سقوط الأبيض ، وكذلك الأمر بتخليف السنوسي راجع ذلك في كتابنا : الحركة الفكرية في المهدية وفي بحثنا : ولاية العهد في المهدية .

٣٥٠ راجع في أمر الرايات كتاب الجهاد في سبيل الله ص ١٣ – ١٤ .

٣٥٤ نقل كاملاً ما ورد في صفحة ١٣٦٠ – ١٣٦٥ عن ولاية عبد القادر باشا حلمي ... فكان من أمرها ما كان (المؤلف) .

٣٧١ س ٢ وغيرهم (*) لم نقف على كتاب من المهدى إلى سعيد باشا ورؤساء الجيش . ولكن المصادر تورد الخطاب الموجه إلى سكان الأبيض . ونحسب ان المهدى لم يخص سعيداً وضباطه بكتاب . راجع : المرشد الى وثائق المهدي .

٣٧٥ س ٩ كما تركوها (*) ورد في كتاب المهدي المذكور قوله : « فاتركوا جميع أولادكم وعائلتكم واخرجوا لملاقاتنا خارج البندر من غير سلاح وكونوا من جملة الأنصار فمن فعل ذلك فقد أحرز لنفسه ومـاله وعليه أمان الله ورسوله ويكون له ما ترك من الأموال والأولاد . »

فالمهدي يدعو بأن يخرج الرجال بغير المال والعوائل لملاقاته ونعوم يذكر انه دعاهم بالعوائل ، ثم ان المهدي يؤمن لهم المال والولد بعد النصر ونعوم يقول انه قال بأن الملائكة تحرس مالهم حتى النصر ولعل نعوماً اعتمد على مصدر سماعي وفاته أن يقرأ كتاب المهدي بدقة .

٣٨٥ س ١٨ على كتابه الاول (*) توهم نعوم هنا فظن ان خطاب المهدي الاول للسنوسي كان بعد إعلان المهدية يفرض الاستعانة به على نحو ما فعل في خطابه الثاني ، ولكن الصواب ان الكتاب الاول كان قبل المهدية ، وقد ذكر فيه انه سمع عنه خيراً وانه كان يود الالتحاق بـه بأعوانه لما بلغه من أنه متأهب لإحياء الدين . وهكذا بعد نعوم عـن الصواب في تاريخ الخطاب الاول ومضمونه .

٣٨٧ س ١ وبين التعايش (*) لا نظن أن سبب قتل الجنقاوي يرجع الى خلاف بينه وبين الخليفة عبدالله وإنما الصواب انه قتل لموقفه من المهدية ومن غريمه مادبو الذي كان مناصراً للمهدية .

٣٩٧ س ٩ اسم هذا الأمير هو عبد الصمد شرفي وليس عبدالله ود الصمد .

٤١٤ س ٨ أورمبك (*) يقصد بذلك رمبيك ، ويقصد بشروع الريك أعلاه مشروع الرق .

٤٢٤ س ٧ أتى بكتاب (*) لم نرَ كتاباً من المهدى خاصاً الى محمد توفيق بسنكات ولعل المقصود هنا نسخة من المناشير التي حملها عثمان دقنه لأهل الشرق .

٤٢٧ س ٨ السيد محمد المرغنى (*) المقصود هنا هو السيد محمد بن السيد محمد سر الختم المرغنى .

٥٧٤ س ٥ المهدية إلى النهاية (*) لم يقاوم السيد محمد عثمان المرغني المهدية الى النهاية لأنه توفى بالقاهرة بعد خروجه من كسلا بقليل (راجع ص ٩٠٩) ولكن الصواب ان عائلة المرغني قاومت المهدية الى النهاية . هناك شيوخ دين آخرون قاوموا المهدية غير ان مقاومة أسرة المرغنى كانت أهم وأقوى ، خصوصاً في شرق السودان .

٥٧٦ س ١٦ ولد ضاوى ، هو محمد ابراهيم ضاوي .

٦١١ س ١٨ ان يتمه فمات (*) طبع الخليفة أربعة أجزاء من المناشير وليس جزئين فقط كما طبع مطبوعات أخرى (راجع الحركة الفكرية في المهدية) وهذه الأجزاء تتضمن مختارات من المنشورات . والجزء الثاني وهو المشهور بكتاب الإنذارات يتضمن منشور المهدي الى السنوسي . وما يقوله عن كتاب المجلس ليس صواباً ، إذ لم يؤلف المهدى كتاباً ولا شرع في تأليف كتاب . أما المجلس فيقصد به المجالس وهي من وضع أنصاره بعد وفاته ، وقد ضمن فيها بعض ما روى من أقواله ، راجع في ذلك الحركة الفكرية في المهدية ومقدمة سعادة المستهدى بسيرة الإمام المهدي لاسماعيل الكردفاني .

٦٢٠ س ٤ عثرنا على مختصر لمنشور مجلس النظار بفتوى علماء مصر ولكننا لم نجد إلى الآن منشور السلطان عبد الحميد .

٦٢٨ س ١٠ قد أوضحنا ما (*) يستقيم المعنى لو قلنا : قد أوضحنا ان ما .

٨٢١ س ١ كما سيجيء في تاريخ الحبشة (*) يبدو من هذا ان نعوماً كان على نية تأليف كتاب في تاريخ الحبشة ولكننا لم نقف على مؤلف له بهـذا الاسم ولم نسمع خبره .

٨٦٢ س ١٦ يكتب على أختامهم (*) لم نرَ أحداً من سلاطين سنار وضع هذا البيت أو مثله في الختم ولعل ذلك أليق بأن يكتب في سيف .

٩٠٥ س ١٩ الصفراء (*) أخطأ نعوم هنا ، إذ في راية الخليفة شريف هي الراية الحمراء . أنظر أعـــلاه صفحة ٦٦٨ وانظر كتاب دولة المهدية لهولت جـ ٢ ص ١٢٠) أما الراية الصفراء فهي راية الخليفة الثالث ، وقد عرضت هذه الخلافة على محمد المهدى السنوسي ولكنه لم يرد . ولا يذكر نعوم الراية البيضاء وهي راية المهدى بينما تمثل الرايات الأربعة الزرقاء والحمراء والخضراء والصفراء رايات الأقطاب الأربعـــة أي الرفاعي والبدوي والجيلاني والدسوقي بالتوالي. والراية الصفراء كانت لمحمد عبدالله شقيق المهدي وقد اتبعت بعد موته للخليفة عبدالله .

٩٣٩ س ١١ في جزأين (*) بل هي في أربعة أجزاء كما قلنا .

٩٦٥ سطر أخير ١٣٠٠ (*) هذا خطأ ، وأغلب أختام علي دينار مؤرخة سنة ١٣١٦ . راجع كتابنا (الفور والأرض) .



الامير عبد الحميد

نجل السلطان ابراهيم سلطان دارفور الاخير